

مكتبة



شوشانا زوبوف

عصر رأسمالية المراقبة

النضال من أجل مستقبل إنساني
على الحدود الجديدة للسلطة

ترجمة: متيم الضايغ



٢٠٧٢



The Age of Surveillance Capitalism

The Fight for a Human Future at the New Frontier of Power

Shoshana Zuboff

مكتبة

t.me/soramnqraa

عصر رأسمالية المراقبة

النضال من أجل مستقبل إنساني على الحدود الجديدة للسلطة

شوشانا زوبوف

ترجمة: متيم الضايح



صفحة

الطبعة الأولى: 2025
التّرقيم الدّولي
978-603-8470-39-8
رقم الإيداع
1447/2991

الكتاب
عصر رأسمالية المراقبة
المؤلف
شوشانا زوبوف

Copyright © 2019 by Shoshana Zuboff



T3572

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع

E-mail: admin@page-7.com

Website: www.page-7.com

Tel.: (00966)583210696

العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

مكتبة
t.me/soramnqraa

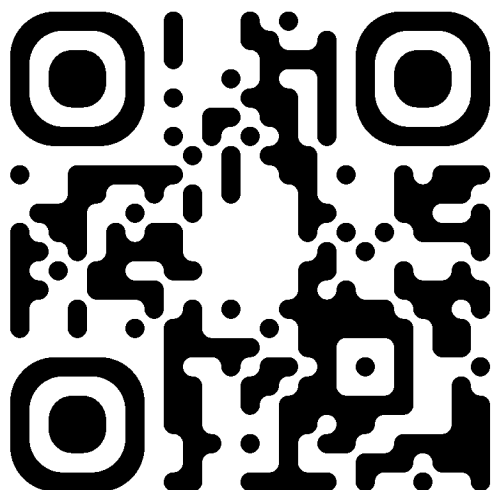
جميع آراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبّر عنه وحده وليست مسؤولية دار النّشر أو أيّ جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التّنظيميّة أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page7.com

المحتويات

7	تعريف رأسمالية المراقبة
9	الفصل الأول: وطن أو منفى في المستقبل الرقمي
37	الجزء الأول: أمس رأسمالية المراقبة
39	الفصل الثاني: تمهيد الطريق أمام رأسمالية المراقبة
91	الفصل الثالث: اكتشاف الفائض السلوكي
141	الفصل الرابع: خندق حول القلعة
187	الفصل الخامس: تطوّر رأسمالية المراقبة: الاختطاف، الاحتجاز، التنافس
261	الفصل السادس: مُحْتَطَفٌ: تقسيم التعلّم في المجتمع
289	الجزء الثاني: تطوّر رأسمالية المراقبة
291	الفصل السابع: العمل الواقعي
337	الفصل الثامن: التسليم: من التجربة إلى البيانات
371	الفصل التاسع: تسليم من الأعماق
429	الفصل العاشر: اجعلهم يرقصون
479	الفصل الحادي عشر: الحق في زمن المستقبل
505	الجزء الثالث: القوة الآلية للحدّات الثالثة
507	الفصل الثاني عشر: نوعان من القوة
541	الفصل الثالث عشر: الآخر الكبير وصعود القوة الآلية
569	الفصل الرابع عشر: طوباوية اليقين
591	الفصل الخامس عشر: المجموعة الآلية
629	الفصل السادس عشر: عن العيش في الخليّة
671	الفصل السابع عشر: الحقّ في الملاذ

695	 خاتمة
697	 الفصل الثامن عشر: انقلاب من الأعلى
739	 شكر وتقدير
745	 إشارات بكتاب "عصر رأسمالية المراقبة"



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

إهداء.....

أهدي هذا الكتاب للماضي والمستقبل:

لذكرى حبيبي جيم ماكسمين.

لذكرى صديقي الشجاع: فرانك شيرماخر.

أكتب إكرامًا لأولادي - كلوي صوفيا ماكسمين، وجاكوب رافائيل

ماكسمين - لتعزيز مستقبلكما، ولأجل قضية جيلكما الأخلاقية.

تعريف رأسمالية المراقبة

1. نظام اقتصادي جديد يدّعي أن التجربة الإنسانية أشبه بهادّة خام متاحة لممارسات تجارية خفية تتعلق باستخلاص المعلومات والتنبؤ بها وبيعها؛
2. منطق اقتصادي طفيلي يخضع فيه إنتاج السلع، وأداء الخدمات، لهندسة عالمية جديدة لتعديل السلوك؛
3. طفرة رأسمالية سيئة غير مسبوقة في تاريخ البشرية، تتسم بالتركيز على الثروة والمعرفة والسلطة؛
4. الإطار التأسيسي لاقتصاد المراقبة؛
5. تشكّل تهديدًا خطيرًا للطبيعة البشرية في القرن الحادي والعشرين، مثلما شكّلت الرأسمالية الصناعية تهديدًا خطيرًا للعالم الطبيعي في القرنين التاسع عشر والعشرين؛
6. هي أصل سلطة أدواتية جديدة تؤكد هيمنتها على المجتمع، وتطرح تحديات مذهلة أمام ديمقراطية السوق؛
7. حركة تهدف إلى فرض نظام اجتماعي جماعي جديد قائم على اليقين المطلق؛
8. مصادرة حقوق الإنسان الأساسية التي يمكن فهمها بأفضل شكل ممكن باعتبارها انقلابًا على الشعب: إطاحة بسيادة الشعب.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفصل الأول

وطن أو منفى في المستقبل الرقمي

رأيتُه ينوح بمرارة في بيت في جزيرة حورية البحر "كاليسو"، فهو سجين لديها، ولا يستطيع العودة إلى وطنه.

هوميروس، الأوديسة.

1. الأسئلة القديمة

"هل سنعمل جميعًا لدى آلة ذكية، أم سيكون لدينا أشخاص أذكاء حول الآلة؟" سؤال طرحه عليّ مدير معمل ورق شاب، عام 1981 بينما كان يتناول فطيرة الجوز بعد وجبة غداء سمك السلور المقلي، وذلك في ليلتي الأولى في بلدة جنوبية صغيرة كانت موطنًا لمصنعه الضخم، وأصبحت موطني لفترات متقطعة على مدى السنوات الست التالية. فاضت كلماته في دماغي، في تلك الليلة الممطرة، وطغت على صوت قطرات المطر المنهمرة على المظلة فوق منضدتنا. استعادت ذاكرتي أقدم الأسئلة السياسية: وطن أم منفى؟ قائد أم تابع؟ سيد أم عبد؟ لا يمكن حسم هذه المواضيع الأبدية المرتبطة بالمعرفة والسلطة والقوة حسمًا نهائيًا. لا نهاية للتاريخ؛ وعلى كل جيل أن يُثبت إرادته ومخيلته لأن التهديدات الجديدة تتطلب منا إعادة النظر في القضية في كل عصر.

ربما طفح صوت مدير المصنع بالإلحاح والإحباط لعدم وجود شخص آخر ليسأله: "ماذا سيحدث؟ أي طريق يُفترض بنا أن نسلك؟ لا بدّ أن أعرف الآن. لا وقت لدي". وأنا أردتُ إجابات أيضًا، هكذا بدأت المشروع الذي أصبح قبل ثلاثين عامًا كتابي الأول بعنوان: *في عصر الآلة الذكية: مستقبل العمل والطاقة* (In the Age of the Smart Machine). ثم تبين أن هذا العمل يشكّل فصلًا افتتاحيًا فيما أصبح

مهمة مستمرة للإجابة على سؤال محدد: "هل يمكن للمستقبل الرقمي أن يكون وطنًا لنا؟"

سنوات طويلة مرّت على تلك الأمسية الجنوبية الدافئة، لكن الأسئلة القديمة عادت بقوة. يكتسح العالم الرقمي كل ما هو معروف، ويُعيد تعريفه حتى قبل أن تُتاح لنا فرصة التأمل واتخاذ القرار. ونحن نحتمي بالعالم المترابط بشبكات الإنترنت لأنه يُثري قدراتنا وآفاقنا، لكنه يولد آفاقًا جديدةً من القلق والخطر والعنف مع تلاشي الشعور بمستقبل يمكن التنبؤ به.

إذا طرحنا الأسئلة القديمة اليوم، يتعيّن على مليارات البشر من مختلف الأجيال والمجتمعات والطبقات الاجتماعية الإجابة عليها. تنتشر تكنولوجيا المعلومات والاتصالات اليوم أكثر من الكهرباء، وتصل إلى ثلاثة مليارات من سكان العالم البالغ عددهم سبعة مليارات نسمة.⁽¹⁾ ولم يعد تشابك معضلات المعرفة والسلطة والقوة حكرًا على أماكن العمل كما كانت في ثمانينيات القرن الماضي، بل تعمّقت جذورها الآن في ضروريات الحياة اليومية، وتغلّغت في كل شكل من أشكال المشاركة الاجتماعية تقريبًا.⁽²⁾

(1) مارتين هيلبرت، "عدم المساواة في المعلومات التكنولوجية كهدف متحرك باستمرار: إعادة توزيع قدرات المعلومات والاتصالات بين عامي 1986 و2010"، مجلة الجمعية الأمريكية لعلوم المعلومات والتكنولوجيا، العدد 4 (2013).

(2) بحلول عام 2014، أي بعد ما يقارب عشرين عامًا من اختراع شبكة الإنترنت العالمية، أظهر استطلاع رأي شامل أجراه مركز بيو للأبحاث أن 87% من الأمريكيين يستخدمون الإنترنت. وقال 76% منهم إنه "أمر جيد للمجتمع"، و90% منهم إنه "أمر جيد لي". في الواقع، يتصل الناس برقم الطوارئ 911 بانتظام عند تعطل فيسبوك. بعد أقل من عقدين من إطلاق متصفح موزاييك للجمهور، الذي أتاح سهولة الوصول إلى شبكة الإنترنت العالمية، وجد استطلاع رأي أجرته هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) عام 2010 أن 79% من الناس في ستة وعشرين دولة يعتبرون الوصول إلى الإنترنت حقًا أساسيًا من حقوق الإنسان. بعد ست سنوات، اعتمدت الأمم المتحدة نصًا محددًا بشأن الوصول إلى الإنترنت: "لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير؛ ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون تدخل، والبحث عن المعلومات والأفكار وتلقاها ونقلها عبر أي وسيلة، دون الاهتمام بالحدود". انظر سوزانا فوكس ولي ريني، "الإنترنت في عامه الخامس والعشرين في الولايات المتحدة"، مركز بيو للأبحاث، 27 فبراير 2014. "مكالمات الطوارئ 911 بشأن انقطاع خدمة فيسبوك تُغضب مسؤولي شرطة مقاطعة لوس أنجلوس"، صحيفة لوس أنجلوس تايمز، 1 أغسطس/ آب 2014؛ "الوصول إلى الإنترنت حق من حقوق الإنسان"، بي بي سي نيوز، 8 مارس/ آذار 2010؛ "تعزيز حقوق الإنسان وحمايتها والتمتع بها على الإنترنت"، مجلس حقوق الإنسان

قبل فترة قصيرة، بدا أن من المنطقي أن نركّز اهتمامنا على تحديات بيئة العمل المعلوماتية أو مجتمع المعلومات. لكن علينا الآن معالجة الأسئلة القديمة في إطارها الأوسع الذي يمكن تعريفه بأفضل صيغة ممكنة باعتباره 'الحضارة'، أو بمزيد من الدقة، حضارة المعلومات. فهل ستكون هذه الحضارة الناشئة موقعًا يمكننا أن نسميه وطنًا؟

تتعرّف المخلوقات جميعها على مواطنها. فهذه نقطة البداية التي يحدد كل نوع اتجاهه منها. فلا سبيل لنا للإبحار في أرض مجهولة دون معرفة وجهتنا؛ وسنضيع من دونها. أتذكر هذا كل ربيع عندما يعود زوج طيور الغمّاس ذاته من رحلته البعيدة إلى الخليج أسفل نافذتنا. صيحات عودته المزعجة، وصرخات التجديد والتواصل والأمان، تُهدئنا ليلاً، مع شعورنا بأننا أيضًا في مكاننا. تفقس بيوض السلاحف الخضراء وتتجه إلى البحر، ثم تقطع آلاف الأميال، أحيانًا لعشر سنوات أو عشرين. وعندما تصبح جاهزة لوضع بيضها، تعود أدراجها إلى بقعة الشاطئ ذاتها التي ولدت فيها. تطير بعض الطيور آلاف الأميال سنويًا، وتفقد نصف وزنها تقريبًا، لتعود إلى موطنها وتزاوج. الطيور، النحل، الفراشات... الأعشاش، الجحور، الأشجار، البحيرات، خلايا النحل، التلال، الشواطئ، والوديان... تشترك هذه الكائنات الحية كلها تقريبًا بجزء من هذا التعلّق الشديد بمكان ازدهرت فيه الحياة، ذلك المكان الذي نسميه وطنًا.

من طبيعة التعلّق البشري أن تُطلق كل رحلة أو حالة نفي شرارة البحث عن الوطن. وتشكّل فكرة 'النوستوس' (nostos) الملحمية اليونانية الأصل، والتي تعني إيجاد الوطن، أعمق احتياجاتنا، وهذا يتضح من الثمن الذي نكون على استعداد لأن ندفعه لقاء ذلك. ثمة شوقٌ يشترك به الناس جميعًا للعودة إلى المكان الذي رحلوا عنه، أو لإيجاد وطن تستقرّ فيه آمالهم المستقبلية وتزدهر. ما زلنا نروي معاناة أوديسيوس، ونذكر ما يمكن أن نتحمّله بُغية الوصول إلى شاطئنا، ودخول بواباتنا.

لأن أدمغتنا تفوق أدمغة الطيور والسلاحف البحرية حجمًا، فنحن نعلم أنه ليس بالإمكان دومًا، أو حتى ليس مرغوبًا دومًا، العودة إلى بقعة الأرض ذاتها. فليس بالضرورة أن يكون الوطن مسكنًا أو مكانًا معينًا. نحن نستطيع أن نختار شكله وموقعه، لكننا لا نستطيع أن نختار معناه. فالوطن هو المكان الذي نعرفه ونكون معروفين فيه، حيث نُحِبُّ ونُحَبَّب. الوطن هو السيادة والصوت، والعلاقة والملاذ: جزء منه حرية، وجزء ازدهار... وجزء ملاذ، وجزء أفق وإمكانية.

يُثير شعورُ الرحيل عن الوطن حنينًا لا يُطاق. ويُطلقُ البرتغاليون على هذا الشعور اسمَ 'سوداد' (saudade)، وهي كلمة تعني الحنين إلى الوطن، والشوق الناتج عن الانفصال عنه، لدى المهاجرين عبرَ القرون. لكن اضطرابات القرن الحادي والعشرين الآن حوّلت هذه المخاوفَ والشوقَ المُرهِقَيْنَ إلى قصةٍ عالميةٍ تُحيطُ بكلِّ واحدٍ منا.⁽³⁾

2. قدّاس لذكرى الوطن

في عام 2000، تعاون عدد من المهندسين وعلماء الحاسوب في معهد جورجيا التقني في مشروع يُسمى "المنزل الذكي" (Aware Home).⁽⁴⁾ كان يُفترض أن يكون هذا المشروع 'مختبرًا حيًا' لدراسة 'الحوسبة الشاملة'. فقد تخيلوا أن تنشأ حالة "تعايش بين الإنسان والمنزل"، حيث تلتقط شبكات معقّدة من "أجهزة الاستشعار" المُدمجة في المنزل، وأجهزة حاسوب مثبتة على ساكنيه، العديدَ من العمليات الحركية والساکنة لهم. وتطلّب التصميم 'تعاونًا لاسلكيًا مؤتمتًا' بين المنصّة التي تستضيف المعلومات الشخصية من الأجهزة القابلة للارتداء، ومنصّة أخرى تستضيف المعلومات البيئية من أجهزة الاستشعار.

كان هناك ثلاث فرضيات عملية: **أولًا**، أدرك العلماء والمهندسون أن أنظمة

(3) جواو ليل، صناعة السوداد: الهوية الوطنية والسيكولوجيا الإثنية في البرتغال (أمستردام: هيت سبينويس، 2000).

(4) كوري د. كيد وآخرون، "المنزل الذكي: مختبر حي لأبحاث الحوسبة الشاملة"، في وقائع ورشة العمل الدولية الثانية حول المباني التعاونية ودمج المعلومات والتنظيم والهندسة المعمارية، كوبلند 99 (لندن: سبرينغر فيرلاج، 1999)، 191-198.

البيانات الجديدة ستُنتج مجالاً معرفياً جديداً كلياً. **ثانياً**، افترضوا أن حقوق هذه المعرفة الجديدة، والقدرة على استخدامها لتحسين حياة الفرد، ستكون حصرية لسكان المنزل. **ثالثاً**، افترض الفريق أنه على الرغم من السحر الرقمي للمنزل الذكي، فسوف يحتل مكانة مميزة بصفته تجسيدا حديثاً للأعراف القديمة التي تفهم "المنزل" باعتباره ملاذاً خاصاً لمن يسكن ما بين جدارنه.

أخذت الخطة الهندسية هذه الأمور كلها بعين الاعتبار. إذ أكدت على الثقة والبساطة وسيادة الفرد، وحرمة المنزل كمساحة خاصة. وصُمم نظام معلومات المنزل الذكي ليكون بمنزلة "حلقة مغلقة" بسيطة بعقدتين فقط، يتحكم فيهما سكان المنزل بشكل كامل. ونظراً لأن المنزل "سراقب باستمرار أماكن وجود ساكنيه وأنشطتهم... وسيتتبع الحالة الطبية لهم أيضاً"، خلص الفريق إلى أن هناك حاجة ملحة إلى إطلاع شاغليه على هذه المعلومات، وإمكانية التحكم في توزيعها. كان من المقرر تخزين جميع المعلومات على أجهزة الحاسوب المثبتة على شاغلي المنزل "لضمان خصوصية معلوماتهم".

بحلول عام 2018، قُدّرت قيمة سوق 'المنازل الذكية' العالمية بـ 36 مليار دولار، ويتوقع أن تصل إلى 151 مليار دولار بحلول عام 2023.⁽⁵⁾ تنذر هذه الأرقام بوجود زلزال تحت السطح. لنأخذ جهازاً واحداً فقط من أجهزة المنزل الذكي: منظّم الحرارة "نيسـت" (Nest)، الذي صمّمته شركة تعود ملكيتها لشركة "ألفايت"، شركة غوغل القابضة التي اندمجت معها عام 2018.⁽⁶⁾ ينفذ منظّم الحرارة "نيسـت" أشياء كثيرة تم تصوّرها في "المنزل الذكي". فهو يجمع بيانات عن استخداماته وبيئته. ويستخدم مستشعرات الحركة والحوسبة 'لتعلّم' سلوكيات سكان المنزل. كما يمكن لتطبيقاته جمع البيانات من منتجات متصلة أخرى، مثل السيارات والأفران وأجهزة

(5) "سوق المنازل الذكية العالمية 2018، مع تطوّر التكنولوجيا، والتوقعات والتقديرات، والمنافسين، وهيكـل التكلفة، والشركات الرئيسية، والتوقعات حتى عام 2023"، رويرتز، 19 فبراير 2018.

(6) رون أماديو، "انتهت شركة "نيسـت" بصفتها شركة مستقلة تابعة لشركة ألفايت، واندمجت مع "غوغل"، مجلة "آرس تكنيكال"، 7 فبراير/ شباط، 2018؛ ليو كيليون، 'اندماج شركتي غوغل ونيسـت، يُثير قضايا الخصوصية'، بي بي سي نيوز، 8 فبراير/ شباط، 2018.

تتبع اللياقة البدنية والأسرة⁽⁷⁾. تستطيع هذه الأنظمة مثلاً تشغيل الأضواء عند رصد حركة غير طبيعية، وإرسال إشارات صوتية ومرئية، وإرسال إشعارات أيضاً لأصحاب المنازل أو غيرهم. ونتيجةً للاندماج مع غوغل، سيُبنى منظّم الحرارة، كغيره من منتجات "نيس" ، باستخدام قدرات الذكاء الاصطناعي لدى غوغل، بما في ذلك "مساعد" الرقمي الشخصي⁽⁸⁾. وكما هو الحال مع المنزل الذكي، يكونُ جهاز تنظيم الحرارة، والأجهزة المشابهة له، مخازن معلومات ومعرفة هائلة، وبالتالي قوة جديدة - ولكن لمن؟

تنتقل البيانات المعقدة والشخصية لجهاز تنظيم الحرارة إلى خوادم شركة غوغل بفضل اتصالها بشبكة "واي فاي". ويكون لكل جهاز "سياسة خصوصية"، و"اتفاقية شروط خدمة"، و"اتفاقية ترخيص المستخدم النهائي". وهذا يكشف عن وجود نتائج قمعية في موضوع الخصوصية والأمن، حيث تتم مشاركة المعلومات الشخصية والمنزلية الحساسة مع أجهزة ذكية أخرى، وأشخاص مجهولين، وطرف ثالث لأغراض التحليلات التنبؤية وتحقيق المبيعات لأطراف أخرى غير محددة. ولا تتحمل شركة "نيس" مسؤولية تذكر على أمن المعلومات التي تجمعها، ولا تتحمل أية مسؤولية عن كيفية استخدام الشركات الأخرى الموجودة في نظامها البيئي لهذه البيانات⁽⁹⁾. وخلص تحليل مفصل لسياسات شركة "نيس"، أجراه عالمان من جامعة لندن إلى أن الدخول في نظام "نيس" البيئي والتطبيقات المتصلة به، وكلّ منها بشروطه المرهقة والجريئة على حد سواء، يؤدّي إلى أن شراء منظّم حرارة منزلي واحد يتطلّب مراجعة ما يقرب من ألف عقد⁽¹⁰⁾.

(7) كيليون، "اندماج غوغل ونيس" يثير قضايا الخصوصية".

(8) ريك أوسترو ومروان فواز، "تتعاون نيس مع فريق الأجهزة في غوغل"، غوغل، 7 فبراير/ شباط، عام 2018.

(9) غرانت هيرنانديز، وأورلاندو أرياس، ودانيال بوينتيلو، وبيير جين، "منظّم الحرارة الذكي: جاسوس ذكي في منزلك"، بلاك هات الولايات المتحدة الأمريكية، 2014.

(10) جويدو نوتو لا ديبغا، "التعاقد على الأشياء المترابطة في شبكة الإنترنت: نظرة إلى شركة "نيس" (بحث في كلية الحقوق بجامعة كوين ماري في لندن، 2016)؛ روبن كار ومارغريت رادين، "تحليل العقد الزائف والمعنى المشترك" (بحث في الدراسات القانونية، كلية الحقوق بجامعة إلينوي، 16 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017).

تشير شروط شركة "نيس" أنه إذا رفض الزبون الموافقة على الشروط، فمن المحتمل أن تتعرض وظائف وظائف منظم الحرارة وأمانه لخطر شديد، وعدم دعمه بالتحديثات اللازمة لضمان موثوقيته وسلامته. وتتراوح نتائج الرفض بين تجمّد الأنابيب، وتعطّل أجهزة إنذار الدخان، وسهولة اختراق نظام المنزل الداخلي.⁽¹¹⁾

ذهبت فرضيات المنزل الذكي أدراج الرياح مع حلول عام 2018. إلى أين مضت؟ أية ربح كانت تلك؟ كان المنزل الذكي، كغيره من المشاريع الرئويّة، يتخيّل مستقبلًا رقميًا يمكن فيه للأفراد عيش حياة أكثر فاعلية. والأهم من ذلك أنه في عام 2000، تولّت هذه الرؤية التزامًا راسخًا بخصوصية التجربة الفردية. إذا اختار الفرد تقديم تجربته رقميًا، فسوف يتمتّع بحقوق حصريّة في المعرفة المكتسبة من هذه البيانات، بالإضافة إلى حقوق حصريّة في تحديد كيفية استخدامها. واليوم، ثمة مشروع سوقي جريء مدعوم بمطالبات أحادية الجانب بتجارب الآخرين، والمعرفة التي تنبع منها، يقوم باغتصاب هذه الحقوق في الخصوصية والمعرفة والتطبيق. ما الذي يعنيه هذا التحوّل العميق اللافت لنا ولأطفالنا وديمقراطياتنا، وإمكانية مستقبل بشري في عالم رقمي؟ يهدف هذا الكتاب إلى الإجابة عن هذه الأسئلة. ويتعلّق برّدّي الحلم الرقمي، وتحوّله السريع إلى مشروع تجاري شره وجديد تمامًا، أسميه رأسمالية المراقبة.

3. ما هي رأسمالية المراقبة؟

تزعّم رأسمالية المراقبة، من جانب واحد، أن التجربة البشرية مادة خام مجانية يمكن تحويلها إلى بيانات سلوكية. وعلى الرغم من استخدام بعض هذه البيانات لتحسين المنتجات أو الخدمات، يُعلن عن الباقي كفائض سلوكي⁽¹²⁾ يغذّي عمليات تصنيع متقدمة تُعرف باسم "الذكاء الآلي"، ويُركّب في منتجات تنبؤية تتوقّع ما ستفعله الآن، وفي المدى القريب، ولاحقًا. وأخيرًا، تُتداول هذه المنتجات التنبؤية في نوع جديد من

(11) هرنانديز، أرباس، بوينتيلو، وجين، "منظم الحرارة الذكي".

(12) الفائض السلوكي هي البيانات المتعلقة بسلوك المستخدم، ويمكن الاستفادة منها لتحقيق منفعة تجارية معينة (المترجم).

أسواق التنبؤات السلوكية، أطلقت عليها اسم أسواق مستقبل السلوك. وقد حصّد رأسماليو المراقبة ثروات طائلة من عمليات التداول هذه، إذ تحرّص العديد من الشركات على المراهنة على سلوكنا المستقبلي.

سنرى في الفصول القادمة أن الديناميكيات التنافسية لهذه الأسواق الجديدة دفعت رأسماليي المراقبة إلى الاستحواذ على مصادر أكثر قدرة على التنبؤ بالفائض السلوكي: أصواتنا، وشخصياتنا، وعواطفنا. وأخيرًا، اكتشف رأسماليو المراقبة أن البيانات السلوكية، المفيدة في التنبؤ، تأتي من التدخّل والتلاعب بهدف دفع السلوك وتملّقه وضبطه وتوجيهه نحو نتائج مربحة. أدّت الضغوط التنافسية إلى هذا التحوّل، إذ لم تعد العمليات الآلية المؤتمتة تتعرّف على سلوكنا فحسب، بل تُشكّله على نطاق واسع أيضًا. ومع إعادة توجيه هذا التحوّل من معرفة إلى قوة، لم يعد يكفي أتمتة المعلومات المتدفّقة عنا؛ بل أصبح الهدف الآن هو أتمتتنا نحن. في هذه المرحلة من تطور رأسمالية المراقبة، أصبحت وسائل الإنتاج تابعة "لوسائل تعديل السلوك" التي أصبحت أكثر تعقيدًا وشمولًا. بهذه الطريقة، تخلق رأسمالية المراقبة أنواعًا جديدة من القوى التي أسميها "الآلآتية". تتعرّف الآلة على سلوك الإنسان وتُشكّله لتحقيق غايات أشخاص آخرين. وهي تعمل على تنفيذ إرادتها، بدلًا من الأسلحة والجيش، من خلال الوسيط الآلي المتمثّل في هندسة الحاسوب التي يزداد انتشارها في الأجهزة والأشياء والمساحات "الذكية" المتصلة بشبكة الإنترنت.

ستتابع في الفصول الآتية نموّ هذه العمليات وانتشارها، والقوة الآلية التي تدعمها. يصعب الهروب بالتأكيد من هذا المشروع السوقي الجريء الذي تمتدّ مخالبه من القطيع اللطيف للاعبين "البوكيمون"، إلى تناول الطعام والشراب والتسوّق في المطاعم والحانات ومحلات الوجبات السريعة، والمتاجر التي تُنفق الأموال لتستطيع التلاعب في أسواق مستقبلها السلوكي، إلى مصادرة جائزة للفائض السلوكي من ملفّات تعريف موقع فيسبوك لأغراض تشكيل السلوك الفردي، حتى لو كان ذلك شراء كريم لعلاج حبّ الشباب في الساعة الخامسة وخمس وأربعين دقيقة من مساء يوم الجمعة، أو الموافقة على عرض لشراء حذاء رياضي جديد بعد جري طويل صباح

يوم الأحد، أو التصويت في الأسبوع المقبل. ومثلما اندفعت الرأسمالية الصناعية إلى تكثيف مستمرّ لوسائل الإنتاج، أصبح رأسماليو المراقبة ولاعبوها في السوق مقيدين الآن بعمليات تكثيف مستمرّة لوسائل تعديل السلوك وجمع القوة الآلية.

تتعارض رأسمالية المراقبة مع الحلم الرقمي المبكر، وتُحيل فكرة المنزل الذكي إلى إرث عتيق. وتلجأ بدلاً من ذلك إلى تبديد الوهم بأن الشكل الشبكي يتضمن محتوى أخلاقياً بدائياً، وتؤكد أن كونك "متصلاً" بالشبكة هو بطريقة أو بأخرى مؤيد للمجتمع بطبيعته، أو يميل بشكل طبيعي نحو ديمقراطية المعرفة. أصبح الاتصال الرقمي الآن وسيلة لتحقيق غايات تجارية للآخرين. إن رأسمالية المراقبة طفيلية في جوهرها، وذاتية المرجعية. فهي تُحيي صورة كارل ماركس القديمة عن الرأسمالية باعتبارها مصاص دماء يتغذى على العمل، لكن مع تحوّل غير متوقّع. لا تتغذى رأسمالية المراقبة على العمل فقط بل على كل جانب من جوانب تجربة الإنسان.

لقد ابتكرت شركة غوغل رأسمالية المراقبة وأتقنتها مثلما ابتكرت شركة جنرال موتورز رأسمالية الإدارة وأتقنتها قبل قرن من الزمان. كانت غوغل رائدة رأسمالية المراقبة في الفكر والممارسة، والمورد المالي العميق للبحث والتطوير، والرائدة في التجريب والتنفيذ، لكنها لم تعد الفاعل الوحيد على هذا المسار. سرعان ما انتشرت رأسمالية المراقبة إلى موقع فيسبوك، ولاحقاً إلى ميكروسوفت. وتشير الأدلة إلى انحراف شركة أمازون في هذا الاتجاه أيضاً، وهذا يشكل تحدياً مستمراً لشركة آبل، سواء كتهديد خارجي، أو كمصدر للنقاش والصراع الداخلي.

أطلقت شركة غوغل، بوصفها رائدة رأسمالية المراقبة، عملية تسويق غير مسبقة في فضاءات الإنترنت غير المحددة، حيث واجهت عوائق بسيطة من القانون والمنافسين، كنوع دخيل في بيئة خالية من الكائنات المفترسة الطبيعية. وأدار قادتها التماسك المنظّم لأعمالهم بوتيرة سريعة لم تستطع المؤسسات العامة ولا الأفراد مواكبتها. كما استفادت من الأحداث التاريخية عندما بدأ جهاز الأمن القومي، بتأثير هجمات الحادي عشر من سبتمبر، يميل إلى رعاية القدرات الناشئة لرأسمالية المراقبة

ومحركاتها وإيوائها، بهدف المعرفة الكاملة ووعددها باليقين.

سرعان ما أدرك رأسماليو المراقبة إمكانية فعل أي شيء يريدونه، وقد فعلوا. تلبسوا هيئة التأيد ودعم الحريات، واستندوا إلى المخاوف المعاصرة واستغلّوها، بينما توارى عملهم الحقيقي خلف الكواليس. كان عملهم الحقيقي عباءة خفية نُسِجَت بشكل يتناسب مع خطاب شبكة تمكين تمنح القوة، والقدرة على الحركة السريعة، والثقة في تدفق إيرادات ضخمة، والطبيعة البرّية غير المحمية للأراضي التي سيغزونها ويطالبون بها. وتلقّوا الحماية بسبب عدم القدرة على قراءة العمليات المؤتمتة التي يديرونها، والجهل الناتج عن تلك العمليات، وما تعززه من شعور بالحمية.

لم تعد رأسمالية المراقبة تقتصر على المنافسة الشرسة بين شركات الإنترنت الكبرى، حيث كانت أسواق التنبؤ بالمستقبل السلوكي تستهدف الإعلانات الإلكترونية في البداية. بل أصبحت آلياتها وضروراتها الاقتصادية النموذج المُعتاد لمعظم الأعمال المعتمدة على الإنترنت. أخيراً، أدّى الضغط التنافسي إلى التوسّع في العالم غير المتصل بالإنترنت، حيث تُدرَّبُ الآليات الأساسية ذاتها التي تلاحق تصفّحك عبر الإنترنت، على ما تضعه من إعجابات أو تعليقات أثناء الجري في الحديقة، أو في محادثة أثناء الإفطار، أو خلال بحثك عن مكان لركن السيارة. وتُتداول منتجات التنبؤ اليوم في أسواق توقّعات المستقبل السلوكي التي تمتدّ إلى ما هو أبعد من الإعلانات المستهدفة عبر الإنترنت، إلى العديد من القطاعات الأخرى، بما في ذلك التأمين، وتجارة التجزئة، والتمويل، ومجموعة كبيرة من شركات السلع والخدمات العازمة على المشاركة في هذه الأسواق الجديدة والمربحة. سواء أكان الأمر يتعلّق بجهاز منزلي، وما تسميه شركات التأمين "التوقيع وقبول المسؤولية من الناحية السلوكية"، أو أية معاملة من بين آلاف المعاملات الأخرى، فإننا ندفع الآن ثمن سيطرتنا.

إن منتجات رأسمالية المراقبة وخدماتها ليست مواد لتبادل القيم. وهي لا ترسّخ علاقات تبادلية بناءً بين المنتج والمستهلك، بل هي بمنزلة "طعم" يجذب المستخدمين إلى عملياتها الاستخراجية، حيث تُنتزع تجاربنا الشخصية، وتُغلّف كوسيلة لتحقيق

غايات الآخرين. نحن لسنا "زبائن" رأسمالية المراقبة، كما أن المثل القائل: "إذا كان المنتج مجانياً، فأنت هو المنتج"⁽¹³⁾، غير صحيح أيضاً. نحن مصادر الفائض الأساسي لرأسمالية المراقبة: نحن أهداف عملية استخلاص المواد الخام الحتمية والمتطورة تكنولوجياً. أما الزبائن الفعليون لرأسمالية المراقبة فهم الشركات التي تشتري من أسواقها مواد تساعد على توقع سلوكيات مستقبلية.

يحوّل هذا المنطق الحياة العادية إلى تجديد يومي لميثاق "فاوستي" للقرن الحادي والعشرين. وأصفح بـ "فاوستي" لأنه يكاد يستحيل أن ننتزع أنفسنا منه، مع أن ما يجب أن نقدّمه بالمقابل سيدمر الحياة كما عرفناها. علينا أن نأخذ بعين الاعتبار أن الإنترنت أصبح ضرورياً للمشاركة الاجتماعية، وأنه أصبح الآن مشبعاً بالتجارة، وأن التجارة أصبحت الآن خاضعة لرأسمالية المراقبة. تقبع تبعيتنا في قلب مشروع المراقبة التجارية، حيث تتنافس احتياجاتنا الملموسة لحياة فعالة مع الميل إلى مقاومة توغلاتها الجريئة. ويسبّب هذا الصراع خدراً نفسياً يجعلنا نعتاد واقع التتبّع والتحليل والتنقيب والتعديل. ويدفعنا إلى تبرير الموقف بسخرية واستسلام، أو اختلاق أعذار تُشبه آليات الدفاع ("ليس لدي ما أخفيه")، أو إيجاد طرق أخرى لدفن رؤوسنا في الرمال، مُختارين الجهل هرباً من الإحباط والعجز.⁽¹⁴⁾ تفرض رأسمالية المراقبة بهذه الطريقة خياراً، غير شرعي أساساً، لا ينبغي لأفراد القرن الحادي والعشرين أن يتخذوه،

(13) يعني هذا المثل أنه عندما يتم تقديم مُنتج أو خدمة بشكل مجاني، يصبح المستخدم نفسه هو السلعة (المترجم).

(14) للاطلاع على معالجة أولية واعية لهذه القضايا، انظر لانغدون وبنر، "انتصار الشعبوية الحاسوبية"، مجلة تكنولوجيا ريفيو 94، العدد 4 (1991): 66. انظر أيضاً كريس غاي هوفناغل، وجينيفر إم. أوربان، وسو لي، "الخصوصية والإعلان الحديث: معظم مستخدمي الإنترنت في الولايات المتحدة يريدون ميزة "عدم التتبّع" لوقف جمع البيانات حول أنشطتهم على الإنترنت" (بحث صادر عن BCLT، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 8 أكتوبر/ تشرين الأول 2012)؛ جوزيف تورو وآخرون، "الأمريكيون يرفضون الإعلانات المخصصة وثلاثة أنشطة تمكّنها"، كلية أننبرغ للاتصالات، 29 سبتمبر/ أيلول 2009؛ كريس غاي هوفناغل وجان ويتنغتون، "مجاناً: حساب تكلفة أكثر أسعار الإنترنت شيوعاً"، مجلة جامعة كاليفورنيا للقانون، العدد 61 (28 فبراير 2014): 606؛ جان ويتنغتون وكريس هوفناغل، "كشف ثمن الخصوصية"، مجلة نورث كارولينا للقانون، العدد 90 (1 يناير 2011): 1327؛ كريس غاي هوفناغل، جينيفر كينغ، سو لي، وجوزيف تورو، "ما مدى اختلاف الشباب عن كبار السن فيما يتعلق بمواقفهم وسياساتهم المتعلقة بخصوصية المعلومات؟"، 14 أبريل/ نيسان 2010.

ويجعلنا طابعه الطبيعي نسعد في قيودنا. (15)

تعمل رأسمالية المراقبة من خلال تفاوت غير مسبوق في المعرفة والسلطة المتراكمة على المعرفة. يعرف رأسماليو المراقبة كل شيء عنا، بينما صُممت عملياتهم لتكون مجهولة بالنسبة إلينا. فهم يجمعون كمًا هائلًا من المعرفة الجديدة عنا، لكن ليس من أجلنا. ويتنبؤون بمستقبلنا من أجل مكاسب الآخرين، لا من أجل مصلحتنا. ما دامت رأسمالية المراقبة وأسواقها السلوكية المستقبلية مزدهرة، فستبقى ملكية وسائل التعديل السلوكي الجديدة على ملكية وسائل الإنتاج، باعتبارها مصدرًا للثروة والسلطة الرأسمالية في القرن الحادي والعشرين.

سنتناول في الفصول الآتية هذه الحقائق ونتائجها بالتفصيل على حياتنا الفردية ومجتمعاتنا وديمقراطياتنا وحضارتنا المعلوماتية الناشئة. تشير الأدلة والمنطق المستخدم هنا إلى أن رأسمالية المراقبة قوة شريرة مدفوعة بضرورات اقتصادية جديدة تتجاهل الأعراف الاجتماعية، وتُلغي الحقوق الأساسية المرتبطة بالاستقلالية الفردية التي تُعدُّ أساس إمكانية نشوء مجتمع ديمقراطي.

مثلما ازدهرت الحضارة الصناعية على حساب الطبيعة، وتهدد الآن بخسارتنا للأرض، ستزدهر حضارة المعلومات التي تشكّلها رأسمالية المراقبة وقوتها الآلية الجديدة على حساب الطبيعة البشرية، وتهدد بخسارتنا لإنسانيتنا. يملؤنا الإرث الصناعي لفوضى المناخ بالذعر والندم والخوف. فما هو إرث الضرر والندم الذي ستندبه الأجيال القادمة بسبب تحوّل رأسمالية المراقبة إلى الشكل السائد لرأسمالية المعلومات في عصرنا؟ بينما تقرأ هذه الكلمات، سيكون نطاق هذا الشكل الجديد قد اتسع أكثر مع حشد المزيد من القطاعات والشركات والمؤسسات الناشئة ومطوّري التطبيقات والمستثمرين حول هذه النسخة المعقولة من رأسمالية المعلومات. سيُحدد هذا الحشد، والمقاومة التي يُولّدها، ساحة معركة رئيسة يُتنازَعُ فيها على إمكانية بناء مستقبل على حدود السلطة الجديدة.

(15) اقتبسْتُ هذه العبارة من روبرتو مانغايرا أونفر، في كتابه بعنوان "دكتاتورية اللابدائل"، "ماذا ينبغي للييسار أن يقترح؟" (لندن: فيرسو، 2006)، ص 11-1.

ثمة تفسير واحد يطفو فوق التفسيرات كلها للانتصارات الكثيرة التي حققتها رأسمالية المراقبة: إنها غير مسبوقه. إن غير المسبوق هو بالضرورة غير قابل للإدراك. عندما نواجه ما هو مسبوق، نفّسه تلقائيًا بناءً على فئات معروفة، وبالتالي نعتبر غير المسبوق غير مرئي على وجه التحديد. والمثال الكلاسيكي على ذلك مفهوم "عربة بلا حصان" الذي طرحه الناس بداية عندما واجهوا للمرة الأولى الحقيقة غير المسبوقه لاختراع السيارة. ومن الأمثلة التراجيدية أيضًا اللقاء بين السكان الأصليين والغزاة الإسبان الأوائل. كيف كان بإمكان شعب التاينو، في جزر الكاريبي ما قبل كولومبوس، إدراك معنى تلك اللحظة وما تنذر به عندما قابلوا للمرة الأولى الجنود الإسبان الملتحين المتعرقين، وهم يطؤون الرمال بأزيائهم المطرزة ودروعهم؟ ومع عدم قدرتهم على تخيل دمارهم، اعتبروا تلك المخلوقات الغريبة آلهة، ورحبوا بها بطقوس ضيافة معقدة. هكذا يُربك غير المسبوق الفهم باستمرار؛ تسلط عدساتنا الضوء على المعروف، فتحجب حقيقة غير المسبوق وتجعله امتدادًا للماضي، وهذا يُسهّم في إضفاء طابع طبيعي على غير الطبيعي، مما يزيد من صعوبة مكافحة غير المسبوق.

أصابنا منزلنا صاعقة في ليلة عاصفة منذ سنوات، وتعلّمت درسًا استثنائيًا عن القوة غير المسبوقه التي تتحدّى الفهم. بعد لحظات من الإصابة، ارتفع دخان أسود كثيف أسفل الدّرج باتجاه غرفة المعيشة. وبينما احتشدنا معًا، واتصلنا بقسم الإطفاء، ظننتُ أن لديّ دقيقة أو دقيقتين فقط للقيام بشيء مفيد قبل الانضمام إلى عائلتي. أولاً، صعدتُ إلى الطابق العلوي وأغلقتُ أبواب غرف النوم كلها لحمايتها من أضرار الدخان. ثم نزلتُ بسرعة إلى غرفة المعيشة، وجمعتُ ما استطعتُ من ألبومات صور عائلتنا ووضعتها في الخارج على شرفة مغطاة حفاظًا على سلامتها. كاد الدخان يصل إليّ عندما وصل قائد فرقة الإطفاء، وجرّني من كتفي، وأخرجني من الباب. وقفنا تحت المطر الغزير، وشاهدنا بدهشة شديدة منزلنا ينفجر بتأثير النيران.

تعلمتُ أشياء كثيرة من هذا الحريق، أهمها صعوبة إدراك غير المسبوق. كنت أستطيع، في تلك المرحلة البدائية للأزمة أن أتخيل منزلنا وقد تضرّر من الدخان، لكن لم تراود ذهني فكرة تلاشيه بشكل كامل. فقد أدركتُ ما يمكن أن يحدث من خلال عدسات الخبرة السابقة، وتخيّلتُ مُنعطفاً بديلاً مؤلماً لكنه من النوع الذي يمكن السيطرة عليه في النهاية، ومن شأنه أن يؤديّ إلى الوضع الراهن. مع عجز عن تمييز غير المسبوق، كان كل ما استطعتُ فعله هو إغلاق أبواب غرف لم يعد لها وجود، والبحث عن ملاذ آمن في شرفة حُكِم عليها بالزوال. كنتُ عمياء عن ظروف لم يسبق لي أن رأيتها في حياتي.

بدأتُ دراسة ظهور ما أسميته لاحقاً رأسمالية المراقبة عام 2006، حيث أجريتُ مقابلات مع رواد أعمال وموظفين في مجموعة من شركات التكنولوجيا في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. بقيتُ أظنّ، لسنوات عديدة، أن الممارسات غير المتوقعة والمزعجة التي وثقتها كانت مجرد انحرافات عن المسار الرئيس: سهواً إدارياً أو قصوراً في التقدير وفهم السياق.

اختفت بياناتي الميدانية في الحريق الذي حدث في تلك الليلة، وبحلول الوقت الذي استطعتُ فيه الإحاطة بالموضوع مرّة أخرى في مطلع عام 2011، بات واضحاً أن عدساتي القديمة التي كانت ترى عربات بلا أحصنة لم تتمكّن من تفسير ما كان يتشكّل، أو تبريره. كنت أتوه عن رؤية كثير من التفاصيل الخفية بين الأغصان، لكن ملامح الأشجار كانت تبرز بوضوح أكثر من ذي قبل: لقد اتخذت رأسمالية المعلومات منعطفاً حاسماً نحو منطق جديد للتراكم، مع آليات التشغيل الأصلية الخاصة بها، والضرورات الاقتصادية والأسواق. أستطيع أن أرى أن هذا الشكل الجديد قد انفصل عن المعايير والممارسات التي حددت تاريخ الرأسمالية، وظهر شيء مذهل غير مسبوق في هذه العملية.

من غير الممكن بالتأكيد مقارنة ظهور شيء غير مسبوق في التاريخ الاقتصادي بحريق منزل. كانت أعجوبة الحريق الكارثي غير مسبوقة في تجربتي، لكنها لم تكن

أصلية. وفي المقابل، تُعتبر رأسمالية المراقبة فاعلاً جديداً في التاريخ، أصيلاً وفريداً من نوعه. فهي نوع جديد تماماً لا يشبه أي شيء آخر: كوكب جديد مميّز له فيزياء خاصة ترتبط بالزمان والمكان، وساعات يومه تبلغ سبعة وستين ساعة، وله سماء زمردية، وجبال مقلوبة، ومياهه جافة.

مع ذلك، فإن خطر إغلاق أبواب غرف لم تعد موجودة الآن هو خطر حقيقي للغاية. فالطبيعة غير المسبوقة لرأسمالية المراقبة مكّنتها من التملّص من المنافسة المنهجية، إذ لا يمكن استيعابها بشكل كافٍ بمفاهيمنا الحالية. نحن نعتمد على تصنيفات مثل "الاحتكار" أو "الخصوصية" لمعارضة ممارسات رأسمالية المراقبة. لكن على الرغم من حيوية هذه القضايا، حتى عندما تكون عمليات رأسمالية المراقبة احتكارية وتُشكل تهديداً للخصوصية، لا تزال التصنيفات الحالية قاصرة عن تحديد أهم الحقائق غير المسبوقة لهذا النظام الجديد ومعارضتها.

هل ستواصل رأسمالية المراقبة مسارها الحالي لتتحوّل إلى منطق التراكم السائد في عصرنا، أم سنراها مع الوقت ظاهرة غريبة: مسار مخيف في رحلة الرأسمالية الطويلة، لكنه محكوم بالفشل في نهاية المطاف؟ وإذا كان مصيرها الفشل، فما السبب وراء ذلك؟ وما اللقاح الفعّال الذي نحتاج إليه؟

يبدأ كل لقاح بمعرفة دقيقة بالمرض. وهذا الكتاب أشبه برحلة لاكتشاف ما هو غريب ومبتكر، بل حتى ما لا يمكن تصديقه، في رأسمالية المراقبة. وهو ينبع من قناعة راسخة بأن المراقبة والتحليل والتسميات الجديدة ضرورية إذا أردنا أن ندرك أن غير المسبوق هو مقدّمة ضرورية لمنافسة فاعلة. سنتناول الفصول الآتية الظروف المحددة التي سمحت لرأسمالية المراقبة بالتجذّر والازدهار، بالإضافة إلى "قوانين الحركة" التي تقود الأداء، وتوسّع هذا الشكل من السوق: آلياته التأسيسية، وضروراته الاقتصادية، واقتصاديات العرض، وبناء القوة، ومبادئ النظام الاجتماعي. فلنغلق الأبواب، ولكن لتتأكد أولاً من أنها الأبواب الصحيحة.

5. لاعبٌ بالدمى، وليس دمية

تبدأ جهودنا لمواجهة ما هو غير مسبوق باعترافنا بأننا نطارد لاعباً بالدمى، وليس دمية. والتحدي الأول الذي يواجه الفهم هو الخلط بين رأسمالية المراقبة والتكنولوجيات التي تستخدمها. إن رأسمالية المراقبة ليست تكنولوجية؛ بل هي منطق يُلهِم التكنولوجيا ويدفعها إلى العمل. وهي شكلٌ من أشكال السوق لا يُمكن تصوره خارج البيئة الرقمية، لكنها ليست العالم "الرقمي". وكما رأينا في قصة المنزل الذكي، وكما سنرى في الفصل الثاني، يمكن للعالم الرقمي أن يتخذ أشكالاً مختلفة وفقاً للمنطق الاجتماعي والاقتصادي الذي يُضفي عليه الحيوية. فالرأسمالية هي التي تُحدد ثمن الخضوع والعجز، وليس التكنولوجيا.

الفكرة التي تقول إن رأسمالية المراقبة هي منطق يعمل، وليست تكنولوجيا، هي نقطة حيوية لأن رأسمالي المراقبة يريدوننا أن نظن أن ممارستهم هي تعبيراتٌ حتمية عن التكنولوجيا التي يستخدمونها. على سبيل المثال، في عام 2009، أدرك الناس للمرة الأولى أن شركة غوغل تحتفظ بسجلات البحث الخاصة بنا إلى أجل غير مسمى: فالبيانات متاحة لوكالات الاستخبارات وإنفاذ القانون مثلما تكون المواد الخام متاحة. وعندما سُئل الرئيس التنفيذي السابق للشركة، إريك شميدت، عن هذه الممارسات، قال: 'الحقيقة أن محركات البحث، بما في ذلك محرك غوغل، تحتفظ بهذه المعلومات لبعض الوقت'.⁽¹⁶⁾

ليست محركات البحث هي من تحتفظ بالبيانات في الواقع، بل رأسمالية المراقبة. وتُعدُّ تصريحات شميدت مثالاً كلاسيكياً على التضليل لأنه يُربك الناس بمزجه بين الضرورات التجارية والضرورات التكنولوجية. وهي تموّه الممارسات الملموسة لرأسمالية المراقبة، والخيارات المحددة التي تفرض على محرك غوغل طريقة العمل. والأهم من ذلك أنها تجعل ممارسات رأسمالية المراقبة تبدو حتمية، في حين أنها في الواقع وسائل مدروسة بدقّة، ومُؤلة بإفراط، لأغراض تجارية تخدم مصالح خاصة.

(16) غارد نيومان، "شميدت من شركة غوغل يتعرض لانتقادات لاذعة بسبب تعليقاته حول الخصوصية"، مجلة "بي سي وورلد"، 11 ديسمبر/ كانون الأول 2009.

سنتناول مفهوم 'الحتمية' بعمق في الفصل السابع. ويكفي الآن القول إنه على الرغم من التطور المستقبلي الذي يشهده الابتكار الرقمي كله، لا تختلف رسالة شركات رأسمالية المراقبة كثيرًا عن المواضيع التي مجّدت سابقًا في شعار معرض شيكاغو العالمي لعام 1933: "العلم يكتشف - الصناعة تُنفّذ - الإنسان يتوافق".

لكي نواجه ادعاءات حتمية تكنولوجياية كهذه، علينا أن نحدّد توجّهنا. لا يمكننا تقييم المسار الحالي لحضارة المعلومات دون أي تقدير واضح لفكرة أن التكنولوجيا ليست، ولا يمكن أن تكون، شيئًا قائمًا بذاته، ومعزولًا عن الاقتصاد والمجتمع. هذا يعني أن الحتمية التكنولوجية لا وجود لها. التكنولوجيا دومًا وسيلة اقتصادية، وليست غاية في حدّ ذاتها: ففي العصر الحديث، أصبح أساس التكنولوجيا مصمّمًا فعليًا وفق ما أسماه عالم الاجتماع ماكس فيبر "التوجّه الاقتصادي".

لاحظ فيبر أن الغايات الاقتصادية جوهرية دائمًا في تطوير التكنولوجيا ونشرها. يحدّد "الأداء الاقتصادي" الأهداف، وتوفّر التكنولوجيا "الوسائل المناسبة". في هذا الإطار، "تُعتبر الحقيقة التي تقول، "إن ما يُسمّى بالتطور التكنولوجي الحديث كان موجّهًا اقتصاديًا لتحقيق الربح"، إحدى الحقائق الأساسية في تاريخ التكنولوجيا".⁽¹⁷⁾ كانت التكنولوجيا في المجتمع الرأسمالي الحديث، ولا تزال، وستبقى دائمًا، تعبيرًا عن الأهداف الاقتصادية التي تُوجّهها نحو التنفيذ. ومن المفيد حذف كلمة "تكنولوجيا" من قاموس مفرداتنا لنرى مدى سرعة تكشف أهداف الرأسمالية.

تستخدم رأسمالية المراقبة تكنولوجيات كثيرة، لكن من غير الممكن مقارنتها بأية تكنولوجيا. قد تستخدم عملياتها منصّات، لكن هذه العمليات ليست كالمنصّات. وقد تستخدم ذكاء الآلات، ولكن لا يمكن اختزالها إلى مستوى الآلات. وهي تنتج الخوارزميات وتعتمد عليها، لكنها ليست كالخوارزميات نفسها. تُعتبر الضرورات الاقتصادية الفريدة من نوعها لرأسمالية المراقبة بمنزلة مُحركٍ الدمى الذي يختبئ خلف

(17) ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع: الاقتصاد والأنظمة الاجتماعية والقوة والمخلدات - السيادة (بيركلي، كاليفورنيا: جامعة كاليفورنيا، 1978)، 1: 67.

الستار، ويوجّه الآلات ويحثّها على العمل. وإذا أردنا استعارة أخرى، تشبه هذه الضرورات أنسجة الجسد الرخوة التي لا تُرى بالأشعة السينية، لكنها تؤدّي وظيفتها الحقيقية في ربط العضلات بالعظام. نحن لا نقع وحدنا فريسة وهم التكنولوجيا. فهي سمة راسخة في الفكر الاجتماعي، وقديمة قَدَم حصان طروادة. وعلى الرغم من ذلك، يتعرّ كل جيل في فخّ نسيان أن التكنولوجيا تعبير عن اهتمامات أخرى. وهذا يعني في العصور الحديثة أن مصالح رأس المال، ويعني في عصرنا الحالي أن رأسمالية المراقبة، تسيطر على البيئة الرقمية وتوجّه مسارنا نحو المستقبل. ونهدف من هذا الكتاب إلى توضيح قوانين رأسمالية المراقبة التي تُحرّك أحصنة طروادة هذه الأيام، وتعيدنا إلى أسئلة قديمة تُثقل كاهل حياتنا ومجتمعاتنا وحضارتنا.

سبق أن وقفنا على شفا حفرة من هذا النوع. "لقد تعرّنا لبعض الوقت، محاولين بناء حضارة جديدة بالطرق القديمة، لكن علينا أن نبدأ بتغيير هذا العالم". في عام 1912، طرح توماس إديسون رؤيته لحضارة صناعية جديدة في رسالته إلى هنري فورد. كان إديسون قلقاً من إمكانية عرقلة قدرة الصناعة على خدمة تقدم البشرية بفعل القوة العنيدة للبارونات للصوص، والاقتصاد القائم على الاحتكار الذي حكم ممالكهم. وقد ندّد "بإسراف" الرأسمالية الأمريكية "وقسوتها": "إن إنتاجنا وقوانين مصانعنا، وأعمالنا الخيرية، والعلاقات بين العمل ورأس المال، وتوزيعنا - كلها عمليات خاطئة وغير مدروسة". لقد أدرك كلٌّ من إديسون وفورد أن ما يأملان به من حضارة صناعية حديثة كانت تتجه نحو ظلام دامس يتسم بالرخاء لقلّة قليلة، والبؤس لنسبة كبيرة.

الأهم في حديثنا هو أن إديسون وفورد فهما أن الحياة الأخلاقية للحضارة الصناعية ستتشكّل من ممارسات الرأسمالية التي هيمنت في عصرهما. وظنّا أن على أمريكا، والعالم كله في نهاية المطاف، أن يصوغا رأسمالية جديدة أكثر عقلانية لتجنّب مستقبل يحكمه البؤس والصراعات. ورأى إديسون أن من المفترض إعادة ابتكار كل شيء: تكنولوجيا جديدة، نعم، لكن ينبغي أن تعكس أساليب جديدة لفهم احتياجات الناس وتلبّيتها؛ ونموذجاً اقتصادياً جديداً يُحوّل هذه الممارسات الجديدة إلى فائدة؛

وعقد اجتماعي جديد يجعل ذلك كله مستدامًا. لقد بزغ فجر قرن جديد، لكن تطور
الرأسمالية، مثل مزج الحضارات، لا يخضع لتقويم أو لتوقيت. كان عام 1912، وبقي
القرن التاسع عشر رافضًا التنازل عن حقه في القرن العشرين.

ينطبق الأمر نفسه على عصرنا. بينما أكتب هذه الكلمات، تقترب من نهاية العقد
الثاني من القرن الحادي والعشرين، لكن ما تزال صراعات القرن العشرين الاقتصادية
والاجتماعية تُمرّقنا. وتؤسّس حالات التنافس هذه المسرح الذي ظهرت عليه رأسمالية
المراقبة للمرة الأولى، وارتقت إلى النجومية باعتبارها مؤلّفة فصل جديد في الملحمة
الطويلة لتطور الرأسمالية. هذا هو السياق الدرامي الذي ستناوله في الصفحات
الأولى من الجزء الأول: الموقع الذي يجب أن نقف عنده لتقييم موضوعنا في سياقه
الصحيح. ليست رأسمالية المراقبة وليدة صدفة حدثت مع خبراء التكنولوجيا
المتحمسين، بل هي رأسمالية شريرة تعلّمت استغلال ظروفها التاريخية בזكاء لضمان
نجاحها والدفاع عنه.

6. مخطط الكتاب ومواضيعه ومصادره

أريد لهذا الكتاب أن يكون خريطة أولية لعالم مجهول، وهي مغامرة أولى أمل أن تمهّد
الطريق أمام مستكشفين آخرين. لقد فرضت الجهود المبذولة لفهم رأسمالية المراقبة
وعواقبها مسارًا استكشافيًا يتجاوز العديد من التخصصات والفترات التاريخية. وكان
هدفني تطوير المفاهيم والأطر التي تُمكننا من رؤية نموذج لما بدا أنه مفاهيم وظواهر
ومقاطع بلاغية، وممارسات متباينة، تُسهّم فيها كل نقطة جديدة على الخريطة في تجسيد
المتلاعب بالدمى بلحمه ودمه.

يُستمدّ الكثير من نقاط هذه الخريطة من تيارات سريعة الحركة في أوقات مضطربة.
ولكي نفهم التطوّرات المعاصرة، اعتمدتُ على عزل النموذج الأعمق في صخب
التفاصيل التكنولوجية وخطاب الشركات. ويعتمد اختبار نجاحي على مدى نجاح
هذه الخريطة ومفاهيمها في تسليط الضوء على ما هو غير مسبوق، وتمكيننا من فهم
مقنع وشامل للتدفّق السريع لما يدور حولنا من أحداث، بينما تواصل رأسمالية المراقبة

لعبتها الطويلة في الهيمنة الاقتصادية والاجتماعية.

يقع هذا الكتاب في أربعة أجزاء. ويضم كل جزء أربعة فصول أو خمسة، إضافة إلى فصل ختامي أخير يلخص معنى ما سبق. يتناول الجزء الأول أسس رأسمالية المراقبة: أصولها وتطورها المبكر. ونبدأ في الفصل الثاني باستعراض المرحلة التي انطلقت فيها رأسمالية المراقبة وحققت نجاحها. يُعتبر هذا الإعداد مهمًا لأنني أخشى أن نكتفي بتفسيرات سطحية للصعود السريع للممارسات المرتبطة برأسمالية المراقبة وقبولها بشكل عام. قمنا مثلاً بإدراج مفاهيم مثل "سهولة الاستخدام" "convenience" أو حقيقة أن العديد من خدماتها "مجانية". لكن الفصل الثاني يستكشف الظروف الاجتماعية التي جلبت العالم الرقمي إلى حياتنا اليومية، ومهدت الطريق لرأسمالية المراقبة لتترسخ وتزدهر. كما أشرح "التصادم" بين عمليات الفردانية التاريخية التي استمرت قرونًا، وشكّلت تجربتنا كأفراد قادرين على تقرير مصيرنا، والبيئة الاجتماعية القاسية التي أنتجتها منظومة اقتصاديات السوق النيوليبرالية التي استمرت لعقود من الزمن، وأُحيطَ فيه شعورنا بقيمتنا الذاتية، وحاجتنا إلى تقرير المصير باستمرار. يُعتبر الألم والإحباط الناجمان عن هذا التناقض هما الدافعان اللذين جعلانا نهول نحو الإنترنت للحصول على متطلبات المعيشة، وأجبرانا في النهاية على قبول المعاملة القاسية التي يفرضها مبدأ 'رأسمالية المراقبة'.

يستمرّ الجزء الأول في تفحص دقيق لابتكار بدايات رأسمالية المراقبة وتطويرها في شركة غوغل، بدءًا من اكتشاف وتطوير ما سيصبح آلياتها الأساسية، والضرورات الاقتصادية و'قوانين الحركة'. على الرغم من براعة غوغل التكنولوجية، وموهبتها البرمجية، إلا أن الفضل الحقيقي في نجاحها يعود إلى العلاقات الاجتماعية الأساسية التي أعلستها الشركة كحقائق، بدءًا من تجاهلها لحدود التجربة الإنسانية الخاصة، والنزاهة الأخلاقية للفرد، والمستقل. وعلى النقيض من ذلك، تمسك رأسمالية المراقبة بحقوقهم في الغزو كما يحلو لهم، واغتصبوا حقّ القرار الفردي لصالح المراقبة أحادية الجانب، وحقّ الاستخلاص المرخص ذاتيًا للتجربة الإنسانية للآخرين. وتغذّت هذه الادعاءات الهجومية من غياب قانون يعيق تقدّمها، ومن توافق مصالح رأسمالي

المراقبة الناشئين ووكالات الاستخبارات الحكومية، والإصرار الذي دافعت به الشركات عن مناطقها الجديدة. ونجحت غوغل في نهاية المطاف وضع دليل تكتيكي استندت إليه عمليات رأسمالية المراقبة بنجاح في ترسيخ مكانتها باعتبارها الشكل المهيمن لرأسمالية المعلومات، الأمر الذي اجتذب منافسين جددًا حريصين على المشاركة في السباق على عائدات المراقبة. وبناءً على قوة هذه الإنجازات، تمتعت شركة غوغل، وعالم منافسيها المتنامي، بحالة تميز جديدة استثنائية في المعرفة والسلطة، وغير مسبوقة في تاريخ البشرية. وأنا أجادل بأن من الممكن فهم هذه التطورات بأفضل شكل ممكن من خلال خصخصة تقسيم التعلّم في المجتمع، وهو المحور الأساسي للنظام الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين.

يناقش الجزء الثاني انتقال رأسمالية المراقبة من البيئة الإلكترونية إلى العالم الواقعي، نتيجةً للتنافس على منتجات التنبؤ التي تُقارب اليقين. ونستكشف هنا هذا الواقع التجاري الجديد، حيث يُزعم أن جوانب التجربة الإنسانية كلها عبارة عن مواد خام يمكن توريدها وتحويلها إلى بيانات سلوكية. ويُجزّأ قسم كبير من هذا العمل تحت شعار 'التخصيص المؤتمت'، وهي تمويه لعمليات عدوانية لاستخراج بيانات من أعماق حياتنا اليومية. ومع تزايد حدة المنافسة، يتعلّم رأسماليو المراقبة أن استخراج خلاصة التجربة الإنسانية ليس كافيًا. إذ تأتي معظم إمدادات المواد الخام التنبؤية من التدخّل في تجربتنا لتشكيل سلوكنا بطرق تخدم أهدافهم التجارية. وقد صُمّمت البروتوكولات المؤتمتة الجديدة للتأثير في السلوك البشري، وتعديله على نطاق واسع بحيث تصبح وسائل الإنتاج خاضعة لوسائل تعديل سلوك جديدة بالغة التعقيد. نحن نرى تطبيق هذه البروتوكولات الجديدة في تأثيرات العدوى العاطفية في موقع فيسبوك، وفي لعبة البوكيمون الواقعية التي احتضنتها شركة غوغل. ويكمن الدليل على تخديرنا النفسي في أنه قبل بضعة عقود فقط، أدان المجتمع الأمريكي تقنيات تعديل السلوك الجماعي باعتبارها تهديدًا غير مقبول للاستقلال الفردي والنظام الديمقراطي. ولا تلقى الممارسات ذاتها، في أيامنا هذه، سوى مقاومة بسيطة، ولا تحظى سوى بالقليل من النقاش، إذ تُنشر بشكل روتيني وعلى نطاق واسع في المسيرة

نحو الحصول على عائدات المراقبة. أخيراً، أنا أرى أن عمليات رأسمالية المراقبة تشكل تحدياً للحقّ الأساسي في المستقبل، أي على قدرة الفرد على تخيل المستقبل، والتخطيط له، والوعد به، والعمل عليه. هذا شرط أساسي للإرادة الحرة، وأهم من ذلك، هو شرط أساسي للموارد الداخلية التي نستمدّ منها رغبتنا في الإرادة. أنا أطرح سؤالاً مفاده: 'كيف أفلتوا من العقاب؟' وأجيب عنه. وينتهي الجزء الثاني بتأمل تاريخنا الماضي والمستقبلي. إذا أدّت الرأسمالية الصناعية إلى اضطراب خطير في الطبيعة، فما نوع الدمار الذي يمكن أن تسببه رأسمالية المراقبة على الطبيعة البشرية؟

يتناول الجزء الثالث صعود القوة الآلية instrumentarian؛ والتعبير عنها في البنى الأساسية الحاسوبية والشبكية والحسيّة المنتشرة في كل مكان، والتي أطلقت عليها اسم "الآخر الكبير" (Big Other)؛ والرؤية الجديدة والمعادية لديمقراطية المجتمع والعلاقات الاجتماعية التي تُنتجها هذه البنية التحتية. وأجادل بأن الآلية هي نوع غير مسبوق من السلطة التي تحدت الفهم جزئياً لأنها تعرّضت لمتلازمة "العربة من دون حصان". يُنظرُ إلى القوة الآلية من خلال عدسات الشمولية القديمة، في تجاهل ما هو مختلف وخطير. كانت الشمولية عملية تحويل الدولة إلى مشروع ملكية كاملة. وتشير النزعة الآلية وتجسيدها في 'الآخر الكبير' إلى تحوّل السوق إلى مشروع يقيني تام، وهو مشروع لا يمكن تصوّره خارج البيئة الرقمية ومنطق رأسمالية المراقبة. وأستكشف تسمية سلطة 'النزعة الآلية' وتحليلها، أصولها الفكرية في الفيزياء النظرية المبكّرة، والتعبير اللاحق عنها في أعمال السلوكي الراديكالي برهوس فريدريك سكينر.

يتابع الجزء الثالث رأسمالية المراقبة إلى مرحلة تغيير ثانية. كانت المرحلة الأولى هي الانتقال من العالم الافتراضي إلى الواقعي. أما المرحلة الثانية فهي تحوّل التركيز من العالم الواقعي إلى العالم الاجتماعي، إذ أصبح المجتمع ذاته هدفاً جديداً للاستغلال والسيطرة. وكما كانوا يتخيّلون المجتمع الصناعي آلة تعمل بكفاءة، يتخيّلون الآن المجتمع الآلي كمحاكاة بشرية لأنظمة التعلم الآلي: عقل خلية متواصلة يتعلّم كل عنصر فيها، ويعمل بتناغم مع العناصر الأخرى. في نموذج آلات متواصلة، تكون

"حرية" كل آلة وحدها خاضعة لمعرفة النظام ككل. تهدف قوة الآلة إلى تنظيم المجتمع وتوجيهه وضبطه لتحقيق تواصل اجتماعي مماثل، حيث يحل ضغط المجموعة واليقين الحاسوبي محل السياسة والديمقراطية، مما يؤدي إلى إخماد الواقع الملموس والوظيفة الاجتماعية للوجود الفردي. يختبر أصغر أفراد مجتمعاتنا فعلاً الكثير من هذه الديناميكيات الهدامة عبر تعلقه بوسائل التواصل الاجتماعي التي تُعد أول تجربة عالمية في الخلقة البشرية. وأبحث في هذا الفصل تداعيات هذه التطورات على حق أساسي ثانٍ: الحق في ملاذ آمن. لقد استمرت الحاجة الإنسانية إلى مساحة للملاذ غير قابل للانتهاك في المجتمعات المتحضرة منذ العصور القديمة، لكنها تتعرض الآن لهجوم يخلق فيه رأسمال المراقبة عالماً "لا مخرج منه" مع عواقب وخيمة على المستقبل البشري في هذه الحدود الجديدة للسلطة.

استنتجت في الفصل الأخير أن رأسمالية المراقبة تنفصل عن تاريخ رأسمالية السوق بطرق مدهشة، حيث تطالب بمعرفة كاملة، وحرية غير مشروطة، وتتخلى عن المعاملة بالمثل التي تتبناها الرأسمالية مع الناس والمجتمع، وتفرض رؤية جماعية شاملة للحياة في الخلقة، مع رأسمالي المراقبة وكهنة البيانات المسؤولين عن الإشراف والسيطرة. تتجاوز رأسمالية المراقبة، وقوتها الآلية المتراكمة، المعايير التاريخية للطموحات الرأسمالية بسرعة، وتدعي السيطرة على الأراضي البشرية والمجتمعية والسياسية التي تمتد إلى ما هو أبعد من التضاريس المؤسسية التقليدية للشركة الخاصة أو السوق. ونتيجة لذلك، فإن أفضل وصف لرأسمالية المراقبة هو أنها انقلاب كامل، وليس انقلاباً للإطاحة بالدولة بل بسيادة الشعب، وقوة بارزة في هذا الانجراف الخطير نحو تفكيك الديمقراطية الذي يهدد الآن الديمقراطيات الليبرالية الغربية. نستطيع وحدنا 'نحن الشعب' أن نعكس هذا المسار، أولاً من خلال تسمية ما هو غير مسبوق، ثم من خلال حشد أشكال جديدة من العمل التعاوني: الاحتكاك الأساسي الذي يؤكد من جديد أولوية مستقبل إنساني مزدهر كأساس لحضارتنا المعلوماتية. إذا كان المستقبل الرقمي هو وطننا، فإننا نحن من يجب أن نجعله كذلك.

تجمع أساليبي بين أسلوب عالم اجتماع يميل إلى النظرية والتاريخ والفلسفة والبحث

النوعي، وأسلوب كاتب مقالات: نهج غير مألوف ولكنه مقصود. كما اعتمدتُ أحيانًا على تجاربي الشخصية بصفتي كاتبة مقالات. وأنا أفعل هذا لأن الميل إلى التخدير النفسي يزداد عندما نعدّ القضايا الأساسية التي نتناولها هنا مجموعة تجريدات مرتبطة بقوة تكنولوجية واقتصادية بعيدة عن متناول أيدينا. لا يمكننا أن ندرك تمامًا خطورة رأسمالية المراقبة وعواقبها ما لم نتمكن من تتبع الندوب التي تنقشها في جسد حياتنا اليومية.

بصفتي عالمة اجتماع، انجذبتُ إلى المنظرين الأوائل الذين صادفوا غير المسبوق في عصرهم. وطوّرت من هذا المنظور تقديرًا جديدًا للشجاعة الفكرية والرؤى الرائدة للنصوص الكلاسيكية، التي نظّر فيها مؤلفون مثل دوركهيم وماركس وفير بجراًة للرأسمالية الصناعية والمجتمع الصناعي أثناء تشكيلهما السريع في أوساطهم خلال القرنين التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. وقد تأثر عملي هنا أيضًا بمفكرين من منتصف القرن العشرين مثل هانا آرندت، وثيودور أدورنو، وكارل بولاني، وجان بول سارتر، وستيني ميلغرام، الذين ناضلوا من أجل تفسير غير المسبوق في عصرهم عندما واجهوا ظاهرة الشمولية التي تحدّت الفهم، وعملوا جاهدين لفهم آثارها على آفاق الإنسانية. واستفاد عملي أيضًا بعمق من كثير من الأفكار المميزة للعلماء البارزين ونقاد التكنولوجيا، والصحفيين الاستقصائيين الملتزمين الذين بذلوا جهدًا هائلًا لتبسيط الضوء على النقاط الرئيسة على الخريطة التي تظهر هنا.

ركّزتُ خلال السنوات السبع الماضية تركيزًا عميقًا على شركات رأسمالية المراقبة الرائدة ونظمها البيئية المتنامية من الزبائن والمستشارين والمنافسين، واستنار ذلك كله بالسياق الأوسع للتكنولوجيا وعلوم البيانات التي تحدد روح العصر في وادي السيليكون؛ ما أثار تمييزًا هامًا آخر. مثلما تختلف رأسمالية المراقبة عن التكنولوجيا، لا يمكن اختزال منطق التراكم الجديد هذا في شركة واحدة أو مجموعة شركات. غالبًا ما يُنظرُ إلى شركات الإنترنت الخمس الكبرى - آبل، غوغل، أمازون، مايكروسوفت، وفيسبوك - على أنها كيان واحد له استراتيجيات ومصالح متماثلة، لكن عندما يتعلق الأمر برأسمالية المراقبة، فلن يكون هذا هو الحال.

أولاً، من الضروري التمييز بين الرأسمالية التي نعرفها ورأسمالية المراقبة. ووفقاً لنقاشي التفصيلي في الفصل الثالث، يتحدد هذا المسار جزئياً بطرق جمع البيانات والهدف منها. عندما تجمع شركة بيانات سلوكية بعد طلب الإذن، ويهدف تحسين منتجاتها أو خدماتها فقط، فهي تُمارس الرأسمالية التي نعرفها وليس رأسمالية المراقبة. فشركات التكنولوجيا الخمس الكبرى جميعها تمارس الرأسمالية، لكنها لا تمارس كلها رأسمالية مراقبة خالصة، على الأقل ليس حتى هذه اللحظة.

على سبيل المثال، رسمت شركة آبل خطأ فاصلاً، متعمدةً بالامتناع عن العديد من الممارسات التي أراها جزءاً من نظام رأسمالية المراقبة. لكنني لا أظن أن سلوكها مثالاً في هذا الصدد، والخطّ الفاصل غير واضح أحياناً، وقد تُغير آبل توجهها أو تُخالفه. ولطالما فخرت شركة أمازون بتوافقها مع احتياجات عملائها، وبالحلقة الوطيدة بين جمع البيانات وتحسين الخدمات. تجني كلتا الشركتين إيراداتهما من المنتجات المادية والرقمية، وتواجهان ضغوطاً مالية أقلّ للسعي وراء إيرادات المراقبة مقارنةً بشركات البيانات البحتة. سنرى في الفصل التاسع أن شركة أمازون تتجه نحو رأسمالية المراقبة كما يبدو، مع التركيز الجديد على الخدمات 'الشخصية' personalized وإيرادات طرف ثالث.

ما إذا كانت الشركة قد انتقلت بشكل كامل إلى رأسمالية المراقبة أم لا، هو أمر لا يوضح أي شيء عن القضايا الحيوية الأخرى التي تثيرها عملياتها، من الممارسات الاحتكارية والمعادية للمنافسة في حالة أمازون، إلى التسعير واستراتيجيات الضرائب وسياسات التوظيف في شركة آبل. فلا ضمانات للمستقبل. وسنعرف بمرور الوقت ما إذا كانت شركة آبل ستستسلم لرأسمالية المراقبة أو ستتمسك بموقفها، أو ربما ستوسّع طموحاتها لترسيخ مسار بديل فعال لمستقبل إنساني يتماشى مع مثُل الاستقلال الفردي وأعمق قيم المجتمع الديمقراطي.

من الآثار المهمة لهذا التميز أنه عندما تعالج مجتمعاتنا الأضرار الرأسمالية التي تنتجها شركات التكنولوجيا، كالأضرار الناجمة عن الاحتكار أو الخصوصية، لا

تعارض هذه الإجراءات بالضرورة التزام الشركة بمواصلة تطوير رأسمالية المراقبة. على سبيل المثال، قد تؤدي الدعوات إلى تفكيك غوغل أو فيسبوك على أسس احتكارية إلى إنشاء شركات رأسمالية مراقبة متعددة، وإن كان على نطاق أضيق، ومن ثمّ إفساح الطريق أمام مزيد من المنافسين لرأسمالية المراقبة. وبالشكل ذاته، لا يخفف احتكار غوغل وفيسبوك للإعلان الإلكتروني من نطاق رأسمالية المراقبة إذا توزّعت حصّة سوق الإعلان الإلكتروني على خمس شركات رأسمالية مراقبة، أو خمسين شركة، بدلاً من اثنتين. أركّز في هذا الكتاب على الجوانب غير المسبوقة لعمليات رأسمالية المراقبة التي يجب التصدي لها، وإيقافها إذا أردنا احتواء هذا الشكل من السوق والقضاء عليه.

ينصبّ تركيزي في هذه الصفحات على غوغل وفيسبوك ومايكروسوفت. ولا أهدف هنا إلى نقد شامل لهذه الشركات بحد ذاتها، بل أعتبرها بمثابة 'أطباق بيري'⁽¹⁸⁾ التي يُفحص فيها "الجوهر" الخاص برأسمالية المراقبة على أفضل وجه. وهدفنا هنا، كما أشرت سابقاً، أن أضع خريطة لمنطق جديد، وعمليات هذا المنطق الجديد، وليس لشركة معيّنة أو تقنياتها. وأنا أتقلّب بين حدود هذه الشركات وغيرها لجمع الرؤى التي تُكمل الخريطة، تماماً كما تتقلّب مراقبون سابقون عبر أمثلة عديدة لفهم المنطق الجديد للرأسمالية الإدارية والإنتاج الضخم. وبما أن ابتكار رأسمالية المراقبة تم في الولايات المتحدة: في وادي السيليكون وفي شركة غوغل، فهذا يجعلها ابتكاراً أمريكياً يُصبح واقعاً عالمياً، كما هو الحال مع الإنتاج الضخم. لذلك يركّز جزء كبير من هذا النصّ على التطوّرات في الولايات المتحدة، مع أن عواقب هذه التطورات تعود إلى العالم أجمع.

عند دراسة ممارسات رأسمالية المراقبة التي تنتهجها شركات مثل غوغل وفيسبوك ومايكروسوفت وغيرها من الشركات، أوليتُ اهتماماً وثيقاً للمقابلات وبراءات الاختراع ومكالمات أرباح الأسهم والخطابات والمؤتمرات ومقاطع الفيديو وبرامج

(18) طبق بيري هو طبق أسطواني شفاف ضحل مصنوع من الزجاج أو البلاستيك، ويستخدم لاختبار نمو البكتيريا والفطريات (المترجم).

الشركات وسياساتها. كما أُجريت بين عامي 2012 و2015 مقابلات مع 52 عالم بيانات من 19 شركة مختلفة، بخبرة إجمالية تبلغ 586 عامًا في شركات التكنولوجيا المتقدمة والشركات الناشئة، وخاصةً في وادي السيليكون. وأُجريت هذه المقابلات في الوقت الذي كنت أطوّر فيه فهمي "للحقيقة الأساسية" لرأسمالية المراقبة، وبنيتها التحتية المادية. وقد تواصلت في البداية مع عدد قليل من علماء البيانات المرموقين، وكبار مطوّري البرمجيات، والمتخصصين في "الأجهزة التي تتبادل المعلومات فيما بينها". وازدادت عينة المقابلات التي أجريتها مع تعريف العلماء زملاءهم بي. أُجريت المقابلات، التي امتدت أحيانًا لساعات طويلة، مع ضمان السرية التامة وعدم الكشف عن الهوية، لكن امتناني لهم شخصي، وأُعلنه علنًا هنا.

أخيرًا، ستقرأ خلال هذا الكتاب مقتطفات من السوناتات الصينية للشاعر ويستان هيو أودن، بالإضافة إلى السوناتة الثامنة عشرة كاملة. هذه القصائد عزيزة عليّ، فهي استكشاف مؤثّر للتاريخ الأسطوري للبشرية، والنضال الدائم ضدّ العنف والهيمنة، والقوة المتعالية للروح البشرية ومطالبتها المستمرة بالمستقبل.

الجزء الأول

أسس رأسمالية المراقبة

الفصل الثاني

التاسع من شهر أغسطس / آب، 2011: تمهيد الطريق أمام رأسمالية

المراقبة

مكتبة

t.me/soramnqraa

ازدادت المخاطر والعقوبات،

ودافع الملائكة عن طريق العودة ضدّ الشاعر والمشرّع.

ويستأن هيو أودن،

II سوناتات من الصين،

في التاسع من شهر أغسطس / آب عام 2011، وقعت ثلاثة أحداث تفصل بينها آلاف الأميال، وكشفت عن آفاق وفيرة ومخاطر متراكمة تحيط بحضارة المعلومات الناشئة. **أولاً**، وعدت شركة آبل، الرائدة في وادي السيليكون، بحلم رقمي يتمثل في حلول جديدة للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية القديمة، وأخيراً ارتقت شركة إكسون موبيل لتصبح أكبر شركات العالم من حيث رأس المال. **ثانياً**، أطلقت شرطة لندن النار في الشارع مما أدى إلى اندلاع أعمال شغب واسعة النطاق في جميع أنحاء المدينة، واجتاحت البلاد موجة من الاحتجاجات العنيفة. وفشل عقد من النمو الرقمي الهائل في التخفيف من وطأة التقشف الاقتصادي النيوليبرالي وما نتج عنه من تفاوت شديد في المستويات. شعر كثير من الناس بأن المستقبل يُقصيهم، مما جعلهم يتبنون الغضب والعنف بصفتها حلاً وحيداً. **ثالثاً**، أكد المواطنون الإسبان على حقهم في مستقبل إنساني عندما تحدّوا غوغل بمطالبتهم "بحقّ النسيان". وقد لفت هذا الحدث انتباه العالم إلى سرعة تحوّل الأحلام العزيزة بمستقبل رقمي أكثر عدالة وديمقراطية إلى كابوس، كما أُنذر بصراع سياسي عالمي حول اندماج القدرات الرقمية

مع الطموحات الرأسمالية. إننا نستعيد ذلك اليوم من شهر أغسطس يومياً كما لو كان من أسطورة قديمة، وأصبحنا محكومين بالعودة إلى هذا المسار المتعرج حتى تتشكّل روح حضارتنا المعلوماتية في النهاية من خلال العمل الديمقراطي، أو القوة الخاصة، أو الجهل، أو الانحراف.

1. اختراق شركة آبل

اقتحمت شركة آبل المشهد الموسيقي بقوة في خضمّ معركة حامية الوطيس بين العرض والطلب. فمن جهة أولى، كان هناك شبابٌ عبّر حماسهم لموقع "نابستر" (Napster) وغيره من مواقع مشاركة ملفات الموسيقى عن نوعية جديدة من الطلب: استهلاك على طريقتي، كما أريد، في الوقت الذي أريد، وأينما أريد. ومن جهة أخرى، اختار مسؤولون تنفيذيون في صناعة الموسيقى بثّ الخوف، وسحق هذا الطلب، من خلال ملاحقة بعض أشدّ مستخدمي نابستر حماسةً ومقاضاتهم. وقد سدّت شركة آبل الفجوة بحلّ تجاري وقانوني قابل للتطبيق جعل الشركة تتوافق مع احتياجات الأفراد المختلفة، من خلال العمل مع الشركات المهيمنة في هذا المجال. لقد اخترقت شركة نابستر صناعة الموسيقى، لكن شركة آبل اخترقت الرأسمالية.

من السهل أن ننسى مدى دراماتيكية اختراق شركة آبل. فقد ارتفعت أرباح الشركة بشكل كبير بفضل مبيعات أجهزة "آيفون/ آيتيونز/ آيبود". إذ وصفت مجلة "بلومبرغ بيزنس ويك" محلي "وول ستريت" بأنهم "مذهولون" بمعجزة شركة آبل الغامضة. وكما قال أحدهم بحماس: "لا يمكننا حتى أن نصوغ بعض الاحتمالات.... أصبح الأتباع أشبه بأتباع دين".⁽¹⁹⁾ لا تزال الأرقام مذهلة حتى اليوم: بعد ثلاثة أيام من إطلاق منصّة "آيتيونز"، المتوافقة مع نظام تشغيل ويندوز، في شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام 2003، حمّل المستمعون مليون نسخة من برنامج "آيتيونز" المجاني، ودفعوا ثمن مليون أغنية، ما دفع ستيف جوبز إلى التصريح بأن الشركة "حطّمت الأرقام القياسية كلها في أقلّ من أسبوع، وأصبحت أكبر شركة موسيقا عبر الإنترنت في

(19) روبن فرزاد، "قوة أرباح آبل تُربك وول ستريت"، مجلة بلومبرغ بيزنس ويك، 7 أغسطس/ آب 2011.

العالم".⁽²⁰⁾ ثم ارتفع منسوب تحميل الأغاني ليلبلغ خمسة ملايين خلال شهر، ثم عشرة ملايين بعد ثلاثة أشهر، ثم خمسة وعشرين مليوناً بعد ثلاثة أشهر أخرى. وبعد أربع سنوات ونصف، في شهر يناير/ كانون الأول عام 2007، وصل العدد إلى مليارين، وبعد ست سنوات، في عام 2013، وصل إلى خمسة وعشرين ملياراً. في عام 2008، تفوّقت شركة آبل على شركة وول مارت لتصبح أكبر شركة لبيع الموسيقى في العالم. وشهدت مبيعات أجهزة آيود نموّاً هائلاً، حيث ارتفعت من مليون جهاز شهرياً، بعد إطلاق متجر الموسيقى، إلى 100 مليون جهاز بعد أقل من أربع سنوات، عندما دمجت آبل وظائف آيود في هاتفها الثوري آيفون، ما دفع عجلة النمو. واستنتجت دراسة أجريت عام 2017 حول عوائد سوق الأسهم أن شركة آبل حققت أرباحاً للمستثمرين أكثر من أي شركة أمريكية أخرى في القرن السابق.⁽²¹⁾

قبل مئة عام من ظهور جهاز آيود، مهّدت ضخامة الإنتاج الطريق لعصر جديد كُشِفَ فيه عن عالمٍ موازٍ من القيمة الاقتصادية الكامنة في مستهلكين جدد ما زالوا غير مفهومين جيداً، ولديهم رغبة في الحصول على السلع بأسعار في متناولهم. خفّض هنري فورد سعر السيارة بنسبة 60٪ بمنطقٍ صناعيٍ ثوري جمع بين الإنتاج الضخم وانخفاض تكلفة إنتاج الوحدة. أطلق عليه اسم "الإنتاج الضخم"، واختصره في مقولته الشهيرة: "يمكنك امتلاك سيارة بأي لون تريده طالما أنها سوداء اللون".

لاحقاً، بسّطَ ألفريد سلون، من شركة جنرال موتورز، هذا المبدأ على الشكل الآتي: "عندما يكون لدينا منتج نعرضه عليهم، أي [على المستهلكين]، نكون ملزمين بالضرورة ببيع هذا المنتج بسبب الاستثمار الهائل المشارك في طرحه في السوق".⁽²²⁾ وقد بُني نموذج أعمال صناعة الموسيقى على قاعدة إخبار المستهلكين بما سيشترونه، تماماً كما فعلت شركة فورد وسلون. استثمر المسؤولون التنفيذيون في إنتاج الأقراص

(20) "متجر" إيتيونز ميوزيك" يبيع أكثر من مليون أغنية في الأسبوع الأول"، "آبل نيوز روم"، التاسع من شهر مارس/ آذار عام 2018.

(21) جيف سومير، "أفضل استثمار منذ عام 1926 هو آبل"، نيويورك تايمز، 22 سبتمبر/ أيلول 2017.

(22) انظر شوشانا زوبوف وجيمس ماكسمين، اقتصاد الدعم: كيف تخذل الشركات الأفراد والحلقة التالية من الرأسمالية (نيويورك: بنغوين، 2002)، ص 230.

المدجة وتوزيعها، وكانت الأقراص المدجة هي ما يشتريه العملاء.

كان هنري فورد من أوائل من حققوا نجاحًا باهرًا باستغلال الاستهلاك الجماهيري الحديد بتصنيع سيارة من طراز (T). وكما هو الحال مع جهاز آيود، اضطرّ مصنع فورد لهذا الطراز لتلبية الطلب الهائل السريع. يمكن تطبيق الإنتاج الضخم على أي شيء، وقد كان كذلك. لقد غيرت هذه الفكرة إطار الإنتاج بانتشارها في مختلف أنحاء الاقتصاد، ومختلف أنحاء العالم، ورست هيمنة رأسمالية الإنتاج الضخم الجديدة كأساس لمراكمة الثروة في القرن العشرين.

غيرت ابتكارات آيود/ آيتونز هذا المنطق الصناعي العريق، واستغلت الإمكانيات الجديدة للتقنيات الرقمية/قلب تجربة الاستهلاك رأسًا على عقب. إذ أعادت شركة آبل صياغة العلاقة بين المستمعين وموسيقاهم بمنطق تجاري مميز كان ثوريًا أثناء طرحه للمرة الأولى، وإن بدا مألوفًا لدينا الآن.

اعتمدت تغييرات شركة آبل على بضعة عناصر أساسية. أتاحت فكرة إضفاء طابع رقمي على الموسيقى إمكانية إنقاذ الأصول القيمة - الأغاني في هذه الحالة - من القيود المؤسسية المقيقة. وأُلغيت الإجراءات المؤسسية المكلفة التي وصفها سلون، لصالح وصول المستمعين بشكل مباشر. وفي حالة الأقراص المدجة مثلًا، تجاوزت شركة آبل الإنتاج المادي للمنتج، إضافة إلى التغليف والتخزين والتسويق والنقل والتوزيع والبيع بالتجزئة. وأتاح الجمع بين منصّة آي تيونز وجهاز آيود للمستمعين إعادة ضبط أغانيهم المفضلة باستمرار وفقًا لرغبتهم. إذ لم يكن هناك جهاز آيود متماثلان، بل كان الجهاز نفسه يختلف من أسبوع لآخر، وفقًا للنمط الديناميكي الذي يقرّره المستمع. كان ذلك تطورًا هائلًا لصناعة الموسيقى ومن يدور في فلکها من تجار تجزئة ومسوّقين وما إلى ذلك، لكنه كان في الوقت نفسه ما يريده المستمعون الجدد.

كيف نفهم هذا النجاح؟ عادةً ما تُعزى "معجزة" آبل إلى عبقريتها التصميمية والتسويقية. ويُنظر إلى توق المستهلكين للحصول على "ما يريدونه، متى أرادوا وكيفما أرادوا"، على أنه مؤشر على طلب "ما يسهل استخدامه" بل يُعتبر أحيانًا نرجسية أو

مشاركة. وأنا أرى هذه التفسيرات باهتة للغاية مقارنةً بالضخامة غير المسبوقة لإنجازات آبل. لقد أقنعنا أنفسنا لزمن طويل بتفسيرات سطحية لاندماج آبل غير المسبوق بالرأسمالية والرقمية، بدلاً من التعمق في القوى التاريخية التي أفرزت شكل الحياة الجديد هذا.

مثلاً استغلّت شركة فورد الاستهلاك الجماهيري الجديد، كانت شركة آبل من بين أوائل الشركات التي حققت نجاحاً تجارياً هائلاً عبر التوافق مع مجتمع جديد من الأفراد، وحاجتهم إلى الاستهلاك الفردي. وتضمّن هذا الانقلاب قصة أكبر تتعلق بإصلاح تجاري قدّم فيها العصر الرقمي أخيراً الأدوات اللازمة لتحويل تركيز الاستهلاك من الجمهور إلى الفرد، وتحرير عمليات الرأسمالية وأصولها وإعادة تشكيلها. لقد وعد هذا الإصلاح بشيء جديد تمامًا، وضروري للغاية، ومستحيل عملياً خارج نطاق الشبكات الرقمية. كان وعده الضمني، بتوافقٍ مُوجّهٍ نحو دعم احتياجاتنا وقيمنا الجديدة، بمثابة تأكيد على شعورنا الداخلي بالكرامة والقيمة، ومصادقة على شعورنا بأهميتنا. ومن خلال توفير ما يسهل استخدامه من عامل مؤسسي لا يبالي باحتياجات المستهلكين الفردية، فتحّ هذا الوعد الباب أمام إمكانية ظهور رأسمالية عقلانية جديدة قادرة على إعادة توحيد العرض والطلب، من خلال ربطنا بما نريده حقاً، بالطرق التي نختارها تحديداً.

سأنقش في الفصول الآتية فكرة مفادها أن الظروف التاريخية نفسها، التي دفعت جهاز الآيبود إلى رحلته الجائحة، هي التي استدعت الوعد التحرري الذي قدمته شبكة الإنترنت إلى حياتنا اليومية بينما كنا نسعى إلى علاج لعدم المساواة والإقصاء. وما يهمني في قصّتنا هذه هو أن الظروف ذاتها هي التي وفّرت ملاذاً مهماً لقدرة رأسمالية المراقبة على التجنّد والازدهار. وبتعبير أدق، يعود نجاح معجزة آبل ورأسمالية المراقبة كليهما إلى التصادم المدمر بين قوتين تاريخيتين متعارضتين. يرجع أحد سهمي القوة هذين إلى تاريخ التحديث والتحوّل المجتمعي الطويل الذي امتدّ لقرون من الجماهير إلى الأفراد. ويرجع السهم الآخر إلى عملية إعداد النموذج الاقتصادي الليبرالي وتنفيذه، والتي استمرّت لعقود من الزمن: اقتصاداته السياسية، وتحويله للمجتمع، ولا سيما هدفه

التمثّل في قلب الرغبة الفردية في تقرير المصير النفسي والفاعلية الأخلاقية وإخضاعها وإعاققتها وحتى تدميرها. وتوضح الأقسام التالية بإيجاز الخطوط العريضة الأساسية لهذا التصادم، وتضع شروطاً مرجعية سنعود إليها في الفصول الآتية بينما نستكشف الصعود السريع لرأسمالية المراقبة إلى الهيمنة.

2. الحداثتان

تطوّرت الرأسمالية استجابةً لاحتياجات الناس في زمان ومكان محددين. وكان هنري فورد واضحًا في هذه النقطة: "يبدأ الإنتاج الضخم عند إدراك حاجة عامة".⁽²³⁾ عندما كانت شركات صناعة السيارات في ديترويت منشغلة بتصميم المركبات الفاخرة، كان فورد يقف وحيدًا في اعترافه بالكثير من الأفراد الجدد الذين يتخذون طابعًا حداثويًا - مزارعين، عاملين بالأجر اليومي، أصحاب متاجر - أفرادًا يملكون القليل ويطمحون إلى الكثير، لكن بضمن يمكنهم تحمّله. وانبثق "طلبهم" من الظروف المعيشية ذاتها التي دفعت فورد ورجاله لاكتشاف القوة التحويلية لمنطق إنتاج جديد موحد، بكميات كبيرة، وتكلفة منخفضة للوحدة. كان "يوم العمل بخمسة دولارات" الشهير لفورد رمزًا لمنطق المعاملة بالمثل النظامي. من خلال دفعه أجورًا لعمال خطوط التجميع تفوق ما توقعه أي شخص، أدرك أن مشروع الإنتاج الضخم بأكمله يعتمد على ازدهار عدد المستهلكين.

على الرغم من الإخفاقات الكبيرة للسوق وقادته، وحدث كثير من الحقائق العنيفة، كان رواده الحداثويون الجدد موضع تقدير باعتبارهم مصدرًا ضروريًا للزبائن والموظفين. فقد اعتمد السوق على مجموعاته بطرق من شأنها أن تؤدّي في نهاية المطاف إلى مجموعة من علاقات التبادل التي تتخذ طابعًا مؤسسيًا. **ظاهريًا**، كان الحصول على السلع والخدمات بأسعار معقولة مقيّدًا بإجراءات ديمقراطية وأساليب إشراف تؤكّد حقوق العمال والمستهلكين وسلامتها وحمايتها. **وداخلية**، كانت توجد أنظمة

(23) هنري فورد، "الإنتاج الضخم"، موسوعة بريتانكا (نيويورك: موسوعة بريتانكا، 1926)، 821.

توظيف متينة، وسلام وظيفية، وزيادات مطردة في الأجور والمزايا.⁽²⁴⁾ في الواقع، إذا تابعنا الأمر من منظور السنوات الأربعين الماضية، التي تفكّك فيها شكل السوق هذا بشكل منهجي، تبدو تلك العلاقة التبادلية في النظام الاجتماعي وكأنها إحدى أبرز سماته، مهما كانت مزعجة وغير كاملة.

هذا يتضمّن أن إنتاجية السوق الجديدة تزداد عندما تتشكّل وفقاً لمطالب الناس وطريقة تفكيرهم الفعلية. وقد أوضح عالم الاجتماع العظيم إميل دوركهائم هذه النقطة في مطلع القرن العشرين، وتشكّل رؤيته حجر الاختبار في هذا الكتاب. لدى ملاحظته للاضطرابات الدرامية التي شهدتها الصناعة في عصره - المصانع والتخصّصات وتقسيم العمل المعقّد - أدرك أنه على الرغم من قدرة علماء الاقتصاد على وصف هذه التطوّرات، فلم يتمكنوا من فهم أسبابها. وجادل بأن هذه التغيرات الجذرية "نتجت" عن حاجات الناس المتغيرة، وأن الاقتصاديين كانوا (وما زالوا) غافلين بشكل منهجي عن هذه الحقائق الاجتماعية:

يبدو تقسيم العمل بالنسبة إلينا مختلفاً عما يراه الاقتصاديون. فهم يرون أنه جوهره يكون في زيادة الإنتاج. لكننا نرى أن هذه الإنتاجية المتزايدة هي نتيجة ضرورية، وانعكاسٌ للظاهرة. إذا تخصّصنا، فلن يكون الهدف إنتاج المزيد بل سيكون تمكيننا من العيش في ظروف وجودية جديدة وُضعت لنا.⁽²⁵⁾

عرّف دوركهائم السعي الإنساني الدائم للعيش بفعالية في "ظروف وجودنا" بأنه القوة السببية الخفية التي تُستدعي تقسيم العمل، والتكنولوجيات، وتنظيم العمل، والرأسمالية، والحضارة نفسها في نهاية المطاف. ويصاغ ذلك كلّ في بوتقة الحاجة الإنسانية نفسها التي يُنتجها ما أسماه دوركهائم "عنف الصراع" المتزايد باستمرار من أجل حياة أكثر فاعلية: "إذا ازدادَ تقسيمُ العملِ"، فذلك لأنَّ "الصراعَ من أجل البقاء

(24) ليزابيث كوهين، جمهورية المستهلكين: سياسات الاستهلاك الشامل في أميركا ما بعد الحرب (نيويورك: كنوبف، 2003)؛ مارتن جي. سكلار، إعادة بناء الشركات الرأسمالية الأميركية: 1890-1916: السوق والقانون والسياسة (نيويورك: جامعة كامبريدج، 1988).

(25) إميل دوركهائم، تقسيم العمل في المجتمع (نيويورك: فري برس، 1964)، ص 275 (الخط المائل يعود لي).

يزدادُ حدةً".⁽²⁶⁾ تعكس عقلانية الرأسمالية هذا التوافق، على الرغم من عدم كماله، مع الاحتياجات التي يواجهها الناس أثناء محاولتهم عيش حياتهم بشكل أكثر فاعلية، والصراع مع ظروف الوجود التي يواجهونها في زمانهم ومكانهم.

عندما ننظر من خلال هذه العدسة، نرى أن هؤلاء الزبائن المتحمسين لسيارة فورد موديل (T) الرائعة، والمستهلكين الجدد لأجهزة آيود وآيفون، هم تعبير عن ظروف الحياة التي ميزت عصرهم. يمثل كلٌ منهم في الواقع ثمرة مرحلة معينة من عملية امتدت قرونًا تُعرف باسم "الفردانية"، وهي السمة الإنسانية للعصر الحديث. كان جمهور مستهلكي فورد أعضاءً فيما يسمى "الحداثة الأولى"،⁽²⁷⁾ لكن ظروف "الحداثة الثانية" الجديدة أنتجت أفرادًا من نوع جديد أصبح تحولات آبل، وما تلاه من ابتكارات رقمية عديدة، أمرًا أساسيًا بالنسبة إليهم. إذ استدعت هذه الحداثة الثانية شركات مثل غوغل وفيسبوك إلى حياتنا، وأسهمت، في تطوّر غير متوقّع، في ترسيخ رأسمالية المراقبة التي تلتها.

ما هي هذه الحداثات، وما هي أهميتها بالنسبة إلى قصتنا؟ حدث مجيء الفرد باعتباره محورًا للفاعلية والخيار الأخلاقي في البداية في الغرب، حيث توفّرت الشروط المناسبة لهذا الظهور. **أولاً**، دعونا نؤكد على أنه لا ينبغي الخلط بين مفهوم "الفردانية" وأيديولوجية "الفردية" النيوليبرالية التي تحوّل كل المسؤولية عن النجاح أو الفشل إلى فرد أسطوري، معزول، يعيش حياة منافسة دائمة، ومنفصل عن العلاقات والمجتمع. ولا تشير أيضًا إلى عملية "التفرّد" النفسية المرتبطة باستكشاف الذات مدى الحياة. فالفردانية هي نتيجة لعمليات تحديث طويلة الأمد.⁽²⁸⁾

(26) دوركهيم، تقسيم العمل في المجتمع، 266.

(27) أولريش بيك ومارك ريتز، مجتمع المخاطر: نحو حداثة جديدة (ناوزند أوكس، كاليفورنيا: سيغ، 1992).

(28) للقراء المهتمين بتحليل مفصّل لتساعد هذه الظاهرة، أنصحهم بالاطلاع على المناقشة الموسعة في كتاب زوبوف وماكسمين، "اقتصاد الدعم". انظر أيضًا: أولريش بيك واليزابيث بيك-غيرنسهام، "الفردانية: الفردية المؤسسية وعواقبها الاجتماعية والسياسية" (لندن: سيغ، 2002)؛ أولريش بيك، "لماذا تُعدّ الطبقة فئة ضعيفة للغاية بحيث لا تعكس مدى انفجار التفاوت الاجتماعي في بداية القرن الحادي والعشرين"، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع، المجلد 64، العدد 1 (2013) 63-74؛ أولريش بيك وإدغار

كان يُتنبأ بكل حياة، حتى اللحظات الأخيرة من تاريخ البشرية الحالي، بالدم والجغرافيا، والجنس والقرباة، والرتبة والدين. أنا ابنة أُمي. أنا ابن أبي. ونشأ مفهوم الإنسان بصفته فردًا/ بشكل تدريجي منتزعًا من هذه القبضة القديمة. وبدأنا قبل نحو مئتي عام بأول طريق حديث لم تعد تورث الحياة فيه جيلًا بعد جيل وفقًا لتقاليد القرية والعشيرة. تمثل هذه "الحداثة الأولى" الفترة التي أصبحت فيها الحياة "فردانية" بالنسبة إلى أعداد كبيرة من الناس بعد انفصالهم عن المعايير والمعاني والقواعد التقليدية.⁽²⁹⁾ هذا يعني أن كل حياة أصبحت واقعيًا مفتوحًا للاكتشاف، بدلًا من أن تكون يقينًا يُطبق. حتى مع بقاء العالم التقليدي سليماً لكثير من الناس اليوم، لم يعد من الممكن عيشه كقصة ممكنة وحيدة.

غالبًا ما أفكر في شجاعة أجدادي. يا له من مزيج من الحزن والرعب والابتهاج راود شعورهم عام 1908، عندما صمّموا على الفرار من عذابات القوزاق السلافيين الشرقيين في قريتهم الصغيرة خارج كييف، فجمعوا ممتلكاتهم كلها وأطفالهم الخمسة، بمن فيهم جدي ماكس ذو السنوات الأربع، وركبوا سفينة ستُقلع إلى أمريكا؟ لقد فروا من عالم لا يزال إقطاعيًا، مثل ملايين رواد هذه الحداثة الأولى، ووجدوا أنفسهم يباشرون حياة جديدة كليًا. تزوج ماكس لاحقًا من صوفي، وأسس عائلةً بعيدةً عن إيقاعات القرى التي أنجبتهما. جسّد الشاعر الإسباني أنطونيو ماتشادو نشوة هؤلاء الأفراد وجرأتهم من مواليد الحداثة الأولى في أغنيته الشهيرة: "أيها المسافر، لا يوجد طريق؛ فالطريق يُرسَّم حيثما تذهب". هذا ما يعنيه "البحث": رحلةٌ استكشافٍ وبناءٍ للذات، لا مجرد محاولةٍ سريعةٍ للحصول على إجاباتٍ جاهزة.

على الرغم من ذلك، احتفظ المجتمع الصناعي الجديد بكثير من السمات الهرمية للعالم الإقطاعي القديم في نماذج انتمااته القائمة على الطبقة والعرق والمهنة والدين والإثنية والجنس، بالإضافة إلى هياكل المجتمع الجماهيري العملاقة: شركاته، وأماكن

غراندي، "أنواع الحداثة الثانية: المنعطف الكوزموبوليتاني في النظرية والبحوث الاجتماعية والسياسية"،
المجلة البريطانية لعلم الاجتماع، المجلد 61 العدد 3 (2010)، 443-409.
(29) بيك وريتر، مجتمع المخاطر.

عمله، ونقاباته، وكنائسه، وأحزابه السياسية، وجماعاته المدنية، وأنظمتها المدرسية. ولا يزال هذا النظام العالمي الجديد المكوّن من جمهور، ومنطقه البيروقراطي القائم على التركيز والمركزية والتوحيد والإدارة، يوفر مراسي وإرشادات وأهدافاً راسخة لكل حياة.

كان على صوفي وماكس، مقارنة بوالديهما والأجيال السابقة كلها، أن يتدبّرا أمرهما بطريقتهما الخاصة، لكن ليس كل شيء. عرفت صوفي أنها ستربي العائلة. وعرف ماكس أنه سيكسب رزقهما. أنت تتكيف مع ما يقدمه العالم، وتلتزم بالقواعد. ولن يسألك أحد عن رأيك أو يستمع إليك إن تحدثت. كان يُتَوَقَّع منك أن تفعل ما يُفترض بك أن تفعل، ثم تستطيع أن تشقّ طريقك تدريجيًا. تُنجب أسرة كريمة، وتحصل في النهاية على منزل وسيارة وغسالة ملابس وثلاجة. وقد وجد رواد الإنتاج الضخم، أمثال هنري فورد وألفريد سلون، طريقةً لتوفير هذه الأشياء لك بسعرٍ في متناول يدك.

إذا كان هناك توتر وقلق، فهذا يعكس ضرورة الوفاء بمتطلبات دور الشخص في الحياة. كان يُتَوَقَّع منه أن يكبت أي شعور بالذات يتجاوز حدود الدور الاجتماعي المعطى، حتى لو كلفه ذلك ثمنًا نفسيًا باهظًا. كانت التنشئة الاجتماعية والتكيف بمثابة المواد التي استند إليها علم النفس وعلم الاجتماع عندما اعتبرا أن الأسرة الأساسية الصغيرة هي "مصنع لإنتاج شخصيات" جاهزة للتوافق مع المعايير الاجتماعية لجمهور المجتمع.⁽³⁰⁾ أدّت تلك "المصانع" أيضًا إلى ظهور العديد من التحديات الاجتماعية والنفسية، مثل غموض الهوية، أفراد يشعرون بالاختلاف عن المجتمع، وأشخاص يحملون معتقدات متنوعة، بالإضافة إلى قضايا حساسة تتم معالجتها بعيدًا عن الأعين. ورغم ذلك، فقد أنتجت في النهاية أفرادًا من البشر، مثلنا جميعًا، يشاركونا الحياة والتجارب.

عندما انطلقت في الطريق المفتوح، لم تكن هناك إجابات تُذكر، ولا شيء يُحتذى به، ولا بوصلة أتبعها سوى القيم والأحلام التي حملتها في داخلي. لم أكن وحدي؛ بل كان

(30) تالكوت بارسونز، البنية الاجتماعية والشخصية (نيويورك: فري برس، 1964).

الطريق يغصّ بكثير من خاضوا الرحلة ذاتها. لقد أنجبتنا الحداثة الأولى، لكننا أنعشنا عقلية جديدة: "حداثة ثانية".⁽³¹⁾ وما بدأ كهجرة حديثة من أنماط الحياة التقليدية، ازدهر في مجتمع جديد ممن وُلِدوا في ظل شعور بالفردية النفسية، مع حقهم الفطري المزدوج بالحرية وتلبية الأشياء الضرورية. نحن نشعر بحقنا في اختيار حياتنا، وبضرورة ذلك. لم نعد راضين بأن نكون أعضاء مجهولين بين الجمهور، ونشعر بحقنا في تقرير المصير، وهي حقيقة واضحة بالنسبة إلينا، لكنها كانت أشبه بتصرّف متغطرس مستحيل بالنسبة إلى صوفي وماكس. تُعتبر هذه العقلية إنجازًا استثنائيًا للروح البشرية، حتى لو كانت بمثابة حكم بالسجن المؤبد لعدم اليقين والقلق والتوتر.

اتخذت قصة الفردانية هذا المنحى الجديد نحو "حداثة ثانية"، منذ النصف الثاني من القرن العشرين. وأنتجت الحداثة الصناعية، وممارسات رأسمالية الإنتاج الضخم في جوهرها، ثروة فاقت كل تصوّر. وحيث اكتملت تلك الثروة بوجود السياسة الديمقراطية، وسياسات التوزيع، والقدرة على الوصول إلى التعليم والرعاية الصحية، ومؤسسات المجتمع المدني القوية، بدأ ظهور "مجتمع جديد من الأفراد" للمرة الأولى. إذ تمكّن مئات ملايين البشر من الوصول إلى تجارب كانت في السابق حكراً على نخبة ضئيلة: التعليم الجامعي، والسفر، وتحسين متوسط العمر المتوقع، وتحسين الدخل، وارتفاع مستوى المعيشة، والوصول الواسع إلى السلع الاستهلاكية، وتدفق الاتصالات والمعلومات المتنوعة، والعمل المتخصص الذي يتطلب جهداً فكرياً.

لقد وعد الميثاق الاجتماعي الهرمي والمجتمع الجماهيري في الحداثة الأولى بمكافآت متوقعة، ولكن نجاحهما نفسه كان بمثابة الأداة الذي أطلقت سراحنا وأرسلتنا إلى شواطئ الحداثة الثانية، ودفعتنا نحو حياة أكثر تعقيداً وثراءً. لقد أدّى التعليم والعمل المعرفي إلى زيادة إتقان اللغة والفكر، وهي الأدوات التي نستخدمها لإنشاء المعنى

(31) بيك وبيك غيرنسهيلم، الفردانية.

الشخصي وتكوين آرائنا الخاصة. وحفّز التواصل والمعلومات والاستهلاك والسفر وعي الفرد بذاته، وقدراته التخيلية، وشكّل بها وجهات نظره الخاصة وقيمه ومواقفه بطرق لم تعد تُحصر في أدوار مُحددة سلفاً أو في هوية جماعية. وأتاح تحسّن الصحة وطول العمر فرصةً لتعميق الحياة الذاتية ونضجها، مُعزّزاً شرعية الهوية الشخصية في مواجهة المعايير الاجتماعية المسبقة.

حتى عندما نعود إلى الأدوار التقليدية، فستكون الآن خيارات وليست حقائق مطلقة مفروضة منذ الولادة. وكما وصفها إريك إريكسون، كبير العلماء المختصين بالهوية، ذات مرة: "يعاني مريضُ اليوم أشدَّ المعاناة من مشكلة ما ينبغي أن يؤمنَ به، ومن ينبغي أن يكونَ - أو... مَنْ مَن الممكن أن يكونَ - أو يصبحَ عليه؛ بينما عانى مريضُ التحليل النفسي في الماضي أشدَّ المعاناة من قيودٍ منعه من أن يكونَ من كان يعرف أنه عليه، أو من ظنَّ أنه يعرف أنه عليه".⁽³²⁾ ازداد وضوح هذه العقلية في البلدان الثرية، لكن الأبحاث تظهر وجود أعداد كبيرة من الأفراد الذين ينتمون إلى عصر الحداثة الثانية في كل منطقة من العالم تقريباً.⁽³³⁾

(32) إريك إريكسون، الطفولة والمجتمع (نيويورك: دبليو دبليو نورتون، 1993)، 279.

(33) رونالد إنغلهارت، التحول الثقافي في المجتمع الصناعي المتقدم (برينستون، نيو جيرسي: جامعة برينستون، 1990)؛ رونالد إف. إنغلهارت، "القيم المتغيرة بين الجماهير الغربية من عام 1970 إلى عام 2006"، سياسات أوروبا الغربية 31، العددان 2-1 (2008): 130-146؛ رونالد إنغلهارت وكريستيان ويلز، "كيف وصلنا إلى هنا: كيف تؤدي التنمية إلى الديمقراطية"، الشؤون الخارجية 88، العدد 2 (2012): 48-50؛ رونالد إنغلهارت وواين إي. بيكر، "التحديث والتغيير الثقافي واستمرار القيم التقليدية"، المراجعة الاجتماعية الأمريكية 65، العدد 1 (2000): 19؛ ميت هال سكوف هانسن، الصين: صعود الفرد في المجتمع الصيني الحديث، محرر. رون سفارقيروود (كونهاغن: المعهد النوردي للدراسات الآسيوية، 2010)؛ يونسيانغ يان، فردية المجتمع الصيني (أكسفورد: بلومزبري أكاديميك، 2009)؛ آرثر كلايمان وآخرون، الصين العميقة: الحياة الأخلاقية للشخص (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 2011)؛ تشانغ كيونغ سوب وسونغ مين يونغ، "الفرد المنقطع في ظل الحداثة المضغوطة: المرأة الكورية الجنوبية في الفردية دون الفردية"، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 61، عدد 3 (2010)؛ تشانغ كيونغ سوب، "الحالة الحديثة الثانية؟ الحداثة المضغوطة ككوسموبوليتية انعكاسية داخلية"، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 61، عدد 3 (2010)؛ مونينوري سوزوكي وآخرون، "فردانية اليابان: البحث عن أصلها في الحداثة الأولى"، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 61، عدد 3 (2010)؛ أنتوني إليوت، وماساتاكاتا جيري، وأنسوشي ساواي، "الفردية الجديدة واليابان المعاصرة: المسارات النظرية والمسار الفردي الياباني الجديد"، مجلة نظرية السلوك الاجتماعي، المجلد 42، العدد 4 (2012)؛ ميتسونوري إيشيدا وآخرون، "فردانية العلاقات في اليابان"، سوزيالي فيلت 61 (2010): 217-235؛ ديفيد تايفيلد وجون أوري، "الصين العالمية؟" سوزيالي

قمعت الحداثة الأولى نمو الذات والتعبير عنها لصالح الحلول الجماعية، ومع الحداثة الثانية، أصبحت الذات كل ما نملك. انتشر في العالم شعور جديد بالسيادة النفسية قبل وقت طويل من ظهور الإنترنت لتضخيم هذه الادعاءات. نتعلم بالتجربة والخطأ كيف ننسج حياتنا. لا شيء يوهب، وينبغي مراجعة كل شيء، وإعادة التفاوض، وإعادة البناء وفق قيم ذات معنى بالنسبة إلينا: الأسرة والدين والجنس والجندر والأخلاق والزواج والمجتمع والحب والطبيعة والروابط الاجتماعية والمشاركة السياسية والعمل والطعام....

هذه العقلية الجديدة ومتطلباتها هي بالتأكيد ما دفعت الإنترنت، ومنظومات المعلومات المتنامية، إلى حياتنا اليومية. وحولتنا أعباء الحياة، دون وجود مصير واضح، إلى الاعتماد على موارد البيئة الرقمية الجديدة الغنية بالمعلومات، حيث أتاحت لنا سبلاً جديدة لإيصال أصواتنا وصوغ أنماط تواصلنا التي نختارها بأنفسنا. إن هذه الظاهرة عميقة إلى درجة أنه يمكننا أن نقول دون مبالغة إن الفرد، بصفته كاتب قصة حياتها، هو بطل الرواية في عصرنا، سواء أكنّا نختبر هذه الحقيقة من حيث هي تحرراً أم بلاء. (34)

تشكّلت الحداثة الغربية حول مجموعة مبادئ وقوانين تمنح معرفة وحقوقاً فردية لا يمكن المساس بها، وتعترفُ بقدسية حياة كل فرد. (35) لكن لم تبدأ التجربة الحسية باتباع القانون الرسمي إلا مع الحداثة الثانية. وقد تجلّت هذه الحقيقة الحسية في مطالب جديدة بتطبيق ما هو مُقرّر في القانون في الحياة اليومية. (36)

كان يُفترَض أن يكون من الصعب العيش مع الحداثة الثانية، على الرغم من إمكاناتها التحررية، وتعكس ظروف وجودنا اليوم هذه المشكلة. وتنبع بعض تحديات

فيلت 61 (2010): 277-293.

(34) بيك، أولريش. الفردية: الدين والسلام وإمكانية العنف. ترجمة رودني ليفينغستون. كامبريدج، المملكة المتحدة: دار بوليتي، 2010.

(35) توماس إم. فرانك، الذات المتمكنة: القانون والمجتمع في عصر الفردية (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2000).

(36) بيك وبيك غيرنسهيلم، التفرد، الثاني والعشرون.

الحدثة الثانية من التكاليف الحتمية المرتبطة بتكوين حياة الفرد واستمرارها، إلا أن عدم استقرار الحدثة الثانية هو أيضًا نتيجة للتحوّلات المؤسسية في السياسات والممارسات الاقتصادية والاجتماعية المرتبطة بالنموذج النيوليبرالي وصعوده إلى الهيمنة. يهدف هذا النموذج الشامل إلى احتواء موجة الحدثة الثانية العلمانية من ادعاءات تقرير المصير، وإعادة توجيهها وعكس مسارها، وإيجاد البيئات التي يمكن أن تزدهر فيها هذه الادعاءات. نعيش في هذا التصادم بين قصة تحديث عمرها قرون، وقصة عنف اقتصادي عمرها عقود، تُعيق سعيينا نحو حياة فاعلة.

هناك أعمال غنية ومقنعة توثق نقطة التحوّل هذه في التاريخ الاقتصادي، وأهدف هنا ببساطة إلى لفت الانتباه إلى بعض المواضيع في هذه الرواية الضخمة، والتي تُعدّ حيوية لفهمنا للتصادم: حالة الوجود التي استدعت "معجزة" آبل ونمو رأسمالية المراقبة اللاحق.⁽³⁷⁾

3. الموطن النيوليبرالي

شهد منتصف سبعينيات القرن العشرين حصارًا للنظام الاقتصادي في فترة ما بعد

(37) دانيال ستيدمان جونز، سادة الكون: هايك وفريدمان وميلاد السياسة النيوليبرالية (برينستون، نيوجيرسي: جامعة برينستون، 2012)؛ تي. فلو، "ميلاد السياسة الحيوية ومناظرات النيوليبرالية المعاصرة عند ميشيل فوكو"، أطروحة الحادي عشر 108، العدد 1 (2012): 44-65؛ فيليب ميروفسكي، لا تدع أزمة خطيرة تذهب سدى: كيف نجت النيوليبرالية من الانهيار المالي (لندن: فيرسو، 2013)؛ جيرار دومينيل ودومينيك ليفي، أزمة النيوليبرالية (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2013)؛ بير داردو وكريستيان لافال، "الطريق الجديد للعالم: حول المجتمع النيوليبرالي" (بروكلين: فيرسو، 2013)؛ أنطونيو فيريرا، "سياسات النقشف كسياسات قانونية"، سلسلة أوناتا الاجتماعية القانونية، المجلد 6، العدد 3 (2016): 496-519؛ ديفيد إم. كوتز، صعود وسقوط الرأسمالية النيوليبرالية (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2017)؛ فيليب ميروفسكي وديتر بلهوي، محرران، الطريق من مونت بيليرين: صناعة الفكر النيوليبرالي الجماعي (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2009)؛ ويندي براون، التراجع عن المظاهرات: ثورة النيوليبرالية الخفية (نيويورك: زون، 2015)؛ ديفيد جاكوبس وليندسي مايرز، "قوة الاتحاد، والليبرالية الجديدة، وعدم المساواة: تحليلات سياسية طارئة للفوارق في الدخل في الولايات المتحدة منذ عام 1950"، المراجعة الاجتماعية الأمريكية 79 (2014): 752-774؛ أنغوس بورغين، الإقناع العظيم: إعادة اختراع الأسواق الحرة منذ الكساد (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2012)؛ جريتا ر. كريبر، الاستفادة من الأزمة: الأصول السياسية لظهور التمويل (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2011).

الحرب العالمية الثانية، وتحلّى ذلك في الركود والتضخّم والانخفاض الحاد في النمو، لا سيما في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. كما شهدت المنظومة السياسية ضغوطاً جديدة، حيث احتشد أفراد الحداثة الثانية - ولا سيما الطلاب والعمال الشباب والأمريكيون من أصل أفريقي، والنساء واللاتينيون وغيرهم من الفئات المهمّشة - مطالبين بالمساواة في الحقوق والتعبير عن الرأي والمشاركة. كانت حرب فيتنام بؤرة للاضطرابات الاجتماعية في الولايات المتحدة، وأثار الفساد الذي كشفته فضيحة ووترغيت إصراراً شعبياً على الإصلاح السياسي. وأدّى التضخّم في المملكة المتحدة إلى توتر العلاقات الصناعية إلى حد كبير. وفي كلا البلدين، أدّى شبح التدهور الاقتصادي العصيّ على الحلّ، والمطالبات الجديدة الصريحة بميثاق اجتماعي ديمقراطي، إلى حالة من الارتباك والقلق واليأس لدى المسؤولين المنتخبين، غير المؤهلين للحكم، بسبب فشل السياسات "الكثزية"⁽³⁸⁾، الموثوقة في الماضي، في عكس المسار.

كان خبراء الاقتصاد النيوليبراليون على أهبة الاستعداد بانتظار هذه الفرصة، وفاضت أفكارهم في "الفراغ السياسي" الذي أزعج الحكومتين في ذلك الوقت.⁽³⁹⁾ كان هؤلاء الاقتصاديون، بقيادة الخبير الاقتصادي النمساوي فريدريك هايك الذي كان قد حصل للتو على جائزة نوبل في عام 1974، ونظيره الأميركي ميلتون فريدمان الذي حصل على جائزة نوبل بعد عامين، قد صقلا نظريتهما الاقتصادية الأساسية عن السوق الحرة، وأيديولوجيتهما السياسية، وأجندتهما البراغماتية طوال فترة ما بعد الحرب على هامش مهنتهما، في ظل الهيمنة الكينزية، وقد حان وقتها الآن.⁽⁴⁰⁾

نشأت عقيدة السوق الحرة في أوروبا كدفاع شامل ضدّ خطر الأيديولوجيات الجماعية الشمولية والشيوعية. وأرادت إحياء قبول السوق ذاتية التنظيم كقوة طبيعية بالغة التعقيد والكمال، مما تطلّب انفلاتاً جذرياً من أشكال رقابة الدولة كلها. أوضح

(38) سياسات الاقتصاد البريطاني "جون مينارد كينز" التي تركّز على دور القطاعين العام والخاص في الاقتصاد، أي أنه مع تدخّل الدولة في بعض المجالات (لمتجم).

(39) جونز، سادة الكون، ص 215. انظر أيضاً كربينر، الاستفادة من الأزمة.

(40) بقدّم ميروفسكي وداردوت ولافال وجونز روايات مفصّلة عن هذه التطوّرات.

هايك ضرورة الخضوع المطلق الفردي والجماعي لقواعد السوق الصارمة باعتباره "نظامًا موسّعًا" غير قابل للمعرفة، ويتجاوز السلطة السياسية الشرعية المخولة للدولة: "يشرح الاقتصاد الحديث كيف أن نظامًا موسّعًا كهذا يشكّل عملية جمع معلومات... ولا يمكن لأية وكالة تخطيط مركزية، ناهيك عن أي فرد، أن تعرفها بشكلها الكامل أو تمتلكها أو تسيطر عليها.....".⁽⁴¹⁾ وأصرّ هايك وإخوانه الأيديولوجيون على رأسمالية مُجرّدة من جوهرها الخام، لا تعيقها أية قوة أخرى، ولا تتأثر بأية سلطة خارجية. وقد قُبِلَ التفاوت في الثروة والحقوق، بل احتُفي به، كسمة أساسية لنجاح نظام السوق، وقوة دافعة للتقدّم.⁽⁴²⁾ كما وفّرت أيديولوجية هايك البنية الفكرية الفوقية والشرعية لنظرية جديدة للشركة التي أصبحت سابقة أساسية أخرى لشركة رأسمالية المراقبة: بنيتها ومحتواها الأخلاقي وعلاقتها بالمجتمع.

نقذ الاقتصاديان مايكل جينسن وويليام ميكلينغ هذا المفهوم الجديد. وباعتماد كثيف على عمل هايك، هاجم الباحثان المبادئ الاجتماعية للشركات في القرن العشرين، وهي الحركة التي عُرِفَتْ لاحقًا باسم "حركة قيمة المساهمين". ونشرا عام 1976 مقالًا هامًا أعاد فيه وصف المدراء بأنهم نوع من الطفيليات التي تتغذى على مُلكيّة المُضيف: ربما لا مفرّ من وجوده، لكنه، على الرغم من ذلك، عقبة أمام ثروة المساهمين. وجادلوا بجرأة بأن الانفصال الهيكلي بين المالكين والمدراء "يمكن أن يؤدي إلى انخفاض قيمة الشركة بشكل كبير عما يمكن أن تكون عليه بخلاف ذلك".⁽⁴³⁾ إذا قلّل المدراء من قيمة الشركة لأصحابها بما يخدم مصالحهم وراحتهم، فمن المنطقي أن يفعلوا ذلك. وجادل هؤلاء الاقتصاديون بأن الحل يكمن في تأكيد قيمة السوق، أي سعر السهم، كأساس لهيكل حوافز جديد يهدف إلى مواءمة سلوك الإدارة مع مصالح المالكين بشكل حاسم ونهائي. إن المدراء الذين فشلوا في الانصياع لإشارات "نظام

(41) فريدريك أوغست فون هايك، الوهم القاتل: أخطاء الاشتراكية، تحرير ويليام وارن باركلي، المجلد الأول، الأعمال الكاملة لفريدريك أوغست هايك (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1988)، 14-15.

(42) ميروفسكي، لا تدع أزمة خطيرة تذهب سدى، 53-67.

(43) مايكل سي. جينسن وويليام إتش. ميكلينغ، "نظرية الشركة: السلوك الإداري وتكاليف الوكالة وهيكل الملكية"، مجلة الاقتصاد المالي 3، العدد 4 (1976): 12.

هايك الموسّع"، التي تفوق الوصف، سرعان ما سيصبحون فريسة "هجمات كانت متوقعة" في مطاردة جديدة شرسة للقيمة السوقية غير المحققة.

في ظل "أزمة الديمقراطية"، كانت الرؤية النيوليبرالية وإعادتها إلى مقاييس السوق، جذابة للغاية بالنسبة إلى السياسيين وصنّاع القرار، لأنها وسيلة للتهرب من الملكية السياسية للاختيارات الاقتصادية الصعبة ولأنها وعدت بفرض نظام جديد يسود فيه الخوف من الفوضى.⁽⁴⁴⁾ ستُحفظ السلطة المطلقة لقوى السوق كمصدر نهائي للسيطرة الحتمية، ما يؤدي إلى إزاحة المنافسة الديمقراطية والمداولة بأيديولوجية الأفراد المنعزلين المحكوم عليهم بالمنافسة الدائمة على الموارد النادرة. لقد وعدَ انضباط الأسواق التنافسية بإسكات الأفراد المشاغبين، وتحويلهم مرة أخرى إلى كائنات مشغولة للغاية بمشاكل البقاء على قيد الحياة بحيث لا يمكنهم التذمر.

مع تراجع أعداء الانتماء الجماعي القدامى، اتخذت فئات جديدة موقعهم: التنظيم والمراقبة الحكوميان، والتشريعات الاجتماعية وسياسات الرعاية الاجتماعية، والنقابات العمالية ومؤسسات التفاوض الجماعي، ومبادئ السياسة الديمقراطية. كان مقررًا بالتأكيد استبدال هذا كله برؤية السوق للحقيقة، وستكون المنافسة هي الحل لتحقيق النمو. وستحقق الأهداف الجديدة من خلال إصلاحات جانب العرض، وتخفيف الاقتصاد والخصخصة وخفض الضرائب.

قبل خمسة وثلاثين عامًا من صعود هايك وفريدمان، كتب المؤرخ الكبير كارل بولاني ببلاغة عن صعود اقتصاد السوق. إذ قادته دراساته إلى استنتاج أن عمليات السوق ذاتية التنظيم تُسبب أضرارًا بالغة عندما تُترك دون قوانين وسياسات معارضة. ووصف الحركة/المزدوجة بأنها "شبكة تدابير وسياسات... مدججة في مؤسسات قوية مصممة لمراقبة عمل السوق من ناحية العمل والأرض والمال".⁽⁴⁵⁾

جادل بولاني بأن الحركة المزدوجة تدعم نظام السوق وتربطه بالمجتمع: توازنه،

(44) كريبنر، الاستفادة من الأزمة.

(45) كارل بولاني، التحول العظيم: الأصول السياسية والاقتصادية لعصرنا (بوسطن: باكسون، 2001)، ص 79.

وتخفف من تجاوزاته المدمرة وتعدها. ولاحظ أن مثل هذه التدابير المضادة ظهرت تلقائيًا في كل مجتمع أوروبي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد وضع كل مجتمع حلولًا تشريعية وتنظيمية ومؤسسية للإشراف على مجالات جديدة متنازع عليها، مثل تعويضات العمال، وفتيش المصانع، والتجارة البلدية، والمرافق العامة، وسلامة الغذاء، وعمالة الأطفال، والسلامة العامة.

تحققت الحركة المزدوجة في الولايات المتحدة عبر عقود من التنافس الاجتماعي الذي سخر الإنتاج الصناعي، وإن كان ناقصًا، لتلبية احتياجات المجتمع. وتجلّى ذلك في قمع الاحتكار، ونشوء مجتمع مدني، وإصلاحات تشريعية للعصر التقدمي. واتضح ذلك لاحقًا في المبادرات التشريعية والقانونية والاجتماعية والضريبية التي أعقبت الصفقة الجديدة ومأسسة الاقتصاد الكينزي خلال حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية: سياسات سوق العمل والضرائب والرعاية الاجتماعية التي أدّت في نهاية المطاف إلى زيادة المساواة الاقتصادية والاجتماعية.⁽⁴⁶⁾ وتطوّرت الحركة المزدوجة بشكل أكبر في المبادرات التشريعية للمجتمع العظيم، ولا سيّما قانون الحقوق المدنية والتشريعات البيئية البارزة. وينسب العديد من الباحثين نجاح الديمقراطية السوقية في الولايات المتحدة وأوروبا إلى مثل هذه التدابير المضادة، وهي اقتصاد سياسي أثبت قدرته على التكيف بشكل أكبر في الاعتماد المشترك على العرض والطلب مقارنة بما تصوّره المنظرون اليساريون أو حتى بولاني، وبحلول منتصف القرن العشرين، بدت الشركات الكبرى وكأنها مؤسسات اجتماعية حديثة راسخة الجذور ودائمة.⁽⁴⁷⁾

(46) مارتين ج. سكلار، الولايات المتحدة كدولة نامية: دراسات في تاريخ الولايات المتحدة في العصر التقدمي وعشرينيات القرن العشرين (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 1992)؛ سانفورد إم. جاكوبي، القصور الحديثة: رأسمالية الرفاهية منذ الصفقة الجديدة (برنستون، نيوجيرسي: جامعة برنستون، 1998)؛ مايكل ألان بيرنشتاين، الكساد الأعظم: التعافي المتأخر والتغيير الاقتصادي في أمريكا، 1929-1939، دراسات في التاريخ الاقتصادي والسياسة (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة كامبريدج، 1987)؛ سي. جولدين و. ر. أ. مارغو، "الضغط الكبير: هيكل الأجور في الولايات المتحدة في منتصف القرن"، مجلة الاقتصاد الفصلية 107، العدد 1 (1992): 1-34؛ إدوين أمينتا، "إعادة تعريف الصفقة الجديدة"، في سياسات السياسة الاجتماعية في الولايات المتحدة، محرر. ثيدا سكوكبول، ومارغريت وير، وأنا شولا أورلوف (برنستون، نيوجيرسي: جامعة برنستون، 1988)، 81-122.

(47) إيان غوف، وأنيس أحمد داني، وهارجان دي هان، "دول الرفاهية الأوروبية: تفسيرات ودروس للدول

كان من المقرر هدم هذه الحركة المزدوجة تحت راية الليبرالية الجديدة، وبدأ التنفيذ على الفور. في عام 1976، وهو العام نفسه الذي نشر فيه جينسن وميكليينغ تحليلهما الرائد، بذل الرئيس جيمي كارتر أولى جهوده المهمة لمواءمة الشركات بشكل أساسي مع مقاييس سوق وول ستريت، مستهدفًا قطاعات الطيران والنقل والقطاع المالي برنامج جريء لإلغاء القيود التنظيمية. وما بدأ "كموجة صغيرة" تحول إلى "موجة مدّ عاتية جرفت الضوابط من قطاعات كبيرة من الاقتصاد في العقدين الأخيرين من القرن العشرين".⁽⁴⁸⁾ كان من شأن التنفيذ الذي بدأ في عهد كارتر أن يحدد ملامح عهد ريغان وتاتشر، ورؤساء أمريكا اللاحقين كلهم تقريبًا، ومعظم دول العالم، مع انتشار السياسات المالية والاجتماعية الجديدة إلى أوروبا ومناطق أخرى بدرجات متفاوتة.⁽⁴⁹⁾

هكذا بدأت عملية تفكّك الشركات العامة في الولايات المتحدة وتقلّصها.⁽⁵⁰⁾ أُعيد

النامية"، في الدول الشاملة: السياسات الاجتماعية والتفاوتات الهيكلية (واشنطن العاصمة: البنك الدولي، 2008)؛ بيتر بالدوين، سياسات التضامن الاجتماعي: الأسس الطبقيّة لدولة الرفاهية الأوروبية، 1875-1975 (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 1990)؛ جون كينيث غالبريث، وشون ويلينغتون، وجيمس كي. غالبريث، الدولة الصناعية الجديدة (برينستون، نيو جيرسي: جامعة برينستون، 1967)؛ جيرالد ديفيس، "أقول شركة بيرل ومينز"، مجلة جامعة سياتل للقانون، المجلد 34، العدد 4 (2011): 1138-1121؛ ألفريد دويونت تشاندلر، أساسيات ألفريد تشاندلر: مقالات نحو نظرية تاريخية للأعمال التجارية الكبرى، تحرير توماس ك. ماكرو (بوسطن: مطبعة كلية هارفارد للأعمال، 1988). (48) جونز، سادة الكون، 217.

(49) انظر مثلاً، فيفيان أ. شميدت ومارك تاتشر، المحرران، الليبرالية المرنة في الاقتصاد السياسي الأوروبي (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 2013)؛ كاثلين ثيلين، أصناف التحرير والسياسات الجديدة للتضامن الاجتماعي (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 2014)؛ بيتر كينغستون، الاقتصاد السياسي لأمريكا اللاتينية: تأملات في الليبرالية الجديدة والتنمية (نيويورك: روتليدج، 2010)؛ جيفري فريدن، مانويل باستور الابن، ومايكل تومز، الاقتصاد السياسي الحديث وأمريكا اللاتينية: النظرية والسياسة (بولدر، كولورادو: روتليدج، 2000)؛ جوليانو بونولي وديفيد ناتالي، سياسات دولة الرفاهية الجديدة (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2012). ريتشارد مونش، الإدماج والإقصاء في دولة المنافسة الليبرالية: عبادة الفرد (نيويورك: روتليدج، 2012)؛ كيونغ سوب تشانغ، سياسات التنمية في مرحلة الانتقال: العصر النيوليبرالي وما بعده (باسينجستوك، المملكة المتحدة: بالجريف ماكميلان، 2012)؛ زسوزا فيرج، "نموذج الرعاية الاجتماعية المتغير: فردية المجتمع"، السياسة الاجتماعية والإدارة 31، العدد 1 (1997): 20-44. (50) جيرالد إف. ديفيس، "إدارة الأسواق: كيف أعاد التمويل تشكيل أمريكا" (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2011)؛ ديفيس، "أقول شركة بيرل ومينز"؛ أوزغور أورمانغازي، "الأموّلة وتراكم رأس المال في قطاع الشركات غير المالية: دراسة نظرية وتجريبية حول الاقتصاد الأمريكي: 1973-2003"، مجلة

تفسير الشركات العامة كمؤسسات اجتماعية باعتباره خطأ باهظ التكلفة، وأعيدت صياغة تعاملاتها الطويلة الأمد مع العملاء والموظفين بوصفها انتهاكات مدمرة لكفاءة السوق. وأفنعت سياسة الترغيب والترهيب المالىين المدراء التنفيذيين بتفكيك شركاتهم وتقليصها، وتحول منطق الرأسمالية من الإنتاج المربح للسلع والخدمات إلى أشكال غريبة من المضاربة المالية. وقلّصت الضوابط التي فرضتها عمليات السوق الجديدة الرأسمالية إلى جوهرها الأساسي، وأعلن جينسن بثقة، في مطلع عام 1989، "أقول نجم الشركات العامة".⁽⁵¹⁾

بحلول القرن الحادي والعشرين، وبينما كانت الآليات الأساسية لرأسمالية المراقبة قد بدأت تبلورها للتو، أصبح "تعظيم قيمة المساهمين" مقبولا على نطاق واسع بوصفه "الوظيفة الموضوعية" للشركة.⁽⁵²⁾ واحترمت هذه المبادئ، المستمدة من فلسفة كانت متطرفة سابقا، بوصفها ممارسة قياسية في المجالات التجارية والمالية والقانونية.⁽⁵³⁾ بحلول عام 2000، وظفت الشركات العامة الأمريكية أقل من نصف عدد الأميركيين الذين وظفتهم في عام 1970.⁽⁵⁴⁾ في عام 2009، كان عدد الشركات العامة نصف ما كان عليه في عام 1997. وأصبحت الشركات العامة "غير ضرورية

كامبريدج للاقتصاد، المجلد 32، العدد 6 (2008): 863-886؛ ويليام لازونيك، "أمولة الشركات الأمريكية: ما فقد وكيف يُمكن استعادته"، في مستقبل الأسواق المالية وأسواق الأوراق المالية (الندوة السنوية الرابعة لمركز أدولف بيرل الابن للشركات والقانون والمجتمع في كلية الحقوق بجامعة سياتل، لندن، 2012)؛ يوري بيوندي، "حوكمة الشركة والإفصاح عنها ككيان مؤسسي"، مجلة جامعة سياتل للقانون، العدد 36، العدد 2 (2013): 391-416؛ روبرت رايش، "المجلس الاستشاري الاقتصادي الانتقالي لأوباما: القائمة الكاملة"، يو إس نيوز أند وورلد ريبورت، 7 نوفمبر/ تشرين الثاني 2008؛ روبرت ب. رايك، ما وراء الغضب: ما الذي حلّ باقتصادنا وديمقراطيتنا، وكيفية إصلاحه، طبعة منقحة (نيويورك: فينتيج، 2012). (51) مايكل جينسن، "خسوف الشركات العامة"، هارفارد بيزنس ريفيو، سبتمبر/ أيلول-أكتوبر/ تشرين الأول 1989.

(52) مايكل سي. جينسن، "تعظيم القيمة، ونظرية أصحاب المصلحة، ووظيفة الهدف للشركات"، مجلة أخلاقيات الأعمال الفصلية 12، العدد 2 (2002): 235-256.

(53) توماس أي. بالي، "المالية: ماهيتها وأهميتها" (بحث صادر عن معهد ليفي للاقتصاد في كلية بارد، 2007)، جون هانسون ورونالد تشين، "وهم القانون: المخططات الشرعية للسياسة الحديثة وقانون الشركات"، مجلة ميشيغان للقانون 103، العدد 1 (2004): 1-149؛ هنري هانسمان وريبير كراكان، "نهاية التاريخ لقانون الشركات" (بحث صادر عن مركز جون إم. أولين للقانون والاقتصاد والأعمال في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، 2000).

(54) ديفيس، "شفق شركة بيرل، ومينز"، 1131.

للإنتاج، وغير مناسبة لتوفير فرص عمل مستقرة، وخدمات رعاية اجتماعية، وغير قادرة على تحقيق عائد استثماري موثوق طويل الأجل".⁽⁵⁵⁾ وازداد تقديس "رجل الأعمال"، في هذه العملية، إلى مستوى شبه أسطوري بصفته الاتحاد المثالي بين الملكية والإدارة، واستبدلت نموذجًا واحدًا مفخمًا للجرأة والمكر التنافسي والهيمنة والثروة بالإمكانات الوجودية الغنية للحدثة الثانية.

4. عدم استقرار الحدثة الثانية

في التاسع من أغسطس/ آب 2011، وفي الوقت ذاته تقريبًا الذي اندلعت فيه الهتافات في قاعة مؤتمرات شركة آبل، اندفع 16 ضابط شرطة إلى شوارع لندن، عازمين على قمع "أوسع انهيار للنظام، وأطول أمداً في تاريخ لندن، منذ أعمال شغب جوردون في عام 1780".⁽⁵⁶⁾ بدأت أعمال الشغب قبل أربع ليالٍ، عندما تحولت وقفة احتجاجية سلمية إلى أعمال عنف قامت احتجاجًا على إطلاق الشرطة النار على شاب. وفي الأيام التي تلت هذا الحادث، تزايد عدد مثيري الشغب، وانتشرت أعمال النهب والحرق المتعمد إلى اثنين وعشرين حيًا من أحياء لندن الاثنين والثلاثين، بالإضافة إلى مدن بريطانية رئيسة أخرى.⁽⁵⁷⁾ وعلى مدى أربعة أيام من الاحتجاجات في الشوارع، تسبب آلاف الأشخاص بحدوث أضرار بالممتلكات تتجاوز قيمتها خمسين مليون دولار، واعتُقل أكثر من ثلاثة آلاف شخص.

مع أن صعود شركة آبل بدا وكأنه يؤكد مزاعم أفراد الحدثة الثانية، كانت شوارع لندن تروي لنا الإرث الكئيب لتجربة استمرت ثلاثة عقود لنمو اقتصادي قام على الإقصاء. فبعد أسبوع واحد من أعمال الشغب، كتبت عالمة الاجتماع ساسكيا ساسن في مقال لها في موقع "ديلي بيست": "إذا كانت هناك حاجة كامنة واحدة، فهي تتعلق

(55) جيرالد إف. ديفيس، "بعد الشركة"، السياسة والمجتمع 41، عدد 2 (2013): 41.

(56) غوتا كاواليرويتز ومايكل بيبغز، "الفوضى في المملكة المتحدة: الحرمان الاقتصادي، والفوضى الاجتماعية، والمظالم السياسية في أعمال الشغب في لندن عام 2011"، القوى الاجتماعية 94، العدد 2 (2015): 673-98.

(57) بول لويس وآخرون، "قراءة أعمال الشغب: التحقيق في صيف الاضطرابات في إنجلترا"، كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، 2011، ص 17.

بالبطالة والفقر المدقع بين الناس الذين يرغبون بأن يكونوا جزءاً من الطبقة المتوسطة، والذين يدركون تماماً التفاوت الحاد بينهم وبين النخبة الثرية في بلادهم. فهذه ثورات اجتماعية تتخللها احتجاجات أصغر حجماً ضد ظروف اجتماعية لم تعد تُحتمل". (58)

ما هي الظروف الاجتماعية التي لم تعد تُحتمل إلى هذا الحد؟ اتفق العديد من المحللين على أن مأساة أعمال الشغب في بريطانيا انطلقت من نجاح الليبرالية الجديدة في تحويل المجتمع: وهو برنامج نُفذ على نحو شامل في المملكة المتحدة والولايات المتحدة. وأشارت دراسة أجرتها كلية لندن للاقتصاد، استناداً إلى مقابلات مع 270 شخصاً شاركوا في أعمال الشغب، إلى أن الموضوع الأساسي كان عدم المساواة: "لا عمل، لا مال". (59) وتكرر الأسباب الأساسية ذاتها في كل دراسة تقريباً: الافتقار إلى الفرص، عدم القدرة على الوصول إلى التعليم، التهميش والحرمان والظلم واليأس. (60) ومع أن أعمال الشغب في لندن اختلفت بشكل كبير عن الاحتجاجات الأخرى التي سبقتها وتلتها، وأبرزها حركة "الساخطين" التي بدأت بتعبئة عامة واسعة النطاق في مدريد في مايو/ أيار 2011، وحركة "احتلوا وول ستريت" التي ظهرت في السابع عشر من سبتمبر/ أيلول في حديقة زوكوتي في وول ستريت، فقد تقاطعت هذه الاحتجاجات في نقطة أصل واحدة ركزت على التفاوت الاقتصادي والإقصاء. (61)

(58) ساسكيا ساسن، "لماذا الشغب الآن؟ إن الضيق الذي يعاني منه فقراء المدن البريطانية ليس بالأمر الجديد. فلماذا تحول أخيراً إلى عنف واسع النطاق ومرعب؟" ديلي بيس، 15 أغسطس 2011. (59) لويس وآخرون، "قراءة أعمال الشغب"، 25. (60) بالإضافة إلى لويس وآخرين، "قراءة أعمال الشغب"، انظر أيضاً كاواليرويتز وبيغز، "الفوضى في المملكة المتحدة": وليمس تريديل وآخرون، "كارثة المتاجر الآن: ثقافة المستهلك وأعمال الشغب الإنكليزية عام 2011"، المجلة البريطانية لعلم الإجرام 53، العدد 1 (2013): 1-17؛ وتوم سلاتر، "من الإجرام إلى التهميش: أعمال شغب ضد دولة منكسرة"، الجغرافيا البشرية 4، العدد 3 (2011): 106-115.

(61) توماس بيكي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين (كامبريدج، ماساتشوستس: بيلكناب، 2014). جمع بيكي بيانات الدخل لسنوات طويلة ليخلص إلى أن التفاوت في الدخل في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة قد وصل إلى مستويات غير مسبوقة منذ القرن التاسع عشر. فقد زادت الشريحة العليا من أصحاب الأجور في الولايات المتحدة حصتها من الدخل القومي بشكل مطرد من 35% في ثمانينيات القرن الماضي إلى أكثر من 46% في عام 2010. ويأتي الجزء الأكبر من هذه الزيادة من أعلى 1%، الذين ارتفعت حصتهم من 9% إلى 20%، وذهب نصفها تقريباً إلى 0.1%. وبحسب بيكي أن 60-70% من أعلى 0.1% في

دخلت الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ومعظم دول أوروبا، العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين وهي تواجه تفاوتات اقتصادية واجتماعية أكثر تطرفاً من مثيلاتها كلها منذ العصر الذهبي، ويمكن مقارنتها مع بعض أفقر بلدان العالم.⁽⁶²⁾ وعلى الرغم من عقدٍ من النمو الرقمي الهائل الذي شمل معجزة آبل، وتغلغل الإنترنت في الحياة اليومية، فقد أوحى الانقسامات الاجتماعية الخطيرة بمستقبل يزداد طبقيّةً ومعاداةً للديمقراطية. يقول أحد الاقتصاديين الأمريكيين: "في عصر استقرار

هرم الدخل يتألفون من مدرءا نجحوا في الحصول على تعويضات "غير مسبوق تاريخياً" بفضل هياكل حوافز جديدة لتعظيم القيمة.

(62) فيما يتعلق بالموضوع العام المتعلق بأهمية المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ذات التوجه الديمقراطي في التخفيف من حدة النتائج الاقتصادية، انظر كتاب دارون أسيموغلو وجيمس روبنسون الضخم "لماذا تفشل الأمم: أصول القوة والازدهار والفقر" (نيويورك: كراون بيزنس، 2012). وهو أيضاً محور عمل روبرت رايك حول عدم المساواة والسياسة الاقتصادية الرجعية: روبرت ب. رايك، "الهزة الارتدادية: الاقتصاد القادم ومستقبل أمريكا" (نيويورك: فينتيج، 2011). انظر أيضاً مايكل ستوليس، "تاريخ القانون الاجتماعي في ألمانيا" (هايدلبرغ: سبرينغر، 2014)؛ مارك هندريكسون، "العمل الأمريكي والمواطنة الاقتصادية: الرأسمالية الجديدة من الحرب العالمية الأولى إلى الكساد الكبير" (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 2013)؛ سوانك، "المصادر السياسية لثنائية سوق العمل في الديمقراطيات ما بعد الصناعية، 1975-2011". إمين دينليرسوز وجيري غرينوود، "صعود النقابات وسقوطها في الولايات المتحدة" (جدول عمل المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، مكتب الإحصاء الأمريكي، 2012)؛ باسك كوس، "المالية وعدم المساواة في الدخل في دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية: 1995-2007"، المراجعة الاقتصادية والاجتماعية 43، العدد 4 (2013): 477-95؛ فيكي نيلاس وإليزابيتا أوليفيري، "تغير فرص العمل: دور الحوسبة والمؤسسات" (بحث صادر عن كواديرني دي إس إي، جامعة بولونيا وبنك إيطاليا، 2012)؛ غوف، داني، ودي هان، "دول الرفاه الأوروبية": لاندون ر. ي. ستورز، "تمدين الرأسمالية: الرابطة الوطنية للمستهلكين، والنشاط النسائي، ومعايير العمل في عصر الصفقة الجديدة"، طبعة منقحة (تشابل هيل: جامعة نورث كارولينا، 2000)؛ فيرج، "نموذج الرفاه المتغير": جاكوبي، القصور الحديثة: سكلار، الولايات المتحدة كدولة نامية: ج. برادفورد دي لونغ وباري آيكنجرين، "خطة مارشال: أنجح برنامج للتكيف الهيكلي في التاريخ"، في كتاب "إعادة الإعمار الاقتصادي بعد الحرب العالمية الثانية ودروسه لأوروبا الشرقية اليوم"، طبعة روديجر دورنبوش (كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1991)؛ بالدوين، "سياسات التضامن الاجتماعي": أميتا، "إعادة تعريف الصفقة الجديدة": روبرت آتش. ويبي، البحث عن النظام: 1877-1920 (نيويورك: هيل ووانج، 1967)؛ جون ماينارد كيتز، "الإمكانات الاقتصادية لأحفادنا"، في مقالات الإقناع (نيويورك: ديلبو ديلبو نورتون، 1930).

بحلول عام 2014، خلص تقريرٌ صادرٌ عن ستاندرد أند بورز إلى أن التفاوت في الدخل يعيق النمو الاقتصادي ويزعزع استقرار النسيج الاجتماعي، وهي حقيقة أقرّ بها هنري فورد منذ زمنٍ بعيدٍ عندما ركّز على يومه ذي الخمسة دولارات. انظر: "كيف يُعيق تزايد التفاوت في الدخل النمو الاقتصادي الأمريكي، والسبل الممكنة لتغيير المسار"، تقريرٌ صادرٌ عن ستاندرد أند بورز كايبتال آي كيو، بوابة الائتمان العالمية، الخامس من أغسطس 2014.

السياسات المالية الجديدة المتفق عليها، شهد الاقتصاد أكبر عمليات انتقال للإيرادات إلى القمة في التاريخ كله".⁽⁶³⁾ وحذر تقرير رسمي صادر عن صندوق النقد الدولي عام 2016 من عدم الاستقرار، مُستتجاً أن الاتجاهات العالمية نحو الليبرالية الجديدة "لم تُحقق النتائج المرجوة". بل على النقيض تمامًا، أدى التفاوت إلى تراجع كبير في "مستوى النمو واستمراريته"، مع زيادة التقلبات وخلق ضعف دائم في مواجهة الأزمات الاقتصادية.⁽⁶⁴⁾

(63) تشيرنيفا، "إعادة توجيه السياسة المالية: نهج تصاعدي"، 57. انظر أيضًا فرانسيسكو رودريغيز وأرجون جايديف، "تراجع حصة العمل من الدخل"، مجلة العولمة والتنمية 3، العدد 2 (2013): 1-18؛ أوليفر جيوفانوني، "ماذا نعرف عن حصة العمل وحصة الأرباح؟ الجزء الثالث: المقاييس والعوامل الهيكلية" (بحث صادر عن معهد ليفي للاقتصاد في كلية بارد، 2014)؛ ديرك أنتونشيك، وتوماس ديلييري، وبيرنديت زينبرغر، "الاستقطاب وتزايد التفاوت في الأجور: مقارنة بين الولايات المتحدة وألمانيا" (بحث صادر عن معهد دراسة العمل، مارس 2010)؛ دوان سوانك، "المصادر السياسية لثنائية سوق العمل في الديمقراطيات ما بعد الصناعية، 1975-2001"، بحث عُرض في الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، شيكاغو، 2013؛ ديفيد جاكوبس وليندسي مايرز، "قوة الاتحاد، والليبرالية الجديدة، وعدم المساواة: تحليلات سياسية طارئة للفوارق في الدخل في الولايات المتحدة منذ عام 1950"، المراجعة الاجتماعية الأمريكية 79 (2014): 752-774؛ فيكي نيلاس وإليزابيتا أوليفيري، "تغير فرص العمل: دور الحوسبة والمؤسسات" (بحث صادر عن جامعة بولونيا وبنك إيطاليا، 2012)؛ غوف، داني، ودي هان، "دول الرفاهية الأوروبية: تفسيرات ودروس للدول النامية".

(64) جوناثان د. أوستري، "النيلولبرالية: هل هي مبالغ فيها؟" التمويل والتنمية 53، العدد 2 (2016): 38-41؛ وكما خلص اقتصادي أمريكي آخر، "لقد أزال الركود الكبير عام 2008 أخيرًا وهم التوسع الاقتصادي، كاشفًا عن مقومات إنجازات الرأسمالية المالية: ركود الدخل منذ منتصف سبعينيات القرن الماضي للأغلبية مقابل تركيزات هائلة للثروة لدى أقلية ضئيلة". انظر جوش بيفنز، "في عام 2013، انخفضت حصة العمال من الدخل في قطاع الشركات إلى أدنى مستوى لها منذ عام 1950"، معهد السياسة الاقتصادية (مدونة)، 4 سبتمبر/أيلول 2014.

أظهرت دراسات التعميق المالي - التحرير، التمويل - في كل من الاقتصاديات المتقدمة والبطيئة النمو أنه مرتبط بعدم الاستقرار الجديد، بما في ذلك حالات الإفلاس، وفشل البنوك، والتقلب الشديد في الأصول، والركود في القطاعات الحقيقية للاقتصاد. انظر مثلاً، مالكولم سوير، "التنمية المالية، التمويل والنمو الاقتصادي" (بحث حول مشروع التمويل والاقتصاد والمجتمع والتنمية المستدامة، 2014). انظر أيضًا ويليام أ. غالستون، "التحدي الجديد للديمقراطيات السوقية: التكاليف السياسية والاجتماعية للركود الاقتصادي" (تقرير بحثي، مؤسسة بروكينجز، 2014)؛ جوزيف إي. ستيجليتز، ثمن عدم المساواة: كيف يهدد المجتمع المنقسم اليوم مستقبلنا (نيويورك: ديلوب ديلو نورتن، 2012)؛ جيمس ك. غالبريث، عدم المساواة وعدم الاستقرار: دراسة للاقتصاد العالمي قبل الأزمة الكبرى مباشرة (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2012)؛ رونالد دوري، "مالية الاقتصاد العالمي"، مجلة التغيير الصناعي والشركاتي، المجلد 17، العدد 6 (2008): 1097-1112؛ فيليب أريستيس وهوارد شتاين، "منظور مؤسسي للتمويل والتنمية كبديل للتحرير المالي"، المجلة الدولية للاقتصاد التطبيقي، المجلد 19، العدد 4 (2005): 381-398؛ أسيل ديميرغوك-كونت وإنريكا ديتراجياتشي، "محددات الأزمات المصرفية في الدول النامية والمتقدمة"، أوراق

بلغ السعي إلى حياة فاعلة ذروته تحت وطأة حرية السوق. فبعد عامين من أعمال الشغب في شمال لندن، أظهرت الأبحاث في المملكة المتحدة أنه بحلول عام 2013، أدى الفقر الناجم عن البطالة ونقص التعليم إلى استبعاد نسبة تقارب ثلث السكان من المشاركة الاجتماعية الاعتيادية.⁽⁶⁵⁾ وأوضح تقرير بريطاني آخر أن "العمال ذوي الدخل المنخفض والمتوسط يشهدون أكبر انخفاض في مستوى معيشتهم منذ بداية توثيق السجلات في منتصف القرن التاسع عشر".⁽⁶⁶⁾ ومع مطلع عام 2015، أدت تدابير التقشف إلى تخفيض ميزانيات السلطات المحلية بنسبة 19٪، أو ما يعادل 18 مليار جنيه إسترليني، وأجبرتها على خفض الإنفاق على حماية الطفل بنسبة 8٪، وتسببت في حرمان 150 ألف متقاعد من الوصول إلى الخدمات الحيوية.⁽⁶⁷⁾ في عام 2014، أصبح ما يقرب من نصف سكان الولايات المتحدة يعيشون في فقر وظيفي، وكان أعلى أجر في النصف الأدنى من أصحاب الدخل يبلغ نحو 34 ألف دولار.⁽⁶⁸⁾ وأظهر مسح أجرته وزارة الزراعة الأمريكية في عام 2012 أن ما يقرب من 49 مليون شخص يعيشون في أسر تعاني من انعدام الأمن الغذائي.⁽⁶⁹⁾

دمج الخيار الاقتصادي الفرنسي توماس بيكيتي، في كتابه بعنوان: *رأس المال في القرن الحادي والعشرين* (Capital in the Twenty-First Century) بيانات الدخل لسنوات عديدة لاستخلاص قانون عام للتراكم: يميل معدّل العائد على رأس المال إلى تجاوز معدّل النمو الاقتصادي. والتوجّه، الذي يمكن تلخيصه رياضياً بـ

عمل صندوق النقد الدولي، المجلد 45، العدد 1 (1998): 81-109.

(65) إيمانويل فيراجينا، ومارك توملينسون، وروبرت ووكر، "الفقر والمشاركة والاختيار"، مؤسسة جوزيف رافائيل للأبحاث، 28 مايو / أيار 2013.

(66) هيلين كيرسلي وآخرون، "رفع المعيار: دور الخدمات العامة في معالجة الضغط على الأجور"، مؤسسة الاقتصاد الجديد.

(67) سالي جينسبري وسارة نيفيل، "تأثير التقشف البالغ 18 مليار جنيه إسترليني على الخدمات المحلية"، فاينانشال تايمز، 19 يوليو/تموز 2015.

(68) كارمن دي نافاس-والث وبرناديت د. بروكتور، "الدخل والفقر في الولايات المتحدة: 2014"، مكتب الإحصاء الأمريكي، سبتمبر / أيلول 2015؛ توماس جابي، "الفقر في الولايات المتحدة: 2013"، خدمة أبحاث الكونغرس، 25 سبتمبر / أيلول 2014.

(69) أليشا كولمان-جينسن، ومارك نورد، وأنيثا سينغ، "الأمن الغذائي للأسر في الولايات المتحدة في عام 2012" (تقرير بحثي اقتصادي، وزارة الزراعة الأمريكية، سبتمبر / أيلول 2013).

($R > G$)، هو عبارة عن ديناميكية تؤدي إلى تباين متزايد في الدخول، بالإضافة إلى مجموعة من العواقب الاجتماعية المناهضة للديمقراطية، والتي تنبأ المختصون، منذ فترة طويلة، بأنها تُندِرُ بأزمة رأسمالية في نهاية المطاف. وفي هذا السياق، يستشهد بيكيتي بالطرق التي تستخدم بها النخب المالية مكاسبها الضخمة لتمويل دورة استيلاء سياسي تحمي به مصالحها من تحديات سياسية.⁽⁷⁰⁾ وخلص تقرير لصحيفة نيويورك تايمز في عام 2015 بأن 158 عائلة أميركية وشركاتها قدمت ما يقرب من 176 مليون دولار، وهو يعادل نصف إجمالي الأموال التي جمعها الحزبان السياسيان لدعم المرشحين الرئاسيين في عام 2016، في المقام الأول لدعم "المرشحين الجمهوريين الذين تعهدوا بتقليص القيود التنظيمية، وخفض الضرائب... وتقليص الاستحقاقات".⁽⁷¹⁾ وحلل المؤرخون والصحفيون الاستقصائيون والاقتصاديون وعلماء السياسة الحقائق المعقدة للتحول نحو الأوليغارشية، أي حكم الأقلية، وألقوا الضوء على الحملات المنهجية للتأثير العام والاستيلاء السياسي التي ساعدت في دفع أجندة السوق الحرة المتطرفة، والحفاظ عليها، على حساب الديمقراطية.⁽⁷²⁾

يمكننا ببساطة تلخيص بحث بيكيتي الشامل كما يلي: ينبغي ألا تُؤكَل الرأسمالية نيئة. فالرأسمالية مثل النقانق، معدة لكي يطهوها المجتمع الديمقراطي ومؤسساته، لأن الرأسمالية النيئة مُعدية للمجتمع. وكما يُحذّر بيكيتي، "ينبغي ألا يُترك اقتصاد السوق لنفسه.... فهو يحتوي على قوى تباعدٍ قوية، تُهدد المجتمعات الديمقراطية

(70) بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ص 334-335. انظر أيضًا: نيدا سكوكبول وفانيسا ويليامسون، حزب الشاي وإعادة تشكيل المحافظين الجمهوريين، طبعة منقحة (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2016)؛ نعومي أوريسكس وإريك م. كونواي، تجار الشك: كيف حجبت حفنة من العلماء الحقيقة في قضايا من دخان التبغ إلى الاحتباس الحراري (لندن: بلومزبري، 2010).

(71) نيكولاس كونفيسور، "العائلات التي تمويل الانتخابات الرئاسية لعام 2016"، نيويورك تايمز، 10 أكتوبر/ تشرين الأول 2015.

(72) توثق المؤرخة نانسي ماكلين والصحفية جين ماير عملياتٍ خفيةً لمنظري اليمين المتطرف وداعمهم من أصحاب المليارات، الذين يسيطرون على أموال طائلة لأغراض التلاعب السياسي والعام، معتمدين على شبكات سرية من مراكز الأبحاث والمنظمات المانحة والمنافذ الإعلامية لاستغلال اضطرابات المواطنين بمهارة، وتوجيهها نحو وجهات نظر متطرفة. انظر نانسي ماكلين، "الديمقراطية في الأغلال: التاريخ العميق لخطة اليمين المتطرف الخفية لأمريكا" (نيويورك: فايكنغ، 2017)؛ وجين ماير، "الأموال الخفية: التاريخ الخفي للمليارديرات وراء صعود اليمين المتطرف" (نيويورك: أنكور، 2017).

وقيمة العدالة الاجتماعية التي تقوم عليها".⁽⁷³⁾ وقد وصف العديد من الباحثين هذه الظروف الجديدة بأنها إقطاعية جديدة تتسم بترسيخ الثروة والسلطة النخبوية بما يتجاوز إلى حد كبير سيطرة الناس العاديين وآليات القبول الديمقراطي.⁽⁷⁴⁾ ويصف بيكيتي هذا الأمر بأنه عودة إلى "الرأسمالية التراتبية"، أي عودة إلى مجتمع ما قبل الحداثة الذي تعتمد فيه فرص حياة الفرد على الثروة الموروثة وليس على الإنجاز والجدارة.⁽⁷⁵⁾

لدينا الآن الأدوات اللازمة لفهم هذا الاصطدام بكل تعقيداته المدمرة: ما لا يمكن احتماله هو أن التفاوت الاقتصادي والاجتماعي عاد إلى النموذج "الإقطاعي" ما قبل الصناعي، لكننا نحن الشعب، لم نعد إلى هذا النموذج. نحن لسنا فلاحين أميين أو أقباناً أو عبيداً. سواء أكنّا من "الطبقة المتوسطة" أو "المهمشين"، فنحن نتشارك الحالة التاريخية الجماعية لأشخاص مُنفردين ذوي تجارب وآراء اجتماعية مُعقدة. نحن مئات الملايين، بل مليارات، من أبناء الحداثة الثانية الذين حرّهم التاريخ من حقائق بقيت ثابتة في السابق، لقدّرَ كان لهم منذ الولادة، وظروف مجتمع جماهيري. نحن ندرك تماماً أننا نستحقّ أن نحظى بالكرامة، ونعيش حياة فاعلة. هذا أشبه بُعصارة معجون أسنان وجودية، بمجرد تحريرها من الأنبوب، لن تعود هناك إمكانية لإعادة إنتاجها. وكما هي الحال مع موجات الصوت المدمرة التي يسببها انفجار معين، ينشأ صدى الألم والغضب الذي أصبح يميّز عصرنا من هذا التصادم الحادّ بين حقائق عدم المساواة والشعور بعدم المساواة.⁽⁷⁶⁾

(73) بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ص 571.

(74) ميلان زافيروفسكي، "الإقطاع الجديد في أمريكا" المحافظة وعلاقتها بالإقطاع الأوروبي"، المجلة الدولية لعلم الاجتماع، المجلد 17، العدد 3 (2007): 393-427؛ آلان سوبيو، "العلاقة بين القطاعين العام والخاص في سياق إعادة الإقطاع اليوم"، المجلة الدولية للقانون الدستوري، المجلد 11، العدد 1 (2013): 129-145؛ دانيال ج. آنش. غرينوود، "الإقطاع الجديد: الأسس المذهلة للحقوق الدستورية للشركات"، مجلة جامعة إلينوي للقانون، المجلد 163 (2017).

(75) بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ص 237-270.

(76) للاطلاع على دراسة مؤثرة وعميقة لهذه المواضيع، انظر: كارول غراهام، "السعادة للجميع؟" آمال وحياة غير متكافئة في السعي وراء الحلم الأمريكي (برينستون، نيوجيرسي: جامعة برينستون، 2017)؛ وديفيد ج. بلانشفلاور وأندرو أوزوالد، "التعاسة والألم في أمريكا الحديثة: مقال مراجعة، وأدلة إضافية،

بالعودة إلى عام 2011، أظهرت 270 مقابلة، أُجريت مع المشاركين في أعمال الشغب في لندن، ندوب هذا الصدام. وخلص التقرير إلى أن "المشاغبين عبّروا عن ذلك بطرق مختلفة، لكن جوهر ما تحدّثوا عنه كان شعورًا فادحًا بالظلم". كان الأمر اقتصاديًا بالنسبة إلى بعضهم - انعدام العمل أو المال أو الفرص. بينما كان اجتماعيًا بالنسبة إلى آخرين، ليس فقط غياب الأشياء المادية، بل شعور بتجاهلهم مقارنة بالآخرين.... كان "الشعور بالتجاهل واسع الانتشار". كما أوضحت إحدى النساء: "يحتاج الشباب هذه الأيام إلى أن يُصغى إلى صوته. لا بدّ من تحقيق العدالة لهم". وقال شاب آخر: "إذا لم تلقَ اهتمامًا من أي شخص، ستضطرّ في النهاية إلى إجبارهم على الاهتمام، وستُسبب اضطرابًا".⁽⁷⁷⁾ وأشارت تحليلات أخرى إلى أن التعبير عن "إنكار الكرامة" كان واضحًا في الغضب الصامت الذي شاب أعمال الشغب التي شهدها شمال لندن.⁽⁷⁸⁾

عندما اندلعت حركة "احتلوا وول ستريت" في قارة أخرى بعيدة عن أحياء لندن المحاصرة، لم يبدُ أنها تتقاطع كثيرًا مع الانفجارات العنيفة التي شهدتها شهر أغسطس/ آب. فنسبة الـ 99٪ التي أرادت الحركة تمثيلها لم تكن مهمّشة؛ بل على النقيض تمامًا، قامت شرعية الحركة تحديداً على ادعائها بأن لديها الأغلبية الساحقة. لكنها كشفت عن صراع مماثل بين حقائق عدم المساواة، والشعور بعدم المساواة، صراع تم التعبير عنه في ثقافة سياسية فردية مبدعة أصرت على "الديمقراطية المباشرة" و"القيادة الأفقية".⁽⁷⁹⁾ واستنتج بعض المحللين أن هذا الصراع هو ما أدّى في نهاية المطاف إلى شلّ الحركة، بسبب "عمقها الداخلي" المكوّن من قادة لم يكونوا على

حول كتاب كارول غراهام "السعادة للجميع؟" (جدول عمل المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، نوفمبر 2017).

(77) انظر تيم نيوبورن وآخرون، "ديفيد كامبرون، الملكة، وإحساس المشاغبين بالظلم"، صحيفة الغارديان، 5 ديسمبر/ كانون الأول 2011.

(78) سلاتر، من "الإجرام" إلى الهامشية".

(79) تود غيتلين، "أمة احتلوا: جذور احتلوا وول ستريت وروحها ووعداها" (نيويورك: هاربر كولينز، 2012)؛ زينب توفيكجي، "تويتر والغاز المسيل للدموع: قوة وهشاشة الاحتجاج الشبكي" (نيوهافن، كونيتيكت: جامعة يال، 2017). انظر أيضًا أندرو غافين مارشال، "تقرير عالم المقاومة: قلق الطبقة في دافوس وسط تحذيرات متزايدة من اضطرابات عالمية"، Occupy.com، 4 يوليو 2014.

استعداد للتنازل عن نهجهم المفرط الفردية لصالح الاستراتيجيات والتكتيكات المطلوبة لحركة جماهيرية مستدامة.⁽⁸⁰⁾ لكن ثمة أمر واحد مؤكد: لم يكن هناك أقنان في حديقة زوكوتي. بل على النقيض تمامًا، وكما أشار أحد المراقبين عن كذب للحركة: "الفرق هو أنه منذ البداية، أثبتت قطاعات كبيرة منا، نحن الشعب، أنها أكثر حكمة من حكامنا. كانت رؤيتنا أبعد، وأثبتنا أننا أكثر حكمة، مما قلب الشرعية التقليدية لحكمنا النخبوي الذي يعرفه المسؤولون أكثر من عامة الناس".⁽⁸¹⁾

هذا هو التناقض الوجودي للحدثة الثانية الذي يُحدد ظروف وجودنا: نريد أن نتحكم في حياتنا، لكن هذا التحكم يُحبط في كل مكان. دفعتنا الفردية إلى البحث عن الموارد اللازمة لضمان حياة فاعلة، لكننا نُجبرُ عند كل منعطف على خوض معركة مع اقتصاد وسياسة لا نملك من منظورها سوى تلميحات. نحن نعيش على يقين بأن حياتنا قيمة فريدة من نوعها، لكننا نُعامل وكأننا أطياف غير مرئية. وبينما تفلت من قبضتنا ثمار الرأسمالية المالية في مراحلها المتأخرة، نُترك لتأمل المستقبل في حيرة تتفجر عنفاً بوتيرة متزايدة. إن توقعاتنا بإمكانية تقرير مصيرنا شخصيًا هي الأساس الذي تتكشف عنه أحلامنا، لذلك فإن الخسائر التي نتكبدها في خضم تفاقم التفاوت والإقصاء، والمنافسة المتفشية والطبقية المتدهورة، ليست خسائر اقتصادية فحسب. فهي تمرقنا ألى ومرارة لأننا ندرك أننا جديرون بالكرامة الفردية، والحق في حياة بشرونا الخاصة.

يقول الفيلسوف الاجتماعي سيغمونت باومان، إن أعرق تناقض في عصرنا هو "الفجوة السحيقة بين الحق في تأكيد الذات، والقدرة على السيطرة على الأوضاع الاجتماعية التي تجعل مثل هذا التأكيد ممكنًا. تنبع من تلك الفجوة أخطر المواد التي تلوث حياة الأفراد المعاصرين". وهو يشدد على أن أي فصل جديد في قصة تحرر الإنسان الممتدة لقرون، يجب أن يبدأ من هنا. فهل يُمكن لاضطراب الحدثة الثانية أن

(80) تود غيتلين، "مازق احتلوا: اللحظة وأفاق الحركة"، المجلة البريطانية لعلم الاجتماع 64، العدد 1 (2013): 3-25.

(81) أنتوني بارنيت، "الثورة الطويلة والسريعة"، الديمقراطية المفتوحة، 2 فبراير/ شباط 2015.

يُفسح المجال لتركيب جديدة: حادثة ثالثة تتجاوز التصادم، مُتيحةً طريقاً حقيقياً لحياة مزدهرة وفاعلة لكثيرين، لا لقلّة فقط؟ وما الدور الذي ستلعبه رأسمالية المعلومات؟

5. حادثة ثالثة

انغمست شركة آبل ذات مرة في تلك "الهوة السحيقة"، وبدا لفترة من الوقت أن دمج الشركة بين الرأسمالية والرقمية قد يُمهّد طريقاً جديداً نحو حادثة ثالثة. وحفّز وعد الرأسمالية الرقمية ذات التوجّه الداعم، خلال العقد الأول من قرننا هذا، شعوب الحادثة الثانية حول العالم. وبدا أن شركات جديدة مثل غوغل وفيسبوك تُجسّد وعد الانقلاب في مجالات جديدة بالغة الأهمية، لتنقذ المعلومات والأشخاص من القيود المؤسسية القديمة، وتمكّننا من العثور على ما نريده ومَن نريده، متى أردنا أن نبحث ونتواصل، وكيفما أردنا ذلك.

تضمن انقلاب شركة آبل علاقات جديدة بالثقة من الدعم والمعاملة بالمثل المشمولة في تقارب عمليات المستهلكين التجارية مع مصالحهم الحقيقية. وحملت هذه الفكرة وعداً بظهور شكل جديد للسوق الرقمية يمكن أن يتجاوز التصادم: كان بمثابة إشارة أولية إلى رأسمالية الحادثة الثالثة التي استدعتها تطلّعات تحدّد مصير الأفراد، وتنتمي إلى البيئة الرقمية. كانت فرصة شيء يكون "لحياتي، وعلى طريقي، وبسرعة أستطيع تحمّله" هي الوعد الإنساني الذي سرعان ما استقرّ في قلب المشروع الرقمي التجاري، من أجهزة آيفون، إلى الطلب بنقرة واحدة إلى الدورات التدريبية المفتوحة عبر الإنترنت، إلى خدمات حسب الطلب لمئات الآلاف من الشركات والتطبيقات والأجهزة العاملة على شبكات الإنترنت.

كان هناك أخطاء وعثرات ونقاط ضعف بالتأكيد. ولم تُدرَك، حتى الشركة ذاتها، الأهمية المُحتملة لمنطق آبل الضمني الجديد. حيث أنتجت سلسلة تناقضات ثابتة أشارت إلى استمرار العمل كالمعتاد. وتعرّضت لانتقادات كثيرة بسبب سياسات أسعارها، ونقل الوظائف إلى الخارج، واستغلال موظفي التجزئة، والتنصّل من المسؤولية عن ظروف المصانع، والتواطؤ على خفض الأجور من خلال اتفاقيات عدم

المنافسة المحظورة في تعيين الموظفين⁽⁸²⁾، والتهرب الضريبي المؤسسي، والافتقار إلى الإدارة البيئية - على سبيل المثال لا الحصر، هناك بعض الانتهاكات التي بدت وكأنها تنفي العقد الاجتماعي الضمني لمنطقها الفريد من نوعه.

عندما يتعلق الأمر بتحوّل اقتصادي حقيقي، غالبًا ما ينشأ توتر بين السمات الجديدة للنموذج والسمات الأصلية. ثم يُعاد تشكيل مزيج من القديم والجديد بنمط غير مسبوق. أحيانًا، نجد عناصر الطفرة البيئية المناسبة لها لكي "تتقى" من أجل التكاثر والانتشار. وتُتاح هنا للشكل الجديد فرصة التثبيت الكامل، ويُرسَم مساره الفريد نحو المستقبل. لكن الأرجح أن تلقى الطفرات المحتملة حتفها في "فشل انتقالي"، بفعل جاذبية المسارات الراسخة.⁽⁸³⁾

هل كان انقلاب شركة أبل بمنزلة طفرة اقتصادية جديدة قوية خاضت معركة التجربة والخطأ في طريقها إلى تلبية احتياجات العصر الجديد؟ أم كانت حالة فشل في التحوّل؟ في حماسنا واعتمادنا المتزايد على التكنولوجيا، كنا نميل إلى نسيان أن قوى رأس المال نفسها التي هربنا منها في العالم "الحقيقي" كانت تطالب بسرعة بملكيّة المجال الرقمي الأوسع. وهو ما جعلنا عرضة للخطر، وأخذنا على حين غرة عندما اتخذ الوعد الأولي لرأسمالية المعلومات منعطفًا أكثر قتامة. احتفلنا بوعده "المساعدة في الطريق"، بينما كانت الأسئلة المقلقة تَحترق الضباب بازدياد، ويتبع كل سؤال ثوران للخوف والغضب.

لماذا أجرى تطبيق البريد الإلكتروني "جي. ميل" (Gmail) من شركة غوغل، الذي أُطلق عام 2004 عملية مسح للمراسلات الخاصة بإنشاء الإعلانات؟ بمجرد أن شاهد أول مستخدم لهذا التطبيق أول إعلان موجه لمحتوى مراسلاته الخاصة، كان ردّ فعل العام سريعًا. إذ شعر كثير من الناس بالاشمئزاز والغضب، وشعر آخرون

(82) في قانون العقود، يُعتبر شرط عد المنافسة، أو التعهد بعد المنافسة شرطًا يوافق بموجبه أحد الطرفين على عدم الدخول في مهنة أو تجارة مماثلة لمنافسة الطرف الآخر (المترجم).

(83) بيتر ويلز وبول نيوبنهاوس، "فشل التحوّل: فهم الاستمرارية في صناعة السيارات"، التنبؤ التكنولوجي والتغيير الاجتماعي 79، العدد 9 (2012): 1681-1692.

بالخيرة. وفقاً لما قاله مؤرخ غوغل، ستيفن ليفي: "مع عرض إعلانات مرتبطة بالمحتوى، بدا أن غوغل تتلذذ بحقيقة أن خصوصية المستخدمين أصبحت تحت رحمة سياسات الشركة المالكة للخوادم وموثوقيتها. وبما أن تلك الإعلانات حققت أرباحاً، فقد أوضحت غوغل أنها ستستغل الموقف".⁽⁸⁴⁾

في عام 2007، أطلقت فيسبوك خدمة "باكون" أو "المنارة" (Beacon)،⁽⁸⁵⁾ وروجت لها على أنها "طريقة جديدة لتوزيع المعلومات اجتماعياً". مكنت هذه الخدمة مُعلني فيسبوك من تتبّع المستخدمين عبر الإنترنت، والكشف عن مشترياتهم لشبكاتهم الشخصية دون إذن. استشاط معظم الناس غضباً من جرأة الشركة، سواء أكان في تتبّعهم عبر الإنترنت، أم في اغتصاب قدرتهم على التحكم في الكشف عن الحقائق الخاصة بهم. وأغلق مؤسس فيسبوك مارك زوكربيرغ التطبيق تحت الإكراه، لكن بحلول عام 2010 أعلن أن الخصوصية لم تعد معياراً اجتماعياً، ثم هنا نفسه على تخفيف "سياسات الخصوصية" الخاصة بالشركة لتعكس هذا التأكيد الأناني على حالة اجتماعية جديدة.⁽⁸⁶⁾ يبدو أن زوكربيرغ لم يقرأ أبداً وصف المستخدم جوناثان ترين لتجربته مع هذا التطبيق:

اشتريتُ خاتم ألماس من أوفرستوك ليكون مفاجأة سعيدة لحبيبتني في ليلة رأس السنة ... في غضون ساعات، تلقيتُ اتصالاً مفاجئاً من إحدى صديقاتي المقربات لتُفاجئني وتهنئني بخطوبتي. (!!!) تخيلوا دهشتي عندما علمتُ أن أوفرستوك نشر تفاصيل مشترياتي (بما في ذلك رابط المنتج وسعره) على صفحتي العامة على فيسبوك، بالإضافة إلى إشعارات لجميع أصدقائي. جميع أصدقائي، بمن فيهم حبيبتني، وجميع أصدقائها، إلخ... كل هذا كان دون موافقتي أو علمي. أشعر بحزن شديد لأن ذلك

(84) ستيفن ليفي، في بليكس: كيف يفكر غوغل ويعمل، ويشكل حياتنا (نيويورك: سايمون وشوستر، 2011)، ص 172-173.

(85) بهدف تطبيق (Beacon)، أو المنارة، إلى السماح للأعضاء بمشاركة المعلومات مع الأصدقاء حول ما يفعلونه في موقع آخر على الإنترنت (المترجم).

(86) بوبي جونسون، "الخصوصية لم تعد معياراً اجتماعياً، كما يقول مؤسس فيسبوك"، الغارديان، 10 يناير/ كانون الثاني 2010.

التصرف أفسد مفاجأتي، وأن ما كان يُفترض أن يكون ذكرى مميزة لي ولصديقتي قد دُمّر بانتهاكٍ مُريبٍ ومُثيرٍ للغضب لخصوصيتي. أودّ أن أعرب عن غضبي الشديد من القائمين على أوفرسټوك وفيسبوك الذين ظنّوا أن هذه فكرة جيدة. إنها تُشكّل سابقةً مروّعةً على الإنترنت، وأشعر أنها دمّرت جزءاً من حياتي.⁽⁸⁷⁾

من بين الانتهاكات العديدة لتوقعات الدعم، بدت "اتفاقيات شروط الخدمة" المنتشرة من أشدّ الانتهاكات ضرراً.⁽⁸⁸⁾ يطلق خبراء القانون على هذه العقود اسم "عقود الإذعان" لأنها تفرض على المستخدمين الالتزام بالشروط أو الخروج من الموقع نهائياً سواء رغبوا في ذلك أم لا. تُعرف "العقود" المبرمة عبر الإنترنت، مثل عقود شروط الخدمة، واتفاقيات شروط الاستخدام، أيضاً باسم "الموافقة بمجرد النقر" (click-wrap)، لأن الكثير من الأبحاث أظهرت أن معظم الأشخاص يقعون في فخّ هذه الشروط التعاقدية الجائرة بمجرد النقر فوق المربع الذي يقول "أوافق" دون قراءة الاتفاقية على الإطلاق.⁽⁸⁹⁾ وفي الكثير من الحالات، يجعلك مجرد تصفّح موقع معيّن ملزماً باتفاقية شروط الخدمة حتى لو لم تكن على علم بها. يشير العلماء إلى أن هذه المستندات الرقمية طويلة ومعقّدة بشكل مبالغ فيه، وذلك جزئياً لثني المستخدمين عن قراءة الشروط فعلياً، على الرغم من علمهم بأن معظم المحاكم أيّدت

(87) انظر تشارلين لي، "لقاء وثيق مع (Beacon) فيسبوك"، فورستر، 23 نوفمبر/ تشرين الثاني 2007.
(88) إيتير لينزر، "العقد بصفته شراً"، مجلة هاستينغز للقانون، المجلّد 66 (2015): 971؛ بول م. شوارتز، "خصوصية الإنترنت والدولة"، مجلة كونيتيكت للقانون، المجلّد 32 (1999): 815-859؛ دانيال ج. سولوف، "إدارة الخصوصية الذاتية ومعضلة الموافقة"، مجلة هارفارد للقانون، المجلّد 126، العدد 7 (2013): 1880-1904.

(89) يانيس باكوس، وفلورنسيا ماروتا-ورجلر، وديفيد ر. تروسن، "هل يقرأ أحد البنود الصغيرة؟ اهتمام المستهلك بالعقود ذات النموذج القياسي"، مجلة الدراسات القانونية 43، العدد 1 (2014): 1-35؛ تيس ويلكنسون-ريان، "تفسير نفسي للموافقة على البنود الصغيرة"، مجلة مراجعة قانون أيوا 99 (2014): 1745؛ توماس جي. مارونيك، "هل يقرأ المستهلكون اتفاقيات شروط الخدمة عند تثبيت البرامج؟ تحليل تجريبي من دراستين"، المجلة الدولية لأبحاث الأعمال والأبحاث الاجتماعية 4، العدد 6 (2014): 137-45؛ مارك أي. ليملي، "شروط الاستخدام"، مجلة مراجعة قانون مينيسوتا 91 (2006): نيلي ستاينفيلد، "أوافق على الشروط والأحكام: (كيف) يقرأ المستخدمون سياسات الخصوصية على الإنترنت؟ تجربة تتبع العين"، مجلة "الحواسيب في السلوك البشري"، المجلّد 55 (2016): 992-1000؛ فيكتوريا سي. بلاوت وروبرت بي. بارتليت، "الموافقة العمياء؟ دراسة نفسية اجتماعية لعدم قراءة اتفاقيات النقر"، مجلة القانون والسلوك البشري"، 16 يونيو/ حزيران 2011، الصفحات 1-23.

شرعية اتفاقيات النقر على الزر على الرغم من الافتقار الواضح إلى الموافقة ذات المغزى.⁽⁹⁰⁾ اعترف رئيس المحكمة العليا الأميركية جون روبرتس بأنه "لا يقرأ الحروف الصغيرة الموجودة في صفحات الإنترنت".⁽⁹¹⁾ وما يزيد من تعقيد المشكلة أن شروط الخدمة قابلة للتعديل من جانب الشركة في أي وقت، دون علم المستخدم أو موافقته، وعادةً ما تشمل هذه الشروط شركات أخرى (شركاء، موردين، مسوّقين، وسطاء إعلان، إلخ) دون التصريح بمسؤوليتهم عن شروط الخدمة أو قبولها. وتفرض هذه "العقود" على المستخدم انحيازًا لا نهائيًا لا يمكن تجاوزه، وهو ما تصفه أستاذة القانون نانسي كيم بـ "السادى".

تصف الباحثة القانونية مارغريت رادين هذه العقود بأنها مثل "أليس في بلاد العجائب". بالتأكيد، تحوّل المفهوم المقدّس "للاتفاق" و"الوعد"، اللذان كانا أساس تطوّر مؤسسة العقود منذ العصر الروماني، إلى "ما يشبه تعويذة، تشير فقط إلى فكرة مفادها أن الشركة التي تنشر هذا النموذج تريد من المتلقّي أن يكون مُلزمًا".⁽⁹²⁾ تُطلق رادين على هذا العقد صفة "الاستملاك الخاص"، أي أنه استيلاء أحادي الجانب على الحقوق دون موافقة. وترى أن هذه "العقود" تمثّل "انحطاطًا" أخلاقيًا وديمقراطيًا لسيادة القانون وللمؤسسة العقد، وانحرافًا يُعيد هيكلة حقوق المستخدمين الممنوحة عبر العمليات الديمقراطية، "ويستبدل بها نظامًا ترغب الشركة في فرضه... يجب على المستفيدين دخول عالم قانوني من تصميم الشركة لكي يتعاملوا معها".⁽⁹³⁾

كان للبيئة الرقمية دورٌ أساسيٌّ في هذا التراجع. تُشير كيم إلى أن الوثائق الورقية فرضت في الماضي قيودًا طبيعيةً على سلوك التعاقد، بسبب كلفة إنتاجها وتوزيعها

(90) إيوا لوغر، ستيوارت موران، وتوم رودن، "الموافقة للجميع: الكشف عن التعقيد الخفي للشروط والأحكام"، في وقائع مؤتمر SIGCHI حول العوامل البشرية في أنظمة الحوسبة، CHI '13 (نيويورك: ACM، 2013)، 2687-96.

(91) ديرا كاسينز فايس، "رئيس المحكمة العليا روبرتس يعترف بأنه لا يقرأ الحروف الصغيرة في الحاسوب"، مجلة جمعية المحامين الأمريكية، 20 أكتوبر/تشرين الأول 2010.

(92) مارغريت جين رادين، النص النمطي: الطباعة الدقيقة، والحقوق المتلاشية، وسيادة القانون (برينستون، نيوجيرسي: جامعة برينستون، 2012)، ص 14.

(93) رادين، بويلر بليت، 16-17.

وأرشفتها. تتطلب العقود الورقية توقيعا فعلياً، ما يخفف العبء الذي يرجح أن تلقىه الشركة على العميل بإلزامه بقراءة صفحات متعددة من الطباعة الدقيقة. لكن الشروط الرقمية "بلا وزن"، يمكن تكثيفها وإعادة إنتاجها وتوزيعها وأرشفتها دون أية كلفة إضافية. وعندما أدركت الشركات أن المحاكم مُستعدة للتصديق على اتفاقياتها التي تُتيح إمكانية النقر والتصفح، لم يعد هناك ما يمنعها من توسيع نطاق هذه العقود التافهة "للوصول إلى فوائد إضافية من المستهلكين لا علاقة لها بالإجراء ذاته".⁽⁹⁴⁾ وتزامن ذلك مع اكتشاف فائض سلوكي نتاوله في الفصل الثالث، حيث اتسعت اتفاقيات شروط الخدمة لتشمل "سياسات خصوصية" مُضللة ومُشوّهة، مُرسّخة بذلك تراجعاً لا نهاية له لشروط مصادرة الحقوق هذه. حتى أن رئيس لجنة التجارة الفيدرالية السابق، جون ليوفيتز، صرّح علناً: "نتفق جميعاً على أن المستهلكين لا يقرؤون سياسات الخصوصية".⁽⁹⁵⁾ في عام 2008، صرّح بروفيسوران من جامعة كارنيجي ميلون أن القراءة المعقولة لجميع سياسات الخصوصية التي نواجهها في عام واحد تحتاج إلى 76 يوم عمل كاملاً، بكلفة وطنية تصل إلى 781 مليار دولار.⁽⁹⁶⁾ والأرقام اليوم أعلى بكثير. ووفقاً لرؤية كيم، ما يزال معظم المستخدمين يجهلون هذه المصطلحات "الجشعة" التي تسمح للشركات "باكتساب حقوق دون مساومة، وترسيخ بعض الممارسات خلسة قبل أن يدرك المستخدمون والجهات التنظيمية ما حدث".⁽⁹⁷⁾

ظهر في البداية اعتقاد بأن شركات الإنترنت الجديدة فشلت ببساطة في فهم المتطلبات الأخلاقية والاجتماعية والمؤسسية لمنطقها الاقتصادي. لكن مع كل انتهاك جديد من جانب الشركات، لم يعد بالإمكان تجاهل إمكانية أن تكون الانتهاكات مؤشرات على ميزات معينة، وليس خللاً. ومع أن معجزة شركة آبل كانت تحمل بذور

(94) نانسي س. كيم، عقود التغليف: الأسس والتفرعات (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2013)، 50-69.

(95) جون ليوفيتز، "الملاحظات التمهيدية في مائدة الخصوصية المستديرة للجنة التجارة الفيدرالية"، لجنة التجارة الفيدرالية، 7 ديسمبر/كانون الأول 2009.

(96) أليشيا إم. ماك دونالد ولوري فيث كرانور، "تكلفة قراءة سياسات الخصوصية"، مجلة سياسة مجتمع المعلومات، 4، العدد 3 (2008).

(97) كيم، عقود مغلفة، 70-72.

الإصلاح الاقتصادي، إلا أنها لم تُفهم جيدًا: كانت لغزًا حتى للشركة نفسها. فقبل وقت طويل من وفاة مؤسسها الأسطوري، ستيف جوبز، أثارت انتهاكاتها المتكررة لتوقعات المستخدمين تساؤلات حول مدى فهم الشركة للبنية العميقة والإمكانات التاريخية لإبداعاتها. لقد غرس النجاح المذهل لجهاز آيود، وتطبيق أيتونز، لدى مستخدمي الإنترنت شعورًا بالتفاؤل تجاه الرأسمالية الرقمية الجديدة، لكن شركة آبل لم تتولّ زمام الأمور إطلاقًا في تطوير العمليات الاجتماعية والمؤسسية المتسقة والشاملة التي يمكن أن ترفع وعد آيود إلى شكل سوقي واضح، كما فعل هنري فورد والفريد سلون سابقًا.

تعكس هذه التطورات حقيقةً بسيطة مفادها أن الإصلاح الاقتصادي الحقيقي يتطلب وقتًا، وأن عالم الإنترنت، بمستثمريه والمساهمين فيه، كانوا وما زالوا على عجلة من أمرهم. وسرعان ما تحوّلت عقيدة الابتكار الرقمي إلى لغة الاضطراب والهوس بالسرعة، وشنت حملاته تحت شعار "التدمير الخلاق". لقد استحوذوا على هذه العبارة الشهيرة المشؤومة التي صاغها عالم الاقتصاد التطوّري جوزيف شومبيتر كوسيلة لإضفاء الشرعية على ما يطلق عليه وادي السيليكون بشكل ملطّف "الابتكار بلا إذن".⁽⁹⁸⁾ روج خطاب التدمير لما أراه في التاريخ نظرية "رجال أشبه بأولاد يلعبون"، وكأن التفوّق في الرأسمالية يتمثّل في تفجير الأشياء بتقنيات جديدة. في الواقع، كان تحليل شومبيتر أكثر دقّة وتعقيدًا مما يوحي به خطاب التدمير الحديث.

مع أن شومبيتر اعتبر الرأسمالية عملية "تطوّرية"، إلا أنه رأى أيضًا أن عددًا قليلًا نسبيًا من ابتكاراتها المستمرة يرقى إلى مستوى الأهمية التطوّرية. هذه الأحداث النادرة هي ما أسماه "الطفرات". إنها تحولات نوعية دائمة مُستدامة في منطق التراكم الرأسمالي وفهمه وممارسته، وليست ردود أفعال عشوائية أو مؤقتة أو انتهازية حسب الظروف. وأصرّ شومبيتر على أن هذه الآلية التطوّرية تُحفّزها احتياجات استهلاكية جديدة، وأن التوافق مع هذه الاحتياجات هو النهج الذي يقود الطفرة المستدامة: "ترفع العملية

(98) لأخذ مثال على هذا الخطاب، انظر مقال توم هايز، "أميركا تحتاج إلى وزارة للتدمير الإبداعي"، هافينغتون بوست، 27 أكتوبر/تشرين الأول 2011.

الرأسمالية مستوى معيشة الجماهير تدريجيًا بفعل آليتها، وليس بمجرد صدفة". (99)

إذا أردنا استمرار الطفرة بشكل موثوق، فلا بدّ من ترجمة أهدافها وممارساتها الجديدة إلى أشكال مؤسسية جديدة: "يأتي الدافع الأساسي، الذي يثبت محرك الرأسمالية ويحافظ عليه، من السلع الاستهلاكية الجديدة، وأساليب الإنتاج أو النقل الجديدة، والأسواق الجديدة، وأشكال التنظيم الصناعي الجديدة التي تنشئها المشاريع الرأسمالية". لاحظ أن شومبيتر يقول "تنشئ" ولا يقول "تدمر". وكمثال على الطفرة، يستشهد "بمراحل التطور التنظيمي من ورشة الحرف اليدوية إلى المصنع وصولاً إلى شركة معقدة مثل شركة يو إس ستيل...". (100)

اعتبر شومبيتر التدمير الخلاق نتيجةً جانبية مؤسفة لعملية طويلة ومعقدة من التغيير الإبداعي المستدام. ويقول: "تنشئ الرأسمالية وتدمر". وكان مُصرّاً على هذه النقطة: "تشكّل الاستجابة الإنشائية المبدعة مسار الأحداث اللاحقة ونتائجها على المدى الطويل... وتغيّر الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية نحو الأفضل... لهذا السبب تُعدّ الاستجابة الإنشائية المبدعة عنصراً أساسياً في العملية التاريخية: لا تُجدي أية عقيدة حتمية نفعا في مواجهتها". (101) وأخيراً، على النقيض من خطاب وادي السيلكيون وتقديسه للسرعة، جادل شومبيتر بأن الطفرة الحقيقية تتطلب الصبر: "نحن نتعامل مع عملية يستغرق كل عنصر فيها وقتاً طويلاً للكشف عن سماتها الحقيقية وتأثيراتها النهائية.... ويتعيّن علينا أن نحكم على أدائها بمرور الوقت، مع تطورها عبر عقود أو قرون". (102)

تتضمن أهمية "الطفرة" عتبة عالية من منظور شومبيتر، عتبة تتجاوزها مع الوقت من خلال العمل الجاد لابتكار أشكال مؤسسية جديدة مُدمجة في الاحتياجات الجديدة

(99) جوزيف أ. شومبيتر، الرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية (نيويورك: هاربر بيرينال مودرن كلاسيكس، 2008)، ص 68.

(100) شومبيتر، الرأسمالية، 83.

(101) جوزيف أ. شومبيتر، "اقتصاديات واجتماع الرأسمالية"، تحرير ريتشارد سويدبيرغ (برينستون، نيو جيرسي: جامعة برينستون، 1991)، ص 412 (الخط المائل يعود لي).

(102) شومبيتر، الرأسمالية، 83.

للناس الجدد. فقليلٌ نسبياً من التدمير يُعدّ إبداعاً، ولا سيّما في غياب حركة مزدوجة قوية. يتضح ذلك في مثاله عن شركة "يو إس ستيل"، التي أسسها بعض أشهر "البارونات اللصوص" في العصر الذهبي، بمن فيهم أندرو كارنيجي وجيه بي مورغان. وتحت ضغط حركة مزدوجة متزايدة الإلحاح، نجحت شركة يو إس ستيل أخيراً في ترسيخ ممارسات العمل العادلة من خلال النقابات والمفاوضات الجماعية، بالإضافة إلى أسواق العمل الداخلية، والسلم الوظيفي، والتسلسلات الهرمية المهنية، والأمن الوظيفي، والتدريب، والتطوير، كل ذلك مع تطبيق تقدّمها التكنولوجي في الإنتاج الضخم.

الطفرة ليست حكاية خرافية؛ بل هي رأسمالية عقلانية مرتبطة بعلاقات متبادلة مع شعوبها عبر مؤسساتٍ ديمقراطية. تُغيّر الطفرات جوهر الرأسمالية بشكل جذري بتحويلها نحو مَنْ يُفترض أن تخدمهم. هذا النوع من التفكير ليس جذاباً أو مثيراً مثلما تجعلنا مناورات "رجال أشبه بأولاد يلعبون" نعتقد، لكن هذا ما يتطلبه الأمر لتحريك عجلة التاريخ الاقتصادي إلى ما بعد التصادم، ونحو الحدّثة.

6. رأسمالية المراقبة تملأ الفراغ

ثمة نسل قوة اقتصادية جديد ملأ الفراغ الذي كان يُزعَم فيه أن كل حالة بحث على شبكة الإنترنت، وكل إعجاب، أو نقرة في موقع، هو أشبه بشيء ثمين تتعقبه شركة معينة وتحلّله، وتُحقّق منه أرباحاً، وهذا كله في غضون عقد من ظهور جهاز آي بود. بدا الأمر أشبه بقرش مفترس يحوم في الأعماق على مدار الوقت، تحت السطح مباشرة، ليقفز من الماء بين حين وآخر بحثاً عن قفصة لحم طازجة. بدأت هذه الشركات أخيراً بتفسير هذه الانتهاكات بوصفها مُقابلاً ضرورياً لخدمات الإنترنت "المجانية". وقالت إن الخصوصية هي الثمن الذي ينبغي على كل شخص أن دفعه لقاء ما يتلقاه من خدمات في المعلومات والاتصالات وغيرها من سلع رقمية يصل إليها متى وأينما وكيفما أراد. وشتّت هذه التفسيرات انتباهنا عن تغيير جذري سيُعيد صياغة قواعد الرأسمالية والعالم الرقمي.

يمكننا، من خلال نظرة سريعة إلى الماضي، أن نرى أن التحديات المتضاربة الكثيرة لتوقعات المستخدمين كانت في الواقع بمنزلة ثقب صغير في شكل مؤسسي سريع النشأة، كان يتعلم كيفية استغلال احتياجات الحداثة الثانية، والمعايير الراسخة "للنمو من خلال الإقصاء"، كوسيلة لمشروع سوق جديد تمامًا. وكشف القرش عن نفسه بمرور الوقت بوصفه شكلاً من أشكال رأسمالية معلومات من نوع جديد سريع التكاثر، ومنهجي ومتناسك داخليًا، يهدف إلى الهيمنة. وشقت صيغة رأسمالية غير مسبقة طريقها إلى التاريخ: رأسمالية المراقبة.

الشكل الجديد للسوق هو منطق تراكم فريد من نوعه، تُعدّ فيه المراقبة آليةً أساسيةً لتحويل الاستثمار إلى ربح. وشكّل صعوده السريع، وتطوره المؤسسي، واتساعه الهائل تحدّيًا للوعد المبدئي المرتبط بإحداث انقلاب، وقيمه الموجهة نحو الدعم والمناصرة. وبشكل أعمّ، بدّد صعود رأسمالية المراقبة آمال وتوقعات كثير من "مستخدمي الإنترنت" الذين تعلّقوا بالوعد التحرري الذي ستوفره البيئة الشبكية.⁽¹⁰³⁾

استولت رأسمالية المراقبة على عجائب العالم الرقمي لتلبية احتياجاتنا لحياة فاعلة، ووعدتنا بالحصول على معلومات لا حدود لها، وآلاف الطرق لتوقع احتياجاتنا وتخفيف تعقيدات حياتنا المضطربة. ورحّبنا بها في قلوبنا وفي منازلنا بطقوس ضيافتنا الخاصة. لكننا سنتكشف في الفصول الآتية بالتفصيل أنه بفضل رأسمالية المراقبة، أصبحت موارد الحياة الفعّالة التي نسعى إليها في العالم الرقمي الجديد مثقلة بنوع جديد من التهديدات. إذ إنّ اللحظة الدقيقة التي تُلبّي فيها احتياجاتنا، في ظل هذا النظام الجديد، هي اللحظة الدقيقة ذاتها التي تُنهَب فيها حياتنا من أجل البيانات السلوكية، وهذا كله لتحقيق مكاسب لأشخاص آخرين. والنتيجة هي مزيج غريب لعمليات مترابطة بشكل غريب من منح القوّة وإنقاصها. ومع غياب ردّ فعل مجتمعي حاسم يقيّد منطق التراكم هذا أو يجرّمه، يبدو أن رأسمالية المراقبة توشك أن تصبح الشكل السائد للرأسمالية في عصرنا.

(103) يوتشاي بنكر، ثروة الشبكات: كيف يحول الإنتاج الاجتماعي الأسواق والحرية (نيوهافين، كونيتيكت: جامعة ييل، 2006).

كيف حدث ذلك؟ هو سؤال سنعود إليه على مدى هذا الكتاب كله مع تراكم رؤى وإجابات جديدة. لكن بإمكاننا أن ندرك الآن أننا نَحْيَلْنَا، على مرّ القرون، تهديدًا يتمثل في سلطة الدولة. وهو أمر أفقَدْنَا استعدادنا للدفاع عن أنفسنا في مواجهة شركات جديدة تحمل أسماء مُبتكرة، ويديرها عباقرة شباب لديهم القدرة على تزويدنا بما نتوق إليه تحديدًا، بتكلفة بسيطة أو دون تكلفة إطلاقًا. كان من الصعب فهم الأضرار المؤلمة لهذا النظام الجديد، أو وضع نظريات لها، حيث طمستها السرعة القصوى، وموهبتها عمليات باهظة الثمن، تفتقد الوضوح، وممارسات سرّية للشركات، وتضليل خطابي بارع، واستغلال ثقافي متعمّد. وعلى هذا المسار، سُخِّرَت مصطلحات اعتبرنا معانيها إيجابية أو عادية على الأقلّ - "الإنترنت المفتوح"، و"إمكانية تبادل المعلومات"، و"التواصل" - بهدف لعملية سوقية يُعتبر فيها الأشخاص بمنزلة وسائل لتحقيق غايات سوقية للآخرين.

ترسّخت رأسمالية المراقبة بسرعة كبيرة لدرجة أنها نجحت בזكاء في التملّص من فهمنا وموافقنا، باستثناء مجموعة شجاعة من علماء القانون والناشطين المهتمين بالتكنولوجيا. وكما سنناقش بالتفصيل في الفصل الرابع، لا يمكن تصوّر رأسمالية المراقبة خارج البيئة الرقمية، لكن الأيديولوجيا والسياسات النيوليبرالية وفّرت أيضًا بيئة يمكن لرأسمالية المراقبة أن تزدهر فيها. تدفع هذه الأيديولوجية، وتطبيقاتها العملية، أفراد الحداثة الثانية إلى الخضوع لمقايضة قاسية في قلب منطق التراكم في رأسمالية المراقبة، حيث تُدفع المعلومات والاتصالات بدل البيانات السلوكية المربحة التي تمّول نموها وأرباحها الهائلة. ويتعيّن على أي جهد يرمي إلى مقاطعة رأسمالية المراقبة أو تفكيكها أن يتعامل مع هذا المشهد المؤسسي الأوسع الذي يحمي عملياتها ويدعمها.

لا يُقدّم التاريخ مجموعات تحكّم مرجعية، ولا يُمكننا الجزم ما إذا كان بإمكان آبل، بقيادة مختلفة، أو بمرور الوقت، أو بظروف أخرى مُتغيّرة، أن تُدرك جوهره تاجها وتطوّرها وترسخها كما فعل هنري فورد وألفريد سلون في حقبة أخرى. ولا نقول إن هذه الفرصة ضائعة بالمطلق - على النقيض تمامًا. قد نشهد تأسيس تركيبة جديدة

لحادثة ثالثة يترسّخ فيها الانقلاب الحقيقي، وميثاقه الاجتماعي، كمبادئ لرأسمالية رقمية عقلانية جديدة تتماشى مع مجتمع الأفراد، وتتلقّى دعمًا من مؤسسات ديمقراطية. ما تزال حقيقة تقدير شومبتير للإطار الزمني لمثل هذه المؤسسة، بعقود أو حتى قرون، تُشكّل تعليقًا نقديًا على قصتنا الأوسع.

تُعَدُّ هذه التطورات خطرة للغاية لأنها لا تُحتزل في أضرارٍ معروفة - كالاحتكار والخصوصية - وبالتالي لا تستسلم بسهولة لأشكالٍ معروفةٍ من الصراع. تُشكل الأضرار الجديدة التي نواجهها تحدياتٍ لقدسية الفرد، وأعتبرُ الحقوق الأساسية التي تمسّ السيادة الفردية، بما في ذلك الحق في التفكير بالمستقبل، وفي ملاذ آمن، من أهم تلك التحديات. ويستدعي كل حق من هذه الحقوق مطالبة بالفاعلية الفردية والاستقلال الشخصي كشرطين أساسيين لحرية الإرادة، ولمفهوم النظام الديمقراطي ذاته.

لكن التفاوت الحالي الشديد في المعرفة والقوة، اللتين تراكمتا مع رأسمالية المراقبة، ألغى هذه الحقوق الأساسية مع تحوّل حياتنا بشكل أحادي الجانب إلى بيانات، ومصادرتها، وإعادة استخدامها بأشكال سيطرة اجتماعية جديدة، وذلك كله لخدمة مصالح الآخرين، وبغياب كامل لوعينا، أو غياب وسائل للدفاع. نحن لم نبتكر حتى الآن سياسات وأشكالاً جديدة للعمل التعاوني - سياسات تعادل في هذا القرن الحركات الاجتماعية التي سادت القرنين التاسع عشر والعشرين، وسعت إلى ربط الرأسمالية بالمجتمع - تؤكّد بشكل فاعل حق الشعوب في مستقبل إنساني. وبينما ما يزال يتوجّب علينا تحقيق هذه الابتكارات، فسوف تحدّد هذه التعبئة، وما تولّده من مقاومة، ساحة معركة رئيسية تتكشف عليها المعركة من أجل مستقبل إنساني.

في التاسع من أغسطس / آب 2011، تأرجحت الأحداث بين رؤيتين متباينتين تمامًا لحداثة ثالثة. إحداها قامت على الوعد الرقمي بإضفاء طابع ديمقراطي على المعلومات في سياق العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الفردية، وعكست الأخرى الحقائق القاسية للإقصاء الجماعي وحكم النخبة. ولم تكن دروس ذلك اليوم قد

أدرِكتَ بشكل كامل بعد عندما حظيت باهتمام الناس إجابات جديدة - أو بتواضع أكبر، لمحات خافتة من إجابات هشة كبشرة طفل حديث الولادة - مناسبة على شرائط عطرية من الخزامى الإسباني والفانيليا.

7. من أجل مستقبل إنساني

في الساعات الأولى من صباح التاسع من أغسطس/ آب 2011، جلست ماريا إيلينا مونتييس، البالغة من العمر ثمانية عشر عامًا، على العتبة الرخامية الباردة لمحل الحلويات العائد لعائلتها منذ قرن من الزمان في حيّ إل رافال ببرشلونة، ترتشف كوبًا من قهوة "كون ليتشي" الحلوة، وتسترخي على وقع هديل الحمام في الساحة مع شروق الشمس، بينما كانت تنتظر نضج صواني كعك العجبر. يقع مخبز "لا دولسي" في مبنى ضيق من العصور الوسطى، منحصرًا في ساحة صغيرة بأحد الشوارع القليلة التي نجت من كرة الهدم الضخمة، وتدقّ الشباب الهيبين الحداثيين. حرصت عائلة مونتييس على ألا يؤثر مرور الزمن على مخبزها العزيز. فمع كل صباح، كانوا يملؤون صناديق الزجاج بقطع بسكويت بثشوروس المقرمشة المغطاة بالسكر، وبسكويتات بونويلوس الرقيقة المغطاة بالفانيليا، وأطباق صغيرة من فطيرة الفراولة، والحلوى الملفوفة المغطاة بالسكر، والماعغلينا الرقيقة، والبستينو المقرمش، وكعكة الجدة الكبرى مونتييس الخاصة المصنوعة من الحليب الطازج واليانسون والنعناع. وفطائر اللوز والبرتقال، المعدّ تمامًا كما كان يُقدّم للملكة إيزابيلا، وفقًا للسيدة مونتييس. وفاضت الثلاجة البيضاء اللامعة القريبة من الجدار بكريم زيت الزيتون بنكهة اليانسون. وهناك مروحة سقف قديمة تدور ببطء، وتُدخل عبير العسل والخميرة إلى كل ركن من أركان الغرفة العتيقة.

ثمة شيء واحد تغيّر. في كل شهر أغسطس/ آب سابق، تذهب ماريا إيلينا وعائلتها إلى كوخهم الصيفي، في بستان الصنوبر قرب مدينة بالافروجيل الساحلية، التي كانت ملاذ العائلة لأجيال. لكن في شهر أغسطس لعام 2011، لم تتمكّن عائلة مونتييس ولا زبائنهم وأصدقائهم من الاستمتاع بإجازاتهم. إذ عصفت الأزمة الاقتصادية بالبلاد

كالطاعون الأسود، فتقلّص الاستهلاك وارتفع معدل البطالة إلى 21٪، وهو الأعلى في الاتحاد الأوروبي، ثم إلى نسبة مذهلة بلغت 46٪ بين من تقلّ أعمارهم عن 24 عامًا. وفي إقليم كاتالونيا، الذي يضمّ برشلونة، وقع 18٪ من سكانها البالغ عددهم 7.5 مليون نسمة تحت خط الفقر.⁽¹⁰⁴⁾ لم يستطع كثير من الناس، في صيف ذلك العام، أن يعيشوا المتعة البسيطة المتمثلة في قضاء شهر أغسطس/ آب على شاطئ البحر أو في الجبال.

ثمة ضغوط جديدة لبيع المبنى، وترك المستقبل يتلع مخبز "لا دولسي" أخيرًا. تستطيع العائلة أن تعيش براحةٍ من عائدات هذا البيع، حتى مع الأسعار الزهيدة التي سيُجبرون على قبولها. كان العمل خفيفًا، لكن السيد فيتو مونتيس رفض تسريح أيٍّ من موظفيه الذين كانوا بمثابة عائلةٍ كبيرة جمعتها سنوات من العمل المستقرّ. توقّع كل من يعرفهم تقريبًا أن النهاية حتمية، وأن على عائلة مونتيس اغتنام الفرصة للخروج بكرامة. لكن العائلة صمّمت على بذل كل ما يمكن من تضحيات لحماية مخبزها للمستقبل.

قبل ثلاثة أشهر فقط، قام خوان بابلو وماريا برحلة حجّ إلى مدريد للانضمام إلى آلاف المتظاهرين في بويرتا ديل سول، حيث أدّى المخيم الذي استمر شهرًا كاملاً إلى ترسيخ حركة "لوس إنديغنادوس"، أو حركة الخمسة عشر مليونًا، بوصفها الصوت الجديد للشعب وصل أخيرًا إلى نقطة الانهيار بسبب اقتصاد يقوم على الازدراء. لم يبقَ هناك ما يمكن قوله سوى عبارة "لا، لا مزيد!" هذا يكفي! أدّى تجمع هذا العدد الكبير من المواطنين في مدريد إلى موجة احتجاجات في جميع أنحاء البلاد، مما أفسح المجال أخيرًا لأحزاب سياسية جديدة، ومنها حزب "بوديموس". وانعقدت الجمعيات المحلية في العديد من المدن، وحضرت عائلة مونتيس اجتماعًا مماثلًا في إل رافال في الليلة السابقة.

بينما كانت محادثات المساء لا تزال عالقة في الأذهان، اجتمعوا في الشقة فوق المتجر

(104) نوم وردن، "المشاكل الاقتصادية في إسبانيا تجبر على تغيير عادات العطلات التقليدية"، الغارديان، 8 أغسطس/ آب 2011.

في وقت مبكر من بعد ظهر يوم 9 أغسطس/ آب لتناول وجبة منتصف النهار، ومناقشة مصير مخبز لا دولسي، دون أن يعلموا تمامًا ما كان يفكر فيه بابا مونتيس.

قال فيتو مونتيس: "ربما لم يفكر المصرفيون بالأمر، لكن المستقبل يحتاج إلى الماضي. سيحتاج إلى هذه الأرضيات الرخامية، ونكهة كعكاتي الغجرية اللذيذة. إنهم يعاملوننا كأرقام في دفتر حسابات، كما لو كانوا يحصون عدد ضحايا تحطم طائرة. يعتقدون أن المستقبل ملك لهم وحدهم. لكن لكل منا حكايته، ولكل منا حياته. علينا أن نعلن حقنا في المستقبل، فالمستقبل وطننا أيضًا".

تنفّست ماريا وخوان بابلو الصعداء أثناء إعلان الخطّة. سينسحب خوان بابلو مؤقتًا من دراسته الجامعية، وتؤجّل ماريا إيلينا التحاقها بالجامعة. سيعملان على توسيع مبيعات "لا دولسي" من خلال خيارات جديدة للتوصيل المنزلي وخدمات الطعام. وسيقبل الجميع تخفيض مرتباتهم، لكن لن يُضطر أحد للمغادرة. يطبّق الجميع مبدأ شدّ الأحزمة، باستثناء كعكات "البونييلوس" البدينة، والكعكات الأخرى الصامدة في أنساق أنيقة ولذيذة.

قالوا: نحن نعرف كيف نتحدّى الحتمية. لقد نجونا من الحروب، ونجونا من الفاشيين، وسننجو الآن أيضًا. بالنسبة إلى فيتو مونتيس، كان حق عائلته في استشراف المستقبل وطنًا لهم يتطلب استمرارية لأشياء غامضة وجميلة ومدهشة وغير مادية، ولا يمكن التعبير عنها؛ أشياء اتفق الجميع على أن الحياة من دونها ستكون بلا روح. كان مصممًا مثلًا على أن يتعرّف جيل جديد من الأطفال الإسبان على مجموعة فطائره البرتغالية المزيّنة بالورد، ويستيقظون على سرّ الحياة في العصور الوسطى في حدائق قصر الحمراء العظيمة.

في التاسع من أغسطس، ارتفعت درجة الحرارة بشكل كبير في الساحة المظلّلة، وأفرغت الشمس الشوارع والطرقات حيث كانت تسير مجموعات "الهون" و"الموريون" و"القشتالة" و"البوربون"، كلّ بدورها نحو النصر. لم تحمل تلك الشوارع الصامدة سوى أدلة قليلة على المداولات التاريخية التي جرت في مدريد،

وتناولتها صحيفة نيويورك تايمز في ذلك اليوم تحديدًا.⁽¹⁰⁵⁾ لكنني أتحيلُ المدينتين تجمعهما شرائط عطر خفية ترتفع من مخبز لا دولسي إلى سماء برشلونة الباهتة، وتنجرف ببطء نحو الجنوب والغرب لتستقرّ على طول الواجهة الصارمة للمبنى الذي يضمّ وكالة حماية البيانات الإسبانية، حيث جرى هناك صراع آخر من أجل الحقّ في المستقبل.

اختيرت وكالة حماية البيانات الإسبانية للدفاع عن مطالبات تسعين مواطنًا عاديًا، مثل عائلة مونتيث، كانوا مصممين على الحفاظ على المعنى الموروث لعالم عازم على التغيير بسرعة الضوء.⁽¹⁰⁶⁾ وباسم "الحق في النسيان"، دخل الإسبان حلبة مصارعة الثيران ملوّحين بعباءات حمراء، عازمين على قهر أشرس ثور على الإطلاق: غوغل، عملاق رأسمالية المراقبة. وقد تلقّى هذا الثور أولى الضربات الخطيرة عندما أمرت الوكالة شركة الإنترنت بوقف فهرسة الروابط المتنازع عليها لهؤلاء الأفراد التسعين.

ارتكزت هذه المواجهة الرسمية على الإصرار والعزيمة والمشاعر ذاتها التي دعمت عائلة مونتيث وملايين الإسبان الآخرين الذين اضطروا لاستعادة مستقبلهم من الحتمية المعلنة ذاتيًا لرأس المال غير المبالي. في إطار التأكيد على الحق في النسيان، وُضِعَ تعقيد الوجود الإنساني، بكل ما يحمله من ظلال رمادية كثيرة، في مواجهة الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة التي أنتجت الدافع المستمر لاستخراج المعلومات والاحتفاظ بها. هناك، في إسبانيا، كان الحقّ في المستقبل بحالة نشاط، مشدّدًا على أن عمليات رأسمالية المراقبة وبنيتها الرقمية ليست حتمية، ولم تكن كذلك قطّ، ولن تكون كذلك أبدًا. وأكّدت المعارضة على أن رأسمالية غوغل صُنِعت بيد بشرية ليلم تفكيكها وإعادة بنائها عبر عمليات ديمقراطية، وليس بقرارات تجارية. ولم يكن من المفترض أن تكون رأسمالية غوغل هي الكلمة الفصل في المستقبل البشري أو الرقمي.

(105) سوزان دالي، "أوروبا تدعم بمفردها معارك حماية خصوصية الإنترنت"، نيويورك تايمز، 9 أغسطس/ آب 2011.

(106) أنكيث سينغلا وآخرون، "الإنترنت بسرعة الضوء" (ACM Press، 2014)؛ تايلور هاتماكر، "قد يكون لدينا قريبًا شبكة واي فاي تتحرك بسرعة الضوء"، ديلي دوت، 14 يوليو/ تموز 2014.

كان لكل مواطن من المواطنين التسعين مطالبة فريدة من نوعها. إحداهن تعرضت للتهريب من زوجها السابق ولم ترغب بأن يجد عنوانها على الإنترنت. كانت خصوصية المعلومات ضرورية لراحة بالها وسلامتها الجسدية. وشعرت امرأة في منتصف العمر بالحرج من كونها تعرّضت للاعتقال أيام دراستها الجامعية. كانت خصوصية المعلومات ضرورية لهويتها وشعورها بالكرامة. كما عانى محام يدعى اريو كوستيغا غونزاليس من حجز على منزله قبل سنوات. ومع أنه حلّ المشكلة منذ سنوات، إلا أن البحث عن اسمه في غوغل استمرّ في عرض روابط عن إشعار الحجز، مما أضرّ بسمعته، على حدّ قوله. ومع أن وكالة حماية البيانات الإسبانية رفضت فكرة إلزام الصحف والمواقع الأصلية الأخرى بإزالة المعلومات المشروعة - ذلك لأنه، من وجهة نظرهم، ستكون هذه المعلومات موجودة في مكان ما آخر تحت أي ظرف من الظروف - إلا أنها أيدت فكرة أن غوغل تتحمّل المسؤولية، ويجب أن تُحاسب. وأخيراً، تعهّدت شركة غوغل، من جانب واحد، بتغيير قواعد دورة حياة المعلومات لديها عندما قررت الزحف إلى البيانات الشخصية وفهرستها وإتاحتها عبر شبكة الإنترنت العالمية دون أن تطلب الإذن من أي شخص. وخلصت الوكالة إلى أن للمواطنين الحقّ في طلب إزالة الروابط، وأمرت غوغل بوقف فهرسة المعلومات وإزالة الروابط الحالية المؤدية إلى مصادرها الأصلية.

إن مهمة غوغل "التمثّلة في تنظيم معلومات العالم، وجعلها مفيدة ومتاحة للجميع" - التي بدأت مع شبكة الإنترنت - قد غيّرت حياتنا جميعاً. لقد كانت فوائدها هائلة من دون شك. لكن بالنسبة إلى الأفراد، أدّى ذلك إلى أن المعلومات، التي كان من الطبيعي أن تتقدّم بالعمر وتصبح طيّ النسيان، بقيت شاتبة دوماً، وأصبحت تبرز في مقدّمة الهوية الرقمية لكل شخص. أقرّت وكالة حماية البيانات الإسبانية بأنه ليس المعلومات كلها جديرة بالخلود. يجب نسيان بعض هذه المعلومات لأنها تتعلّق بالأشخاص فقط. ولن يدهشنا أن تطعن شركة غوغل بقرار الوكالة أمام المحكمة العليا الإسبانية، التي اختارت إحدى الحالات التسعين، وهي قضية المحامي ماريو كوستيغا غونزاليس، لإحالتها إلى محكمة العدل التابعة للاتحاد الأوروبي. وبعد

مداولات مطوّلة ومثيرة، أعلنت محكمة العدل قرارها بتأكيد الحقّ في النسيان كمبدأ أساسي من مبادئ قانون الاتحاد الأوروبي في شهر مايو/ أيار عام 2014. (107)

كان قرار محكمة العدل، الذي يُحتَرَلُ غالبًا إلى مستوى اعتبارات قانونية وتقنية متعلّقة بحذف البيانات الشخصية أو فصلها، نقطة تحوّل رئيسة بدأت الديمقراطية بموجبها في استعادة حقّها في المستقبل من قوى رأسمالية المراقبة المتينة الجديدة العازمة على المطالبة بسلطة أحادية الجانب على المستقبل الرقمي. ادعى تحليل المحكمة أن المستقبل يجب أن يبقى للطريقة البشرية، رافضًا حتمية تقنية محرّك بحث غوغل، ومقرًا بأن نتائج البحث هي نتاجٌ عرضيٌّ لمصالح اقتصادية مُحددة تُحرّك العمل من داخل الآلة: "يُحتمَل أن يُلحَق مُشغَل محرّك البحث ضررًا بالغًا بالحقوق الأساسية المرتبطة بالخصوصية وحماية البيانات الشخصية. ونظرًا للخطورة المحتملة للتدخل في هذه المصالح، "لا يمكن تبرير ذلك بناءً على المصلحة الاقتصادية لمشغَل البحث". ووفقًا للباحثين القانونيين بول إم. شوارتز وكارل نيكولاوس بيغير، "شعرت محكمة لوكسمبورغ أن التدقّق الحرّ للمعلومات أمر مهم، لكنه في النهاية ليس بمستوى أهمية حماية الكرامة والخصوصية، وحماية البيانات في نظام الحقوق الأوروبي". (108) وقد منحت المحكمة مواطني الاتحاد الأوروبي الحق في المقاومة، وألزمت غوغل بإنشاء عملية لتنفيذ طلبات إلغاء الارتباط الخاصة بالمستخدمين، وسمحت للمواطنين

(107) "قضية شركة غوغل - إسبانيا المحدودة ضدّ وكالة حماية البيانات الإسبانية (القضية C-131/12) (شهر مايو/ أيار 2014)"، مجلة هارفارد للقانون، المجلّد 128، العدد 2 (2014): 735.

(108) بول إم. شوارتز وكارل نيكولاوس بيغير، "خصوصية البيانات عبر الأطلسي"، مجلة جورج تاون للقانون 106، عدد 115 (2017): 131. ومن بين التحليلات الممتازة العديدة للحق في النسيان، داون نونزراتو، "نسيان الأمر؟ مواءمة الحماية الأوروبية والأمريكية للخصوصية وحرية التعبير والإجراءات القانونية الواجبة" (بحث في القانون العام بكلية الحقوق بجامعة جورج واشنطن، 1 يناير 2015)؛ جيفري روزن، "الحق في النسيان"، مراجعة قانون ستانفورد عبر الإنترنت 64 (2012): 88؛ "الحق في النسيان (غوغل ضد إسبانيا)"، 30 أكتوبر 2016؛ أمبروز جونز وميغ ليتا وجيف أوسلوس، "الحق في النسيان عبر البركة"، مجلة سياسة المعلومات 3 (2012): 1-23؛ هانز غرو، وجيف أوسلوس، وبيني فالكي، "الحق في النسيان في عصر الإنترنت"، المركز متعدد التخصصات للقانون وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، 12 نوفمبر 2012؛ فرانز ويرو، "الحق في الإعلام مقابل الحق في النسيان: صراع عبر الأطلسي"، المسؤولية في الألفية الثالثة، مايو 2009، 285-300؛ "شركة غوغل إسبانيا المحدودة ضد الوكالة الإسبانية لحماية البيانات". للاطلاع على مراجعة شاملة، انظر أنيتا إل. ألين ومارك روتنبرغ، قانون الخصوصية والمجتمع، الطبعة الثالثة (سانت بول: ويست، 2016)، 1520-1552.

باللجوء إلى المؤسسات الديمقراطية، بما في ذلك "سلطة الإشراف أو السلطة القضائية، بحيث تقوم بإجراء الفحوصات اللازمة وتأمّر المتحكّم باتخاذ تدابير محددة وفقاً لذلك". (109)

أعلنت المحكمة، في تأكيدها على الحق في النسيان، أن السلطة الأساسية في المستقبل الرقمي تقع على عاتق الشعب وقوانينه ومؤسساته الديمقراطية. وأكدت قدرة الأفراد والمجتمعات الديمقراطية على النضال من أجل حقوقهم في المستقبل، وقدرتهم على تحقيق النصر، حتى في مواجهة قوة خاصة عظمى. ووفقاً للباحث في مجال حقوق الإنسان فيديريكو فابريني، تطوّرت محكمة العدل الأوروبية، أثناء القضية الحيوية، بشكل حازم لتتخذ دور محكمة حقوق الإنسان، ودخلت "حقل ألغام حقوق الإنسان في العصر الرقمي...". (110)

مع إعلان قرار محكمة العدل، قال مستثمر و"الأموال الذكية" (111) إن هذا لا يمكن أن يحدث أبداً في الولايات المتحدة، حيث تسعى شركات الإنترنت عادة إلى التذرّع بالتعديل الأول لتبرير "ابتكاراتها التي لا تتطلب إذنًا". (112) وقد وصف بعض مراقبي التكنولوجيا ذلك الحكم "بالجنون". (113) سخر رؤساء غوغل من القرار. ووصف الصحفيون سيرجي برين، الشريك المؤسس لغوغل، بأنه "متهور"

(109) "الحكم في القضية C-131/12: شركة غوغل إسبانيا المحدودة، شركة غوغل المحدودة ضد وكالة حماية البيانات الإسبانية، ماريو كوستيغا غونزاليس" (محكمة العدل التابعة للاتحاد الأوروبي، 13 مايو/أيار 2014).

(110) فيديريكو فابريني، "ميثاق الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية وحقوق خصوصية البيانات: محكمة العدل الأوروبية كمحكمة لحقوق الإنسان"، في ميثاق الاتحاد الأوروبي للحقوق الأساسية كوثيقة ملزمة: خمس سنوات وما زالت مستمرة، تحرير: سايب دي فريس، وأولف بورنيتز، وستيفن ويدريل (أكسفورد: هارت، 2015)، الصفحات 21-22.

(111) الأموال الذكية هي رأس المال الذي يوضع في السوق من قِبَل المستثمرين وخبراء السوق والبنوك المركزية والصناديق وغيرهم من المتخصصين الماليين (المترجم).

(112) للحصول على معلومات أساسية ممتازة حول "حرية التعبير" والتعديل الأول في قانون الإنترنت، انظر أنوبام تشاندر وأوين لي، "أسس حرية التعبير في قانون الإنترنت" (بحث في الدراسات القانونية بجامعة كاليفورنيا، ديفيس، العدد 351، سبتمبر/أيلول 2013، كلية الحقوق، جامعة كاليفورنيا، ديفيس).

(113) هنري بلودجيت، "مرحباً أوروبا، انسي أمر "الحق في النسيان" - قراراتٍ الجديد بشأن غوغل جنوبي"، بيزنس إنسايدر، 14 مايو 2014.

و"مُستخفّ". وعندما سُئل عن الحكم خلال جلسة أسئلة وأجوبة في مؤتمر تقني بارز، قال: "أتمنى لو نستطيع نسيان الحكم".⁽¹¹⁴⁾

ردًا على الحكم، استشهد الرئيس التنفيذي والمؤسس المشارك لشركة غوغل، لاري بييج، بمبادئ بيان مهمة الشركة، مؤكدًا لصحيفة فاينانشال تايمز أن الشركة "لا تزال تهدف إلى تنظيم معلومات العالم وجعلها متاحة للجميع ومفيدة". ودافع بييج عن نفوذ غوغل غير المسبوق في مجال المعلومات بتصريح استثنائي أشار فيه إلى أنه يُفترض أن يثق الناس بشركة غوغل أكثر من ثقتهم بالمؤسسات الديمقراطية: "إن وجود البيانات لدى شركات مثل غوغل، بشكل عام، أفضل من وجودها لدى الحكومة دون اتباع الإجراءات القانونية الواجبة للحصول عليها، لأننا نهتم بسمعتنا بالطبع. لست متأكدًا من أن الحكومة تهتم بذلك بالقدر ذاته".⁽¹¹⁵⁾ ووصف إريك شميدت قرار المحكمة، في حديثه إلى المساهمين في الشركة في اليوم التالي لصدور الحكم، بأنه "اختلال في التوازن" في "التصادم بين الحق في النسيان والحق في المعرفة".⁽¹¹⁶⁾

عكست تعليقات قادة غوغل تصميمهم على الاحتفاظ بالسيطرة المتميزة على المستقبل وسخطهم إزاء التحديات التي يواجهونها. لكن ثمة ما يكفي من الأدلة على أن الرأي العام الأمريكي لم يُقر بالسلطة الأحادية للشركة. وبدا في الواقع أن أصحاب الأموال الذكية لم يكونوا على قدرٍ كافٍ من الذكاء. في العام الذي تلا قرار الاتحاد الأوروبي، أظهر استطلاع رأي وطني للبالغين في الولايات المتحدة أن 88٪ منهم يؤيدون قانونًا مشابهًا لقانون "الحق في النسيان". في ذلك العام، وجد مركز بيو للأبحاث أن 93٪ من الأمريكيين يرون أن من المهم السيطرة على "من يمكنه الحصول على معلومات عنك". وقد أكدت سلسلة من استطلاعات الرأي هذه النتائج.⁽¹¹⁷⁾

(114) غريغ ستيرلينغ، "سيرجي برين، المؤسس المشارك لغوغل: أتمنى لو أستطيع نسيان 'الحق في النسيان'", محرك البحث، 28 مايو/أيار، 2014.

(115) ريتشارد ووترز، "لاري بييج، رئيس غوغل، يقاوم السرية ولكنه يتقبل مخاوف الخصوصية"، فاينانشال تايمز، 30 مايو/أيار 2014.

(116) جيمس فينسنت، "يقول رئيس غوغل إريك شميدت إن حكم 'الحق في النسيان' أخطأ في التوازن"، صحيفة الإندبندنت، 15 مايو/أيار 2014.

(117) بيت برودنيتز وآخرون، "استطلاع رأي الناخبين خارج نطاق الحزام السياسي، 26-27 فبراير"،

في الأول من يناير/ كانون الثاني 2015، دخل قانون "محو المحتوى الإلكتروني" في كاليفورنيا حيز التنفيذ، مُلزمًا مُشغّل أي موقع إلكتروني، أو خدمة إلكترونية، أو تطبيق إلكتروني، أو تطبيق جوال، بالسماح لقاصر مُسجّل في خدمة المُشغّل بإزالة المحتوى أو المعلومات التي نشرها، أو طلب إزالتها والحصول على إذن بذلك. لقد اخترق قانون كاليفورنيا حصارًا مُهمًا للمراقبة، مُضعفًا بذلك دور غوغل المُدّعي بحق المعرفة غير المُقيّد، ومُشيرًا إلى أننا لا نزال في بداية مسلسل طويل ومُتقطع، ولسنا في نهايته.

أظهرت وكالة حماية البيانات الإسبانية، ومحكمة العدل الأوروبية بعدها، خفة الحتمية التي لا تُحتمل، حين أعلنت كلتا المؤسستين عن المخاطر التي تُهدد مستقبل البشرية، بدءًا بأولوية المؤسسات الديمقراطية في بناء مستقبل رقمي سليم وعادل. يقول أصحاب المال الذكي إن القانون الأمريكي لن يتخلى أبدًا عن ولائه لرأساليه المراقبة على حساب الشعب. لكن العقود التالية قد تثبت مرة أخرى أن الأموال الذكية ربما تكون مخطئة. أما بالنسبة إلى الشعب الإسباني، ووكالة حماية البيانات الخاصة به، ومحكمة العدل الأوروبية، فيرجح أن يكشف الوقت أن إنجازاتهم تُشكّل فصلًا مبكرًا ومثيرًا في القصة الطويلة لكفاحنا من أجل حداثة ثالثة هي في المقام الأول والأخير مستقبل إنساني، متجذّر في ديمقراطية شاملة، وملتزم بحق الفرد في حياة فاعلة. إن

مبادرة "رؤى خارج نطاق الحزام السياسي"، 27 فبراير 2015؛ ماري مادن ولي ريني، "مواقف الأمريكيين تجاه الخصوصية والأمن والمراقبة"، مركز بيو للأبحاث (مدونة)، 20 مايو 2015. أظهر استطلاع رأي وطني أجرته شركة "سوفتوير أدفانيس" أن 61% من الأمريكيين يعتقدون أن بعض أشكال "حق النسيان" ضرورية. وأن 39% يريدون تطبيقًا شاملاً على غرار النموذج الأوروبي، وأن ما يقرب من نصفهم قلقون من أن نتائج البحث "غير ذات الصلة" قد تضر بسمعة الشخص. ووجد استطلاع رأي أجرته شركة "يوجوف" أن 55% من الأمريكيين يؤيدون تشريعًا مشابهًا "للحق في النسيان"، مقابل 14% فقط يعارضونه. أظهر استطلاع رأي أمريكي أجرته مجموعة بيننسون الاستراتيجية، ونُشر بعد قرابة عام من قرار الاتحاد الأوروبي، أن 88% من المشاركين أيدوا، إلى حد ما (36%) أو بقوة (52%)، قانونًا أمريكيًا يسمح لهم بتقديم التماسات لشركات مثل غوغل وياهو وبينغ لإزالة بعض المعلومات الشخصية التي تظهر في نتائج البحث. انظر: دانيال همفريز، "مواقف الولايات المتحدة تجاه 'الحق في النسيان'، سوفت وير أدفانيس، 5 سبتمبر/ أيلول 2014؛ جيك غامون، "الأمريكيون سيدعمون 'الحق في النسيان'، بوغوف، 6 ديسمبر/ كانون الأول 2017؛ ماريو تروجيلو، "الجمهور يريد 'الحق في النسيان' على الإنترنت"، هيل 19 مارس/ آذار 2015.

رسالتهم منقوشة بعناية لأطفالنا ليتأملوها: تُعادلُ الحتمية التكنولوجية في خفّتها الديمقراطية في ثقلها، وتستمرّ كما تستمرّ رائحة بتلات الورد وطعم العسل.

8. التحديد والترويض

يجب أن يبدأ ترويض رأسالية المراقبة بتحديد دقيق، وهو تعايش تجلّي بوضوح في التاريخ الحديث لأبحاث فيروس نقص المناعة المكتسب، وأنا أطرّحه هنا كمثال. حيث سعى العلماء، على مدى ثلاثة عقود، إلى ابتكار لقاح يتبع منطق العلاجات السابقة، مُدَرِّبًا الجهاز المناعي على إنتاج أجسام مضادة تتخذ طابعًا حياديًا، لكن البيانات كشفت عن سلوكيات غير متوقّعة لفيروس نقص المناعة المكتسب، تتحدّى أنواع الأمراض المعدية الأخرى.⁽¹¹⁸⁾

بدأ مجرى الأحداث يتحوّل في المؤتمر الدولي للإيدز عام 2012، عندما طُرِحت استراتيجيات جديدة تعتمدُ على فهم وثيق للبيولوجيا لدى حاملي فيروس نقص المناعة المكتسب النادرين الذين ينتج دمهم أجسامًا مضادة طبيعية. وبدأ البحث يتجه نحو أساليب تُعيد إنتاج استجابة التطعيم الذاتي هذه.⁽¹¹⁹⁾ وأعلن أحد الباحثين البارزين: "نحن نعرف الآن وجه العدو، وبالتالي لدينا بعض الأدلة الحقيقية حول كيفية التعامل مع المشكلة".⁽¹²⁰⁾

الفكرة الهامة بالنسبة إلينا هي أن كل لقاح ناجح يبدأ بفهم دقيق لهذا المرض المعادي. فالنماذج الذهنية والمفردات، والأدوات المستمّدة من كوارث الماضي تعيق التقدّم. نشمّ رائحة الدخان ونسارع لإغلاق أبواب غرفٍ محكوم عليها بالزوال. النتيجة مشابهة لرمي كرات الثلج على جدار رخامي أملس لرؤيتها وهي تنزلق على واجهته، دون أن تترك أي أثر سوى لطخة رطوبة: غرامة تدفع هنا، انعطاف في

(118) فرانسيس كولينز، "أبحاث اللقاحات: تكتيكات جديدة لمكافحة فيروس نقص المناعة البشرية"، مدونة مدير المعاهد الوطنية للصحة، 30 يونيو/ حزيران 2015؛ ليز زابو، "العلماء يحرزون تقدمًا في لقاح الإيدز، ولكن ببطء"، USA Today.com، 8 أغسطس/ آب 2012.

(119) كولينز، "أبحاث اللقاحات".

(120) زابو، "العلماء يحرزون تقدمًا في مجال لقاح الإيدز".

التشغيل هناك، وحزمة تشفير جديدة في موقع آخر.

الأمر الأساسي الآن هو أن نتعرّف على الشكل الجديد للرأسمالية بشروطه وكمياته الخاصة. إذ يعيدنا هذا المسعى بالضرورة إلى وادي السيليكون، حيث تتسارع الأحداث بسرعة هائلة تجعل قلة من الناس فقط يعرفون ما حدث للتو. إنه موقع التقدّم "بسرعة الأحلام"، كما وصفه أحد مهندسي غوغل بوضوح.⁽¹²¹⁾ هدي هنا هو إبطاء العمل من أجل توسيع مساحة نقاش كهذا، وكشف اتجاهات هذه الإبداعات الجديدة، لأنها تعمل على تضخيم التفاوت، وتكثيف التسلسل الهرمي الاجتماعي، وتفاقم الإقصاء، واغتصاب الحقوق، وتجريد الحياة الشخصية من أي شيء يجعلها شخصية بالنسبة إليك أو بالنسبة إلي. إذا أردنا للمستقبل الرقمي أن يكون وطننا، فعلينا أن نجعله كذلك. علينا أن نعرف، علينا أن نقرر، علينا أن نقرر من سيقدر. هذه هي معركتنا من أجل مستقبل إنساني.

(121) انظر ماري مادن ولي ريني، "مواقف الأميركيين بشأن الخصوصية والأمن والمراقبة"، مركز بيو للأبحاث (مدونة)، 20 مايو/أيار 2015.

الفصل الثالث

اكتشاف الفائض السلوكي

راقبَ النجوم ولا حظ الطيور في تحليقها؛
فيضان نهر أو سقوط قلعة:
كانت تنبؤاته صحيحة أحياناً؛
وكانت تخميناته المحظوظة تكافأ جيداً.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين – VI

مكتبة
t.me/soramnqraa

1. شركة غوغل: رائدة رأسمالية المراقبة

تُمثّل شركة غوغل لرأسمالية المراقبة ما تُمثّله شركة سيارات فورد وجنرال موتورز لرأسمالية الإدارة القائمة على الإنتاج الضخم. يكتشف الناس منطقاً اقتصادياً جديداً ونهاذجه التجارية في موقع وزمن معينين، ثم يُحسّنونها بإجراء التجارب والوقوع في أخطاء. أصبحت غوغل في عصرنا هذا رائدة رأسمالية المراقبة ومكتشفاتها ومطوّرتها ومجربتها وقودتها وقائدة ممارستها. كانت المكانة البارزة التي اكتسبتها شركتا جنرال موتورز وفورد، بوصفهما رائدتين في رأسمالية القرن العشرين، سبباً في جعلهما موضوعاً دائماً للبحث العلمي والافتتان العام، لأن صدى الدروس المستخلصة من تجربتهما كان يتردّد إلى ما هو أبعد بكثير من الشركات الفردية. وتستحقّ ممارسات شركة غوغل النوع نفسه من الدراسة، ولا أعني دراسة نقدية باعتبارها شركة واحدة فقط، بل لأن ممارساتها كانت نقطة بداية لرأسمالية ذات شكل جديد وقوي للغاية.

مع انتصار الإنتاج الضخم في شركة فورد، ولعدة عقود بعد ذلك، بدأ مئات

الباحثين ورجال الأعمال والمهندسين والصحفيين والعلماء بدراسة الظروف التي أحاطت بهذا الابتكار وأصوله ونتائجه.⁽¹²²⁾ وواصلوا، على مدى عقود طويلة، الكتابة بشكل مكثف عن شركة فورد، وعن الإنسان والشركة.⁽¹²³⁾ وكانت شركة جنرال موتورز أيضًا موضع تدقيق مكثف. وأصبحت مركزًا للدراسات الميدانية التي أجراها بيتر دراكر لكتابه الرائد مفهوم الشركة، (Concept of the Corporation)، الصادر عام ١٩٤٦، الذي نسق ممارسات منظّمة الأعمال التجارية في القرن العشرين، ورسخ سمعة دراكر بصفته خبيرًا في الإدارة. وبالإضافة إلى الدراسات والتحليلات الكثيرة حول هاتين الشركتين، عبّر قادتهما بحماس عن اكتشافاتهما وممارساتهما. إذ قام هنري فورد والمدير العام لمصنعه، جيمس كوزينز، ومالك شركة جنرال موتورز، ألفريد سلون ومسؤول التسويق لديه، هنري "بوك" ويفر، بالتأمل بإنجازاتهم كلها وتشكيل مبادئ حولها ونشرها، ولا سيما تلك الإنجازات التي وضعتهم في المسار التطوّري للرأسمالية الأمريكية.⁽¹²⁴⁾

إن شركة غوغل معروفة بسرّيتها، ومن الصعب أن تجد شركة تضاهيها في هذا المجال. يصوغ مسؤولوها التنفيذيون رسائلهم التبشيرية الرقمية بعناية في الكتب والمدونات، ويستحيل أن تصبح عملياتها في متناول باحثين أو صحفيين من الخارج.⁽¹²⁵⁾ في عام 2016، رفع مدير منتج دعوى قضائية ضد الشركة زعم فيها وجود برنامج تجسس داخلي يتوقع فيه من الموظفين تحديد هوية الزملاء الذين ينتهكون اتفاقية السرية الخاصة بالشركة: قانون شديد اللهجة يحظر على أي شخص

(122) انظر مناقشة ديفيد أ. هونشيل، من النظام الأمريكي إلى الإنتاج الضخم، 1800-1932: تطوير تكنولوجيا التصنيع في الولايات المتحدة، الطبعة السابعة، دراسات في الصناعة والمجتمع 4 (بالتيمور: جامعة جونز هوبكنز، 1997).

(123) انظر راينهارد بنديكس، العمل والسلطة في الصناعة: أيديولوجيات الإدارة في سياق التصنيع (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1974).

(124) ديفيد فاربر، قواعد سلون: ألفريد بي. سلون وانتصار جنرال موتورز (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 2005)؛ هنري فورد، حياتي وعلمي (غاردين سيتي، نيويورك: آير، 1922).

(125) كريس جاي هوفناغل، "ما وراء غوغل والشر" - تشبيهًا بعنوان كتاب نيتشه "ما وراء الخير والشر": كيف ينبغي لصناع السياسات والصحفيين والمستهلكين أن يتحدثوا بشكل مختلف عن غوغل والخصوصية"، الاثنين الأول، 6 أبريل/ نيسان 2009.

أن يكشف عن أي شيء يخص الشركة، لأي شخص مهما كانت صفته. (126) أقرب ما لدينا مقارنة بشخصية "بليك ويفر" و"جيمس كوزينز"، والذي ينسّق ممارسات غوغل وأهدافها، هو كبير الاقتصاديين المخضرم في الشركة، هال فاربان، الذي يُسهم في فهم السوق من خلال مقالات علمية تتناول مواضيع مهمة. وُصف فاربان بأنه "آدم سميث في مجال" اقتصاديات غوغل" (Googlenomics)، و"عرّاب" نموذجها الإعلاني. (127) ونجد في عمل فاربان أدلة مهمة "تُعتبرُ خفية في العلن" حول منطق

(126) ريد ألبيرجوتي وآخرون، "دعوى قضائية لموظف يتهم غوغل بـ"برنامج تجسس"، معلومات، 20 ديسمبر 2016.

(127) انظر ستيفن ليفي، في بليكس: كيف تفكّر غوغل وتعمل وتشكّل حياتنا (نيويورك: سايمون وشوستر، 2011)، 116؛ هال آر. فاربان، "سيرة هال آر. فاربان"، كلية إدارة المعلومات والأنظمة بجامعة كاليفورنيا، بيركلي، 3 أكتوبر/ تشرين الأول 2017؛ "الاقتصاد وفقًا لغوغل"، وول ستريت جورنال، 19 يوليو/ تموز 2007؛ ستيفن ليفي، "سر غوغلوميكس: وصفة تعتمد على البيانات تُحقق الربحية"، وايرد، 22 مايو/ أيار 2009؛ هال آر. فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، اقتصاديات الأعمال 49، العدد 1 (2014): 27-31.

على الرغم من أهمية ملاحظة أن هال فاربان ليس قائدًا تنفيذيًا في غوغل، إلا أن هناك الكثير في السجل العام يشير إلى أنه لعب دورًا رائدًا في مساعدة قادة غوغل على فهم عمليات منطقهم التجاري الخاص وتداعياته بالإضافة إلى توسيعه وتطويره. أقارن رؤى فاربان برؤى جيمس كوزينز في شركة فورد. كان كوزينز مستثمرًا ورجل أعمال سيصبح لاحقًا عضوًا في مجلس الشيوخ الأمريكي - والذي شغل منصب المدير العام في شركة فورد. ساعد في رعاية نجاح فورد المذهل بفهمه الواضح للمنطق الجديد للإنتاج الضخم وأهميته الاقتصادية. لم يكن منظرًا أو كاتبًا غزير الإنتاج مثل فاربان، لكن مراسلاته ومقالاته كانت مليئة برؤى غير عادية وظلت مصدرًا حيويًا لعلماء الإنتاج الضخم.

قضى فاربان عدة سنوات مستشارًا لدى غوغل قبل أن يصبح كبير الاقتصاديين فيها عام 2007. ويشير في سيرته الذاتية إلى أنه "منذ عام 2002، شارك في جوانب عديدة من الشركة، بما في ذلك تصميم المزايدات، والتحليل الاقتصادي القياسي، والمالية، والاستراتيجية المؤسسية، والسياسات العامة". وعندما نشرت صحيفة وول ستريت جورنال خبر تولي فاربان منصبًا جديدًا في غوغل عام 2007، أشارت إلى أن هذا المنصب يستلزم بناء "فريق من الاقتصاديين والإحصائيين والمحللين لمساعدة الشركة في مجالات التسويق، والموارد البشرية، والاستراتيجية، والسياسات العامة". وفي كتابه عن غوغل، يقتبس ستيفن ليفي عن إريك شميدت وهو يتأمل في كيفية تعلم الشركة استغلال "اقتصاد النقر" الجديد: "لدينا هال فاربان، ولدنا الفيزيائيون". في مقال ليفي المنشور في مجلة Wired عام 2009 حول "اقتصاديات غوغل"، أرجع شميدت الفضل إلى الفحص المبكر الذي أجراه فاربان لمزايدات الإعلانات التي تقدمها الشركة في توفير اللحظة الاكتشافية التي أوضحت الطبيعة الحقيقية لأعمال غوغل: "فجأة، أدركنا أننا كنا في مجال المزايدات".

في العمل الذي أستهدهُ به هنا، يوضّح فاربان نقاطه باستمرار بأمثلة من غوغل. وغالبًا ما يستخدم صيغة المتكلم الجمع في هذه الحالات، مثل: "لقد حققت غوغل نجاحًا باهرًا في تجاربنا الخاصة لدرجة أننا أتحناها للمعلنين والناشرين لدينا في برنامجين". لذلك، يبدو من المنطقي افتراض أن وجهات نظر فاربان تُقدّم رؤى ثاقبة حول المبادئ والأهداف التي تُحدّد هذا الشكل الجديد من السوق.

استكشف فاربان، في مقالتيْن استثنائتيْن نُشرتا في مجلات علمية، موضوع "الإجراءات التي تتم بواسطة الكمبيوتر" وأثارها على تغيير الاقتصاد الحديث.⁽¹²⁸⁾ وكتب المقاتلين بأسلوب نثري لطيف وواقعي، لكن التقليل غير المبرّر من أهمية هذا الأمر تناقض مع تصريحاته المذهلة غالباً: "إن كل إجراء تقريباً يتم بواسطة الحاسوب..... والآن بعد الانتشار الهائل لهذه الأجهزة، أصبح لها استخدامات أخرى كثيرة".⁽¹²⁹⁾ ثم حدّد أربعة استخدامات جديدة: "استخراج البيانات وتحليلها"، و"أشكالاً تعاقدية جديدة نتيجة رقابة أفضل"، "التخصيص المؤتمت والتخصيص الشخصي"⁽¹³⁰⁾، و"التجارب المستمرة".

تشكّل مناقشات فاربان لهذه "الاستخدامات" الجديدة دليلاً غير متوقّع على المنطق الغريب لرأسمالية المراقبة، وأقسام التعلّم التي تؤسّسها، وسمات حضارة المعلومات التي تقود إليها. سنعود إلى ملاحظات فاربان من وقت لآخر في سياق تفحصنا لأسس رأسمالية المراقبة، بمساعدة نوع من "الهندسة العكسية"⁽¹³¹⁾، لكي نتمكّن من فهم النظرة العالمية لرأسمالية المراقبة وأساليبيها من خلال هذه العدسة. يقول فاربان: "يشير الجميع في حديثهم عن البيانات الضخمة إلى استخراج البيانات وتحليلها". تُعدّ "البيانات" المادة الخام اللازمة لعمليات التصنيع المبتكرة لرأسمالية المراقبة. يصف "الاستخراج" العلاقات الاجتماعية والبنية الأساسية المادية التي تؤكد بها الشركة

(128) هال ر. فاربان، "إجراءات بواسطة الحاسوب"، المجلة الاقتصادية الأمريكية 100، العدد 2 (2010): 1-10؛ فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، المقال الأول، المنشور عام 2010، هو نص محاضرة فاربان التي ألقاها ريتشارد ت. إيلي. أما المقال الثاني، فيتناول أيضاً المعاملات بواسطة الحاسوب، ويتداخل بشكل كبير مع المادة الواردة في محاضرة إيلي.

(129) فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، 27.

(130) التخصيص المؤتمت "personalization": تخصيص يُديره نظام أو مزوّد خدمة، باستخدام بيانات تصدر ويستخدم بيانات المستخدم لتخصيص التجربة تلقائياً بما يتناسب مع حاجاته. أم التخصيص الشخصي "customization" فهو يتيح للمستخدم إمكانية التحكم بتعديل المنتج أو الخدمة بفعالية لتلبية احتياجاته الخاصة (المترجم).

(131) الهندسة العكسية هي عملية إعادة إنتاج مُنتج من مصنع آخر بعد تفحص تفصيلي لبنائه وتركيبه (المترجم).

سلطتها على تلك المواد الخام لتحقيق توفير مناسب في عمليات توريد المواد الخام. ويشير مصطلح "التحليل" إلى مجموعة الأنظمة الحسابية المتخصصة للغاية والتي سأشير إليها عمومًا في هذه الفصول باسم "الذكاء الآلي". أحبُّ هذه العبارة الشاملة لأنها تُدربنا على فهم جوهر الغابة لا جوهر الأشجار، مما يُساعدنا على الانتقال من التكنولوجيا إلى أهدافها. ولكن باختياري هذه العبارة، أتبع نهج غوغل أيضًا. تصف الشركة نفسها بأنها "في طليعة الابتكار في مجال الذكاء الآلي"، وهو مصطلح يشمل التعلّم الآلي بالإضافة إلى الإنتاج الخوارزمي "الكلاسيكي"، والعديد من العمليات الحسابية التي غالبًا ما يشار إليها بمصطلحات أخرى مثل "التحليلات التنبؤية" أو "الذكاء الاصطناعي". ومن بين هذه العمليات كلها، تستشهد غوغل بعملها في مجال ترجمة اللغات، والتعرّف على الكلام، والمعالجة البصرية، والتصنيف، والنمذجة الإحصائية، والتنبؤ: "في هذه المهام كلها، ومهام أخرى كثيرة، نجتمع الكثير من الأدلة المباشرة وغير المباشرة على علاقات المصالح المشتركة، ونطبّق خوارزميات التعلّم لفهمها وتعميمها".⁽¹³²⁾ تُحوّل عمليات الذكاء الاصطناعي هذه المواد الخام إلى منتجات خوارزمية عالية الربحية للشركة، مُصممة للتنبؤ بسلوك مستخدميها. يُشكّل غموض هذه التقنيات والعمليات وحصريتها الخندق الذي يُحيط بالقلعة ويضمن سير العمل داخلها.

مهّد ابتكار غوغل للإعلانات الموجهة الطريقَ للنجاح المالي، ولكنه وضع أيضًا حجر الأساس لتطور بعيد المدى: اكتشاف رأسمالية المراقبة وتطويرها. وُصِف عمل غوغل بأنه نموذج إعلاني، وكُتِبَ الكثير عن المزايدات المؤتمتة التي تستخدمها غوغل، والجوانب الأخرى لابتكاراتها في مجال الإعلان عبر الإنترنت. ثمة مبالغة في وصف هذه التطوّرات، وضعف في دراستها النظرية، مع وجود كثير من الحشو الكلامي. هدفنا في هذا الفصل والفصول الآتية، في هذا الجزء من الكتاب، الكشف عن "قوانين الحركة" التي تدير المنافسة في مجال المراقبة، لذلك نبدأ بإلقاء نظرة جديدة على نقطة المنشأ، عندما تم اكتشاف الآليات الأساسية لرأسمالية المراقبة للمرّة الأولى.

(132) "الذكاء الآلي"، بحث في غوغل، 2018.

قبل أن نبدأ، أودّ أن أتحديث قليلاً عن مفردات اللغة. تتطلب أية مواجهة مع غير المسبوق وجود لغة جديدة، وأنا أقدم في هذا الكتاب مصطلحات جديدة عندما تفشل اللغة التي نعرفها في توضيح ظاهرة جديدة. كما أقوم أحياناً، وبشكل متعمّد، بإعادة استخدام اللغة المعروفة لأنني أريد التأكيد على استمرارية معينة في وظيفة عنصر أو عملية. هذا هو الحال مع "قوانين الحركة"، المستعارة من قوانين نيوتن المتعلقة بالقوة والعطالة، وردود الفعل المتساوية والمتعاكسة.

اعتمد المؤرّخون على مرّ السنين على هذا المصطلح لوصف "قوانين" الرأسمالية الصناعية. على سبيل المثال، تؤثّق المؤرّخة الاقتصادية ألين ميكسينز وود أصول الرأسمالية في العلاقات المتغيرة بين أصحاب العقارات الإنكليز والمزارعين المستأجرين، حيث بدأ الملاك يفضلون الإنتاجية على العمل القسري: "تسمح لنا الديناميكية التاريخية الجديدة بالحديث عن 'الرأسمالية الزراعية' في بدايات إنكلترا الحديثة، وهو شكل اجتماعي له 'قوانين حركة' مميزة من شأنها أن تؤدي أخيراً إلى ظهور الرأسمالية في شكلها الصناعي الناضج".⁽¹³³⁾ تصف وود كيف ظهرت 'قوانين الحركة' الجديدة أخيراً في الإنتاج الصناعي:

كان العامل الحاسم، في انحراف الرأسمالية عن جميع أشكال "المجتمع التجاري" الأخرى، هو تطوّر علاقات ملكية اجتماعية معيّنة أدّت إلى توليد ضرورات السوق و"قوانين الحركة" الرأسمالية... والإنتاج المنافس وتعظيم الأرباح، والإجبار على إعادة استثمار الفائض، والحاجة المستمرة إلى تحسين إنتاجية العمل المرتبطة بالرأسمالية... وتطلّبت قوانين الحركة هذه اضطرابات هائلة، وتحولات اجتماعية، لتصبح قيد التنفيذ. لقد طالبوا بإحداث تحوّل في عملية التمثيل الغذائي للإنسان مع الطبيعة، وفي توفير الضروريات الأساسية للحياة.⁽¹³⁴⁾

حجتي هنا هي أنه على الرغم من أن رأسمالية المراقبة لا تتخلّى عن "القوانين" الرأسمالية الراسخة مثل المنافسة في الإنتاج، وتعظيم الأرباح، والإنتاجية، والنمو، إلا

(133) إلين ميكسينز وود، أصل الرأسمالية: نظرة أطول (لندن: فيرسو، 2002)، ص 125.

(134) وود، أصل الرأسمالية، 76، 93.

أن هذه الديناميكيات تعمل الآن في سياق منطق جديد للتراكم يطرح أيضًا قوانينه الحركية المميزة. سنتناول في هذا الفصل، والفصول الآتية، هذه الديناميكيات الأساسية، بما في ذلك الضرورات الاقتصادية الغريبة الفريدة لرأسمالية المراقبة، التي تُحدد عمليات الاستخراج والتنبؤ، ونهجها الفريد في تحقيق إنتاج فائض بكلفة قليلة، ونطاق توريد المواد الخام، وضرورة بنائها وتطويرها لوسائل تعديل السلوك التي تدمج "وسائل الإنتاج" القائمة على الذكاء الآلي في نظام عمل أكثر تعقيدًا، والطرق التي تُوجه بها متطلبات تعديل السلوك جميع العمليات نحو شمولية المعلومات والتحكم، مما يُنشئ إطارًا لسلطة آلية غير مسبقة وتداعياتها المجتمعية. ويقوم هدي في الحالي على إعادة تشكيل تقديرنا للأساس المألوف من خلال عدسات جديدة: أيام غوغل الأولى من التفاؤل والأزمات والابتكار.

2. توازن القوى

تأسست شركة غوغل عام 1998، على يد طالبي دراسات عليا في جامعة ستانفورد هما لاري بيج وسيرجي برين بعد عامين فقط من فتح متصفّح (Mosaic) أبواب شبكة الويب العالمية أمام مستخدمي الحاسوب من عامة الناس. وجسّدت الشركة منذ بدايتها وعد رأسمالية المعلومات كقوة اجتماعية تحررية وديمقراطية حفّزت شعوب الحداثة الثانية وأسعدتها في جميع أنحاء العالم.

بفضل هذا الاحتضان الواسع، نجحت غوغل في فرض وساطة حاسوبية على مجالات جديدة واسعة من السلوك البشري مع قيام الناس بالبحث عبر الإنترنت، والتفاعل مع الويب، ضمن قائمة متزايدة من خدمات غوغل. وبما أن هذه الأنشطة الجديدة كانت تُترجم، للمرة الأولى، الأوصاف والقياسات والأحداث إلى معلومات، فقد أنتجت موارد بيانات جديدة كليًا. على سبيل المثال، يُنتج كل استعلام بحث على موقع غوغل، بالإضافة إلى الكلمات الرئيسية، مجموعة بيانات إضافية مثل عدد مصطلحات البحث ونمطها، وكيفية صياغة الاستعلام، والتهجئة وعلامات الترقيم ووقت الانتظار، وأنماط النقر والموقع.

خُزِّنَتْ هذه المنتجات السلوكية في الفترة الأولى عشوائيًا، وتم تجاهلها عمليًا. ويُعزى الفضل في اكتشاف أهمية مخازن البيانات العَرَضِيَّة في غوغل إلى أميت باتيل، وهو طالب دراسات عليا شاب في جامعة ستانفورد لديه اهتمام خاص "باستخراج البيانات". أقرَّعه عمله بسجَّلات البيانات بأن من الممكن إنشاء قصص مفصَّلة عن كل مستخدم - الأفكار والمشاعر والاهتمامات - من خلال إشارات غير منظمة تتعقَّب كل إجراء عبر الإنترنت. واستنتج أن هذه البيانات توفِّر في الواقع "مستشعرًا واسع النطاق للسلوك البشري"، ويمكن استخدامها مباشرة في تحقيق حلم المؤسس لاري بيج في تحويل البحث إلى ذكاء اصطناعي شامل. (135)

سرعان ما أدرك مهندسو غوغل أن استمرار تدفق بيانات سلوكية جانبية يمكن أن يحوِّل محرك البحث إلى نظام تعلم متكرر يُحسِّن نتائج البحث باستمرار، ويُحفِّز تحديث منتجات مثل التدقيق الإملائي والترجمة والتعرف على الصوت. وكما لاحظ كينيث كوكير آنذاك،

أُتِيحَ لمحرركات البحث الأخرى في تسعينيات القرن العشرين فرصة القيام بالشيء نفسه، لكنها لم تلاحق تلك المعلومات. ورأت شركة "ياهو!"، قرابة عام 2000، الإمكانيات التي تمتلكها، ولم تظهر أية نتائج من تلك الفكرة. لكن شركة غوغل تعرَّفت على ذلك الغبار الذهبي الموجود في مخلفات تفاعلاتها مع مستخدميها، وتكبَّدت عناء جمعه... تستغلُّ غوغل المعلومات التي تعد نتاجًا ثانويًا لتفاعلات المستخدمين، أو نفايات عادم البيانات، ويُعاد تدويرها تلقائيًا لتحسين الخدمة أو إنشاء منتج جديد تمامًا. (136)

ما كان يُنظر إليه على أنه نفايات - "عادم البيانات" التي ضُخِّت في خوادم غوغل أثناء عمل محرك البحث - سرعان ما أُعيد تخيُّله باعتباره عنصرًا أساسيًا في انتقال محرك بحث غوغل إلى عملية انعكاسية للتعلم والتحسين المستمر.

(135) ليفي، في بليكس، 46؛ جينيفر لي، "بطاقات بريدية من كوكب غوغل"، نيويورك تايمز، 28 نوفمبر/ تشرين الثاني 2002.

(136) كينيث كوكير، "البيانات، البيانات في كل مكان"، مجلة الإيكونوميست، 25 فبراير 2010.

في تلك المرحلة البدائية من تطوير غوغل، أنتجت حلقات التغذية العكسية التي شاركت في تحسين وظائف البحث توازنًا في القوى: كان البحث بحاجة إلى أشخاص يتعلّم منهم، وكان الناس بحاجة إلى البحث ليتعلموا منه. فمكّنت حالة التعايش هذه خوارزميات غوغل من التعلّم، والوصول إلى نتائج بحث شاملة وأكثر صلة بالموضوع. زيادة الاستفسار تعني زيادة المعرفة؛ وزيادة المعرفة تعني زيادة الصلة بالموضوع؛ وزيادة الصلة بالموضوع تعني زيادة عمليات البحث، وزيادة عدد المستخدمين.⁽¹³⁷⁾ بحلول الوقت الذي عقدت فيه الشركة الناشئة مؤتمرها الصحفي الأول في عام 1999، للإعلان عن استثمار بقيمة 25 مليون دولار من شركتين من أكثر شركات رأس المال الاستثماري احترامًا في وادي السيليكون، وهما سيكويّا كابيتال وكلاينر بيركنز، كان محرك بحث غوغل يتلقى بالفعل سبعة ملايين طلب كل يوم.⁽¹³⁸⁾ وبعد بضع سنوات، لاحظ هال فاريان، الذي انضمّ إلى غوغل بصفته كبير الاقتصاديين فيها في عام 2002، أن "كل إجراء يقوم به المستخدم، يكون بمنزلة إشارة يجب تحليلها وإعادةتها إلى النظام".⁽¹³⁹⁾ كانت خوارزمية "بيج رانك" التي سُمّيت على اسم مصممها "لاري بيج"، قد منحت غوغل ميزة هامة فعلاً في تحديد النتائج الأكثر شعبية للاستعلامات. وعلى مدى السنوات القليلة المقبلة، سيكون التقاط المنتجات الثانوية لاستعلامات البحث هذه وتخزينها وتحليلها والتعلّم منها هو ما سيجعل غوغل المعيار الذهبي للبحث على الويب.

تكمّن النقطة الأساسية بالنسبة إلينا في تمييز جوهري. خلال هذه الفترة المبكرة، كانت البيانات السلوكية تُوظّف بالكامل لصالح المستخدم. لقد وفّرت بيانات المستخدم قيمة من دون أية تكلفة، وأعيدَ استثمار هذه القيمة في تجربة المستخدم على شكل خدمات محسّنة: تحسينات قدّمت أيضًا من دون أي تكلفة للمستخدمين. قدّم

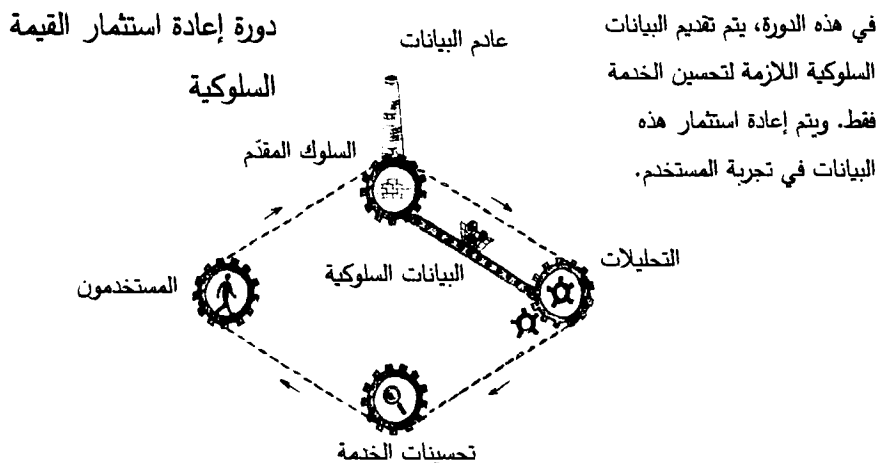
(137) ليفي، في بليكس، 46-48.

(138) "حصلت شركة غوغل على تمويل أسهم بقيمة 25 مليون دولار أمريكي"، أخبار غوغل، 7 يوليو 1999.

(139) هال ر. فاريان، "البيانات الضخمة: حيل جديدة للاقتصاد القياسي"، مجلة وجهات النظر

الاقتصادية 28، العدد 2 (2014): 113.

المستخدمون المادة الخام على شكل بيانات سلوكية، وُجمعت هذه البيانات لتحسين السرعة والدقة والملاءمة، وللمساعدة في بناء منتجات مساعدة مثل الترجمة. أُطلق على هذه الدورة اسم دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية، حيث يُعاد استثمار جميع البيانات السلوكية في تحسين المنتج أو الخدمة (انظر الشكل 1).



الشكل ١: دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية

تحاكي هذه الدورة منطق جهاز الآيبود؛ فقد نجحت هذه الدورة بشكل رائع في شركة غوغل ولكن مع وجود فارق أساسي واحد: غياب المعاملات السوقية المستدامة. في حالة جهاز آيبود، انطلقت الدورة نتيجة شراء متج مادي ذي هامش ربح مرتفع. وأدت المعاملات المتبادلة اللاحقة إلى تحسين أداء جهاز آيبود وزيادة مبيعاته. كان العملاء هم هدف العملية التجارية التي وعدت بالتوافق مع "ما يريدون، عندما يريدون، وحيث يريدون". وفي شركة غوغل، كانت الدورة موجهة بشكل مماثل نحو الفرد باعتباره هدفها، ولكن مع غياب منتج مادي للبيع، فقد كانت تطفو خارج السوق، في تفاعل مع "المستخدمين" بدلاً من كونها معاملة سوقية مع زبائن.

هذا يُفسر عدم دقة اعتبار مستخدمي غوغل زبائن لها: لا يوجد تبادل اقتصادي، ولا سعر، ولا ربح. ولا يؤدي المستخدمون دور عمال. عندما يوظف الرأسمالي عمالاً، ويمنحهم الأجر ووسائل الإنتاج، تصبح المنتجات التي يُنتجونها ملكاً له لبيعها بربح. لكن ذلك لا ينطبق على الحالة هنا. فالمستخدمون لا يتقاضون أجوراً مقابل عملهم، ولا يقومون بتشغيل وسائل الإنتاج، كما سنناقش ذلك بمزيد من التفصيل لاحقاً في هذا الفصل. أخيراً، كثيراً ما يُقال إن المستخدم هو "المنتج". هذه أيضاً نقطة مضللة سنعيد النظر فيها مراراً وتكراراً. لنقل الآن إن المستخدمين ليسوا منتجات، بل هم مصادر إمداد المواد الخام. كما سنرى، تُستمدُّ منتجات رأسمالية المراقبة غير التقليدية من سلوكنا دون أن تُعرضه للمساءلة. وتتمحور منتجاتها حول التنبؤ بنا، دون أن تُبالي بما نفعله أو بما يُرتكب بحقنا.

باختصار، في هذه المرحلة المبكرة من تطوير غوغل، كل ما يتخلّى عنه مستخدمو البحث عن غير قصد، كان ذا قيمة للشركة، استخدموه أيضاً على شكل خدمات محسنة. وفي دورة إعادة الاستثمار هذه، "يستهلك" تقديم نتائج بحث مذهلة للمستخدمين القيمة كلها التي أنشأها المستخدمون عندما قدّموا بيانات سلوكية إضافية. إن الحقيقة التي تقول: "إن حاجة المستخدمين إلى البحث توازي حاجة البحث إلى المستخدمين"، قد خلقت توازناً في القوة بين غوغل وجمهورها. إذ تم التعامل مع الناس باعتبارهم غايات بحدّ ذاتها، وأهدافاً لدورة غير سوقية مستقلة تتوافق تماماً مع مهمة غوغل المعلنة القائمة على "تنظيم معلومات العالم، وجعلها في متناول الجميع، ومفيدة علمياً".

3. البحث عن رأسمالية: المال نافذ الصبر وحالة الاستثناء

بحلول عام 1999، وعلى الرغم من روعة عالم غوغل الجديد من صفحات الويب القابلة للبحث، وقدراتها المتنامية في مجال علوم الحاسوب، ووجود داعمين مغامرين مميزين، لم تكن هناك طريقة موثوقة لتحويل أموال المستثمرين إلى إيرادات. أنتجت دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية وظيفية بحث رائعة، لكنها لم تكن رأسمالية بعد.

بسبب توازن القوى في السوق، أصبح من غير المضمون فرض رسوم على المستخدمين مقابل خدمات البحث، لأن ذلك ينطوي على مخاطر مالية كبيرة وقد لا يحقق العائد المطلوب. وربما يشكّل بيع نتائج البحث سابقة خطيرة للشركة، وذلك بسبب تحديد سعر لمعلومات مفهرسة أخذها برنامج شركة غوغل من الآخرين دون مقابل. من دون جهاز مثل آيود من شركة آبل أو أغانيه الرقمية، لم تكن هناك هوامش ربح، ولا فائض إنتاج، ولا شيء باقٍ لبيعه وتحويله إلى إيرادات.

قامت شركة غوغل بإحالة الإعلانات إلى الفئة الدنيا: كان فريق "أدوردز" (AdWords) في الشركة مكوناً من سبعة أشخاص، يشتركون جميعهم بالكراهية التي يكتّنها المؤسسون للإعلانات. وحُدّدَ التوجّه العام للشركة في بحث رائد أجراه سيرجي برين ولاري بيج، وطُرِحَ في مؤتمر شبكة الويب العالمية عام 1998، بعنوان: "البنية الداخلية التفصيلية لمحرك بحث ويب تشعبي واسع النطاق"، وكشفاً فيه النقاب عن مفهومهما لمحرك البحث: "نتوقع أن تكون محركات البحث الممولة بالإعلانات متحيزة بطبيعتها تجاه المعلنين، وبعبارة عن احتياجات المستهلكين. من الصعب للغاية اكتشاف هذا النوع من التحيز، لكن لا يزال من الممكن أن يكون له تأثير كبير على السوق... نعتقد أن قضية الإعلانات تسبب حوافز مختلطة بما يكفي لضرورة البحث عن محرك بحث منافس وواضح، ويعمل في المجال الأكاديمي".⁽¹⁴⁰⁾

اعتمدت إيرادات غوغل الأولى على صفقات الترخيص الحصرية لتوفير خدمات الويب لمنافذ مثل شركة ياهو! وشركة بيغلوب اليابانية.⁽¹⁴¹⁾ كما حققت أيضاً إيرادات متواضعة من الإعلانات المدعومة المرتبطة بكلمات البحث الرئيسية.⁽¹⁴²⁾ ثمّة نماذج أخرى جديرة بالاهتمام. كانت محركات البحث المنافسة، مثل محرك (Overture)

(140) سيرجي برين ولورانس بيج، "تشرح محرك بحث ويب نصي تشعبي واسع النطاق"، شبكات الحاسوب وأنظمة ISDN 30، الأعداد 7-1 (1998): 18.

(141) "شركة 'إن إي سي' (NEC) تختار غوغل لتقديم خدمات البحث على موقع بوابة بيغلوب الرائدة في اليابان"، صحافة غوغل، 18 ديسمبر 2000؛ "ياهو! تختار غوغل كمزود محرك البحث الافتراضي"، صحافة غوغل، 26 يونيو 2000.

(142) وود، أصل الرأسمالية، 125. وقد بدأت الصراعات تنشأ بالفعل بين خدمة مصالح قاعدة المستخدمين المتوسعة واحتياجات المنافذ.

الذي استُخدمَ حصراً في شركة (AOL) العملاقة آنذاك، أو محرّك (Inktomi)، الذي اعتمدته شركة مايكروسوفت، تجمع إيرادات من المواقع التي فهرستها الشركة. وقد نجح موقع (Overture) في جذب الإعلانات عبر الإنترنت من خلال سياسته المتمثلة في السماح للمعلنين بدفع ثمن قوائم البحث ذات التصنيف العالي، الشكل الذي لم يُعجب برين وبيج.⁽¹⁴³⁾

شكّك محللون بارزون علناً في قدرة غوغل على الدخول في منافسة قوية. وتساءلت صحيفة نيويورك تايمز في إحدى مقالاتها: "هل تستطيع غوغل بناء نموذج أعمال يضاهي، ولو قليلاً، جودة تقنياتها؟"⁽¹⁴⁴⁾ وقال أحد المحللين المعروفين في شركة "فورستر ريسيرتش" (Forrester Research) لا يوجد سوى بعض الطرق التي يمكن لشركة غوغل من خلالها جني أموال من عمليات البحث: "بناء بوابة [مثل Yahoo!...] الشراكة مع بوابة... ترخيص التكنولوجيا... الانتظار حتى تشتريها شركة كبيرة".⁽¹⁴⁵⁾

على الرغم من هذه الشكوك العامة بشأن قدرة غوغل على الاستمرار، قدّم الدعم المرموق للشركة ثقة كبيرة للمؤسسين في قدرتهم على جمع المال. لكن ذلك كله تغيّر فجأة في إبريل/ نيسان لعام 2000، عندما بدأ الاقتصاد الأسطوري لشركات "الدوت كوم"، أو الشركات العاملة على الإنترنت، في التراجع نحو الركود، وأصبحت جنة عدن في وادي السيليكون فجأة مركز زلزال مالي.

بحلول منتصف أبريل/ نيسان، أصبحت ثقافة المال السريع القائمة على الامتيازات في وادي السيليكون تحت الحصار مع انفجار ما عُرف لاحقاً بـ "فقاعة الدوت كوم". من السهل أن ننسى تماماً مدى الرعب الذي حلّ بشباب الوادي الطموحين ومستثمريهم الأكبر سنّاً بقليل. اضطرت شركات ناشئة، حظيت قبل أشهر قليلة

(143) سكارليت برويت، "محركات البحث تُقاضى بسبب "الدفع مقابل النشر"، CNN.com، 4 فبراير/ شباط 2002.

(144) سول هانسل، "أصعب عملية بحث في غوغل هي البحث عن نموذج عمل"، نيويورك تايمز، 8 أبريل 2002.

(145) إليوت زاريت، "هل يستطيع محرك بحث غوغل تحقيق الأرباح؟"، ZDNet، 14 يونيو 1999.

بتقييم عالٍ، إلى الإغلاق فجأة. وأشارت مقالات بارزة مثل "الموت يطارد شركات الدوت كوم" إلى أن أسعار أسهم شركات الإنترنت الأكثر احترامًا في وول ستريت قد "انخفضت بشكل لا يُصدق"، إذ يُتداول كثير منها بسعر أقل من السعر الذي طُرِحَتْ به بداية: "مع تراجع العديد من شركات الدوت كوم، لم يعد لدى المستثمرين المغامرين، ولا وول ستريت، رغبة بمنحهم سنًا واحدًا..."⁽¹⁴⁶⁾ امتلأت الأخبار بحكايا المستثمرين المصدومين، وشهد الأسبوع العاشر من إبريل أسوأ انخفاض في تاريخ مؤشر ناسداك، حيث أدرجت العديد من شركات الإنترنت أسهمها في البورصة، وكان هناك إجماع متزايد على أن "اللعبة" قد تغيرت بشكل كامل.⁽¹⁴⁷⁾

مع تدهور بيئة الأعمال في وادي السيليكون، بدت احتمالات استعادة المستثمرين لأموالهم، من خلال بيع شركة غوغل لشركة كبيرة، أقل ترجيحًا، ولم يكونوا بمنأى عن موجة الذعر المتصاعدة. بدأ العديد من المستثمرين في شركة غوغل يُعربون عن شكوكهم بشأن مستقبل الشركة، وهدد بعضهم بسحب الدعم. وتصاعدت الضغوط بحدة لتحقيق أرباح سريعة، على الرغم من أن محرك بحث غوغل يُعتبر الأفضل بين محركات البحث كلها، وكان زوّار الموقع في ازدياد مستمرّ، وكانت آلاف السير الذاتية تتدفق إلى مكتب الشركة في ماونتن فيو يوميًا. كان من الواضح أن بيع وبرين يتحركان ببطء شديد، وكان كبار المستثمرين في المشروع، مثل جون دور من كلاينز بيركنز ومايكل موريتز من سيكويّا، يشعرون بالإحباط.⁽¹⁴⁸⁾ ووفقًا لمؤرّخ غوغل ستيفن ليفي،

"كان المستثمرون المغامرون يصرخون بغضب شديد. لقد ولّى عهد ازدهار التكنولوجيا، ولم يكن مؤكدًا أن غوغل ستتجنّب الوقوع في مشكلة أخرى".⁽¹⁴⁹⁾

(146) جون جرينوالد، "الموت يلاحق شركات الدوت كوم"، مجلة تايم، 17 أبريل/ نيسان 2000.

(147) أليكس بيرنسون وباتريك ماكجيهان، "وسط خسائر سوق الأوراق المالية، شعور بأن اللعبة قد تغيرت"، نيويورك تايمز، 16 أبريل/ نيسان 2000؛ لورا هولسون وسول هانسل، "الأسواق المجنونة: صناعة فقاعة السوق"، نيويورك تايمز، 23 أبريل/ نيسان 2000.

(148) كين أوليتا، غوغل: نهاية العالم كما نعرفه (نيويورك: بنغوين، 2010).

(149) ليفي، في بليكس، 83.

أسهمت السمة الخاصة في تمويل المشاريع في وادي السيليكون، ولا سيّما خلال السنوات التي سبقت مستويات تضخم خطيرة في الشركات الناشئة، في تنامي الشعور بالخطر في غوغل. ووفقاً لعالم الاجتماع في جامعة ستانفورد مارك غرانوفيتز وزميله ميشيل فيراري في دراستهما لشركات رأس المال الاستثماري في وادي السيليكون، يشير "الارتباط بشركة رأس مال استثماري ذات مكانة عالية إلى المكانة العالية للشركة الناشئة، ويشجع الوكلاء الآخرين على الارتباط بها".⁽¹⁵⁰⁾ قد تبدو هذه المواضيع واضحة الآن، لكن من المفيد الإشارة إلى القلق الذي رافق الأزمة المفاجئة في تلك الأشهر. كان الاستثمار الخطير المرموق بمنزلة شكل من أشكال التدقيق - تماماً كما يصنّف القبول في جامعة مرموقة الطلاب ويصادق عليهم، رافعاً شأن قلّة منهم على خلفية الأغلبية - لا سيما في ظل بيئة "غير مستقرة" تُميّز الاستثمار في التكنولوجيا المتقدمة. أدّى فقدان تلك القدرة العالية على إرسال الإشارات إلى إدراج شركة ناشئة في قائمة طويلة من الشركات التي لم تحقق النجاح المأمول في ملحمة وادي السيليكون سريعة الحركة.

تشير نتائج أبحاث أخرى إلى نتائج الأموال نافذة الصبر التي غمرت وادي السيليكون مع الضجيج الضخم الذي استقطب المضاربين، وتساعد تقلّبات تمويل المشاريع.⁽¹⁵¹⁾ وقد أظهرت الدراسات التي أجريت على أنماط الاستثمار قبل الفقاعة عقلية "تحقيق نتائج كبيرة" التي كانت النتائج السيئة فيها تميل إلى تحفيز زيادة الاستثمار، حيث لاحقَ الممولين اعتقاداً بأن بعض الشركات الناشئة ستكتشف فجأة نموذج العمل الماروغ الذي سيحوّل رهاناتهم كلها إلى أنهار من الذهب.⁽¹⁵²⁾ لقد

(150) ميشيل فيراري ومارك غرانوفيتز، "دور شركات رأس المال الاستثماري في شبكة الابتكار المعقدة في وادي السيليكون"، مجلة الاقتصاد والمجتمع، المجلد 38، العدد 2 (2009): 347-348.
(151) ديف فالير وارين بيترسون، "تضخم الفقاعة: دراسة سلوك مستثمري الدوت كوم"، رأس المال الاستثماري 6، العدد 1 (2004): 1-22.

(152) فالير وبيتريسون، "تضخم الفقاعة"، 17-18. انظر أيضاً أوديان جويتا، محرر، الصفقات المنجزة: رواد الأعمال المغامرون يروون قصصهم (بوسطن: كلية هارفارد للأعمال، 2000)، 170-171، 190. جونفو تشانغ، "الوصول إلى رأس المال المغامر وأداء الشركات الناشئة المدعومة برأس المال المغامر في وادي السيليكون"، مجلة التنمية الاقتصادية الفصلية 21، العدد 2 (2007): 124-147.

تجاوزت معدلات وفيات الشركات الناشئة في وادي السيليكون نظيراتها في مراكز رأس المال الاستثماري الأخرى مثل بوسطن وواشنطن العاصمة، حيث أنتجت الأموال نافذة الصبر عددًا قليلًا من الانتصارات الكبيرة، والكثير من الخسائر.⁽¹⁵³⁾ وانعكس المال نافذ الصبر أيضًا في حجم الشركات الناشئة في وادي السيليكون، والتي كانت خلال هذه الفترة أصغر بكثير من تلك الموجودة في المناطق الأخرى، حيث توظف ما معدله 68 موظفًا مقارنة بمتوسط 112 موظفًا في بقية أنحاء البلاد.⁽¹⁵⁴⁾ وهذا يعكس الاهتمام بالعائدات السريعة دون إنفاق وقت طويل على تنمية الأعمال، أو تعميق قاعدة المواهب فيها، ناهيك عن تطوير القدرات المؤسسية التي كان جوزيف شومبيتر من الممكن أن يقدم لها المشورة. وقد تفاقمت هذه الميول بسبب ثقافة وادي السيليكون الواسعة، حيث يُحتفى بصافي الثروة باعتبارها المقياس الوحيد لنجاح آباء الوادي وأطفالهم.⁽¹⁵⁵⁾

على الرغم من عبقرية برين وبيج المبدئية، فهما لم يستطيعا تجاهل الشعور المتزايد بالخطر. بحلول ديسمبر/ كانون الأول عام 2000، نشرت صحيفة وول ستريت جورنال تقريرًا عن "الشعار" الجديد الناشئ من مجتمع الاستثمار في وادي السيليكون: "إن مجرد إظهار القدرة على جني الأرباح لن يكون كافيًا لبقائك لاعبًا رئيسًا في السنوات القادمة. إذ يتطلب الأمر القدرة على تحقيق أرباح مستدامة ومتزايدة".⁽¹⁵⁶⁾

4. اكتشاف الفائض السلوكي

يعمل إعلان حالة الاستثناء، الشبيه بحالة الطوارئ، في السياسة كغطاء لتعليق

(153) ومن بين الجيل الأول من شركات الإنترنت الناشئة المدعومة برأس المال الجريء في وادي السيليكون، أكملت 12.5% منها الاكتتابات العامة الأولية بحلول نهاية عام 2001، مقارنة بنحو 7.3% في بقية أنحاء البلاد، في حين حققت 4.2% فقط من الشركات الناشئة في وادي السيليكون الربحية، وهي نسبة أقل كثيرًا من النسبة في بقية أنحاء البلاد.

(154) تشانغ، 124-47.

(155) باتريشيا لي براون، "تعليم جوني القيم حيث المال هو الملك"، نيويورك تايمز، 10 مارس 2000.

(156) كارا سويسر، "فقاعة الدوت كوم انفجرت؛ هل ستزداد الأمور سوءًا في عام 2001؟" وول ستريت جورنال، 19 ديسمبر/ كانون الأول 2000.

سيادة القانون وإدخال سلطات تنفيذية جديدة تبررها الأزمة.⁽¹⁵⁷⁾ في أواخر عام 2000، أصبحت هذه الحالة مبررًا لإلغاء العلاقة المتبادلة التي كانت قائمة بين غوغل ومستخدميها، مما شجع المؤسسين على التخلي عن معارضتهم الشديدة والعلنية للإعلان. وكرّد فعل محدد على قلق المستثمرين، كلف المؤسسون فريق "أدوردز" (AdWords) الصغير بالبحث عن طرق لكسب المزيد من المال.⁽¹⁵⁸⁾ طالب بيج بتبسيط العملية برمتها للمعلنين. وفي هذا النهج الجديد، أصرّ على أنه "لا ينبغي للمعلنين التدخل في اختيار الكلمات الرئيسية، فغوغل هو من يختارها".⁽¹⁵⁹⁾

هذا يعني من الناحية التشغيلية أن غوغل سيوجّه مخزونه المتنامي من البيانات السلوكية، وقوته الحسابية وخبرته، نحو مهمة واحدة تتمثل في مطابقة الإعلانات مع الاستعلامات. وبرز خطاب جديد لتبرير هذه الخطوة غير التقليدية. إذا كان للإعلان وجود، فلا بد أن يكون "ملائمًا" للمستخدمين. لن تُربط الإعلانات بعد الآن بكلمات مفتاحية في استعلام البحث، بل إن إعلانًا معينًا "سيستهدف" شخصًا معينًا. إعلان معين إلى شخص معين. إن تأمين هذه "الكأس المقدسة" للإعلان من شأنه أن يضمن أهميتها للمستخدمين، وقيمتها للمعلنين.

غاب عن الخطاب الجديد حقيقة مفادها أن غوغل، في سعيها إلى تحقيق هذا الهدف الجديد، سوف تتخطى حدودًا عذراء من خلال استغلال حساسيات لا يمكن الكشف عنها إلا من خلال بياناتها السلوكية التفصيلية والحصرية الخاصة بملايين المستخدمين، ولاحقًا مليارات المستخدمين. ولتحقيق الهدف الجديد، أُخضعت دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية لمهمة أكبر وأكثر تعقيدًا، بسرعة وسريّة تامة. ستُستخدم الآن المواد الخام، التي كانت حصرية بتحسين جودة نتائج البحث، في خدمة الإعلانات الموجهة للمستخدمين الأفراد أيضًا. وسيستمر تطبيق بعض البيانات لتحسين الخدمة، لكن سيُعاد استخدام مخازن الإشارات الجانبية المتزايدة لتحسين

(157) س. همفريز، "إضفاء الشرعية على الفوضى: حول حالة الاستثناء لجورجيو أغامبين"، المجلة الأوروبية للقانون الدولي، المجلد 17، العدد 3 (2006): 677-87.

(158) ليفي، في بليكس، 83-85.

(159) ليفي، 86-87 (الخط المائل يعود لي).

أرباح الإعلانات لكل من غوغل ومعلنها. إن البيانات السلوكية، التي أُتيحت لاستخدامات تتجاوز تحسين الخدمة، شكّلت فائضاً، وتمكّنت الشركة الناشئة بفضل قوّة هذا الفائض السلوكي، من إيجاد طريقها إلى "أرباح مستدامة ومتزايدة" ضرورية للبقاء. وبفضل حالة استثناء متخيّلة، بدأت تتشكّل طفرة جديدة، وتتسلّل بهدوء إلى العقد الاجتماعي الضمني الموجه نحو الدعم في العلاقة الأصلية للشركة مع المستخدمين.

كانت حالة الاستثناء التي أعلنتها شركة غوغل بمثابة لوحة خلفية لعام 2002، وهو العام الفاصل الذي ترسخت فيه رأسمالية المراقبة. إذ تجاوز اهتمام الشركة بالفائض السلوكي عتبة أخرى في شهر أبريل/ نيسان، عندما وصل أعضاء فريق البيانات إلى مكاتبهم في أحد الصباحات ليجدوا عبارة غريبة برزت في أعلى استعلامات البحث: "اسم عائلة كارول برادي قبل الزواج". لماذا هذا الاهتمام المفاجئ بشخصية تلفزيونية من سبعينيات القرن الماضي؟ كان أميت باتيل، عالم البيانات، وعضو فريق سجلّات الأحداث، هو من روى الحدث لصحيفة نيويورك تايمز، قائلاً: "لا يُمكن تفسيره إلا إذا كنتَ على دراية بالأشياء الأخرى التي تحدث في العالم". (160)

بدأ الفريق العمل على حل اللغز. أولاً، لاحظوا أن نمط الاستعلامات قد أنتج خمس طفرات منفصلة، تبدأ كل منها بعد ساعة وثمانٍ وأربعين دقيقة. ثم علموا أن نمط الاستفسار حدث أثناء بث البرنامج التلفزيوني الشهير من سيربح المليون؟ عكست هذه الارتفاعات المناطق الزمنية المتتالية التي عُرض فيها البرنامج، وانتهى في هاواي. في كل منطقة زمنية، طرح مُقدّم البرنامج سؤالاً عن اسم عائلة كارول برادي قبل الزواج، وفي كل منطقة، تدفقت الاستفسارات فوراً إلى خوادم غوغل.

وفقاً لما أشارت صحيفة نيويورك تايمز، "كانت دقّة بيانات كارول برادي صادمة للبعض". وُصِدِمَ برين من القدرة التنبؤية لمحرّك البحث، كاشفاً عن الأحداث

والاتجاهات قبل أن "تظهر" على رادار وسائل الإعلام التقليدية. وكما قال لصحيفة التايمز: "كان الأمر أشبه بتجربة مجهر إلكتروني لأول مرة. كان بمثابة مقياس لحظي للتغيرات".⁽¹⁶¹⁾ وصفت صحيفة التايمز مسؤولي غوغل التنفيذيين بأنهم مترددون في مشاركة آرائهم حول كيفية تسويق مخازنهم الضخمة من بيانات الاستعلامات. وصرح أحد المسؤولين التنفيذيين قائلاً: "نمة فرص هائلة مع هذه البيانات".⁽¹⁶²⁾

قبل شهر واحد فقط من لحظة كارول برادي، وبينما كان فريق "أد ووردز" يعمل فعلاً على أساليب جديدة، قام برين وبيج بتعيين إريك شميدت بصفة رئيس مجلس إدارة، وهو مدير تنفيذي ومهندس وحاصل على درجة الدكتوراه في علوم الحاسوب. وفي شهر أغسطس، عينوه مديراً تنفيذياً للشركة. كان دوير وموريتز يَحْثَانِ المؤسسين على تعيين مدير محترف يعرف كيف يقود الشركة نحو الربح.⁽¹⁶³⁾ نفذ شميدت على الفور برنامجاً لتقليص النفقات، مُسيطرًا على زمام الأمور في الميزانية، ومُفاقماً الشعور العام بالقلق المالي مع تعرّض فرص جمع التبرعات للخطر. وبسبب ضيق مساحة العمل، اضطر فجأةً إلى مشاركة مكتبه مع أميت باتيل.

تفاخر شميدت لاحقاً بأنه نتيجة لقرب المسافة بينهما على مدار عدة أشهر، كان لديه إمكانية الوصول الفوري إلى أرقام إيرادات أفضل من تلك التي كانت لدى مخططيهِ الماليين.⁽¹⁶⁴⁾ نحن لا نعرف (وربما لن نعرف أبداً) ما هي الرؤى العميقة الأخرى التي ربما استخلصها من باتيل حول القوة التنبؤية لمخازن البيانات السلوكية لدى غوغل، لكن ما من شك بأن الفهم العميق للقوة التنبؤية شكّل بسرعة استجابة غوغل المحددة للطوارئ المالية، ما أدّى إلى تحفيز الطفرة الحاسمة التي نقلت أخيراً "أدووردز"، وغوغل، والإنترنت، وطبيعة رأسالية المعلومات، نحو مشروع مراقبة مربح بشكل مذهل. اعتبرت إعلانات غوغل الأولى فعالة أكثر من معظم الإعلانات الأخرى عبر

(161) لي.

(162) لي.

(163) أوليتا، غوغل.

(164) جون ماركوف، وحي باسكال زاكاري، "في البحث في صفحات الويب، يجد غوغل ثروات"، نيويورك

تايمز، 13 أبريل/ نيسان 2003.

الإنترنت في ذلك الوقت لأنها كانت مرتبطة باستعلامات البحث، ويمكن لغوغل تعقب متى نقر المستخدمون بالفعل على إعلان معين، والمعروف باسم معدل "النقر". وعلى الرغم من ذلك، كان المعلنون يتلقون الفواتير بالطريقة التقليدية، أي وفقًا لعدد الأشخاص الذين شاهدوا الإعلان. ومع توسع نطاق البحث، أنشأت شركة غوغل نظام الخدمة الذاتية المعروف باسم "أدوردز"، وفيه يتضمن البحث الذي يستخدم الكلمة المفتاحية لصاحب الإعلان مربع نص ورابطاً إلى صفحة الوصول الخاصة به. ويعتمد سعر الإعلان على موضعه في صفحة نتائج البحث.

طوّرت شركة البحث المنافسة الناشئة، "أوفرشر" نظام مزاد إلكترونيًا لاستثمار صفحات الويب، ما مكّنها من توسيع نطاق الإعلانات الموجهة إلى الكلمات المفتاحية. وأدخلت غوغل تحسينًا جذريًا على هذا النموذج، تحسينًا كان مُصمّمًا لتغيير مسار رأسمالية المعلومات. ووفقًا لتصريح صحفيٍّ من "بلومبيرغ" عام 2006، "تعمل غوغل على تعظيم الإيرادات التي تحصل عليها من تلك الملكية الثمينة من خلال إعطاء أفضل موقع لها للمعلن الذي يُرجّح أن يدفع لغوغل أكبر مبلغ إجمالي،/استنادًا/ إلى سعر النقرة مضروبًا في تقدير غوغل لاحتِمال أن ينقر شخص ما بالفعل على الإعلان".⁽¹⁶⁵⁾ وكان هذا التضاعف المحوري نتيجة للقدرات الحسابية المتقدمة التي اكتسبها محرك غوغل من خلال تدريبه على أكثر الاكتشافات التي حققها أهمية وسريّة: الفائض السلوكي. من هذه النقطة فصاعدًا، أصبح الجمع بين الذكاء الآلي المتزايد باستمرار، والإمدادات الهائلة من الفائض السلوكي، أساسًا لمنطق تراكم غير مسبوق. ستحوّل أولويات غوغل في إعادة الاستثمار من مجرد تحسين عروضها للمستخدمين إلى ابتكار وتأسيس أوسع عمليات توريد المواد الخام التي شهدها العالم على الإطلاق، وأكثرها تقدّمًا. ومنذ هذه اللحظة، ستعتمد الإيرادات والنموّ على فائض سلوكي أكبر.

إن براءات الاختراع الكثيرة التي رفعتها شركة غوغل خلال تلك السنوات الأولى

(165) بيتر كوي، "سر نجاح غوغل"، بلومبيرغ دوت كوم، 6 مارس 2006.

توضح ضخامة الاكتشاف والإبداع والتعقيد الذي تفجّر بسبب حالة الاستثناء التي أدّت إلى هذه الابتكارات الحاسمة، وإصرار الشركة على تعزيز الاستفادة من الفائض السلوكي.⁽¹⁶⁶⁾ ومن بين هذه الجهود كلها، أركّز هنا على براءة اختراع واحدة قدّمتها، في عام 2003، ثلاثة من كبار علماء الحاسوب في الشركة بعنوان "توليد معلومات المشتركين لاستخدامها في الإعلانات المستهدفة".⁽¹⁶⁷⁾ ترمز براءة الاختراع لهذه الطفرة الجديدة ومنطق التراكم الناشئ الذي سيُحدّد نجاح غوغل. والأهم من ذلك أنها تُقدّم ومضات غير اعتيادية على "التوجّه الاقتصادي" المتأصل في التكنولوجيا، من خلال عكس عقلية علماء غوغل المتميزين وهم يُسخّرون معارفهم لتحقيق أهداف الشركة الجديدة.⁽¹⁶⁸⁾ وهكذا، تمثّل براءة الاختراع أطروحة حول الاقتصاد السياسي الجديد للنقرات وعالمها الأخلاقي، قبل أن تتعلّم الشركة كيفية إخفاء هذا

(166) خذ بعين الاعتبار مثلاً هذه العينة النموذجية لبراءات اختراع غوغل المقدّمة خلال هذا الإطار الزمني العام: كريشنا بهارات، وستيفن لورانس، ومهام ساهامي، توليد معلومات المستخدم لاستخدامها في الإعلانات المستهدفة، US9235849 B2، المقدمة في 31 ديسمبر 2003، والصادرة في 12 يناير 2016: جاكوب صموئيل بيورنيم، نظام وطريقة لاستهداف الإعلانات أو المعلومات الأخرى باستخدام معلومات المستخدم الجغرافية، US7949714 B1، المقدمة في 5 ديسمبر 2005، والصادرة في 24 مايو 2011: ألكسندر بي كاروبوس وآخرون، الإعلانات المستهدفة للمحتوى باستخدام بيانات سلوك المستخدم المجمعة، US20140337128 A1، المقدمة في 25 يوليو 2014، والصادرة في 13 نوفمبر 2014: جيفري دين، وجورج هارليك، وبول بوشيت، طرق وأجهزة لتقديم الإعلانات ذات الصلة، US20040059708 A1، المقدمة في 6 ديسمبر 2002، والصادرة في 25 مارس 2004، جيفري دين، وجورج هارليك، وبول أوتشيت، تقديم الإعلانات باستخدام المعلومات المرتبطة بالبريد الإلكتروني، US20040059712 A1، المقدمة في 2 يونيو 2003، والصادرة في 25 مارس 2004: أندرو فايكس، وروس كوينجستين، وجون باور، نظام وطريقة لاستهداف الإعلانات المستندة إلى الويب تلقائياً، US8041601 B2، والصادرة في 18 أكتوبر 2011: جورج ر. هارليك، "توليد معلومات للإعلانات عبر الإنترنت من بيانات الإنترنت وبيانات الوسائط التقليدية"، US8438154 B2، المقدم في 29 سبتمبر/أيلول 2003، والصادر في 7 مايو/أيار 2013: جورج ر. هارليك، "تقديم الإعلانات باستخدام بحث عن معلومات ويب المُعلن"، US7647299 B2، المقدم في 30 يونيو/حزيران 2003، والصادر في 12 يناير/كانون الثاني 2010: روب كنياز، وأينياني شارما، وكاي تشين، "محتوى إعلاني مشترك قابل للتتبع"، US7996777 B2، الصادر في 9 أغسطس/آب 2011: طريقة توصيل الإعلانات واستهدافها وقياسها عبر الشبكات، USRE44724 E1، المقدم في 24 مايو/أيار 2000، والصادر في 21 يناير/كانون الثاني 2014.

(167) قام ثلاثة علماء حاسوب متميزين، وهم كريشنا بهارات، وستيفن لورانس، ومهام ساهامي، باختراع التقنيات والأساليب الموضحة في هذه البراءة (توليد معلومات المستخدم لاستخدامها في الإعلانات المستهدفة).

(168) بهارات، لورانس، وساهامي، توليد معلومات المستخدم.

تكشف براءة الاختراع عن محور عمليات خلف الكواليس حول جمهور غوغل الجديد من العملاء الحقيقيين. إذ أعلن المخترعون: "يتعلق هذا الاختراع بالإعلان". وعلى الرغم من كمية البيانات الديموغرافية الهائلة المتاحة للمعلنين، يلاحظ العلماء أن جزءًا كبيرًا من ميزانية الإعلان "يهدر ببساطة... ومن الصعب للغاية تحديد مثل هذا الهدر والقضاء عليه". (169)

لطالما كانت الإعلانات عبارة عن لعبة تخمين: الفن، والعلاقات، والحكمة التقليدية، والممارسات المعيارية، لكنها لم تكن "علمًا" قط. كانت فكرة القدرة على إيصال رسالة معيّنة، إلى شخص معين، في لحظة يُحتملُ فيها إحداث تأثير كبير على سلوكه، هي "الكأس المقدسة" للإعلان. يشير المبتكرون إلى أن أنظمة الإعلان عبر الإنترنت فشلت أيضًا في تحقيق هذا الهدف المراوغ. إذ إنّ الأساليب التي كانت سائدة آنذاك، والتي استخدمها منافسو غوغل، وكانت تستهدف الكلمات المفتاحية أو المحتوى، لم تتمكّن من تحديد الإعلانات ذات الصلة "لستخدم معيّن". ويقدم المبتكرون الآن حلًا علميًا يتجاوز أسمى أحلام أي مسؤول تنفيذي في مجال الإعلان طموحًا:

ثمة ضرورة لزيادة توافق الإعلانات المقدّمة لبعض طلبات المستخدم، مثل استعلام بحث أو طلب مستند... للمستخدم الذي قدّم الطلب.... قد يتضمّن الاختراع الحالي أساليب أو أجهزة أو تنسيقات رسائل أو هياكل بيانات جديدة لتحديد معلومات ملفّ المُشترك، واستخدامها لخدمة الإعلانات. (170)

بعبارة أخرى، لن تقوم غوغل بعد الآن باستخراج البيانات السلوكية لتحسين الخدمة للمستخدمين فحسب، بل لقراءة عقولهم لأغراض مطابقة الإعلانات مع اهتماماتهم، حيث تُستنتجُ هذه الاهتمامات من الآثار الجانبية للسلوك عبر الإنترنت.

(169) بهارات، لورنس، وسهامي، 11.

(170) بهارات، لورنس، وسهامي، 11-12.

بفضل قدرة غوغل الفريدة من نوعها على الوصول إلى البيانات السلوكية، أصبح بإمكانها الآن معرفة ما يفكر فيه شخص معين ويشعر في وقت ومكان معينين. وحقيقة أن هذا الأمر لم يعد يُدهشنا، أو حتى يستحق ملاحظتنا، هي دليل على الخدر النفسي العميق الذي جعلنا نعتاد التحوّل الجريء وغير المسبوق في الأساليب الرأسالية.

تعني التقنيات الموصوفة في براءة الاختراع أنه في كل مرة يستفسر فيها أحدهم عن أمر معين من محرّك بحث غوغل، يقدّم النظام في الوقت نفسه تكوينًا محددًا لإعلان معين، وذلك كله في جزء من الثانية التي يستغرقها استيفاء استعمال البحث. والبيانات المستخدمة لإجراء هذه الترجمة الفورية من الاستعلام إلى الإعلان، وهو التحليل التنبؤي الذي أُطلقَ عليه اسم "المطابقة"، تجاوزت بكثير مجرّد وصف مصطلحات البحث. وقد تمّ تجميع مجموعات بيانات جديدة من شأنها أن تُحسّن دقّة هذه التنبؤات بشكل كبير. أُطلقَ على مجموعات البيانات هذه اسم "معلومات ملف تعريف المستخدم" أو "UPI". تعني هذه البيانات الجديدة أنه لا مزيد من التخمينات، وبالتالي، تقليل الهدر في ميزانية الإعلانات. سيحلّ اليقين الرياضي محلّ ذلك كله.

من أين تأتي "معلومات ملف تعريف المستخدم" أو "UPI"؟ أعلن العلماء عن إنجاز كبير. أوضحوا أولاً أن بالإمكان استخلاص بعض البيانات الجديدة من أنظمة الشركة الحالية، من مخازن المعلومات المستمّرة بالتراكم في محرّك البحث. ثم أكدوا أن بالإمكان جمع المزيد من البيانات السلوكية من أي مكان في العالم الإلكتروني. وقالوا إن بالإمكان "استنتاج" معلومات ملفّ تعريف المستخدم أو "افتراضها" أو "الاستدلال عليها". إذ يمكن لأساليبهم وأدواتهم الحاسوبية الجديدة إنشاء معلومات ملف تعريف المستخدم UPI من خلال دمج وتحليل أنماط بحثه واستفساراته عن المستندات، ومجموعة كبيرة أخرى من مؤشرات السلوكيات عبر الإنترنت، حتى عندما لا يقدّم هذا المُستخدمُ معلوماته الشخصية بشكل مباشر: "قد تتضمن معلومات ملف تعريف المستخدم أية معلومات عن مستخدم واحد أو مجموعة من المستخدمين. وقد يوفّر المستخدم نفسه هذه المعلومات، أو يوفّر لها طرف ثالث مخوّل له إصدار معلومات المستخدم،" و/ أو "تُسَمَّد من تصرّفاتِه. ويمكن استنتاج

معلومات معينة مُستخدم أو افتراضها من خلال معلومات أخرى للمستخدم ذاته، "و/ أو" معلومات مستخدمين آخرين. قد ترتبط واجهة معلومات ملف تعريف المستخدم UPI بجهات مختلفة".⁽¹⁷¹⁾

يوضح المخترعون أن بالإمكان استنتاج معلومات ملف المستخدم من تصرفات المستخدم أو المجموعة مباشرة، أو من أي نوع من أي نوع من المستندات التي يشاهدها، أو من صفحة الويب التي يصل إليها الشخص بعد النقر على الإعلان: "على سبيل المثال، قد يقتصر إعلان فحص سرطان البروستات على ملفات تعريف يتضمن سمات مثل 'ذكر' و'45 عامًا فأكثر'.⁽¹⁷²⁾ فهم يصفون طرقًا مختلفة للوصول إلى ملف التعريف. ويعتمد أحد هذه الطرق على "مُصنّفات التعلّم الآلي" التي تتنبأ بالقيم على مجموعة من السمات. لقد طوّر المبتكرون "مخططات بيانية ارتباطية" للكشف عن العلاقات بين المستخدمين والمستندات واستعلامات البحث وصفحات الويب: "يمكن أيضًا إنشاء ارتباطات بين المستخدمين".⁽¹⁷³⁾ وأشاروا أيضًا إلى أنه لا يمكن فهم أساليبهم إلا بين مجموعة من علماء الحاسوب المهتمين بالتحديات التحليلية لهذا العالم الجديد عبر الإنترنت: "عُرِض الوصف التالي لتمكين المختصّ في هذا المجال من تطبيق هذا الاختراع واستخدامه... ستكون التعديلات المختلفة على التجسيّدات المُفصّل عنها واضحةً للمختصين في هذا المجال..."⁽¹⁷⁴⁾

من المهم جدًّا لقصّتنا ملاحظة العلماء أن التحدّي الأصعب هنا هو تحدّي اجتماعي وليس تقني. يبدأ الاحتكاك عندما يمتنع المستخدمون عن تقديم المعلومات عمدًا لسبب واحد فقط، وهو أنهم اختاروا عدم تقديمها. يقول العلماء محذرين: "للأسف، لا تتوفّر معلومات ملفات تعريف المستخدمين دائمًا". فالمستخدمون لا يقدمون المعلومات "طواعيةً" دائمًا، أو قد يكون "ملف تعريف المستخدم غير مكتمل...

(171) بهارات، لورانس، وسهامي، 15 (الخط المائل يعود لي).

(172) بهارات، لورانس، وسهامي، 15.

(173) بهارات، لورانس، وسهامي، 18.

(174) بهارات، لورانس، وسهامي، 12.

وبالتالي غير شامل، لأسباب تتعلق بالخصوصية، وما إلى ذلك". (175)

الهدف من براءة الاختراع هو التأكيد للجمهور أن علماء غوغل لن يردعوا من ممارسة المستخدمين لحقهم في اتخاذ القرار بشأن معلوماتهم الشخصية، مع أن هذه الحقوق كانت سمة فطرية في العقد الاجتماعي الأصلي بين الشركة ومستخدميها. (176) حتى عندما يقدم المستخدمون ملفّات تعريفهم، يحذّر المخترعون من أنه "قد يكون غير دقيق عن قصد أو عن غير قصد، وقد يصبح قديماً... يمكن تحديد ملفّ تعريف المستخدم (أو تحديثه أو تمديده) حتى في حالة عدم تقديم أي معلومات صريحة للنظام... قد يتضمن ملف التعريف الأولي بعض المعلومات المُدخلة صراحة مع أنه ليس من الضروري القيام بذلك". (177)

يوضح العلماء بذلك أنهم على استعداد، وأن ابتكاراتهم قادرة، على التغلب على الاحتكاك الناجم عن حقوق المستخدمين باتخاذ القرار. وتمكّن أساليب الملكية الخاصة شركة غوغل من مراقبة الفائض السلوكي والتقاطه وتوسيعه وإنشائه والمطالبة به، بما في ذلك البيانات التي يرفض المستخدمون مشاركتها عمداً. لن يكون المستخدمون المتمردون عائقاً أمام مصادرة البيانات. ولن تحدّ أية قيود أخلاقية أو قانونية أو اجتماعية من إمكانية العثور على سلوك الآخرين والمطالبة به وتحليله لأغراض تجارية. يقدم المخترعون أمثلة على أنواع السمات التي يمكن للشركة تقييمها أثناء جمع بيانات معلومات ملفّات المستخدمين أثناء تقصّيها عن معرفة المستخدمين ونواياهم وموافقتهم. تشمل تلك المعلومات المواقع التي زارها المستخدم، وسماته النفسية، ونشاطه في التصفح، ومعلومات حول الإعلانات السابقة التي شاهدها أو انتقاها، أو اشتراها بعد مشاهدتها. (178) كانت قائمة طويلة، ومن المؤكد أنها أصبحت اليوم أطول

(175) بهارات، لورانس، وسهامي، 12 (الخط المائل يعود لي).

(176) تشير الدراسات التجريبية إلى أولوية حقوق اتخاذ القرار في تقييمات خصوصية المستخدمين. انظر: لورا برانديمارتي، وأليساندرو أكويستي، وجورج لوينشتاين، "الثقة في غير محلها: الخصوصية ومفارقة التحكم"، مجلة علم النفس الاجتماعي والشخصية، المجلد 4، العدد 3 (2010): 340-347.

(177) بهارات، لورانس، وسهامي، توليد معلومات المستخدم، 17 (الخط المائل يعود لي).

(178) بهارات، لورانس، وسهامي، 16-17. تضمنت قائمة السمات محتوى المواقع الإلكترونية التي زارها

أخيراً، لاحظ المخترعون عقبة أخرى أمام الاستهداف الفعال. إذ يصّرحون: "حتى مع وجود معلومات المستخدم، قد لا يتمكن المعلنون من استخدام هذه المعلومات لاستهداف الإعلانات بفاعلية".⁽¹⁷⁹⁾ وبناءً على الاختراع المقدّم في هذه البراءة، وغيره من اختراعات مرتبطة به، يصّرح المخترعون علناً عن براءة غوغل الفريدة من نوعها في تعقّب الفائض السلوكي والتقاطه وتحويله إلى تنبؤات لاستهدافات دقيقة. ولا يمكن لأي شركة أخرى أن تضاهي قدرتها على الوصول إلى الفائض السلوكي، أو قوتها المعرفية والعلمية والتقنية، أو قوتها الحاسوبية، أو بنية التخزين الأساسية لديها. ففي عام 2003، كانت غوغل وحدها الشركة القادرة على سحب الفائض من عدّة مواقع للأنشطة، ودمج كل زيادة في البيانات في "بنية بيانات" شاملة. وتمتعت بموقع فريد من نوعه بفضل المعرفة المتطورة في علوم الحاسوب، الأمر الذي مكّنها من تحويل تلك البيانات إلى تنبؤات حول من سينقر على أي تكوين من أي إعلان، كأساس لنتيجة "مطابقة" نهائية، وكل ذلك محسوب في أجزاء صغيرة من الثانية.

بالتعبير عن هذا كله بلغة بسيطة واضحة، فقد كشف اختراع غوغل عن قدرات جديدة لاستنتاج أفكار الأفراد والمجموعات ومشاعرهم ونواياهم واهتماماتهم من خلال بنية آلية تعمل كمرآة أحادية الاتجاه بغضّ النظر عن وعي الشخص ومعرفته وموافقته، وبالتالي تمكين الوصول السري المتميز إلى البيانات السلوكية.

تُجسّد المرآة أحادية الاتجاه العلاقات الاجتماعية المحددة للمراقبة القائمة على عدم التوازن بين المعرفة والسلطة. وسينبع أسلوب التراكم الجديد المُبتكر في غوغل، قبل

المستخدم (أو زارها خلال فترة زمنية محددة) (مثل الكلمات، ونص الرابط، إلخ)؛ والمعلومات الديموغرافية؛ والمعلومات الجغرافية؛ والمعلومات النفسية؛ والاستعلامات السابقة (و/أو المعلومات المرتبطة بها) التي أجراها المستخدم؛ ومعلومات حول الإعلانات السابقة التي عُرضت عليه، أو اختارها، أو أجرى عمليات شراء بعد مشاهدتها؛ ومعلومات حول المستندات (مثل ملفات معالج النصوص) التي شاهدها/ طلبها و/أو حررها المستخدم؛ واهتمامات المستخدم؛ ونشاط التصفح؛ وسلوك الشراء السابق. (179) بهارات، لورانس، وسهامي، توليد معلومات المستخدم، 13.

كل شيء، من رغبة الشركة وقدرتها على فرض هذه العلاقات الاجتماعية على مستخدميها. فقد حشدت استعدادها من خلال ما اعتبره المؤسسون حالة استثنائية؛ إذ اكتسبت قدرتها من نجاحها الفعلي في الاستفادة من الوصول المميز إلى الفائض السلوكي بهدف التنبؤ بسلوك الأفراد الآن، وفي وقت قريب، ولاحقاً. وبشكل ما حصلت عليه من رؤى تنبؤية بهذه الطريقة ميزة منافسة تاريخية عالمية في سوق جديدة تُقيّم فيها رهانات منخفضة المخاطر حول سلوك الأفراد، وتُشتري وتُباع.

لن تكون غوغل بعد الآن متلقياً سلبياً لبيانات عَرَضية يمكن إعادة تدويرها لصالح مستخدميها. تُلقِي براءة اختراع الإعلانات المُستهدفة الضوء على مسار الاكتشاف الذي سلكته غوغل من تأسيسها الموجه نحو الدعم، إلى تطوير المراقبة السلوكية كمنطق متكامل للتراكُم. يكشف الاختراع بحد ذاته عن المنطق الذي ساهم في إخضاع دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية لخدمة حساب تجاري جديد. والبيانات السلوكية، التي كانت قيمتها سابقاً "مستهلكة" في تحسين جودة البحث لدى المستخدمين، أصبحت الآن المادة الخام المحورية - والحصريّة لغوغل - لبناء سوق إعلاني ديناميكي عبر الإنترنت. ستضمن الشركة الآن بيانات سلوكية أكثر مما تحتاج إليه لخدمة مستخدميها. هذا الفائض، أي الفائض السلوكي، كان بمنزلة الأصل الثمين عديم الكلفة الذي غيّر قواعد اللعبة، والذي انتقل من تحسين الخدمة بالنسبة إلى المستخدمين، إلى سوق تبادل تجاري حقيقي مُربح للغاية.

كانت هذه الإمكانيات، وما تزال، غامضة على الجميع باستثناء نخبة من خبراء البيانات الذين تُعتبر من بينهم، شركة غوغل، الإنسان الفائق، "السوبرمان". فهم يعملون في الخفاء، دون اكتراث بالأعراف الاجتماعية أو المطالب الفردية بحق اتخاذ القرار. وقد أسست هذه التحركات الآليات الأساسية لرأسمالية المراقبة.

لقد أدت حالة الاستثناء التي أعلنها مؤسسو غوغل إلى تحوّل "الدكتور جيكل" الشاب إلى "السيد هايد القاسي الصلب"⁽¹⁸⁰⁾ المصمّم على اصطِياذ فريسته في أي

(180) إشارة إلى رواية "الدكتور جيكل والسيد هايد" للروائي الإسكتلندي "روبرت لويس ستيفنسون". كان لهذه الرواية تأثير كبير على الثقافة الشعبية حيث أصبحت عبارة "جيكل وهايد" مستخدمة في اللغة

مكان وفي أي وقت، بغض النظر عن الأهداف التي يضعها الآخرون لأنفسهم. تجاهلت غوغل الجديدة ادعاءات تقرير المصير، ولم تُقرّ بأي حدود مسبقة لما يمكنها العثور عليه وأخذه. تجاهلت المضمون الأخلاقي والقانوني لحقوق القرار الفردية، وأعدت صياغة الوضع على أنه حالة من الانتهازية التكنولوجية والقوة الأحادية. يطمئن هذا "الغوغل" الجديد زبائنه بأنه سيبدل قصارى جهده لتحويل غموض الرغبة البشرية إلى حقيقة علمية. هذا غوغل هو القوة العظمى التي تُرسي قيمها الخاصة، وتسعى لتحقيق أهدافها الخاصة، متجاوزةً بذلك العقود الاجتماعية التي يلزم بها الآخرون.

5. فائض على نطاق واسع

ثمة عناصر جديدة أخرى ساعدت في ترسيخ مركزية الفائض السلوكي في عمليات شركة غوغل التجارية، بدءاً من ابتكاراتها في التسعير. اعتمد مقياس التسعير الجديد الأول على "معدل النقر"، أو عدد المرات التي ينقر فيها المستخدم على إعلان للوصول إلى صفحة الويب الخاصة بالمعلن، بدلاً من التسعير القائم على عدد المشاهدات التي يتلقاها الإعلان. إذ فُسِّر النقر على الإعلان باعتباره إشارة إلى الصلة، وبالتالي مقياساً لاستهداف ناجح، ونتائج تشغيلية تنبثق من قيمة الفائض السلوكي وتعكسها.

رفع نظام التسعير الجديد الحافز لزيادة الفائض السلوكي بهدف الارتقاء المستمر بفاعلية التنبؤات. إذ إنَّ جودة التنبؤات تؤدي مباشرة إلى زيادة عدد النقرات، وبالتالي زيادة الإيرادات. وتعلّمت غوغل طرقاً جديدة لإجراء مزادات آلية لاستهداف الإعلانات، مما سمح للابتكار الجديد بالتوسع السريع، واستيعاب مئات آلاف المعلنين، ومليارات (ولاحقاً تريليونات) المزادات في وقت واحد. وحظيت أساليب غوغل وقدراته الفريدة من نوعها في المزاد باهتمام كبير، مما صرف انتباه المراقبين عن التفكير فيما كان يُطرح في المزاد تحديداً: مشتقات الفائض السلوكي. رسّخت مقاييس

العامة للإشارة إلى الأشخاص ذوي الطبيعة المزدوجة، الذين يُظهرون الطيبة أحياناً لكنهم يصحبون أحياناً أشراراً لدرجة صادمة (المترجم).

النقر طلب "الزبائن" على منتجات التنبؤ هذه، ورُسخت بالتالي الأهمية المركزية لاقتصاديات الحجم في عمليات توفير الفائض. لا بدّ أن يصبح الاستيلاء على الفائض تلقائيًا وفي كل مكان إذا أُتيحت للمنطق الجديد فرصة النجاح، وهو ما يقاس بالتداول الناجح للعقود الآجلة السلوكية.

يُساعد المقياس الآخر المعروف باسم "درجة الجودة" في تحديد سعر الإعلان وموقعه المحدد على الصفحة، بالإضافة إلى عروض المزاد الخاصة بالمعلنين. وحُدِّدت درجة الجودة جزئيًا من خلال معدلات النقر، وجزئيًا من خلال تحليلات الفائض السلوكي. وأصرَّ أحد كبار المديرين التنفيذيين على أن "معدل النقر يجب أن يكون مؤشرًا تنبؤيًا"، وهذا يتطلب "المعلومات التي لدينا حول الاستعلام جميعها في تلك اللحظة".⁽¹⁸¹⁾ سيتطلّب الأمر قوة حاسوبية هائلة وبرامج خوارزمية متطورة لتشكيل تنبؤات قوية لسلوك المستخدم، وهو ما أصبح معيارًا لتقدير مدى ملاءمة الإعلان. ستُباع الإعلانات التي اكتسبت درجة عالية بسعر أقلّ من تلك التي اكتسبت درجة ضعيفة. اشتكى زبائن غوغل، أي المعلنين لدى الشركة، من أن تقييم الجودة كان بمثابة صندوق أسود، وكانت غوغل مُصرّة على إبقائه كذلك. لكن عندما التزم الزبائن بالضوابط، وأنتجوا إعلانات عالية التقييم، ارتفعت معدلات النقر على إعلاناتهم بشكل كبير.

حقق برنامج آد ووردز نجاحًا كبيرًا أدّى إلى توسّع هائل في منطق المراقبة. وطالب المعلنون بمزيد من النقرات.⁽¹⁸²⁾ فكان الردّ توسيع النموذج إلى ما هو أبعد من صفحات البحث في غوغل وتحويل الإنترنت بأكمله إلى لوحة إعلانية لإعلانات غوغل المستهدفة. ووفقًا لتعبير "هال فاربان"، تطلّب ذلك تحويل مهارات غوغل 'المكتسبة حديثًا في "استخراج البيانات وتحليلها"، إلى محتوى أي صفحة ويب أو أي إجراء قام به المستخدم، من خلال توظيف قدرات التحليل الدلالي المتسعة بسرعة، وقدرات الذكاء الاصطناعي "لاستخراج" المعنى منها بكفاءة. يمكن لغوغل حينئذٍ

(181) دوغلاس إدواردز، أشعر بالخطأ (بوسطن: هوتون ميفلين هاركورت، 2011)، 268.

(182) ليفي، في بليكس، 101.

تقييم محتوى الصفحة، وكيفية تفاعل المستخدمين مع هذا المحتوى بشكل دقيق. وأخيراً، سُميَ هذا "الإعلان المُستهدفُ للمحتوى"، الذي يعتمد أساليب نالت براءة اختراع، باسم "آد سينس" (AdSense). وبحلول عام 2004، حقق "آد سينس" معدّل تشغيل بلغ مليون دولار يومياً، وبحلول عام 2010، حقق إيرادات سنوية تجاوزت 10 مليارات دولار.

هكذا أصبح لدينا مزيج غير مسبوق ومربح: فائض سلوكي، وعلم بيانات، وبنية أساسية مادية، وقوة حسابية، وأنظمة خوارزمية، ومنصات آلية. أدى هذا التقارب إلى "صلة" غير مسبوقة ومليارات المزايدات. وارتفعت معدلات النقر بشكل كبير. وأصبح العمل على "آد ووردز" و"آد سينس" بأهمية العمل على البحث نفسها.

مع تطبيق معدلات النقر كمقياس لمدى الصلة، أصبح الفائض السلوكي حجر الزاوية في تجارة من نوع جديد تعتمد على مراقبة واسعة النطاق عبر الإنترنت. ووصف بعض المطلعين على علم غوغل الجديد المرتبط بالـتنبؤ السلوكي بأنه "فيزياء النقرات".⁽¹⁸³⁾ وتطلّب إتقان هذا المجال الجديد سلالة متخصصة من علماء "فيزياء النقر" يمكنهم ضمان تفوّق غوغل دخل كهنوت التنبؤ السلوكي الناشئ. واستقطب تدفق الإيرادات الضخمة للشركة ألمع العقول في عصرنا في مجالات الذكاء الاصطناعي، والإحصاء والتعلّم الآلي وعلوم البيانات والتحليل التنبؤي، لتتلاقى على التنبؤ بالسلوك البشري مقيساً بمعدّلات النقر: قراءة الطالع والبيع عبر الحاسوب. أرادت الشركة أن تعيّن سلطة لاقتصاديات المعلومات، ومستشاراً لشركة غوغل منذ عام 2001، فكان الراعي المختار لهذا القطيع هو "هال فاريمان" باعتباره الأب الروحي لهذه المجموعة الميمونة والعلم الناشئ.

تردّد بيج وبرين بداية في تبني الإعلانات، لكن مواقفهما تغيرت مع تزايد الأدلة

(183) نُوقش هذا المصطلح في مقابلة فيديو مع إريك شميدت وزميله/ المؤلف المشارك جوناثان روزنبرغ. انظر مقابلة إريك شميدت وجوناثان روزنبرغ، "كيف تعمل غوغل"، التي أجراها متحف تاريخ الحاسوب، 15 أكتوبر/ تشرين الأول 2014.

على تمكّن الإعلانات من إنقاذ الشركة من الأزمة.⁽¹⁸⁴⁾ كما أن إنقاذ الشركة يعني أيضًا إنقاذ نفسيهما من أن يكونا مجرد اثنين آخرين يتمتّعان بالذكاء الشديد، لكنهما لا يعرفان كيفية كسب المال الحقيقي، ولا عيين مغمورين في الثقافة المادية والمنافسة الشديدة في وادي السيلكون. كان بيع مسكونًا بمثال العالم اللامع نيكولا تيسلا، الذي وافته المنية دون أن يستفيد ماديًا من اختراعاته. ولطالما قال بيج لنفسه: "عليك أن تفعل أكثر من مجرد اختراع الأشياء".⁽¹⁸⁵⁾ وكان لدى برين وجهة نظره الخاصة التي تقول: "بصراحة، عندما كنا لا نزال في أيام طفرة الدوت كوم، شعرتُ بأنني شخص أحق. كنت أملك شركة ناشئة في مجال الإنترنت، مثل الجميع. ولم تكن مُربحة، مثل الشركات الأخرى كلها".⁽¹⁸⁶⁾ ويبدو أن التهديدات الاستثنائية التي تعرّضت لها مكانتهما المالية والاجتماعية قد أيقظت غريزة البقاء لديهما، الأمر الذي تطلّب اتخاذ تدابير تكيف استثنائية.⁽¹⁸⁷⁾ كان رد مؤسسي غوغل على الخوف الذي طارد مجتمعهم هو إعلان "حالة استثنائية" صدر وفقها حكم بأن من الضروري تعليق العمل بالقيم والمبادئ التي وجّهت تأسيس غوغل وممارساتها المبكرة.

لاحقًا، استذكر موريتز من شركة سيكوييا ظروف الأزمة التي أثارت "إعادة ابتكار الذات" "المبتكرة" للشركة، عندما أوصلت الأزمة الشركة إلى مفترق طرق أخذها في اتجاه جديد تمامًا. وأكد على خصوصية ابتكارات غوغل، وأصولها في حالات الطوارئ، والتحول 180 درجة من خدمة المستخدمين إلى مراقبتهم. وكان أهم تلك الأشياء كلها إشادته بأن اكتشاف الفائص السلوكي هو الأصل الذي غير قواعد اللعبة كلها، وحول غوغل إلى عملاق في مجال التنبؤ بالمستقبل، مشيرًا إلى التحول المذهل الذي شهدته غوغل في نموذج Overture، عندما طبقت الشركة الناشئة للمرة الأولى تحليلاتها للفائص السلوكي للتنبؤ باحتمالية النقر:

(184) انظر، على سبيل المثال، إدواردز، أشعر بالحظ، ص 264-270.

(185) انظر ليفي، في بليكس، 13، 32، 35، 105-106 (اقتباس من 13)؛ جون باتيل، البحث: كيف أعادت غوغل ومنافسوها كتابة قواعد العمل وحولت ثقافتنا (نيويورك: بورتفوليو، 2006)، 65-66، 74، 82؛ أوليتا.

(186) انظر ليفي، في بليكس، 94.

(187) همفريز، "إضفاء الشرعية على الفوضى".

لم تكن الأشهر الاثنا عشر الأولى من عمر غوغل سهلة على الإطلاق، لأن الشركة لم تبدأ في العمل ذاته الذي استغلته في النهاية. سارت الشركة في البداية باتجاه مختلف، وهو بيع تكنولوجيايتها — بيع تراخيص محركات البحث الخاصة بها إلى شركات كبرى تعمل في مجال الإنترنت.... كانت العائدات النقدية تتلاشى بسرعة هائلة خلال الأشهر الستة أو السبعة الأولى. ثم، ببراعة فائقة، اقترب لاري وسيرجي وآخرون من نموذج آخر كانت شركة "أوفتشر" تُطوّره، وهو الإعلانات المُصنّفة. وعرفوا كيف يُمكن تحسينه وتطويره، وجعله خاصًا بهم، وهو ما غير مجرى العمل.⁽¹⁸⁸⁾

تشير تأملات موريتز إلى أنه من دون اكتشاف الفائض السلوكي، والتحوّل نحو عمليات المراقبة، لن يكون هناك مصدر مُستدام لتأمين متطلّبات الإنفاق "الهائلة" لشركة غوغل، وسيكون استمرارها معرضًا للخطر. ولن نعرف أبدًا ما الذي كانت ستفعله غوغل بنفسها لولا حالة الاستثناء التي نشأت من حالة الطوارئ المالية الشرسة التي شكّلت تلك السنوات الحاسمة من التطوير. فما السبل الأخرى التي كان بالإمكان استكشافها أو ابتكارها لتحقيق إيرادات مستدامة؟ وما هي البدائل المستقبلية التي كان بالإمكان استحداثها للوفاء بمبادئ المؤسسين، وحق المستخدمين في تقرير المصير؟ بالنتيجة، أطلقت غوغل للعالم تجسيدًا جديدًا للرأسمالية، وهو أشبه "بصندوق باندورا" بدأنا للتوّ بفهم محتوياته.

6. ابتكار بشري

إن أساس نقاشنا هو هذه الحقيقة: ابتكرت مجموعة معينة من البشر رأسمالية المراقبة في وقت ومكان محددين. وهي ليست نتيجة متأصلة في التكنولوجيا الرقمية، ولا هي تعبير ضروري عن رأسمالية المعلومات. فقد بُنيت عمداً في لحظة من التاريخ، بالطريقة ذاتها التي ابتكر بها مهندسو شركة فور موتورز ومبدعوها الإنتاج الضخم في ديترويت عام 1913.

(188) مايكل موريتز، "الكثير من المغامرة، الكثير من المكاسب"، مقابلة، الشؤون الخارجية، فبراير/ شباط 2015.

سعى هنري فورد لإثبات قدرته على تعظيم أرباحه من خلال زيادة الإنتاج، وخفض التكاليف بشكل جذري، وتوسيع الطلب. كانت هذه معادلة تجارية غير مثبتة، ولا تدعمها أية نظرية اقتصادية أو ممارسة عملية. لكن سبق أن بانث أجزاء من هذه الصيغة في مصانع تعبئة اللحوم، وعمليات طحن الدقيق، ومصانع ماكينات الخياطة والدراجات، ومصانع الأسلحة، ومصانع التعليب، ومصانع الجعة. كانت هناك معرفة عملية متنامية حول إمكانية تبادل القطع، وعمليات أداء عمل معين بسيط ثابت، واستخدام الآلات الدقيقة، والتدفق المستمر للمنتجات. لكن لم يسبق لأي شخص أن عزف السيمفونية العظيمة التي سمعها فورد في مخيلته.

وفقًا للمؤرخ ديفيد هونشيل، ثمة وقت هو الأول من أبريل عام 1913، ومكان هو "ديترويت"، بدا فيه أول خط تجميع متحرك وكأنه "مجرد خطوة أولى في سنوات التطور في شركة فورد، لكنه بدا أيضًا بطريقة أو بأخرى وكأنه هبط من السماء. شعر بعض المهندسين، حتى قبل نهاية اليوم، بأنهم حققوا تقدمًا جوهريًا".⁽¹⁸⁹⁾ خلال عام واحد، تراوحت زيادة الإنتاج في المصنع كله من 50 بالمئة، إلى ما يقارب عشرة أضعاف، قياسًا بطرق التجميع الثابتة القديمة.⁽¹⁹⁰⁾ بيعت سيارة فورد من الطراز (T)، التي كانت تُباع بمبلغ 825 دولارًا عام 1908، بقيمة منخفضة جدًا بالنسبة إلى سيارة ذات أربع أسطوانات في عام 1924، بلغت 260 دولارًا فقط.⁽¹⁹¹⁾

كما كان الحال مع فورد، كانت بعض عناصر منطق المراقبة الاقتصادية، في البيئة الرقمية، تعمل منذ سنوات، وكانت واضحة لمجموعة صغيرة من خبراء الحاسوب الأوائل. كمثال على ذلك، طوّرت الآلية البرمجية المعروفة باسم "كوكيز" (cookie)، وتعني "ملف تعريف الارتباط" - عبارة عن تعليمات برمجية تسمح بمرور المعلومات بين الخادم وجهاز حاسوب الزبون - عام 1994 في شركة "نيتسكاب"

(189) هاونشيل، من النظام الأمريكي، 247-248.

(190) هونشيل، 10.

(191) ريتشارد إس. تيدلو، عمالقة المشاريع: سبعة مبتكرين في مجال الأعمال والإمبراطوريات التي بنوها (نيويورك: هاربر بيزنس، 2003)، ص 159-160؛ دونالد فينلي ديفيس، الإنتاج اللافت: السيارات والنخب في ديترويت 1899-1933 (فيلادلفيا، بنسلفانيا: جامعة تمبل، 1989)، ص 122.

(Netscape)، أول شركة لمصفّحات الويب التجارية.⁽¹⁹²⁾ وعلى النحو ذاته، كانت كودات "ويب باغز" (web bugs) - وهي عبارة عن برمجيات ضارة صغيرة (غير مرئية غالبًا) مدمجة في صفحات الويب والبريد الإلكتروني، مصممة لمراقبة نشاط المستخدم وجمع المعلومات الشخصية - معروفة جيدًا للخبراء في أواخر تسعينات القرن العشرين.⁽¹⁹³⁾

شعر هؤلاء الخبراء بقلق عميق من الآثار المترتبة على الخصوصية، والناجمة عن آليات المراقبة هذه، وفي حالة "ملفات تعريف الارتباط، أو الكوكيز" على الأقل، كانت هناك جهود مؤسسية لوضع سياسات تقضي بمنع قدراتها التطفلية على مراقبة المستخدمين، وإنشاء ملفات تعريف لهم.⁽¹⁹⁴⁾ بحلول عام 1996، أثارت وظيفة ملفات تعريف الارتباط جدلاً واسعاً يتعلق بالسياسة العامة. ناقشت ورش عمل لجنة التجارة الفيدرالية في عامي 1996 و1997 مقترحات تمنح المستخدمين سيطرة على جميع المعلومات الشخصية بشكل افتراضي باستخدام بروتوكول آلي بسيط. وعارض المعلنون بشدة هذا المخطط، وتعاونوا من أجل تجنب إنشاء تنظيم حكومي لهذا الأمر من خلال تشكيل جمعية "تنظيم ذاتي" عُرفت باسم مبادرة الإعلان على شبكة الإنترنت (Network Advertising Initiative). ومع ذلك، حظرت إدارة كلينتون، في يونيو/ حزيران عام 2000، استخدام ملفات تعريف الارتباط في جميع المواقع الإلكترونية الفيدرالية، وبحلول أبريل/ نيسان 2001، تضمنت ثلاثة مشاريع قوانين أمام الكونغرس أحكاماً لتنظيم ملفات تعريف الارتباط.⁽¹⁹⁵⁾

أنعشت غوغل هذه الممارسات. وكما حدث في شركة فورد قبل قرن من الزمان، كان مهندسو الشركة وعلماءها أول من أداروا عملية المراقبة التجارية بأكملها، بدمج

(192) ديفيد م. كريستول، "ملفات تعريف الارتباط HTTP: المعايير والخصوصية والسياسات"، ArXiv:Cs/0105018، 9 مايو/ أيار 2000.

(193) ريتشارد م. سميث، "الأسئلة الشائعة حول أخطاء الويب"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 11 نوفمبر 1999.

(194) كريستول، "ملفات تعريف الارتباط HTTP"، 9-16: ريتشارد ثيم، "موقف لا يقبل المساومة: مقابلة حول الخصوصية مع ريتشارد سميث"، ثيم ووركس، 2 يناير/ كانون الثاني 2000.

(195) كريستول، "ملفات تعريف الارتباط HTTP"، 13-15.

مجموعة واسعة من الآليات، من ملفات تعريف الارتباط، إلى تحليل المعلومات المملوكة لقطاعات خاصة غير متاحة للعامة، إلى قدرات البرمجيات الخوارزمية، في منطق جديد شامل كرّس المراقبة والمصادرة الأحادية الجانب للبيانات السلوكية كأساس لشكل سوقي جديد. وكان تأثير هذا الابتكار هائلاً تماماً مثل اختراع فورد. في عام 2001، وبينما كانت غوغل تختبر أنظمة جديدة لاستغلال اكتشافها للفائض السلوكي، قفزت الإيرادات الصافية إلى 86 مليون دولار (أكثر من 400٪ زيادة عن عام 2000)، وحققت الشركة أول ربح لها. وبحلول عام 2002، بدأت الأموال تتدفق، ولم تتوقف أبداً، ما يشكل دليلاً قاطعاً على أن الفائض السلوكي، إلى جانب ما لدى غوغل من تحليلات لمعلومات مملوكة لقطاعات خاصة، كان يرسل السهام إلى أهدافها. فارتفعت الإيرادات إلى 347 مليون دولار في عام 2002، ثم إلى 1.5 مليار دولار في عام 2003، و3.5 مليار دولار في عام 2004، وهو العام الذي طرحت فيه الشركة أسهمها للاكتتاب العام.⁽¹⁹⁶⁾ وقد أدّى اكتشاف الفائض السلوكي إلى زيادة مذهلة في الإيرادات بلغت 3.590٪ في أقل من أربع سنوات.

7. سرّ الاستخراج

من المهم أن نلاحظ الاختلافات الجوهرية للرأسمالية بين شركتي فورد وغوغل في لحظة تميّزهما. أحدثت ابتكارات فورد ثورة في الإنتاج. بينما أحدثت ابتكارات غوغل ثورة في الاستخراج، ورسمت أول ضرورة اقتصادية لرأسمالية المراقبة: ضرورة الاستخراج. تعني ضرورة الاستخراج أن توريد المواد الخام يجب أن يتم ضمن مجال متزايد الاتساع باستمرار. يقوم أساس الاقتصاد في الرأسمالية الصناعية على زيادة حجم الإنتاج بهدف الوصول إلى أقصى كمية ممكنة، مع انخفاض كلفة المنتج. بينما يقوم أساس الاقتصاد في رأسمالية المراقبة على زيادة حجم الفائض السلوكي.

أراد الإنتاج الضخم الوصول إلى مصادر جديدة للطلب مع ظهور مستهلكين جدد

(196) "التعديل رقم 9 على نموذج S-1 لبيان التسجيل بموجب قانون الأوراق المالية لعام 1933 لشركة غوغل". هيئة الأوراق المالية والبورصة، 18 أغسطس/ آب 2004.

أوائل القرن العشرين. كان فورد واضحًا في هذه النقطة: "يبدأ الإنتاج الضخم عند إدراك الحاجة العامة".⁽¹⁹⁷⁾ كان العرض والطلب بمثابة تأثيرات مترابطة لـ "ظروف الوجود" الجديدة التي حددت حياة جدي صوفي وماكس وغيرهما من المسافرين في الحداثة الأولى. وأسهم ابتكار فورد في تعميق الاعتماد المتبادل بين الرأسمالية والناس.

في المقابل، أنهت اختراعات غوغل مبدأ الاعتماد المتبادل في عقدها الاجتماعي الأصلي مع المستخدمين. وطراً تغير جذري على دور حلقة إعادة استثمار القيمة السلوكية التي كانت تربط غوغل بمستخدميها سابقاً. فبدلاً من تعميق وحدة العرض والطلب مع الناس، اختارت غوغل إعادة ابتكار أعمالها المتعلقة بزيادة طلب المعلمين الحريصين على ضغط السلوك المتاح عبر الإنترنت، واستغلاله بأي أسلوب في المنافسة على ميزة السوق. لم يعد المستخدمون في العملية الجديدة غاية بحد ذاتهم، بل أصبحوا وسيلة لتحقيق غايات الآخرين.

أصبحت إعادة الاستثمار في خدمات المستخدمين أسلوباً لجذب مزيد من الفائض السلوكي، وأصبح المستخدمون، دون وعي منهم، مصدرًا للمواد الخام اللازمة لدورة أكبر من الإيرادات. كان بإمكان الفائض المتاح، الذي صادرتة شركة غوغل، أن يقضي تقريباً على جميع المنافسين الجادين في أعمال البحث الأساسية، حيث استُخدمت أرباح الفائض السلوكي غير المتوقعة لجذب مزيد من المستخدمين إلى شبكتها بشكل مستمر، وبالتالي ترسيخ احتكارها الفعلي في مجال البحث. أصبحت غوغل، بفضل ابتكاراتها واكتشافاتها واستراتيجيتها، الأساس والنموذج المثالي لمنطق اقتصادي جديد يعتمد على قراءة الطالع وبيعته - الحرفة القديمة المربحة دومًا، التي تغطي على مواجهة البشرية لعدم اليقين من بدء قصة الإنسان.

إن اعتناق مبدأ جديد في تحقيق الإنجازات بمجال الإنتاج، كما فعل هنري فورد، هو شيء، والتباهي بتكثيف مستمرّ لعمليات خفية تهدف إلى استخراج البيانات السلوكية والمعلومات الشخصية، هو شيء آخر تمامًا. كان آخر ما تريده غوغل، في

(197) هنري فورد، "الإنتاج الضخم"، موسوعة برتانيكا (نيويورك: موسوعة برتانيكا، 1926)، 821.

هذه العملية، هو الكشف عن أسرار كيفية إعادة كتابة قواعدها الخاصة، وتسخير نفسها بشكل كامل لضرورة الاستخراج. كان الفائض السلوكي ضروريًا لتحقيق الإيرادات، وكانت السرية المطلقة ضرورية لتحقيق تراكم مستدام للفائض السلوكي.

هكذا أصبحت السرية متجذرة في السياسات والممارسات التي تحكم كل جانب من جوانب سلوك غوغل على المسرح وخارجه. فبمجرد أن أدركت قيادة غوغل القوة التجارية للفائض السلوكي، أسس شميدت ما أسماه "استراتيجية الإخفاء".⁽¹⁹⁸⁾ وتلقى موظفو غوغل أوامر بعدم التحدث عما أشارت إليه براءة الاختراع على أنه "أساليب رسائل 'و/ أو' هياكل بيانات جديدة وأجهزتها وتنسيقاتها"، أو تأكيد أية شائعات حول تدفق الأموال. لم يكن هذا الإخفاء استراتيجية لاحقة، بل كان جزءًا لا يتجزأ مما أصبح يُعرف برأسالية المراقبة.

كتب دوغلاس إدواردز، المدير التنفيذي السابق في غوغل، بأسلوب مُقنع عن مأزق شركة غوغل وثقافة السرية التي شكّلتها. ووفقًا لروايته، كان "صقور" غوغل، أي بيج وبرين، مصرّين على جمع البيانات والاحتفاظ بها بشكل مُكثّف: "عارض لاري أي مسار قد يكشف أسرارنا التكنولوجية، أو يُثير جدلاً حول الخصوصية، ويُعرض قدرتنا على جمع البيانات للخطر". لقد أراد تجنب إثارة فضول المستخدمين بتجنب تعرّضهم لأية أدلة حول مدى عمليات البيانات الخاصة بالشركة. واستفسر عن سبب استخدام ذلك الشريط الإلكتروني الموجود في ردهة الاستقبال، ويعرض تدفقًا مستمرًا من استعلامات البحث، كما حاول "إلغاء" مؤتمر "غوغل زائتجايست" السنوي الذي يلخّص اتجاهات البحث لهذه العام.⁽¹⁹⁹⁾

وصف الصحفي جون باتيل، الذي وثّق تاريخ شركة غوغل منذ عام 2002 حتى الآن، مواضيع "تحفظ" الشركة، و"الحذ من مشاركة المعلومات"، و"السرية والعزلة المنفّرة وغير الضرورية".⁽²⁰⁰⁾ وأشار أحد كتاب سيرة الشركة الأوائل إلى أن "ما سهّل

(198) انظر ليفي، في بليكس، 69.

(199) إدواردز، أشعر أنني محظوظ، 340-45.

(200) باتيل، البحث.

حفظ هذه المعلومات هو أنه لم يكن هناك خبير واحد من خبراء تعقّب أعمال الإنترنت يعتقد بإمكانية وجود سرّ في الشركة".⁽²⁰¹⁾ ووفقاً لتصريح شميدت لصحيفة نيويورك تايمز، "إذا كنت تريد أن تفوز، فمن الأفضل أن تفوز بهدوء".⁽²⁰²⁾ إن التعقيد العلمي والمادي الذي دعم التقاط الفائض السلوكي وتحليله مكن أيضاً من استراتيجية الإخفاء، وهي عبارة عن غطاء خفي يغطي العملية بأكملها. وحذر شميدت المنافسين المحتملين قائلاً: "إن إدارة البحث على نطاقاً تمثل عائقاً كبيراً للدخول".⁽²⁰³⁾

من المؤكد دوماً وجود أسباب تجارية منطقية لإخفاء موقع منجم الذهب الخاص بك. وفي حالة غوغل، أدّت استراتيجية الإخفاء إلى تعزيز ميزتها التنافسية، إلا أن هناك أسباباً أخرى للإخفاء والتعتيم. كيف كان سيبدو ردّ الفعل آنذاك لو قيل للناس إن سحر غوغل ينبع من قدراتها الحصرية على مراقبة أحادية الجانب للسلوك عبر الإنترنت، من أساليبها المصمّمة خصيصاً لتجاوز حقوق الفرد في اتخاذ القرار؟ كانت غوغل مضطّرة إلى فرض السريّة من أجل حماية المعلومات التي صُمّمت لتكون غير قابلة للاكتشاف، لأنها استولت على أشياء من المستخدمين دون أن تسألهم، واستخدمت تلك الموارد التي زعمت أنها صاحبة الحق الوحيد بها في خدمة أغراض الآخرين.

حقيقة أن غوغل كان لديها القدرة على اختيار السريّة هو في حدّ ذاته دليل على نجاح ادّعاءاتها. تجسّد هذه القدرة بوضوح الفرق بين "حقّ اتخاذ القرار" و"الخصوصية". يمنح حقّ اتخاذ القرار القدرة على إبقاء أمرٍ ما سرّاً أو مشاركته. ويمكن للمرء اختيار درجة الخصوصية أو الشفافية لكل حالة. وقد عبر قاضي المحكمة العليا الأمريكية ويليام دوغلاس عن فكرة الخصوصية هذه عام 1967: "تتضمّن الخصوصية أن يكون للفرد حرية الخيار في أن يكشف أو يُفصح عما يعتقد، وما يفكر فيه، وما يملكه..."⁽²⁰⁴⁾

(201) ليفي، في بليكس، 69.

(202) انظر هانسيل، "أصعب عملية بحث في غوغل".

(203) انظر ماركوف وزاكاري، "في البحث على الويب".

(204) ويليام أو. دوغلاس، "بيان مخالف للقاضي دوغلاس، بشأن قضية واردن ضد هايدن، 387 يو إس

تدعي رأسمالية المراقبة امتلاكها حق اتخاذ القرار. وهناك شكوى شائعة بانتهاك الخصوصية، لكن تكل الشكوى مضللة. وفي النمط المجتمعي الأكبر، لا تتعرض الخصوصية للتآكل بل يُعاد توزيعها، إذ تدعي حقوق اتخاذ القرار سطوتها على الخصوصية لصالح رأسمالية المراقبة. وبدل أن يتمتع الناس بالحق في كشف ما يريدون كشفه من معلومات وكيفية كشفه، تتركز هذه الحقوق ضمن نطاق رأسمالية المراقبة. وقد اكتشفت غوغل هذا العنصر الضروري في منطق التراكم الجديد: عليها أن تؤكد حقها في الحصول على المعلومات التي يعتمد عليها نجاحها.

تعتمد قدرة الشركة على إخفاء استيلائها على هذه الحقوق على اللغة بقدر ما تعتمد على أساليبها التقنية، أو سياساتها السرية. وقد لاحظ جورج أورويل ذات مرة أن التعابير المطلقة تُستخدم في السياسة والحرب والأعمال التجارية كأدوات "تجعل الأكاذيب تبدو موثوقة، والقتل محترماً".⁽²⁰⁵⁾ وقد حرصت غوغل على إخفاء أهمية عملياتها على الفائض السلوكي باستخدام مصطلحات صناعية. يشير مصطلحان شائعان - "العدم الرقمي" و"فئات الخبز الرقمي" - إلى نفايات لا قيمة لها: بقايا طعام متاحة للجميع.⁽²⁰⁶⁾ لماذا نسمح للعوادم بالانتشار في الغلاف الجوي بينما يمكن إعادة تدويرها وتحويلها إلى بيانات مفيدة؟ من يظن أن عمليات إعادة التدوير هذه تتضمن استغلالاً أو نهباً أو مصادرة للحقوق؟ من يجرؤ على إعادة تعريف "العدم الرقمي" بوصفه غنيمة أو ممنوعات، أو يتخيل أن غوغل تعلّمت كيفية بناء ما يسمى "العدم" بشكل مقصود باستخدام أساليبها وأجهزتها وهاكل البيانات الخاصة بها؟ كلمة "مستهدف" هي تعبير ملطّف آخر. فهي تُثير مفاهيم الدقة والكفاءة والأهلية. من كان يخمن أن الاستهداف يخفي معادلة سياسية جديدة يتجاهل فيها

294 (المحكمة العليا الأمريكية، 12 أبريل/نيسان 1967): نيتا أ. فرحاني، "البحث عن الأسرار"، مجلة جامعة بنسلفانيا للقانون، المجلد 160، العدد 5 (2012): 1271.

(205) جورج أورويل، السياسة واللغة الإنكليزية (بيترورو: برودفيو، 2006).

(206) ومن الأمثلة النموذجية على ذلك ما جاء في بيان مجلة الإيكونوميست: "تستغل غوغل المعلومات التي تعد نتائجاً ثانوياً لتفاعلات المستخدمين، أو استنفاد البيانات، والتي يتم إعادة تدويرها تلقائياً لتحسين الخدمة أو إنشاء منتج جديد تماماً". "النقر من أجل الذهب"، الإيكونوميست، 25 فبراير/شباط 2010.

تركيز غوغل على القوة الحسابية حقوق المستخدمين في اتخاذ القرارات، بالسهولة التي يطرد فيها "كينغ كونغ" نملة، وهذا كله يحدث خلف الكواليس حيث لا أحد يستطيع أن يرى؟

تعمل هذه التعبيرات المطلقة بالطريقة ذاتها التي تعمل بها أقدم خرائط القارة الأمريكية الشمالية، حيث صُنِّفَت مناطق بأكملها بمصطلحات مثل "الهمجيين" و"الوثنيين" و"الكفار" و"البدائيين" و"التابعين" و"المتبردين". فبناءً على قوة هذه المصطلحات، حُذِفَت الشعوب الأصلية - أماكنهم ومطالباتهم - من المعادلات الأخلاقية والقانونية للغزاة، مما أضفى شرعية على تلك الأعمال التي مهّدت الطريق للكنيسة والحكومات الملكية المطلقة.

إن العمل المتعمد لإخفاء الحقائق العارية في الخطابة، والحذف، والتعقيد، والحصرية، والحجم، والعقود التعسفية الظالمة، والتصميم، واستخدام التعبيرات المطلقة، هو عامل آخر يساعد في تفسير أن عددًا قليلًا جدًا من الأشخاص قد لاحظوا الآليات الأساسية لنجاح غوغل وأهميتها الكبرى، عندما حققت ذلك الاختراق في الأرباح. لا تُعدُّ المراقبة التجارية، في هذا المشهد، مجرد مصادفة مؤسفة أو زلّة عَرَضية. فهي ليست تطورًا ضروريًا لرأسمالية المعلومات، ولا نتاجًا ضروريًا للتكنولوجيا الرقمية أو الإنترنت. بل هي فكرة بشرية اختلقت خصيصًا لهذا الهدف، وشكل غير مسبوق من أشكال السوق، وحلّ أصيل لحالة الطوارئ، وآلية أساسية نشأت من خلالها فئة أصول جديدة، بكلفة زهيدة، وتحوّلت إلى إيرادات. المراقبة هي طريق إلى الربح تتجاوزنا "نحن الشعب"، وتسلبنا حقنا في اتخاذ القرار دون إذن منا، وحتى عندما نقول "لا". ولا يشكّل اكتشاف الفائض السلوكي نقطة تحوّل أساسية في سيرة شركة غوغل فقط، بل وفي تاريخ الرأسمالية أيضًا.

في السنوات التي تلت "الطرح العام الأولي لأسهم الشركة" عام 2004، أذهل الإنجاز المالي لشركة غوغل عالم الإنترنت في البداية، ثم جذب انتباهه. ضاعف مستثمرو وادي السيليكون من مخاطرهم لسنوات بحثًا عن نموذج الأعمال المزاوغ

الذي سيجعل كل هذا العناء مجدياً. وانتهت عمليات البحث عن الكنز الأسطوري رسمياً عندما نُشرت النتائج المالية لشركة غوغل.⁽²⁰⁷⁾

انتشر منطق التراكم الجديد أولاً إلى فيسبوك، الذي أُطلقَ في العام ذاته الذي طرحت فيه شركة غوغل أسهمها للاكتتاب العام. رفض الرئيس التنفيذي مارك زوكربيرج استراتيجية فرض رسوم على المستخدمين مقابل الخدمة، كما فعلت شركات الهاتف في القرن الماضي. وأصرّ قائلاً: "تقوم مهمتنا على ربط كل شخص في العالم. ولا يمكن تحقيق ذلك بخدمة يدفع الناس ثمنها".⁽²⁰⁸⁾ وقُدِّم في عام 2007 منصّة الفيسبوك، جاعلاً الشبكة الاجتماعية متاحة للجميع، وليس فقط لمن لديهم عنوان بريد إلكتروني يربطهم بالجامعات والمدارس. وبعد ستة أشهر، في نوفمبر/ تشرين الثاني، أطلق متجّه الإعلان الكبير، "باكون"، Beacon، الذي يقوم بمشاركة الإجراءات من مواقع الويب الشريكة مع جميع "أصدقاء" المستخدم. وستظل هذه المنشورات تظهر حتى عندما لا يكون المستخدم متصلاً بموقع فيسبوك، وحتى دون علمه، وذلك بفضل وجود وظيفة مفعّلة تتيح ذلك "الحصول على إذن" منه لمشاركة شيء ما. لكن صيحات الاحتجاج التي أطلقها المستخدمون، والتي أطلقها بعض شركاء فيسبوك مثل شركة كوكا كولا، أجبرت زوكربيرج على التراجع بسرعة. وبحلول ديسمبر، أصبح تطبيق "باكون" Beacon، يطلب الإذن قبل التصرّف. أدرك الرئيس التنفيذي، البالغ من العمر ثلاثة وعشرين عاماً، إمكانات رأسالية المراقبة، لكنه لم يُتَقن بعدُ براعة غوغل في إخفاء عملياتها ونواياها.

لا يزال السؤال الملحّ الذي يحتاج إجابة في المقرّ الرئسي لشركة فيسبوك هو: "كيف نحول مستخدمي فيسبوك كلهم إلى أموال؟"⁽²⁰⁹⁾ في مارس/ آذار 2008، وبعد ثلاثة أشهر فقط من إلزام زوكربيرج بإنهاء محاولته الأولى لمحاكاة منطق التراكم عند غوغل،

(207) فالير وبيترسون، "تضخيم الفقاعة"، 1-22.

(208) انظر ليف غروسمان، "حصري: داخل خطة فيسبوك لتوصيل العالم بالأسلاك"، مدوّنة "تايم دوت كوم"، ديسمبر/ كانون الأول 2015.

(209) ديفيد كيركباتريك، تأثير الفيسبوك: القصة الداخلية للشركة التي تربط العالم (نيويورك: سايمون وشوستر، 2011)، ص 257.

قام بتعيين "شيريل ساندبرغ"، المديرية التنفيذية في شركة غوغل، لتكون مديرة العمليات الرئيسة في فيسبوك. انضمت ساندبرغ، التي كانت سابقاً رئيسة موظفي وزير الخزانة الأمريكي لاري سامرز، إلى غوغل عام 2001، وارتقت أخيراً منصب نائب رئيس المبيعات والعمليات العالمية عبر الإنترنت. وقادت في شركة غوغل تطوير رأسمالية المراقبة من خلال توسيع نطاق "آد ووردز" وغيرها من عمليات البيع عبر الإنترنت.⁽²¹⁰⁾ وخلص أحد المستثمرين الذين راقبوا نمو الشركة خلال تلك الفترة إلى أن "شيريل هي التي أبدعت (AdWords).

أصبحت ساندبرغ الموهوبة، بانضمامها إلى فيسبوك، بمنزلة "ماري التيفويد"⁽²¹¹⁾ بالنسبة إلى رأسمالية المراقبة، إذ قادت تحوّل فيسبوك من موقع تواصل اجتماعي إلى عملاق إعلاني. لقد أدركت ساندبرغ أن الرسم البياني الاجتماعي لفيسبوك يمثل مصدرًا مذهلاً للفائض السلوكي: ما يعادل بالنسبة إلى مستخرج معلومات من شركة إنترنت، أن يعثر منقب عن الذهب في القرن التاسع عشر على أكبر منجم للماس أو أعمق منجم للذهب تم اكتشافه يومًا. تقول ساندبرغ: "لدينا معلومات أفضل من أي شخص آخر. فنحن نعرف الجنس والعمر والموقع، وهي بيانات حقيقية وليست مجرد استنتاجات توقعها آخرون". سوف يتعلّم فيسبوك كيفية تعقّب "ملفات تعريف الأشخاص" وجمعها وتخزينها وتحليلها لإنشاء خوارزميات استهداف خاصة به، وسيكون مثل شركة غوغل في أن عمليات الاستخراج لن تقتصر على ما يشاركه الناس طواعية مع الشركة. وقد أدركت ساندبرغ أنه، من خلال التلاعب الذكي بثقافة الألفة والمشاركة في فيسبوك، لن يكون بالإمكان استخدام الفائض السلوكي لتلبية الطلب فحسب، بل لخلق الطلب أيضًا. وللبدء بهذا الموضوع، كان ذلك يعني إدراج المعلنين في نسيج ثقافة الإنترنت على موقع فيسبوك، حيث يمكنهم "دعوة"

(210) كيركاتريك، تأثير الفيسبوك، 80؛ أوليتا، غوغل.

(211) ماري مالون الشهيرة باسم ماري تيفويد (1869 - 1938) هي أول امرأة عُرِفَ أنها ناقل عديم الأعراض للتيفويد. كانت قد شُفيت من المرض؛ لكنها بقيت ناقلة له، واستمرت في نشر جرثومة التيفويد إلى الآخرين، ونقلت العدوى إلى نحو 53 شخصًا على الأقل، ومات منهم ثلاثة (المترجم).

8. تلخيص منطق رأسمالية المراقبة وعملياتها

سرعان ما أصبحت رأسمالية المراقبة، بقيادة غوغل، النموذج الافتراضي لرأسمالية المعلومات على شبكة الإنترنت، وسوف نرى في الفصول التالية أنها اجتذبت المنافسين تدريجيًا من القطاعات كلها. ويعلن هذا الشكل الجديد من السوق أن تلبية احتياجات الناس الحقيقية أقل ربحية، وبالتالي أقل أهمية، من بيع التنبؤات المرتبطة بسلوكهم. اكتشفت غوغل أننا أقل قيمة من توقعات الآخرين لسلوكنا المستقبلي. وهذا غير كل شيء.

يُحدد الفائض السلوكي نجاح إيرادات غوغل. ففي عام 2016 كانت نسبة 89٪ من إيرادات الشركة الأم، "ألفابيت"، مستمدة من برامج غوغل الإعلانية الموجهة.⁽²¹³⁾ ويتجلى حجم تدفق المواد الخام في هيمنة غوغل على الإنترنت، حيث تعالج أكثر من 40 ألف استعلام بحثي كل ثانية في المتوسط: أكثر من 3.5 مليار عملية بحث يوميًا و1.2 تريليون عملية بحث سنويًا في جميع أنحاء العالم في عام 2017.⁽²¹⁴⁾

بفضل ابتكارات غوغل غير المسبوقه، تفوّقت قيمتها السوقية، التي بلغت 400 مليار دولار، على شركة إكسون موبيل لتحلّ المركز الثاني من حيث القيمة السوقية عام

(212) كيركباتريك، تأثير الفيسبوك، 266.

(213) "بيانات مالية مختارة لشركة ألفابيت"، النموذج K-10، ملف اللجنة، هيئة الأوراق المالية والبورصات الأمريكية، 31 ديسمبر 2016. وفقًا لحسابات ألفابيت في عام 2016، بلغت إيراداتها 90,272,000,000 دولار أمريكي. وشمل ذلك "إيرادات قطاع غوغل البالغة 89.5 مليار دولار أمريكي، بنمو إيرادات بنسبة 20% على أساس سنوي، وإيرادات "الرهانات الأخرى" البالغة 0.8 مليار دولار أمريكي، بنمو إيرادات بنسبة 82% على أساس سنوي". بلغت إيرادات إعلانات قطاع غوغل 79,383,000,000 دولار أمريكي، أي ما يعادل 88.73% من إجمالي إيرادات قطاع غوغل.

(214) "إحصائيات بحث غوغل - إحصائيات الإنترنت المباشرة"، إحصائيات الإنترنت المباشرة، 20 سبتمبر 2017؛ غريغ ستيرلنغ، "بيانات: حجم البحث الشهري في غوغل يفوق منافسيه بفضل ميزة الهاتف المحمول"، أرض محرك البحث، 9 فبراير 2017. تُرجم هذا إلى 76% من جميع عمليات البحث على أجهزة الحاسوب و96% من عمليات البحث على الهواتف المحمولة في الولايات المتحدة، ونسب مماثلة تبلغ 87% و95% على التوالي حول العالم.

2014، بعد ستة عشر عامًا فقط من تأسيسها، مما جعلها ثاني أغنى شركة في العالم بعد شركة أبل.⁽²¹⁵⁾ بحلول عام 2016، صادف أن انتزعت "ألفابيت/ غوغل" المركز الأول من شركة آبل أحيانًا، لكنها استمرت في المرتبة الثانية عالميًا اعتبارًا من 20 سبتمبر عام 2017.

من الضروري الابتعاد عن هذه التعقيدات لكي نتمكن من فهم النمط العام وكيفية تجميع قطع هذه الأحجية كلها معًا:

1. **المنطق:** أحيانًا توصف شركة غوغل وغيرها من منصات المراقبة باعتبارها أسواقًا "ثنائية الجانب" أو "متعددة الجوانب"، لكن آليات رأسمالية المراقبة تشير إلى شيء مختلف.⁽²¹⁶⁾ لقد اكتشفت غوغل طريقة لتحويل تفاعلاتها غير السوقية مع المستخدمين إلى مواد خامًا فائضة لتصنيع منتجات تهدف إلى إجراء معاملات سوقية حقيقية مع زبائننا الحقيقيين: المعلنين.⁽²¹⁷⁾ وأخيرًا، أدى نقل الفائض السلوكي من خارج السوق إلى داخلها إلى تمكين غوغل من تحويل الاستثمار إلى إيرادات. وهكذا نرى أن الشركة قد أنشأت من العدم، وبتكلفة تبلغ القيمة صفر، فئة أصول من المواد الخام الحيوية المستمدة من سلوك المستخدمين غير السوقية عبر الإنترنت. في البداية، كان يُعثر على هذه المواد الخام ببساطة، نتيجةً لعمليات بحث المستخدمين. لكن لاحقًا، تعرّضت هذه الأصول لمطاردة شرسة، واستطاعوا الوصول إليها من خلال المراقبة أساسًا. وقد أنشأت الشركة في الوقت نفسه نوعًا جديدًا من الأسواق التي يمكن فيها بيع وشراء "منتجات التنبؤ" الخاصة بها، والمصنوعة من هذه المواد الخام. خلاصة هذه التطورات هي أن الفائض السلوكي الذي تركز عليه ثروة غوغل

(215) روبن فرزاد، "غوغل بقيمة 400 مليار دولار: العدد 2 جديد من حيث القيمة السوقية"، بيزنس ووك، 12 فبراير/ شباط 2014.

(216) جان تشارلز روشيه وجان تيرو، "الأسواق ثنائية الجانب: تقرير تقديمي"، مجلة راند للاقتصاد، المجلد 37، العدد 3 (2006): 645-667.

(217) لمناقشة هذه النقطة وعلاقتها بالإعلان المستهدف عبر الإنترنت، انظر كاثرين جيه ستراندبورغ، "السقوط الحر: انقطاع تفضيلات المستهلكين في السوق عبر الإنترنت" (بحث في كلية الحقوق والاقتصاد بجامعة نيويورك، 1 أكتوبر/ تشرين الأول 2013).

يمكن اعتباره أصولاً للمراقبة. إذ تُعدّ هذه الأصول مواد خام أساسية في السعي إلى تحقيق إيرادات المراقبة وتحويلها إلى رأس مال للمراقبة. ويمكن فهم المنطق الكامل لهذا التراكم الرأسمالي بدقّة من خلال رأسمالية المراقبة، التي تشكل الإطار الأساسي لنظام اقتصادي قائم على المراقبة: اقتصاد المراقبة. النمط الكبير هنا هو نمط التبعية والتسلسل الهرمي، حيث تخضع التبادلات السابقة بين الشركة ومستخدميها للمشروع المتمثل في فائضنا السلوكي المُستولى عليه لتحقيق غايات آخرين. فنحن لم نعد أهدافاً لتحقيق القيمة. ولسنا، كما أصر البعض، "نتائجاً" لمبيعات غوغل. بل نحن العناصر التي تُستخرج منها المواد الخام، وتُرسل إلى مصانع غوغل للتنبؤات. إن التنبؤات بسلوكنا هي منتجات غوغل التي تُباع لربائنها الحقيقيين وليس لنا: نحن مجرد وسيلة لتحقيق غايات آخرين.

لقد حوّلت الرأسمالية الصناعية المواد الخام الطبيعية إلى سلع، وتطالب رأسمالية المراقبة بـ مواد الطبيعة البشرية لابتكار سلع جديدة. وأصبحت الطبيعة البشرية هي المادة الأساسية التي تُكسّط وتُمزّق وتُستخدم في مشروع سوقي آخر يمتدّ لقرن من الزمان. ولا يليق بنا الافتراض أن بالإمكان اختصار هذا الضرر كله في حقيقة واضحة مفادها أن المستخدمين لا يتلقّون أية أجور مقابل المواد الخام التي يوفرونها. فهذا النقد أشبه بعملية تضليل تهدف إلى استخدام آلية تسعير لإضفاء طابع مؤسسي على الموضوع، وبالتالي إضفاء شرعية على عملية استخراج السلوك البشري لأغراض التصنيع والبيع. وهذا يتجاهل نقطة أساسية مفادها أن جوهر الاستغلال هنا يقوم على تقديم حياتنا كلها كبيانات سلوكية من أجل تحسين سيطرة الآخرين علينا. وتتعلّق الأسئلة اللافتة هنا بحقيقة أن حياتنا تُقدّم كبيانات سلوكية في المقام الأول؛ وأن الجهل هو شرط لهذا التسليم الشامل؛ وأن حقوق اتخاذ القرار تتلاشى قبل أن يعرف المرء حتى أن ثمة قراراً يجب اتخاذه؛ وأن ثمة عواقب لتناقص الحقوق هذا لا يمكننا أن نراها أو نتنبأ بها؛ وأنه لا يوجد مخرج ولا صوت ولا ولاء، لا يوجد سوى العجز والاستسلام والخدر النفسي؛ وأن التشفير، أي تحويل العمليات أو المعلومات أو البيانات إلى رموز، هو العمل الإيجابي الوحيد المتبقي لمناقشته عندما نجلس حول

طاولة العشاء، ونفكر عَرَضِيًّا في كيفية الاختباء من القوى التي تختبئ عنا.

2. وسائل الإنتاج: تشكل عملية التصنيع في عصر الإنترنت، بالنسبة إلى غوغل، عنصرًا أساسيًا فيها هو غير مسبوق. إذ تتطور باستمرار تكنولوجياتها وأساليبها المحددة، التي أخصها بـ "الذكاء الآلي"، ويسهل جدًا أن نشعر بالخوف من تعقيدها. قد يعني المصطلح ذاته شيئًا معينًا اليوم، وشيئًا آخر مختلفًا تمامًا بعد عام أو بعد خمسة أعوام. على سبيل المثال، قيل إن شركة غوغل تعمل على تطوير "الذكاء الاصطناعي" ونشره منذ عام 2003 على الأقل، ولكن المصطلح نفسه أشبه بهدف متحرك، إذ تطورت القدرات من برامج بدائية يمكنها لعب لعبة "تيك تاك توي" إلى أنظمة يمكنها تشغيل أساطيل كاملة من السيارات ذاتية القيادة.

تتغذى قدرات الذكاء الاصطناعي لدى غوغل على الفائض السلوكي، وكلما زاد استهلاكها للفائض، ازدادت دقة منتجات التنبؤ الناتجة. وقد اقترح كيفن كيل، المحرر المؤسس لمجلة "وايرد" (Wired)، ذات مرة أنه على الرغم من أنه يبدو أن غوغل ملتزمة بتطوير قدرات الذكاء الاصطناعي لتحسين البحث، فمن المرجح أن تقوم بتطوير البحث كوسيلة للتدريب المستمر لقدرات الذكاء الاصطناعي المتطورة.⁽²¹⁸⁾ وهذا هو جوهر مشروع الذكاء الآلي. باعتبار أن الآلة أشبه بدودة شريطية، فإن ذكاءها يعتمد على كمية البيانات التي تستهلكها. وتختلف في هذا الصدد وسائل الإنتاج الجديدة اختلافًا جوهريًا عن النموذج الصناعي، الذي يسود فيه توتر بين الكمية والجودة. يُعدّ الذكاء الاصطناعي خلاصة هذا التوتر، إذ لا يبلغ كامل إمكاناته النوعية إلا عند اقترابه من الكمال.

مع تزايد عدد الشركات التي تسعى إلى تحقيق أرباح من المراقبة على غرار غوغل، أصبحت نسبة كبيرة من العباقرة العالميين في مجال علوم البيانات والمجالات ذات الصلة، مكرّسة لتصميم منتجات التنبؤ التي ترفع معدلات النقر على الإعلانات المستهدفة. فعلى سبيل المثال، نشر باحثون صينيون يعملون في وحدة أبحاث "بينغ"

(218) كيفن كيل، "الابتكارات الثلاثة التي أطلقت أخيرًا العنان للذكاء الاصطناعي في العالم"، وايرد، 27 أكتوبر/تشرين الأول 2014.

التابعة لشركة مايكروسوفت في بكين نتائج ثورية في عام 2017. يقولون: "إن للتقدير الدقيق لمعدل النقر على الإعلانات تأثيرًا حيويًا على إيرادات شركات البحث؛ لدرجة أن تحسّنًا في دقة إنتاجنا بنسبة 0.1٪ من شأنه أن يدرّ أرباحًا إضافية تقدّر بمئات ملايين الدولارات". ثم يواصلون عرض تطبيق جديد لشبكات عصبية متقدّمة تبشّر بتحسّن يبلغ نسبة 0.9٪ في مقياس واحد من مقاييس التعريف، و"مكاسب كبيرة في معدل النقرات نتيجة زيادة حركة زيارات المستخدمين للمواقع الإلكترونية".⁽²¹⁹⁾ وعلى نحو مماثل، قدم فريق من الباحثين في غوغل نموذجًا جديدًا للشبكة العصبية العميقة، وذلك بهدف التقاط "تفاعلات الميزات التنبؤية" وتقديم "أداء متطور" لتحسين معدلات النقر.⁽²²⁰⁾ إن آلاف المساهمات مثل هذه، بعضها تدريجي وبعضها دراماتيكي، تعادل "وسائل إنتاج" باهظة الثمن ومتطورة وغامضة، وحصريّة في القرن الحادي والعشرين.

3. المنتجات: تقوم عمليات الذكاء الاصطناعي بتحويل الفائض السلوكي إلى منتجات تنبؤية مصمّمة للتنبؤ بما سنشعر به ونفكر فيه ونفعله: الآن، وقریبًا، ولاحقًا. وتعدّ هذه المنهجيات من أكثر أسرار غوغل كتمانًا. وتُفسر طبيعة منتجاتها ادعاء غوغل المتكرر بعدم بيع البيانات الشخصية. ماذا؟ أبدًا! يزعم المسؤولون التنفيذيون في شركة غوغل أن الخصوصية نفیّة تمامًا لأنهم لا يبيعون موادهم الخام. لكن الشركة تبيع التنبؤات التي لا يمكن لأحد سواها أن يحوّل الفائض السلوكي الموجود في مخزونها التاريخي العالمي الخاص إلى هذا الشكل من التنبؤات.

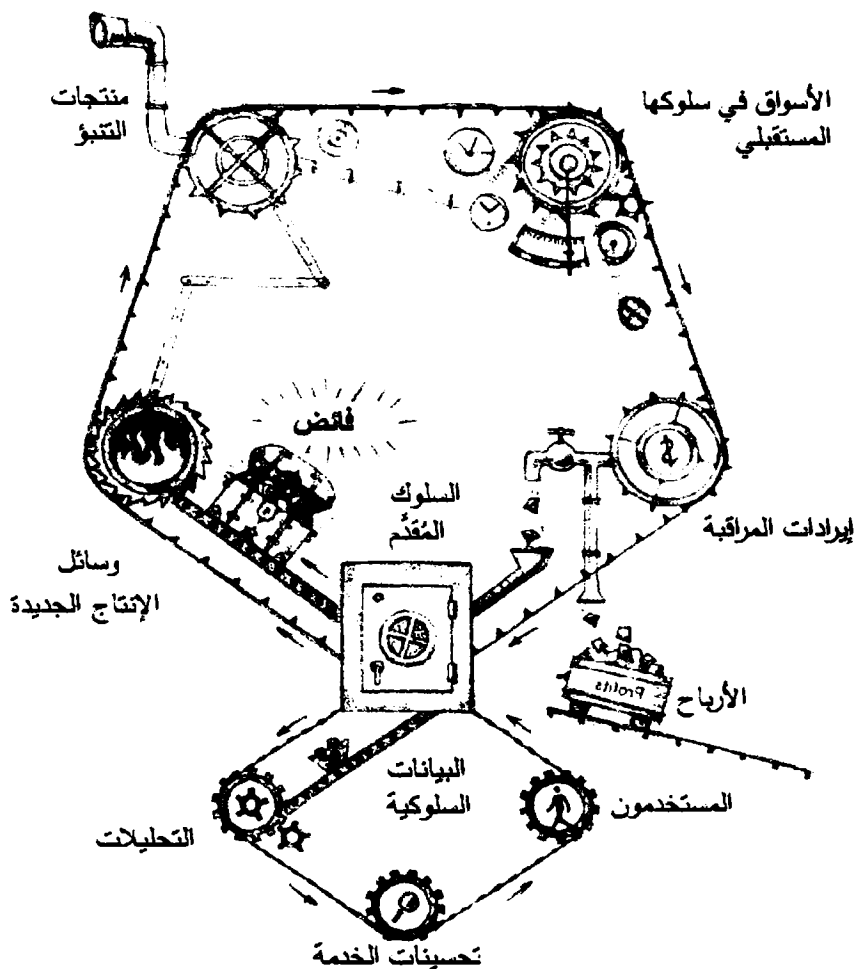
تُقلّل منتجات التنبؤ من مخاطر الزبائن، وتُرشدّهم كيف يراهنون وأين ومتى. وتعتمد جودة المنتج وقدرته على المنافسة على درجة قربهِ من اليقين: فكلما زادت قدرة المنتج على التنبؤ، انخفضت مخاطر المشتريين وزاد حجم المبيعات. لقد تعلمت شركة غوغل أن تكون بمثابة عرّافة تعتمد على البيانات وتستبدل الحدس بالعلم على نطاق

(219) شياو ليانغ لينغ وآخرون، "مجموعة النماذج للتنبؤ بالنقر في إعلانات البحث في بينغ"، في وقائع المؤتمر الدولي السادس والعشرين حول رفیق شبكة الويب العالمية، 689-98. (220) روكسي وانغ وآخرون، "شبكة متعمقة ومتعددة التخصصات لتوقعات نقرات الإعلانات"، (ArXiv:1708.05123)، علوم الحاسوب، 16 أغسطس/ آب 2017.

واسع من أجل معرفة ثرواتنا وبيعها لتحقيق الربح لزبائننا، وليس لنا. في البداية، كانت منتجات التنبؤ الخاصة بشركة غوغل تهدف إلى حد كبير إلى بيع الإعلانات المُستهدفة، لكننا سنرى لاحقًا أن الإعلانات كانت بداية لمشروع المراقبة، وليس النهاية.

4. **السوق:** تُباع منتجات التنبؤ في أسواق جديدة تركز على السلوك المستقبلي حصراً. وتتبع أرباح رأسمالية المراقبة بشكل أساسي من أسواق *التنبؤات السلوكية المستقبلية*. مع أن المعلنين كانوا اللاعبين المهيمنين في بداية هذا النوع الجديد من الأسواق، فلا ضرورة لمبررات توضح سبب اقتصر هذه الأسواق على هذه الفئة. تتعلق أنظمة التنبؤ الجديدة بالإعلانات فقط بمحض صدفة، بالطريقة ذاتها التي كان يتعلق بها الإنتاج الضخم الجديد لشركة فورد بالسيارات بمحض صدفة أيضًا. ففي كلتا الحالتين، يمكن تطبيق الأنظمة على العديد من مجالات أخرى كثيرة. وسنرى في الفصول التالية أن الاتجاه الواضح فعلاً هو أن أية وكالة لديها مصلحة في شراء معلومات احتمالية حول سلوكنا و/أو التأثير في سلوكنا المستقبلي يمكنها أن تدفع مقابل اللعب بالأسواق، حيث تُباع الثروات السلوكية للأفراد والجماعات والهيئات والأشياء (انظر الشكل 2).

اكتشاف الفائض السلوكي تبدأ رأسمالية المراقبة باكتشاف الفائض السلوكي. يتم تقديم بيانات سلوكية أكثر مما هو مطلوب لتحسين الخدمة. يغذي هذا الفائض الذكاء الآلي - وسائل الإنتاج الجديدة - التي تصنع تنبؤات سلوك المستهلك. تُباع هذه المنتجات لعملاء الأعمال في أسواق مستقبلية سلوكية جديدة. تصبح دورة إعادة استثمار قيمة السلوكية تابعة لهذا المنطق الجديد.



الشكل ٢: اكتشاف السلوك الفائض

الفصل الرابع

خندق حول القلعة

كانت ساعة ميلادهم هي الفترة الوحيدة في الجامعة، كانوا راضين بمعرفتهم الأولية، ليعرفوا مكانتهم ويكونوا على حق إلى الأبد.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، الجزء الأول

1. الموارد الطبيعية البشرية

الرئيس التنفيذي السابق لشركة غوغل، إريك شميدت، يعزو الفضل إلى الفحص المبكر الذي أجراه هال فاريان على مزادات الإعلانات الخاصة بالشركة، في توفير اللحظة الاكتشافية التي أوضحت الطبيعة الحقيقية لأعمال غوغل: "فجأة، أدركنا أننا كنا في مجال المزادات".⁽²²¹⁾ ويُعزى الفضل إلى لاري بييج في العثور على إجابة مختلفة تمامًا، وأكثر عمقًا، لسؤال: "ما هو غوغل؟" ويطلعنا دوغلاس إدواردز على أحداث جلسة عُقدت في عام 2001 مع المؤسسين، واستكشفت إجاباتهم من هذا السؤال بالتحديد. كان بييج هو من تأمل المشهد بعمق وقال في نفسه: "لو كان لدينا فئة معينة، لكانت فئة المعلومات/الشخصية... الأماكن التي رأيتموها. الاتصالات... أجهزة الاستشعار رخيصة جدًا... التخزين رخيص. الكاميرات رخيصة. سينتج الناس كميات هائلة من البيانات... سيصبح كل ما سمعتموه أو رأيتموه أو خبرتموه قابلاً للبحث. ستكون حياتكم بأكملها قابلة للبحث".⁽²²²⁾

(221) انظر ستيفن ليفي، "سر غوغل اقتصاديات: وصفة تعتمد على البيانات تُحقق الربحية"، وايرد، 22 مايو/أيار 2009؛

(222) دوغلاس إدواردز، أشعر أنني محظوظ (بوسطن: هوتون ميفلين هاركورت، 2011)، ص 291.

تعكس رؤية بيج بشكل مثالي تاريخ الرأسمالية، الذي يتميز بالتقاط الأشياء التي تعيش خارج نطاق السوق ومنحها حياة جديدة باعتبارها سلعة سوقية. وفي السرد الكبير الذي كتبه المؤرخ كارل بولاني عام 1944 عن "التحوّل الكبير" إلى اقتصاد السوق المنظم ذاتيًا، صنّف أصول عملية التحوّل هذه في ثلاثة ابتكارات ذهنية مُذهلة حاسمة أطلق عليها اسم "السلع الوهمية" (commodity fictions). **الأول** هو أن الحياة البشرية يمكن أن تخضع لديناميكيات السوق، وتولد من جديد بوصفها "عملاً يُشترى ويُباع. **والثاني** أن الطبيعة يمكن أن تتحوّل إلى سوق، وتولد من جديد بصفتها "أرضًا" أو "عقارًا". **والثالث** أن التبادل يمكن أن يولد من جديد في صورة "مال".⁽²²³⁾ قبل ما يقرب من ثمانين عامًا، وصف كارل ماركس الاستيلاء على الأراضي والموارد الطبيعية بأنه "الانفجار الكبير" الأصلي الذي أشعل شرارة تشكيل رأس المال الحديث، واصفًا إياه بـ "التراكم البدائي".⁽²²⁴⁾

زادت الفيلسوفة هانا آرندت من تعقيد مفهوم بولاني وماركس. حيث لاحظت أن التراكم البدائي لم يكن مجرد انفجار بدائي عابر أدى إلى ولادة الرأسمالية. بل هو مرحلة متكررة في دورة متكررة التحقق فيها مزيد من جوانب العالم الاجتماعي والطبيعي بديناميكيات السوق. وقالت إن "خطيئة ماركس الأصلية المرتبطة بالسرقة البسيطة"⁽²²⁵⁾ كان لا بدّ من تكرارها في نهاية المطاف حتى لا يتوقّف محرّك تراكم رأس المال فجأة".⁽²²⁶⁾

في عصرنا الذي تغلب عليه الإيديولوجيا والممارسات الداعمة للسوق، أصبحت هذه الدورة منتشرة على نطاق واسع لدرجة أننا فشلنا في نهاية المطاف في ملاحظة وقاحتها أو التشكيك في ادعاءاتها. إذ يمكنك الآن "شراء" دم أو أعضاء بشرية، أو

(223) كارل بولاني، التحوّل الكبير: الأصول السياسية والاقتصادية لعصرنا، الطبعة الثانية (بوسطن: باكون، 2001)، 75-76.

(224) كارل ماركس، رأس المال، ترجمة ديفيد فيرنباخ، الطبعة الثالثة (بنغوين، 1992)، الفصل السادس.

(225) تشير الخطيئة الأصلية هنا إلى رواية ماركس للفصل القسري بين المنتجين المباشرين ووسائل الإنتاج في أوروبا في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث. (المترجم).

(226) حنة آرندت، أصول الشمولية (نيويورك: شوكن، 2004)، 198.

شراء أحدهم لِيُنْجِبَ لك طفلاً، أو ليقف عنك في طابور أو أن يشغل موقفاً عاماً للسيارات، أو شخص يُعزّيك في حزنك، أو أن تشتري الحقّ بقتل حيوان مهدّد بالانقراض، وهي قائمة تطول يوماً بعد يوم.⁽²²⁷⁾

استند المنظّر الاجتماعي ديفيد هارفي، بمفهومه "التراكم عن طريق نزع الملكية"، على وجهة نظر آرندت: "ما يفعله التراكم عبر نزع الملكية هو إطلاق مجموعة من الأصول ... بتكلفة منخفضة للغاية (وفي بعض الحالات من دون تكلفة). يمكن لرأس المال المتراكم، بشكل مُبالغ فيه، إن يستولي على مثل هذه الأصول ويحوّلها على الفور إلى منتجات مربحة". ويضيف أن رواد الأعمال المصمّمين على "الانضمام إلى النظام" والتمتّع "بفوائد تراكم رأس المال" هم غالباً أولئك الذين يقودون عملية نزع الملكية ونقلها إلى مناطق جديدة غير محمية.⁽²²⁸⁾

أدرك بيج أن التجربة الإنسانية يمكن أن تكون بمنزلة الغابة البكر لشركة غوغل، التي يمكن استخراج موادها الأولية دون كلفة إضافية عبر الإنترنت، وبكلفة منخفضة جداً في العالم الحقيقي، حيث تكون "أجهزة الاستشعار رخيصة حقاً". وما إن يتم استخراجها حتى تُقدّم كيانات سلوكية، مما ينتج فائضاً يشكل الأساس لفئة جديدة تماماً من التبادل في السوق. نشأت رأسمالية المراقبة من عملية "انتزاع الملكية الرقمي" هذه، وأعيد تجسيدها بتأثير نفاد صبر الاستثمارات المتراكمة بشكل مفرط، ورغبة رائدي أعمال في الانضمام إلى النظام. تلك هي الرافعة التي حرّكت عالم غوغل، وحولته نحو الربح.

أعلن مالكو رأس مال المراقبة اليوم عن سلعة خيالية رابعة مستمدة من الحقائق التجريبية للبشر الذين كانت تتسم أجسادهم وأفكارهم ومشاعرهم ذات يوم بعذرية تخلو من العيوب، مثل مروج الطبيعة وغاباتها، قبل أن تسقط في ديناميكية السوق. وأصبحت التجربة الإنسانية، وفي هذا المنطق الجديد، خاضعة لآليات السوق التي

(227) مايكل جيه. ساندل، ما لا يمكن شراؤه بالمال: الحدود الأخلاقية للأسواق (نيويورك: فارار، شتراوس وجيرو، 2013).

(228) ديفيد هارفي، الإمبريالية الجديدة (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2005)، ص 153.

يفرضها نظام الرأسمالية المراقبة، وأصبحت تولد من جديد بصورة "سلوك". تتحوّل هذه السلوكيات إلى بيانات جاهزة لتأخذ موقعها في قائمة انتظار غير مرقمة تغذي الآلات لتحوّلها إلى تنبؤات، وتبادلها أخيراً في أسواق المستقبل السلوكي الجديدة.

يدفعنا تسليع السلوك في ظلّ رأسمالية المراقبة نحو مستقبل مجتمعي تُصان فيه القوة السوقية من خلال خنادق السرية والخبرة وعدم القدرة على فكّ التشفير. وحتى عندما تُعاد إلينا المعرفة المستمدّة من سلوكنا بوصفها قيمة مقابلة للمشاركة، كما في حالة ما يُسمى "تخصيص مؤتمت"، تسعى عمليات سرّية موازية إلى تحويل الفائض إلى مبيعات تتجاوز مصالحنا بكثير. لا نملك سيطرة رسمية لأننا لسنا أساسيين في هذا النشاط السوقى.

سنكون في مستقبل كهذا منفيين عن سلوكنا، ومحرومين من الوصول إلى المعرفة، أو التحكم بالمعرفة التي استمدّها آخرون من عملية انتزاع الملكية، ولصالح آخرين. تستقرّ المعرفة والسلطة والقوة كلها لدى رأس مال المراقبة الذي نُعتبر نحن بالنسبة إليه مجرّد "موارد طبيعية بشرية". إننا الآن أشبه بسكان أمريكا الشمالية الأصليين، حيث تلاشت مطالبنا الضمنية بتقرير المصير من خرائط تجاربنا الخاصة.

إن انتزاع الملكية الرقمي ليس حلقة مؤقتة بل هو تنسيق مستمر للعمل والمادة والتقنية، وليس موجة بسيطة بل عملية مدّ وجذر بحدّ ذاتها. لقد أدرك قادة غوغل من البداية أن نجاحهم يتطلّب تحصينات مستمرة وشاملة مصمّمة للدفاع عن "خطيئتهم المتكررة" المتمثلة في المنافسة والقيود. لم يرغبوا في الالتزام بالضوابط التي يفرضها السوق عادة لحوكمة الشركات، أو المجال الديمقراطي للقانون. ولكي يتمكنوا من تأكيد حريتهم واستغلالها، يتعين عليهم إبقاء الديمقراطية تحت السيطرة.

السؤال المهم الذي سنعود إليه على مدى هذا الكتاب كله هو: "كيف نجحوا في الإفلات من العقاب؟" تعتمد إحدى الإجابات على فهم الظروف التي تؤدّي إلى طلب على خدمات رأسمالية المراقبة، والمحافظة عليها. وقد أوضحتُ هذا الأمر في نقاش الفصل الثاني حول فكرة "التصادم". وتعتمد مجموعة الإجابات الثانية على فهم

واضح للآليات الأساسية وقوانين حركة رأسمالية المراقبة. ويبدأ هذا الكشف ويستمر في الجزء الثاني.

تطلبت مجموعة الإجابات الثالثة تقدير الظروف والاستراتيجيات السياسية والثقافية التي عززت ادعاءات رأسمالية المراقبة، وأمنت لها الحماية من التحدي القاتل. وستتناول هذا المجال الثالث في الأقسام التالية. فليس مرجحاً أن ينجح عنصر وحده في تحقيق ذلك كله، لكن تضافر الظروف السياسية والاستراتيجيات الاستباقية أسهمت في إثراء البيئة التي استطاعت فيها هذه الطفرة أن تتجذر وتزدهر. وهذا يتضمن (1) السعي الدؤوب للدفاع عن "حرية" المؤسسين من خلال سيطرة الشركات والإصرار على حقهم في مساحة خارجة عن القانون؛ (2) حماية الظروف التاريخية المحددة، بما في ذلك سياسات النموذج النيوليبرالي القانونية وتوجهاته، والمصلحة العاجلة للدولة في القدرات الناشئة لتحليل الفائض السلوكي والتنبؤ به في أعقاب هجمات سبتمبر/ أيلول 2001 الإرهابية؛ و(3) البناء المتعمد للتحصينات في عالمي السياسة والثقافة، المصممة لحماية تلك المملكة وصرف أي تدقيق وثيق لممارساتها.

مكتبة

t.me/soramnqraa

2. استراتيجية صرخة الحرية

اعتمدت إحدى الطرق التي استخدمها مؤسسو غوغل لترسيخ حريتهم على هيكل استثنائي للحكومة المؤسسية منحتهم سيطرة مطلقة على شركتهم. كان بييج وبرين أول من قدّم أسلوب الأسهم المزدوج إلى قطاع التكنولوجيا مع الطرح العام لأسهم شركة غوغل في عام 2004. يسيطر الطرفان على أسهم التصويت من الفئة "ب" المميزة، وهي الأسهم التي يحمل كل منها عشرة أصوات، مقارنة بأسهم الفئة "أ"، التي يحمل كل منها صوتاً واحداً فقط. لقد حصّن هذا الترتيب بييج وبرين من ضغوط السوق والمستثمرين، ووفقاً لما أشار إليه بييج في "رسالة المؤسس" الصادرة مع الطرح العام الأولي: "ضمن عملية الانتقال إلى الملكية العامة، أنشأنا هيكلًا مؤسسيًا سيجعل من الصعب معه على الأطراف الخارجية الاستحواذ على غوغل أو التأثير فيها... ومن

المرجح أن يُبقي هذا الهيكل لفريقنا، وخاصة سيرغي وأنا، سيطرة كاملة على قرارات الشركة ومصيرها، مع تغيير ملكية أسهم غوغل". (229)

طُلبَ من الجمهور ببساطة، في غياب الضوابط والتوازنات القياسية، أن "يثقوا" في المؤسسين. وكان شميدت يعبر عن هذا الأمر نيابة عنهما كلما واجها تحديًا في هذا الموضوع. على سبيل المثال، عندما كانوا في معهد "كاتو" في ديسمبر/ كانون الأول 2014، سُئل شميدت عن احتمال إساءة استخدام السلطة في غوغل، فأكد للجمهور ببساطة استمرارية السلالة الحاكمة للشركة. خلف بيغ شميدت في منصب الرئيس التنفيذي عام 2011 وكان القادة الحاليون يختارون قادة المستقبل بعناية: "نحن راضون عن لاري... إنه السيرك ذاته، والمهرجون ذاتهم.... إنهم الأشخاص ذاتهم... نحن الذين أسسنا غوغل لدينا الرأي ذاته، وأنا واثق من أنه سيكون لخلفائنا الرأي ذاته". (230)

بحلول ذلك العام، حصل بيغ وبرين على أغلبية الأصوات بنسبة تصل إلى 56٪، واستخدما تلك الأصوات لفرض هيكل أسهم جديد من ثلاث فئات، بإضافة أسهم من فئة "ج" لا تتمتع بحقوق التصويت. (231) وكما لاحظت مجلة "بلومبيرغ بيزنس ويك"، تضمن "الأسهم المحايدة من الفئة ج" احتفاظ بيغ وبرين بالسيطرة في المستقبل البعيد... (232). وبحلول عام 2017، سيطر بيغ وبرين على 83٪ من أسهم الفئة "ب" ذات التصويت المميز، وهو ما تحوّل إلى 51٪ من قوة الأصوات. (233)

سار العديد من مؤسسي وادي السيليكون على خطى غوغل. وبحلول عام 2015،

(229) سيرجي برين، "رسالة الطرح العام الأولي لمؤسسي غوغل لعام 2004".

(230) معهد كاتو، مقابلة مع إريك شميدت على غوغل/ كاتو، يوتيوب، 2014.

(231) سامرز، "لماذا تُصدر غوغل نوعًا جديدًا من الأسهم عديمة التأثير"، بلومبيرغ دوت كوم، 3 أبريل/ نيسان 2014. عندما اعترض المساهمون على النظام في الاجتماع العام السنوي للشركة من خلال الإدلاء بـ 180 مليون صوت لصالح قرار المساواة في حقوق التصويت، غمرتهم أصوات المؤسسين البالغ عددها 551 مليون صوت.

(232) إريك لام، "إصدار فئات جديدة من أسهم غوغل مع تعزيز المؤسسين لقبضتهم"، بلومبيرغ دوت كوم، 3 أبريل/ نيسان 2014.

(233) تاونسند، "مساهمو ألفابت يريدون المزيد من حقوق التصويت لكن لاري وسيرجي لا يريدون ذلك"، ريكود، 13 يونيو/حزيران 2017.

طُرِحَ 15٪ من الأسهم بهيكل ثنائي الفئة، مقارنة بـ 1٪ في عام 2005، وكان أكثر من نصفها لشركات التكنولوجيا.⁽²³⁴⁾ الأهم من ذلك أن طرح أسهم شركة فيسبوك الأولي عام 2012 تميّز بهيكل أسهم ذي مستويين، وهو ما منح مؤسس الشركة، مارك زوكربيرغ، السيطرة على حقوق التصويت. ثم أصدرت الشركة أسهمًا من الفئة "ج" التي لا تحظى بحق التصويت عام 2016، مما عزز سيطرة زوكربيرغ الشخصية على القرارات كلها.⁽²³⁵⁾

بينما ناقش علماء المال والمستثمرون عواقب هذه الهياكل التشاركية، مكّنت السيطرة المطلقة للشركات مؤسسي غوغل وفيسبوك من السعي بقوة إلى عمليات الاستحواذ، وهو ما أرسى سباق تسلح في ساحتين حاسمتين.⁽²³⁶⁾ اعتمدت الصناعات التحويلية المتطورة على الذكاء الآلي، وهو ما أجبر غوغل، ولاحقًا فيسبوك، على امتلاك شركات ومواهب تمثل تخصصاتها: التعرف على الوجه، و"التعلم العميق"، والواقع المعزز، وأشياء أخرى.⁽²³⁷⁾ لكن الآلات لا تكون ذكية إلا بقدر ما يسمح به حجم "نظامها

(234) رونالد دبليو ماسوليس، وكونغ وانغ، وفي شيه، "مشاكل الوكالة في الشركات ذات الفئتين"، مجلة المالية 64، العدد 4 (2009): 1727-1697. راندال سميث، "سهم واحد، صوت واحد؟"، وول ستريت جورنال، 28 أكتوبر/تشرين الأول 2011. في عام 2017، طرحت شركة سناب أسهمًا غير مصوتة فقط في الطرح العام الأولي، مما ترك لمؤسسيها سيطرة بنسبة 70٪ على جميع الأصوات، بينما كانت النسبة المتبقية في أيدي مستثمري ما قبل الطرح. انظر مورين فاريل، "في الطرح العام الأولي لشركة سناب، لن يحصل المستثمرون الجدد على أي أصوات، بينما يحتفظ المؤسسون بالسيطرة"، وول ستريت جورنال، 17 يناير 2017. تضمنت طروحات عامة أولية أخرى أسهمًا ذات حق تصويت فائق، حيث تراوح عدد الأصوات للسهم الواحد بين ثلاثين وعشرة آلاف ضعف عدد الأصوات للسهم الواحد مقارنةً بالأسهم العادية. انظر ألفريد دي، "حيث تصل حقوق التصويت الفائقة إلى أقصى حدودها"، مجلة المعلومات، 22 مارس 2016.

(235) "لعبة القوة: كيف انتزع زوكربيرغ السيطرة على فيسبوك من مساهميه"، مدونة فينتشر بيت، 2 فبراير/شباط 2012.

(236) سبنسر فيلدمان، "يشمل الاكتتاب العامل الأولي في عام 2016 حقّ التصويت لمساهمي الفئة المزدوجة"، وتقرير تنظيم الأوراق المالية والقانون، 47 SRLR 1342، 4 يوليو 2016؛ آر. سي. أندرسون، إي. أوتولينغي، ودي. إم. ريب، "اختيار السيطرة القصوى"، بحث لورشة عمل حول الشركات العائلية، جامعة لهاي، 2017.

(237) آدم هايز، "أهم استحواذات فيسبوك"، إنفستوبيديا، 11 فبراير 2015؛ راني مولا، "الشركة الأم لغوغل، ألقابت، حققت أكبر عدد من عمليات الاستحواذ في مجال الذكاء الاصطناعي"، ريكود، 19 مايو 2017؛ "سباق الذكاء الاصطناعي: غوغل، بايدو، إنتل، وأبل في سباق لاستقطاب شركات الذكاء الاصطناعي الناشئة"، سي بي إنسايتس ريسيرش، 21 يوليو 2017.

الغذائي". وهكذا تنافست غوغل وفيسبوك لتصبحا المنصتين الرائدتين في شبكة شاملة تلتقط وتتوسط تدفقات البيانات السلوكية الفائضة من كل الاتجاهات عبر أجهزة الحاسوب. ولتحقيق هذه الغاية، دفع المؤسسون مبالغ باهظة للحصول على فرصة الاستفادة من الفائض السلوكي من خلال الاستحواذ على قائمة متزايدة باستمرار من طرق الإمداد الرئيسية.

في عام 2006 مثلاً، دفعت شركة غوغل، بعد عامين فقط من طرح أسهمها في السوق، مبلغ 1.65 مليار دولار لقاء شركة ناشئة عمرها عام ونصف العام، ولم تحقق أي أموال على الإطلاق، وكانت محاصرة بدعاوى قضائية تتعلق بانتهاك حقوق النشر: يوتيوب. وبينما وُصِفَت هذه الخطوة بأنها "مجنونة"، وتعرضت الشركة لانتقادات بسبب السعر الباهظ، ذهب شميدت إلى الهجوم، وأقرّ صراحةً بأن غوغل دفعت مبلغ مليار دولار كعلاوة للاستحواذ على موقع مشاركة الفيديو، رغم أنه لم يفصح كثيرًا عن الأسباب وراء ذلك. وبحلول عام 2009، كشف اللغز محلل إعلامي ماهر من شركة فورستر للأبحاث: "يصبح الأمر يستحقّ القيمة الإضافية لأن بإمكان غوغل ربط كل ما لديها من خبرة في الإعلان والبحث بموقع يوتيوب... هذا يضمن أن ملايين المشاهدين يأتون إلى موقع مملوك لشركة غوغل وليس إلى موقع شركة أخرى.... ووفقاً لمبدأ المنتج الخاسر الرائد،⁽²³⁸⁾ حتى لو لم تستردّ الشركة أموالها أبداً، فسيظلّ الأمر يستحقّ العناء".⁽²³⁹⁾

اتبع زوكربيرغ، مؤسس فيسبوك، الاستراتيجيات ذاتها، حيث دفع أسعاراً "فلكية"، بطريقة "سريعة وغازية"، لموكب من الشركات الناشئة غير المربحة عادة مثل شركة الواقع الافتراضي أوكولوس (2 مليار دولار) وتطبيق المراسلة واتساب (19 مليار دولار)، وبالتالي ضمان ملكية فيسبوك لتدفقات السلوك البشري الهائلة من هذه المسارات. وتماشياً مع ضرورة الاستخراج، أخبر زوكربيرغ المستثمرين أنه لن

(238) هو المنتج الذي يُباع بسعر أقلّ من كلفته السوقية لتحفيز مبيعات أخرى لسلع أو خدمات أكثر ربحية، وهو وصف لأية سلعة تُباع بسعر منخفض لجذب الزبائن (المترجم).

(239) "شميدت: دفعنا مليار دولار إضافية مقابل يوتيوب"، سي نت، 27 مارس 2018.

يفكر في زيادة الإيرادات حتى تصل الخدمة إلى "مليارات" المستخدمين.⁽²⁴⁰⁾ ووفقاً لأحد الصحفيين المتخصصين في التكنولوجيا، "إن زوكربيرغ ليس مجبراً على التحدث مع مجلس الإدارة... وليس لدى المساهمين طريقة للتحقق من تصرفات زوكربيرج...؟"⁽²⁴¹⁾

جدير بالذكر أن فهم هذا المنطق التراكمي كان مفيداً في مداولات مفوضية الاتحاد الأوروبي بشأن الاستحواذ على واتساب، والذي سُمح به على أساس ضمانات بالفصل بين تدفق البيانات من الشركتين. وستكشف اللجنة لاحقاً أن ضرورة الاستخراج، وضرورة تحقيق اقتصاديات الحجم في عمليات التوريد، تجبر على دمج التدفقات الفائضة في السعي إلى الحصول على منتجات تنبؤ أفضل.⁽²⁴²⁾

أنشأ مؤسسو غوغل شكلاً مؤسسياً يمنحهم سيطرة مطلقة في مجال السوق، وسعوا أيضاً إلى تحقيق الحرية في المجال العام. وكان أحد العناصر الأساسية لاستراتيجية الحرية التي انتهجتها شركة غوغل هو قدرتها على التمييز والبناء والمطالبة بمناطق اجتماعية غير مسبقة لم تخضع بعد للقانون. يُعدّ الفضاء السيبراني سمة أساسية في هذه الدراما، وقد احتفى به إيرك شميدت وغارد كوهين في الصفحة الأولى من كتابهما عن "العصر الرقمي": "العالم الإلكتروني غير مقيد فعلاً بقوانين أرضية.... فهو أكبر مساحة غير خاضعة للحكم في العالم".⁽²⁴³⁾ إنهم يحتفلون بمطالبتهم بمساحات عملياتية بعيدة عن متناول المؤسسات السياسية: ما يعادل في القرن الحادي والعشرين

(240) أدريان كوفيرت، "فيسبوك يشتري واتساب مقابل 19 مليار دولار"، سي إن إن موني، 19 فبراير/شباط 2014.

(241) تيم فيرنولز، "كيف تُمكن سيطرة مارك زوكربيرغ على فيسبوك من طباعة النقود"، كوارتز (مدونة)، ٢٧ مارس ٢٠١٤.

(242) دونكان روبنسون، "فيسبوك يواجه غرامة أوروبية بسبب مشاركة بيانات واتساب"، فاينانشال تايمز، 20 ديسمبر/ كانون الأول 2016؛ تيم آدمز، "مارغريت فيستاجر: نحن نفعل هذا لأن الناس غاضبون"، أوبزرفر، 17 سبتمبر/ أيلول 2017؛ "الأسئلة الشائعة حول واتساب - كيف أختار عدم مشاركة معلومات حساسي مع فيسبوك لتحسين تجربتي مع إعلانات ومنتجات فيسبوك؟"، WhatsApp.com، 28 أغسطس/ آب 2016.

(243) إيرك شميدت وجاريد كوهين، العصر الرقمي الجديد: تحويل الأمم والشركات وحياتنا (نيويورك: فينينج، 2014).

"القارات المظلمة" التي جذبت المضاربين الأوروبيين في القرن التاسع عشر إلى شواطئها.

تساعد دراسة هاتنا آرندت، حول تصدير الرأسماليين البريطانيين لرأس المال المتراكم إلى آسيا وأفريقيا في منتصف القرن التاسع عشر، على تطوير هذا التشبيه: "هنا، في المناطق المتخلفة المفتقرة إلى الصناعات والمنظمات السياسية، حيث مُنح العنف حرية أكبر من أي دولة غربية، سُمح لقوانين الرأسمالية المزعومة بخلق حقائق ملموسة... ويكمن سرّ هذا الإنجاز السعيد الجديد في أن القوانين الاقتصادية لم تعد تعيق جشع الطبقات المالكة. (244)

كانت هذه الفوضى عامل نجاح حاسم في التاريخ القصير لرأسمالية المراقبة. لقد دافع شميدت وبرين وبيج بحماس عن حقهم في التحرر من القوانين حتى مع تحوّل غوغل إلى ما يمكن اعتباره الشركة الأقوى في العالم.⁽²⁴⁵⁾ وتميزت جهودهم ببضعة موضوعات متسقة: تتحرّك شركات تكنولوجيا مثل غوغل بسرعة أكبر من قدرة الدولة على الفهم أو المتابعة، ومن المؤكّد أن أية محاولات للتدخل أو التقيد ستكون غيبة وسيئة التصوّر، وأن التنظيم هو دائما قوة سلبية تعوق الابتكار والتقدم، وأن الفوضى سياق ضروري "للابتكار التكنولوجي".

كانت صراحة شميدت وبيج وبرين واضحة في هذه المواضيع. ففي مقابلة مع صحيفة وول ستريت جورنال عام 2010، أصرّ شميدت على أن غوغل لا تحتاج إلى أي تنظيم نظراً للحواجز القوية التي تدفعها "للمعاملة مستخدميها معاملةً حسنة".⁽²⁴⁶⁾ واستشهد في عام 2011 بصيغة أندي غروف، الرئيس التنفيذي السابق لشركة إنتل، المعادية للديمقراطية، في حديثه مع مراسل صحيفة واشنطن بوست، معلقاً على أن فكرة غروف "تلائمه". كانت غوغل مصمّمة على حماية نفسها من بطء وتيرة

(244) آرندت، أصول الشمولية، 183.

(245) فينود خوسلا، "حوار جانبي مع مؤسس غوغل، لاري بيج وسيرجي برين"، خوسلا فينتشرز، 3 يوليو/تموز 2014.

(246) هولمان دبليو. جينكينز، "غوغل والبحث عن المستقبل"، وول ستريت جورنال، 14 أغسطس/ آب 2010.

هذه هي معادلة أندي غروف... "التكنولوجيا المتقدمة أسرع بثلاث مرات من الشركات العادية. والحكومة أبطأ بثلاث مرات من الشركات العادية. لذا لدينا فجوة تبلغ تسع مرات... وما نريد فعله هو التأكد من عدم تدخل الحكومة، وإبطاء المسار". (247)

تناول موقع بيزنس إنسايدر تصريحات شميدت في المؤتمر العالمي للهواتف النقالة في العام نفسه، وقال: "عندما سُئل شميدت عن التنظيم الحكومي، قال إن التكنولوجيا تتطور بسرعة كبيرة، ولا ينبغي للحكومات محاولة تنظيمها لأنها ستغير بسرعة كبيرة، وسوف تُحل أية مشكلة بالتكنولوجيا. 'ستتحرك أسرع بكثير من أية حكومة'". (248)

يؤدي برين وبيج صراحةً أكبر في ازدرائهما للقانون والتنظيم. إذ فاجأ الرئيس التنفيذي بيج جمعًا من المطورين عام 2013 بالردّ على أسئلة الجمهور، مُعلقًا على "السلبية" التي أعاقَت حرية الشركة في "بناء أشياء عظيمة حقًا"، وابتكار تقنيات "متوافقة" مع الشركات الأخرى: "المؤسسات القديمة، مثل القانون وما شابه، لا تُواكب وتيرة التغيير التي أحدثناها من خلال التكنولوجيا... عندما طرحنا الشركة للاكتتاب كان عمر القوانين 50 عامًا. لا يمكن للقانون أن يكون صحيحًا إذا كان عمره 50 عامًا، كما كان قبل الإنترنت". وعندما سُئل عن أفكاره حول كيفية الحد من "السلبية" وزيادة "الإيجابية"، أجاب بيج، "ربما يجب علينا تخصيص جزء صغير من العالم... ويجب أن يكون لدينا، بصفقتنا خبراء في التكنولوجيا، أماكن آمنة يمكننا فيها تجربة أشياء جديدة، ومعرفة تأثيرها على المجتمع، وعلى الناس، دون الحاجة إلى الانتشار في العالم الطبيعي". (249)

(247) انظر ليليان كانيغهام، "إريك شميدت من غوغل يشرح شهادته أمام مجلس الشيوخ"، صحيفة واشنطن بوست، 30 سبتمبر/ أيلول 2011.

(248) باسكال إيمانويل جوبري، "إريك شميدت لقادة العالم في مؤتمر إي جي 8: لا تُنظّمونا وإلا"، بيزنس إنسايدر، 24 مايو/ أيار 2011.

(249) انظر جاي يارو، "الرئيس التنفيذي لشركة غوغل لاري بيج يريد عالما منفصلا تماما حيث يمكن

من المهم أن نفهم أن رأسمالي المراقبة مدفوعون للسعي إلى الفوضى وفقًا لمنطق وضعوه بأنفسهم. وتمارس غوغل وفيسبوك ضغوطًا قوية لإنهاء حماية الخصوصية على الإنترنت، وتقييد اللوائح، وإضعاف أو منع التشريعات التي تعزز الخصوصية، وإحباط كل محاولة لتقييد ممارساتها لأن مثل هذه القوانين تشكل تهديدًا وجوديًا لتدفق سلس للفائض السلوكي.⁽²⁵⁰⁾

إذا أُريد لمنطق التراكم هذا أن يحظى بالنجاح، فينبغي أن يكون منجم الاستخراج دون حماية، ومتاحًا دون كلفة. تُعتبر هذه المتطلبات أيضًا نقطة ضعف. فالبرجة الآن هي القانون بالنسبة لغوغل، لكن خطر القوانين الجديدة في مناطقها الراسخة والمتوقعة لا يزال يُشكل خطرًا مستمرًا على رأسمالية المراقبة. إذا سُنّت قوانين جديدة لحظر عمليات الاستخراج، فسينهار نموذج المراقبة. وإذا أراد هذا الشكل من السوق أن يطبق منطقته الداخلي، فعليه إما تهيتة نفسه لصراع دائم مع العملية الديمقراطية، أو إيجاد طرق جديدة للتسلل إلى الديمقراطية وإغوائها واستغلالها لتحقيق أهدافه. إذ يعتمد بقاء رأسمالية المراقبة ونجاحها على هندسة الاتفاق الجماعي بجميع الوسائل المتاحة، مع تجاهل القوانين التي تُهدد فائض السلوك الحر أو التهرب منها أو معارضتها أو إعادة صياغتها، أو حتى إلغائها بأي شكل آخر.

تشبه هذه المطالبات بمساحةٍ خارجة عن القانون بشكل لافتٍ مطالبة البارونات للصوص في قرن مضى. مثلما فعل رجال غوغل، استولى جبابرة القرن التاسع عشر على أراضي غير محمية لمصالحهم الخاصة، وأعلنوا صواب امتيازاتهم التي منحوها السلطة، ودافعوا عن رأسماليتهم الجديدة في وجه الديمقراطية بأي ثمن. لقد مررنا بهذا سابقًا، على الأقل في حالة الولايات المتحدة.

يتحدّث المؤرخون الاقتصاديون عن تفاني "البارونات للصوص" لتكريس

لشركات التكنولوجيا إجراء التجارب على الناس"، بيزنس إنسايدر، 16 مايو/ أيار 2013.
(250) كونور دوغيرتي، "شركات التكنولوجيا تنقل مخاوفها التشريعية إلى الولايات المتحدة"، نيويورك تايمز، 27 مايو 2016؛ تيم برادشو، "غوغل تنتقد قواعد السيارات ذاتية القيادة"، فاينانشال تايمز، 18 ديسمبر 2015؛ جون برودكين، "جماعات الضغط في غوغل وفيسبوك تحاول منع حماية الخصوصية الجديدة على الإنترنت"، أرس تكنيكا، 24 مايو 2017.

الفوضى في العصر الذهبي، الذين لعبت نظرية هيربرت سبنسر الداروينية الاجتماعية بالنسبة إليهم الدور ذاته الذي لعبه هايك وجينسن، وحتى الدور الذي لعبه "أيان راند"، بالنسبة إلى أباطرة العصر الرقمي في يومنا هذا. وعلى النحو ذاته الذي يرر فيه رأسماليو المراقبة تركيز المعلومات والثروات غير المسبوقة لدى شركاتهم باعتبارها النتيجة الحتمية "لتأثيرات شبكة الإنترنت" وأسواق مبدأ "الفائز يحظى بكل شيء"، استشهد صناعيو العصر الذهبي بمبدأ "بقاء الأصلح" الزائف الذي ابتكره سبنسر، باعتباره دليلاً على وجود خطة سماوية تهدف على وضع ثروة المجتمع في أيدي من هم أقدر على المنافسة. (251)

كان أصحاب الملايين في العصر الذهبي، مثل رأسماليي المراقبة اليوم، يقفون على حافة انقطاع هائل في وسائل الإنتاج، دون أي شيء آخر سوى مساحة فارغة لابتكار رأسمالية صناعية جديدة خالية من القيود المفروضة على استخدام العمالة، وطبيعة ظروف العمل، ومدى الدمار البيئي، ومصادر المواد الخام، أو حتى جودة منتجاتهم الخاصة. لكنهم لم يترددوا، مثل نظرائهم في القرن الحادي والعشرين، في استغلال قانون يزدرونه، رافعين لواء "الملكية الخاصة" و"حرية التعاقد"، تمامًا كما يسير رأسماليو المراقبة تحت راية حرية التعبير كمبرر "للتقدم" التكنولوجي غير المعوق، وهو موضوع سوف نعود إليه لاحقاً.

انطلاقاً من قناعة راسخة بأن "الدولة لا تملك الحق، ولا المبرر، للتدخل في عمل الاقتصاد"، تضامن مليونيريو العصر الذهبي للدفاع عن "حقوق رأس المال"، والحدّ

(251) روبرت أتش. وبي، البحث عن النظام: 1877-1920 (نيويورك: هيل ووانغ، 1967)، 135-137. يُلخّص وبي النظرة العالمية التي طرحها أصحاب الملايين وهم ينسقون جهودهم لصد التهديد الانتخابي لرأس المال الصناعي، وستبدو مألوفة لكل من قرأ مبررات أباطرة وادي السيليكون وتزلفهم لكل ما هو "مدمر" و"ريادي". ووفقاً لمبادئ القرن التاسع عشر، فإن "أعلى فئات عرقهم فقط هم من اكتشفوا طرقاً أكثر فعالية للجمع بين الأرض والعمل ورأس المال، ودفعوا المجتمع إلى أعلى بينما أعاد البقية تنظيم أنفسهم خلف قادتهم". تُركت غالبية "المواهب العادية" لتقسيم ما تبقى بعد متطلبات رأس المال، و"اختفى الأضعف ببساطة". وكانت النتيجة "عرقاً يتحسن باستمرار، ينقى بفعل المنافسة". وأي انتهاك لهذه "القوانين الطبيعية" لن يفيد إلا "بقاء الأضعف" ويعكس مسار تطور العرق.

من دور الممثلين المنتخبين في وضع السياسات أو تطوير التشريعات.⁽²⁵²⁾ وجادلوا بأنه لا حاجة إلى القانون، في ظل وجود "قانون التطور" و"قوانين رأس المال" و"قوانين المجتمع الصناعي". وأصرّ جون روكفلر على أن ثروته النفطية الهائلة كانت نتيجة "القانون الطبيعي لتطور التجارة". وعندما سأله الكونغرس عن الحاجة إلى تنظيم اتحادي لأسعار السكك الحديدية، أجاب جاي غولد بأن الأسعار مُنظمة بالفعل بموجب "قوانين العرض والطلب والإنتاج والاستهلاك".⁽²⁵³⁾ في عام 1896، تحرك أصحاب الملايين لهزيمة الديمقراطي الشعبي ويليام جينينغز برايان، الذي تعهّد بربط السياسة الاقتصادية بالمجال السياسي، بما في ذلك تنظيم السكك الحديدية وحماية الناس من "السرقعة والقمع".⁽²⁵⁴⁾

كانت النتيجة بالنسبة إلى نخبة رجال أعمال العصر الذهبي هي أن أنجع وسيلة لحماية الخطيئة الأصلية المرتبطة بتلك الحقبة الاقتصادية، كما قال ديفيد ناسو، هي "تقييد الديمقراطية". ونجحوا بذلك عبر تمويل مرشحيهم السياسيين بسخاء، وهجوم أيديولوجي مشحود بعناية، ومنشور بأسلوب عدواني، على مفهوم حقّ الديمقراطية في التدخل في المجال الاقتصادي.⁽²⁵⁵⁾ كان يُفترض أن تكون صناعاتهم "ذاتية التنظيم": حرة في اتباع قوانينها التطورية. وقد وعظوا بأن "للديمقراطية حدودًا لا يجرؤ الناخبون وممثلوهم على تجاوزها خشية أن تُصيب الأمة كارثة اقتصادية".⁽²⁵⁶⁾ سنرى في مناقشتنا لـ "التحصينات" أن غوغل أحييت هذه الاستراتيجيات وأكثر منها. لكننا سنستكشف أولاً تلك الظروف الفريدة من نوعها التي حمت الشركة الناشئة، وحمت اكتشافها للتجربة الإنسانية باعتبارها موردًا لا ينضب، وجاهزًا للاستغلال.

(252) ديفيد ناسو، "أناجيل العصر الذهبي"، في كتاب "حكم أمريكا: تاريخ الثروة والسلطة في ظل الديمقراطية"، تحرير ستيف فريزر وغاري جيرستل (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2005)، الصفحات 124-125.

(253) ناسو، "العصر الذهبي"، 132.

(254) ناسو، 146.

(255) لورانس م. فريدمان، القانون الأمريكي في القرن العشرين (نيو هافن، كونيتيكت: مطبعة جامعة ييل، 2004)، 15-28.

(256) ناسو، "العصر الذهبي"، 148.

3. الملاذ: الإرث النيولبرالي

حظي قادة غوغل أيضًا بدعم الظروف التاريخية. استفادت غوغل، ومشروع رأسمالية المراقبة الأوسع، من تطورين ساهما في توفير بيئة حاضنة فريدة من نوعها لطفرة المراقبة. كان التطور الأول هو استيلاء الليبراليين الجدد على الآلية الحكومية للرقابة على الاقتصاد الأمريكي وتنظيمه، وهو ما ناقشنا إطاره في الفصل الثاني.⁽²⁵⁷⁾

توضح دراسة مميزة أجرتها تجريبيًا أستاذة القانون بجامعة كاليفورنيا، جودي شورت، دور الأيديولوجية النيولبرالية باعتبارها أحد التفسيرات المهمة لطموحات غوغل ودفاعها الناجح عن مناطق ليس فيها قانون.⁽²⁵⁸⁾ حلّلت شورت 1400 مقالة قانونية حول موضوع التنظيم، نُشرت جميعها بين عامي 1980 و2005. وكما تنبأ هايك وفريدمان، كان الموضوع السائد في هذه الأعمال هو "الطبيعة القسرية للحكومة الإدارية"، والخلط المنهجي بين تنظيم الصناعة و"الطغيان" و"الاستبداد". ووفقًا لهذه النظرة العالمية، تُعدّ جميع التنظيمات عبئًا ثقيلًا، وينبغي رفض البيروقراطية باعتبارها إحدى أشكال الهيمنة البشرية. لاحظت شورت أنه خلال العقود التي شملت الدراسة، كان تأثير هذه المخاوف على تشكيل النهج التنظيمي أشدّ بكثير من تأثير الحجج العقلانية حول التكلفة والكفاءة، وحددت مصدرين لهذه المخاوف.

المصدر الأول هو معارضة مجتمع الأعمال الأمريكي لإصلاحات الصفقة الجديدة (New Deal)، التي تصوّر مقاومة التنظيم باعتبارها "معركة شريفة للدفاع عن الديمقراطية ضدّ الدكتاتورية"، على غرار دعاية أصحاب الملايين في العصر الذهبي.⁽²⁵⁹⁾ المصدر الثاني هو الخوف من التوتاليتارية والجماعية اللتين أثارتهما الحرب

(257) للاطلاع على مناقشتين بارزتين، انظر كريس جاي هوفناغل، لجنة التجارة الفيدرالية: قانون الخصوصية والسياسة (نيويورك: جامعة كامبريدج، 2016)؛ جولي إي. كوهين، "الدولة التنظيمية في عصر المعلومات"، التحقيقات النظرية في القانون 17، العدد 2 (2016).

(258) جودي إل. شورت، "الأسلوب البارانونيدي في الإصلاح التنظيمي"، مجلة هاستينجز للقانون، المجلد 63 (12 يناير/ كانون الثاني 2011): ص 633.

(259) ولقراءة مجموعة رائعة من المقالات حول هذا الموضوع، انظر ستيف فريزر وجاري جيرستل، المحررين، صعود وسقوط نظام الصفقة الجديدة 1930-1980 (برنستون، نيوجيرسي: جامعة برنستون، 1989).

العالمية الثانية، والحرب الباردة، وهو إرث مباشر من هايك. وقد تسَلَّلت هذه الأفكار الدفاعية إلى الفكر السياسي الأمريكي وأعادت تشكيله، وغيَّرت تدريجيًا افتراضات صانعي السياسات حول الدور التنظيمي للدولة.⁽²⁶⁰⁾

وجدت شورت في تلك الأعمال حلولًا كثيرة مُقترحة للتنظيم الحكومي "القسري"، لكن أبرزها كان "التنظيم الذاتي" ولا سيَّما بعد عام 1966 أي بعد السنوات التي سادت فيها التكنولوجيا الرقمية والإنترنت. الفكرة هنا هي أن الشركات تضع معاييرها الخاصة، وتراقب امتثالها لها، بل وتُقيِّم سلوكها من أجل "الإبلاغ طوعيةً عن الانتهاكات ومعالجتها".⁽²⁶¹⁾ بحلول وقت الطرح العام لأسهم شركة غوغل عام 2004، كان التنظيم الذاتي راسخًا بشكل كامل داخل الحكومة، وفي كامل مجتمع الأعمال باعتباره الأداة الأكثر فعالية للتنظيم دون إكراه، والترياق لأي ميل نحو الجماعية ومركزية السلطة.⁽²⁶²⁾

كان هذا الإرث النيوليبرالي بمنزلة هبة غير متوقعة لرأسماليي المراقبة الجدد. وكما لاحظ الباحث القانوني فرانك باسكوالي، فقد أنتج نموذجًا اعتبر الخصوصية سلعة

(260) آلان برينكلي، الليبرالية وسخطها (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2000).

(261) "الأسلوب البارانونيدي"، 44-46.

(262) شورت، 52-53. يلخص المؤرخ الاقتصادي فيليب ميروفسكي "التحولات" التي ساهمت منذ ثمانينيات القرن الماضي في تشكيل الليبرالية الجديدة كـ"نموذج" فضفاض، على الرغم من نظرياتها وممارساتها الغامضة ومتعددة الأوجه والمتناقضة أحيانًا. من بين هذه النظريات والممارسات، أصبح العديد منها ملاذًا أساسيًا لأفعال رأسماليي الرقابة الجريئة وعملياتهم السرية وتضليلهم الخطابي: (1) كان من المقرر تقييد الديمقراطية لصالح بناء الدولة بنشاط كعامل لمجتمع سوق مستقر؛ (2) تم دمج رائد الأعمال والشركة، مما كرس "الشخصية الاعتبارية للشركة"، بدلًا من حقوق المواطنين، كمحور للحماية القانونية؛ (3) تم تعريف الحرية بشكل سلبي، على أنها "التحرر من" التدخل في القوانين الطبيعية للمنافسة، وفُهم جميع أشكال السيطرة على أنها قسرية، باستثناء التحكم في السوق؛ و(4) تم قبول عدم المساواة في الثروة والحقوق، بل والاحتفاء به، كسمة ضرورية لنظام سوق ناجح وقوة للتقدم. لاحقًا، عزز نجاح رأسمالية الرقابة، وخطابها العدواني، واستعداد قادتها لمواجهة كل تحدٍ، سواءً في المحاكم أو في محكمة الرأي العام، هذه المبادئ التوجيهية في السياسة الأمريكية والسياسات الاقتصادية والنهج التنظيمي. انظر فيليب ميروفسكي، "لا تدع أزمة خطيرة تذهب سدى: كيف نجت النيوليبرالية من الانهيار المالي" (لندن: فيرسو، 2013). انظر أيضًا ويندي براون، "تفكيك المظاهرات: ثورة النيوليبرالية الخفية" (نيويورك: زون بوكس، 2015)؛ ديفيد م. كوتز، "صعود وسقوط الرأسمالية النيوليبرالية" (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2015)، 166-175.

تنافسية، مفترضاً أن "المستهلكين" لا يتعاملون إلا مع الخدمات التي توفر ما يشدونه من مستوى الخصوصية. ووفقاً لوجهة النظر هذه، لن يؤدي التدخل التنظيمي إلا إلى تقويض التنوع التنافسي. وتشيد وجهة النظر أيضاً بنموذج "الإشعار والموافقة" - نموذج النقر والمتابعة (clickwarp)، وما يشبهه من نماذج "سادية" - باعتباره مؤشراً دقيقاً على خيارات الخصوصية الفردية.⁽²⁶³⁾

كما فضّلت روح العصر النيوليبرالية قادة غوغل، ومن ثم رفاقهم في مشروع المراقبة، بسبب سعيهم إلى حماية ابتكاراتهم تحت مزاعم الحق في حرية التعبير المنصوص عليه في التعديل الأول للدستور. إنها ساحة معقدة ومتنازع عليها، يتشابك فيها القانون الدستوري والأيدولوجية السياسية تشابكاً تاماً، وأنا أشير هنا إلى بعض العناصر لفهم البيئة التي غذّت شكل سوق المراقبة الجديد بشكل أفضل.⁽²⁶⁴⁾

تكمّن الديناميكية الرئيسة هنا في أن فقه التعديل الأول للدستور الأمريكي، ولا سيّما في العقدين السابقين، قد عكس تفسيراً "ليبرالياً محافظاً" لحقوق التعديل الأول. ووفقاً للباحث في القانون الدستوري ستيفن هيان، "أصبح التعديل الأول، في العقود الأخيرة، أحد أهم الوسائل التي سعى القضاء من خلالها إلى تعزيز أجندة ليبرالية

(263) فرانك أ. باسكوالي، "الخصوصية ومكافحة الاحتكار والسلطة"، مجلة جورج ماسون للقانون 20، رقم 4 (2013): 1009-1024.

(264) هناك دراسات واسعة النطاق حول ادعاءات شركات الإنترنت بحماية التعديل الأول للدستور كوسيلة للدفاع ضد التنظيم. إليكم بعضاً من بين العديد من المساهمات المهمة: أندرو توت، "الخطاب الجديد"، مجلة هاستينغز للقانون الدستوري الفصلية، العدد 41 (17 يوليو/ تموز 2013): 235؛ ريتشارد هاسن، "الخطاب الرخيص وتأثيره (على الديمقراطية الأمريكية)"، مراجعة قانون التعديل الأول 16 (1 يناير/ كانون الثاني 2017): داون نونزياتو، "مع القوة العظمى تأتي مسؤولية عظيمة: المبادئ المقترحة للإجراءات القانونية الرقمية الواجبة لشركات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات" (بحث في القانون العام بكلية الحقوق بجامعة جورج واشنطن، 1 يناير/ كانون الثاني 2013)؛ تيم وو، "الخطاب الآلي"، مراجعة قانون جامعة بنسلفانيا 161، العدد 6 (2013): 1495؛ دون نونزياتو، "نسيان الأمر؟ مواعمة الحماية الأوروبية والأمريكية للخصوصية وحرية التعبير والإجراءات القانونية الواجبة" (بحث في القانون العام بكلية الحقوق بجامعة جورج واشنطن، 1 يناير/ كانون الثاني 2015)؛ مارفن أموري، "نيويورك تايمز الجديدة: محاماة حرية التعبير في عصر غوغل وتويتر"، مجلة هارفارد للقانون، المجلد 127 (20 يونيو/ حزيران 2014): 2259-2295؛ جون هانسون وروندل تشين، "وهم القانون: المخططات الشرعية للسياسات الحديثة وقانون الشركات"، المخططات الشرعية للسياسات الحديثة وقانون الشركات، المجلد 103، العدد 1 (2004): 149-1.

محافظة".⁽²⁶⁵⁾ وأدى هذا إلى قرارات قضائية درامية كثيرة، بما في ذلك رفض المحكمة العليا الأميركية لأي قيود على دور المال في الحملات الانتخابية، ورفضها للقيود على خطاب الكراهية والمواد الإباحية، وقرارها بأولوية الحق في حرية تكوين الجمعيات على قوانين الحقوق المدنية في الولايات التي تحظر التمييز.

وفقاً لكثير من علماء القانون، يؤكّد التوجّه الأيديولوجي للاجتهاد القضائي المعاصر في التعديل الأول للدستور على وجود صلة وثيقة بين حرية التعبير وحقوق الملكية. وقد أدى المنطق الذي يربط الملكية بالحق المطلق في حرية التعبير إلى إعطاء الأولوية لتصرّفات الشركات بوصفها "تعبيراً" يستحق الحماية الدستورية.⁽²⁶⁶⁾ ويرى بعض الباحثين أن هذا عودة خطيرة إلى المبادئ الإقطاعية التي نشأ عنها قانون الشركات في القرن السابع عشر. إذ حدّت تلك المبادئ القانونية القروسطية من سلطة الحاكم على "شركات الطبقة الأرستقراطية والكنيسة والنقابات والجامعات والمدن... التي كانت تدّعي حقها في حكم نفسها". ومن نتائج ذلك أن المحاكم الأميركية "سارعت إلى إدراك احتمالات تجاوز الحكومة لصلاحياتها، لكنها لم تكن مستعدة لإدراك مشاكل السلطة 'الخاصة'، فضلاً عن سلطة الشركات".⁽²⁶⁷⁾

طوّر رأساليو المراقبة، في هذا السياق، أيديولوجية "الليبرالية السيبرانية" التي يصفها فرانك باسكوالي بـ "أصولية حرية التعبير". وشدّدت فرقهم القانونية بشراسة على مبادئ التعديل الأول للدستور الأميركي لدرء أي شكل من أشكال المراقبة أو القيود المفروضة خارجياً، والتي تحدّ إما من المحتوى على منصّاتهم أو من "الترتيبات الخوارزمية للمعلومات" التي تنتجها عملياتهم الآلية.⁽²⁶⁸⁾ ووفقاً لأحد المحامين

(265) ستيفن جي. هيمان، "المحاضرة السنوية الثالثة لسي. إدوين بيكر عن الحرية والمساواة والديمقراطية: التحول المحافظ-الليبرالي في فقه التعديل الأول" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 8 أكتوبر/تشرين الأول 2014)، 300.

(266) هيمان، "المحاضرة السنوية الثالثة. إدوين بيكر"، 277؛ أندرو توت، "الخطاب الجديد".

(267) دانييل جي. إتش. غرينوود، "الفيدرالية الجديدة: الأسس المدهشة للحقوق الدستورية للشركات"، مجلة مراجعة قانون جامعة إلينوي 163 (2017): 166، 221.

(268) فرانك أ. باسكوالي، "المجال العام الآلي" (بحث في الدراسات القانونية، جامعة ماريلاند، 10 نوفمبر 2017).

الذين مثلوا أبرز رأسمالي المراقبة: "لدى المحامين العاملين لدى هذه الشركات أسباب تجارية لدعم حرية التعبير. وهذه الشركات كلها تتحدث في الواقع عن أعمالها انطلاقاً من مفهوم حرية التعبير". (269)

لا يُعتبرُ رأسماليو المراقبة غير مسبوقين في هذا الجانب. يقول آدم وينكلر، مؤرخ حقوق الشركات: "دأبت أقوى شركات البلاد، على مرّ التاريخ الأمريكي كله، على استخدام الدستور لمقاومة اللوائح الحكومية غير المرغوب فيها". (270) ومع أن التعبئة التي نشهدها اليوم ليست أصلية، توضحُ رواية وينكلر الدقيقة آثار التعبئة السابقة على توزيع السلطة والثروة في المجتمع الأمريكي، وقوة القيم والمبادئ الديمقراطية في كل عصر.

النقطة الأساسية في قصتنا في عصر رأسمالية المراقبة هي أن توسّع فرص التعبير الحر المرتبطة بالإنترنت شكّل قوة تحريرية في العديد من الجوانب الحيوية، لكن لا ينبغي لهذه الحقيقة أن تعمينا عن حالة أخرى: لقد غيّرت أصولية حرية التعبير إمكانية الفحص الدقيق في العمليات غير المسبوقة التي صاغت شكل السوق الجديد، وفسّرت نجاحه المذهل. كما استغلّ الدستور لحماية مجموعة من الممارسات الجديدة المناهضة للديمقراطية في أهدافها وعواقبها، والمدمرة أساساً لقيم التعديل الأول الثابتة الهادفة إلى حماية الفرد من السلطة المسيئة.

لعبت قوانين الكونغرس في الولايات المتحدة دورًا لا يقل أهمية، بل ربما أكثر، في حماية رأسمالية المراقبة من التدقيق. وأشهرها القانون التشريعي المعروف بالمادة 230 من قانون آداب الاتصالات لعام 1996، الذي يحمي مالكي المواقع الإلكترونية من الدعاوى القضائية وملاحقة الدولة بسبب محتوى معين أنشأه مستخدمون. ينصّ القانون على أنه "لا يجوز التعامل مع أي مزود خدمة، أو مستخدم لخدمة حاسوب تفاعلية، كناشر أو متحدث لأية معلومات يقدمها مزود محتوى معلومات آخر". (271)

(269) أموري، "نيويورك تايمز الجديدة"، 2259-2260.

(270) آدم وينكلر، نحن الشركات (نيويورك: دبليو دبليو نورتون، 2018)، 21.

(271) "المادة 230 من قانون آداب الاتصالات"، مؤسسة الحدود الإلكترونية.

هذا هو الإطار التنظيمي الذي يسمح لموقع مثل (TripAdvisor) بتضمين تقييمات سلبية للفنادق، ويسمح للمتصيدين العدوانيين على توير بالتجول بحرية دون أن تخضع أي من الشركتين لمعايير المساءلة التي توجه المؤسسات الإخبارية عادة. لقد رستخت المادة 230 فكرة أن المواقع الإلكترونية ليست جهات نشر، بل هي "وسطاء". وكما قال أحد الصحفيين: "إن مقاضاة منصة إلكترونية بسبب منشور بذيء أشبه بمقاضاة مكتبة نيويورك العامة لوجود نسخة من رواية لوليتا فيها".⁽²⁷²⁾ لكننا سنرى أن هذا المنطق انهار فوراً بعد دخول رأسالية المراقبة إلى المشهد.

توافق موقف المادة 230، الذي ينصّ على عدم التدخل في شؤون الشركات، تماماً مع أيديولوجية "التنظيم الذاتي" وممارساتها السائدة، مما أتاح لشركات الإنترنت، ولرأساليي المراقبة في نهاية المطاف، حرية التصرف كما يحلو لهم. وُضع هذا القانون عام 1995، خلال المرحلة الأولى من الإنترنت العام. وكان الهدف من ذلك توضيح مسؤولية الوسطاء عن المحتوى الموجود على مواقعهم الإلكترونية، وإنهاء الجدل الناجم عن قرارات متناقضين للمحكمة يتعلقان بمنشورات شهيرة.⁽²⁷³⁾ ففي عام 1991، قضت محكمة بأن شركة "كومبيو سيرف" غير مسؤولة عن التشهير لأنها لم تراجع محتوى المنشور قبل نشره على الإنترنت. ورأت المحكمة أن الشركة أشبه بمكتبة عامة أو متجر كتب أو كشك لبيع الصحف: أي أنها تمثل موزعاً وليس ناشراً.

بعد أربع سنوات، في عام 1995، رُفعت دعوى قضائية ضدّ شركة تُسمى "بروديجي"، إحدى أولى شركات تقديم خدمات الويب، بسبب منشور مجهول الهوية مُسيء للسمعة على إحدى منتدياتها. لكن محكمة نيويورك توصلت هذه المرة إلى قرار معاكس. وكانت المشكلة الرئيسة، كما رأت المحكمة، أن شركة "بروديجي" مارست سيطرة تحريرية من خلال إدارة منتدياتها. وضعت الشركة إرشادات للمحتوى

(272) كريستوفر زارا، "أهم قانون في مجال التكنولوجيا يواجه مشكلة"، وايرد، 3 يناير/ كانون الثاني 2017.

(273) ديفيد س. أوريا، "حرية التعبير: منقذ أم درع للمجرمين: دراسة تجريبية حول حصانة الوسيط بموجب المادة 230 من قانون آداب الاتصالات" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية)، 16 يونيو/ حزيران (2010).

وحذفت المنشورات التي انتهكت تلك المعايير. وخلصت المحكمة إلى أن "بروديجي" ناشر، وليست مجرد موزّع، لأنها تحمّلت مسؤولية المحتوى المنشور على موقعها. وفي حال صمود حكم المحكمة، ستواجه شركات الإنترنت "موقفًا متناقضًا لا مخرج منه: كلما حاول مزوّد خدمة الإنترنت إبعاد المواد الفاحشة أو الضارة عن مستخدميه، زادت مسؤوليته عنها".⁽²⁷⁴⁾ واجهت شركات الإنترنت خيارًا مزدوجًا: "هل تحمي حرية التعبير أم تكون درعًا واقياً للمجرمين؟"⁽²⁷⁵⁾

وفقًا للسيناتور رون وايدن، كان الهدف من المادة 230 هو حلّ هذا التناقض من خلال تشجيع شركات الإنترنت على ممارسة قدرٍ من المراقبة على المحتوى دون تعريضها لخطر العقوبات القانونية. تنصّ الجملة الأولى من القانون على "حماية حجب المواد المسيئة ومراقبتها من قِبل الجهات المعنية".⁽²⁷⁶⁾ ما لم يكن وايدن وزملاؤه يتوقعونه، وما زالوا يعجزون عن استيعابه، هو أن منطق هذا الجدل المبكر لم يعد قائمًا. لم تكن كومبيو سيرف ولا بروديجي من رواد رأسمالية المراقبة، لكن العديد من وسطاء الإنترنت اليوم ملتزمون بالسعي وراء عائدات المراقبة.

تغيّر هذه الحقيقة العلاقة بين الشركة والمحتوى الموجود على منصاتها بشكل أساسي، وتفسّر لماذا لا يمكن مقارنة رأسمالي المراقبة بمكتبة نيويورك العامة باعتبارها الوصي المحايد على رواية فلاديمير نابوكوف الموقر. بل على النقيض تمامًا. ففي ظلّ نظام رأسمالية المراقبة، يُعد المحتوى مصدرًا للفائض السلوكي، وكذلك سلوك مُقدمي المحتوى، وأنماط تواصلهم وتنقلهم، وأفكارهم ومشاعرهم، والبيانات الوصفية المعبر عنها في رموزهم التعبيرية، وعلامات التعجب، والقوائم، والاختصارات، والتحيات. أصبحت هذه الرواية الموجودة على الرفّ - إلى جانب سجلّ يشير إلى أي شخص لمسها، ومتى لمسها، وموقعه وسلوكه وشبكته الاجتماعية، وما إلى ذلك - منجم ألماس جاهزًا للتنقيب والنهب، وجاهزًا ليتم تحويله إلى بيانات

(274) بول إيرليتش، "قانون آداب الاتصالات رقم 230"، مجلة بيركلي لقانون التكنولوجيا 17 (2002): 404.

(275) أرديا، "حرية التعبير منقذ أم درع للمجرمين؟"
(276) انظر زارا، "القانون الأكثر أهمية في التكنولوجيا".

سلوكية تُغذّي بها الآلات في طريقها إلى تصنيع المنتجات وبيعها. إن حماية المادة 230 تشكّل الآن "للوّسطاء" حصناً منيعاً يحمي عملية رأسمالية المراقبة المرتبطة بالاستخراج من التدقيق النقدي.

لا شيء محايد بشأن وسيط المراقبة الآن، حيث أن ضرورة الاستخراج ومطالبتها باقتصاديات الحجم في توريد الفائض تعني أنه يُفترض برأسمالي المراقبة أن يستخدموا الوسائل كلها لجذب موجة واحدة لا تنتهي من المحتوى إلى شواطئهم. ولم تعد هذه الشركات تكتفي باستضافة المحتوى، بل تستخرج منه قيمةً بشكلٍ عدوانيٍّ وسريٍّ ومن جانبٍ واحد. وسنرى في الفصل الثامن عشر أن الضرورات الاقتصادية تُلزمها بالتخلّي عن أقلّ قدرٍ ممكن من هذه المواد الخام. وهذا يعني الحدّ فقط من التطرّف الذي يهدد حجم الفائض وسرعته من خلال نفور المستخدمين، أو جذب التدقيق التنظيمي. هذا هو السبب وراء تردد شركات مثل فيسبوك وغوغل وتويتر في إزالة حتى المحتوى الأكثر فظاعة من بيئاتها، وهذا يساعد في تفسير سبب "مقاضاة محامي شركات التكنولوجيا بشراسة لإعاقة أدنى قدر من التراجع" في المادة 230.⁽²⁷⁷⁾ فالقانون الذي وُضِعَ سابقاً لرعاية بيئة تكنولوجية جديدة مهمة أصبح الآن بمنزلة حصن قانوني يحمي الثروة غير المتكافئة والمعرفة والقوة للرأسمالية السيئة.

4.. ملاذ: استثنائية المراقبة

يقول ديفيد ليون، الباحث في مجال المراقبة، في كتابه بعنوان: "المراقبة بعد 11 سبتمبر"، إنه في أعقاب الهجمات التي وقعت في ذلك اليوم، كُثِفَت ممارسات المراقبة، ورُفِعَت القيود السابقة: "بعد عدة عقود حاول فيها مسؤولو حماية البيانات، ومراقبو الخصوصية، وجماعات الحقوق المدنية، وغيرهم التخفيف من الآثار الاجتماعية السلبية للمراقبة، نشهد الآن ميلاً حاداً نحو ممارسات مراقبة أكثر استبعاداً وتطفلاً".⁽²⁷⁸⁾ إن إعادة التركيز المفاجئ للسلطة والسياسة الحكومية، بعد هجمات

(277) زارا.

(278) ديفيد ليون، المراقبة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر: مواضع القرن الحادي والعشرين

الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول في مدينة نيويورك وواشنطن العاصمة، هي حالة تاريخية ثانية منحت ملاذًا لشكل السوق الناشئ.

إن وصف ليون دقيق⁽²⁷⁹⁾ في السنوات التي سبقت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، برزت لجنة التجارة الفيدرالية بوصفها جهة فاعلة رئيسة في تحديد مسار النقاش حول خصوصية الإنترنت في الولايات المتحدة. ولأسباب استعراضها سابقًا، فضّلت لجنة التجارة الفيدرالية مبدأ التنظيم الذاتي، وتملّقت شركات الإنترنت لإقناعها بوضع قواعد سلوك وسياسات خصوصية وآليات تنفيذ قوانين⁽²⁸⁰⁾. لكن لجنة التجارة الفيدرالية خلصت في النهاية إلى أن التنظيم الذاتي لن يكون كافيًا لحماية خصوصية المستهلكين الأفراد على شبكة الإنترنت. وفي عام 2000، أي قبل عام واحد من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أو اكتشاف غوغل للفائض السلوكي، أو

(مالدين، ماساتشوستس: بوليتي، 2003)، 7: جينيفر إيفانز، "اختطاف الحريات المدنية: قانون باتريوت الأمريكي لعام 2001"، مجلة جامعة لويولا شيكاغو للقانون، 33، العدد 4 (2002): 933؛ بول تي. جايفر، وجون كارلو بيرتو، وتشارلز آر. ماكور، "تأثير قانون باتريوت الأمريكي على جمع وتحليل المعلومات الشخصية بموجب قانون مراقبة الاستخبارات الأجنبية"، مجلة المعلومات الحكومية الفصلية، العدد 20، العدد 3 (2003): 295-314.

(279) تعود الموجة الأولى من تشريعات الخصوصية الموجهة للمستهلك في الولايات المتحدة إلى سبعينيات القرن الماضي، حيث صدرت مشاريع قوانين بارزة في الكونغرس الأمريكي، مثل قانون الإبلاغ الانتمائي العادل عام 1970 ومبادئ ممارسات المعلومات العادلة عام 1973. واعتمدت منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية مجموعة قوية من المبادئ التوجيهية المتعلقة بالخصوصية عام 1980، ودخل أول توجيه لحماية البيانات للاتحاد الأوروبي حيز التنفيذ عام 1998. انظر: بيتر سواير، "الموجة الثانية من حماية الخصوصية العالمية: مقدمة الندوة"، مجلة قانون ولاية أوهايو، المجلد 74، العدد 6 (2013)، 842-843؛ بيتر بي. سواير، "الخصوصية وتبادل المعلومات في الحرب على الإرهاب"، مجلة فيلانوفيا للقانون، المجلد 51، العدد 4 (2006): 915؛ إبراهيم الطويل، وناثانيل جود، وكريس جاي هوفناغل، "تعداد خصوصية الويب"، مجلة العلوم التكنولوجية، 15 ديسمبر 2015.

(280) سواير، "الخصوصية ومشاركة المعلومات"، 951؛ سواير، "الموجة الثانية: هوفناغل، لجنة التجارة الفيدرالية: برودي موليز، رولف وينكلر، وبرينت كيندال، "موظفو لجنة التجارة الفيدرالية أرادوا مقاضاة غوغل"، وول ستريت جورنال، 20 مارس 2015؛ دانيال جيه. سولوف وودرو هارتوغ، "لجنة التجارة الفيدرالية والقانون العام الجديد للخصوصية"، مجلة كولومبيا للقانون، 114، العدد 3 (2014): 583-676؛ برايان فونغ، "بُنيت لجنة التجارة الفيدرالية قبل 100 عام لمحاربة المحتكرين. والآن، أصبحت أقوى شرطة تكنولوجيا في واشنطن"، واشنطن بوست، 25 سبتمبر 2014؛ ستيفن لاباتون، "تحول الإشارات التنظيمية: لجنة التجارة الفيدرالية تُمثل دراسة حالة للاختلافات في عهد بوش"، نيويورك تايمز، 12 يونيو 2001؛ تانزينا فيجا وإدوارد وايت، "وكالة أميركية تسعى إلى فرض قواعد أكثر صرامة بشأن خصوصية المستهلك"، نيويورك تايمز، 26 مارس/ آذار 2012.

نجاح برنامج "آد ووردز"، أصدر غالبية مفوضي لجنة التجارة الفيدرالية تقريرًا أوصوا فيه بإيجاد تشريع لتنظيم الخصوصية على الإنترنت قالوا فيه: "بما أن مبادرات التنظيم الذاتي التي حدثت حتى الآن لا ترقى إلى مستوى التنفيذ واسع النطاق لبرنامج التنظيم الذاتي، فقد خلصت اللجنة إلى أن هذه الجهود وحدها لا يمكن أن تضمن التزام السوق الإلكترونية بشكل عام بالمعايير التي وضعها رواد الصناعة.... على الرغم من عدة سنوات من جهود بذلتها الصناعة والحكومة". وأشار التقرير إلى أن 8٪ فقط من المواقع الإلكترونية الشهيرة تحمل ختم موافقة من إحدى هيئات مراقبة الخصوصية في الصناعة.⁽²⁸¹⁾

بدأ المفوضون بتوضيح التشريعات الفيدرالية التي كان من شأنها حماية المستهلكين عبر الإنترنت على الرغم من الانحياز السائد ضد التنظيم، ولصالح التعامل مع عمليات الإنترنت بوصفها حرية تعبير. وطالبت التوصيات ببيان "واضح وجلي" حول المعلومات؛ تخيير المستهلك بشأن كيفية استخدام المعلومات الشخصية؛ والوصول إليها، بما في ذلك الحق في التصحيح أو الحذف؛ وتعزيز أمنه.⁽²⁸²⁾ ولو

(281) روبرت بيتوفسكي وآخرون، "الخصوصية على الإنترنت: ممارسات المعلومات العادلة في السوق الإلكترونية: تقرير لجنة التجارة الفيدرالية المقدم إلى الكونجرس"، لجنة التجارة الفيدرالية، 1 مايو/أيار 2000، ص 35.

(282) بيتوفسكي وآخرون، "الخصوصية على الإنترنت"، 36-37. سيحدد التشريع المقترح مستوى أساسيًا لحماية الخصوصية لجميع زيارات المواقع الإلكترونية التجارية الموجهة للمستهلكين، وذلك بالقدر الذي لم ينص عليه قانون حماية خصوصية الأطفال على الإنترنت. سيحدد هذا التشريع المعايير الأساسية للممارسة التي تُنظّم جمع المعلومات على الإنترنت، ويُخَوّل الجهة المُنفّذة صلاحية إصدار معايير أكثر تفصيلًا بموجب قانون الإجراءات الإدارية، بما في ذلك صلاحية إنفاذ هذه المعايير. سيُطلب من جميع المواقع الإلكترونية التجارية الموجهة للمستهلكين، والتي تجمع معلومات تعريف شخصية من المستهلكين أو عنهم على الإنترنت، بالقدر الذي لا يشمل قانون COPPA، الامتثال لممارسات المعلومات العادلة الأربع المقبولة على نطاق واسع:

(1) الإشعار. يُطلب من مواقع الويب تزويد المستهلكين بإشعار واضح وجلي حول ممارساتها المتعلقة بالمعلومات، بما في ذلك المعلومات التي تجمعها، وكيفية جمعها (مثلاً، مباشرة أو من خلال وسائل غير واضحة مثل ملفات تعريف الارتباط)، وكيفية استخدامها، وكيفية توفيرها للاختيار والوصول والأمان للمستهلكين، وما إذا كانت تكشف عن المعلومات المجمعة لجهات أخرى، وما إذا كانت هذه الجهات تجمع معلومات من خلال الموقع.

(2) (٢) الخيار. سيُطلب من المواقع الإلكترونية منح المستهلكين خيارات بشأن كيفية استخدام معلوماتهم الشخصية التعريفية، بما يتجاوز الاستخدام الذي قُدّمت من أجله (مثل إتمام معاملة).

تُرجمت هذه المبادئ إلى قانون، لكان من الممكن جدًا أن يصبح الكثير من عناصر رأسمالية المراقبة الأساسية غير قانوني بشكل واضح، أو خاضعًا للفحص العام، أو مثار خلاف على الأقل.

لم تعش جهود لجنة التجارة الفيدرالية فترة طويلة. ووفقًا لبيتر سواير، كبير مستشاري الخصوصية في فترة رئاسة كلينتون، ولاحقًا عضو في مجموعة مراجعة تقنيات الاستخبارات والاتصالات في فترة رئاسة أوباما، "مع هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001، تغير كل شيء. أصبح التركيز الجديد منصبًا بشكل كبير على الأمن، وليس على الخصوصية".⁽²⁸³⁾ تلاشت أحكام الخصوصية التي نوقشت قبل أشهر قليلة من وقوع الحدث بين عشية وضحاها تقريبًا. وسرعان ما سُنت تشريعات توسع أنشطة المراقبة بشكل أساسي في كلٍّ من الكونغرس الأمريكي والاتحاد الأوروبي. إذ أقر الكونغرس الأمريكي قانون باتريوت، وأنشأ برنامج فحص الإرهابيين، وفرض مجموعة تدابير أخرى زادت بشكل كبير من إمكانية جمع المعلومات الشخصية دون إذن قضائي. كما أدت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى سيل متواصل من التشريعات التي وسّعت صلاحيات وكالات الاستخبارات وإنفاذ القانون في مختلف أنحاء أوروبا، بما في ذلك ألمانيا (وهي دولة كانت شديدة الحساسية للمراقبة تحت مطرقة الشمولية النازية والستالينية)، والمملكة المتحدة، وفرنسا.⁽²⁸⁴⁾

وبشمل هذا الخيار الاستخدامات الثانوية الداخلية (مثل التسويق للمستهلكين) والاستخدامات الثانوية الخارجية (مثل الإفصاح عن البيانات لجهات أخرى).

(3) الوصول. يتعين على مواقع الويب أن توفر للمستهلكين إمكانية وصول معقولة إلى المعلومات التي جمعها الموقع عنهم، بما في ذلك فرصة معقولة لمراجعة المعلومات وتصحيح الأخطاء أو حذف المعلومات.

(4) الأمان. يُطلب من مواقع الويب اتخاذ خطوات معقولة لحماية أمن المعلومات التي تجمعها من المستهلكين.

(283) سواير، "الموجة الثانية"، 845.

(284) بول إم. شوارتز، "الوصول الحكومي المنهجي إلى بيانات القطاع الخاص في ألمانيا"، قانون خصوصية البيانات الدولي 2، رقم 4 (2012): 289، 296؛ إيان براون، "الوصول الحكومي إلى بيانات القطاع الخاص في المملكة المتحدة"، قانون خصوصية البيانات الدولي 2، رقم 4 (2012): 230، 235؛ ديليو. غريغوري فوس، "بعد غوغل وإسبانيا وتشارلي إبدو: التطور المستمر لقانون خصوصية البيانات في الاتحاد الأوروبي في زمن التغيير"، محامي الأعمال 71، رقم 1 (2015): 281؛ مارك سكوت، "أوروبا، التي تهتز بسبب هجمات باريس، توازن الأمن مع حقوق الخصوصية"، مدونة نيويورك تايمز-بتس، 18 سبتمبر 2015؛ فرانك أ.

كان فشل الولايات المتحدة في ربط تفاصيل الهجوم الإرهابي مصدرًا للقلق والعار طغى على مخاوف أخرى. وتحوّلت إرشادات السياسات من "الحاجة إلى المعرفة" إلى "الحاجة إلى المشاركة"، حيث طالبت الوكالات بهدم الحواجز ودمج قواعد البيانات للحصول على معلومات وتحليلات شاملة.⁽²⁸⁵⁾ وفي تطوّر موازٍ، يلاحظ الباحث في شؤون الخصوصية، كريس جاي هوفناغل، أن التهديد بتسريع شامل للخصوصية قد حشد أيضًا مجتمع الأعمال، وجماعات الضغط التابعة له، "لتنفيذ" أي مشروع قانون مُحتمل أو "إيقافه". في البيئة السياسية التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، تلاقت القوتان لتحقيق نصر سهل.⁽²⁸⁶⁾

كان الإنترنت هو الهدف الرئيس. وأقرّ مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، مايكل هايدن، بذلك عام 2013 عندما أخبر الحضور أنه في السنوات التي أعقبت أحداث الحادي عشر من سبتمبر، "كان بالإمكان تكليف وكالة المخابرات المركزية بعسكرة شبكة الإنترنت العالمية".⁽²⁸⁷⁾ كانت الضحية الفورية هي تشريع تنظيم الخصوصية على الإنترنت. وقد أدلى مارك روتنبرغ، مدير مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية (EPIC)، بشهادته أمام لجنة الحادي عشر من سبتمبر بشأن التراجع المفاجئ في مخاوف الخصوصية، وصرّح أنه قبل وقوع الحدث، "لم يكن هناك أي نقاش

باسكوالي، "الخصوصية ومكافحة الاحتكار والسلطة"، مراجعة قانون جورج ماسون 20، رقم 4 (2013): 1009-1024؛ أليسا جي. روبين، "المشرعون في فرنسا يتحركون لتوسيع المراقبة بشكل كبير"، نيويورك تايمز، 5 مايو/ أيار 2015؛ جورجينا برودهام ومايكل نيناير، "ميركل تحث الألمان على التخلي عن الخوف من البيانات الضخمة"، رويترز، 9 يونيو/ حزيران 2015.

(285) ريتشارد أ. كلارك وآخرون، تقرير وكالة الأمن القومي: الحرية والأمن في عالم متغير (برنستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برنستون، 2014)، 27، 29؛ ديكلان ماكولا، "كيف أعادت هجمات 11 سبتمبر تشكيل نقاش الخصوصية في الولايات المتحدة"، سي نت، 9 سبتمبر 2011. يصف تقرير وكالة الأمن القومي، الذي أعدته لجنة المراجعة الرئاسية عام 2013، مهمة الاستخبارات التي أتاحت ذلك: "كانت هجمات 11 سبتمبر دليلاً واضحاً على الحاجة إلى معلومات مفصلة حول أنشطة الإرهابيين المحتملين... بعض المعلومات، التي كان من الممكن أن تكون مفيدة، لم تُجمع، ومعلومات أخرى، كان من الممكن أن تساعد في منع الهجمات، لم تُتبادل بين الإدارات... شيء واحد بدا واضحاً: إذا كانت الحكومة حذرة للغاية في جهودها للكشف عن الهجمات الإرهابية ومنعها، فإن العواقب على الأمة قد تكون كارثية".

(286) هوفناغل، لجنة التجارة الفيدرالية، 158.

(287) انظر أندريا بيترسون، "مدير سابق لوكالة الأمن القومي ووكالة المخابرات المركزية يقول إن الإرهابيين يحبون استخدام جي ميل"، واشنطن بوست، 15 سبتمبر/ أيلول 2013.

إيجابي حول تطوير تقنيات من شأنها تمكين المراقبة الشاملة أثناء محاولة حماية الخصوصية".⁽²⁸⁸⁾ واتفق سواير مع هذا الرأي، مشيرًا إلى أنه نتيجةً للتركيز الجديد على تبادل المعلومات، "فقد الكونغرس اهتمامه بتنظيم استخدام المعلومات في القطاع الخاص... فمن دون التهديد بالتشريع، نفذت طاقة الكثير من جهود التنظيم الذاتي التي بذلتها الصناعة".⁽²⁸⁹⁾ وتحول التركيز في لجنة التجارة الفيدرالية من المخاوف الواسعة بشأن حقوق الخصوصية إلى استراتيجية "مستندة إلى الأضرار" أكثر قبولاً من الناحية السياسية، ومتابعة القضايا التي يمكن فيها تعريف الأضرار الجسدية الملموسة أو الإصابات الاقتصادية، مثل سرقة الهوية أو أمن قواعد البيانات.⁽²⁹⁰⁾

مع غياب التشريعات، ساهمت قوى أخرى في تشكيل بيئة سياسية تجذرت فيها رأسمالية المراقبة ونمت. دفعت الهجمات الإرهابية مجتمع الاستخبارات إلى طلب غير مألوف تم التشديد فيه على زيادات هائلة في السرعة. وعلى الرغم من كل ما تتمتع به وكالة الأمن القومي من سرية، فقد كانت خاضعة للقيود الزمنية والقانونية لدولة ديمقراطية. إن إيقاعات الديمقراطية بطيئة بطبيعتها، ومُثقلةً بالتكرار والضوابط والتوازنات والقوانين والقواعد. سعت الوكالات إلى أساليب نشر تمكّنها من تجاوز القيود القانونية والبيروقراطية بسرعة.

في ظل هذه البيئة التي تفيض بالرضوض والقلق، استحضرت "حالة الاستثناء" لإضفاء شرعية على ضرورة جديدة: سرعة بأي ثمن كان. ووفقاً لما قاله ليون، "أدت تلك الهجمات الإرهابية إلى نتائج اجتماعية سلبية كانت حتى ذلك الحين مادة للأنظمة القمعية والروايات الديستوبية"⁽²⁹¹⁾... أصبح إيقاف أية ظروف طبيعية مبرراً بإحالاته إلى فكرة 'الحرب على الإرهاب'".⁽²⁹²⁾ النقطة المهمة الأساسية في هذه القصة كلها

(288) مارك روتنبرغ، "الأمن والحرية: حماية الخصوصية ومنع الإرهاب"، شهادة أمام اللجنة الوطنية للهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة، 2003.

(289) سواير، "الموجة الثانية"، 846.

(290) هوفنغل، لجنة التجارة الفيدرالية، الفصل السادس.

(291) الديستوبيا هي مجتمع خيالي يتسم بالبؤس والقمع والظلم، وهي عكس اليوتوبيا، "المدينة الفاضلة" (الترجم).

(292) ليون، المراقبة بعد 11 سبتمبر 15.

هو أن "حالة الاستثناء" هذه كانت لمصلحة نمو غوغل والتطور الناجح لمنطقها القائم على المراقبة والتراكم.

قامت مهمة غوغل على "تنظيم المعلومات العالمية وإتاحتها"، وفي أواخر عام 2001، رسّخت وكالات الاستخبارات "هيمنة المعلومات" في المجال العام، وسرعان ما اتخذت طابعاً مؤسسياً في بنية تحتية تكنولوجية عالمية، وأفراد وممارسات، ترعاهم الدولة، وتصل قيمتها إلى مئات مليارات الدولارات. وبدأت تظهر ملامح علاقة متبادلة جديدة بين وكلاء الهيمنة على المعلومات في القطاعين العام والخاص، تلك العلاقة التي يمكن أن نفهمها بأفضل صورة ممكنة من خلال ما أطلق عليه ماكس فيبر ذات مرة اسم "قراءة اختيارية" تولد من جاذبية متبادلة تنشأ من المعاني والاهتمامات والمعاملات المشتركة.⁽²⁹³⁾

ازدهرت القراءة الاختيارية بين وكالات الاستخبارات العامة وشركة غوغل الناشئة في مجال رأسمالية المراقبة في خضمّ حالة الطوارئ لنتيج تشوّها تاريخياً فريداً من نوعه: استثنائية المراقبة. غيرت الهجمات الإرهابية اهتمام الحكومة بشركة غوغل، فأعيدت صياغة الممارسات، التي كانت تتدحرج بسرعة قبل ساعات قليلة باتجاه العمل التشريعي، بوصفها ضرورات حيوية. تآقت كلتا المؤسستين إلى اليقين، وكانتا عازمتين على إشباع هذا التوق في مجاليهما بأي ثمن. وساندت هذه "القرابات الاختيارية" استثنائية المراقبة، وساهمت في تهيئة بيئة خصبة تغذي طفرة رأسمالية المراقبة لكي تزدهر.

كانت تلك القراءة الاختيارية بين وفود القطاعين العام والخاص واضحة من مطلع عام 2002، عندما اقترح رئيس وكالة الأمن القومي السابق الأدميرال جون بويندكستر برنامج "الوعي المعلوماتي الشامل" (TIA) برؤية يمكن اعتبارها دليلاً مبكراً على الآليات الأساسية لالتقاط الفائض السلوكي وتحليله:

(293) ريتشارد هيربرت هاو، "التقارب الاختياري لماكس فيبر: علم الاجتماع ضمن حدود العقل الخالص"، المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع 84، عدد 2 (1978): 366-385.

إذا رغبت المنظمات الإرهابية بالتخطيط لهجمات إرهابية ضد الولايات المتحدة وتنفيذها، فلا بد أن ينخرط أفرادها في معاملات ضمن الفضاء المعلوماتي، وسيتركون بصماتهم فيه..... وينبغي أن نكون قادرين على التقاط هذه الإشارات ضمن هذا الضجيج كله.... ويجب توفير المعلومات ذات الصلة، المستخرجة من هذه البيانات، في مستودعات ضخمة مع محتوى دلالي يعزز التحليل من أجل تحقيق هذه المهمة. (294)

أعلن مدير وكالة المخابرات المركزية جورج تينيت في عام 1997، أن "وكالة المخابرات المركزية بحاجة إلى السباحة في وادي السيليكون"، في إشارة إلى الحاجة إلى إتقان التكنولوجيات الجديدة المتدفقة من وادي السيليكون. (295) وفي عام 1999، افتُتحت في الوادي شركة "إن-كيو-تيل" (In-Q-Tel) الاستثمارية الممولة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، لتكون قناة لنقل أحدث التقنيات. وكان يُفترض أن تكون هذه العملية أشبه بتجربة للوكالة، لكنها أصبحت بعد الهجمات مصدرًا حيويًا لقدرات وعلاقات جديدة، بما في ذلك علاقتها مع غوغل. وكما أشارت صحيفة ميركوري نيوز في وادي السيليكون، "ثمة حاجة ملحة لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية لإيجاد تقنية تُفسّر جميع البيانات غير المنظمة المنتشرة على الإنترنت، وفي أماكن أخرى. فالوكالة لا تستطيع تدريب المحللين بالسرعة الكافية". ووصف الرئيس التنفيذي لشركة "إن-كيو-تيل" الوكالات الحكومية بأنها "مضطربة"، وقال إننا "في حالة نشاط مفرط الآن". (296)

ازدهرت استثنائية المراقبة في ظل هذا النشاط المكثف. لم يحظَ برنامج بويندكستر، "الوعي المعلوماتي الشامل"، بدعم الكونغرس، لكن أظهر تحليل نشرته مجلة "إم آي تي" تكنولوجي ريفيو "أن كثيرًا من مبادرات برنامج "الوعي المعلوماتي الشامل" أُعيد توزيعها بهدوء على قسم "نشاط البحث والتطوير المتقدم" (ARDA) التابع للبيتاغون،

(294) انظر جو فيورهيرد، "الوعي المعلوماتي الشامل يُعرض الحقوق المدنية للخطر، كما يقول النقاد"، المراسل الوطني الكاثوليكي، 29 نوفمبر/ تشرين الثاني 2002.

(295) انظر مات مارشال، "التجسس على الشركات الناشئة"، ميركوري نيوز، 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 2002.

(296) مارشال، "التجسس على الشركات الناشئة".

والذي تلقى عام 2002 مبلغ 64 مليون دولار لتمويل برنامج بحثي في مجال "المعلومات الاستخباراتية الجديدة من البيانات الضخمة". وفي عام 2004، قام مكتب المحاسبة العامة في الولايات المتحدة بمسح 199 مشروعًا لاستخراج البيانات عبر عشرات الوكالات الفيدرالية، وأكثر من 120 برنامجًا تم تطويرها لجمع البيانات الشخصية للتنبؤ بالسلوك الفردي وتحليلها.⁽²⁹⁷⁾ وأشارت صحيفة نيويورك تايمز في عام 2006 إلى أن وكالات الاستخبارات، المدعومة بميزانية سنوية قدرها 40 مليار دولار، كانت ترسل بانتظام بعثات تسوق سرية إلى وادي السيليكون بحثًا عن تقنيات جديدة لاستخراج البيانات وتحليلها.⁽²⁹⁸⁾

بحثت أجهزة الأمن الحكومية عن طرق تستفيد فيها من قدرات غوغل سريعة التطور، واستخدام غوغل في الوقت نفسه لمزيد من تطوير تقنيات الأمن والمراقبة ذات القيمة الاستخباراتية المؤكدة وتسويقها ونشرها. إذا كان من الصعب تطوير وكالة الاستخبارات المركزية (TIA)، ودمجها بالكامل في واشنطن، فقد تُفَوَّض بعض المهام إلى وادي السيليكون، وشركته الرائدة في مجال الهيمنة على المعلومات: غوغل. وحصلت غوغل، أواخر صيف عام 2003، على عقد بقيمة 2.07 مليون دولار لتزويد الوكالة بتقنية بحث غوغل. وبحسب وثائق حصلت عليها منظمة مراقبة المستهلك بموجب قانون حرية المعلومات، دفعت وكالة الأمن القومي الأميركية لشركة غوغل ثمن "جهاز يستطيع البحث في 15 مليون وثيقة، بأربع وعشرين لغة". وفي شهر أبريل/ نيسان عام 2004، مدّدت غوغل خدماتها مدّة عام آخر دون أية كلفة إضافية.⁽²⁹⁹⁾

في عام 2003، بدأت شركة غوغل أيضًا في تعديل محرك البحث الخاص بها

(297) مارك ويليامز بونتين، "مشروع الوعي المعلوماتي الشامل لا يزال قائمًا"، مجلة إم أي تي تكنولوجي ريفيو، 26 أبريل/ نيسان 2006.

(298) جون ماركوف، "مع رفع مستوى التجسس، تبحث الوكالات عن المزيد من الطرق لاستخراج البيانات"، نيويورك تايمز، 25 فبراير/ شباط 2006.

(299) داخل غوغل، "ضائعون في السحابة: غوغل والحكومة الأميركية"، منظمة مراقبة المستهلك، يناير/ كانون الثاني 2011.

بموجب عقد خاص مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، لصالح مكتب إدارة (Intelink) التابع لوكالة الاستخبارات، "وهو مكتب يُشرف على شبكات داخلية سرية، وحساسة للغاية، لكنها غير مصنفة لوكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من وكالات الاستخبارات".⁽³⁰⁰⁾ استخدمت الوكالات الرئيسة أنظمة غوغل لدعم "منصة تعاونية داخلية على شبكة الإنترنت" تُسمى (Intellipedia)، وهي منصة تسمح للوكلاء مشاركة المعلومات عبر المؤسسات بالسرعة التي تلتقطها بها الأنظمة الجديدة.⁽³⁰¹⁾ وفي عام 2004، امتلكت شركة غوغل شركة "كي هول" (keyhole)، وهي شركة أسسها جون هانك لرسم خرائط عبر الأقمار الصناعية، وكان الداعم الرئيس للمشروع شركة "إن كيو تيل" التابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وستصبح شركة "كي هول" العمود الفقري لبرنامج "غوغل إيرث" (Google Earth)، وسيواصل هانك رسم خرائط غوغل بها في ذلك مشروع "ستريت فيو" (Street View) المثير للجدل. وفي عام 2009، استثمرت شركة "غوغل فينتشرز" و"إن-كيو-تيل" في شركة ناشئة مقرها بوسطن، تُدعى "ريكورد فيوتشر"، وهي شركة تراقب جوانب الإنترنت كلها لحظيًا للتنبؤ بأحداث مستقبلية. وأفادت مجلة "وايرد" أنها المرة الأولى التي تمّول فيها شركة المشاريع المدعومة من الاستخبارات المركزية وشركة غوغل الشركة الناشئة ذاتها، وأن الشركتين كلتيهما لهما مقاعد في مجلس إدارة "ريكورد فيوتشر".⁽³⁰²⁾

في العقد الذي أعقب الهجمات، تم التعبير عن استثنائية المراقبة أيضًا في المحاكاة، حيث حاولت وكالة الأمن القومي أن تتشبه بشركة غوغل من خلال محاكاة قدراتها وتطبيق ما تتعلّمه منها في مجالات مختلفة. وفي عام 2006، حدّد الجنرال كيث ألكسندر رؤيته لأداة بحث تُسمى (ICREACH)، "تسمح بمشاركة كميات غير

(300) نافذ أحمد، "كيف صنعت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية غوغل"، مدونة ميديوم، 22 يناير 2015.

(301) فيرن كوبيتوف، "غوغل له علاقة كبيرة بالذكاء"، SFGate، 30 مارس 2008.

(302) نوح شاختمان، "حصري: غوغل ووكالة المخابرات المركزية تستثمران في "مستقبل مراقبة الويب"، وايرد، 28 يوليو/تموز 2010.

مسبوقه من البيانات الوصفية وتحليلها عبر العديد من وكالات الاستخبارات". وفي أواخر عام 2007، بدأ البرنامج تجريبياً، وازداد عدد أحداث الاتصالات التي شاركها من 50 ملياراً إلى أكثر من 850 ملياراً. وصُمِّمَ النظام بواجهة بحث "غوغل لايك" (google-like)، التي تمكّن المحللين من إجراء عمليات بحث ضدّ "ناخبات" البيانات الضخمة، واستخراج فائض سلوكي حيوي للتحليلات التي يمكن أن تكشف عن "الشبكات الاجتماعية" و"أنماط الحياة" و"العادات"، و"التنبؤ بالسلوك المستقبلي" بشكل عام.⁽³⁰³⁾ في عام 2007، وضعَ محلّان من وكالة الأمن القومي كتيّب تدريب داخلي يتعلّق بكيفية البحث عن المعلومات عبر الإنترنت. وعبّر الدليل عن اهتمام الوكالة الشديد بكل ما يتعلّق بشركة غوغل، مع تخصيص قسم مفصّل لتفكيك محرّك بحث غوغل و"اختراقات" غوغل التي يمكن أن تكشف معلومات غير مخصصة للنشر العام.⁽³⁰⁴⁾

في ذلك العام، سلّط الضوء أيضاً على "القراءة الاختيارية" التي رسّخت اهتمام وكالات الاستخبارات بشركة غوغل عندما قدّم مدير البحث في غوغل وخبير الذكاء الاصطناعي بيتر نورفيغ عرضاً في اجتماع "متنّدي مرتفعات البنتاغون": حدثٌ للتواصل الحصري بين مسؤولين عسكريين واستخباراتيين مع أعضاء صناعة التكنولوجيا الفائقة والمسؤولين المنتخبين ونخبة الأكاديميين وكبار المدراء التنفيذيين للشركات، ومقاولي وزارة الدفاع. في عام 2001، تحدّث مدير المتنّدي، ريتشارد أونيل، عن عمله أمام جمهور هارفارد واصفاً إياه بأنه "محرّك للأفكار، لذلك فإن الأفكار التي تنشأ عن هذه الاجتماعات مُتاحة ليستخدامها صنّاع القرار، وكذلك من هم في مراكز الفكر".⁽³⁰⁵⁾ وكان يُفترض أن يكون بمنزلة جسر يربط بين الحكومة

(303) ريان غالاجر، "محرّك المراقبة: كيف بنت وكالة الأمن القومي محرّك غوغل السري الخاص بها"، إنترسبت (مدونة)، 25 أغسطس/ آب 2014.

(304) روبين ويندر وتشارلي سبايت، "فك تشابك الويب: مقدمة لأبحاث الإنترنت"، مركز وكالة الأمن القومي للمحتوى الرقمي، مارس/ آذار 2013.

(305) ريتشارد أونيل، ندوة حول الاستخبارات والقيادة والسيطرة (كامبريدج، ماساتشوستس: هايلاندز فورومز، 2001).

وقادة القطاع التجاري، ولا سيما في وادي السيليكون.⁽³⁰⁶⁾ ووفقاً لرواية مفصلة للغاية خطتها الصحفي الاستقصائي نافذ أحمد، ونقلتها الباحثة القانونية ماري آن فرانكس، كان المنتدى بمنزلة نظام دعم لنمو غوغل وحاضنها، فضلاً عن كونه قوة ربط وتوافق بين البنتاغون ووكالات الاستخبارات والشركة الناشئة: "لقد احتضنت أجهزة الاستخبارات الأميركية شركة غوغل منذ البداية من خلال مزيج من الرعاية المباشرة، وشبكات نفوذ مالي غير رسمية كانت بدورها متوافقة بشكل وثيق مع مصالح البنتاغون".⁽³⁰⁷⁾ ووصف باحث قانوني آخر "التعاون" بين غوغل ووكالات الاستخبارات، ولا سيما وكالة الأمن القومي، بأنه "غير مسبوق".⁽³⁰⁸⁾

لاحظ الباحثون، خلال هذه السنوات، زيادة في الروابط بين وكالات الاستخبارات التي تشعر بالاستياء من القيود الدستورية على صلاحياتها، وشركات وادي السيليكون.⁽³⁰⁹⁾ حيث كانت تتوق إلى حالة الفوضى التي تتمتع بها شركة مثل غوغل. لاحظ أستاذ القانون جاك بالكين، في مقاله الصادر عام 2008 بعنوان: "الدستور في دولة المراقبة الوطنية"، أن الدستور يعيق سعي الجهات الحكومية الحثيث وراء أجندتها في المراقبة، وهو ما يشجع الحكومة على "الاعتماد على الشركات الخاصة

(306) ماري آن فرانكس، "المراقبة الديمقراطية" (بحث منشور في شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 2 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016).

(307) أحمد، "كيف صنعت وكالة المخابرات المركزية شركة غوغل".

(308) ستيفاني أ. ديفوس، "تحالف غوغل ووكالة الأمن القومي: تطوير سياسة الأمن السيبراني بسرعة الإنترنت"، مجلة فوردهام لقانون الملكية الفكرية والإعلام والترفيه 21، رقم 1 (2011): 173-227.

(309) تجلّت أوجه التشابه الاختيارية التي ربطت عمليات الحكومة بغوغل ومشروع المراقبة التجارية الأوسع نطاقاً في العقد الذي تلا أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث سعت وكالة الأمن القومي (NSA) جاهدة لتصبح أشبه بغوغل، من خلال تحليل قدراتها ودمجها في مجالات متنوعة. لمزيد من التفاصيل، انظر: "ضائعون في السحابة: غوغل والحكومة الأمريكية"، أحمد، "كيف صنعت وكالة المخابرات المركزية الأميركية غوغل"، فيرن كوبيتوف، "لغوغل علاقة وطيدة بالاستخبارات"، SFGate، 30 مارس 2008؛ "غوغل تستحوذ على شركة Keyhole Corp – News Announcements"، غوغل بريس، 27 أكتوبر 2004؛ جوش ج. ليرنر وآخرون، "إن كيو تيل" القضية 146-804"، منشورات كلية هارفارد للأعمال، فبراير 2004، 1-20؛ ويندر وسبايت، "فك تشابك الويب"، غالغر، "محرك المراقبة"، إلين ناكاشيما، "غوغل تستعين بوكالة الأمن القومي لمساعدتها في صد الهجمات الإلكترونية"، واشنطن بوست، 4 فبراير/ شباط 2010؛ مايك سكارسيلا، "وزارة العدل تطلب من المحكمة إبقاء أي شراكة بين غوغل ووكالة الأمن القومي سرية"، مدونة ليجال تايمز، 9 مارس/ آذار 2012، ص 202؛ شين هاريس، صعود المجمع العسكري – الإنترنت (بوسطن: هوتون ميفلين هاركورت، 2014)، ص 175.

لجمع المعلومات وتوليدها".⁽³¹⁰⁾ أشار بالكين إلى أن المحكمة العليا لم تفرض سوى القليل من قيود الخصوصية على سجلات الأعمال والمعلومات التي يقدمها الأشخاص لطرف ثالث. فعادةً ما يُحفظ البريد الإلكتروني في خوادم خاصة، مما يجعل حمايته "محدودة إن لم تكن معدومة". وقد ساهم غياب القانون هذا في جعل الشركات الخاصة شريكًا جذابًا للجهات الحكومية الملزمة بالقيود الديمقراطية.

يجادل الباحث القانوني جون مايكلز بأن حاجة الحكومة إلى التهرّب من المراقبة المؤسسية تؤدي إلى تعاون استخباراتي سرّي بين القطاعين العام والخاص، وهو تعاون يميل إلى أن "يُنظّم على أساس التواصل وليس على إجراءات قانونية مثل أوامر التفتيش، وقد يتم ترتيبه بهذه الطريقة للتهرّب من المراقبة، ولتحدي القانون أحيانًا".⁽³¹¹⁾ وأشار إلى انجذاب وكالات الاستخبارات الهائل إلى مصادر بيانات القطاع الخاص، واعتمادها عليها في بعض النواحي.⁽³¹²⁾

ثبتت ملاحظات الباحثين في عام 2010، عندما قدم مدير وكالة الأمن القومي السابق مايك ماكونيل لمحة أخرى عن "القراءة الاختيارية" بين غوغل ووكالات الاستخبارات. وقد أوضح، في مقال كتبه في صحيفة واشنطن بوست، أن عمليات غوغل القائمة على المراقبة والتقاط البيانات واستخراجها وتحليلها كانت أمرًا مسلمًا به، ومرغوبًا فيه. هنا تتلاشى حدود القطاعين الخاص والعام، في خضمّ التهديدات الجديدة ومتطلباتها المتسارعة التي يجب تلبيتها في "أجزاء من الثانية". في مستقبل ماكونيل، هناك إمبراطورية مراقبة "سلسلة" لا تترك فيها متطلبات الحفاظ على الذات

(310) جاك بالكين، "الدستور في دولة المراقبة الوطنية"، مجلة مينيسوتا للقانون، المجلد 93، العدد 1 (2008).

(311) جون د. مايكلز، "كل جواسيس الرئيس: الشراكات الاستخباراتية بين القطاعين الخاص والعام في الحرب على الإرهاب"، مجلة كاليفورنيا للقانون 96، العدد 4 (2008): 901-966.

(312) مايكلز، "كل جواسيس الرئيس"، 908؛ كريس هوفنغل، "مساعده الأخ الأكبر الصغار: كيف تجمع شركة تشويس بوينت وغيرها من شركات وساطة البيانات التجارية بياناتك وتُعبئها لإنفاذ القانون"، مجلة كارولينا الشمالية للقانون الدولي والتنظيم التجاري 29 (1 يناير 2003): 595؛ جونيتشي ب. سيميتسو، "من فيسبوك إلى صورة الاعتقال: كيف أحدثت ندرة حقوق الخصوصية في شبكات التواصل الاجتماعي ثورة في مراقبة الحكومة عبر الإنترنت"، مجلة بيس للقانون 31، العدد 1 (2011).

أية فرصة لمزايا الديمقراطية، بممارساتها التي تهدر الوقت في الإجراءات القانونية الواجبة، والأدلة، والمذكرات، والقانون. وكما شدّد ماكونيل، يجب بناء شراكة فاعلة مع القطاع الخاص لضمان انتقال المعلومات بسرعة بين القطاعين العام والخاص، وبين المعلومات السريّة والمعلنة ... لحماية البنية التحتية الحيوية للبلاد. وتشير التقارير الأخيرة عن وجود شراكة محتملة بين غوغل والحكومة إلى نوع الجهود المشتركة - والتحديات المشتركة - التي يَرَجَّحُ أن نشهدها في المستقبل ... ستؤدي هذه الترتيبات إلى تداخل الأدوار التقليدية للحكومة والقطاع الخاص ... فالفضاء الإلكتروني لا يعرف حدودًا، ويجب أن تكون جهودنا الدفاعية سلسلة بالمثل.⁽³¹³⁾

في الأشهر الأخيرة من إدارة أوباما، قام وزير الدفاع آنذاك آشتون كارتر بجولة في وادي السيليكون، حيث أعلن عن إنشاء مجلس استشاري جديد للابتكار الدفاعي، بهدف إضفاء طابع رسمي على قناة بين المسؤولين التنفيذيين في مجال التكنولوجيا ووزارة الدفاع. وعيّن كارتر شميدت في المجلس الجديد، وكلّفه باختيار أعضائه. وكما خلصت مجلة وايرد، "تحتاج الحكومة إلى وادي السيليكون أكثر من أي وقت مضى في سعيها للدفاع عن نفسها من التهديدات الأمنية في الفضاء الإلكتروني".⁽³¹⁴⁾ تتجلى هذه الحقائق بوضوح في دراسة شاملة لمفهوم "الجمع الشامل" أعدتها مجموعة دولية من الباحثين، وحررها فريد كيت من جامعة إنديانا، وجيمس ديمبسي من جامعة بيركلي. حيث يشير كيت وديمبسي إلى "التجميع الواسع" للبيانات الشخصية في أيدي الشركات الخاصة: "مفهوم بالنسبة إلينا أن ترغب الحكومات في الوصول إلى هذه البيانات ... فكل حكومة في العالم تقريبًا تدّعي امتلاكها حقّ إجبار الشركات على الكشف عما تحتفظ به من معلومات".⁽³¹⁵⁾ فلولا استثناءات المراقبة، لما كان لهذه

(313) مايك ماكونيل، "مايك ماكونيل يتحدث عن كيفية الفوز في الحرب السيبرانية التي نخسرها"، واشنطن بوست، 28 فبراير/ شباط 2010.

(314) ديفي ألبا، "البنتاغون يستعين بإريك شميدت ليصبح شبيهًا بغوغل"، وايرد، 2 مارس 2016؛ لي فانغ، "وكالة المخابرات المركزية تستثمر في شركات تستخرج بيانات تغريداتك وصورك على إنستغرام"، إنترسبت، 14 أبريل 2016.

(315) فريد إتش كيت وجيمس إكس ديمبسي، المحرران، التجميع بالجملة: الوصول الحكومي المنهجي إلى بيانات القطاع الخاص (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، 2017)، 25-26.

البيانات وجود حتى، على الأقل ليس بحجمها وتفاصيلها الحالية.

ساعدت استثنائية المراقبة في تشكيل المسار التطوري لرأسالية المعلومات عبر خلق بيئة أصبحت فيها ممارسات المراقبة الناشئة التي أطلقتها شركة غوغل محلّ رغبة وليس محلّ نزاع. ومرة أخرى، لا يقدم لنا التاريخ أية مجموعات تحكّم، ولا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين بأي اتجاه كانت ستتطور رأسالية المعلومات لولا ذلك الاهتمام المفاجئ بقدرات المراقبة. ويبدو حاليًا أن إحدى النتائج غير المتوقعة لهذه "القراءة الاختيارية" بين القطاعين العام والخاص كانت السماح للممارسات الناشئة المتمثلة في رأسالية المراقبة بالتجذر والنمو مع القليل من التحدي التنظيمي أو التشريعي، مما شجع قادة غوغل الشباب على الإصرار على الفوضى كحق طبيعي، كما شجّع الدولة، بطرق أكثر غموضًا، على منحهم تلك الحرية.

أرادت "القراءة الاختيارية" القوة الوصول إلى اليقين بأي ثمن، ويبدو أن جزءًا من هذا الثمن كان تأمين ملاذ لرأسالية المراقبة. ولا شك أن المؤرخين سيكتشفون بمرور الوقت تفاصيل هذه العلاقات، والطرق التي اعتُمدت لإعاقة التدقيق في اكتشافات غوغل، وسيطرتها على الفائض السلوكي واستخدامه، جزئيًا على الأقل، بسبب هذه المطالب العسكرية الجديدة.

في سياق الأهداف العسكرية الجديدة، تدفقت القدرات الرقمية الموجهة، التي كانت تستهدف القيم الموجهة نحو الدعم لدورة إعادة استثمار القيمة السلوكية نحو المراقبة، دون عوائق. وازدهرت أصول المراقبة دون وجود خطر العقوبات، وجذبت رأس مال المراقبة. وارتفعت الإيرادات بعد ذلك. يذكرنا هذا الوضع بصناعات السيارات والحديد الصلب والآلات في منتصف القرن الماضي، عندما كانت الأوامر العسكرية تحافظ على عمل المصانع بطاقاتها كلها. وتبين في نهاية المطاف أن هذا كان نقمة أكثر منه نعمة. إذ أسفر الطلب العسكري عن تشويه عملية الابتكار وقمعها، ودق إسفين بين هذه الصناعات وزبائنهم المدنيين، مما جعلها عرضة للمنافسين

الأجانب في الأسواق العالمية في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات.⁽³¹⁶⁾

وعلى النحو ذاته، لم يضطر قادة غوغل، في ظل ظروف استثنائية المراقبة، إلى القيام بعمل شاق مخوف بالمخاطر، متمثل في ابتكار نموذج سوق قائم على التبادل، وموجه نحو الدعم، عندما كان نموذج المراقبة مربحاً للغاية. فلماذا المخاطرة بالتجريب في مسارات عضوية لتحقيق الربح عندما تكون عمليات المراقبة والاستخراج آمنة من القانون ومربحة للغاية؟ وفي النهاية، لم تكن غوغل وحدها من يطرح هذه الأسئلة؛ بل واجهت جميع شركات الإنترنت الأخرى الخيارات نفسها. بمجرد أن وضعت عائدات المراقبة معايير لمستثمري رأس المال الاستثماري ومحلي وول ستريت، أصبح الأسهل على شركات الإنترنت أن تواكب التيار. ثم أصبح من الصعب عدم القيام بذلك.

4. التحصينات

لماذا لا تزال رأسمالية المراقبة تعمل بإعاقات قليلة نسبياً، ولا سيما في الولايات المتحدة، حتى بعد مرور سنوات كثيرة على الأحداث التي أشعلت شرارة هوس الهيمنة على المعلومات؟ لقد شهدت السنوات الماضية ظهور آلاف الحقائق المؤسسية التي ساعدت على تطبيع ممارسات رأسمالية المراقبة، وجعلتها تبدو ضرورية، ولا مفرّ منها: اكتشاف الفائض السلوكي، تراكم هائل لرأس المال ومواد أخرى أعقبت ذلك، وانتشار الأجهزة والخدمات، تكامل تدفق البيانات، إضفاء طابع مؤسسي على أسواق السلوك البشري المستقبلية.

هذا لا يعني أن علينا أن نستسلم للمغالطة الطبيعية، ونفسّر هذا الازدهار بوصفه إشارة إلى قيمة جوهرية لرأسمالية المراقبة أو حتميتها. سنكشف في الفصول التالية عن عوامل إضافية كثيرة ساهمت في هذا النجاح، وأريد هنا أن أركز على الجهود الاستباقية

(316) مايكل آلان بيرنشتاين، الكساد الأعظم: التعافي المتأخر والتغيير الاقتصادي في أميركا، 1929-1939، دراسات في التاريخ الاقتصادي والسياسة (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة كامبريدج، 1987)، الفصول 1 و8.

التي بذلتها غوغل لبناء تحصينات حول سلاسل التوريد الخاصة بها لحماية تدفق الفائض من مواجهة تحديات.

على الرغم من أن الكثير من عناصر التحصين هذه قد حظيت بتغطية إعلامية واسعة، تكمن أهميتها بالنسبة إلى قصتنا في حقيقة مفادها أن كل عنصر منها يمثل جانباً واحداً من جهد متعدد الجوانب يشتمل الانتباه عن العمليات الأساسية، من أجل الحفاظ على حرية تدفق الفائض السلوكي غير المنظم. من التدخل والنقد السياسي: (1) إظهار قدرات غوغل الفريدة من نوعها كمصدر للميزة التنافسية في السياسة الانتخابية؛ (2) التمويه المتعمد للمصالح العامة والخاصة من خلال العلاقات، وأنشطة الضغط العدواني؛ (3) الحركة السريعة للموظفين الذين تنقلوا بين غوغل وإدارة أوباما، تجمعهم "القربة الاختيارية" خلال سنوات النمو الأساسية لشركة غوغل بين عامي 2009-2016؛ و(4) حملة غوغل المتعمدة للتأثير على العمل الأكاديمي، والحوار الثقافي الأوسع، الذي يُعتبر حيويًا جدًا لتشكيل السياسات والرأي العام والإدراك السياسي. وتساهم نتائج مجالات الدفاع الأربعة هذه في فهم كيفية نشوء حقائق رأسمالية المراقبة، ولماذا تستمر في الازدهار.

أولاً، أثبتت غوغل أن المعرفة التنبؤية نفسها، المستمدة من الفائض السلوكي الذي جعل رأسمالي المراقبة أغنياء، يمكنها أن تساعد المرشحين أيضاً على الفوز في الانتخابات. ولإثبات هذه النقطة، كانت غوغل مستعدة لتطبيق سحرها على جوهر الحملات الانتخابية في القرن الحادي والعشرين، بدءاً من حملة أوباما الرئاسية عام 2008. وقد لعب شמידت دوراً رائداً في تنظيم الفرق، وتوجيه تنفيذ استراتيجيات البيانات المتطورة القادرة على التفوق على الفنون السياسية التقليدية بعلم التنبؤ السلوكي. وقد قاموا في الواقع، "في مقر أوباما في شيكاغو، بإعادة تشكيل هيئة الناخبين في كل ولاية من الولايات المتأرجحة في كل عطلة نهاية أسبوع... وكان بإمكان الموظفين الميدانيين رؤية تأثير الأحداث على السلوكيات والمعتقدات المتوقعة

لكل ناخب في جميع أنحاء البلاد". (317)

تشير الأبحاث التي أجراها باحثا الإعلام دانييل كريس وفيليب هوارد إلى أن حملة أوباما في عام 2008 جمعت بيانات مهمة عن أكثر من 250 مليون أمريكي، بما في ذلك "مجموعة واسعة من البيانات السلوكية، والمرتبطة بالعلاقات عبر الإنترنت، والتي جُمعت من استخدام موقع الحملة على شبكة الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي التابعة لجهات خارجية مثل فيسبوك...". وينقل الصحافي ساشا إيسنبرغ، الذي وثق هذه التطورات في كتابه بعنوان: "مختبر النصر"، عن أحد المستشارين السياسيين لأوباما في عام 2008، قوله إن النمذجة التنبؤية تشبه العرافة: "كنا نعرف لمن سيصوّت كل شخص، قبل أن يقرر هو نفسه". (318)

واستغل أوباما قربته من شميدت لتعزيز صورته بصفته المرشح الاستثنائي المبتكر المستعد لإحداث نقلة نوعية في واشنطن. (319) وانضمّ شميدت، بعد انتخاب أوباما، إلى المجلس الاستشاري الانتقالي وظهر إلى جوار أوباما في أول مؤتمر صحفي له بعد الانتخابات. (320) وفقاً لمجلة بوليتيكو، "كانت صورة شميدت، واقفاً إلى جانب كبار المفكرين الاقتصاديين في إدارة أوباما، كافية لإثارة الرعب في قلوب منافسي غوغل". وقال أحد أعضاء جماعات الضغط الديمقراطيين ذوي المعرفة بشؤون الصناعة: "هذا يُرعب مايكروسوفت. ثمّة سببٌ وجيهٌ وراء خوف الناس الشديد من غوغل". (321)

(317) ساشا إيسنبرغ، "استراتيجية البيانات لحملة رومني"، سلات، 17 يوليو 2012، انظر أيضاً: جو ليرتولا وبرايان كريستي ديزاين، "تاريخ موجز للحملة القادمة"، بوليتيكو، 27 فبراير 2014.
(318) ساشا إيسنبرغ، مختبر النصر: العلم السري للحملة الفائزة (نيويورك: كراون، 2012)، ص 271.
(319) قال شميدت للصحفيين: "أفعل هذا شخصياً". وأضاف: "غوغل محايدة رسمياً" في الحملة. كان أول ظهور له مع أوباما في فعالية في فلوريدا، حيث أدارا حلقة نقاش حول الاقتصاد. وصرح شميدت لصحيفة وول ستريت جورنال بأن تأييده المخطط لأوباما كان "تطوراً طبيعياً" لدوره كمستشار غير رسمي. انظر مونيكا لانغلي وجيسيكا إي. فاسيلارو، "الرئيس التنفيذي لشركة غوغل يدعم أوباما"، وول ستريت جورنال، 20 أكتوبر/ تشرين الأول 2008؛ وجيف زيليني واليزابيث بوميلر، "مواجهة المرشحين بشأن المخطط الاقتصادية"، نيويورك تايمز، 21 أكتوبر/ تشرين الأول 2008.
(320) روبرت رايش، "المجلس الاستشاري الاقتصادي الانتقالي لأوباما: القائمة الكاملة"، يو إس نيوز أند وورلد ريبورت، 7 نوفمبر/ تشرين الثاني 2008.
(321) إيمون جافيرز، "علاقة أوباما بغوغل تُخيف المنافسين"، بوليتيكو، 10 نوفمبر 2008.

كان دور شميدت في انتخاب الرئيس أوباما مجرد فصل واحد في علاقة طويلة، وأصبحت الآن أسطورية، وصفها بعضهم بأنها "علاقة حب".⁽³²²⁾ ولن يثير دهشتنا أن يتولّى شميدت دورًا بارزًا في حملة إعادة انتخابه عام 2012. إذ كان له دور قيادي في جمع التبرّعات، وفتح آفاق تقنية جديدة، "كما أنه أشرف شخصيًا على نظام المشاركة الانتخابية ليلة الانتخابات".⁽³²³⁾

في تقرير المراسل السياسي جيم روتنبرغ في صحيفة نيويورك تايمز، عن الدور المحوري الذي لعبه علماء البيانات في فوز أوباما عام 2012، تظهر صورة حيّة لالتقاط الفائض السلوكي وتحليله كمنهجية سياسية. كانت الحملة تعرف "كل ناخب متردّد في البلاد، وعليها إقناعه بالتصويت لأوباما، من خلال اسمه وعنوانه وجنسه ودخله". وكانت قد توصّلت إلى كيفية استهداف هؤلاء الأشخاص بإعلاناتها التلفزيونية. وكان أحد الاختراقات هو "درجة الإقناع" التي حدّدت مدى سهولة إقناع كل ناخب لم يحسم رأيه بالتصويت للمرشح الديمقراطي.⁽³²⁴⁾

بقيت حقائق الفائض السلوكي وقوته التنبؤية بمنتهى السريّة في حملات أوباما، تمامًا كما هو الحال في غوغل وفيسبوك وغيرهما من مجالات هيمنة المعلومات. ووفقًا لروتنبرغ، "لقد بقي مدى استخدام الحملة لأحدث أدوات البحث التقنية في حياة الناس، وكَمّ البيانات الهائل الذي يُعالجُ في خوادمها الضخمة، غامضًا إلى حد كبير. وكان سبب تلك السريّة الهائلة.... جزئيًا... هو الحفاظ على تفوّقهم في المنافسة. لكن لا شكّ أن هناك سببًا آخر يتمثّل في قلقهم من أن ممارسات من نوع 'استخراج البيانات' و'التحليلات' ربما تُقلِّق الناخبين".⁽³²⁵⁾

(322) "مذكرات قصة حب: أوباما وغوغل" (Obama@Google)، مجلة فورتن، 14 نوفمبر/تشرين الثاني 2007.

(323) برودي مولينز، "غوغل تستفيد إلى أقصى حد من علاقاتها الوثيقة مع البيت الأبيض"، وول ستريت جورنال، 24 مارس/ آذار 2015.

(324) جيم روتنبرغ، "بيانات يمكنك أن تثق بها: العقول المدبرة الرقمية في حملة أوباما تجني الأموال"، نيويورك تايمز، 20 يونيو/حزيران 2013.

(325) روتنبرغ، "البيانات التي يمكنك أن تؤمن بها".

ثانيًا، مع اقتراب انتخابات عام 2012، كشفت مقابلة مع صحيفة واشنطن بوست عام 2011 عن تباهي شميدت باستراتيجية تحصيل أخرى: "الموظفون شباب - الموظفون يفهمون ذلك... وهذا ما اعتمدنا عليه. وقد استخدمنا موظفين سابقين أيضًا. وكلّ منهم يعرف الآخر. تلك هي الطريقة التي تجري بها الأمور فعلاً".⁽³²⁶⁾ لقد مهّدت خدمات شركة غوغل الطريق أمام حركة مزدحمة وسريعة بين مراكز القوة على الساحل الشرقي والساحل الغربي. وحلّل "مشروع شفافية غوغل"، خلال فترة حكم أوباما، حركة الموظفين بين نطاق غوغل (الشركة ذاتها، والشركات التابعة لها، وشركات المحاماة وجماعات الضغط التابعة لها) والحكومة (بها في ذلك البيت الأبيض، والكونغرس، والهيئات الحكومية، واللجان الفيدرالية، والحملات السياسية الوطنية). ووجد أنه بحلول شهر أبريل/ نيسان عام 2016، انتقل 197 شخصًا من الحكومة إلى نطاق غوغل، بينما انتقل 61 شخصًا آخر بالاتجاه المعاكس. وذهب من بين هؤلاء 22 مسؤولًا في البيت الأبيض للعمل لدى غوغل، وانضم 31 من المسؤولين التنفيذيين في شركة غوغل إلى البيت الأبيض أو المجالس الاستشارية الفيدرالية ذات الصلة المباشرة بأعمال غوغل.⁽³²⁷⁾

ثالثًا، كتدبير احتياطي، أنفقت غوغل الكثير من الأموال في جميع أنحاء النظام السياسي. وفي كتاب شميدت الصادر عام 2014، الذي شارك في تأليفه جوناثان روزنبرغ، المدير التنفيذي المخضرم في غوغل، طوّر الرئيس التنفيذي بقوة فكرة مفادها أن الحكومة هي أداة للقوى القائمة المتواطئة لعرقلة التغيير، في حين أن غوغل على الجانب الآخر: شركة ناشئة وغير مستقرّة. وأعرب المؤلفان عن ازدراءهما للسياسيين وجماعات الضغط، وقالوا: "هذا هو المسار الطبيعي للسياسيين، إذ يميل القائمون على

(326) ليليان كاتينغهام، "إريك شميدت من غوغل يشرح شهادته أمام مجلس الشيوخ"، واشنطن بوست، 30 سبتمبر/أيلول 2011.

(327) "مستكشف الباب الدوار لغوغل (الولايات المتحدة)"، مشروع شفافية غوغل، 15 أبريل/نيسان 2016؛ تيس فاندن دولدر، "هل غوغل هي الباب الدوار الجديد؟" دي سي إينو، 9 سبتمبر/أيلول 2014؛ ياشا ليفين، "الباب الدوار بين غوغل ووزارة الدفاع"، مدونة باندوداي، 23 أبريل/نيسان 2014؛ سيسيليا كانج وجوليت إيلبيرين، "ماذا يُعد وادي السيليكون الباب الدوار الجديد لموظفي أوباما"، واشنطن بوست، 27 فبراير/شباط 2015.

السلطة إلى امتلاك أموال أكثر بكثير من المعطلين، وهم خبراء للغاية في استخدامها لثني الإرادة السياسية لأي حكومة ديمقراطية". (328)

بينما كان شميدت ينتقد المسؤولين ونفوذهم السياسي، في العام نفسه الذي صدر فيه الكتاب، أنفقت غوغل على الضغط أكثر من أية شركة أخرى - أكثر من 17 مليون دولار، وما يقارب ضعف ما أنفقته شركة فيسبوك، منافستها في مجال المراقبة. وفي السنوات القليلة التالية، ومع تغير الحكومة في البيت الأبيض، حافظت غوغل على وتيرة عملها، إذ أنفقت عام 2018 مبلغ 18 مليون دولار على الضغط، متجاوزة الشركات الأخرى كلها، حيث واجهت تشريعات الخصوصية والمبادرات الأخرى التي قد تُعيق حرّيتها في التقاط الفائض السلوكي ومعالجته. وكانت شركة غوغل أيضًا من بين أغنى جماعات الضغط المؤثرة في الاتحاد الأوروبي، حيث جاءت في المرتبة الثانية بعد جماعة ضغط تمثل اتحاد الشركات الأوروبية. (329)

تعلمت الشركة أيضًا كيفية هندسة جهود الضغط المتطورة على مستوى الدولة، والتي تهدف أساسًا إلى مقاومة أي تشريع مقترح يعزز فكرة الخصوصية، ويحدّ من عمليات الفائض السلوكي. فعلى سبيل المثال، فازت الشركة بحق وضع سياراتها ذاتية القيادة على الطريق - كان متوقعًا أن تشكّل سلاسل إمداد مهمة - بعد تجنيد مسؤولين في إدارة أوباما للضغط على الجهات التنظيمية في الولايات من أجل إقرار تشريعات أساسية. (330) وتقود كلّ من غوغل وفيسبوك حاليًا حملات ضغط شرسة على مستوى الولايات تهدف إلى عرقلة القوانين التي تُنظّم البيانات الحيوية وحماية الخصوصية أو إضعافها. وكما جاء في أحد التقارير: "إنهم يريدون جسدك". (331)

(328) إريك شميدت وجوناثان روزنبرج، كيف تعمل غوغل (نيويورك: جراند سنترال، 2014)، 255.
(329) ديبورا ديسوزا، "شركات التكنولوجيا الكبرى أنفقت مبالغ قياسية على الضغط في عهد ترامب"، إنفستوبيديا، 11 يوليو/تموز 2017؛ برودكين، "جماعات الضغط في غوغل وفيسبوك"، ناتاشا لوماس، "غوغل من بين أبرز جماعات الضغط على كبار مسؤولي المفوضية الأوروبية"، تيك كرانش (مدونة)، 24 يونيو/حزيران 2015؛ "باب غوغل الدوار الأوروبي"، مشروع شفافية غوغل، 25 سبتمبر/أيلول 2017.
(330) "استعانت شركة غوغل بمسؤولين من إدارة أوباما للضغط على الولايات بشأن السيارات ذاتية القيادة"، مشروع شفافية غوغل، 29 مارس/أذار 2018.
(331) شركات التكنولوجيا تتصدى لقوانين الخصوصية البيومترية، بلومبرج دوت كوم، 20 يوليو/تموز

تعلمت الشركة، في ساحة التحصينات الرابعة، كيفية التسلّل والتأثير على البحث الأكاديمي، ودعم المجتمع المدني، بطرق أدّت إلى تخفيف تفحص ممارساتها، وحتى إحباطها في بعض الحالات. ووصفت صحيفة واشنطن بوست شركة غوغل بأنها "خبيرة في التأثير على واشنطن"، وأشارت إلى ما تتمتع به من براعة في فهم رواياتها الخاصة وتوجيهها. وكان لشميدت دور مباشر في هذا العمل أيضًا. بصفته عضوًا في مجلس إدارة "مؤسسة أمريكا الجديدة"، وهي مؤسسة فكرية للسياسات العامة، لعبت دورًا مؤثرًا في صياغة نهج إدارة أوباما تجاه القضايا الاقتصادية، تولّى رئاسة المؤسسة عام 2013 بتبرّع شخصي بلغ مليون دولار، وهو ما يمثل نسبة كبيرة من ميزانيتها السنوية البالغة 12.9 مليون دولار في ذلك العام. كما تلقت المؤسسة، بين عامي 1999 و2016، بعد مغادرة شميدت للمجلس، مبلغ 21 مليون دولار من غوغل وشميدت وعائلة شميدت. (332)

نشرت صحيفة واشنطن بوست تقريرًا مفصلاً عن العمل الدقيق الذي تقوم به غوغل في هذا المجال الرابع، وأوضحته من خلال مؤتمرات خلف الكواليس رافقت سلسلة من ثلاثة أجزاء حول المنافسة في البحث على الإنترنت، عُقدت في مركز القانون والاقتصاد بجامعة جورج ماسون، وهو مركز أكاديمي "موجه نحو السوق الحرة"، وتلقّى تمويلًا هائلًا من غوغل. (333) عُقدت الاجتماعات في مايو/أيار 2012، بالتزامن مع تحقيق لجنة التجارة الفيدرالية في قضية غوغل الخاصة بمكافحة

2017: قوانين الخصوصية البيومترية: إلينوي ومكافحة التكنولوجيا المتطفلة، 29 مارس/ آذار 2018؛ أبريل جلاس، "فيسبوك يستخدم نهج الرابطة الوطنية للبنادق للدفاع عن برامج التعرف على الوجه المخفية"، سلايت، 4 أغسطس/ آب 2017؛ كونور دوجيرتي، "شركات التكنولوجيا تنقل مخاوفها التشريعية إلى الولايات المتحدة"، نيويورك تايمز، 27 مايو/ أيار 2016. (332) انضم شميدت إلى مجلس إدارة مؤسسة أمريكا الجديدة عام 1999. واعتبارًا من عام 2013، أصبح رئيسًا لمجلس إدارتها، وظلت مساهمته المالية في مقدمة الجهات المانحة، حيث لا يضاهيها سوى ثلاثة مانحين آخرين: وزارة الخارجية الأمريكية، ومؤسسة لومينا، ومؤسسة بيل وميليندا غيتس. أما الجهات المانحة الثانوية فتشمل غوغل. وتُعَدّ المؤسسة محورًا أساسيًا في الخطاب السياسي في واشنطن، وبشكل أعضاء مجلس إدارتها نخبة من الشخصيات البارزة في المؤسسة السياسية. (333) توم هامبرجر وماتيا جولد، "غوغل، التي كانت في السابق تحتقر جماعات الضغط، أصبحت الآن خبيرة في التأثير في واشنطن"، واشنطن بوست، 12 أبريل/ نيسان 2014.

الاحتكار. ووجد الصحفيون أن موظفي الشركة تعاونوا بشكل وثيق مع المركز، واختاروا متحدثين ومشاركين مؤيدين لغوغل، وكان بعضهم موظفين في غوغل. وتضمنت جهودهم "إرسال جدول بيانات مفصل إلى موظفي المركز يتضمن أسماء أعضاء الكونغرس، ومفوضي لجنة التجارة الفيدرالية، وكبار المسؤولين في وزارة العدل ومكتب المدعي العام للولاية". وأشار المراسلون إلى أن جلسات المؤتمر كانت خاضعة لهيمنة "خبراء بارزون في التكنولوجيا والقانون"، وقد رفضوا بشدة ضرورة اتخاذ إجراء حكومي ضد غوغل، "وقدموا حججهم أمام بعض الجهات التنظيمية ذاتها التي من شأنها أن تساعد في تحديد مصيرها". ولم يكن لدى العديد من المشاركين أية فكرة عن مشاركة غوغل في صياغة الاجتماعات، لأن غوغل وموظفي المركز اتفقوا على إخفاء مشاركة الشركة خلف الكواليس.⁽³³⁴⁾

يبدو أن تحقيقات لجنة التجارة الفيدرالية بموضوع مكافحة الاحتكار زاد مخاوف غوغل من التهديد بتنظيم رأسمالية المراقبة. ففي ذلك العام، أخذت عمليات المنح التي تقدمها غوغل لمنظمات المجتمع المدني مسارًا عدوانيًا. ووفقًا لبحث استقصائي أجراه مركز الإعلام والديمقراطية بعنوان: "غوغولة" اليمين المتطرف"، تضمنت قائمة المستفيدين من منح الشركة عام 2012 مجموعة جديدة من الجماعات المناهضة للحكومة، والشهرة بمعارضتها لتنظيم الضرائب، ودعمها لإنكار التغير في المناخ، بما في ذلك منظمة "غروفر نوركويس - أمريكيون لتنظيم الضرائب"، ومنظمة "هيريتاج أكشن" التي يمولها الأخوان كوخ"، وجماعات أخرى مناهضة للتنظيم مثل الجمعية الفيدرالية ومعهد كاتو.⁽³³⁵⁾ كما اعترفت الشركة بهدوء بعضويتها في جماعة الضغط (ALEC)، المعروفة بمعارضتها للسيطرة على الأسلحة، والحد من

(334) لمزيد من المصادر، انظر ديفيد داين، "الضغط الخفي الخبيث الذي تمارسه غوغل: كيف يمول عملاق الإنترنت الأكاديميين الودودين ويتجنب التحقيقات الفيدرالية"، Salon.com، 24 نوفمبر/تشرين الثاني 2015.

(335) نيك سورجي، "غوغولة اليمين المتطرف: لماذا تُمول غوغل غروفر نوركويس، ومنظمة هيريتاج أكشن، ولجنة أليك؟"، بي. آر. واتش، 27 نوفمبر/تشرين الثاني 2013. م. بي. آر. واتش. شور لمركز الإعلام والديمقراطية. أشجع القارئ المهتم على الاطلاع على هذه المقالة للاطلاع على قائمة كاملة بأسماء الجهات المستفيدة من تمويل غوغل المناهض للحكومة، وتحليل لمواقفها وأجنداتها البحثية.

الانبعاثات، ودعمها لمخططات قمع الناكبين، والإعفاءات الضريبية لصناعة التبغ، وغيرها من القضايا اليمينية المتطرفة.⁽³³⁶⁾ وتضمنت قائمة زملاء سياسات غوغل، في هذه الأثناء، أفرادًا من مجموعة منظمات غير ربحية كان من المتوقع أن تقود المعركة ضد تركيز المعلومات والسلطة في تلك الشركة، بما في ذلك مركز الديمقراطية والتكنولوجيا، ومؤسسة الحدود الإلكترونية، ومنتدى مستقبل الخصوصية، والرابطة الوطنية للمستهلكين، ومختبر المواطن، والرابطة من أجل الحقوق المدنية.

ذكرت صحيفة "ول ستريت جورنال"، في يوليو/ تموز 2017، أن شركة غوغل سعت بشكل نشط، منذ العام 2009، إلى توفير تمويل لأساتذة الجامعات من أجل إعداد أوراق بحثية وسياسات تدعم مواقف غوغل بشأن المسائل المتعلقة بالقانون والتنظيم والمنافسة وبراءات الاختراع وما إلى ذلك.⁽³³⁷⁾ وغالبًا ما تدخلت غوغل في الأبحاث قبل نشرها، ولم يُفصح بعض المؤلفين عن تمويلهم من غوغل. وعلى الرغم من ادعاء غوغل العلني بأن "منح المال لم يُرفق بأية شروط"، إلا أن هناك قضية أخرى ظهرت إلى العلن عام 2017، ودحضت هذا الادعاء. ففي ذلك الصيف، نشر باري لين، أحد أبرز الباحثين في "مؤسسة أميركا الجديدة"، المتخصص في الاحتكارات الرقمية، بيانًا أشاد فيه بالقرار التاريخي الذي اتخذته الاتحاد الأوروبي بفرض غرامة قدرها 2.7 مليار دولار على شركة غوغل نتيجة تحقيق على مدى سنوات عديدة في مكافحة الاحتكار. ووفقًا لصحيفة نيويورك تايمز، ورواية لين نفسه، فقد رضخ مدير "مؤسسة أميركا الجديدة" لضغوط شميدت، وطرد لين وفريقه المكون من عشرة باحثين. وقال لين لصحيفة نيويورك تايمز: "تُفق غوغل أموالها بشراة في واشنطن وبروكسل، ثم تمارس تأثيرها القوي". وأضاف: "يخشى الناس الآن شركة غوغل".

(336) مايك ماكنتاير، "أليك، مجموعة معفاة من الضرائب، تخلط بين المشرعين وجماعات الضغط"، نيويورك تايمز، 21 أبريل/ نيسان 2012؛ نيك سورجي، "غوغل اليمين المتطرف: لماذا تمويل غوغل غروفر نوركويس، ومنظمة هيريتيج أكشن، وأليك؟" بي آر ووتش، 27 نوفمبر/ تشرين الثاني 2013؛ "ما هو أليك؟ - كشف أليك"، مركز الإعلام والديمقراطية، 22 فبراير/ شباط 2017؛ كاتي روكي، "لماذا تتعاون شركات التكنولوجيا مع أليك؟" مينت برس نيوز (مدونة)، 13 ديسمبر/ كانون الأول 2013.

(337) برودي مولينز وجاك نيكاس، "دفع رواتب الأساتذة: داخل حملة غوغل للتأثير الأكاديمي"، وول ستريت جورنال، 14 يوليو/ تموز 2017.

وأشار مراسلون إلى أن نفوذ غوغل "القوي المتطور" يفوق نفوذ أي شركة أمريكية أخرى. (338)

بقيادة غوغل، وسّعت رأسمالية المراقبة نطاق السوق بشكل كبير، إذ تعلّمت الاستيلاء على التجربة الإنسانية وترجمتها إلى تنبؤات سلوكية مرغوبة. لقد وُلدت غوغل، ومشروع المراقبة الأوسع هذا، وحظيا بالحماية والرعاية اللازمة لتحقيق النجاح نتيجة للظروف التاريخية في عصرهما - احتياجات الحداثة الثانية، وإرث الليبرالية الجديدة، والسياسة الواقعية لاستثنائية المراقبة - فضلاً عن تحصيناتها المصممة خصيصاً لحماية عمليات سلسلة التوريد من التدقيق من خلال الهيمنة السياسية والثقافية.

وأدت قدرة رأسمالية المراقبة على إعاقة الديمقراطية إلى ظهور هذه الحقائق الصارخة. ثمة رجلان في شركة غوغل، لا يتمتعان بشرعية التصويت، ولا بالمراقبة الديمقراطية، ولا بمطالب حوكمة المساهمين، يمارسان سيطرة على تنظيم معلومات العالم وعرضها. وثمة رجل واحد في شركة فيسبوك، لا يتمتع بشرعية التصويت، ولا بالمراقبة الديمقراطية، ولا بمطالب حوكمة المساهمين، يمارس سيطرة على وسيلة تواصل اجتماعي عالمية، إضافة إلى المعلومات الخفية في شبكاتهما.

(338) كينيث ب. فوغل، "طرد ناقد غوغل من مركز أبحاث ممول من قبل عملاق التكنولوجيا"، نيويورك تايمز، 30 أغسطس/ آب 2017؛ هوب ريس، "أحدث جدل حول غوغل يُظهر كيف يُخنق التمويل المؤسسي الانتقادات"، فوكس، 5 سبتمبر/ أيلول 2017.

الفصل الخامس

تطور رأسمالية المراقبة: الاختطاف، الاحتجاز، التنافس

الكلمات كلها مثل السلام والحب، والكلام الإيجابي العاقل كله، أصبح ملوثًا، ومنتهكًا، ومُحتَرَلًا في حالة من الصرير الميكانيكي الفظيع.

ويستان هيو أودن

"نحن أيضًا عرفنا ساعات ذهبية"

مكتبة
t.me/soramnqraa

1. ضرورة الاستخراج

قال لاري بيج: "طموحنا الأسمى هو تحويل تجربة غوغل الشاملة، وجعلها بسيطة وجميلة، وآلية تقريبًا، لأننا نفهم ما تريد، ونستطيع تأمينه لك مباشرة".⁽³³⁹⁾ في السعي لتحقيق هذا الطموح، تولّد عملية الاستخراج ضغطًا هائلًا وواسع النطاق في عمليات التوريد. فلا حدود تقيّد نطاق البحث عن فائض سلوكي، ولا مجال مُعفى من النهب. يُعدُّ تأكيد الحقِّ باتخاذ القرار بما يخصّ مصادرة التجربة الإنسانية، وترجمتها إلى بيانات، واستخدام تلك البيانات، وهذه الأشياء كلها ملازمة للعملية الأساسية، وظلًّا لها، فلا يمكن فصل إحداها عن الأخرى. وهذا يُفسّر لماذا بدأت سلاسل توريد غوغل بمحرك البحث، ثم توسّعت تدريجيًّا لتشمل مجالات جديدة وأكثر طموحًا، بعيدًا عن النقرات والاستعلامات. تشمل مخازن غوغل للفائض السلوكي الآن كل شيء في البنية الإلكترونية: عمليات البحث، ورسائل البريد الإلكتروني، والرسائل النصّية، والصور والأغاني والرسائل ومقاطع الفيديو، والمواقع ونماذج التواصل

(339) "إدارة غوغل تناقش نتائج الربع الثالث من عام 2011 - نصّ مكالمة الأرباح حول شركة ألفابت (غوغل)"، "سيكينغ إلفا"، 14 أكتوبر 2011.

والمواقف والتفضيلات والاهتمامات، والوجوه والعواطف والأمراض والشبكات الاجتماعية والمشتريات، وما إلى ذلك. تُنَسَّجُ في كل لحظة قارّة فائض سلوكي كاملة جديدة من خيوط حياتنا اليومية الافتراضية الكثيرة، عندما تصطدم بغوغل وفيسبوك، وبشكل أعم، بكل جانب من جوانب بنية الإنترنت الحاسوبية. كما يُعاد في الواقع توظيف النطاق العالمي لوساطة الحاسوب كبنية للاستخراج، تحت إشراف رأسمالية المراقبة.

نشأت هذه العملية عبر الإنترنت، لكنها انتشرت أيضًا في العالم الحقيقي، وهي حقيقة سنتناولها بالتفصيل في الجزء الثاني. إذا كانت غوغل شركة بحث، فلماذا تستثمر في أجهزة المنزل الذكي والأجهزة القابلة للارتداء والسيارات ذاتية القيادة؟ وإذا كان الفيسبوك عبارة عن شبكة تواصل اجتماعي فلماذا يقوم بتطوير طائرات من دون طيار، وتطوير الواقع المعزز؟ يُربك هذا التنوع المراقبين أحيانًا، لكن يُشاد به عمومًا بوصفه استثمارًا لافتًا: رهانات على المستقبل بعيد المدى. من المؤكد أن الأنشطة التي تبدو متنوعة ومتناثرة في مجموعة عشوائية من الصناعات والمشاريع هي في الواقع النشاط نفسه الذي يسترشد بالهدف نفسه: الاستفادة من الفائض السلوكي. كلٌ منها عبارة عن تركيب مختلف قليلًا من الأجهزة والبرامج والخوارزميات وأجهزة الاستشعار والاتصال المصمّمة لمحاكاة سيارة أو قميص أو هاتف محمول أو كتاب أو فيديو أو روبوت أو شريحة أو طائرة دون طيار أو كاميرا أو "قرنية عين" أو شجرة أو تلفزيون أو ساعة أو روبوت نانوي أو أية خدمة عبر الإنترنت، ولكنها تشترك كلها بالهدف ذاته: التقاط الفائض السلوكي.

إن شركة غوغل كائن متغيّر الشكل، لكن لكل شكل هدف واحد: البحث عن المواد الخام واستخراجها. يا عزيزي، هلّا استخدمت سيارتي؟ هلّا تحدثت بهاتفي؟ هلّا ارتديت قميصي؟ هلّا استخدمت خريطتي؟ في هذه الحالات كلها، يشكّل السيل المتنوع للأشكال الإبداعية عرضًا جانبيًا للحدث الرئيس: التوسّع المستمرّ في هندسة الاستخراج للحصول نطاق واسع من المواد الخام لتغذية عملية إنتاج قطعة باهظة الثمن، تؤدي إلى إنتاج منتجات تنبؤية تجذب المزيد من الزبائن وتحتفظ بهم. عندما

وُجِّهَ للرئيس التنفيذي إيريك شميدت، في عام 2008، سؤالٌ حول سبب امتلاك غوغل 150 منتجًا، أجاب: "يمكن اعتبار ذلك نقدًا، لكن يمكن اعتباره استراتيجية أيضًا. تهدف الشركة إلى إرضاء الزبائن. يجب أن تفكر في شركة غوغل بمنتج واحد فقط: إرضاء الزبائن".⁽³⁴⁰⁾ أولئك الزبائن هم المعلنون في العالم، وغيرهم ممن يدفعون ثمن توقعات غوغل. لذلك فإن "رضا الزبائن" يعادل حصّة غوغل السوقية المهيمنة على أسواق المستقبل السلوكي الجديدة المربحة، مدعومة بهيكلية استخراج متنامية باستمرار.

طرق إمداد جديدة تُبنى وتُختبر باستمرار، ولا يوضع سوى القليل منها قيد التشغيل. وتُطوّر وتُرسّخ الطرق التي تحقق مسارًا موثوقًا مثل نظام أندرويد لتشغيل الهواتف الذكية، أو بريد "جي ميل" الإلكتروني. أما تلك التي تفشل، فيتم إغلاقها أو تعديلها. وإذا أُغلقَ طريق معين، يُعثرُ على آخر. تكون مسارات التوريد الناجحة أشبه بلوحات إعلانية مُستهدفة، وهو ما يوسّع نطاق أسواق المستقبل السلوكي، وإشراك المستخدمين، في الوقت نفسه، بطرق تزيد من الفائض السلوكي. ستكون هناك دومًا قائمة متغيرة لطرق الإمداد، لكنها تشترك كلها في مهمة تشغيل واحدة: استغلال الفائض السلوكي، واكتساب حقوق اتخاذ القرار. وكما هو الحال في البحر أو جريان النهر، إذا أُغلقَ طريق معين، يُعثرُ على آخر.

نتابع في هذا الفصل عواقب ضرورة الاستخراج كونها هي التي تقود عملية صياغة شكل السوق الجديد وديناميكياته التنافسية. ترفع الضرورة عمليات توريد الفائض إلى دور محدد في كل جانب من جوانب رأسمالية المراقبة. ويبدأ ذلك بسلسلة متواصلة من الابتكارات التي تهدف إلى حصر إمدادات المواد الخام. فالحصر ليست مجرد إنجاز تكنولوجي. يتطلب نزع الملكية المستدام مزيجًا منظمًا للغاية، ومدروسًا بعناية، من الاستراتيجيات السياسية والتواصلية والإدارية والقانونية والمادية التي تؤكد بجرأة مطالبته بأرض جديدة، وتدافع بلا كلل عنها. وأثبت نجاح هذه الاستراتيجيات، في

(340) انظر كين أوليتا، بحث غوغل: نهاية العالم كما نعرفه (نيويورك: بنغوين، 2010).

غوغل أولاً ثم في فيسبوك، جدواها ومكافأتهما من خلال جذب منافسين جدد إلى حلقة مفرغة قاسية من اختطاف التجربة الإنسانية، وحصر الإمدادات الفائضة، والتنافس على أسواق سلوكية مستقبلية جديدة.

2. الحصر

أدى اكتشاف الفائض السلوكي، في عامي 2001 - 2002، إلى أن يكون بحث غوغل أول "خدمة" من غوغل تُعاد صياغتها كطريق إمداد. وكان شبه المستحيل على الناس تخيل التغييرات الناتجة في آليات البحث، ناهيك عن اكتشافها. فعندما أجرى بنيامين إيدلمان، من كلية إدارة الأعمال في جامعة هارفارد، بحثاً في عام 2010، وجد أن خيار "الميزات المحسنة" ضمن منتج يُسمى شريط أدوات غوغل - وهو مكوّن إضافي لتصفّح "إنترنت إكسبلورر" من شركة مايكروسوفت يسمح للمستخدمين بالبحث دون الحاجة إلى الذهاب إلى موقع "غوغل دوت كوم" (google.com) - "ينقل إلى الشركة عنوان 'محدد الموارد الموحد، أو عنوان الويب، URL' الكامل لكل صفحة تُعرّض، بما في ذلك عمليات البحث في محرّكات البحث المنافسة". اكتشف إيدلمان أنه من "السهل للغاية" تفعيل هذا الخيار، ولكن من المستحيل تعطيله. وحتى عندما أصدر أحد المستخدمين تعليمات محدّدة بتعطيل شريط الأدوات، وحتى عندما اختفى عن الأنظار وبدا معطلاً، استمرّ شريط الأدوات في تتبّع سلوك المتصفّح.⁽³⁴¹⁾ وبما أن غوغل تستضيف الآن "تريليونات" عمليات البحث سنوياً، فإن آليات التتبّع

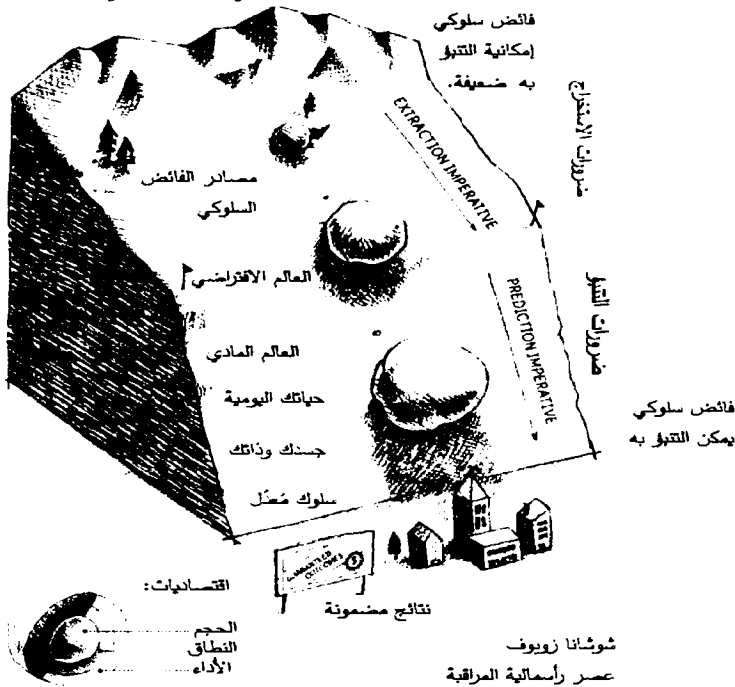
(341) فيما يلي بعض مقالات وأعمال إيدلمان: بنيامين إيدلمان، "التحيز في نتائج البحث؟ التشخيص والاستجابة"، المجلة الهندية للقانون والتكنولوجيا 7 (2011): 16-32؛ بنيامين إيدلمان وجينيو لاي، "تصميم خدمات محرك البحث: الترابط بين القنوات في نتائج محرك البحث" (بحث في كلية هارفارد للأعمال، 9 مارس 2015)، مجلة أبحاث التسويق 53، العدد 6 (2016): 881-900؛ بنيامين إيدلمان، "الاستفادة من قوة السوق من خلال الربط والتجميع: هل يتصرف غوغل بشكل غير تنافسي؟" (بحث صادر عن جامعة هارفارد، العدد 14-112، هارفارد، 28 مايو 2014)؛ بنيامين إيدلمان وآخرون، التفضيل الحصري كتحويل للبحث: دليل من البحث عن الرحلات الجوية (شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 2013)؛ بنيامين إيدلمان، "غوغل تُعادل غوغل بلس وغيرها الكثير"، Benedelman.org، 12 يناير 2012؛ بنيامين إيدلمان، "تحيز البرمجة الثابتة في نتائج بحث غوغل" "الخوارزمية"، Benedelman.org، 15 نوفمبر 2010.

المتنوعة المرتبطة بالبحث، إلى جانب ملفات تعريف الارتباط القوية التي لا يمكن الهروب منها تقريباً (تُدخل أجزاء من رمز التتبع إلى جهاز الحاسوب الخاص بك)، تضمن اقتصاديات الحجم الهائلة التي تشكل أساس عمليات التوريد الخاصة بشركة غوغل. (342)

ديناميكية تراكم

الفائض السلوكي

الحركة الرئيسية لرأسمالية المراقبة هي تراكم مصادر فائض سلوكي جديدة أعلى قدرة على التنبؤ. الهدف هو مضاهاة النتائج الذاتية المضمونة في سلوكيات الحياة الواقعية. يبدأ الاستخراج عبر الإنترنت، لكن ضرورة التنبؤ تزيد من الزخم، مما يدفع الاستخراج نحو مصادر جديدة في العالم الحقيقي.



الشكل ٣: ديناميكية تراكم الفائض السلوكي

(342) أشكان سلطاني، وأندريا بيترسون، وبارتون جيلمان، "وكالة الأمن القومي تستخدم ملفات تعريف الارتباط الخاصة بغوغل لتحديد الأهداف للقرصنة"، واشنطن بوست، 10 ديسمبر/ كانون الأول 2013.

في عام 2015، انضمّ الباحث القانوني المتخصص في الإنترنت تيم وو إلى مايكل لوقا من كلية إدارة الأعمال في جامعة هارفرد، وفريق من علماء البيانات من شركة "يلب" (Yelp)، للبحث في الآليات الخفية في محرك بحث غوغل، العاملة على توسيع وظائف التوريد الحيوية. فاكتشفوا أن غوغل كانت تُفسد نتائج البحث بشكل منهجي لصالح محتواها و"منتجاتها النهائية":

بدأت شركة غوغل في تطوير محتواها الخاص بمرور الوقت، مثل نتائج الأسعار الخاصة بها للتسوّق، ومراجعاتها الخاصة للشركات المحليّة..... تعمل شركة غوغل كمحرك بحث ومصدر للمحتوى. ولاستغلال هيمنتها على البحث بهدف الترويج لهذا المحتوى، طوّرت غوغل ميزة تسمّى "البحث الشامل"، وهي ميزة تستبعد فيها منافسي المحتوى عمداً، وتظهر محتوى غوغل فقط.⁽³⁴³⁾

تنبئ الحاجة المستمرة الواسعة النطاق إلى الفائض السلوكي بسلوك الشركات الذي يفضل الحصرية. وبما أن البحث هو أساس عمليات التوريد الخاصة بشركة غوغل، فإن للشركة الحوافز كلها لجذب المستخدمين إلى منصّة البحث والمحتوى والخدمات المساعدة، ثم استخدام "أساليبها وأجهزتها وهياكل البيانات" الخلفية لإنجاز عمليات الاستخراج بكفاءة. يؤدي الميل نحو الحصرية إلى إنتاج مجموعة ممارسات تُعتبر "احتكارية" في منظور الأطر التنظيمية في القرن العشرين. وعلى الرغم من صحّة هذه الأوصاف، إلا أنها تغفل العناصر المهمّة في النظام الجديد. إذ تقتضي ضرورة الاستخراج امتلاك كل شيء. وفي هذا السياق الجديد، أصبحت السلع والخدمات مجرد طرق إمداد خاضعة للمراقبة. لا تهمّنا السيارة، بل البيانات السلوكية الناتجة عن قيادتها. ولا تهمّنا الخريطة، بل البيانات السلوكية الناتجة عن التفاعل معها. الهدف هنا هو توسيع الحدود باستمرار، لتصف في النهاية العالم وما فيه، على مدار الوقت.

من الناحية التقليدية، تعمل احتكارات السلع والخدمات على تشويه الأسواق من ناحية أنها تقضي على المنافسة بشكل غير عادل، بهدف رفع الأسعار حسب الرغبة.

(343) مايكل لوقا وآخرون، "هل يُضعف محتوى غوغل بحث غوغل؟ دليل تجريبي" (بحث في كلية إدارة الأعمال في جامعة هارفرد، أغسطس/ آب 2016).

لكن الكثير من الممارسات الاحتكارية، في ظل رأسمالية المراقبة، تعمل في الواقع بوصفها وسيلة لحصر إمدادات المواد الخام المستمدة من المستخدمين. لا يُطلب من المستخدم أي مقابل نقدي لقاء ذلك، بل هي مجرد فرصة للشركة لاستخراج البيانات. لم تصمّم ممارسات الحصر لحماية منافذ المنتجات، بل لحماية طرق الإمداد الحيوية للسلسلة غير المنظّمة التي تُمثّل فائضًا سلوكيًا. ربما كان بإمكان الجهات الفاعلة المارقة في أزمنة سابقة، حصر أسواق النحاس أو المغنيزيوم، لكنها تُحاصر الآن ما يُعتبر فائضًا سلوكيًا. وتعمل الشركات حاليًا على عرقلة المنافسين في مجال البحث، بطرق غير عادلة، بهدف حماية أهم طرق التوريد بالنسبة إليها، وليس من أجل تثبيت الأسعار. عمليات الحصر هذه ليست عمليات تجارية، ذات آثار بعيدة المدى على المعادن أو المحاصيل التي تتخذ في النهاية طريقًا غير مباشر نحو أسعار السلع. ففي هذه الصورة، نحن "المحاصرون". نحن مصدر السلعة المرغوبة، وتجارنا هي هدف الاستخراج. مع انتقال رأسمالية المراقبة من وادي السيليكون إلى شركات وقطاعات أخرى، نجد أنفسنا "محاصرين"، في عالم لا مفرّ منه، ونعمل بلا هوادة على توسيع عمليات نزع الملكية. من المهم القول إنه من غير المرجّح أن يكون للتدخلات التنظيمية المصمّمة لتقييد ممارسات غوغل المُحاصرة أي تأثير يُذكر على العمليات الأساسية لهذا الشكل من السوق، وسوف نعود إلى هذا الموضوع أكثر من مرّة. تُكتشف طرق إمداد جديدة وتُهمّد وتُؤمّن باستمرار. وتُضطر أنشطة نزع الملكية إلى تجاوز كل عقبة، وستستمرّ في ذلك ما لم يُشكّل تهديدًا وجوديًا حقيقيًا.

تقدم منصّة نظام أندرويد للهواتف المحمولة، من شركة غوغل، مثالًا على الدور الحاكم الذي تلعبه عملية الاستيلاء على الفائض السلوكي والدفاع عنه. مع ظهور الهواتف المحمولة والأجهزة اللوحية، أصبح استخدام الإنترنت متاحًا فيها، واضطّرت شركة غوغل للبحث عن طرق جديدة للدفاع عن سلسلة التوريد الأساسية الخاصة بها وتوسيعها في مجال البحث. وسرعان ما أصبح نظام أندرويد هو مصدر الإمداد الثاني المهم للشركة فيما يتعلّق بالفائض السلوكي. في عام 2008، قادت غوغل تحالفًا بين مصنّعي التكنولوجيا، ومشغلي الاتصالات اللاسلكية،

لتطوير "منصة مفتوحة وشاملة للأجهزة المحمولة". واعتقد بعض المراقبين أن الهواتف التي تعمل بأنظمة أندرويد كانت بمنزلة فرصة لشركة غوغل لمنافسة شركة آبل على هامش الأرباح في مجال الهواتف الذكية، لكن المطلعين على بواطن الأمور في شركة غوغل أدركوا أن إمكانيات النمو والربح هي من خلال الحصول على الفائز السلوكي وتحويله إلى منتج يقوم على إمكانية التنبؤ.

قامت شركة غوغل بترخيص نظام أندرويد لصانعي الهواتف المحمولة مجاناً لأنه كان يهدف إلى جذب المستخدمين إلى محرك بحث غوغل وغيره من خدماتها، وإنشاء جهاز إمداد محمول في كل مكان لدعم مناطق معروفة عن الفائز السلوكي، وتمهيد مناطق إمداد جديدة، بما في ذلك أنظمة تحديد الموقع الجغرافي، والدفع عبر الهاتف المحمول، وتلك الأشياء كلها التي يتوق إليها المعلنون بشدة.⁽³⁴⁴⁾ ووفقاً لما قاله المدير المالي لشركة غوغل للمحللين الماليين عام 2009، "إذا مضينا قدماً في تبني هذه الهواتف المحمولة بخفض التكلفة لأنها مفتوحة المصدر، قدّروا عدد عمليات البحث [التي ستنتج عن ذلك]".⁽³⁴⁵⁾ وفي عام 2011 وصف أحد كبار المستثمرين في مجال رأس المال الاستثماري في وادي السيلكون أجهزة الهاتف العاملة بنظام أندرويد بأنها:

ليست "منتجات" بالمعنى الكلاسيكي للأعمال.... فهم لا يريدون تحقيق أرباح من أندرويد.... بل يريدون الوصول إلى أية طبقة قائمة بينهم وبين المستهلك وجعلها مجانية (أو حتى أقل من مجانية).... فهم في جوهر الأمر لا يبنون خندقاً فحسب؛ بل هم يحرقون الأرض حول قلعتهم لمسافة 250 ميلاً لضمان عدم تمكّن أي شخص من الاقتراب منها.⁽³⁴⁶⁾

كانت عمليات الإمداد أشبه بكنز محمي داخل قلعة محصنة، وكانت سياسات التطوير التي اتبعتها شركة أندرويد هي أساس نجاح استراتيجية الإمداد هذه. وعلى

(344) أليستير بار، "كيف تهدف غوغل إلى التعمق في حياة المستخدمين"، وول ستريت جورنال، 28 مايو/أيار 2015.

(345) انظر إريك شونفيلد، "شميدت: يوشك اعتماد أندرويد أن ينفجر"، مدونة "تيك كراش"، 15 أكتوبر/تشرين الأول 2009.

(346) بيل جولي، "قطار الشحن العامل بنظام أندرويد"، مجلة "أبوف ذا كراود"، 25 مارس 2011.

النقيض من شركة آيفون، كانت منصّة أندرويد "مفتوحة المصدر"، مما سهّل على مطوّري التطبيقات حول العالم إنشاء تطبيقات لمستخدمي أندرويد. وضمت غوغل، في نهاية المطاف، عالمي التطبيقات الجديد والقديم إلى متجرها "غوغل بلاي". كان لزاماً على الشركات المصنّعة التي تريد تثبيت برنامج "غوغل بلاي" مُسبقاً على أجهزتها ترخيص خدمات غوغل المحمولة وتثبيتها باعتبارها إمكانية افتراضية والحصرية: بحث (search)، غوغل (Google)، غوغل بلاي (Google Play)، يوتيوب (YouTube)، خرائط غوغل (Google Maps)، صور غوغل (Google Photos)، وأية طرق توريد أخرى كانت في حالة صعود في ذلك الوقت.

في عام 2016، أصبحت ممارسات غوغل المتعلقة بنظام أندرويد محور تحقيق لمكافحة الاحتكار في الاتحاد الأوروبي، وكانت اعتراضات الشركة نسخة طبق الأصل من بناء غوغل المتعمّد، وحماية طرق الإمداد الحيوية في البحث والهاتف المحمول. مرّة أخرى، ركزت المعارضة الحكومية لأنشطة غوغل الاحتكارية على الأضرار التنافسية التقليدية على حساب الأضرار الجديدة التي تسببها رأسمالية المراقبة. وفي مطلع أبريل/ نيسان عام 2013، صرّح إيريك شميدت في مؤتمر مخصّص "للأجهزة الرقمية كلها" بأن "هدفنا من أندرويد هو الوصول إلى الجميع. ستتجاوز مليار جهاز أندرويد في غضون ستة أشهر إلى تسعة. في غضون عام أو عامين، سنصل إلى ملياري شخص... هاتف ذكي غير مكلف نسبياً مزوّد بمتصفّح هو كل ما تحتاجه للحصول على معلومات العالم". يُفترض أن تهدف الجملة الأخيرة إلى وصف فوائد نظام أندرويد لمستخدميه. ومع ذلك، فهي تُلخص طموحات غوغل نفسها بشكل أكثر فاعلية، وتُلقي نظرة ثاقبة على اقتصاديات الحجم الحيوية المرتبطة بطرق التوريد عبر الهاتف المحمول.⁽³⁴⁷⁾

تدافع غوغل بشراسة عن طرق إمداد تُعدّ مهدّدة. إن أي انقطاع في عمليات

(347) ستيف كوفاتش، "إريك شميدت: سيكون لدينا مليارات شخص يستخدمون أندرويد بفضل الهواتف الرخيصة"، بيزنس إنسايدر، 16 أبريل 2013؛ إينا فريد، "إريك شميدت يتحدث عن مستقبل أندرويد، موتورولا، السيارات والبشرية (فيديو)"، مدونة "آل سنغس دي"، 8 مايو/ أيار 2013.

الاستخراج، ومطالبتها الحصرية بالمواد الخام، هو المسار الذي لا يمكن اختراقه. في عام 2009، اختارت شركة موتورولا، المصنعة لأجهزة أندرويد، استبدال خدمات تقدّمها شركة "سكاي هوك وايرلس" (Skyhook Wireless) بخدمات المواقع المجانية التي تقدّمها غوغل، لأن شركة موتورولا تعتقد أن "سكاي هوك" تقدّم نتائج أعلى موثوقية. واعترف مدير منتجات غوغل بتفوّق شركة "سكاي هوك"، لكنه أعرب عن مخاوفه في رسالة إلكترونية إلى أحد المسؤولين التنفيذيين في غوغل، مشيرًا إلى أنه إذا تحوّل المصنّعون الآخرون إلى "سكاي هوك"، فسيكون ذلك سيئًا بالنسبة إلى غوغل، لأنه سيعيق قدرتنا على الاستمرار في جمع البيانات"، لقاعدة بيانات موقع "واي فاي" الخاص بالشركة. وتتضمن وثائق المحكمة المتعلقة بالدعوى القضائية التي رفعتها شركة سكاي هوك ضد موتورولا (وسامسونج) رسالة إلكترونية من نائب رئيس قسم الهواتف المحمولة في غوغل إلى الرئيس التنفيذي لشركة موتورولا، يصرّ فيها على أن مقاطعة جمع البيانات من جانب غوغل كانت "مشكلة توقف الشحن". (348)

توضح معركة قانونية أخرى كيف أن منتجات مثل مُنتج أندرويد تُقيّم من حيث العرض أكثر مما تُقيّم من حيث المبيعات. طوّرت شركة "ديسكونكت" (Disconnect Inc)، التي أسسها مهندسان سابقان في غوغل ومحام متخصص في حقوق الخصوصية عام 2011، تطبيقات سطح المكتب والهواتف المحمولة "لحماية خصوصية مستخدمي الإنترنت وأمانهم من خلال حظر الاتصالات الشبكية غير المرئية، وغير المرغوب فيها، بين متصفّح المستخدم أو جهازه المحمول و"الموقع/الخدمات" التي تشارك في التتبّع غير المرئي، أو تُعرف أو يُشتبه في أنها توزّع برامج ضارة.... ليس فقط عند تصفّح الويب، بل أيضًا عندما يستخدم تطبيقات جوال

(348) انظر أميت ساشديف، "سكاي هوك تقاضي غوغل بعد توقف موتورولا عن استخدام برنامجها القائم على الموقع"، شيكاغو تريبيون، 19 أغسطس/ آب 2011. انظر أيضًا التحليل العميق في مايو/ أيار 2011 لأكثر من 750 صفحة من وثائق المحكمة غير السريّة: نيلاي باتيل، "كيف تتحكم غوغل في أندرويد: البحث العميق في ملفات سكاي هوك"، فيرج، 12 مايو/ أيار 2011.

أخرى تابعة لطرف ثالث آخر".⁽³⁴⁹⁾ استهدفت شركة "ديسكونكت" على وجه التحديد "اتصالات الشبكة غير المرئية وغير المرغوب فيها وغير المعلنة غالباً" من مواقع وخدمات الطرف الثالث التي تحدث بمجرد زيارة موقع ويب، أو فتح تطبيق جوال.

لسوء حظ شركة "ديسكونكت"، فإن العملية ذاتها التي كانت تهدف إلى عرقلتها قد أصبحت طريق إمداد مهم لشركة غوغل وغيرها من شركات رأس المال المراقبة.⁽³⁵⁰⁾

(349) شكوى مقدّمة من شركة "ديسكونكت" – بشأن انتهاك غوغل للمادة 102 من معاهدة عمل الاتحاد الأوروبي من خلال التجميع في منصّة أندرويد، والاستبعاد المرتبط بذلك لتقنيات الخصوصية والأمان والمنافسة، رقم (COMP/40099)، يونيو 2015.

(350) من بين الدراسات الأخرى الجديرة بالملاحظة، دراسة أجرتها جينيان زانغ، الباحثة في جامعة هارفارد، عام 2015، واختبرت 110 من أشهر التطبيقات المجانية في كلّ من نظامي أندرويد (غوغل) وأي أو إس (أبل). وجد الباحثون أن 73٪ من تطبيقات أندرويد، مقارنةً بـ 16٪ من تطبيقات iOS، تشارك معلومات التعريف الشخصية (PII) مع جهات خارجية. كما وجد الباحثون أن الكثير من تطبيقات الهاتف المحمول تشارك معلومات المستخدم الحساسة مع جهات خارجية "وأنها لا تحتاج إلى طلبات أذونات مرئية للوصول إلى البيانات" (الخط المائل يعود لي). انظر جينيان زانغ وآخرون، "من يعرف عني، وماذا يعرف؟ دراسة استقصائية حول مشاركة البيانات الشخصية خلف الكواليس مع جهات خارجية من خلال تطبيقات الهاتف المحمول"، مجلة علوم التكنولوجيا، 30 أكتوبر 2015.

في دراسة مفصّلة أخرى، أجراها لويجي فينيري وزملاؤه في EURECOM عام 2015، دقق الباحثون في أحدث 5000 تطبيق وأكثرها شيوعاً في متجر "غوغل بلاي". ووجد الباحثون أن 500 من هذه التطبيقات تتصل بأكثر من 500 عنوان "ملف تعريف المستخدم" مختلف، وأن 25 تطبيقاً تتصل بأكثر من 10 عناوين "ملف تعريف المستخدم". ويمكن لعناوين أخرى كثيرة الاتصال "بالنطاق" ذاته. لذلك فحص الباحثون أيضاً النطاقات التي كانت غالباً مصدر هذه الاتصالات. تسعة من أصل عشرين نطاقاً هي خدمات ويب تُديرها غوغل. ومن بين الأحد عشر نطاقاً المتبقية، ثلاثة نطاقات مملوكة لغوغل أو تابعة لها. أما الثمانية الأخرى فهي منافسة لشركة غوغل في أسواق السلوكيات المستقبلية، بما في ذلك Facebook و Samsung و Scorecard Research، وهي شركة وساطة بيانات تبيع السلوكيات الفائضة لزيائتها.

ثم اتخذ الباحثون خطوة قيّمة أخرى. فقد صنفوا كل رابط من عناوين "ملف تعريف المستخدم" التي زارتها هذه التطبيقات على أنه "مرتبط بالإعلانات" أو "مرتبط بتتبع المستخدم"، ووجدوا أن 66% من التطبيقات تتصل بمتوسط 40 رابطاً مرتبطاً بالإعلانات، على الرغم من أن العدد في بعض الحالات يتجاوز 1000. من بين النطاقات الخمسة الأولى التي تمثلها هذه العناوين، تنتهي ثلاثة منها إلى غوغل. وفيما يتعلق بالتتبع، تشير البيانات إلى أن المنافسة على فائض السلوك أكثر تنافساً. من بين التطبيقات التي شملتها الدراسة، لم يتصل 73% منها بمواقع التتبع، ولكن 16% منها اتصل بـ 100 موقع تتبع أو أكثر. ولا تزال غوغل هي القوة المهيمنة هنا، حيث تدير 44% من النطاقات المرتبطة بالتتبع، تليها 32% التي تديرها شركة (AT Internet)، وهي شركة "استخبارات رقمية" خاصة متخصصة في "تحليل السلوك". كما حصلت أربعة من أكثر عشرة تطبيقات تتبع كثافة في "غوغل بلاي" على جائزة "أفضل مطوّر" من غوغل. انظر لويجي

تشرح دراسات عديدة مدى فعالية بنية استخراج البيانات التي تستخدمها غوغل، بما في ذلك "تعداد خصوصية الويب" (Web Privacy Census)، الذي يقيس بشكل أساسي ملفات تعريف الارتباط. وقد حُلّل التعداد أفضل 100 و 1000 و 25 ألف موقع إلكتروني في أعوام 2011 و 2012 و 2015، وهي سنوات شهدت اكتشافاتٍ ودراساتٍ مكثفة من قِبل رُاسماليي المراقبة. كشفت المقارنات بين عامي 2012 و 2015 عن وجود أكثر من ضعف عدد المواقع التي تحتوي على 100 ملف تعريف ارتباط أو أكثر، وأكثر من ثلاثة أضعاف عدد المواقع التي تحتوي على 150 ملف تعريف ارتباط أو أكثر. في عام 2015، وجد الفريق أن أي شخص يزور أكثر 100 موقع ويب شهرةً سيجمع أكثر من 6000 ملف تعريف ارتباط على جهازه، 83٪ منها من جهات خارجية غير مرتبطة بالموقع الذي تمت زيارته. وقد وجد التعداد "البنية الأساسية لتتبع غوغل" في 92 من أفضل 100 موقع و 923 من أفضل 1000 موقع، وخلص إلى أن "قدرة غوغل على تتبع المستخدمين على المواقع الشعبية لا مثيل لها، وهي تقترب من مستوى المراقبة الذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال مزود خدمة

فيجنيري وآخرين، "تربيض متجر تطبيقات أندرويد: توصيف خفيف الوزن لتطبيقات أندرويد"، ArXiv:1504.06093 [علوم الحاسوب]، 23 أبريل 2015.

قام فريق من الباحثين من جامعة واشنطن بقيادة آدم ليرنر وأنا سيمبسون بدراسة نمو أدوات تتبع الويب من عام 1996 إلى عام 2016. ومن وجهة نظرنا، ليس من المستغرب أن يزداد تتبع الويب بالتزامن مع صعود رأسمالية الرقابة ومأسستها، وكذلك اتصالات الجهات الخارجية. ويشير الباحثون إلى أنه على الرغم من أن أدوات التتبع السابقة سجلت بيانات روتينية موجهة نحو استقرار المنتج، فإن الارتفاع الأحدث في أدوات التتبع هو من تلك التي تلتقط المعلومات الشخصية وتحللها. في عام 2000، اتصل حوالي 5% فقط من المواقع بخمسة أطراف أخرى على الأقل، ولكن بحلول عام 2016، أرسلت 40% من المواقع بيانات إلى جهات خارجية. ومن بين أدوات التتبع التي تتمتع "بأكبر قدر من القدرة على التقاط ملفات تعريف سلوك المستخدم عبر العديد من المواقع"، يُشار إلى موقع (google-analytics.com) على أنه "قيمة شاذة ملحوظة"، حيث تجمع بيانات من مواقع أكثر من أي كيان آخر. ويخلص الباحثون إلى أنه على الرغم من مخاوف الخصوصية التي حظيت باهتمام كبير في السنوات الأخيرة، فقد توسع التتبع بشكل كبير في "النطاق والتعميق" على خط اتجاه تصاعدي واضح. بمعنى آخر، هناك تتبع أكبر الآن من أي وقت مضى منذ انطلاق الإنترنت، حتى مع سعي المواطنين والحكومات لحماية خصوصية الأفراد. انظر آدم ليرنر وآخرين، "إنترنت جونز وسارقو أجهزة التتبع المفقودة: دراسة أثرية لتتبع الويب من عام 1996 إلى عام 2016"، في وقائع ورشة عمل حول أنظمة الاستشعار والاستجابة الشاملة، والتطبيقات، والخدمات: (EESR '05)، 5 يونيو 2005، سياتل (بيركلي، كاليفورنيا: جمعية USENIX، 2005).

في تحليل آخر أجراه تيموثي ليرت من جامعة بنسلفانيا عام 2015، على مواقع من أفضل مليون موقع إلكتروني، وجد أن 90٪ من هذه المواقع تُسَرَّب البيانات إلى تسعة نطاقات خارجية في المتوسط، تتعقب بيانات المستخدمين وتلتقطها وتصادرها لأغراض تجارية. ومن بين هذه المواقع، يُجري 78٪ منها عمليات نقل بيانات إلى جهات خارجية إلى نطاق مملوك لشركة واحدة: غوغل. بينما يُجري 34٪ عمليات نقل بيانات أخرى إلى نطاق مملوك لشركة فيسبوك. (352) في عام 2016، أفاد ستيفن إنغلهاردت وأرفيند نارايانان من جامعة برينستون بنتائج قياسهما لبيانات التتبع وتحليلها من مليون موقع ويب. (353) وقد حدّدا 81000 جهة خارجية، لكن 123 منها فقط موجودة على أكثر من 1٪ من المواقع. وكان من هذه المجموعة أكبر خمس جهات خارجية، واثناعشر من أكبر عشرين نطاقًا، هي نطاقات مملوكة لشركة غوغل. وكانت النتيجة التي وصلوا إليها: "إن غوغل وفيسبوك وتويتر هي في الواقع الكيانات الخارجية الوحيدة الموجودة على أكثر من 10٪ من المواقع". وقام باحثون صينيون بالتحقيق في 10.000 تطبيق من أكبر أسواق تطبيقات الطرف الثالث في عام 2017. ووجدوا عملية "سرية" يقوم التطبيق فيها بتشغيل تطبيقات أخرى بشكل مستقل في خلفية هاتفك، وخلصوا إلى أن هذا "التواطؤ بين التطبيقات" كان الأكثر انتشارًا في أسواق أندرويد التابعة لطرف ثالث. من بين أفضل ألف تطبيق على إحدى المنصات الصينية الشهيرة، أطلق 822 تطبيقًا ما معدّله 76 تطبيقًا آخر، ومن بين هذه الإطلاقات، 77٪ منها كانت من خلال "خدمات دفع" سحابية، مُصممة لتحديث التطبيقات، لكنها تُقدم خدمات أكثر بكثير من دون شك. ويُشير الباحثون إلى أن غوغل تقدّم خدمة الدفع في بيئة أندرويد. (354)

(351) إبراهيم الطويل، ناثن جود، وكريس جاي هوفناغل، "تعداد خصوصية الويب" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 15 ديسمبر 2015).

(352) تيموثي ليرت، "كشف الويب غير المرئي: تحليل طلبات HTTP من جهات خارجية على مليون موقع ويب"، المجلة الدولية للاتصالات 9 (28 أكتوبر 2015): 18.

(353) الطويل، جيد، وهوفناغل، "تعداد خصوصية الويب".

(354) منغو سو وآخرون، "APPHolmes": اكتشاف تواطؤ التطبيقات وتوصيفها بين أسواق أندرويد

أخيراً، وثّق بحثٌ استثنائيٌّ أجرته منظمة "إكسودس" الفرنسية غير الربحية للخصوصية ومختبر الخصوصية بجامعة "يال" عام 2017 الانتشار الهائل لبرامج التتبع. وحدّدت "إكسودس" 44 برنامج تتبع في أكثر من 300 تطبيق لنظام أندرويد من غوغل، بعضها مُصمَّم أيضاً لنظام تشغيل آبل. وقد تم تحميل هذه التطبيقات مليارات المرات. يبرز موضوعان في تقرير البحث: الانتشار الواسع، والتكثيف. **أولاً**، يكاد يستحيل وجود تطبيق بريء؛ إن لم يكن يتتبعك الآن، فقد يفعل ذلك في الأسبوع أو الشهر المقبل: "ثمة صناعة بأكملها تعتمد على هذه الأدوات، والتطبيقات المصنفة باعتبارها "نظيفة" اليوم، قد تحتوي على أدوات تتبّع لم تحدّد بعد. كما قد يُضيف المطوّرون شيفرة التتبع إلى الإصدارات الجديدة من التطبيقات في المستقبل". **ثانياً**، حتى التطبيقات التي تبدو بريئة مثل تطبيقات الطقس والمصابيح الكهربائية ومشاركة الرحلات وتطبيقات المواعدة "تعج" بعشرات برامج التتبع التي تعتمد على تكتيكات غريبة وعدوانية، وغير قابلة للقراءة، لجمع كميات هائلة من الفائض السلوكي الموجه في نهاية المطاف إلى استهداف الإعلانات. على سبيل المثال، طوّرت منصة تتبع الإعلانات "فيدز آب" (FidZup) "اتصالاً بين جهاز إرسال صوتي وهاتف محمول...." يمكن لهذه الشركة الكشف عن وجود الهواتف المحمولة، وبالتالي أصحابها، من خلال بثّ نغمة غير مسموعة للأذن البشرية داخل مبنى: "هكذا سيتمكّن المستخدمون الذين يُثبتون تطبيق 'وتين غورماند'، وهو دليل للمطاعم والفنادق في فرنسا، من تتبّع مواقعهم الفعلية عبر مكبرات صوت في منافذ البيع بالتجزئة أثناء تنقلهم في باريس. وسيشارك في هذه التجربة قراء تطبيق مجلة السيارات 'أوتو جورنال'، وتطبيق دليل التلفزيون 'تليستار'، تجربتهم". وفي نموذج تنبأت به "براءة اختراع غوغل" التي تحدّثنا عنها في الفصل الثالث، وسنصادفها مراراً وتكراراً في الفصول التالية، تؤكّد نتائج البحث أن التتبع المستمر لا يتأثر بـ "نظام الأذونات" في أندرويد، على الرغم من وعوده بإمكانية التحكم من جانب المستخدم.⁽³⁵⁵⁾

التابعة لطرف ثالث، رابطة آلات الحوسبة، 2017.
(355) انظر يانيل غراور، "مجموعة مذهلة من أدوات التتبع السرية الموجودة في تطبيقات أندرويد الشهيرة"، إنترسبت، 24 نوفمبر / تشرين الثاني 2017.

نظرًا للعداء وكثافة عمليات التوريد هذه، فلن يدهشنا أن يُحظر برنامج "ديسكونكت" من قائمة "غوغل بلاي" ذات التطبيقات الكثيرة على الهاتف المحمول، وهو ما أدى إلى رفع دعوى قضائية من شركة "ديسكونكت" ضد شركة غوغل عام 2015. حيث توضح شكوى الشركة الناشئة أن "شركات الإعلان، بما في ذلك غوغل، تستخدم هذه الاتصالات غير المرئية "لتتبع" المستخدم أثناء تصفحه للويب، أو فتح تطبيقات الهاتف المحمول الأخرى، وذلك لجمع معلومات شخصية عنه، وإنشاء "ملف تعريف له"، وكسب المال من خلال استهدافه بإعلانات معينة".⁽³⁵⁶⁾ وجادلت الشركة أن إجراءات حماية الخصوصية التي تقدمها غوغل "تسمح للشركة دومًا بمواصلة جمع المعلومات الخاصة....".⁽³⁵⁷⁾ يُعدّ حظر غوغل لتطبيق "ديسكونكت" كاشفًا للغاية، نظرًا لحقيقة أن غوغل، على عكس آبل، معروفة "بليبراليتها" فيما يتعلق بملايين التطبيقات المبيعة أو المُحمّلة "مجانًا" من متجر تطبيقاتها. وتحاول إرشاداتها الفضفاضة تحديد التطبيقات الضارة واستبعادها، لكنها لا تفعل أكثر من ذلك.⁽³⁵⁸⁾

حاول مؤسسو "ديسكونكت" تحدي ضرورة الاستخراج، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك بمفردهم. بعد محاولتهم - دون جدوى - التفاوض مع غوغل، انضموا في النهاية إلى منظمات أخرى في تقديم شكوى ضد غوغل في الاتحاد الأوروبي، مما ساهم في تسريع إجراء تحقيق لمكافحة الاحتكار يركّز على أندرويد.⁽³⁵⁹⁾ ووفقًا لما صرّحت به شركة "ديسكونكت":

تتعرّض غوغل لضغوط هائلة من المجتمع المالي لزيادة فاعلية تتبعها للفائض السلوكي، مما لها بزيادة إيراداتها وأرباحها. إن منح المستخدم القدرة على التحكم في

(356) "شكوى مقدّمة من شركة ديسكونكت"، 2.

(357) "شكوى مقدّمة من شركة ديسكونكت"، 3.

(358) فيغنييري وآخرون، "ترويض متجر تطبيقات أندرويد"؛ "قضايا مكافحة الاحتكار/ الكارتل - 40099 غوغل أندرويد"، مفوضية المنافسة بالاتحاد الأوروبي، 15 أبريل/ نيسان 2015.
(359) "المفوضية الأوروبية - بيان صحفي - مكافحة الاحتكار: المفوضية ترسل بيان اعتراضات إلى غوغل بشأن نظام التشغيل أندرويد وتطبيقاته"، المفوضية الأوروبية، 20 أبريل/ نيسان 2016.

معلوماته الخاصة، (وحماية نفسه من البرامج الضارة)، من خلال حظر الروابط غير المرئية إلى المواقع المشبوهة، يُشكل تهديدًا وجوديًا لغوغل.⁽³⁶⁰⁾

بصفتهم موظفين سابقين في شركة غوغل، اعتقد مؤسسو شركة "ديسكونكت" أنهم يعرفون خصمهم جيدًا، لكنهم قلّلوا من شأن التقدّم الذي أحرزته رأسمالية المراقبة، والضراوة التي استعدّت بها الشركة، لصدّ "التهديدات الوجودية" لطرق إمدادها.

3. حلقة نزع الملكية

اكتشفت غوغل قبل فترة طويلة من ظهور "ديسكونكت"، أن عملية نزع الملكية الناجحة ليست عمليةً واحدة، بل هي تجمع معقدّ لعمليات سياسية واجتماعية وإدارية وتقنية، تتطلب إدارةً ماهرةً على مدى فترةٍ طويلة. تكشف عمليات نزع الملكية التي تقوم بها غوغل عن سلسلةٍ من المراحل المتوقعة التي يجب صياغتها وتنسيقها بدقةٍ بالغة لتحقيق غايتها النهائية كنظامٍ من الحقائق يتخذ من خلاله استخراج الفائض طابعًا طبيعيًا.

إن المراحل الأربعة للحلقة هي الغزو أو "التوغّل"، التعمّد، التكيّف (الخضوع)، إعادة التوجيه. تشكّل هذه المراحل مجتمعة "نظرية التغير" التي تصف عملية انتزاع الملكية وتنبأ بها باعتبارها عملية سياسية وثقافية تدعمها مجموعة معقدة من القدرات الإدارية والتقنية والمادية. ثمة كثير من الأمثلة الحية على هذه الدورة، بما في ذلك تطبيق "جيميل" من غوغل؛ جهود غوغل لإنشاء مسارات إمداد عبر شبكات تواصل اجتماعي، بداية مع "غوغل باز" (Google Buzz)، ثم مع "غوغل بلس" (+Goolge)؛ وتطوير الشركة لنظارات غوغل. سنركّز في هذا الفصل على سرديّة "ستريت فيو"، وهي خاصية من خصائص "خرائط غوغل"، لإلقاء نظرة دقيقة على دورة نزع الملكية وتحديات إدراتها.

(360) "شكوى مقدّمة من شركة ديسكونكت"، 40.

تبدأ المرحلة الأولى من نزع الملكية الناجح بالتوغل من جانب واحد في فضاء غير محمي: جهاز حاسوبك المحمول، هاتفك الجوال، صفحتك على الويب، الشارع الذي تعيش فيه، رسالة بريد إلكتروني إلى صديقك، نزهتك في الحديقة، تصفح الإنترنت بحثًا عن هدية عيد ميلاد، مشاركة صور أطفالك، اهتمامك وذوقك وهضمك ودموعك وانتباهك ومشاعرك ووجهك. ويحدث التوغل عندما تعتمد عمليات نزع الملكية على قدراتها الافتراضية لاختطاف الفائص السلوكي من المساحات غير السوقية للحياة اليومية حيث تعيش. يُطلق هذا التوغل أبسط أشكال السلب، وأكثرها انتشارًا لدى غوغل: مفهوم حنة آرندت عن "الخطيئة الأصلية للسرقة البسيطة" المتكررة⁽³⁶¹⁾. ويستمرّ التوغل على الطريق دون أن يلتفت يمينًا أو شمالًا، مطالبًا باستمرار بحقوق اتخاذ القرار بشأن كل ما يعترض طريقه. ويقول: "سأخذ هذا، أصبح هذا ملكي الآن".

تعلمت الشركة شنّ هجماتٍ، والمضيّ قُدماً حتى تبدأ المقاومة. ثم تُغوي خصومها، أو تتجاهلهم، أو تُرهقهم، أو ببساطة تُنهكهم. ويعني الإغواء هنا سلسلة من الإغراءات الذهنية: سعة تخزين غير مسبقة، وإمكانية الوصول إلى معلومات ذات جودة مميزة، وتسهيلات جديدة. كما يمكن للشركة أن تلجأ بسهولة، عند الضرورة، إلى تكتيكات صارمة تهدف إلى استنزاف وقت خصومها وأموالهم وعزيمتهم. هناك المئات من القضايا المرفوعة ضدّ شركة غوغل من قِبَل الدول والولايات والمجموعات والأفراد، وهناك العديد من القضايا الأخرى التي لم تخرج إلى العلن إطلاقًا. ووفقًا لـ "مارك روتنبرغ، المدير التنفيذي لمركز معلومات الخصوصية الإلكترونية (EPIC)، لا أحد يعرف على وجه التحديد عدد الدعاوى القضائية الموجودة في جميع أنحاء العالم⁽³⁶²⁾ وقد تختلف التحديات القانونية، لكنها غالبًا ما تعود إلى الشيء ذاته: غزو أحادي الجانب تواجهه مقاومة.

(361) يشير مفهوم هانا آرندت "الخطيئة الأصلية للسرقة البسيطة" إلى الفعل التأسيسي للرأسمالية، حيث تم الاستيلاء على الأراضي والموارد الطبيعية لتعزيز تراكم رأس المال. تجادل آرندت بأن عملية السلب هذه لم تكن حدثًا لمرة واحدة، بل هي عملية لا بدّ من تكرارها لتغذية تراكم رأس المال باستمرار (المترجم).

(362) مارك روتنبرغ، مقابلة هاتفية مع المؤلف، يونيو 2014.

ظهرت المعارضة القانونية والاحتجاج الاجتماعي فيما يتصل "بالكتب الإلكترونية"،⁽³⁶³⁾ وجمع المعلومات الشخصية من خلال قدرات الكاميرات وتطبيق "ستريت فيو المتصل بالإنترنت"،⁽³⁶⁴⁾ والتقاط الاتصالات الصوتية،⁽³⁶⁵⁾ وتجاوز إعدادات الخصوصية،⁽³⁶⁶⁾ والتلاعب بنتائج البحث،⁽³⁶⁷⁾ واحتفاظ واسع النطاق ببيانات البحث،⁽³⁶⁸⁾ وتتبع بيانات موقع الهاتف الذكي،⁽³⁶⁹⁾ والأجهزة التكنولوجية

(363) جينيفر هوارد، "يتوصل الناشرون إلى تسوية في دعوى قضائية طويلة الأمد بشأن مشروع غوغل لمشروع جعل الكتب رقمية"، كرونكل أوف هاير إديوكيشن، 4 أكتوبر/ تشرين الأول 2012؛ "تسوية غوغل بوكس والخصوصية"، 30 أكتوبر/ تشرين الأول 2016؛ خوان كارلوس بيريز، "رفض اقتراح تسوية غوغل بوكس"، بي سي وورلد، 22 مارس/ آذار 2011؛ إليوت فان بوسكيرك، "وزارة العدل وغوغل بوكس"، وايرد، 5 فبراير/ شباط 2010؛ ميغيل هيلفت، "معارضة تسوية غوغل بوكس تتجمد"، نيويورك تايمز - مدونة بيتس، 17 أبريل/ نيسان 2009؛ براندون بتلر، "تسوية غوغل بوكس: من يقدم الطلب وماذا يقولون؟" رابطة مكتبات الأبحاث 28 (2009): 9؛ إيان تشانت، "نقابة المؤلفين تستأنف قرار رفض دعوى غوغل بوكس"، مجلة المكتبة، 16 أبريل/ نيسان 2014.

(364) "تحقيقات حول خدمة غوغل ستريت فيو"، EPIC.org، 2014؛ ديفيد كرافيتس، "خطأ متعمد: تحليل كارثة غوغل في رصد شبكات واي فاي"، ويرد، 2 مايو/ أيار 2012؛ كلينت بولتون، "38 ولاية تتحدى انتهاك غوغل لخصوصية واي فاي"، إي، ويك، 21 يوليو/ تموز 2010؛ أليستير جاميسون، "غوغل ستواصل استخدام سيارات الكاميرا رغم شكاوى الخصوصية بشأن خدمة ستريت فيو"، تليغراف، 9 أبريل/ نيسان 2009؛ غاريت كورفيلد، "على الأقل أستطيع أن أحافظ على كرامتي" - مؤسس ستريت ماب بعد خسارة دعوى قضائية ضد غوغل، ريجستر، 20 فبراير/ شباط 2017.

(365) جوزيف مين، ودانيال شيفر، وتيم برادشو، "غوغل تستعد للتحقيق في جمع البيانات"، فاينانشال تايمز، 17 مايو/ أيار 2010.

(366) جوليا أنغوين، "غوغل في تحقيقات جديدة بشأن الخصوصية"، وول ستريت جورنال، 16 مارس 2012؛ جوليا أنجوين، "غوغل ولجنة التجارة الفيدرالية تقتربان من تسوية بشأن الخصوصية"، وول ستريت جورنال، 10 يوليو 2012؛ جوناثان أوين، "غوغل في المحكمة مجدداً بشأن "الحق في أن تكون فوق القانون البريطاني" بشأن مزاعم المراقبة السرية"، إندبندنت، 8 ديسمبر 2014.

(367) شهادة بنيامين إيدلمان أمام لجنة مجلس النواب الأمريكي بشأن فرقة العمل القضائية المعنية بسياسة المنافسة وقوانين مكافحة الاحتكار، 27 يونيو/ حزيران 2008؛ برودي موليز، ورولف وينكلر، وبرينت كيندال، "من داخل تحقيق مكافحة الاحتكار الأمريكي مع غوغل"، وول ستريت جورنال، 19 مارس/ آذار 2015.

(368) نيت أندرسون، "لماذا تحتفظ غوغل ببياناتك للأبد، وتتعبك بالإعلانات؟"، أرس تكنيكا، 8 مارس/ آذار 2010؛ كيفن ج. أوبراين وتوماس كرامبتون، "الاتحاد الأوروبي يحقق مع غوغل بشأن سياسة الاحتفاظ بالبيانات"، نيويورك تايمز، 26 مايو/ أيار 2007؛ مارك بيرغن، "غوغل تتلاعب بنتائج البحث، وفقاً لدراسة أجراها يلب وتيم وو، الخبير القانوني، ريكود، 29 يونيو/ حزيران 2015".

(369) ديفيد سنيلينغ، "خرائط غوغل تتعقبك! كيف يتتبع هاتفك الذكي كل تحركاتك؟"، إكسبريس، 18 أغسطس 2014؛ جيسون ميك، "الاتحاد الأمريكي للحريات المدنية يُناضل من أجل إجابات بشأن تتبع بيانات موقع هواتف الشرطة"، ديلي نك، 4 أغسطس 2011.

التي يمكن ارتداؤها وقدرات التعرف على الوجه،⁽³⁷⁰⁾ والجمع السري لبيانات الطلاب لأهداف تجارية،⁽³⁷¹⁾ وتوحيد ملفات تعريف المستخدمين عبر جميع خدمات غوغل وأجهزتها،⁽³⁷²⁾ وهذا على سبيل المثال لا الحصر. ومن المتوقع أن نرى طائرات دون طيار، وأجهزة استشعار الجسم، والناقلات العصبية، و"مساعدين رقميين"، وغيرها من أجهزة الاستشعار في السنوات القادمة. وفي هذه الأثناء، تبهرنا غوغل دائماً بشعورها بالاستحقاق والتصميم والجرأة. إذ تجربها ضرورة الاستخراج على تجاوز حدود جديدة في فضاء مكشوف.

يكون التعمّد هو هدف المرحلة الثانية. بينما تسترخي تحقيقات الدعاوى القضائية بوتيرة عملة في المؤسسات الديمقراطية، تواصل غوغل تطوير ممارساتها المثيرة للجدل بوتيرة عالية. خلال الفترة السابقة من تحقيقات أجرتها لجنة التجارة الفيدرالية، ولجنة الاتصالات الفيدرالية، والقضايا والمراجعات القضائية، وتحقيقات المفوضية الأوروبية، ازداد رسوخ الممارسات الجديدة المتنازع عليها باعتبارها حقائق مؤسسية سرعان ما تتلقّى الدعم من أنظمة بيئية متنامية من أصحاب المصلحة. يعتاد البشر على هذا الغزو بمزيج من الرضا والعجز والاستسلام. ويتلاشى شعور الدهشة والغضب. ثم تتسلّل عمليات الغزو ذاتها، التي كانت مستحيلة في السابق، إلى المألوف. والأسوأ من ذلك أنه يتخذ تدريجيًا هيئة الحتمي. ثم تنشأ عمليات اعتماد جديدة. ومع خدر الشعوب، يصعب على الأفراد والجماعات الشكوى.

في المرحلة الثالثة من الحلقة، عندما تضطر غوغل إلى تغيير ممارساتها أحيانًا، يقوم

(370) "نظارات غوغل والخصوصية"، EPIC.org، 6 أكتوبر/ تشرين الأول 2017.

(371) بنيامين هيرولد، "غوغل تحت النار بسبب استخراج البيانات من رسائل البريد الإلكتروني للطلاب"، إديوكيشن ويك، 26 مارس/ آذار 2014؛ كوينتن بلامر، "إبلاغ غوغل بشأن البريد الإلكتروني يثير مخاوف بشأن الخصوصية"، تيك تايمز، 5 أغسطس/ آب 2014.

(372) غرانت غروس، "فرنسا تغرّم غوغل بسبب تغيير سياسة الخصوصية"، بي سي وورلد، 8 يناير/ كانون الثاني 2014؛ ديثيكا لوران، "فيسبوك وتويتر وغوغل مستهدفون في دعوى قضائية فرنسية"، سي إن إن، 26 مارس/ آذار 2014؛ مارك ميليان، "غوغل ستردمج بيانات المستخدمين عبر خدماتها"، سي إن إن، 25 يناير/ كانون الثاني 2012؛ مارتن جيزميتير، "دمج سياسة الخصوصية في غوغل" مخالف للقانون الهولندي"، زي دي نت، 29 نوفمبر/ تشرين الثاني 2013؛ زاك ويتاكر، "غوغل تواجه غرامات من دول الاتحاد الأوروبي بسبب دمج سياسة الخصوصية"، زي دي نت، 2 أبريل/ نيسان 2013.

مديروها ومهندسوها بتعديلات سطحية، لكنها فعالة تكتيكياً، وتلبّي المطالب الفورية للسلطات الحكومية، وأحكام المحاكم، والرأي العام. وفي الوقت نفسه، تعيد الشركة تنظيم صفوفها في المرحلة النهائية لتنمية خطابات وأساليب وعناصر تصميم جديدة تعمل على إعادة توجيه عمليات التوريد المتنازع عليها بما يكفي لجعلها تبدو متوافقة مع المطالب الاجتماعية والقانونية. يتميز الإبداع والموارد المالية، والتصميم المُستخدم في إدارة هذه العملية المرحلية، بالمرونة والديناميكية. في المقابل، تُعتبر الضرورة التشغيلية لاقتصاديات الحجم في استغلال الفائض السلوكي بمثابة آلية دائمة الحركة، لا تتيح إيقاعاتها الثابتة أي مجال للاختلاف.

تطوّرت نظرية نزع الملكية وممارساتها وتحسّنت مع تعلّم الشركة كيفية مواجهة المقاومة العامة، وتحويلها إلى شرط أساسي لحماية امتيازها بالفائض السلوكي وتوسيعه. لقد أتاح إطلاق الشركة لخدمة "جيميل" (Gmail)، في الأول من أبريل/ نيسان عام 2004، فرصة أولية لتسلّق منحني التعلّم هذا، حيث واجهت الشركة الغضب العام بشأن المسح الآلي لمحتوى البريد الإلكتروني المخصص كمصدر جديد للفائض السلوكي من أجل الإعلانات المستهدفة. وأخيراً، تحسّنت حلقة نزع الملكية لتصبح نظرية صريحة للتغيير توطّر خطّة لعب تكتيكية، تُستحضّر الآن بانتظام بوصفها استجابة مُحْتَبَرَة من شركات رأسمالية المراقبة للمقاومة المجتمعية.

كانت حلقة نزع الملكية في شركة غوغل ناجحة للغاية في مواجهة التهديدات التي تعرضت لها خدمة "جيميل"، لدرجة أن الشركة كرّرت التجربة وطوّرتها بشكل أفضل في معاركها حول خدمة "ستريت فيو" من غوغل، وهي عملية رسم خرائط الشوارع أطلقتها الشركة عام 2007. ومرةً أخرى، لم تطلب الشركة الإذن. بل كرّرت ببساطة "الخطيئة الأصلية المتمثلة في السرقة البسيطة" وأخذت ما أرادت، في انتظار أن تأخذ المقاومة مجراها بينما تلتهم البيانات من الأماكن العامة والشوارع والمباني والمنازل في العالم وتسجّلها.

المرحلة الأولى: التوغل

دخلت خدمة "ستريت فيو" إلى الوعي العام للمرة الأولى من خلال منشور يبدو جيداً. ساهم بيتر فلايشر، مستشار الخصوصية في غوغل، في إطلاق "الخدمة" الجديدة بكتابة مديح يُشيد به "بالتقاليد الأمريكية النبيلة" في الأماكن العامة، حيث ادعى أن "الناس لا يتوقعون الخصوصية ذاتها التي يتوقعونها في منازلهم". وهو يدرك تماماً، بصفته محامياً، أهمية الكلمات في إرساء العقود وتثبيت أشياء استباقية، لذلك من المفيد قراءة كلماته التي كتبها عام 2007 بعناية. ويقدم أسلوبه النثري الصريح العفوي أداءً استثنائياً، إذ يؤكد فيه أن المساحات العامة كلها مُباحة لغوغل. إن أية مساحة عامة، من وجهة نظره، تشكّل موضوعاً مناسباً لنوع جديد من الغزو الذي تمارسه الشركة دون ترخيص أو معرفة أو اتفاق. لم تعد المنازل والشوارع والأحياء والقرى والبلدات والمدن مجرد مشاهد محلية يعيش فيها الجيران ويمشون، حيث يجتمع السكان ويتحدثون. لقد علمنا أن تطبيق "غوغل ستريت فيو" يعتبر كل موقع بمثابة كائن آخر بين الكائنات، في شبكة لا نهائية من إحداثيات نظام تحديد المواقع العالمي "جي بي إس" وزوايا الكاميرا.

يريد فلايشر في تصريحه أن يرسخ حق غوغل في إفراغ كل مكان من المعاني الذاتية التي تجمع البشر. نحن نعلم أننا سنصبح مرثيين عندما نغادر منازلنا، لكننا سنصبح مرثيين في أماكن نختارها بأنفسنا. لكن لم يعد هناك أي شيء شخصي الآن. أصبح الآن بيتي وشارعي وحيي والمقهى المفضل لدي يُعرفُ بوصفه كتيباً سياحياً حياً، ومنجماً للمراقبة، وهدفاً للتفتيش الشامل والمصادرة التجارية.

لقد استحوذت شركة غوغل على كل شيء على شبكة الإنترنت فعلاً، ولكن خدمة "ستريت فيو"، وعمليات رسم الخرائط الأخرى التي تقدّمها مثل "غوغل مابس" (Google Maps) و"غوغل إيرث" (Google Earth)، أي (العرض ثلاثي الأبعاد للعالم باستخدام الصور الملتقطة عبر الأقمار الصناعية والصور الجوية)، أعلنت عن رؤية أكثر طموحاً. كان يُفترض أن تعرف غوغل كل شيء في العالم وتقدمه إليك، وأن

يُتاح الوصول إلى هذه الأشياء من خلالها، وأن تُفهرسه في إطار نهما الهائل للفائض السلوكي. كان الافتراض ألا يكون هناك أي شيء يتجاوز حدود غوغل. إن العالم مهزوم الآن، وجاث على ركبتيه، وشركة غوغل هي من ستجلبه إليك.

إن المنشور الذي رافق إصدار خدمة "ستريت فيو" هو نسخة طبق الأصل عن منشور الغزاة الذين هبطوا ذات يوم على شاطئ البحر الكاريبي البريء. لقد أخفى أولئك المتسللون حقائق الغزو تحت لفات متقنة من الصداقة والتواضع جعلت من المستحيل تمييز الخطر الواضح والحاضر المترتب على وصولهم. وبطريقة مماثلة، طمأن فلايشر جمهوره بمصطلحات ودّية. وقال إن خدمة "ستريت فيو"، التي استخدمت سيارات مُغلّفة بطبقة كرتونية، مع حامل كاميرا كبير بزاوية 360 درجة على سطحها، لالتقاط الصور المطلوبة، صُممت "لحماية خصوصية الأشخاص الذين يصادف مرورهم في شارع عام". "ولهذا السبب صمّنا عملية بسيطة يتمكّن من خلالها أي شخص من الاتصال بنا وإزالة صورته"، ووعد أن تحترم هذه العملية القوانين والعادات "في أجزاء العالم الأخرى".⁽³⁷³⁾

جاءت المقاومة سريعةً ومتكررةً. وبحلول يناير 2009، واجهت خدمة "ستريت فيو" معارضةً في ألمانيا واليابان. وتجاهل جون هانكي، نائب رئيس المنتجات المتعلقة بخرائط غوغل آنذاك، هذه الضجة. (لا بد أنك تتذكّر أن هانكي أسّس شركة رسم الخرائط عبر الأقمار الصناعية، تلك الشركة الممولة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، "كي هول" (Keyhole)، ثم قاد عملية تحويلها إلى "غوغل إيرث" (Google Earth)، بعد أن اشترتها غوغل). وقال لأحد المراسلين إن الأمر برمته كان ببساطة جزءًا من مجموعة أشخاص يفهمون تمامًا ما ينبغي أن يقلقوا بشأنه، وما لا ينبغي أن يقلقوا بشأنه - بعبارة أخرى، هي حلقة نزع الملكية. كانت خدمة "غوغل إيرث" تحت النار أيضًا، حيث تعرّضت لانتقادات شديدة لانتهاكها بالمساعدة في هجوم إرهابي في مومباي، لكن هانكي أصرّ على أن الجدل القائم حول "غوغل إيرث"

(373) بيتر فلايشر، "عرض الشارع والخصوصية"، غوغل لات لونغ، 24 سبتمبر 2007.

أو "ستريت فيو" قد "استكان إلى حدّ كبير في الغرب". لقد ساوى بذلك بين أية مقاومة لتدخلات غوغل ومصالح الحكومات الاستبدادية المناهضة لحرية التعبير و"مجتمعاتها المغلقة".⁽³⁷⁴⁾ وقد أصبح هذا أشبه بأسلوب خطابي قياسي تستخدمه شركة غوغل وحلفاؤها أثناء تنفيذهم لهجومهم.

فهل تفاجأ هانكي إذاً عندما منع سكان قرية بروتون الإنكليزية الهادئة في إبريل/ نيسان 2009 سيارة تابعة لخدمة "ستريت فيو" Street View من محاولة اختراق محيط القرية، ووصفوا ذلك بأنه تدخل غير مرغوب فيه؟ هذا هو "الغرب" أخيراً، لكن النقاش حول الخصوصية وتقرير المصير وحقوق اتخاذ القرار لم يكن مستكيناً. قدمت منظمة الخصوصية الدولية شكوى رسمية إلى هيئة الخصوصية البريطانية، مستشهدةً بأكثر من 200 بلاغ من أشخاص أمكن التعرف عليهم من خلال صور "ستريت فيو"، وطالبت بتعليق الخدمة.

يبدو أن مسؤولي غوغل لم ينتبهوا لما ورد على لسان فلايشر حول احترام الخصوصية. وسرعان ما صرف هانكي النظر عن مطالب المحتجّين دون النظر فيها. وقال لصحيفة التايمز اللندنية إن الشركة مثابرة في عملها، وتخطّط لاستكمال تغطية المملكة المتحدة بحلول نهاية ذلك العام. وأعلن أن المعلومات التي توفرها خدمة "ستريت فيو" "جيدة للاقتصاد، وجيدة لنا كأفراد أيضاً... فهي تتعلق بتزويد الناس بمعلومات قوية تساعد على اتخاذ خيارات أفضل".⁽³⁷⁵⁾

كانت تصريحات هانكي مجرد آمانيات بعيدة المنال بطبيعة الحال، لكنها كانت متسقة مع ممارسة غوغل واسعة النطاق: من الرائع أن نعمل على تمكين الناس من اتخاذ القرارات، لكن ليس إلى حدّ كبير، خشية أن يلاحظوا سرقة حقّهم في اتخاذ القرار، ويحاولوا استعادته. تريد الشركة تمكين الناس من اتخاذ خيارات أفضل، شريطة ألا تكون هذه القرارات معيقة لمطلّبات غوغل نفسها. إن مجتمع غوغل المثالي هو مجتمع

(374) انظر ستيفن هوتشيون، "نحن لا نطاردهم أو نساعد الإرهابيين، يقول رئيس غوغل إيرث"، صحيفة سيدني مورنينغ هيرالد، 30 يناير/ كانون الثاني 2009.

(375) انظر جيمسون، "ستستمر غوغل في تشغيل سيارات الكاميرا".

من المستخدمين البعيدين، وليس مواطنين عاديين. وهو يرفع من شأن الأشخاص المطلعين، شريطة أن يكون ذلك بالطرق التي تختارها الشركة. هذا يعني أن نكون مطيعين، ومنسجمين، وقبل كل شيء، أن نشعر بالامتنان.

في عام 2010، أعلنت لجنة حماية البيانات الفيدرالية الألمانية أن عملية "ستريت فيو" كانت تخفي في الواقع عملية مسح سرّية للبيانات؛ إذ كانت سيارات "ستريت فيو" تجمع بيانات شخصية سرّاً من شبكات "واي فاي" الخاصة.⁽³⁷⁶⁾ ونفت غوغل هذه التهمة، وأصرّت على أنها كانت تجمع فقط أسماء شبكات واي فاي التي تبث علناً، وعناوين أجهزة توجيه واي فاي، لكنها لم تكن تجمع المعلومات الشخصية المرسلة عبر الشبكة.⁽³⁷⁷⁾ وفي غضون أيام، أثبت تحليل مستقل أجراه خبراء أمنيون ألمان بشكل حاسم أن سيارات "ستريت فيو" كانت تستخرج معلومات شخصية غير مشفرة من المنازل. واضطرت شركة غوغل للاعتراف بأنها اعترضت "بيانات محمولة" وخزنتها، وهي معلومات شخصية حصلت عليها من عمليات نقل "واي فاي" غير مشفرة. ووفقاً لمنشور الاعتذار الذي نشرته، "صادف أن التقطنا في بعض الحالات رسائل بريد إلكتروني، وعناوين 'محدد الموارد الموحد URL' بالإضافة إلى كلمات مرور". اكتشف خبراء تقنيون في كندا وفرنسا وهولندا أن بيانات الحمولة تضمنت أسماء، وأرقام هواتف، ومعلومات ائتمانية وكلمات مرور ورسائل بريد إلكتروني ونصوص محادثات، بالإضافة إلى سجلات مواعيد عبر الإنترنت، ومواد إباحية، ومعلومات طبية، وبيانات موقع، وصور، وملفات فيديو وصوت. وخلصوا إلى إمكانية تجميع هذه الحزم معاً للحصول على ملف تعريف مفصّل لشخص يمكن التعرف عليه.

تصدّرت فضيحة "سباي فاي" (Spy-Fi) الخاصة بغوغل عناوين الصحف العالمية. واعتقد كثيرون أن ما حدث من كشف لخدمة "ستريت فيو" سيُلحق بشركة

(376) كيفن جي. أوبراين وكليز كاين ميلر، "العلاقة المعقدة بين ألمانيا وخدمة غوغل ستريت فيو"، نيويورك تايمز - مدونة بيتس، 23 أبريل/ نيسان 2013.

(377) بيتر فلايشر، "البيانات التي جمعتها سيارات غوغل"، غوغل أوروبا، 27 أبريل/ نيسان 2010.

غوغل ضرراً لا يمكن تعويضه. ففي ألمانيا، حيث انتهكت تصرّفات الشركة قوانين الخصوصية وحماية البيانات بشكل واضح، ردّ المسؤولون بغضب وحذروا من أن غوغل ستواجه تحقيقات وعواقب من جانب الاتحاد الأوروبي في المحاكم الألمانية. وقُدِّم مشروع قانون إلى البرلمان الألماني يقترح تغريم غوغل لعرضها ممتلكات شخصية دون موافقة أصحابها. وواجهت غوغل دعاوى قضائية جديدة في سويسرا وكندا وفرنسا وهولندا. ومع مطلع عام 2012، كانت هناك تحقيقات متعددة في اثنتي عشرة دولة، بما في ذلك معظم دول أوروبا وشمال الأطلسي وأستراليا، وقد ثبتت إدانة شركة غوغل بانتهاك القوانين في تسع دول على الأقل.⁽³⁷⁸⁾

في الولايات المتحدة، أطلق المدعون العامون من ثماني وثلاثين ولاية تحقيقاً في ممارسات غوغل المتعلقة بخدمة "ستريت فيو". ورفع مواطنون دعاوى جماعية عديدة، ودُجِّت ثمانٍ منها في محكمة مقاطعة شمال كاليفورنيا الأمريكية. وقال رئيس منظمة الخصوصية الدولية إن غوغل أصبحت "الأخ الأكبر".⁽³⁷⁹⁾ وقد دافع "مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية" عن مقاومة قانونية كبيرة في الولايات المتحدة ضد جهود غوغل لتجنّب العواقب في أعقاب فضيحة "سباي فاي"، كما حافظ على نظرة عامة مفصّلة ومحدّثة باستمرار على الإنترنت للغضب العالمي والاحتجاجات والتحقيقات والدعاوى القضائية والتسويات ردّاً على خدمة "غوغل ستريت فيو"، وتقنيات الاستخراج الخاصة بها.⁽³⁸⁰⁾

(378) كيفن جي. أوبراين، "جمع غوغل للبيانات يُغضب المسؤولين الأوروبيين"، نيويورك تايمز، 15 مايو/أيار 2010؛ "نتائج المفوض - تقرير نتائج قانون حماية المعلومات الشخصية والإلكترونيات رقم 2011-001: تقرير النتائج: جمع بيانات واي فاي من غوغل - مكتب مفوض الخصوصية في كندا"، 6 يونيو/حزيران 2011؛ اللجنة الوطنية للمعلوماتية والحريات، "مدالات اللجنة الوطنية للمعلوماتية والحريات، قرار اللجنة المقيدة رقم 035-2011 بفرض عقوبة مالية على شركة غوغل"، 035-2011؛ "النتائج النهائية، تحقيق هيئة حماية البيانات الهولندية في جمع غوغل لبيانات واي فاي باستخدام سيارات ستريت فيو - Z2010-00582 - قرار DDPA"، 7 ديسمبر/كانون الأول 2010؛ "تحقيقات غوغل ستريت فيو"، كيفن ج. أوبراين، "أوروبا تضغط على غوغل لتسليم بيانات الواي فاي"، نيويورك تايمز، ٢٧ يونيو/حزيران 2010.

(379) "في قضية شركة غوغل: إشعار بالمسؤولية الواضحة عن المصادرة"، أوبراين، "جمع بيانات غوغل".
(380) أنشأت EPIC موقعاً إلكترونياً يتتبع التسلسل الزمني لأحداث "ستريت فيو"، ونتائج الطعون القانونية محلياً ودولياً. انظر "تحقيقات غوغل ستريت فيو"، "بين غوف ضدّ (EPIC.org)"، 2017، "تحقيق

وصفت شركة غوغل "انتهاكات الخصوصية" التي ارتكبتها خدمة "ستريت فيو" بأنها "خطأ" ارتكبه مهندس واحد يعمل على مشروع "تجريبي"، حيث أدخل الكود الخاص به عن غير قصد في برنامج "ستريت فيو". ورفضت الشركة الكشف عن هوية المهندس الغامض، وأصرّت على أن قادة المشروع لم يكونوا على علم بجمع البيانات و"لم تكن لديهم أي نية" لاستخدام تلك البيانات. ووفقاً لتصريح شميدت لصحيفة فاينانشال تايمز: "لقد أخطأنا"، مشيراً إلى أن المهندس المعني سيواجه تحقيقاً داخلياً لـ"انتهاكه" الواضح لسياسات غوغل. لكن شميدت لم يستسلم، وأصرّ على صحّة مهمّة غوغل في فهرسة جميع معلومات العالم.⁽³⁸¹⁾

وصف تحقيق أجرته لجنة الاتصالات الفيدرالية عام 2012 القضية بأنها "قرار متعمّد في تصميم البرمجيات من قِبَل أحد موظفي غوغل العاملين في مشروع ستريت فيو".⁽³⁸²⁾ واختير هذا المهندس للفريق بسبب خبرته الفريدة في مجال "wardriving"، وهي ممارسة القيادة باستخدام المعدّات لتحديد مواقع الشبكات اللاسلكية.⁽³⁸³⁾ أشارت ملاحظاته التصميمية إلى أن بيانات حركة مرور المستخدمين وموقعهم سوف تُسجّل، بالإضافة إلى "معلومات حول أنشطتهم"، وسوف "تُحلّل دون اتصال بالإنترنت لاستخدامها في مبادرات أخرى". وحددت الملاحظات "اعتبارات الخصوصية"، لكنها تجاهلتها.⁽³⁸⁴⁾

وجدت لجنة الاتصالات الفيدرالية (FCC) أدلة تُناقض رواية غوغل التي تُحمّلها المسؤولية. أظهرت السجّلات أن المهندس أرسل روابط لوثائق برنامجهِ عبر البريد

لجنة الاتصالات الفيدرالية (FCC) في "غوغل ستريت فيو"، 2017؛ مارك آ. تشافيز ومارك روتنبرغ، "ملخص لصديق المحكمة: مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية لدعم المدعين - في دعوى الاتصالات الإلكترونية الخاصة بـ "غوغل ستريت فيو"، القضية رقم Md-02184-JW-5:10، المحكمة الجزئية الأمريكية للمنطقة الشمالية من كاليفورنيا، قسم سان خوسيه، 11 أبريل/ نيسان 2011.
(381) انظر مايا بالمر وليونيل باربر، "ستسلم غوغل بيانات تم اعتراضها"، فاينانشال تايمز، 3 يونيو/ حزيران 2010.

(382) "في قضية شركة غوغل: إشعار بالمسؤولية الواضحة عن المصادرة".

(383) دينيس هاو، "wardriving"، "dictionary.com".

(384) "في قضية شركة غوغل: إشعار بالمسؤولية الظاهرة عن المصادرة"، 11.

الإلكتروني إلى قادة المشروع، الذين شاركوها بدورهم مع فريق ستريت فيو بأكمله. كما وجدت أدلة على أن المهندس أخبر زملاءه، في مناسبتين على الأقل، أن خدمة "ستريت فيو" تجمع بيانات شخصية. وعلى الرغم من هذه الحقائق، بالإضافة إلى أدلة على المراجعات الداخلية الشاملة للبرامج، وإجراءات الاختبار التي أجرتها الشركة، والنقل المنتظم لبيانات الحمولة من الأقراص الصلبة لخدمة "ستريت فيو" إلى مركز بيانات غوغل في أوريغون، أنكر مهندسو غوغل أي علم لهم بجمع البيانات الشخصية.

المرحلة الثانية: التعمّد

يعكس رهان هانكي، على أن هذه "الحلقة" ستُضعف المقاومة في نهاية المطاف، عنصرًا تشغيليًا رئيسًا في ضرورة الاستخراج، وقد اكتُشِفَ ذلك في محرّك البحث، وحُسِّنَ باستخدام خدمة "جيميل"، وُعِمَّ باستخدام خدمة "ستريت فيو". الرسائل التي تصلنا من ذلك هي: "لا تنظر إلى الوراء. انتظرهم. هاجهم إن لزم الأمر".

كان تقرير لجنة الاتصالات الفيدرالية، الصادر في أبريل / نيسان 2012، مؤلماً للغاية بطريقته الخاصة، فهو يصوّر بشكل محزن ضعف الديمقراطية في مواجهة خصم رأسمالي ثري ومصمّم وجريء. ففي نوفمبر / تشرين الثاني 2010، أرسلت لجنة الاتصالات الفيدرالية (FCC) خطاب استفسار إلى شركة غوغل تطلب فيه معلومات ضرورية. ولم تقدّم الشركة أي ردّ. وفي شهر مارس / آذار من العام التالي، أُرسِلَت رسالة "إضافية" ثانية. وكان ردّ الشركة يتضمّن نقصًا في المعلومات وعدم تعاون، مما أدّى إلى "رسالة مطالبة" أخرى في أغسطس / آب. وتطلّب استمرار شركة غوغل بعدم التعاون رسالة أخرى في أواخر شهر أكتوبر / تشرين الأول. كان موظفو لجنة الاتصالات الفيدرالية مثقلين بمهمة متابعة وملاحقة المسؤولين التنفيذيين المراوغين في الشركة وممثليهم لمدة عام كامل.

تكشف الوثيقة عن نقص في البيانات، وعن ملحمة ديمقراطية مرفوضة. أسفر طلب لجنة الاتصالات الفيدرالية الأولي المُفصّل عن "خمس وثائق فقط"، ودون أية

رسائل بريد إلكتروني. صرّحت الشركة بأنه لم يكن لديها الوقت الكافي لإجراء مراجعة شاملة، واصفةً إياها "بالمرهقة". و"فشلت" غوغل في تحديد هوية الأفراد المعنيين، و"حجبت" الأسماء. وأكدت أن المعلومات المطلوبة "لا تخدم أي غرض مفيد". و"فشلت" في التحقق من المعلومات. وعندما طُلب منها تقديم معلومات محددة، "لم تفعل غوغل ما هو مطلوب". و"جادلت" غوغل بأنه "لا ينبغي إلزامها" بتوفير الوصول إلى بيانات الحمولة التي جمعتها بشكل غير قانوني. وتكرّرت عبارات "انتظرت غوغل...." و"لم تستجب" و"لم تقدّم" في أنحاء التقرير لكه. "لم تكثرث غوغل بأوامر اللجنة.... تأخرت...." و"طُلبت الإفادات خمس مرات، لكن الشركة لم تقدّم أيًا منها حتى سبتمبر/ أيلول 2011، بعد أن هدّدت لجنة الاتصالات باستدعاء قضائي. ورفض المهندس الغامض التحدّث مع المحققين ببساطة، مستعينًا بحقه المكفول بالتعديل الخامس لتجنب تجريم نفسه. ووفقًا لما خلص إليه التقرير: "ثمة أدلة على أن عدم تعاون غوغل مع المكتب كان متعمدًا في حالات كثيرة، أو في الحالات كلها". كان يجب أن يُقال "ضرورة حتمية".

انتصر محامو الشركة في نهاية المطاف، ودافعوا عما تقوم به غوغل من عمليات مسح البيانات من خلال فقرة غامضة واحدة في قانون التنصّت الذي يعود تاريخه إلى عقود من الزمن. ولعلّ العنصر الأكثر دلالة في هذه الحلقة بأكملها هو أن نظام القوانين الديمقراطية نفسه، الذي كانت الشركة تزدريه علنًا، تم اعتماده لحمايتها من المساءلة. وأخيرًا، غرّمت لجنة الاتصالات شركة غوغل بمبلغ 25 ألف دولار فقط بسبب عرقلة تحقيقاتها. ويجب الإشارة إلى أن غوغل لم تتهرّب من العواقب القانونية لأن المجتمع وافق على ممارستها، بل لعدم وجود قانون كافٍ لحماية المواطنين من تعدياتها.

لم يكن حال المدعون العامون الثمانية والثلاثون أفضل حالًا. فعندما أصدر زعيم المجموعة، ريتشارد بلومنتال من ولاية كونيتيكت، طلب تحقيق مدني (يعادل أمر استدعاء) للوصول إلى البيانات الخاصة سيئة السمعة، "تجاهلته غوغل".⁽³⁸⁵⁾ وافقت

(385) ديفيد سترتيفيلد، "غوغل تعترف بأن التطفل أثناء القيادة ينتهك الخصوصية"، نيويورك تايمز، 13 مارس/ آذار 2013.

الشركة أخيراً على تسوية مع الولايات المتحدة عام 2013، بغرامة قدرها سبعة ملايين دولار فقط، وسلسلة اتفاقيات بشأن المراقبة الذاتية "الصارمة". وأعلنت صحيفة نيويورك تايمز أن غوغل أقرت أخيراً "بانتهاكها خصوصية الناس من خلال مشروع خرائط ستريت فيو، عندما جمعت معلومات شخصية دون قصد"، كما لو كانت هذه الفضيحة العنصر الوحيد المثير للجدل في القضية كلها. وأعلن مسؤولون في الولاية أن "عملاق الصناعة... ملتزم بتغيير ثقافته المؤسسية لتشجيع الحساسية تجاه قضايا خصوصية البيانات الشخصية".⁽³⁸⁶⁾ ومع حقيقة أن ضرورة الاستخراج الحتمية هي ما يجعل هذا العملاق عملاقاً، لا أحد يعرف ما إذا كان عليه أن يضحك أم يبكي من ثقة المدعين العامين في التزام غوغل بتنظيم الخصوصية الذاتية.

ثمة عنصران رئيسان يُسلطان الضوء على أساليب التعمّد. الأول هو: في الفترة الزمنية الفاصلة بين بدء استخدام خدمة "ستريت فيو" عام 2007، وفضيحة عام 2010، واختتام تحقيق لجنة الاتصالات الفيدرالية عام 2012، واختتام تحقيق الولايات عام 2013. أغلّق التحقيق الألماني أيضاً في أواخر عام 2012، دون أن يُسفر عن نتائج تُذكر. وتوالي المنافسات والدعاوى القضائية الأخرى. ورغم كل هذا الضجيج والغضب، واصلت غوغل تشغيل خدمة "ستريت فيو" خلال تلك السنوات. حيث جُمع بين عامي 2008 و2010، ما يقرب من 600 مليار بايت من المعلومات الشخصية "بطريقة غير شرعية" في جميع أنحاء العالم، وكان 200 مليار منها في الولايات المتحدة.⁽³⁸⁷⁾ أعلنت الشركة أنها أوقفت جمع البيانات الشخصية. لكن هل فعلت ذلك حقاً؟ هل يستطيع أحد أن يجزم؟ حتى لو كان الأمر كذلك، فإن الاختراق الأصلي لخدمة "ستريت فيو" استمرّ دون أي ضرر.

النقطة الثانية هي أنه عندما ننظر إلى ما مضى، نجد أن فكرة المهندس المخطئ نفسه كانت مصمّمة ومطورة بهدف التضليل، وحيلة كلاسيكية لإلقاء اللوم على الآخرين.

(386) ديفيد ستريتهيلد، "اعتراف غوغل بأن مشروع ستريت فيو ينتهك الخصوصية"، نيويورك تايمز، 12 مارس/ آذار 2013.

(387) "في قضية شركة غوغل: إشعار بالمسؤولية الواضحة عن المصادرة"، 11: "غوغل ستزود الحكومات ببيانات "ستريت فيو"، نيويورك تايمز، 3 يونيو/ حزيران 2010.

لقد شتت هذه الفكرة الانتباه عن الأجندة الطموحة، والمثيرة للجدل، الخاصة بضرورة الاستخراج، نحو سرد مختلف لخلية واحدة مصابة تم استئصالها من لحم كائن حي ضخيم لكنه بريء. ولم يبق سوى استئصال الجزء المصاب لترك ذاك الكائن يُعلن شفاؤه من هوسه بسرقة خصوصيات الآخرين. ثم العودة إلى الشوارع، مولودًا من جديد.

حققت غوغل ما توقعه هانكي تمامًا. فالجراحة الأساسية لخدمة "ستريت فيو"، تلك الغزوة المذهلة غير المسبوقة التي دفعت قرويين إنكليزيين إلى الشوارع لعرقلة سيارة غوغل المزودة بكاميرات، حظيت بست سنوات أخرى من التجذّر في الوعي العالمي. وهذا الانضباط الاستراتيجي الذي تنتهجه الشركة المhapلة، والتجاهل واستغلال الديمقراطية، أدّى إلى ست سنوات أخرى من استخدام الناس لبيانات "ستريت فيو"، وست سنوات أخرى لبناء القضية الضمنية لخدمة غوغل وعجزنا. وهناك ست سنوات أخرى لهذه السرقة البسيطة لحقوق اتخاذ القرار لكي تتحوّل إلى أمر طبيعي، وتُعتبر "ملائمة" أو "مفيدة" أو "رائعة".

المرحلة الثالثة: التكتيف أو الخضوع

في شهر أكتوبر/ تشرين الأول عام 2010، قبيل استلام الشركة أول خطاب استفسار من لجنة الاتصالات الفيدرالية، أعلن نائب الرئيس الأول للهندسة والبحث في شركة غوغل عن "ضوابط خصوصية أقوى" في منشور رسمي في موقع غوغل. وقال: "لقد فشلنا فشلًا ذريعًا هنا". لقد صوّرت فضيحة "ستريت فيو" باعتبارها خطأ غير مقصود، ووصمة عار وحيدة ضمن شركة تبذل كل ما في وسعها "لكسب ثقتك". وأكد المنشور للجمهور أن الشركة تتحدث إلى جهات تنظيمية خارجية "حول التحسينات المحتملة لسياساتنا"، وتعدّ بأنها ستجري تغييرات لضمان خصوصية المستخدم. وعُيّنّت ألما ويتن، وهي المسؤولة التنفيذية في شركة غوغل والتي تتمتع بخبرة واسعة في مجال أمن الحاسوب وضوابط الخصوصية، بصفة مديرة الخصوصية في الهندسة وإدارة المنتجات. وقدّم المنشور تشديدًا داخليًا جديدًا على

"المسؤولية التامة في جمع بيانات المستخدم واستعمالها ومعالجتها". وتعهد أخيراً بوضع ضوابط داخلية جديدة للإشراف على كيفية التعامل مع البيانات. كما جاء في البيان: "نحن مصدومون تجاه ما حدث. لكننا واثقون من أن هذه التغييرات في عملياتنا وبنيتنا ستعمل على تحسين ممارسات الخصوصية والأمان الداخلي بشكل كبير لصالح جميع المستخدمين". (388)

على الرغم من تعهدها بالإصلاح أمام الجمهور، اضطرت الشركة في الوقت نفسه إلى التكيف مع المطالب الحكومية في مجموعة من البلدان - بما في ذلك أستراليا وبلجيكا وكندا وفرنسا وهولندا وهونج كونج وأيرلندا و"إسرائيل" وإيطاليا ونيوزيلندا وبولندا وإسبانيا وكوريا الجنوبية والمملكة المتحدة والولايات المتحدة - حيث تعرضت خدمت "ستريت فيو" للمقاضات والغرامات "و/ أو" التنظيم. ففي اليابان، اشتكى أصحاب المنازل من كاميرات "ستريت فيو" التي تطلّ من فوق سياج الخصوصية لتسجيل أحداث في منازل خاصة. وافقت شركة غوغل على مطالب الحكومة بخفض كاميراتها، وإعادة التقاط جميع الصور، وطمس صور الوجوه التي يمكن التعرف عليها، ولوحات الترخيص. وفي ألمانيا، سمحت شركة غوغل للسكان بطلب إظهار صور منازلهم في أية صورة من صور "ستريت فيو" بشكل ضبابي غير واضح. وفي عامي 2009 و 2010، تقدّمت ما يقرب من 250 ألف أسرة بطلبات إلغاء الاشتراك، مما تطلّب من غوغل توظيف 200 مبرمج مؤقت لتلبية الطلب. (389)

غرّم المشرف على حماية البيانات في هامبورغ شركة غوغل بمبلغ 145 ألف يورو، وكان هو أول من اكتشف جمع البيانات غير المشروع من خلال خدمة ستريت فيو، وهو مبلغ أقلّ بقليل من الرسوم البالغة 150 ألف يورو التي كان من الممكن أن

(388) آلان يوستاس، "إنشاء ضوابط خصوصية أقوى داخل غوغل"، منشور سياسة غوغل العام 22 أكتوبر/ تشرين الأول 2010.

(389) "تدابير (إرشادات) بشأن حماية "سرية الاتصالات" لشركة غوغل"، وزارة الداخلية والاتصالات، 11 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011؛ "تجاوز الجدل: غوغل تُطلق خدمة ستريت فيو في ألمانيا"، شبيغل أونلاين، 18 نوفمبر/ تشرين الثاني 2010؛ مات ماكجي، "خدمة ستريت فيو من غوغل تُطلق في ألمانيا، بما في ذلك منازل ضبابية"، سيرش إنجن لاند، 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 2010.

يفرضها.⁽³⁹⁰⁾ وكانت تلك أعلى غرامة فرضتها الجهات التنظيمية الأوروبية بسبب مخاوف تتعلق بالخصوصية. عكس هذا التغيريم تأكيدات غوغل بأنها ستحذف بيانات الحمولة بسرعة ودقة. في عام 2011، أنهت غوغل برنامجها لعرض الصور في ألمانيا، واستمرت في دعم الصور التي جمعتها، لكنها توقفت عن تحديثها.⁽³⁹¹⁾

فرضت دول أخرى حظرًا على عمليات خدمة "ستريت فيو". إذ حظرت سويسرا الخدمة أولًا عام 2009، وشددت على أن تزيل الشركة كل ما نشرته من صور عن المدن والبلدات السويسرية. وزُفِعَ الحظر في النهاية، لكن المحكمة الإدارية الفيدرالية السويسرية فرضت سلسلة من الإرشادات الصارمة، بما في ذلك إظهار الوجوه بشكل ضبابي، وفرض إجراءات لرفض الاشتراك، وخفض ارتفاع الكاميرات. وبحلول عام 2016، ظلت خدمة غوغل مقتصرة على المواقع السياحية الخارجية.⁽³⁹²⁾ واجهت الشركة أيضًا حظرًا لخدمة ستريت فيو في النمسا وجمهورية التشيك واليونان والهند وليتوانيا. لكن بحلول صيف عام 2017، أصبحت بيانات ستريت فيو متاحة في بعض مناطق هذه الدول كلها.⁽³⁹³⁾

(390) أرن غرهاردز، "غرامة مفروضة على غوغل"، مفوض هامبورغ لحماية البيانات وحرية المعلومات، 22 أبريل/نيسان 2013.

(391) مات ماكجي، "أوقفت غوغل تصوير الشوارع في ألمانيا"، موقع (Search Engine Land)، 10 أبريل/نيسان 2011.

(392) بيتر فلايشر، "ستريت فيو في سويسرا"، غوغل أوروبا، 13 نوفمبر/تشرين الثاني 2009؛ سكوت كابر، "غوغل تواجه دعوى قضائية بشأن ستريت فيو"، 16 نوفمبر/تشرين الثاني 2009؛ أنيتا غريل وكاترينا بارت، "محكمة سويسرية ستصدر حكمًا بشأن غوغل ستريت فيو"، وول ستريت جورنال، 24 فبراير/شباط 2011؛ فرانك جوردانز، "غوغل تهدد بإغلاق ستريت فيو السويسري"، 11 مايو/أيار 2011؛ كيفن ج. أوبراين وديفيد ستريفلد، "محكمة سويسرية تأمر بتعديلات على غوغل ستريت فيو"، نيويورك تايمز، 8 يونيو/حزيران 2012؛ "غوغل تعزز قيود ستريت فيو السويسرية"، 19 مايو/أيار 2015. (393) مع ذلك، تواصل الهند حظر خدمات "ستريت فيو"، واعتبرت الشركة أن الامتثال للمتطلبات التي فرضتها النمسا وألمانيا بعد رفع الحظر مكلف للغاية. للاطلاع على تفاصيل الحظر في الدول الرئيسية، انظر "تطورات جديدة بشأن غوغل ستريت فيو"، وكالة حماية البيانات النمساوية، 4 أبريل/نيسان 2016؛ هيلينا سميث أثيرز، "حظر غوغل ستريت فيو في اليونان"، الغارديان، 12 مايو/أيار 2009؛ جون ريبير، "غوغل ستريت فيو في الهند يواجه تحديات"، بي سي وورلد، 26 مايو/أيار 2011؛ دانوتا بافيليني، "حظر غوغل ستريت فيو في شوارع ليتوانيا"، بالتيك كورس، 23 مايو/أيار 2012.

ما لم تقله غوغل في منشور الاعتراف بالخطأ، والشيء الوحيد الذي لم تستطع قوله، هو أنها ستخلى عن منطقتها الأساسي في التراكم: مبادئ رأسمالية المراقبة التي جلبت العملاق (الوحش) إلى الوجود ودعمت نموه. كانت رسالة حملة "ستريت فيو" هي أن غوغل لن تستثني أي شيء من الشبكة. ينبغي تجميع كل شيء لتحويله إلى مواد خام. لا يوجد الكثير مما يمكن لغوغل قوله أو فعله لضمان خصوصية المستخدم سوى انتحارها كشركة. ووفقًا لملاحظة إحدى المقالات التي احتفت بتاريخ خرائط غوغل عام 2015، فإن هذا يفسر لماذا "كانت خرائط غوغل تُثير جدلاً واسعاً حول الخصوصية... شعر الناس بالذعر... لكن هذا لا يعني أن خدمة "ستريت فيو" قد تقلّصت كمشروع. فهي الآن متاحة في 65 دولة من أصل مائتي دولة تقريباً من دول خرائط غوغل".⁽³⁹⁴⁾

كانت مهمة ألما ويتين هي إصلاح سمعة غوغل في مجال الخصوصية، وليس تفكيك ضرورة الاستخراج ومطالبها المستمرة باقتصاديات الحجم في وظيفة التوريد. هذا يعني أن وظيفتها كانت مستحيلة منطقياً. ومع ذلك، ربما كانت قد أخذت الأمر على محمل الجد، نظراً إلى حقيقة أنها أعلنت استقالتها من غوغل في إبريل / نيسان 2013، بعد عامين ونصف فقط من تعيينها في منصب قيصر الخصوصية. من المؤلم حقاً مشاهدة ويتين تدلي بشهادتها حول ممارسات غوغل في جلسة استماع عُقدت في الكونغرس في أوائل عام 2013. كانت تخضع لاستجواب من الكونغرس، وقد بذلت جهداً هائلاً وهي تبحث عن كلمات مناسبة للإجابة دون نقل الحقيقة.⁽³⁹⁵⁾ حان الوقت لإعادة تجميع مشروع رسم الخرائط العالمية وتوجيهه، وليس لإنهائه.

إن حقيقة أنه ما من شيء تغير، أو أنه ما من شيء سيتغير، كانت واضحة للغاية من

(394) ليز جانيس، "عشر سنوات من خرائط غوغل، من سلاش دوت إلى جراوند تروث"، ريكود، 8 فبراير 2015.

(395) كشمير هيل، "استقالة مدير الخصوصية في شركة غوغل"، فوربس، 1 أبريل / نيسان عام 2013؛ سكروغلد تروث، سكروغلد - الدكتورة ألما ويتين (رئيس قسم هندسة الخصوصية في غوغل) أمام الكونغرس، 2013.

خلال مصير ذلك المهندس الغامض الذي عمل مع غوغل خلال العامين التاليين للفضيحة. في غضون أيام من صدور تقرير لجنة الاتصالات الفيدرالية في أبريل/ نيسان 2012، تمكّن محقق سابق في الولاية كان معيناً سابقاً للتحقيق في برنامج "ستريت فيو"، من تحديد هوية الشخصية الفاعلة "المارقة" في شركة غوغل، وهو "ماريوس ميلنر"، أحد قراصنة الإنترنت المشهورين ومتخصص في "Wardriving"، أي في "قيادة سيارة تهدف إلى تقصي شبكات واي فاي". لقد مرّت ستان على ما أحلقه بشركة غوغل من ضرر مُفترض لا يمكن إصلاحه، و"انتهاكه الواضح" للسياسة، لكنه استمرّ بالعمل في الشركة في عمليات يوتيوب. وأصبح في وقت لاحق من ذلك العام واحداً من ستة مخترعين في فريق يقوده جون هانكي لتسجيل براءة اختراع "نظام وأسلوب نقل الأشياء الافتراضية في لعبة الواقع الموازي". (396)

كان الاختراع الذي شارك فيه ميلنر مرتبطاً بلعبة واقع افتراضي تُسمى "إنغرس" (Ingress)، وكان هانكي قد طورها مع فريقه في غوغل. (أنشأ هانكي لاحقاً متجره الخاص، "نيانتيك لابس"، ضمن شركة ألفت القابضة الجديدة التابعة لغوغل). وأصبحت "إنغرس" منصّة اختبار للعديد من المفاهيم الأساسية التي عادت إلى الظهور في "لعبة" أخرى هي "بوكيمون غو" (Pokémon Go)، وهي نموذج أولي لمرحلة ثانية من توسّع رأسمالية المراقبة التي سندرسها عن كثب في الجزء الثاني. تُعدّ خرائط غوغل، في هذه المرحلة القادمة، مورداً أساسياً لتوسيع نطاق نزاع الملكية الرقمي من العالم الافتراضي إلى ما نسميه "الواقعي". وفي ضوء هذه الخطط، لا يُمكن السماح بتوقف خدمة "ستريت فيو"، أو حتى تقييدها. ففي سبتمبر/ أيلول 2012، أي بعد أربعة أشهر فقط من التحقيق الذي أجرته لجنة الاتصالات الفيدرالية، صاغ

(396) ستيف لور وديفيد سترتيفيلد، "التعرّف على مهندس في خدمة غوغل ستريت فيو"، نيويورك تايمز، 30 أبريل/ نيسان 2012؛ فراهاد مانغو، "هل حان الوقت للتوقف عن الثقة بغوغل؟"، سلات، 1 مايو/ أيار 2012؛ جون إف. هانكي وآخرون، "نظام وأسلوب لنقل الأجسام الافتراضية في لعبة واقع مواز"، الولايات المتحدة الأمريكية US8968099 B1، قُدّم في 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 2012، وصدر في 3 مارس/ آذار 2015.

مدير المنتجات الأول في "خرائط غوغل" الأمر بإيجاز: "إذا نظرت إلى العالم غير المتصل بالإنترنت، العالم الحقيقي الذي نعيش فيه، سترى أن هذه المعلومات ليست متاحة بالكامل على الشبكة. بمرور الوقت، ومع استمرارنا في ممارسة حياتنا، سنحاول سدّ الفجوة بين ما نراه في العالم الحقيقي و[العالم عبر الإنترنت]، وتلعب "خرائط غوغل" هذا الدور حقاً".⁽³⁹⁷⁾

تتضح هذه النقطة من مشروع "الحقيقة الأساسية" (Ground Truth)، الذي تديره شركة غوغل، وقد بدأ عام 2008، لكن لم يُكشف عنه علناً إلا بعد أربعة أشهر فقط من تقرير لجنة الاتصالات الفيدرالية عام 2012. "الحقيقة الأساسية" هو "الخريطة العميقة" التي تتضمن "المنطق التفصيلي للأماكن": مسارات المشي، وبرك الأسماك الذهبية، وممرات الطرق السريعة، حالات المرور، المعابر، والحدائق، والحرم الجامعي، والأحياء والمباني وغيرها.⁽³⁹⁸⁾ إن الحصول على التفاصيل بشكل صحيح يُعدّ ميزة تنافسية في السباق على الفائض السلوكي القادم من الأجهزة المحمولة. يعتمد بناء الخريطة العميقة على الموارد العامة مثل قواعد البيانات الجغرافية من مكتب الإحصاء والمسح الجيولوجي الأمريكي،⁽³⁹⁹⁾ ولكن ما يميز خرائط غوغل عن جميع الخرائط الأخرى هو دمج بياناتها من خدمة "ستريت فيو"، وهي بيانات تمتلكها بشكل حصري. بمعنى آخر، تُضاف إلى البيانات المُجمّعة من خلال الاستثمارات العامة بيانات مأخوذة من عملية نقل أحادية الجانب لفائض السلوك وحقوق اتخاذ القرار. ثم يُعاد تصنيف النتائج المركّبة كأصول خاصة.

كان أليكس مادريجال أحد أوائل الصحفيين المدعويين لمشاهدة عروض "الحقيقة الأساسية" في عام 2012، وقد لاحظ أن "فريق الخرائط، الذي يعتمد إلى حد كبير على خدمة ستريت فيو، ينشر كل أسبوعين بيانات صور أكثر مما كانت تمتلكه غوغل عام 2006.... لقد اجتازت غوغل الآن ما يصل إلى خمسة ملايين ميل". تشبه

(397) انظر أليكس سي مادريجال، "كيف تبني غوغل خرائطها - وماذا يعني ذلك لمستقبل كل شيء"، أتلانتيك، 6 سبتمبر/ أيلول 2012.

(398) بريان ماكليندون، "بناء خريطة أفضل لأوروبا"، خرائط غوغل، 5 ديسمبر/ كانون الأول 2012.

(399) "قواعد بيانات TIGER الجغرافية"، مكتب الإحصاء الأمريكي، 2016.

سيارات ستريت فيو برامج الزحف الأولى على شبكة الإنترنت في محرك بحث غوغل، والتي استولت بهدوء على صفحات الويب بهدف فهرستها وتحقيق إمكانية الوصول إليها ضمن عملية نزع الملكية الأصلية التي تقوم بها الشركة. ومع مطلع عام 2012، وُفرت بيانات ستريت فيو أيضًا لافتات الشوارع وعناوينها. وسرعان ما كتب مادريجال: "ستُضاف أية كلمة مرئية من أي طريق إلى فهرس العالم المادي لشركة غوغل بفضل خدمة ستريت فيو". ويستنتج مادريجال، من نظراته إلى عملية الحقيقة الأساسية ما يلي: "لا يُرَجَّح أن تضاهي أية شركة أخرى تلك "البيانات الجغرافية التي جمعتها شركة غوغل.... لقد بنوا هذا الملعب بالكامل بمنزلة طعم مُتَمَتِّنٍ لك". (400)

كما صرَّح أحد قادة المشاريع، "إن التحدي المتمثل في اتخاذ القرار برسم خريطة للعالم هو أنك لا تستطيع التوقف أبدًا". وهكذا، مع مطلع عام 2016، احتفل المسؤولون عن خدمة ستريت فيو التابعة لشركة غوغل بما حققوه من تطور من خلال التصريح التالي: "اجتزنا شوطًا طويلًا منذ انطلاقنا الأولي في الولايات المتحدة عام 2007؛ وقمنا اليوم بتوسيع نطاق مناظرنا البانورامية بزاوية 360 درجة لتشمل مواقع في جميع القارات السبع". اتسع أسطول أدوات جمع المعلومات الخاصة بخدمة ستريت فيو لتشمل حقيقة ظهر يمكن ارتداؤها، وعربة بثلاث عجلات، ودراجة نارية ثلجية، وعربة، وكلها مصمَّمة لالتقاط الأماكن التي لا تستطيع سيارات ستريت فيو عبورها. وقد عُرض على المجالس السياحية والمنظمات غير الربحية استخدام معدّات "كاميرا الظهر" (Trekker) التي تُنتجها الشركة "لجمع وجهات نظر من الأماكن النائية والفريدة من نوعها" التي كانت، حرفيًا ومجازيًا، "خارج الشبكة". (401)

اشترت غوغل كل ما لا تستطيع بناءه. ففي عام 2013، فازت غوغل على شركة فيسبوك في مزاد لشراء تطبيق "Waze" الإسرائيلي للخرائط الاجتماعية، وهو تطبيق

(400) مادريجال، "كيف تبني غوغل خرائطها" (الخط المائل يعود لي).

(401) صوفي إسماعيل زاده، "انظر إلى الداخل" مع عرض الأعمال في خرائط غوغل، غوغل لات لونج، 17 ديسمبر 2014؛ "غوغل ستريت فيو - ما يلزم للثقة"، غوغل ستريت فيو، 10 نوفمبر 2016.

رائد في توفير معلومات حركة المرور الفورية من مصادر مجتمعية. في عام 2014، استحوذت الشركة على شركة سكاي بوكس الناشئة للتصوير اللحظي عبر الأقمار الصناعية، بالتزامن مع رفع وزارة التجارة الأمريكية القيود المفروضة على صور الأقمار الصناعية عالية الدقة. ووفقًا لتوضيح أحد الخبراء،

إذا تخيلتَ قمرًا صناعيًا فوق مكتبك، فربما كانت الدقة القديمة قادرة على تمييز مكتبك. أما الصور الجديدة - حيث يبلغ قياس كل بكسل حوالي 31 سم - فستطيع الآن تمييز ما هو موجود على مكتبك. عند الوصول إلى هذا التردد، يمكنك البدء في إضافة ما نسميه تحليل "أنماط الحياة". هذا يعني النظر إلى النشاط من حيث الحركة، وليس مجرد التعرف عليه.⁽⁴⁰²⁾

يمكننا في هذا السياق أن ندرك أهمية جانب آخر من حملة إعادة التوجيه التي أطلقتها شركة غوغل: إعلان عام 2011 أن الشركة قد اخترقت "حدودًا جديدة" من خلال تقديم "نظام تحديد المواقع الداخلي" الذي مكّنها من تحديد موقع الأشخاص ومتابعتهم "عندما تكون داخل مطار أو مركز تسوّق أو متجر بيع بالتجزئة". وستشمل هذه القرارات الجديدة في النهاية أجهزة استشعار وكاميرات مدججة تسمح للمستخدمين برسم خرائط للمساحات الداخلية، والتنقّل فيها.⁽⁴⁰³⁾ في أحد منشورات سبتمبر 2014، عُرضت القدرات الديناميكية الجديدة لخرائط غوغل على الجمهور باعتبارها "مساعدك الجديد في اتخاذ القرارات بشأن كل شيء، بدءًا من الاتجاهات خطوة بخطوة، إلى اكتشاف مطاعم جديدة، إلى تحديد مسارات المشي التي يجب تسلّقها". ويذكر المنشور أن خدمة ستريت فيو هي التي قدّمت هذه القدرات الجديدة الرائعة، ويعلن عن توسيع نطاق الغزو بأكمله من خلال تقديم أداة رسم

(402) جيمس فينسنت، "سكاي بوكس: أصبحت خرائط غوغل فورية - لكن هل ترغب بوجود جاسوس في السماء يحدّق في صندوق بريدك؟"، إندبندنت، 21 يونيو 2014؛ "ديجيتال غلوب تستضيف وزير التجارة الأمريكي بريتزر لمناقشة التجارة في كولورادو | رؤية عالم أفضل"، مدونة ديجيتال غلوب، 25 يونيو 2014؛ إيلين هيوت، "غوغل تشتري خدمات تصوير سكاي بوكس - ليس فقط لأقمارها الصناعية"، فوربس، 10 يونيو 2014.

(403) توم وارن، "لقد أظهرت لي غوغل للتو مستقبل الملاحة الداخلية"، فيرج، 23 فبراير 2016.

خرائط متنقلة تُسمى "كارتوغرافر" (Cartographer)، يمكن ارتداؤها كحقيبة ظهر، وتستطيع رسم خرائط للمناطق الداخلية من المباني.⁽⁴⁰⁴⁾ يمكن إضافة معلومات رسم الخرائط إلى قاعدة البيانات الملاحة المتنامية للمساحات الداخلية، مما يعزز قدرة غوغل على تحديد موقع الأشخاص والأجهزة أثناء تنقلهم بين المساحات الخارجية والداخلية.

أفلتت التصميم الداخلي للمباني من برنامج ستريت فيو وضرورة الاستخراج الحتمية؛ فليس مرجحاً أن يدعو تلك الكاميرات إلى داخل بيوتهم سوى لعدد قليل من أصحاب المنازل. بدلاً من ذلك، دُمِجت قدرات "الكارتوغرافر" في حملة إعادة توجيه ستريت فيو الكبرى، وطُرِحت على الشركات كوسيلة لتعزيز ثقة المستهلكين، وتخفيف القلق وزيادة الإيرادات بشكل كبير. حثّت غوغل الشركات التي تتعامل مباشرة مع الزبائن "على دعوة الزبائن للدخول". بفضل ميزة "بزنس فيو" الموجودة فيها، سيتمكن الزبائن من رؤية ما بداخل آلاف الفنادق والمطاعم والوجهات الأخرى. وستتضمن قوائم البحث محتوى "ستريت فيو" الجديد. ستوفر قوائم الفنادق جولة افتراضية للعقارات. وصرحت غوغل لسوقها التجاري: "امنحهم الثقة التي يبحثون عنها"، من خلال السماح للمستهلكين "بتجربة موقعك قبل وصولهم". ستوفر قوائم الفنادق جولة افتراضية في الأقسام. تدّعي غوغل أن الجولات الافتراضية تؤدي إلى حدوث "حجوزات مزدوجة"، كما أنشأت برنامج اعتماد يسمح للشركات بتوظيف مصوّر مستقلّ مُعتمد من غوغل لإنتاج صور لخدمة ستريت فيو. كان الهدف من تكتيكات إعادة توجيه الجديدة غير التقليدية هو قلب النموذج القديم. فقد أعادوا صياغة مفهوم ستريت فيو من غزو متطوّف يتغلّب على المقاومة بالتخفي إلى خيمة فخمة لكبار الشخصيات حيث تتدافع الشيكات للحصول على تصريح دخول.

أعلنت إعادة توجيه ستريت فيو وتطويره عن تحوّل حاسم في توجّه برنامج المراقبة

(404) صوفيا لين، "صناعة الخرائط: حجر الأساس"، خرائط غوغل، 4 سبتمبر / أيلول 2014.

وطموحه: لن يقتصر الأمر بعد الآن على الطرق، بل سيشمل السير في الطرق أيضًا. سنتناول هذه الحلقة الجديدة من نزع الملكية في الفصول التالية. يكفي في الوقت الحاضر أن نقول إن خدمة ستريت فيو، والمشروع الأكبر المتمثل في خرائط غوغل، يوضحان الأهداف الجديدة الطموحة التي يُتوقع أن تتجه إليها قريباً دورة نزع الملكية هذه هذه: الانتقال من مصدر بيانات عبر الإنترنت، إلى مراقب في العالم الحقيقي، إلى مستشار إلى راع نشط - من المعرفة إلى التأثير إلى السيطرة. أخيرًا، أصبحت البيانات المعقدة التي جمعتها خدمة ستريت فيو بمثابة أساس لمجموعة أخرى من مشاريع غوغل المذهلة: السيارة ذاتية القيادة و"غوغل سيتي"، والتي ستعرف على المزيد عنها في الفصل السابع. إذ تهدف هذه البرامج إلى رفع عملية الاستيلاء على الفوائد إلى مستويات جديدة، وفتح آفاق جديدة كبيرة لإنشاء أسواق مستقبلية سلوكية في العالم الحقيقي للسلع والخدمات. فمن المهم أن نفهم أن كل مستوى من مستويات الابتكار يبنى على المستوى الذي يسبقه، وأنها تتحد كلها على هدف واحد، وهو استخراج واسع النطاق للفائض السلوكي.

تستشعر غوغل، في هذا التقدّم، فرصة تأمل أن يقدرها زبائنها: قدرتها على التأثير على السلوك الفعلي كما يحدث في فضاءات الحياة اليومية الحقيقية. ففي عام 2016 مثلاً، قدّمت الشركة ميزة جديدة لتطبيق الخرائط تسمى "وضع القيادة"، وهي ميزة تقترح وجهات وأوقاتاً للسفر دون أن يقوم المستخدمون حتى باختيار المكان الذي يريدون الذهاب إليه. إذا بحثت عن مطرقة عبر الإنترنت، فإن "وضع القيادة" قد يرسلك إلى متجر للخردوات عندما تربط حزام الأمان. ذكرت صحيفة وول ستريت جورنال أن "غوغل تعمل على دمج تقنية 'الدفع' هذه في تطبيق البحث الرئيسي الخاص بها على الهاتف المحمول". (405)

من خلال هذا التطبيق، يطلب "مساعد الطيار"، في موقع غوغل، من الشخص أن ينعطف يسارًا ويمينًا على مسار محدد من خلال المعرفة المتراكمة باستمرار عن

(405) أليستير بار، "خرائط غوغل تُخمن وجهتك الآن"، وول ستريت جورنال (منشور)، 13 يناير 2016.

الشخص والسياق. أما التنبؤات بفكرة أين قد ينفق الشخص أمواله ومتى، فهي مستمدة من قدرة شركة غوغل الحصرية على الوصول إلى فائض السلوك، ومن قدرتها التحليلية على حد سواء: "تناول طعامك هنا"، "اشترِ هذا المنتج". إن تحليل الفائض السلوكي لدى غوغل يمكنه أن يتنبأ بأنه يُحتمل أن تشتري سترة صوفية باهظة الثمن، ويمكن لبيانات الموقع في هذا الوقت الفعلي أن تؤدي إلى إرسال إشعار فوري من المالك أو المعلن، مطابق للمفك الشخصي، ويصلك في اللحظة ذاتها التي تكون فيها في منطقة فيها ملابس مناسبة لذوقك العام. تريد شركة غوغل أن تكون مساعدة لك في الحياة نفسها من خلال: الدفع والجذب، وتقديم الاقتراحات، والإغراءات وجعلك تشعر بالخجل. تُنتج كل استجابة بشرية لكل مُحفّز تجاري مزيدًا من البيانات لتحسينها وتطويرها إلى منتجات تنبؤ أفضل. وتُشتري المُحفّزات نفسها، ويُدفع ثمنها، في نسخة مُبتكرة من أسواق إعلانات غوغل الإلكترونية: تداول آني وواقعي في مستقبل السلوك، في مستقبلك.

المخاطر كبيرة في هذه السوق الناشئة، إذ يعادل السلوك غير المتوقع خسارة في الإيرادات. ولا تستطيع غوغل أن تترك أي شيء للصدفة.⁽⁴⁰⁶⁾ في سبتمبر 2016، كشفت أخبار موقع "ريجستر" التقني أن تطبيق "غوغل بلاي" المُثبت مُسبقًا في أحدث الهواتف العاملة بنظام أندرويد، يتحقق باستمرار من موقع المستخدم، ويرسل هذه المعلومات إلى تطبيقات طرف ثالث، بالإضافة إلى خوادم غوغل الخاصة. وصدِّم أحد الباحثين الأميين عندما ظهر على شاشة هاتفه العامل بنظام أندرويد تحميل تطبيق "ماكدونالدز" في اللحظة التي اجتاز فيها عتبة مطعم الوجبات السريعة. اكتشف لاحقًا أن متجر "غوغل بلاي" قد رصد موقعه آلاف المرات. وبالمثل، لا يتيح لك تطبيق "خرائط غوغل" خيارًا مناسبًا لإيقافه. إذا فعلت ذلك، يُحذّر نظام التشغيل من أن "الميزات الأساسية لجهازك قد لا تعمل بالشكل المناسب".⁽⁴⁰⁷⁾ يعكسُ إصرار

(406) أكشاي كانان، "مقدمة حول القريب: طريقة جديدة لاكتشاف الأشياء من حولك"، مدونة أندرويد الرسمية، 9 يونيو 2016.

(407) كيرين مكارثي، "حذف خرائط غوغل؟ تقول غوغل: سوف نستمر في تتبّعك"، ريجستر 12 سبتمبر 2016.

غوغل تلك السياسات الاستبدادية التي تفرضها ضرورة الاستخراج، فضلاً عن عبودية الشركة للمتطلبات العنيدة لاقتصادها.

النقطة الأساسية التي يتعين علينا أن نأخذها بعين الاعتبار هنا هي أن خدمة "ستريت فيو"، التي رُفِضَتْ سابقاً، وجدت حياة جديدة من خلال مساهمتها في التوسع الهائل في أسواق العقود الآجلة السلوكية سواء أكان عبر الإنترنت أم في العالم الحقيقي. كانت تلك الأسواق مخصصة في السابق للإعلانات الموجهة عبر الإنترنت، لكنها تنمو الآن لتشمل تنبؤات حول ما سيفعله البشر الآن، وفي وقت قريب، وفي وقت لاحق، سواء أكانوا يشقّون طريقهم عبر الإنترنت، أو على الأرصفة والطرق، أو في الغرف والقاعات والمحلات التجارية والردهات والممرات. وتندر هذه الأهداف الطموحة بغارات جديدة وعمليات سلب ونهب، مع تحييد المقاومة، وسقوط الشعوب في حالة الخضوع المُمل.

اكتشفت غوغل، بالصدفة أو عن سابق إصرار وتصميم، مصدر قوة كل راسم خرائط. وقد عبّر مؤرخ الخرائط العظيم، جون بي. هارلي، عن ذلك بإيجاز: "صنعت الخرائط إمبراطوريات". وهي ضرورية لتحقيق "التهدئة والتمدين والاستغلال" المؤثر للمناطق التي تم تصوّرها، أو المطالبة بها، إلا أنه لم يُستولَ عليها بعد في الممارسة العملية. لا بدّ من معرفة الأماكن والأشخاص من أجل السيطرة عليها. كتب هارلي: "كانت الخطوط نفسها على الخريطة لغة غزو، حيث وزّع الغزاة القارة فيما بينهم بتصميمات تعكس منافساتهم المعقّدة، وقوّتهم النسبية". وقد نجحت أول عملية مسح للأراضي قائمة الزوايا في الولايات المتحدة في التقاط هذه اللغة بشكل مثالي في شعارها: "نظام على الأرض".⁽⁴⁰⁸⁾ إن راسم الخرائط هو أداة السلطة، بصفته صانع هذا النظام، إذ يُحتزل الواقع إلى حالتين فقط: الخريطة والنسيان. وتُبلور حقيقة راسم الخرائط الرسالة التي ينبغي على غوغل، وجميع مُستثمري رأسمالية المراقبة، إيصالها إلى البشر جميعاً: إن لم تكن على خريطتنا، فأنت غير موجود.

(408) جون بي. هارلي، الطبعة الجديدة للخرائط: مقالات في تاريخ رسم الخرائط، تحرير بول لاكستون (بالتيومور، ماريلاند: جامعة جونز هوبكنز، 2001)، 58-59.

علّمت مشاريع مثل "ستريت فيو" شركة غوغل أنها تستطيع أن تتولّى دور حَكَم المستقبل، وتنجو من العقاب. وتعلّمت دعم حتى أكثر جهود نزع الملكية إثارة للجدل عندما تكون ضرورية لتأمين خطوط إمداد جديدة حيوية. على سبيل المثال، بينما اندلعت الاحتجاجات ضد خدمة "ستريت فيو" في مختلف أنحاء العالم، وقبل أشهر فقط من إعلان ألمانيا أن هذه الخدمة كانت تلتقطُ سرًّا معلومات شخصية من شبكات "واي فاي" غير محمية، طرحت غوغل خدمة "باز" (Buzz) - وهي منصّة تهدف إلى توجيه شبكات غوغل في مسار الفائض السلوكي المرغوب المتدفق من الشبكات الاجتماعية. وأدّت ممارسات التغوغل التي ظهرت مع خدمة "باز" (Buzz) - حيث استولت على معلومات المستخدمين الخاصة بإنشاء شبكاتهم الاجتماعية بأمر رسمي - إلى تحفيز جولة جديدة من دورة نزع الملكية وما فيها من منافسات درامية.

بعد أن تعلّمت شركة غوغل كيفية إعادة توجيه طرق الإمداد بنجاح، والتهرب من المعارضة وإبطائها، تشجّعت على إطلاق العنان لكلاب الجرأة وتوجيهها نحو الخراب. وتجسّد نظارات غوغل، من بين أمثلة عديدة، متانة حتمية الاستخراج، وتحويلها إلى ممارسات تجارية. فقط جمعت هذه النظارة بين الحوسبة والتواصل والتصوير، وتتبع نظام تحديد المواقع العالمي "جي بي إس"، واسترجاع البيانات، وتسجيل الصوت والفيديو، في تصميم لنظارات يمكن ارتداؤها. إذ تنتقل البيانات التي جُمِعت - الموقع، والصوت، والفيديو، والصور، وغيرها من المعلومات الشخصية - من الجهاز إلى خوادم غوغل، وتندمج مع طرق الإمداد الأخرى للانضمام إلى التدفق الهائل أحادي الاتجاه من الفائض السلوكي.

كان يُنظر إلى المشروع باعتباره مقدمة لأشكال أكثر مرونة، وأقل وضوحًا، من أدوات الحوسبة القابلة للارتداء، وتلتقط لفائض السلوكي. وقد وصف جون هانك شكلها المؤلف بأنه مناسب "لمرحلة التبني المبكرة" للتكنولوجيا القابلة للارتداء،

(409) الكلاب الجريئة هو مصطلح يصف الكلاب التي تُظهر سلوكيات تُعتبر تحديًا أو تصرفًا جريئًا، وليس مجرد عصيان أو تدريب سيئ (المترجم).

تمامًا كما كانت السيارات الأولى تُشبه عربات الخيول. بمعنى آخر، صُممت "النظارات" لإخفاء ما هو في الواقع غير مسبوق: "نريد أخيرًا أن تتحسن هذه التقنيات، أينما كانت على جسدك، بشكل كامل بناءً على الوظيفة التي تقوم بها، وليس وفقًا لما هو مقبول اجتماعيًا في تلك اللحظة الأولى من الإبداع، لمجرد أنها تذكر الناس بشيء شاهدوه في الماضي".⁽⁴¹⁰⁾ طُرِح هذا الجهاز ببراءة في ربيع عام 2012 بوصفه صيحة مستقبلية رائدة في عالم الموضة، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يُبدي الجمهور استياءً جديدًا من هذا الغزو الغريب. وُصف مرتدوه بأنهم "مُتطفلون"، وحظرت بعض الشركات النظارات في منشآتها.⁽⁴¹¹⁾

احتجّ المدافعون عن الخصوصية على فكرة التسجيل "الدائم" و"غير القابل للكشف" للأشخاص والأماكن، والذي يلغي توقّعات الشخص المنطقية بالخصوصية و/أو عدم إمكانية الكشف عن هويته. وحذّروا من مخاطر جديدة مع تطبيق برنامج التعرّف على الوجه على تدفّقات البيانات الجديدة، وتوقّعوا أن تقنيات نظارة كهذه قد تغيّر بشكل جذري الطريقة التي يتصرّف بها الناس في الأماكن العامة. وفي مطلع شهر مايو/ أيار 2013، طلبت لجنة الخصوصية في الكونغرس من الرئيس التنفيذي لاري بيج ضمانات بشأن حماية الخصوصية بالنسبة إلى نظارات غوغل، في الوقت الذي عقد فيه مؤتمر غوغل لتدريب المطوّرين على إنشاء تطبيقات للجهاز الجديد. وفي شهر أبريل/ نيسان 2014، أعلن مركز "بيو" للأبحاث أن 53٪ من الأمريكيين يعتقدون أن الأجهزة الذكية القابلة للارتداء هي "تغيّر نحو الأسوأ"، بما في ذلك 59٪ من النساء الأمريكيات.⁽⁴¹²⁾

استمرّت شركة غوغل في التعامل مع هذه الصعوبات دون أن تستسلم، في

(410) انظر ستيفن غريفرز، "شركة نياتيك إنك لألعاب الفيديو، يتحدث جون هانك عن ألعاب الواقع البديل ومستقبل سرد القصص"، PC&Tech Authority، 13 أكتوبر/ تشرين الأول 2014.

(411) ديفيد ديسالفو، "بدء حظر نظارات غوغل (وهي غير متوفرة بعد)"، فوربس، 10 مارس/ آذار 2013؛ ديفيد سترتيفيلد، "نظارات غوغل تلتقط إشارة مبكرة: ابقوا خارجًا"، نيويورك تايمز، 6 مايو/ أيار 2013.

(412) آرون سميث، "وجهات نظر الولايات المتحدة حول التكنولوجيا والمستقبل"، مركز بيو للأبحاث: الإنترنت والعلوم والتكنولوجيا (مدوّنة)، 17 أبريل/ نيسان 2014.

انتظار أن يبدأ التعود. وفي يونيو/ حزيران من ذلك العام، أعلنت الشركة أن نظارتها الذكية ستقدّم تطبيق "لايفستريم" (Livestream) لمشاركة الفيديو، مما يتيح لمستخدمي النظارات بثّ كل شيء يرونه إلى شبكة الإنترنت في وقته الحقيقي. وعندما سُئل عن وجود قدرات تطفلية ومثيرة للجدل في أيدي مالك الجهاز، أجاب الرئيس التنفيذي لشركة "لايفستريم": "إن شركة غوغل هي المسؤولة في نهاية المطاف عن وضع القواعد".⁽⁴¹³⁾ وأوضح سيرجي برين أن أية مقاومة ستُرفض رفضاً قاطعاً عندما قال لصحيفة *وول ستريت جورنال*: "لدى الناس دائماً نفور طبيعي من الابتكار".⁽⁴¹⁴⁾

بدأت عملية التكيّف عام 2015 بإعلان توقف غوغل عن العمل. ولم تُدل الشركة بأي تصريح يُعبّر عن استياء الجمهور أو عن القضايا الاجتماعية التي أثارها غوغل. وأعلن منشور قصير على المدوّنة، "نحن مستعدّون لارتداء أحذية الأولاد الكبار، وتعلّم كيفية الجري سوف تبدأ برؤية الإصدارات المستقبلية من نظارات غوغل عندما تكون جاهزة".⁽⁴¹⁵⁾ ثم كُلف مصمّم النظارات بتحويل المظهر من جهاز مستقبلي إلى جهاز أكثر جمالاً.

ثم بدأت عملية إعادة التوجيه بهدوء. في يونيو/ حزيران 2015، تلقى مكتب الهندسة والتكنولوجيا في هيئة الاتصالات الفيدرالية خطط تصميم جديدة لنظارات غوغل، وشهد سبتمبر/ أيلول عناوين رئيسية جديدة تُعلن أن "النظارة ستحصل على اسم جديد، وفرصة حياة جديدة".⁽⁴¹⁶⁾ بعد عام من ذلك، وضع إريك شميدت، رئيس مجلس إدارة غوغل الحالي، الوضع في نصابه الصحيح: "إنها منصّة ضخمة وأساسية للغاية بالنسبة إلى شركة غوغل". وأوضح أن نظارة غوغل سُجّبت بعد

(413) درو فيتزجيرالد، "يمكن الآن لنظارة غوغل أن تحوّل إلى جهاز بثّ مباشر"، *وول ستريت جورنال*، 24 يونيو 2014.

(414) انظر أمير إفراي، "خصوصية نظارة غوغل تثير قلق المشرعين"، *وول ستريت جورنال*، 17 مايو/ أيار 2013.

(415) "نحن ننخّج من مخترعات غوغل [X]"، غوغل، 15 يناير 2015.

(416) أليستير بار، "نظارات غوغل تحصل على اسم جديد وتوظّف لديها موظّفين من أمازون"، *وول ستريت جورنال*، 16 سبتمبر/ أيلول 2015.

تدقيق المراقبة العامل لكي "نجعلها جاهزة للمستخدمين.... فهذه الأمور تستغرق وقتاً".⁽⁴¹⁷⁾ ومع تسرّب مزيد من المعلومات من الشركة، بات واضحاً أنها لا تنوي التنازل عن طرق التوريد الجديدة المحتملة في مجال التقنيات القابلة للارتداء، بغض النظر عن ردّ فعل الجمهور. كانت النظارات أشبه بنذير لمنصّة "أجهزة جديدة قابلة للارتداء" من شأنها أن تساعد على انتقال عمليات الفائض السلوكي من العالم المتصل بالإنترنت إلى العالم غير المتصل.⁽⁴¹⁸⁾

في شهر يوليو/ تموز 2017، أصبحت مرحلة إعادة التوجيه علنية من خلال منشور يقدّم إصداراً جديداً من نظارة غوغل إلى العالم، وأصبح الآن يحمل اسم "Glass Enterprise Edition"، أي "نظارة الواقع المعزّز".⁽⁴¹⁹⁾ هذه المرة، لن يكون هناك هجوم مباشر في الفضاء العام، بل سيكون هناك انسحاب تكتيكي إلى مكان العمل - وهو المعيار الأمثل لسياقات التعمّد، حيث تُصبح التقنيات الاقتحامية أمراً طبيعياً بين فئات الموظفين المحاصرة. يقول مدير المشروع: "يجد العاملون في كثير من المجالات، مثل التصنيع والخدمات اللوجستية والخدمات الميدانية والرعاية الصحية، أنه من المفيد استشارة جهاز يمكن ارتداؤه للحصول على معلومات وموارد أخرى أثناء انشغال أيديهم"، وأشادت معظم التقارير الصحفية بهذه الخطوة، مشيرة إلى زيادة الإنتاجية والكفاءة في المصانع التي نشرت النظارات الجديدة.⁽⁴²⁰⁾ لم يكن هناك اعتراف يذكر بأن التعمّد على استخدام النظارات في العمل كان بلا شكّ بمثابة باب خلفي لاستخدامها في شوارعنا، أو أن خصائص المراقبة التطفلية التي يتمتع بها الجهاز

(417) فريد أوكونور، يقول شميدت: "غوغل تصنع نظارة 'جاهزة للمستخدمين'", بي سي وورلد، 23 مارس 2015؛ "نظرة مستقبلية لواتساب"، واتساب (مدونة)، 25 أغسطس 2016.
(418) أليستير بار، "بحث غوغل الصعب عن منصّات جديدة معروضة في مؤتمر I/O"، وول ستريت جورنال، 27 مايو/ أيار 2015.

(419) جاي كوشاري، "فصل جديد للنظارات"، فريق X (مدونة)، 18 يوليو/ تموز 2017.
(420) انظر مثلاً دارييل إيثرينغتون، "نظارات غوغل تعود بعتاد يركّز على الشركات"، مدونة تك كرانش، 18 يوليو/ تموز 2017؛ هايلي تسوكاياما، "ستتوقف غوغل عن بيع نظارتها للعامة، لكنها تقول إن الجهاز لم يمت بعد"، صحيفة واشنطن بوست، 15 يناير/ كانون الثاني 2015؛ بريد-أين بارنيل، "شرطة نيويورك تضع مواصفات غوغل التقنية: نصف بشري ونصف آلي ونصف زجاجي"، مجلة ريجيستر، 10 فبراير/ شباط 2014.

سوف تُفرض، بالقدر نفسه من اليقين، على النساء والرجال المطلوب منهم استخدامها كشرط لتوظيفهم.

الدرس الذي تتعلّمه من النظارات هو أنه عندما يواجه أحد المسارات المؤدية إلى مصدر الإمداد عقبات، تنشأ مسارات أخرى لاستغلال الثغرات ودفع التوسّع. فقد تعلّمت الشركة على مضض أن تولي اهتمامًا أكبر للعلاقات العامة لهذه التطوّرات، لكن المطالب غير المشروطة لضرورة الاستخراج تعني أن دورة نزع الملكية يجب أن تستمرّ بكامل قوتها، مع المطالبة المستمرة بمناطق جديدة.

قد يكون نزع الملكية بمثابة "سرقة بسيطة" من الناحية النظرية، لكنه في الواقع عملية سياسية ومادية معقّدة، ومنظّمة للغاية، وتتضمّن مراحل واضحة وديناميكيات يمكن التنبؤ بها. إن نظرية التغيير المطروحة هنا تنقل المعرفة والحقوق بشكل منهجي من الكثرة إلى القلّة في ضبابية "سحر بيج" المتألق. إنها نظرية تصوّر المنافسة العامة باعتبارها صرخة مؤسفة، لكنّها متوقّعة، من السكان الحمقى الذين يُظهرون "مقاومة للتغيير" بشكل انفعالي، متمسكين بحنين بماضي لا يمكن استرجاعه، بينما ينكرون مستقبلًا لا مفرّ منه: مستقبل غوغل، ومستقبل رأسمالية المراقبة. وتشير النظرية إلى أنه لا بدّ من تراجع المقاومة كمؤشّر على المراحل الصعبة الأولى من الغزو. وتفترض أن المقاومة عابرة، كصرخة الألم الحادة التي تُحدثها إبرة نوفوكاين عند وخز الجلد، قبل أن يبدأ الخدر.

5. التنافس على نزع الملكية

أدّى النجاح المذهل الذي حققته شركة غوغل، في بناء آليات ومبادئ رأسمالية المراقبة ومبادئها وجذب عائداتها، إلى إشعال منافسة في حرب استخراج متصاعدة. بدأت شركة غوغل في فضاء فارغ، لكنها سرعان ما تنافست مع شركات أخرى انجذبت إلى عائدات المراقبة. كانت شركة فيسبوك أول الشركات المنافسة على فائض الإمدادات السلوكية وأكثرها عدوانية، حيث بدأت موجة توغلات بسرعة كبيرة، وأنشأت وجودًا على حدود الفائض الحرّ وغير القانوني، بينما أنكرت أفعالها، وصدّت

الانتقادات، وأريكت الجمهور تمامًا. وكان زرّ "الإعجاب" (like)، الذي ظهر في أبريل/ نيسان 2010 كأداة تواصل بين الأصدقاء، فرصة مبكرة لزوكريغ، مؤسس الشركة، لإتقان دورة نزع الملكية. وفي شهر نوفمبر/ تشرين الثاني من ذلك العام، نشر مرشّح شهادة الدكتوراه، والباحث في الخصوصية، الهولندي أرنولد روزندال، دراسة عن الغزو الذي كان يجري فعلاً، وأثبت أن الزرّ كان آلية إمداد قوية تلتقط الفائض السلوكي وتنقله باستمرار، وتقوم بتثبيت ملفات الارتباط في حاسوبات المستخدمين سواء أقاموا بالنقر على الزرّ أم لا. واكتشف روزندال، في وصفه للعملية بأنها "نموذج أعمال بديل"، أن الزر يتتبع أيضًا الأعضاء غير الأعضاء في فيسبوك، وخلص إلى أن فيسبوك كان قادرًا على الاتصال بـ "جميع مستخدمي الويب" وبالتالي مراقبتهم.⁽⁴²¹⁾ قبل شهرين فقط، وصف زوكريغ قائمة انتهاكات الخصوصية المتزايدة التي شنتها شركة فيسبوك بأنها "خطوات خاطئة".⁽⁴²²⁾ والآن يتمسك بالنص، ويصف أخيرًا اكتشاف روزندال بـ "الخطأ".⁽⁴²³⁾

وصلت مرحلة/التعود على هذه الحلقة إلى قوتها الكاملة عام 2011. إذ أكد تقرير لصحيفة وول ستريت جورنال في شهر مايو/ أيار أن فيسبوك يقوم بالتتبع، حتى عندما لا ينقر المستخدمون على الزرّ، وأشار إلى أن هذا الزرّ مثبت فعلاً على ثلث المواقع الأكثر زيارة على مستوى العالم، والتي يبلغ عددها ألف موقع. وفي الوقت نفسه، قال كبير مسؤولي التكنولوجيا في شركة فيسبوك عن الزرّ: "نحن لا نستخدمه للتتبع، وليس الغرض منه التتبع".⁽⁴²⁴⁾ وفي 25 سبتمبر/ أيلول، نشر "الهاكر"

(421) أرنولد روزندال، "فيسبوك يتتبع الجميع: بهذه الطريقة!" (بحث منشور في شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 30 نوفمبر/ تشرين الثاني 2010).

(422) خوسيه أنطونيو فارغاس، "وجه الفيسبوك"، نيويورك، 13 سبتمبر/ أيلول 2010.

(423) سينثيا غزالي، "فيسبوك يراقب المستخدمين حتى بعد تسجيل خروجهم: تقرير"، نيويورك ديلي نيوز، 18 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011.

(424) أمير إفراي، "زرّ 'الإعجاب' يتتبع مستخدمي الإنترنت"، وول ستريت جورنال، 18 مايو 2011. انظر أيضًا، إميل بروتالينسكي، "فيسبوك ينفي مزاعم تتبّع ملفات تعريف الارتباط"، ZDNet، 3 أكتوبر 2011؛ ريفاريتشموند، "مع انتشار أزارار 'الإعجاب'، تنتشر مجسّات فيسبوك"، مدونة نيويورك تايمز-بتس، 27 سبتمبر 2011؛ جوليا أنجوين، "الأمر معقد: تاريخ فيسبوك في تتبعك"، بروباليكا، 17 يونيو 2014؛ ريني ريتمان، "فندق كاليفورنيا التابع لفيسبوك: التتبع عبر المواقع والتأثير المحتمل على تشريعات الخصوصية

الأسترالي نيك كوبريلوفيتش نتائج تظهر أن فيسبوك مستمر في تعقب المستخدمين حتى بعد تسجيل خروجهم من الموقع.⁽⁴²⁵⁾ وأعلنت شركة فيسبوك أنها ستعمل على إصلاح "الخلل"، موضحة أن بعض ملفات تعريف الارتباط كانت تتعقب المستخدمين عن طريق الخطأ، مشيرة إلى أنها لا تستطيع وقف هذه الممارسة بالكامل بسبب اعتبارات "السلامة" و"الأداء".⁽⁴²⁶⁾ واكتشف صحفيون أنه قبل ثلاثة أيام فقط من كشف كوبريلوفيتش عن أسرارها، حصلت الشركة على براءة اختراع لتقنيات متخصصة لتتبع المستخدمين عبر نطاقات الويب. وقد مكّنت طرق البيانات الجديدة فيسبوك من تتبع المستخدمين، وإنشاء ملفات شخصية على الأفراد وشبكاتهم الاجتماعية، وتلقي تقارير من أطراف ثالثة حول كل إجراء يقوم به مستخدم فيسبوك، وتسجيل تلك الإجراءات في نظام فيسبوك من أجل ربطها بإعلانات محددة تُقدّم لأطراف معيّنة.⁽⁴²⁷⁾ سرعان ما أنكرت الشركة أهمية براءة الاختراع وضرورتها.⁽⁴²⁸⁾

مع تأكيدات شركة فيسبوك القاطعة بأنها لا تتبع المستخدمين، على الرغم من العديد من الحقائق المؤكدة، ازداد إحباط المتخصصين، وازداد ارتباك الجمهور. ويبدو أن هذا كان جوهر الأمر. من خلال إنكار الاتهامات كلها، والتعهد بالالتزام برفاهية المستخدمين، ضمنت شركة فيسبوك عامًا ونصف العام لتعويد العالم على زّر "الإعجاب"، وتأسيس ذلك الإبهام الأيقوني المتجه نحو السماء باعتباره طرفًا

الرقمية"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 10 أكتوبر 2011.

(425) أشر موسى، "كذبة فيسبوك بشأن الخصوصية: أسترالي يكشف عن "التتبع" مع اكتشاف براءة اختراع جديدة"، صحيفة سيدني مورنينغ هيرالد، 4 أكتوبر/ تشرين الأول 2011.

(426) موسى؛ إميل بروتالينسكي، "فيسبوك ينفي مزاعم تتبّع ملفات تعريف الارتباط؛" إميل بروتالينسكي، "فيسبوك يُصلح سلوك ملفات تعريف الارتباط بعد تسجيل الخروج"، ZDNet، 27 سبتمبر/ أيلول 2011؛ نيك كوبريلوفيتش، "فيسبوك يُصلح مشكلة تسجيل الخروج، ويشرح ملفات تعريف الارتباط"، نيو ويب أوردر، 27 سبتمبر/ أيلول 2011.

(427) كينت ماثيو شون، وغريغوري لوك دينغل، وتيموثي كيندال، "توصيل المعلومات في نظام شبكة اجتماعية حول الأنشطة من نطاق آخر"، WO2011097624 A3، المقدم في 8 فبراير 2011، والصادر في 22 سبتمبر 2011.

(428) إميل بروتالينسكي، "فيسبوك ينفي استخدام براءة اختراع لتتبع المستخدمين الذين سجلوا خروجهم"، ZDNet، 3 أكتوبر/ تشرين الأول 2011. انظر أيضًا، مايكل أرنتغتون، "فيسبوك: خيانة وحشية"، أنكرونشد (مدونة)، 2 أكتوبر/ تشرين الأول 2011.

لقد مهد هذا الإنجاز القوي الطريق لمرحلة التكيّف في دورة نزاع الملكية، عندما وافقت شركة فيسبوك في أواخر نوفمبر/ تشرين الثاني 2011 على تسوية مع لجنة التجارة الفيدرالية بشأن اتهامات بأنها "خدعت المستهلكين بشكل منهجي من خلال إخبارهم بأنهم يستطيعون الحفاظ على خصوصية معلوماتهم على فيسبوك، ثم سمحت مراراً وتكراراً بمشاركتها وجعلها عامة".⁽⁴³⁰⁾ وأدت الشكوى التي رفعتها شركة EPIC واتّلاف من المدافعين عن الخصوصية في عام 2009 إلى إثارة تحقيق من جانب لجنة التجارة الفيدرالية أسفر عن أدلّة كثيرة على عدم التزام الشركة بالوعد.⁽⁴³¹⁾ شمل ذلك تغيّرات على مواقع الويب جعلت المعلومات الخاصة عامة، ووصول جهات خارجية إلى بيانات المستخدمين الشخصية، وتسريب بيانات شخصية إلى تطبيقات تابعة لجهات خارجية، وبرنامج "تطبيقات تم التحقق منها" حيث لم يتم التحقق من أي شيء، وتمكين المعلنين من الوصول إلى المعلومات الشخصية، والسماح بالوصول إلى البيانات الشخصية بعد حذف الحسابات، وانتهاكات إطار الملاذ الآمن، الذي يحكم نقل البيانات بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. في عالم موازٍ لعالم رأسمالية المراقبة، كان كل انتهاك من هذه الانتهاكات يستحقّ تصنيفاً استثنائياً مميّزاً من حيث ضرورة الاستخراج. وقد منع قرار لجنة التجارة الفيدرالية الشركة من تقديم مزيد من التصريحات الكاذبة فيما يتعلق بالخصوصية، وطلب موافقة المستخدمين الإيجابية على سياسات الخصوصية الجديدة، وفرض برنامج خصوصية شاملاً يُدقّق كل عامين لمدة عشرين عاماً. أصرّ رئيس لجنة

(429) بعد يوم واحد فقط من منشور كوبريلوفيتش، أكدت صحيفة ذا هيل أن فيسبوك قد تقدمت بطلب لإنشاء لجنة عمل سياسية خاصة بها، تهدف إلى دعم المرشحين الذين "يشاركونا أهدافنا في تعزيز قيمة الابتكار" وجعل العالم "أكثر انفتاحاً وتواصلًا". غوثام ناجيش، "فيسبوك ستشكل لجنة عمل سياسية خاصة بها لدعم المرشحين السياسيين"، هيل، 26 سبتمبر/ أيلول 2011.

(430) "فيسبوك يتوصل إلى تسوية مع لجنة التجارة الفيدرالية بشأن اتهامات خداع المستهلكين من خلال عدم الوفاء بوعد الخصوصية"، لجنة التجارة الفيدرالية، 29 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011.

(431) "تسوية لجنة التجارة الفيدرالية بشأن فيسبوك"، مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية، ديسمبر 2009.

التجارة الفيدرالية جون ليوفيتز على أنه "لا ينبغي لابتكار فيسبوك أن يأتي على حساب خصوصية المستهلك".⁽⁴³²⁾ لكن ليوفيتز لم يكن يواجه شركة؛ بل كان يواجه شكلاً جديداً للسوق له متطلبات متميزة ومستعصية لا يمكن الوفاء بها إلا على حساب خصوصية المستخدم.

جاءت إعادة التوجيه سريعاً. ففي عام 2012، أعلنت الشركة أنها ستستهدف الإعلانات بناءً على استخدام تطبيقات الهاتف الجوال، حيث تعاونت مع "داتالوجيكس" (Datalogix) لتحديد متى تُفرض الإعلانات عبر الإنترنت إلى عملية شراء فعلية. تطلبت هذه الحيلة استخراج المعلومات الشخصية من حسابات المستخدمين، بما في ذلك عناوين البريد الإلكتروني. وفي عام 2012، منحت فيسبوك المعلنين أيضاً إمكانية الوصول إلى بيانات الاستهداف، التي تضمنت عناوين البريد الإلكتروني للمستخدمين، وأرقام هواتفهم، وزيارة مواقع الويب، واعترفت بأن نظامها يفحص الرسائل الشخصية بحثاً عن روابط لمواقع ويب تابعة لجهات خارجية، ويسجل تلقائياً "إعجاباً" على صفحة الويب المرتبطة.⁽⁴³³⁾ وأعلنت الشركة، عام 2014، أنها ستقوم بتتبع المستخدمين عبر الإنترنت باستخدام زرّ "الإعجاب"، وأدوات رقمية أخرى، بهدف بناء ملفات تعريف مفصلة لعروض الإعلانات المخصصة. وأبلغ "برنامجها الشامل عن الخصوصية" المستخدمين بسياسة التتبع الجديدة هذه، ناقضة بذلك كل ما ورد منذ أبريل / نيسان 2010، وذلك بإضافة بضعة أسطر إلى اتفاقية شروط خدمة مطوّلة ومعقّدة. ولم يُعرض خيار إلغاء الاشتراك في الخصوصية.⁽⁴³⁴⁾ لقد ظهرت الحقيقة أخيراً: كان الخطأ مجرد ميزة.

(432) "فيسبوك يُسوّي اتهامات لجنة التجارة الفيدرالية الأمريكية بخداع المستهلكين". انظر أيضاً: إميلي ستيل وأبريل ديمبوسكي، "فيسبوك يُثير المخاوف بشأن تتبع الإعلانات"، فاينانشال تايمز، 23 سبتمبر / أيلول 2012.

(433) "جماهير فيسبوك المخصصة: استهداف إعلانات فيسبوك من خلال قائمة البريد الإلكتروني". جون لومر ديجيتال، 24 سبتمبر 2012.

(434) توم سيمونايت، "فيسبوك سيستهدف الإعلانات الآن بناءً على ما رأيته تفعله أزرار الإعجاب"، إم تي تكنولوجيا ريفيو، 16 سبتمبر / أيلول 2015؛ كوتون ديلو، "فيسبوك سيستخدم سجل تصفح الويب لاستهداف الإعلانات"، أديج، 12 يونيو / حزيران 2014؛ فيوليت بلو، "فيسبوك يحوّل "خلل" تتبع المستخدم إلى "ميزة" لاستخراج البيانات للمعلنين"، زد نت.

حافظت غوغل، في هذه الأثناء، على تعهدها الذي كان أساسياً لموافقة لجهة التجارة الفيدرالية على استحواذ غوغل عام 2001 على شركة "دبل كليك" العملاقة لتتبع الإعلانات، حيث وافقت على عدم الجمع بين بيانات التتبع من شركة "دبل كليك"، ومعلومات تعريف شخصية أخرى دون موافقة المستخدم. يبدو أن غوغل، في هذه الحالة، انتظرت أن تقوم شركة فيسبوك بتوسيع حدود رأسمالية المراقبة، وتحمل العبء الأكبر من التوغّل والتعود. ولاحقاً، في صيف عام 2016، تجاوزت غوغل هذه الحدود بإعلانها أن سجلّ تصفح المستخدم على موقع "دبل كليك" "قد" يُدمج مع معلومات التعريف الشخصية في خدمة "جيميل" وخدمات موقع غوغل الأخرى. وقُدِّمت وظيفة الاشتراك الموعودة لهذا المستوى الجديد من التتبع تحت عنوان "بعض الميزات الجديدة لحسابك في موقع غوغل". ووصف أحد خبراء الخصوصية هذه الخطوة بأنها الضربة القاضية لآخر "مظهر ضئيل" من الخصوصية على شبكة الإنترنت. وقُدِّم تحالف من جماعات الخصوصية شكوى جديدة إلى لجنة التجارة الفيدرالية، معترفاً ضمناً بمنطق دورة نزع الملكية: "لقد فعلت غوغل تدريجياً، وبصورة خفية، ما سيتضح أنه غير قانوني لو فعلته دفعة واحدة".⁽⁴³⁵⁾

كان الطرح العام لأسهم شركة فيسبوك عام 2012 فاشلاً بوضوح عندما أدى تراجع توقّعات مبيعاتها، والتي عجل بها التحوّل السريع إلى الأجهزة المحمولة، إلى معاملات غير مرغوب فيها بين المصرفيين الاستثماريين وزبائنهم. لكن سرعان ما أيقن زوكربيرغ وشيريل ساندبرغ وفريقهما الفروق الدقيقة في حلقة نزع الملكية، وكانت هذه المرة لتوجيه الشركة نحو الإعلانات عبر الهاتف المحمول. لقد تعلّموا أن يكونوا صيادين قُساء بارعين للفائض السلوكي، وكيفية الاستيلاء على الإمدادات على نطاق واسع، والتهرب من القانون ومقاومته، وترقية وسائل الإنتاج لتحسين منتجات التنبؤ.

(435) جوليا أنغوين، "غوغل تتراجع بجهود عن حظر تتبع الويب الذي يُمكنها من تحديد هوية المستخدمين"، بروابليكا، 21 أكتوبر/ تشرين الأول 2016؛ جاك نيكاس، "مجموعات الخصوصية تسعى لمراجعة تنظيمية لسياسة خصوصية غوغل"، وول ستريت جورنال، 19 ديسمبر/ كانون الأول 2016.

تدفقت عائدات المراقبة بسرعة هائلة، وكافأ السوق مساهمي الشركة بسخاء. وأشادت صحيفة فاينانشال تايمز عام 2017 بزيادة أرباح الشركة بنسبة 71٪ تحت عنوان "فيسبوك: علامة العظمة"، حيث ارتفعت القيمة السوقية للشركة إلى ما يقرب من 500 مليار دولار، مع 2 مليار مستخدم نشط شهريًا في المتوسط. واحتلت الشركة المرتبة السابعة في إحدى الإحصائيات المهمة لأكثر 100 شركة في الربع الأول من عام 2017، بينما لم يكن لها أي تصنيف بين تلك الشركات قبل عام واحد فقط. وكان للإعلانات، ولا سيما عبر الهاتف المحمول، دور في كل دولار من إيرادات الشركة في الربع الثاني من عام 2017: 9.2 مليار دولار من إجمالي 9.3 مليار دولار، وزيادة بنسبة 47٪ عن العام السابق.⁽⁴³⁶⁾

أشارت صحيفة الغارديان أن غوغل وفيسبوك استحوذتا على خمس الإنفاق الإعلاني العالمي في عام 2016، وهو ما يقرب من ضعف الرقم في عام 2012، ووفقًا للتقارير، امتلكت غوغل وفيسبوك ما يقرب من 90٪ من النمو في الإنفاق الإعلاني عام 2016.⁽⁴³⁷⁾ لقد دفعت رأسمالية المراقبة هذه الشركات إلى موقف يبدو منيعًا.

كانت شركة مايكروسوفت، من بين شركات الإنترنت الثلاث الكبرى المتبقية، مايكروسوفت، وأبل، وأمازون، هي الأولى والأكثر حسماً في التحول نحو رأسمالية المراقبة باعتبارها وسيلة لاستعادة زعامتها في قطاع التكنولوجيا، مع تعيين ساتيا ناديلدا في منصب الرئيس التنفيذي في فبراير/ شباط 2014. من المعروف أن شركة مايكروسوفت قد أضاعت العديد من الفرص الرئيسة للتنافس مع غوغل في مجال البحث وتطوير قدراتها الإعلانية المستهدفة. في وقت مبكر من عام 2009، عندما

(436) روس هنتر، وفرهاد زمان، وكينيدي ليو، "أفضل 100 شركة عالمية من حيث القيمة السوقية"، مركز الانتخابات العامة الأولية، برايس ووترهاوس كوبرز، 31 مارس/ آذار 2017؛ ديبورا كروفورد وآخرون، "فيسبوك (FB) - مؤتمر عبر الهاتف لنتائج الربع الرابع والسنة المالية 2016"، 1 فبراير/ شباط 2017.

(437) جوليا كولوي، "غوغل وفيسبوك يُسهمان بخمس عائدات الإعلانات العالمية"، الغارديان، 1 مايو/ أيار 2017؛ بول مورفي، "يبدو أن غوغل وفيسبوك يستأثران حقًا بالنمو كله في عائدات الإعلانات"، فاينانشال تايمز، 26 أبريل/ نيسان 2017؛ ماثيو إنغرام، "سيطرت شركة غوغل وفيسبوك على صناعة الإعلانات الرقمية"، فورتشن، 4 يناير/ كانون الثاني 2017.

كان ناديلًا نائبًا أول للرئيس، ومديرًا لقسم البحث في مايكروسوفت، انتقد علنًا فشل الشركة في إدراك الفرص المالية المرتبطة بتلك المرحلة المبكرة من رأسمالية المراقبة. وقال بنوع من الرثاء لإنهاء خدمة الإعلانات البحثية: "عند النظر إلى الماضي، نرى أنه كان قرارًا فظيعةً. لم ير أيُّ منا نموذج البحث المدفوع بمجده كله". لقد أدرك نادالا آنذاك أن محرك بحث بيج التابع لمايكروسوفت لا يستطيع منافسة محرك بحث غوغل لافتقاره إلى الحجم الكافي لاستقطاب فائض السلوك، وهو العامل الأساسي في تصنيع منتجات تنبؤ عالية الجودة: "عندما ننظر إلى البحث... نجد أنه يعتمد على الحجم. من الواضح أننا لا نملك حجمًا كافيًا اليوم، وهذا يُعيق... جودة ملائمة الإعلانات، وهي ربما المشكلة الأكبر التي نواجهها اليوم".⁽⁴³⁸⁾

بعد أقل من ثلاثة أشهر من توليه منصبه الجديد، أعلن ناديلًا عن نيّته إعادة توجيه سفينة مايكروسوفت مباشرة إلى لعبة الحجم هذه مع إصدار دراسة في أبريل / نيسان كلّفت الشركة بها شركة "آي دي سي" لمعلومات السوق.⁽⁴³⁹⁾ وخلصت الدراسة إلى أن "الشركات التي تستفيد من بياناتها لديها القدرة على جمع 1.6 تريليون دولار إضافية من الإيرادات مقارنة بالشركات التي لا تفعل ذلك"، وكان ناديلًا عازمًا على الوصول إلى الشواطئ البعيدة لهذه المساحة الجديدة الغنية. ستجني مايكروسوفت فوائد بياناتها الخاصة، وستخصّص في "تمكين" عملائها للقيام بالمثل. كتب نادالا منشورًا يتحدث فيه عن هذا التوجّه الجديد، قائلاً: "الفرصة المتاحة لنا في هذا العالم الجديد هي بإيجاد طريقة لتحفيز 'عادم البيانات' الناتج عن الحوسبة الشاملة، وتحويلها إلى وقود للذكاء الاصطناعي".⁽⁴⁴⁰⁾ ووفقًا لمقطع فيديو يوضح "رؤية البيانات" الجديدة، فإن "البيانات التي لم تُستغلّ سابقًا أصبحت الآن بمنزلة الأصل". تهدف معظم مبادرات ناديلًا إلى تعويض الوقت الضائع في إنشاء طرق إمداد قوية

(438) كارا سوينشر، "ساتيا ناديلًا، المسؤول الأول عن البحث في مايكروسوفت، يتحدث: 'إنها لعبة حجم'، مدونة AllThingsD، 4 أغسطس / آب 2009.

(439) جولي بورت، "ساتيا ناديلًا أطلق مايكروسوفت للتو في سوق جديدة بقيمة 1.6 تريليون دولار"، بيزنس إنسايدر، 15 أبريل 2014.

(440) ساتيا ناديلًا، "ثقافة البيانات للجميع"، مدونة مايكروسوفت الرسمية، 15 أبريل 2014.

للتعامل مع الفائض السلوكي، وتحديث وسائل الإنتاج الخاصة بالشركة. لقد قام فريق هندسة البحث في "بينج"، "Bing"، الخاص بميكروسوفت، ببناء نموذجه الخاص للعالم الرقمي والمادي باستخدام تقنية أطلق عليها اسم "ساتوري" (Satori): وهو نظام تعليم ذاتي يضيف سعة 28000 قرص "دي في دي" من المحتوى كل يوم.⁽⁴⁴¹⁾ ووفقاً للمدير الأول للمشروع، "كان كمّ البيانات التي جمعناها خلال العامين الماضيين مذهلاً. سيتمدد المسار إلى كوكب الزهرة، وسيبقى لدينا 7 تريليونات بكسل".⁽⁴⁴²⁾ واستُخدِمت هذه البكسلات كلها على أكمل وجه. أعلنت الشركة، في مؤتمرها الصحفي لإعلان الأرباح في أكتوبر/ تشرين الأول 2015، أن بينج حقق أرباحاً للمرة الأولى، بفضل عائدات إعلانات البحث التي بلغت حوالي مليار دولار أمريكي في الربع السابق.

كانت هناك استراتيجية أخرى لتعزيز وصول "بينج" إلى الفائض السلوكي، وهي "المساعد الرقمي" للشركة، "كورتانا" (Cortana)، والذي أجاب المستخدمون من خلاله على أكثر من مليار سؤال في الأشهر الثلاثة التي أعقبت إطلاقه في عام 2015.⁽⁴⁴³⁾ ووفقاً لأحد مسؤولي مايكروسوفت، "كانت أربعة من كل خمسة استعلامات بحثية تذهب إلى غوغل في المتصفح. أما في شريط مهام [ويندوز 10] [حيث يمكن الوصول إلى 'كورتانا']، تذهب خمسة استعلامات بحثية من كل خمسة إلى 'بينج'.... نحن معنيون جميعاً بالبحث. فهو عنصر أساسي في استراتيجيتنا لتحقيق الربح".⁽⁴⁴⁴⁾

يولد "المساعد الرقمي" "كورتانا" أكثر من زحمة بحث. وكما توضح سياسية الخصوصية في شركة ميكروسوفت، "يعمل كورتانا بشكل أفضل عندما تقوم

(441) ريتشارد تشيان، "افهم عالمك مع بينج"، مدونات بينج، 21 مارس 2013.

(442) انظر دان فابرر، "محرك البحث بينج التابع لشركة مايكروسوفت يسعى إلى التنوير مع ساتوري"، سي نت، 30 يوليو/ تموز 2013.

(443) غريغ ستيرلينغ، "حدث هام: بينج أصبح الآن مربحاً بفضل نجاح ويندوز 10 في تعزيز الاستخدام"، موقع "سيرتش إنجن لاند"، 23 أكتوبر/ تشرين الأول 2015.

(444) انظر جيني مارفن، "بعد عام من التحول، يقول المسؤولون التنفيذيون في مايكروسوفت، "نحن جميعاً مع البحث"، موقع "سيرتش إنجن لاند"، 23 نوفمبر 2015.

بتسجيل الدخول، وتسمح له باستخدام البيانات من جهازك، وحسابك الشخصي وخدمات ميكروسوفت الأخرى، وخدمات الطرف الثالث التي تختار الاتصال بها".⁽⁴⁴⁵⁾ ومثل سحر يبيج الآلي، يهدف المساعد الرقمي "كورتانا" إلى جعلك تشعر بالرهبة والامتنان. يصف أحد مسؤولي مايكروسوفت رسالة كورتانا قائلاً: "أعرف الكثير عنك. يمكنني مساعدتك بطرق لا تتوقعها. أستطيع رؤية نماذج لا تراها أنت. هذا هو السحر".⁽⁴⁴⁶⁾

لكن الشركة اتخذت قراراً ذكياً مفاده عدم الكشف للمستخدمين عن المدى الحقيقي لمعرفة كورتانا. فهو يريد أن يعرف كل شيء عنك، لكنه لا يريد أن تعرف مقدار ما يعرفه، أو أن عملياته موجهة بالكامل نحو التعلم المستمر. وبدلاً من ذلك، يُرمَجُ "الروبوت" لطلب الإذن والتأكيد. تتمثل الفكرة في تجنب إثارة مخاوف الناس من خلال تقديم ذكاء كورتانا على أنه "تقدمي" بدلاً من "مستقل"، وفقاً لمدير برنامج المجموعة للمشروع، الذي أشار إلى أن الناس لا يريدون أن يُفاجؤوا بمدى سيطرة هواتفهم عليهم: "لقد اتخذنا قراراً صريحاً بأن نخفض مستوى 'السحر' ونرفع مستوى 'الشفافية'".⁽⁴⁴⁷⁾

يتصور ناديلاً منصّة جديدة من "المحادثات" يتفاعل فيها المستخدمون مع روبوتات تحثهم على الكشف بشغف عن تفاصيل حياتهم اليومية.⁽⁴⁴⁸⁾ تتعهد هذه المنصّة بتقديم تجارب مثل "تجارة تفاعلية"،⁽⁴⁴⁹⁾ حيث

يعرف الروبوت الحذاء الذي اشترته الأسبوع الماضي مثلاً، وتفضيلاتك من

(445) "كورتانا والخصوصية"، مايكروسوفت، 11 نوفمبر 2016.

(446) انظر دان كيدي، "هذا ما يجعل كورتانا من مايكروسوفت مذهلاً حقاً"، مجلة تايم، 20 يوليو/تموز 2015.

(447) انظر "الذكاء الاصطناعي: مساعد افتراضي مدى الحياة"، فاينانشال تايمز، 23 فبراير/شباط 2017.

(448) "تحدّد مايكروسوفت منظوراً لجمع المعلومات، وتعلن عن ابتكارات جديدة لنظام "ويندوز 10" الجديد، مركز أخبار مايكروسوفت (مدونة)، 30 مارس 2016.

(449) كريس ميسينا، "التجارة التفاعلية: تطبيقات المراسلة تجلب لك نقطة البيع"، ميديوم، 16 يناير 2015.

مشترياتك السابقة، ومعلوماتك الشخصية، ويمكنه استدعاء نموذج توصيات لتحديد المنتجات التي ترغب بشرائها أكثر من غيرها... ويمكن للربوت، باستخدام قوة البيانات والتحليلات، أن يردّ بتوصيات يراها مناسبة لك. كما يمكنه دعوة أشخاص من شبكتك الاجتماعية لمساعدتك في اختيار الملابس المناسبة. وبمجرد اختيارك، سيستخدم الروبوت معلومات مقاسك، وعنوان الشحن، ومعلومات طريقة الدفع لشحن الملابس إليك.⁽⁴⁵⁰⁾

أدى إطلاق شركة مايكروسوفت لنظام تشغيل ويندوز 10، في يوليو/ تموز 2015، إلى التأكيد على جدية الهدف والإلحاح الذي توليه الشركة الآن لإنشاء الفائض السلوكي وضمان طرق إمداده.⁽⁴⁵¹⁾ ووصف أحد مهندسي البرمجيات في مجلة "سلايت" (Slate) الأمر على الشكل التالي: "إن مستنقع الخصوصية بحاجة ماسة إلى الإصلاح"، وأوضح كيف أن النظام "يمنح نفسه الحق في تمرير كميات هائلة من بياناتك إلى خوادم مايكروسوفت، واستخدام النطاق الترددي الخاص بك لأغراض مايكروسوفت الخاصة، وتحديد استخدامك لنظام ويندوز".⁽⁴⁵²⁾

وفقاً للاكتشاف السريع لكثير من المحللين، دفع النظام المستخدمين نحو وظيفة "التثبيت السريع"، حيث ساهم كل إعداد افتراضي في تدفق الحد الأقصى من المعلومات الشخصية إلى خوادم الشركة. وكشف تحقيق أجراه موقع "آرس تيكنيكا" (Ars Technica) لأخبار التكنولوجيا أنه حتى عندما تغيّر تلك الإعدادات الافتراضية، وتعطلّ خدمات رئيسة مثل "كورتانا"، يستمرّ النظام في الوصول إلى الإنترنت ونقل المعلومات إلى مايكروسوفت. وبدا، في بعض الحالات، أن هذه الإرساليات تتضمن معلومات شخصية، بما في ذلك معرف الجهاز، ومحتوى

(450) شيش شريدهار، "لسنا بحاجة إلى تطبيق آخر، المحادثات هي التطبيق الجديد"، مدونات مطوري مايكروسوفت - قائمة شيش، 21 مايو 2016.
(451) تري مايرسون، "مرحباً أيها العالم: سيكون ويندوز 10 متاحاً في 29 يوليو"، مدونة ويندوز إكسبيرينس، 1 يونيو/ حزيران، 2015.
(452) ديفيد أورياخ، "نظرية النوافذ المكسورة"، مجلة سلايت، 3 أغسطس 2015.

وفقاً لتحليل أجرته مؤسسة الحدود الإلكترونية (EFF)، حتى المستخدمون الذين اختاروا عدم استخدام كورتانا كانوا عرضة لكمية "غير مسبقة" من التقاط المعلومات، بما في ذلك النصّ والصوت والإدخال باللمس؛ وتتبع الويب؛ وبيانات القياسات عن بعد، والبرامج، ومدة الجلسة، وأشياء أخرى كثيرة. ووجدت منظمة الحدود الإلكترونية أيضًا أن الشركة اختارت إبقاء وظائف الأمان رهينة تدفقات البيانات الشخصية، مدّعية أن تحديثات الأمان لنظام التشغيل لن تعمل بشكل صحيح إذا اختار المستخدمون الحد من الإبلاغ عن الموقع. (454)

في عام 2016، استحوذت شركة مايكروسوفت على موقع "لينكد إن" (LinkedIn)، موقع شبكة التواصل الاجتماعي المهنية، مقابل 26.2 مليار دولار. وكان الهدف منها إنشاء طرق إمداد موثوقة لأبعاد الشبكة الاجتماعية للسلوك الفاضل المعروف باسم "الرسم البياني الاجتماعي". إذ يمكن لهذا التدفق القوي للفائض الاجتماعي المكوّن من 450 مليون مستخدم، أن يعزّز منتجات التنبؤ الخاصة بشركة مايكروسوفت بشكل كبير، وهي حقيقة رئيسة أشار إليها ناديلاً في إعلانه عن الاستحواذ للمستثمرين: "يمكن لهذه العملية أن تدفع الاستهداف والأهمية إلى المستوى التالي". (455) ومن الفرص الرئيسة الثلاث التي ذكرها ناديلاً للمستثمرين عند الإعلان عن الاستحواذ، كانت فرصة "تسريع تحقيق الربح من خلال اشتراكات الأفراد والمنظمات والإعلانات المستهدفة". من بين العوامل الرئيسة هنا توحيد

(453) بيتر برايت، "حتى عندما يُطلب من نظام 'ويندوز 10' عدم التواصل مع مايكروسوفت، لا يستطيع النظام التوقّف"، "أرس تكنيكا"، 13 أغسطس/ آب 2015.

(454) أمول كاليا، "مع ويندوز 10، تتجاهل مايكروسوفت بشكل صارخ اختيار المستخدم وخصوصيته: بحث معمق"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 17 أغسطس 2016؛ كورنر فوريس، "ويندوز 10 ينتهك خصوصيتك افتراضياً، إليك كيفية حماية نفسك"، تيك ريبابليك، 4 أغسطس 2015؛ أليك مير، "ويندوز 10 يتجسس عليك: إليك كيفية إيقافه"، مدونة روك، بيبر، شوتغان، 30 يوليو 2015.

(455) "نبذة عنا - لينكدإن"، لينكدإن، 11 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016؛ ساتيا ناديلاً وآخرون، "شرايح من مكالمة مستثمري مايكروسوفت التي أعلنت عن استحواذها على لينكدإن - الشبكة السحابية المهنية الرائدة في العالم - رؤية مايكروسوفت ولينكدإن للفرصة المستقبلية"، 13 يونيو/ حزيران 2016.

الملفات الشخصية المهنية عبر جميع الخدمات والأجهزة والقنوات، إضافة إلى المعرفة الشاملة التي توفرها مايكروسوفت لكل مستخدم على حدة: "تعرف كورتانا اليوم عنك وعن مؤسستك وعن العالم. وفي المستقبل، ستعرف كورتانا أيضًا شبكتك المهنية بالكامل لربط النقاط نيابةً عنك والبقاء في الطليعة".⁽⁴⁵⁶⁾

مرة أخرى، كافأ السوق مايكروسوفت وناديلًا بسخاء على توجّهما نحو عائدات المراقبة. عندما تولى ناديلًا منصب الرئيس التنفيذي في فبراير 2014، كان سعر سهم الشركة يُتداول عند حوالي 34 دولارًا، وقيمتها السوقية تُقارب 315 مليار دولار. وبعد ثلاث سنوات، في يناير/ كانون الثاني 2017، تجاوزت القيمة السوقية للشركة 500 مليار دولار للمرة الأولى منذ عام 2000، وارتفعت أسهمها إلى أعلى مستوى لها على الإطلاق عند 65.64 دولار.⁽⁴⁵⁷⁾

6- جاذبية هائلة لإيرادات المراقبة

أظهرت النجاحات غير المسبوقة التي حققتها شركات غوغل وفيسبوك ثم مايكروسوفت جاذبية ملموسة على الاقتصاد العالمي، ولا سيّما في الولايات المتحدة، حيث كانت سياسات الفوضى راسخة إلى أقصى حد. ولم يمضِ وقت طويل حتى أظهرت شركات من قطاعات قويّة، ذات جذور بعيدة عن وادي السيليكون، عزمها على التنافس على عائدات المراقبة. وكان من أولى الشركات التي انضمت إلى هذه الموجة الثانية شركات الاتصالات والكابلات التي تقدم خدمات النطاق العريض لملايين الأفراد والأسر. وعلى الرغم من وجود بعض الجدل حول ما إذا كانت هذه الشركات قادرة على المنافسة بفاعلية مع شركات الإنترنت العملاقة القائمة، تشير الحقائق الواقعية إلى أن مزوّدي خدمة الإنترنت عازمون على المحاولة. ووفقًا لملاحظة صحيفة واشنطن بوست، "قد يتمكّن مزوّدو خدمات الإنترنت من التفوّق على

(456) ناديلًا وآخرون، "الشرائح من مايكروسوفت".

(457) سوبانثا موخيرجي، "القيمة السوقية لشركة مايكروسوفت تتجاوز 500 مليار دولار مرة أخرى بعد 17 عامًا"، رويترز، 27 يناير/ كانون الثاني 2015.

فيسبوك أو غوغل بفضل اطلاعهم الواسع على شبكة الإنترنت بأكملها". (458)

قامت كبرى هذه الشركات - فيريزون، آيه تي & تي، كومكاست - بعمليات استحواذ استراتيجية أشارت إلى تحوّل بعيد عن نماذجها القديمة، المتمثلة في دفع رسوم معيّنة مقابل خدمات، لصالح استثمار الفائض السلوكي. وتُظهر المناورات التكتيكية لهذه الشركات إمكانية تعميم الآليات الأساسية والمتطلّبات التشغيلية لرأسمالية المراقبة، كما تُعتبر دليلاً على أن هذا المنطق الجديد للتراكم يحدد منطقة مساعي سوقية واسعة النطاق مختلفة تمامًا.

في ربيع عام 2014، أعلنت شركة فيريزون - أكبر شركة اتصالات في الولايات المتحدة، والأكبر في العالم من حيث القيمة السوقية - عن تحوّلها نحو عائدات المراقبة، عندما أعلنت مقالة في مجلّة "أدفرتايزينغ آيغ" عن انتقال الشركة إلى الإعلان عبر الهاتف المحمول. وجادل نائب رئيس تسويق البيانات في شركة فيريزون أن إعلانات كهذه كانت محدودة بسبب "القدرة على التوجيه ... الصعوبة المتزايدة في تتبع المستهلكين أثناء تنقلهم بين الأجهزة". ووفقاً لتعليق أحد خبراء التسويق، "لا توجد هوية شاملة تتعقب المستخدمين من تطبيقات هاتفك المحمول ومتصفّحه". وأوضح المقال أن شركة فيريزون طوّرت "بديلاً للملفات تعريف الارتباط لمساحة تسويقية تعاني من غياب ملفّات تعريف الارتباط". تهدف شركة فيريزون إلى حلّ احتياجات التتبع للمعلنين من خلال تعيين رقم تتبّع خفي، وغير قابل للحذف، يُسمّى "بريسيجن أي دي" "PrecisionID"، لكل مستخدم فيريزون. (459)

في الواقع، كانت عملية التسلّل التي نفّذتها شركة فيريزون قد بدأت قبل عامين في عام 2012، لكنها كانت مخفية بعناية عن العامة. ربما كان السبب في ذلك أن الهوية تمكّن الشركة من تحديد عادات الأفراد ومراقبتهم على هواتفهم الذكية وأجهزتهم

(458) بريان فونغ، "تقول جماعات الخصوصية إن مزودي خدمة الإنترنت يريدون أن يعرفوا عنك أكثر مما تريد غوغل أن تعرف عنك"، واشنطن بوست، 20 يناير/ كانون الثاني 2016.

(459) انظر مارك بيرغن وأليكس كانرويتز، "تتطلع فيريزون إلى استهداف مستخدمي الهاتف المحمول بالإعلانات"، أدفرتايزينغ آيغ 21 مايو/ أيار 2014.

اللوحة، مما يؤدي إلى توليد فائض سلوكي، مع تجاوز وعي العملاء. لا يمكن إيقاف أداة التتبع، أو التهرب منها، عبر التصقح الخاص أو أدوات الخصوصية الأخرى وضوابطها. فكلما زار مشترك فيريزون موقعًا إلكترونيًا أو تطبيقًا جوالًا، تستخدم الشركة وشركاؤها هذا المعرف المخفي لجمع بيانات سلوكية وتصنيفها، وهذا كله دون علم المشترك.

وفرت قدرات التتبع التي لا تُمحى من فيريزون ميزة واضحة في ظل المنافسة المتزايدة على فائض السلوك. إذ أصبح بإمكان المعلنين، المتحمسين لإعادة تعريف "مساحتك التسويقية" باعتبارها "نزهة في الحديقة"، استهداف إعلاناتهم على هاتفك المحمول بشكل موثوق بفضل معرف الشركة الشخصي الذي لا يُمحى. دخلت شركة فيريزون أيضًا في شراكة مع شركة "تورن" (Turn)، وهي شركة تكنولوجيا إعلانية سيئة السمعة فعلًا لاختراعها "ملف تعريف ارتباط زومبي" (zombie cookie) غير عادي، أو "ملف تعريف ارتباط دائم" (perma-cookie)، "يعود إلى الظهور" فورًا عندما يختار المستخدم إلغاء الاشتراك في تتبع الإعلانات، أو حذف ملفات تعريف الارتباط المرتبطة بالتتبع. باعتبار "تورن" شريكة فيريزون، ارتبط ملف تعريف الارتباط "زومبي" من "تورن" برقم التتبع السري لـ فيريزون، مما أضاف حماية أفضل من الاكتشاف والتدقيق. ودافع "مسؤول الخصوصية" الرئيس في شركة "تورن" عن هذا الترتيب قائلًا: نحن نحاول استخدام المعرف الأكثر ثباتًا قدر المستطاع من أجل القيام بما نقوم به". (460)

في خريف عام 2014، كشف جاكوب هوفمان أندروز، الخبير التقني في مؤسسة الحدود الإلكترونية، عن ادعاء شركة فيريزون الجديد الخفي بشأن المواد الخام المجانية. وسلّطت مقالة في مجلة "وايرد" الضوء على تحليل هوفمان أندروز لبرنامج المراقبة الذي تقوم به شركة فيريزون، واكتشافه الإضافي بأن شركة "تي & آيه تي" كانت تستخدم معرف تتبع مماثل. ونقلت المقالة عن متحدث باسم شركة فيريزون اعترافه قائلًا: "لا

(460) انظر جوليا أنغوين ومايك تيغاس، "كيف تستخدم هذه الشركة ملفات تعريف الارتباط الزومبي لتتبع عملاء فيريزون"، بروبابليكا، 14 يناير/كانون الثاني 2015.

توجد طريقة لإيقاف تشغيله".⁽⁴⁶¹⁾ لاحظ هوفمان أندروز أنه حتى عندما يختار المشترك إلغاء اشتراكه في إعلانات فيريزون المستهدفة، يظل معرف التتبع الخاص قائماً، حيث تتجاوز الشركة إشارات نوايا المستخدم كلها وتتغلب عليها، بما في ذلك إعداد عدم التتبع، والتصفح المتخفي، وغيره من أوضاع التصفح الخاصة، وحذف ملفات تعريف الارتباط. يُبث هذا المعرف بعد ذلك إلى كل موقع ويب غير مُشفّر يزوره عميل فيريزون من جهاز محمول. ويسمح هذا للمعلنين، ومواقع الويب التابعة لجهات خارجية، بتجميع ملف تعريف مُعمّق ودائم لعادات تصفح الزوار للويب دون موافقتهم.⁽⁴⁶²⁾ وبسبب التهديد الذي تشكّله المنافسة الجديدة، أطلقت شركة غوغل، التي تتظاهر بالدفاع عن الخصوصية، حملة من أجل بروتوكول إنترنت جديد من شأنه أن يمنع "إمكانية خداع تطبيق الويب" مثل "بريسيجن أي دي" من شركة فيريزون.⁽⁴⁶³⁾

أشارت الصحفية وخبيرة الخصوصية جوليا أنغوين وزملاؤها في صحيفة "برابليكا" أن معرفات التتبع أصبحت حالة أساسية في أنحاء قطاعات الاتصالات كلها. ووفقاً لصياغة المسؤولين التنفيذيين في مجال الإعلانات: "ما يثير حماسنا في هذا الأمر هو معرف مستوى الناقل، وهو نقطة التعرف ذات المستوى الأعلى التي تسمح لنا بالتتبع بثقة...."، كما وصف هوفمان أندروز تكتيكات شركة الاتصالات بأنها "انتهاك صارخ لخصوصية مستخدمي فيريزون".⁽⁴⁶⁴⁾ وعلى الرغم من احتمال صحة ذلك كله، تُشير العمليات التكتيكية للشركة إلى تطور أوسع نطاقاً.

لن نتراجع فيريزون عن المنطقة التي سيطرت عليها أثناء غزوها. وسيبقى المعرف

(461) روبرت ماكميلان، "ملف تعريف الارتباط الدائم لشركة فيريزون هو آلة لقتل الخصوصية"، وايرد، أكتوبر 2014.

(462) جاكوب هوفمان أندروز، "فيريزون تحقق ملفات تعريف الارتباط الدائمة لتتبع عملاء الهاتف المحمول، متجاوزة ضوابط الخصوصية"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 3 نوفمبر/ تشرين الثاني 2014. (463) جوليا أنغوين وجيف لارسون، "شخص ما يستخدم بالفعل معرف فيريزون لتتبع المستخدمين"، بروابليكا، 30 أكتوبر/ تشرين الأول 2014.

(464) جاكوب هوفمان أندروز، "كيف هزمت فيريزون وتورن حماية خصوصية المتصفحات"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 14 يناير/ كانون الثاني 2015.

الخفيّ قائماً، وأكّدت الشركة لزبائنها أنه "من غير المرجّح أن تحاول المواقع الإلكترونية والجهات الإعلانية إنشاء ملقّات تعريف للعملاء".⁽⁴⁶⁵⁾ لكن لم يمضِ وقت طويل حتى اكتشف الخبراء أن الذراع الإعلانية المحمولة لشركة تويتر تعتمد فعلاً على "معرف فيريزون" لتتبع سلوك مستخدمي موقع تويتر.⁽⁴⁶⁶⁾ ثم اكتشف عالم الحاسوب والباحث القانوني جوناثان ماير أن "ملف تعريف الارتباط الزومبي"، الخاص بشركة "تورن"، أرسل واستقبل بيانات من أكثر من ثلاثين شركة، من ضمنها "غوغل" و"فيسبوك" و"ياهو" و"تويتر" و"المارت" و"ويب إم دي". وقد أجرى ماير تحقيقاً في سياسات إلغاء الاشتراك في كل من فيريزون وتورن، ووجد أنهما شركتان مضلّلتان، وخلص إلى أن تصريحات فيريزون العامة بشأن خصوصية مُعرّف التتبع الخاص بها وأمانه جميعها كاذبة. وقال: "لا يوجد أية إمكانية للدفاع بالنسبة إلى المستخدم العادي".⁽⁴⁶⁷⁾

إن اقتحام شركة فيريزون مجال رأسمالية المراقبة أدّى بالضرورة إلى ربط مصالح الشركة بضرورة الاستخراج. ونستطيع أن نرى ذلك في الطريقة التي اكتشفت بها شركة فيريزون حلقة نزع الملكية ونفذتها، حيث تحركت بسرعة عبر تسلسل مراحلها التكتيكية من الغزو إلى إعادة التوجيه. أدّى الغزو الأولي لشركة فيريزون إلى حصولها على ثلاث سنوات من التجارب والاكتشافات الداخلية. وعبرت خلال تلك الفترة عتبة الوعي العام، وبدأت عملية تدريجية للتعوّد العام على ممارساتها الجديدة. ومع الإعلان عن استراتيجيتها، تعرّضت لسيل من المقالات الإخبارية المتقدمة، ولتدقيق من خبراء الخصوصية، لكنها اشترت أيضاً المزيد من الوقت لاستكشاف فرص الإيرادات وتوسيع طرق الإمداد. وأجبرت الشركة، بسبب ردّ الفعل العام على

(465) جوليا أنغوين، "شركة AT&T تتوقف عن استخدام معرفات تتبّع الهاتف غير القابلة للحذف"، بروباليك، 14 نوفمبر/ تشرين الثاني 2014؛ أنغوين وتيغاس، "كيف تستخدم هذه الشركة ملفات تعريف الارتباط الزومبي".

(466) أنغوين ولارسون، "ثمة من يستخدم معرف فيريزون فعلاً".

(467) جوناثان ماير، "ملف تعريف الارتباط الزومبي لشركة تورن-فيريزون"، مدونة سياسة الويب (مدونة)، 14 يناير 2015؛ أليسون شيف، "هل يمكنك التعرف عليّ الآن؟ نظرة عميقة على ممارسات فيريزون في مجال البيانات"، أد إكستشينجر، 9 أكتوبر 2014.

غزوها، على رسم خريطة للمراحل التالية من الحلقة.

أدى الضغط العام إلى التحوّل نحو التكيّف في أوائل عام 2015. وكانت لجنة الاتصالات الفيدرالية قد أطلقت، قبل بضعة أشهر، تحقيقاً في ممارسات التتبّع غير المشروعة التي تقوم بها شركة فيريزون. وفي يناير/ كانون الثاني 2015، وزّع مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية عريضة تطالب لجنة الاتصالات الفيدرالية بمعاقبة الشركة. وفي أواخر ذلك الشهر، نشرت لجنة التجارة والعلوم والنقل في مجلس الشيوخ رسالة إلى شركة فيريزون أعربت فيها عن "قلقها العميق" إزاء ممارساتها الجديدة.⁽⁴⁶⁸⁾ ووبّخت اللجنة شركتي فيريزون وتورن "لانتهاكهما المتعمّد، على ما يبدو، لخصوصية المستهلك"، و"الالتفاف على خيارات المشتركين".⁽⁴⁶⁹⁾ وبعد يوم واحد من نشر الرسالة، أعلنت شركة فيريزون: "لقد بدأنا العمل على توسيع نطاق إلغاء الاشتراك ليشمل المعرّف المُشار إليه باسم "UIDH" [رأس المعرّف الفريد من نوعه]، ونتوقع أن يكون مُتاحاً قريباً". ووصفت صحيفة نيويورك تايمز إعلان فيريزون بأنه "مراجعة كبرى لبرنامج استهداف الإعلانات عبر الهاتف المحمول".⁽⁴⁷⁰⁾

لم يكن بوسع صحيفة التايمز أن تعرف أن مرحلة إعادة توجيه حلقة نزاع الملكية كانت في طور التنفيذ فعلاً. في شهر مايو/ أيار 2015، وافقت شركة فيريزون على شراء شركة (AOL) مقابل 4.4 مليار دولار. وسرعان ما قدّر العديد من المحللين أن عامل الجذب الحقيقي لهذه الشركة كان رئيسها التنفيذي تيم أرمسترونغ، أول رئيس لمبيعات الإعلانات في غوغل، والذي أشرف على انتقالها من أسلوب "ماديسون أفينو" إلى اكتشافات "آدوردز" الرائدة. كان رئيس قسم مبيعات غوغل للأميركيتين

(468) جاكوب هوفمان أندروز، "تحت ضغط مجلس الشيوخ، تخطط فيريزون لإلغاء الاشتراك في ملفات تعريف الارتباط الفائقة"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 2 فبراير/ شباط 2015.

(469) بيل نيلسون وآخرون، "رسالة إلى السيد لوبيل سي. ماك آدم، رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذي لشركة فيريزون كومونيكيشنز من لجنة التجارة والعلوم والنقل بمجلس الشيوخ الأمريكي"، 29 يناير/ كانون الثاني 2015.

(470) بريان إكس. تشين وناتاشا سينجر، "فيريزون تسمح بالانسحاب الكامل من ملفات تعريف الارتباط الفائقة للهواتف المحمولة"، نيويورك تايمز - مدونة بيتس، 30 يناير/ كانون الثاني 2015.

عندما انتقل، مثل شيريل ساندبرغ من قبله، إلى (AOL) عام 2009، ولديه فهم عميق لجوهر المراقبة في "آدووردز"، وتصميم على إنفاذ ميزانية شركة (AOL) من خلال العلاج الجيني لرأسمالية المراقبة. وكما قال رئيس العمليات في شركة فيريزون للمستثمرين، "بالنسبة إلينا، كان الاهتمام الرئيسي منصباً على منصّة التكنولوجيا الإعلانية التي قام تيم أرمسترونغ وفريقه بعمل رائع حقاً في بنائها". ولاحظت مجلة فوربس أن أرمسترونغ كان بحاجة إلى موارد فيريزون "لتحدي الاحتكار الثنائي لغوغل وفيسبوك".⁽⁴⁷¹⁾

إن أي تحدٍّ جدي لرأسمالي المراقبة العملاقة يجب أن يبدأ باقتصادات الحجم في استغلال فائض السلوك. ولتحقيق هذه الغاية، أعادت فيريزون توجيه مسارات إمدادها على الفور عبر منصّات إعلانات شركة (AOL). وفي غضون بضعة أشهر من عملية الاستحواذ، نشرت شركة فيريزون بهدوء إشعاراً جديداً للخصوصية على موقعها الإلكتروني، وهو إشعار لن يقرأه على الإطلاق سوى عدد قليل من عملائها اللاسلكيين البالغ عددهم 135 مليون عميل. وعرفنا الحكاية من خلال بضعة أسطر أُدرِجت في الفقرات الأخيرة من المنشور: إن "بريسيجن آي دي" (PrecisionID) تتحرّك مجدداً. ستعمل شركتا فيريزون و(AOL) الآن معاً "من أجل تقديم خدمات أكثر تخصيصاً وفائدة لك.... سندمجُ برامج الإعلان الحالية لشركة فيريزون.... في شبكة إعلانات (AOL). وسيساعد هذا الدمج على جعل الإعلانات التي تشاهدها أعلى قيمة عبر الأجهزة والخدمات المختلفة التي تستخدمها". وأكد الإشعار الجديد أن "خصوصية عملائنا مهمة بالنسبة إلينا"، على الرغم من أنها ليست مهمة بما يكفي لتقويض ضرورة الاستخراج والسماح لموردي المواد الخام بتحدي برنامج نزع الملكية الخاص بالشركة. وكانت إجراءات الانسحاب مُتاحة، لكنها كانت معقّدة كالعادة، ويصعب التأكد منها، وتستغرق وقتاً طويلاً. وكُتِبَ في نهاية المنشور: "لاحظ أن استخدام عناصر التحكم بالتصفّح مثل مسح ملفات تعريف الارتباط على أجهزتك

(471) انظر إدmond إنغهام، "كان لدى فيريزون هدف واحد فقط عندما وافقت على شراء AOL: الرئيس التنفيذي تيم أرمسترونغ"، فوربس، 13 مايو 2015. انظر أيضاً ألكسندر نازاريان، "كيف تفوق تيم أرمسترونغ على ماريسا ماير"، نيوزويك، 25 يوليو 2016.

أو مسح سجل المتصفح الخاص بك ليس طريقة فعالة للانسحاب من برامج إعلانات "فيريزون" أو (AOL).⁽⁴⁷²⁾

كانت التسوية التي توصلت إليها لجنة الاتصالات الفيدرالية مع شركة فيريزون مثالا قائما آخر على مؤسسة عامة تفوقت عليها شركة خاصة بالسرعة وبموارد رأسمالية المراقبة. في مارس/ آذار 2016، وبعد فترة طويلة من الإعلان عن إعادة التوجيه التكتيكي لشركة فيريزون، توصلت لجنة الاتصالات الفيدرالية إلى تسوية بقيمة 1.35 مليون دولار مع فيريزون بشأن انتهاكات الخصوصية الهوية المخفية. وعلى الرغم من أن شركة فيريزون وافقت على إعادة إطلاق ملفات تعريف الارتباط الخاصة بها على أساس الاشتراك الاختياري، فإن التسوية لم تمتد إلى شبكة إعلانات (AOL)، التي انتقلت إليها الإجراءات. وستظل طرق الإمداد الجديدة المزدهرة التي أنشأتها شركة فيريزون دون مواجهة أية تحديات.⁽⁴⁷³⁾ وفي وقت لاحق من ذلك الشهر، التقى أرمسترونغ مع مشتري الإعلانات، وهو اللقاء الذي وصفته صحيفة وول ستريت جورنال بأنه "فرصته الحقيقية الأولى لإقناعهم بأن شركة (AOL) - بعد أن أصبحت ملكاً لشركة فيريزون - تنوي أن تصبح تهديداً موثقاً لشركتي فيسبوك وغوغل...".⁽⁴⁷⁴⁾

في 31 مارس 2016، أصدرت لجنة الاتصالات الفيدرالية إشعاراً بشأن القواعد التنظيمية المقترحة التي من شأنها إرساء إرشادات الخصوصية لمقدمي خدمات الإنترنت. سيُسمح للشركات بمواصلة جمع البيانات السلوكية التي تعزز أمن خدماتها الخاصة وفعاليتها، لكن جميع الاستخدامات الأخرى لبيانات المستهلكين ستطلب موافقة اختيارية. وقال رئيس لجنة الاتصالات الفيدرالية توم ويلر: "بمجرد

(472) "إشعار خصوصية برامج الإعلانات - أكتوبر 2015"، فيريزون، 7 ديسمبر 2015؛ جوليا أنغوين وجيف لارسون، "ملفات تعريف الزومبي من فيريزون تنبض بالحياة"، بروابليكا، 6 أكتوبر 2015.
(473) جوليا أنغوين، "فيريزون تدفع 1.35 مليون دولار لتسوية اتهامات خصوصية ملفات تعريف الارتباط الزومبي"، بروابليكا، 7 مارس 2016.
(474) مايك شيلدز وريان كوتسون، "يهدف تيم أرمسترونغ إلى بناء إمبراطورية الإعلانات الرقمية في فيريزون"، وول ستريت جورنال، 30 مارس 2016.

اشترانا في مزود خدمة الإنترنت، يفقد معظمنا المرونة لتغيير الرأي أو تجنب تلك الشبكة بسرعة".⁽⁴⁷⁵⁾ كان الاقتراح يستهدف بشكل حصري مقدمي خدمات الإنترنت، الذين يعتبرون ضمن اختصاص لجنة الاتصالات الفيدرالية، لكنه لم يشمل شركات الإنترنت، التي تتولى لجنة التجارة الفيدرالية مسؤولية تنظيمها.

في ضوء ما يجري من منافسة شرسة بين مزودي خدمات الإنترنت الرئيسيين على نزع الملكية، فليس مستغرباً أن يتحوّل الاقتراح بسرعة إلى قضية مثيرة للجدل. وقد اصطف مزودو خدمات الإنترنت، وجماعات الضغط التابعة لهم، ومستشاروهم السياسيون، وحلفاؤهم السياسيون لقتل هذه الجهود، زاعمين أن آفاق المنافسة لدى مزودي خدمات الإنترنت سوف تعوق بشكل غير عادل: "تعارض شركات الاتصالات هذا الاقتراح، وتجادل بأنه يضعها على قدم المساواة مع شركات الإنترنت الأخرى التي تجمع البيانات عن المستخدمين، مثل غوغل...".⁽⁴⁷⁶⁾ في 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2016، أصدر مفوضو لجنة الاتصالات الفيدرالية حكماً تاريخياً لصالح حماية المستهلك على الإنترنت في هذه القضية، وذلك بأغلبية 3 أصوات مقابل صوتين. لم يكن يوماً تاريخياً في الحياة الفتية لرأسمالية المراقبة، بل في الحياة الموقرة الطويلة لهيئة الاتصالات الفيدرالية، الوكالة التي لم يسبق لها أن أقرت مثل هذه الحماية عبر الإنترنت.⁽⁴⁷⁷⁾

لم تُبْطِ مقترحات لجنة الاتصالات الفيدرالية الأصلية، ولا التصويت النهائي، مساعي فيريزون لتحقيق اقتصاديات الحجم في فائض السلوك. وإذا كان القانون

(475) توم ويلر، "بيان الرئيس توم ويلر ردّاً على ملف لجنة الاتصالات الفيدرالية رقم 106-16 - حماية خصوصية عملاء خدمات النطاق العريض وخدمات الاتصالات الأخرى"، لجنة الاتصالات الفيدرالية، 2016.

(476) ألينا سليوخ، "لجنة الاتصالات الفيدرالية تصوت على اقتراح قواعد جديدة للخصوصية لمقدمي خدمات الإنترنت"، إن بي آر، 31 مارس/ آذار 2016.

(477) "لجنة الاتصالات الفيدرالية تعتمد قواعد الخصوصية لمنح مستهلكي الإنترنت خيارات أوسع وشفافية وأماناً أكبر لبياناتهم الشخصية"، لجنة الاتصالات الفيدرالية، 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2016؛ ويندي ديفيس، "مزودو الإنترنت يقاومون اقتراح الخصوصية الصارم"، ميديا بوست، 10 مارس/ آذار 2016؛ برايان فونغ وكريغ تيمبرج، "لجنة الاتصالات الفيدرالية أقرت للتو قواعد جديدة شاملة لحماية خصوصيتك على الإنترنت"، واشنطن بوست، 27 أكتوبر/ تشرين الأول 2016.

سُيُطَبَّق في مدينتها، فسيلجأ ببساطة إلى شراء مدينة أخرى ليس فيها عُمدة. في شهر يونيو/ حزيران 2017، أنهت فيريزون صفقة شراء الأعمال الأساسية لشركة "ياهو!"، واستحوذت بالتالي على مليار مستخدم نشط شهريًا لعلاقات الإنترنت السابق، بما في ذلك 600 مليون مستخدم نشط شهريًا للهواتف المحمولة، مقابل 4.48 مليار دولار فقط.⁽⁴⁷⁸⁾ كان أرمسترونغ قد صرّح للصحفيين قبل عام تقريبًا: "إن الحجم أمر ضروري."⁽⁴⁷⁹⁾ إذا كنت تريد المشاركة في الألعاب الأولمبية، فعليك أن تنافس غوغل وفيسبوك".⁽⁴⁸⁰⁾ وروّج أرمسترونغ لمزايا شركة فيريزون واصفًا رؤيتها الشاملة لسلوك المستخدمين، ونشاط التحميل على مدار أربع وعشرين ساعة يوميًا، وتتبعها المستمر لمواقعهم.

بحلول عام 2017، أصبحت عناصر طموحات فيريزون الجديدة جاهزة أخيرًا. ستعمل شركة الإنترنت الجديدة التي يرأسها أرمسترونج، والتي يطلق عليها اسم "أو ث" (Oath)، على دمج شركتي "ياهو!" و(OAL) ليصل إجمالي عدد مستخدميها إلى 1.3 مليار مستخدم شهريًا. وكما أشارت صحيفة نيويورك تايمز، "تأمل فيريزون في استخدام نطاق محتواها، وأشكال إعلاناتها الجديدة، لجذب المزيد من المتابعين والمُسوِّقين في ظلّ تنافسها مع غوغل وفيسبوك".⁽⁴⁸¹⁾

في خاتمة مروةة لهذا الفصل من تاريخ رأسمالية المراقبة، صوّت الكونغرس الجمهوري المُنتخب حديثًا، في 28 مارس/ آذار 2017، لصالح قرار بإلغاء لوائح

(478) ميشيل كاستيلو، "تيم أرمسترونغ من AOL: ياهو تساعد فيريزون على التنافس مع فيسبوك غوغل"، CNBC، 25 يوليو/ تموز 2016.

(479) انظر كارا سويشر، "تيم أرمسترونغ من AOL يقول إن "الحجم ضروري" في صفقة فيريزون-ياهو"، ريكود، 25 يوليو/ تموز 2016.

(480) انظر إنغريد لوندن، "الرئيس التنفيذي لشركة AOL حول صفقة ياهو: "نريد الوصول إلى 2 مليار مستخدم"، "تيكنو كرونش" (مدوّنة)، 25 يوليو 2016.

(481) توم ويلر، "كيف باع الجمهوريون خصوصيتك لمُزودي الإنترنت"، نيويورك تايمز، 29 مارس 2017؛ "الجمهوريون يُهاجمون خصوصية الإنترنت"، نيويورك تايمز، 29 مارس 2017؛ سيسيليا كانغ، "الكونغرس يتحرك لإلغاء قواعد الخصوصية على الإنترنت في عهد أوباما"، نيويورك تايمز، 28 مارس 2017؛ "مجلس النواب يُصوّت لإلغاء حماية خصوصية الإنترنت البارزة التي وضعتها لجنة الاتصالات الفيدرالية"، واشنطن بوست، 28 مارس 2017.

خصوصية النطاق العريض التي كانت لجنة الاتصالات الفيدرالية تكافح بشأنها قبل أشهر فقط. كانت القواعد تتطلب من شركات الكابل والهاتف الحصول على موافقة ذات معنى قبل استخدام المعلومات الشخصية للإعلانات وإنشاء الملفات الشخصية. لقد أدركت الشركات، وأقنعت أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين، أن مبدأ الموافقة من شأنه أن يوجه ضربة قوية للآليات التأسيسية للرأسمالية الجديدة: شرعية الاستيلاء الأحادي الجانب على الفائض، وحق ملكيته، وحق اتخاذ القرارات بشأنه، والحق في مساحة غير قانونية لملاحقة هذه الأنشطة.⁽⁴⁸²⁾ ولتحقيق هذه الغاية، منع القرار أيضًا لجنة الاتصالات الفيدرالية من السعي إلى إرساء حماية مماثلة في المستقبل. وفي مقال في صحيفة نيويورك تايمز، تناول ويلر، المعين من الحزب الديمقراطي في لجنة الاتصالات الفيدرالية، جوهر المشكلة:

بالنسبة إلي وإلى زملائي الديمقراطيين، فإنّ السجلات الرقمية التي يتركها المستهلك عند استخدام شبكة الإنترنت هي ملكٌ له. تحتوي هذه السجلات على معلوماتٍ خاصةٍ عن تفضيلاته الشخصية ومشاكله الصحيّة وأمواله المالية. وقد جادل زملاؤنا الجمهوريون في اللجنة بضرورة إتاحة البيانات للشبكة لبيعها.⁽⁴⁸³⁾

كان هذا التراجع يعني أنه على الرغم من أن القوانين الفيدرالية تحمي خصوصية المكالمات الهاتفية، فإن المعلومات المنقولة عبر الإنترنت نفسها تدخل فورًا إلى سلاسل التوريد الفائضة لمقدمي خدمات الإنترنت. وقد أشار هذا التراجع أخيرًا إلى نهاية أسطورة "المجانية". هذا الاتفاق "الفاوستي"، الذي بيعَ لمستخدمي الإنترنت في العالم، وضعَ المراقبة ثمنًا باهظًا للخدمات المجانية مثل محرك البحث الخاص بشركة غوغل، وشبكة فيسبوك للتواصل الاجتماعي. لكن لم يعد بالإمكان الدفاع عن هذا التعيم، إذ أن كل مستهلك يدفع فاتورة الاتصالات الشهرية أصبح الآن يشتري أيضًا امتياز تفتيش رقمي مجرد لكنه جشع في الوقت نفسه.⁽⁴⁸⁴⁾

(482) بريان فونغ، "لقد بدأ الأمر: مزودو الإنترنت يضغطون لإلغاء قواعد الخصوصية في عهد أوباما"، واشنطن بوست، 4 يناير/كانون الثاني 2017.

(483) ويلر، "كيف باع الجمهوريون خصوصيتك".

(484) جاك مارشال، "مباركة واشنطن، يمكن لشركات الاتصالات العملاقة التنقيب في تاريخ

تلتحق شركات جديدة وقائمة من القطاعات كلها - بما في ذلك تجارة التجزئة، والتمويل، واللياقة البدنية، والتأمين، والسيارات، والسفر، والضيافة، والصحة، والتعليم - بالركب المهاجر إلى عائدات المراقبة، منجذبة إلى سحر النمو الهائل، والأرباح، موعودة بمكافآت سخية لا تستطيع أن تمنحها سوى الأسواق المالية. وسنستكشف في الفصول التالية عدّة أمثلة من هذه القطاعات.

أصبحت المراقبة، بهدف جمع فائض السلوك وبيعه، خدمة قائمة بذاتها. غالبًا ما يُشار إلى الشركات التي تعمل بهذا المجال باسم "البرمجيات باعتبارها خدمة" أو (SaaS)، لكن يجب أن نشير إليها، إذا أردنا الدقة، باسم "المراقبة باعتبارها خدمة" أو (SVaaS). على سبيل المثال، ثمة نهج جديد للاقتراض، قائم على التطبيقات، يُنشئ على الفور جدارة ائتمانية بناءً على البحث التفصيلي في الهاتف الذكي الشخصي والسلوكيات الأخرى عبر الإنترنت، بما في ذلك الرسائل النصية، ورسائل البريد الإلكتروني، وإحداثيات نظام تحديد المواقع العالمي "جي بي إس"، ومنشورات وسائل التواصل الاجتماعي، وملفات تعريف فيسبوك، ومعاملات البيع بالتجزئة، وأنماط الاتصال.⁽⁴⁸⁵⁾ ويمكن لمصادر البيانات أن تتضمن تفاصيل خاصة حميمة أيضاً مثل تكرار شحن بطارية هاتفك، وعدد الرسائل الواردة التي تتلقاها، وما إذا كنت تعيد المكالمات الهاتفية ومتى تفعل ذلك، وعدد جهات الاتصال المسجلة في هاتفك، وكيفية ملء النماذج عبر الإنترنت، أو عدد الأميال التي تسافرها كل يوم. تؤدي هذه البيانات السلوكية إلى ظهور أنماط دقيقة تتنبأ باحتمالية سداد القروض أو التخلف عن سدادها، وبالتالي تمكين تطوير وتحسين مستمرّ للخوارزميات. واكتشف اثنان من خبراء

تصفحك"، وول ستريت جورنال، 30 مارس/ آذار 2017؛ أوليفيا سولون، "ما يجب معرفته قبل أن يقرر المشجعون ما إذا كان بإمكان مزودي خدمة الإنترنت بيع تاريخ تصفحك"، الغارديان، 28 مارس/ آذار 2017؛ بروس شتاير، "قد يتمكن المتلصصون قريباً من شراء تاريخ تصفحك. شكراً للكونغرس الأمريكي"، الغارديان، 30 مارس/ آذار 2017؛ جيريمي جيلولا، "خمسة أشياء مخيفة قد يفعلها مزود خدمة الإنترنت الخاص بك إذا ألغى الكونغرس حماية الخصوصية التي وضعتها لجنة الاتصالات الفيدرالية"، مؤسسة الحدود الإلكترونية، 19 مارس/ آذار 2017.

(485) إليزابيث دووسكين، "تراقب شركات الإقراض الناشئة استخدام المقترضين للهواتف لتقييم الجدارة الائتمانية"، وول ستريت جورنال، 1 ديسمبر/ كانون الأول 2015

الاقتصاد الذين بحثوا في هذا النهج أن صفات فائض سلوكي كهذه تُنتج نموذجًا تنبؤيًا مائلًا للتقييم الائتماني التقليدي، ولاحظا أن "الطريقة تقيس جوانب السلوك الغنية التي تُعتبر عادة معلومات 'ناعمة'، مما يجعلها واضحة للمؤسسات الرسمية".⁽⁴⁸⁶⁾ وأوضح الرئيس التنفيذي لإحدى شركات الاقتراض التي تحلل عشرة آلاف إشارة لكل عميل أنه "يمكنك الدخول إلى حياة هؤلاء العملاء فعليًا وفهمها".⁽⁴⁸⁷⁾

تم تطوير أساليب كهذه في الأصل للأسواق في أفريقيا لمساعدة "غير المصرفيين - أشخاص لا يتمتعون بسجل ائتماني ثابت - على التأهل للحصول على قروض. وقد أجرت إحدى مجموعات الإقراض مقابلات مع عملاء محتملين في بلدان منخفضة الدخل، وخلصت إلى أنه من السهل استغلال الفقراء المحاصرين بالفعل: "صرّح معظمهم بأنه لا مشكلة لديهم في مشاركة التفاصيل الشخصية مقابل الأموال التي يحتاجون إليها بشدة". لكن هذه الشركات الناشئة في مجال منح القروض، والقائمة على التطبيقات، تُطوّر عادة وتُموّل من وادي السيليكون، ولن يثير دهشتنا أن تصبح التقنيات نفسها جزءًا من اتجاه أوسع نطاقًا لاستغلال الأسر الأمريكية التي تُفرّغ اقتصاديًا بسبب الأزمة المالية ودواء التقشف النيوليبرالي. ووفقًا لتصريحات صحيفة وول ستريت جورنال، "تستخدم الشركات الناشئة الجديدة مثل شركة "أفيرم" (Affirm)، و"ليند أب" (LendUp) و"زيست فاينانس" (ZestFinance)، بيانات من مصادر مثل وسائل التواصل الاجتماعي والسلوك عبر الإنترنت وسهاسة البيانات، لتحديد الجدارة الائتمانية لعشرات آلاف المستهلكين الأمريكيين الذين لا يستطيعون الحصول على القروض"، مما يقدّم المزيد من الأدلة على أن حقوق اتخاذ القرار، وما تتيحه من خصوصية، أصبحت من الكماليات التي لا يستطيع كثير من الناس تحمّلها.⁽⁴⁸⁸⁾

(486) دانييل بيوركغرين وداريل غريسن، "السلوك الذي يكشفه استخدام الهاتف المحمول يتنبأ بسداد القروض" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 13 يوليو/ تموز 2015).
(487) انظر دووسكين، "تنظر شركات منح القروض الناشئة إلى استخدام المقرضين للهاتف".
(488) دووسكين.

المثال الآخر على "خدمات المراقبة باعتبارها خدمة" هو شركة تبّيع خدمات التدقيق العميق للموظفين لدى أصحاب العمل، والمستأجرين المحتملين لأصحاب الأملاك. على سبيل المثال، يتلقّى المستأجر المحتمل طلباً من مالك العقار يطلب منه حق الوصول الكامل إلى جميع حساباته على وسائل التواصل الاجتماعي. وتقوم الخدمة بعد ذلك "باستخراج نشاط موقعك"، بما في ذلك سلاسل المحادثات بأكملها والرسائل الخاصة، وتشغلها من خلال معالجة اللغة الطبيعية وبرامج التحليل الأخرى، وتقدّم في النهاية تقريراً يصنّف كل شيء من شخصيتك إلى "مستوى الضغوط المالية"، بما في ذلك الكشف عن معلومات الحالة المحمية مثل الحمل والعمر. ولا يوجد فرصة للأشخاص المتضررين لرؤية المعلومات أو الاعتراض عليها. وكما هو الحال مع المقرضين الرقميين، على الرغم من أن المستأجر المحتمل يجب أن "يختار" رسمياً الاشتراك في الخدمة، فأولئك الذين لديهم أموال أقل، وخيارات أقل، هم الذين يقعون في فخ هذه الصفقة الفاوسية التي تتنازل فيها عن الخصوصية من أجل المشاركة الاجتماعية. يصرّح الرئيس التنفيذي لهذه الشركة الخدمية بأن "الناس سيخلّون عن خصوصيتهم لقاء شيء يريدونه بقوة".⁽⁴⁸⁹⁾

يستخدم نوع آخر من شركات "خدمات المراقبة باعتبارها خدمة" علم البيانات والتعلّم الآلي للتنقيب في شبكة الإنترنت عن فائض سلوكي حول الأفراد، إما لبيعه أو لتحليله وتصنيعه في صورة منتجات تنبؤ مربحة. ويصف الباحث القانوني فرانك باسكوالي هذا الأمر بأنه "سوق سوداء للبيانات الشخصية".⁽⁴⁹⁰⁾ فعلى سبيل المثال، تسوّق شركة "هاي كيو" (hiQ) منتجات التنبؤ الخاصة بها لمحترفي الموارد البشرية في الشركات. وتقوم بمسح شبكة الإنترنت بحثاً عن معلومات تتعلق بموظفي العمل، بما في ذلك وسائل التواصل الاجتماعي، والبيانات المتاحة العامة؛ ثم "يستخرج محرّك

(489) انظر كايتلين ديوي، "مشروع ناشئ مرعب سيساعد أصحاب العقارات وأصحاب العمل والمواعدة عبر الإنترنت على استخراج البيانات الشخصية من صفحتك على فيسبوك"، واشنطن بوست، 9 يونيو/حزيران 2016.

(490) فرانك باسكوالي، "السوق السوداء للبيانات الشخصية"، نيويورك تايمز، 16 أكتوبر/تشرين الأول 2014.

علوم البيانات الخاص بها إشارات قوية من تلك الضوضاء تشير إلى أن شخصًا ما معرض لخطر الهروب من الموقع". وتحدد نماذج التعلم الآلي درجات الخطر لكل موظف، مما يتيح للعملاء "تحديد الموظفين الأكثر عرضة للخطر بدقة متناهية...". وتزعم الشركة أنها تقدم "كرة زجاجية سحرية"، وأن توقعاتها "متطابقة تقريبًا" مع التحوّل الملحوظ. بفضل معلومات "هاي كيو"، يمكن للشركات التدخل استباقياً. قد تبذل جهداً للاحتفاظ بموظف، أو قد تختار إنهاء خدمة شخص يُتوقع "خطر هروبه". (491)

مثالنا الآخر شركة "سيفغراف" (Safegraph)، وهي شركة تتعاون مع تلك التطبيقات كلها التي تتعقب سلوكك لجمع بيانات "بدقة عالية/ إيجابيات خاطئة منخفضة" تُجمَعُ "في خلفية مجموعات سكانية كبيرة". ووفقاً لصحيفة واشنطن بوست، جمعت الشركة 17 تريليون علامة موقع من 10 ملايين هاتف ذكي في شهر نوفمبر/ تشرين الثاني 2016 وحده، وهي البيانات التي يبيعها لباحثين جامعيين، من بين آخرين، لإجراء دراسة مفصلة حول التأثيرات السياسية على أنماط سلوك الأسرة في يوم عيد الشكر في ذلك العام. (492) وعلى الرغم من استخدام تعبيرات ملطقة كثيرة مثل "إخفاء الهوية - تحويل البيانات الشخصية إلى شكل لم يعد يحدد هوية الأفراد" و"إزالة الهوية - إزالة المعلومات التي تكشف عن هوية الشخص بشكل مباشر أو غير مباشر أو تعديلها"، فإن شركة "سيفغراف" تتعقب الأجهزة الفردية وحركة أصحابها على مدار اليوم، مما ينتج بيانات دقيقة بما يكفي لتكون قادرة على تحديد مواقع منازل الأفراد.

لقد ولدت أساليب المراقبة رقمياً، لكننا سنرى في الفصول التالية أنها لم تعد تقتصر على الشركات المولودة رقمياً. ويتسم هذا المنطق لترجمة الاستثمار إلى إيرادات بقدر كبير من التكييف، ومربح بشكل استثنائي، طالما كانت إمدادات المواد الخام مجانية.

(491) hiQ Labs — الصفحة الرئيسية"، 26 أغسطس 2017.

(492) كريستوفر إنغراهام، "تحليل: السياسة تُفسد عيد الشكر حقاً، وفقاً لبيانات من 10 ملايين هاتف محمول"، صحيفة واشنطن بوست، 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017. للاطلاع على البحث، انظر إم. كيث تشين وراين روها، "السياسة تُصبغ شخصية: أثار التحزب السياسي والإعلان على الروابط العائلية".

والقانون تحت السيطرة. يذكّرنا ما يجري الآن من هرولة سريعة نحو عائدات المراقبة بالتحوّل الذي حدث في أواخر القرن العشرين، من العائدات المستمّدة من السلع والخدمات، إلى العائدات المستمّدة من إتقان استراتيجيات المضاربة وتعظيم قيمة المساهمين في الأسهم المالية. ففي ذلك الوقت، كانت الشركات كلها مجبرة على الامتثال للوصايا نفسها: تقليص عدد الموظّفين، ونقل التصنيع ومرافق الخدمات إلى الخارج، وخفض الإنفاق على جودة المنتجات والخدمات، وتقليص الالتزامات تجاه الموظّفين والمستهلكين، وأتمتة واجهة العملاء، وهي كلها استراتيجيات أساسية لخفض التكاليف، مصمّمة لدعم سعر سهم الشركة، الذي كان رهينة لنظرة ضيقة وإقصائية متزايدة للشركة ودورها في المجتمع.

تبرز قوانين جديدة للحركة مع تصاعد التنافس على أصول المراقبة. وفي نهاية المطاف، ستشكّل هذه التحديات ضرورة أكثر قسوة للتنبؤ بالسلوك المستقبلي بقدر أعظم من اليقين والتفصيل، مما يضطر المشروع بأكمله إلى الانفصال عن العالم الافتراضي لصالح العالم الذي نصفه "بالحقيقي". وستتابع في الجزء الثاني من الكتاب هذه الهجرة إلى العالم الحقيقي، حيث تجبر الديناميكيات التنافسية الشركات على توسيع عمليات التوريد، وتصل بنية الاستخراج المتزايدة التعقيد إلى مناطق التجربة الإنسانية الجديدة الأبعد والأعمق.

قبل أن نباشر هذا المشروع، حان الوقت للتوقف ومراجعة أنفسنا. لقد أشرتُ إلى أنه لا يمكن إدراك مخاطر رأسمالية المراقبة بشكل كامل من منظور الخصوصية أو الاحتكار. سأطرح في الفصل السادس منظورًا جديدًا للتفكير في الخطر. فالتهديدات التي نواجهها أصبحت أكثر جوهرية مع سيطرة رأسمالي المراقبة على الأسئلة الجوهرية التي تُعرّف المعرفة والسلطة والقوة في عصرنا: من يعلم؟ ومن يُقرّر؟ من يُقرّر من يُقرّر؟

الفصل السادس

مُحْتَطَفٌ: تقسيم التعلّم في المجتمع⁽⁴⁹³⁾

تساءلوا عن سبب حظر الفاكهة:
لم تعلّمهم أي شيء جديد. أخفوا كبرياءهم،
لكنهم لم يكونوا مُصغين عندما وُبّخوا:
كانوا يعرفون تمامًا ما يجب عليهم فعله في الخارج.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين I

1 - إعلانات غوغل

في الرابع من شهر ديسمبر / كانون الأول عام 1492، استطاع كولومبوس أن ينجو من الرياح الساحلية التي حالت دون مغادرته للجزيرة التي نُطلق عليها الآن اسم "كوبا". وفي غضون يوم واحد، ألقي مرساته قبالة ساحل جزيرة أكبر تُعرف لسكانها باسم "كيسكيا" (Quisqueya) أو "بوهيو" (Bohio)، مما أدّى إلى تحريك ما يُطلق عليه المؤرّخون "نموذج الفتوحات". وهو تصميم يتكشف في ثلاث مراحل: ابتكار تدابير قانونية لتزويد الغزو ببريق التبريرات، وإعلان مطالبات مناطقية، وتأسيس مدينة لإضفاء الشرعية على الغزو وتأسيسه.⁽⁴⁹⁴⁾ لم يتخيل البحارة يومًا أن أفعالهم في ذلك اليوم سوف تنضج، للمسودة، للأبواب لنموذج سيتردّد صدى قوته وعبقريته عبر

(493) انقسام مفاهيمي بين عملية إنتاج معلومات "مثل البيانات"، والقدرة على فهم تلك المعلومات وتحليلها والاستفادة منها (المترجم).

(494) ماثيو ريستال، الأساطير السبع للغزو الإسباني (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2004)، 19.

المكان والزمان إلى القرن الحادي والعشرين الرقمي.

وجد كولومبوس أخيرًا، في جزيرة بوهيو، ثقافة مادية مزدهرة تليق بأحلامه، ورغبات الملوك الإسبان. رأى ذهبًا وأحجارًا وخشبًا متقنًا، "مساحات احتفالية... ملاعب كرة مبطنة بالحجارة... أطواقًا حجرية، قلائد، وتماثيل منقطة... وعروشًا خشبية منحوتة ببراء... مجوهرات شخصية متقنة...". ومع قناعته بأن الجزيرة كانت "أفضل اكتشاف له حتى الآن، مع تلك البيئة الواعدة، والسكان المبدعين"، أعلن للملكة إيزابيلا، "لم يبق سوى إنشاء وجود إسباني، وإعطاء الأوامر بتنفيذ رغبتك. لأنهم ملك لك، ويمكنك أن تأمرهم بالعمل، وزراعة البذور، وفعل كل ما هو ضروري، وبناء مدينة، وتعليمهم ارتداء الملابس وتبني عاداتنا". (495)

وفقًا للفيلسوف اللغوي جون سيرل، التصريح هو طريقة تحدّث وتصرف تهدف إلى إنشاء حقائق من الهواء، مما يخلق واقعًا جديدًا في موقع لا يوجد فيه أي شيء. هكذا تجري الأمور: نحن نتحدث أحيانًا لوصف العالم فقط - "لديك عينان بنيتان" - أو نتحدث لإحداث تغيير - "أغلق الباب". يجمع تصريح معيّن بين الأمرين، التأكيد على واقع جديد من خلال وصف العالم كما لو كان التغيير المطلوب حقيقيًا بالفعل: "خلق جميع البشر متساوين". وكما قال سيرل: "إنهم تحت إمرتك، نحن نجعل شيئًا ما واقعًا من خلال تقديمه بصفته واقعًا". (496)

ليس كل تصريح بيانًا منطوقًا. قد نكتفي أحيانًا بوصف موقف معيّن، أو الإشارة إليه، أو التحدث عنه، أو التفكير فيه، أو حتى التصرف بشأنه بطرق "تخلق واقعًا من خلال تقديمه كما هو". لنفترض مثلًا أن النادل أحضر لي ولصديقي طبقين متطابقين من الحساء، ووضع طبقًا أمام كل منا. فهو يعلن أن الأوعية ليست متماثلة دون أن يصرح بأي شيء: طبق لصديقي، والطبق الآخر لي. ونحن نعزز حقيقة تصريحه عندما

(495) انظر فيليبي فرنانديز أرميستو، 1492: العام الذي بدأ فيه العالم (نيويورك: هاربر ون، 2010)، 196.

(496) جون آر. سيرل، صناعة العالم الاجتماعي: بنية الحضارة الإنسانية (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2010)، 85-86.

أتناول الحساء من طبقي فقط، ويتناول صديقي الحساء من طبقه. وعندما يفرغ "طبق" صديقي من الحساء ويبقى جائعاً، ويطلب الإذن بتناول ملعقة من الطبق الذي أمامي، فهو يؤكد حقيقة أن طبق الحساء هو طبقي أنا. بهذه الطريقة، ترتفع التصريحات أو تهبط بناءً على مدى قبول الآخرين للحقائق الجديدة. وكما يقول سيرل، "إن الواقع المؤسسي بأكمله، وبالتالي.... الحضارة الإنسانية كلها، هي نتاج التصريحات". (497)

التصريحات بطبيعتها عدوانية لأنها تفرض على العالم الاجتماعي حقائق جديدة، في حين يبتكر المصريحون طرقاً لجعل الآخرين يوافقون على هذه الحقائق. ويعكس تصريح كولومبوس "نمط الفتح" هذا، وفقاً للمؤرخ ماثيو ريستال:

كان الإسبان في القرن السادس عشر يقدّمون باستمرار أعمالهم، وأعمال مواطنيهم، في مصطلحات توقّعت اكتمال حملات الفتح قبل أوانها، وأضفت على سجلّات الفتح هالة من الحتمية. إن عبارة "الفتح الإسباني"، وكل ما تعنيه، قد نزلت عبر التاريخ لأن الإسبان كانوا حريصين للغاية على تصوير مساعيهم باعتبارها فتوحات وتهذبة، وعقوداً تم تنفيذها، ونية إلهية، وأمرًا واقعاً. (498)

حرص الغزاة الإسبان وملوكهم على تبرير غزواتهم باعتبارها وسيلة لتمرير اتفاق، ولا سيّما بين جمهورهم الأوروبي. وقد طوّروا تدابير تهدف إلى إضفاء "غطاء قانوني من خلال الاستشهاد بالسوابق المعتمدة واتباعها". (499) ولتحقيق هذه الغاية، كُلف الجنود بقراءة المرسوم الملكي الصادر عام 1513، المعروف باسم "المطلب الإسباني - الريكريمينتو" (Requirimiento)، على القرويين الأصليين قبل مهاجمتهم. (500) صدر المرسوم الذي أقر أن السلطة العليا كانت تمثلها جهات معينة في ذلك الوقت، وأعلن أن الشعوب الأصلية في المنطقة مُنصبة تحت هذه السلطة. وجاء فيه توجيهٌ إلى

(497) سيرل، صنع العالم الاجتماعي، 13.

(498) ريستال، الأساطير السبعة، 65.

(499) ريستال، 19.

(500) ولتحليل مميز للـ "ريكريمينتو"، انظر باجا فودري، "كيف نقول الأشياء بالحروب: الأداء والخطاب الحاسم في "ريكريمينتو" للغزو الإسباني"، مجلة الأنثروبولوجيا اللغوية 22، العدد 3 (2012): 182-200.

القادة المحليين والمجتمعات الأصلية بموجب هذا النظام الجديد، يتضمن طلباً منهم الالتزام بالولاء للسلطة الحاكمة آنذاك، باعتبارها السلطة الشرعية للمنطق.⁽⁵⁰¹⁾

واصل المرسوم إشارته إلى ما سيلحق بالقرويين من معاناة إذا لم يمتثلوا. في هذه المواجهة العنيفة مع ما هو غير مسبوق، استدعى السكان الأصليون، وحُذِّروا مسبقاً، ونُصِّحوا، بلغة لم يتمكنوا من سبر غورها، بالاستسلام دون مقاومة، والاعتراف بسلطات لم يتمكنوا من تصوُّرها. وكان هذا التمرين ساخرًا وقاسيًا لدرجة أن الغزاة القادمين غالبًا ما كانوا يتخلَّون عن التزامهم بترديد فقرات المرسوم الطويلة في منتصف الليل بينما كانوا يختبئون بين الأحراش الكثيفة في انتظار الهجوم: "بمجرد أن انتهى الغزاة من الإبلاغ، أصبح الطريق ممهدًا للنهب والاستعباد". كتب الراهب بارتولومي دي لاس كاساس، الذي تشهد روايته على هذا التاريخ من الفظائع الإسبانية، أن المرسوم الملكي وعد السكان الأصليين بمعاملة عادلة عند الاستسلام، لكنه حدد أيضًا عواقب المواجهة. صوِّر كل عمل من أعمال مقاومة السكان الأصليين بوصفه "تمردًا"، وبالتالي تشريع "الانتقام" الوحشي الذي تجاوز المعايير العسكرية، بما في ذلك التعذيب البشع، وحرق قرى بأكملها في ظلام الليل، وشنق النساء على الملأ: "سألحُ بكم الشرور والأضرار كلها التي يلحقها سيّد بأتباعه الذين لا يطيعونه أو يرحبون به. وأُعلن رسميًا أن ما يلحقُ بنا من قتل ودمار نتيجة لذلك، سيكون بسبب أخطائكم وليس أخطاء جلالته ولا خطئي ولا خطأ السادة الذين أتوا معي".⁽⁵⁰²⁾

قد يبدو الغزو بالإعلان مألوفًا لأن حقائق رأسمالية المراقبة قد نُقِلَت إلى العالم بقوة ستة تصريحات أساسية ابتدعت من دون أسس عندما أكّدها غوغل للمرة الأولى. ويتضح أنه سُمِحَ ببقاء الحقائق التي أعلنوها من خلال استراتيجيات نزع الملكية التي تنتهجها شركة فيريزون وغيرها من الشركات الجديدة التي اقتحمت مجال رأسمالية المراقبة. وفي خضمّ النشوة التي أحدثتها إنجازات الشركة الناشئة، تجاهل مؤسسو

(501) بارتولومي دي لاس كاساس، رواية موجزة عن تدمير جزر الهند (بنغوين كلاسيكس) كيندل 334-

338.

(502) دي لاس كاساس، تقرير مقتضب، 329-33.

غوغل ومعجبوها والصحافة المؤيدة لها بصمت، الرؤية المذهلة للغزو والاحتلال التي كانت مخفية في هذه التأكيدات. (503)

أرست التصريحات الستة الأساس لمشروع رأسمالية المراقبة الأوسع، وخطبتها الأصلية المتمثلة في نزع الملكية. يجب الدفاع عنها بأي ثمن، لأن كل تصريح منها قام على التصريح السابق. وإذا سقط تصريح منها، سقطت كلها:

- نحن ندّعي أن التجربة الإنسانية مادة خام متاحة للجميع. ويمكننا، بناءً على هذا الادعاء، تجاهل اعتبارات حقوق الأفراد ومصالحهم ووعيهم وفهمهم.

- نؤكد، بناءً على ادعائنا، على الحقّ في أخذ تجربة الفرد وتحويلها إلى بيانات سلوكية.

- إن حقنا في أخذ هذه التجارب، بناءً على مطالبتنا بالمواد الخام المجانية، يمنحنا الحقّ بامتلاك البيانات السلوكية المستمدة من التجربة الإنسانية.

- إن حقنا في أخذ هذه التجارب وامتلاكها يمنحنا الحقّ في معرفة ما تكشفه البيانات.

- إن حقنا في أخذ هذه التجارب وامتلاكها، وحقنا في المعرفة، يمنحنا الحقّ في تحديد كيفية استخدام هذه المعرفة.

- إن حقنا في الأخذ والامتلاك والمعرفة، والقرار بكيفية الاستخدام، يمنحنا الحقّ في الشروط التي تحفظ حقوقنا في الأخذ والامتلاك والمعرفة، والقرار بكيفية الاستخدام.

هكذا، افتتح عصر رأسمالية المراقبة بستة إعلانات عرّفته بوصفه "عصر الفتح". لقد نجحت رأسمالية المراقبة من خلال تصريح عدواني، ويمثل نجاحها مثالاً قوياً على الطابع الغازي للكلمات والأفعال المُصرّح بها، والتي تهدف إلى "الفتح" عبر فرض واقع جديد. إن غُزاة القرن الحادي والعشرين هؤلاء لا يطلبون إذنًا؛ بل يمضون

قُدماً، ويغطّون الأرض المحروقة بممارسات شرعية زائفة. وبدلاً من المراسيم الملكية المنقولة بأساليب تدعو للسخرية، فهم يعرضون اتفاقيات شروط خدمة تدعو للسخرية بنودها الغامضة غير المفهومة. إنهم يبنون تحصيناتهم، ويدافعون بشراسة عن المناطق التي يطالبون بها، بينما يستغلّون الوقت لجمع القوّة لغزوة أخرى. ويبنون في النهاية مدنهم في أنظمة بيئية معقّدة من تجارة وسياسة وثقافة تُعلن شرعية كل ما أنجزوه وحتميته.

طلب إيريك شميدت الثقة، لكن "تصريحات" غوغل ضمنت عدم حاجتها إلى ثقتنا لتحقيق النجاح. كانت انتصاراتها بالتصريحات هي الوسيلة التي جمعت من خلالها تركيزاً تاريخياً عالمياً على المعرفة والقوّة. هذه هي الركائز التي تمكّنها من المضي قدماً. وقد كشف شميدت أحياناً عن شيء مشابه. وعندما وصف "منصّات التكنولوجيا الحديثة"، قال إنه "لا شيء تقريباً، باستثناء الفيروس البيولوجي، يمكنه التوسّع بسرعة هذه المنصّات التكنولوجية وكفاءتها أو عدوانيتها، وهذا ما يجعل الأشخاص الذين يبنونها ويتحكّمون فيها وسيستخدمونها، أقوياء أيضاً". (504)

بفضل تركيز رأسمالية المراقبة غير المسبوق على المعرفة والقوّة، تمكّنت من تحقيق هيمنة كاملة على تقسيم العمل في المجتمع - وهو المبدأ الأساسي في حضارة المعلومات. وهذا التطوّر أشد خطورة لأنه غير مسبوق، ولا يمكن اختزاله في أضرار معروفة، وبالتالي لا يستجيب بسهولة لأشكال صراع معروفة. ما هو مبدأ النظام الاجتماعي الجديد هذا، وكيف يُسيطر عليه رأسماليو المراقبة؟ هذا ما سنتناوله في الفصول التالية. حيث تساعدنا الإجابات على التأمّل فيما تعلمناه، والاستعداد للمستقبل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(504) إيريك شميت وغاريد كوهين، العصر الرقمي الجديد: تحويل الأمم والشركات وحياتنا (نيويورك: فينينج، 2014)، 9-10.

بدأ هذا الكتاب بسؤال عاجل طرحه عليّ مدير مصنع ورق شاب في بلدة جنوبية صغيرة: "هل سنعمل جميعًا لدى آلة ذكيّة، أم سيكون لدينا أشخاص أذكىء حول الآلة؟" وفي السنوات التي تلت ذلك المساء الممطر، كنت أراقب عن كثب عملية إضفاء طابع رقمي على العمل في مصنع الورق. وكما أوضحت في كتابي بعنوان: "في عصر الآلة الذكية" (Age of the Smart Machine)، أدّى التحوّل إلى تكنولوجيا المعلومات إلى تحويل المصنع إلى "نصّ إلكتروني" أصبح محور اهتمام كل عامل. وأصبح "أداء عمل جيد" يعن مراقبة البيانات على الشاشات، وإتقان المهارات اللازمة لفهم هذا النصّ الإلكتروني، والتعلّم منه والعمل من خلاله، بدل المهام العملية المرتبطة بالمواد الخام والمعدّات. فما يبدو عاديًا اليوم كان غير عادي في ذلك الوقت.

سبق وجادلْتُ بأن هذه التغيرات الواضحة تُنذر بتحول عميق وهام. فقد تحوّل مبدأ تنظيم مكان العمل من تقسيم العمل إلى تقسيم التعلّم. وكتبْتُ عن كثير من النساء والرجال الذين فاجؤوا أنفسهم، وإداراتهم أيضًا، باكتسابهم مهارات فكرية جديدة، وتعلّموا كيفية النجاح في بيئات غنية بالمعلومات، لكنني وثّقتُ أيضًا تلك الصراعات المريرة التي رافقت تلك الإنجازات، والتي تُلخّصُ باعتبارها معضلات المعرفة والسلطة والقوة. ولا بدّ لأيّ تفكير في تقسيم التعلّم أن يحلّ هذه المعضلات التي تُعبّر عنها ثلاثة أسئلة أساسية. السؤال الأول هو "من يعرف؟" وهذا سؤال يتعلّق بتوزيع المعرفة، وما إذا كان المرء مشمولًا بفرصة التعلّم أو مُستبعدًا. والسؤال الثاني هو "من يقرّر؟" يتعلّق هذا السؤال بالسلطة: من هم الأشخاص أو المؤسسات أو العمليات الذين يحدّدون من يشمله التعلّم، وما الذي يستطيعون تعلمه، وكيف يستطيعون التصرف بناءً على معرفتهم. وعلى أيّ شرعية تستند هذه السلطة؟ السؤال الثالث هو: "من يقرّر من يقرّر؟" هذا سؤالٌ يتعلّق بالقوة. ما هو مصدر القوة الذي يدعم سلطة مشاركة المعرفة أو حجبها؟

حظي المدير الشاب بإجاباته في نهاية المطاف، لكنها لم تكن ما تمنيناه نحن. بينما كافح عمال مصانع الورق وانتصروا في كثير من الأحيان، كانت نظرة هايك العالمية تترسخ على أعلى مستويات السياسة، وكانت ضوابط التشغيل التي وضعها جينسن تلقى ترحيبًا حارًا في أسواق وول ستريت المالية التي سرعان ما تعلّمت فرضها على كل شركة عامة. وكانت النتيجة نموذج أعمال منخفض التكلفة، وموجّهًا إلى جمهور وول ستريت الذي أصرّ على أتمتة الوظائف وتصديرها بدلًا من الاستثمار في مهارات العامل الأمريكي وقدراته الرقمية. كانت الإجابة عن سؤال "من يعرف؟" هي أن الآلة تعرف، إلى جانب نخبة من الكوادر القادرة على استخدام الأدوات التحليلية لاستكشاف الأخطاء وإصلاحها، واستخراج قيمة من المعلومات. كانت الإجابة عن سؤال "من يقرّر؟" هي شكّل ضيق للسوق ونماذج العمل التي تقرّر. وأخيرًا، وفي غياب حركة مزدوجة ذات معنى، ترجع الإجابة عن سؤال "من يقرّر من يقرّر؟" بشكل كامل إلى رأس المال المالي المرتبط بقواعد تعظيم القيمة المالية لأسهم الشركة. ولن نستغرب أنه بعد مرور ما يقرب من أربعين عامًا، يأسف تقرير صادر عن مؤسسة بروكينجز لأن ملايين العمال في الولايات المتحدة "محرومون من فرص العمل اللائقة ذات المهارات المتوسطة" في مواجهة "التحول الرقمي السريع". ويحث التقرير الشركات على "الاستثمار بشكل عاجل في استراتيجيات رفع مهارات تكنولوجيا المعلومات للعاملين الحاليين، علمًا أن المهارات الرقمية تمثل قناة رئيسة لزيادة الإنتاجية".⁽⁵⁰⁵⁾ كيف كان سيبدو مجتمعنا لو اختارت الشركات الأميركية الاستثمار

(505) مارك مورو وآخرون، "التحول الرقمي والقوى العاملة الأمريكية"، برنامج السياسة الحضرية، مؤسسة بروكينجز، 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017. ووفقًا لهذا التقرير، في عام 2002، كان هناك توقع بزيادة قدرها نقطة واحدة في مؤشر الرقمنة زبادة في متوسط الأجور السنوية الحقيقية قدرها 166.20 دولارًا أمريكيًا (بقيمة 2016 دولار) للوظائف التي تتطلب المتطلبات التعليمية ذاتها. وبحلول عام 2016، تضاعفت هذه العلاوة تقريبًا لتصل إلى 292.80 دولارًا أمريكيًا. باختصار، يحصل العمال ذوو المهارات الرقمية المتفوقة على أجور أعلى (مع تساوي جميع العوامل الأخرى) من العمال ذوي التعليم المماثل ولكن بمهارات رقمية أقل. وبالتالي، فإن جزءًا كبيرًا من الوظائف المتوسطة الأساسية في البلاد تتطلب الآن مهارة في استخدام أدوات تكنولوجيا المعلومات الأساسية، وتقنيات مراقبة الصحة القياسية، معدات التحكم الرقمي بالحاسوب (CNC)، وبرامج إدارة المؤسسات الأساسية، وبرامج إدارة علاقات العملاء مثل "ساليستفورس" أو "ساب"، أو برامج جداول البيانات مثل "ميكروسوفت إكسل". باختصار، أصبح الوصول إلى عشرات الملايين من الوظائف التي توفّر أفضل السبل لتحقيق الدمج الاقتصادي سهلاً

في البشر مثلما اختارت الاستثمار في الآلات؟

فُضِّلَت معظم الشركات الآلات الذكية على البشر الأذكياء، مما أدَّى إلى نمط موثَّق يُفَضَّل استبدال الآلات وخوارزمياتها بالبشر في مجموعة واسعة من الوظائف. وتشمل هذه الوظائف حاليًا العديد من المهن البعيدة عن المصانع.⁽⁵⁰⁶⁾ هذا يؤدي إلى ما يسميه خبراء الاقتصاد "استقطاب الوظائف"، الذي يميّز بعض الوظائف التي تتطلب مهارات عالية، ووظائف أخرى تتطلب مهارات منخفضة، مع إزاحة الأئمة لمعظم الوظائف التي كانت "في المنتصف" سابقًا.⁽⁵⁰⁷⁾ وعلى الرغم من وصف بعض قادة الأعمال والاقتصاديين وخبراء التكنولوجيا لهذه التطورات بالضرورية والحتمية للتكنولوجيا المعتمدة على الحاسوب، تُظهِر هذه الأبحاث أن تقسيم التعلّم في المجال الاقتصادي يعكس قوة الإيديولوجية النيوليبرالية والسياسة والثقافة والأنماط المؤسسية. على سبيل المثال، في القارة الأوروبية كلها، حيث حيث نجت عناصر رئيسية من الحركة المزدوجة في بعض أشكالها، يُعدَّل استقطاب الوظائف من خلال

بالنسبة للعمال الذين لا يحملون شهادة جامعية أكثر منه بالنسبة للعمال الذين يفتقرون إلى المهارات الرقمية الأساسية.

(506) فيليب برانديس، وروجر واتهوفر، وستيفان شميد، "ما هي مهام الوظيفة المعرضة للحوسبة؟" نشرة EATCS 3، العدد 120 (2016)؛ كارل بينيديكت فراي ومايكل أوزبورن، "مستقبل التوظيف: ما مدى قابلية الوظائف للحوسبة؟" التنبؤ التكنولوجي والتغيير الاجتماعي 114 (17 سبتمبر/أيلول 2013): 254-280؛ سيث جي. بنزيل وآخرون، "الروبوتات هي نحن: بعض اقتصاديات استبدال البشر" (المكتب الوطني للبحوث الاقتصادية، 2015)؛ كارل بينيديكت فراي، "ممارسة الرأسمالية في العصر الرقمي"، فاينانشال تايمز، 1 أكتوبر/تشرين الأول 2014.

(507) فراي وأوزبورن، "مستقبل التوظيف"؛ مارتن كرزبوزينسكي، "الأئمة ومتطلبات المهارات واستراتيجيات استخدام العمالة: مناهج الأجور المرتفعة والمنخفضة في التصنيع عالي التقنية في صناعة السيارات"، التكنولوجيا الجديدة والعمل والتوظيف 32، العدد 3 (2017): 247-267؛ وليم لازونيك، "العمل في القرن الحادي والعشرين: الطبقة الوسطى تتلاشى" (بحث صادر عن معهد الفكر الاقتصادي الجديد، فبراير 2015)؛ ديرك أنتونشيك، وتوماس ديليري، وبرند فيترينبرغر، "الاستقطاب وتزايد التفاوت في الأجور: مقارنة بين الولايات المتحدة وألمانيا" (بحث IZA، معهد دراسة العمل، مارس 2010)؛ إريك برينجولفسون وأندرو مكافي، "عصر الآلة الثاني: العمل والتقدم والازدهار في عصر التقنيات الرائعة" (نيويورك: ديليو. ديليو. نورتون، 2016)؛ دارون أسيموغلو وديفيد أوتور، "ما دور رأس المال البشري؟ مراجعة لكتاب غولدين وكاتز "السباق بين التعليم والتكنولوجيا"، مجلة الأدب الاقتصادي، المجلد 50، العدد 2 (2012): 426-463؛ سانغ يون لي ويونغسيوك شين، "الاستقطاب الأفقي والرأسي: التغيير التكنولوجي المرتبط بمهام محددة في اقتصاد متعدد القطاعات" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 1 مارس 2017).

الاستثمارات الكبيرة في تعليم القوى العاملة التي تنتج تقسيماً أكثر شمولاً للتعلّم، بالإضافة إلى المنتجات والخدمات المبتكرة عالية الجودة.⁽⁵⁰⁸⁾

الأمر المهم بالنسبة إلى قصّتنا هنا هو أننا نواجه الآن مرحلة تاريخية ثانية من هذا الصراع. إن تقسيم التعلّم في المجال الاقتصادي للإنتاج والتوظيف أمر بالغ الأهمية، ولكنه ليس سوى بداية صراع جديد حول مسألة كبرى تتعلق بتقسيم التعلّم في المجتمع. لقد اخترقت معضلات المعرفة والسلطة والقوة جدران مكان العمل لتغمر حياتنا اليومية. ومع إعادة تشكيل الأشخاص والعمليات والأشياء بصفتهنّ معلومات، أصبح تقسيم العمل في المجتمع هو مبدأ النظام الاجتماعي السائد في عصرنا.

أصبح هناك الآن نص إلكتروني جديد كلياً يمتدّ إلى ما هو أبعد من حدود المصنع أو المكتب. بفضل الانتشار الهائل لأجهزة الحاسوب، وبطاقات الائتمان، والهواتف، والكاميرات وأجهزة الاستشعار في الأماكن العامة والخاصة، أصبح كل ما نقوم به تقريباً يتم بواسطة أجهزة حاسوب تسجّل تفاصيل حياتنا اليومية وتشفّرها على نطاق لم نكن نستطيع تصوّره قبل بضع سنوات فقط. ووصلنا إلى حدّ لم يعد يُحذَف فيه شيء من التراكم المستمرّ لهذا النص الإلكتروني الجديد. وسنستعرض في الفصول اللاحقة العديد من النصوص التوضيحية للنصّ الإلكتروني الجديد وهو ينتشر بصمت

(508) كاثلين ثيلين، "أنواع التحرير والسياسات الجديدة للتضامن الاجتماعي" (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 2014)؛ أوليفيه جوفانوني، "ماذا نعرف عن حصة العمل وحصة الربح؟ الجزء الثالث: المقاييس والعوامل الهيكلية" (بحث صادر عن معهد ليفي للاقتصاد في كلية بارد، 2014)؛ فرانسيسكو رودريغيز وأرجون جايايديف، "تراجع حصة العمل من الدخل"، مجلة العولمة والتنمية 3، العدد 2 (2013)؛ 18-1: أنتونزيك ودليلير وفيتزنبيرغر، "الاستقطاب وتزايد التفاوت في الأجور"، دوان سوانك، "المصادر السياسية لثنائية سوق العمل في الديمقراطيات ما بعد الصناعة، 1975-2011" (الاجتماع السنوي للجمعية الأمريكية للعلوم السياسية، شيكاغو: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 2013)؛ ديفيد جاكوبس وليندسي مايرز، "قوة الاتحاد، والليبرالية الجديدة، وعدم المساواة: تحليلات سياسية طارئة للفوارق في الدخل في الولايات المتحدة منذ عام 1950"، المراجعة الاجتماعية الأمريكية 79 (2014)؛ 752-774: فيكي نيلاس وإليزابيتا أوليفيري، "تغير فرص العمل: دور الحوسبة والمؤسسات" (بحث صادر عن Quaderni DSE، جامعة بولونيا وبنك إيطاليا، 2012)؛ إيان جو، وأنيس أحمد داني، وهرجان دي هان، "دول الرفاهية الأوروبية: تفسيرات ودروس للدول النامية"، في الدول الشاملة: السياسات الاجتماعية وعدم المساواة الهيكلية (واشنطن العاصمة: البنك الدولي، 2008).

وسرعة، مثل بقعة زيتية هائلة تلتهم كل شيء في طريقها: محادثتك أثناء الإفطار، وفي شوارع الحي الذي تقطنه، وفي غرفة معيشتك، وفي جولتك في الحديقة.

النتيجة هي أن هناك توثيقاً واسع النطاق لحياتنا، والعالم المحيط بنا، على شكل معلومات. إذ يشكّل كل شيء في حياتك مادة خاماً لهذا النصّ المتنامي سواء أكنت تشتكي من حبّ الشباب، أو تشارك في نقاش سياسي على فيسبوك، أو تبحث عن وصفة أو معلومات صحية حساسة على غوغل، أو تطلب صابون الغسيل أو تلتقط صوراً لطفلك البالغ من العمر تسع سنوات، أو كنت تبتسم أو تفكر بأشياء تثير الغضب، أو تشاهد التلفاز أو تقوم بحركات بهلوانية في موقف السيارات. ويشير عالم المعلومات مارتن هيلبرت وزملاؤه إلى أن عناصر الحضارة الأساسية، بما في ذلك "اللغة، والأصول الثقافية، والتقاليد، والمؤسسات، والقواعد، والقوانين... تخضع حالياً للرقمنة، وتوضح صراحة للمرة الأولى في شيفرة مرئية"، ثم تعود إلى المجتمع من خلال مرشح "الخوارزميات الذكية" المستخدمة لإدارة مجموعة سريعة التزايد من الوظائف التجارية والحكومية والاجتماعية.⁽⁵⁰⁹⁾ تُواجهنا عند كل منعطف تلك الأسئلة الجوهرية الثلاثة: من يعرف؟ من يقرر؟ من يقرر من يقرر؟

3- رأسمالية المراقبة ونصّان

ثمة تشابه مهم مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، عندما ظهر تقسيم العمل للمرة الأولى باعتباره أهم مبدأ للتنظيم الاجتماعي في المجتمعات الصناعية الناشئة في أوروبا وأمريكا الشمالية. ويمكن لهذه التجارب أن توجّهنا وتثير انتباهنا لما هو على المحكّ. على سبيل المثال، عندما ألف إميل دوركايم الشاب كتابه بعنوان: *تقسيم العمل في المجتمع*، كان العنوان بحدّ ذاته مثيراً للجدل. وعُرف تقسيم العمل باعتباره وسيلة أساسية لتحقيق إنتاجية أفضل في العمل من خلال التخصص في المهام. وكتب آدم سميث بأسلوب يصعب نسيانه عن مبدأ التنظيم الاجتماعي

(509) مارتن ر. جيلينغز، ومارتن هيلبرت، وداريل جيه كيمب، "المعلومات في المحيط الحيوي: العالمان البيولوجي والرقمي"، "ترندات" في علم البيئة والتطور 31، العدد 3 (2016).

الجديد هذا في وصفه لمصنع مسامير، وظلّ تقسيم العمل موضوعاً للخطاب الاقتصادي والجدل طوال القرن التاسع عشر. وقد أدرك دوركهائم أن الإنتاجية ضرورة اقتصادية للرأسمالية الصناعية من شأنها أن تدفع العمل إلى أقصى تطبيقاته، لكن لم يكن هذا الموضوع هو ما فتّنه. إذ وجّه اهتمامه بدلاً من ذلك إلى التحوّل الاجتماعي الذي بدأ يتجمّع حوله فعلاً، ولاحظ أن "التخصص" بات يكتسب "نفوذاً" في السياسة والإدارة والقضاء والعلوم والفنون. واستنتج أن تقسيم العمل لم يعد محصوراً بمكان العمل في مجال الصناعة، بل اخترق جدران المصانع ليصبح المبدأ التنظيمي الأساسي للمجتمع الصناعي. وهذا أيضاً مثال على رؤية إديسون: تعمل أخيراً مبادئ الرأسمالية التي استهدفت الإنتاج بداية، على تشكيل البيئة الاجتماعية والأخلاقية الأوسع. يقول دوركهائم: "كيفما كان الرأي السائد حول تقسيم العمل، يعلم الجميع أنه موجود، ويعلمون أنه يتقدّم ليصبح أحد أسس التنظيم الاجتماعي الرئيسة". (510)

كان متوقعاً أن تفرض الضرورات الاقتصادية تقسيم العمل في الإنتاج، لكن ما هو الغرض من تقسيم العمل في المجتمع؟ هذا هو السؤال الذي دفع دوركهائم إلى إجراء تحليلاته، ولا تزال استنتاجاته ذات أهمية بالنسبة إلينا الآن بعد أن مضى عليها قرن كامل من الزمان. وجادل بأن تقسيم العمل يفسّر الربط المتبادل، والمعاملة بالمثل، التي تجمع الكثير من الأعضاء المختلفين في المجتمع الصناعي الحديث، في إطار تضامن أوسع نطاقاً. تولّد المعاملة بالمثل حاجات متبادلة، ومشاركة واحتراماً متبادلاً، مما يضيف على مبدأ التنظيم الجديد هذا قوّة أخلاقية.

بعبارة أخرى، نشأ تقسيم العمل في المجتمع في بداية القرن العشرين نتيجة لسرعة تغيّر الظروف التي عاشها أفراد الحداثة الأولى الجدد، وهو ما ناقشناه في الفصل الثاني. وكان ذلك بمثابة استجابة أساسية "لظروف وجودهم" الجديدة. ومع هجرة أشخاص مثل أجدادي إلى العالم الحديث، اختفت مصادر المعنى القديمة التي كانت

تربط المجتمعات عبر المكان والزمن. كيف سيبقى المجتمع متماسكاً في غياب قواعد العشيرة والأقارب وطقوسها؟ وكانت إجابة دوركهائم هي "تقسيم العمل". كان السبب احتياج الناس إلى مصدر جديد متماسك للمعنى والبنية، وكانت النتيجة مبدأً تنظيمياً مكن من نشوء مجتمع حديث صحي واستدامته. وكما أوضح عالم الاجتماع الشاب:

الأثر اللافت لتقسيم العمل ليس زيادة إنتاجية الوظائف المقسمة، بل جعلها مترابطة متضامنة. ولا يقوم دوره على تجميل المجتمعات القائمة أو تحسينها فقط، بل جعل المجتمعات ممكنة، لأنها لن يكون لها وجود دونه.... فهو يتجاوز المصالح الاقتصادية البحتة بكثير، لأنه يقوم على إنشاء نظام اجتماعي وأخلاقي فريد من نوعه. (511)

لم تكن رؤية دوركهائم عقيمة ولا ساذجة. لقد أدرك أن الأمور يمكن أن تنحرف بطريق خاطئ، وغالبًا ما يحدث ذلك، مما يؤدي إلى ما أسماه تقسيم العمل "غير الطبيعي" (ويوصف أحيانًا بـ "المرضي")، الذي ينتج عنه ابتعاد بالمسافة الاجتماعية وظلم وخلافات بدلاً من الترابط المتبادل والمعاملة بالمثل. وأشار دوركهائم، في هذا السياق، إلى التأثيرات المدمرة لعدم المساواة الاجتماعية في تقسيم العمل في المجتمع، ولا سيما ما اعتبره أخطر أشكال عدم المساواة: *شدة التفاوت في القوة* الذي يجعل "صدام وجهات النظر المتعارضة بحد ذاته مستحيلًا" من خلال "رفض الاعتراف بحق القتال". ولا تُعالج هذه الأمراض إلا من خلال سياسة تؤكد حق الشعب في التنافس والمواجهة والانتصار في مواجهة السلطة غير المتكافئة وغير الشرعية على المجتمع. وفي أواخر القرن التاسع عشر ومعظم القرن العشرين، قادت هذه المنافسة الحركات العمالية وغيرها من الحركات الاجتماعية التي أكدت على المساواة الاجتماعية من خلال مؤسسات التعليم العام، والتفاوض بين العمال وأصحاب العمل.

يردّد هذا التحول الذي نشهده في عصرنا صدى هذه الملاحظات التاريخية، حيث

يتبع تقسيم العمل المسار الانتقالي ذاته من المجال الاقتصادي إلى المجال الاجتماعي الذي سلكه تقسيم العمل. حيث "يتجاوز تقسيم التعلّم المصالح الاقتصادية البحتة تجاوزًا كبيرًا"، لأنه يضع أساسًا لنظامنا الاجتماعي ومحتواه الأخلاقي.

إن تقسيم التعلّم بالنسبة إلينا، نحن أعضاء الحداثة الثانية، مماثل لتقسيم العمل بالنسبة إلى أجدادنا، وأجداد أجدادنا، رواد الحداثة الأولى. وفي عصرنا هذا، قد برز تقسيم التعلّم من المجال الاقتصادي باعتباره مبدأ جديدًا للنظام الاجتماعي، وهو يعكس أولوية التعلّم والمعلومات والمعرفة في سعينا إلى حياة فاعلة. وكما حذر دوركهيم مجتمعه قبل قرن من الزمان، ثمة تهديد لمجتمعاتنا اليوم بسبب تحوّل تقسيم التعلّم إلى مرض وظلم ناتج عما حقّقته رأسمالية المراقبة من تفاوت غير مسبوق في المعرفة والسلطة.

تبدأ سيطرة رأسمالية المراقبة على تقسيم التعلّم في المجتمع بما أسميه "مشكلة النصّين". إذ تُجبرنا آليات رأسمالية المراقبة على إنتاج "نصّين إلكترونيين"، وليس نصّا واحدًا فقط. وبالنسبة إلى هذا النصّ، نعتبر نحن مؤلّفوه وقراءه. وهو نصّ موجه للعامة، ومألوف ومحتفى به لعالم المعلومات والاتصالات الموجودة بين أيدينا. ويقوم محرّك غوغل بترميز المحتوى المعلوماتي لصفحات الويب. ويربط تطبيق "نيوز فيد" من فيسبوك الشبكة. ويتشكّل جزء كبير من هذا النصّ الموجه للعامة مما نقوم بتسجيله على صفحاته: منشوراتنا، ومدوناتنا، ومقاطع الفيديو، والصور، والمحادثات، والموسيقى، والقصص، والملاحظات، و"الإعجابات"، والتغريدات، وكل الضجيج الهائل في حياتنا الذي تم التقاطه وتوصيله.

لا يقف هذا النصّ الأول وحيدًا في ظلّ نظام رأسمالية المراقبة؛ بل يخلفه ظلّ آخر عن كُتب. يعمل النصّ الأول، المليء بالوعود، كعملية توريد للنصّ الثاني في الواقع: يكون بمثابة النصّ الظليّ. إن كل مانسأهم به في النصّ الأول، مهما كان تافهًا أو عابرًا، يُصبح هدفًا لاستخراج فائض سلوكي. يملأ هذا الفائض صفحات النصّ الثاني. ويكون هذا النصّ مخفيًا عن أنظارنا: يكون "للقراءة فقط" بالنسبة إلى رأسمالي

المراقبة. ⁽⁵¹²⁾ تُستخلصُ في هذا النص تجربتنا كلها باعتبارها مادة خامًا، وتُجمَعُ وتُحلَّلُ كوسيلة لتحقيق أهداف السوق لمصلحة آخرين. يُعْتَبَرُ النص الظلي تراكبًا متزايدًا للفائض السلوكي وتحليلاته، وهو يقول عنا أكثر مما يمكننا أن نعرف عن أنفسنا. والأسوأ من ذلك، أنه أصبح من الصعب، وربما من المستحيل، الامتناع عن المساهمة في النص الظلي. فهو يتغذى تلقائيًا على تجاربنا بينما نكون منخرطين في روتين المشاركة الاجتماعية الاعتيادي والضروري.

الأكثر غموضًا هو الطرق التي يطبق بها رأساليو المراقبة ما يتعلمونه من نصوصهم الظلية الحصرية لتشكيل نص عام يخدم مصالحهم. إذ كُشِفَ عن عدد هائل من عمليات تلاعب تقوم بها شركتا غوغل وفيسبوك بالمعلومات التي نراها. وسأشير حاليًا إلى أن خوارزميات غوغل، المستمدة من الفائض، تختار نتائج البحث وترتبها، وخوارزميات فيسبوك، المستمدة من الفائض، تختار محتوى ما لديها من منشورات الأشخاص وصورهم وفيديوهاتهم وترتبها. ويُظهِرُ الباحثون في كلتا الحالتين أن هذه التلاعبات تعكس الأهداف التجارية لكل شركة. ووفقًا لوصف الباحث القانوني فرانك باسكوالي، "تُتَّخَذُ القرارات في مقرّ غوغل خلف أبواب مغلقة... إن القدرة على الإدراج والاستبعاد والتصنيف هي القدرة على ضمان الانطباعات العامة التي تصبح دائمة، والانطباعات التي تظلّ عابرة.... وعلى الرغم من ادعائهم بالموضوعية والحياد، فهم يتخذون باستمرار قرارات مثيرة للجدل، ومحمّلة بالقيم. فهم يساعدون في خلق العالم الذي يزعمون أنهم "يريدوننا أن نراه" وحسب. ⁽⁵¹³⁾ وعندما يصل الأمر إلى النص الظلي، تجبرهم قوانين الحركة الخاصة برأسالية المراقبة على السرية والنمو المستمر. فنحن مواضيع سردياتها، والمستبعدون من دروسها. يتعلّق هذا النص الثاني، باعتباره المصدر الذي تتدفّق منه هذه الكنوز كلها، بنا نحن، لكنه ليس لنا. بل

(512) أشار الباحث القانوني بجامعة هارفارد، جون بالفري، إلى طبيعة "للقراءة فقط" المرتبط بالقراءة الإلكترونية في مقاله الرائعة التي كتبها عام 2008 بعنوان: "العام والخاص على حدود الولايات المتحدة مع الفضاء الإلكتروني"، مجلة قانون ميسيسيبي، المجلد 78 (2008): 241-294، ولا سيما في الصفحة 249 منه.

(513) فرانك باسكوالي، جمعية الصندوق الأسود (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 2015)، 61-60.

يُخلَق بعيدًا عن وعينا ويُحافظ عليه ويُستغل لمصلحة الآخرين.

النتيجة أن تقسيم التعلّم هو المبدأ السائد للنظام الاجتماعي في حضارتنا المعلوماتية، وهو فعلاً رهينة موقف متميّز لرأسمالية المراقبة باعتبارها مؤلف النصوص ومالكها وحارسها والمهيمن عليها. تنتجُ قدرة رأسمالية المراقبة على إفساد هذه النصوص، والسيطرة عليها، عدم توازن غير مسبوق في المعرفة والقوة يعمل تمامًا وفق ما كان يخشاه دوركهائم: إن الحرية النسبية الممنوحة لهذا الشكل من السوق، والطبيعة غير القابلة للقراءة بطبيعتها لتصرّفاتة، قد مكّنته من فرض سيطرة هائلة على تقسيم التعلّم خارج وعينا ومن دون وسائل القتال. وبالعودة إلى الأسئلة الأساسية، فقد اكتسب رأسمال المراقبة القوة، وأكد السلطة اللازمة لتوفير كافة الإجابات. لكن السلطة لا تكفي. فرأسمال المراقبة وحده هو الذي يسيطر على البنية التحتية المادية، والقدرات العقلية المتخصصة للتحكّم في عمليات التعلّم في المجتمع.

4- الكهنوت الجديد

يحذّر العلماء من أن قدرة العالم على إنتاج المعلومات تجاوزت بشكل كبير قدرته على معالجتها وتخزينها. لنأخذ بعين الاعتبار أن ذاكرتنا التكنولوجية تضاعفت كل ثلاث سنوات تقريبًا. في عام 1986، تم تحويل 1٪ فقط من المعلومات في العالم إلى بيانات رقمية، وازدادت إلى 25٪ في عام 2000. وبحلول عام 2013، أدّى تقدم التحوّل الرقمي والبياناتي (تطبيق البرمجيات التي تسمح لأجهزة الحاسوب والخوارزميات بمعالجة وتحليل البيانات الخام)، إلى جانب تقنيات التخزين الجديدة والرخيصة، إلى ترجمة 98٪ من المعلومات في العالم إلى شكل رقمي. (514)

(514) مارتن هيلبرت، "نحو تركيبة من التحيّزات المعرفية: كيف يمكن لمعالجة المعلومات المشوشة أن تؤثر على عملية صنع القرار البشري"، النشرة النفسية 138، العدد 2 (2012): 211-237؛ مارتن هيلبرت، "البيانات الضخمة من أجل التنمية: من مجتمعات المعلومات إلى مجتمعات المعرفة" (تقرير اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية ومنطقة البحر الكاريبي، شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 2013)، 4؛ فيكتور ماير-شونبرغر وكينيث كوكير، البيانات الضخمة: ثورة ستغيّر طريقة عيشنا وعملنا وتفكيرنا (بوسطن: هوتون ميفلين هاركورت، 2013)، 9.

المعلومات رقمية، لكن حجمها يتجاوز قدرتنا على إدراك معناها. ولحلّ هذه المشكلة، يُقدّم عالم المعلومات مارتن هيلبرت النصيحة التالية: "الخيار الوحيد المتبقي لدينا لفهم البيانات كلها هو محاربة النار بالنار"، باستخدام "أجهزة حاسوب ذكية اصطناعياً للتنقيب في كميات المعلومات الهائلة.... لقد وعدت شركات فيسبوك وأمازون وغوغل بخلق قيمة من كمية البيانات الهائلة من خلال التحليل الحسابي الذكي".⁽⁵¹⁵⁾ إن صعود رأسمالية المراقبة يُحوّل بالضرورة نصيحة هيلبرت إلى اقتراح خطير. وعلى الرغم من أنه لم يكن يقصد ذلك، إلا أنه يُثبت المكانة المميزة لرأسمالي المراقبة، والسلطة غير المتكافئة التي تُمكنهم من تطويع تقسيم التعلّم لمصالحهم.

تستمدّ غوغل قوتها غير المتكافئة من كل المصادر الاجتماعية التي أخذناها بعين الاعتبار: إعلاناتها، وتحصيناتها الدفاعية، واستغلالها للقانون، وإرث استثنائية المراقبة، وأعباء الأفراد في عصر الحداثة الثانية، وما إلى ذلك. لكن قوتها ما كانت لتنجح لولا البنية التحتية المادية الهائلة التي وفرتها عائدات المراقبة. تُعدّ غوغل رائدةً في مجال "الشبكات فائقة السرعة"، التي تُعتبر "أكبر شبكة حاسوبية على وجه الأرض".⁽⁵¹⁶⁾ توجد عمليات الحجم الهائل في شركات معلومات كبيرة الحجم مثل شركات الاتصالات، وشركات المدفوعات العالمية، حيث تتطلب مراكز البيانات ملايين "الخوادم الافتراضية" التي تزيد من قدرات الحوسبة بشكل كبير، دون الحاجة إلى توسع كبير في المساحة المادية أو التبريد أو متطلبات الطاقة الكهربائية.⁽⁵¹⁷⁾ يُعتبر الذكاء الآلي، الذي يُعدّ قلب هيمنة غوغل الهائلة، بأنه يشكّل نسبة "80٪ من البنية التحتية"، وهو نظام يتألف من مراكز بيانات مخصصة بحجم مستودعات تمتدّ على 15 موقعاً، وفي عام 2016، كان هناك ما يقدر بنحو 2.5 مليون خادم في أربع

(515) هيلبرت، "نحو تركيبة من التحيزات المعرفية".

(516) بول بوركر، "ما هو الحجم الهائل؟"، ديجيتال رباتي، 2 فبراير 2018؛ بول ماكنمارا، "ما هو الحجم الهائل ولماذا هو مهم جداً للشركات؟"، جيمس مانیکا ومايكل تشوي، "العصر الرقمي يجلب تحديات الحجم الهائل"، فاينانشال تايمز، 13 أغسطس 2014؛ كيد ميتز، "بناء شريحة ذكاء اصطناعي أنقذ غوغل من بناء اثني عشر مركز بيانات جديداً"، وايرد، 5 أبريل 2017.

(517) يمكن للشركات الصغيرة، التي لا تحقق إيرادات ضخمة، أن تستفيد من بعض هذه القدرات من خلال خدمات الحوسبة السحابية.

يرى المستثمرون أن الوصول إلى غوغل بات "أصعب من أي وقت مضى" نظرًا لتميّزها بدمجها بين حجم بنيتها التحتية وعلومها. وتُعرف غوغل بأنها "شركة ذكاء اصطناعي متكاملة" تستخدم بياناتها الخاصة "لتدريب خوارزمياتها الخاصة التي تعمل على رقاقاتنا الخاصة المنتشرة على سحابتها الخاصة". وتتعرّز هيمتها من خلال حقيقة مفادها أن التعلّم الآلي لا يكون ذكيًا إلا بقدر كميّة البيانات التي يتعيّن عليه التدريب عليها، وتمتلك غوغل أكبر قدر من البيانات. (519) مع مطلع عام 2013، أدركت الشركة أن تحوّلها إلى "الشبكات العصبية"، التي تحدّد حدود الذكاء الاصطناعي الحالية، من شأنه أن يزيد المتطلّبات الحاسوبية بشكل كبير، ويتطلّب مضاعفة مراكز البيانات الخاصة بها. ووفقًا لـ "أورس هولزل"، نائب رئيس البنية التحتية التقنية في شركة غوغل، "إن السرّ القدر وراء [الذكاء الاصطناعي] هو أنه يتطلّب عددًا هائلًا من العمليات الحاسوبية لتدريب الشبكة فعليًا". وأوضح أنه إذا حاولت الشركة معالجة عبء العمل الحسابي المتزايد باستخدام وحدات المعالجة المركزية التقليدية، "سيكون علينا أن نضاعف المساحة الإجمالية لشركة غوغل - مراكز البيانات والخوادم - فقط من أجل القيام بثلاث دقائق أو دقيقتين من التعرّف على الكلام لكل مستخدم أندرويد يوميًا". (520)

بما أن بناء مراكز البيانات يمثل أكبر بند في ميزانية الشركة، وأن الطاقة تمثل أعلى تكاليف التشغيل، فقد تمكّنت غوغل من إيجاد طريقها عبر أزمة البنية التحتية. حيث أعلنت الشركة، عام 2016، عن تطوير شريحة جديدة "للاستدلال المرتبط بالتعلّم العميق" تسمّى وحدة المعالجة (وحدة معالجة المؤتّر) (TPU). وتعمل وحدة المعالجة

(518) كاثرين دونغ، "تطور التعلّم الآلي"، تك كرانش، 8 أغسطس 2017؛ ميتز، "بناء شريحة ذكاء اصطناعي": "الأسئلة الشائعة حول مركز بيانات غوغل"، داتا سنتر نولدج، 16 مارس 2017. (519) إدارة الاستثمار ARK، "غوغل: شركة الذكاء الاصطناعي الكاملة"، سيكينغ ألفا، 25 مايو 2017؛ ألون هاليفي، وبير نورفيغ، وفيرناندو بيريرا، "الفعالية غير المعقولة للبيانات"، الأنظمة الذكية (IEEE) 12-8:2009، (24).

(520) انظر توم كرازيت، "لا يزال أورس هولزل من غوغل يعتقد أن إيراداتها السحابية ستلحق بإيراداتها الإعلانية، ولكن ربما ليس بحلول عام 2020"، جيڪ واير، 15 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017.

هذه على توسيع قدرات الذكاء الاصطناعي لشركة غوغل بشكل كبير، وتستهلك جزءاً بسيطاً فقط من الطاقة المطلوبة للمعالجات الحالية، وتقلل الإنفاق الرأسمالي والميزانية التشغيلية، وهذا كله مع مزيد من التعلّم بمزيد من السرعة.⁽⁵²¹⁾

يُتوقع أن تزيد الإيرادات العالمية لمنتجات الذكاء الاصطناعي وخدماته بمقدار 56 ضعفاً، من 644 مليون دولار في عام 2016 إلى 36 مليار دولار عام 2025.⁽⁵²²⁾ إن هذه العلوم اللازمة لاستغلال هذه الفرصة الهائلة، والبنية التحتية المادية التي تمكّنها، قد أشعلت سباق تسلّح بين شركات التكنولوجيا لاستقطاب نحو 10 آلاف متخصص على كوكب الأرض ممن يجيدون استخدام تقنيات الذكاء الاصطناعي لاستخلاص المعرفة من قارة بيانات ضخمة. وتُعتبر غوغل / ألفابت أكثر الشركات استحواداً على تقنيات الذكاء الاصطناعي ومواهبها. إذ اشترت بين عامي 2014 – 2016 تسع شركات تعمل في مجال الذكاء الاصطناعي، أي ضعف عدد الشركات التي اشترتها أقرب منافسيها، آبل.⁽⁵²³⁾

يعكس التركيز على مواهب الذكاء الاصطناعي في غوغل وجود "تريند" أكبر بكثير. وتشير التقديرات إلى أن الشركات الأمريكية، في عام 2017، خصّصت أكثر من 650 مليون دولار لدعم استقطاب مواهب الذكاء الاصطناعي، مع وجود أكثر من عشرة آلاف وظيفة شاغرة لدى كبرى الشركات في جميع أنحاء البلاد. تتمتع أكبر خمس شركات تقنية برأس المال اللازم لإزاحة المنافسين: الشركات الناشئة، والجامعات، والبلديات، والشركات القائمة في الصناعات الأخرى، والدول الأقل

(521) نورم غوبي، "غوغل تعزّز مهام التعلّم الآلي باستخدام شريحة TPU مخصصة"، مدونة منصة غوغل السحابية، 18 مايو 2016؛ جيف دين وأورس هولزل، "بناء وتدريب نماذج التعلّم الآلي على وحدات TPU الجديدة من غوغل السحابية"، غوغل، 17 مايو 2017؛ يفجيني سفيرديليك، "غوغل تزيد إنفاقها على مراكز البيانات في عام 2016"، معرفة مراكز البيانات، 1 فبراير 2017؛ كورتي فلات، "خطة غوغل للطاقة المتجدّدة بالكامل تشمل مركز بيانات في ولاية أوريغون"، إذاعة أوريغون العامة، 6 ديسمبر 2016. (522) مايكل فيلدمان، "من المتوقع أن يصل سوق الذكاء الاصطناعي إلى 36 مليار دولار بحلول عام 2025"، توب 500، 30 أغسطس 2016.

(523) كيفن ماكوللين ومايك سوليفان، "شبهة غوغل المستمرة للذكاء الاصطناعي"، معلومات، 10 يناير 2017.

ثراء⁽⁵²⁴⁾. بدأ مسؤولو الجامعات في بريطانيا يتحدثون فعلاً عن "جيل مفقود" من علماء البيانات. لقد اجتذبت الرواتب الضخمة لشركات التكنولوجيا العديد من المحترفين لدرجة أنه لم يعد هناك من يستطيع تعليم الجيل القادم من الطلاب. ووفقاً لوصف أحد الباحثين، "تقوم المشكلة الحقيقية في أن هؤلاء الأشخاص ليسوا موزعين في المجتمع. إذ يتركز الفكر والخبرة في عدد قليل من الشركات".⁽⁵²⁵⁾

بفضل إشراف شركة غوغل الهائل في جهودها للتوظيف، نجحت في مضاعفة عدد علماء الذكاء الآلي لديها ثلاث مرات في السنوات القليلة الماضية وحدها، وأصبحت المساهم الأول في أكثر المجلات العلمية شهرة - أربعة إلى خمسة أضعاف المتوسط العالمي عام 2016. في ظلّ نظام رأسمالية المراقبة، لا يتم تجنيد علماء الشركات لحل مشكلة الجوع، أو القضاء على الوقود المعتمد على الكربون في العالم. بل أصبحوا يستخدمون عبقريتهم لاقتحام أبواب التجربة الإنسانية، وتحويلها إلى بيانات، وترجمتها إلى سوق عملاق جديد يخلق الثروة من خلال التنبؤ بالسلوك البشري، والتأثير عليه والتحكّم فيه.

منذ أكثر من ستمائة عام، أدّى ظهور المطبعة إلى وضع الكلمة المكتوبة في أيدي الناس العاديين، فأُنقذت الصلوات، متجاوزة الكهنوت، وقُدّمت فرصة أن يؤدّي الشخص صلاته روحياً دون تلقّي القربان المقدّس في شكله المادي. نحن نُسلّم الآن بأن الإنترنت يتيح انتشاراً غير مسبوق للمعلومات، ويعد بالمزيد من المعرفة لعدد أكبر من الناس: إنها قوة ديمقراطية هائلة تحقق بشكل كبير ثورة غوتنبرغ في حياة مليارات الأفراد. لكن هذا الإنجاز العظيم أفقدنا إمكانية رؤية تطوّر تاريخي مختلف، تطوّر يتحرك خارج النطاق وخارج مجال الرؤية، مصمّم لاستبعاد الحقيقة والتشويش عليها وإخفائها. وبسبب هذه الحركة الخفية، يعود الصراع التنافسي على عائدات

(524) كيد ميتز، "شركات التكنولوجيا العملاقة تدفع رواتب ضخمة لمواهب الذكاء الاصطناعي النادرة"، نيويورك تايمز، 22 أكتوبر/تشرين الأول 2017؛ "الذكاء الاصطناعي هو الصيحة الجديدة"، مدونة بايسا، 18 أبريل/نيسان 2017.

(525) إيان سامبل، "يؤدّي جنون توظيف الذكاء الاصطناعي في شركات التكنولوجيا الكبرى إلى هجرة العقول في الجامعات البريطانية"، الغارديان، 2 نوفمبر/تشرين الثاني 2017.

المراقبة إلى النظام الذي كان قائماً قبل غوتنبرغ، حيث يتجه تقسيم التعلّم في المجتمع نحو الشكل المرضي الذي تسيطر عليه طبقة ضيقة من مختصي الحوسبة العاملين في القطاع الخاص، وآلاتهم المملوكة للقطاع الخاص، والمصالح الاقتصادية التي يتعلّمون من أجلها.

5- خصخصة تقسيم التعلّم في المجتمع

اختطفت رأسمالية المراقبة تقسيم التعلّم في المجتمع. وفي غياب حركة مزدوجة قوية تربط فيها المؤسسات الديمقراطية والمجتمع المدني رأسمالية المعلومات الخام بمصالح الشعب - مهما كان الربط غير مكتمل - فإننا نراجع من ناحية شكل السوق الذي تتخذه شركات رأسمالية المراقبة في هذه المنافسة الأساسية حول تقسيم التعلّم في المجتمع. ويدرك الخبراء في التخصصات المرتبطة بالذكاء الاصطناعي هذا الأمر، لكن فهمهم لتداعياته الواسعة النطاق محدودة للغاية. ووفقاً لما أشار إليه عالم البيانات بيدرو دومينغوس، "يفوز من لديه أفضل الخوارزميات، وأكبر قدر من البيانات.... تعرف شركة غوغل ما تريد بسبب بداياتها، وحصّتها السوقية الكبيرة.... من يتعلّم بشكل أفضل هو من يفوز...."، وتشير تقارير صحيفة نيويورك تايمز إلى أن الرئيس التنفيذي لشركة غوغل، سوندار بيتشاي، يتقاسم الآن طبقاً واحداً مع مختبر أبحاث الذكاء الاصطناعي التابع للشركة، وتشير إلى ذلك باعتباره "تريند" بين العديد من الرؤساء التنفيذيين: التزام حربي بتركيز السلطة.⁽⁵²⁶⁾

قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً، نشر الباحث القانوني سيروس سيميتيس مقالاً رائداً حول موضوع الخصوصية في مجتمع المعلومات. أدرك سيميتيس مبكراً أن "التريندات" الواضحة فعلاً في "معالجة المعلومات" العامة والخاصة تُخفي تهديدات للمجتمع تتجاوز المفاهيم الضيقة للخصوصية، وملكية البيانات: "يزداد استخدام

(526) بيدرو دومينغوس، الخوارزمية الرئيسية: كيف سيُعيد السعي وراء آلة التعلّم المثالية تشكيل عالمنا (نيويورك: بيسك، 2015)، 12-13؛ كيد ميتز، "لماذا حصل باحثو الذكاء الاصطناعي في غوغل على مكاتب بجوار المدير"، نيويورك تايمز، 19 فبراير 2018.

المعلومات الشخصية لفرض معايير السلوك. وتتطور معالجة المعلومات لتصبح عنصرًا أساسيًا في استراتيجيات التلاعب طويلة المدى الهادفة إلى تشكيل سلوك الأفراد وتعديله".⁽⁵²⁷⁾ وجادل سيميتيس أن هذه الترددات لا تتعارض مع الخصوصية فقط، بل تتعارض مع إمكانية الديمقراطية التي تعتمد على مخزون من القدرات الفردية المرتبطة بالحكم الأخلاقي المستقل وتقرير المصير.

بناءً على عمل سيميتيس، حذر بول إم. شوارتز من جامعة بيركلي عام 1989 من أن الحوسبة ستؤثر على التوازن الدقيق بين الحقوق والالتزامات، الذي يعتمد عليه قانون الخصوصية: "إن الكميات الهائلة من البيانات الشخصية المتاحة في أجهزة الحاسوب تهدد الفرد، في يومنا هذا، بطريقة تجعل الكثير من الحماية القانونية السابقة نمطًا عتيقًا عفا عليه الزمن". والأهم من ذلك أن شوارتز توقع أن حجم الأزمة الناشئة من شأنه أن يفرض مخاطر تتجاوز نطاق قانون الخصوصية: "يتعلق الخطر الذي يشكله الحاسوب باستقلالية الإنسان. وكلما ازدادت المعلومات المتاحة عن شخص ما، ازدادت سهولة السيطرة عليه. ويتطلب ضمان الحرية التي تُغذي الديمقراطية هيكلة استخدام المجتمع للمعلومات، والسماح بإخفاء بعضها أيضًا".⁽⁵²⁸⁾

لقد شعر سيميتيس وشوارتز بصعود فكرة انقسام التعلّم باعتباره المبدأ المحوري لبيئة مجتمعية حاسوبية جديدة، لكن لم يكن بوسعهما توقع صعود رأسالية المراقبة وعواقبها. وعلى الرغم من أن النمو الهائل لحجم المعلومات يحوّل محورًا أساسيًا للنظام الاجتماعي من تقسيم العمل في القرن العشرين إلى تقسيم التعلّم في القرن الحادي والعشرين، فإن رأسالي المراقبة هم الذين يسيطرون على هذا المجال، ويطالبون بشكل أحادي الجانب بحصّة غير متجانسة من حقوق اتخاذ القرار التي تشكّل تقسيم التعلّم في المجتمع.

(527) سبيروس سيميتيس، "مراجعة الخصوصية في مجتمع المعلومات"، مجلة مراجعة قانون جامعة بنسلفانيا 135، العدد 3 (1987): 710.

(528) بول م. شوارتز، "الحاسوب في القانون الدستوري الألماني والأمريكي: نحو حق أمريكي في تقرير المصير المعلوماتي"، المجلة الأمريكية للقانون المقارن 37 (1989): 676.

تفرض ممارسات رأسمالية المراقبة، المتمثلة في نزع الملكية الرقمي، نوعاً جديداً من السيطرة على الأفراد والشعوب والمجتمعات بأسرها. ستكون الخصوصية الفردية ضحية هذه السيطرة، ويتطلب الدفاع عنها إعادة صياغة خطاب الخصوصية والقانون والمنطق القضائي. أصبح "انتهاك الخصوصية" الآن بُعداً متوقعاً لعدم المساواة الاجتماعية، لكنه ليس ظاهرة قائمة بذاتها. بل هو النتيجة المنهجية لانقسام "مرضي" في عملية التعلم في المجتمع، حيث تعرف رأسمالية المراقبة، وتقرر، وتقرر من يُقرر. إن مطالبة رأسمالي المراقبة بالحفاظ على الخصوصية، أو الضغط عليهم لإنهاء المراقبة التجارية على الإنترنت، يشبه مطالبة هنري فورد بصنع كل سيارة من "طراز T" يدوياً، أو مطالبة الزرافة بتقصير عنقها. إذ تشكل هذه المطالبات تهديدات وجودية. فهي تنتهك آليات الحركة الأساسية وقوانينها التي تُنتج هذا السوق العملاق من المعرفة والسلطة والثروة.

الأمر الأساسي هنا هو أن رأسمالية المراقبة معادية للديمقراطية إلى حد كبير، لكن قوتها المذهلة لا تنبع من الدولة، كما كان الحال تاريخياً. ولا يمكن تفسيرها أو اختزال آثارها بالتكنولوجيا أو النوايا السيئة لأشخاص سيئين؛ فهذه عواقب متسقة يمكن التنبؤ بها لمنطق تراكمي ناجح ومتسق داخلياً. لقد هيمنت رأسمالية المراقبة في الولايات المتحدة في ظل ظروف انعدام القانون النسبي. وانتشرت من هناك إلى أوروبا، وتستمر في الانتشار في مناطق العالم كلها. تسيطر شركات رأس المال المراقبة، بدءاً من غوغل، على عملية تجميع المعلومات ومعالجتها، ولا سيما المعلومات المتعلقة بالسلوك البشري. تعرف تلك الشركات الكثير عنا، لكن قدرتنا على الوصول إلى تلك المعرفة محدودة: إنها مخفية في النصّ الظلي، ولا يقرؤها إلا الكهنة الجدد ورؤساؤهم وآلاتهم.

يُنتج هذا التركيز غير المسبوق للمعرفة تركيزاً غير مسبوق للسلطة: وهو عدم توازن ينبغي أن يُفهم باعتباره خصخصة غير مصرّح بها لتقسيم التعلم في المجتمع. هذا يعني أن المصالح الخاصة القوية تسيطر على مبدأ النظام الاجتماعي الأساسي في عصرنا، تماماً كما حذر دوركهيم من تفويض قوى رأس المال الصناعي لتقسيم العمل قبل قرن من

الزمان. إن شركات رأسمالية المراقبة هي التي تعرف في الوضع الراهن الآن. وشكل السوق هو من يقرر. والصراع التنافسي بين رأسماليي المراقبة هو من يقرر من يقرر.

6- قوة غير المسبوق: مراجعة

كانت صراعات القوة الجبارة في القرن العشرين بين رأس المال الصناعي والعمال، لكن القرن الحادي والعشرين يشهد مواجهة بين رأسمال المراقبة ومجتمعاتنا بأكملها، حتى كل فرد فيها. تُثقل المنافسة على عائدات المراقبة كاهل أجسادنا ومنازلنا ومدننا، في صراع لا يقل عنفاً عن أي صراع شهده العالم على السلطة والربح. لا يمكن تخيل رأسمالية المراقبة باعتبارها شيئاً "موجوداً هناك في الخارج"، في المصانع والمكاتب. إن أهدافها وآثارها موجودة هنا.... أهدأ/فها هي نحن.

لا تتعلق حالتنا فقط بفكرة أننا تعرّضنا لكمين، وكانت أسلحتنا ضعيفة. لقد أخذنا على حين غرة لأننا لم نكن نتخيل أعمال الغزو ونزع الملكية تلك، كما لم يكن زعيم التايانو الأول قادراً على توقع أنهار الدماء التي ستتدفق بعد استضافته للرجال المشعرين، المذمرين، المتعريقين، "الأديلانتادوس - أي المتحضرين" الذين ظهروا فجأة ملوَّحين براية الملوك الإسبان، وباباوات الكنيسة، بينما كانوا يسرون عبر الشاطئ. لماذا أبطأنا في إدراك "الخطيئة الأصلية المرتبطة بالسرقة البسيطة" الكامنة في قلب الرأسمالية الجديدة؟ لأننا واجهنا، مثل شعب التايانو، حدثاً جديداً كلياً: حدثاً غير مسبوق. ونخاطر الآن، مثلهم أيضاً، بكارثة هائلة عندما نلجأ إلى تقييم التهديدات الجديدة من منظور تجاربنا القديمة.

من جانب الإمداد، استخدم رأسماليو المراقبة بمهارة ترسانة التصريحات كلها لتأكيد سلطتهم وشرعيتهم في عالم رقمي جديد وغير محمي. اعتادوا أن يأخذوا التصريحات دون استئذان. وقاموا بإخفاء أهدافهم بعمليات آلية غير قابلة للقراءة، وتحركوا بسرعة قصوى، ووفروا الحماية للممارسات المؤسسية السرية، وأتقنوا التضليل، واختلسوا عمداً العلامات والرموز الثقافية المرتبطة بموضوعات الحداثة الثانية - التمكين والمشاركة والصوت والفردانية والتعاون - واستغلّوا صراحة

إحباطات أفراد الحداثة الثانية الناتجة عن التصادم بين التوق النفسي واللامبالاة المؤسسية.

في هذه العملية، تجنّب روّاد رأسمال المراقبة في شركتي غوغل وفيسبوك ضوابط حوكمة الشركات، ورفضوا ضوابط الديمقراطية، وأمنوا حماية مطالبهم بالنفوذ المالي والعلاقات السياسية. واستفادوا أخيراً من التاريخ الذي نشأ في وقت كان فيه التنظيم مرادفاً للطغيان، وكانت حالة الاستثناء التي عجّلت بها الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول وما أنتجت من استثنائية المراقبة، الأمر الذي مكّن السوق الجديدة من ترسيخ جذورها وازدهارها. لقد أنتجت الاستراتيجيات المتعمّدة لرأسمالي المراقبة، ومواهبها العَرَضية، شكلاً يمكنه أن يغازل ويغوي، ولكنه كان بلا رحمة أيضاً في إخماد المساحة المتاحة للتداول الديمقراطي، والنقاش الاجتماعي، وتقرير المصير الفردي، والحقّ في القتال لأنه يغلق كل طريق للخروج.

من "جانب الطلب"، كانت شعوب الحداثة الثانية، التي تعاني من نقص الموارد، في غاية السعادة لوفرة أكياس الأرز والحليب المجفّف التي كانت تُلقَى من مؤخرة شاحنة رقمية، لدرجة أنها لم تولِ سوى القليل من الاهتمام للسائقين أو وجهتهم. كنا بحاجة إليها، لدرجة أننا اعتقدنا أننا لا نستطيع العيش من دونها. لكن شاحنات التوصيل هذه التي طال انتظارها تبدو، بعد التدقيق، أشبه بمركبات الغزو والاحتلال: أقرب إلى فيلم "Mad Max" منه إلى فيلم "Red Cross"، وأقرب إلى فيلم "Black Sails" منه إلى فيلم "Carnival Cruise". ينطلق السحرة خلف عجلات القيادة عبر كل تلة ووادٍ، ويتعلّمون كيفية استغلال سلوكنا وتخزينه، ويعتبرونه دون خجل حقّهم الكامل باعتباره من غنائم غزواتهم.

في غياب تقدير واضح لمنطق التراكم الجديد هذا، ستفشل أية محاولة لفهم أنشطة رأسمالي المراقبة، أو التنبؤ بها، أو تنظيمها أو حظرها. وكانت الأطر الأساسية التي حاولت مجتمعاتنا من خلالها فرض سيطرتها على جرأة رأسمالية المراقبة هي "حقوق الخصوصية" و"الاحتكار". لكن حتى هذه اللحظة، لم ينجح السعي إلى تنظيم

الخصوصية، ولا فرض قيود على ممارسة الاحتكار التقليدية، في مقاطعة آليات التراكم الرئيسية، بدءًا من طرق الإمداد إلى أسواق العقود السلوكية الآجلة. بل على النقيض من ذلك، وسّع رأسماليو المراقبة هياكل الاستخراج الخاصة بهم وطوّروا عبر كل مجال بشري، مع إتقانهم للمتطلبات العملية والسياسية لحلقة نزع الملكية. يهدّد هذا النجاح الآن أعمق مبادئ النظام الاجتماعي في حضارة المعلومات، حيث تسيطر رأسمالية المراقبة بشكل غير مصرّح به على تقسيم التعلّم في المجتمع.

إذا كان لا بدّ من خوض معركة، فلتكن نضالًا ضدّ الرأسمالية. فلتكن إصرارًا على أن رأسمالية المراقبة المفرطة تُشكل تهديدًا للمجتمع بقدر ما تُشكل تهديدًا للرأسمالية نفسها. هذا ليس مشروعًا تقنيًا، ولا برنامجًا للتشفير المتّقدم، أو تحسين إخفاء هوية البيانات، أو ملكية البيانات. ولا تُقرّ هذه الاستراتيجيات إلا بحتمية المراقبة التجارية. فهي تركنا متوارين في حياتنا الخاصة، بينما تتنازل عن السيطرة لمن يستغلّون سلوكنا لأغراضهم الخاصة. تعتمد رأسمالية المراقبة على المجتمع، لا يمكنها استعادة الوعد الأوسع المتمثّل في رأسمالية المعلومات المتوافقة مع الحداثة الثالثة المزدهرة إلا من خلال العمل الاجتماعي الجماعي.

رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب كيف بنت غوغل هيكلية الاستخراج الخاصة بها في عالم الإنترنت. ومع اشتداد المنافسة على عائدات المراقبة، برزت ضرورة اقتصادية ثانية، مما دفع إلى توسيع نطاق تلك الهيكلية إلى عالم آخر، وهو العالم الذي نصفه "بالواقعي".

ستتجه قصّة رأسمالية المراقبة الآن نحو هذا الاتجاه الجديد. وأنا أدعوكم في الجزء الثاني إلى تجديد شعوركم بالدهشة بينما نتتبّع مسار هذه الضرورة الاقتصادية الثانية التي تحددها التنبؤات بالسلوك البشري. حيث تزيد ضرورة التنبؤ من تعقيد عمليات الفائض السلوكي مع انضمام اقتصاديات الحجم إلى اقتصاديات النطاق واقتصاديات العمل. وتدفع هذه التخصصات الجديدة رأسمالية المراقبة إلى أعماق حياتنا اليومية، وأعماق شخصياتنا وعواطفنا. وتجبرنا هذه السياسات، في نهاية المطاف، على تطوير

وسائل جديدة مبتكرة للغاية، لكنها سرّية للغاية، لإعاقة سلوكنا وتعديله من أجل الحصول على عائدات المراقبة. تتحدّى هذه العمليات حقنا الأساسي في المستقبل، وهو الحقّ في التصرف دون تأثير قوى غير شرعية تعمل خارج وعينا للتأثير على سلوكنا وتعديله. نحن نفقد الإحساس بهذه الغزوات، وكيفية تشويهها لحياتنا. ونستسلم لقرع طبول الحتمية، لكن لا شيء هنا حتمي. تضيع الدهشة، لكن يمكن استعادتها.

الجزء الثاني

تطور رأسمالية المراقبة

الفصل السابع

العمل الواقعي

غرق في غرام الحقيقة قبل أن يعرفها
وسافر إلى أراضٍ خيالية،
ولديه أمل بأن يغويها بالوحدة والصيام،
وسخر من أولئك الذين خدموها بأيديهم.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، VI

1 - الضرورة الحتمية الخاصة بالتنبؤ

كان أفضل مكان يشارك فيه إيريك شميدت رأيه بشأن مستقبل الإنترنت هو المنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس - سويسرا. في عام 2015، في جلسة للنيولبراليين ورؤساء المراقبة المتزايدين، في ملعب الألعاب الشتوية، سُئِلَ شميدت عن رأيه في مستقبل الإنترنت بينما كان جالسًا بين زميلتيه السابقتين في غوغل، شيريل سادبرغ ومارسيا ماير، ولم يتردد في التعبير عن وجه نظره بأن "الإنترنت سيختفي. سيكون هناك الكثير من (IP's) 'عناوين تعريف كل جهاز متصل بالإنترنت'... والكثير من الأجهزة والمستشعرات، والأشياء التي ترتديها، والأشياء التي تتفاعل معها ولا تشعر بوجودها. ستكون جزءًا من وجودك على مدار الوقت. تخيل أنك تدخل غرفة معينة، وهذه الغرفة ديناميكية".⁽⁵²⁹⁾ أُصِيبَ الحضور بالذهول، ولم يمضِ

(529) كريس ماتيسزيك، "الإنترنت سيختفي، هذا ما يقوله إيريك شميدت من غوغل"، سي نت، 22 يناير/

وقت طويل حتى انتشرت أخبار صادمة في جميع أنحاء العالم، حول إعلان الرئيس التنفيذي السابق لشركة غوغل بأن نهاية الإنترنت باتت وشيكة.

لم يكن تصريح شميدت في الواقع سوى إعادة صياغة للمقالة الرائدة التي كتبها عالم الحاسوب مارك وايزر عام 1991، بعنوان "الحاسوب للقرن الحادي والعشرين"، والتي شكّلت إطاراً لأهداف التكنولوجيا في وادي السيلكون لمدة تقرب من ثلاثة عقود. قدّم وايزر ما أسماه "الحوسبة الشاملة" بجملتين أسطورتين: "إن أعمق التقنيات هي تلك التي تختفي. فهي تنسج نفسها في نسيج الحياة اليومية لدرجة لن يعود بالإمكان تمييزها عن الحياة اليومية". كما وصف طريقة تفكير جديدة "تسمح لأجهزة الحاسوب نفسها بالاختفاء في الخلفية.... إن الآلات التي تتوافق مع البيئة البشرية بدل إجبار البشر على الدخول في بيئتها سوف تجعل استخدام الحاسوب منعشاً مثل المشي في الغابة". (530)

أدرك وايزر أن العالم الافتراضي لا يمكن أن يكون أكثر أرضٍ خاوية، مهما استوعب من بيانات: "الواقع الافتراضي مجرد خريطة، وليس منطقة. إنه يستثني المكاتب، والأشخاص الآخرين... والطقس، والأشجار، والممرّات، واللقاءات العابرة، وبشكل عام، ثراء الكون اللامتناهي". وقال إن الواقع الافتراضي "يحاكي" العالم بدلاً من "تعزيز العالم الموجود فعلاً بشكل غير مرئي". وعلى النقيض من ذلك، ينبغي على الحوسبة الشاملة أن تغرس في هذا العالم الحقيقي جهازاً عالمياً مترابطاً من الحوسبة الصامتة "الهادئة" والنهمة. ويشير وايزر إلى هذا الجهاز باعتباره "بيئة الحوسبة" الجديدة، ويستمتع بإمكانيات معرفته اللامحدودة، مثل معرفة "الأزياء التي نظرت إليها لفترة طويلة في الأسبوع الماضي لأن الجهاز يعرف موقعك، ويمكنه، بأثر رجعي، أن يعثر على اسم المصمّم حتى لو لم تكن هذه المعلومة مهمّة بالنسبة إليك في ذلك الوقت". (531)

كانون الثاني 2015.

(530) مارك وايزر، "الحاسوب للقرن الحادي والعشرين"، مجلة ساينتفك أمريكان، سبتمبر 1991.
(531) مارك وايزر وجون سيللي براون، "العصر القادم للتكنولوجيا الهادئة"، في كتاب "ما وراء الحساب" (نيويورك: سبرينغر، 1997)، الصفحات 75-85.

لم يكن شميدت يصف نهاية الإنترنت، بل كان يصف نجاحه في الانفصال عن الأجهزة المخصصة له مثل الحاسوب الشخصي والهواتف الذكية. وهذا التحول ليس خيارًا بالنسبة إلى رأسماليي المراقبة. لقد أثارت أرباح المراقبة منافسة شديدة على الإيرادات التي تتدفق من الأسواق الجديدة للسلوك المستقبلي. إذ لا تعتمد، حتى أكثر العمليات تطورًا لتحويل الفائض السلوكي إلى منتجات قادرة على التنبؤ الدقيق بالمستقبل، إلا على جودة المواد الخام المتاحة للمعالجة. لذلك يتعين على رأسماليي المراقبة أن يطرحوا السؤال التالي: ما هي أشكال الفائض التي تمكنا من تصنيع منتجات تتنبأ بالمستقبل بشكل أكثر موثوقية؟ يشكل هذا السؤال نقطة تحول أساسية في عملية صياغة رأسمالية المراقبة بطريقة التجربة والخطأ. فهو يبلور ضرورة اقتصادية ثانية - ضرورة التنبؤ - ويكشف عن الضغوط الشديدة التي يمارسها على عائدات رأسمالية المراقبة.

أتاحت الموجة الأولى من منتجات التنبؤ الإعلان الإلكتروني المستهدف. واعتمدت هذه المنتجات على الفائض المستمد من الإنترنت على نطاق واسع. وقد أطلقت على القوى المتنافسة التي تقود الحاجة إلى الفائض على نطاق واسع اسم "ضرورة الاستخراج". ووصلت المنافسة على عائدات المراقبة أخيرًا إلى نقطة أصبح عندها حجم الفائض شرطًا ضروريًا، لكنه غير كافٍ للنجاح. ويعرّف الحد التالي بجودة نتائج التنبؤ. في سباق الوصول إلى درجات يقين أعلى، اتضح أن أفضل التنبؤات يجب أن تُقارب نتائج الملاحظة. إن ضرورة التنبؤ هي تعبير عن هذه القوى المتنافسة.

راهنّت شركات مثل غوغل/ ألفابت، وفيسبوك، ومايكروسوفت، وشركات كثيرة أخرى تسعى الآن إلى تحقيق عائدات من عملية المراقبة، على "اختفاء" الإنترنت لأنه يُفترض بالنسبة إليها أن يختفي. ومع اضطراب شركات رأسمالية المراقبة، مثل غوغل، إلى تحسين موقعها، أدركت أنها بحاجة إلى توسيع هياكل الاستخراج الخاصة بها وتنويعها لاستيعاب مصادر فائض سلوكي جديدة، وعمليات إمداد جديدة. لا شك أن اقتصاديات الحجم ستبقى حيوية، لكن عمليات الإمداد توسّعت في هذه المرحلة الجديدة، وتكثّفت لاستيعاب اقتصاديات النطاق واقتصاديات العمل. فما

الذي يحتاج إليه ذلك؟

يحدّد التحوّل نحو اقتصاديات النطاق مجموعة جديدة من الأهداف: يجب أن يكون الفائض السلوكي هائلاً، لكن يجب أن يكون متنوعاً أيضاً. تتطوّر هذه الاختلافات على بعدين. الأول هو توسيع عمليات الاستخراج من العالم الافتراضي إلى العالم "الحقيقي"، حيث نعيش حياتنا الفعلية. إذ أدرك رأسماليو المراقبة أن ثروتهم المستقبلية ستعتمد على طرق إمداد جديدة تمتد إلى الحياة الحقيقية، في الطرق وبين الأشجار، وفي أنحاء المدن كلها. يريد التوسع أن يشمل مجرى دمك وسريرك ومحادثتك أثناء الإفطار، وذهابك إلى العمل، ورياضة الجري اليومية، وثلاجتك وموقف سيارتك وغرفة معيشتك.

تمتدّ اقتصاديات النطاق أيضاً إلى بُعد ثانٍ: العمق. يُعتبر السعي وراء اقتصاديات النطاق في بُعد العمق أكثر جرأة. الفكرة هنا هي أن الفائض السلوكي شديد القدرة على التنبؤ، وبالتالي شديد الربح، سوف يُصاغ من أنماط هيمنة للذات. إذ تستهدف عمليات الإمداد هذه شخصيتك، ومزاجك، وعواطفك، وأكاذيبك ونقاط ضعفك. سوف يُلتَقَطُ كل مستوى من مستويات الحميمية تلقائياً، ويجري تسطيحها في مدّة وجزر من نقاط البيانات الخاصة بأحزمة النقل في المصنع، والتي تتقدّم نحو يقين مُصنّع.

كما أصبح الحجم ضرورياً، لكنه غير كافٍ، للوصول إلى تنبؤات عالية الجودة، بات واضحاً أيضاً أن اقتصاديات النطاق ستكون ضرورية، لكنها غير كافية، للوصول إلى منتجات تنبؤية عالية الجودة قادرة على الحفاظ على الميزة التنافسية في الأسواق الجديدة للسلوك المستقبلي. يجب أن يكون الفائض السلوكي هائلاً ومتنوعاً، لكن أكثر طرق التنبؤ بالسلوك أماناً هي التدخل في مصدره وتشكيله. والعمليات التي تم ابتكارها لتحقيق هذا الهدف هي ما أسميه *اقتصاديات العمل*. ولتحقيق هذه الاقتصاديات، نشأت العمليات الآلية للتدخل في حالات التلاعب في العالم الحقيقي بين الأشخاص والأشياء الحقيقية. تُصمّم هذه التدخلات لتعزيز اليقين من خلال القيام بأشياء معينة:

فهي تدفع السلوك وتضبطه وتتلاعب به وتعُدِّله في اتجاهات محددة من خلال تنفيذ إجراءات خفية مثل إدراج عبارة محددة في حسابك على موقع فيسبوك، أو توقيت ظهور زر الشراء على هاتفك المحمول، أو إيقاف تشغيل محرك سيارتك عندما يتأخر سداد التأمين.

يزيد هذا المستوى الجديد من شدة المنافسة، الذي يتميز بالنطاق والعمل، من الطابع الهجومي لعمليات الإمداد، ويبدأ عصرًا جديدًا من تجارة المراقبة التي أطلقت عليها اسم *تجارة الواقع*. طُبِّقَت اقتصاديات الحجم من خلال هياكل استخراج آلية في العالم الافتراضي. لكن عالم الواقع الآن يتطلب هياكل آلية من العالم الحقيقي. تُحقِّق هذه الطريقة أخيرًا رؤية وايزر للعمليات الحسابية الآلية المنتشرة في كل مكان، والتي "تنسج نفسها في نسيج الحياة اليومية لدرجة لن يعود بالإمكان تمييزها عن الحياة اليومية"، لكن بوجود انحراف معيّن. فهي تعمل الآن لصالح رأس مالي المراقبة.

ثمة الكثير من المصطلحات الرنانة التي تتجاهل هذه العمليات وأصولها الاقتصادية: ليست مصطلحات "الحوسبة المحيطية" و"الحوسبة الشاملة" و"الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"⁽⁵³²⁾، سوى أمثلة قليلة على ذلك. وسوف أشير حاليًا إلى هذه الأشياء كلها بشكل عام باسم "الجهاز". على الرغم من اختلاف التسميات، فهي تشترك برؤية متسقة: أنها موجودة في كل مكان، في حالة اتصال دوماً، إمكانية التحويل إلى بيانات، الاتصال، التواصل، حوسبة الأشياء كلها، الحية وغير الحية، وجميع العمليات الطبيعية والبشرية والفيزيولوجية والكيميائية والآلية والإدارية والمالية. يُنقلُّ نشاط العالم الحقيقي بشكل مستمرّ من الهواتف والسيارات والشوارع والمنازل والمتاجر والأجساد والأشجار والمباني والمطارات والمدن إلى المجال الرقمي، حيث يجد حياة جديدة بصيغة بيانات جاهزة للتحويل إلى تنبؤات، وهذا كله يملأ الصفحات التي تتسع باستمرار في النصّ الظليّ.⁽⁵³³⁾

(532) (Ambient computing, Ubiquitous computing, Internet of things): تشير هذه المصطلحات إلى التكنولوجيا التي أصبحت ترتبط بكل شيء في حياتنا، وتُدمج ببساطة في محيطنا لأتمتة المهام وتحسين حياتنا اليومية (المترجم).

(533) جانينا باري، "تحليلات الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت: أفضل 10 مجالات لتطبيقات الأدوات

مع تزايد قوة ضرورة التنبؤ الحتمية، يصبح من الواضح تدريجيًا أن الاستخراج كان مرحلة أولى لمشروع طموح للغاية. وتعني اقتصاديات العمل أن هياكل الآلات في العالم الحقيقي يجب أن تكون قادرة على المعرفة إضافة إلى قدرتها على الفعل. لم يعد الاستخراج كافيًا؛ بل يجب أن يقترن بالتنفيذ. تُجمَع هندسة الاستخراج مع هندسة التنفيذ الجديدة، وتُفَرَّص من خلالها أهداف اقتصادية خفية على مجال واسع ومتنوع من السلوك. (534)

تدريجياً، مع بدء ضرورات رأسمالية المراقبة، والبنية الأساسية المادية التي تؤدي عمليات الاستخراج والتنفيذ في العمل كوحدة متماسكة، فإنها تنتج "وسائل تعديل السلوك" في القرن الحادي والعشرين. ولا يقوم هدف هذا المشروع على فرض معايير سلوكية، مثل التوافق أو الطاعة، بل إنتاج سلوك يؤدي بشكل موثوق وحاسم إلى النتائج التجارية المرجوة. ويؤكد مدير الأبحاث في شركة "غارتنر" (Gartner)، وهي شركة استشارات وأبحاث تحظى بالاحترام، هذه النقطة بشكل لا لبس فيه عندما يلاحظ أن إتيقان "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" سيكون بمثابة "عامل تمكين رئيس في تحويل نماذج الأعمال من 'مستويات أداء مضمونة' إلى 'نتائج مضمونة'". (535)

هذا تصريح غير عادي لأنه من غير الممكن أن تكون هناك ضمانات كهذه في غياب القدرة على جعلها كذلك. إن هذا التركيب الواسع الذي نشير إليه باسم "وسائل تعديل السلوك" هو تعبير عن هذه القوة المجمعة. وتنبهنا إمكانية الحصول على نتائج مضمونة على قوة ضرورة التنبؤ الحتمية التي تطالبُ رأسمالي المراقبة بصنع مستقبل يمكن التنبؤ به. إن الحوسبة الشاملة ليست مجرد آلة معرفة في ظلّ نظام كهذا؛ بل هي آلة تشغيل مصممة لإنتاج المزيد من اليقين عنا نحن، ومن أجلهم.

القابلة للاتصال بالإنترنت - استنادًا إلى مشاريع الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت الحقيقية"، تحليلات الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، 16 أغسطس 2016.

(534) كيفن د. ويرباخ ونيكولاس كورنيل، "العقود الآلية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 18 مارس 2017).

(535) كريستي بيتي، "معاملة المعلومات كأصل"، تقرير "سمارتر ويز غارتنر"، 17 فبراير 2016.

هذا الجهاز الذكي والقوي، الذي ينتشر تدريجيًا، يتشكّل تدريجيًا حولنا. لا أحد يعلم حجمه الحقيقي أو ما سيكون عليه. وهو مجال فيه الكثير من المبالغة، فغالبًا ما تتفوق التوقعات على النتائج الفعلية. وعلى الرغم من ذلك، فإن ما يلزم من تخطيط واستثمار وابتكار لتحويل هذه الرؤية إلى واقع ملموس، يجري على قدم وساق. وتشكّل رؤى وأهداف مهندسيها، والعمل المنجز فعلًا، والبرامج التي تُطوّر حاليًا، نقطة تحوّل في تطوّر رأسمالية المراقبة.

أودّ أن أوكدّ أخيرًا أنه على الرغم من الإمكانية المحتملة لتصوّر شيء مثل "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" دون رأسمالية المراقبة، فمن المستحيل أن نتخيل رأسمالية المراقبة دون شيء مثل "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت". إن كل ما ينشأ عن ضرورة التنبؤ الحتمية يتطلب هذا الوجود المادي الشامل "المعرفة والفعل" في العالم الحقيقي. فالجهاز الجديد هو التعبير المادي عن ضرورة التنبؤ، وهو يمثل نوعًا جديدًا من القوة التي يحركها الإجماع الاقتصادي نحو اليقين. يتقاطع متجهان في هذه الحقيقة: المثل العليا البدائية للحوسبة في كل مكان، والضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة. يشير هذا التقارب إلى تحول البنية التحتية الرقمية من شيء نملكه إلى شيء يمتلكنا.

ربما يبدو هذا مستقبليًا، لكن رؤية الأفراد والمجموعات كأشياء ينبغي تعقبها باستمرار، ومعرفتها بشكل كامل، وتوجيهها بهذا الاتجاه أو ذاك لغرض معين لا تعرفه، هو أمر له تاريخ. فقد تم العمل على هذا الموضوع منذ ما يقرب من ستين عامًا تحت أشعة الشمس الاستوائية الدافئة في جزر غالاباغوس، عندما استيقظت سلحفاة عملاقة من سباتها لتبتلع قطعة صبار شهية حشر فيها عالمٌ مُتخصص آلة صغيرة.

إنه الوقت الذي تعامل فيه العلماء مع عناد الحيوانات التي تتجول بحرية، وخلصوا إلى أن المراقبة هي الثمن الضروري للمعرفة. إن احتجاز هذه المخلوقات في حديقة الحيوان لن يؤدي إلا إلى القضاء على السلوك الذي أراد العلماء دراسته، ولكن كيف يمكن مراقبتها؟ لقد جدّد رأسماليو المراقبة الحلول التي ابتكرها علماء قطعان الأيائل

والسلاحف البحرية والإوز، وقدّموها باعتبارها سمة حتمية للحياة على الأرض في القرن الحادي والعشرين. كل ما تغير هو أننا أصبحنا الآن حيوانات.

2- الغزو الرقيق لحيوانات غير مقيّدة

كانت الرحلة الاستكشافية الدولية إلى جزر غالاباغوس في عام 1964 بمثابة فرصة فريدة من نوعها لاستكشاف القياس عن بعد، وهي تكنولوجيا رائدة تعتمد على نقل البيانات عبر الحاسوب لمسافات طويلة. وقد دافع عن هذه التقنية الجديدة جيل جديد من العلماء الذين جمعوا بين علم الأحياء والفيزياء والهندسة والإلكترونيات، وكان أبرزهم آر ستورات ماكاي، ذلك الجراح والفيزيائي والمهندس الكهربائي وعالم الأحياء الذي عُرِفَ بين أقرانه العلماء بأنه خبير الخبراء. (536)

اعتبر ماكاي أن القياس عن بعد هو وسيلة لتعزيز مجموعات الحيوانات وحماية رفاهيتها. وهناك صورة له من رحلة جزيرة غالاباغوس يظهر فيها واقفاً بهدوء بجوار سلحفاة عملاقة ابتلعت آليته الصغيرة؛ ويظهر في صورة أخرى وهو يحمل برفق إغوانا بحرية نادرة مزوّدة بجهاز استشعار متصل بجذعها، وذلك كله لقياس درجة الحرارة الداخلية لأجسام الحيوانات. وشدّد على العنصر الرئيس الذي يميّز القياس عن بعد عن أشكال المراقبة الأخرى، أي إمكانية التقاط السلوك في بيئته الطبيعية باستخدام أجهزة استشعار ذات حجم صغير بحيث تتوارى داخل الجسم دون إثارة وعي الحيوان:

إن استخدام إشارة راديو من جهاز إرسال، داخل كائن ما أو مثبت عليه من الخارج، لنقل المعلومات إلى جهاز استقبال عن بعد، يسمح بمرونة الحركة واستكشاف أجزاء من الجسم يصعب الوصول إليها بطريقة أخرى دون أي إزعاج،

(536) ر. ستوارت ماكاي، "القياس عن بعد في المجال الطبي الحيوي: استشعار المعلومات البيولوجية ونقلها من الحيوانات والإنسان"، مجلة المراجعة الفصلية لعلم الأحياء، المجلد 44، العدد 4 (1969): 18-23.

دون أن يكون الكائن على دراية بعملية القياس... إذ تترك هذه الأساليب الكائن في حالة نفسية وفيزيولوجية طبيعية نسيًا، ولا تتداخل مع استمرار الأنشطة الطبيعية. (537)

ركّزت أعمال ماكاي المنشورة في المقام الأول على الجوانب الفنية لدراساته، على الرغم من وجود لمحة من غرض أكبر أحيانًا. حيث أتاح القياس عن بعد إمكانية الحصول على بيانات هائلة الحجم، وفرصة إجراء دراسات ارتباطية على نطاق مجموعات حيوانية كاملة. وأشار إلى أن بالإمكان تطبيق التقنيات نفسها على العالم الثابت: مظلات الغابات، وتصلّب الخرسانة، وأوعية التفاعل الكيميائي، وعمليات تحضير الأغذية. وتصور وجود مجموعات بشرية كاملة متصلة بعمليات بثّ البيانات. وأتاحت تقنياته القابلة للارتداء من الجيل الأول دراسة "حيوانات غير مقيّدة" من الأنواع كلها، بما في ذلك البشر. وأكّد عمليات القياس الطبية الحيوية التي تجري عن بعد مناسبة بشكل فريد من نوعه لجمع المعلومات التي يستحيل جمعها "في البرية" بطريقة أخرى. كان المبدأ الأساسي هو أن تقنياته المعلوماتية تعمل خارج وعي الحيوان. وكان ذلك مفيدًا للغاية في حلّ مشاكل مثل صعوبة إجراء قياسات "للحيوانات غير المتعاونة"، والحاجة إلى جمع البيانات حتى عندما تتجول القطعان عبر "مناطق يصعب الوصول إليها". بعبارة أخرى، مكّنت ابتكارات ماكاي العلماء من تحويل الحيوانات إلى معلومات حتى عندما اعتقدت تلك الحيوانات أنها حرة، وتتجول وتستريح، غير مدركة للغزو الذي تعرّضت له مناظرها الطبيعية التي كانت غامضة في السابق.

أكّد ماكاي أن نقل بيانات الاستشعار ومراقبتها ما هو إلا جزء من القصة. فالمسار لم يكن كافيًا؛ لكن لا بدّ من التوجيه. وجادل بإمكانية القيام "بعملية عكسية" لتحفيز عن بُعد لا تكتفي بمراقبة السلوك فحسب، بل تكشف أيضًا عن كيفية تعديله وتحسينه، مما يوفر ما اعتبره "حوارًا عن بُعد بين من يقوم بالتجربة والكائن الخاضع

لقد أثمرت لغة ماكاي واسعة النطاق في العصر الرقمي. لقد أدت فطنة الأفمار الصناعية، إلى جانب النمو الهائل في القوة الحاسوبية المدخلة في شرائح سيليكونية صغيرة، وأجهزة الاستشعار المتقدمة، وشبكات الإنترنت، وتحليلات التنبؤ "بالبينات الضخمة"، إلى إنتاج أنظمة غير عادية تكشف عن حركات مجموعات حيوانية كاملة وحركات أفرادها ومعاني تلك الحركات: في أي مكان، وبأي وقت. وأصبحت الأجهزة القابلة للارتداء ذاتها، التي كانت تسافر على أجسام الحيوانات وداخلها، أجهزة استشعار واسعة النطاق لمناخ الكوكب وجغرافيته وبيئته، مما يتيح "استشعاراً شاملاً لكوننا، باستخدام أجناس مختلفة للاستفادة من تنوع الحواس التي تطورت لدى مجموعات الحيوانات"، مما أدى إلى إنتاج "الحاسة السادسة للجماعة الحيوانية العالمية".⁽⁵³⁹⁾ وكما يُحتمل أنك خمنت في نفسك، فليس هناك مبرر للاعتقاد بأن هذه القدرات ستظل موجهة نحو الأنواع غير البشرية.

حدث تجاوز للعتبة فعلاً.⁽⁵⁴⁰⁾ في عام 2014، أعلن فريق من الباحثين في جامعة واشنطن بقيادة جينك نينغ هوانغ عن "نظام تحديد المواقع العالمي (جي بي إس) الفائت"، الذي جُمع من كاميرات المراقبة الخاصة بالبلدية، "لتمكين التصور الديناميكي للوضع الواقعي للبشر الذين يسرون على الطرق والأرصعة، بحيث يتمكن الناس أخيراً من رؤية النسخة الحركية الواقعية لديناميكيات شوارع المدينة في الوقت الحقيقي على منصة مثل "غوغل إيرث" (Google Earth).⁽⁵⁴¹⁾ لو كانت

(538) ماكاي.

(539) رولاند كايز وآخرون، "تتبع الحيوانات الأرضية وحياتها على الكوكب وكأن عيناً تراقبها"، العلوم 348، العدد 6240 (2015).

(540) "بي. راميش كومار" و"تش. سريكانث"، و"كي، إل، سايلاجا"، "تحديد موقع الفرد بناءً على بيانات الصورة الوصفية"، مجلة علوم الحاسوب 85 (2016): 451-454؛ أنورادها فيشواكارما وآخرون. "نظام تتبع وإدارة الحافلات الذكي القائم على نظام تحديد المواقع العالمي (جي بي إس) وتقنية تحديد الهوية بموجات الراديو (RFID)"، "المجلة الدولية لأبحاث الهندسة والتكنولوجيا"، المجلد 3، العدد 3 (2016)؛ نيرالي بانشال، "نظام تتبع المركبات القائم على نظام تحديد المواقع العالمي (جي بي إس) واستخدام التحليلات لتحسين الأداء"، ريسيرش جيت، يونيو 2016.

(541) مارك بريج، "برنامج يستطيع تتبع الأشخاص أثناء سيرهم من كاميرا إلى أخرى"، ميل أونلاين، 18

تلك مجرد رواية، فإن العمل الرائع الذي أجراه البروفيسور ماكاي، إلى جانب أعمال كثير من العلماء المتفانين الذين اتبعوا خطاه، سيكون بمثابة تمهيد لما سيحدث.

في تحوّل لم يتوقعه ماكاي، أصبح علم تتبّع الحيوانات الذي نشأ من رؤيته الرائدة هو النموذج الرئيس للمرحلة التالية من تطوّر رأسمالية المراقبة، حيث خضعت تقنية القياس عن بعد، المطبقة الآن على السلوك البشري، لعبودية منطق التراكم الجديد والمربح. لقد كانت متطلبات التنبؤ، التي ستندمج فيما بعد في ضرورة اقتصادية حتمية، واضحةً فعلاً في عمل ماكاي. كما أن الحاجة إلى اقتصاديات النطاق، سواء أكان من حيث الامتداد أو العمق، تنعكس في إطاره التأسيسي الذي يهدف إلى تقديم معلومات حول السكان وتفاصيل الأفراد، والوصول إلى الزوايا البعيدة للمناطق التي كان يصعب الوصول إليها سابقاً. تشمل هذه المناطق اليوم مقعد سيارتك، ومطبخك، وكليتيك. يُعاد إحياء عملية "التحفيز عن بعد" العكسية، التي ابتكرها ماكاي، في اقتصاديات العمل التي تُحفّز السلوك تلقائياً، ليس لإنقاذ القطيع البشري من كارثة، بل لتعزيز القدرة على التنبؤ بسلوكه.

كان ماكاي يتوق إلى الاكتشاف، لكن "المُختبرين" اليوم يتوقون إلى اليقين عندما يحوّلون حياتنا إلى حسابات. كانت حيوانات ماكاي غير مقيدة وغير متعاونة بطبيعتها لأنها كانت تشعر بأنها حرة، وتحتبئ وتتجول في أرض مجهولة. والآن، إن الحرية العفوية السهلة التي يتمتع بها الحيوان البشري – الشعور بالتححرر من القيود الذي يزدهر في غموض الأماكن البعيدة، والمساحات الحميمة – ما هو إلا احتكاك على الطريق نحو عائدات المراقبة.

3 - قطعان بشرية

أُعيد تصوّر إرث ماكاي في عصرنا من خلال عمل البروفيسور جوزيف باراديسو من مختبر الوسائط التابع لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، حيث اخترعت بعض أهم قدرات رأسمالية المراقبة وتطبيقاتها، من استخراج البيانات إلى التقنيات القابلة

تعمل مجموعة باراديسو الرائعة المكوّنة من علماء بيانات ومهندسين وموسيقين وفنانين على إعادة تصوّر العالم من خلال عدسة بحث غوغل، وعبر تطبيق التخصصات ذاتها التي أُنقنت الويب - البيانات، والفهرسة، والتصفح، والبحث - لكي تتقن الواقع نفسه. ويقول باراديسو إنه من دون "بيئات حسية شاملة، ستكون المحركات المعرفية لهذا العالم صماء وبكماء وعمياء، ولا تستطيع الاستجابة بشكل مناسب لأحداث العالم الحقيقي التي تهدف إلى زيادتها".⁽⁵⁴²⁾ بعبارة أخرى، لا معنى للحوسبة الشاملة من دون أجهزة استشعار شامل تنقل تجربة الحوسبة.

لتحقيق هذه الغاية، ابتكر طلاب باراديسو جهاز "Listen Tree"، الذي يُصدّر صوتاً متدفقاً "يلفت الانتباه ويشير إلى مستقبل تصبح المعلومات الرقمية فيه جزءاً لا يتجزأ من العالم المادي". وقام هو وزملاؤه بتجهيز موقع مساحته 250 فداناً بمئات أجهزة الاستشعار التي تقيس، وتسجّل، درجة الحرارة والرطوبة وحركة الضوء والرياح والصوت وتدفق عصارة الأشجار ومستويات المواد الكيميائية وأشياء أخرى كثيرة. كما طوّروا "أجهزة استشعار حالات السكون" التي تتعقّب الحركات المعقّدة وتحسبها، و"ألياف حسية مرنة" لإنشاء "ركائز وظيفية جديدة كلياً يمكن أن تؤثر على الطب والأزياء والملابس.... ودمج الإلكترونيات في كل الأشياء القابلة للتمدد أو التشكّل". هناك أجهزة تلتصق مباشرة بالجلد مثل الوشم، بينما تتحوّل الأظافر والمعصمين إلى واجهات حاسوبية يمكنها قراءة إيماءات الأصابع، حتى في غياب حركات اليد. يمكن لأشرطة الاستشعار والأشرطة اللاصقة أن تلتصق "بالأسطح ومواد البناء التي يصعب الوصول إليها"، حيث يمكن "استجوابها لاسلكياً...".⁽⁵⁴³⁾

(542) جوزيف أ. باراديسو، "حواسنا الممتدة: كيف سيتواصل البشر مع الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، مراجعة تكنولوجيا معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1 أغسطس/ آب 2017.
(543) جيرشون دوبلون وإدوينا بورتوكاربرو، "ListenTree: عرض صوتي ملموس في البيئة الطبيعية"، 2014.

واجهه باراديسو وزملاؤه مفارقة تتمثل، من جهة أولى، في انتشار بيانات الاستشعار في البيئات كلها تقريباً - من الهواتف الذكية، إلى الأجهزة المنزلية، إلى الشوارع والكاميرات والسيارات - وتتمثل من جهة أخرى في الصعوبات التي تنطوي عليها عملية دمج تدفقات البيانات التي تولدها أجهزة الاستشعار، وإنتاج تحليلات ذات مغزى. وكانت إجابتهم على هذه المفارقة في منصّة "DoppelLab"، وهي منصّة رقمية لدمج بيانات المستشعر وتمثيلها بصرياً.⁽⁵⁴⁴⁾ وتقوم الفكرة على تحويل أية مساحة مادية، من داخل مبنى مكاتب إلى مدينة بأكملها، إلى "بيئة قابلة للتصفح" حيث يمكنك رؤية كل ما يحدث في تلك المساحة وسماعه، أثناء تدفقه من آلاف أو مليارات أو تريليونات من أجهزة الاستشعار. وكما أعطتنا متصفّحات مثل "Netscape" في البداية إمكانية الوصول إلى كميات هائلة من البيانات الموجودة على الإنترنت، فسوف تمكّننا متصفّحات البرامج من فهم تدفق بيانات الاستشعار القادمة إلينا".⁽⁵⁴⁵⁾

يثق باراديسو من أن "من شأن واجهة مناسبة لهذه الخواص الاصطناعية أن تُنتج.... عالماً رقمياً شاملاً... وبيئة واقع معرّز شاملة.... يمكن تصفّحها بشكل حدسي" تماماً كما فتحت متصفّحات الويب البيانات الموجودة على شبكة الإنترنت. ويشدّد على أن معلومات حساسات المعلومات والحوسبة المنتشرة في كل مكان ستكون "امتداداً لأنفسنا بدلاً من تجسيد 'الآخر'". ستتدفق المعلومات "مباشرة إلى أعيننا وأذاننا بمجرد دخولنا عصر الأجهزة القابلة للارتداء... وستكون حدود الفرد غامضة للغاية في هذا المستقبل".⁽⁵⁴⁶⁾

وفقاً لباراديسو ومساعدته في التأليف، جيرشون دوبلون"، سيكون التحدي

(544) جيرشون دوبلون وآخرون، "DoppelLab: أدوات لاستكشاف بيانات شبكة استشعار متعددة الوسائط، والاستفادة منها"، في مجلة أجهزة الاستشعار بمعهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، 2011، 15-1612.

(545) جيرشون دوبلون وجوزيف أ. باراديسو، "الإدراك الحسي الإضافي"، مجلة ساينتيك أمريكان، 17 يونيو 2014.

(546) الفردوس، "حواسنا الممتدة" (الخط المائل يعود لي).

التكنولوجي الكبير التالي هو "تجميع السياق"، أي القدرة على تجميع المعلومات المُستشعرة، وسريعة الاتساع، في "تطبيقات" جديدة. الفكرة هي أن كل مساحة مادية، وكل أثر للسلوك داخل تلك المساحة - طنين النحل، ابتسامتك، تقلبات درجة الحرارة في غرفتي، محادثاتي على مائدة الإفطار، أصوات الأشجار - سيكون بمنزلة "معلومة" (مترجمة إلى معلومات). يمكن تجميع المساحات في تدفق سلس لما هو قابل للبحث من معلومات ومشاهد وأصوات، بالطريقة ذاتها التي جمعت بها شركة غوغل صفحات الويب من أجل الفهرسة والبحث: "سيؤدي هذا التحول إلى إنشاء نظام عصبي سلس يغطي الكوكب - وأحد التحديات الرئيسة التي تواجه مجتمع الحوسبة الآن هو كيفية دمج الحواس الإلكترونية، سريعة التطور، و'العارفة كل شيء'، في الإدراك البشري". (547)

على الرغم من تألق هؤلاء العلماء المبدعين، إلا أنهم لا يدركون، كما يبدو، النظام الاقتصادي المضطرب الذي يتوق للاستيلاء على إنجازاتهم تحت راية عائدات المراقبة. ولا يأخذ باراديسو بعين الاعتبار إمكانية تحويل فردوسه كلي المعرفة إلى السياسة الواقعية لرأسمالية المراقبة، حيث تصرّ ضرورة التنبؤ الحتمية على امتلاك الفائض السلوكي المُستخرج من هذه التدفقات الجديدة، وحيث يملأ رأسماليو المراقبة المقاعد الأمامية في قاعة الدراسة الخاصة بالعلم الرقمي كلي المعرفة.

4 - السياسة الواقعية لرأسمالية المراقبة

إن ضعف القيادة الحكومية في مجالات "الحوسبة الشاملة"، وضعف تمويلها، يترك لشركات التكنولوجيا دور الريادة في الأبحاث والتطبيقات الأساسية؛ حيث تدخل كلٌ منها في منافسة لتتخذ موقع محرك غوغل لهذا الجهاز الجديد وبنياته الخاصة بالاستخراج والتنفيذ. (548) على الرغم من الآفاق الأساسية التي تحملها أجهزة

(547) دويلون وباراديسو، "الإدراك الحسي الإضافي".

(548) كيفن أشتون، المدير السابق للعلامة التجارية في بروكتر أند غامبل، الذي كان رائداً في دمج الرقائق الدقيقة اللاسلكية مع المنتجات المادية، ومبتكر مصطلح "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، وساهم في دفع عجلة ابتكار تقنية تحديد الهوية بموجات الراديو (RFID) في مختبر الوسائط التابع لمعهد

الحوسبة الحسيّة المتصلة بشبكة الإنترنت في الأماكن كلها، والمزاعم المتكررة في كثير من الأحيان "بأنها ستغيّر كل شيء"، فقد واصلت شركات التكنولوجيا في الولايات المتحدة حتى الآن مسيرتها في حالة من الفوضى النسبية، دون أن تعوقها أية رؤية اجتماعية أو تنظيمية شاملة. وفقًا لتعليق كبير استراتيجي شركة إنتل في مجال "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" ردًا على المخاوف بشأن آثار الخصوصية، "إن الشيء الوحيد الذي نؤمن به تمامًا هو أنه على الرغم من أننا نسمع المحادثة حول سياسة خصوصية، فإننا لا نريد أن نقف هذه السياسة في طريق الابتكار التكنولوجي...". (549)

بدلًا من وضع "سياسة" أو "عقد اجتماعي"، فإن الرأسمالية، ورأسمالية المراقبة بشكل متزايد، هي التي تشكّل الفعل. إننا ننتظر بفارغ الصبر ظهور أسواق مستقبلية سلوكية جديدة و"تطبيقات مستهدفة". ووفقًا لتصريحات مدير منصّة الذكاء الاصطناعي في شركة مايكروسوفت لدمج البيانات من "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" وتحليلها: "إن الجزء المثير للدهشة، والمخيف في آن معًا، هو ما يحدث بعد أن ينضم الجميع ومنافسهم إلى الأجهزة الذكية: سوق ثانوية كبيرة للبيانات... مصدر ثانوي للإيرادات". ويوضح أن هذه الأسواق "تشبه أسواق غوغل وفيسبوك" فيما يتعلّق بالإعلانات المستهدفة. (550) ويتفق تقرير صادر عن شركة "إي بي إم" (IBM) مع هذا الرأي: "بفضل الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، تتحوّل الأصول المادية إلى مشاركين في الأسواق الرقمية العالمية في الوقت الفعلي. ستصبح أنواع الأصول الكثيرة من حولنا سهلة الفهرسة والبحث والتداول، تمامًا مثل أية سلعة إلكترونية...

ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT)، ينتقد الحكومة الأمريكية لافتقارها إلى رؤية شاملة لـ"الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" وقيادة الشركات الخاصة في هذا المجال. انظر كيفن أشتون، "أمريكا الأخيرة؟"، بوليتيكو، 29 يونيو/حزيران 2015.

(549) انظر نيك ستات، "ماذا تعني فضيحة فولكس فاغن لمستقبل الأجهزة المتصلة"، فيرج، 21 أكتوبر/تشرين الأول 2015.

(550) مات واينبرغر، "تقول مايكروسوفت إن الشركات ستجني الكثير من المال من بيع البيانات من الأجهزة الذكية"، بزنس إنسايدر، 6 ديسمبر/كانون الأول 2015؛ "مباشرة على شاشة قريبة منك: مؤتمر الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، مؤتمر افتراضي جديد لكل ما يتعلق بالأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، مدونة مايكروسوفت للأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، 9 ديسمبر/كانون الأول 2015.

ونطلق على هذا اسم 'إسالة العالم المادي'."

في موازاة مشؤومة لخطاب "عادم البيانات" باعتباره مقدمة لنزع الملكية، تتطلب المرحلة الثانية من المصادرة أيضًا خطابًا جديدًا قادرًا على إضفاء الشرعية على العمل الحقيقي الذي أطلقته ضرورة التنبؤ، وتشتيت الانتباه عنه في آن معًا. ثمة تعبير ملطف جديد يلعب هذا الدور هو "البيانات القائمة". على سبيل المثال، قامت هاربيت غرين بإدارة استثمار شركة "آي بي إم" البالغ ثلاثة مليارات دولار في "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، وهو التزام بالموارد يهدف إلى جعل الشركة منافسًا جديدًا لتصبح هي "الغوغل" في مجال الحوسبة الشاملة. وتقول غرين إن المعرفة الرقمية الشاملة تعوقها حقيقة مفادها أن معظم البيانات التي تجمعها الشركات "غير منظّمة"، مما يجعل من الصعب "تحليلها" وترميزها.⁽⁵⁵¹⁾ ويعاني عملاء شركة "آي بي إم" من السؤال التالي: "ماذا يمكننا أن نفعل بهذه البيانات [غير المنظّمة] لنصبح أكثر كفاءة، أو لإنشاء منتجات وخدمات جديدة يمكننا بيعها، لتحسين ما نقوم به، أو إنشاء أشياء جديدة للزبائن؟"⁽⁵⁵²⁾

لا يمكن للبيانات غير المنظّمة أن تندمج وتتدفق في الحلقات الجديدة للأصول التي تُباع وتُستَرى. فهي تحتك وتتضارب. وتركّز غرين على التصريح المعلن الذي يسمّى المشكلة ويبرّر حلها في آن معًا: *البيانات القائمة*. الرسالة التي شجّدت في العالم الإلكتروني - "إذا لم تكن جزءًا من النظام، فأنت غير موجود" - تم تهذيبها من أجل هذه المرحلة من نزع الملكية. وبما أن جهاز الأشياء المتصلة يهدف إلى أن يكون هو كل شيء، فإن أي سلوك بشري، أو أي شيء غائب عن هذا الدفع نحو الإدماج العالمي، هو سلوك قاتم: مُهدد، غير مروّض، متمرد، مارق، خارج عن السيطرة. تُؤطّر المساحة الصلبة من البيانات المظلمة باعتبارها عدوّ طموحات شركة "آي بي إم"

(551) لمناقشة مُقنعة للبيانات غير المنظّمة وجذورها في الحياة اليومية، انظر يوانا د. كونستانتيو وجانيس كالينيكوس، "العابّ جديدة، قواعد جديدة: البيانات الضخمة والسياق المتغير للاستراتيجية"، مجلة تكنولوجيا المعلومات، 9 سبتمبر / أيلول 2014، الصفحات 14-1.

(552) برايان جليك، "مقابلة تنفيذية: هاربيت غرين، رئيسة قسم الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت في شركة آي بي إم"، مجلة حاسوب ويكلي، 7 أبريل / نيسان 2016.

وعملاتها. لاحظ أصداء ماكاي هنا، مع تصميمه على اختراق أسرار الحيوانات غير المقيدة، والمناطق التي يصعب الوصول إليها. تكمن المشكلة في أنه ما من شيء يحظى بقيمة إلا عندما يظهر كسلوك، ويتحوّل إلى دفقات بيانات إلكترونية، ويوجّه إلى الضوء كيانات يمكن ملاحظتها. يجب أن يكون كل شيء مضاءً من أجل العدّ والتوجيه والسّوق.

بهذه الطريقة، يصبح مفهوم "البيانات القائمة" بمثابة "عادم بيانات" للحوسبة الشاملة. وهي توفر الأساس الأخلاقي والتقني والتجاري والقانوني لأنظمة ذكاء آلي قوية قادرة على التقاط وتحليل سلوكيات وظروف لم تكن مخصصة إطلاقاً للحياة العامة. وبالنسبة إلى أولئك الذين يسعون للحصول على عائدات المراقبة، تمثّل البيانات القائمة مناطق مربحة وضرورية في اللغز العالمي الديناميكي الذي يشكّله سعي رأسمالية المراقبة نحو الحجم والنطاق والعمل. وهكذا ينظر مجتمع التكنولوجيا إلى البيانات القائمة باعتبارها "المجهول المجهول" الذي يهدّد الوعد المالي الذي تقدّمه "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت".⁽⁵⁵³⁾

من المفهوم إذاً أن تصوّر غرين الذكاء الآلي - ولا سيّما نظام الذكاء الاصطناعي المجسّم الذي ابتكرته شركة "آي بي إم"، وأطلقت عليه اسم "واتسون" - باعتباره المنقذ الموثوق لجهاز مُهدد بالضياع وعدم القدرة على الفهم. يُشار إلى الذكاء الآلي باسم "الحوسبة المعرفية" في شركة "آي بي إم"، وربما يكون ذلك لتجنّب الدلالات المزعجة للقوة الغامضة المرتبطة بكلمات مثل الآلة والاصطناعي.

بقيادة الرئيسة التنفيذية جيني روميتي، استثمرت شركة "آي بي إم" بشكل كبير في "واتسون"، الذي وصفته بأنه "عقل الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت". أرادت

(553) "البيانات القائمة"، مسرد غارتنر لتكنولوجيا المعلومات، 7 مايو/ أيار 2013؛ إسحاق ساكوليك، "البيانات القائمة - تعريف للأعمال"، التواصل الاجتماعي، والرشاقة، والتحوّل، 10 أبريل/ نيسان 2013؛ هينر جونسون، "استخراج البيانات القائمة: ما الذي يضع أي بي إم في طليعة اقتصاد المعرفة"، سيليكون أنجل، 30 أكتوبر/ تشرين الأول 2015؛ إد تيتل، "مخاطر البيانات القائمة وكيفية تقليل تعرضك لها"، سي أي أو، 24 سبتمبر/ أيلول 2014؛ ديريك جاسكون، "إحباط مخاطر البيانات المظلمة باستخدام أدوات تصنيف البيانات"، سيرش كومبلايننس، يوليو/ تموز 2014.

روميتي أن تسيطر الشركة على وظائف التعلم الآلي التي سترجم البيانات الشاملة إلى معرفة وأفعال شاملة. وتقول غرين: "يدور النقاش الأول حول كمية البيانات القائمة التي لا يستطيع تحليلها سوى واتسون والذكاء الاصطناعي. أنت تعلم حجم البيانات التي تُنتج يوميًا، وسيهدّر الكثير منها إذا لم يُستغل. تمثل هذه البيانات القائمة فرصة هائلة.... القدرة على استخدام أجهزة الاستشعار في كل شيء في العالم ليصبح مبرمجًا، سواءً أكان عدساتك اللاصقة، أو سريرك في المستشفى، أو مسار سكة حديدية" (554).

الرسالة هي أن الأدوات الجديدة التي تستخدمها رأسمالية المراقبة ستجعل تصرفات العالم بأسره وظروفه بمثابة تدفقات سلوكية. يتحرّر كل جزء قُدّم من الحياة الاجتماعية، ولا يعود مثقلًا بالمنطق الأخلاقي، والسياسة، والمعايير الاجتماعية، والحقوق، والقيم، والعلاقات، والمشاعر، والسياقات، والمواقف. وفي تسطيح هذا التدفق، البيانات هي بيانات، والسلوك هو سلوك. الجسد هو ببساطة مجموعة من الإحداثيات في الزمان والمكان حيث يُترجم الإحساس والفعل إلى بيانات. تتقاسم الأشياء الحية وغير الحية الوضع الوجودي ذاته في هذا المزيج المختلط، ويولد كلٌ منها من جديد باعتباره "شيئًا" موضوعيًا وقابلًا للقياس والفهرسة والتصفّح والبحث.

من منظور رأسمالية المراقبة وضروراتها الاقتصادية، يُحتزل العالم والذات والجسد إلى حالة دائمة من الأشياء مع اختفائها في مجرى دم مفهوم جديد عملاق للأسواق. وتتجمّع غسّالة ملابسه، ودوّاسة بنزين سيارتها، والبكتريا المعوية في معدتك، في بُعد واحد من التكافؤ كأصول معلوماتية يمكن تفكيكها وإعادة تشكيلها وفهرستها وتصفّحها والتلاعب بها وتحليلها وإعادة تجميعها والتنبؤ بها وإنتاجها وشرائها وبيعها: في أي مكان، وبأي وقت.

لقد طُبِّقَت النظرة العالمية التي وضعها علماء مثل باراديسو، وقادة الأعمال مثل غرين، على العديد من الجبهات حيث يُرْحَبُ بعلم المعرفة الرقمية بشغف باعتباره وصفة لليقين في خدمة بعض الأرباح. والقسم التالي هو فرصة لرؤية هذه النظرة

العالمية في العمل، في قطاع أعمال بعيد كل البعد عن رواد رأسمالية المراقبة: تأمين السيارات. لقد أصبح الاستخراج والتنبؤ من السمات المميزة لمنطق تراكم جديد حيث تخطط شركات التأمين ومستشاروها لهجومهم في الحصول على إيرادات المراقبة. ونشهد في خطط هؤلاء الفاعلين الجدد وممارساتهم تصميمًا على إضفاء طابع مؤسسي على اقتصاديات النطاق والعمل، والانجراف نحو عالم جديد قائم تُفهم فيه الوسائل الآلية، والمستهدفة بدقة لتعديل السلوك، باعتبارها الطريق إلى الربح.

5- يقين من أجل الربح

صادفنا في الفصل الثالث هال فاربان من شركة غوغل، وهو الآن ينير طريقنا مرة أخرى، ويكشف عن أهمية ضرورات التنبؤ الحتمية ومتطلباته الخاصة. وتذكر أن فاربان حدّد أربعة "استخدامات" جديدة لتوسّط الحاسوب في المعاملات.⁽⁵⁵⁵⁾ وكان المبدأ الأول هو "استخراج البيانات وتحليلها"، والذي استتجنا منه ضرورة الاستخراج باعتبارها إحدى آليات رأسمالية المراقبة الأساسية. وقال فاربان إن الاستخدامات الثلاثة الجديدة الأخرى – "أشكال تعاقدية جديدة نتيجة مراقبة أفضل"، و"التخصيص المؤتمت والتخصيص الشخصي"، و"التجارب المستمرة" – "ستصبح بمرور الوقت أكثر أهمية من الأولى".⁽⁵⁵⁶⁾ وقد جاء ذلك الوقت.

يقول فاربان: "بما أن المعاملات أصبحت تجري الآن عبر الحاسوب، يمكننا ملاحظة سلوك لم يكن بالإمكان ملاحظته سابقًا، وكتابة عقود بناءً عليه. وهذا يُتيح إجراء معاملات لم تكن ممكنة سابقًا". وهو ينجذب إلى مثال "أنظمة مراقبة المركبات"، مدرّكًا قوتها النموذجية. ويقول إنه إذا توقّف أحدهم عن سداد أقساط السيارة الشهرية، "أصبح من الأسهل بكثير في الوقت الحاضر توجيه نظام مراقبة المركبات بعدم السماح بتشغيل السيارة، والإشارة إلى الوقت الذي يمكن احتجازها

(555) هال ر. فاربان، "المعاملات التي تُجرى بوساطة الحاسوب"، المراجعة الاقتصادية الأمريكية 100، العدد 2 (2010): 10-1.

(556) هال ر. فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، اقتصاديات الأعمال 49، العدد 1 (2014): 27-31.

فيه".⁽⁵⁵⁷⁾ ويشير إلى أنه بإمكان شركات التأمين أيضًا الاعتماد على أنظمة المراقبة هذه للتحقق من قيادة العملاء بأمان، وبالتالي تحديد ما إذا كان ينبغي الاحتفاظ ببوليصة التأمين، وتعديل تكلفة الأقساط، وتحديد ما إذا كان ينبغي دفع مطالبة.

تعتمد استخدامات فاريان الجديدة، لتوسط الحاسوب في مجال التأمين، بشكل كامل على الأجهزة المتصلة بالإنترنت والتي تعرف وتُفعل. ومن المستحيل في الواقع أن نتخيلها من دون وسائل الاستخراج المادية والهندسة التقنية المدججة فيه، تتخلل العالم الحقيقي. إن نظام مراقبة المركبات الذي يصفه، على سبيل المثال، يوفر اقتصاد النطاق واقتصاد العمل. إنه يعرف حالة التلاعب ويتدخل فيها، ويراقب البيانات ويتصرف بناءً على تعليمات مبرمجة لإيقاف تشغيل محرك السيارة، مما يسمح للموظف المسؤول عن استرداد السيارة من تحديد موقعها وموقع سائقها.

مع تحوّل عمليات الإمداد إلى العالم الحقيقي بفعل ضرورة التنبؤ، أصبح مزودو المنتجات أو الخدمات في القطاعات الراسخة بعيدًا عن وادي السيليكون مفتونين بآفاق عائدات المراقبة. على سبيل المثال، يريد الرئيس التنفيذي لشركة "أليستيت إنشورنس" (Allstate Insurance) أن يكون مثل غوغل: "ثمّة الكثير من الناس الذين يستغلّون البيانات لتحقيق الدخل اليوم. أنت تدخل إلى موقع غوغل، ويبدو لك أنه مجاني، لكنه ليس مجانيًا. أنت تُعطيهم معلومات، وهم يبيعون معلوماتك. هل يُمكننا، أو هل ينبغي لنا، بيع هذه المعلومات التي نحصل عليها من سائقي السيارات لأشخاص مختلفين، ونحصل على مصدر ربح إضافي...؟ إنها لعبة طويلة الأمد".⁽⁵⁵⁸⁾ يبدو أن شركات تأمين السيارات حريصة بشكل خاص على تنفيذ رؤية فاريان، وما ابتكره ماكاي من أنظمة القياس عن بعد. يتضح الآن أن صراعك من أجل سيارتك هو مثال على قوة الهدف الذي تسعى من خلاله الشركات الكبيرة والصغيرة الآن إلى تحقيق فائض سلوكي.

(557) فاريان، "ما وراء البيانات الضخمة"، 30.

(558) انظر دان كراوت، "تدرس شركة أليستيت للتأمين فكرة بيع بيانات السائقين"، بلومبرغ دوت كوم،

28 مايو/أيار 2015.

أدركت شركات تأمين السيارات منذ فترة طويلة أن المخاطر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسلوك السائق وشخصيته، ولكن لم يكن بوسعها فعل الكثير حيال ذلك.⁽⁵⁵⁹⁾ ويمكن الآن لأنظمة المراقبة عن بعد المرتبطة بأجهزة القياس الحديثة، أن توفر تدفقاً مستمرًا للبيانات حول موقعنا، والمكان الذي نتجه إليه، وتفاصيل سلوكنا في القيادة، وحالة مركبتنا. ويمكنها أيضًا تقدير ما نشعر به ونقوله من خلال دمج معلومات مؤشرات لوحة قيادة السيارة وحتى معلومات الهاتف الذكي.

تُحاصر شركات تأمين السيارات بمستشارين وشركاء مُحتملين في مجال التكنولوجيا، ممن يعرضون استراتيجيات رأسمالية المراقبة الواعدة بفصل جديد من النجاح التجاري. ويؤكد تقرير لشركة ماكينزي للاستشارات الإدارية، حول مستقبل قطاع التأمين أن "حالة عدم اليقين ستخفض إلى حد كبير. وهذا يؤدي إلى تحويل الشركات إلى شركات مساهمة عامة تُطرح أسهمها في التداول العام، والتركيز على التنبؤ بالمخاطر الفردية وإدارتها بدلًا من التركيز على المجتمعات".⁽⁵⁶⁰⁾ ويوصي تقرير صادر عن مركز ديلويت للخدمات المالية بـ "تقليل المخاطر" - تعبير ملطّف عن النتائج المضمونة - من خلال مراقبة سلوك حاملي الوثائق وإلزامهم بتطبيق الالتزامات فور ارتكاب أية مخالفات، وهو النهج الذي يسمى "التوقيع وقبول المسؤولية السلوكية". وتنصح شركة ديلويت بأن "شركات التأمين تستطيع مراقبة سلوك حاملي الوثائق بشكل مباشر، من خلال تسجيل الأوقات والمواقع وحالة الطريق أثناء القيادة، وما إذا كانوا يزدون سرعة السيارة تدريجيًا، أو يقودون بسرعات عالية، أو حتى مفرطة، وكيفية استخدامهم للفرامل، وكذلك مدى سرعتهم في الانعطاف وما إذا كانوا يستخدمون إشارات الانعطاف".⁽⁵⁶¹⁾ تُنتج بيانات أجهزة

(559) راشيل وارد وريبیکا لانكستر، "مساهمة العوامل الفردية في سلوك القيادة: الآثار المترتبة على إدارة السلامة على الطرق المرتبطة بالعمل" (تقرير بحثي، مركز دوهيرتي للابتكار، ميدلوثيان، المملكة المتحدة، 2002).

(560) "يجب على شركات التأمين أن تتكامل مع الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت - أو تخاطر بالتخلف عن الركب"، ماكينزي، 8 يناير/كانون الثاني 2017.

(561) "التغلب على عقبات السرعة على الطريق عن طريق الاتصالات عن بعد"، مطبعة جامعة ديلويت، 21 أبريل 2014.

القياس عن بعد تدفقات مستمرة من البيانات، وبالتالي يمكن للفائض السلوكي الذي يصل في الوقت الفعلي أن يحل محل "عوامل الوكالة" التقليدية، مثل المعلومات الديموغرافية التي كانت تُستخدم في السابق لحساب المخاطر. هذا يعني أن الفائض يجب أن يكون وفيرًا (اقتصاديات الحجم) ومتنوعًا (اقتصاديات النطاق) من حيث المدى والعمق.

تُصَحّح حتى أصغر شركة تأمين لا تستطيع تحمّل تكاليف رأس المال الضخمة لأدوات القياس عن بعد بأنها قادرة على تحقيق معظم هذه الأهداف باستخدام تطبيق على الهاتف الذكي، مما يلغي تكاليف الأجهزة الباهظة، ونفقات نقل البيانات: "ربما تستفيد شركات التأمين هذه أيضًا لأن تطبيق الهاتف المحمول يجمع بيانات مباشرة عن سلوك السائق الذي يحمل الهاتف الذكي وأدائه... مما يوفر رؤية شاملة لما يتم التأمين عليه...." (562)

مع استبدال اليقين بعدم اليقين، قد ترتفع، أو تنخفض، من لحظة إلى أخرى، أقساط التأمين التي كانت تعكس في السابق المجهول الضروري للحياة اليومية، استنادًا إلى المعرفة الدقيقة بمدى سرعتك في القيادة إلى العمل بعد صباح مبكر مزدحم بشكل غير متوقع لرعاية طفل مريض، أو إذا كنت تقوم بحركات بهلوانية في موقف السيارات خلف السوبر ماركت. يقول أحد خبراء صناعة أجهزة القياس عن بعد الخاصة بصناعة التأمين، "نحن نعلم أن السائقين الذين يبلغون من العمر 16 عامًا يتعرّضون لعدد كبير من الحوادث... ولكن ليس كل من يبلغ من العمر 16 عامًا هو سائقًا سيئًا". تشكّل معدلات التسعير المبنية على السلوك الفعلي "ميزة كبيرة في القدرة على تقييم السعر بشكل مناسب". (563) ويعني هذا النوع من اليقين أن عقود التأمين المصمّمة لتقليل المخاطر تفسح المجال الآن لعمليات آلية تستجيب "على الفور تقريبًا" للمخالفات الدقيقة للمعايير السلوكية المقررة، وبالتالي تقلّل المخاطر بشكل كبير أو

(562) "التغلب على عقبات السرعة على الطريق عن طريق الاتصالات عن بعد".

(563) ليزلي سكيسم، "شركة ستيت فارم موجودة هناك: أثناء قيادتك"، وول ستريت جورنال، 5 أغسطس/ آب 2013.

لا تهدف أجهزة القياس عن بعد إلى المعرفة فقط، بل إلى الفعل (اقتصاديات العمل) أيضًا. فهي أشبه بمطرقة، أشبه بقوة؛ إنها تنفذ. يُعتبر التقييم السلوكي بمنزلة تعهّد بتقليل المخاطر من خلال العمليات الآلية المصمّمة لتعديل السلوك باتجاه تحقيق أقصى ربح ممكن. ويُستخدمُ الفائض السلوكي لتفعيل العقوبات، مثل ارتفاع الأسعار في الوقت الفعلي، والعقوبات المالية، وحظر التجول، وإغلاق المحركات، أو المكافآت، مثل خصومات الأسعار، والقسائم، والنجوم الذهبية لاستبدالها بفوائد مستقبلية. وتوقع شركة "آيه تي كيرني" (AT Kearney) للاستشارات أن "العلاقات التي تعتمد على أدوات قابلة للاتصال بالإنترنت" ستتواصل "بشكل أكثر شمولية" مع العملاء "للتأثير على سلوكياتهم". (565) مكتبة سُر من قرأ

إن تصريح فاريان الساخر بأنه "من السهل للغاية إصدار تعليمات لنظام مراقبة المركبات بإيقاف تشغيل السيارة عندما يتأخر الدفع"، ليس من نوع المبالغة. وعلى سبيل المثال، إن شركة "سبيريون" (Spireon)، التي تصف نفسها بأنها "أكبر شركة خدمات ما بعد البيع لأجهزة القياس عن بعد المرتبطة بالسيارات"، وفي تتبع المركبات والسائقين ومراقبتهم من أجل خدمة عملاء مختلفين مثل المقرضين وشركات التأمين وأصحاب السيارات، تقدّم نظامًا يشبه نموذج فاريان المثالي. (566) يرسل "نظام إدارة الضمانات (LoanPlus)" تنبيهات إلى السائقين إذا تأخروا عن سداد أقساطهم، ويقوم بتعطيل السيارة عن بعد عندما يتجاوز التأخير فترة محددة مُسبقًا، ويحدّد موقع السيارة ليستعيدها الموظف المسؤول عن الاسترداد.

أعلنت شركة تليهايتيكس (أجهزة القياس عن بعد) عن يوم جديد لمراقبة سلوك

(564) "نحتاج شركات التأمين إلى الاستفادة من الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت."

(565) جوزيف ريفيل، أليسا بي، نيتي بهاردواج، وشاميك لالا، "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت: فرصة لشركات التأمين"، شركة (AT Kearney)، 2014.

(566) ستيف جوهانسون، "يصل عدد المشتركين في شركة سبيرون إلى 2.4 مليون مشترك، لتصبح أكبر شركة متخصصة في خدمات ما بعد البيع لأنظمة الاتصالات عن بعد للسيارات"، بيزنس وير، 17 أغسطس 2015.

السائقين. يمكن الآن لشركات التأمين تحديد معايير محددة لسلوك القيادة. ويمكن لهذه المعايير أن تشمل أي شيء من ربط حزام الأمان إلى معدل السرعة، إلى أوقات الخمول، وطرق الفرملة والانعطاف والتسارع العدواني، والفرملة السريعة على الطريق، والقيادة خارج الولاية، ودخول المناطق المحظورة.⁽⁵⁶⁷⁾ إذ تُترجم هذه البارامترات إلى خوارزميات تعمل على مراقبة السائق وتقييمه وتصنيفه باستمرار، وهي الحسابات التي تؤدي إلى تعديلات في الأسعار في الوقت الفعلي.

وفقاً لبراءة اختراع يحملها كبير الاستراتيجيين في شركة "سبيريون"، يمكن لشركات التأمين القضاء على حالة عدم اليقين من خلال تشكيل السلوك.⁽⁵⁶⁸⁾ تقوم الفكرة على تحسين سعر التأمين باستمرار بناءً على مراقبة التزام السائق بالمعايير السلوكية التي تحددها شركة التأمين. يُحوّل النظام معرفته السلوكية إلى سلطة تمنح السائقين نقاطاً. أو يفرض عليهم عقوبات. ويُترجم الفائض إلى منتجات تنبؤية يمكن بيعها للمعلنين. يقوم النظام بحساب "السمات السلوكية" التي يجب على المعلنين استهدافها، وإرسال الإعلانات مباشرة إلى هواتف السائق. وتتناول براءة اختراع ثانية بشكل أكثر وضوحاً الأسباب التي تؤدي إلى اتخاذ تدابير عقابية.⁽⁵⁶⁹⁾ وتحدد مجموعة من الخوارزميات التي تنشّط العواقب عندما تُنتهك معايير النظام: "خوارزمية الانتهاك"، "خوارزمية منع الحركة"، "خوارزمية المراقبة"، "خوارزمية الالتزام"، "خوارزمية الائتمان".

تتوافق الشركات الاستشارية في تقديم المشورة لجميع عملائها في مجال التأمين للدخول في لعبة المراقبة. وتعترف شركة (AT Kearny) بأن "السيارة المتصلة بالإنترنت" هي بمثابة بيئة اختبار لما هو آت: "تعتمد القيمة الحقيقية للأدوات القابلة

(567) ريببكا كيتس، "تطلق شركة جيوتاب حلّاً رائداً عالمياً لسلامة السائق عبر أجهزة قياس عن بعد تتحدّث إلى السائق داخل السيارة"، جيوتاب، 10 سبتمبر 2015.

(568) براد غارفيس وآخرون، تحسين معدل التأمين من خلال مراقبة سلوك السائق، US20150006207 A1، نُشر في يناير 2015،

(569) براد غارفيس وآخرون، فوائد المشغل ومكافآته من خلال التنبع الحسي للمركبة، US20150019270 A1، نُشر في يناير 2015.

للاتصال بالإنترنت أخيراً على قدرة العملاء على تعديل سلوكهم، وتعديل ملفّات المخاطر المرتبطة بهم، بناءً على التعليقات الواردة من 'الأشياء' التي يستخدمونها".⁽⁵⁷⁰⁾ وتشكّل شركات التأمين الصحيّ هدفاً آخر: يمكن لأجهزة "قياس التسارع القابلة للارتداء" أن "تحسّن من إمكانية تتبّع مدى امثالهم" لأنظمة التمارين الرياضية الموصوفة، ويمكن لأجهزة الاستشعار القابلة للهضم أن تتبّع مدى الامثال لجداول النظام الغذائي والأدوية، "مما يوفر حقيقة أوضح، وتفاصيل أفضل، من إعادة المتابعة الشهرية".⁽⁵⁷¹⁾

تعترف شركة ديلويت بأنه وفقاً لبيانات المسح التي أجرتها، فإن معظم المستهلكين يرفضون استخدام أجهزة القياس عن بعد بسبب المخاوف المتعلقة بالخصوصية وعدم الثقة في الشركات التي تريد مراقبة سلوكهم. ووفقاً لنصائح المستشارين، يمكن التغلب على هذا التردد من خلال تقديم توفير في التكاليف "كبير بما يكفي" لجعل الناس على استعداد "للتنازل [الخصوصية] مقابل ميزة أخرى، على الرغم من "المخاوف المستمرة....". وإذا لم تأت هذه الحوافز ثمارها، تُنصح شركات التأمين بتقديم مراقبة السلوك باعتبارها "ممتعة" و"تفاعلية" و"تنافسية" و"مبهجة"، وتقديم مكافأة للسائقين على التحسينات في سجلهم الماضي و"تنسيبهم إلى مجموعة حاملي وثائق التأمين الأوسع".⁽⁵⁷²⁾ في هذا النهج، المعروف باسم "المشاركة لزيادة التفاعل" (gamification)، من الممكن جعل السائقين يشاركون في "مسابقات تعتمد على الأداء" وفي "تحديات تعتمد على الحوافز".⁽⁵⁷³⁾ إذا فشلت الحلول السابقة كلها، تُنصح شركات التأمين بإثارة شعور بالخطمية والعجز لدى عملائها. إذ تنصح ديلويت

(570) جواو ليما، "تنطّل شركات التأمين إلى ما هو أبعد من السيارات المتصلة بالإنترنت لتحقيق طفرة أعمال مدفوعة بالأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، مجلة كومبيوتر بيزنس ريفيو، 9 ديسمبر/ كانون الأول 2015.

(571) سام رامجي، "نظرة إلى ما وراء ضجّة الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت: إليكم ما يخبئه لنا المستقبل"، فينشر بيت، 28 مارس 2014.

(572) "التغلب على عقبات السرعة على الطريق عن طريق الاتصالات عن بعد".

(573) كورين نات، "فكر خارج الصندوق - حفز السائقين من خلال اللعب"، سيريون، 11 أغسطس 2015؛ "نظائر ثلاثية"، 2017.

الشركات بالتركيز على "التقنيات الأخرى العديدة المتاحة بالفعل لمراقبة القيادة"، وبأن "قدرات المراقبة 'و/أو' تحديد الموقع الجغرافي المعززة جزءاً لا يتجزأ من علمنا الحالي، سواء أكان للأفضل أم الأسوأ".⁽⁵⁷⁴⁾

يقدم توقيع عقد التأمين السلوكي، لشركات التأمين على السيارات، وفورات في التكاليف وزيادة الكفاءة، لكنه ليس الهدف النهائي لصناعة التأمين التي تتخذ طابعاً جديداً. يُعاد توجيه التحليلات، التي تنتج الإعلانات المستهدفة في العالم المتصل الإنترنت، إلى العالم الحقيقي، مما يؤسس لأسواق مستقبلية سلوكية جديدة تتاجر بالتنبؤات بسلوك العملاء. هنا يتركز الدافع الحقيقي وراء عائدات المراقبة. على سبيل المثال، ينصح أحد المدراء التنفيذيين في شركة "كوفيسنت" (Covisint)، وهي شركة تقدم خدمات الحوسبة السحابية، العملاء الذين يهدفون إلى "الاستفادة" من خدمات أجهزة القياس عن بعد في مجال السيارات، بالانتقال إلى ما هو أبعد من الإعلانات المستهدفة، إلى "التطبيقات المستهدفة". هذه ليست إعلانات على الشاشة، بل تجارب واقعية تشكلها القدرات ذاتها التي تتمتع بها الإعلانات المستهدفة، ومصممة لإغرائك بمواقع حقيقية من أجل تحقيق ربح للآخرين. وهذا يعني بيع بيانات السائقين إلى طرف ثالث سيعرف موقعك، ويعرف وجهتك، وماذا تريد: "يعرف الطرف الثالث المطاعم التي تحبها لأنك تقود سيارتك إلى هناك، وبالتالي يمكنهم التوصية بالمطاعم أثناء قيادتك، والمطاعم ستدفع مقابل ذلك....".⁽⁵⁷⁵⁾

يفهم الفائض السلوكي على أنه المادة الخام للمنتجات التي تؤسس "للتسويق المشترك" مع خدمات أخرى مثل "القطر، وإصلاح السيارات، وغسيل السيارات، والمطاعم، ومنافذ البيع بالتجزئة...".⁽⁵⁷⁶⁾ ويقدم المستشارون في شركة ماكينزي توصية مماثلة، إذ ينصحون شركات التأمين بأن "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" يمكنها من التوسع في "مجالات جديدة تماماً" مثل "أسواق البيانات".

(574) "التغلب على عقبات السرعة على الطريق عن طريق الاتصالات عن بعد".

(575) انظر بايرون بوب، "يدرس الخبراء مخاطر أنظمة القياس عن بعد للسيارات وإمكانياتها"، مجلة واردز أوتو، 20 يونيو/حزيران 2013.

(576) "انجازات التحليلات لعام 2016، التطور التالي"، ديلويت، 2016.

وتقول شركة ديلويت إن من الممكن "تحويل الفائض في الرعاية الصحية إلى أموال" من خلال توفير "الإحالات ذات الصلة". وتنصح الشركة عملاءها، ولا سيما أولئك الذين لا يُرجَّح وصولهم إلى مستوى واسع في مجال القياس عن بعد، بإقامة شراكات مع "لاعبين رقميين".⁽⁵⁷⁷⁾ ويُعدّ هذا النموذج صفقة أبرمت عام 2016 بين شركة "آي بي إم" وشركة "جنرال موتورز"، والتي أعلنت عن إنشاء منصة "أون ستارغو" (OnStar Go)، وهي "أول منصة للتنقل المعرفي" في عالم السيارات. وأطلقت شركتا "ديل" ومايكروسوفت "مسرّعات تأمين الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت. توفر شركة "ديل" لشركات التأمين الأجهزة والبرامج والتحليلات والخدمات "للتنبؤ بالمخاطر بشكل أكثر دقة واتخاذ التدابير الوقائية"، كما ارتبطت شركة مايكروسوفت مع شركة "أميريكان فاميلي إنشورنس" (American Family Insurance) لتطوير الشركات الناشئة التي تركز على أتمتة المنزل.⁽⁵⁷⁸⁾

كانت شركات البيانات سابقاً هي "الموردة" الوحيدة، لكن من المرجح أن تصبح شركات السيارات موردة لشركات البيانات العملاقة. ويعترف الرئيس التنفيذي لشركة دايملر قائلاً: "تحاول غوغل مرافقة الناس على مدار اليوم لتوليد البيانات، ثم استخدام تلك البيانات لتحقيق مكاسب اقتصادية. ويبدو في هذه المرحلة أن الصراع مع شركة غوغل مُبرمجٌ مسبقاً".⁽⁵⁷⁹⁾ تتنافس غوغل وأمازون بالفعل على لوحة القيادة في سيارتك، حيث تتحكّم أنظمتها بجميع الاتصالات والتطبيقات. ومن هنا، ثمة خطوة قصيرة نحو القياس عن بُعد، والبيانات ذات الصلة. وقد قدّمت شركة غوغل لمطوّري التطبيقات "نظام معرفة الموقع الجغرافي القابل للتطوير، والمستند إلى السحابة" عبر موقع خرائط غوغل. وفي عام 2016، أعلنت غوغل فرنسا عن

(577) "تحتاج شركات التأمين إلى الاستفادة من الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت؛" "التعامل مع التحديات والفرص في الخدمات المالية"، ديلويت توش، 2015.

(578) "أطلقت خدمات ديل مُسرّع تأمين جديد للأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت"، ديل، 17 نوفمبر 2015؛ "أطلقت مايكروسوفت وشركة التأمين العائلي الأمريكية مُسرّعاً للشركات الناشئة يركز على أتمتة المنزل"، مركز أخبار مايكروسوفت، 17 يونيو 2014.

(579) غابي نيلسون، "من يملك لوحة القيادة؟ أبل، غوغل أم شركات صناعة السيارات؟"، مجلة أدفرتايزنغ إيج، 15 ديسمبر 2014.

اهتمامها بالشراكة مع شركات التأمين "لتطوير حزم منتجات تجمع التكنولوجيا والأجهزة مع التأمين". ووجد تقرير صادر في العام نفسه، عن شركة "كاب جيميني الاستشارية" أن 40٪ من شركات التأمين ترى في غوغل "منافسًا وتهديدًا مُحتملًا بسبب علامتها التجارية القوية، وقدرتها على إدارة بيانات العملاء". (580)

6- تنفيذ عقد غير مبرم

تُعلمنا هذه الأمثلة المأخوذة من عالم التأمين على السيارات دروسًا استثنائية. يتم إقناع السائقين أو حثهم أو تحفيزهم أو إجبارهم على قبول صفقة مقايضة تربط التسعير بتوسيع بنية الاستخراج/ التنفيذ في العالم الحقيقي، هادفة إلى مزيد من التدفقات السلوكية (اقتصاديات النطاق). وتُعالج البيانات السلوكية المُستمدّة من خبرتهم، وتتدفق النتائج في اتجاهين. **أولاً**، تعود إلى السائقين، وتنفذ إجراءات لمقاطعة السلوك وتشكيله من أجل تعزيز اليقين بالتنبؤات (اقتصاديات العمل)، وبالتالي الربحية. **ثانيًا**، تتدفق منتجات التنبؤ التي ترتب سلوك السائق وتصنفه إلى أسواق مستقبلية سلوكية مشكّلة حديثًا، حيث يراهن طرف ثالث على ما سيفعله السائقون الآن، وقريبًا، وفي وقت لاحق: هل سيحافظ على تصنيف أمان مرتفع؟ هل ستلتزم السائقة بقواعدنا؟ هل سيقود السائق كالفتيات؟ ثم تُترجم هذه الرهانات إلى تسعير ومحفّزات وأنظمة مراقبة وامثال. في كلتا العمليتين، يُعاد استخدام الفائض المستمد من تجربة السائق باعتباره وسيلة لتشكيل تجربة السائق وإخضاعها من أجل ضمان النتائج. ووفقًا لماكاي، يحدث هذا كله خارج نطاق وعي السائق الذي لا يزال يعتقد أنه حرّ.

تؤكد تصريحات غوغل تلك الإجراءات كلها. وكما أوضح فاريان: "بما أن المعاملات كلها أصبحت تُجرى حاسوبيًا، يُمكننا نحن ملاحظة سلوك لم يكن بالإمكان ملاحظته سابقًا، وكتابة عقود بناءً عليه. وهذا يتيح إمكانية إجراء معاملات

تشير كلمة "يمكننا نحن" في قاموس فاربان إلى أولئك الذين يتمتعون بامتياز الوصول إلى النصّ الظلي الذي تتدفّق إليه البيانات السلوكية. وسلوكنا، الذي لم يكن بالإمكان ملاحظته سابقًا، أصبح معلّنًا بأنه سلوك مجاني يمكنهم أخذه، وأنه يمتلكونه، وأنهم يقرّرون كيفية استخدامه والاستفادة منه. وهذا يتضمّن إنتاج "أشكال تعاقدية جديدة" تجربنا على طرق ما كانت ممكنة لولا تصريحات رأسمالية المراقبة الأصلية عن نزع الملكية.

لقد أدرك فاربان أن المجالات الفرعية، لأدوات القياس عن بعد الخاصة بالسيارات، تُجسّد هذه الحلول الاقتصادية الجديدة عندما قال: "أصبح من السهل في الوقت الحاضر توجيه تعليمات لنظام مراقبة المركبات بمنع تشغيل السيارة، والإشارة إلى الموقع الذي يُمكن استرجاعها منه". (582) يا للعجب! لكن انتظر. "من السهل لمن؟ إنه يعني طبعًا، من السهل لـ "نحن" الذين يلاحظون سلوكنا الذي لم يكن قابلاً للملاحظة قبل ظهور رأسمالية المراقبة، وينفّذون أفعالاً لم تكن ممكنة قبل رأسمالية المراقبة. إن تعابير فاربان الهادئة البسيطة هي بمثابة تهويدة تجعل ملاحظاته تبدو عادية للغاية، لدرجة أنها لا تستحقّ أي تعليق. لكن ماذا سيحدث للسائق في سيناريو فاربان؟ ماذا لو كان هناك طفل في السيارة؟ أو عاصفة ثلجية؟ أو قطار يريد السائق اللحاق به؟ أو حاضنة أطفال في طريقها للعمل؟ أو أمّ على جهاز الإنعاش في المستشفى لا تزال على بعد أميال؟ أو ابنٌ ينتظر من يقلّه إلى المدرسة؟

لم يمضِ وقت طويل حتى أصبحت تصريحات فاربان الركيكة بمثابة كوابيس. توقع عالم المستقبل العقلاني المعجزة "هيرمان كاهن"، في كتابه الصادر عام 1967 بعنوان: عام 2000، الكثير من القدرات التي ينسبها فاربان الآن إلى بنية الاستخراج/ التنفيذ الجديدة. (583) لم يكن "كاهن" شخصًا خجولًا. ويُشاعُّ أنه كان نموذجًا

(581) فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، 30 (الخط المائل يعود لي).

(582) فاربان.

(583) هرمان كاهن وأنتوني جي. وينر، عام 2000 (نيويورك: ماكميلان، 1967).

للشخصية الرئيسة في فيلم المخرج ستانلي كوبريك بعنوان: دكتور سترينجلوف، وكان معروفاً بجذاله الدائم بأن الحرب النووية "يمكن الفوز بها" و"يمكن أن تكون النجاة منها صعبة". ومع ذلك، كان كاهن هو من تنبأ بابتكارات نظام مثل نظام فاريان لمراقبة المركبات، ووصفها بأنها كابوس القرن العشرين. ومن بين العديد من أفكاره الموجهة نحو التكنولوجيا، تنبأ بأنظمة حاسوب آلية تتعقب تحركات المركبات كلها، وتستمتع إلى المحادثات وتسجلها بكل الإمكانات المتاحة للمسح والبحث عالي السرعة. لقد تخيل أنظمة حاسوب قادرة على اكتشاف السلوك الفردي والاستجابة له - صوت مرتفع، أو نبرة تهديد: "قد تكون مثل هذه الحاسوبات قادرة أيضاً على تطبيق قدر كبير من المنطق الاستدلالي من تلقاء نفسها - قد تصبح أشبه بـ "شارلوك هولمز" برمجي يضع الفرضيات، ويحقق في الخيوط بطريقة مستقلة أو ذاتية التحفيز إلى حد ما ...".⁽⁵⁸⁴⁾ واستنتج أن أي شخص يتمتع بهذا النوع من المعرفة هو مثل "فاوست"، "لا أخلاقي أكثر من كونه أخلاقياً.... غير مبالٍ بمصير أولئك الذين يقفون في طريقه بدل أن يكون وحشياً".⁽⁵⁸⁵⁾

لقد استولى المراجعون المعاصرون لكتاب كاهن بثبات على "سيناريوهات الكابوس" القائمة لموضوع المراقبة المبرمجة، وأشكال التحكم الشبيهة بالخيال العلمي، والتي افترضوا أنها "ستكون موضع خوف واستياء نشط من قبل الكثيرين".⁽⁵⁸⁶⁾ وعلى الرغم من مجموعة السيناريوهات الواسعة التي قدمها كاهن في كتابه عن عام 2000 البعيد، فقد نظر الجمهور إلى رحلة كاهن إلى "ما لا يمكن تصوّره" باعتبارها وسيلة للاستعداد "لأسوأ نتيجة ممكنة" في "كابوس مربع من الضوابط الاجتماعية".⁽⁵⁸⁷⁾ لكن يتم الآن تقديم الكابوس نفسه في صورة تقرير تقدّمي متحمّس حول أحدث انتصارات رأسالية المراقبة. ويُقدّم تحديث فاريان دون أية

(584) كاهن ووينر، عام 2000، 97-98.

(585) كاهن ووينر، 410-11.

(586) بول تي. ديفيد وويليام ر. إيفالد، "دراسة المستقبل"، مراجعة الإدارة العامة 28، العدد 2 (1968): 187-93.

(587) نيل بي. هيرلي، "المستقبل وفاوست قصير النظر"، مراجعة السياسة 30، العدد 4 (1968): 521-523.

حساسية ذاتية، أو تلميح إلى وجود خلاف، بدل أن يُقدّم بنوع من الدهشة والاشمئزاز اللتين تم التنبؤ بهما قبل عقود. كيف اتخذ ذلك الكابوس تلك الهيئة الاعتيادية؟ أين شعورنا بالدهشة والغضب؟

تناول عالم السياسة لانجتون وينر هذه المسألة في كتابه الرائد بعنوان: *التكنولوجيا المستقلة* (Autonomous Technology)، المنشور عام 1977. وماذا كانت إجابته؟ يقول: "ما نفتقده هو معرفة موقفنا ووجهتنا". وقد وصف وينر بدقة الطرق التي تُربكُ بها تجربتنا مع "الأشياء التكنولوجية رؤيتنا وتوقعاتنا وقدرتنا على إصدار أحكام ذكية. إن الفئات والحجج والاستنتاجات والاختيارات التي كانت واضحة تمامًا في الأوقات السابقة لم تعد واضحة بعد الآن". (588)

لذا دعونا نحدد موقفنا واتجاهنا. إن ما يحتفي به فاريان هنا ليس شكلًا جديدًا من أشكال صياغة العقود، بل الحل النهائي لعدم اليقين الدائم الذي يُعتبر سبب وجود "العقد" كوسيلة "للطلب الخاص". يُعتبر استخدام كلمة "عقد" في صياغة فاريان مثالًا واضحًا على ظاهرة "العربة بلا حصان" غير المسبوقة. إن ابتكار فاريان غير مسبوق، ولا يمكن فهمه باعتباره نوعًا آخر من العقود. إنه في الواقع إلغاء العقد؛ ومن الأفضل فهم هذا الابتكار باعتباره عدم إبرام عقد.

إن عدم إبرام العقد هو سمة من سمات التجمّع الأكبر الذي يشكّل وسيلة لتعديل السلوك، وهو بالتالي شكل أساسي من أشكال رأسمالية المراقبة. إنه يساهم في اقتصاديات العمل عبر الاستفادة من الفائض السلوكي الخاص لاستباق البدائل المتاحة للعمل ومنعها، وبالتالي استبدال حتمية العمليات الآلية المبرمجة بعدم تحديد العمليات الاجتماعية. وهذا ليس أتمتة للمجتمع، كما قد يظن البعض، بل هو استبدال عمل آلي تمليه الضرورات الاقتصادية بالمجتمع.

إن إلغاء إبرام العقد ليس مساحة للعلاقات التعاقدية بل هو تنفيذ أحادي الجانب

(588) لانغدون وينر، التكنولوجيا المستقلة: التقنيات الخارجة عن السيطرة كموضوع في الفكر السياسي (كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1978)، 7-8.

يجعل تلك العلاقات غير ضرورية. ويؤدي هذا الإلغاء إلى نزع الصفة الاجتماعية عن العقد، وتصنيع اليقين من خلال وضع إجراءات آلية مكان الوعود والحوار والمعنى المشترك وحلّ المشكلات والنزاعات والثقة: تعبيرات التضامن والوكالة الإنسانية التي تأسست تدريجيًا في مفهوم "العقد" على مدى آلاف السنين. يتجاوز إلغاء إبرام العقد هذه العمل الاجتماعي كله لصالح الإجبار، وهو يفعل ذلك من أجل منتجات تنبؤ مربحة تقترب مما هو مُلاحظ، وبالتالي تضمن النتائج.

أصبح استبدال العمل الآلي بالعمل الاجتماعي ممكنًا بفضل نجاح تصريحات غوغل، والطريق الذي مهّده لهيمنه رأسمالي المراقبة على تقسيم التعليم. يمكن لشركة غوغل، من خلال اتخاذها لوضعية المتفوق أو المفيد، ملاحظة ما كان غير قابل للملاحظة سابقًا، ومعرفة ما كان غير قابل للمعرفة سابقًا. لذلك تستطيع الشركة أن تفعل ما كان لا يمكن فعله سابقًا: تجاوز العلاقات الاجتماعية لصالح العمليات الآلية التي تفرض سلوكيات تعزّز الأهداف التجارية. عندما نحتفي بإلغاء إبرام العقود، كما يفعل فاريان وآخرون، فإننا نحتفي بالتفاوت في المعرفة والقوة الذي يؤدي إلى هذه الاحتمالات الجديدة. إن عدم إبرام العقود هو علامة إرشادية تذكّرنا باتجاهاتنا بينما نتابع الأقسام التالية من هذا الفصل نحو صورة أوضح لطموحات رأسمالية المراقبة المتنامية في ضم "الواقع" إلى مملكتها من الخبرة الإنسانية المحتلّة.

7- الحتمية

من الصعب أن نحافظ على موقفك ووجهتك عندما يفقد الجميع من حولك موقفهم ووجهتهم. وقول باراديسو: "إن التحوّل نحو الحوسبة الشاملة، عندما تكون أجهزة الاستشعار في كل مكان"، لن يكون "تدريجيًا" بل "تحوّلًا ثوريًا يشبه إلى حد كبير وصول شبكة الويب العالمية".⁽⁵⁸⁹⁾ إن "التحوّل المرحلي" ذاته، الذي يفهمه مهندسوه باعتباره الترياق العالمي لعدم اليقين، متوقّع بيقين مطلق. وباراديسو ليس الوحيد هنا. بل على النقيض تمامًا، ينتشر خطاب الحتمية في كل مكان، لدرجة يصبح

(589) دوبلون وباراديسو، "الإدراك الحسي الإضافي"، 37-44.

بالإمكان اعتباره، في مجتمع التكنولوجيا، أيديولوجية حتمية مكتملة.

اعترف منذ فترة طويلة بالشعور بيقين لا يقبل الجدل، ويملاً رؤية باراديسو، باعتباره سمة أساسية من سمات الطوباوية. كتب فرانك وفريزي مانويل، في تاريخهما الحاسم للفكر الطوباوي، أن "الطوباوية التنبؤية أصبحت، منذ نهاية القرن الثامن عشر، شكلاً رئيساً من أشكال الفكر الخيالي، وقد سبقت بعض تقنيات التنبؤ العلمية.... إن الطوباوية المعاصرة... تربط الماضي والحاضر والمستقبل معاً كما لو كان الأمر مقدراً". وتبدو الدولة التي يصوّرونها وكأنها قدرٌ تاريخي محتوم، تعكس بقايا إيمانٍ بفكرة خلاصية أو مستقبل مثالي...." (590).

يعتبر مانويل، إلى جانب العديد من المؤرخين الآخرين، أن الماركسية هي آخر يوتوبيا عظيمة حديثة. (591) ثمة مقاطع كثيرة في مؤلفات ماركس تنقل حتميته. يقول ماركس في القسم الأول من البيان الشيوعي، الصادر عام 1848، "إن البرجوازية تُنتج أول ما تُنتج حفاري قبرها، فسقوطها وانتصار البروليتاريا أمران حتميَان على حد سواء". (592).

قبل ظهور اليوتوبيا الحديثة، كان هذا الأسلوب يتألف إلى حد كبير من السرديات الخيالية التي اكتُشِفَ فيها جيوب معزولة من الكمال البشري في سلاسل الجبال الغريبة، أو الوديان المخفية، أو الجزر البعيدة. وتنحرف اليوتوبيات الحديثة، مثل

(590) فرانك إي. مانويل وفريزي بي. مانويل، الفكر الطوباوي في العالم الغربي (كامبريدج، ماساتشوستس: بيلكناب، 1979)، 6.

(591) كريشان كومار، اليوتوبيا واليوتوبيا المضادة في العصر الحديث (أكسفورد: بلاكويل، 1991)؛ أندريه والبيكي، الماركسية والقفزة إلى مملكة الحرية: صعود وسقوط اليوتوبيا الشيوعية (ستانفورد، كاليفورنيا: جامعة ستانفورد، 1997)؛ غريغوري كلايس، البحث عن اليوتوبيا: تاريخ فكرة (نيويورك: ثامز أند هدرسون، 2011)؛ رولاند شاير، غريغوري كلايس، وليمان تاور سارجنت، اليوتوبيا: البحث عن المجتمع المثالي في العالم الغربي (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2000)؛ بييري أندرسون، الحجج داخل الماركسية الإنجليزية، الطبعة الثانية (لندن: فيرسو، 1980).

(592) في مقدمة الطبعة الأولى من كتاب ماركس بعنوان: رأس المال، المنشور عام 1867 نجد ما يلي: يؤكد ماركس في هذا المقتبس على أن القوانين الحاكمة للإنتاج الرأسمالي، وليست درجة تطور التناقضات الناتجة عنها، هي التي تقود بشكل حتمي نحو نتائج محددة. فهو يشير إلى أن البلد الأكثر تطوراً صناعياً يعرض للبلد الأقل تطوراً صورة لمستقبله. انظر كارل ماركس وأرنست ماندل، رأس المال، المجلد الأول (نيويورك: بنغوين 1990)، ص 91.

الماركسية، عن تلك القصص الخيالية، حيث تتناول "إصلاح النوع البشري بأكمله" برؤية نظامية عقلانية "تشمل العالم بأسره". ولم يعد الطوباويون المعاصرون راضين عن كونهم مجرد ناسجي أحلام، بل تحوّلوا نحو رؤى شمولية وعالمية، ونبوءات حول "النهاية الحتمية التي يتجه إليها البشر". (593)

ينضمّ الآن المبشّرون بالحوسبة الشاملة إلى ماركس وغيره من الطوباويين المعاصرين في طرح مرحلة جديدة من التاريخ، مثل مرحلة "التحوّل الثوري" لدى باراديسو، حيث يُعاد تجميع المجتمع كله في نموذج جديد فائق. وعلى الرغم من حقيقة أن الحتمية هي نقيض السياسة والتاريخ، يخطف رُسل الجهاز بشكل روتيني الاستعارات التاريخية التي تمنح مزاعمهم طيفاً من الجدّة. يُصوّر صعود الجهاز أحياناً باعتباره تدشين "عصر" أو "حقبة" أو "موجة" أو "مرحلة" أو "مرحلة" جديدة. ويُظهر هذا النوع من التأطير التاريخي عبثية معارضة الحتمية القاطعة للتقدم نحو الانتشار.

إن وادي السيليكون هو محور الحتمية في العالم. يبدو أن هناك اتفاقاً عالمياً بين قادة التكنولوجيا الفائقة، وداخل الأعمال المتخصصة، وبين المحترفين الخبراء، على فكرة أن كل شيء سيكون متصلًا، وقابلًا للمعرفة، وقابلًا للتنفيذ في المستقبل القريب: إن انتشار المعلومات، ونتائج معلومات شاملة، هو أمرٌ مسلّم به.

لن يُدهشنا أن يكون قادة غوغل من أشدّ المؤيدين للحتمية. إذ تجسّد العبارات الأولى من كتاب شميدت وكوهين الصادر عام 2013 بعنوان: *العصر الرقمي الجديد* (The New Digital Age)، هذا التوجّه، حيث قالوا: "قريبًا سيتصل كل شخص على وجه الأرض بالإنترنت. ويستخدم ما يُسمّى 'القوانين التنبؤية' مثل 'قانون مور' و'الفوتونيات'، للإشارة إلى قانون الضرورة الجديد هذا، الذي سيُنتج نموًا هائلًا في الاتصال والقدرة الحاسوبية". (594) ولاحقًا، "تنمو الفائدة الجماعية لمشاركة المعرفة

(593) مانويل ومانويل، الفكر الطوباوي، 4-3.

(594) إريك شميت وغاريد كوهين، العصر الرقمي الجديد: تحويل الأمم والشركات وحياتنا (نيويورك:

فينيتج، 2014)، 5.

والإبداع البشري بمعدّل هائل. وستكون تكنولوجيا المعلومات في المستقبل منتشرة، مثل الكهرباء، في كل مكان. فهذا أمر مفروغ منه". (595) وعندما أثارت تأكيدات الكتاب بعض الانتقادات، واجه المؤلفون منتقديهم في خاتمة للطبعة الورقية بالقول: "لكن التذمّر من الزيادة الحتمية في حجم قطاع التكنولوجيا ونطاقه يشنّننا عن المسألة الحقيقية... الكثير من التغيرات التي نناقشها أمر حتمي. إنها قادمة".

على الرغم من انتشار الحتمية في وادي السيليكون، وفي الثقافة الأوسع لعلماء البيانات ومطوّري التكنولوجيا، فنادرًا ما تتم مناقشتها أو تقييمها بشكل نقدي. ويُعتَبَر مفهوم باراديسو عن "المعرفة الرقمية الشاملة" أمرًا مسلّمًا به، مع القليل من المناقشة حول السياسة أو السلطة أو الأسواق أو الحكومات. وكما هو الحال في أغلب الروايات المتعلقة بالجهاز، فإن مسائل الاستقلال الفردي، والمنطق الأخلاقي، والمعايير والقيم الاجتماعية، والخصوصية، وحقوق اتخاذ القرار، والسياسة، والقانون، تأخذ شكل أفكار لاحقة وانحرافات يمكن إصلاحها بالبروتوكولات الصحيحة أو معالجتها بحلول تكنولوجية أكثر تطورًا. إذا تدفّقت المعلومات "مباشرةً إلى أعيننا وآذاننا"، و"كانت حدود الفرد ضبابية للغاية"، فمن يستطيع الوصول إلى تلك المعلومات؟ ماذا لو لم تكن لدي رغبة بوصول حياتي إلى حسّاساتك؟ من يعرف؟ من يقرّر؟ من يقرّر من يقرّر؟ تغرقُ الإجابات على مثل هذه الأمثلة في صخب كل الأشياء التي تُضَاء وتُسجَل وتحسب وتخضع للتحكّم والسيطرة والحكم عليها باستمرار.

أفضل ما يمكن أن يقدمه باراديسو هو اقتراح مفاده أن "القانون يمكن أن يمنح الشخص ملكية أو سيطرة على البيانات التي تنشأ في محيطه؛ ويمكن للشخص بعد ذلك اختيار تشفير تلك البيانات، أو تقييد دخولها إلى الشبكة". (596) تحيّل باراديسو مجتمعةً تقع فيه، على عاتق كل فرد، مسؤولية حماية نفسه من أنظمة الحوسبة الحسّية الشاملة التي تمتلك المعرفة كلها من الأجهزة الحديثة. يبدو الأمر وكأنه وصفة لنوع جديد من الجنون وليس وصفة إلى فردوس. ومع ذلك، هذا هو بالتحديد العالم الذي

(595) شميدت وكوهين، العصر الرقمي الجديد، 253-254.

(596) دوبلون وباراديسو، "الإدراك الحسي الإضافي".

يُبنى الآن من حولنا، ويبدو هذا الجنون بمثابة سمة جيدة من سمات الخطة.

بين عامي 2012 و2015، أُجريت مقابلات مع 52 عالم بيانات ومتخصصًا في “الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت”. جاؤوا من 19 شركة مختلفة، بخبرة مجمعة تمتد لـ 586 عامًا في شركات التكنولوجيا الفائقة والشركات الناشئة، ولا سيما في وادي السيليكون. وتحدثت معهم عن بروز خطاب الحتمية بين مُروّجي الأجهزة الجديدة، وطرحت السؤال نفسه على كلّ منهم: لماذا يقول كثير من الناس إن الحوسبة الشاملة حتمية؟ وكان التوافق بين إجاباتهم لافتًا للنظر. ومع أنه لم يستخدموا لغة رأسمالية المراقبة، اعتبر كل من أُجريت معه مقابلة خطاب الحتمية بمثابة حصان طروادة للضرورات الاقتصادية القوية، وأعربوا جميعًا عن أسفهم لعدم وجود أية مناقشة نقدية لهذه الافتراضات.

وفقًا لما أخبرني به مدير تسويق في إحدى شركات وادي السيليكون التي تباع برامج ربط الأجهزة الذكية: “يوجد هناك كل تلك الأملاك والعقارات الغبية، وعلمنا أن نحولها إلى إيرادات. تعتمد الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت على الدفع لا على الجذب. ولا يشعر معظم المستهلكين بالحاجة إلى هذه الأجهزة. يمكنك وصفها بأنها ‘أسية’ و‘حتمية’ قدر ما تشائين. والخلاصة أن وادي السيليكون قرّر أن هذا يجب أن يكون الحدث الكبير القادم حتى تتمكّن الشركات هنا من النمو”.

تحدثت مع مهندس كبير من شركة تقنية كبيرة تُوظف استشارات ضخمة في “الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت”. وكان ردّه:

“تخيّل أن لديك مطرقة. هذا هو التعلّم الآلي. لقد ساعدتك على تسلّق جبل شاهق والوصول إلى القمة. تلك هي هيمنة التعلّم الآلي على البيانات عبر الإنترنت. تجديد على قمة الجبل كومة مسامير أرخص من أي شيء كان بإمكانك تخيّل سابقًا. هذه هي تقنية الاستشعار الذكي الجديدة. يظهر أمامك مشهد لغابات بكرٍ على مدّ النظر. هذا هو العالم الغبي بأكمله. ثم تتعلّمين أنه كلما غرست مسارًا في لوح ما بمطرقة التعلّم الآلي، يمكنك استخلاص قيمة من ذلك اللوح الذي كان خاملاً سابقًا. هذا هو

استثمار البيانات. ماذا تفعلين؟ تبدئين بالطرق بجنون ولا تتوقفين أبدًا، إلا إذا أجبرك أحدهم على التوقف. لكن لا أحد هنا ليُجبرنا على التوقف. لذلك أصبحت "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت كلها" أمرًا حتميًا".

صاغ أحد كبار مهندسي الأنظمة هذا الأمر بأوضح العبارات: "إن الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت أمر حتمي، كما كان الوصول إلى المحيط الهادئ أمرًا حتميًا. إنه قدرٌ مُقدَّر. ثمانية وتسعون بالمائة من الأشياء في العالم غير مُترابطة. لذا سنربطها معًا. ربما تكون درجة حرارة رطوبة الأرض، وقد يكون كبدك. هذه هي "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت". الخطوة التالية هي ما نفعله بالبيانات. سنصورها، ونفهمها، ونستثمرها. هذا هو مفهومنا عن "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت".

8- صناعة بشرية

تقدّم دقات الطبول المتواصلة لرسائل الحتمية الجهاز الجديد المنتشر في كل مكان باعتباره نتاجًا لقوى تكنولوجية تعمل خارج نطاق الوكالة البشرية، وخيارات المجتمعات، وهي حركة لا هودة فيها تنشأ خارج التاريخ، وتمارس زخمًا يدفع بطريقة غامضة نحو كمال الأنواع والكوكب. ووظّفت صورة التكنولوجيا باعتبارها قوة مستقلة ذات أفعال ونتائج لا يمكن تجنبها عبر القرون لمحبوصات السلطة، وإعفائها من المسؤولية. الوحش هو من فعل ذلك، وليس فيكتور فرانكنشتاين. ومع ذلك، سوار الكاحل لا يراقب السجين؛ بل نظام العدالة الجنائية هو من يفعل ذلك.

إن كل مبدأ من مبادئ الحتمية يحمل فيروسًا مسلحًا من العدمية الأخلاقية المبرمجة لاستهداف الوكالة البرية، وحذف المقاومة والإبداع من نص الإمكانية البشرية. إن خطاب الحتمية عبارة عن خدعة مأكرة مصممة لجعلنا عاجزين وسليين في مواجهة قوى لا هودة فيها، والتي يجب أن تكون دائمًا غير مبالية بالإنسان فقط. هذا هو عالم الواجهة التي تتخذ طابعًا ربوبيًا، حيث تعمل التقنيات بإرادتها، وتحمي السلطة بقوة من التحدي.

لم يُعبّر أحد عن هذا الأمر بذكاء واقتضاب أكثر من جون شتاينبك في الفصول الافتتاحية لكتابه الرائع بعنوان: "عناقيد الغضب" (The Grapes of Wrath)، الذي يصف المزارعين الذين طُردوا من منازلهم في أوكلاهوما أثناء الكساد الأعظم ثم توجهوا غرباً إلى كاليفورنيا. أُجبرت العائلات على ترك الأرض التي زرعوها لأجيال. دافعوا عن قضيتهم بحزن أمام موظفي البنك الذين أرسلوا لإقناعهم بحقيقة عجزهم. لكن ردّ العملاء كان: "البنك شيء آخر غير البشر. يحدث أن يكره كل رجل في البنك ما يفعله البنك، ومع ذلك يفعله البنك". أنا أقول لكم الآن إن البنك شيء مختلف عن البشر، إنه الوحش. وحش صنعه رجال، لكنهم لا يستطيعون السيطرة عليه. (597)

يُعتبر موضوع الاستقلال التكنولوجي المفترض موضوعاً محترماً بين علماء التكنولوجيا. يثبت لانغدون وينر مرة أخرى أنه مُرشّدٌ جدير بالاهتمام عندما يذكرنا بأن القبول غير المشروط بالتكنولوجيا أصبح سمة من سمات الحياة الحديثة: "قُبِلَت التغييرات والاضطرابات التي تسببها التكنولوجيا المتطورة بشكل متكرر في الحياة الحديثة بوصفها أمراً مفروغاً منه، أو لا مفرّ منه ببساطة، لأنه ما من أحد كلف نفسه عناء السؤال عما إذا كانت هناك إمكانيات أخرى". (598)

يلاحظ وينر أننا سمحنا لأنفسنا بأن نصبح "ملتزمين" بنمط من "الانحراف" التكنولوجي، يُعرّف بأنه "عواقب متراكمة غير متوقعة". نحن نقبل فكرة أنه لا ينبغي إعاقة التكنولوجيا إذا أردنا للمجتمع أن يزدهر، وبهذه الطريقة نستسلم للحتمية التكنولوجية. يقول وينر إن التفكير العقلاني بالقيم الاجتماعية يُعتبر "رجعياً"، وليس التذكرة التي تمنحها التكنولوجيا العلمية للحضارة.... وحتى يومنا هذا، إن أية اقتراحات لتقييد التدفق المتقدّم للابتكار التكنولوجي بأي شكل من الأشكال.... تنتهك أحد المحظورات الأساسية... وبدلاً من ذلك، نقبل التغيير، ثم ننظر لاحقاً فيما

(597) جون شتاينبك، عناقيد الغضب (نيويورك: فايكينغ، 1939).

(598) وينر، التكنولوجيا المستقلة، 6.

فعلنا بأنفسنا كموضوع فضول.⁽⁵⁹⁹⁾ وأنا أضيف إلى "فضول" وينر موضوعاً آخر: الندم.

يفترضُ زعماء رأسمالية المراقبة أننا سنستسلم للخطأ الطبيعي كما فعل مزارعو شتاينبك. وبما أن غوغل ناجحة - ولأن رأسمالية المراقبة ناجحة - فمن الواضح أن قواعدنا صحيحة وجيدة. وكما هو الحال مع وكلاء البنوك، تريد غوغل منا أن نقبل أن قواعدنا تعكس ببساطة متطلبات العمليات المستقلة، وهو أمر لا يستطيع الناس التحكّم فيه. لكن فهمنا للمنطق الداخلي لرأسمالية المراقبة يوحى بنقيض ذلك. رجال ونساء صنعوا ذلك، وبإمكانهم التحكم فيه. لكنهم ببساطة اختاروا عدم القيام بذلك.

تكرّس الحتمية الجهاز الموجود في كل مكان باعتباره تقدّمًا، لكنها تخفي السياسة الواقعية لرأسمالية المراقبة التي تعمل خلف الكواليس. ونحن نعلم أن بالإمكان وجود مسارات بديلة لرأسمالية معلوماتية قوية تنتج حلولاً حقيقية لحداثة ثالثة. لقد رأينا كيف اكتُشِفَت رأسمالية المراقبة وصُقِلَت في التاريخ، وصُنِعَت يدويًا على يد رجال ونساء لخدمة مصالح رأس المال غير الصبور. وهذا هو المنطق ذاته الذي يطالب الآن بانتشارها في كل مكان، وهو مستعدّ للسيطرة على التطوّرات التقنية من أجل تحقيق ضرورتها ونموّها. وتعمل الحتمية في خدمة هذه الضرورات لأنها تصرف الانتباه عن طموحات النظام الاقتصادي الصاعد، والمخاوف التنافسية التي تدفع مشروع المراقبة نحو اليقين، وبالتالي تفرض مطالباتها المتزايدة الشرهة على سلوكنا بشكل حتمي.

تستبعدُ الحتمية الاختيار والمشاركة الطوعية، ولا تترك مجالاً للإرادة البشرية بوصفها صانعة للمستقبل. وهذا يثير تساؤلات: متى تتحوّل مطالبة الحتمية بالاستخراج والتنفيذ الشامل إلى إساءة؟ وهل ستؤدّي التصريحات الطوباوية للحتمية إلى استدعاء أشكال إجبار جديدة مصمّمة لإسكات الشعوب القلقة غير القادرة على تهدئة رغبتها في مستقبل من اختيارها؟

(599) لانغتون وينر، "هل للمصنوعات اليدوية سياسية؟" ديدالوس 109، العدد 1 (1980): 99.

عندما تكون هناك تصريحات غوغل؛ وهيمنة رأسمالية المراقبة على تقسيم التعلّم في المجتمع وقوانين حركته؛ والهندسة الشاملة للاستخراج والتنفيذ؛ واختراق ماكاي للمناطق التي يصعب الوصول إليها أثناء مراقبة الحيوانات غير المقيّدة بأساليب تُراوغ وعيها؛ وإلغاء إبرام العقد وتنحية المجتمع؛ والبيئة الحسيّة الشاملة لدى باراديسو؛ والبيانات المظلمة؛ ومبشّري الحتمية: ثمة موقع واحد تجتمع فيه هذه العناصر معًا، وتحوّل مساحة عامة مشتركة مبنية للمشاركة الإنسانية إلى "طبق تجارب" لأعمال الواقع الخاص برأسمالية المراقبة، يكون هذا الموقع هو المدينة.

لدى شركة سيسكو 120 "مدينة ذكية" على مستوى العالم، وقد تبنت بعضها منصّة سيسكو كينيتيك، وهي، كما يشرح "جهانجير محمد"، نائب رئيس الشركة والمدير العام للأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، في منشور على مدونته، "عبارة عن منصّة قائمة على السحابة، تساعد العملاء على استخراج البيانات وبرمجتها ونقلها من الأدوات المتصلة إلى تطبيقات "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" لتحقيق نتائج أفضل... توفر منصّة سيسكو كينيتيك البيانات الصحيحة للتطبيقات الصحيحة في الوقت المناسب... مع تنفيذ سياسات لفرض قوانين ملكية البيانات والخصوصية والأمان وحتى سيادة البيانات".⁽⁶⁰⁰⁾ لكن كما هو الحال غالبًا، فإن الجهد الجريء لتحويل المساحات الحضريّة المشتركة إلى ما يكافئ مستنقع باراديسو الذي تبلغ مساحته 250 فدّان، بالنسبة إلى رأسمالي المراقبة، يأتي من غوغل التي قدّمت مفهوم "مدينة للربح" وشرّعته. ووفقًا لنصيحة ماكاي وما بشّر به وايزر، سيكون الحاسوب جاهزًا للعمل في كل مكان، ولن يمكن اكتشافه في أي مكان، وسيكون دائمًا خارج حدود الوعي الفردي.

في عام 2015، بعد وقت قصير من إعادة تنظيم شركة غوغل، وتحويلها إلى شركة قابضة تدعى "ألفابيت"، أصبحت شركة "سايدووك لابس" (Sidewalk Labs)

(600) "خريطة التحوّل الرقمي"، سيسكو، 3 أغسطس 2018؛ وأنيل مينون، "الإعلان عن سيسكو كينيتيك للمدن"، مدونات سيسكو، 4 أكتوبر 2017.

إحدى تسع "شركات ثابتة" تحت مظلة "ألفابيت" المؤسسية. وسواء أكانت تسمية الرئيس التنفيذي لشركة "سايدووك"، دان دوكتروف، وهو ممول سابق لصناديق الاستثمار الخاصة، والرئيس التنفيذي لشركة بلومبرغ، ونائب عمدة مدينة نيويورك في إدارة بلومبرغ، بـ "مدينة غوغل" ناجحة أم لا، فقد أثارت الشركة اهتمام الجمهور من خلال إعادة صياغة مكان تجمّعنا المركزي باعتباره عملية تجارية يتم فيها إعادة إحياء الأصول والوظائف العامة على شكل مواد خام مُستغلّة ومخصّصة لسوق جديدة. وتحقق في هذه الرؤية تصوّرات ماكاي وباراديسو تحت رعاية رأسمالية المراقبة في مخطط كبير من العرض والإنتاج والمبيعات المتكاملة عموديًا.

كان أول مشروع عام لشركة "سايدووك لابس" هو تركيب عدة مئات من الأكشاك المزودة بالإنترنت مجانًا في مدينة نيويورك، مدعية محاولة مكافحتها لمشكلة "عدم المساواة الرقمية". وكما رأينا مع خدمة "غوغل ستريت فيو" (Google Street View)، تستطيع الشركة سحب كمية كبيرة من المعلومات القيمة عن الأشخاص من شبكات الإنترنت، حتى لو لم يستخدموا الأكشاك.⁽⁶⁰¹⁾

في عام 2016، أعلنت وزارة النقل الأمريكية عن شراكة مع شركة "سايدووك لابس" "لتوجيه بيانات النقل إلى مسؤولي المدينة". عملت وزارة النقل على جذب المدن إلى مدار غوغل من خلال مسابقة للحصول على مساعدات بقيمة 40 مليون دولار. وكان من المقرر أن يتعاون الفائزون مع شركة "سايدووك لابس" لدمج التكنولوجيا في العمليات البلدية، لكن شركة سايدووك كانت حريصة على العمل مع

(601) "شركة تيتان وشركة كونترول غروب أصبحتا شركة إنترسيكشن"، بي آر نيوزواير، 16 سبتمبر 2015. استحوذت سايدووك على شركة إنترسيكشن لبناء وإدارة الأكشاك. تأسس إنترسيكشن نتيجة اندماج شركة كونترول، وهي شركة تكنولوجيا تركز على المناطق الحضرية، وتيتان، الشركة الإعلامية. تصف إنترسيكشن نفسها بأنها "شركة متخصصة في التجارب الحضرية والتكنولوجيا والإعلام، ستعمل مع المدن لمواجهة التحديات الحديثة وإعادة ابتكار التجربة الحضرية، مما يخلق مدناً مترابطة ومزدهرة وصالحة للعيش. ستستفيد الشركة من القدرات الهندسية والتصميمية الرائدة لمجموعة كونترول، التي تتمتع بخبرة تزيد عن عقد في دمج التقنيات الرقمية مع تجارب المستخدم الواقعية في البيئات الحضرية، بالتعاون مع تيتان، إحدى أكبر شركات الإعلام البلدي وإعلام النقل في البلاد، والرائدة في مجال الإعلانات الرقمية الخارجية."

المُتأهلين للنهائيات من أجل تطوير نظام إدارة المرور الخاص بها، نظام "فلو" (Flow).⁽⁶⁰²⁾ يعتمد نظام "فلو" على خرائط غوغل ومركبات "ستريت فيو" والذكاء الاصطناعي لالتقاط البيانات من السائقين والأماكن العامة وتحليلها.⁽⁶⁰³⁾ وتُنتج هذه التحليلات منتجات تنبؤية توصف بأنها "استنتاجات حول الموقع الذي يأتي منه الأشخاص أو يذهبون إليه"، مما يتيح للمسؤولين "إجراء تجارب افتراضية" وتحسين تدفق حركة المرور.⁽⁶⁰⁴⁾

يفترض دكتوروف وجود مدينة تقودها معرفة رقمية كلية الوجود: "نحن نأخذ كل شيء من بيانات الهواتف الذكية مجهولة الهوية من مليارات الأميال والرحلات وبيانات أجهزة الاستشعار، ونضعها في منصة واحدة".⁽⁶⁰⁵⁾ وتشير شركة "سايدووك" إلى خدماتها التكنولوجية العالية باعتبارها "قوى عظمى جديدة لتوسيع نطاق الوصول والتنقل". إن الخوارزميات المصممة للحفاظ على السلوكيات الحرجة ضمن منطقة عمل محددة من شأنها أن تدير تدفقات البيانات هذه: "لماذا نحتاج إلى هذه القواعد الإنشائية الصارمة للغاية في عالم يمكننا فيه مراقبة أشياء مثل الضوضاء أو الاهتزازات؟" ويقترح دكتوروف بدلاً من ذلك "تقسيم المناطق على أساس الأداء" الذي تديره الأجهزة الموجودة في كل مكان من خلال وسيط الخوارزميات. إن هذه العمليات، مثل أنظمة فاريان لمراقبة المركبات، لا تهتم بأسباب تصرفاتك طالما أنها قادرة على مراقبة سلوكك والتحكم فيه. ووفقاً لدكتوروف، "لا يهمني ما تضعه هنا طالما أنك لا تتجاوز معايير أداء مثل مستويات الضوضاء....". ويقول إن هذا أمر مفضل لأنه يعزز "التدفق الحر للممتلكات... وهو امتداد منطقي... لهذه التقنيات".⁽⁶⁰⁶⁾ لماذا ينبغي أن يكون للمواطن رأي في مجتمعه، وفي العواقب طويلة

(602) كونور دوجيرتي، "تسعى المدن إلى حل أزمة المرور بمساعدة وحدة ألفابت"، نيويورك تايمز، 17 مارس/أذار 2016.

(603) "سايدووك لابس/ فريق - ألفابت"، سايدووك لابس، أكتوبر 2017.

(604) دوغرتي، "المدن التي يتعين فك تشابكها".

(605) انظر دوغرتي.

(606) انظر ديانا بادز، "كيف تحول غوغل المدن إلى مختبرات بحث وتطوير"، كو ديزاين، 22 فبراير 2016.

المدى لكيفية تأثير المباني الشاهقة الفاخرة أو الفنادق أو المباني السكنية التجارية على الإيجارات والشركات المحلية طالما أن الخوارزمية راضية عن عتبات الضوضاء؟

عندما أُعلنَ أن مدينة كولومبوس، في ولاية أوهايو، هي الفائزة بمسابقة وزارة النقل، بدأت المدينة مشروعاً تجريبياً مدته ثلاث سنوات مع شركة سايدووك، وتضمّن ذلك تركيب مئة كشك، والوصول المجاني إلى نظام "فلو". وتصف الوثائق والمراسلات الناتجة عن هذا التعاون، والتي حصلت عليها صحيفة الغارديان في نهاية المطاف، ابتكارات مثل "مواقف السيارات الديناميكية"، و"إنفاذ قوانين مواقف السيارات بشكل محسّن"، و"سوق التنقل المشترك"، والتي تكشف عن نموذج يثير القلق أكثر مما تشير إليه الخطابات. تجمع تدفقات البيانات الخاصة بشركة سايدووك بين الأملاك العامة والخاصة للبيع في أسواق افتراضية ديناميكية في الوقت الحقيقي، وتستخلص أقصى الرسوم من المواطنين وتترك الحكومات البلدية تعتمد على معلومات الملكية الخاصة بشركة سايدووك. على سبيل المثال، تُدمجُ أماكن وقوف السيارات العامة والخاصة في الأسواق عبر الإنترنت وتُوجَرُ "عند الطلب" حيث تتغير تكلفة وقوف السيارات في الوقت الحقيقي، مما يؤدي إلى زيادة دخل مواقف السيارات بشكل كبير. وتعتمد عملية إنفاذ قوانين وقوف السيارات على خوارزميات سايدووك "لحساب الطرق الأكثر ربحية للمسؤولين عن وقوف السيارات"، مما يُكسبُ المدن ملايين الدولارات الإضافية التي تحتاج إليها بشدة، لكنها تصل على حساب مواطنيها.

يتعيّن على المدن استثمار مبالغ كبيرة من الأموال العامة في منصة التكنولوجيا الخاصة بسايدووك، بما في ذلك توجيه الأموال البلدية المخصصة لخدمة الحافلات العامة منخفضة التكلفة إلى "أسواق التنقل" التي تعتمد على شركات مشاركة الركوب الخاصة مثل "أوبر". وتصرّ الشركة على أن المدن "تشارك بيانات النقل العام مع شركات مشاركة الرحلات، مما يسمح لأوبر بتوجيه السيارات إلى محطات الحافلات المزدهمة". ويدمج نظام "فلو" (Flow Transit) المعلومات والدفع لجميع أنواع النقل تقريباً في خرائط غوغل، وتلتزم المدن "بالترقية" إلى نظام الدفع عبر الهاتف

المحمول الخاص بشركة سايدووك "لجميع خدمات النقل ومواقف السيارات الحالية". وكما تتطلب بيانات النقل العام، تصر شركة سايدووك أيضًا على أن تشارك المدن جميع معلومات مواقف السيارات والركاب مع موقع "سايدووك لاب" في الوقت الفعلي.⁽⁶⁰⁷⁾ ولدى الاستفسار من دكتوروف، شدّد على المزج بين الوظائف العامة والمكاسب الخاصة، مؤكّدًا لمستمعيه في كلا الجانبين أن "مهمتنا هي استخدام التكنولوجيا لتغيير المدن... وإحضار التكنولوجيا لحلّ المشاكل الحضرية الكبرى.... ونتوقّع أن نجني أموالًا طائلة من ذلك".⁽⁶⁰⁸⁾

في أبريل/ نيسان عام 2016، اجتمعت مجموعة مختارة من قادة التكنولوجيا والإعلام والتمويل في نادي "يال" في مانهاتن للاستماع إلى محاضرة الرئيس التنفيذي لشركة سايدووك "دان دوكتوروف" بعنوان: "غوغل سيتي: كيف تعمل شركة التكنولوجيا العملاقة على إعادة تصوّر المدن - أسرع مما تُدرك".⁽⁶⁰⁹⁾ وقدّمت تصريحاته تقييمًا غير متحيّز لـ "مدينة غوغل" باعتبارها عملية سوقية تشكلها ضرورة التنبؤ. وكان صريحًا للغاية في التعبير عن نهج "سايدووك لابس" باعتباره ترجمة لعالم غوغل المتصلّ بالإنترنت إلى واقع حياة المدينة:

ما نقوم به في الواقع هو تكرار التجربة الرقمية في الفضاء المادي... من هنا نشأ الاتصال الموجود في كل مكان؛ وقوة الحوسبة المذهلة بما في ذلك الذكاء الاصطناعي والتعلّم الآلي؛ والقدرة على عرض البيانات؛ والاستشعار، بما في ذلك الكاميرات وبيانات الموقع بالإضافة إلى أنواع أخرى من أجهزة الاستشعار المتخصصة....⁽⁶¹⁰⁾

في وقت لاحق من ذلك العام، أعلنت شركة سايدووك عن تعاونها مع ست عشرة مدينة إضافية، مشيرةً إلى أن تحقيق حجم أكبر سيُمكنها من تحسين منتجاتها في نظام

(607) مارك هاريس، "يهدف قسم ألقابت السري إلى إصلاح النقل العام في الولايات المتحدة من خلال تحويل السيطرة إلى غوغل"، الغارديان، 27 يونيو/ حزيران 2016.

(608) غوغل سيتي: كيف يُعيد عملاق التكنولوجيا تصوّر المدن - أسرع مما تتصور، 2016.

(609) غوغل سيتي.

(610) غوغل سيتي.

"فلو". كما وصف دكتوروف هذه التعاونات بأنها "حتمية". (611)

تحول الحملة الميدانية الواسعة المتنوعة التي تجري حاليًا حتميةً التنبؤ إلى نشاط ملموس. وبهدف تحقيق وفرة في النطاق، تطوّر موجة من عمليات الآلة المبتكرة لاستخراج البيانات، وتحويل الأشخاص والأشياء إلى بيانات سلوكية. ومن أجل تحقيق اقتصاديات العمل، يتعلّم الجهاز كيفية مقاطعة تدفق التجربة الشخصية من أجل التأثير على سلوكنا وتعديله وتوجيهه، مسترشدًا بخطط ومصالح الجهات التجارية الفاعلة التي تفوّض نفسها، بخطط ومصالح سوق الكون الصاحب الذي تشارك فيه. في كل حالة تقريبًا، يقدم وكلاء المؤسسات ممارساتهم الجديدة كما لو كانت شيئًا واحدًا، في حين أنها في الواقع شيء مختلف تمامًا. إن الواقع السياسي لعمليات المراقبة التجارية يتوارى خلف الكواليس بينما تسيطر جوقة الممثلين الذين يغنون ويرقصون تحت الأضواء على انتباهنا، وتسيطر أحيانًا حتى على حماسنا. فهم يتصبّون عرقًا تحت أضواء المسرح من أجل هدف واحد: أن نفشل في ملاحظة الإجابات، أو بشكل أفضل من ذلك، أن ننسى طرح الأسئلة: من يعرف؟ من يقرّر؟ من يقرّر من يقرّر؟

لن يثير دهشتنا، في ضوء هذه الطموحات، أن يفضل دكتوروف الفضاء الخارج عن القانون مثلما فضل "بيج" قبله. وأكدت التقارير الصحفية أن شركة ألفابت/ غوغل تدرس بنشاط مقترحًا لبناء مدينة جديدة، وأن أكثر من مائة من مخططي المدن والباحثين والتقنيين وخبراء البناء والاقتصاديين والمستشارين شاركوا في المشروع. (612) وذكرت صحيفة وول ستريت جورنال أنه على الرغم من عدم وضوح الطريقة التي ستنفق بها الشركة عشرات مليارات الدولارات اللازمة لمشروع ضخم كهذا، فإن "أحد العناصر الرئيسة هو أن شركة سايدووك ستسعى إلى الاستقلال عن العديد من لوائح المدينة، حتى تتمكن من البناء دون قيود". (613)

(611) انظر بادز، "كيف تقوم غوغل بتحويل المدن إلى مختبرات بحث وتطوير".

(612) جيسكا إي. ليسين، "مقترح ألفابت لإعداد الأرصفة للمنطقة الرقمية"، المعلومات، 14 أبريل 2016.

(613) إليوت براون، "الخطوة الكبيرة القادمة لشركة ألفابت: بناء مدينة ذكية"، وول ستريت جورنال، 27

في أكتوبر 2017، ظهر دكتوروف مع الرئيس التنفيذي لشركة ألفابيت، إريك شميدت، ورئيس الوزراء الكندي، جاستن ترودو، للكشف عن أن تورنتو ستكون موقع التطوير المخطط له لشركة سايدووك. وتهدف هذه المبادرة إلى تطوير مزيج التكنولوجيا المناسب الذي يمكن ترخيصها بعد ذلك لمدن العالم كله. "نشأت فكرة 'سايدووك لابس' من حماس مؤسسي غوغل الذين فكّروا في 'كل الأشياء التي يمكن القيام بها إذا منحنا شخص معين مدينة، وأعطانا المسؤولية عنها'"، ونقلت صحيفة "غلوب أند ميل" في تورنتو عن شميدت قوله: "لقد مازحني قائلًا إنه يعلم أن هناك أسبابًا وجيهة لعدم حدوث ذلك". وبالسريعة ذاتها، ذكرت الصحيفة ردّ فعل شميدت عندما علم للمرة الأولى أن شركة سايدووك، وبالتالي شركة ألفابت، قد مُنحت هذه الفرصة في تورنتو: "يا إلهي! لقد وقع الاختيار علينا. الآن حان دورنا". (614)

أبريل/ نيسان 2016.

(614) شين دينغمان، "مع تورنتو، تسعى ألفابت إلى إحداث ثورة في بناء المدن"، غلوب أند ميل، 17 أكتوبر/ تشرين الأول 2017.

الفصل الثامن

التسليم: من التجربة إلى البيانات

مكتبة
t.me/soramnqraa

إذا التقطت صورة لهم فسيقتلونك.

يظنون أنك سلبهم شيئاً.

إذا لم تحصل إلا على القليل!... وسلب الآخرين لكل شيء، فلن يبق لك أي شيء.

روبرت غارلاند، الفارس الكهربائي

التصوير هو الاستيلاء على الشيء المصور.

يعني وضع ذاتك في علاقة معينة مع العالم بحيث تُشعرك بالمعرفة – وبالتالي بالسلطة.

سوزان سونتاغ، عن التصوير الفوتوغرافي

1- شروط الاستسلام

نحن نشعر بالقلق من الشركات التي تجمع بياناتنا الشخصية، ونتساءل لماذا يتعين عليها الاستفادة من ذلك. ونسأل: "من يملك البيانات؟" لكن كل نقاش لحماية البيانات أو امتلاكها يغفل عن أهم سؤال على الإطلاق: لماذا تُقدّم تجربتنا باعتبارها بيانات سلوكية في المقام الأول؟ لقد أصبح من السهل تجاهل هذه الخطوة المهمة في سلسلة الأحداث التي تنتج فائضاً سلوكياً. يلفت هذا الفصل، والفصل الذي يليه، انتباهنا إلى الفجوة بين التجربة والبيانات، وكذلك إلى العمليات المحددة التي تستهدف هذه الفجوة في مهمة تحويل إحداها إلى الأخرى. أنا أسمى هذه العمليات "التسليم". لقد رأينا أن نزع ملكية تجارب البشر هو الخطيئة الأصلية لرأسمالية المراقبة،

لكن نزع الملكية ليس عملية مجرّدة. يصف التسليم الممارسات التشغيلية الملموسة التي يتم من خلالها تحقيق نزع الملكية، حيث تتم المطالبة بالتجربة الإنسانية باعتبارها مادة خامة لعملية التحويل إلى بيانات، وكل ما يلي ذلك، من التصنيع إلى المبيعات. يُظهر التركيز على هذه الممارسات الوسيطة أن الجهاز المنتشر في كل مكان ليس مرآة سلبية أحادية الاتجاه، بل إنها تُنشئ بنشاط مخزونها المعرفي الخاص من خلال التسليم.

إن الاسم "تسليم" مشتق من الفعل "سَلَمَ"، وهي كلمة ليست عادية، إذ تصف معانيها المزدوجة معادلة ذات وجهين تلتقط بدقة ما يحدث في الفجوة ما بين التجربة الإنسانية والبيانات السلوكية. على أحد جانبي المعادلة، يصف الفعل عملية يتم فيها تشكيل شيء ما من شيء آخر تم تقديمه في الأصل. إنه يشير إلى الأداء السببي المتمثل في تحويل شيء إلى شيء آخر، مثل استخلاص الزيت من الدهن (الاستخراج) أو تحويل نصّ إنجليزي من اللاتينية الأصلية (الترجمة). وقد وجدت هذه المعاني طريقها أيضًا إلى مفردات التكنولوجيا الرقمية. على سبيل المثال، يقوم "محرك الأداء" بتحويل المحتوى المشفر لصفحة ويب إلى صفحة للعرض والطباعة.

على الجانب الآخر من المعادلة، يصف "التسليم" الطريقة التي يهب بها الشيء الذي تعرّض للتغيير نفسه إلى هذه العملية: لقد استسلم. ظهر الفعل "سَلَمَ" للمرة الأولى في اللغة الفرنسية في القرن العاشر، ويعني "وهب شيء مقابل شيء آخر، قدّم، خضع، وهب" أو نقول "إن الشجرة سلّمت، أي قدّمت، ثمارها". وبحلول القرن الرابع عشر، أصبحت الكلمة تتضمن أيضًا فكرة التسليم أو التنازل أو الاعتراف بالتبعية أو الالتزام، كما في "أعطِ لقيصر"⁽⁶¹⁵⁾. وتنشط هذه المعاني اليوم عندما نقول: "إصدار حكم"، أو "تقديم خدمة"، أو "تسليم ملكية".

يجب أن تعمل رأسالية المراقبة على كلا جانبي المعادلة. من الجانب الأول، صُممت تقنياتها لتحويل تجربتنا إلى بيانات، كما هو الحال في استخلاص الزيت من الدهون.

(615) يُشير هذا القول إلى ما ورد في الإنجيل، عندما قال المسيح عليه السلام: «أعطوا إذا ما لقيصر

لقيصر، وما لله لله»، في ردّه على سؤال الفريسيين حول دفع الجزية.

وهذا يحدث خارج نطاق وعينا، ناهيك عن موافقتنا. وعلى الجانب الآخر من المعادلة، في كل مرة نواجه فيها واجهة رقمية فإننا نجعل تجربتنا متاحة لعملية "التحويل إلى بيانات"، وبالتالي "نسلّم إلى رأسالية المراقبة" عشرها المستمر من إمدادات المواد الخام.

تُعتبر هذه المعادلة ثنائية الجانب ترتيباً مُبتكراً. وكما رأينا في الفصل الأول، استخدم مشروع "المنزل الذكي"، الذي طوّره معهد جورجيا للتكنولوجيا قبل عام واحد فقط من اختراع رأسالية المراقبة، ممارسات مختلفة جسّدت افتراضات متباينة تماماً: (1) يجب أن يقرّر الفرد وحده التجارب التي تُقدّم كيانات، (2) أن يكون الغرض من البيانات إثراء حياة الفرد، و(3) الفرد هو الحكم الوحيد على كيفية مشاركة البيانات أو استخدامها. وبعد مرور ما يقرب من عقدين من الزمن، لم يعد المنزل الذكي أكثر من مجرد قطعة أثرية قديمة تذكّرنا بطريق لم نسلّكه نحو مستقبل رقمي، وتقسيم عادل للتعلّم في المجتمع. فالفرد في هذا الطريق هو من يعرف، ومن يقرّر، ومن يقرّر من يقرّر: غاية في حد ذاته، وليس وسيلة لتحقيق غايات الآخرين. إن الدرس الذي تعلّمناه من "المنزل الواعي" هو أنه بالإمكان تحقيق التسليم دون رأسالية المراقبة. لكن الدرس الذي نتعلّمه من هذا الفصل، والفصل الذي يليه، هو أنه لا يمكن أن تكون هناك رأسالية مراقبة من دون تسليم.

لا شيء مُستثنى، حيث تنضمّ المنتجات والخدمات من القطاعات كلها إلى أجهزة مثل منظّم "نيسن" للحرارة، في منافسة على إيرادات المراقبة. على سبيل المثال، في يوليو/ تموز 2017، تصدرت مكنسة آي روبات ذاتية التشغيل، رومبا (Roomba)، عناوين الصحف عندما أخبر الرئيس التنفيذي للشركة، كولين أنجل، وكالة رويترز عن استراتيجية الشركة التجارية القائمة على قواعد البيانات للمنزل الذكي، والتي بدأت بتدقيق إيرادات جديد مستمدّ من بيع مخططات طوابق منازل العملاء المأخوذة من قدرات الآلة على رسم خرائط جديدة. وأشار أنجل إلى أن شركة آي روبات قد تتوصّل إلى اتفاق لبيع خرائطها إلى غوغل أو أمازون أو أبل خلال العامين المقبلين. ومع الاستعدادات لدخول مسابقة المراقبة، أُضيفت كاميرا وأجهزة استشعار جديدة

وبرامج إلى خطّ إنتاج مكنسة "رومبا"، مما يتيح وظائف جديدة، بما في ذلك القدرة على إنشاء خريطة أثناء تتبع موقعها الخاص. كافأت السوق رؤية النمو لشركة آي روبات، مما أدى إلى ارتفاع سعر سهم الشركة إلى 102 دولار في يونيو/ حزيران 2017 بعد أن كان 35 دولارًا فقط في العام السابق، مما أدى إلى رأسمال سوقي بلغت قيمته 2.5 مليار دولار بعد أن كان بقيمة 660 مليون دولار.⁽⁶¹⁶⁾

دق خبراء الخصوصية ناقوس الخطر، مدركين أن تدفقات بيانات كهذه لا تتمتع تقريبًا بأية حماية قانونية أو أمنية. لكن أنجل أكّد للجمهور أن شركة آي روبات لن تبيع البيانات دون إذن عملائها، وأعرب عن ثقته في أن "معظمهم سيوافقون من أجل الوصول إلى وظائف المنزل الذكي".⁽⁶¹⁷⁾ لكن كيف حظي إنجل بهذه الثقة كلها؟

وفقًا لسياسة الخصوصية الخاصة بالشركة، يُمكن للمالك مكنسة رومبا التحكم في جمع بيانات الاستخدام أو إيقافها عن طريق "قطع الاتصال مع 'الواي فاي' أو فصل البلوتوث عن التطبيق، على سبيل المثال، عن طريق تغيير كلمة مرور إلى 'واي فاي'". لكن، كما قال أنجل لموقع ماشابل التقني في يوليو/ تموز 2017، حتى عندما لا يختار العملاء الاشتراك في خدمة الخرائط، فسوف تلتقط المكنسة بيانات الخرائط والاستخدام، لكن بيانات الاستخدام وحدها "تُرسل إلى السحابة حتى يمكن عرضها على جهازك المحمول".⁽⁶¹⁸⁾ وما تجاهل أنجل قوله هو أن العميل الذي يرفض مشاركة بيانات رسم خرائط منزله الداخلية مع آيب وبوت يفقد أيضًا معظم الوظائف الذكية للمكنسة الكهربائية "المستقلة"، بما في ذلك القدرة على استخدام الهاتف لبدء التنظيف مؤقتًا أو إيقافه، أو جدولة التنظيف، أو مراجعة "تقارير خريطة التنظيف"، أو تلقي تحديثات البرامج التلقائية، أو بدء "التنظيف بحالة 'سبوت'".

(616) جان وولف، "شركة آي روبات، صانعة مكانس رومبا الكهربائية، تراهن بقوة على المنزل الذكي"، رويترز، 28 يوليو 2017؛ ميليسا وين، "ارتفاع أسهم آي روبات بفضل المبيعات القوية لمكنسة رومبا الكهربائية"، رويترز، 26 يوليو 2017.

(617) وولف، "مُصنّع المكنسة الكهربائية، رومبا، يراهن على شيء كبير".

(618) لانس أولانوف، "يقول الرئيس التنفيذي لشركة آي روبات إن الشركة لن تشارك بيانات رسم الخرائط المنزلية الخاصة بمكنسة رومبا دون موافقتك"، ماشابل، 25 يوليو 2017.

(SPOT) التي تعني التركيز على منطقة متسخة بشكل خاص". (619)

تذهب استراتيجية أنجل لتعزيز الثقة إلى قلب مشروع التسليم الأكبر، والذي طور له صانعو منتجات المنازل "الذكية"، المعتمدة على الرأسمالية المراقبة، نهجًا فريدًا من نوعه. من جهة أولى، يُشددون على بإمكان العملاء اختيار مشاركة بياناتهم. ومن جهة أخرى، يواجه العملاء الذين يرفضون الاشتراك محدوديةً في وظائف المنتج وأمان بياناتهم. في هذه العلاقات التي تشبه أسلوب "المطلب الإسباني - الريكريمينتو" (Requirimiento)، حيث كانت رسالة أديلانتادوس في "الريكريمينتو" "ارفع على ركبتيك أو سنقتلك"، بينما كانت الرسالة هنا هي "ارفع على ركبتيك أو سنحطّ من قدر مشترياتك".

في ظل هذا النظام الجديد، أصبح شراء شيء بسيط مثل مرتبة مثلاً، يتطلب تدقيقًا قانونيًا عميقًا في "العقود التعسفية السيئة" التي يتجاهلها الجميع تقريبًا. خذ على سبيل المثال سريرًا من نوع "سليب نمبر" (Sleep Number)، المزود بـ "تقنية السرير الذكي وخاصة تتبع النوم". (620) يظهر على موقع الشركة زوجان جيميلان يسترخيان في السرير، وهما ملتصقان بهواتفهما الذكية بسعادة، بينما يستمتعان بالبيانات من تطبيق "سليب كيو" (SleepIQ) الخاص بهما. تكون قاعدة السرير والمرتبة قابلتان للتخصيص إذ يمكن رفع زاوية السرير أو خفضها، وتعمل أجهزة الاستشعار على جعل المرتبة طرية أو قاسية حسب الرغبة. تقيس حساسات أخرى معدل ضربات القلب، والتنفس، والحركة: "ستحصل كل صباح على نتائج "سليب كيو" الخاصة بك، والتي تقيّم جودة نومك الفردية ومدتها.... نومك المريح، نومك المضطرب، الوقت الذي تقضيه خارج السرير... والتعديلات التي يمكنك إجراؤها". تقترح الشركة أن تصل تطبيق النوم الخاص بك بجهاز تتبع اللياقة البدنية ومنظم الحرارة من أجل رؤية مدى تأثير التمارين أو درجة حرارة غرفة النوم على نومك.

(619) "أي روبات هوم"، مخزن غوغل بلاي، أغسطس/ آب 2018. انظر أيضًا ألكس هيرن، "ربما يشارك صانع مكنسة رومبا خرائط منزل المستخدم مع شركة غوغل، أو أمازون أو أبل"، الغارديان، يوليو/ تموز 2017.

(620) "كيف تعمل/ تقنية السرير لاذكي وتتبع النوم"، سليب نمبر، 6 أكتوبر/ تشرين الأول، 2017.

يُرفق بهذا السريّر سياسة خصوصية مفصّلة من اثنتي عشرة صفحة. ويُنصَح العملاء بأنّ تقديم المعلومات يُعدُّ تأكيداً على موافقتهم على استخدام تلك المعلومات بما يتماشى مع السياسة، والتي تتخذُ الشروط الصارمة المعتادة: المشاركة مع جهات خارجية، وتحليلات غوغل، والإعلانات المُستهدفة، وأشياء أخرى كثيرة. وبالإضافة إلى ذلك، إذا أنشأ العميل ملف تعريف مستخدم لزيادة فاعلية التطبيق، تجمع الشركة أيضًا "بيانات قياسات بيولوجية، وبيانات حول كيفية نومك أنت وطفلك وأي شخص آخر يستخدم السريّر، مثل حركة الشخص ووضعيّاته وتنفّسه، ومعدل ضربات قلبه أثناء النوم". كما تجمع الشركة جميع الإشارات الصوتية في غرفة نومك. وكما هو حال معظم هذه السياسات، يُحظَر العملاء بأنّ بإمكان الشركة "مشاركة" المعلومات الشخصية أو "استغلالها" حتى "بعد إلغاء تنشيط الخدمات أو إلغاء حساب 'سليب نمبر' الخاص بك أو ملفات تعريف المستخدم". كما يُحذّر العملاء من أنه "لا يمكن ضمان أمان نقل البيانات أو تخزينها بنسبة 100٪". وأنها لا تلتزم بإشعارات "عدم التتبع". وأخيرًا، تتناول سياسة الخصوصية، في الصفحة الثامنة من الوثيقة، خيارات العميل فيما يتعلّق باستخدام المعلومات الشخصية: "إنّ قرار إرسال المعلومات إلينا متروك لك بالكامل. إذا قرّرت عدم إرسال المعلومات، فقد لا نتمكن من تقديم ميزات أو منتجات و/أو خدمات معينة لك". (621)

يمكن العثور على هذا التحوّل القسري في "الريكريمنتو" في الاتفاقيات الطويلة الكثيفة المرتبطة بمنظّمات الحرارة من شركة "نيس" المملوكة لشركة "ألفابيت". وتكشف شروط الخدمة واتفاقيات ترخيص المستخدم النهائية عن عواقب قمعية تتعلق بالخصوصية والأمن، حيث تتم مشاركة المعلومات الحساسة مع أجهزة أخرى، وأفراد مجهولين، وأطراف أخرى لأغراض التحليل والتداول في أسواق العقود الآجلة السلوكية في نهاية المطاف، وهو الإجراء الذي يرتدّ إلى المالك على شكل إعلانات ورسائل مُستهدفة مصمّمة لإقحام مزيد من المنتجات والخدمات. وعلى الرغم من ذلك، أيّدت المحاكم عمومًا ادعاءات الشركات بأنّها لا تتحمّل أية مسؤولية

ما لم يُقدّم دليل واضح على ضرر اقتصادي يلحق بالمستهلك.

لا تتحمّل شركة "نيس" مسؤولية كبيرة عن أمن هذه المعلومات، ولا تتحمّل أية مسؤولية عن كيفية استخدام الشركات الأخرى لهذه المعلومات. في الواقع، يعتقد الباحثان القانونيان في جامعة لندن، "جويدو نوتو لاديغا" و"إيان والدن"، اللذان حلّلا هذه الوثائق، أنه عند الدخول في نظام "نيس" البيئي للأجهزة والتطبيقات المتصلة، بالشروط المهرقة لكل منهما، فإن شراء منظّم حرارة منزلي واحد، مما يستلزم مراجعة ما يقرب من ألف "عقد".⁽⁶²²⁾

تتفاقم هذه العشية بسبب حقيقة مفادها أنه ما من أحد يقرأ حتى عقداً واحداً من هذا القبيل. أظهرت دراسة تجريبية قيّمة أُجريت على 543 مشاركاً على دراية بقضايا قوانين المراقبة والخصوصية أنه عندما طُلب منهم الانضمام إلى خدمة جديدة عبر الإنترنت، اختار 74٪ منهم إجراء "الانضمام السريع"، متجاوزين اتفاقية شروط الخدمة وسياسة الخصوصية. ومن بين أولئك الذين تصفّحوا العقود المسيئة، ذهب معظمهم مباشرة إلى زر "قبول". ويقدر الباحثون أن الوثائق تحتاج إلى ما لا يقلّ عن خمسة وأربعين دقيقة لفهمها بشكل كافٍ، لكن بالنسبة إلى أولئك الذين اطلعوا على الاتفاقيات، كان متوسط الوقت الذي قضوه في القراءة هو أربع عشرة ثانية.⁽⁶²³⁾

إذا رفض العميل الموافقة على شروط "نيس"، تشير شروط الخدمة إلى أن وظائف منظّم الحرارة نفسه وأمانه سوف تتعرّض لخطر كبير، ولن يكون مدعوماً بالتحديثات الضرورية المخصصة لضمان موثوقيته وسلامته. وقد تتراوح العواقب من تجمّد الأنابيب، إلى فشل أجهزة إنذار الدخان، إلى اختراق نظام المنزل الداخلي بسهولة. باختصار، أصبحت فاعلية المنتج وسلامته رهينة بخضوع أصحابه للاستسلام

(622) جويدو نوتو لاديغا وإيان والدن، "التعاقد من أجل الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت: نظرة إلى شركة نيس" (بحث صادر عن جامعة كوين ماري في لندن، كلية الحقوق، 2016).

(623) جوناثان آيه. أوبار وأنا أولدورف هيرش، "أكبر كذبة على الإنترنت: تجاهل سياسات الخصوصية وشروط الخدمة لخدمات الشبكات الاجتماعية"، في فيسبوك/ وسائل التواصل الاجتماعي (المؤتمر البحثي الرابع والأربعون حول سياسة الاتصالات والمعلومات والإنترنت، أرلينغتون، فيرجينيا: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 2016).

باعتباره غزوًا على يد الآخرين، ولصالحهم أيضًا.

من السهل أن نخترع عدم ابتياع منتج مثل مكنسة "رومبا" أو سرير "سليب نمبر" أو منظّم حرارة من شركة "نيست"، لكن كل أداة منها هي مجرد رمز للمشروع الضخم المتمثل في الاستنساخ كخطوة أولى حيوية في بناء الجهاز كليّ الوجود. أصبحت آلاف "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" متاحة. وكما استنتج لاديجا ووالدن، في نظام المنتج الجديد هذا، أصبحت وظائف المنتج البسيط التي نسعى إليها متشابكة للغاية ضمن مزيج مختلط من البرمجيات والخدمات والشبكات.⁽⁶²⁴⁾

إن فكرة وجود منتج، أو خدمة وظيفية وفعّالة، وبأسعار معقولة، باعتبارها أساسًا كافيًا للتبادل الاقتصادي، آخذة في الموت. وفي أماكن لا تتوقعها، تُعاد صياغة أنواع المنتجات كلها وفقًا للمتطلبات الاقتصادية الجديدة للتواصل والتسليم. وقد أُعيد تصوّر كل منهما باعتباره بوابة إلى الجهاز الجديد، حيث يُشاد "بذكائه" بينما تتعرّض البدائل التقليدية للانتقاد لكونها بقيت "غبية". من المهم أن ندرك في هذا السياق أن كلمة "ذكي" هي تعبير ملطّف عن "التسليم": الذكاء المصمّم لتسليم بعض الجوانب الصغيرة من التجربة المعيشة في هيئة بيانات سلوكية. إن كل عنصر ذكي هو بمنزلة دمية متحرّكة؛ وعلى الرغم من "ذكائها" فإنها تظلّ مجرد دمية تعيسة ترقص على الضرورات الاقتصادية الخفية التي يفرضها سيّد الدمى. تسير المنتجات والخدمات والتطبيقات على إيقاع الحتمية نحو الوعد بإيرادات المراقبة المأخوذة من المساحات البريّة التي نسميها "واقعي" و"موطني" و"حياتي" و"جسدي". إن كلّ منتج ذكي يُكرّر أسئلتنا الأساسية: ما الذي يعرفه المنتج الذكي، ومن يُجبر؟ ومن يعلم؟ من يعرف؟ ومن يقرّر؟ ومن يقرّر من يقرّر؟

تنتشر أمثلة للمنتجات المصممة لتقديم البيانات السلوكية ومراقبتها وتسجيلها ونقلها، بدءًا من زجاجات ذكية بتقنيات تتبع المنتج إلى أجهزة قياس الحرارة المتصلة

(624) لمناقشة مهمة لهذا الموضوع الأوسع الذي ينطبق على المنتجات الرقمية، انظر آرون بيرزانوفسكي وكريس هوفناغل، "ما نشتره عندما نشترى الآن" (بحث منشور في شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 13 مايو/ أيار 2016).

بالإنترنت، وكل شيء بينهما حرفيًا.⁽⁶²⁵⁾ ويستشهد مطوّر الأعمال في إحدى شركات المشروبات الفاخرة بخطته الخاصة بـ "الزجاجة المتصلة": "كلما تعلمنا المزيد عن المستهلكين وسلوكياتهم، ازدادت جودة الخدمات التي يمكن أن نقدمها لهم". توّد علامات تجارية كثيرة "إعطاء التغليف دورًا مؤثّرًا في سوق تفاعلية متزايدة". وتعدّ شركة "ديغو" العالمية لتوزيع المشروبات الروحية بتقديم "زجاجات ذكية مزوّدة بأجهزة استشعار" يمكنها تتبّع بيانات المشتريات والمبيعات، والأهم من ذلك، "التواصل مع أجهزة المستهلكين - الوصفات مقابل العروض الترويجية - بمجرد فتح الزجاجة". ويتحدّث أحد مصنعي معدات تحضير وتقديم المشروبات عن القضية بوضوح تام: "يتعلّق الأمر كله فعلاً بالسماح لأصحاب هذه [الحنّات] برؤية أشياء لم يتمكنوا من رؤيتها سابقًا، وتعظيم أرباحهم".⁽⁶²⁶⁾

أصبحت منازلنا اليوم في مرمى نيران رأسمالية المراقبة، حيث يسعى المنافسون إلى الاستحواذ على سوق بقيمة 14.7 مليار دولار للأجهزة المنزلية الذكية في عام 2017، بعد أن كانت 6.8 مليار قبل عام واحد فقط، ومن المتوقع أن يصل إلى أكثر من 101 مليار دولار بحلول عام 2021.⁽⁶²⁷⁾ ربما صادفت بالفعل بعض هذه السخافات البدائية: فرشاة الأسنان الذكية، والمصابيح الذكية، وأكواب القهوة الذكية، والأفران الذكية، والعصّارات الذكية، والأواني الذكية التي قيل إنها تُحسّن عملية الهضم. لكن هنا أشياء أخرى أكثر قتامة أحيانًا: كاميرا أمنية منزلية مزوّدة بخاصية التعرف على الوجه؛ ونظام إنذار يراقب الاهتزازات غير العادية قبل حدوث أي اقتحام؛ وأجهزة تحديد المواقع العالمية (GPS) الداخلية؛ وأجهزة استشعار تلتصق بأي جسم لتحليل الحركة ودرجة الحرارة والمتغيرات الأخرى؛ والصراصير المصمّمة لاكتشاف الصوت.

(625) ميشيل لوك، "هل أنت مستعد لزجاجات المشروبات الذكية بما يكفي للتحديث؟" 21 مايو/ أيار 2015؛ جونيف كوكس، "هذا الترمومتر الشرجي هو الاستنتاج المنطقي للادوات القابلة للاتّباط بالإنترنت"، Motherboard، 14 يناير/ كانون الثاني 2016.

(626) انظر لوك، "هل مستعد لزجاجات المشروبات الذكية بما يكفي للتحديث؟"

(627) "سوق المنازل الذكية العالمية 2018، مع تطور التكنولوجيا، والتوقعات والتقديرات، والمنافسين، وهيكل التكلفة، والشركات الرئيسية، والتوقعات حتى عام 2023"، رويترز، 19 فبراير 2018.

حتى غرفة الطفل أصبحت مصدرًا لفائض سلوكي جديد.⁽⁶²⁸⁾

يشير اعتزاز منطق المراقبة بالتراكم الذي يقود هذا الفعل إلى أن شبكة الأشياء هذه تتطور بالفعل إلى شبكة إجبار يُستبدل فيها الفائض السلوكي بالوظائف الدنيوية.⁽⁶²⁹⁾ وتظهر لمحة واضحة عن هذه الحقائق في رسالة من المدير المالي لشركة غوغل إلى قسم التمويل المؤسسي التابع لهيئة الأوراق المالية والبورصات الأمريكية في شهر ديسمبر/ كانون الأول 2013. وقد كُتِبَت هذه الرسالة ردًا على استفسار هيئة الأوراق المالية والبورصات بشأن تقسيم إيرادات غوغل بين منصات الحاسوب العادي ومنصات الهاتف المحمول.⁽⁶³⁰⁾ تقول رسالة غوغل إن المستخدمين "سيشاهدون إعلاناتنا على مجموعة أكبر من الأجهزة في المستقبل" وأن أنظمة الإعلان الخاصة بالشركة تتجه نحو تصميم أجهزة مستقلة، مما يجعل التقسيم غير ذي صلة، وغير عملي. وجاء في الرسالة: "بعد بضع سنوات من الآن، قد نتمكن نحن وشركات أخرى من تقديم الإعلانات والمحتوى الآخر من خلال الثلاثيات ولوحات قيادة السيارات وأجهزة ضبط الحرارة والنظارات والساعات، وهذا على سبيل المثال لا الحصر".

هنا يظهر الهدف النهائي: "المنزل الذكي" و"الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" الخاص به هما اللوحة التي تؤكد عليهما الأسواق الجديدة وجودها في سلوكها المستقبلي، وتؤكد مطالبتها في أكثر مساحاتنا حميمية. وأساس هذه القصة هو أن هذه الإجراءات كلها تشكّل دعماً لسوق أكبر يراهن على مستقبل سلوكنا، ونحن لا نملك أي علم بها أو سيطرة عليها. يتعيّن على كل عقدة في الشبكة - المكنسة الكهربائية، والمرتبة، ومنظّم الحرارة - أن تلعب دورها، بدءاً من تسليم السلوك بسلاسة، مع اتخاذ فريق "الأشياء الذكية" كله طريق الهجرة إلى عائدات المراقبة. وبما أننا مُبعدون عن البدائل، فإننا مُجبرون على شراء منتجات لا يمكننا امتلاكها أبداً بينما تذهب أموالنا

(628) "جهاز مراقبة الأطفال القابل للارتداء من سيراولتينغ"، ماتيل، 8 ديسمبر 2017.

(629) انظر بيرزانوفسكي وهوفناغل، "ما نشتره".

(630) أمي ثونر، "رسالة إلى هيئة الأوراق المالية والبورصات الأمريكية من مدير التمويل في غوغل"، هيئة الأوراق المالية والبورصات الأمريكية، 29 يناير/ كانون الثاني 2013.

تمويل مراقبتنا وإجبارنا. ومما يزيد الطين بللاً هو أن البيانات التي سُلِّمَت بهذه الموجه من الأشياء غير آمنة إطلاقاً، ومعرضة للاختراق بسهولة. وعلاوة على ذلك، لا يتحمل المصنعون أية مسؤولية قانونية لدى إبلاغ أصحاب الأجهزة عن سرقة البيانات أو اختراقها.

ثمة طموحات كبيرة أخرى لتسليم الأشياء الفردية كلها. تعمل شركات مثل "كوالكم" و"إنتل" و"أيه. آر. إم" على تطوير وحدات رؤية كمبيوترية صغيرة ودائمة التشغيل، ومنخفضة الطاقة، يمكن إضافتها إلى أي جهاز مثل هاتفك أو ثلاجتك أو أي سطح آخر. ويقول أحد المسؤولين التنفيذيين في شركة كوالكوم إن بإمكان الأجهزة والألعاب معرفة ما يدور حولها: "يمكن أن تلاحظ الدمية أن وجه الطفل يتجهُ إليها".⁽⁶³¹⁾

خذ بعين الاعتبار مثلاً "الجلد الذكي" الذي طوّره علماء جامعيون لامعون، وهو الآن مُعدّ للتسويق التجاري. تم تقييم الجلد في البداية بسبب قدرته على مراقبة الحالات الصحية وتشخيصها بدءاً بمرض باركنسون وصولاً إلى اضطرابات النوم، ويُشاد به الآن لأنه يعد بالانتشار في كل مكان دون إزعاج. وقد نجح باحثون في معهد جورجيا للتكنولوجيا في تطوير نسخة "جلد ذكي" يمتصّ الطاقة من الموجات الراديوية ومصادر الطاقة الأخرى، مما يلغي الحاجة إلى البطاريات. يمكن للجلد الذكي، الذي وُصِفَ بأنه "أداة الاستشعار النهائية التي تسمح بتشغيل جماعي للشبكات اللاسلكية الدائمة"،⁽⁶³²⁾ أن تتعرّف على البارامترات وتحسّسها وتحللها، وتتواصل معها لاسلكياً و"تعدّها"، باستخدام تقنية التردد اللاسلكي البسيطة (RFID).⁽⁶³³⁾ وكما هو الحال مع "شريط استشعار" باراديسو، يؤكد الباحثون أن

(631) انظر مقال ستايسي هيغينبوتم، "ابتكرت شركة كوالكوم تقنية جديدة يمكنها المساعدة في فتح هاتفك الذكي باستخدام مسح القزحية"، مراجعة تكنولوجيا إم أي تي، 29 مارس/ آذار 2017.

(632) بن إس. كوك وآخرون، "عمق الجلد فقط"، مجلة IEEE Microwave، مايو 2013. هكذا يتم تصوّر الجلد الذكي، وهو ابتكار "قد يُرسي الأساس لظهور الجيل الأول من أجهزة الاستشعار اللاسلكية طويلة المدى، وال قابلة للطباعة بالكامل، والخالية من الرقائق، والمرنة، ومنخفضة التكلفة، للتطبيقات الشاملة في الجلود الذكية والأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت...".

(633) ج. ج. د. هيستر وم. م. تينترزيس، "مستشعرات فان-آنا العاكسة المطبوعة بالحبر النفثات: نموذج

بالإمكان أيضًا "تطبيقه في كل مكان" بهدف "مراقبة التفاعل مع العالم من حولنا واستشعاره بشكل دائم، وبالتالي تعزيز الذكاء المحيط بشكل كبير"، وهذا كله بشكل غير بارز مثل "وضع مثل "شريط لاصق". ويفترضون استخدامه على رفوف متاجر البقالة مثلًا، حيث تتوفر فرص الإيرادات بكثرة.

أصبح التسليم مشروعًا رأسمالية مراقبة يتشكّل وفقًا لضروراته، ويوجّه نحو أهدافه. في تكوين النصّ الظلي، يعتبر التسليم هو الخطوة الأولى: التنفيذ العملي لـ "الخطيئة الأصلية للسرقة البسيطة" التي حددت هذا المشروع السوقي منذ البداية. قامت شركة غوغل بتسليم الأرض وشوارعها وأماكن السكن فيها، متجاوزة موافقتنا ومتحدية احتجاجاتنا. وقامت شركة فيسبوك بتسليم شبكتها الاجتماعية وتفصيلها اللامحدودة من أجل أسواق المستقبل السلوكية للشركة. والآن أصبح الجهاز المنتشر في كل مكان هو الوسيلة لتسليم التجربة الإنسانية في كل مكان. لقد رأينا ما يُبديه رأسماليو المراقبة من إلحاح في سعيهم إلى القضاء على "الاحتكاك" باعتباره عامل نجاح أساسي في عمليات التوريد. إن ضرورة التنبؤ تجعل الحدود أصعب من أن تُحتمل، وسيفعل رأسماليو المراقبة أي شيء تقريبًا لإزالة تلك الحدود. ويؤدّي هذا المسعى إلى تحويل "الاتصال" إلى ضرورة تجارية، وتحويل الاستقلال الفردي إلى تهديد لإيرادات المراقبة.

تطغى ممارسات التسليم التي تُمارسها رأسمالية المراقبة على أي نقاش منطقي حول "الاشتراك" و"الانسحاب". لم يعد هناك أي غطاء. لم تعد التعبيرات الملطّفة للقبول قادرة على تشتيت الانتباه عن هذه الحقائق المجردة: في ظل رأسمالية المراقبة، عادة ما يكون التسليم غير مصرّح به، وأحادي الجانب وشرهاً وسرياً ووقحاً. تلخّص هذه الخصائص عدم التوازن في القوة الذي يضع "المراقبة" في رأسمالية المراقبة. كما أنها تسلّط الضوء على حقيقة قاسية: من الصعب أن تكون موجودًا حيث لا يوجد تسليم.

جديد لمستشعرات الجلد الذي منخفضة التكلفة ومنخفضة التكلفة طويلة المدى من دون رقائيق من الأدوات القابلة للارتباط بالإنترنت"، في ندوة IEEE MTT-S الدولية للموجات الدقيقة (IMS) لعام 2016،

ومع انجذاب الصناعات التي تتجاوز قطاع التكنولوجيا إلى أرباح المراقبة، فإن دراسة السباق للعثور على الخبرة وتسليمها كبيانات حوّلت عملية التسليم إلى مشروع عالمي لرأس مال المراقبة.

يتناول هذا الفصل، والفصل الذي يليه، مجموعة من أنشطة التسليم سعيًا لتحقيق اقتصاديات النطاق. ويركّز ما تبقى من هذا الفصل على التوسّع، وهو البعد الأول للنطاق، مع انتقال عمليات التسليم إلى العالم الحقيقي، والاستيلاء على أجزاء جديدة غير متوقّعة من التجربة الإنسانية. يريد التوسّع كل زاوية وشقّ، وكل قول ولفته، على الطريق إلى نزع الملكية. إذ يجب على كل ما هو رطب وحيّ أن يسلم حقائقه. لا ينبغي أن يكون هناك ظلال ولا ظلام. فالمجهول لا يُطاق، والعزلة ممنوعة. سننتقل لاحقًا إلى بعد أعمق، في الفصل التاسع. لقد أُلقيت الشبكة على نطاق واسع فوق مياه الحياة اليومية، لكن هناك أيضًا غوّاصات تستكشف الأعماق بحثًا عن مصادر جديدة للفائض السلوكي الذي يحظى بالتقدير بسبب إمكانياته التنبؤية النادرة: شخصيتك وعواطفك وأعماق جسدك. لا تهدف الأمثلة الواردة في هذه الفصول إلى أن تكون شاملة، بل تهدف إلى توضيح مدى جدية الهدف والمثابرة، والحدع التي يستخدمها رأسمالو المراقبة في سعيهم إلى البحث عن جوانب جديدة من التجربة الإنسانية التي يمكن استثمارها باعتبارها يقيّنًا.

نشارك بالضرورة، في مسعانا هذا، بالاستشهاد بجهات فاعلة ومنتجات وتقنيات محدّدة، مع العلم أن تفاصيل الأشخاص والشركات تتغيّر باستمرار. ستُستَرى الشركات وتُباع، وستُفشل أو تنجح؛ سيأتي الناس ويذهبون. وستخضع التقنيات والمنتجات والأساليب المحددة للتخلّي والتجاوز. وعندما تفشل، ستُخذ منتجات أخرى مكانها، طالما تسمح لها رأسمالية المراقبة بالازدهار. لقد كان للسرعة والتقلّب دورًا أساسيًا في نجاح رأسمالية المراقبة، ولا يُمكننا أن نسمح للحركة المستمرة بأن تُعيق عزمنا على فهم "قوانين الحركة" التي تُسيطر على هذا المشهد المضطرب. ما نريد فهمه هو النمط وغايته.

يبدأ تسليم جسدك ببساطة من هاتفك. حتى لو لم تكن مدينتك "ذكية" أو مملوكة لشركة غوغل أو مُدارة من قبلها، تعرفُ الجهات الفاعلة في السوق، والمهتمة بسلوكك، كيف تجد جسدك.⁽⁶³⁴⁾ من بين الطرق المعقّدة كلها التي يبذلها رؤساء المراقبة لتسليم الواقع كسلوكٍ لتحقيق فائض، فإن أبسطها وأعمقها هي قدرتهم على معرفة مكانك بدقةٍ طوال الوقت. يُعاد تصوّر جسدك ككائنٍ يتصرف، ويُرصد لأغراض الفهرسة والبحث. تطلب معظم تطبيقات الهواتف الذكية الوصول إلى موقعك حتى عندما لا يكون ذلك ضروريًا للخدمة المطروحة، وذلك ببساطة لأن تلك المعرفة مربحة للغاية.

يمكن استخراج بيانات الموقع من "العلامات الجغرافية" التي توضعُ عندما يقوم هاتفك الذكي تلقائيًا بتضمين هويتك وموقعك في الصور ومقاطع الفيديو. ويستخدم تجّار التجزئة "السياج الجغرافي" لتحديد منطقة جغرافية معينة وإرسال تنبيهات إلى الهواتف الذكية ضمن هذه المعايير: "نفضّل لزيارتنا الآن!" "اشترِ هذا المنتج من شركتنا!" "عرض خاص بك!"⁽⁶³⁵⁾ تُقدّم شركة متخصصة في الإعلانات عبر الهاتف المحمول "نصائح وحيلاً" للتسويق القائم على الموقع: "تتيح لك هذه النصائح الاستفادة من الطبيعة القهرية لدى الناس من خلال تشجيع عمليات الشراء الاندفاعية بسبب الإشعارات التي ترسلها. كما تسمح لك أيضًا باكتساب رؤى حول عملائك الحاليين من خلال قراءة ما يُقال على موقعي فيسبوك و"يلب" (Yelp)...."⁽⁶³⁶⁾

توصي شركة تسويق هواتف أخرى "بتسويق أنماط الحياة" استنادًا إلى تقنيات

(634) مايكل جالفين، "اجذب العملاء باستخدام الإشارات والعلامات الجغرافية والسياج الجغرافي"، نيو بيرسبيكتيف، 21 مارس 2016.

(635) لوصف أكثر شمولاً لهذه العمليات وغيرها من عمليات المراقبة المستخدمة الآن في تجارة التجزئة، انظر كتاب جوزيف تورو، الممرات لها عيون: كيف يتتبع تجّار التجزئة مشترياتك، ويجردونك من خصوصيتك، ويحدّدون قوتك (نيوهافين، كونيتيكت: جامعة يال، 2017).

(636) غالفين، "اجذب العملاء باستخدام منصّة (Beacons)".

مستمدة من الاستخبارات العسكرية تُعرف باسم "تحليل أنماط الحياة". وتتضمن هذه الأساليب جمع بيانات الموقع وغيرها من بيانات الهواتف والأقمار الصناعية والمركبات وأجهزة الاستشعار لجمع معلومات استخباراتية حول أنماط السلوك اليومية "للشخص المعني" للتنبؤ بسلوكه المستقبلي. بحثُ المسوّقون على "رسم خريطة للأنماط اليومية للجمهور المستهدف" بهدف "إشراك الناس في روتينهم اليومي برسائل العلامة التجارية والترويجية". وكما تُؤكّد الشركة، "للشعور بالوجود في كل مكان تأثير نفسي عميق. يُؤثر تسويق أنماط الحياة تأثيرًا نفسيًا قويًا على المستهلكين". ووفقًا لتصريحات الشركة: "إن التأثير النفسي لإدراك الانتشار واسع النطاق وعميق. يترك تسويق أنماط الحياة أثرًا نفسيًا قويًا لدى المستهلكين". (637)

يمكنك إيقاف تشغيل تطبيق تحديد الموقع "جي. بي. إس" على هاتفك، لكن معظم الناس لا يفعلون ذلك، إما لأنهم يعتمدون على خدماته، أو لأنهم يجهلون كيفية عمله. ووفقًا لمركز بيو للأبحاث، فإن 74٪ من مالكي الهواتف الذكية في الولايات المتحدة في عام 2013 استخدموا تطبيقات تتطلب بيانات الموقع، وفي عام 2015 ازدادت النسبة إلى 90٪ - ما يقرب من 153 مليون شخص، أي أكثر من أولئك الذين يستمعون إلى الموسيقى أو يشاهدون الفيديو على هواتفهم. (638) يعني اعتماد رأسمالية المراقبة على العمليات السرية أن معظمنا ببساطة لا يعرف، ولا يستطيع أن يعرف، إلى أي مدى يعمل هاتفنا كجهاز تعقّب لدى الشركات.

تثبت دراسة أجراها باحثون في جامعة كارنيجي ميلون هذه النقطة بكفاءة. (639)

(637) مونتي زوين، "تسويق أنماط الحياة: اعتراض الناس في روتينهم اليومي"، شبكات سي سو، مارس 2009.

(638) مونیکا أندرسون، "ست حقائق عن الأمريكيين وهواتفهم الذكية"، مركز بيو للأبحاث، 1 أبريل 2015؛ "يستخدم معظم مالكي الهواتف الذكية خدمات تحديد الموقع - إي ماركرتر"، إي ماركرتر، 22 أبريل 2016؛ كريس سميث، "لماذا تُعد بيانات الموقع من أكثر التفاصيل المرغوبة التي تجمعها التطبيقات عنك"، بي جي آر، 25 مارس 2015.

(639) حازم المحمدي وآخرون، "تمت مشاركة موقعك 5398 مرة! دراسة ميدانية حول تعزيز خصوصية تطبيقات الهاتف المحمول"، في وقائع المؤتمر السنوي الثالث والثلاثين لجمعية آلات الحوسبة الأمريكية (ACM) حول العوامل البشرية في أنظمة الحوسبة، 15 'CHI (نيويورك: ACM، 2015)، الصفحات 787-796.

وأُبلغ ثلاثة وعشرون مشاركًا، على مدى ثلاثة أسابيع، وبشكل مستمر، بعدد التطبيقات التي تصل إلى معلومات موقعهم، وعدد مرات الوصول خلال فترة زمنية معينة. وقد أُصيبوا بالذهول من حجم الهجوم الهائل عندما عرفوا، بطرق مختلفة، أن مواقعهم اختُرِقت 4182 مرة، و5398 مرة، و356 مرة، وما إلى ذلك، على مدى فترة 14 يومًا - كل ذلك من أجل المعلنين، وشركات التأمين، وتجار التجزئة، وشركات التسويق، وشركات الرهن العقاري، وأي شخص آخر يدفع للمشاركة في هذه الأسواق السلوكية.⁽⁶⁴⁰⁾ وكما لخص أحد المشاركين الأمر: "شعرتُ بأن هاتفي يلاحقني. إنه أمرٌ مخيف".⁽⁶⁴¹⁾ وبعد ذلك، قيّد 58٪ من المشاركين الأذونات الممنوحة لتطبيقاتهم المحمولة.

لن نستغرب أن تكون غوغل في طليعة الشركات في مجال التتبع المستند إلى الموقع. لقد أوضحت إفادة خطيّة صادرة عام 2016 عن مسؤولي إنفاذ القانون، أثناء سعيهم للحصول على مذكرة تفتيش لسارق بنك في كاليفورنيا، لماذا تُعتبرُ بيانات موقع غوغل غير مسبوقة: "تجمع غوغل بيانات الموقع وتحفظ بها من الأجهزة المحمولة التي تعمل بنظام أندرويد. تقوم غوغل "بجمع هذه البيانات كلما تم تنشيط إحدى خدماتها، أو كلما وقع حدث في الجهاز المحمول مثل إجراء مكالمات هاتفية، أو إرسال رسالة نصية، أو الوصول إلى الإنترنت أو البريد الإلكتروني". وطلب المسؤولون عن القضية معلومات الموقع من غوغل لأنها تقدّم تفاصيل أكثر بكثير مما تستطيع شركات الهاتف تقديمه. تجمع أنظمة تحديد المواقع في نظام أندرويد بين بيانات أبراج الهاتف المحمول، ونظام تحديد المواقع العالمي "جي بي إس"، وشبكات "واي فاي" وغيرها من المعلومات المُستقاة من الصور ومقاطع الفيديو وغيرها من المصادر: "هذا يسمح لنظام أندرويد بتحديد موقع

(640) تيم موينهان، "التطبيقات تتجسس على موقعك أكثر مما تظن"، وايرد، 25 مارس 2015.

(641) بايرون سبايس، "دراسة تُظهر أن الناس يتصرفون لحماية خصوصيتهم عندما يُقال لهم عدد المرات التي تشارك فيها تطبيقات الهاتف المعلومات الشخصية"، أخبار جامعة كارنيجي ميلون، 23 مارس / آذار 2015.

المستخدمين في مبنى معين، بدلاً من كتلة مدينة بأكملها".⁽⁶⁴²⁾ وفي نوفمبر 2017، اكتشف مراسلو كوارتز الاستقصائيون أنه منذ أوائل عام 2017، كانت هواتف أندرويد تجمع معلومات الموقع من خلال تحديد أقرب أبراج الهاتف المحمول، حتى عندما تكون خدمات الموقع معطلة، ولا تكون التطبيقات قيد التشغيل، ودون تثبيت بطاقات "SIM" من شركة الاتصالات في الهاتف. واستُخدِمت المعلومات لإدارة إشعارات "الدفع"، والرسائل التي ترسلها غوغل إلى المستخدمين على هواتفهم التي تعمل بنظام أندرويد، مما يتيح للشركة تتبّع "ما إذا كان شخص معين لديه هاتف يعمل بنظام أندرويد، أو يستخدم تطبيقات غوغل، قد وضع قدمه في متجر معين، واستخدام ذلك لاستهداف الإعلانات التي يراها المستخدم لاحقاً".⁽⁶⁴³⁾

نظام غوغل لسجّل المواقع هو نتاج عمليات رسم الخرائط العالمية للشركة. لكن على الرغم من نشاطه لأكثر من عقد من الزمان، لم يُكشَف عنه للجمهور إلا في عام 2015 باسم "جدولك الزمني" (Your Timeline)، وهي ميزة "تتيح لك تصوّر روتينك اليومي".⁽⁶⁴⁴⁾ وأدركت الشركة أن أي ردّ فعل سلبي على حجم التتبّع الذي كشفت عنه خدمة "الجدول الزمني" واستمراره، سيتضاءل بسبب المساهمات النشطة للمستخدمين في مخزوناتهم من الفائض السلوكي أثناء قيامهم بضبط المعلومات وإضافة الصور ذات الصلة وإدراج التعليقات وما إلى ذلك. وتمثّل ذلك باستثمار فردي في خدمات مخصصة مثل "غوغل ناو" (Google Now)، لتمكينها من فحص تطبيقاتك وبريدك الإلكتروني بفاعلية أكبر، لعرض تحديثات حركة المرور والطقس، والإشعارات، والاقتراحات، والتذكيرات ذات الصلة. وتُعتبر بيانات الموقع هي المقابل لهذه الخدمات.

(642) راسل براندون، "الشرطة تُصدر أوامر تفتيش بشأن مخزن بيانات الموقع الهائل في أندرويد"، فيرج، 1 يونيو/ حزيران 2016.

(643) كيث كوليتز، "غوغل تجمع مواقع مستخدمي أندرويد حتى عندما تكون خدمات الموقع معطلة"، كوارتز، 21 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011.

(644) جيرارد سانس، "جدولك الزمني: إعادة زيارة العالم الذي استكشفتة"، غوغل لات لونغ، 21 يوليو 2015؛ ناثان إنغراهام، "غوغل تعرف أين كنت، يظهر لك جدولك الزمني ذلك"، فيرج، 21 يوليو 2015.

يسهل مرور هذا الإجراء من خلال الوعود المعتادة بالخصوصية والتحكم: "جدولك الزمني هو جدول خاص، ولا يمكن لأي شخص غيرك أن يراه؛ وأنت تتحكم في المواقع التي تختار الاحتفاظ بها". لكن غوغل تستخدم بيانات موقعك لاستهداف الإعلانات؛ والواقع أن هذه البيانات تُعتبر من بين أهم مصادر الفائض السلوكي في أسواق إعلانات غوغل، ولها تأثير مباشر على معدلات النقر. إن الرواية المعيارية التي تقدمها غوغل وغيرها من شركات رأسمالية المراقبة هي أنه لا يُحتفظ بالفائض السلوكي إلا على شكل بيانات وصفية تُجمع بعد ذلك عبر أعداد كبيرة من المستخدمين الأفراد. وأبلغنا أنه من غير الممكن التعرف على الأفراد من هذه التجمّعات واسعة النطاق. لكن مع ما لا يزيد عن ثلاثة عناصر من البيانات التي يُمكن استخلاصها بسهولة من السجل العام - تاريخ الميلاد، والرمز التعبيري، والجنس - فقد أثبت علم إعادة تحديد الهوية الشخصية - بعد ضياعها - قدرته على إزالة إخفاء هوية البيانات الوصفية "بسهولة تثير القلق".⁽⁶⁴⁵⁾ وفي ملخص لهذا البحث، كتب الباحث القانوني بول أوم أن "إعادة تحديد الهوية الشخصية تسهل بشكل كبير إمكانية اكتشاف أسرارنا كلها والكشف عنها. سيسهل على أعدائنا إمكانية ربطنا بالحقائق التي يمكنهم استخدامها لابتزازنا أو مضايقتنا أو تشويه سمعتنا أو توريطنا أو التمييز ضدنا... ويتنشر هذا الخطأ ينتشر في كل قانون يتعلق بخصوصية

(645) فيما يلي بعض الأمثلة على أدبيات إزالة إخفاء الهوية. في عام 1997، أظهرت باحثة خصوصية البيانات لاتفيا سويني بشكل مشهور أنه باستخدام سجلات السكان المتاحة للجمهور (مثل قائمة الناخبين)، يمكنها تحديد السجلات الطبية لحاكم ماساتشوستس ويليام ويلد من المعلومات الطبية التي جُردت بالفعل من جميع المعرفات الصريحة، مثل الاسم والعنوان ورقم الضمان الاجتماعي. انظر لاتفيا سويني، "بيان لاتفيا سويني، دكتوراه أمام اللجنة الاستشارية للخصوصية والزراعة التابعة لوزارة الأمن الداخلي - تقنيات الخصوصية للأمن الداخلي"، "وزارة الأمن الداخلي الأمريكية، 15 يونيو 2005؛ لاتفيا سويني، "أنت وطبيبك والعديد من الآخرين فقط قد يعرفون"، علوم التكنولوجيا، 29 سبتمبر 2015؛ لاتفيا سويني، "مطابقة شخص مع رقم الضمان الاجتماعي"، مختبر خصوصية البيانات، 13 أكتوبر 2017؛ شون هولي ولاتفيا سويني، "مسح قواعد بيانات الصحة الحكومية المتاحة للجمهور - مختبر خصوصية البيانات، IQSS"، جامعة هارفارد، 2013؛ إيف ألكسندر دي مونتغوي وآخرون، "فريد في مركز التسوق: حول إعادة تحديد هوية بيانات تعريف بطاقات الائتمان"، مجلة ساينس 347، العدد 6221 (2015): 536-539؛ جيسيكاسو، أنش شو كلا، شاراد جول، وأرفيند نارايانان، "إزالة إخفاء هوية بيانات تصفح الويب باستخدام شبكات التواصل الاجتماعي"، في المؤتمر الدولي السادس والعشرين لصفحات الويب العالمية (بيرث، أستراليا: ACM، 2017)، 1261-1269.

المعلومات تقريباً". كما يُطلق أوم على مخابئ الكميات الهائلة من الفائض السلوكي المجهول المزعوم اسم "قواعد بيانات الخراب". (646)

عندما يصل الأمر إلى بيانات الموقع، يصبح الوضع أسوأ بكثير. في عام 2013، أثبتت مجموعة من علماء الحاسوب من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة هارفارد أنه نظرًا لامتلاك كل فرد بصمة حركية مميزة، يستطيع أي محلل، لديه الأدوات المناسبة، استخراج نمط حركة شخص معين من مجموعة بيانات ضخمة أُزيلت منها المعرفات الشخصية. وأظهر فريق بحثي آخر أن البيانات التي تُجمع بواسطة أجهزة استشعار مُدمجة في الهواتف الذكية والتي تبدو "غير ضارة"، مثل أجهزة قياس التسارع، وأجهزة قياس الاتجاهات، وأجهزة قياس المغناطيسية، يمكن استخدامها لاستنتاج "مجموعة تزايد باستمرار لأنشطة بشرية وحتى حالات مزاجية". ويُظهر عملهم أيضًا أنه الإمكان استخدام بيانات الاستشعار "للحصول على معلومات حساسة حول مستخدمين محددين من مجموعة بيانات ضخمة أُزيلت منها المعرفات الشخصية". (647)

تستخدم الشركات قدرات المراقبة هذه. أنتجت شركة برودكوم "نظام ملاحية عالمي عبر الأقمار الصناعية" في شريحة تجمع بين الاتصالات عبر الأقمار الصناعية وأجهزة الاستشعار في هاتفك المحمول لإنشاء "محرك تحديد مواقع" يمكنه العثور على موقعك حتى لو لم تكن متصلًا بشبكة، بما في ذلك موقعك في مبنى، وعدد الخطوات التي اتخذتها، وفي أي اتجاه، وعلى أي ارتفاع. ويعتمد هذا كله على عامل واحد فقط، كما يقول نائب رئيس الشركة: "أن يكون الجهاز في يدك". (648) وقد لخص

(646) بول أوم، "العواد المكسورة بالخصوصية: الرد على الفشل المفاجئ لإخفاء الهوية"، مجلة مراجعة قانون جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس 57 (أغسطس / آب 2010): 1701.

(647) دي مونتغوي وآخرون، "فريد في مركز التسوق". انظر أيضًا إيف ألكسندر دي مونتغوي، "الخصوصية الحاسوبية: نحو استخدامات للبيانات الوصفية تراعي الخصوصية"، معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 2015؛ نيكولاس د. لين وآخرون، "حول جدوى كشف هوية المستخدم من بيانات استشعار الهاتف المحمول المشتركة"، في وقائع ورشة العمل الدولية الثالثة حول تطبيقات الاستشعار على الهواتف المحمولة: فون سينس 2012، 2012.

(648) كريستينا ديسماريه، "هذه التقنية لتتبع الهواتف الذكية ستثير قلقك"، بي سي وورلد، 22 مايو/

عالم الحاسوب في جامعة برينستون، أرفيند نارايانان وإدوارد فيلتن، الأمر على النحو التالي: "لا توجد طريقة فعّالة معروفة لإخفاء هوية بيانات الموقع، ولا يوجد دليل على إمكانية تحقيق ذلك بشكل مفيد". (649)

حتى من دون "إزالة إخفاء الهوية"، تشكل بيانات تحديد الموقع تركيزاً استثنائياً للمعرفة داخل الشركات الخاصة وميزة استثنائية في تقسيم التعلّم. في عام 2016، أعلن محرّك البحث الصيني بايدو، الذي يشار إليه غالباً باسم غوغل الصين، أن "مختبر البيانات الضخمة" الخاص به يستخدم بيانات الموقع من مستخدميه البالغ عددهم 600 مليون، لتتبع ديناميكيات الاقتصاد الصيني وتوقعها. بنت الشركة "دليل التوظيف" للاقتصاد الوطني وبنت "مؤشر الاستهلاك" أيضاً. كما روّجت الشركة لقدرتها على توليد توقعات محددة للغاية مثل أرباح شركة أبل في الربع الثاني في الصين من ذلك العام. وقال باحثو بايدو: "وفقاً لمعرفتنا، نحن أول من يقيس ثاني أكبر اقتصاد من خلال استخراج مثل هذه البيانات المكانية الزمنية الضخمة، والدقيقة بشكل غير مسبوق". (650)

على الرغم من قوة بيانات الموقع، تشكّل التقنيات القابلة للارتداء وتطبيقاتها مجال اختبار آخر مهماً في عملية تمثيل الجسد. (651) ويصف أحد التقارير الصادرة عام 2017 جيلاً جديداً من الأجهزة القابلة للارتداء "المجهزة بمزيد من أجهزة الاستشعار والخوارزميات الأكثر ذكاءً... والتي تركز على المراقبة الحيوية... وأجزاء الجسم

أيار 2012.

(649) أرفيند نارايانان وإدوارد ديليو. فيلتن، "لا يوجد حلّ سحري: لا يزال إلغاء الهوية غير فعال"، 9 يوليو/ تموز 2014.

(650) هال هودسون، "يستخدم بايدو بيانات مواقع ملايين المستخدمين للتنبؤ"، مجلة نيو ساينتست، 20 يوليو/ تموز 2016.

(651) في عام 2015، استخدم 29.5 مليون بالغ أمريكي أجهزة قابلة للارتداء - معظمها أجهزة تتبع اللياقة البدنية مثل أجهزة أندرو آر مور والساعات الذكية - بزيادة قدرها 57.7% عن عام 2014. انظر ماري إلين بيرغلوند، وجوليا دوفال، ولوسي إي. دان، "دراسة استقصائية للنطاق التاريخي والاتجاهات الحالية لتطبيقات التكنولوجيا القابلة للارتداء"، في وقائع ندوة ACM الدولية لعام 2016 حول أجهزة الحاسوب القابلة للارتداء، ISWC 16 (نيويورك: ACM، 2016)، 40-43؛ كيت كاي، "لجنة التجارة الفيدرالية: تطبيقات اللياقة البدنية يمكن أن تساعدك على حرق السعرات الحرارية - والخصوصية"، Advertising Age، 7 مايو 2014.

كقنوات لجمع البيانات...". يمكن لهذه المستشعرات المعقدة الوصول إلى "السياق البيئي... والروائح... والحالة العاطفية...".⁽⁶⁵²⁾ وطوّرت شركة غوغل أقمشة متصلة بالإنترنت، مدّعية أنها تهدف إلى جلب الخيوط الاستقرائية إلى كل ثوب وقماش على وجه الأرض. ويوضح إيفان بويريف، قائد المشروع، قائلاً: "إذا استطعت دمج المستشعر في النسيج، كمادة، فأنت تبتعد عن الإلكترونيات. وتجعل المواد مواد العالم الأساسية من حولنا تفاعلية". وقد أسفرت الشراكة مع شركة ليفي شتراوس بالفعل عن إنتاج "جينز تفاعلي"، بما في ذلك سترة طُرِحَتْ في السوق للمرة الأولى في سبتمبر/أيلول 2017. ووُصِفَت المادة بأنها قادرة على "استنتاج السلوك" لتكون "تفاعلية وأصلية في الوقت نفسه".⁽⁶⁵³⁾ تحتوي السترة على أجهزة استشعار يمكنها "الرؤية" من خلال القماش لاكتشاف رموز الإيحاءات الدقيقة مثل ارتعاش إصبعك، وفكّ شيفرتها.

ثمة تكرار غريب لموضوعات ماكاي في جميع الأعمال المتعلقة بالأجهزة القابلة للارتداء. وكما شدّد على أن أجهزة القياس عن بعد يجب أن تعمل "خارج وعي" "الحيوانات غير المقيدة"، يؤكّد المطوّرون اليوم على أن الأجهزة القابلة للارتداء يجب أن تكون "غير ملحوظة" لتجنب إثارة الإنذار. وينبغي أن تكون هذه المبادرات "مستمرة"، و"واسعة النطاق"، والأهم من ذلك، "منخفضة التكلفة" من أجل تحقيق اقتصاديات النطاق.⁽⁶⁵⁴⁾ وتتوقع شركة التسويق الرقمي "أوفوم" أن يصل عدد

(652) ميشيل دي موي وشيلتن يوين، "نحو بحث وتطوير يراعي الخصوصية في مجال الأجهزة الصحية القابلة للارتداء"، مؤتمر هاواي الدولي لعلوم النظم 2017 (HICSS-50)، 4 يناير/كانون الثاني 2017.
(653) سارة بيريز، "سترة غوغل وليفي" المتصلة بالإنترنت" التي تتيح لك الردّ على المكالمات واستخدام الخرائط وأشياء أخرى معروضة للبيع"، تك كرانش، 25 سبتمبر 2017.

(654) تتضمن بعض الأمثلة من الأعمال الحديثة "يالي زينغ" وآخرون، "الاستشعار غير الملحوظ والأجهزة القابلة للارتداء لمعلوماتية الصحة"، معاملات IEEE للهندسة الطبية الحيوية 61، رقم 5 (2014): 1538-1554؛ "كلاير فورينو وآخرون، "الاستشعار الاصطناعي الشبيه بالجلد في الملابس القابلة للارتداء"، مجلة أبحاث كلية الهندسة والتكنولوجيا التابعة لحاكم جامعة روتجرز، 16 يوليو 2016؛ برتي كوماري وليني ماثيو وبونام سيال، "الاتجاه المتزايد للأجهزة القابلة للارتداء والواجهة متعددة الوسائط لمراقبة النشاط البشري: مراجعة"، أجهزة الاستشعار الحيوية والإلكترونيات الحيوية 90، الملحق C (15 أبريل 2017): 298-307؛ أربان بال، أريجيت موخيرجي، وسوارنافا دي، "مستقبل الرعاية الصحية - التنبؤ المستند إلى بيانات المستشعرات"، في كتاب "عالم الاتصالات اللاسلكية في عام 2050 وما بعده: نافذة على المستقبل!"،

الأجهزة القابلة للارتداء إلى 650 مليون جهاز بحلول عام 2020، وهو ما يقرب من ضعف العدد المستخدم في عام 2016، وتشير أبحاث الشركة إلى أن النمو مدفوع إلى حد كبير بإغراء عائدات المراقبة. وأفاد مُعلنو الهواتف المحمولة أن الأجهزة القابلة للارتداء تُعتبر "مصدرًا لرؤى بيانات دقيقة للغاية، بالإضافة إلى أنواع جديدة من بيانات السلوك والاستخدام. ستمتّع الأجهزة القابلة للارتداء في المستقبل بالقدرة على جمع كمية كبيرة من البيانات المتعلقة بنشاط المستخدم وصحته وحالته النفسية. ويمكن استخدام هذه المعلومات لتحسين كل من المنتجات والرسائل التسويقية وتخصيصها إلى درجة عالية للغاية....". (655)

تشكّل الرعاية الصحيّة مجالًا نشطًا خاصًا لاختبار تقنيات الاستشعار القابلة للارتداء، وهو التطوّر الذي يُعدّ ضارًا بشكل خاص نظرًا للأصول البريئة لهذه الفكرة. عندما انتقل القياس عن بعد للمرّة الأولى من مجموعات ماكاي وقطعان الماشية إلى البشر، كان أحد تطبيقاته الأولى فلدات تعمل بالضغط على الأزرار يرتديها كبار السنّ المرضى الذين يعيشون وحدهم في المنازل. وفي عام 2002، العام الذي حقّقت فيه رأسالية المراقبة التي كانت لا تزال سرّية أولى اختراقاتها، شدّدت دراسة عن "أجهزة مراقبة طبيّة لاسلكية تعمل عن بعد"، على أهمية مراقبة المسنين في المنزل، وتوسيع نطاق الخدمات الصحيّة في المناطق النائية. وكما هو الحال في "المنزل الذكي"، يتضمّن الرسم التخطيطي للهندسة الرقمية المقترحة لخدمات مراقبة المنازل ثلاثة أطراف فقط: حلقة مغلقة تربط بشكل حصري بين المريض وطبيبه وخوادم المستشفى. (656) ليس هناك أطراف إضافية متخيّلة في أي من هذه التصاميم، ولا شركات لالتقاط السلوك، ولا شركات تكنولوجيا عملاقة بمنصاتها النفوذة وخوادمها الخاصة المملوكة التي تحوّل حياتك إلى فائض سلوكي يمكنها من تأليف

سلسلة سبرينغر في تكنولوجيا الاتصالات اللاسلكية (شام، سويسرا: سبرينغر، 2016)، الصفحات 93-109.

(655) "تقرير أوفوم: مستقبل التجارة الإلكترونية - الطريق إلى عام 2026"، كريتيو، 2015.
(656) سي. إس. باتيشيس وآخرون، "انظمة الطب عن بعد اللاسلكية: نظرة عامة"، مجلة معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، المجلد 44، العدد 2 (2002): 143-153.

كتاب عما قد ترغب به، وتمكين عملائها من بيعه لك أولاً.

قبل نشأة رأسالية المراقبة وانتشارها، كان بالإمكان أن نتخيل التمثيلات الرقمية لجسدك باعتبارها إثراء للعلاقات الحميمة بين المريض والطبيب الموثوق به، والأم وطفلها، والآباء المسنين وأبنائهم البالغين. لكن هذه الرؤية أصبحت سخيفة بعد سيطرة رأسالية المراقبة على الوسط الرقمي. يُفترض من مشروع المنزل الذكي، وأجهزة القياس الطبيّة عن بعد، أن يُعاد استثمار جميع البيانات السلوكية في خدمة الإنسان الذي هو موضوع هذه الترتيبات، مما يوفر الهدوء والثقة والكرامة: فرصة للمعرفة الحقيقية وتعزيز القوة.

لا تزال مقالات كثيرة حول مراقبة الصحة تشدد على فائدتها لكبار السن، إلا أن النقاش قد تجاوز هذه المرحلة المبكرة من الكياسة. يتوقع بعض الباحثين اندماج "المدن الذكية" مع ما يُعرف الآن بـ "الصحة المتنقلة" لإنتاج "الصحة الذكية"، المعروفة بأنها "توفير خدمات صحيّة باستخدام الشبكة المُراعية للسياق والبنية التحتية للاستشعار في المدن الذكية".⁽⁶⁵⁷⁾ ولتحقيق هذه الغاية، ابتكرت أجهزة استشعار موثوقة لتقديم مزيد من العمليات الفيزيولوجية على هيئة بيانات سلوكية، من ضمنها درجة حرارة الجسم، ومعدل ضربات القلب، ونشاط الدماغ، وحركة العضلات، وضغط الدم، ومعدل التعرّق، والطاقة المصروفة، وحركة الجسد والأطراف. وهناك أجهزة استشعار يمكنها تقديم بيانات صوتية ومرئية وفيزيولوجية أثناء تعافي المريض وإعادة تأهيله بعد الجراحة. كما طوّرت رقعة نسيجية مرنة مزوّدة بمستشعرات يمكنها تحويل التنفّس وحركات اليد والبلع والمشي إلى بيانات سلوكية. وهناك تطبيقات أخرى توفر فيها "أجهزة الاستشعار الدقيقة القابلة للارتداء تحليلاً ميكانيكياً حيويّاً دقيقاً أثناء المشي أو الجري، كما تقوم شبكة منطقة الجسم بتسجيل المشي والجري وتحليلهما في ظل ظروف قاسية".⁽⁶⁵⁸⁾

(657) أيه. سولاناس وآخرون، "الصحة الذكية: نموذج صحي واعٍ للسياق داخل المدن الذكية"، مجلة اتصالات معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، المجلد 52، العدد 8 (2014): 74-81،
(658) سوبهاس تشاندرا موخوبادياي، "أجهزة استشعار قابلة للارتداء لمراقبة النشاط البشري: مراجعة"، مجلة أجهزة استشعار معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، المجلد 15، العدد 3 (2015): 1321-1330؛

الشهادة البليغة على فشل نظام الرعاية الصحية في تلبية احتياجات الأفراد في عصر الحداثة الثانية هو أننا نستطيع الآن الوصول إلى البيانات الصحية والنصائح من هواتفنا بينما تصل إلينا أجهزة الحاسوب الجيبية بشكل عدواني. لقد أدى استخدام الهواتف الذكية في الرعاية الصحية إلى انفجار في عمليات التسليم والاستحواذ على الفائض السلوكي لأن الأشخاص يلجؤون الآن بأعداد كبيرة إلى أساور اللياقة البدنية، وتطبيقات الحمية الغذائية، للحصول على الدعم والتوجيه. (659) بحلول عام 2016، كان هناك أكثر من 100 ألف تطبيق صحي محمول متاح على منصات أندرويد وغوغل وآبل و"ios"، وهو ضعف ما كان في عام 2014. (660) لم يعد بالإمكان تصوّر هذه البيانات الغنية محصورة داخل حلقات مغلقة حميمة بين المريض وطيبه، أو بين التطبيق وأتباع حمية غذائية معينة أو ممارسي رياضة الجري. من المؤكد

ستيفن إس. إنتيل، وجوناثان ليستر، وجيمس إف. ساليس، وجلين دنكان، "آفاق جديدة في تطوير أجهزة الاستشعار"، الطب والعلوم في الرياضة والتمارين، المجلد 44 (يناير 2012): الصفحات 24-31؛ بي. كاستيليجو، وجيه. إف. مارتينيز، وجيه. رودريغيز-مولينا، وأ. كويرفا، "دمج الأجهزة القابلة للارتداء في شبكة استشعار لاسلكية لتطبيق الصحة الإلكترونية"، اتصالات معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات اللاسلكية، المجلد 20، العدد 4 (2013): 38-49؛ ج. تشنغ، و. أمفت، و. باهل، و. لوكوفيتش، "تطوير وتصميم مستشعرات سعوية حساسة قابلة للارتداء للكشف والتعرف على الأنشطة"، مجلة مستشعرات معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، العدد 13، العدد 10 (2013): 3935-47؛ د. دي روسي و. فيلنتينك، "التكنولوجيا القابلة للارتداء للميكانيكا الحيوية: نسيج إلكتروني أم مستشعرات ميكانيكية دقيقة؟" مجلة هندسة الطب والأحياء، معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، 20 مايو 2010، الصفحات 37-43. (659) في عام 2012، أفاد مركز بيو للأبحاث أن 53% من الأمريكيين يمتلكون هواتف ذكية، ومن بينهم 20% قاموا بتحميل تطبيق صحي واحد على الأقل. وبحلول عام 2015، وجد استطلاع وطني أن 71% من الأمريكيين يمتلكون هواتف ذكية أو أجهزة لاسلكية أخرى، ومن بينهم 32% قاموا بتحميل تطبيق صحي واحد على الأقل، مما يلبي "رغبة الجمهور في المراقبة والتشخيص والعلاج في أي مكان وفي أي وقت". انظر سوزانا فوكس ومايف دوغان، "الصحة المتنقلة 2012"، مركز بيو للأبحاث: الإنترنت والعلوم والتكنولوجيا، 8 نوفمبر 2012؛ مارك بروهان، "الهاتف المحمول سيكون أحد أهم اتجاهات صناعة الصحة في عام 2016"، مجلة "موبايل استراتيجيز 360، 11 ديسمبر 2015. أفاد فوربس عن الحماس الذي استقبلت به الصناعة هذا الخبر: "شركات الأدوية الكبرى تطلق مئات التطبيقات المحمولة... بينما تتخذ الشركات خطوات إضافية في مجال الهاتف المحمول للحفاظ على انخفاض تكاليف التأمين الصحي لموظفيها..." انظر جينيفر إلياس، "في عام 2016، سينتج المستخدمون بتطبيقات الصحة أكثر من أطباءهم"، فوربس، 31 ديسمبر 2015.

(660) غابرييل أدونيزيو، "مخاطر الخصوصية المحيطة بتطبيقات الصحة واللياقة البدنية للمستهلكين مع قيود قانون التأمين الصحي المحمول والمساءلة (HIPAA) وإرشادات لجنة التجارة الفيدرالية"، مجلة توقعات قانون الصحة، العدد 9، العدد 1 (2016).

أن لهذه الرؤية التي تبدو ممتعة بعض العوائق، لكنها ليست سوى صورة باهتة بالنسبة إلى رأسمالي المراقبة.

لا تخضع معظم تطبيقات الصحة واللياقة البدنية لقوانين خصوصية الصحة في الولايات المتحدة، ولا تأخذ القوانين الموجودة القدرات الرقمية الجديدة، أو ضراوة عمليات رأسمالية المراقبة بعين الاعتبار بشكل كافٍ. من المتوقع أن تنظم الشركات نفسها من خلال اتباع المبادئ التوجيهية التي اقترحتها لجنة التجارة الفيدرالية (FTC) وغيرها من الوكالات الحكومية. على سبيل المثال، في عام 2016، أصدرت لجنة التجارة الفيدرالية قائمة بأفضل ممارسات مطوري تطبيقات الصحة المحمولة بهدف زيادة الشفافية والخصوصية والأمان. ومن بين هذه الاقتراحات، يُشجع المطورون على "التأكد من أن التطبيق لا يصل إلى معلومات عن المستهلك لا يحتاج التطبيق إليها، والسماح للمستهلك باختيار جهات اتصال معينة، بدلاً من مطالبة التطبيق بالوصول إلى جميع جهات اتصال المستخدم عبر واجهة برمجة التطبيقات القياسية، والسماح للمستخدمين باختيار الإعدادات الافتراضية لحماية الخصوصية". وفي ذلك العام، أعلنت إدارة الغذاء والدواء الأمريكية أنها لن تسعى أيضاً إلى تنظيم تطبيقات الصحة واللياقة البدنية، مشيرةً إلى "انخفاض مستوى خطورتها". وأصدرت الوكالة، بدلاً من ذلك، مجموعتها الخاصة من الإرشادات الطوعية لمطوري البرامج.⁽⁶⁶¹⁾

تتجاهل المبادئ التوجيهية، ذات النوايا الحسنة، التي وضعتها الوكالات، الحقيقة غير المريحة المتمثلة بأن الشفافية والخصوصية تمثلان احتكاكاً مع رأسمالي المراقبة بالطريقة نفسها التي كان بها تحسين ظروف العمل، أو رفض عمالة الأطفال، أو تقصير يوم العمل، يمثل احتكاكاً مع رأسمالي الصناعة الأوائل. لقد تطلّب الأمر قوانين محددة لتغيير ظروف العمل في ذلك الوقت، وليس اقتراحات. هكذا هو الحال الآن،

(661) "مطوّرو تطبيقات الصحة على الأجهزة المحمولة: أفضل ممارسات لجنة التجارة الفيدرالية"، لجنة التجارة الفيدرالية، أبريل/نيسان 2016؛ "الإفصاح عن خصوصية الأجهزة المحمولة: بناء الثقة من خلال الشفافية"، لجنة التجارة الفيدرالية، فبراير/شباط 2013؛ هاريسون كامينسكي، "إدارة الغذاء والدواء الأمريكية تُصرّح بأنها لن تُنظّم أجهزة تتبع اللياقة البدنية وتطبيقات العافية"، الاتجاهات الرقمية، 31 يوليو/تموز 2016.

لا يمكن فهم المشكلات التي تُعالجها دعوات ضبط النفس هذه باعتبارها تجاوزات أو أخطاء أو سهو أو زلات في التقدير. بل تحتاج هذه المشكلات إلى إجراءات ضرورية بفعل منطق التراكم السائد وضروراته الاقتصادية المتواصلة.

خلصت دراسة قانونية لتطبيقات الصحة عبر الهاتف المحمول إلى أن معظم هذه التطبيقات "تأخذ معلومات المستهلكين وبياناتهم الخاصة دون إذنهم... ولا توضح للمستخدم بشكل عام أن هذه المعلومات سترسل إلى شركات إعلانات". وتؤكد سلسلة طويلة من الدراسات هذه الاستنتاجات،⁽⁶⁶²⁾ لكن دعنا نركز على تحقيق عميق أجراه علماء من كلية مونك للشؤون العالمية في جامعة تورنتو عام 2016 بالتعاون مع منظمة "أوبن إفكت"، وهي منظمة غير ربحية تركز على الخصوصية والأمن الرقمي. تناولت هذه الدراسة أنشطة التجميع والمعالجة والاستخدام المرتبطة بتسعة أجهزة لتتبع اللياقة البدنية.⁽⁶⁶³⁾ واختيرت سبعة تطبيقات بناءً على شعبيتها، وكان أحدها من إنتاج شركة كندية، وكان التطبيق التاسع متخصصًا في صحة المرأة. وقامت جميع التطبيقات، باستثناء تطبيقين، بنقل كل حدث لياقة بدنية مسجل إلى خوادم الشركة، مما مكن من إجراء النسخ الاحتياطي والمشاركة مع الأصدقاء، لكنه مكن أيضًا من

(662) توبياس ديلينغ وآخرون، "استكشاف الجانب البعيد للصحة عبر الهاتف المحمول: أمن المعلومات وخصوصية تطبيقات الصحة عبر الهاتف المحمول على نظامي أندرويد و"ios"، مجلة أبحاث الإنترنت الطبية (JMIR) للصحة عبر الهاتف المحمول العدد 1 (2015): 1-26. في عام 2013، أجرى مركز تبادل معلومات حقوق الخصوصية تحليلًا لتقييم مجموعة من تطبيقات الصحة واللياقة البدنية وفقًا لمستوى مخاطر الخصوصية، بما في ذلك مصادرة المعلومات الشخصية، وحساسية تلك المعلومات، ودرجة انتشارها. انظر "تطبيقات الصحة واللياقة البدنية عبر الهاتف المحمول: ما هي مخاطر الخصوصية؟" مركز تبادل معلومات حقوق الخصوصية، 1 يوليو 2013؛ برونو م. سيلفا وآخرون، "حل تشفير البيانات لتطبيقات الصحة عبر الهاتف المحمول في بيئات التعاون"، مجلة أبحاث الإنترنت الطبية 15، العدد 4 (2013): e66؛ ميلوسلاف بلاشكينوفا، ستيفن أندريس، وسمير تشاترجي، "تصنيف تطبيقات الصحة المتنقلة - مخاوف تتعلق بالأمن والخصوصية"، مؤتمر هاواي الدولي الثامن والأربعون لعلوم النظم، 2015، 3187-3196؛ سوميترا س. بهويان وآخرون، "قضايا الخصوصية والأمن في مجال الصحة المتنقلة: الأبحاث الحالية والتوجهات المستقبلية"، مجلة سياسات وتكنولوجيا الصحة، يناير 2017؛ بورخا مارتينيز-بيريز، إيزابيل دي لا توري-ديز، وميغيل لوبيز-كورونا دو، "الخصوصية والأمن في تطبيقات الصحة المتنقلة: مراجعة وتوصيات"، مجلة الأنظمة الطبية 39، العدد 1 (2015). (663) أندرو هيلتس، وكريستوفر بارسونز، وجيفري نوكيل، "كل خطوة تتظاهر بها: تحليل مقارن لخصوصية وأمان أجهزة تتبع اللياقة البدنية"، التأثير المفتوح، 2016.

"تحليل البيانات" وتوزيعها إلى طرف ثالث. تنقل بعض أجهزة التتبع أرقام تعريف الجهاز، وينقل بعضها بشكل سلبي ومستمرّ إحداثيات خطوط الطول والعرض الدقيقة للمستخدم. وقد ربطت أرقام التعريف هذه "بيانات اللياقة البدنية والسيرة الذاتية بجهاز هاتف محمول واحد، أو جهاز لياقة بدنية محدد يمكن ارتداؤه...". ولم تكن أية معلومة من هذه المعلومات الحساسة ضرورية لتشغيل جهاز التتبع بشكل فاعل، وكانت معظم سياسات الخصوصية غامضة في أفضل الأحوال، وتسمح "ببيع البيانات أو تبادلها مع طرف ثالث". وكما نعرف، عندما يستحوذ طرف ثالث على فائضك السلوكي، تتم مشاركة هذا الفائض مع طرف ثالث آخر، وبدوره يشاركه مع آخر، وهكذا. كما تفحص الفريق طريقة نقل أجهزة التتبع لعنوان وحدة التحكم في وصول الوسائط عبر تقنية "البلوتوث" أو لعنوان "MAC" الفريد لكل هاتف. عندما يكون هذا العنوان قابلاً للاكتشاف علناً، يمكن لأي طرف ثالث لديه مصلحة في تحركاتك - تجار التجزئة الذين يريدون معرفة نشاطك في المركز التجاري، وشركات التأمين المهتمة بالتزامك بنظام التمارين الرياضية - أن يتتبع هاتفك "بشكل مستمر". ويمكن لدمج مجموعات البيانات المتعددة المسجلة بمرور الوقت تكوين صورة دقيقة عن تحركاتك، مما يعزز إمكانيات التطبيقات المستهدفة، ويزيد إمكانية الحصول على نتائج مضمونة. وتكون الحماية الحقيقية الوحيدة لهاتفك هي عندما يقوم تطبيق معين، بشكل عشوائي لكنه دوري، بإنشاء عنوان "MAC" لهاتفك، ولكن من بين أجهزة التتبع التسعة، لم تقم سوى شركة آبل بهذه العملية.

يشير التقرير أيضًا إلى نمط عام من الإهمال الأمني فضلًا عن القدرة على توليد بيانات كاذبة. ولاحظ الباحثون أن من المرجح أن يتعرض المستهلكون للتضليل والارتباك، من خلال المبالغة في تقدير مدى التدابير الأمنية والتقليل من شأن "نطاق البيانات الشخصية التي تجمعها شركات تتبع اللياقة البدنية". ووفقًا لاستنتاجاتهم، "لقد اكتشفنا وجود ثغرات أمنية خطيرة، وعمليات نقل حساسة للغاية للموقع الجغرافي لا تقدّم أية فائدة واضحة للمستخدم النهائي.... وسياسات تترك الباب مفتوحًا لببيع بيانات اللياقة البدنية الخاصة بالمستخدمين إلى طرف ثالث دون موافقة

إذا كنت تميل إلى رفض هذا التقرير لأن بالإمكان اعتبار أجهزة تتبع اللياقة البدنية مجرد ألعاب، دعنا نلق نظرة على تحقيق دقيق في تطبيقات مرضى السكري التي تعمل بنظام أندرويد في تقرير بحثي صدر في مجلة الطب الأمريكي عام 2016، ومعه توضيح وافٍ لجنون محاكاة الجسم. يشير الباحثون إلى أنه على الرغم من موافقة إدارة الغذاء والدواء على وصف مجموعة من التطبيقات التي تنقل بيانات صحية حساسة، فإن ممارسات هذه التطبيقات، التي تتم خلف الكواليس، "لم تخضع لدراسة كافية". أخضعوا 211 تطبيقاً لمرض السكري للفحص، وأخذوا عينات عشوائية من 65 منها لتحليل ممارسات نقل البيانات عن كتب. (664)

في هذه التطبيقات، إن مجرد تنزيل البرنامج يسمح تلقائياً "بجمع المعلومات الحساسة وتعديلها". وحدّد الباحثون أنشطة كثيرة تحدث خلف الكواليس، بما في ذلك التطبيقات التي تعدّل معلوماتك أو تحذفها (64٪)، وتقرأ حالة هاتفك وهويتك (31٪)، وتجمع بيانات الموقع (27٪)، وتُظهر اتصالات "إي فاي" الخاصة بك (12٪)، وتنشّط الكاميرا في جهازك للوصول إلى صورك ومقاطع الفيديو الخاصة بك (11٪). ومضت نسبة تصل ما بين 4٪ و 6٪ من التطبيقات إلى أبعد من ذلك: قراءة قوائم جهات الاتصال لديك، والاتصال بأرقام الهواتف الموجودة على جهازك، وتعديل جهات الاتصال لديك، وقراءة سجلّ مكالماتك، وتنشيط الميكروفون لتسجيل محادثاتك.

أخيراً، كشف فريق البحث سرّاً أشدّ خطورة: سياسات الخصوصية لا تهم. من بين 211 تطبيقاً في المجموعة، كانت نسبة 81٪ منها لا تتضمن سياسات خصوصية، والتطبيقات التي كانت تتضمن سياسة خصوصية، "لم تكن البنود كلها تحمي الخصوصية فعلاً". ومن بين التطبيقات التي لا تتضمن سياسات خصوصية، شاركت 76٪ منها معلومات حساسة مع طرف ثالث، ومن بين التطبيقات التي تتضمن

(664) سارة آر. بليزر وآخرون، "سياسات الخصوصية لتطبيقات أندرويد لمرضى السكري ومشاركة المعلومات الصحية"، JAMA 315، العدد 10 (2016): 1051-52.

سياسات خصوصية، شاركت 79٪ منها البيانات، بينما اعترف ما يقرب من النصف فقط بفعل ذلك في تصريحاتهم المنشورة. بعبارة أخرى، من الأفضل أن نطلق على سياسات الخصوصية اسم "سياسات المراقبة"، هذا هو الاسم الذي أقرّح أن نطلقه عليها.

ثمة مجالات كثيرة جديدة لتسليم الجسد: الأعضاء، الدم، العيون، موجات الدماغ، الوجوه، المشية، وضعية الجسم. كلٍ منها يُعبّر عن نفس الأنماط والغرض الذي رأيناه هنا. يقاوم رأساليو المراقبة بشراسة أية محاولة لتقييد عمليات التسليم. وتشكّل شراسة ادعائهم "بحقّهم في التسليم" دليلاً دامعاً على أهميته الجوهرية في السعي خلف إirادات المراقبة. وتتجلى هذه الشراسة بوضوح في تصميمهم على تثبيط أية قوانين تحكم تقديم المعلومات البيومترية، ولا سيّما التعرّف على الوجه، أو إلغائها أو إضعافها. ونظرًا لعدم وجود قانون فيدرالي في الولايات المتحدة يُنظّم تقنية التعرّف على الوجه، تدور هذه النزاعات على مستوى الولايات. ويوفّر قانون إيلنوي للخصوصية أشمل حماية قانونية حالية، إذ يلزم الشركات بالحصول على موافقة كتابية قبل جمع المعلومات البيولوجية من أي فرد، من أي فرد، ويمنح الأفراد، من بين بنود أخرى، الحق في مقاضاة الشركة بتهمة التسليم غير المُصرّح به.⁽⁶⁶⁵⁾

وثق مركز النزاهة العامة، إلى جانب الصحفيين والمدافعين عن الخصوصية والعلماء القانونيين، معارضة رأساليو المراقبة النشطة لقانون إلينوي والمقترحات التشريعية المماثلة في ولايات أخرى. وتُعتبر شركة فيسبوك، بفضل مزاياها التنافسية الفريدة في مجال التعرّف على الوجه، الشركة الأكثر صرامة بين جميع شركات التكنولوجيا فيما يتعلّق بالبيانات البيولوجية، حيث وُصِفَتْ بأنها "تعمل بحماس لمنع الولايات الأخرى من سنّ مثل هذا القانون الموجود في إلينوي".⁽⁶⁶⁶⁾

(665) إيرين مارين، "قوانين الخصوصية البيومترية: إلينوي ومكافحة التكنولوجيا التطفلية"، كلية الحقوق بجامعة فورد هام، 29 مارس 2018.

(666) غاريد بينيت، "حفظ ماء الوجه: تريد شركة فيسبوك وصولاً بلا حدود"، مركز النزاهة العامة، 31 يوليو/تموز 2017.

اكتسبت شركة فيسبوك قوة سياسية هائلة خلال سنوات قليلة، إذ تعلّمت كيفية محاكاة قواعد غوغل في التحصينات السياسية والثقافية. وأظهر مؤسس الشركة، مارك زوكربيرغ، تصميمًا هائلًا على الحفاظ على حرّيته في الفضاء الخارج عن القانون، ووسّع حدود اللوائح القائمة، وعارض بقوة حتى أدنى همسة. وزادت الشركة إنفاقها على الضغط، بين عامي 2009 و2017، بواقع خمسين ضعفًا، مما أدّى إلى تشكيل "مجموعة ضغط ضخمة من سيطرة السلطة في واشنطن". وأكملت تبرّعات الشركة، البالغة 4.6 مليون دولار، خلال دورة الانتخابات لعام 2016، ميزانية الضغط البالغة 11.5 مليون دولار في عام 2017. (667)

تعدّ مزايا زوكربيرغ في مجال القياسات البيومترية مهمة للغاية. ففي عام 2017، بلغ عدد مشترك فيسبوك مليار مستخدم شهريًا، يقومون بتحميل 350 مليون صورة يوميًا، وهي عملية إمداد يصفها باحثو الشركة بأنها "لا نهائية تقريبًا". (668) وفي عام 2018، أعلن فريق بحث في فيسبوك أنه "سدّ الفجوة" وأصبح قادرًا الآن على التعرف على الوجوه "في الطبيعة" بدقة تصل إلى 97.35٪، "مقارِبًا الأداء البشري إلى حد كبير". ويُسَلِّط التقرير الضوء على مزايا الشركة في مجالي التوريد والتصنيع، ولا سيّما استخدام "التعلّم العميق" القائم على "مجموعات تدريب ضخمة". (669) أعلنت شركة فيسبوك عن حرصها على استخدام تقنية التعرف على الوجه كوسيلة لاستهداف إعلانات أكثر قوة، وسيأتي المزيد من التقدّم من فرص التدريب الآلي الهائلة التي تمثلها العديد من الصور. بحلول عام 2018، بدأت آلتها تتعلّم تمييز الأنشطة والاهتمامات والمزاج والنظرة والملابس والمشى والشعر ونموذج الجسم والوضعية. (670) إمكانيات التسويق لا حصر لها.

(667) آلان هولز وغاريد بينيت، "لماذا قد لا تعني جلسة استماع مارك زوكربيرغ في مجلس الشيوخ الكثير لإصلاح خصوصية فيسبوك"، مركز الزاها العامة، 10 أبريل/ نيسان 2018.

(668) بينيت، "إنقاذ ماء الوجه".

(669) يانيف تيغمان وآخرون، "سدّ الفجوة في الأداء على مستوى الإنسان في التحقق من الوجه"، أبحاث فيسبوك، 14 أبريل 2018.

(670) أفيفا روتكين، "يستطيع موقع فيسبوك التعرف عليك في الصور حتى لو لم تكن تنظر إليه"، مجلة نيو ساينتست، 14 أبريل/ نيسان 2018.

لا ينبغي أن يتفاجأ أي طالب في مجال التنبؤ بأن شركة فيسبوك، بوجود هذه المزايا، لن تكون مستعدة لقبول أي شيء أقل من الغزو الكامل في محاولته تسليم الوجوه من أجل منتجات التنبؤ الأكثر ربحية. وقد نجحت حتى الآن، مع الشركات التابعة لها، في رفض مقترحات تشريعية في مونتانا ونيوهامبشاير وكوينتيكت وألاسكا، وفي إضعاف مشروع قانون أقرته ولاية واشنطن. وباستثناء شركة فيسبوك، لم تُعارض أية شركة من شركات التكنولوجيا الشروط المخفّضة لتشريع واشنطن.⁽⁶⁷¹⁾

إذا تمت مقاطعة عملية التسليم، فلن تتمكن رأسمالية المراقبة من الصمود، لأن المشروع بأكمله يعتمد على هذه الخطيئة الأصلية. وتتجلى هذه الحقيقة بوضوح في الدراما العامة المحيطة بمحاولة عام 2015 الفاشلة لإنتاج إرشادات عامة بشأن إنتاج المعلومات البيومترية واستخدامها من خلال عملية طوعية "خصوصية متعددة الأطراف" عقدتها الجمعية الوطنية للاتصالات والمعلومات (NTIA) برعاية وزارة التجارة الأمريكية. بعد أسابيع من المفاوضات، انسحب المدافعون عن المستهلكين احتجاجاً على الموقف المتشدد لشركات التكنولوجيا، وجماعات الضغط التابعة لها، بشأن القضية الأكثر أهمية: الموافقة.

أصرّت الشركات على حقها في استخدام أنظمة التعرف على الوجه لتحديد هوية "الغريب في الشارع" دون الحصول أولاً على موافقة الفرد. وكما صرّح أحد أعضاء جماعات الضغط في حديثه مع الصحافة: "لكل شخص الحق في التقاط الصور في الأماكن العامة.... إذا أراد شخص معيّن تطبيق التعرف على الوجه، فهل يجب عليه حقاً الحصول على موافقة مُسبقة؟" وسرعان ما ردّ علماء الخصوصية بأنه لا يوجد حقّ ثابت لإجراءات كهذه، ناهيك عن حقّ يكفله التعديل الأول.⁽⁶⁷²⁾ لم يُدرك أحد أن

(671) بينيت، "حفظ ماء الوجه"، 13؛ أبريل غلاسار، "يستخدم فيسبوك نهج الرابطة الوطنية للبيانات للدفاع عن برامجه المخيفة للتعرف على الوجه"، سلايت، 4 أغسطس 2017؛ كارتيكاي مهروترا، "شركات التكنولوجيا تقاوم قوانين الخصوصية البيومترية"، بلومبرغ، 20 يوليو 2017؛ آلي ماروتي، "تغييرات مقترحة على قانون إلينوي البيومتري تثير قلق دعاة الخصوصية"، شيكاغو تريبيون، 13 أبريل 2018.

(672) كشمير هيل، "يتم تعقبك سرّاً باستخدام تقنية التعرف على الوجه، حتى في الكنيسة"، سبليتير، 14 أبريل 2018.

حتمية التنبؤ تجعل الجهل الفردي الشرط المفضل لعمليات التسليم، تمامًا كما لاحظت أرندت، وكما وصفها ماكاي بالنسبة إلى الحيوانات في البرية. الخطيئة الأصلية تُفضل الظلام.

استمرت المحادثات دون حضور المؤيدين، وأصدرت الإدارة الوطنية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات في عام 2016 "توصياتها بشأن أفضل ممارسات الخصوصية لاستخدام التعرف على الوجه تجاريًا". ينبغي أن نفهم المبادئ التوجيهية باعتبارها "الأفضل" بالنسبة إلى رأسمالي المراقبة، لكنها "الأسوأ" بالنسبة إلى الآخرين كلهم. ووفقًا لهذه المبادئ التوجيهية، تشجعت شركات التكنولوجيا، وشركات تجارة التجزئة وغيرها من الشركات التي كانت عازمة على السعي خلف عائدات المراقبة، على جعل سياساتها المتعلقة بالتعرف على الوجه "متاحة للمستهلكين بطريقة معقولة....". عندما تفرض الشركات التعرف على الوجه في موقع مادي، يتم "تشجيعها" على تقديم "تنبيه" للمستهلكين.⁽⁶⁷³⁾ تحظى عمليات التسليم بالسرعة ضمناً، ليس فقط بسبب الافتقار للمنافسة، بل لأنها تمثل الحقائق الثابتة المغطاة بأكاليل رخيصة من "أفضل الممارسات" عديمة الفائدة. وقد انتقد ألفارو بيدويا، الباحث القانوني بجامعة جورج تاون، والعضو في مجموعة الدعم التي انسحبت من المداومات، تلك التوصيات ووصفها بأنها "استهزاء بمبادئ تطبيق المعلومات العادلة التي يزعمون أنهم يستندون إليها؛" فهي "لا تقدم أية حماية حقيقية للأفراد" و"لا يمكن أخذها على محمل الجد".⁽⁶⁷⁴⁾

في ظل رأسمالية المراقبة، لا يقدم الأفراد تجربتهم من منطلق الاختيار أو الالتزام، بل من منطلق الجهل ودكتاتورية عدم وجود بدائل. يعمل هذا الجهاز المنتشر في كل مكان من خلال الفرض والتخفي. يمرر بنا تقدّمنا بالحياة عبر العالم الرقمي بالضرورة، حيث أصبح التسليم اللاإرادي حقيقة لا مفرّ منها. ولم يبقَ لنا سوى القليل من حقوق

(673) "توصيات أفضل ممارسات الخصوصية لاستخدام التعرف على الوجه تجاريًا"، NTIA.

(674) ألفارو بيدويا وآخرون، "بيان بشأن توصيات الإدارة الوطنية لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات (NTIA) لأفضل ممارسات الخصوصية للاستخدام التجاري للتعرف على الوجه"، اتحاد المستهلكين الأمريكي، 14 أبريل/ نيسان 2018.

المعرفة، أو تحديد من يعرف، أو تحديد من يقرر. ينشأ هذا التقسيم غير الطبيعي للتعلم ويُدعم من خلال أوامر سرّية، ويُنفَّذ بأساليب غير مرئية، وتوجّهه شركات تنحني للمتطلبات الاقتصادية لشكل السوق الجديد الغريب. يفرض رأسماليو المراقبة إرادتهم خلف الكواليس، بينما يؤدي الممثلون على الجمهور تهويدات منمقة للكشف والموافقة.

تحوّل ضرورة التنبؤ الحتمية الأشياء التي نملكها إلى أشياء تملكنا، لكي تتمكّن من تسليم نطاق عالمنا ومنازلنا وأجسادنا وراثتها إلى أشياء تتصرّف لحساباتها واختراعاتها على طريق الربح. لكن سجلّات التسليم لا تنتهي هنا. إذ يتطلّب الفصل التالي رحلة من غرف معيشتنا وشوارعنا إلى عالم آخر تحت السطح، حيث تتكشف الحياة الداخلية.

الفصل التاسع

تسليم من الأعماق

مكتبة

t.me/soramnqraa

لا أستطيع أن أشعر، لذلك حاولت أن أألمس.....

ليونارد كوهين
"هليلوليا"

1- التخصيص المؤتمت عبارة عن غزو

قال الرئيس التنفيذي لشركة مايكروسوفت، ساتيا ناديلا، أثناء تقديم "كورتانا"، المساعد الرقمي الشخصي للشركة، في مؤتمر "إغنيت" السنوي عام 2016: 2016: هذه الفئة الجديدة من المساعد الرقمي الشخصي هي واجهة جديدة تعمل في الوقت الفعلي. يمكنها التعامل مع النصوص. ويمكنها التعامل مع الكلام. إنها تعرفك جيدًا. تعرف سياقك، وتعرف عائلتك وعملك. وتعرف العالم كله. إنها بلا حدود. بمعنى آخر، إنها جهاز لك؛ ولا تتعلق بجهاز أي شخص آخر. إنها معك أينما ذهبت. وموجودة في أي هاتف - لا يهم ما إذا كان يعمل بنظام ويندوز أو أندرويد أو "Ios". إنه متوفر عبر جميع التطبيقات التي تستخدمها في حياتك. (675)

هذه حدود جديدة للفائض السلوكي حيث تستدعي كمية هائلة من البيانات المظلمة في حياتك الداخلية - نواياك ودوافعك، ومعانيك واحتياجاتك، وتفضيلاتك ورغباتك، ومزاجك وعواطفك، وشخصيتك ومزاجك، وصدقك أو خداعك - إلى النور من أجل منفعة الآخرين. ليس الهدف هو العلاج بل تحويل ذلك كله إلى عيّنات

(675) ساتيا ناديلا وآخرون، "ساتيا ناديلا: مايكروسوفت إغنيت 2016"، 26 سبتمبر 2016.

سلوكية صغيرة متاحة للحساب بحيث تستطيع كل منها أن تتخذ موقعها على خط تجميع ينتقل من المواد الخام إلى التطوير والإنتاج والتصنيع والبيع.

يُلاحقُ غزو الآلة للعمق البشري قضائياً مثلاً بشعار "التخصيص المؤتمت"، وهو شعار يفضح الحماسة والسخرية التي تتجلى في التحديّ القذر المتمثل في استغلال احتياجات الحداثة الثانية وانعدام الأمن لتحقيق مكاسب هائلة. "التخصيص المؤتمت" من منظور ضرورة التنبؤ، هو وسيلة "لإضفاء طابع فردي" على عمليات الإمداد من أجل تأمين تدفق مستمر للفائض السلوكي من الأعماق. لا يمكن إنجاز هذه العملية بنجاح إلا بسبب جوّنا المستمرّ للتمييز والتقدير، والأهم من ذلك كله، الدعم.

تذكر أن هال فاربان، كبير الاقتصاديين في غوغل، ساهم في رسم هذا المسار. ويُعدّ "التخصيص المؤتمت والتخصيص الشخصي" ثالث "استخدام جديد" للمعاملات التي تتم عبر الحاسوب. بدل أن تضطر إلى طرح أسئلة على محرك غوغل، يجب أن "يعرف غوغل ما تريده، ويخبرك به قبل أن تطرح السؤال". وقد تم تكليف تطبيق "غوغل ناو" "Google Now"، المساعد الرقمي الأول للشركة، بهذه المهمة. ونبّه فاربان من أن الناس سيضطرون إلى منح غوغل المزيد من أنفسهم كي يجنوا قيمة من التطبيق: "يتعين على 'غوغل ناو' أن يعرف الكثير عنك وعن بيئتك لتوفير هذه الخدمات. وهذا ما أقلق بعض الناس". وهو يبرّر أي قلق، بحجّة أن تقديم المعلومات الشخصية إلى غوغل لا يختلف عن مشاركة المعلومات الحميمية مع الأطباء والمحامين والمحاسبين. ويسأل: "لماذا أنا على استعداد لمشاركة كل هذه المعلومات الخاصة؟" لأنني أحصل على شيء بالمقابل... سيكون مساعد رقمي من هذا النوع مفيداً للغاية لدرجة أن يرغب الجميع باقتنائه". إن فاربان واثق من أن احتياجات الأفراد في عصر الحداثة الثانية ستقوّض أية مقاومة لتقديم الخبرة الشخصية باعتبارها المقابل لوعد بحياة أقل إرهاقاً وأكثر فاعلية. (676)

إن مفهوم فاريان عن "التخصيص المؤقت" هو، في واقع الأمر، النقيض تمامًا للعلاقات مع المختصين الموثوق بهم، والتي يشير إليهم بهذا المفهوم. إذ يتحمل الأطباء والمحاسبون والمحامون المسؤولية من خلال الاعتماد المتبادل وممارسات المنفعة المتبادلة التي تمليها المؤسسات المكثفة للتعليم المهني، وقواعد السلوك، وإجراءات التقييم والمراجعة. وانتهاك هذه القواعد يُعرض صاحبه لعقوبة مهنية وقانونية عامة. لكن غوغل، وشركاءها في رأسمالية المراقبة، لا تتحمل أية مخاطر من هذا القبيل.

تشكل تصريحات فاريان إحدى تلك الحالات النادرة التي يتلاشى فيها ضباب الخطاب التكنولوجي بما يكفي لتمييز دور عدم المساواة الاجتماعية والاقتصادية في تحقيق المهمة الأكبر لرأسمالية المراقبة. فهو يرى أن عدم المساواة يوفر فرصة لرفع الرهان على برنامج غوغل لحياة فاعلة. وينصح بأن الطريقة للتنبؤ بالمستقبل هي مراقبة ما يملكه الأغنياء، لأن هذا هو ما يريده أيضًا أبناء الطبقة المتوسطة والفقراء. ويسأل: "ماذا يملك الأغنياء الآن؟ يملكون مساعدين شخصيين".

كان تحول الرفاهيات التي يتمتع بها جيل أو طبقة إلى ضروريات للجيل التالي أمرًا أساسيًا في تطور الرأسمالية خلال الأعوام الخمسمئة الماضية. يصف المؤرخون "طفرة الاستهلاك" التي أشعلت شرارة الثورة الصناعية الأولى في بريطانيا في أواخر القرن الثامن عشر، عندما بدأت الأسر الجديدة في الطبقة المتوسطة في شراء الخزف والأثاث والمنسوجات التي كانت حكرًا على الأغنياء في السابق، وذلك بفضل رواد مثل "يوشيا ديدغود" وابتكار المصانع الحديثة الأولى. ويعتبر هذا "الميل الجديد للاستهلاك غير مسبوق من ناحية العمق الذي اخترق به الطبقات الدنيا من المجتمع..."⁽⁶⁷⁷⁾ في عام 1767 أبدى الخبير الاقتصادي السياسي ناثانيال فورستر قلقه من انتشار "الترف العصري مثل العدوى"، وشكا من "طموح الطبقات الدنيا المضطرب للوصول إلى مستوى أولئك الذين هم فوقهم مباشرة".⁽⁶⁷⁸⁾ وتعمق آدم

(677) نيل ماكيندر، "ثورة الاستهلاك في إنكلترا في القرن الثامن عشر"، في كتاب "نشأة مجتمع استهلاكي: تسويق إنكلترا في القرن الثامن عشر"، تحرير "جون بروير" و"جي. إتش. بلومب" (بلومغتون: جامعة إنديانا، 1982)، الصفحة 11.

(678) ناثانيال فورستر، تحقيق في أسباب ارتفاع أسعار المواد الغذائية في الوقت الحاضر (لندن: جي.

سميث كثيرًا في دراسة هذه العملية الاجتماعية، مشيرًا إلى أن الرفاهيات التي تتمتع بها الطبقة العليا يمكن إعادة صياغتها بمرور الوقت باعتبارها "ضروريات". يحدث هذا مع تغير "قواعد اللياقة الراسخة" لتعكس العادات الجديدة التي أدخلتها النخب، مما أدى إلى ظهور أساليب إنتاج أقل تكلفة تعمل على تحويل ما كان في السابق بعيد المنال إلى سلع وخدمات بأسعار معقولة.⁽⁶⁷⁹⁾ وكانت سيارة فورد "موديل T" أبرز مثال على هذا التقدم في القرن العشرين.

يرى فاريان أن "التخصيص المؤتمت" هو المعادل لهذه الديناميكيات التاريخية في القرن الحادي والعشرين، وهو "الضروريات" الجديدة للجماهير المنهكة التي تترشح تحت وطأة الأجور الراكدة، والتزامات العمل المزدوج، والشركات غير المبالية، وتكشف المؤسسات العامة المجوّفة. يراهن فاريان على أن المساعد الرقمي سيكون موردًا حيويًا للغاية في النضال من أجل حياة فاعلة لدرجة أن الناس العاديين سيوافقون على مصادراته الكبيرة. ويصرّ فاريان، صاحب نظرية الحتمية، قائلًا: "لا يمكن إعادة المارد إلى القمقم. سيتوقع الجميع أن يخضعوا للتعبّ والمراقبة، نظرًا لأن المزايا ستكون عظيمة من حيث الراحة والسلامة والخدمات.... وستكون المراقبة المستمرة هي القاعدة".⁽⁶⁸⁰⁾ هذا يعني أن الجميع سيخضعون لتجاوزات التسليم باستثناء أولئك الأثرياء أو العنيدون بما يكفي لتحقيق حياة فاعلة دون مساعدة غوغل، وبالتالي الهروب من أسوأ تجاوزات التسليم. وبما أن حقوق اتخاذ القرار وتقرير المصير أصبحت امتيازات للأثرياء، فماذا سيقدم فاريان للإجابة على أولئك الذين يطالبون بالشيء نفسه؟

تاريخيًا، أدّت الاختراقات في مجال السلع والخدمات منخفضة التكلفة إلى توسيع الإنتاج والعمالة، وارتفاع الأجور، وتحسين مستوى المعيشة لكثيرين. لا يفكر فاريان في مثل هذه المعاملة بالمثل. بل يحشر إصبعه في جرح مفتوح سببه انعدام الأمن في

فليتشر، (1767)، 41.

(679) آدم سميث، ثروة الأمم، تحرير إدوين كانان (نيويورك: المكتبة الحديثة، 1994).

(680) لي رينه وجانا أندرسون، "مستقبل الخصوصية: ما وراء الاستجابات: الجزء الأول"، مركز بيو للأبحاث: الإنترنت والعلوم والتكنولوجيا، 18 ديسمبر/ كانون الأول 2014.

الحداثة الثانية، ويُخضع ألماناً لأهداف مشروع المراقبة. ومن منظور فاريدان، يُفسّر جوع البشر إلى الضروريات الجديدة باعتباره فرصة لانتزاع الملكية، حتى وإن كان يوقّر بشكل ملائم مبرراً لانتزاع الملكية حتى من الأعماق.

كان تطبيق "غوغل ناو" بمثابة الخطوة الأولى، على الرغم من أنه أصبح يبدو في وقت لاحق وكأنه حصان مطاردة، وتمريناً على التعود، يمهد الطريق لما هو آت. مع تعميده باسم "البحث التنبؤي"، يجمع هذا التطبيق كل الأنظمة التي بنتها غوغل، بما في ذلك إنجازات الشركة في البحث الصوتي والشبكات العصبية، ومعرفتها العالمية الممثلة "بالرسم البياني للمعرفة" الذي يضمّ مليار كيان، وقدرات الذكاء الاصطناعي منقطعة النظير. تم تجميع هذه القوة النارية كلها من أجل التعلّم من المحتوى الخاص بك وسياقك وسلوكك، ليس فقط من خلال البحث والبريد الإلكتروني ونشاط التقييم، بل من بيانات هاتفك أيضاً، بما في ذلك الحركة والموقع والأنشطة والصوت والتطبيقات. لم يكن الهدف في هذه المرة بيع الإعلانات فحسب، بل "تخمين المعلومات التي ستحتاج إليها في أية لحظة" أثناء تنقلك عبر العالم الحقيقي.⁽⁶⁸¹⁾

وفقاً لأحد المقاطع الترويجية: "إن 'غوغل ناو' متقدّم بخطوة واحدة دوماً حتى تتمكن من الشعور بمزيد من الثقة أثناء تنقلك خلال اليوم.... بفضل القوة التنبؤية لتطبيق 'غوغل ناو'، ستحصل على ما تحتاج إلى معرفته، في الوقت الذي تحتاج إليه مباشرة". وقد وصف أحد الكتاب الخدمة الجديدة قائلاً "يبدو الأمر وكأنك تجعل محرك البحث يأتي إليك".⁽⁶⁸²⁾ تظهر بطاقات معلومات التطبيق تدريجياً على شاشة هاتفك الرئيسة بنوع من التوقع لاحتياجاتك: إشعار بتغيير وقت الرحلة، الطقس وحركة المرور المتوقعة، المطاعم والمتاجر القريبة، المتحف الذي كنت ترغب بزيارته. وعلّل أحد المسؤولين التنفيذيين في شركة غوغل أن الشركة تعرف بالفعل هذا كله عنك، لذلك فقد يكون من الأفضل تحويله إلى خدمة يمكنها أن توفر للشركة إمكانية

(681) توم سيمونايت، "تفكر غوغل في المستقبل رداً على سيري"، إم آي تي تكنولوجيا ريفيو، 28 سبتمبر/أيلول 2012؛ ديتربون، "غوغل ناو: وراء المستقبل التنبؤي للبحث"، فيرج، 29 أكتوبر/تشرين الأول 2012.

(682) تقديم تطبيق "غوغل ناو" (Google Now)، 2012؛ سيمونايت، "إجابة غوغل على سيري".

الوصول إلى المزيد من المعلومات: "ستعرف غوغل موعد رحلتي، وما إذا كانت حقائبي قد وصلت إلى هنا، ومكان زوجتي وكم من الوقت يستغرق وصولها إلى المنزل بعد ظهر اليوم.... إن غوغل يعرف هذه الأشياء طبعًا".⁽⁶⁸³⁾ تتبع قدرات تطبيق "غوغل ناو" التنبؤية النموذج الذي صادفناه على مدار الوقت: فهي مستمدة من العمليات الآلية التي تدرّبت على تدفّقات متواصلة من السلوكيات في العالمين الحقيقي والافتراضي. لماذا كرّست غوغل هذه القوة الآلية والإضافات الثمينة كلها لمساعدتك بشكل مدروس طوال يومك؟ السبب هو أن تطبيق 'غوغل ناو' قد أطلق جيلًا جديدًا من منتجات التنبؤ.

هذا البرنامج الزاحف المتقدّم من شركة غوغل قد مكّن من فهرسة صفحات الويب العالمية بسرعة البرق، ثم مكّنت الأجهزة المنتشرة في كل مكان عمليات جديدة لزحف الواقع، والآن في هذه المرحلة الثالثة، ثمة حاجة إلى عمليات توريد مختلفة لزحف حياتنا. يرى المرء في تطبيق 'غوغل ناو' غزوة أولية لهذا الفضاء الجديد، حيث تتحد قدرة زاحف الويب على إيجاد معلومات مع عمليات الزحف الحياتية الجديدة التي تهدف إلى تسليم سلوكك وتوقعه، وتعديله في نهاية المطاف كما سنرى. يُدمج الفائض السلوكي على الإنترنت وخارجه - محتوى بريدك الإلكتروني، وأين أمضيت وقت بعد ظهر اليوم، وما قلته وما فعلته، وما شعرت به - في منتجات التنبؤ التي يمكن أن تخدم سوقًا ناشئة يكون فيها كل جانب من جوانب واقعك اليومي متاحًا للمزايدة.

يُعتبر تطبيق "M" من فيسبوك، الذي أُطلق عام 2015 كجزء من تطبيق ماسنجر، مثالًا آخر على هذه المرحلة الجديدة. فقد تم تقديمه كمساعد رقمي شخصي.... يُنجز المهام ويجد المعلومات نيابة عنك... مدعومًا بذكاء اصطناعي مُدرّب ويُشرف عليه بشر.⁽⁶⁸⁴⁾ وقد وصف نائب رئيس فيسبوك، المسؤول عن منتجات المراسلة، أهداف

(683) بوهن، "غوغل الآن".

(684) درو أولانوف وجوش كونستين، "فيسبوك يُضيف مساعدًا شخصيًا يُسمى "M" إلى تطبيق ماسنجر"، تك كرانش، 26 أغسطس 2015؛ أمير إفراي، "فيسبوك يُجهز مساعدًا شخصيًا يُسمى "موني بيني"، إنفورميشن، 13 يوليو 2015.

الشركة من تطبيق "M" قائلاً: "نبدأ برصد نواياك من خلال ما ترغب بفعله. وغالباً ما تؤدي النية إلى شراء شيء ما، أو إلى إتمام معاملة، وهذه فرصة لنا لكسب المال مع مرور الوقت". ووفقاً لتأكيد هذا النائب: "الأمر المهم هو أن تطبيق "M" يتعلم من السلوكيات البشرية".⁽⁶⁸⁵⁾ سوف تُدرَّب أجهزة الشركة على فائض سلوكي من مستخدمي ماسنجر البالغ عددهم 700 مليون يومياً. وكان مأمولاً في نهاية المطاف أن تُؤمَّت عمليات ماسنجر بالكامل دون الحاجة إلى مدرّبين بشريين. وفي عام 2017، قلّصت شركة فيسبوك طموحاتها في مجال الذكاء الاصطناعي، وركّزت مساعدتها الشخصي على المهمة الأساسية: التجارة. ووفقاً لم أفاد به أحد المسؤولين التنفيذيين في الشركة، "يعمل الفريق الآن على إيجاد طرق لتفعيل النية التجارية داخل ماسنجر".⁽⁶⁸⁶⁾ تتمثل الفكرة في "إعطاء الأولوية للتجارب التي تعتمد على التجارة وتصميم طرق جديدة لتمكين المستخدمين من "شراء الأشياء بسرعة" دون الحاجة إلى إدخال معلومات بطاقة الائتمان أو تصفح الصفحات أو فتح التطبيقات. وهناك أضرار تنبثق فجأة أثناء محادثتك مع أصدقائك كلما اكتشف النظام وجود "نية تجارية" محتملة. وما عليك سوى النقر للطلب أو الشراء أو الحجز، ودع النظام يتولّى الباقي.⁽⁶⁸⁷⁾

هكذا يُكشف عن "المساعد الرقمي الشخصي" باعتباره تجسيداً للسوق، وحصان طروادة آخر يخفي تصميم الشركة على تسليم حياتك، وتحقيق الربح، تحت ستار "المساعدة"، مزيناً بشاعرية "التخصيص المؤمَّت". كما أن توصيات الشركة الودية، وحرصها على التصرف نيابة عنك، تخفي خلفها سوقاً جديدة عدوانية تحوم فوق أي جانب من جوانب حياتك اليومية. وقد تتكوّن هذه السوق من المطاعم والبنوك والتجار وبائعي التذاكر وشركات الطيران وطابور لا نهاية له من الغرباء المحتملين

(685) جيسي هيمبل، "فيسبوك يطلق تطبيق M، وهي ردّه الجريء على سيري وكورتانا"، وايرد، أغسطس/ آب 2015.

(686) أندرو أورلوفسكي، "فيسبوك يقلّص نطاق الذكاء الاصطناعي الرائد بعد أن وصلت برامج الدردشة الآلية إلى 70% من معدل جذب الذكاء الاصطناعي"، ريجيستر، 22 فبراير/ شباط 2017.

(687) كوري واينبرغ، "كيف يغيّر تطبيق ماسنجر و'M' مساره"، مجلة إنفورميشن، 22 فبراير 2017.

الذين يأتون بسبب مصالحهم في سلوكك: الآن، وقریباً، وفي وقت لاحق. فهم يقفون على أهبة الاستعداد للاستفادة من رحلتك إلى العمل، أو محادثتك مع ابنك المراهق، أو حذائك الرياضي القديم. وقد يستمدّ المساعد الرقمي معرفته من ميولك وتفضيلاتك، لكنه سوف يكون منحرفاً ومشوهاً إلى حد غير معروف بسبب أساليب السوق الخفية والمنافسات التي يخفيها.

انضمت شركة غوغل إلى شركات التكنولوجيا الأخرى العازمة على ترسيخ "المحادثة" كوسيلة يتفاعل من خلالها البشر مع الأجهزة. وبمرور الوقت، قد يتم تجاوز الهوس بالصوت، أو ينضمّ إليه آخرون، بحيث يتحوّل مجرد التفكير بفكرة، أو التلويح بالإصبع، إلى عمل أو الشروع بعمل معين. لكن ثمة أسباب مقنعة للسباق نحو الكلمة المنطوقة في الوقت الراهن. السبب الأول واضح: إن التعرف الموثوق على الصوت يمكن أن يحوّل مشهداً شاسعاً من تفاعلات الخدمة إلى عمليات آلية منخفضة التكلفة ذات نطاق وحجم غير محدودين نظرياً، وهي حقيقة لاحظها خبراء اقتصاد العمل لبعض الوقت.⁽⁶⁸⁸⁾ يمكن فهم سباق التنافس بين جيل جديد من "المساعدين الرقميين الشخصيين" على أفضل وجه من وجهة النظر هذه. سيكون الصوت الذي يرتفع إلى الهيمنة، "الصوت الواحد"، بمنزلة العملاق المتمثل في أنابيب الفاض السلوكي مع ميزة تنافسية قوية في قدرته على احتكار الحصة المهيمنة من التجربة

(688) على سبيل المثال، أشار بحث صادر عام 2004 عن البنك الاحتياطي الفيدرالي في مدينة كانساس سيتي إلى "التعرف على الصوت" باعتباره تهديداً كبيراً لمعدلات التوظيف المستقبلية: "قد تسمح التطورات في تكنولوجيا التعرف على الصوت وأنظمة الخبراء والذكاء الاصطناعي في النهاية لأجهزة الحاسوب بالتعامل مع العديد من وظائف خدمة العملاء، وربما حتى الفحص الروتيني بالأشعة السينية". انظر سي آلان غارنر، "النقل إلى الخارج في قطاع الخدمات: التأثير الاقتصادي وقضايا السياسة"، المراجعة الاقتصادية 89، العدد 3 (2004): 5-37. وقد بدت دراسة فراي وأوزبورن التي يُستشهد بها كثيراً عام 2013 حول البطالة التكنولوجية الموضوع نفسه: "علاوة على ذلك، توفر شركة تُدعى (SmartAction) الآن حلول حوسبة المكالمات التي تستخدم تقنية التعلم الآلي والتعرف المتقدم على الكلام لتحسين أنظمة الاستجابة الصوتية التفاعلية التقليدية، مما يحقق وفورات في التكاليف تتراوح بين 60 و80 في المائة مقارنة بمركز اتصال خارجي يتكون من عمالة بشرية". انظر كارل بينيديكت فراي ومايكل أوزبورن، "مستقبل التوظيف: ما مدى تأثير الوظائف بالحوسبة؟" التنبؤ التكنولوجي والتغيير الاجتماعي 114 (2013): 254-280. انظر أيضاً دراسة متابعة: فيليب برانديس، وروجر واتنهوفر، وستيفان شميد، "ما هي مهام الوظيفة المعرضة للحوسبة؟" نشرة 3 EATCS، العدد 120 (2016).

تقف "المحادثة" وحدها في وعدها بالسيطرة على إمدادات المواد الخام، وستكون المكافآت التي ستعود على "الصوت الواحد" فلكية. يُساعد الحديث العابر على طمس الحدود "بينه" - الجهاز المُشيع بالوكلاء التجاريين - و"بيننا". نحن نتخيل الصداقة في الحديث. كلما تخيلنا أن الجهاز هو صديقنا الموثوق ومريبتنا وجدتنا ونظام دعمنا - السيدة "داوتفاير" في الفيلم الذي يحمل الاسم ذاته، السيدة غير المتجسدة، والموجودة في كل مكان ولكل شخص - سمحنا له بتسليم المزيد من الخبرة، وازدادت عمليات توريده ثراءً. فالتواصل هو أول متعة إنسانية، وتلقى واجهة المحادثة تقديرًا هائلة لسهولة استخدامها دون أي احتكاك، حيث يمكن لكلمة واحدة أن تُحفز العمل، ولا سيما في السوق "ليكن هناك نور" (689). "ليكن هناك أحذية جري جيدة". ما الذي يمكن أن يكون أفضل من أن نطلب شيئًا ويحدث بطريقة "كن فيكون؟" علّق النائب الأول لرئيس شركة أمازون على أجهزة الشركة المنزلية المُفعّلة صوتيًا: "الميزة الرائعة في أعمال أجهزة أمازون هي أننا عندما نبيع جهازًا، يقوم الناس عادة بشراء المزيد من سراويل الجينز والأحذية والفساتين السوداء القصيرة، وهذا أمر جيد". واختتم حديثه قائلاً: "التسوّق الصوتي مفيد للأعمال، ويساعد على التنبؤ بها". (690)

تختلف المحادثة الموجهة إلى جهاز رقمي عن المحادثة في المتجر في أن الكلمات تُنطق مباشرة باحتكاك وجهد أقل؛ وتثييط أقل، وانزعاج ومقارنة أقل، وقلق أقل بشأن حدود الحساب المصرفي، أو مصدر المنتج أو الخدمة؛ وشكّ وتردد أقل؛ وذاكرة وندم أقل. إذ يشعر المتحدث بأنه في مركز الكون المتدفّق بسلاسة. وتقع جميع الإشكالات خلف الكواليس، حيث تواجه الآلات مصادر الاحتكاك العنيدة مثل تطبيقات والكيانات المتميزة؛ والخدمات الإدارية العنيدة، وأنظمة التوزيع والمدفوعات والتسليم؛ والحدود التي تهدّد تدفّقات الرغبة والرضا، وتغلب عليها. تحوّل

(689) "ليكن هناك نور": عبارة من "سفر التكوين الإصحاح الأول، العدد الثالث" في الكتاب المقدّس (وقال الله: "ليكن هناك نور، فكان نور") (المترجم).

(690) "ديف ليمب، المدير التنفيذي للمساعد الذكي الافتراضي 'أليكسا' الذي طوّره أمازون: النص الكامل للمقابلة"، فورتشن، 14 يوليو 2016.

"المحادثة" العفوية والسلسة، التي تتسم بالثرثرة العالمية، المساعد الرقمي الشخصي الجديد إلى صوت يستقرّ بين حياتك والأسواق الجديدة لحياتك، وبين تجربتك وبيع تجربتك في المزاد العلني: "فترة التشغيل، واجهة جديدة" تخلق إحساسًا بالإتقان، بينما هي تمنحه مجآناً في الواقع.

تحوّل الكلمات، التي كانت تُعتبر ذات يوم "خلف الأبواب المغلقة"، إلى كلمات فائضة في هذا المشهد التجاري الحالم. وتحوّل عمليات الإمداد الجديدة كلامك إلى سلوك فائض بطريقتين. الأولى مستمدة مما تقوله، والثانية، كيف تقوله. إن أجهزة المنزل الذكي مثل "أمازون إيكو" (Amazon Echo) أو "غوغل هوم" (Google Home)، تسلّم كميات كبيرة من المحادثات غير الرسمية، والتي تُنتجُ منها تحليلات المحتوى المتطورة تنبؤات محسّنة "تتوقع" احتياجاتك. استخدمت شركة غوغل مؤتمرها عن المطوّرين لعام 2016 لتقديم تصوّر جديد لتطبيق "غوغل ناو"، الذي أُعيدت تسميته بـ "المساعد"، ودججه في جميع أجهزة الشركة وخدماتها وأدواتها وتطبيقاتها. وقال سوندار بيتشاي، الرئيس التنفيذي لشركة غوغل: "نريد أن يحظى المستخدمون بحوار مستمرّ ومتبادل مع غوغل. نريد مساعدتكم في إنجاز مهامكم في عالمكم الحقيقي، ونريد أن نفعل ذلك نيابةً عنكم. على سبيل المثال، يمكن أن تكون أمام هذا المبنى في شيكاغو - مبنى 'كلاود غيت' الملقّب بـ "حبة الفاصولياء" وتسأل غوغل، 'من صمّم هذا المبنى؟' لست بحاجة لأن تذكر اسم المبنى أو لقبه. نحن سنفهم السياق، ونجيب بأن المصمّم هو "أنيس كابور". (691)

لقد وصل مساعد غوغل مُدمجاً فعلياً في تطبيق المراسلة الجديد من غوغل، تطبيق "ألو" (Allo)، حيث يمكنه البحث عن المعلومات أو تنفيذ المهام أو حتى إنشاء رسائل روتينية نيابة عنك. والأهم من ذلك، يقوم المساعد بتحريك جهاز مُنتج في

(691) انظر ماثيو لينلي، "غوغل تكشف عن مساعد غوغل، مساعد افتراضي يمثل ترقية كبيرة لتطبيق غوغل ناو"، تك كرانش، 18 مايو 2016. انظر أيضاً ميندا سمايلي، "مؤتمر غوغل للمُدخلات/ الإخراج: ثلاث نقاط للمُسوقين"، درام، 19 مايو 2016. للاطلاع على خطاب بيتشاي، انظر سوندار بيتشاي، "الكلمة الرئيسية لغوغل للمُدخلات/ الإخراج 2016"، سينغو بوست، 20 مايو 2016.

شركة غوغل، أي "غوغل هوم" (Google Home).⁽⁶⁹²⁾ الفكرة هي أن الجهاز (أو خليفته) سوف يطالب، بمرور الوقت، بتقديم نطاق نظري غير محدود من الأنشطة المنزلية الحية وغير الحية: المحادثات، والمصابيح الكهربائية، والاستفسارات، والجدول الزمني، والحركة، وتخطيط السفر، وأنظمة التدفئة، والمشتريات، وأمن المنزل، والمخاوف الصحية، والموسيقى، ووظائف الاتصال، وأشياء أخرى كثيرة.

كنت في السابق تبحث في غوغل، أما الآن، فهو يبحث فيك. تُظهر إعلانات "غوغل هوم" عائلات مُحبّة تعيش حياة مزدهمة معقدة لكنها تشعر بالارتياح بشكل واضح عندما تعود إلى المنزل، وتسقط في أحضان هذا العالم القائم على الرعاية الشاملة الفعّالة. ويفرض تحقّق هذا الحلم التابع للحدث الثانية ضريبة باهظة على وعده بحياة أكثر فعالية. فلن يكون لكل مستخدم غوغل خاص به، كما يتصوّره بيتشاي، يجب أن يمتلك غوغل كل شخص يستخدم غوغل.⁽⁶⁹³⁾

تعتمد مقدرة القائم على الرعاية، على خدمتك بفعالية، بشكل كامل على مدى تسليم حياتك لخدمته سواء أكان ذلك بعلمك أو دون علمك. ويتوافق اتساع الحياة المقدّمة وعمقها مع مقياس حركة السوق التي يمكن للمساعد تحفيزها والتوسّط فيها. ثمة اختلافات بين التجسيّدات المختلفة "للتخصيص المؤتمت" و"المساعدة" التي تقدمها شركات التكنولوجيا العملاقة، لكن هذه الاختلافات تافهة مقارنة بالحاجة الجماعية نحو المعرفة الكاملة - حول حالاتك الداخلية، وسياق العالم الحقيقي، وأنشطة الحياة اليومية المحددة - كل ذلك في خدمة تدريب الآلات بنجاح كي تتمكّن من استهداف عمليات السوق بشكل أفضل لكل لحظة من لحظات الحياة.

يعتمد كل تأثير محتمل، مرتبط بما تقوله في السوق، على تنشيط الصوت والتعرّف عليه والاستجابة له. وهذا بدوره نتاج أنظمة آلية متطورة للغاية، ومدربة على مخزونات عالمية هائلة من الكلمات المنطوقة. وكلما ازدادت الرؤى البنيوية التي تكتسبها الآلات من فائض الكلام، ازداد تدفّق التجارة من محتواها. هذا يعني أن قيمة

(692) بيتشاي، "الكلمة الرئيسية في مؤتمر Google I/O 2016".

(693) بيتشاي.

ما تقوله لا تتحقق إلا بآلات قادرة على التعلّم من كيفية قوله بدقّة. ينشأ فائض كهذا من بنية خطابك: المفردات، النطق، التجويد، الإيقاع، التصريف، اللهجة.

تحوّل المنافسة على إمدادات الكلام عباراتك إلى الشكل الثاني من الفائض، حيث تسعى الشركات إلى تطوير قدرات الصوت وتحسينه، وتجوب العالم بحثاً عن الكلام. "بدأت شركات أمازون وأبل ومايكروسوفت وبايدو الصينية حملة عالمية لجمع 'تيرا بايت' من الكلام البشري"، وفقاً لتقرير بلومبرغ بيزنس ويك. و"أنشأت شركة مايكروسوفت محاكاة لشقق سكنية حول العالم لتسجيل المتطوّعين الذين يتحدثون في المنزل". تقوم شركات التكنولوجيا بالتقاط الأحاديث من أجهزتها وهواتفها الذكية أثناء تسجيل كلماتك والاحتفاظ بها. وتجمع شركة البحث الصينية "بايدو" الكلام باللهجات كلها: "ثم تأخذ هذه البيانات كلها وتستخدمها لتعليم أجهزة الحاسوب لديهم بكيفية تحليل الأوامر والاستفسارات وفهمها والاستجابة لها". (694)

تُرسل أجزاء من حديثك بشكل منتظم، وبكميات كبيرة، إلى شركات خارجية تجري "مراجعة صوتية" حيث يقوم المصحّحون الافتراضيون، المكلفون بتقييم درجة التطابق بين نص الآلة والجزء الأصلي من الكلام البشري، بمراجعة التسجيلات الصوتية المحفوظة من الهواتف الذكية وتطبيقات المراسلة والمساعدات الرقميين. وتستخدم شركات مثل أمازون وغوغل ومايكروسوفت تحليلات الصوت هذه لتحسين خوارزميات أنظمة الصوت الخاصة بها. وتصرّ شركات التكنولوجيا على أن تسجيلات كهذه مجهولة الهوية، وليست أكثر من أصوات بلا هويات. وأكد أحد المسؤولين التنفيذيين في مايكروسوفت أن "الشركاء ليس لديهم القدرة على ربط عينات الصوت بأشخاص محددين". لكن صحفية حصلت على وظيفة في الشركة للعمل خارج المكتب، بصفة محلّلة تسجيلات صوتية، استنتجت النقيض تماماً، حيث استمعت إلى تسجيلات مليئة بالعاطفة والحميمية والمعلومات الشخصية، ويمكن التعرف عليها بسهولة:

(694) جينغ كاو ودينا باس، "لماذا تحب غوغل ومايكروسوفت وأمازون صوتك"، بلومبرغ بيزنس ويك، 13 ديسمبر/ كانون الأول 2016.

داخل التسجيلات نفسها، يُسلم المستخدمون معلوماتهم الشخصية طواعيةً - وهي معلومات قيمة للغاية في عمليات المراجعة هذه نظرًا لدقتها. أسماء غير مألوفة، مدناً وبلدات يصعب نطقها، غرائب محلية... سمعتُ أشخاصًا يُشاركون بأسمائهم الكاملة لبدء مكالمة، أو قدّموا معلومات حسّاسة عن الموقع لدى حجز موعد مع طبيب... تُصوّر التسجيلات أشخاصًا يقولون أشياء لا يرغبون أبدًا بأن يسمعها أي شخص، بغضّ النظر عن عدم الكشف عن هويتهم... لا يوجد ما يمنع من يستمعون إلى هذه التسجيلات من مشاركتها. (695)

ثمة استثمارات رأسمالية ضخمة موجهة إلى الأحاديث، ويوضح تلفزيون سامسونغ الذكي بعضًا من هذا العمل الذي يجري خلف الكواليس. وتشير توقعات الأعمال بشكل روتيني إلى نمو قوي في سوق الأجهزة المتصلة بالإنترنت، وتُعدّ سامسونغ ضمن مجموعة صغيرة من الشركات الرائدة في السوق. وتعمل أجهزتها على نظام تشغيل أندرويد، وقد أقامت الشركة، في بداياتها، تحالفات مع شركة "نيسنت" التابعة لشركة "غوغل/ ألفابت" ومع شركة "سيسكو" (Cisco). وقال أحد كبار المدراء التنفيذيين عام 2014، "مهمتنا الأولى هي جلب منزلك إلى حياتك المتصلة بشبكة الإنترنت". (696) في عام 2015، اكتشف المدافعون عن الخصوصية أن أجهزة التلفزيون الذكية التي تنتجها الشركة كانت في الواقع ذكية للغاية، حيث تسجّل كل ما يقال في محيط التلفزيون - اعطني الملح من فضلك؛ لقد نفذ مسحوق الغسيل؛ أنا حامل؛ دعنا نشتر سيارة جديدة؛ سنذهب إلى السينما الآن؛ لدي مرض نادر؛ لقد أرادت الطلاق؛ يحتاج إلى وجبة طعام أخرى؛ هل تحبني؟ - وترسل هذه الأحاديث كلها لكي تنسخها شركة أخرى رائدة في سوق التعرّف على الصوت، وهي شركة "نيوانس" للاتصالات. (697)

(695) آيه. جي. ديلينغر، "لقد حصلت على وظيفة للاستماع إلى محادثاتك عبر سيري"، ديلي دوت، 2 مارس 2015.

(696) "سوق الأجهزة الذكية العالمية 2016-2020، تكتافيو، 10 أبريل/ نيسان 2017؛ آدي نارايان، "سامسونغ تريد تزويد منزلك بجهاز تحكم عن بُعد"، بيزنس ويك: التكنولوجيا، 11 ديسمبر/ كانون الأول 2014.

(697) أليكس هيرن، "سامسونغ ترفض القلق بشأن سياسة الخصوصية" الأورويلية - نسبة إلى جورج

تكشف سياسة المراقبة التي يتبعها التلفزيون - نعم، حتى التلفزيون لديه سياسة مراقبة الآن - عن جهود المراقبة والمصالح التجارية التي تعمل خارج نطاق الوعي في منازلنا. وتعترف شركة سامسونغ، بأن الأوامر الصوتية التي تهدف إلى تشغيل قدرات التعرف على الصوت في التلفزيون، تُرسَل إلى طرف ثالث وتضيف: "يرجى العلم أنه إذا كانت كلماتك المنطوقة تتضمن معلومات شخصية أو معلومات حساسة أخرى، فستكون هذه المعلومات من بين البيانات التي تُلتَقَطُ وتُرسَلُ إلى طرف ثالث من خلال استخدامك لتقنية التعرف على الصوت".⁽⁶⁹⁸⁾ وتتصل شركة سامسونغ من مسؤوليتها عن سياسات الشركات الخارجية، كما تفعل سياسات المراقبة كلها تقريباً، بما في ذلك الشركات التي تجمع أحاديث عملائها غير المطلعين وترجمها. وتنصح الشركة بأن "عليك توخي الحذر، ومراجعة بيانات الخصوصية المطبقة على مواقع الويب المطبقة على الأطراف الخارجية، وخدماتها التي ترغب أنت باستخدامها".⁽⁶⁹⁹⁾ ولن يجد المستهلك الشجاع، الذي يعتزم دراسة هذه الوثائق، أي عون في سياسة الخصوصية لدى شركة "نيوانس" بل سيجد المبادئ التوجيهية ذاتها الموجودة لدى شركة سامسونغ، وكل شركة أخرى تقريباً. كما أنها تشجعك على قراءة سياسات الخصوصية الخاصة بالشركات التي تباع لها محادثاتك، فهكذا تسير الأمور: مسيرة قسرية نحو الجنون أو الاستسلام.⁽⁷⁰⁰⁾

أقر المجلس التشريعي، في كاليفورنيا على الأقل، قانوناً يحظر على أجهزة التلفزيون المتصلة جمع البيانات الصوتية دون "إبلاغ العملاء بشكل واضح"، كما حظر على أي طرف ثالث استخدام مثل هذه البيانات للإعلان.⁽⁷⁰¹⁾ لكن كما نعلم من دراستنا

أورويل"، الغارديان، 9 فبراير/ شباط 2015.

(698) هيرن، "سامسونغ ترفض القلق".

(699) مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية، "شكوى (EPIC) ضد تلفزيون سامسونغ الذكي، 9 مايو 2017.

(700) EPIC - شكوى بشأن تلفزيون سامسونج الذكي"، 9 مايو/ أيار 2017؛ "سياسة خصوصية سامسونغ"، سامسونغ، 10 فبراير 2015؛ "معلومات عامة حول سياسة خصوصية شركة 'نيوانس'، ديسمبر 2015.

(701) لجنة الخصوصية وحماية المستهلك، "أجهزة التلفزيون المتصلة"، القانون العام رقم 1116.

لدورة نزع الملكية، لا يمكننا بسهولة ردع الضرورات الاقتصادية التي تدفع رأسمالي المراقبة إلى الاستحواذ على الفوائض السلوكية. بحلول عام 2016، ضاعفت سامسونج من سلسلة التوريد السريّة القائمة على أجهزة التلفزيون الذكية والفائض السلوكي، ووضعت نماذجها الجديدة كمركز لنظام "سامسونج سمارت ثينغس" (Samsung SmartThings) البيئي الذكي في منصّة مفتوحة تدعم آلاف الأجهزة"، بما في ذلك المراوح والأضواء وأجهزة ضبط الحرارة وكاميرات المراقبة والأقفال - وهذا كله بمساعدة جهاز تحكّم عن بعد عالمي واحد قادر على التقاط كل ما هو منطوق. (702)

في عام 2017، توصّلت لجنة التجارة الفيدرالية إلى تسوية بقيمة 2.2 مليون دولار لشكوى رفعها مكتب المدعي العام لولاية نيوجيرسي ضد شركة "فيزيو" (Vizio)، إحدى أكبر شركات تصنيع أجهزة التلفزيون الذكية المزوّدة بالإنترنت وتوزيعها في العالم. يبدو أن عمليات التوريد لدى شركة "فيزيو" أكثر صرامة من عمليات سامسونج. إذ اكتشف المحققون أن "فيزيو جمعت، لحظةً بلحظة، مجموعةً من وحدات البكسل على الشاشة، وطابقتها مع قاعدة بيانات لمحتوى تلفزيوني وسينمائي وإعلاني". ثم حدّدت الشركة بيانات مشاهدة إضافية "من مزودي خدمات الكابل أو النطاق العريض، وأجهزة الاستقبال التلفزيوني، وأجهزة البث، ومشغلات أقراص الفيديو الرقمية، والبث اللاسلكي". وبلغ مجموع هذه البيانات ما يصل إلى مئة مليار نقطة بيانات يوميًا من أحد عشر مليون جهاز تلفزيون تم تحديدها في التسوية. (703) وقامت الشركة بإخفاء عمليات الإمداد الخاصة بها خلف إعدادٍ يُسمّى "التفاعل

(702) ميجان وولرتون، "التحكم الصوتي يتصدّر المشهد في المنازل الذكية"، سي نت، 1 ديسمبر 2014؛ ديفيد كاتزماير، "هل تعتقد أن التلفزيون الذكي غي؟ سامسونج تسعى لتغيير رأيك بالتحكم في أجهزتك"، سي نت، 14 أبريل 2016؛ ديفيد بيرس، "قريبًا، ستتمكن من التحكم في كل ركن من أركان منزلك الذي بجهاز تحكم عن بُعد عالمي واحد"، وايرد، 7 يناير 2016.

(703) "فيزيو تدفع 2.2 مليون دولار للجنة التجارة الفيدرالية، وولاية نيوجيرسي تسوي اتهامات بجمعها سجلات المشاهدة من 11 مليون جهاز تلفزيون ذكي دون موافقة المستخدمين"، لجنة التجارة الفيدرالية، 6 فبراير/ شباط 2017؛ نيك فيسر، "فيزيو تدفع ملايين الدولارات بعد تجسسها سرًا على العملاء وبيع بيانات المشاهدين"، هافينغتون بوست، 7 فبراير/ شباط 2017.

الذكي"، الذي وُصِفَ للمستهلكين بأنه ميزة "تمكّن عرض البرنامج والاقتراحات" دون أية إشارة إلى وظائفها الفعلية. وفي منشور واضح بشكل غير عادي، وصفت لجنة التجارة الفيدرالية المبيعات المباشرة التي قامت بها الشركة لهذا الفائض السلوكي:

ثم حوّلت شركة فيزيو هذا الكمّ الهائل من البيانات إلى أرباح طائلة من خلال بيع سجلّات مشاهدة المستهلكين للمعلنين وغيرهم. ولنكن واضحين: نحن لا نتحدث عن معلومات موجزة حول اتجاهات المشاهدة على المستوى الوطني. ووفقاً للشكوى، تورّطت شركة فيزيو في مشاكل شخصية. قدّمت الشركة عناوين "تعريف هوية المستخدم IP" إلى مجمّعي بيانات، الذين قاموا بمطابقة العنوان مع عنوان مستهلك أو منزل. ومنعت عقود فيزيو مع جهات خارجية إعادة تحديد هوية المستهلكين والأسر بأسمائهم، لكنها سمحت ببيانات شخصية أخرى، مثل الجنس والعمر والدخل والحالة الاجتماعية وحجم الأسرة ومستوى التعليم وملكية المنزل. وسمحت فيزيو لهذه الشركات بتتبع مستهلكيها واستهدافهم عبر الأجهزة.⁽⁷⁰⁴⁾

أكّد بيان متوافق صادر عن رئيسة لجنة التجارة الفيدرالية بالإجابة "مورين ك. أولهاوزن" أن التسوية فتحت آفاقاً جديدة في ادعائها بأن "نشاط مشاهدة التلفزيون الفردي يقع ضمن تعريف المعلومات الحساسة" التي تستحقّ حماية لجنة التجارة الفيدرالية.⁽⁷⁰⁵⁾ إن هذه المحاولة لمنع الكارثة لن توقف موجد التوغّلات المماثلة الهائلة حيث تعمل ضرورة التنبؤ على تحفيز البحث عن أجزاء الحديث غير المستكشفة من الحياة اليومية. يسيطر الإمداد حتى على مصادر الإمداد الحميدة، مثل الألعاب، التي أصبحت الآن "ألعاب تجسس". إذ تبين أن سلالة جديدة من الدمى التفاعلية وروبوتات اللعب، بما في ذلك دمية فتاة تسمى "صديقتي كايل"، تشكّل مراكز إمداد لفائض القاصرين السلوكي، مما يعرّض هواتف الأطفال الصغار الذكية وآبائهم

(704) ليزلي فير، "ما كانت تفعله شركة فيزيو خلف شاشة التلفزيون"، لجنة التجارة الفيدرالية، 6 فبراير 2017.

(705) مورين ك. أولهاوزن، "بيان متفق عليه من رئيسة مجلس الإدارة بالإجابة مورين ك. أولهاوزن - في قضية شركة فيزيو - رقم القضية 1623024"، لجنة التجارة الفيدرالية، 6 فبراير 2017.

"لمراقبة مستمرة.... دون أية معايير ذات مغزى لحماية البيانات". (706)

تأتي هذه الألعاب الشعبية، التي تسوّقها شركة "جينيسيس تويز"، مع تطبيق جوال، والذي بمجرد تنزيله على الهاتف الذكي، "يوفر معالجة البيانات" لتمكين قدرة اللعبة على التقاط كل ما يقوله الطفل وفهمه. (707) ويتمكن التطبيق، على هذا المسار، من الوصول إلى معظم وظائف الهاتف، بما في ذلك وظائف غير ذات صلة باللعبة، مثل قوائم جهات الاتصال والكاميرا. ويقوم هذا التطبيق بإنشاء اتصال بلوتوث يربط اللعبة بالإنترنت، ويسجل المحادثات ويحملها بينما تشارك اللعبة الطفل في المناقشة بشكل نشط. وتستهدف إحدى الدُمى المذكورة في الشكوى الأطفال بشكل منهجي، وتحثهم على تقديم مجموعة من المعلومات الشخصية، بما في ذلك مكان إقامتهم.

تُترجمُ محادثات الطفل إلى نصّ بواسطة برنامج التعرّف على الصوت التابع لطرف ثالث، ومرةً أخرى، هذا الطرف هو شركة "نيوانس كوميونيكيشن"، وتُستخدم هذه المعلومات لاسترداد الإجابات على أسئلة الطفل باستخدام غوغل ومصادر الويب الأخرى. واكتشف الباحثون أن الملفات الصوتية لمحادثات الأطفال (تسميها شركة نيوانس "مقاطع حوار") تُنقل إلى خوادم الشركة بهدف التحليل والتخزين. (708) وكما قد تتوقع، تستمرّ أجزاء الحوار هذه في رحلتها كفائض سلوكي، بالطريقة ذاتها التي يُباع فيها الصوت الملتقط عبر تلفزيون سامسونغ "مقابل خدمات ومنتجات أخرى"، كما تشير اتفاقية شروط الخدمة في شركة "جينيسيس".

في تلك الأثناء، كانت شركة "ماتيل" (Mattel)، إحدى أكبر شركات الألعاب في العالم، تكتسب متانة جديدة بفضل ابتكاراتها في الألعاب التفاعلية التي تعتمد على

(706) مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية، "لجنة التجارة الفيدرالية - في قضية ألعاب جينيسيس و'نيوانس كوميونيكيشن' - شكوى وطلب تحقيق وأمر قضائي ومساعدات أخرى"، 6 ديسمبر/كانون الأول 2016؛ كيت كوكس، "هذه الألعاب لا تستمع لطفلك فحسب: بل ترسل ما تسمعه إلى أطراف أخرى، كونسوميرست، 6 ديسمبر/كانون الأول 2016.

(707) "لجنة التجارة الفيدرالية - في قضية ألعاب جينيسيس".

(708) "لجنة التجارة الفيدرالية - في قضية ألعاب جينيسيس". انظر أيضًا جيري هافيلكا ورايمو باكيس، "انظمة وطرق لتسهيل الانصال باستخدام نظام اتصال تفاعلي"، A1 US20170013124، المقدم في 6 يوليو/تموز 2015، والصادر في 12 يناير/كانون الثاني 2017.

الإنترنت والذكاء الاصطناعي، بقيادة دمية باربي الجديدة المتحدثة، ومنزل أحلام باربي.⁽⁷⁰⁹⁾ يمكن لبنت الدمي الذكي القابل للتنشيط صوتيًا أن يستجيب لأكثر من مئة أمر، مثل "خفض المصعد" و"تشغيل كرة الديسكو"، وهو نوع جديد من تمارين التعود يهدف إلى إضفاء طابع طبيعي على الوجود في الأماكن الحميمة المنتشرة في كل مكان. وقد عبّر موقع وايرد عن فرحته قائلاً: "منزل باربي الذكي يُبهر الجميع. سرير باربي المثالي يعمل بالتحكم الصوتي... إنه ما ينبغي أن يكون عليه المنزل الذكي الحقيقي: يُبهر الجميع بالتحكم الصوتي الشامل، بدلاً من مزيج الأجهزة المتفرقة التي تشغل مساحة التطبيقات على هاتفك... المستقبل مُعدُّ لنا".⁽⁷¹⁰⁾

يتعلّم الأطفال، في هذا المستقبل، مبادئ "الصوت الواحد" - وقت التشغيل، وواجهة استخدام جديدة. إنه مُتاح في كل مكان لتنفيذ أوامره، وتوقع رغباتهم، وتشكيل إمكانياتهم. إن حضور الصوت الواحد كليّ الوجود، مع سوقك الشرس والمثلهف المختبئ تحت عباءته، يُغيّر الكثير من الأمور. فالحميمية كما عرفناها مُهددة، إن لم تكن قد انتهت. والعزلة قد تلاشت. سيتعلّم الأطفال أولاً أنه لا حدود بين الذات والسوق، وسيستاءلون لاحقاً كيف كان ممكناً أن يكون الأمر مختلفاً.

عندما عينت شركة ماتيل رئيساً تنفيذياً جديداً في يناير/ كانون الثاني 2017، لم يكن غريباً أن الشركة تطلّعت إلى غوغل، حيث اختارت رئيسها للأميركيتين الشخصَ الذي كان مسؤولاً عن العمليات التجارية والإعلانية في شركة غوغل.⁽⁷¹¹⁾ واتفق

(709) جيمس فلاهوس. "باربي تريد التعرّف على طفلك"، نيويورك تايمز، 16 سبتمبر 2015؛ إيفي ناجي، "بعد الجدل حول لعبة "مرحباً باربي"، ردّ تطبيق ToyTalk على منتقديه"، فاست كومباني، 23 مايو 2015؛ مايك كريغر، "باربي الكبيرة تراقبك: تعرّف على الدمية المتصلة بالواي فاي التي تتحدث إلى أطفالك وتسجّل مكالماتهم"، زبرو هيدج، 7 يناير 2013؛ إيسي لابوسكي، "خبراء بيكسار يُعيدون ابتكار تقنية التعرف على الكلام لتعمل مع الأطفال"، وايرد، 25 سبتمبر 2014؛ تيم موينهان، "باربي لديها منزل أحلام جديد فائق الروعة يعمل بالصوت ومتصل بالإنترنت"، وايرد، 15 سبتمبر 2016؛ إيرينا د. مانتا وديفيد س. أولسون، "مرحباً باربي: سيراقبونك أولاً، ثم سيميزون ضدك. تمامًا"، مجلة ألاباما القانونية، العدد 135، العدد 67 (2015). انظر أيضاً "توي توك | قانوني | سياسة خصوصية هالو باربي/باربي هالو دريم هاوس"، توي توك، 30 مارس 2017.

(710) موينهان، "باربي لديها منزل أحلام جديد رائع للغاية".

(711) بول زيوبرو وجوان إس. لوبلين، "ماتيل تجد رئيسها التنفيذي الجديد في غوغل"، وول ستريت جورنال، 18 يناير/ كانون الثاني 2017.

معظم المحللين على أن هذا التعيين ييسّر بالتزام شركة ماتيل بابتكاراتها في الألعاب التي تعمل عبر الإنترنت والواقع الافتراضي، ولكن التعيين يسلّط الضوء على تحوّل التركيز من صنع منتجات رائعة لك إلى جمع بيانات رائعة عنك.

الدمية التي كانت في يوم من الأيام مرآة محبوبة لخيال الطفل غير المقيد، إلى جانب جميع الألعاب الأخرى في صندوق الألعاب - والصندوق، والغرفة التي تستضيف الصندوق، والمنزل الذي يستضيف الغرفة - أصبحت كلها مخصصة للتسليم والحساب والاتصال والربح. فهي لم تعد مجرد أشياء، بل أُعيد ابتكارها كحاملات لمجموعة من الفرص التجارية المصوغة من حواراتنا، وملوّنة بغبار الذهب.

في عام 2017، حظرت وكالة الشبكة الفيدرالية الألمانية دمية كايلابوصفها جهاز مراقبة غير قانوني، وحثّ الآباء على إتلاف أية دمية لديهم من هذا النوع. لكن الولايات المتحدة الأمريكية لم تتخذ أي إجراء ضدّ الدمية، أو ضدّ شركة "جينيسيس" حتى الآن. في هذه الأثناء، يعمل بيت الدمية المتصل بالإنترنت على إعداد أطفالنا وأسرنا للغرفة المتصلة بالإنترنت (وهو المشروع الذي أعلنت عنه شركة ماتيل في يناير/ كانون الثاني 2017 ثم أُجلّته بعد تسعة أشهر بسبب ضجّة الآباء والمدافعين عن الخصوصية)، مما يمهّد الطريق للمنزل المتصل بالإنترنت، الذي يأمل صانعوه أن يجعلنا غير مباينين بالعالم المتصل بينما نسلك طريق المصير الواضح كلّ الوجود، ووعدنا بإيرادات المراقبة.⁽⁷¹²⁾

في السعي وراء معرفة ماذا يُفعل بفائض الصوت، وكيف يتم التعامل معه، يقوم منطق المنافسة على الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من العرض. وتولّد الرغبة في الكمال ضغوطاً تنافسية لتصبح الواجهة الجديدة، وفي وقت التشغيل: الواجهة المهيمنة التي نصل من خلالها إلى الجهاز ونتعامل معه كما يتعامل معنا. وإن لم تكن تلك الواجهة

(712) جيمس فينسنت، "هيئة رقابية ألمانية تطلب من الآباء إتلاف دمية متصلة بشبكة واي فاي بسبب مخاوف من المراقبة"، فيرغ، 17 فبراير/ شباط 2017؛ توماس كلايبرن. "حطموا دمية كايلابوصفها "المراقبة" المتصلة بالبلوتوث الخاصة بأطفالكم، ألمانيا تحت الآباء"، ريجستر، 17 فبراير/ شباط 2017؛ هايلى تسوكاياما، "ألغت شركة ماتيل خططها لإنتاج جهاز ذكاء اصطناعي مخصص للأطفال أثار مخاوف بشأن الخصوصية"، واشنطن بوست، 4 أكتوبر/ تشرين الأول 2017.

حصرية. إنه سباق لاستقطاب الأحاديث كلها باعتبارها الشرط الأساسي لتحقيق المكانة المتميزة للصوت الواحد، والتي ستمنح الفائز القدرة على توقع لحظات الناس جميعًا كلها، وخلال الأيام كلها.

تتضح الرغبة في الشمولية والتفوق في خطابات المتنافسين الأساسيين واستراتيجيتهم في هذا السباق. وعلى الرغم من أن غوغل ومايكروسوفت وأمازون وسامسونج شركات لديها تطلعات للهيمنة على التقاط الصوت، إلا أن أمازون، ومساعدتها في التعلم الآلي، "أليكسا"، وخطها المتسع من محاور إيكو، ومكبرات الصوت دوت، هي من يقدم الحالة الأكثر دلالة هنا. يبدو أن أليكسا ستكون حدثًا أساسيًا لن يجعل من أمازون رأسمالية عدوانية فحسب، بل سيجعلها رأسمالية مراقبة أيضًا. (713)

فتحت أمازون مساعدتها الرقمي "أليكسا" بشكل مكثف أمام مطوري الطرف الثالث بهدف توسيع نطاق "مهارات" المساعد، مثل قراءة الوصفة الطبية أو طلب البيتزا. كما فتحت منصتها أيضًا أمام مصنعي أجهزة المنزل الذكي، بدءًا من أنظمة الإضاءة وحتى غسالات الصحون، مما أدى إلى تحويل "أليكسا" إلى صوت مفرد للتحكم في أنظمة منزلك وأجهزتك. وفي عام 2015 أعلنت أمازون عن إمكانية بيع "أليكسا" كخدمة تُعرف باسم "أمازون ليكس"، مما يسمح لأي شركة بدمج عقل أليكسا في منتجاتها. ويوصف "أمازون ليكس" بأنه "خدمة لبناء واجهات محادثة في أي تطبيق باستخدام الصوت والنص... يتيح لك "ليكس" تحديد فئات جديدة تمامًا من المنتجات". (714) ووفقًا لتصريح نائب الرئيس الأول لشركة أليكسا، "هدفنا هو محاولة إنشاء نوع من النظام البيئي المفتوح والمحايد لأليكسا... وجعله واسع الانتشار

(713) فرانك باسكوالي، "هل ستسيطر أمازون على العالم؟" بوسطن ريفيو، 20 يوليو 2017؛ لينا م. خان، "مفارقة أمازون في مكافحة الاحتكار"، 16 أبريل 2018.

(714) كيفن ماكلولين وآخرون، "بيزوس أمر بدفع تطبيق أليكسا"، مجلة المعلومات، 16 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016؛ "الأسباب الحقيقية التي قد تجعل أليكسا من أمازون الذكاء الاصطناعي المفضل للاستخدام المنزلي"، مجلة فاست كومباني، 8 أبريل/ نيسان 2016؛ "أمازون ليكس - بناء روبوتات المحادثة"، خدمات أمازون ويب، 24 فبراير/ شباط.

في عام 2018، أبرمت أمازون صفقات مع شركات بناء المنازل، وقامت بتثبيت مكبرات صوت من نوع "دوت" (Dot) في الأسقف مباشرة، في جميع أرجاء المنزل، بالإضافة إلى أجهزة "إيكو" (Echo) وأقفال أبواب ومفاتيح إضاءة وأنظمة أمان وأجراس للأبواب ومنظمات حرارة تعمل كلها وفقاً لنظام "أليكسا". ووفقاً لأحد التقارير، "يمكن لأمازون الحصول على بيانات شاملة عن عادات الناس المعيشية...." وتريد الشركة بيع خدمات في العالم الحقيقي مثل تنظيف المنازل والسباكة وتوصيل المطاعم، لكن هذه الرؤى، وفقاً لبعض المطلعين، ذات مدى أبعد: صوتي كلي الإدراك يعرف التجارب كلها، ويتوقع الإجراءات كلها. (716) وتتضمن براءات اختراع شركة أمازون المستقبلية بالفعل تطوير "خوارزمية استشعار الصوت" المدججة في أي جهاز، والقادرة على الاستجابة لكلمات أساسية مثل "اشترت" أو "لا أحب" أو "أحب" مع عروض المنتجات والخدمات". (717)

تبحث أمازون عن فائض سلوكي. (718) وهذا يفسّر سبب انضمام هذه الشركة إلى آبل وغوغل إلى المنافسة على لوحة القيادة في سيارتك وإقامة تحالفات مع شركة "فورد" وشركة "بي إم دبليو". ويعني "التسوّق من مقود السيارة" استضافة العقود الآجلة السلوكية في مقعد سيارتك الأمامي. إن شركة أليكسا جاهزة لتزويدك بتوصيات المطاعم أو نصائح حول أماكن فحص إطارات سيارتك. وتفسّر عبارة "على أوسع نطاق ممكن" لماذا تريد أمازون أن يعمل جهاز "أليكسا/ إيكو" الخاص

(715) "ديف ليمب، المسؤول التنفيذي في أليكسا التابعة لشركة أمازون.

(716) آرون تيلي وبريا أناند، "شركة آبل تخسر مكانها أمام أمازون في صفقات المنازل الذكية مع شركات البناء"، إنفورميشن، 16 أبريل 2018.

(717) سابنا ماهيشواري، "مرحباً أليكسا، ماذا تسمعين؟ وماذا ستفعلن به؟" نيويورك تايمز، 31 مارس 2018.

(718) أليكس هيرن، "وفقاً للتقارير، ستصدر أمازون نظارات ذكية تعمل بنظام أليكسا"، الغارديان، 20 سبتمبر/ أيلول 2017؛ سكوت جيلوم، "لماذا نعتبر أمازون بمثابة غوغل جديدة للشراء"، ميديا إنسايدر، 14 سبتمبر/ أيلول 2017؛ مايك شيلدز، "أمازون تلوح بهدوء في المشهد الإعلاني الرقمي"، وول ستريت جورنال، 6 أكتوبر/ تشرين الأول 2016؛

بها كهاتف منزلي قادر على إجراء المكالمات واستقبالها؛ ولماذا وقّعت الشركة اتفاقية لتثبيت جهاز "إيكو" ضمن ما يقرب من 5000 غرفة في منتجع "وين" (Wynn) في لاس فيغاس؛ ولماذا تباع تطبيق "أليسكا" لمراكز الاتصالات لأتمتة عملية الردّ على الأسئلة المباشرة من العملاء عبر الهاتف، وضمن الرسائل النصّية.⁽⁷¹⁹⁾ يؤدّي كل توسّع في مناطق سيطرة أليكسا إلى زيادة حجم الفائض الصوتي المتراكم في خوادم شركة أمازون، والذي تتم تغذيته إلى أليكسا.

الطريق إلى تنويع الصوت الواحد ليس بالأمر السهل، وهناك مرتحلون آخرون عازمون على شقّ طريقهم إلى خط النهاية. وتريد غوغل أيضًا أن يكون مساعدتها الشخصي، "غوغل هوم"، هاتفًا منزليًا أيضًا. وتعود سامسونغ منافسًا قويًا باستحواذها على "فيف" (Viv)، وهو نظام صوتي جديد وقوي صمّمه المطوّرون الأصليون لمُساعد شركة آبل الشخصي "سيري" (Siri)، الذين أحبطتهم قيود نهج آبل. وأوضح كبير مطوّر "فيف" أنه "يمكنك إنجاز الأمور من خلال التحدّث إلى الأشياء.... وهو سوق سيصبح المجال الكبير التالي...".⁽⁷²⁰⁾

إذا كانت الحياة حصانًا جامحًا، فالمساعد الرقمي هو وسيلة أخرى يمكنها الانتصار على هذا الحصان من خلال التسليم. تتم السيطرة على الحياة الجامحة، وتسليمها كبيانات سلوكية، وإعادة تصوّرها كمنطقة للتصفّح والبحث والمعرفة والتعديل. وكما حوّلت رأسمالية المراقبة شبكة الإنترنت إلى هجوم سوقي تدفعه رغبة الاستيلاء على الفائض السلوكي وتحليله، أصبحت الحياة اليومية الآن مجرد لوحة لسوق جديدة دائمة مخصّصة لسلوكنا، ولا مفرّ منها.

(719) كيث نوتون وسبنسر سوبر، "أليكسا، تولّي زمام القيادة: طرازات فورد ستضع أمازون في مقعد القيادة"، بلومبرغ، 5 يناير/ كانون الثاني 2017؛ رايان كنوتسون ولورا ستيفنز، "أمازون وغوغل تدرسان تحويل مكبرات الصوت الذكية إلى هواتف منزلية"، وول ستريت جورنال، 15 فبراير/ شباط 2017؛ كيفن ماكولن، "تستهدف خدمات أمازون قطاع مراكز الاتصال"، إنفورميشن، 28 فبراير/ شباط 2017.
(720) لوكاس ماتني، "يُظهر تطبيق 'سيري كرياتور' (Siri-Creator) أول عرض توضيحي عام لـ Viv، الواجهة الذكية لكل شيء"، تيتش كرانش.

"اعتدتُ على التواصل معه وجهًا لوجه حيث تختفي الكلمات بعد المحادثة... وافترضتُ أن التواصل عبر لوحة المفاتيح يشبه الرسالة أو المكالمات الهاتفية، لكنني الآن أفهم أن الكلمات لا تختفي." "تكمُن الأسطورة هي أن الاتصالات الإلكترونية غير مرئية..."⁽⁷²¹⁾ كان باحثًا علميًا لامعًا في شركة أدوية كبيرة أطلقت عليها اسم "دراغ كورب" "Drug Corp" في كتابي الصادر عام 1988 بعنوان "في عصر الآلة الذكية".⁽⁷²²⁾ أمضيتُ عدة سنوات في زيارة مجموعة البحث هناك حيث قاموا بتحويل الكثير من اتصالاتهم اليومية من الاجتماعات وجهًا لوجه إلى نظام "ديالوغ" (DIALOG)، وهو من أوائل أنظمة "المؤتمرات عبر الحاسوب" في العالم. وكان "ديالوغ" أشبه بمقدمة للتكنولوجيا التي نطلق عليها الآن اسم "وسائل التواصل الاجتماعي". أنشأت منصة "ديالوغ" مساحة اجتماعية جديدة حيث قام المجتمع العلمي في شركة "دراغ كورب" بتوسيع وتطوير شبكات علاقاتهم، والوصول إلى المعلومات، والحوار المدروس، والمزاح الاجتماعي، كما وصفتها آنذاك. لقد تقبلوا منصة "ديالوغ" بحماس كبير، لكن الأمر لم ينتهِ على خير. كتبتُ: "مع مرور الوقت، اتضح أنهم كشفوا، دون قصد، عن جوانبٍ عابرة وغير ملموسة من تفاعلهم الاجتماعي، لدرجة غير مسبقة من التدقيق الهرمي". وقد وثقت المقابلات التي امتدت على مدى تلك السنوات صحوة العلماء التدريجية لمخاطر جديدة، حيث أصبحت أبعاد التجربة الشخصية، التي كانت ضمنية وخاصة، صريحة وعلنية فجأة بطرق لم يتوقعوها، وبعواقب ندموا عليها بشدة.

بفضل البيئة الجديدة التي تعتمد على الحاسوب، بدت محادثات العلماء الاجتماعية والمهنية كنص إلكتروني: مرئي، وواضح، وقابل للمشاركة. وقد أثرى ذلك عملهم بطرق عديدة، ولكنه خلق أيضًا نقاط ضعف غير متوقعة، إذ أُعيدت صياغة الميول والقيم والمواقف والتفاعلات الاجتماعية كموضوعات للتدقيق. وشاهدتُ، في

(721) شوشانا زوبوف، في عصر الآلة الذكية: مستقبل العمل والقوة (نيويورك: بيسك، 1988)، 381.

(722) زوبوف، في عصر الآلة الذكية، 362-86.

سلسلة الصراعات التي تكشفت على مرّ السنين، كيف كان المدراء التنفيذيون في شركة "دراغ كروب" عاجزين ببساطة عن كبح ميولهم لاستخدام النص الاجتماعي الجديد كوسيلة للتقييم والنقد والمعاقبة. وعلمتُ في أكثر من مناسبة أن المدراء قاموا بطباعة صفحات من محادثات الحوار من أجل نشرها على الأرض وتحليل الآراء حول موضوع معين، وقاموا أحيانًا بقصّ صفحات وتنظيم الإدخالات حسب الموضوع أو الشخص. وفي حالات كثيرة، كانت هذه التحقيقات مجرد جمع للحقائق، لكن في حالات أخرى أراد المدراء تحديد الأشخاص الذين وافقوا على توجيهاتهم أو عارضوها.

تم تعديل "الشهادة الثابتة" للنصّ كوسيلة حاول من خلالها المدراء "السيطرة على ما كان دومًا جانبًا عابرًا من سلوك الرؤوسين وتوجيهه".⁽⁷²³⁾ وتحوّلت هذه الإثارة والوعود الأصلية إلى نوع من السخرية والتوتر عندما انسحب العلماء تدريجيًا من مشروع "ديالوغ"، واختاروا بدلًا من ذلك تطبيق البريد الإلكتروني الروتيني، وتفضيل الرسائل السطحية وغير الشخصية.

بعد عقود من الزمن، أصبح أطفال هؤلاء العلماء وأحفادهم، ومعظمنا أيضًا، يتواصلون بحريّة عبر الهواتف الذكية ووسائل التواصل الاجتماعي، دون أن يدركوا أننا نعيش من جديد الدروس المبررة التي تعلمناها من شركة "دراغ كروب"، لكنه الآن على مستوى جديد تمامًا من التسليم. لقد شعر العلماء بانزعاج شديد عندما رأوا حديثهم العادي يتحوّل إلى موضوع للتفتيش الهرمي. لقد أُعيدت الآن صياغة جوانب حياتنا الداخلية - التي تُلخّص ببساطة بوصفها "شخصية" أو "مشاعر" - باعتبارها مواد خامًا مُتاحة لأي شخص قادر على تصنيع، أو شراء، جيل جديد من ملحقات سلسلة التوريد ووسائل الإنتاج لتحليل هذا النوع الجديد من الفائض السلوكي، وتصنيع منتجات تنبؤ مربحة للغاية.

"التخصيص المؤتمت" هو مرة أخرى التعبير الملطّف الذي يقود هذا الجيل من

منتجات التنبؤ المصنعة من المواد الخام للذات. وتوسّع هذه الابتكارات منطق التكرارات السابقة لنزع الملكية: من الزحف على شبكة الإنترنت، إلى الزحف على الواقع، إلى الزحف على الحياة، إلى الزحف على الذات. وكما كان الحال في كل تكرار، سرعان ما اختفت الأفكار والتقنيات التي كان يُفترض أن تهدف إلى التوضيح والإثراء في المجال المغناطيسي لمشروع المراقبة التجارية، لتظهر مرة أخرى لاحقاً كطرق أكثر دهاءً للتوريد والتصنيع والمبيعات.

يُعتبر مستخدمو فيسبوك، الذين يصل عددهم إلى مليارين، من أكثر أحفاد علماء شركة "دراغ كروب" تأثيراً. انضمّ كثير منهم إلى فيسبوك هرباً من المراقبة الهرمية الشاملة على الاتصالات في مكان العمل، والتي أصبحت روتينية في السنوات التي تلت التجارب الأولى لشركة "دراغ كروب". واعتقدوا ذات يوم أن موقع الفيسبوك هو "مكانهم"، باعتباره مكاناً حميداً مُسلماً به، ومثل نظام "ما بيل" (Ma Bell) القديم⁽⁷²⁴⁾، أداة ضرورية للتواصل والترابط والمشاركة. لكن فيسبوك أصبح أحد المصادر الأكثر سلطة وتهديداً للفائض السلوكي التنبئي القادم من الأعماق. وعلمك الجليل الجديد من أدوات البحث كيف تهب "ذاتك" حتى أعمق أعماقك. إذ يمكن لعمليات التوريد الجديدة أن تجعل من سلوكك قابلاً للقياس، بدءاً من الفروق الدقيقة في شخصيتك وحتى إحساسك بالوقت، والتوجّه الجنسي، والذكاء، وعشرات الخصائص الشخصية الأخرى. وتعمل قدرات الذكاء الاصطناعي الهائلة، التي تتمتع بها الشركة، على تحويل هذه البيانات إلى منتجات تنبئية حية.

في عام 2010، تم الإعداد لاكتشاف إمكانية سرقة حسابك الشخصي على فيسبوك بسهولة، عندما توصّل تعاون بين علماء ألمان وأمريكيين إلى استنتاج غير متوقّع مفاده أن حسابات فيسبوك ليست صوراً ذاتية مثالية، كما افترض كثيرون. ووجدوا أن المعلومات الموجودة على فيسبوك تعكس شخصية المستخدم الفعلية، كما تُقيّم بشكل

(724) هو نظام لشركات الاتصالات بقيادة شركة "بيل للهواتف"، ولاحقاً بقيادة شركة الهاتف والتلغراف الأمريكية التي سيطرت على صناعة خدمات الهاتف في أمريكا الشمالية لأكثر من مئة عام منذ تأسيسها عام 1877 حتى تفكيكها بموجب قانون مكافحة الاحتكار عام 1983 (المترجم).

مستقل من خلال البروتوكولات المعتمدة لنموذج الشخصية المكون من خمسة أبعاد، وبالمقارنة مع أوصاف المشاركين في الدراسة أنفسهم لـ "الذات المثالية". (725)

ثمة أدلة دامغة تشير إلى أن الديناميكيات الفريدة لبيئة الفيسبوك أدت في نهاية المطاف إلى تعقيد هذه الصورة عن "الشخصية الحقيقية"، كما سنستكشف في الفصل السادس عشر، ولكن في عام 2011 شجعت هذه النتائج المبكرة ثلاثة باحثين من جامعة ماريلاند على اتخاذ الخطوة المنطقية التالية. لقد طوّروا طريقة تعتمد على التعديلات المتطورة والذكاء الاصطناعي للتنبؤ بدقة بشخصية المستخدم من المعلومات المتاحة للجمهور في ملفه الشخصي على فيسبوك. (726)

في سياق هذا البحث، توصل الفريق إلى تقدير سحر الفائض السلوكي، واكتشف مثلاً، أن إعلان المرء عن معلومات شخصية محددة مثل الدين أو الانتماء السياسي يساهم بدرجة أقل في تحليل الشخصية القوي مقارنة بحقيقة أن الفرد على استعداد لمشاركة مثل هذه المعلومات في المقام الأول. لفتت هذه الرؤية انتباه الفريق إلى نوع جديد من مقاييس السلوك الفاعلة. فبدلاً من تحليل محتوى قوائم المستخدمين، مثل البرامج التلفزيونية والأنشطة والموسيقى المفضلة، أدركوا أن "البيانات الوصفية" البسيطة - مثل كمية المعلومات المشاركة - "هي أكثر فائدة وتنبؤاً من البيانات الخام الأصلية". إن الحسابات التي أجريت على قوة هذه المقاييس السلوكية، عندما دُمجت مع التحليل اللغوي الآلي وإحصاءات فيسبوك الداخلية، جعلت فريق البحث يستنتج أنه "يمكننا التنبؤ بالعلامات التي حصل عليها المستخدم من ناحية سمة شخصية

(725) أصبح نموذج العوامل الخمسة هو المعيار المعتمد منذ ثمانينيات القرن الماضي لسهولة تحليله حاسوبياً. ويستند هذا النموذج إلى تصنيف لسمات الشخصية على خمسة أبعاد: الانبساط (الميل إلى الانفتاح والحيوية مع السعي وراء التحفيز في صحبة الآخرين)، والود (الدء والتعاطف والتعاون)، والضمير الحي (الميل إلى إظهار الانضباط الذاتي والتنظيم والتوجه نحو الإنجاز)، والعصابية (قابلية التأثر بالمشاعر غير السارة)، والانفتاح على التجارب (الميل إلى الفضول الفكري والإبداع والانفتاح على المشاعر).

(726) جينيفر جولبيك، وكريستينا روبلز، وكارين تيرنر، "التنبؤ بالشخصية باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي"، في ملخصات CHI '11 الموسعة حول العوامل البشرية في أنظمة الحوسبة، CHI EA '11 (نيويورك: ACM، 2011)، 253-262.

معينة بما لا يزيد قليلاً عن عُشر قيمتها الفعلية.⁽⁷²⁷⁾ وبدأ فريق جامعة ماريلاند برحلة تستغرق عدة سنوات نحو استغلال البيانات من الأعماق من أجل برامج خاصة جداً تتعلق بالتلاعب وتعديل السلوك. وعلى الرغم من أنهم لم يروا تلك المسافة بعيدة على هذا الطريق، إلا أنهم توقعوا فائدة معينة من النتائج التي توصلوا إليها لجمهور متحمس من راسمالي المراقبة:

بفضل القدرة على استنتاج شخصية المستخدم، يمكن تصميم مواقع التواصل الاجتماعي، وتجارة التجزئة الإلكترونية، وحتى خوادم الإعلانات، لتعكس سمات شخصية المستخدم وتقديم معلومات يتقبلها المستخدم... ويمكن تعديل عرض إعلانات فيسبوك بناءً على شخصية المستخدم.... ويمكن تسليط الضوء على مراجعات المنتجات من المؤلفين ذوي السمات الشخصية المشابهة للمستخدم لزيادة الثقة والفائدة الملموسة....⁽⁷²⁸⁾

لقد أثبتت القدرات الجديدة أيضاً قوتها عند تطبيقها على مصادر أخرى لبيانات وسائل التواصل الاجتماعي. وفي وقت لاحق من ذلك العام، نشر فريق ماريلاند نتائج استخدمت بيانات تويتر المتاحة للعامة للتنبؤ بالنتائج في كل من أبعاد الشخصية الخمسة بنسبة تتراوح بين 11 إلى 18 في المائة من قيمتها الفعلية. وستصبح نتائج أبحاث مماثلة أساسية في تقدم تقديم ملفات تعريف الفيسبوك باعتبارها سلوكاً لمخابئ جديدة من الفائض السلوكي من الأعماق.⁽⁷²⁹⁾

في المملكة المتحدة، قام فريق من الباحثين، بما في ذلك ميشيل كوسينسكي من جامعة كامبريدج، ونائب مدير مركز القياس النفسي في كامبريدج، ديفيد ستيلويل،

(727) جينيفر جولبيك، كرستينا روبلز، ميشون إدموندسون، وكارين ترنر، "التنبؤ بالشخصية من خلال تويتر"، في المؤتمر الدولي الثالث لمعهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات (IEEE) حول الخصوصية والأمن والمخاطر والثقة (2011)، والمؤتمر الدولي الثالث حول الحوسبة الاجتماعية (PASSAT- SocialCom 2011)، تحرير معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات وجمعية الحاسوب (بوسطن: معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، 2011).

(728) غولبيك، روبلز، وترنر، "التنبؤ بالشخصية باستخدام وسائل التواصل الاجتماعي".
(729) دانييل كوبرسيا وآخرون، "ملفاتنا الشخصية على تويتر، أنفسنا: التنبؤ بالشخصية باستخدام تويتر"، معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات، 2011، 185-180.

بالبناء على مسار البحث هذا.⁽⁷³⁰⁾ وكان ستيلويل قد طور بالفعل قاعدة بيانات "ماي برسوناリティ" (myPersonality)، وهو تطبيق تابع لجهة خارجية على فيسبوك يسمح للمستخدمين بإجراء اختبارات نفسية، مثل تلك التي تعتمد على نموذج العوامل الخمسة، وتلقي ردود الأفعال على نتائجهم. أُطلقت قاعدة البيانات عام 2007، واستُضيفت في مركز القياس النفسي، وتضمنت قاعدة البيانات، بحلول عام 2016 أكثر من ستة ملايين ملف تعريف شخصي، إضافة إلى أربعة ملايين ملف تعريف فردي على فيسبوك. كان يُنظر في الماضي إلى تطبيق "ماي برسوناリティ" على أنه مصدر فريد من نوعه للبيانات النفسية، وإن كان غير تقليدي، لكنه أصبح قاعدة البيانات المفضلة لتحديد نطاق صحة النماذج الجديدة القادرة على التنبؤ بقيم الشخصية من عينات صغيرة الحجم من بيانات فيسبوك والبيانات الوصفية. وأصبح هذا النموذج لاحقاً نموذجاً لعمل شركة استشارية صغيرة تدعى كامبريدج أناليتيكا (Cambridge Analytica)، التي استخدمت مخابئ الفائض السلوكي الجديدة لشن هجوم من الاستهداف السلوكي المستوحى سياسياً.

خلص كوسينسكي وستيلويل، في بحث نُشر عام 2012، أن "بالإمكان التنبؤ

(730) منذ عام 2010، أصبح مركز القياسات النفسية "شبكة بحثية استراتيجية" داخل جامعة كامبريدج، تضم تحالفات بحثية تغطي مختلف تخصصات الجامعة. ومع انخراط نتائج هذا العمل المتنامي في عمليات التوريد الخاصة برأسمالية المراقبة، تجدر الإشارة إلى أنه دُعي للانتقال إلى كلية إدارة الأعمال التابعة للجامعة. وقد ارتبط احتضان الكلية للمركز ارتباطاً وثيقاً بأفائه التجارية، وخاصةً بأفاق التنبؤ بفائض العمق والشخصية. حيث يمكن تطبيقهما على متطلبات التنبؤ الخاصة برأسمالية المراقبة. على سبيل المثال، عند الإعلان عن دمج المركز في حرم الكلية وبرنامجها البحثي، أشار مديرها إلى أن "الأثار الرقمية التي نتركها اليوم تسمح للآلات بمعاملة جميع أنشطتنا على الإنترنت كـ"اختبار". فإعجاباتنا على فيسبوك، والكلمات التي نستخدمها في تغريداتنا ورسائل البريد الإلكتروني، والصور التي نرفعها، جميعها تُوفر "عناصر" يمكن للآلة من خلالها معرفة هويتنا، وما يحفزنا ويدفعنا، وكيف يختلف أحدنا عن الآخر. يُعد علم القياس النفسي في طليعة التطورات في مجال الذكاء الاصطناعي والأدوات القابلة للاتباط بالإنترنت، مما يُمكن من بناء بيانات متصلة حساسة ومستجيبة لاحتياجاتنا". وقد أدلى مدير تطوير الأعمال في الكلية بملاحظات أكثر دقة بشأن الفائدة التجارية المباشرة للبيانات التي كانت تُنتج سابقاً فقط بهدف الحصول على آراء شخصية: "ستعزز خبرة المركز في التقييم والقياس والتنبؤ قدرة كلية كامبريدج للأعمال على توسيع آفاق خلق القيمة لشبكاتها العالمية من العملاء. وسنقدم دعماً رائداً عالمياً في بعض التحديات الشيقة التي تواجه التجارة الحديثة..." انظر "انتقال مركز القياس النفسي إلى كلية كامبريدج ادج للأعمال - مركز القياس النفسي"، جامعة كامبريدج، 19 يوليو/تموز 2016.

بشخصية المستخدم بسهولة وفاعلية من البيانات العامة"، وحذراً من أن مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي يجهلون تمامًا نقاط الضعف التي تتبع إفصاحاتهم الشخصية البريئة، والضخمة في آن معاً. وقد استشهدت مناقشتها على وجه التحديد بالخطوة الأحادية الجانب التي قام بها مارك زوكربيرج، الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، والتي قلبت معايير الخصوصية الراسخة في عام 2010، عندما أعلن أن مستخدمي فيسبوك لم يعد لديهم توقعات بشأن الخصوصية. وكان زوكربيرج قد تحدّث عن قرار الشركة بالإفصاح عن معلومات المستخدمين الشخصية من جانب واحد، قائلاً: "لقد قررنا أن هذه ستكون المعايير الاجتماعية الآن، وقررنا السعي إليها". (731)

أشار المؤلفون، على الرغم من شكوكهم، إلى أهمية نتائجهم فيما يتعلق "بالتسويق" و"تصميم واجهة المستخدم" وأنظمة التوصية. في عام 2013، كشفت دراسة استفزازية أخرى أجراها كوسينسكي وستيلويل وثور غرايبل من مايكروسوفت أن "بإمكان الإعجابات على فيسبوك تقدير مجموعة من سمات الشخصية التي يفترض الناس عادة أنها خاصة بشكل تلقائي ودقيق"، بما في ذلك التوجّه الجنسي والعرق والآراء السياسية والدينية، وسمات الشخصية، والذكاء، والسعادة، واستخدام المواد المسببة للإدمان، وانفصال الوالدين، والعمر، والجنس. (732)

بدا المؤلفون مترددين بشكل متزايد بشأن الآثار الاجتماعية لعملهم. من جهة، أعلنوا أن هذه القدرات التنبؤية الجديدة يمكن استخدامها "لتحسين العديد من المنتجات والخدمات". وخلص الباحثون إلى أن الشركات عبر الإنترنت قادرة على تعديل سلوكها لتتناسب مع شخصية كل مستخدم، من خلال التسويق وتوصيات المنتجات المصممة نفسياً لكل فرد. لكن المؤلفين حذروا أيضاً من أن محركات التنبؤ

(731) بوبي جونسون، "الخصوصية لم تعد معياراً اجتماعياً. كما يقول مؤسس فيسبوك"، الغارديان، 10 يناير/كانون الثاني 2010.

(732) ميشيل كوسينسكي، وديفيد ستيلويل، وثور غرايبل، "يمكن التنبؤ بالسمات والخصائص الخاصة من سجلات السلوك البشري الرقمية"، مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية، 110، رقم 15 (2013): 5-5802.

الآلية التي تديرها الشركات أو الحكومات أو فيسبوك نفسها يمكنها حساب ملايين الملفات الشخصية دون موافقة أو وعي فردي، واكتشاف حقائق "قد لا يكون الفرد ينوي مشاركتها". وحذر الباحثون من أنه "يمكن للمرء أن يتخيل مواقف حيث يمكن لمثل هذه التوقعات، حتى لو كانت غير صحيحة، أن تشكل تهديدًا لرفاهية الفرد أو حرته أو حتى حياته". (733)

على الرغم من هذه المضاعفات الأخلاقية، انتقل كوسينسكي بحلول عام 2015 إلى جامعة ستانفورد (أولاً إلى قسم علوم الحاسوب ثم إلى كلية الدراسات العليا لإدارة الأعمال)، حيث اجتذبت أبحاثه بسرعة تمويل شركات مثل مايكروسوفت، وبوينغ، غوغل، والمؤسسة الوطنية للعلوم، ووكالة مشاريع الأبحاث الدفاعية المتقدمة (داربا) (DARPA). (734) ونشر كوسينسكي، ومجموعة متنوعة من المتعاونين، بما في ذلك ستيلويل في كثير من الأحيان، سلسلة من المقالات التي شرحت القدرات التي تم توضيحها في الأوراق المبكرة ووسّعها، وقام بتنفيذ الإجراءات التي "تحدد مجموعات كبيرة من المشاركين بسرعة وبتكلفة زهيدة مع الحد الأدنى من العبء". (735)

(733) جي. بارك وآخرون، "التقييم التلقائي للشخصية من خلال لغة وسائل التواصل الاجتماعي"، مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي 108، العدد 6 (2015): 934-952.

(734) ميشال كوسينسكي وآخرون، "استخراج البيانات الضخمة لاستخراج الأنماط والتنبؤ بنتائج الحياة الواقعية"، كلية الدراسات العليا لإدارة الأعمال بجامعة ستانفورد، المجلد 21، العدد 4 (2016): 1؛ ميشال كوسينسكي، "دكتور ميشال كوسينسكي"، 28 فبراير/شباط 2018.

(735) بارك وآخرون، "تقييم الشخصية التلقائي". انظر أيضاً بيتر جي. رينفرو وآخرون، "نحن منقسمون: ثلاث مناطق نفسية في الولايات المتحدة وارتباطاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والصحية"، مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي 105، رقم 6 (2013): 996-1012؛ ديجان ماركوفيك، وسونيا جيفسكا، وميشال كوسينسكي، وديفيد ستيلويل، "استخراج بيانات فيسبوك لنموذج الشخصية التنبؤية"، جمعية النهوض بالذكاء الاصطناعي، 2013؛ إتش أندرو شوارتز وآخرون، "التنبؤ برفاهية الفرد من خلال لغة وسائل التواصل الاجتماعي"، في الحوسبة الحيوية 2016: وقائع ندوة المحيط الهادئ، 2016، 516-527؛ إتش. أندرو شوارتز وآخرون، "استخراج التوجه الزمني البشري من لغة فيسبوك"، وقائع مؤتمر عام 2015 للفرع الأمريكي الشمالي لجمعية اللغويات الحاسوبية: تقنيات اللغة البشرية، 2015؛ ديفيد م. جرينبيرغ وآخرون، "الأغنية أنت: تفضيلات أبعاد السمات الموسيقية تعكس الشخصية"، مجلة علم النفس الاجتماعي والشخصية، المجلد 7، العدد 6 (2016): 597-605؛ ميشال كوسينسكي، وديفيد ستيلويل، وثور غرايبل، "السمات والسمات الشخصية يمكن التنبؤ بها من السجلات الرقمية للسلوك البشري"، مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم في الولايات المتحدة الأمريكية،

فتحَ بحث نُشِرَ عام 2015 أفاقًا جديدة عندما أعلن أن دقة تنبؤات الفريق كانت مكافئة لدقة الأحكام البشرية أو متفوقة عليها، سواء أكان في استخدام "الإعجابات" على فيسبوك لتقييم سمات الشخصية على أساس نموذج العوامل الخمسة، أم للتنبؤ "بنتائج الحياة" مثل "الشعور بالرضا في الحياة" أم "تعاطي المخدرات" أو "الاكتئاب".⁽⁷³⁶⁾ وأوضح البحث أن الاختراق الحقيقي لأبحاث التنبؤ على فيسبوك كان تحقيق وفورات في استغلال هذه الأعمال السلوكية الحكيمة باستخدام "أدوات تقييم الشخصية الآلية والدقيقة والرخيصة" التي تستهدف بشكل فعال فئة جديدة من "الأشياء" التي كان تُعرف سابقًا باسم "شخصيتك".⁽⁷³⁷⁾ إن إمكانية تحقيق هذه الاقتصاديات خارج وعي الحيوانات غير المقيّدة يجعلها أكثر جاذبية؛ وكما يؤكد أحد فرق البحث، "تعتبر الطريقة التقليدية لتقييم الشخصية مكلفة للغاية من حيث الوقت والعمالة، ولا يمكنها الحصول على معلومات عن شخصية العملاء دون وعيهم...".⁽⁷³⁸⁾

يعتمد تحليل الشخصية، بهدف تحقيق ميزة تجارية، على الفائض السلوكي - ما يُسمّى بالبيانات الوصفية أو المقاييس متوسطة المستوى - التي حددها باحثون واختبروها، وأصبح مقدّرًا لها أن تُحِبَّ أي شخص يعتقد أنه يتحكّم في "كمية" المعلومات الشخصية التي يكشف عنها في وسائل التواصل الاجتماعي. على سبيل المثال، باسم تأمين السيارات بأسعار معقولة، يجب أن نُصنّف على أننا ملتزمون، ومقبولون، ومنفتحون. لكن ليس من السهل تزييف هذه السمات، لأن الفائض المُسترجع للتحليل غامضٌ علينا بالضرورة. لا ندقّق في جوهرنا، بل في شكلنا. فالسعر

المجلد 110، العدد 15 (2013): 5802-5805.

(736) وو يويو، وميشال كوسينسكي، وديفيد ستيلويل. "أحكام الشخصية المعتمدة على الحاسوب أدقّ من تلك التي يصدرها البشر"، مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم 112، رقم 4 (2015): 1036-1040. (737) تسونغ بي تشين، ومينغ تشي تساي، ويوه مين تشين، "نهج للتنبؤ بشخصية المستخدم من خلال تحليل سلوكيات التفاعل الشبكي على فيسبوك"، مراجعة المعلومات عبر الإنترنت، العدد 40، العدد 7 (2016): 913-937.

(738) سام بيدل، "فيسبوك يستخدم الذكاء الاصطناعي للتنبؤ بأفعالك المستقبلية للمعلنين، بحسب وثيقة سرية"، إنترسبت، 13 أبريل/نيسان 2018.

المعروض عليك لا ينبع مما تكتبه، بل من كيفية كتابته. وليس المهم محتوى الجمل المكتوبة، بل طولها وتعقيدها، وليس الصورة بل اختيار الفلتر ودرجة التشبع، وليس ما تكشفه بل كيفية مشاركتك له أو الامتناع عن مشاركته، ليس الموقع الذي تخطط فيه للقاء أصدقائك بل كيف تفعل ذلك: "لاحقاً" بمحض صدفة، أم في وقت ومكان محددين؟ تعمل علامات التعجب واختيار ظرف الزمان أو ظرف المكان كإشارات كاشفة، وربما ضارّة، عن ذاتك.

إن كون هذه الرؤى "الشخصية" عادية في حد ذاتها لا ينبغي أن يصرف انتباهنا عن حقيقة مفادها أن حجم وعمق الإمدادات الفائضة الجديدة التي تتيحها عمليات الاستخراج هذه غير مسبوق؛ ولم يكن بالإمكان تصوّر شيء من هذا القبيل على الإطلاق.⁽⁷³⁹⁾ وكما قال كوسينسكي في مقابلة معه عام 2015، يُدرك قلة من الناس أن شركات مثل "فيسبوك، وسناب شات، ومايكروسوفت، وغوغل وغيرها لديها القدرة على الوصول إلى بيانات لا يمكن للعلماء جمعها إطلاقاً".⁽⁷⁴⁰⁾ نجح علماء البيانات في التنبؤ بالسّمات الموجودة في نموذج الشخصية، المكوّن من خمسة عوامل، من خلال الفائض المستخرج من صور الملف الشخصي على تويتر (اللون، التركيب، نوع الصورة، المعلومات الديموغرافية، عرض الوجه، والتعبير...)، والصور الشخصية (اللون، الأنماط الفوتوغرافية، الملمس البصري...)، وصور إنستغرام (الصبغة، السطوع، التشبع...). اختبر آخرون نماذج خوارزمية بديلة وبنى شخصية.

(739) نموذج العوامل الخمسة شائع جزئياً لأنه يُسهل تقييمه باستخدام بروتوكولات بسيطة. تتمتع السمات التي يصفها بصلاحية ظاهرية: فهي بديهية وسهلة الملاحظة. على سبيل المثال، من المرجح أن يحصل الشخص المنظم جيداً على درجة عالية في الضمير. ومن المرجح أن يحصل الشخص الذي يفضل أن يكون محاطاً بمجموعات من الأصدقاء على درجة عالية في الانبساط، وهكذا. وبالمثل، يشير كوسينسكي وزملاؤه إلى الارتباط الوثيق بين "إعجابات" فيسبوك وأبعاد السمات الخمسة: "يميل المشاركون ذوو الانفتاح الكبير على التجربة إلى "الإعجاب" بـسلفادور دالي أو التأمل أو محادثات TED...". هذه الارتباطات واضحة وبالتالي يسهل تسجيلها وبرمجتها وقياسها. لا يمكن للحكام البشر التنافس على نطاق واسع، لكنهم يتفوقون على الآلات في النطاق. يدرك كوسينسكي وزملاؤه هذا، معترفين بأن الإدراك البشري "مرن" و"قادر على التقاط العديد من الإشارات اللاواعية غير المتاحة للآلات". انظر يويو، وكوسينسكي، وستيلويل، "أحكام الشخصية المعتمدة على الحاسوب أكثر دقة".

(740) مركز تطبيق الأبحاث على الشخصية (CaPPr)، مقابلة ميشيل كوسينسكي حول الشخصية وإعجابات موقع فيسبوك، 20 مايو 2015.

وأظهر فريق بحثي آخر القدرة على التنبؤ بمستوى "الرضا عن الحياة" من خلال رسائل فيسبوك.⁽⁷⁴¹⁾ في هذا العالم الجديد، لا يوجد مديرٌ جاثٍ على ركبتيه يُقسّم رسائل مؤتمرات الحاسوب إلى مجموعات من قصاصات ورق مُرتبةً موضوعيًا. ليست أرضية المكتب هي التي ترحف، بل أنت.

لاحظ كوسينسكي، في مقابلة أجريت معه عام 2015، أن "تفاعلاتنا كلها تتم من خلال المنتجات والخدمات الرقمية، وهو ما يعني في الأساس أن كل شيء يُسجّل". حتى أنه وصف عمله بأنه "مخيف للغاية": "أريد أن أؤكد في الواقع وجهة نظري بأن العديد من الأشياء التي يمكن للمرء أن يفعلها لا ينبغي بالتأكيد أن تقوم بها الشركات أو الحكومات دون موافقة المستخدمين". وبعد إدراكه التقسيم غير المتكافئ للتعلّم، أعرب عن أسفه لرفض فيسبوك وشركات الإنترنت الأخرى مشاركة بياناتها مع "عامة الناس"، وخلص إلى فكرة أن "هذا ليس لأنهم أشرار، ولكن لأن عامة الناس أغبياء للغاية... كمجتمع فقدنا القدرة على إقناع الشركات الكبرى التي لديها ميزانيات هائلة وإمكانية وصول هائلة إلى البيانات لمشاركة هذا الخير معنا... يجب أن ننضج أخيرًا ونوقف ذلك".⁽⁷⁴²⁾

في الرأسمالية، يستدعي الطلب الكامن الموردين والمواد الموردة. ولا تختلف رأسمالية المراقبة عن ذلك. تُطلَق حتمية التنبؤ كلاب المراقبة لتعقب السلوك من الأعماق، ويُلبي الباحثون ذوو النوايا الحسنة هذا الطلب دون قصد، تاركين وراءهم آثارًا رخيصة من اللحوم النيئة التي تُباع بضغط زر، ليصطادها ويلتهمها رأسماليو المراقبة. وهذا لا

(741) ليكي ليو وآخرون، "تحليل الشخصية من خلال اختيار صورة الملف الشخصي على وسائل التواصل الاجتماعي"، جمعية النهوض بالذكاء الاصطناعي. 2016: شارث تشاندر جونتوكو وآخرون. "هل يدرك الآخرون كما تريد؟ أن يدركوك؟ نمذجة الشخصية بناءً على صور السيلفي". في وقائع ورشة العمل الدولية الأولى حول العواطف والمشاعر في الوسائط المتعددة. ASM '15 (نيويورك: ACM، 2015)، 21-26؛ بروس فيرويردا وماركوس شيدل وماركو تكالسليك، "استخدام ميزات صور إنستغرام للتنبؤ بشخصية المستخدمين"، في نمذجة الوسائط المتعددة (شام، سويسرا: سبرينغر، 2016)، 850-61؛ جولبيك وروبلز وتيرنر، "التنبؤ بالشخصية من خلال وسائل التواصل الاجتماعي": تشين وتساي وتشين، "نهج التنبؤ بشخصية المستخدم": شوارتز وآخرون، "التنبؤ برفاهية الفرد".⁽⁷⁴²⁾ مركز تطبيق الأبحاث على الشخصية (CaPPr)، مقابلة ميشيل كوسينسكي حول الشخصية.

يحتاج إلى وقت طويل. في مطلع عام 2015، أعلنت شركة "آي بي إم" أن خدمة "واتسون بيرسوناليتي سيرفيس" أصبحت مفتوحة للعمل.⁽⁷⁴³⁾ إن أدوات الذكاء الآلي التي تستخدمها الشركة أكثر تعقيدًا وتطفلاً من تلك المستخدمة في معظم الدراسات الأكاديمية. بالإضافة إلى نموذج الشخصية ذي العوامل الخمسة، تُقيم آي بي إم كل فرد عبر اثنتي عشرة فئة من "الاحتياجات"، بما في ذلك "الحماس، والانسجام، والفضول، والمثالية، والقرب، والتعبير عن الذات، والحرية، والحب، والعملية، والاستقرار، والتحدي، والهيكلية". ثم تُحدد "القيم"، التي تُعرّف بأنها "عوامل محفزة تؤثر على اتخاذ الشخص للقرارات عبر خمسة أبعاد: سمو الذات/ مساعدة الآخرين، والمحافظة/ التقليد، المتعة/ الاستمتاع بالحياة، تعزيز الذات/ تحقيق النجاح، والانفتاح على التغيير/ الحماس".

تعد شركة آي بي إم بتطبيقات "لا حدود لها" لإمدادات فائضها السلوكي الجديد، "والصور العميقة للعملاء الأفراد". وكما هو متوقع، تُختبر هذه العمليات بين موظفين يشعرون بأنهم مجبرون على العمل، يُمكنهم، بمجرد اعتيادهم عليها، أن يصبحوا أعضاء مطيعين في مجتمع مُطهر سلوكيًا. يمكن الآن تحديد "ارتباطات الشخصية" التي تتنبأ بدقة بكيفية تفاعل كل عميل مع الجهود التسويقية. من سيستخدم قسيمة؟ من سيشتري أي منتج؟ تقول الشركة إنه يمكن استخدام "محتوى مواقع التواصل الاجتماعي وسلوكياته" للاستفادة من فرص توليد الإيرادات المستهدفة من خلال "ربط قواعد الشخصية بالسلوك". يمكن "مطابقة" رسائل وكلاء خدمة العملاء ونهجهم، ووكلاء التأمين، ووكلاء السفر، ووكلاء العقارات، ووسطاء الاستثمار، وما إلى ذلك، مع "شخصية" العميل، مع عرض تلك البيانات النفسية للوكيل في لحظة الاتصال الدقيقة. تشير أبحاث "آي بي إم" إلى أن الوكلاء الذين يُعبرون عن سمات شخصية مرتبطة بـ "اللطيف" و"الضمير" يحظون بمستويات عالية جدًا من رضا العملاء. من المنطقي أن نلاحظ أن هذه التفاعلات أصبحت الآن قابلة للقياس

(743) يجعل تطبيق "آي بي إم كلاود" من النظام الهجين واقعًا ملموسًا للمؤسسات، "آي بي إم، 23 فبراير 2015.

والمراقبة في الوقت الحقيقي، وعلى نطاق واسع، بهدف دعم السلوك أو إخفاذه وفقاً لتأثيره في السوق. (744)

بفضل الترجمة، يمكن لعدد قليل من السمات الشخصية القابلة للقياس الآن، بما في ذلك "الحاجة إلى الحب"، التنبؤ باحتمالية "أن ينال المنتج علامة الإعجاب". (745) وجدت شركة آي بي إم، في تجربة إعلانات مُستهدفة على موقع تويتر، أن بإمكانها أن تزيد معدلات النقر ومعدلات المتابعة بشكل كبير من خلال استهداف أفراد لديهم درجات "انفتاح" عالية ودرجات "عصائية" منخفضة على تحليل الشخصية ذي العوامل الخمس. وفي دراسة أخرى، حلّلت شركة آي بي إم البيانات السلوكية من 2000 مستخدم لتويتر لتحديد مقاييس مثل معدلات الاستجابة، ومستويات النشاط والوقت الذي يقضونه بين التغريدات، بالإضافة إلى تحليل التغريدات نفسياً ولغوياً، وتحليل الشخصية ذي العوامل الخمس. وقامت الشركة بتدريب نموذجها التنبؤي بطرح أسئلة، تتعلق بالموقع أو المنتج، على ألفي مستخدم. وأظهرت النتائج أن معلومات الشخصية تنبأت باحتمالية الإجابات. كان الأشخاص، الذين صنفهم الآلات على أنهم أخلاقيون وجديرون بالثقة وودودون ومنفتحون ومقبولون، يميلون إلى الاستجابة بنسبة عالية مقارنة بمعدلات استجابة منخفضة لدى الأشخاص الذين صنفوا على أنهم حذرون وقلقون. إن كثيرًا من الخصائص التي

(744) انظر فيبا سينها، "شخصية وكيك مهمة - دراسة تجريبية حول معادلات تويتر - واتسون ديف"، واتسون، 3 نوفمبر 2016. في دراسة أجريت مع وسيط البيانات أكسيوم، شرعت الشركتان العلاقاتان في تحديد ما إذا كانت رؤى الشخصية لشركة آي بي إم تتنبأ بتفضيلات الاستهلاك بدقة أكبر من المعلومات الديموغرافية الشائعة التي جمعها وسطاء البيانات. وكانت النتائج إيجابية بعد فحص 133 تفضيلاً للاستهلاك لحوالي 785000 مواطن أمريكي، أدت إضافة بيانات شخصية إلى تحسين دقة التنبؤ لـ 115 تفضيلاً (86.5%). قدمت بيانات الشخصية وحدها دقة تنبؤ أفضل من بيانات ديموغرافية لـ 23 من هذه التفضيلات. لاحظ الباحثون بحماس أنه في 61% من الحالات، يمكن رؤية شخصية "لوانسون التنبؤ بدقة بفئات تفضيل معينة، مثل "التخيم / المشي لمسافات طويلة". "دون جمع أي بيانات من المستخدم". يُقرّون بأن دخل الفرد يُعدّ أيضاً مؤشراً قوياً للاستهلاك. لكنهم يشكون من أن المعلومات "حساسة للغاية" و"يصعب جمعها" مقارنة ببيانات الشخصية، التي "يمكن استخلاصها مباشرة من ملف تعريف الشخص على وسائل التواصل الاجتماعي". انظر IBM-Accxiom، "تحسين دقة التنبؤ بتفضيلات الاستهلاك الاستهلاكي للمستهلكين باستخدام رؤى الشخصية"، مارس 2016.

(745) آي بي إم أكسيوم، تحسين دقة التنبؤ بتفضيل المستهلكين للمواد المستهلكة.

نحاول تعليمها لأطفالنا، ونجسدها في سلوكنا الخاص، يُعاد استخدامها ببساطة باعتبارها فرص نزع ملكية لعمليات التسليم الآلية الخفية. يُشكّل القلق وجنون الارتباب مصدرَي حماية من غزو الآلات لتحقيق الربح في هذا العالم الجديد. فهل يجب علينا أن نُعلّم أطفالنا القلق والشك؟

لا تقف شركة آي بي إم وحدها في هذا الموقع طبعًا. فقد سارعت سُلالة مُبتكرة من مرتزقة الشخصية إلى العمل على إضفاء الطابع المؤسسي على عمليات الإمداد الجديدة. وتشير جهودهم إلى مدى السرعة التي نفقد بها اتجاهاتنا، حيث يعمل إضفاء الطابع المؤسسي في البداية على ترسيخ الشعور بالطبيعية والقبول الاجتماعي، ثم تقوم تدريجيًا بإنتاج الخدر المرافق للتعوّد. وتبدأ هذه العملية بخطط الأعمال ورسائل التسويق والمنتجات والخدمات الجديدة والتمثيلات الصحفية التي تبدو وكأنها تقبل الحقائق الجديدة كما هي.⁽⁷⁴⁶⁾

من بين مجموعة الشركات المرتزقة الجديدة، كانت شركة كامبريدج أنلايتيكا وهي شركة استشارات بريطانية مملوكة للملياردير المنعزل الذي يتجنّب الاختلاط بالناس، روبرت ميرسر، الداعم لدونالد ترامب. وتباهى الرئيس التنفيذي للشركة، ألكسندر نيكس، بتطبيقها "الاستهداف السلوكي الدقيق" القائم على الشخصية، دعمًا لحملة "خروج" التي سبقت التصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، وحملة ترامب التي سبقت انتخابات عام 2016 الأمريكية.⁽⁷⁴⁷⁾ وزعم نيكس أن البيانات

(746) "تحليلات وسائل التواصل الاجتماعي"، مركز زيروكس للأبحاث أوروبا، 3 أبريل/ نيسان 2017؛ إيمي ويب، "ثمانية اتجاهات تقنية جديدة بالمتابعة في عام 2016"، هارفارد بيزنس ريفيو، 8 ديسمبر/ كانون الأول 2015؛ كريستينا كرويل، "الآلات التي تتحدث إلينا قد تستشعر مشاعرنا أيضًا قريبًا"، ساينتفك أمريكان، 24 يونيو/ حزيران 2016؛ آر. جي. كوني، "كيف تُغيّر الأتمتة والتحليلات خدمة العملاء"، مدونة كوندوبنت، 18 يوليو/ تموز 2016؛ ريان كنوتسون، "قد تعرف مراكز الاتصال معلومات مفاجئة عنك"، وول ستريت جورنال، 6 يناير/ كانون الثاني 2017.

(747) نيكولاس كونفيسور وداني حكيم، "وعود جريئة تتلاشى أمام شكوك شركة بيانات مرتبطة بترامب"، نيويورك تايمز، 6 مارس/ آذار 2017؛ ماري آن روسون، "الثورة السياسية: كيف فازت البيانات الضخمة برئاسة دونالد ترامب للولايات المتحدة"، إنترناشونال بيزنس تايمز المملكة المتحدة، 20 يناير/ كانون الثاني 2017؛ غراسيجر وكروغروس، "البيانات التي قلبت العالم رأسًا على عقب"، كارول كادوالدر، "كشف: كيف ساعد ملياردير أمريكي في دعم خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي"، الغارديان، 25 فبراير/ شباط 2017؛ بول أوليفيه ديهاي، "مرتزقة المعلومات المضللة يسيطرون الآن على قواعد بيانات ترامب"،

تم حلها "على المستوى الفردي حيث لدينا ما يقرب من أربعة أو خمسة آلاف نقطة بيانات عن كل شخص بالغ في الولايات المتحدة".⁽⁷⁴⁸⁾ في حين حاول الباحثون والصحفيون تحديد حقيقة هذه الادعاءات، والدور الذي ربما لعبته هذه التقنيات، في الاضطرابات التي شهدتها انتخابات عام 2016، أعلن كبير مسؤولي الإيرادات الجديد في الشركة بهدوء عن استراتيجية الشركة الأقل بريقاً لكنها الأكثر ربحاً بعد الانتخابات: "ستتجه الشركة، بعد هذه الانتخابات، بطاقتها كلها نحو الأعمال التجارية". وأخبرهم، في مقال نشره في مجلة لتجار السيارات بعد الانتخابات الأمريكية مباشرة، أن أساليبه التحليلية الجديدة تكشف "كيف يريد العميل أن تُباع المنتجات له، وما هي شخصيته، وما هي أساليب الإقناع الأكثر فعالية... ما يفعله هو تغيير سلوك الناس من خلال رسائل مصممة بعناية تتوافق معهم... لا يتطلب الأمر سوى تحسينات طفيفة في معدلات التحويل لكي تشهد وكالة السيارات تحولاً جذرياً في الإيرادات".⁽⁷⁴⁹⁾

تُظهر وثيقة مسربة من فيسبوك، حصل عليها موقع "ذا إنترسبت" (The Intercept) عام 2018، أهمية البيانات المستمدة من الأعماق في تصنيع منتجات التنبؤ الخاصة بفيسبوك، وتؤكد التوجه الأساسي للشركة نحو أسواق المستقبل السلوكي، وتكشف عن الدرجة التي تعكس بها ممارسات "كامبريدج أناليتيكا" المثيرة للجدل إجراءات التشغيل القياسية في فيسبوك.⁽⁷⁵⁰⁾ وتشير الوثيقة السرية إلى "خبرة التعلم الآلي" التي لا مثيل لها لدى فيسبوك، والتي تهدف إلى تلبية "التحديات التجارية الأساسية" لعملائها. ولتحقيق هذه الغاية، يصف الكتاب قدرة فيسبوك على استخدام مخازن بياناته الخاصة، التي لا مثيل لها، "للتنبؤ بالسلوك المستقبلي"، واستهداف الأفراد على أساس كيفية تصرفهم وشرايتهم وتفكيرهم: الآن، وقريباً، وفي

ميديوم، 3 يناير/ كانون الثاني 2017؛ هاري ديفيز، "تيد كروز يستخدم شركة جمعت بيانات ملايين مستخدمي فيسبوك دون علمهم"، الغارديان، 11 ديسمبر/ كانون الأول 2015.
(748) كونكورديا، قوة البيانات الضخمة والتحليل النفسي، 2016.
(749) انظر "تحدث بلغة العميل باستخدام الاستهداف السلوكي الدقيق"، تسويق الوكلاء، 1 ديسمبر 2016.
(750) بيدل، "فيسبوك يستخدم الذكاء الاصطناعي للتنبؤ بأفعالك المستقبلية".

وقت لاحق. تربط الوثيقة بين التنبؤ والتدخل والتعديل. على سبيل المثال، تُرَوّج خدمة فيسبوك "التنبؤ بالولاء" (loyalty prediction) لقدرتها على تحليل الفائض السلوكي للتنبؤ بالأفراد "المعرّضين" لخطر تغيير ولائهم لعلامتهم التجارية. الفكرة هي أن هذه التوقعات يمكن أن تدفع المعلنين إلى التدخل فوراً، واستهداف رسائل عدوانية لتثبيت الولاء، وبالتالي تحقيق نتائج مضمونة من خلال تغيير مسار المستقبل.

يعتمد "محرك التنبؤ" الخاص بفيسبوك على منصّة ذكاء اصطناعي جديدة تسمى "إف. بي. ليرنر فلو" (FBLearner Flow)، إذ تصفها الشركة بأنها "العمود الفقري للذكاء الاصطناعي" الجديد، والأساس إلى "التجارب الشخصية" التي تقدم "المحتوى الأكثر صلة". يستوعب نظام التعلّم الآلي "تريليونات نقاط البيانات كل يوم، ويدرب آلاف النماذج - إما دون اتصال بالإنترنت أو في الوقت الفعلي - ثم ينشرها على أسطول خوادمه للتنبؤات المباشرة". وتوضح الشركة أنها "درّبت أكثر من مليون نموذج منذ نشأتها، وتطوّرت خدمة التنبؤ لديها لتقديم أكثر من ستة ملايين تنبؤ في الثانية". (751)

كما رأينا فعلاً، ينشأ "التخصيص المؤتمت" من التنبؤ، وينشأ التنبؤ من مصادر الفائض السلوكي متزايدة الشراء، وبالتالي من عمليات التسليم القاسية. وتشير الوثيقة السريّة في الواقع إلى بعض المواد الخام الرئيسة التي تدخل في عملية التصنيع عالية السرعة، وكبيرة الحجم، وواسعة النطاق، بما في ذلك الموقع وتفاصيل شبكة "واي فاي" ومعلومات الجهاز، بالإضافة إلى بيانات مقاطع الفيديو وتحليلات الانتماءات وتفاصيل الصداقات والتشابه مع الأصدقاء.

ربما لم يكن من قبيل الصدفة أن وثيقة فيسبوك السريّة ظهرت في الوقت نفسه الذي أطلق فيه كريس ويلي، العقل المدبّر الشاب الذي تحوّل إلى مُبلغٍ عن المخالفات في شركة "كامبريدج أنلايتيكا" سيل معلومات عن الجهود السريّة التي تبذلها الشركة للتنبؤ بسلوك التصويت الفردي والتأثير عليه، مما أدّى بسرعة إلى جذب انتباه العالم إلى

(751) "تقديم" إف. بي. ليرنر فلو: العمود الفقري للذكاء الاصطناعي في فيسبوك"، مدوّنة فيسبوك، 16 أبريل/ نيسان 2018.

شركة التحليلات السياسية الصغيرة، والمصدر العملاق لبياناتها: فيسبوك. ثمة أسئلة كثيرة دون إجابات حول شرعية الحيل المعقدة التي استخدمتها شركة كامبريدج أنلايتيكا وتأثيرها السياسي الفعلي، وعلاقتها بفيسبوك. ويقتصر اهتمامنا هنا على الكيفية التي سلّطت بها آلياتها ضوءاً على قوة آليات رأسمالية المراقبة، ولا سيما التصميم على تسليم بيانات من أبعاد عميقة.

يلفت كوسينسكي وستيلويل الانتباه إلى القيمة التجارية لأسائيهما، مدركين أن الفائض السلوكي الآتي من الأعماق يوفر إمكانات جديدة للتلاعب بالسلوك وتعديله. ويروي وإيلي افتتانه بهذا الاحتمال، وهو من أقنع كامبريدج أنلايتيكا، من خلال سلسلة معقدة من الأحداث، باستخدام بيانات كوسينسكي وستيلويل لتعزيز الأهداف السياسية للملكها. كان الهدف هو "الاستهداف السلوكي الدقيق... التأثير على الناخبين ليس على أساس تركيبتهم السكانية بل على أساس شخصياتهم..."⁽⁷⁵²⁾ وعندما انهارت المفاوضات مع كوسينسكي وستيلويل، تم تعيين أكاديمي ثالث من جامعة كامبريدج، ألكسندر كوغان، لتسليم مجموعة بيانات شخصية مماثلة من فيسبوك.

كان كوغان معروفاً لدى فيسبوك. إذ تعاون مع علماء البيانات في الشركة في مشروع عام 2013 الذي وفّرت فيه الشركة بيانات لـ 75 مليار "صدّاقة". ودفع هذه المّرة، إلى ما يقرب من 270 ألف شخص مقابل إجراء اختبارات شخصية. وتمكّن تطبيق كورغان، دون علم هؤلاء المشاركين، من الوصول إلى ملفاتهم الشخصية على موقع فيسبوك، وفي المتوسط، ملفات تعريف ما يقرب من 160 ألف شخص من أصدقاء المتقدّمين للاختبار، "ولم يكن لدى أحد منهم أي علم بهذا الغزو أو سبب للشكّ به".⁽⁷⁵³⁾ كانت عملية تسليم ضخمة نجح كوغان من خلالها في إنتاج ملفات تعريف نفسية لما بين 50 إلى 87 مليون مستخدم لفيسبوك، وهي البيانات التي باعها بعد ذلك

(752) أندي كروول، "الغطاء والبيانات: القصة الحقيقية وراء صعود وسقوط كامبريدج أنلايتيكا"، مجلة ماذر جونز، 24 مارس/ آذار 2018.

(753) كارول كادوالادر، "لقد صنعت أداة الحرب النفسية لستيف بانون": تعرف على مُبلّغ حرب البيانات، "الغارديان"، 18 مارس/ آذار 2018؛ كروول، "العباءة والبيانات".

لشركة كامبريدج أنلايتيكا.⁽⁷⁵⁴⁾ عندما استفسر فيسبوك منه عن طلبه، تعهّد كوغان بأن يكون بحثه أكاديميًا بحثًا. وبالفعل، كان الاحترام المتبادل بين الطرفين قويًا بما يكفي لتوظيف فيسبوك أحد مساعدي كوغان للانضمام إلى فريق فيسبوك الداخلي من علماء النفس الباحثين.⁽⁷⁵⁵⁾

اعترف وايلي قائلًا: "لقد قمنا باستغلال شركة فيسبوك لجمع ملقّات تعريف لملايين الأشخاص، وبنينا نماذج لاستغلال ما نعرفه عنهم، واستهدفنا شياطينهم الداخلية". وكان ملخصه لإنجازات كامبريدج أنلايتيكا ملخصًا لمشروع رأسمالية رقابة، ومبررًا لتصميمها على التسليم من الأعماق. تلك كانت القدرات ذاتها التي اكتسبت قوة على مدى نحو عقدين من الزمن من حضارة رأسمالية المراقبة في الفضاء الخارج عن القانون. وقد أثارت هذه الممارسات غضبًا في جميع أنحاء العالم، في حين أنها في الواقع عناصر روتينية ضمن عملية إعداد أساليب رأسمالية المراقبة وأهدافها بشكل يومي، سواء أكان في فيسبوك أم داخل شركات رأسمالية المراقبة الأخرى. لم تقم شركة كامبريدج أنلايتيكا سوى بإعادة توجيه آلية رأسمالية المراقبة من الأسواق التجارية في المستقبل السلوكي نحو نتائج مضمونة في المجال السياسي. وقد كان إيريك شميدت، وليس وايلي، هو أول من فتح صندوق باندورا هذا، ممهدًا الطريق لنقل الآليات الأساسية لرأسمالية المراقبة إلى العملية الانتخابية، حيث عزّز التقارب المتبادل الذي أنتج استثنائية المراقبة. استمتع وايلي، في واقع الأمر، بتدريبه المبكر تحت قيادة "مدير الاستهداف" الذي عينه أوباما.⁽⁷⁵⁶⁾ وأصبحت ابتكارات شميدت، التي تُعتبر الآن سلاحًا ذا حدين، موضع حسد كل حملة سياسية، والأهم من ذلك أنها أصبحت

(754) ماثيو روزنبرغ، ونيكولاس كونفيسور، وكارول كادوالادر، "كيف استغل مستشارو ترامب بيانات ملايين المستخدمين على فيسبوك"، نيويورك تايمز، 17 مارس 2018؛ إيما غراهام-هاريسون وكارول كادوالادر، "كشف: 50 مليون حساب على فيسبوك جمعت لصالح كامبريدج أنلايتيكا في خرق كبير للبيانات"، الغارديان، 17 مارس 2018؛ جوليا كاري وونغ وبول لويس، "فيسبوك وقرّ بيانات حوالي 57 مليار صداقة لأكاديميين"، الغارديان، 22 مارس 2018؛ أوليفيا سولون، "فيسبوك يقول إن كامبريدج أنلايتيكا ربما حصلت على 37 مليون بيانات إضافية للمستخدمين"، الغارديان، 4 أبريل 2018.
(755) بول لويس وجوليا كاري وونغ، "فيسبوك توظف عالم نفس باعت شركته بيانات لشركة كامبريدج أنلايتيكا"، الغارديان، 18 مارس/ آذار 2018.
(756) كروول، "العباءة والبيانات".

بالإضافة إلى استخدام الآليات الأساسية لرأسالية المراقبة - التسليم، والفائض السلوكي، والذكاء الآلي، ومنتجات التنبؤ، واقتصاديات الحجم، والنطاق، والعمل - فإن المغامرة الغامضة لشركة كامبريدج أناليتيكا تجسد أيضًا المتطلبات التكتيكية لرأسالية المراقبة. صُممت عملياتها لنشر الجهل من خلال السرية والتهرّب الدقيق من الوعي الفردي. يُطلق وايلي على هذه العملية "حرب المعلومات"، معترفًا بتفاوت المعرفة والقوة الضروريين لوسائل تعديل السلوك:

أرى حرب المعلومات أسوأ من التنمر، لأن الناس لا يدركون بالضرورة أنهم يتعرضون لها. فالتنمر بالحد الأدنى يحترم حرية الناس لأنهم يعلمون أنه يحدث.... إذا لم تحترم حرية الناس، فلن يخدم أي شيء تفعله بعد ذلك فكرة الديمقراطية. إن حرب المعلومات لا تخدم الديمقراطية. (758)

تمثل هذه "الحرب"، وبنيتها القائمة على الغزو والاحتلال، الإجراءات التشغيلية القياسية لرأسالية المراقبة التي يخضع لها مليارات الأبرياء كل يوم، حيث تنتهك عمليات التسليم كل الحدود، وتطالب عمليات التعديل بالسيادة على جميع الناس. وتفرض رأسالية المراقبة هذا المقابل المتمثل في "الوكالة" كضمن للمعلومات والاتصال، مما يدفع بشكل مستمرّ حدود التسليم إلى آفاق جديدة. وتقوم شركات مثل فيسبوك وغوغل، على مدى الطريق كله، بتوظيف كل جندي مفيد. بي في ذلك علماء اجتماع مثل كوغان، الذين هم على استعداد لدفع عجة نفيدة تُدفع مسعدهم الشركة على تعلّم الأساليب المتطورة التي يمكن أن تغزو حدود نتيّة وإتقانها ودججها، وهي الظاهرة التي سوف نتناولها بمزيد من العمق في الفصل العاشر.

بغض النظر عن الكفاءة الفعلية لشركة كامبريدج أناليتيكا وتأثيرها السياسي

(757) فريدريك زويدرفين بورغيسوس وآخرون، "الاستهداف السياسي الدقيق عبر الإنترنت: الوعود والتهديدات للديمقراطية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 9 فبراير 2018).

(758) انظر كادوالادر، "لقد صنعت أداة الحرب النفسية التي تحدث عنها ستيف بانون".

النهائي، يشهد التخطيط والتدبير وراء طموحاتها على الدور المحوري الذي يلعبه التسليم من الأعماق في التنبؤ بالسلوك وتعديله، في السعي الدائم إلى اليقين. لقد اكتشف مليارديرات مثل زوكربيرغ وميرسر أنهم قادرون على شقّ طريقهم نحو الهيمنة على تقسيم التعلّم في المجتمع من خلال التركيز على عمليات التسليم هذه، وما تكشف عنه من ثروات. فهم يهدفون إلى أن تكون قدرتهم على المعرفة بلا منازع، وتحديد من يعرف ومن يقرّر. كان تسليم "الشخصية" معلّمًا هامًا في هذا المسعى: حدود، نعم، لكنها ليست الحدود النهائية.

3- عاطفة الآلة

في عام 2015، فازت شركة "ريال آيز" (Realeyes) الناشئة التي لم تبلغ من العمر أكثر من ثماني سنوات بمنحة قدرها 3.6 مليون يورو من المفوضية الأوروبية لمشروع يحمل الاسم الرمزي "سيوا"، "SEWA": التحليل التلقائي للمشاعر في البريّة". وكان هدف المشروع "تطوير تقنية آلية قادرة على قراءة مشاعر الشخص عندما يشاهد محتوى، ومن ثم تحديد كيفية ارتباط ذلك بمدى إعجابه بالمحتوى". ووصف مدير الفيديو في مركز "فنّ الحياة الدولي" (AOL international Center) المشروع بأنه "قفزة هائلة إلى الأمام في تكنولوجيا إعلانات الفيديو، تمثّل ذروة الطموح في عالم تسويق الفيديو".⁽⁷⁵⁹⁾ وبعد مرور عام واحد فقط، فازت الشركة ذاتها بجائزة "هورايزن 2016" للابتكار التي تقدّمها اللجنة، وذلك بفضل "أدواتها القائمة على التعلّم الآلي التي تساعد باحثي السوق على تحليل تأثير إعلاناتهم وجعلها أكثر صلة".⁽⁷⁶⁰⁾

يشكل مشروع "سيوا" نافذة لمجال جديد ناشئ لعمليات تسليم فائض السلوك والمعروفة باسم "الحوسبة العاطفية" و"تحليل العواطف" و"تحليل الشعور". ينحدر

(759) شارلوت ماكيليبي، "المفوضية الأوروبية تُصدر منحة بقيمة 3.6 مليون يورو لتكنولوجيا تقيس 'مدى الإعجاب' بمحتوى معين"، CampaignLive.co.uk، 20 أبريل/نيسان 2015.
(760) "الفائزون بجائزة رادار الابتكار لعام 2016"، السوق الرقمية الموحدة، 26 سبتمبر/أيلول 2016.

مشروع "التخصيص المؤتمت" إلى أعماق المحيط مع هذه الأدوات الجديدة، حيث يطالبون بحدود جديدة من تسليم لا يركز على الشخصية فقط بل على حياتك العاطفية أيضًا. وإذا أُريد لمشروع الفائص السلوكي من الأعماق أن ينجح، فلا بد من إعادة صياغة اللاوعي لديك - حيث تشكّلت المشاعر قبل أن تظهر كلمات للتعبير عنها - باعتباره مجرد مصدر آخر لإمدادات المواد الخام اللازمة للترجمة والتحليل الآلي، وهذا كله للتنبؤ بسلوك أكثر كمالًا. وكما يوضح تقرير أبحاث السوق حول الحوسبة العاطفية، فإن "يمكن لمعرفة الحالة العاطفية في الوقت الفعلي أن تساعد الشركات على بيع منتجاتها، وبالتالي زيادة الإيرادات". (761)

تُستخدم منتجات تحليل المشاعر مثل "سيوا" برامج متخصصة لمسح الوجوه والأصوات والإيماءات والأجسام والأدمغة، ويُلتقط ذلك كله بواسطة أجهزة استشعار "حيوية" و"عميقة" وغالبًا ما يحدث ذلك بمشاركة كاميرات صغيرة "غير ملحوظة". وتُدرَّب تركيبة الذكاء الآلي هذه على عزل السلوكيات الدقيقة الحميمة والتقاطها وتسليمها، من رمشة عين غير مقصودة، إلى ارتحاء الفكّ لجزء من الثانية. ويمكن لمجموعات من البرامج وأجهزة الاستشعار التعرف على الوجوه وتحديدّها؛ وتقدير العمر والإثنية والجنس؛ وتحليل اتجاه النظرة ورمشة العين؛ وتتبع نقاط الوجه المميزة لتفسير "التعبيرات الدقيقة"، وحركات العين، والعواطف وحالات المزاجية. والتوتر والخداع والملل والارتباك والنوايا وغيرها: ذلك كله بسرعة حدوثه في الحياة. (762) ووفقًا لما تقوله أوصاف "سيوا":

(761) "سوق الحوسبة العاطفية - تحليل الصناعة العالمية. الحجم. نحصّة. نمو. الاتجاهات والتوقعات 2015-2023"، أبحاث سوق الشفافية، 2017.

(762) باتريك مانيون، "أجهزة استشعار التعرف على الوجه تكيف لتتبع لعواطف والمزاج والتوتر"، EDN، 3 مارس 2016؛ "المسوقون، مرحبًا بكم في عالم التحليلات عاطفية"، MarTech Today، 12 يناير 2016؛ بن فريدي-تشابمان، "خمسة شركات تستخدم التعرف على الوجه لتغيير العالم"، Kairos، 26 مايو 2016؛ "Affectiva تعلن عن حل جديد لترميز الوجه لبحث النوعي"، Affectiva، 7 مايو 2014؛ أحمد جلال، وشهريار كمال، وداجين كيم، "التعرف على النشاط البشري القائم على أجهزة استشعار العمق باستخدام السمات المكانية الزمنية ونموذج ماركوف الخفي للبيئات الذكية"، مجلة شبكات الحاسوب والاتصالات (2016)؛ م. كاكرا وجي. آر. إم. ريدي، "التعرف على عواطف الوجه في الوقت الفعلي باستخدام مستشعر العمق والتفاعل مع الصورة الرمزية الافتراضية ثلاثية الأبعاد المستندة إلى

إن التقنيات القادرة على تحليل سلوكيات وتفاعلات الوجه البشري، والسلوكيات اللفظية والصوتية، والتفاعلات في الحياة الطبيعية، كما ترصدها كاميرات الأجهزة الرقمية المنتشرة في كل مكان، سيكون لها تأثير عميق على كل من العلوم الأساسية والقطاع الصناعي. فهي تقيس مؤشرات سلوكية كانت عصية على القياس سابقاً لأنها كانت دقيقة للغاية أو عابرة، بحيث لا يمكن قياسها بالعين والأذن البشريتين. (763)

تُقلت هذه السلوكيات أيضًا من العقل الواعي. تلتقط الآلات لحظة الاشمئزاز التي تسبق سلسلة سريعة من الغضب والإدراك، وأخيرًا الفرح، على وجه شابة تشاهد بضع لقطات من فيلم، حين لا يسعها إلا أن تقول: "أعجبنني!" ويشرح تقرير شركة "ريال آيز" أن كاميراتها الإلكترونية الخاصة تسجل الأشخاص الذين يشاهدون مقاطع فيديو في منازلهم "حتى نتمكن من التقاط ردود الأفعال الحقيقية". تعالج الخوارزميات تعابير الوجه، و"يتم اكتشاف المشاعر وتجميعها والإبلاغ عنها عبر الإنترنت في وقت حدوثها، لحظة بلحظة.... مما يتيح لعملائنا اتخاذ قرارات عمل أفضل". وتؤكد شركة "ريال آيز" على "مقاييسها الخاصة" لمساعدة المسوقين على "استهداف الجماهير" و"التنبؤ بالأداء". (764)

مرة أخرى، فإن الموضوع الرئيسي للذكاء الآلي هو أن الجودة تعتمد على الكمية. وتقول شركة "ريال آيز" إن مجموعات بياناتها الخاصة تتضمن أكثر من 5.5 مليون إطار معلق بشكل فردي لأكثر من 7000 شخص من جميع أنحاء العالم: "نحن نعمل باستمرار على بناء أكبر مجموعات من بيانات التعبير والسلوك في العالم من خلال زيادة حجم فئاتنا الموجودة وجودتها، ومن خلال إنشاء مجموعات جديدة - لتعبيرات أخرى أو مشاعر أو أدلة سلوكية مختلفة أو كثافات مختلفة... وبعد أتمتة هذه العملية، يمكن توسيع نطاقها لتتبع عواطف الجماهير بأكملها في وقت واحد". (765) ننصح

"Second Life"، في المؤتمر الدولي حول التطورات والابتكارات الحديثة في الهندسة (ICRAIE-2014)، 2014، 7-1.

(763) "مشروع سيوا: تحليل المشاعر التلقائي في الحياة الطبيعية"، سيوا، 25 أبريل 2017.

(764) مايكل جاتما، "ريال آيز - قياس العاطفة"، خدمات بيانات ريال آيز، 2016.

(765) مايكل جاتما، "ريال آيز - قياس العاطفة"

العملاء بـ "استغلال مشاعر جمهورهم للبقاء في صدارة اللعبة".⁽⁷⁶⁶⁾ يقدم موقع الشركة الإلكتروني مراجعة موجزة لتاريخ الأبحاث حول المشاعر الإنسانية، ويخلص إلى أنه "كلما ازداد شعور الناس، ازداد إنفاقهم... تُترجمُ 'العواطف' غير الملموسة إلى نشاط اجتماعي ملموس، ووعي بالعلامة التجارية، وأرباح".⁽⁷⁶⁷⁾

كان رئيس المجلس الاستشاري للصناعة في مشروع "سيوا" صريحًا بشأن هذا المسعى، حيث لاحظ أن كشف معنى "اللغة غير المنطوقة للجسم كله، وتفسير الاستجابات العاطفية المعقدة... سيكون رائعًا لتفسير ردود الأفعال على المواد التسويقية"، مضيفًا أنه "من الحماقة ببساطة عدم أخذ الاستجابة العاطفية في الاعتبار عند تقييم جميع المواد التسويقية". في الواقع، تستخلص هذه "الأدوات غير الواعية" صفات جديدة نادرة من الفائض السلوكي من حياتك الداخلية، بهدف التنبؤ بما ستشتره، واللحظة المحددة التي تكون فيها أكثر عرضة للدفع. يقول المدير الاستشاري لمشروع "سيوا" إن التحليلات العاطفية "أشبه بتحديد نوتات موسيقية فردية". إن كل عميل مُحتمل، إذًا، هو عبارة عن تركيبة مختصرة وواضحة: سنكون قادرين على تحديد أوتار الاستجابات البشرية مثل "الإعجاب" والملل وما إلى ذلك... وسيصبح أحدنا في النهاية خبيرًا في قراءة مشاعر الآخر ونواياه.⁽⁷⁶⁸⁾

هذه ليست المرة الأولى التي يُستهدفُ فيها العقل الباطن بوصفه أداة لتحقيق أهداف الآخرين. فقد صُمِّمَت البروباغندا والدعاية والإعلان للتأثير على المخاوف والتطلعات غير المعترف بها. واعتمد ذلك على الفن أكثر مما اعتمد على العلم واستخدام البيانات العامة أو الحدس المهني لأغراض التواصل الشعبي.⁽⁷⁶⁹⁾ إلى حدّ معين، لا يمكن مقارنة هذه العمليات اليوم بالتطبيق العلمي للقوة الحسائية التاريخية

(766) أليكس براون، "ريلايز - العب بمشاعر جمهورك للبقاء في صدارة اللعبة"، ريال آيز، 21 فبراير 2017.

(767) "ريال آيز - العواطف"، ريال آيز، 2 أبريل 2017.

(768) "انظر ما يفكر فيه المستشارون الصناعيون بشأن مشروع "سيوا"، سيوا، 24 أبريل، 2017.

(769) رولان مارشان، الإعلان عن الحلم الأمريكي: إفساح المجال للحدث، 1920-1940 (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 1985).

على التمثيل الدقيق والمستمر لمشاعرك الفعلية. لا يهدف صانعو الأدوات الجدد إلى سلب حياتك الداخلية، بل إلى مراقبتها واستغلالها. كل ما يطلبونه هو أن يعرفوا عنك أكثر مما تعرفه عن نفسك.

على الرغم من أن كنوز العقل اللاواعي فُسرَّت بأشكال مختلفة عبر آلاف السنين - من الروح إلى النفس إلى الذات - يتحد الكاهن القديم والمعالج النفسي الحديث في تبجيل قديم لقوته العلاجية البدائية من خلال اكتشاف الذات وإتقانها، والاندماج والترميم والتسامي. وعلى النقيض من ذلك، ترسّخت فكرة العواطف باعتبارها بيانات سلوكية قابلة للملاحظة للمرة الأولى في منتصف ستينيات القرن العشرين مع عمل بول إيكمان، الذي كان آنذاك أستاذًا شابًا في جامعة كاليفورنيا في سان فرانسيسكو. حيث زعم، في أبحاثه الأولى، أن "الأفعال تتحدّث بصوت أعلى من الكلمات".⁽⁷⁷⁰⁾ حتى عندما يكون الشخص مصرًا على مراقبة تواصله العاطفي ومتحكمًا فيه، يفترض إيكمان أن بعض أنواع السلوكيات غير اللفظية "تُفَلت من السيطرة وتسرّب".⁽⁷⁷¹⁾ وقد أدرك في وقت مبكر الفائدة المحتملة لـ "مخطط تصنيفي" يتتبع بشكل موثوق آثار التعابير إلى أسبابها العاطفية،⁽⁷⁷²⁾ وفي عام 1978 نشر إيكمان، مع معاونه الدائم "والاس فريسين"، نظام ترميز عمل الوجه (FACS)، الذي قدّم هذا المخطط.

يميز نظام الترميز (FACS) الحركات الأساسية لعضلات الوجه، ويقسمها إلى سبع وعشرين "وحدة عمل" للوجه، بالإضافة إلى المزيد للرأس والعينين واللسان وما إلى

(770) تتضمن بعض الأبحاث المبكرة الرئيسة بول إيكمان ووالاس في. فريسين، "ذخيرة السلوك غير اللفظي: الفئات والأصول والاستخدام والتميز"، سيميوتيك 1، رقم 1 (1969): 49-98؛ بول إيكمان ووالاس في. فريسين، "الثوابت عبر الثقافات في الوجه والعاطفة"، مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي 17، رقم 2 (1971): 124-29؛ بي. إيكمان ودبليو. في. فريسين، "التسرب غير اللفظي والدلائل على الخداع"، الطب النفسي 32، رقم 1 (1969): 88-106؛ بول إيكمان وإي. ريتشارد سورنسون ووالاس في. فريسين، "العناصر الثقافية الشاملة في العروض الوجهية للعاطفة"، ساينس 164، رقم 3875 (1969): 86-88؛ بول إيكمان، ووالاس ف. فريسن، وسيلفان س. تومكينز، "تقنية تسجيل تأثير الوجه: دراسة صلاحية أولى"، سيميوتيك 3، العدد 1 (1971).

(771) إيكمان وفريسين، "التسرب غير اللفظي".

(772) إيكمان وفريسين، "مجموعة السلوكيات غير اللفظية".

ذلك. ولاحقًا، خلص إيكمان إلى أن ستة "مشاعر أساسية" (الغضب، والخوف، والحزن، والمتعة، والاشمئزاز، والمفاجأة) تشكل أساس مجموعة أوسع من التعبير العاطفي البشري.⁽⁷⁷³⁾ لقد أصبح نظام الترميز، والنموذج المكون من ست عواطف هو النموذج السائد لدراسة تعابير الوجه والعاطفة، بالطريقة ذاتها التي أصبح فيها نموذج العوامل الخمسة مهميًا على دراسات الشخصية.

بدأ برنامج التسليم العاطفي ببراءة كافية مع روزاليندا بيكارد، أستاذة مختبر الوسائط في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ومجال علوم الحاسوب الجديد الذي أطلقت عليه اسم "الحوسبة العاطفية". كانت من أوائل من أدركوا الفرصة التي يوفرها نظام الحوسبة لأتمتة تحليل فكرة إيكمان عن صور الوجه وتعابيرها، وربط التعابير الدقيقة بأسبابها العاطفية.⁽⁷⁷⁴⁾ وكانت تهدف إلى الجمع بين تعبيرات الوجه وحساب نغمة الصوت وغيرها من المؤشرات الفيزيولوجية للعاطفة التي يمكن قياسها على أنها سلوك. ونشرت في عام 1997 كتابها بعنوان: "الحوسبة العاطفية" (Affective Computing) الذي طرح حلاً عملياً لفكرة أن بعض المشاعر متاحة للعقل الواعي، ويمكن التعبير عنها "إدراكياً" ("أشعر بالخوف")، في حين أن بعض المشاعر قد يفلت من الوعي، إلا أنه يتم التعبير عنه جسدياً في قطرات العرق، أو اتساع العينين، أو إطباق غير محسوس للفتك.

تري بيكارد أن مفتاح الحوسبة العاطفية هو تقديم المشاعر الواعية وغير الواعية باعتبارها سلوكًا يمكن ملاحظته من أجل الترميز والحساب. استنتجت أن الحاسوب قادر على تحويل مشاعرك إلى معلومات سلوكية. ووصفت التعرّف على العواطف بأنه "مشكلة تعرّف على الأنماط"، وأن "التعبير عن العواطف" هو تركيب للأنماط. واقترحت أن "أجهزة الحاسوب يمكن أن تتمتع بالقدرة على التعرّف على المشاعر تمامًا

(773) بول إيكمان، "حجة لصالح المشاعر الأساسية"، الإدراك والعاطفة 6، الأعداد 3-4 (1992): 169-200.

(774) نشر إيكمان وزملاؤه مقالاً يصف نهجهم الخاص في "قياس تعابير الوجه التلقائية" في عام 1997، وهو العام نفسه الذي نُشر فيه كتاب روزاليندا دبليو بيكارد بعنوان "الحوسبة العاطفية" (كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 2000).

مثل مراقب بشري من منظور شخص ثالث".

تخيلت بيكارد أن بالإمكان استخدام رؤيتها العاطفية بطرق كانت في أغلب الأحيان طيبة القلب، أو حميدة على الأقل. وتتوافق معظم التطبيقات التي تصفها مع منطق المنزل الذكي: إن أية معرفة يتم إنتاجها سوف تنتمي إلى الموضوع لتعزيز التعلم الانعكاسي لديه. وتخيّلتُ مثلاً "وكيلاً لإجراء المقابلات عبر الحاسوب" يمكن أن يعمل بمثابة "مرآة عاطفية" تدرب الطالب على الاستعداد لمقابلة عمل أو موعد، ووكيلاً تلقائياً ينبهه إلى النبذة العدائية فيما يكتبه قبل أن يضغط على زرّ "إرسال". وتوقّعت بيكارد أدوات أخرى تجمع بين البرمجيات وأجهزة الاستشعار التي اعتقدت أن بإمكانها أن تعزّز الحياة اليومية في مجموعة من المواقف، مثل مساعدة الأطفال المصابين بالتوحد، على تطوير المهارات العاطفية، وتزويد مصممي البرمجيات بملاحظات حول مستويات الإحباط لدى المستخدمين، وتخصيص نقاط للاعبين ألعاب الفيديو لتقديم مكافأة على الشجاعة، أو لتقليل التوتر، وإنتاج وحدات تعليمية تحفّز الفضول وتقلّل القلق، وتحليل الديناميكيات العاطفية في الفصل الدراسي. وتخيّلت وكلاء برمجيات يتعلّمون تفضيلاتك، ويعثرون لك على القصص الإخبارية، أو الملابس، أو الفن، أو الموسيقى التي تجعلك تبسم.⁽⁷⁷⁵⁾ وبغض النظر عن ردّ فعلنا تجاه هذه الأفكار، فهي تشترك في نمط رئيس واحد: على النقيض من نموذج "سيوا"، لم تكن بيانات ريكارد، مخصصة عنك فقط، بل كانت لك أيضاً.

بالعودة إلى عام 1977، أقرّت بيكارد بالحاجة إلى الخصوصية "حتى تظلّ لديك القدرة على التحكم بمن لديه حقّ الوصول إلى هذه المعلومات". وما يهتّمنا بالنسبة إلى بحثنا الحالي هو أنها عبّرت في الصفحات الأخيرة من كتابها عن بعض المخاوف، فأشارت إلى أن "هناك أسباباً وجيهة لعدم بث أنماطك العاطفية للعالم... قد تتباهى بمزاجك الجيد أمام الأصدقاء... وربما لا تريد أن يلتقطه جيش التجار الذين يتوقون إلى استغلال عادات الشراء القائمة على المزاج، أو لا تريد أن يعرفه المعلنون الذين

(775) روزاليندا ديليو بيكارد، الحوسبة العاطفية، الفصل الثالث.

يتوقون إلى إقناعك بأنك ستشعر بتحسّن إذا جرّبت مشروبهم الغازي الجديد الآن". وأشارت إلى إمكانية المراقبة التطفّلية المزعجة في مواقع العمل، وأعربت عن تحفظاتها بشأن إمكانية ظهور مستقبل بائس تستخدم فيه القوى الحكومية "الخبیثة" الحوسبة العاطفية للتلاعب بمشاعر السكان والسيطرة عليها.⁽⁷⁷⁶⁾

كانت استنتاجاتها باهتة على الرغم من فقرات الإدراك القليلة تلك. إذ أشارت إلى أن لكل تقنية "إيجابياتها وسلبياتها". القلق "ليس من النوع الذي لا يمكن التغلب عليه"، لأن "الضمانات يمكن أن تتطوّر". كانت بيكارد واثقة من أن التكنولوجيا والتقنيات قادرة على حلّ أية مشكلة، وتحيلت "أجهزة حاسوب قابلة للارتداء" تجمع المعلومات للاستخدام الشخصي فقط....". وشددت على أهمية ضمان "احتفاظ مرتديها بالسيطرة الكاملة على أي جهاز يرتديه، بحيث يكون أداة تمكين مفيدة، وليس أداة إخضاع ضارّة".⁽⁷⁷⁷⁾

في نمطٍ أصبح معروفاً للغاية الآن، تأخرت الضمانات مع ازدهار رأسمالية المراقبة. وبحلول أوائل عام 2014، تقدّمت فيسبوك بطلب للحصول على براءة اختراع "كشف العواطف" المصممة لتطبيق كلّ من مخاوف بيكارد.⁽⁷⁷⁸⁾ وكانت الفكرة هي "وحدة برمجية واحدة أو أكثر قادرة على اكتشاف العواطف أو التعبيرات أو أية سمة أخرى للمستخدم من معلومات الصورة". كانت الشركة طموحة كما كان الحال دوماً. تضمّنت قائمة العواطف القابلة للاكتشاف، على سبيل المثال لا الحصر، تعابير مثل "الابتسامة، والفرح، والمرح، والدهشة، والخماس، والمتجذّرة، والعبوس، والحزن، وخيبة الأمل، والارتباك، والغيرة، واللامبالاة، والانس. والغضب، والاكتئاب، والألم". وكان الأمل هو أن تتمكّن هذه الوحدة البرمجية "بمرور الوقت"، من تقييم "اهتمام المستخدم بالمحتوى المعروض" لأغراض "التخصيص الشخصي"

(776) بيكارد، الحوسبة العاطفية، 244.

(777) بيكارد، الفصل الرابع، وخاصة في الصفحات 123-124، 136-137.

(778) باراك ريوفين نافيه، تقنيات الكشف عن المشاعر وتوصيل المحتوى، قُدِّمَ في 25 فبراير 2014،

وصدر في 27 أغسطس 2015.

بحلول عام 2017، أي بعد عشرين عامًا تحديدًا من نشر كتاب بيكارد، توقعت شركة رائدة في مجال أبحاث السوق أن "سوق الحوسبة العاطفية"، بما في ذلك البرامج التي تتعرّف على الكلام والإيماءات وتعبير الوجه إلى جانب أجهزة الاستشعار والكاميرات وأجهزة التخزين والمعالجات، سينمو من 9.35 مليار دولار في عام 2015 إلى 53.98 مليار دولار في عام 2021، مع توقع معدل نمو سنوي مركب يبلغ نحو 35٪. ما الذي أدى إلى هذا الانفجار؟ يشير التقرير إلى أن أبرز أسباب "محفّزات" هذا النمو الهائل كان "الطلب المتزايد على رسم خرائط المشاعر الإنسانية، لا سيما من قبل قطاع التسويق والإعلان...". (780)

كانت نوايا بيكارد الطبية مشابهة لبرادة الحديد البريئة أمام مغناطيس، حيث أدى الطلب في السوق الذي فرضته ضرورة التنبؤ إلى جذب الحوسبة العاطفية إلى مجال القوة المتسلّطة لرأسمالية المراقبة. وفي نهاية المطاف، أصبحت بيكارد جزءًا من صناعة نزع الملكية الجديدة هذه من خلال شركة تُدعى "أفيكتيفا" (Affectiva) التي تأسّست بالاشتراك مع رنا القليوبي، وهي باحثة ما بعد الدكتوراه في مختبر الوسائط في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وتلميذة بيكارد. إن تحوّل الشركة من فعل الخير إلى ممارسة رأسمالية المراقبة هو مجاز لمصير المشروع الأكبر المتمثل في تحليل العواطف، حيث انجرت بسرعة إلى دوامة المنافسة على عائدات المراقبة.

كانت بيكارد تتشارك مع قليوبي رؤية لتطبيق أبحاثهما في المجالات الطبية والعلاجية. وبدأت تحديات الأطفال المصابين بالتوحد مناسبة تمامًا لاكتشافاتها، لذا قامتا بتدريب نظام آلي يسمّى "مايند ريدر" (MindReader) للتعرف على المشاعر باستخدام ممثلين مدفوعي الأجر لمحاكاة الاستجابات العاطفية المحددة وإيماءات

(779) نافيه، تقنيات الكشف عن المشاعر وتوصيل المحتوى، الفقرة 32.

(780) "سوق الحوسبة العاطفية من خلال التكنولوجيا (اللمسية وغير اللمسية)، والبرمجيات (التعرف على الكلام، والتعرف على الإيماءات، واستخراج ملامح الوجه، وبرامج التحليلات، وبرامج المؤسسات)، والأجهزة، والقطاعات، والمنطقة - التوقعات حتى عام 2021"، MarketsandMarkets، مارس 2017.

الوجه. في وقت مبكر، غمرت الشركات الراعية لمختبر الوسائط في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، مثل بيسي، ومايكروسوفت، وبنك أوف أميركا، ونوكيا، وتويوتا، وبروكتر آند غامبل، وجيليت، ويونيليفر، وغيرها، الثنائي باستفسارات حول استخدام نظامهما لقياس الاستجابات العاطفية للعملاء. وتصف قلوبى تردد النساء وإصرارهن على التركيز على التطبيقات التي تهدف إلى "فعل الخير". ووفقاً لروايتها، شجّع مختبر الوسائط السيدتين على "تحويل" عملهما إلى شركة ناشئة أطلقنا عليها اسم "أفيكتيفا"، التي تم تصوّرها على أنها "شركة 'أي بي إم' صغيرة للألات الذكية عاطفياً". (781)

لم يمضِ وقت طويل حتى وجدت الشركة الجديدة نفسها موضع اهتمام كبير من جانب وكالات الإعلان وشركات التسويق التي تتوق إلى تسليم تحليلات آلية من الأعماق. وقالت بيكارد لأحد الصحفيين في وصفها لتلك الفترة: "لم تكن الرئيسة التنفيذية مرتاحة إطلاقاً للمجال الطبي". ونتيجة لذلك، طُرِدَت بيكارد من الشركة بعد ثلاث سنوات من تأسيسها. وكما روى أحد الباحثين في الشركة، "لقد بدأنا بمجموعة قوية من المنتجات التي يمكن أن تساعد الأشخاص الذين يواجهون صعوبة بالغة في إدراك العواطف... ثم بدؤوا في التركيز على الوجه فقط، والتركيز على الإعلانات، وعلى التنبؤ بها إذا كان شخص ما يحب المنتج أم لا، وانحرفوا تمامًا عن المهمة الأصلية". (782)

كانت شركات مثل شركة "ميلوارد براون" لأبحاث السوق، وشركة "ماكان أريكسون" للإعلانات العملاقة، والتي تتنافس في عالم جديد من الإعلانات "المخصصة المؤتمتة" المستهدفة، تتوق فعلاً للوصول إلى الأعماق غير المنفصلة لاستجابة المستهلك. حتى أن شركة "ميلوارد براون" أسست وحدة لعلم الأعصاب، لكنها وجدت أن من المستحيل توسيع نطاقها. وكان تحليل شركة "أفيكتيفا" لإعلان واحد شديد التفصيل لشركة "ميلوارد براون" هو الذي أذهل المسؤولين التنفيذيين

(781) رافي خاتشادوريان، "نعرف ما تشعر به"، نيويورك، 19 يناير 2015.

(782) خاتشادوريان، "نحن نعرف كيف تشعر".

للشركة، وقلب موازين الأمور بشكل حاسم لصالح الشركة الناشئة. وقال أحد مسؤولي شركة "ميلوارد براون": "أخبرنا البرنامج بشيء ربما لم نكن نراه. غالبًا ما يعجز الناس عن التعبير عن مثل هذه التفاصيل في ستين ثانية". (783)

بحلول عام 2016، أصبحت قاليوبي الرئيس التنفيذي للشركة، وأعدت تعريف أعمالها تحت مسمى "الذكاء الاصطناعي العاطفي"، واصفة إياه بأنه "الأفق الجديد للذكاء الاصطناعي". (784) كانت الشركة قد جمعت 34 مليون دولار من رأس المال الاستثماري، وتضمنت 32 شركة من الشركات المئة الأولى في الولايات المتحدة، و1400 علامة تجارية من جميع أنحاء العالم بين عملائها، وادّعت أنها تمتلك أكبر مستودع لبيانات المشاعر في العالم، مع 4.8 مليون مقطع فيديو للوجه من 75 دولة، حتى مع استمرارها في توسيع طرق توريدها بالبيانات المستمدة من المشاهدة عبر الإنترنت، والمشاركة في ألعاب الفيديو، والقيادة، والمحادثة. (785)

هذا هو السياق التجاري الذي جعل قاليوبي تشعر بأن من المعقول تمامًا التأكيد على أن "شريحة العاطفة" ستصبح الوحدة التشغيلية الأساسية لـ "اقتصاد العاطفة" الجديد. وتحدثت إلى جمهورها عن شريحة مدججة في الأشياء كلها، وفي الأماكن كلها، وتعمل باستمرار في الخلفية، وتُنتج "نبضة عاطفية" في كل مرة تتحقق فيها من هاتفك: "أعتقد أننا في المستقبل سنفترض أن كل جهاز يعرف كيفية قراءة مشاعرك". (786) ثمة شركة واحدة على الأقل، أخذت اقتراحها على محمل الجد، إنها شركة "إيموشيب" (Emoshape). تنتج الشركة، التي تحمل شعار "الحياة هي القيمة"، شريحة إلكترونية صغيرة تسميها "أول محرّك لتوليف المشاعر في الصناعة"، والتي توفر "وعيًا عاطفيًا آليًا عالي الأداء". وتقول الشركة إن شريحتها قادرة على

(783) خاتشادوريان.

(784) "أفيكتيفا"، كرانش بيس، 22 أكتوبر 2017.

(785) لورا كولودني، "أفيكتيفا تجمع 14 مليون دولار لجلب تطبيقات والروبوتات للذكاء العاطفي"، تك كرانش، 25 مايو 2016؛ رنا القليوبي، "مراجعة تقنية العاطفة: أفيكتيفا في 2016"، أفيكتيفا، 29 ديسمبر 2016.

(786) ماثيو هوتسون، "روبوتاتنا، أنفسنا"، أتلانتيك، مارس 2017.

تصنيف اثنتي عشرة عاطفة بدقة تصل إلى 98٪، مما يتيح "للذكاء الاصطناعي أو الروبوت تجربة 64 تريليون حالة عاطفية مميزة محتملة". (787)

تتخيل قليوي أن "مسح العواطف" الشامل سيصبح أمرًا مسلمًا به، تمامًا مثل "ملف تعريف الارتباط" المزروع في جهاز الحاسوب لتتبع تصفحك على الإنترنت. لقد أثارت ملفات تعريف الارتباط هذه غضبًا في الماضي، لكنها الآن تغمر كل حركة على الإنترنت. وهي تتوقع مثلًا أن يقوم موقع يوتيوب بمسح عواطف المشاهدين أثناء مشاهدتهم لمقاطع الفيديو. ويدعم ثقتها الطلب النابع من حتمية التنبؤ: "من وجهة نظري، لا يهم ما إذا كان جهاز تتبع اللياقة البدنية الخاص بك لا يحتوي على كاميرا، لأن هاتفك، وجهاز الحاسوب المحمول، وجهاز التلفزيون مزود بها. تُدمج جميع هذه البيانات مع البيانات الحيوية من أجهزتك القابلة للارتداء، مما يُكوّن ملفًا عاطفيًا لك". كبدائية، كانت شركة "أفيكتيفا" رائدة في مفهوم "العاطفة كخدمة"، حيث تقدّم تحليلاتها عند الطلب: قم فقط بتسجيل الأشخاص وهم يعبرون عن عاطفتهم، ثم أرسل تلك المقاطع أو الصور إلينا للحصول على مقاييس عاطفية قوية في المقابل". (788)

تبدو الإمكانيات في البعد العميق لا حصر لها، وربما ستكون كذلك إذا أصبحت شركة أفيكتيفا وعملاؤها والمسافرون الآخرون أحرارًا في نهب أنفسنا كما يحلو لهم. ثمة مؤشرات على طموحات أوسع نطاقًا، حيث يتوسع مفهوم "العاطفة كخدمة" من مجرد الملاحظة إلى التعديل. ويبدو أن مفهوم "السعادة كخدمة" أصبح في المتناول. تقول قليوي "أعتقد أنه إذا كان لدينا معلومات عن تجاربك العُضفية، فيمكننا مساعدتك على أن تكون في مزاج إيجابي". وهي تتخيل أنظمة التعرف على العواطف

(787) باتريك ليفي-روزنثال، "إيموشيب تعلن عن إنتاج وحدة معالجة المشاعر الثانية"، إيموشيب | إيموشن سينثيسيس، 18 يناير 2016.

(788) توم فوستر، "هل أنتم مستعدون أم لا، ستبدأ الشركات قريبًا بتتبع عواطفكم"، Inc.com، 21 يونيو/ حزيران 2016؛ "العاطفة كخدمة"، أفيكتيفا، 30 مارس/ آذار 2017؛ "أعلنت شركة أفيكتيفا عن توفير خدمة العاطفة كحل جديد للبيانات، والإصدار 2.0 من حزمة تطوير البرامج الخاصة بها للتعرف على العواطف"، بي آر نيوز واير، 8 سبتمبر/ أيلول 2015.

التي تصدر نقاط مكافأة للسعادة، لأن العملاء السعداء هم الأكثر "مشاركة" في نهاية المطاف. (789)

4- عندما يصل الأمر إلى حقيقتي

أصبح التسليم الآن مشروعًا عالميًا لرأس مال المراقبة، ونراه في أبشع صوره عندما يكون في العمق. ويُطالبُ بمناطق الذات الحميمة، مثل الشخصية والعاطفة، باعتبارهما سلوكًا يمكن مراقبته، وثمة توق إليه بسبب روااسب فائضه التنبؤي الغني. والآن أصبحت الحدود الشخصية التي تحمي الحياة الداخلية مصنفة رسميًا بوصفها سيئة للأعمال التجارية من قِبَلِ سلالة جديدة من المرتزقة العازمين على تحليل الحياة الداخلية وتحضيرها للبيع بهدف الحصول على عائدات المراقبة. وتعطل تجربتهم مفهوم الفرد المستقل من خلال مكافأة "نفي الحدود" بكل الوسائل المتاحة - عروض الوضع النخبوي، والمكافآت، ونقاط السعادة، والخصومات، ضغط زرّ "الشراء" على جهازك في اللحظة المحددة التي يُتوقع فيها تحقيق أقصى قدر من النجاح - حتى نستسلم لتدخل الآلات التي تخدم سوق الكون الجديد.

أودّ أن أمتجّب عمدًا مناقشة تفصيل حول ما هي "الشخصية" أو "العاطفة"، "الواعية" أو "اللاواعية"، لصالح ما أمل أن تكون حقيقة أقل إثارة للانقسام أُلقيتُ الضوء عليها أثناء هذه المرحلة الأخيرة من التوغّل. ليست الخبرة ما يُمنح لي، بل ما أفعله بها. والخبرة ذاتها التي أزدريها قد تثير حماسك. الذات هي الفضاء الداخلي للتجربة المعيشة التي تُخلق منها المعاني. وأستند في هذا الخلق إلى أساس الحرية الشخصية: وهي "أساس" لأنني لا أستطيع العيش دون فهم تجربتي.

بغضّ النظر عن مقدار ما يؤخذ مني، تظلّ هذه الحرية الداخلية لخلق المعنى ملاذي النهائي. يقول جان بول سارتر إن "الحرية ليست سوى وجود إرادتنا"، ويوضح: "ولا يكفي أن نريد في الواقع؛ بل من الضروري أن نرغب في الإرادة". (790) إن ارتقاء

(789) انظر خاتشادوريان، "نحن نعرف كيف نشعر".

(790) جان بول سارتر، الكينونة والعدم، ترجمة هازل إي. بارنز (نيويورك: واشنطن سكوير، 1993)، ص

الرغبة بالإرادة هو الفعل الداخلي الذي يضمن لنا الأمن بوصفنا كائنات مستقلة تفرض اختيارها على العالم، وتمارس صفات الحكم الأخلاقي الذي يحدد مصيرها، والذي يشكل الحصن الضروري والنهائي للحضارة. هذا هو المعنى الكامن وراء رؤية أخرى لسارتر: "الكلمات، بلا اتجاهات، مدفوعة بألم لا اسم له، تعمل بجد... يولد الصوت يولد من المخاطرة: إما أن يفقد المرء نفسه أو يفوز بالحق في التحدث بضمير المتكلم". (791)

مع تغلغل ضرورة التنبؤ في أعماق الذات، تصبح قيمة فائضها لا تقاوم، وتتصاعد عمليات الاستحواذ. ما الذي سيحدث لحقي في التحدث بضمير المتكلم، من ذاتي وبصفتي، عندما يُدرَّب جنونُ المؤسسة المُستفحل، الذي أشعلته ضرورة التنبؤ، على حصر تهديدي ورمشة عيني وكلماتي في طريقها إلى أفكار باعتبارها وسيلة لتحقيق غاياتٍ أخرى؟ لم يعد الأمرُ مسألة رأس مالٍ مُراقبٍ يجني فائضًا مما أبحث عنه وأشتريه وأنصفحه. يريد رأس المال الرقابي أكثر من مجرد إحداثيات جسدي في الزمان والمكان. فهو ينتهك الآن الحرمات الداخلية، حيث تقرر الآلات وخوارزمياتها معنى أنفاسي وعيني وعضلات فكي والتشنج في صوتي وعلامات التعجب التي أظهرتها ببراءة وأمل.

ماذا حدث لرغبتني في التحدث بصيغة المتكلم عندما يتنكر سوق الكون المحيط بي بهيئة مرآتي، ويتغير شكله وفقًا لما قرَّرَ أنني شعرت به أو أشعر به، أو سأشعر به: يتجاهلني أو يستفزني أو يوبّخني أو يعاقبني؟ لا يمكن لرأس المال أن يمنع نفسه عن رغبته بالسيطرة عليّ بشكل كامل، بكل ما أوتي من قوّة وعمق. توجه إحدى الشركات المتخصصة في "التحليلات البشرية"، وأخوسبة العنصرية، عملائها التسويقيين إلى هذه الفكرة: "اقرب من الحقيقة. افهم نسب". ماذا يحدث عندما يصلون إلى "حقيقتي" دون دعوة، مصممين على الزحف عبر ذاتي، آخذين معهم

الأجزاء التي تُغذّي آلياتهم لتحقيق أهدافهم؟ مُحاصرةٌ في ذاتي، ولا مفرّ. (792)

يبدو أن أسئلة كهذه قد أزعجت بيكارد. ففي محاضرة ألقتهَا عام 2016 في ألمانيا بعنوان "نحو آلات تنكر صانعها"، تلاشت التأكيدات المملة في كتابها الصادر عام 1997 بأن الضمانات يمكن أن تتطوّر"، وأنه يمكن لتقنيات وأساليب إضافية أن تحلّ أية مشكلة، وأن "أجهزة الحاسوب القابلة للارتداء" ستجمع المعلومات "لاستخدامك الشخصي فقط" باعتبارها "أداة تمكين مفيدة، وليس أداة إخضاع ضارّة". (793) وأفسحت المجال لتأملات جديدة. تقول: "تريد بعض المنظمات استشعار العواطف الإنسانية دون علم الناس أو موافقتهم، ويريد عدد قليل من العلماء بناء أجهزة حاسوب متفوّقة بشكل كبير على البشر، وقادرة على امتلاك قدرات تتجاوز إنتاج أمثالها... كيف يمكننا التأكد من أن التقنيات العاطفية الجديدة تجعل حياة البشر أفضل؟" (794)

لم تتنبأ بيكارد بقوة السوق التي من شأنها أن تحوّل تجسيد المشاعر إلى فائض ربحي: أي وسيلة لتحقيق غايات أخرى. وحقيقة أن رؤيتها تتجسّد في آلاف الأنشطة كان ينبغي أن تكون انتصارًا، ولكن هذا الانتصار يتضاءل لأن كثيرًا من هذه الأنشطة أصبح الآن مرتبطًا بمشروع المراقبة التجاري. يساهم كل فشل في ترسيخ الاتجاهات على التعود والتطبيع، وعلى إضفاء طابع شرعي في نهاية المطاف. لقد تغيّر جوهر المشروع العاطفي، بخضوعه للأهداف الكبرى المتمثلة في رأسمالية المراقبة، كما لو أنه تشوّه في انعكاسه في مرآة مدينة ملاهي.

تذكرنا هذه الدورة بكلمات أستاذ آخر في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو عالم الحاسوب والإنساني جوزيف ويزنباوم، الذي غالبًا ما تحدّث عن تواطؤ غير مقصود بين علماء الحاسوب في بناء أنظمة أسلحة مرعبة. أعتقد أنه كان سيرفع روجه مرتزقة الذات اليوم، أحيانًا عن غير قصد، وأحيانًا عن قصد، ومن المناسب أن

(792) "كايروس لباحثي السوق"، كايروس، 9 مارس 2017.

(793) بيكارد، الحوسبة العاطفية، 119، 123، 244، 123-124، 136-137. انظر أيضًا الفصل الرابع.

(794) روزاليندا بيكارد، "نحو آلات تنكر صانعها - محاضرة مع روزاليندا بيكارد"، VBG، 22 أبريل 2016.

أختتم هذا الفصل بقوله:

لا أعلم على وجه التحديد ما إذا كان علم الحاسوب على وجه الخصوص، أو فرع الذكاء الاصطناعي منه، هو الذي يتمتع بهذا الشغف الكبير بالتعبير المملّفة. نحن نتحدّث بسهولة ووضوح عن أنظمة الحاسوب التي تفهم وترى وتقرّر وتصدر أحكامًا.... دون أن ندرك نحن سطحيّتنا وسذاجتنا فيما يتعلّق بهذه المفاهيم. ومع تحدّثنا بهذا الأسلوب، نقوم بتخدير قدرتنا على أن نصبح على وعي باستخدامها النهائي.... لا يمكن للمرء أن يهرب من هذه الحالة دون أن يسأل مرارًا وتكرارًا: "ما الذي أفعله فعلاً؟ ما هو التطبيق والاستخدام النهائي لمنتجات عملي؟" وفي النهاية، "هل أنا راضٍ أم أشعر بالخجل من المساهمة في هذا الاستخدام؟" (795)

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العاشر

اجعلهم يرقصون

لكنني اسمع بكاء الصباح الجريح وأعرف السبب:
لقد سقطت الأسوار والأرواح؛
لم تفتقر إرادة الظالمين أبدًا إلى محرك؛
ومع ذلك يجب على جميع الأمراء استخدام الكذبة الموحدة النبيلة إلى حد ما.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين XI

1 - اقتصاديات الأداء

"القوة الجديدة هي العمل"، هذا ما أخبرني به أحد كبار مهندسي البرمجيات. "إن ذكاء الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت يعني أن أجهزة الاستشعار يمكن أن تكون محركات أيضًا". وأضاف مدير هندسة البرمجيات في إحدى الشركات التي تعد لاعبًا مهمًا في "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت": "لم يعد الأمر يتعلق فقط بالحوسبة المنتشرة في كل مكان. فالهدف الحقيقي الآن هو التدخل والأداء والسيطرة الشاملة. تكمن القوة الحقيقية في إمكانية تعديل الإجراءات الآتية في العالم الحقيقي. تستطيع أجهزة الاستشعار الذكية المتصلة بالإنترنت تسجيل أي نوع من السلوك وتحليله، ثم تحديد كيفية تغييره. وتُترجم التحليلات الآتية إلى أداء آتي". ويطلق العلماء والمهندسون الذين أجريت معهم المقابلات على هذه القدرة الجديدة اسم "التشغيل"، وتوصف بأنها نقطة التحول الرئيسة في تطوّر جهاز الوجود في كل مكان، مع أنها لم

تحدد هذه القدرة على التشغيل مرحلة جديدة من ضرورة التنبؤ التي تؤكد على اقتصاديات الأداء. تمثل هذه المرحلة اكتمال الوسائل الجديدة لتعديل السلوك، وهو تطور أساسي وضروري "لوسائل إنتاج" رأسمالية المراقبة نحو نظام عمل أكثر تعقيداً وتكراراً وقوة. ويُعدّ هذا إنجازاً بالغ الأهمية في السباق نحو تحقيق نتائج مضمونة. في ظلّ رأسمالية المراقبة، تُصمّم الشركات أهداف تعديل السلوك الآلي وعملياته، وتتحكّم بها لتحقيق أهدافها الخاصة بالإيرادات والنمو. وكما أخبرني أحد كبار المهندسين:

تُستخدمُ أجهزة الاستشعار لتعديل سلوك الأشخاص بالسهولة ذاتها التي يُعدّل بها سلوك الأجهزة. ثمة أشياء كثيرة رائعة يمكننا القيام بها باستخدام الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت، مثل خفض الحرارة في جميع منازل الشارع الذي تسكن فيه بحيث يخفّ حمل المحوّل الكهربائي، أو تحسين عملية صناعية بأكملها. لكن ذلك يعني على المستوى الفردي أيضاً القدرة على اتخاذ إجراءات يمكنها تجاوز ما تفعله، أو حتى وضعك على مسار لم تختره.

حدد العلماء والمهندسون الذين أجريت معهم المقابلات ثلاثة مناهج رئيسة لتحقيق اقتصاديات الأداء، ويهدف كل منها إلى تحقيق تعديل السلوك. أسمى أول اثنين منها "الضبط" و"التوجيه". أما الثالث فهو ما يعرفه علماء النفس السلوكي باسم "التكيف". تختلف الاستراتيجيات التي تُنتج اقتصاديات الأداء وفقاً للطرق التي تُجمّع فيها هذه الأساليب وأهمية كل منها.

يحدث "الضبط" بطرق متنوعة. قد يتضمن إشارات خفية مصممة لضبط تدفق السلوك بدقة في الوقت والمكان المحددين لتحقيق أقصى قدر من التأثير الفعال. يتضمن نوع آخر من الضبط ما يسميه خبير الاقتصاد السلوكي ريتشارد ثالر وكاس سنشتاين "الدفع" التي يُعرّفانها بوصفها "أي جانب من جوانب بنية الاختيار التي

تغير سلوك الناس بطريقة يمكن التنبؤ بها".⁽⁷⁹⁶⁾ ويشير مصطلح "هندسة الاختيار" إلى الطرق التي تؤدي إلى هيكله المواقف بالفعل لتوجيه الانتباه وتشكيل الأداء. وتُصمَّم هذه الهياكل في بعض الحالات بشكل متعمد لإثارة سلوك معين، مثل فصل دراسي تكون فيه المقاعد كلها في مواجهة مع المعلم، أو الأعمال التجارية عبر الإنترنت التي تتطلب منك النقر فوق صفحات غامضة كثيرة من أجل إلغاء الاشتراك في ملفات تعريف الارتباط للتتبع. إن استخدام هذا المصطلح هو طريقة أخرى للقول باللغة السلوكية إن المواقف الاجتماعية دائماً مليئة بتدخلات مضبوطة. انني يعمل معظمها خارج وعينا.

يجادل خبراء الاقتصاد السلوكي بوجود نظرة عالمية تعتمد على فكرة مفادها أن التفكير البشري ضعيف وفيه خلل معين، مما يؤدي إلى خيارات غير عقلانية تفشل في النظر بشكل مناسب إلى البنية الأوسع للبدائل. وقد شجّع ثالر وسونستين الحكومات على تصميم حوافز فعالة تعمل على توجيه الاختيار الفردي نحو النتائج التي تتوافق مع مصالحهم، كما يراها الخبراء. وأحد الأمثلة الكلاسيكية التي يفضلها ثالر وسونستين هي مدير كافيتريا يبحث الطلاب على اختيار أطعمة أكثر صحة من خلال عرض سلطة الفاكهة بشكل بارز أمام الحلوى؛ ومن الأمثلة الأخرى التجديد التلقائي لسياسات التأمين الصحي بوصفه وسيلة لحماية الأفراد الذين يتجاهلون الحاجة إلى الموافقات الجديدة في نهاية كل عام.

قام رأسهاليو المراقبة بتعديل الكثير من الافتراضات المثيرة للجدل التي يطرحها خبراء الاقتصاد السلوكي كقصّة بارزة لتبرير التزامهم العملي ببرنامج تجاري أحادي الجانب لتعديل السلوك. والمثير هنا هو أن هذه التوجيهات تهدف إلى تشجيع الخيارات التي تعود بالنفع على مهندس التصميم، وليس على الفرد. والنتيجة هي علماء بيانات مدربون على اقتصاديات الأداء، ويعتبرون أنه من الطبيعي تمامًا إتقان فن "الدفعة الرقمية" وعلمها من أجل المصالح التجارية لشركتهم. على سبيل المثال، وصف كبير

(796) ريتشارد ه ثالر وكاس ر. سانسطين، الدفعة: تحسين القرارات المتعلقة بالصحة والثروة والسعادة، طبعة منقحة (نيويورك: بنغوين، 2009).

علماء البيانات في إحدى سلاسل الصيدليات الوطنية كيف تقوم شركته بتصميم دفعات رقمية آلية تعمل على دفع الناس خفية نحو سلوكيات محددة تفضلها الشركة: "يمكنك جعل الناس يفعلون أشياء باستخدام هذه التكنولوجيا. حتى لو اقتصر الأمر على 5٪ فقط من الناس، فإنك تُجبر 5٪ منهم على القيام بعمل ما كانوا ليفعلوه لولا ذلك. لذلك، يوجد إلى حدّ ما عنصر فقدان المستخدم قدرته على ضبط النفس".

"التوجيه" هو النهج الثاني الذي يعتمد على التحكم في العناصر الرئيسة في السياق المباشر للشخص. إن عدم إبرام عقد هو مثال على تقنية "التوجيه". يؤدي إيقاف تشغيل محرك السيارة إلى تغيير السياق المباشر للسائق بشكل لا رجعة فيه، مما يدفعه إلى الخروج من باب السيارة. يمكن التوجيه من تنظيم الوضع الإنساني عن بعد، مما يحجب البدائل المتاحة، وبالتالي يحرّك السلوك على مسار من الاحتمالية المتزايدة التي تقترب من اليقين. يوضح أحد مطوّري برامج "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت": "نحن نتعلّم كيفية تأليف الموسيقى ثم نترك الموسيقى تجعلهم يرقصون"، ويضيف:

يمكننا هندسة السياق المحيط بسلوك معين وفرض التغيير بهذه الطريقة. تسمح لنا البيانات التي تعتمد على السياق بربط عواطفك ووظائفك الإدراكية وعلاماتك الحيوية وما إلى ذلك. يمكننا أن نعرف ما إذا كان ينبغي أن تقود السيارة أم لا، ويمكننا إيقاف سيارتك. يمكننا أن نقول للثلاجة: "مهلاً، أغلقي بابك لأنه لا ينبغي له أن يتناول الطعام"، أو يمكن أن نطلب من التلفاز أن يتوقف عن العمل لكي تحصل على قسط من النوم، أو أن نطلب من الكرسي أن يتوقّف عن الاهتزاز لأنه لا ينبغي أن تجلس لفترة طويلة، أو نطلب من الصنبور أن يسكب الماء لأنك بحاجة إلى الماء.

يُعتبر "التكيّف" نهجاً معروفاً لتحفيز تغيير السلوك، ويرتبط في المقام الأول بعالم السلوكيات الشهير في جامعة هارفارد، بي. إف. سكينر. ويجادل سكينر بأن تعديل السلوك يجب أن يحاكي العملية التطورية، حيث "تنتقى" السلوكيات الطبيعية لتحقيق النجاح من خلال الظروف البيئية. أضاف سكينر متغيراً ثالثاً، إلى نموذج "التحفيز

والاستجابة" السابق البسيط المرتبط بعالمي السلوك "واتسون" و"بافلوف"، وهذا المتغير هو "التعزيز". وكان قد تعلّم، في عمله في المختبر مع الفئران والحمام، كيفية مراقبة مجموعة من السلوكيات الطبيعية التي تحدث لدى الحيوان التجريبي، ثم تعزيز فعل محدد، أو "التكييف الآلي"، أراد أن يقوم به الحيوان لإعادة إنتاجه. وتمكّن في نهاية المطاف من إتقان التصاميم المعقّدة، أو "الجداول" التعزيزية التي يمكنها أن تشكّل بشكل موثوق سلوكيات روتينية دقيقة.

أطلق سكينر على تطبيق التعزيزات لتشكيل سلوكيات محددة اسم "التكييف الإجرائي الآلي" (operant conditioning). وعُرفَ مشروعه الأكبر باسم "تعديل السلوك" أو "الهندسة السلوكية"، حيث يُشكّل السلوك باستمرار لتضخيم بعض الأفعال على حساب أفعال أخرى. وفي النهاية يتعلّم الحمام مثلاً أن ينقر على زرّ مرتين من أجل الحصول على حبة من الحبوب. ويتعلّم الفأر كيفية السير عبر متاهة معقّدة، والعودة منها مرّة أخرى. لقد تصوّر سكينر "تكنولوجيا سلوكية" شاملة من شأنها تمكين تطبيق مثل هذه الأساليب على مجتمعات بشرية بأكملها.

وفقاً لكبير علماء البيانات في إحدى شركات التعليم المرموقة في وادي السيليكون، فإن "التكييف على نطاق واسع أمر ضروري لعلم السلوك البشري الجديد المصمم على نطاق واسع". ويعتقد أن الهواتف الذكية، والأجهزة القابلة للارتداء، و"التجميع الكبير للعقد المتصلة بالشبكة، تسمح لشركته بتعديل شريحة كبيرة من سلوك مستخدميها وإدارتهم. وبينما تراقب الإشارات الرقمية أنشطة الشخص اليومية وتلاحقها، تُتقن الشركة تدريجياً جداول التعزيزات - المكافآت أو التقدير أو الثناء وغيرها مما يمكن أن يُنتج بشكل موثوق سلوكيات محددة للمستخدم تختارها الشركة للهيمنة:

الهدف من كل ما نقوم به هو تغيير واسع النطاق لسلوك الأشخاص الفعلي. نريد أن نفهم آلية تغيير الشخص سلوكه، ثم نريد أن نغير الطريقة التي يتخذ بها الكثير من الأشخاص قراراتهم اليومية. عندما يستخدم الأشخاص تطبيقاتنا، يمكننا التقاط سلوكياتهم وتحديد السلوكيات الجيدة والسيئة. ثم نُطوّر "علاجات" أو "كتل

بيانات" لاختيار السلوكيات الجيدة. ويمكننا اختبار مدى قابلية تنفيذ إشاراتنا في التأثير عليهم، ومدى فائدة سلوكيات معينة لنا.

على الرغم من أنه لا يزال بالإمكان تصوّر تعديل السلوك الآلي دون وجود رأسمالية المراقبة، فمن غير الممكن تصوّر رأسمالية المراقبة دون الجمع بين تعديل السلوك، والوسائل التكنولوجية لأتمتة تطبيقه. ويعتبر هذا الزواج ضروريًا لتحقيق اقتصاديات الأداء. يمكننا، على سبيل المثال، أن نتخيل جهاز تعقّب اللياقة البدنية، أو سيارة، أو ثلاجة، تُتاح بياناتها وضوابط تشغيلها لأصحابها حصراً بهدف مساعدتهم على ممارسة التمارين الرياضية بشكل أكثر تكرارًا، والقيادة بأمان، وتناول الطعام الصحي. لكن كما رأينا بالفعل في الكثير من المجالات، أدى صعود رأسمالية المراقبة إلى محو فكرة حلقة التغذية الراجعة البسيطة التي تميّز دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية. وأخيرًا، لا يتعلق الأمر بالأجهزة؛ بل يتعلق بفكرة ماكس ووبر عن "التوجّه الاقتصادي" الذي أصبح يتحدّد من خلال رأسمالية المراقبة.

تدفع جاذبية عائدات المراقبة إلى مراكمة مستمرّة لأشكال مختلفة من الفائض السلوكي التنبؤي. ويكون أكثرها قدرة على التنبؤ السلوك المعدّل فعلاً للتوجيه نحو نتائج مضمونة. ويؤدّي اندماج وسال التعديل الرقمية الجديدة، والأهداف الاقتصادية الجديدة، إلى ظهور مجموعة كاملة من التقنيات الجديدة لإنشاء هذه الأشكال الجديدة من الفائض السلوكي ومحاصرتها. من الأمثلة التوضيحية على ذلك دراسة بعنوان: "تغيير السلوك المطبّق في أجهزة مراقبة النشاط الإلكتروني لأسلوب الحياة". قام باحثون من جامعة تكساس، وجامعة سنترال فلوريدا، بدراسة ثلاثة عشر تطبيقًا من هذا القبيل، وخلصوا إلى أن أجهزة المراقبة "تتضمّن مجموعة واسعة من تقنيات تغيير السلوك المستخدمة عادة في التدخلات السلوكية السريرية". واستنتج الباحثون أن عمليات تغيير السلوك تتزايد نتيجة لانتقالها إلى الأجهزة الرقمية والاتصال بالإنترنت. وأشاروا إلى أن إمكانية وجود حلقة بسيطة يُصمّمها المستهلك لصالحه تبدو بعيدة المنال للغاية، وأن تطبيقات تغيير السلوك "تتيح أنواع رقابة مختلفة"، وأن "الأساليب الرسمية" لنقل البيانات بشكل آمن وبسيط "لا يبدو أنها

تذكر أن هال فاربان، الخبير الاقتصادي في شركة غوغل، أشاد "بالاستخدامات الجديدة" للبيانات الضخمة الناتجة عن المعاملات الحاسوبية واسعة الانتشار. ومن بين هذه الاستخدامات، أدرج فرصة "التجريب المستمر". كما أشار فاربان إلى أن لدى غوغل فرق الهندسة وعلوم البيانات التي تدير باستمرار آلاف تجارب "A/B" التي تعتمد على العشوائية والضوابط لاختبار ردود أفعال المستخدمين تجاه مئات الاختلافات في خصائص الصفحة من التخطيط إلى الأزرار إلى الخطوط. وقد أيد فاربان هذا الدور التجريبي الذي يمنح نفسه الصلاحية للاحتفال، محذراً من أن بيانات العالم كلها "يمكنها أن تقيس علاقة مترابطة فقط وليس علاقة سببية". (798) تخبرنا البيانات بما حدث، لكنها لا تخبرنا سبب وقوع الحدث. وفي غياب المعرفة السببية، تكون حتى أفضل التنبؤات مجرد استقراءات من الماضي.

النتيجة المترتبة على هذا اللغز هي أن العنصر الأساسي الأخير في بناء منتجات التنبؤ عالية الجودة - أي تلك التي تقترب من النتائج المضمونة - يعتمد على المعرفة السببية.

(797) إليزابيث جي. ليونز وآخرون، "تقنيات تغيير السلوك المطبقة في أجهزة مراقبة نشاط نمط الحياة الإلكترونية: تحليل منهجي للمحتوى"، مجلة أبحاث الإنترنت الطبية 16، رقم 8 (2014)، e192. تفترض النظرية والممارسة التجارية لتعديل السلوك وجوداً شبيكياً حتمياً ووفرة من لأدوات الرقمية. أجرى فريق من الباحثين البريطانيين استطلاعاً لآراء خمسة وخمسين خبيراً في السلوك بهدف وضع "تصنيف هرمي متفق عليه بالإجماع للتقنيات المستخدمة في تدخلات تغيير السلوك". حددت هذه العملية ثلاثاً وتسعين تقنية مميزة لتغيير السلوك، جمعت في ست عشرة مجموعة منهجية: "العواقب المجدولة"، "المكافأة والتهديد"، "التكرار والاستبدال"، "السوابق"، "الارتباطات"، "التغذية الراجعة والمراقبة"، "الأهداف والتخطيط"، "الدعم الاجتماعي"، "مقارنة السلوك"، "التواصل بشأن العواقب الطبيعية"، "الثقة بالنفس"، "مقارنة النتائج"، "تشكيل المعرفة"، "التنظيم"، "الهوية"، و"التعلم السري". يحذر الباحثون من أن تعديل السلوك مجالٌ سريع التطور. ويشيرون مثلاً إلى أن أول تصنيف من هذا النوع، والذي نُشر قبل أربع سنوات فقط، قد حدد اثنتين وعشرين تقنية فقط لتغيير السلوك، كان العديد منها موجّهاً للأفراد ويتطلب تفاعلاً مباشراً وبناء علاقات. في المقابل، تُوجّه التقنيات الأحدث نحو "التدخلات على مستوى المجتمع والسكان"، وهي حقيقة تُشير إلى انتقال عمليات تغيير السلوك إلى القدرات الجديدة (التحكم السياقي، والتحفيز الرقمي الآلي، والتكييف الإجرائي على نطاق واسع) للأدوات الممكنة بالإنترنت والتي تعتمد عليها اقتصاديات العمل. انظر سوزان ميتشي وآخرين، "تصنيف تقنيات تغيير السلوك (الإصدار الأول) لـ 93 تقنية مُجمّعة بشكل هرمي: بناء إجماع دولي للإبلاغ عن تدخلات تغيير السلوك"، حوليات الطب السلوكي 46، العدد 1 (2013): 81-95.

(798) هال ر. فاربان، "ما وراء البيانات الضخمة"، اقتصاديات الأعمال 49، رقم 1 (2014): 6.

ويقول فاريان: "إذا أردت أن تفهم السببية حقًا، فعليك إجراء التجارب. وإذا أُجريت التجارب باستمرار، يُمكنك تحسين نظامك باستمرار". (799)

بما أن "النظام" يهدف إلى إنتاج تنبؤات، فإن "تحسين النظام بشكل مستمر" يعني سدّ الفجوة بين التنبؤ والملاحظة من أجل تقريب اليقين. وقد تكون مثل هذه الطموحات مكلفة للغاية في عالم تناظري، بحيث لا يمكن تطبيقها عمليًا، لكن فاريان يلاحظ أن "بالإمكان أتمتة التجارب بالكامل" في عالم الإنترنت.

يمنح فاريان رأسماليي المراقبة امتياز دور المجرب، ويُقدم هذا باعتباره أمرًا واقعيًا عرضيًا آخر. وهذا يعكس في واقع الأمر الخطوة الحاسمة الأخيرة في التعامل الجذري الذي يُبديه رأسماليو المراقبة بهدف الحصول على حقوق جديدة. وفي هذه المرحلة من ضرورة التنبؤ، يعلن رأسماليو المراقبة عن حقهم في تعديل سلوك الآخرين لتحقيق الربح وفقًا لأساليب تتجاوز الوعي البشري، وحقوق اتخاذ القرار الفردي، ومجموعة كاملة من عمليات التنظيم الذاتي التي نلخصها في مصطلحات مثل الاستقلال وتقرير المصير.

ما سيأتي هو عبارة عن روايتين مميزتين لرأسماليي المراقبة بصفتهم "مجرّين" يستغلّون عدم التماثل في المعرفة لفرض إرادتهم على البشر غير المطلعين الذين يستخدمونهم. تشكّل الرؤى التجريبية المتراكمة من خلال المرايا أحادية الاتجاه أهمية بالغة في بناء قدرات الوسائل الربحية وضبطها واستكشافها لتعديل السلوكيات التي تنتهجها كل شركة. وفي تجارب مستخدمي فيسبوك، وفي لعبة الواقع المعزّز " بوكيمون غو" (التي تصوّرتها شركة غوغل واحتضنتها)، نرى الوسائل التجارية لتعديل السلوك تتطوّر أمام أعيننا. إذ يجمع كلّ منهما بين مكوّنات اقتصاديات الأداء، وتقنيات الضبط والتوجيه والتكيّف بطرق جديدة مذهلة تكشف عن الإغريق المختبئين في أعماق حصان طروادة: التوجّه الاقتصادي المتواري خلف حجابات رقمية.

في عام 2012، أثار باحثو فيسبوك دهشة الجمهور بمقال مثير للجدل بعنوان "تجربة شملت 61 مليون شخص في التأثير الاجتماعي والتعبئة السياسية"، نُشر في المجلة العلمية "نيتشر".⁽⁸⁰⁰⁾ في هذه الدراسة العشوائية الخاضعة للرقابة، والتي أجريت خلال الفترة التي سبقت انتخابات التجديد النصفي للكونغرس الأمريكي عام 2010، قام الباحثون بالتلاعب تجريبيًا بالمحتوى الاجتماعي والإعلامي للرسائل المتعلقة بالتصويت في تطبيق "نيوز فيد" لنحو 61 مليون مستخدم على فيسبوك، بينما قاموا أيضًا بتأسيس مجموعة ضبط.

عُرِضَ بيان على إحدى المجموعات، في الجزء العلوي من تطبيق "نيوز فيد" الخاص بها، يشجع المستخدم على التصويت. وتضمّن البيان رابطًا عن معلومات مكان الاقتراع، وزرًا عمليًا مكتوبًا عليه "قمت بالتصويت"، وعدّادًا يشير إلى عدد مستخدمي فيسبوك الآخرين الذين أُبلغوا عن التصويت، وما يصل إلى ست صور شخصية لأصدقاء المستخدم على فيسبوك الذين نقروا بالفعل على زر "قمت بالتصويت". وتلقّت مجموعة ثانية المعلومات ذاتها، لكن دون صور الأصدقاء. أما مجموعة الضبط الثالثة، فلم تتلقَ أية رسالة خاصة.

أظهرت النتائج أن المستخدمين الذين تلقّوا الرسالة الاجتماعية كان محتملًا أن ينقروا على زرّ "قمت بالتصويت" أكثر بنسبة 2٪، وأن ينقروا على زرّ "معلومات الاقتراع" أكثر بنسبة 2.6٪، ممن تلقّوا المعلومات وحدها. وتوصّل باحثو فيسبوك إلى أن الرسائل الاجتماعية كانت وسيلة فعّالة لضبط السلوك على نطاق واسع لأنها "أثرت بشكل مباشر على التعبير السياسي عن الذات، والبحث عن المعلومات، وسلوك التصويت في العالم الحقيقي للملايين الأشخاص"، وخلصوا إلى أن "إظهار الوجوه المألوفة للمستخدمين يمكن أن يحسّن فعالية رسالة التعبئة بشكل كبير".

(800) روبرت م. بوند وآخرون، "تجربة شملت 61 مليون شخص في التأثير الاجتماعي والتعبئة السياسية"، مجلة نيتشر 489، العدد 7415 (2012): 295-298.

وفقًا لحسابات الفريق، فإن الرسائل الاجتماعية التي تلاعبوا بها أرسلت 60 ألف ناخب إضافي إلى صناديق الاقتراع في انتخابات التجديد النصفي لعام 2010، فضلًا عن 280 ألف ناخب آخر أدلوا بأصواتهم نتيجة لتأثير "العدوى الاجتماعية"، بإجمالي 340 ألف صوت إضافي. وأكد الباحثون، في ملاحظاتهم الختامية، أن "الرسائل عبر الإنترنت قد تؤثر على مجموعة متنوعة من السلوكيات غير المتصلة بالإنترنت، مما له آثار على فهمنا لدور وسائل التواصل الاجتماعي عبر الإنترنت في المجتمع...". (801)

نجحت التجربة بإنتاجها إشارات اجتماعية "اقتُرحت" أو "جهّزت" المستخدمين بطرق تضبط سلوكهم في العالم الحقيقي نحو مجموعة محددة من الإجراءات التي حددها "المختبرون". وفي هذه العملية التجريبية، تُكتشف اقتصاديات الأداء وتُشجّد، وتتخذ في نهاية المطاف طابعًا مؤسسيًا في برامج الحاسوب وخوارزمياته التي تعمل بشكل تلقائي ومستمرّ واسع النطاق لتحقيق اقتصاديات الأداء. يهدف فائض السلوك في فيسبوك إلى حل مشكلة واحدة: كيف يمكن التدخل، ومتى، للتلاعب بالحالات التي تشكّل حياتك اليومية من أجل تعديل سلوكك، وبالتالي زيادة القدرة على التنبؤ بأفعالك الآن، وقريبًا، وفي وقت لاحق. والتحدي الذي يواجهه أسمايلي المراقبة هو تعلّم كيفية القيام بذلك بشكل فاعل وتلقائي، وبالتالي، اقتصاديًا، ووفقًا لمدير مُنتج سابق في فيسبوك:

تُجرى التجارب على كل مستخدم في مرحلة ما من فترة استخدامه للموقع. سواءً أكان ذلك من خلال رؤية نصوص إعلامية بأحجام مختلفة، أم رسائل تسويقية مختلفة، أم أضرار مختلفة للحثّ على اتخاذ إجراء، أم توليد خلاصات المستخدمين باستخدام خوارزميات تصنيف مختلفة... الهدف الأساسي لمعظم العاملين على البيانات في فيسبوك هو التأثير على مزاج الناس وسلوكهم وتغييرهما. يفعلون ذلك باستمرار لزيادة إعجابك بالقصص، وزيادة نقراتك على الإعلانات، وقضاء وقت أطول على الموقع. هكذا تعمل المواقع الإلكترونية، الجميع يفعل ذلك، ويعلم جميعًا أن الجميع

(801) بوند وآخرون، "تجربة أجريت على 61 مليون شخص".

أثار نشر الدراسة التي أجراها موقع فيسبوك جدلاً حاداً، حيث بدأ الخبراء وعامة الناس يدركون أخيراً القدرة غير المسبوقة التي يتمتع بها موقع فيسبوك - وشركات الإنترنت الأخرى - في الإقناع والتأثير، وفي تصنيع السلوك نهاية المطاف. وقد أقرّ جوناثان زيتراين، المتخصص في قانون الإنترنت من جامعة هارفارد، بأن من الممكن الآن أن نتخيل فيسبوك وهو يقوم بهندسة الانتخابات بهدوء. باستخدام وسائل لا يستطيع مستخدموه اكتشافها أو التحكم فيها. ووصف التجربة بأنها تشكل تحدياً "للحقوق الجماعية" التي يمكن أن تقوّض "حقّ الناس ككل.... في التمتع بفوائد العملية الديمقراطية....". (803)

لقد فشل القلق العام في زعزعة استقرار ممارسة فيسبوك المتمثلة في تعديل السلوك على نطاق واسع. ومع أن تجربة التأثير الاجتماعي كانت موضع نقاش في عام 2012، تعاون أحد علماء البيانات في فيسبوك بالفعل مع باحثين أكاديميين في دراسة جديدة بعنوان "الأدلة التجريبية على العدوى العاطفية واسعة النطاق من خلال الشبكات الاجتماعية"، المقدّمة إلى مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم المرموقة في عام 2013، حيث حرّرتها السيكولوجية الاجتماعية الشهيرة في جامعة برينستون، سوزان فيسك، ونُشرت في يونيو / حزيران 2014.

قام الباحثون، هذه المرة، "بالتلاعب بمدى تعرّض الأشخاص (N = 689.003) للتعبير العاطفي في تطبيق "نيوز فيد" الخاص بهم" (804) وصُمّمت التجربة على غرار

(802) أندرو ليدفينا، "10 طرق تجعل فيسبوك شيطاناً حقيقياً"، AndrewLedvina.com، 4 يوليو/ تموز 2017.

(803) جوناثان زيتراين، "قد يقرر فيسبوك نتائج الانتخابات دون علم أحد"، مجلة نيوربابل، 1 يونيو 2014؛ جوناثان زيتراين، "هندسة الانتخابات"، مجلة هارفارد للقانون، المجلد 127 (20 يونيو 2014): 335؛ ريد ألبيرغوتي، "تجارب فيسبوك محدودة الحدود"، وول ستريت جورنال، 2 يوليو 2014؛ تشارلز آرثر، "إذا كان فيسبوك قادراً على التلاعب بمشاعرنا وإجبارنا على التصويت، فماذا يمكنه أن يفعل أيضاً؟"، صحيفة الغارديان، 30 يونيو 2014؛ سام بايفورد، "فيسبوك يقدم تفسيراً لتجربة مثيرة للجدل في علم نفس موجز الأخبار"، مجلة فيرج، 29 يونيو 2014؛ كريس تشامبرز، "فشل فيسبوك: هل كانت دراسة كورنيل عن "العدوى العاطفية" خرقاً أخلاقياً؟"، صحيفة الغارديان، 1 يوليو 2014. (804) آدم دي. أي. كرامر، وجيمي إي. جيلوري، وجيفري تي. هانكوك، "دليل تجريبي على العدوى

اختبارات (A/B) التي يُفترض أنها حميدة. وفي هذه الحالة تلقت إحدى المجموعات رسائل إيجابية في الغالب في تطبيق "نيوز فيد" الخاص بها، بينما تلقت المجموعة الأخرى رسائل سلبية في الغالب. كانت الفكرة اختبار ما إذا كان حتى التعرض غير الواعي لمحتوى عاطفي محدد سيدفع الناس إلى تغيير سلوكهم في النشر ليعكس هذا المحتوى. وقد فعلوا ذلك. وسواء أشعر المستخدمون بسعادة أم حزن، تغيرت نبرة تعبيراتهم لتعكس محتوى تطبيق "نيوز فيد".

لم تترك النتائج التجريبية مجالاً للشك في أن الإشارات الفرعية التي صممتها فيسبوك بعناية، والتي لا يمكن اكتشافها ولا جدال فيها، تجاوزت الشاشة مرة أخرى لتصل إلى الحياة اليومية لمئات الآلاف من المستخدمين السذج، حيث أدت بشكل متوقع إلى تحفيز صفات محددة من التعبير العاطفي من خلال عمليات تعمل خارج وعي أهدافها البشرية، تمامًا كما وصف ستيوارت ماكاي سلاحف غالاباغوس والأياثل الكندية (انظر الفصل السابع). وأشار الباحثون إلى أن "من الممكن أن تتقل الحالات العاطفية إلى الآخرين بتأثير العدوى العاطفية، مما يؤدي إلى شعور الناس بالمشاعر ذاتها دون وعي منهم. تؤثر الرسائل عبر الإنترنت على تجربتنا العاطفية، وتؤثر هذه بدورها على مجموعة متنوعة من السلوكيات غير المتصلة بالإنترنت". وقد احتفى الفريق بعمله بوصفه "أحد الأدلة التجريبية الأولى التي تدعم الادعاءات المثيرة للجدل بأن المشاعر يمكن أن تنتشر عبر الشبكة"، وتأمل في حقيقة مفادها أنه حتى التلاعب البسيط نسبيًا كان له تأثير قابل للقياس، وإن كان صغيراً.⁽⁸⁰⁵⁾

إن ما فشل باحثو فيسبوك في الاعتراف به في أي من التجربتين هو أن قابلية الشخص للإشارات الخفية، وقابلية تأثره "بالعدوى"، تعتمد إلى حد كبير على التعاطف: القدرة على فهم الحالة العقلية والعاطفية لشخص آخر والمشاركة فيها، بما في ذلك الشعور بمشاعر الآخر والقدرة على تبني وجهة نظره - التي توصف أحياناً

العاطفية واسعة النطاق من خلال الشبكات الاجتماعية"، مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم 111، العدد 24 (2014): 90-8788.

(805) كرامر، جيلوري، وهانوك، "الأدلة التجريبية على العدوى العاطفية واسعة النطاق".

بالتأثر "العاطفي" أو "الإدراكي". وجد علماء النفس أنه كلما تمكّن الشخص من إسقاط مشاعره على مشاعر شخص آخر وتبني وجهة نظره، ازدادت احتمالية تأثره بالإشارات الباطنية، بما في ذلك التنويم المغناطيسي. يوجّه التعاطف الناس نحو الآخرين. ويسمح لهم بالانغماس في تجاربهم العاطفية والتفاعل معها، بما في ذلك تقليد تعابير وجوههم أو لغة جسدهم دون وعي. ويُعتبر الضحك بالعدوى أو التثاؤب بالعدوى مثالين على هذه الحالة.⁽⁸⁰⁶⁾

يُعتبر التعاطف أساسيًا للترابط الاجتماعي والتعلّق العاطفي، لكنه قد يُثير أيضًا "قلقًا غير مباشر" لدى الضحايا أو غيرهم ممن يعانون من ضائقة حقيقية. وقد وصف بعض السيكلوجيين التعاطف بأنه "قوة خطيرة" لأنه يُهيئنا لتجربة سعادة الآخرين، بل وآلامهم أيضًا.⁽⁸⁰⁷⁾ إن الضبط الناجح الواضح في كلتا تجربتي فيسبوك هو نتيجة للاستغلال الفعّال للتعاطف الطبيعي الموجود في مجتمع المستخدمين.

زعم باحثو فيسبوك أن النتائج أشارت إلى استنتاجين. **أولاً**، في مجتمع ضخم ومتفاعل كمستخدمي فيسبوك، "قد تُسفر، حتى التأثيرات البسيطة، عن عواقب وخيمة". **ثانيًا**، دعا المؤلفون القراء إلى تصوّر ما يمكن إنجازه من خلال حالات

(806) ماثيو ر. جوردان، ودورسا أمير، وبول بلوم، "هل التعاطف والاهتمام متميزان نفسيًا؟" العاطفة 16، العدد 8 (2016): 1107-1116؛ ماريان سونبي-بورغستروم، "ردود الفعل المحاكاة التلقائية وعلاقتها بالاختلافات في التعاطف العاطفي"، المجلة الإسكندنافية لعلم النفس 43، العدد 5 (2002): 433-443؛ رامي تولماتش، "الاهتمام والتعاطف: مفهومان أم مفهوم واحد؟" المجلة الأمريكية لتحليل النفسي 68، العدد 3 (2008): 257-275؛ إيان إي. ويكراماسيكيرا وجانيت بي. سزنيك. هل يمكن أن يكون التعاطف مؤشرًا على القدرة على التنويم المغناطيسي؟" المجلة الدولية للتنويم المنطقي السريري والتجريبي 51، العدد 1 (2008): 257-275؛ 4 (2003): 390-99؛ إي. بي. تون وي. سي. توبي. "التعاطف كـ"قوة محفوفة بالمخاطر": فحص متعدد المستويات للتعاطف والمخاطر لاضطرابات التأصيل"، التطور وعلم النفس المرضي 26، العدد 4 (2014): 1547-65؛ أولف ديميرج ومونيكا تونيرج. "التعاطف والعدوى العاطفية وردود الفعل السريعة على الوجه لتعبيرات الوجه الغاضبة والسعيدة: التعاطف وردود الفعل السريعة على الوجه"، مجلة سايك 1، العدد 2 (2012): 118-27؛ تانيا سينجر وكلاوس لام، "علم الأعصاب الاجتماعي للتعاطف"، حوليات أكاديمية نيويورك للعلوم 1156 (1 أبريل 2009): 81-96؛ دوغلاس ف. وات، "الروابط الاجتماعية وطبيعة التعاطف"، مجلة دراسات الوعي 12، الأعداد 8-9 (2005): 185-209.

(807) جوسلين شو وآخرون، "دور التعاطف في تجربة الثقة غير المباشر"، مجلة علم النفس التجريبي: عام 146، العدد 8 (2017): 1164-1188؛ تون وتوبي، "التعاطف باعتباره "قوة محفوفة بالمخاطر".

تلاعب أكثر أهمية، وضمن مجموعات تجريبية أكبر حجمًا، مشيرين إلى أهمية النتائج التي توصلوا إليها بالنسبة إلى "الصحة العامة".

مرة أخرى، كان الاستياء الشعبي هائلًا. وتساءلت صحيفة الغارديان: "إذا كان فيسبوك قادرًا على التلاعب بمشاعرنا وإجبارنا على التصويت، فما عساه أن يفعل غير ذلك؟" واقتبست مجلة "أتلانتيك" عن محررة الدراسة التي أعدت المقالة للنشر على الرغم من شكوكها الواضحة.⁽⁸⁰⁸⁾ وقالت للمجلة إن فيسبوك، بصفته شركة خاصة، ليس مضطرًا للالتزام بالمعايير القانونية للتجارب المطلوبة من الباحثين الأكاديميين والحكوميين.

تُعرف هذه المعايير القانونية باسم "القاعدة العامة". صُممت هذه المعايير للحماية من إساءة استخدام سلطة المُجرب، ويجب على جميع الأبحاث الممولة اتحاديًا الالتزام بها. وتفرض القاعدة العامة إجراءات الموافقة بعد الاطلاع، وتجنب الضرر، والاستجواب، والشفافية، وتديرها لجان علماء يُعرفون باسم "مجالس المراجعة الداخلية"، وهي يُعيّنون داخل كل مؤسسة بحثية. واعترفت فيسك بأنها اقتصرت بحجة فيسبوك بأن التلاعب التجريبي كان امتدادًا عاديًا لممارسات الشركة في التلاعب في الأخبار الموجّه للمُشترِكين في تطبيق "نيوز فيد". ووفقًا لما أوضحته: "قالوا إن فيسبوك يتلاعب بالأخبار الموجهة للناس طوال الوقت على ما يبدو.... ومن يدري ما هي الأبحاث الأخرى التي يقومون بها".⁽⁸⁰⁹⁾ بعبارة أخرى، أدركت فيسك أن التجربة كانت مجرد امتداد لممارسات فيسبوك الأخرى لتعديل السلوك، والتي تزدهر بالفعل دون عقوبات.

تعرّض عالم البيانات والباحث الرئيس في شركة فيسبوك آدم كرامر لمئات الاستفسارات الإعلامية، مما دفعه إلى الكتابة على صفحته على فيسبوك أن الشركة "تهتم" حقًا بتأثيرها العاطفي. وقال أحد المشاركين في الدراسة، جيفري هانكوك من

(808) تشامبرز، "فشل فيسبوك": أدريان لافرانس، "حتى محرر دراسة الحالة المزاجية لفيسبوك اعتبرها مخيفة"، أتلانتيك، 28 يونيو/ حزيران 2014.
(809) انظر لافرانس، "حتى المحرر".

جامعة كورنيل، لصحيفة نيويورك تايمز إنه لم يدرك أن التلاعب بالأخبار، حتى ولو بشكل متواضع، من شأنه أن يجعل بعض الناس يشعرون بالانتهاك.⁽⁸¹⁰⁾ وذكرت صحيفة *وول ستريت جورنال* أن فريق علوم البيانات في فيسبوك أجرى أكثر من 1000 تجربة منذ نشأته عام 2007، وعمل "ضمن حدود بسيطة"، ودون مجلس مراجعة داخلي. ولخص أستاذ علم النفس، كريس تشامبرز⁽⁸¹¹⁾ الأمر في مقال له في صحيفة الغارديان قائلاً: "ترسم دراسة فيسبوك مستقبلًا بائسًا يهرب فيه الباحثون الأكاديميون من القيود الأخلاقية من خلال التعاون مع شركات خاصة لاختبار تدخّلات خطيرة أو ضارّة بشكل متزايد".⁽⁸¹¹⁾

بعد شهر من نشر دراسة العدوى العاطفية، نشر رئيس تحرير مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم، إندر إم. فيرما، "تعبيرًا عن القلق" بشأن البحث الذي أُجري في فيسبوك. وبعد اعترافه بالدفاع المعياري بأن فيسبوك مُعفى من الناحية الفنية من "القاعدة العامة"، أضاف فيرما: "ومع ذلك، من المثير للقلق أن جمع البيانات بواسطة فيسبوك ربما ينطوي على ممارسات لم تكن متسقة تمامًا مع مبادئ الحصول على موافقة مطلعة، والسماح للمشاركين بالانسحاب".⁽⁸¹²⁾

من بين الباحثين الأمريكيين، نشر أستاذ القانون بجامعة ميريلاند جيمس غريملمان حجة شاملة لصالح تحميل شركة فيسبوك، وشركات التواصل الاجتماعي الأخرى، المسؤولية عن المعايير التي تمثلها القاعدة العامة. وأشار إلى أن الأبحاث التي تقوم بها الشركات مُعرّضة للمساومات والتسويات أكثر من الأبحاث الأكاديمية بسبب صراعات المصالح الخطيرة، مما يجعل المعايير التجريبية العامة أمرًا بالغ الأهمية، وليست شيئًا يمكن تركه للحكم الأخلاقي الفردي. تحيّل غريملمان "عمليات غسيل

(810) فينديو غويل، "فيسبوك يتلاعب بمشاعر المستخدمين في تجربة موجز الأخبار، ويثير احتجاجات"، نيويورك تايمز، 29 يونيو 2014.

(811) ألبرغوتي، "تجارب فيسبوك كانت محدودة"؛ تشامبرز، "فشل فيسبوك".

(812) إندر م. فيرما، "التعبير التحريري عن القلق والتصحيح بشأن "الأدلة التجريبية على العدوى العاطفية واسعة النطاق من خلال الشبكات الاجتماعية"، مجلة الأكاديمية الوطنية للعلوم 111، رقم 29 (2014): 90-8788.

في مجلس المراجعة الداخلية"، حيث يمكن للأكاديميين "الالتفاف على لوائح أخلاقيات البحث كلما تعاونوا بشكل وثيق مع شركاء الصناعة. سيلغي الاستثناء القاعدة العامة". (813)

على الرغم من قناعة غريملمان بهذه النقطة، فقد أشار في الصفحات الأخيرة من تحليله إلى أنه حتى فرض القاعدة العامة على نحو صارم لن يغيّر الكثير في كبح القوة الهائلة التي تتمتع بها شركة مثل فيسبوك، التي تتلاعب بشكل روتيني بسلوك المستخدمين على نطاق واسع، باستخدام وسائل غير مفهومة وبالتالي لا يمكن الطعن فيها. وعلى غرار فيسك، شعر غريملمان بأن المشروع الأكبر المتمثل في اقتصاديات العمل يقع خارج نطاق القانون والمعايير الاجتماعية الراسخة.

لفتت مجلة "نيتشر" الانتباه برسالة شديدة اللهجة تدافع عن تجربة فيسبوك، كتبها خبيرة الأخلاقيات الحيوية ميشيل ماير بالاشتراك مع خمسة مؤلفين مشاركين، وبالنيابة عن سبعة وعشرين خبيرًا آخر في الأخلاقيات. وجاء في الرسالة أن الحاجة إلى تدوين المعرفة الجديدة حول البيئة الإلكترونية تبرّر إجراء التجارب حتى عندما لا تلتزم، أو لا تستطيع الالتزام، بالمبادئ التوجيهية الأخلاقية المقبولة للأبحاث التي تجرى على البشر. لكن دفاع ماير استند إلى نبرة تحذيرية ثابتة مفادها أن "الاستجابة المتطرفة لهذه الدراسة... قد تؤدي إلى إجراء مثل هذا البحث سرًا... إذا كان النقاد يعتقدون أن التلاعب بالمحتوى العاطفي في هذا البحث مثير للقلق بما يكفي لاستحقاق التنظيم... فإن القلق نفسه يجب أن ينطبق على ممارسات فيسبوك القياسية....". (814)

لم يتفق منتقدو التجربة ومؤيدوها إلا على شيء واحد: يمكن لشركة فيسبوك أن تتحوّل بسهولة إلى شركة مارقة، وتهدّد بالتراجع إلى السرية، إذا حاولت الجهات

(813) جيمس غريملمان، "قانون التجارب وأخلاقياتها على مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي"، مجلة قانون التكنولوجيا في كولورادو، المجلد 13 (1 يناير/كانون الثاني 2015): 255.
(814) ميشيل ن. ماير وآخرون، "الأحكام الخاطئة ستقود المحاكمات الاجتماعية إلى السرية"، نيتشر 511 (11 يوليو/تموز 2014): 265؛ ميشيل ماير، "نحية للتجارب المؤسسية"، مجلة قانون التكنولوجيا في كولورادو 13 (7 مايو/أيار 2015): 273.

التنظيمية التدخل في ممارساتها. وأعرب المجتمع الأكاديمي عن شعوره بالتهديد في مواجهة الحقائق المعروفة. تمتلك شركة فيسبوك وسيلة غير مسبقة لتعديل السلوك تعمل بشكل سري، وعلى نطاق واسع، وفي غياب آليات اجتماعية أو قانونية للاتفاق والمنافسة والسيطرة. ومن غير المرجح، حتى لتطبيق صارم "للقاعدة العامة"، أن يغير هذه الحقائق.

مع وعد العلماء بتشكيل لجان لدراسة القضايا الأخلاقية التي أثارها أبحاث فيسبوك، أعلنت الشركة عن خططها الخاصة لتحسين التنظيم الذاتي. واعترف مايك شرويدر، كبير مسؤولي التكنولوجيا في الشركة، بأنه "لم يكن مستعداً" لرد فعل الجمهور على دراسة العدوى العاطفية، واعترف بأن "نمّة أشياء كان ينبغي لنا أن نفعلها بشكل مختلف". وتضمن "الإطار الجديد" للبحث في الشركة إرشادات واضحة، ولجنة مراجعة داخلية، ومجموعة من ممارسات البحث المدججة في برنامج التدريب والتوجيه الشهير لموظفي الشركة الجدد، وموقعاً على الإنترنت لعرض الأبحاث الأكاديمية المنشورة. ولم تتحدّ هذه "التنظييات" المفروضة ذاتيا الحقائق الأساسية لمجتمع فيسبوك عبر الإنترنت باعتباره البيئة التنموية الضرورية والهدف لاقتصاديات العمل الخاصة بالشركة.

كشفت وثيقة حصلت عليها الصحافة الأسترالية في مايو/ أيار 2017 عن هذه الحقيقة. فبعد ثلاث سنوات من نشر دراسة العدوى، نشرت صحيفة "الأسترالي" القصّة في وثيقة سرّية مكوّنة من ثلاث وعشرين صفحة على فيسبوك، كتبها اثنان من المسؤولين التنفيذيين في فيسبوك في عام 2017 واستهدفت المعلنين في الشركة في أستراليا ونيوزيلندا. ووصف التقرير أنظمة الشركة لجمع "معلومات نفسية" عن 6.4 مليون طالب في المدارس الثانوية والجامعات، فضلاً عن الشباب الأستراليين والنيوزيلنديين الموجودين بالفعل في القوى العاملة. وتوضح وثيقة فيسبوك بالتفصيل العديد من الطرق التي تستخدم بها الشركة مخزونات فائضها السلوكي لتحديد اللحظة الدقيقة التي يحتاج فيها الشاب إلى "دفعة من الثقة" وبالتالي يكون أكثر عرضة لتكوين محدد من الإشارات والدفعات الإعلانية: "يمكن لفيسبوك، من خلال مراقبة

المنشورات والصور والتفاعلات ونشاط الإنترنت، أن يحدد متى يشعر الشباب بـ "التوتر" و"الهزيمة" و"الإرهاق" و"القلق" و"العصية" و"الغباء" و"السخافة" و"عدم الفائدة" و"الفشل".⁽⁸¹⁵⁾

يكشف التقرير عن اهتمام فيسبوك باستغلال هذا الفائض السلوكي العاطفي لتحقيق اقتصاديات العمل. وتباهى الدراسة بمعلومات مفصلة عن "تحوّلات المزاج" بين الشباب استنادًا إلى "بيانات فيسبوك الداخلية"، وتزعم أن منتجات التنبؤ لدى فيسبوك لا تستطيع "اكتشاف المشاعر" فحسب، بل يمكنها أيضًا التنبؤ بكيفية توصيل المشاعر في نقاط مختلفة خلال الأسبوع، ومطابقة كل مرحلة عاطفية مع رسائل إعلانية مناسبة لتحقيق أقصى احتمال للنتائج المضمونة. تشير التحليلات إلى أن "التعبير عن المشاعر المتوقعة يكون أكثر احتمالًا في بداية الأسبوع، بينما تزداد المشاعر التأملية في عطلة نهاية الأسبوع. تُخصّص الفترة بين الاثنين والخميس لبناء الثقة، بينما تُخصّص عطلة نهاية الأسبوع لبث الإنجازات".

لقد أنكرت شركة فيسبوك هذه الممارسات علنًا، ولكن أنطونيو غارسيا مارتينيز، مدير المنتجات السابق في فيسبوك، ومؤلف كتاب مفيد عن وادي السيليكون بعنوان "قرود الفوضى"، وصف التطبيق الروتيني لممارسات كهذه في صحيفة الغارديان، واتهم الشركة "بأنها تكذب عن سابق إصرار وتصميم". واختتم حديثه قائلاً: "الحقيقة الصعبة هي أن فيسبوك لن يحاول إطلاقًا أن يحدّ من هذا الاستخدام لبياناته ما لم يصل الضجيج العام إلى ذروته بحيث يصبح عصيًا على التغيير".⁽⁸¹⁶⁾ من المؤكّد أن التحدي العام الذي واجهته شركة فيسبوك لإقحام نفسها في الحياة العاطفية لمستخدميها، كما ورد في دراسة العدوى، وتعهدها بتنظيم نفسها ذاتيًا، لم يخفّف من اهتمامها التجاري بمشاعر المستخدمين، أو إجبار الشركة على استغلال هذه المعرفة بشكل منهجي نيابة عن عملائها وبالتعاون معهم. لم يحدث ذلك لأنها لا تستطيع أن

(815) دارين ديفيدسون، "فيسبوك يستهدف "غير الأمنين" لبيع الإعلانات"، أستراليا، 1 مايو/ أيار 2017.

(816) أنطونيو غارسيا مارتينيز، "أنا مسؤول تنفيذي سابق في فيسبوك: لا تصدق ما يقولونه لك عن الإعلانات"، الغارديان، 2 مايو/ أيار 2017.

تفعل ذلك طالما أن إيرادات الشركة مرتبطة باقتصاديات الأداء بموجب قوة ضرورة التنبؤ.

يحدّرنا إصرار فيسبوك مرة أخرى من استمرار دورة نزع الملكية العنيدة. لقد اعترف فيسبوك علنًا، واعتذر عن توغلاته التجريبية العلنية في تعديل السلوك والتلاعب بالعواطف، ووعد بإجراء تعديلات للحد من هذه الممارسات أو التخفيف منها. لكن حدث في تلك الأثناء اختراق لعبة جديدة من الحياة الحميمة. وأصبحت قدرة فيسبوك على التلاعب بالعواطف موضع نقاش، بل حتى أمرًا مسلّمًا به مع ترسيخ التعود. إذ يعتقد الخبراء، من فيسك من جامعة برينستون إلى الناقد غريملمان والمؤيدة ماير، أنه إذا أُجبرت أنشطة فيسبوك على الخضوع لمبدأ تنظيمي جديد، فسوف تستمر الشركة في العمل سرًا. وقد فتحت الوثائق الأسترالية بابًا على هذه الممارسات السرية، مما يشير إلى اكتمال الدورة بإعادة توجيه العمل إلى مناطق سرّية محمية بالغموض وعدم القدرة على فك رموزها، تمامًا كما توقع هؤلاء الباحثون.

اكتشف الباحثون في مجال التعبئة السياسية على موقع فيسبوك أنهم قادرون على التلاعب بنقاط ضعف المستخدمين تجاه التأثير الاجتماعي من أجل خلق حالة تحفيزية ("أريد أن أكون مثل أصدقائي") من شأنها أن تزيد احتمالية أن تؤدّي رسالة تحفيزية ذات صلة - زرّ "لقد قمتُ بالتصويت" - إلى إحداث إجراء. واستغلّت دراسة العدوى العاطفية التوجّه الأساسي ذاته للتأثير الاجتماعي. وغرس فيسبوك، في هذه الحالة، إشارات خفية على شكل لغة عاطفية إيجابية أو سلبية، اجتمعت مع الحالة التحفيزية التي أثارها المقارنة الاجتماعية - "أريد أن أكون مثل أصدقائي" - لإنتاج تأثير معدّ قابل للقياس، وإن كان ضعيفًا. وأخيرًا، تشير وثيقة استهداف الإعلانات الأسترالية إلى خطورة الجهود المبذولة خلف الكواليس وتعقيدها لتعزيز هذا التأثير من خلال تحديد الشروط التحفيزية على مستوى مفصل. وهذا لا يكشف فقط عن حجم الفائض السلوكي ونطاقه لدى فيسبوك، بل يكشف أيضًا عن اهتمام الشركة باستغلال هذا الفائض لتحديد المد والجزر في استعداد المستخدم للاستهداف في الوقت الحقيقي من خلال الإشارات ذات العلامة التجارية التي يُرجّح أن تحقق نتائج

يوضح نجاح تجربة فيسبوك أن الضبط من خلال الاقتراح يمكن أن يكون شكلاً فعالاً من أشكال التحفيز عن بعد على نطاق واسع. لقد كان التهرب من الوعي الفردي والجماعي أمراً أساسياً لنجاح تعديل سلوك فيسبوك، تمامًا كما أشار ماكاي. وتحتفي الفقرة الأولى من البحث حول العدوى العاطفية بهذا التهرب: "يمكن نقل الحالات العاطفية إلى الآخرين بالعدوى العاطفية، مما يؤدي إلى تجربة الناس للمشاعر ذاتها دون وعي منهم". ولا يشك الشباب في مدن أستراليا الكبرى بأن من الممكن استغلال القياس الدقيق لمخاوفهم وتحيلاتهم لتحقيق نتائج تجارية في اللحظة التي يكونون فيها في أشد حالات ضعفهم.

هذا التهرب ليس صدفة ولا عَرَضِيًّا، بل هو الواقع الضروري لبنية مشروع رأسمالية المراقبة بأكمله. إن الوعي الفردي هو عدوّ التحفيز عن بعد لأنه الشرط الضروري لتعبئة الموارد المعرفية والوجودية. لا يوجد حكم ذاتي دون وعي. الاتفاق والاختلاف، المشاركة والانسحاب، المقاومة أو التعاون: لا يمكن لأيٍّ من هذه الخيارات ذاتية التنظيم أن توجد دون وعي.

تسلّط أبحاث كثيرة الضوء على مقدّمات التنظيم الذاتي للإنسان وظروفه وعواقبه وتحدياته باعتباره حاجة عالمية. وتُعتبر القدرة على تقرير المصير أساساً ضرورياً لسلوكيات كثيرة تربطها بالقدرات الأساسية مثل التعاطف والإرادة والتأمل وتطوير الشخصية والأصالة والنزاهة والتعلّم وتحقيق الأهداف والتحكّم في الانفعالات والإبداع واستدامة العلاقات الحميمة الدائمة. ويقول أستاذ جامعة ولاية أوهايو ديلان فاغنر، وأستاذ جامعة دارتموث تود هيثرتون، في مقالة عن مركزية الوعي الذاتي في تقرير المصير: "تتضمّن هذه العملية ذاتاً تحدّد الأهداف والمعايير، وتعي أفكارها وسلوكياتها، ولديها القدرة على تغييرها، في الواقع، اقترح بعض المنظرين أن الغرض الأساسي من الوعي الذاتي هو تمكين التنظيم الذاتي". يبدأ كل تهديد لاستقلال الإنسان بهجوم على الوعي، "تمزيق قدرتنا على تنظيم أفكارنا، وعواطفنا،

ثمة عمل لباحثين من جامعة كامبريدج قاموا بتطوير مقياس لقياس "قابلية الشخص للإقناع" أكدوا فيه على أهمية الوعي الذاتي كحصن ضد الفشل في التنظيم الذاتي. ووجدوا أن العامل المهم في تحديد قدرة الشخص على مقاومة الإقناع هو ما يسمونه "القدرة على التخطيط المُسبق". (818) وهذا يعني أن الأشخاص الذين يستغلون الوعي الذاتي للتفكير في عواقب أفعالهم هم أكثر استعدادًا لرسم مسارهم الخاص، وأقل عرضة بشكل كبير لأساليب الإقناع. ويأتي الالتزام أيضًا، في المرتبة الثانية من حيث الأهمية، بعد الوعي. فالأشخاص الملتزمون بوعي بمسار عمل أو مجموعة مبادئ أقل عرضة للاقتناع بفعل ما ينتهك هذا الالتزام.

رأينا بالفعل أن الديمقراطية تهدد عائدات المراقبة. وتشير ممارسات فيسبوك إلى استنتاج يثير القلق بالقدر نفسه: يشكّل الوعي البشري في حد ذاته تهديدًا لعائدات المراقبة، لأن الوعي يعرّض المشروع الأكبر المتمثل في تعديل السلوك للخطر. يُعرّف الفلاسفة "التنظيم الذاتي" و"تقرير المصير" و"الاستقلال الذاتي" بأنها "حرية الإرادة". كلمة "استقلال ذاتي" (autonomy) مشتقة من اليونانية وتعني حرفيًا "تنظيم الذات". وهذا يتناقض مع مبدأ التبعية، الذي يعني "التنظيم من قبل الآخرين". وتعني الضرورة التنافسية لاقتصاديات الأداء أنه يتوجب على رأسمالي المراقبة أن يستخدموا الوسائل المتاحة كلها لاستبدال العمل المعتمد على تنظيم الآخرين بالعمل المستقل.

(817) ديلان د. فاغنر وتود ف. هيثرتون، "التنظيم الذاتي وفشله: التهديدات السبعة المميتة للتنظيم الذاتي"، في دليل الجمعية الأمريكية للشخصية وعلم النفس الاجتماعي (واشنطن العاصمة: الجمعية الأمريكية لعلم النفس، 2015)، 805-842؛ وليام م. كيلي، وديلان د. فاغنر، وتود ف. هيثرتون، "البحث عن نظام إنساني للتنظيم الذاتي"، المراجعة السنوية لعلم الأعصاب 38، العدد 1 (2015): 389-411. (818) ديفيد موديك وروس ج. أندرسون، "سنجعلك تُعجب ببحثنا: تطوير مقياس قابلية الإقناع" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 28 أبريل/ نيسان 2014). انظر أيضًا ماهيش جوبيناث وبراشانت يو. ناير، "تأثير الالتزام العام على عملية تغيير المواقف: آثار اليقين في المواقف، وقشرة الفص الجبهي، وشبكة أبحاث العلوم الاجتماعية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 29 أغسطس/ آب 2007).

بمعنى ما، ليس هناك ما هو جدير بالاهتمام في ملاحظة أن الرأسماليين يفضلون الأشخاص الذين يوافقون على العمل والاستهلاك بالطرق التي تحقق أكبر قدر من الفائدة لرأس المال. وللحصول على أمثلة وفيرة عن هذه الحقيقة الواضحة، نحتاج فقط أن نأخذ بعين الاعتبار الدمار الذي خلفه الرهن العقاري الثانوي الذي ساهم في إشعال فتيل الأزمة المالية الكبرى عام 2008، أو ننظر إلى إهانات الاستقلال البشري اليومية على أيدي عدد كبير من الشركات بدءًا بالطيران وانتهاء بالتأمين.

على الرغم من ذلك، من الخطير ترسيخ فكرة أن رأسمالي المراقبة اليوم لا يمثلون سوى المزيد من الشيء نفسه. هذا المطلب الهيكلي لاقتصاديات الأداء يتحوّل وسائل تعديل السلوك إلى محرك للنمو. ولم يسبق، في أي وقت مضى، أن استمتعت الشركات الخاصة ذات الثروة والقوة غير المسبوقة بالممارسة الحرة لاقتصاديات العمل المدعومة بهندسة عالمية شاملة من المعرفة الحاسوبية الشاملة والتحكّم الذي تم بناؤه وصيانته من خلال المعرفة العلمية المتقدمة التي يمكن شراؤها بالمال مثلما يحدث الآن.

الأمر الأكثر وضوحًا هو أن تصريح فيسبوك عن السلطة التجريبية يدّعي امتيازات رأسمالي المراقبة على المسار المستقبلي لسلوك الآخرين. ومن خلال التصريح بالحق في تعديل الأداء البشري سرًا، وبهدف الربح، فإن رأسمالية المراقبة تنفينا فعليًا عن سلوكنا، وتحوّل موضع السيطرة على الزمن المستقبلي من حالة "سأفعل" إلى حالة "ستفعل". قد يتبع كل واحد منا مسارًا مميزًا، لكن اقتصاديات العمل تضمن أن المسار يتشكل بالفعل من خلال الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة. لم يعد الصراع على السلطة والسيطرة في المجتمع مرتبطًا بالحقائق الخفية للطبقة وعلاقتها بالإنتاج، بل بالحقائق الخفية لتعديل السلوك الهندسي الآلي.

3- بوكيمون غو!

ياله من يوم مرهق للغاية من شهر يوليو/ تموز عام 2016. كان ديفيد يشرف على ساعات من الإدلاء بشهادات التأمين المثيرة للجدل في قاعة محكمة كثيفة الغبار في نيوجرسي، حيث أدّى ارتفاع مفاجئ بالتيار الكهربائي في الليلة السابقة إلى تعطيل

نظام تكييف الهواء الضعيف في المبنى. ثم تحوّلت رحلة العودة المتقطّعة إلى المنزل يوم الجمعة إلى لعنة بسبب وجود سيارة واحدة عطلتها الحرارة التي حوّلت تدفق حركة المرور إلى كارثة، بعد أن كانت في السابق مصدر أمل. وأخيرًا وصل إلى منزله، وأدخل السيارة إلى المرآب واتجه مباشرة إلى الباب الجانبي الذي يفتح على غرفة الغسيل والمطبخ خلفه. لسعه الهواء البارد وكأنه يغوص في المحيط، ولأول مرّة في هذا اليوم أخذ نفسًا عميقًا. رأى على المنضدة ورقة تشير إلى أن زوجته ستعود بعد بضع دقائق. شرب كوبًا من الماء، وأعدّ لنفسه مشروبًا ساخنًا، وصعد اندرج نحو الأعلى ليأخذ حمامًا طويلًا ساخنًا.

رنّ جرس الباب في اللحظة التي لامس فيها الماء الدافئ عضلات ظهره المتألمة. هل نسيت مفتاحها؟ تخلّى عن فكرة الاستحمام وارتدى قميصًا وشورتًا وأسرع إلى الطابق السفلي، وفتح الباب الأمامي ليجد مراقبين يلوّحان بهاتفيهما في وجهه. "مرحبًا، لديك بوكيمون في حديقتك. إنه لنا! هل توافق على دخولنا إلى هناك لأخذه؟"

"ماذا؟" لم يكن لديه أي فكرة عما كانوا يتحدثون عنه، لكنه كان يوشك أن يتعلّم شيئًا.

رنّ جرس باب منزله أربع مرات أخرى في ذلك المساء: غرباء يتوقون للدخول إلى فناء منزله، وشعروا بالاستياء عندما طلب منهم المغادرة. طوال الأيام والأمسيات التي تلت ذلك، تشكّلت مجموعات من الباحثين عن البوكيمون في حديقته الأمامية، بعضهم صغار السن، وبعضهم لم يعد يأبه بعذر كهذا منذ فترة طويلة. حيث رفعوا هواتفهم، وأشاروا إليها وصرخوا بينما كانوا يتفحصون منزله وحديقته بحثًا عن مخلوقات "الواقع المعزز". عندما ينظرون إلى هذه الشريحة الصغيرة من العالم عبر هواتفهم، يمكنهم رؤية فريسة البوكيمون الخاصة بهم، لكن على حساب كل شيء آخر. لم يتمكّنوا من رؤية منزل عائلة، ولا حدود اللباقة التي جعلت منه ملاذًا لرجل وامرأة يعيشان فيه. بل استولت اللعبة على المنزل والعالم المحيط به، وأعادت تفسير ذلك كله في معادلة واسعة النطاق لإحداثيات نظام تحديد المواقع العالمي (GPS). كان

هناك نوع جديد من التأكيد التجاري: إعلان ربحي للاستيلاء على الممتلكات، حيث يتم إعادة صياغة الواقع باعتباره مساحة غير محدودة من المساحات الفارغة التي يجب استغلالها لإثراء الآخرين. تساءل ديفيد: متى ينتهي هذا؟ ما الذي يمنحهم الحق؟ بمن أتصل لأوقف ذلك؟

دون أن يعرف ذلك، كما انتزع الآن من حمامه كان قد انضم سابقاً إلى القرويين في بروتون بإنكلترا، الذين خرجوا إلى شوارعهم في عام 2009 احتجاجاً على غزو سيارات كاميرا ستريت فيو التابعة لشركة غوغل. ومثلهم، دُفِعَ فجأة إلى المنافسة مع الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة، ومثلهم أيضاً، سيفهم قريباً أنه لا وجود لرقم يمكن الاتصال به، ولا رقم 911 لإبلاغ السلطات المختصة على وجه السرعة بأن خطأ فظيماً قد ازدهر في حديقة منزله.

في عام 2009، كما رأينا في الفصل الخامس، تجاهل نائب رئيس قسم منتجات خرائط غوغل، ورئيس قسم "ستريت فيو"، جون هانك، احتجاجات بروتون، مشدداً على أنه هو وشركة غوغل وحدهما يعرفان ما هو الأفضل للناس جميعاً وليس فقط لمنطقة بروتون. وها هو هانك الآن عند الحدود التالية لرأسمالية المراقبة، وهذه المرة بصفته مؤسس الشركة التي تقف وراء لعبة "بوكيمون غو"، شركة نيانتك لابز (Niantic Labs). ربما تتذكر أنه كان لدى هانك تصميم راسخ على امتلاك العالم من خلال رسم خريطته. فقد كان هو من أسس شركة "كي هول" (Keyhole)، الشركة الناشئة لرسم الخرائط عبر الأقمار الصناعية، والتي مولتها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ثم استحوذت عليها شركة غوغل فيما بعد وأطلقت عليها اسم "غوغل إيرث". وفي شركة غوغل، كان نائباً لرئيس خرائط غوغل، وأحد المشاركين الرئيسيين في مساعيها المثيرة للجدل للسيطرة على المساحات العامة والخاصة من خلال مشروع "ستريت فيو".

يقول هانك إن لعبة "بوكيمون غو" وُلِدَت من خرائط غوغل، والتي جاء منها

أيضًا الجزء الأكبر من فريق التطوير الأصلي للعبة.⁽⁸¹⁹⁾ في الواقع، انضم المهندس الغامض في تطبيق "ستريت فيو"، ماريوس ميلنر، إلى هانك في هذه المرحلة الجديدة من التوغل. وفي مطلع عام 2010، أنشأ هانك منصة الإطلاق الخاصة به، منصة "نيانتيك لابس"، داخل الشركة الأم، شركة غوغل. كان هدفه تطوير ألعاب "الواقع الموازي" التي تعمل على تتبع الأشخاص وتوجيههم عبر المناطق ذاتها التي ادعى موقع "ستريت فيو" بجرأة أنها ملك لخرائطه. وفي عام 2015، وبعد إنشاء بنية شركة "ألفايت"، وبعد تطوير لعبة "بوكيمون غو" بوقت طويل، تم تأسيس شركة "نيانتيك لابس" رسميًا باعتبارها شركة مستقلة بتمويل قدره 30 مليون دولار من شركة غوغل وشركة "نيتيندو" (Nintendo) (الشركة اليابانية التي استضافت لعبة "بوكيمون" الأصلية على أجهزتها "غيم بوي" (Game Boy) في أواخر التسعينات) وشركة "بوكيمون".⁽⁸²⁰⁾

لقد أدرك هانك منذ فترة طويلة قوة بنية اللعبة كوسيلة لتحقيق اقتصاديات الأداء. وبينما كان لا يزال يعمل في غوغل، قال في مقابلة له: "أكثر من 80٪ من الأشخاص الذين يمتلكون جهازًا محمولًا يزعمون أنهم يلعبون ألعابًا على أجهزتهم... غالبًا ما تكون الألعاب هي النشاط رقم 1 أو رقم 2... ونحن نعتقد، في نظام تشغيل أندرويد، وكذلك في غول، أن من المهم بالنسبة إلينا أن نبتكر، وأن نكون روادًا في مستقبل الألعاب الإلكترونية".

من الجدير بالذكر أن هانك اختار تسمية مجموعته نسبة إلى سفينة تجارية شرعية تعود إلى القرن التاسع عشر، وتعثرت بسبب الجشع. ثم بيعت سفينة "نيانتيك" وأعيد استخدامها في صيد الحيتان الأكثر ربحًا، عندما أبحرت إلى سان فرانسيسكو ومناطق صيد الحيتان شمال المحيط الهادئ عام 1849. وتوقف قبطان السفينة في بنها، خارج مخطط الرحلة، لنقل مئات الحجاج المتجهين إلى كاليفورنيا بحثًا عن الذهب، وكانوا

(819) انظر دياني سابين، "التاريخ السري للعبة بوكيمون جو كما رواها منشئ اللعبة"، إنفريس، 28 فبراير/شباط 2017.

(820) تيم برادشو، "الرجل الذي وضع لعبة بوكيمون غو" على الخريطة"، فاينانشال تايمز، 27 يوليو/تموز 2016.

جميعًا مستعدين لدفع مبالغ كبيرة مقابل إقامة سيئة في أماكن ضيقة ذات رائحة كريهة على متن السفينة. وثبت أن جشع القبطان كان قاتلاً لمستقبل السفينة عندما قام هؤلاء الركاب بنقل عدوى حمى الذهب إلى طاقم السفينة. وتخلّى البحارة عن القبطان والسفينة عن رسوها في سان فرانسيسكو، وتوجّهوا إلى بلاد الذهب. ولعدم تمكّنه من مواصلة الرحلة، اضطرّ القبطان إلى بيع السفينة بمبلغ زهيد، وتركها عالقة في المياه الضحلة الرملية مقابل شارعي "كلاي" و"مونتغمري" الآن. وفي عام 2016، تولّى هانك مهمة ذلك الطاقم المتمرد. كانت سفينة "نيانتك" الخاصة به متجهة نحو حمى ذهب القرن الجديد، على أعتاب الموجة التالية من غزو حتمية التنبؤ: اقتصاديات الأداء.

في يوليو/تموز 2016، أطلق هانكي لعبة "بوكيمون غو" كإجابة مختلفة عن السؤال الذي يواجه المهندسين والعلماء الذين يشكلون مشروع رأسمالية المراقبة: كيف يمكن تحفيز السلوك البشري بسرعة وعلى نطاق واسع، ودفعه نحو نتائج مضمونة؟ وفي أوج انتشارها في صيف عام 2016، كانت اللعبة بمثابة حلم تحقق لرأسمالية المراقبة، حيث جمعت بين الحجم والنطاق والعمل؛ وأسفرت عن مصادر مستمرة للفائض السلوكي؛ ووفّرت بيانات جديدة لتحسين رسم الخرائط للمساحات الداخلية والخارجية والعامة والخاصة. والأهم من ذلك هو أنها وفّرت مختبراً حياً لتحفيز واسع النطاق عن بعد، حيث تعلّم أصحاب اللعبة كيفية تكييف السلوك الاجتماعي وتوجيهه بشكل تلقائي، وتوجيهه نحو مجموعات من أسواق العقود الآجلة السلوكية في الوقت الحقيقي، مع إنجاز كل هذا خارج نطاق الوعي الفردي. من الممكن في نهج هانك تحقيق اقتصاديات الأداء من خلال ديناميكيات اللعبة.

صمّمت نيانتك اللعبة الجديدة لكي تُلعب في العالم الحقيقي، وليس على الشاشة. الفكرة هي أن ينطلق اللاعبون في مغامرات سيرًا على الأقدام في المساحات المفتوحة للمدن والبلدات والضواحي.⁽⁸²¹⁾ تعتمد اللعبة على "الواقع المعزز"، ومُصمّمة على

(821) جون هانك، في "إس إكس إس دبليو" 2017: سنعلن عن منتجات جديدة في الحدث القادم! بوكيون غو هاب، 10 مارس 2017.

غرار لعبة البحث عن الكنز. بمجرد تحميل التطبيق من موقع نيانتك، يمكنك استخدام نظام تحديد المواقع العالمي (GPS)، وكاميرا هاتفك الذكي لاصطياد مخلوقات افتراضية تسمى بوكيمون. تظهر الأشكال على شاشة هاتفك الذكي كما لو أنها إلى جانبك في محيطك الحقيقي: حديقة خلفية لرجل غير متوقع، أو شارع في المدينة، أو مطعم بيتزا، أو حديقة، أو صيدلية. ويكافأ صيد البوكيمون بعملات من ضمن اللعبة، وحلوى، وشعور كاريزمي، وهي أشياء تُستخدم لمحاربة لاعبين آخرين. والهدف النهائي هو صيد مجموعة كاملة من 151 بوكيمون، لكن اللاعب يكتسب "نقاط خبرة" على طول طريقه، ويرتقون مستويات متتالية من الخبرة. وفي المستوى الخامس، يمكن للاعبين الانضمام إلى أحد الفرق الثلاث لمحاربة البوكيمون في مواقع مخصصة يشار إليها باسم "الصالات الرياضية".

بدأت عملية تطوير هذه اللعبة قبل سنوات مع لعبة "إنغريس" (Ingress)، وهي أول لعبة على هاتف محمول من شركة "نيانتك"، مصممة لتلعب في العالم الحقيقي. وصدرت لعبة "إنغريس" في عام 2012، وكانت بمثابة مقدمة ومنصة اختبار للقدرات والأساليب التي من شأنها أن تحدد لعبة "بوكيمون غو". كانت اللعبة تدفع مستخدميها عبر مدنهم وبلداتهم للعثور على "بوابات" محددة، والتحكم فيها، والاستيلاء على "أراضٍ" حيث اعتمد أسياد اللعبة على نظام تحديد المواقع العالمي (GPS) لتتبع تحركات المستخدمين ورسم خريطة للأراضي التي يتجولون فيها.

تأمل هانك فيما تعلّمه وفريقه من لعبة "إنغريس". وكان أهم شيء هو "تفاجؤ" فريق نيانتك لدى ملاحظتهم مدى "تغيّر سلوك اللاعبين".⁽⁸²²⁾ حيث أدرك هانك أن بذور تعديل السلوك مغروسة في قواعد اللعبة والديناميكيات الاجتماعية: "إذا كنت تريد أن تنقل العالم إلى لوحة لعبتك، فينبغي أن تتمتع الأماكن التي تريد أن يتفاعل الناس معها بخصائص معينة.... ينبغي أن يكون هناك سبب يدفع اللاعب للذهاب إلى هناك.... تمكّنهم اللعبة وتحثهم على إجراء هذه التفاعلات".⁽⁸²³⁾ يقدم

(822) ساين، "التاريخ السري للعبة بوكيمون غو".

(823) ويبر وهانك، "الواقع كساحة لعب افتراضية".

أحد المستخدمين الذي كان اسمه أثناء تسجيله في لعبة "إنغريس" هو "سبوتيسود" مثلاً: "أثناء عودتي إلى المنزل على درّاجتي، توقفت قرب موقع استكشفتة سابقاً، وكان يحتوي على بوابة عدو ضعيفة. أشنّ الهجوم مستخدماً مادة غريبة (مركب XM) لتدمير بنية العدو التحتية.... وعلى برنامج الدردشة المدمج في لعبة "إنغريس"، أشاد لاعبٌ يدعى "إيغاشو" بعلمي. وقال: "أحسنت يا سبوتيسود". شعرت بالفخر ومضيت قدماً، وأنا أخطط لهجومى التالي على بوابات العدو".⁽⁸²⁴⁾ ووفقاً لهانك، سوف يُعاد تصميم لعبة "بوكيمون غو" للاستفادة مما فهمه الفريق الآن باعتباره المصادر الرئيسة لتحفيز اللاعبين على تغيير سلوكهم: مجتمع ألعاب اجتماعي يعتمد على العمل في العالم الحقيقي.⁽⁸²⁵⁾

تحدد جميع الألعاب السلوك بقواعد معيّنة، فتكافئ بعض الأفعال وتعاقب غيرها، ولا تُعدّ شركة "ناينتك" أول شركة تستخدم بنية اللعبة كوسيلة لإحداث تغيير في سلوك لاعبيها. وباعتبار أن "اللعبة" في الواقع نهجاً للهندسة السلوكية، فهي تشكّل موضوعاً بالغ الأهمية أنتج أعمالاً أكاديمية وشعبية قوية.⁽⁸²⁶⁾ ووفقاً للأستاذ في جامعة "وارتون"، كيفن ويرباتش، تتضمن الألعاب ثلاثة مستويات من العمل. توجد على أعلى مستوى "الديناميكيات" التي تحرك الطاقة التحفيزية للعبة. قد تكون هذه العواطف ناتجة عن المنافسة أو الإحباط، أو قصة مؤثرة، أو بنية تقديمية تُنشئ تجربة التطوّر نحو هدف أسمى، أو علاقات تُولّد مشاعر مثل روح الفريق أو العدوانية. ثم تأتي "الآليات". هذه هي اللبنات الأساسية الإجرائية التي تحرك العمل وتبني المشاركة أيضاً. على سبيل المثال، يمكن تنظيم اللعبة على شكل منافسة أو تحدٍ فردي،

(824) انظر هال هودسون، "لماذا تعتبر لعبة غوغل إنغريس منجماً ذهبياً للبيانات"، مجلة نيو ساينتست، 28 سبتمبر/ أيلول 2012.

(825) ساين، "التاريخ السري للعبة بوكيمون غو".

(826) ريان وينيا، "معسكر تدريبي لتصميم السلوك مع الدكتور بي جي فوغ من جامعة ستانفورد"، تكنوري، 19 أكتوبر 2012؛ ريان وينيا، "معسكر تدريبي لتصميم السلوك مع الدكتور بي جي فوغ: اليوم الثاني"، تكنوري، 22 أكتوبر 2012. أقر الباحث بي جي فوغ من جامعة ستانفورد في كتابه "التكنولوجيا المقنعة" الصادر عام 2003 بأن مصممي ألعاب الحاسوب يسعون إلى تغيير سلوكيات الناس من خلال التكيف على طريقة سكينر، وخلص إلى أن "اللعبة الجيدة والتكليف الإجرائي الفعال يترافقان جنباً إلى جنب.

أو تبادل الأدوار والتعاون، أو المعاملات حيث يأخذ الفائز كل شيء، أو الرياضة الجماعية أو الغزو الفردي. وأخيرًا، هناك "مكونات" اللعبة التي تُفَعَّل آلياتها. هذه هي أبرز جوانب اللعبة: النقاط التي تُمَثَّل التقدم، والمهام المُعدّة كتحديات مُحدّدة مُسبقًا، والشارات التي تُمَثَّل الإنجازات، و"لوحات المتصدرين" التي تعرض تقدّم جميع اللاعبين بصريًا، و"معارك الزعماء" التي تُشير إلى ذروة المرحلة. وهكذا.⁽⁸²⁷⁾

تخلص معظم الأبحاث حول الألعاب إلى أن هذه الهياكل يمكن أن تكون فعالة في تحفيز العمل، ويتوقع الباحثون عمومًا أن يزداد استخدام الألعاب بوصفها منهجية اختيار لتغيير السلوك الفردي.⁽⁸²⁸⁾ وهذا يعني عمليًا استغلال قوة الألعاب في تغيير السلوك دون خجل، مع انتشار تطبيقات الألعاب على آلاف المواقع التي لا تريد الشركة منها سوى ضبط سلوك عملائها أو موظفيها وتوجيهه وتكييفه نحو أهدافها الخاصة. وعادة ما يتضمّن ذلك استيراد بعض المكونات، مثل نقاط المكافأة ومستويات التقدّم، من أجل هندسة السلوكيات التي تخدم المصالح المباشرة للشركة، من خلال برامج مثل مخططات ولاء العملاء أو مسابقات المبيعات الداخلية. وقد أجرى أحد المحللين مسحًا لأكثر من تسعين حالة من حالات "تطبيقات الألعاب" هذه، مع إحصاءات حول العائد على الاستثمار.⁽⁸²⁹⁾ ويصرّ إيان بوغوست، أستاذ

(827) كيفن ويرباتش، "(إعادة) تعريف للعبة: نهج العملية"، في التكنولوجيا الإقناعية، محاضرات في علوم الحاسوب، المؤتمر الدولي حول التكنولوجيا الإقناعية (شام، سويسرا: سبرينغر، 2014)، 266-272؛ كيفن ويرباتش ودان هانتر، من أجل الفوز: كيف يمكن للتفكير في اللعبة أن يُحدث ثورة في عملك (فيلادلفيا: وارتن، 2012).

(828) مايكل سيلر وآخرون، "كيف تُحفّز تطبيقات الألعاب مجالات أخرى: دراسة تجريبية لتأثيرات عناصر تصميم ألعاب مُحدّدة على إشباع الحاجات النفسية"، الحواسيب في السلوك البشري 69 (أبريل 2017): 371-80؛ ج. هاماري، ج. كوفيفستو، وه. سارسا، "هل استخدام تطبيقات الألعاب في مجالات أخرى عملية فعّالة؟ - مراجعة أدبية للدراسات التجريبية حول استخدام تطبيقات الألعاب في مجالات أخرى"، في المؤتمر الدولي السابع والأربعين لهاواي حول علوم النظام. 2014. 3025-34؛ كارينا سوليداد غونزاليس وألبرتو مورا كارنيو، "اقترح منهج لتطبيقات الألعاب في تدريس هندسة الحاسوب"، ندوة دولية حول الحواسيب في التعليم عام 2014، 1-34؛ ديك شويش وآخرون. "اللعبة لتغيير السلوك: دروس من تطوير لعبة وقائية اجتماعية متعددة المستخدمين تعتمد على الويب والحاسوب اللوحي للشباب"، مجلة التكنولوجيا في الخدمات الإنسانية 31، رقم 3 (2013): 197-217.

(829) يو كاي تشو، "قائمة شاملة لأكثر من 90 حالة من حالات تطبيقات الألعاب، مع إحصائيات عائد الاستثمار"، يو كاي تشو: تطبيقات الألعاب والتصميم السلوكي، 23 يناير 2017.

الحوسبة التفاعلية في معهد جورجيا للتكنولوجيا، ومراقب الثقافة الرقمية، على أنه يُفترض أن تُطلق على هذه الأنظمة صفة "البرامج الاستغلالية" وليس ألعاباً لأن هدفها الوحيد هو التلاعب بالسلوك وتعديله.⁽⁸³⁰⁾

أخذت لعبة "بوكيمون غو" هذه القدرات إلى اتجاه جديد تماماً، حيث قامت بتشغيل اللاعبين عبر العالم الحقيقي، لكن ليس من أجل اللعبة التي يعتقدون أنهم يلعبونها. إذ تكمن عبقرية هانك الفريدة من نوعها في قدرته على توجيه جهود تعديل السلوك في اللعبة نحو هدف يشغل منطقة غير مستكشفة خارج حدود وعي اللاعبين. إنها تهدف إلى تشكيل السلوك في لعبة أكبر من رأسالية المراقبة.

كُشِفَ عن لعبة "بوكيمون غو" للمرة الأولى لصحيفة "ول ستريت جورنال" في سبتمبر/ أيلول عام 2015، بعد وقت قصير من إطلاق "نيانتك" التابعة لشركة غوغل. وأخبر مطورو اللعبة المراسل أن اللعبة لن تتضمن إعلانات. بل ستجمع إيراداتها من "معاملات صغيرة"، وهي على الأرجح عمليات شراء داخل اللعبة لأدوات افتراضية، مع أن نيانتك "امتنعت عن الإفصاح" عن العناصر المعروضة للبيع تحديداً. ووعدت شركة نيانتك بإنتاج سوار يوضع باليد لتتبع الموقع "يهتز" ويضيء" عندما يقترب مرتديه من أحد البوكيمونات. كان واضحاً أن لعبة "بوكيمون غو" ستكون على الأقل مصدراً جديداً للفائض السلوكي لتدقيق الخرائط التي تعتمد عليها اللعبة وتوسيعها.⁽⁸³¹⁾

أُطْلِقَت اللعبة في الولايات المتحدة وأستراليا ونيوزيلندا في 6 يوليو/ تموز 2016، وأصبحت خلال أسبوع واحد، التطبيق الأكثر تحميلاً، والأعلى ربحاً، وحققت بسرعة عدد مستخدمين نشطين على نظام أندرويد مثل عدد مستخدمي تويتر. وكانت

(830) إيان بوغوست، "الألعاب الإقناعية: برامج الاستغلال"، كاماستوترا، 3 مايو/ أيار 2011؛ آدم ألتر، لا يقاوم: صعود التكنولوجيا المسببة للإدمان والعمل على إبقائنا مدمنين (نيويورك: بنغوين، 2017).
(831) جيسيك كونديت، "سوار بوكيمون غو بلس رائع للطحن"، إنغادجيت، 17 سبتمبر 2016؛ سارة إي. نيدلمان، "بوكيمون جو تريد نقل معارك الوحوش إلى الشوارع"، وول ستريت جورنال، 10 سبتمبر 2015؛ باتينس هاغن، "شركة ألفابت الناشئة تحصل على تمويل للعبة بوكيمون الواقع المعزز"، وول ستريت جورنال، 26 فبراير 2016.

أكثر من 60٪ من عمليات تنزيل التطبيق هي في الاستخدام اليومي، وبحلول 8 يوليو/ تموز، تُرجمَ هذا إلى متوسط يومي يبلغ حوالي 43.5 دقيقة لكل مستخدم.⁽⁸³²⁾ ومع الضغوط التي تعاني منها خوادم نيانتك، تأخر إطلاق اللعبة في أوروبا حتى 13 يوليو/ تموز. لكن بحلول ذلك الوقت، أثبتت شركة نيانتك قيمة نهجها في التعامل مع اقتصاديات الأداء، حيث أظهرت فاعلية غير مسبقة في اجتياز تلك المسافة الأخيرة المتعبة نحو تحقيق نتائج مضمونة.

كان النمط غير المسبوق ظاهرًا بشكل طفيف في غضون أيام من إطلاق اللعبة. قدّمت إحدى الحانات في ولاية فيرجينا تخفيضًا خاصًا لفريق بوكيمون غو؛ كما قدّم أحد مقاهي الشاي للاعبين اللعبة في سان فرانسيسكو عرضًا مفاده "اشترِ واحدًا واحصل على الآخر مجانًا".⁽⁸³³⁾ ودفع مالك مطعم بيتزا في منطقة كوينز في نيويورك حوالي عشرة دولارات مقابل "وحدات الإغراء"، وهي عبارة عن أدوات افتراضية تهدف إلى جذب البوكيمون إلى موقع محدد، وقد نجحت في إنتاج مخلوقات افتراضية على كراسي المطعم، وضمن الحمامات. خلال عطلة نهاية الأسبوع الأولى من اللعب، ارتفعت مبيعات الأطعمة والمشروبات في المطعم بنسبة 30٪، وأفيد لاحقًا أنها كانت أعلى من المتوسط بنسبة 70٪. وأشاد مراسلو بلومبرغ باللعبة التي حققت حلم تجار التجزئة المتمثل في استخدام تتبع الموقع لزيادة حركة المشاة: "من السهل أن نتخيل مطورًا يبيع إعلانات داخل عالم اللعبة للتجار المحليين، أو حتى يبيع بالزاد وعدًا بتحويل متاجر ومطاعم محددة إلى وجهات للاعبين".⁽⁸³⁴⁾ وألح هانك، في تصريح لصحيفة نيويورك تايمز، إلى أن هذه الأسواق الحقيقية في العالم الحقيقي، وفي الوقت

(832) جوزيف شوارتز، "خمس مخططات توضح نمو لعبة بوكيمون غو في الولايات المتحدة"، مدونة Similarweb، 10 يوليو 2016.

(833) نيك وينغفيلد ومايك إسحاق، "بوكيمون غو تقدم الواقع المعزز لجمهور واسع"، نيويورك تايمز، 11 يوليو/ تموز 2016.

(834) بولي موسيندز ولوك كاوا، "بوكيمون غو تجلب المال الحقيقي إلى المقاهي والحانات العشوائية، بلومبرغ دوت كوم، 11 يوليو 2016؛ أبيغل جيبتر، ياسمين روزا. وصوفيا روزنباوم، "هناك بوكيمون في مطعمي، والأعمال التجارية مزدهرة"، نيويورك بوست، 12 يوليو 2016؛ جيك ويتنبرغ، "بوكيمون غو تنقذ متجر آيس كريم متعثر في واشنطن"، KSDK، 9 أغسطس 2016.

الحقيقي، كانت هي الخطة منذ البداية. وذكرت الصحيفة أن "شركة نيانتك أبرمت صفقات مثل تلك الخاصة بلعبة إنغرس، وأضاف هانكي أن الشركة ستعلن عن المواقع التي ترعاها للعبة بوكيمون جو في المستقبل". (835)

سرعان ما أتى المستقبل. ففي غضون أسبوع، كانت العناصر الأساسية لمنطق التراكم في رأسالية المراقبة جاهزة، وتباهوا بها باعتبارها رائعة. وكما أوضح هانك، "تعتمد اللعبة على قدر كبير من تكنولوجيا الهواتف المحمولة والبيانات الحديثة لتشغيل الواقع المعزز، لكن حركة المرور التي تولدها اللعبة تغير أيضًا ما يحدث في العالم الحقيقي". (836) بحلول الثاني عشر من يوليو/ تموز، أعلنت صحيفة فاينانشال تايمز عن فرحتها بسبب تصاعد "التكهّنات حول القوة المستقبلية للعبة باعتبارها بقرة حلوبًا لتجار التجزئة وغيرهم من المتعطشين لكثرة الزبائن". وارتفعت أسهم شركة "نيتندو" بنسبة 5.2٪، مضيفة 10.2 مليار دولار إلى قيمتها السوقية. (837)

تبين أن الوعود السابقة بأن اللعبة لن تعرض إعلانات كانت مجرد ادعاء فني يتطلب تحليلًا دقيقًا. في الواقع، لم يختفِ منطق الإعلانات الإلكترونية القائم على المراقبة، بل تحوّل إلى صورة طبق الأصل من العالم المادي، تمامًا كما تحيل دان دوكتوروف، من شركة "سايد ووك لابس"، "مدينة غوغل"، وهي امتداد دقيق للأساليب والأهداف التي صُقلت في العالم الإلكتروني، لكنها الآن مُضخّمة في "الواقع" تحت ضغط حتمية التنبؤ (انظر الفصل السابع).

اعترف هانك لصحيفة فاينانشال تايمز في 13 يوليو أنه بالإضافة إلى "المدفوعات داخل التطبيق" لمجموعة الألعاب، "هناك عنصر ثانٍ لنموذج أعمالنا في "نيانتك"، وهو مفهوم المواقع التي ترعاها". وأوضح أن مصدر الإيرادات الجديد هذا كان ضمن الخطة دومًا، مشيرًا إلى أن الشركات "ستدفع لنا مقابل أن نشكّل مواقع داخل

(835) وينغفيلد وإسحاق، "بوكيمون غو يجلب الواقع المعزز".

(836) 4 سابين، "التاريخ السري للعبة بوكيمون غو".

(837) تيم برادشو وليو لويس، "يستعدّ المعلنون لجزء من لعبة بوكيمون غو"، فاينانشال تايمز، 13 يوليو/ تموز 2016؛ جاي وونغ، "هوس بوكيمون يُحقّق أرباحًا طائلة لبنك كيوتو"، وول ستريت جورنال، 12 يوليو/ تموز 2016.

لوحة اللعبة الافتراضية - على أساس أن هذا حافز يؤثر على حركة المشاة". وأوضح هانك أنهم سيفرضون رسومًا على هؤلاء الرعاة على أساس "التكلفة لكل زيارة"، وهو ما يشبه "التكلفة لكل نقرة" المستخدمة في إعلانات بحث غوغل.⁽⁸³⁸⁾

إن مفهوم "المواقع الخاضعة للرعاية" هو تعبير ملطف لأسواق العقود الآجلة السلوكية لشركة "نيانتك"، التي كانت بمثابة النقطة صفر في اندفاع هانك الذهبي الجديد. تعمل عناصر اللعبة وديناميكياتها، إلى جانب تكنولوجية الواقع المعزز الجديدة، على حشد مجموعات من لاعبي اللعبة من خلال نقاد تحقيق الربح في العالم الحقيقي، التي يشكلها عملاء اللعبة الفعليون: الكيانات التي تدفع للعب على لوحة اللعبة في العالم الحقيقي، والتي يغريها الوعد بنتائج مضمونة.

بدا لفترة من الوقت وكأن الجميع يجنون الأموال. أبرمت نيانتك اتفاقية مع مكدونالدز لجذب مستخدمي الألعاب إلى فروعها اليابانية البالغ عددها 30 ألف فرع. وكلف مالك مركز تسوق بريطاني فرق شحن بالتجول في مراكزه التجارية حاملين أجهزة شحن محمولة لمستخدمي اللعبة. وأعلنت ستاربكس أنها ستشارك في المرح، حيث أصبح 12000 متجر من متاجرها في الولايات المتحدة "محطات بوكيستوبس" أو "صالات رياضية" رسمية، بالإضافة إلى مشروب "بوكيمون غو فراوتشينو" الجديد... المكافأة المثالية لأي مدرب بوكيمون أثناء التنقل. ومن المتوقع أن يؤدي اتفاق آخر مع شركة "سبرينت" (Sprint) إلى تحويل 10.500 من منافذ البيع بالتجزئة والخدمات التابعة للشركة، إلى مراكز بوكيمون. وأعلنت "سبوتيفاي" (Spotify) لبث الموسيقى عن ارتفاع مبيعاتها المرتبطة بلعبة بوكيمون إلى ثلاثة أمثاها. قدّمت شركة تأمين في المملكة المتحدة تغطية خاصة للهواتف المحمولة، محذرة من: "لا تدع الأضرار العرضية تمنعك من اصطادها كلها". واعترفت شركة ديزني بأنها تشعر بخيبة أمل إزاء استراتيجياتها الخاصة "بدمج ما هو مادي ورقمي لخلق أنواع جديدة من تجارب اللعب المتصلة بالإنترنت"، وأنها تخطط لتحويل أعمالها الضخمة

(838) انظر برادشو ولويس، "المعلنون مستعدون للحصول على قطعة" (الخط المائل يعود لي).

في مجال الألعاب "في اتجاه مماثل لبوكيمون غو". (839)

تضائل حماس لعبة بوكيمون غو تدريجيًا، لكن أثر إنجازات هانك لا يُمحى. إذ قال لحشد من المعجبين: "لم نكتشف إلا القليل". (840) لقد أثبتت اللعبة أنه بالإمكان تحقيق اقتصاديات الأداء على نطاق عالمي مع توجيه إجراءات فردية محددة في الوقت نفسه نحو فرص السوق المحلية المحددة حيث يتمتع مقدمو العطاءات المرتفعة بتقريب متزايد من النتائج المضمونة.

كان الإنجاز المميز الذي حققته شركة "نيانتيك" هو إدارة تطبيقات اللعبة باعتبارها وسيلة لضمان النتائج لعملائها الفعليين: الشركات المشاركة في أسواق العقود الآجلة السلوكية التي تنشئها وتستضيفها. وقد أثبتت لعبة هانك أن رأسمالية المراقبة يمكن أن تعمل في العالم الحقيقي بالطريقة نفسها التي تعمل بها في العالم الافتراضي، باستخدام معرفتها أحادية الجانب (الحجم والنطاق) لتشكيل سلوكك الآن (الأداء) من أجل التنبؤ بسلوكك لاحقًا بشكل أكثر دقة. والاستنتاج المنطقي هنا هو ازدياد الإيرادات الحقيقية بالتناسب مع قدرة الشركة على مطابقة الأشخاص مع مواقعهم، تمامًا كما تعلّمت غوغل كيفية استخدام الفائض السلوكي باعتباره وسيلة لاستهداف الإعلانات عبر الإنترنت لأفراد محددين.

تشير هذه المتطلبات إلى أن شركة "نيانتيك" ستدير عملياتها بطرق تؤدي إلى إنشاء

(839) جون راسل، "بوكيمون غو ستُطلق في اليابان غدًا مع أول موقع برعاية اللعبة"، تك كرانش، 19 يوليو 2016؛ تاكاشي موتشيزوكي، "وحدة ماكдонаلدز ترعى 'بوكيمون غو' في اليابان"، وول ستريت جورنال، 19 يوليو 2016؛ ستيفن ويلموت، "طريقة بديلة لتحقيق الدخل من بوكيمون جو"، وول ستريت جورنال، 29 يوليو 2016؛ "بوكيمون غو فرايبوتشينو في ستاربكس"، غرفة أخبار ستاربكس، 8 ديسمبر 2016؛ ميغان فاروخمانش، "بوكيمون غو تضيف 10.5 ألف صالة ألعاب رياضية ومواقع بوكيستوب في متاجر سيرينيت"، فيرغ، 7 ديسمبر 2016؛ مايك أيرز، "مسارات بوكيمون تحصل على نتوء بوكيمون غو على سبوتيفاي"، وول ستريت جورنال، 12 يوليو 2016؛ جوزي كوكس، "شركة تأمين تقدم حماية ضد بوكيمون غو (لكها في الحقيقة مجرد تغطية لهاتفك)"، وول ستريت جورنال (مدونة)، 22 يوليو/تموز 2016؛ بن فريتر، "ديزني تتطلع إلى التكنولوجيا وراء بوكيمون غو"، وول ستريت جورنال، 5 أغسطس/آب 2016.

(840) انظر آدم شيريل، "نيانتيك تعتقد أن لعبة بوكيمون غو "لم تكتشف سوى القليل" من آليات اللعب بالواقع المعزز"، جامنسيا، 5 مايو 2017.

سلاسل توريد فائضة كبيرة تهدف إلى الحجم والنطاق. وتشير "سياسة المراقبة" التي تنتهجها الشركة إلى طلبها لبيانات سلوكية تتجاوز ما هو معقول لعمليات اللعبة الفعالة. بعد ستة أيام فقط من إطلاق اللعبة في يوليو 2016، نصح مراسل مجلة "بازفيد" (BuzzFeed)، جوزيف بيرنشتاين مستخدم بوكميون بالتحقق من مقدار البيانات التي يجمعها التطبيق من هواتفهم. وفقاً لتحليله، يمكن للعبة "بوكميون غو"، "مثل معظم التطبيقات التي تعمل بنظام تحديد المواقع العالمي (GPS) في هاتفك الذكي، أن نخبرنا بأشياء كثيرة عنك استناداً إلى حركتك أثناء اللعب: إلى أين تذهب، ومتى ذهبت إلى هناك، وكيف وصلت إلى هناك، وكم من الوقت بقيت، ومن كان هناك أيضاً. وتحتفظ شركة نيانتك بهذه المعلومات مثل العديد من المطورين الذين يبنون تطبيقات كهذه". في حين أن التطبيقات الأخرى المستندة إلى الموقع قد تجمع بيانات مماثلة، خلص بيرنشتاين إلى أن "بيانات الخريطة التفصيلية للغاية لكل كتلة على حدة في تطبيق بوكميون غو، بالإضافة إلى شعبيتها المتزايدة، قد تجعلها قريباً إحدى أكثر الرسوم البيانية الاجتماعية المستندة إلى الموقع تفصيلاً على الإطلاق، إن لم تكن الأكثر تفصيلاً". (841)

أثار موقع أخبار الصناعة "تيك كرانش" (TechCrunch) مخاوف مماثلة بشأن ممارسات جمع البيانات الخاصة باللعبة، متسائلاً عن "قائمة الأذونات الطويلة التي يتطلبها التطبيق". تشمل هذه الأذونات الكاميرا، نعم، ولكن يتطلب أيضاً الإذن بـ "قراءة جهات الاتصال الخاصة بك" و "العثور على حسابات على الجهاز". وتشير "سياسة المراقبة" الخاصة بشركة نيانتك إلى أنها قد تشارك "المعلومات المجمعة والمعلومات غير المحددة مع أطراف أخرى لأغراض البحث والتحليل والتصنيف الديموغرافي وأغراض أخرى مماثلة". وأشار موقع "تيك كرانش" إلى "التبّع الدقيق للموقع" و "القدرة على إجراء بصمة صوتية" في اللعبة من خلال الوصول إلى الكاميرا والميكروفون، واختتم قائلاً: "لذا فمن الحكمة أن نتوقع أن تنتهي بعض بيانات

(841) جوزيف بيرنشتاين، "ربما عليك التحقق من إعدادات الخصوصية الخاصة بلعبة بوكميون غو"، بازفيد، 11 يوليو/تموز 2016.

موقعك في أيدي شركة غوغل".⁽⁸⁴²⁾ وأشار مركز معلومات الخصوصية الإلكترونية في رسالة شكوى إلى لجنة التجارة الفيدرالية إلى أن شركة ناينتيك فشلت في تقديم أسباب مقنعة لـ "نطاق" المعلومات التي تجمعها روتينيًا من هواتف المستخدمين وملفات تعريف غوغل. كما لم تضع الشركة حدودًا بشأن المدة التي يمكنها فيها الاحتفاظ ببيانات الموقع أو استخدامها أو مشاركتها. ووفقًا للرسالة، "لا يوجد دليل على أن جمع شركة نيانتك لبيانات الموقع واحتفاظها بها ضروري لوظيفة اللعبة، أو يوفر فائدة للمستهلكين تفوق الأضرار التي تسببها من حيث الخصوصية والسلامة".⁽⁸⁴³⁾

تلقت شركة نيانتك، في منتصف يوليو 2016، خطابًا من السيناتور الأمريكي آل فرانكن يستفسر فيه عن ممارسات الشركة المرتبطة بالخصوصية.⁽⁸⁴⁴⁾ وكان رد فعل شركة نيانتك في أواخر شهر أغسطس/ آب مفيدًا كونه يُمثل معجزة من التضليل والسرية التي تركز على آليات اللعبة ولا تكشف أي شيء عن نموذج أعمالها أو المنطق الشامل للتراكم خلف النموذج: "لقد أشاد مسؤولو الصحة العامة والمعلمون والعاملون في مجال الصحة العقلية والآباء ومسؤولو المنتزهات والمواطنون العاديون في جميع أنحاء العالم بلعبة بوكيمون غو باعتبارها تطبيقًا يعزز اللعب الصحي والاكتشاف". وعلى الرغم من اعتراف شركة نيانتك بكمية البيانات التي تجمعها كشرط للعمل - خدمات الموقع، والصور، والوسائط، والملفات، والكاميرا، وجهات الاتصال، وبيانات مزود الشبكة - فهي تصرّ على أن البيانات تُستخدم "لتوفير خدماتها وتحسينها". لكن الشركة لا تُقرّ بأن خدماتها تعمل على مستويين: خدمات ألعاب لصالح اللاعبين، وخدمات تنبؤ لصالح عملاء نيانتك. وتُقرّ الشركة بأنها تستخدم خدمات جهات خارجية، بما في ذلك خدمات غوغل، "لجمع البيانات

(842) ناتاشا لومس، "بوكيمون غو يريد التقاط جميع أذونات تطبيقاتك (تقريبًا)"، تك كرانش، 16 يوليو 2016.

(843) مارك روتنبرغ، وكليز غارتلاند، وناتاشي أملاني، "رسالة إلى رئيس لجنة التجارة الفيدرالية إديث راميريز"، 22 يوليو/تموز 2016، 4.

(844) آل فرانكن، "رسالة إلى جون هانك، الرئيس التنفيذي لشركة نيانتك، من السيناتور الأمريكي آل فرانكن"، 12 يوليو/تموز 2016.

وتفسيرها"، لكنها تركز على تجاهل أهداف تلك التحليلات. (845)

تشير الرسالة المكوّنة من سبع صفحات إلى "المواقع الخاضعة للرعاية" مرّة واحدة فقط، مشيرة إلى أن الرعاة يتلقّون تقارير عن الزيارات والإجراءات في اللعبة. لا توجد أية إشارة إلى "تكلفة الزيارة" أو الفائض المطلوب لتحقيق هذا المقياس، بالطريقة ذاتها التي اعتمدت "تكلفة النقرة" لدى غوغل على الفائض السلوكي المستمدّ من النشاط الإلكتروني. يُخفي عرض نيانتك لنفسها بعناية أهدافها في تصميم وتطوير اقتصاديات الأداء التي تُوجّه السلوك الفعلي واللحظي نحو أسواق نيانتك المستقبلية السلوكية.

كانت عبقرية لعبة بوكيمون غو في القدرة على تحويل اللعبة التي تراها الآن إلى لعبة ذات درجة عالية من رأسمالية المراقبة، وهي لعبة تدور حول لعبة. واللاعبون الذين اتخذوا من المدينة لوحة لهم، وتجوّلوا في حدائقها ومطاعمها، شكّلوا دون قصد نوعاً مختلفاً تماماً من لوحة اللعب البشرية لهذه اللعبة الثانية الأكثر أهمية. ولم يكن بالإمكان العثور على اللاعبين في اللعبة الحقيقية الأخرى وسط حشد المتحمسين الذين يلوّحون بهواتفهم على حافة حديقة ديفيد. تأخذ اللعبة الحقيقية منتجات التنبؤ على شكل بروتوكولات، وتفرض أشكالا من التحفيز عن بعد، تهدف إلى حثّ الناس وحشرهم عبر تضاريس العالم الحقيقي على إنفاق أموالهم الحقيقية في المؤسسات التجارية الحقيقية في أسواق المستقبل السلوكية الحقيقية التابعة لشركة نيانتك.

تشبه شركة نيانتك بحد ذاتها مسباراً صغيراً يرتفع بسبب ضخامة قدرات رسم الخرائط لدى غوغل، والتدفقات الفائضة. ووسائل الإنتاج، ومزارع الخوادم الضخمة، بينما تبني وتختبر النموذج الأولي نوسينة عمية لتعديل السلوك تملكها رأسمالية المراقبة وتديرها. واكتشفت شركة نيانتك أنه في خضمّ الانخراط في اللعب الاجتماعي التنافسي، يفسح الاحتكاك المروّع للإرادة الفردية المجال طواعية لبروتوكولات اللعبة التي تضع شروط "الانتقاء الطبيعي". وبهذه الطريقة تعمل اللعبة تلقائياً على استنباط السلوكيات المحددة وتوليدها، والتي يسعى إليها اللاعبون

(845) كورتني غرين باور، "رسالة إلى السيناتور الأمريكي آل فرانكن من المستشار العام لشركة نيانتك، كورتني غرين باور"، 26 أغسطس/ آب 2016.

الكبار في أسواق العقود الآجلة السلوكية الخاصة بشركة نيانتك. مع تحريك لوحة اللعبة الثانية هذه، يتنافس اللاعبون في اللعبة الحقيقية على القرب من نتائج الأموال التي تتبع كل عضو مبتسم في القطيع.

ندرك في النهاية أن المسبار مصمّم لاستكشاف الحدود التالية: وسائل تعديل السلوك. واللعبة التي تدور حول اللعبة هي في الواقع نسخة تجريبية طبق الأصل من تصميم رأسمالية المراقبة لمستقبلنا. وهذا يتبع الصورة التنبؤية الحتمية إلى نهايتها المنطقية، حيث تتحدد البيانات المتعلقة بنا من حيث الحجم والنطاق مع آليات التحفيز التي تعمل على مواءمة سلوكنا مع عالم السوق الجديد. إن تدفقات الفائض السلوكي من المساحات كلها، والأشياء كلها، والأجساد كلها، والضحكات والدموع كلها موجهة في نهاية المطاف نحو انتصار نتائج معينة، والإيرادات التي يمكن أن تطلقها.

4- ما هي وسائل تعديل السلوك؟

تمثل وسائل تعديل السلوك العالمية الجديدة، التي نراها قيد الإنشاء في فيسبوك ونيانتك، عصرًا رجعيًا جديدًا من رأس المال المستقل، ومن أشخاص تتأثر أفعالهم وقراراتهم الأخلاقية بقوى خارجية بدلاً من تفكيرهم الداخلي واستقلالهم، بينما تعتمد إمكانيات الازدهار الديمقراطي والوفاء الإنساني على النقيض. تتجاوز هذه الحالة غير المسبوقة المناقشات حول القاعدة العامة. وهذا يصبّ في صميم ولائنا لمبادئ المجتمع الديمقراطي، مع إدراكنا الكامل للتحديات التي تثقل كاهل تلك المبادئ.

لكن ما نسيناه هنا هو أن القاعدة العامة كانت نتاجًا لتحديد مبادئ الاستقلال الفردي والإخلاص الديمقراطي. لقد كان ذلك نتيجة لصراع متنازع عليه بشدة انضمّ فيه مسؤولون عموميون ذوو توجه ديمقراطي إلى الناشطين الاجتماعيين والعلماء والمحامين لمقاومة تصميم تعديل السلوك وتطويره ونشره كأسلوب من أساليب السلطة الحكومية. ولم يمضِ وقت طويل على تحرك المجتمع الأمريكي لمقاومة وسائل تعديل السلوك وتنظيمها والسيطرة عليها، وهذا هو التاريخ الذي يمكننا الآن

أن نعتمد عليه لإعادة اكتشاف اتجاهاتنا وإيقاظ وعينا.

في عام 1971، قامت اللجنة الفرعية للحقوق الدستورية في مجلس الشيوخ، بقيادة السيناتور سام إيرفين من ولاية كارولينا الشمالية، مع شخصيات بارزة من مختلف ألوان الطيف السياسي مثل إدوارد كينيدي، ويرش بايه، وروبرت بيرد، وستروم ثورموند، بإجراء تحقيق استمرّ عدة سنوات في "مجموعة متنوعة من البرامج المصمّمة للتعويض بالسلوك البشري والسيطرة عليه وتعديله". كان إيرفين ديمقراطيًا محافظًا وخبيرًا دستوريًا أصبح بطلاً غير متوقع في مجال الحريات المدنية لدفاعه عن الديمقراطية أثناء أزمة "ووترغيت" بصفته رئيسًا للجنة "ووترغيت" في مجلس الشيوخ. وفي هذه الحالة، ستُخضع اللجنة الفرعية للحقوق الدستورية مبادئ تعديل السلوك وتطبيقاته لتدقيق دستوري مكثف للمرة الأولى، وستشكك في نهاية المطاف في استخدام تعديل السلوك باعتباره امتدادًا لسلطة الدولة.

أطلق مجلس الشيوخ تحقيقاته نتيجة لشعور متزايد بالانزعاج العام إزاء انتشار تقنيات نفسية للتحكم بالسلوك. وكان ثمة نقاط انطلاق عديدة، لكن أبرزها كان تأثير الحرب الباردة، ومجموعة التقنيات النفسية، وما أفرزته من برامج لتعديل السلوك. لقد كشفت الحرب الكورية عن تقنيات "غسيل الدماغ" الشيوعية التي، وفقًا للمدير الجديد لوكالة الاستخبارات المركزية آنذاك ألين دالاس، أدت إلى تحويل أسرى الحرب الأميركيين إلى حالة من السلبية الآلية، حيث يصبح دماغ الضحية "جهاز فونوغراف يشغل أسطوانة وضعها ولا يملك أي سيطرة عليه".⁽⁸⁴⁶⁾ وبدا أن أعداء أمريكا يوشكون أن يُتقنوا فنّ "السيطرة على العقول" وعلمها باستخدام أساليب نفسية ودوائية لا يعرفها الجيش الأمريكي. وثمرّة تقارير عن إنجازات صينية وسوفياتية في مجال تغيير القدرات العقلية للأفراد عن بعد، والقضاء على "إرادتهم الحرة".⁽⁸⁴⁷⁾ وقد كلّف دالاس الوكالة بإجراء أبحاث، العمل على تطوير "التحكم

(846) ريبكا ليموف، العالم بصفته مختبرًا: تجارب مع الفئران والمناهات والبشر (نيويورك: هيل ووانغ، 2005)، ص 189.

(847) آتش. كيث ميلتون وروبرت والاس، الدليل الرسمي لوكالة المخابرات المركزية للخداع (نيويورك: ويليام مورو، 2010)، 4.

بالعقول"، بدءًا من "إلغاء النمطية" و "إعادة برمجة" الفرد، إلى تشكيل مواقف وأفعال بلد بأكمله. (848)

هكذا بدأ فصل مثير للاهتمام وغريب غالبًا في تاريخ التجسس الأمريكي. (849) وقد نُفذ الكثير من العمل الجديد في سياق مشروع "إم. كي. ألتر" (MKUltra) بالغ السرية التابع لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، المكلف "بالبحث عن مواد كيميائية وبيولوجية وإشعاعية وتطويرها بحيث يمكن استخدامها في العمليات السرية للسيطرة على السلوك البشري". ووفقًا لشهادة في تحقيق مجلس الشيوخ عام 1975 حول العمليات السرية للاستخبارات العسكرية والخارجية لوكالة المخابرات المركزية، أشار تقرير المفتش العام لعام 1963 عن برنامج "إم. كي. ألتر" إلى عدة أسباب لسرية البرنامج، لكنها أهمها حقيقة أنه كان يُنظر إلى تعديل السلوك باعتباره أمرًا غير شرعي. إذ يبدأ التقرير بما يلي: "تعتبر العديد من السلطات في مجال الطب، والمجالات ذات الصلة، أن الأبحاث الخاصة بالتلاعب بالسلوك البشري غير أخلاقية مهنيًا، وبالتالي ستكون سمعة المشاركين المحترفين في برنامج "إم. كي. ألتر" معرضة للخطر أحيانًا". وأشار أيضًا إلى أن العديد من أنشطة البرنامج غير قانونية، وتنتهك حقوق المواطنين الأمريكيين ومصالحهم، وقد تؤدي إلى نفور الرأي العام. (850)

يقوم أساس اهتماماتنا على نمو تعديل السلوك وتطويره باعتباره امتدادًا للسلطة السياسية. ولتحقيق هذه الغاية، استدعت "مطالب" وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إمدادات أكثر جرأة من الأبحاث المتعلقة بتعديل السلوك، والتطبيقات العملية من علماء النفس الأكاديميين. وشرع علماء في مجالات الطب وعلم النفس في كشف غموض تقنيات غسيل المخ الصينية، وإعادة تفسيرها من خلال أطر تعديل السلوك الراسخة.

(848) ليموف، العالم بصفته مختبرًا، 189؛ إيلين هيرمان، رومانسية علم النفس الأمريكي: الثقافة السياسية في عصر الخبراء (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1995)، 129.
(849) ميلتون ووالاس، الدليل الرسمي لوكالة المخابرات المركزية للخداع.
(850) "لجنة الكنيسة: الكتاب الأول - الاستخبارات الأجنبية والعسكرية"، مؤسسة ماري فيريل، 1975، 390.

خلصت أبحاثهم إلى أنه يمكن فهم "التحكّم في العقل" بشكل أفضل باعتباره نظام تكيف معقدًا يعتمد على جداول غير متوقعة من التعزيز، وهو ما يتفق مع اكتشافات "بور هوس فريدريك سكينر" المهمة حول التكيف الإجرائي. ووفقًا للمؤرّخة ريببكا ليموف من جامعة هارفارد، كان للباحثين في مجال "السيطرة على العقول" تأثير قوي على وكالة المخابرات المركزية وفروع الجيش الأخرى. الفكرة التي تقول إن "المادّة البشرية قابلة للتغيير - أن بالإمكان سحق شخصية الإنسان وهويته ووعيه وقدرته على تحديد سلوكه الذاتي والقضاء عليها واستبدال السيطرة الخارجية بها - أثارت شعورًا جديدًا بالذعر والضعف: "إذا كان العالم مليئًا بالتهديدات الداخلية للإنسان بقدر ما كان مليئًا بالتهديدات الخارجية للإنسان، فإن خبراء هذه العوالم مطلوبين أكثر من أي وقت مضى. لقد شارك العديد من الأساتذة الطيبين وذوي النوايا الحسنة - الذين يصفون أنفسهم أو يعملون كمهندسين بشريين بحكم الأمر الواقع - في برامج وكالة المخابرات المركزية لإحداث تغيير بطيء أو سريع في عقول الناس وسلوكهم.⁽⁸⁵¹⁾

عندما اجتمع أعضاء مجلس الشيوخ في اللجنة الفرعية للحقوق الدستورية في عام 1971، كانت عملية انتقال ممارسات تعديل السلوك من التطبيقات العسكرية إلى التطبيقات المدنية جارية على قدم وساق. حيث انتشرت تقنيات تعديل السلوك من مختبرات علم النفس الممولة من الحكومة (عادة وكالة المخابرات المركزية)، والعمليات النفسية العسكرية، إلى مجموعة من التطبيقات المؤسسية، كل منها مدفوع بمهمة إعادة هندسة الشخصيات المعيبة للأفراد الأسرى في بيئات توفر "السيطرة الكاملة" أو قريبة منها، بما في ذلك السجون، وأجنحة الطب النفسي، والفصول الدراسية، ومؤسسات الإعاقة العقلية، ومدارس التوحد، والمصانع. وتشجعت اللجنة الفرعية على التحرك عندما تحوّل القلق العام إلى غضب عارم إزاء دمج برامج تعديل السلوك هذه. وتشير مؤرّخة علم النفس ألكسندرا زدفورد إلى أن ممارسات "سكينر" لتعديل السلوك توسّعت بسرعة خلال الستينات والسبعينات من القرن

(851) ليموف، العالم بوصفه مختبرًا، 200.

العشرين، محققة بعض "النجاحات الرائعة"، ولكنها غالبًا ما عرّضت الممارسين أيضًا لتدقيق الجمهور المعادي. ودقّ عدد من التقارير الصحفية ناقوس الخطر بشأن الحماسة في تطبيق تقنيات تعديل السلوك، والشعور بأنها تحطّ من قدر الأشخاص الذين طبّقت عليهم، وتنتهك الاعتبارات الأخلاقية، وتتعدّى على الحريات المدنية الأساسية. (852)

كان العامل الآخر هو نشر كتاب "بورهُوس فريدريك سكينر" التأملي الاجتماعي التحريضي بعنوان: "ما وراء الحرية والكرامة" (Beyond Freedom & Dignity) عام 1971. حيث وصف سكينر مستقبلًا يعتمد على التحكم السلوكي، رافضًا فكرة الحرية ذاتها (وكذلك مبادئ المجتمع الليبرالي كلها)، وصوّر مفهوم الكرامة الإنسانية باعتباره حادثًا ناتجًا عن النرجسية الأنانية. وتصور "تكنولوجيا سلوكية" شاملة من شأنها أن تكون قادرة يومًا ما على تطبيق أساليب تعديل السلوك على مجتمعات بشرية بأكملها. وقد أدّت عاصفة النقاشات التي أعقبت ذلك إلى جعل كتاب "ما وراء الحرية والكرامة" من أكثر الكتب مبيعًا على مستوى العالم. ووفقًا لنعوم تشومسكي، بعد مراجعة شاملة للكتاب، "يُعتبر علم سكينر في السلوك البشري، على الرغم من كونه فارغًا تمامًا، مناسبًا تمامًا للبراليين مثلما هو مناسب للفاشيين. ولن يكون من السخف، بل من الغريب أن نجادل فكرة مفادها 'بما أنه من الممكن ترتيب ظروف يصبح السلوك في ظلّها قابلاً للتنبؤ تمامًا' - كما هو الحال في السجن مثلاً، أو في معسكر اعتقال..... فلا داعي للقلق بشأن حرية 'الإنسان المستقل' وكرامته". (853) (في قسم الدراسات العليا في جامعة هارفارد في منتصف سبعينيات القرن العشرين، حيث كنْتُ أدرس، وكان سكينر معروفًا، كان العديد من الطلاب يشيرون إلى الكتاب باسم "نحو العبودية والإذلال").

من الأسطر الأولى من مقدّمة تقرير اللجنة الفرعية لعام 1974، التي كتبها السيناتور إيرفين، يجب أن يكون واضحًا لأي أسير لرأسمالية المراقبة في القرن الحادي

(852) ألكسندرا زدفورد، "السيطرة الاجتماعية على التحكم في السلوك: تعديل السلوك، وحقوق الأفراد، وأخلاقيات البحث في أمريكا، 1971-1979"، مجلة تاريخ العلوم السلوكية 42، رقم 3 (2006): 206.

(853) نعوم تشومسكي، "قضية ضد سكينر"، مجلّة نيويورك ريفيو أوف بوكس، 30 ديسمبر 1971.

والعشرين، أن المجتمع الأمريكي شهد انقطاعاً اجتماعياً أعمق مما يوحى به مجرد مرور عقود من الزمن. ومن المفيد أن نقرأ كلمات إرفين نفسه، لنذكر مدى الشغف الذي وضعه في عمل اللجنة الفرعية في قلب مشروع التنوير، متعهداً بالدفاع عن المثل الليبرالية للحرية والكرامة:

عندما وضع الآباء المؤسسون نظام الحكم الدستوري، استندوا إلى إيمانهم الراسخ بقدرسية الفرد... لقد أدركوا أن تقرير المصير هو مصدر الفردية، وأن الفردية هي عماد الحرية... إلا أن التكنولوجيا بدأت مؤخرًا في تطوير أساليب جديدة للتحكم في السلوك، أساليب لا تستطيع تغيير تصرفات الفرد فقط بل تغيير شخصيته وطريقة تفكيره... إن التكنولوجيا السلوكية التي تُطوّر في الولايات المتحدة اليوم تمس المصادر الأساسية للفردية وجوهر الحرية الشخصية... إن أخطر تهديد... هو القوة التي تمنحها هذه التكنولوجيا لرجل واحد لفرض آرائه وقيمه على آخر... لا تتعارض مفاهيم الحرية والخصوصية وتقرير المصير بطبيعتها مع البرامج المصممة للتحكم من ناحية الحرية الجسدية فقط بل في مصدر الفكر الحرّ أيضًا... وتزداد القضية إلحاحًا عندما تُنفذ هذه البرامج، كما هي عليه اليوم، في غياب ضوابط صارمة. ومع أن تعديل السلوك قد يكون مُقلقًا على المستوى النظري، فإن النمو غير المُقيد لتكنولوجيا التحكم في السلوك العملية يُثير قلقًا أكبر. (854)

ثمة أهمية فريدة من نوعها في عصرنا لهذا النقد لتعديل السلوك. يبدأ التقرير بسؤال يجب علينا أن نطرحه أيضًا: "كيف أفلتوا من العقاب؟" وتستحضر إجاباتهم "استثنائية" تلك الفترة. كما تمكنت الرأسمالية المراقبة في البداية من ترسيخ جذورها وازدهارها تحت حماية ما يسمى "الحرب ضد الإرهاب"، وما أثارته من إكراه على اليقين، فقد انتقلت وسائل تعديل السلوك في منتصف القرن العشرين من المختبر إلى العالم أجمع في المقام الأول، تحت غطاء مخاوف الحرب الباردة. ولاحقًا، استدعي

(854) جون إل. ماكليان وآخرون، "حقوق الأفراد والدور الفيدرالي في تعديل السلوك؛ دراسة أعدها موظفو اللجنة الفرعية للحقوق الدستورية التابعة للجنة القضائية، مجلس الشيوخ الأمريكي، الكونغرس الثالث والتسعون، الدورة الثانية"، نوفمبر 1974، الجزء الثالث والرابع.

المختصون في تغيير السلوك في الستينات والسبعينات من القرن العشرين، إلى ممارسة المدنية، من قِبَلِ مجتمع أصبح خائفاً بعد سنوات من أعمال الشغب في المناطق الحضرية، والاحتجاجات السياسية، وارتفاع مستويات الجريمة و"الانحراف". واستنتج أعضاء مجلس الشيوخ أن الدعوات إلى "القانون والنظام" كانت الدافع وراء البحث عن "وسائل فورية وفعالة للسيطرة على العنف وغيره من أشكال السلوك المناهض للمجتمع". "لقد حلّ الاهتمام بالسيطرة على العنف محل المحاولات التي استغرقت وقتاً أطول لفهم مصادر العنف".

بوجود العديد من برامج تعديل السلوك التي تستهدف غير المتطوعين في سجون الدولة والمؤسسات العقلية، أدرك أعضاء مجلس الشيوخ أننا يجب أن ننظر إلى وسائل تعديل السلوك باعتبارها شكلاً من أشكال سلطة الدولة، وتساءلوا عن حق الحكومة الدستوري في "السيطرة" على سلوك المواطنين وأسلوب تفكيرهم. ووجدت اللجنة الفرعية، في مسحها للوكالات الحكومية، "مجموعة واسعة من تقنيات تعديل السلوك ... المستخدمة حالياً في الولايات المتحدة تحت رعاية الحكومة الفيدرالية"، ولاحظت أنه "مع الانتشار السريع لتقنيات تعديل السلوك، سيكون مصدر قلق بالغ أنه لم يُبدَل سوى القليل من الجهد الحقيقي للنظر في القضايا الأساسية المتعلقة بالحرية الفردية والصراعات الأساسية بين الحقوق الفردية وتكنولوجيا السلوك". (855)

لقد احتفظ أعضاء مجلس الشيوخ بأشد انتقاداتهم لما اعتبروه تقنيتين من أكثر التقنيات تطرفاً وضرراً لتعديل السلوك. كانت التقنية الأولى هي الجراحة النفسية. أما التقنية الثانية فكانت "الفيزيولوجيا الكهربائية"، المعروفة بأنها "استخدام أجهزة ميكانيكية للتحكم في جوانب مختلفة من السلوك البشري". وأشار التقرير، بقلق بالغ، إلى مثال "الأجهزة" المصممة ليرتديها الشخص "لمراقبة سلوكه والتحكم فيه باستمرار عبر جهاز حاسوب" و"لمنع حدوث سلوك مشتبه به".

جادلت اللجنة الفرعية، بأن التعديل الأول، "يجب أن يحمي حق الفرد في توليد

الأفكار على قدم المساواة"، وأن الحق في الخصوصية يجب أن يحمي المواطنين من التدخل في أفكارهم وسلوكهم وشخصيتهم وهويتهم خشية أن "تفقد هذه المفاهيم معناها". واختيرت هندسة سكينر السلوكية للفحص النقدي في هذا السياق: "يهتم قطاع كبير من تكنولوجيا التحكم في السلوك بالتكيف الذي تُستخدم من خلاله أشكال مختلفة من الإقناع لتحفيز أنواع معينة من السلوكيات. وقمع أنواع أخرى".⁽⁸⁵⁶⁾ وفي توقّع لتقنيات اللعب المستقبلية كوسيلة لتعديل السلوك، أشار تقرير اللجنة الفرعية أيضًا بقلق إلى مناهج "أكثر سلامة" تعتمد على "التعزيز الإيجابي"، بدءًا "بالحوافز الذهبية" إلى أنظمة المكافآت المعقدة، من أجل "إعادة هيكلة الشخصية بتقنيات تُطبّق بشكل مصطنع". وقد أدّى الهوس المعمم بالسيطرة على العنف إلى إنتاج أساليب "تنبؤ بالسلوك تثير أسئلة عميقة تتعلق بالإجراءات القانونية الواجبة، والخصوصية، والحريات الفردية". وفي عام 1974، دقّ أحد علماء النفس ناقوس الخطر في مقال نشره في مجلة "مونيتور" التابعة للجمعية الأمريكية لعلم النفس، محذّرًا زملاءه الذين رَوّجوا لقدراتهم على "التحكم في السلوك" من أن "النظرة إليهم أصبحت نظرة شكّ متزايد، إن لم تكن نظرة اشمئزاز، وأنهم مهدّدون بالتقييد... والسيطرة الاجتماعية على السلوك جارية".⁽⁸⁵⁷⁾

كان لعمل اللجنة الفرعية عواقب وخيمة على المدى الطويل. لم تكتسب جماعات حقوق السجناء والمرضى زخمًا في جهودها لإنهاء القمع السلوكي الذي يعاني منه السجناء في المؤسسات العامة فحسب، بل بدأ علماء النفس أيضًا في مناقشة الحاجة إلى إضفاء طابع مهني على تخصصهم من خلال معايير أخلاقية واضحة، وإجراءات اعتماد، وبرامج تدريبية، وسلام وظيفية.⁽⁸⁵⁸⁾ ونصّ قانون البحث الوطني، الصادر عام 1974، على إنشاء مجالس مراجعة مؤسسية، ووضع الأساس لتطوير قاعدة

(856) ماكليان وآخرون، 13-14.

(857) بي. لندن، "تكنولوجيا السلوك والتحكم الاجتماعي - قلب الطاولة"، مونيتور، الجمعية الأمريكية للطب النفسي (أبريل 1974): 2 (الخط المائل يعود لي)؛ زدفورد، "التحكم الاجتماعي في التحكم في السلوك".

(858) زدفورد، "السيطرة الاجتماعية على التحكم في السلوك"، 213.

مشتركة للمعاملة الأخلاقية للبشر، والتي اشتهرت شركة فيسبوك في إعفاء نفسها منها. وفي العام نفسه، أنشأ الكونغرس اللجنة الوطنية لحماية البشر الخاضعين للأبحاث الطبية الحيوية والسلوكية. وعندما نشرت اللجنة نتائجها بعد خمس سنوات في "تقرير بلمونت"، أصبح ذلك التقرير هو المعيار المهني لفرض المبادئ التوجيهية الأخلاقية على الأبحاث الممولة فيدراليًا كلها، والتي تجرى على البشر في الولايات المتحدة.⁽⁸⁵⁹⁾

أدى الوعي الحقوقي الصاخب في سبعينات القرن العشرين إلى إبعاد تعديل السلوك عن الحياة المدنية، أو أدى إلى خفوت نجمه على الأقل. وأوصى مسؤول في مكتب السجون الفيدرالي قادة البرنامج بتجنب استخدام "مصطلح 'تعديل السلوك'، بل التحدث عن المكافآت الإيجابية، وتعزيز المطروح، لنوع السلوك الذي نحاول غرسه". وقال آخر: "نحن نفعل ما كنا نفعله دومًا.... لكن وصفه بـ 'تعديل السلوك' يزيد من صعوبة الأمر".⁽⁸⁶⁰⁾ لم يحظ كتاب سكينر "التمهيد" الصادر عام 1976 بعنوان "حول السلوكية" (About Behaviorism)، باهتمام كبير من الرأي العام، وكان ما حفره إلى تأليفه، ما اعتقد أنها مفاهيم خاطئة أثارها موجة ردود الأفعال القياسية على كتاب "ما وراء الحرية والكرامة". ووفقًا لكاتب سيرة سكينر، "بلغت المعركة ذروتها". لقد جعل الناس كتاب "ما وراء الحرية والكرامة" من أكثر الكتب مبيعًا "لكنهم رفضوا بالقدر نفسه حجة سكينر القائلة بأن هناك أمورًا ثقافية أهم من الحفاظ على الحرية الفردية وتوسيع نطاقها".⁽⁸⁶¹⁾

الأكثر إثارة للاهتمام هو أنه خلال سنوات القلق والنقاش هذه، كان يستحيل نتخيل وسائل تعديل السلوك بأية طريقة أخرى سوى أنها غير مملوكة، وتديرها

(859) "تقرير بلمونت - مكتب السكرتير - المبادئ الأخلاقية والمبادئ التوجيهية لحماية البشر المشاركين في الأبحاث - اللجنة الوطنية لحماية البشر المشاركين في الأبحاث الطبية الحيوية والسلوكية"، اللوائح والسياسات، مكتب حماية الأبحاث البشرية، وزارة الصحة والتعليم والرفاهية الاجتماعية الأمريكية، 28 يناير/كانون الثاني 2010؛ زدرفورد، "الرقابة الاجتماعية على الرقابة السلوكية"، 215. (860) انظر زدرفورد، "السيطرة الاجتماعية على التحكم في السلوك"، 217. (861) دانييل ديليو بيورك، بي. إف. سكينر: حياة (نيويورك: بيسك، 1993)، 220.

الحكومة: هي شكل مميز من أشكال سلطة الدولة.

تناولت مقالة نشرتها مجلة هارفارد للقانون عام 1966 قضايا التتبع الإلكتروني والمراقبة والتحكم في السلوك، وأشارت إلى أنها "ستأخذ في الاعتبار المحاولات الحكومية لتغيير السلوك، لأن هذه المحاولات تبدو محتملة أكثر من المحاولات الخاصة".⁽⁸⁶²⁾ إن الدافع الديمقراطي للمجتمع الأمريكي، والذي صدّته تجاوزات وكالات الاستخبارات، ودعمها للأنشطة الإجرامية التي قامت بها إدارة نيكسون، وتحويل تعديل السلوك إلى وسيلة للسيطرة التأديبية في مؤسسات الدولة، أدّى إلى رفض تعديل السلوك باعتباره امتدادًا للسلطة الحكومية.

لم تمت هذه الأساليب، وقد بقيت دون علم أعضاء مجلس الشيوخ والعلماء ونشطاء حقوق الإنسان والمدعين العامين والعديد من المواطنين الآخرين الذين وقفوا ضد غزوات الهندسة السلوكية المناهضة للديمقراطية. سيعود المشروع إلى الظهور بصورة غير متوقّعة إطلاقًا باعتباره من صنع السوق، حيث تزدهر الآن قدراته الرقمية غير المسبوقة وحجمه ونطاقه تحت راية رأسمالية المراقبة. خلال السنوات نفسها التي اجتمعت فيها القوى الديمقراطية في الولايات المتحدة لمقاومة تعديل السلوك كشكل من أشكال سلطة الدولة، كانت طاقات مكافحة التمرد الرأسمالية تعمل بالفعل داخل المجتمع. وكان من المقرّر أن تتمتع الشركة بحقوق الشخصية، وتكون حرة من الالتزامات الديمقراطية والقيود القانونية والحسابات الأخلاقية والاعتبارات الاجتماعية. من المؤكّد أنه في الحالة الأمريكية، التي يعتمد فيها المسؤولون المنتخبون على ثروات الشركات في كل دورة انتخابية، أظهرت الدولة الضعيفة رغبة ضئيلة في معارضة تعديل السلوك باعتباره مشروعًا للسوق، ناهيك عن الدفاع عن الضرورات الأخلاقية للفرد المستقل.

تعود تعديلات السلوك، في أحدث تجسيد لها، على شكل بنية سوق رقمية عالمية غير مقيدة بالجغرافيا، ومستقلة عن القيود الدستورية، وغير مبالية رسميًا بها تشكّلها رسميًا

(862) القياس عن بعد في الأنثروبولوجيا: آلة الدكتور شفيتزجيبيل. مجلة هارفارد للقانون، المجلد 80، العدد 2 (1966): 403-421.

من مخاطر على الحرية أو الكرامة أو استدامة النظام الليبرالي الذي كانت اللجنة الفرعية التي أنشأها إرفين عازمة على الدفاع عنه. ويزداد إزعاج هذا التناقض في ضوء حقيقة مفادها أنه في منتصف القرن العشرين، كانت وسائل تعديل السلوك تستهدف الأفراد والجماعات الذين اعتُبروا بأنهم "هم": الأعداء العسكريون، والسجناء، وغيرهم من أسرى الأنظمة التأديبية المسورة. مكتبة سُر مَن قرأ

تستهدفنا اليوم وسائل تعديل السلوك دون خجل. فالكل منغمس في هذا السوق الجديد، بما في ذلك الدراما النفسية لشباب عاديّين في عامهم الرابع عشر، لا يدركون ما يحدث، ويقتربون من عطلة نهاية الأسبوع بقلق. وتعمل كل وسيلة اتصال على تعزيز حاجة القوة الخاصة إلى الاستيلاء على السلوك من أجل الربح. أين مطرقة الديمقراطية الآن، عندما يأتي التهديد من هاتفك، أو من مساعدك الرقمي، أو من تسجيل الدخول إلى فيسبوك؟ من سيدافع عن الحرية الآن، عندما يهدد الفيسبوك بالتراجع إلى الظلّ إذا تجرأنا على أن نكون الاحتكاك الذي يعطلّ اقتصاديات الأداء التي بُنيت بعناية وإتقان، وبتكلفة باهظة، لاستغلال تعاطفنا الطبيعي، والتهرب من وعينا، والالتفاف على آفاقنا لتقرير المصير؟ إذا لم ننتبه الآن، فإلى متى سنظلّ غافلين عن هذا الغزو والغزوات كلها؟ إلى متى لن نلاحظ شيئاً على الإطلاق؟ كم سنحتاج من الوقت قبل أن ننسى من كنا قبل أن نُمتلك، منحنيين على النصوص القديمة لتقرير المصير في الضوء الخافت، والوشاح على أكتافنا، وعدسة مكبرة في يدنا، وكأننا نلُك رموز اللغة الهيروغليفية القديمة؟

عدنا في هذه الفصول إلى الأسئلة الجوهرية التي تحدّد تقسيم التعلّم: من يعرف؟ من يُقرّر؟ من يقرّر من يقرّر؟ بالنسبة إلى سؤال من يعرف؟ فقد رأينا تكتلات هائلة من المعرفة حول سلوكنا في النصّ الخفيّ، بدءاً من الأنماط الواسعة عبر السكان وحتى التفاصيل الحميمة لحياة الأفراد. فهذه المناطق المعلوماتية الجديدة خاصة ومتميزة، ولا يعرفها إلا الآلات، وكهنتها، والمشاركون في السوق الذين يدفعون مقابل اللعب في هذه المساحات الجديدة. ومع وضوح أننا مُستبعدون لأن المعرفة ليست لنا، إلا أن هذه الفصول كشفت أساساً هيكلياً أعمق لاستبعادنا. أصبحنا نعرف الآن أن قدرة

رأسماليي المراقبة على التهرب من وعينا تشكّل شرطاً أساسياً لإنتاج المعرفة. نحن مستبعدون لأننا نشكل صداماً يعوق إعداد النص الظليّ، ومعه هيمنة المعرفة التي تتمتع بها رأسمالية المراقبة.

وبالنسبة إلى من يقرّر؟ فقد تقررّ تقسيم التعلّم هذا من خلال تصريحات رأسماليي المراقبة وتدخلاتهم كشرط أساسي آخر للتراكم، ومكّنُهُ إحجام الدولة عن تأكيد المراقبة الديمقراطية في هذا المجال السريّ. وأخيراً هناك سؤال: من يقرّر من يقرّر؟ حتى الآن، إن السلطة غير المتكافئة لرأس مال المراقبة، غير المُثقل بالقانون، هي من تقررّ من يقرّر.

يدفعنا تسليع السلوك في ظلّ ظروف رأسمالية المراقبة نحو مستقبل مجتمعي يُحمي فيه التقسيم الحصري للتعلّم من خلال السريّة وعدم القدرة على فكّ التشفير والخبرة. حتى عندما تُعاد إليك المعرفة المستمدّة من سلوكك في النصّ الأول باعتبارها مقابلًا للمشاركة، تلتقط العمليات السريّة الموازية للنصّ الظليّ الفائض السلوكي من أجل صياغته في منتجات تنبؤية مخصصة لأسواق أخرى تتعلق بك، وليس لك. لا تعتمد هذه الأسواق عليك إلا كمصدر للمواد الخام أولاً، والتي يُستخرج منها الفائض، ثم كهدف للحصول على نتائج مضمونة. ليس لدينا سيطرة رسمية لأنه لا ضرورة لنا لعمل السوق. نحن منفيون عن سلوكنا في هذا المستقبل، ومحرومون من الوصول إلى المعرفة المستمدّة من تجاربنا أو التحكم فيها. المعرفة والسلطة والنفوذ بيد رأس مال المراقبة الذي لا يُعتبر بالنسبة إليه سوى "موارد طبيعية بشرية".

الفصل الحادي عشر

الحق في زمن المستقبل

مكتبة

t.me/soramnqraa

لكنه رسم لذلك الشاب مستقبلاً كهذا:

بالتأكيد، كان من واجبه الآن أن يفرض،

ويعتمد على الوقت ليأتي بحب الحقيقة الصادق،

ومعه الامتنان. سقط نسره.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، IX

1- أرغب بالإرادة

أستيقظ باكراً. يبدأ يومي قبل أن أفتح عينيّ. ذهني مشغول. تتدفق الكلمات والجمل عبر أحلامي، تحلّ مشاكل صفحات الأمس. أول عمل في هذا اليوم هو استعادة تلك الكلمات التي تفتح لغزاً. حينها فقط أكون مستعداً لإيقاظ حواسي. أحاول تمييز كل تغريد طائر في السيمفونية خارج نوافذنا: طائر الفيني، وطائر الجناح الأحمر، وطائر القيق الأزرق، وطائر المحاكي، ونقار الخشب، والحسون، والزرزور، وطائر القرقف. وتحلق فوق كل أغانيها صيحات الإوز فوق البحيرة. أرشق وجهي بالماء الدافئ، وأشرب ماءً بارداً لأتبه جسدي، وأتواصل مع كلبنا في المنزل الهادئ. أحضر القهوة وأحضرها إلى مكتبي، حيث أجلس على كرسي مكتبي، وأشغل شاشة الحاسوب، وأبدأ. أفكر. أكتب هذه الكلمات، وأتخيلكم تقرأونها. أفعل ذلك كل يوم من كل أسبوع، كما أفعل منذ سنوات، ومن المرجح أن أستمّر في ذلك لعام أو عامين

أراقب الفصول من النوافذ فوق مكتبي: أولاً أخضر، ثم أحمر وذهبي، ثم أبيض، ثم يعود إلى الأخضر مجدداً. عندما يزورني أصدقائي، يلقون نظرة خاطفة على مكتبي. الكتب والأوراق مكدسة على كل سطح وفي معظم أنحاء الأرضية. أعلم أن مشهداً كهذا يُشعرهم بالإرهاق، وأشعر أحياناً أنهم يُشفقون عليّ بصمت بسبب التزامي بهذا العمل، وكيف يرسم مسار أيامي. لا أعتقد أنهم يدركون مدى حريتي. في الحقيقة، لم أشعر قطّ بحرية أكبر من هذه الحرية. هل يُعقل؟

لقد قطعْتُ وعداً بإكمال هذا العمل. هذا الوعد هو رايتي المُعلّقة في زمن المستقبل. إنه يُمثل التزامي ببناء مستقبل لا يُمكن أن يتحقق إن تخلّيتُ عن وعدي. لن يكون هذا المستقبل موجوداً دون قدرتي على تخيل حقائقه أولاً ثم إرادتي لتحقيقها. أنا أشبه بدودة تتحرك بعزم نحو هدف، عبر المسافة بين الآن والزمن الآتي. كل مساحة صغيرة من الأرض التي أجتازها تلتحقُ بالعالم المعروف، إذ تحوّل جهودي عدم اليقين إلى حقيقة. ولن ينهار العالم إذا تراجعت عن وعدي. سينجو ناشري من إلغاء العقد بيننا. وستجدون كتباً أخرى كثيرة للقراءة. وسأنتقل إلى مشاريع أخرى.

مع ذلك، فإن وعدي بمثابة مرساة تحميني من تقلّبات مزاجي وإغراءاتي. هذا نتاج إرادتي، وبوصلة تُوجّه مساري نحو مستقبلٍ منشودٍ لم يتحقق بعد. قد تنشأ أحداثٌ من مصادر طاقةٍ خارجةٍ عن إرادتي، وتُغيّر مساري فجأةً بطرقٍ لا أستطيع التنبؤ بها ولا التحكم فيها. وقد حدثت فعلاً. وعلى الرغم من هذه المعرفة المؤكدة بعدم اليقين، ليس لديّ أي شك بأنني حرة. أستطيع أن أعد بصنع مستقبل، وأفي بوعدي. وإذا أريدَ للكتاب الذي تخيلته أن يكون موجوداً في المستقبل، فذلك لأنني رغبت بالإرادة. أعيش في فضاء واسع يضمّ مستقبلاً لا أحد غيري يستطيع أن يتخيله أو يعدّ العدة له. وفي عالمي الخاص، هذا الكتاب الذي أوّلفه موجود فعلاً. أنا أجعله واقعاً من خلال وفائي بوعدي. هذه الإرادة هي ما أدعي أنه "زمن المستقبل".

أن تعدّ وعداً هو التنبؤ بالمستقبل؛ وأن تفي بالوعد من خلال تطبيق إرادتك يحوّل

هذا التنبؤ إلى حقيقة. قلوبنا تضحّ الدم، والكلّي تصفّي ذلك الدم، وإرادتنا تخلق المستقبل في الاكتشاف الصبور لكل جملة أو خطوة جديدة. هذه هي الطريقة التي نطالب بها بحقنا في التحدّث بضمير المتكلّم، باعتبار أن كل شخص منا هو مؤلّف مستقبله. خصّصت الفيلسوفة هانا آرندت مجلداً كاملاً لدراسة الإرادة باعتبارها "العضو الحي للمستقبل" بالطريقة ذاتها التي تُعتبر فيها الذاكرة العضو العقلي للماضي. تكمن قوة الإرادة في قدرتها الفريدة من نوعها على التعامل مع أمور لم يكن لها وجود إطلاقاً، "سواء أكانت مرئية أم غير مرئية". وكما يُظهر الماضي نفسه للعقل متخفياً دوماً في هيئة يقين، فإن السمة الأساسية للمستقبل هي عدم اليقين فيه، مهما ارتفعت درجة احتمالية التنبؤ به". عندما نشير إلى الماضي، فإننا نرى الأشياء فقط، لكن النظرة إلى المستقبل تجلب "مشاريع"، تجلب أشياء لم تتحقق بعد. مع حرّية الإرادة، نتخذ إجراءات تعتمد بالمطلق على تصميمنا على إنجاز مشروعنا. هذه أفعالٌ كان بإمكاننا "عدم القيام بها" لولا التزامنا. وتختتم آرندت قائلةً: "الإرادة غير الحرة هي تناقض في المصطلحات" (863).

الإرادة هي العضو الذي نستحضر به مستقبلنا. تشبيه آرندت للإرادة، باعتبارها "العضو العقلي لمستقبلنا"، يوحي بأنها شيء متأصلّ فينا: شيء عضوي، جوهري، غير قابل للمصادرة. وقد أطلق الفلاسفة الأخلاقيون على هذا الأمر اسم "الإرادة الحرة" لأنه يشكل النقيض الإنساني للخوف من عدم اليقين الذي يخنق الفعل الأصلي. تصف آرندت الوعود بأنها "جزر من القدرة على التنبؤ" و"علامات إرشادية للموثوقية" في "محيط من عدم اليقين". وتجادل بأن الوعود هي البديل الوحيد لنوع مختلف من "الإنقاذ" الذي يعتمد على "سيطرة المرء على نفسه، وحكم الآخرين" (864).

دارت نقاشات كثيرة فرضت مفهوم الإرادة الحرّة، لكن غالباً ما كان تأثيرها هو إسكات تصرّيحنا بإرادتنا، وكأننا محرجون من تأكيد هذه الحقيقة الإنسانية. وأنا أدرك

(863) هانا آرندت، حياة العقل، المجلد 2، وبلين (نيويورك: هاركورت بريس جوفانوفيتش، 1978)، 13-

(864) هانا آرندت، الوضع البشري (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1998)، 244.

أن تجربتي المباشرة عن الحرية هي حقيقة لا يمكن اختزالها فيما صاغه أتباع مذهب السلوكية عن الحياة باعتبارها عَرَضِيَّة وعشوائية بالضرورة، وتشكلها مؤثرات خارجية تتجاوز معرفتي أو تأثيري، وتطاردها عمليات ذهنية لا عقلانية وغير جديرة بالثقة لا يمكنني تمييزها أو تجنبها. (865)

يصل الفيلسوف الأمريكي جون سيرل، الذي ناقشنا عمله حول "التصريح" في الفصل السادس، إلى نتيجة مماثلة في بحثه حول "الإرادة الحرة". حيث أشار إلى "الفجوة السببية" بين أسباب أفعالنا وتفيدها. ويلاحظ أنه قد تكون لدينا أسباب وجيهة لفعل شيء ما، لكن هذا لا يعني بالضرورة أنه سيُنفَّذ. "الاسم التقليدي لهذه الفجوة في الفلسفة هو 'حرية الإرادة'". ويجادل في ردّه على "التاريخ القدر" لهذا المفهوم قائلاً: "حتى لو كانت الفجوة وهماً، فهي وهم لا نستطيع التخلص منه... إن فكرة تقديم الوعود والوفاء بها تفترض وجود الفجوة.... [إنها] تتطلب وعياً وإحساساً بالحرية من جانب الوكيل الذي يقدم الوعد ويحافظ عليه". (866)

إن حرية الإرادة هي الهيكل العظمي الوجودي الذي يحمل الجسد الأخلاقي لكل وعد، وإصراري على سلامتها ليس انغماساً في الحنين إلى الماضي، أو تفضيلاً عشوائياً للقصة الإنسانية ما قبل الرقمية باعتبارها أكثر إنسانية بطريقة أو بأخرى. هذا هو نوع الحرية الوحيد الذي يمكننا أن نضمّنه لأنفسنا، بغضّ النظر عن ثقل الإنترنت أو القصص الذاتية، وبغضّ النظر عن القوى والمخاوف التي تحاول أن تجعل الزمن ينهار في حالة أبدية من الجدالات العقيمة المشتتة الآن والآن والآن. وتشكّل هذه العظام الشرط الضروري لإمكانية الحضارة باعتبارها "بيئة أخلاقية" تعزّز كرامة الفرد وتحترم القدرات الإنسانية المتميزة للحوار وحل المشاكل. وأي شخص أو فكرة أو ممارسة تكسر هذه العظام، وتمزق هذا الجسد، تسرق منا مستقبلاً نصوغه بمسؤوليتنا الكاملة، ونصنعه بأنفسنا.

(865) انظر أيضاً مناقشة جون سيرل في كتاب "صنع العالم الاجتماعي: بنية الحضارة الإنسانية" (أكسفورد، جامعة أكسفورد، 2010)، 133.

(866) سيرل، صنع العالم الاجتماعي، 133، 136.

هذه المبادئ ليست مجرد كماليات، كما يقترح هال فاريان وآخرون، بل هي إنجازات تحققت بشقّ الأنفس، وتبلورت على مدى آلاف السنين من النضال والتضحية البشرية. لا تزدهر حريتنا إلا بإصرارنا على سدّ الفجوة بين الوعود والوفاء بها. ويحمل هذا الفعل ضمنياً تأكيداً على أنني أستطيع، من خلال إرادتي، التأثير على المستقبل. وهذا لا يعني بطبيعة الحال السلطة الكاملة على المستقبل، بل على الجزء الخاص بي من هذا المستقبل. وعلى هذا النحو فإن تأكيد حرية الإرادة يؤكد أيضاً الحق في الزمن المستقبلي كشرط للحياة الإنسانية الكاملة.

لماذا يجب أن نعتبر تجربة ادعاء أساسي كهذا الادعاء بالزمن المستقبلي حقاً من حقوق الإنسان؟ الإجابة المختصرة هي أن هذا الأمر ضروري الآن لأنه معرض للخطر. يجادل أن حقوقاً أساسية كهذه "للسمات الخاصة بالحياة البشرية" لا تتبلور كحقوق إنسانية رسمية إلا في تلك اللحظة من التاريخ عندما تتعرض لتهديد منهجي. وهكذا فإن القدرة على الكلام مثلاً هي أمر أساسي. لم ينشأ مفهوم "حرية التعبير" كحق رسمي إلا عندما تطّور المجتمع إلى درجة من التعقيد السياسي أصبحت فيها حرية التعبير مهددة. ويرى الفيلسوف أن الكلام ليس أكثر أهمية للحياة البشرية من التنفس أو القدرة على تحريك الجسم. ولم يصرح أحد "بالحق في التنفس" أو "الحق في حركة الجسد" لأن هذه الحقوق الأساسية لم تتعرض للهجوم وبالتالي لا تتطلب حماية رسمية. ويجادل سيرل بأن ما يُعتبر حقاً أساسياً هو أمر "مشروط تاريخياً" و"براغماتي". (867)

أنا أفترض أننا نواجه الآن لحظة من التاريخ يبدو فيها أن الحق الأساسي في المستقبل أصبح معرضاً لمخاطر بنية رقمية شاملة لتعديل السلوك، يملكها رأس المال المراقبة

(867) سيرل، 194-195. انظر أيضاً آلان ديرشويتز. الأستاذ في كلية الحقوق بجامعة هارفارد. الذي يقدم نظرية براغماتية لحقوق الإنسان ذات صلة بتحليلي. يجادل بأن "الحقوق هي تلك التفضيلات الأساسية التي أثبتت التجربة والتاريخ - وخاصةً فيما يتعلق بالظلم الكبير - أنها جوهرية لدرجة أنه ينبغي إقناع المواطنين بترسيخها وعدم جعلها عرضة للتغيير السهل من خلال تحول الأغلبية". بهذه الطريقة، تنبع الحقوق من المظالم. منهجه منهج "تصاعدي" لأن الإجماع عادةً ما يكون أكبر بكثير على ما يشكل ظلمًا فادحًا من الاتفاق على شروط العدالة الكاملة. آلان م. ديرشويتز. الحقوق من المظالم: نظرية علمانية لأصول الحقوق (نيويورك: بيسك، 2004)، 81-96.

ويديرها بشكل كامل، وتقتضيها ضرورتها الاقتصادية، وتدفعها قوانين حركتها، وذلك كله من أجل نتائجها المضمونة.

2- نحن نرغب بالإرادة

بعبارة بسيطة، لا توجد حرية دون عدم اليقين؛ فهو الوسيلة التي يُعبّر من خلالها عن الإرادة البشرية من خلال الوعود. وبطبيعة الحال، نحن لا نقطع وعودًا لأنفسنا فقط؛ يقطع أحدنا الوعود للآخرين أيضًا. عندما نجمع إرادتنا ووعودنا، فإننا نخلق إمكانية العمل الجماعي نحو مستقبل مشترك، مرتبطًا بالإصرار على جعل رؤيتنا حقيقة في العالم. وهذا هو أصل المؤسسة التي نسميها "العقد"، والتي بدأت مع الرومان القدماء. (868)

نشأت العقود كـ "جزر مشتركة من القدرة على التنبؤ" تهدف إلى التخفيف من حالة عدم اليقين بالنسبة إلى المجتمع البشري، وما زالت تحتفظ بهذا المعنى. ويرى أحد العلماء البارزين أن "أبسط طريقة لتوضيح وجهة نظر قانون العقود هي أنه يشكّل الممارسة الاجتماعية المتمثلة في تقديم الوعود والاتفاقيات والوفاء بها ويدعمها". ويقول آخر "إن قانون العقود يركّز على مشاكل التعاون". ووفقًا لملاحظة باحث آخر، "يعكس قانون العقود مبدأ أخلاقيًا قائمًا على الاحترام المتبادل بين الأشخاص. هذا ما يفسّر قدرة قانون العقود على إنتاج التزامات قانونية حقيقية، وليس مجرد نظام إكراه". (869)

تتجلى في هذا السياق الآثار المدمّرة لعدم التعاقد. تذكر تأكيد فاريان على أنه إذا توقف شخص ما عن سداد أقساط السيارة الشهرية، "أصبح من السهل في الوقت الحاضر إصدار تعليمات إلى نظام مراقبة المركبات بعدم السماح بتشغيل السيارة، والإشارة إلى الموقع الذي يمكن مصادرتها منه". ويطلق فاريان على هذه القدرة

(868) السير هنري ماين، القانون القديم (نيويورك: إي. بي. داتون وشركاه، 1861).
(869) ليام بي. مورفي، "ممارسة الوعد والعقد" (بحث، جامعة نيويورك للقانون العام والنظرية القانونية، 2014)، 2069؛ أفيري ديليو. كاتز، "سلطة العقد - من يحتاج إليها؟" جامعة شيكاغو للقانون 81، العدد 4 (2014): 27؛ روبن برادلي كار، "العقد كتمكين"، جامعة شيكاغو للقانون 83، العدد 2 (2016): 1.

الجديدة اسم "شكل العقد الجديد"، في حين أن عدم وجود عقد في الواقع يتخلى عن العالم البشري المليء بالوعود الملزمة قانونًا، ويستبدل به حسابات وضعية للعمليات الآلية. (870) ودون حتى إلقاء تحية الوداع أو الأمنيات بالتوفيق، يتخلص إلغاء العقد، الذي اقترحه فاريان، من آلاف السنين من التطور الاجتماعي الذي قامت الحضارة الغربية من خلاله بتأسيس العقد باعتباره إنجازًا عظيمًا للإرادة المشتركة.

معروف أن مؤسسة العقد قد تعرضت للتحريف والإساءة في كل العصور، من قانون ريكيريميتو إلى "عقد العبيد"، حيث تفرض السلطة القائمة تفاوتات مؤلة تستنزف معنى الوعد المتبادل، بل وإمكانيته أيضًا. (871) على سبيل المثال، حذر ماكس فيبر من أن الإنجازات العظيمة التي تحققها حرية التعاقد تخلق فرصًا لاستغلال ملكية الممتلكات كوسيلة "لتحقيق السلطة على الآخرين". (872)

لكن عدم إبرام العقود اليوم هو أمر غير مسبوق في قدرته على فرض سلطة أحادية الجانب. إنهم يستخدمون هذه الأجهزة للجمع بين المراقبة الشاملة والعمل عن بعد من أجل "اقتصاد جديد" مدعوم بالإنترنت يتجاوز الوعود البشرية والمشاركة

(870) هال فاريان، "ما وراء البيانات الضخمة"، مجلة الأعمال والاقتصاد، المجلد 49، العدد 1 (يناير 2014). هذه المعلومات الكاملة هي ما يُطلق عليه خبراء الاقتصاد السلوكي "العقلانية غير المحدودة" أو "الكفاءة المعرفية غير المقيّدة". انظر أوليفر إي. ويليامسون، المؤسسات الاقتصادية للرأسمالية (نيويورك: فري برس، 1998)، 30.

(871) لتفحص دقيق لمشكلة العقد الزائف وغيره من أشكال القوالب الجاهزة، انظر روبن كار ومارغريت رادين، "تحليل العقد الزائف والمعنى المشترك" (يحدث في الدراسات القانونية، كلية الحقوق بجامعة إلينوي، 16 نوفمبر 2017).

(872) جادل فيبر بأن "لامركزية التشريع" المنجسدة في "الترتيب الخاص للعقود" لا تؤدي بالضرورة إلى "انخفاض في درجة الإكراه". وحذر من أنه عندما يفرض نظام قانوني عددًا قليلًا من "القواعد الإلزامية والمحظورة، وعددًا كبيرًا من "الحريات" و"التمكينات"، فإنه مع ذلك قد يُسهّل... زيادة كمية ونوعية ليس فقط في الإكراه بشكل عام، بل تحديدًا في الإكراه الاستبدادي. هذه هي الطريقة التي استخدم بها أصحاب العمل الصناعيون في أوائل القرن العشرين حقوقهم في حرية التعاقد لتوظيف عمالة الأطفال، والمطالبة بأيام عمل لا تتجاوز اثنتي عشرة ساعة، وفرض ظروف عمل خطيرة. وهي الطريقة التي حوكمنا بها باتفاقيات غير شرعية وجبرية، وجدواضعوها ملجأً مماثلًا في مطالباتهم بحرية التعاقد. انظر ماكس فيبر، الاقتصاد والمجتمع: مخطط لعلم الاجتماع التفسيري، المجلد 2 (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1978)، 668.

الاجتماعية.⁽⁸⁷³⁾ يهدف عدم إبرام العقود إلى حالة يصفها الخبير الاقتصادي أوليفر ويليامسون بأنها "يوتوبيا التعاقد": حالة من المعلومات الكاملة المعروفة لدى الناس العقلانيين فعلاً ويؤدّون تمامًا ما وعدوا به.⁽⁸⁷⁴⁾ وكما يقول ولييامسون، "المشكلة هي أن جميع العقود المعقدة غير مكتملة لا محالة... وسوف تواجه الأطراف الحاجة إلى التكيف مع الاضطرابات غير المتوقعة التي تنشأ بسبب الثغرات والأخطاء والإغفالات في العقد الأصلي".⁽⁸⁷⁵⁾

إذا سبق لك أن رأيت منزلاً مبنياً وفقاً لمخططات معمارية، فسيكون لديك فكرة جيدة عما يقصده ولييامسون. لا يوجد مخطط تفصيلي كافٍ لكل ما يلزم لتحويل الرسومات والمواصفات إلى منزل فعلي. لا توجد خطة تتوقع كل المشاكل التي قد تنشأ، ومعظمها لا تقترب من حلها. إن مهارات البنائين هي وظيفة لكيفية تعاونهم في ابتكار الإجراءات التي تحقق غرض الرسومات أثناء حل التعقيدات غير المتوقعة، بل الحتمية، التي تنشأ على طول الطريق. إنهم يعملون معاً لبناء واقع من عدم اليقين في الخطة.

مثل البنائين، ينخرط العاملون في العقود المبرمة في هذا النوع من التعاون. لا يقتصر الأمر على إيجاد طريق عبر متاهة للوصول إلى نقطة نهاية متفق عليها مسبقاً، بل يشمل أيضاً التحسين والتوضيح المستمرين للغايات والوسائل في مواجهة عقبات غير متوقعة. قد يؤدّي هذا النوع من التعاقد إلى الصراع أو الإحباط أو القمع أو الغضب، لكنها تؤدّي أيضاً إلى الثقة والتعاون والتماسك والتكيف باعتبارها وسائل يواجه بها البشر مستقبلاً مجهولاً.

يقول ولييامسون إنه لو وُجدت "طوباوية العقد"، فمن الأفضل وصفها بأنها "خطة" تتطلّب، كغيرها من "الأنماط الطوباوية"، "التزاماً عميقاً بالأهداف الجماعية"

(873) هال آر. فاريان، "المشهد الاقتصادي: إذا كان هناك اقتصاد جديد، فلماذا لم نرَ اقتصاداً جديداً؟" نيويورك تايمز، 17 يناير 2002.

(874) ولييامسون، المؤسسات الاقتصادية للرأسمالية.

(875) أوليفر إي. ولييامسون، "نظرية الشركة باعتبارها هيكل حوكمة: من الاختيار إلى العقد"، مجلة وجهات النظر الاقتصادية 16، العدد 3 (2002): 174.

و"التبعية الشخصية". التبعية لأي شيء؟ التبعية للخطئة. وهذا العقد، في سياق العقلانية المثالية، هو ما يصفه ويليامسون بأنه "عالم تخطيط". لقد كان هذا النوع من التخطيط هو المؤسسة الأساسية للاقتصاد الاشتراكي، حيث تم تصوير "الإنسان الجديد" على أنه شخص يتمتع "بمستوى عال من الكفاءة المعرفية"، وبالتالي، تم تبني هذا المفهوم، ويمكنه تصميم خطط فعالة للغاية.⁽⁸⁷⁶⁾ لقد نجح فاريان بمهارة في استبدال "الرجل الجديد" في الاشتراكية، وتثبيت سوق محدد من خلال الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة، والتي يُعبّر عنها من خلال بنية حسابية شاملة، وقدرات الذكاء الآلي التي تُزوّد بالبيانات باستمرار، وبالتحليلات التي تميز الأنماط، وبالخوارزميات التي تحولها إلى قواعد. هذا هو جوهر عدم إبرام العقود، الذي يحول المخاطر الإنسانية والقانونية والاقتصادية للعقود إلى خطط يتم إنشاؤها ومراقبتها وصيانتها من قبل شركات خاصة من أجل ضمان النتائج: إنها ديستوبيا عدم تعاقد أكثر مما هي طوباوية تعاقد.

في نوفمبر/ تشرين الثاني 2016، كانت تجربة ثلاثة أشخاص في بلدة بيلفيل الصغيرة بولاية إلينوي شهادة على ما نخسره عندما نُخضع أنفسنا لحكم عدم التعاقد البائس. كان بات وستانفورد كيينغ مدينين للاتحاد الائتماني التابعين له بمبلغ 350 دولارًا على سيارتهما من طراز بويك عام 1998. مرة أخرى، لم يتمكنوا من سداد قسطهم الشهري البالغ 95 دولارًا. فتعاقد اتحاد شركات التأمين مع جيم فورد، وهو مسؤول محلي في مجال استرداد الأموال، لأخذ سيارتهما.

عندما زار فورد منزل عائلة كيينغ في بيلفيل، انزعج عندما وجد زوجين مسنين مُجبرين على الاختيار بين شراء الدواء ودفع أقساط سيارتهما. كان رد فورد الأولي هو التنازل عن رسوم استعادة ممتلكاته. قدّم الزوجان شكرهما الجزيل للسيد فورد، ودعواه ليشرب الشاي، وشاركاه قصتهما. عندئذٍ قرر فورد رَأب الصدع بين الواقع

(876) ويليامسون، المؤسسات الاقتصادية للرأسمالية، 30-31، 52. ببصيرته المعهودة، ربط يفغيني موروزوف هذه العلاقة في مناقشة استشرافية عام 2014 حول أصول تحليلات "البيانات الضخمة" في طموحات المخططين الاشتراكيين. يفغيني موروزوف، "آلة التخطيط"، مجلة النيويوركر، 6 أكتوبر/ تشرين الأول 2014.

غير المؤكّد وشروط عقدهما. حاول أن يتصرّف بشكل إنساني، فاتصل باتحاد الائتمان وعرض عليه سداد دين الزوجين.

أصرّ مدير اتحاد الائتمان على فورد أن يتبع "التعليمات". واصل فورد استحضار المبادئ الاجتماعية القديمة للعقد، باحثًا عن طريق عبر المتاهة إلى شيء يشبه العدالة. وفي النهاية وافق المدير على "العمل مع" الزوجين لمعرفة ما يمكن فعله. لم ينتهِ الأمر عند هذا الحد. ففي غضون أربع وعشرين ساعة، نتج عن حملة تبرعات إلكترونية ما يكفي لسداد ثمن سيارة عائلة كيينغ، وتجهيزها، وشراء ديك رومي لعيد الشكر، وتقديم هدية إضافية للزوجين بقيمة 1000 دولار.

ما يثير الاهتمام أكثر أن إحدى الصحف المحلية نشرت القصّة، وانتشر الخبر بسرعة هائلة عبر الإنترنت ووسائل الإعلام التقليدية. قرأ ملايين الأشخاص هذه الدراما وتفاعلوا معها، ربما لأنها أثارت ذكريات شيء ثمين وضروري، لكنه الآن مهدد بالانقراض. يذكّرنا جيم فورد بأعزّ ما تضرّر من متطلّبات الحياة: تمسّكنا المشترك بحقوقنا في زمن المستقبل، وتجسيده في اتحاد الإيرادات في التزام متبادل بالحوار، وحلّ المشاكل، والتعاطف. كان واضحًا جدًّا في هذه النقطة: "كن لطيفًا مع الناس وحسب". الأمر ليس صعبًا. من المحزن للغاية أن يتفاقم الوضع إلى هذا الحد. يجب أن يكون هذا التصرف هو التصرف اليومي الطبيعي". (877)

لن يكون هذا النشاط البشري اليومي طبيعيًا في عالم عدم التعاقد البائس. ماذا لو استخدم اتحاد الائتمان نظام "سبيرون" لأدوات القياس عن بعد، واضطرّ إلى إصدار تعليمات لنظام مراقبة المركبات بتعطيل السيارة؟ لم نكن لنجد حينها موظفًا مسؤولًا يتجاذب أطراف الحديث مع عملائه. ولرأينا الخوارزمية المكلفة بالقضاء على ثورات الإرادة البشرية الفوضوية وغير المتوقعة وغير الجديرة بالثقة هي التي ستسيطر على سيارة "البيويك" القديمة. ولما كان هناك دعوة لتناول الشاي مع عائلة كيينغ، ولما

(877) "مسؤول استرداد السيارات يساعد في سداد فاتورة سيارة زوجين مسنين"، إيه بي سي نيوز، 23 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016 سارة لاريمر، "رجل استرداد سيارات لم يرغب في مصادرة سيارة زوجين مسنين، فساعد في سداد ثمنها لهما"، واشنطن بوست، 24 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016

استمع أحد إلى قصتها. ولما كان هناك أية فرصة لإيجاد طرق بديلة عبر المتاهة، ولا فرصة لبناء الثقة، ولا مناسبة للعمل الجماعي، وال قصة عطلة مؤثرة مليئة باللطف، ولا بصيص أمل بمستقبل إنساني تُحفظ فيه أفضل مؤسساتنا وتُعزّز، ولا تحدُّ مشترك لعدم اليقين ولا حرية مشتركة.

في عالم ديستوبي لا تعاودي، يملأ دافع رأسمالية المراقبة نحو اليقين الفراغ الذي كان يشغله سابقاً العمل البشري المتمثل في بناء الثقة الاجتماعية وتجديدها، والذي يُعاد تفسيره الآن بوصفه احتكاكاً غير ضروري في المسيرة نحو نتائج مضمونة. ويُحتفى الآن بإزالة حالة عدم اليقين بوصفها انتصاراً على الطبيعة البشرية: انتصاراً على مكرنا وانتهازيتنا. وكل ما يتبقى من تلك المسألة هو القواعد التي تترجم الأسباب إلى أفعال، ومقاييس السلوك الموضوعية، ودرجة التوافق بينهما. تذبل الثقة الاجتماعية في نهاية المطاف، وتصبح بمثابة حالة غريبة أو شاذة: لم تعد آثار الماضي التطوري تظهر بشكل عملي لأن سياقها، وبالتالي الهدف منها، قد تلاشى.

إن حلقات تعديل السلوك الهادفة لتحقيق الأرباح، والتي تُنفذ أهدافها من خلال عدم إبرام العقود، ترى المجتمع أشبه بأرض قاحلة يُنظر فيها إلى انعدام الثقة وكأنه من المسلّمات. ومن خلال طرح فكرة أن حياتنا معاً هي فكرة فاشلة فعلاً، يُبرّر التدخل القسري من أجل اليقين. وعلى هذه الخلفية من إضفاء طابع طبيعي تدريجي على الخطأ الآلية ومخططيها، تشهد استجابة إنسانية كتلك التي قام بها موظف استرداد السيارات ببساطة على ما ينبغي على رأسمالية المراقبة أن تقضي عليه.

إن استعادة المخزون البشري الناتج عن الإخفاقات والانتصارات في اختيار المستقبل في مواجهة عدم اليقين يفسح المجال للفراغ المتمثل في الامتثال الدائم. تظل كلمة الثقة باقية، لكن ما تشير إليه في التجربة الإنسانية يتلاشى في الذكريات، في حاشية قديمة لحلم لا نكاد نتذكره، عن حلم تلاشى منذ زمن طويل من أجل ديكتاتورية جديدة لمنطق السوق. مع موت الحلم، يموت شعورنا بالدهشة والاحتجاج. نصاب بالخدر، وهذا الخدر يمهّد الطريق لمزيد من الخضوع. إن التقسيم

الرَّضَىَّ للتعلّم، وما نتج عنه من عدم توازن غير مسبوق في المعرفة والسلطة، يضعنا في حالة عدم مساواة جديدة تتسم بوجود من يُضَبُّط ومن يُضَبِّط، ورُعاة وقطيع، ومادة خام وعمال، ومجرّبين وموضوعاتهم غير المُدرّكة، وأولئك الذي سيصنعون المستقبل وأولئك الذين يُدفعون نحو نتائج الآخرين المضمونة.

لذلك، دعنا نثبت أقدامنا. فالشكّ ليس فوضى، بل هو البيئة الضرورية للحاضر. نحن نختار "عدم وجود عصمة" للوعود المشتركة وحلّ المشاكل بدلاً من الاستبداد المؤكّد الذي تفرضه قوّة أو خطة مهيمنة، لأن هذا هو الثمن الذي ندفعه مقابل حرية الإرادة التي ترسخ حقنا في الزمن المستقبلي. ففي غياب هذه الحرية، ينهار المستقبل إلى حاضر لا نهائي من السلوك المحض، حيث لا يكون هناك مواضيع ولا مشاريع: هناك أشياء فقط.

في المستقبل الذي تُعدّه لنا رأسالية المراقبة، تُهدّد إرادتي وإرادتك عائدات المراقبة. وهي لا تهدف إلى تدميرنا بل إلى جعلنا نستجيب ببساطة، والاستفادة من استجابتنا. وسبق أن خُلِقَت وسائل كهذه في الماضي لكنها لم تصبح قابلة للتنفيذ حتى الآن. لقد رُفِضَت في الماضي، وسُمِحَ لها بالتجذّر الآن. نحن مطوّقون دون وعي منا، ومحرومون من بدائل مُجدية للانسحاب أو المقاومة أو الحماية.

إن الوعد بالوعد، وإرادة الإرادة، هما أعمق من هذه التشوهات. فهي أشياء تذكرنا مرّة أخرى بذلك المكان الذي كنا نعمل فيه نحن البشر على رأب الصدع بين المعروف والمجهول، ونخوض بحار عدم اليقين في سفننا المحمّلة بالوعود المشتركة. فلا يوجد في عالم المساعي الإنسانية الحقيقي معلومات مثالية ولا عقلانية مثالية. تدفعنا الحياة إلى العمل والالتزام حتى في ظل غموض المستقبل. ويعرف ذلك كل من أنجب طفلاً أو منح قلبه للحبّ.

علم المستقبل عند الله، لكننا نتحرّك إلى الأمام، ونخاطر بحياتنا، ونربط أنفسنا بالآخرين على الرغم من أننا لا نستطيع أن نعرف كل شيء عن الحاضر، ناهيك عن المستقبل. هذا هو جوهر حريتنا الذي نعبر عنه بالحقّ الأساسي في الزمن المستقبلي.

ومع بناء وسائل تعديل سلوك جديدة وتملّكها، يتوافق مصير هذا الحقّ مع النموذج الذي حددناه فعلاً. فهو حقّ لم ينطفئ بل اغتُصِب: تم الاستيلاء عليه ومراكمته من خلال مطالب رأسمالية المراقبة الحصرية على مستقبلنا.

3 - كيف استطاعوا النجاة بفعلتهم؟

جادلتُ على مدار الفصول العشرة السابقة بأن رأسمالية المراقبة تمثّل منطق تراكم غير مسبوق يتحدد من خلال الضرورات الاقتصادية الجديدة التي لا يمكن فهم آلياتها باستخدام النماذج والافتراضات القائمة. لكن هذا لا يعني أن الضرورات القديمة - فرض تعظيم الربح، وتكثيف وسائل الإنتاج والنمو والمنافسة - قد اختفت. لكن يتعيّن على هذه الأنظمة أن تعمل الآن من خلال أهداف رأسمالية المراقبة الجديدة وآلياتها. سأستعرض الضرورات الجديدة بشكل مقتضب هنا، باعتبارها تلخيصاً للأرضية التي نتناولها، وباعتبارها مقدّمة لسؤال هام مفاده: كيف استطاعوا النجاة بفعلتهم؟

تبدأ قصة رأسمالية المراقبة الجديدة مع الفائض السلوكي الذي اكتُشِفَ جاهزاً إلى حد ما في البيئة عبر الإنترنت، عندما أدركنا أن "عادم البيانات" الذي يُثقل خوادم غوغل يمكن أن يُدمَج مع قدراتها التحليلية القوية لإنتاج تنبؤات حول سلوك المستخدم. وأصبحت منتجات التنبؤ هذه بمثابة الأساس لعملية مبيعات مربحة للغاية أشعلت أسواقاً جديدة في السلوك المستقبلي.

تحسّن "الذكاء الآلي" لدى غوغل مع زيادة حجم البيانات، مما أدّى إلى تشكيل منتجات تنبؤ أفضل. وقد رسّخت هذه الديناميكية ضرورة الاستخراج، التي تعبّر عن ضرورة اقتصاديات الحجم في تراكم الفائض، وتعتمد على أنظمة آلية تعمل بلا هوادة على تتبّع الفائض السلوكي ومطاردته وتحفيزه. ثم فرضت شركة غوغل منطق الغزو، وعرّفت التجربة الإنسانية بأنها مجانية ويمكن الاستفادة منها، ومتاحة لتقديمها كبيانات، والمطالبة بها كأصول خاضعة للرقابة. وتعلّمت الشركة كيفية استخدام استراتيجيات خطابية وسياسية وتكنولوجية معيّنة لإخفاء هذه العمليات وتداعياتها.

دفعت الحاجة إلى الحجم إلى بحث متواصل عن إمدادات جديدة بكميات كبيرة من الفائض السلوكي، مما أنتج ديناميكيات تنافسية تهدف إلى احتكار إمدادات المواد الخام هذه، والبحث عن مساحات غير محمية خارجة عن القانون لملاحقة هذه الأفعال غير المتوقعة، وغير المفهومة بشكل جيد، الهادفة إلى نزع الملكية. في غضون ذلك، دأب رأسماليو المراقبة، سرًا ولكن بثبات، على تعويدنا على ادعاءاتهم. وفي ظل هذه العمليات، أصبح وصولنا إلى المعلومات والخدمات الضرورية مرهونًا بعملياتهم، واندجت وسائل مشاركتنا الاجتماعية مع مصالحهم.

اعتمدت منتجات *التنبؤ* المربحة على الفائض السلوكي، كما أدت المنافسة إلى دفع تحديات العرض إلى مستوى جديد، وهو ما عبّرت عنه في ضرورة *التنبؤ*. وتطلّبت منتجات *التنبؤ* الفعالة وفرة في النطاق والمقياس، وكذلك التباين والحجم. ويحدث هذا التباين على بعدين: الأول التوغل في مجموعة واسعة من الأنشطة؛ والثاني هو عمق التفاصيل التنبؤية في كل نشاط.

يُجبر رأسماليو المراقبة، هذه المرحلة الجديدة من حدة المنافسة، على الانتقال من العالم الافتراضي إلى العالم الحقيقي. يتطلب هذا الانتقال عمليات آلية جديدة لترجمة جميع جوانب التجربة الإنسانية إلى بيانات سلوكية. وتنشأ المنافسة الآن في سياق بنية حوسبة شاملة عالمية سريعة التطور، وبالتالي فرص توريد شاملة، حيث يزداد توقع لمنتجات *التنبؤ* أن تقارب اليقين، وبالتالي تضمن النتائج السلوكية.

في المرحلة الثالثة من شدة المنافسة، اكتشف رأسماليو المراقبة ضرورة *اقتصاديات الأداء* القائمة على أساليب جديدة تتجاوز مجرد تتبع السلوك والتقاطه وتحليله والتنبؤ به من أجل التدخل في حالة اللعب وتشكيل السلوك بشكل نشط في المصدر. النتيجة هي أن وسائل الإنتاج أصبحت تابعة لوسائل تعديل سلوك جديدة معقدة تعتمد على مجموعة متنوعة من العمليات والتقنيات والتكتيكات الآلية (الضبط، والتوجيه، والتكييف) لتشكيل سلوك الفرد والجماعة والسكان بطرق تعمل باستمرار على تحسين تقريبهم من النتائج المضمونة. وكما دفعت الرأسمالية الصناعية إلى التكثيف المستمر

لوسائل الإنتاج، أصبح رأساليو المراقبة محاصرين الآن في حلقة مفرغة من التكثيف المستمر لوسائل تعديل السلوك.

تحوّلت اهتمامات رأساليي المراقبة من استخدام العمليات الآلية لمعرفة سلوكك إلى استخدام العمليات الآلية لتشكيل سلوكك وفقاً لمصالحهم. بعبارة أخرى، قادنا هذا المسار الممتد لعقد ونصف من أتمتة تدفق المعلومات عنك إلى أتمتتك. ونظراً لظروف ترايد الانتشار، أصبح من الصعب، إن لم يكن من المستحيل، الهروب من هذه الشبكة الضارية والعنيدة.

لكي نستعيد توجّهنا، طالبُ بولادة الدهشة والسخط من جديد. والأهم من لك كله، أنني طالبُ برفض ميثاق المشاركة الفاوستي القائم على نزع الملكية، والذي يفرض علينا الخضوع لوسائل تعديل السلوك المبنية على أساس تصريحات غوغل. ومع ذلك، أدرك أيضاً أنه عندما نسأل: كيف استطاعوا النجاة بفعلتهم؟ ثمة أسبابٌ مُقنعة كثيرةٌ يجب مراعاتها، ولا يوجد سببٌ واحدٌ منها قائمٌ بذاته.

يصبح سؤالنا أكثر إزعاجاً في ضوء حقيقة أن غالبية الاستطلاعات، التي صُمِّمَت لاستكشاف مواقف الجمهور من فقدان الخصوصية والعناصر الأخرى من ممارسات رأسالية المراقبة، أظهرت أن قلة قليلة منا يفضلون الوضع الراهن. ففي ستة وأربعين من أبرز ثمانية وأربعين استطلاعاً أُجريت بين عامي 2008 و2017، أيدت الغالبية العظمى التدابير الرامية إلى تعزيز الخصوصية وسيطرة المستخدم على البيانات الشخصية. (ثمة دراستان أوليتان فقط أقل حسماً إلى حد ما، لأن العديد من المشاركين أشاروا إلى أنهم لم يفهموا كيفية جمع المعلومات الشخصية أو نوع المعلومات التي جُمِعت). ومع مطلع العام 2008، أصبح ثابتاً أنه كلما ازدادت معرفة الشخص "بممارسات الخصوصية على الإنترنت"، ازداد احتمال شعوره بالقلق الشديد بشأن الخصوصية. (878)

(878) كريس هوفناغل وجينيفر كينغ، "بحث: ما يفهمه سكان كاليفورنيا بشأن الخصوصية خارج الإنترنت" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 15 مايو/ أيار 2008).

على الرغم من اختلاف الاستطلاعات من حيث تركيزها المحدد والأسئلة المطروحة، يُعتبر الاتساق العام في الاستجابات على مدى العقد أمر جدير بالملاحظة. وعلى سبيل المثال وجدت دراسة استقصائية مهمة أُجريت عام 2009 أنه عندما يُبلغ الأمريكيون بالطرق التي تجمع بها الشركات البيانات من أجل الإعلانات المستهدفة عبر الإنترنت، يرفض 73-86٪ منهم هذه الإعلانات. وأظهر استطلاع رأي واسع النطاق أُجري عام 2015 أن 91٪ من المشاركين لا يوافقون على أن جمع المعلومات الشخصية "دون علمهم" يُعدّ مقايضة عادلة مقابل تخفيض في السعر. بينما رفض 55٪ منهم اعتباره مقايضة عادلة مقابل تحسين الخدمات. في عام 2016 أفاد مركز بيو للأبحاث أن 9٪ فقط من المشاركين كانوا واثقين جدًا من تعامل مواقع التواصل الاجتماعي مع بياناتهم، بينما أبدى 14٪ منهم ثقة كبيرة في منح الشركات بياناتهم الشخصية. وأعرب أكثر من 60٪ عن رغبتهم في بذل المزيد من الجهود لحماية خصوصيتهم، ورأوا أنه ينبغي وضع المزيد من اللوائح لحماية الخصوصية.⁽⁸⁷⁹⁾

تميل شركات رأسمالية المراقبة إلى تجاهل نتائج هذه الاستطلاعات، وتشير إلى النمو المذهل في عدد المستخدمين والإرادات. وقد أربك هذا التناقض الأبحاث والسياسات العامة. ومع رفض الكثيرين لممارسات رأسمالية المراقبة، حتى مع قلة معرفة معظمنا بها، كيف نجح هذا الشكل من السوق؟ الأسباب كثيرة:

1- غير المسبوق: لم يتمكن معظمنا من مقاومة التوغّل المبكر لشركة غوغل وفيسبوك وغيرهما من شركات رأسمالية المراقبة لأنه كان من المستحيل التعرّف على الطرق التي اختلفوا بها عن أي شيء سابق. إذ كانت الآليات التشغيلية الأساسية وممارسات الأعمال جديدة وغريبة للغاية، وفريدة من نوعها تمامًا، لدرجة أن كل ما كنا نستطيع رؤيته هو مجموعة من عربات "مبتكرة" لا تجربها خيول. والأهم من ذلك

(879) جوزيف تورو وآخرون، "الأمريكيون يرفضون الإعلانات المُخصّصة وثلاثة أنشطة تُمكنها"، كلية أننبرغ للاتصالات، 29 سبتمبر/ أيلول 2009؛ جوزيف تورو ومايكل هينيسي ونورا دراير، "مغالطة المقايضة: كيف يُشوّه المسوقون صورة المستهلكين الأمريكيين ويُعرضونهم للاستغلال"، كلية أننبرغ للاتصالات، يونيو/ حزيران 2015؛ لي زيني، "مشاعر الأمريكيين المُعقّدة تجاه وسائل التواصل الاجتماعي في عصر مخاوف الخصوصية"، مركز بيو للأبحاث، 27 مارس/ آذار 2018.

أن القلق واليقظة انصبَّ على التهديدات المعروفة للرقابة والسيطرة، المرتبطة بسلطة الدولة. وقد فُهِمَت عمليات تعديل السلوك واسعة النطاق السابقة على أنها امتداد للدولة، ولم تكن مستعدّين لهجوم الشركات الخاصة.

2- التصريح باعتباره غزواً: جعلنا غياب السوابق مُحْبِطِينَ مندهشين. وفي غضون ذلك، تعلّمت غوغل فن الغزو بالتصريحات، حيث أخذت ما تريده، وادّعت ملكيتها له. وأكدت الشركة حقوقها في تجاوز وعينا، والاستفادة من تجربتنا وتحويلها إلى بيانات، والمطالبة بملكية تلك البيانات واتخاذ القرارات بشأن استخدامها، وإنتاج استراتيجيات وتكتيكات تجعلنا جاهلين بممارساتها، والإصرار على شروط الفوضى المطلوبة لهذه العمليات. وقد أدّت هذه التصريحات إلى ترسيخ مفهوم رأسمالية المراقبة باعتباره شكلاً من أشكال السوق.

3- السياق التاريخي: وجدت رأسمالية المراقبة ملجأ لها في روح العصر الليبرالي الجديد الذي ساوى بين الاستبداد والتنظيم الحكومي للأعمال. وفضّل هذا الأسلوب المروّع أنظمة الإدارة الذاتية التي لم تفرض سوى قيود بسيطة على ممارسات الشركات. وفي تطوّر موازٍ، حوّلت "الحرب على الإرهاب" انتباه الحكومة من تشريعات الخصوصية إلى اهتمام مُلَحٍّ بالمهارات والتقنيات سريعة التطوّر التي تقدّمها غوغل وغيرها من شركات رأسمالية المراقبة الصاعدة. وقد أدّت هذه "التقاربات الاختيارية" إلى إنتاج توجّه نحو استثنائية المراقبة، الأمر الذي أدّى إلى مزيد من حماية شكل السوق الجديد من التدقيق ورعاية تطوّره.

4- التحصينات: قامت غوغل بحماية عملياتها بقوة من خلال ترسيخ خدماتها في العملية الانتخابية، والعلاقات القوية مع المسؤولين المنتخبين والمعينين، وحركة مستمرة لموظّفين أساسيين بين واشنطن ووادي السليكون، ونفقات الضغط الباذخة، وحملة "القوة الناعمة" الثابتة للتأثير الثقافي والاستحواذ.

5- دورة نزع الملكية: أتقن قادة رأسمالية المراقبة، أولاً في غوغل، ثم في فيسبوك وشركات أخرى، إيقاعات نزع الملكية ومراحلها. ينفّذون عمليات توغّل جريئة حتى

تُقابل بالمقاومة، تليها مجموعة تكتيكات بدءًا بمناورات العلاقات العامة المعقدة إلى النضال القانوني، وكلها مصممة لكسب الوقت للتعود تدريجيًا على الحقائق الفاضحة. وتشمل المرحلة الثالثة المظاهر العامة للقدرة على التكيف، وحتى التراجع، ويحدث في المرحلة النهائية إعادة توجيه الموارد لتحقيق الأهداف السابقة ذاتها من خلال خطاب وتكتيكات جديدة.

6- الاعتماد: تتوافق الخدمات المجانية التي تقدمها غوغل وفيسبوك وغيرهما من الشركات مع الاحتياجات الكامنة لدى أفراد عصر الحداثة الثانية الذين يسعون إلى الحصول على الموارد اللازمة لحياة فاعلة في بيئة مؤسسية كثيرة العدائية. عندما تقضم تفاحة، لا تعود قادرًا على المقاومة. ومع انتشار رأسمالية المراقبة عبر الإنترنت، أصبحت وسائل المشاركة الاجتماعية متوازية مع وسائل تعديل السلوك. إن استغلال احتياجات الحداثة الثانية التي مكّنت رأسمالية المراقبة منذ البداية، غرست في نهاية المطاف كل قنوات المشاركة الاجتماعية تقريبًا. ويجد معظم الناس صعوبة في الانسحاب من هذه الخدمات، ويتساءل كثيرون إن كان ذلك ممكنًا أصلًا.

7- المصلحة الذاتية: تؤدّي أسواق السلوك المستقبلي الجديدة إلى ظهور شبكات من المسافرين الآخرين، والشركاء، والمتعاونين، والعملاء الذين تعتمد إيراداتهم على ضرورة التنبؤ. وتتكاثر الحقائق المؤسسية. يجتمع مالك مطعم بيتزا على خريطة لعبة "بوكيمون غو"، مع تاجر يملأ متجره بـ "الباكون" (Beacons)، مع شركات التأمين في المنافسة على البيانات السلوكية، في السباق نحو تحقيق نتائج مضمونة وإيرادات المراقبة.

8- الشمولية: يعتقد الكثيرون أن عدم وجودك على فيسبوك يعني عدم وجودك في الحياة. ويتسابق الناس حول العالم للمشاركة في لعبة "بوكيمون غو". ومع كل هذه الطاقة والنجاح ورأس المال المتدفق إلى مجال رأسمالية المراقبة، فإن الوقوف خارجها، ناهيك عن الوقوف ضدها، قد يبدو وكأنه احتمال أن تبقى وحيدًا ومعرضًا للخطر.

9- التعريف: يصوّر رأسماليو المراقبة أنفسهم وكأنهم رجال أعمال أبطال.

ويتمهى كثير من الناس مع نجاحهم المالي وشعبيتهم، ويُعجبون بهم، ويعتبرونهم قدوة.

10- السلطة: ينظر كثيرون إلى هذه الشركات وقادتها بوصفهم خبراء في معرفة المستقبل: عابرةً يرون أبعد منا. من السهل الوقوع فريسة للمغالطة الطبيعية التي ترى أن نجاح الشركات يعني بالضرورة أنها على حق. لذلك يُقدّر كثير منا خبرة هؤلاء القادة، ويتطلعون إلى المشاركة في ابتكاراتٍ تستشرف المستقبل.

11- الإقناع الاجتماعي: كما رأينا مرارًا وتكرارًا، ثمة سبيل لا ينضب من الخطابات المُضَلَّلة التي تهدف إلى إقناع الناس بالعجائب المرتبطة بابتكارات رأسمالية المراقبة: الإعلانات المُوجَّهة، و"التخصيص المؤتمت"، والمساعدات الرقمية. علاوةً على ذلك، صُمِّمت اقتصاديات العمل عمدًا لإقناعنا باتباع مسارات عمل مُحدَّدة.

12- البدائل المُغلقة: يتجلى هنا "حكم اللا بدائل" بكامل قوته. لقد لاحظنا أن دورة إعادة استثمار القيمة السلوكية تزداد ندرة. فقد حلت "غوغل هوم" (Google Home) محلّ "المنزل الذكي". انتشرت رأسمالية المراقبة عبر الإنترنت، ودفعها التوجّه نحو اقتصاديات النطاق والعمل إلى الخروج إلى العالم الحقيقي. من التطبيقات إلى الأجهزة إلى الصوت الواحد (One Voice)، وازدادت صعوبة إيجاد سُبُلٍ للنجاة، ناهيك عن إيجاد بدائل حقيقية.

13- الحتمية: يدخل حصان طروادة الخاص بوسط الحاسوب - الأجهزة والتطبيقات والتواصل - المشهد ضمن سيل خطاب حتمية لا يهدأ، محاولاً تشتيت انتباهنا عن رأسمالية المراقبة المتعمّدة والطارئة تاريخيًا. تتكاثر الحقوق المؤسسية الجديدة، وتؤكد على الممارسات الجديدة. ونحن نشعر بالعجز ونستسلم.

14- أيديولوجية الضعف البشري: بالإضافة إلى الحتمية، استغلّت رأسمالية المراقبة بشغف أيديولوجية الاقتصاد السلوكي المتمثلة في الضعف البشري، وهي نظرة عالمية تؤطر العقل البشري بوصفه غير عقلائي إطلاقًا، وغير قادر على ملاحظة انتظام إخفاقاته. ويستخدم رأسمالو المراقبة هذه الأيديولوجية لإضفاء الشرعية على ما

يأرسونه من تعديل للسلوك: ضبط الأفراد والسكان وتنسيقهم وتكييفهم بطرق مصممة للتهرب من الوعي.

15- الجهل: يظل هذا تفسيرًا بارزًا. يهيمن مُستثمرو المراقبة على قطاع غير طبيعي من التعلّم، إذ يعرفون أمورًا لا يُمكننا معرفتها، بينما يتوجّب عليهم إخفاء نواياهم وممارساتهم في أعمال سرّية خلف الكواليس. من المستحيل فهم شيء مُصمم سرًا، وُصمم ليكون غير قابل للقراءة أساسًا. تهدف هذه الأنظمة إلى إيقاعنا في الفخ، مستغلة نقاط ضعفنا الناتجة عن التقسيم غير المتكافئ للتعلّم، والتي تفاقمت بسبب ندرة وقتنا ومواردنا ودعمنا.

16- السرعة: انتقلت رأسمالية المراقبة من مرحلة الابتكار إلى الهيمنة بسرعة قياسية. مما يعكس قدرتها على جذب رأس المال وقوانين حركتها، لكنه يعكس أيضًا استراتيجية محددة تُستخدم فيها السرعة بوعي لشلّ الوعي وتجميد المقاومة، وتشتيت انتباهنا بإشباع فوري. إن سرعة رأسمالية المراقبة تتجاوز الديمقراطية حتى مع تفوقها على قدرتنا على فهم ما يحدث والتفكير في عواقبه. هذه الاستراتيجية مُستعارة من إرث طويل من الأساليب السياسية والعسكرية لإنتاج السرعة كشكل من أشكال العنف، والذي عُرف مؤخرًا باسم "الصدمة والرعب" (880).

تشير هذه الإجابات الست عشرة إلى أنه بعد عقدين تقريبًا من ابتكار رأسمالية المراقبة، لم تكن القوانين القائمة، المرتكزة إلى حدّ كبير على الخصوصية ومكافحة الاحتكار، كافية لتعطيل نموها. نحن بحاجة إلى قوانين ترفض الشرعية الأساسية لتصريجات رأسمالية المراقبة وتقاطع عملياتها الأساسية، بما في ذلك التقديم غير المشروع للتجربة الإنسانية على أنها بيانات سلوكية؛ واستخدام الفائض السلوكي كمادة خام مجانية؛ التركيز المتطّرف لوسائل الإنتاج الجديدة؛ وتصنيع منتجات التنبؤ؛ والتجارة في العقود المستقبلية السلوكية؛ واستخدام منتجات التنبؤ في عمليات من

(880) فيليبو توماسو مارينيتي، البيان المستقبلي (باريس، فرنسا: لو فيغارو، 1909)؛ إف. تي. مارينيتي و آر. أو. فلينت، مارينيتي: مؤلفات مختارة (نيويورك: فارار، شتراوس وجيرو، 1972)؛ هارلان ك. أولمان وجيمس بي. ويد، الصدمة والرعب: تحقيق الهيمنة السريعة (كتب منسية، 2008).

الدرجة الثالثة للتعديل والتأثير والسيطرة؛ وعمليات وسائل تعديل السلوك؛ وتراكم التركيز الحصري الخاص للمعرفة (النص الظلي)؛ والقوة التي يمنحها تركيز كهذا.

إن رفض هذه المؤسسات الجديدة لرأس المال الرقابي، والتصريحات التي بُني عليها، من شأنه أن يعني الانسحاب من الاتفاق الاجتماعي على أهداف وأساليب رأسمالية المراقبة بالطريقة ذاتها التي انسحبنا بها سابقًا من ممارسات الرأسمالية الصناعية المناهضة للمجتمع والديمقراطية، وتصحيح توازن القوى بين الرأسماليين والعمل عبر الاعتراف بحقوق العمال في المساواة الجماعية وحظر عمل الأطفال وظروف العمل الخطرة وساعات العمل المفرطة وما إلى ذلك.

يتخذ الانسحاب من الاتفاق شكلين عريضين، وهو التمييز الذي سيكون مفيدًا عندما تنتقل إلى الجزء الثالث. الأول هو ما أسميه "التصريح المضاد". وهو إجراء دفاعي كالتشفير وأدوات الخصوصية الأخرى، أو الجدل حول "ملكية البيانات". وقد تكون تدابير كهذه فعالة في مواقف منفصلة، ولكنها تترك الحقائق المتعارضة كما هي، وتعترف باستمرارها، وتساهم بالتالي بشكل متناقض في شرعيتها. إذا اخترت عدم التتبع مثلاً، فأنا أختار من أجلي، كون عملي لا يغيّر الممارسة المخالفة أو يتحدّاه. أما الشكل الثاني من عدم الاتفاق فأسميه "التصريح المصطنع". فإذا كان التصريح هو "check"، أي أنه يتضمّن تهديدًا مُضمّرًا بالهجوم، فسيكون التصريح المقابل هو "checkmate"، إعلانًا بنهاية اللعبة، إذ يُغيّرُ التصريح المصطنع قواعد اللعبة. فهو يؤكّد على إطار عمل بديل يُغيّر الحقائق المتعارضة. نحن نستمتع بوقتنا مع التصريحات المضادة ونجعل الحياة محمولة أكثر، لكن لا يمكن إلا لرؤية بديلة مصطنعة أن تعمل على تحويل رأسمالية المراقبة لصالح مستقبل رقمي يمكننا أن نسميه موطننا.

أعود إلى تاريخ جدار برلين كمثال على هذين النوعين من الخلاف. فمنذ عام 1961 وحتى مطلع ثمانينات القرن العشرين، حفر سكان برلين الشرقية الشجعان واحدًا وسبعين نفقًا عبر التربة الرملية تحت المدينة، مما أتاح لمئات الأشخاص وسيلة

للهروب إلى برلين الغربية.⁽⁸⁸¹⁾ الأنفاق هي شهادة على ضرورة التصريحات المضادة، لكنها لم تسقط الجدار أو القوة التي تدعمه.

لقد اكتسب هذا الإعلان المصطنع قوة على مدى عقود من الزمن، لكن لم يحدث التعبير الكامل عنه إلا بعد منتصف ليل التاسع من نوفمبر/ تشرين الثاني عام 1989، عندما أصدر هارالد ياغر، الضابط الأقدم المناوب في تلك الليلة عند ممر شارع بورنهولمر، الأمر بفتح البوابات، فاندفع عشرون ألف شخص عبر الجدار إلى برلين الغربية. ووفقاً لوصف أحد المؤرخين لذلك الحدث: "بحلول ليلة التاسع من نوفمبر/ تشرين الثاني، عندما ظهر الناس عند جدار برلين وطالبوا مسؤولي الحدود بإجابة عن السؤال: هل تسمحون لنا بالمرور؟، أصبح هؤلاء الناس واثقين للغاية من أنفسهم، وكان المسؤولون غير واثقين من أنفسهم إلى حد كبير، لدرجة أن الإجابة كانت: سنفعل".⁽⁸⁸²⁾

4- نبوءة

قبل ما يقرب من سبعين عاماً، تأمل المؤرخ الاقتصادي كارل بولاني في الطرق التي قد تؤدي بها ديناميكيات السوق في الرأسمالية الصناعية إلى تدمير الأشياء ذاتها التي كانت تهدف إلى شرائها وبيعها، إذا تركت هذه الديناميكيات دون رادع: "لقد تجاهلت خرافة السلع حقيقة مفادها أن ترك مصير الأرض والبشر للسوق سيكون بمثابة إبادة".⁽⁸⁸³⁾ ويبدو أن نبوءة بولاني تتجه نحو التحقق، مع غياب تصريح مصطنع، وهذه الحقيقة وحدها كفيلة بإيقاظنا. ما الذي تبشّر به نبوءة بولاني لعصرنا؟

لقد اتبعت الرأسمالية الصناعية منطقها الخاص متمثلاً في الصدمة والرعب، حيث

(881) غريغ ميتشل، "الأنفاق: الهروب من تحت جدار برلين والأفلام التاريخية التي حاول البيت الأبيض في عهد جون كينيدي منعها" (نيويورك: كراون، 2016)؛ كريستين غريشاير، "الأنفاق السرية التي جلبت الحرية من جدار برلين"، الإندبندنت، 18 أكتوبر/ تشرين الأول 2009.

(882) ماري إليز ساروت، الانهيار: فتح جدار برلين بالصدفة (نيويورك: بيسك، 2014)، 181.

(883) كارل بولاني، التحول العظيم: الأصول السياسية والاقتصادية لعصرنا، الطبعة الثانية (بوسطن: بيكون، 2001)، ص 137.

استهدفت الطبيعة للتغلب عليها لصالح رأس المال؛ أصبحت الطبيعة البشرية الآن تحت مرمى صواريخ رأسمالية المراقبة. لقد بدأنا نفهم تدريجيًا أن أساليب الهيمنة المحددة التي تستخدمها الرأسمالية الصناعية منذ أكثر من قرنين من الزمان قد أدت إلى إرباك الظروف التي تدعم الحياة على الأرض بشكل أساسي، منتهكة بذلك المبادئ الأكثر أساسية للحضارة. وعلى الرغم من الفوائد العديدة والإنجازات الهائلة التي حققتها الرأسمالية الصناعية، فقد تركتنا على مقربة شديدة من تكرار مصير سكان جزيرة إيستر، الذين دمروا الأرض التي منحتهم الحياة، ثم صنعوا تماثيل لمسح الأفق بحثًا عن مساعدة لن تأتي أبدًا. *إذا كانت الرأسمالية الصناعية تسبب اضطرابًا خطيرًا في الطبيعة، فما هو الدمار الذي قد تسببه رأسمالية المراقبة على الطبيعة البشرية؟*

تتطلب الإجابة على هذا السؤال عودة إلى الضرورات. لقد أوصلتنا الرأسمالية الصناعية إلى حافة خطر مدمر، لكن ليس نتيجة رغبة شريرة في التدمير، أو نتيجة تكنولوجيا منفلة. بل كانت هذه النتيجة مدفوعة بشكل حتمي بمنطقها الداخلي المتمثل في التراكم، مع ضرورات تعظيم الأرباح، والمنافسة، والدفع المستمر لإنتاجية العمل من خلال التطوير التكنولوجي للإنتاج، والنمو الممول من خلال إعادة استثمار الفائض باستمرار.⁽⁸⁸⁴⁾ إن ما يهم هو "التوجه الاقتصادي" الذي تحدث عنه فيبر، وكيفية اندماج هذا التوجه مع الشكل المحدد للرأسمالية الذي يرتفع إلى الهيمنة في كل عصر.

لقد أعفى منطق الرأسمالية الصناعية المؤسسة من المسؤولية عن عواقبها المدمرة، مما أدى إلى إطلاق العنان لزعزعة استقرار نظام المناخ والفوضى التي يسببها لجميع المخلوقات. لقد أدرك بولاني أن الرأسمالية الخام تظهى من الداخل. لقد زعم أن فرض هذه الالتزامات على الرأسمالية يقع على عاتق المجتمع من خلال الإصرار على التدابير التي تربط المشروع الرأسمالي بالجانب الاجتماعي، والحفاظ على الحياة والطبيعة واستدامتهما.

(884) إلين ميكسينز وود، أصل الرأسمالية: نظرة أطول (لندن: فيرسو، 2002).

على نحو مماثل، لا يمكن فهم معنى نبوءة بولاني بالنسبة إلينا الآن إلا من خلال عدسة الضرورات الاقتصادية لرأسالية المراقبة وفقاً لتأطير مطالبتها بالتجربة الإنسانية. إذا أردنا أن نعيد اكتشاف شعورنا بالدهشة، فليكن هنا: إذا ازدهرت الحضارة الصناعية على حساب الطبيعة وتهدد الآن بخسارة الأرض، فستزدهر حضارة المعلومات التي تشكلها رأسالية المراقبة على حساب الطبيعة البشرية وتهدد بخسارة إنسانيتنا. تتطلب نبوءة بولاني منا أن نتساءل عما إذا كان بوسعنا أن نتجنب هذا المصير من خلال تصريحاتنا المصطنعة الخاصة.

لقد خصصت الجزأين الأول والثاني لفهم أصول رأسالية المراقبة، وتعريف آلياتها الأساسية وضروراتها الاقتصادية وتحديد تدقيقها. كانت الفكرة منذ البداية هي أن التحديد والترويض أمران لا ينفصلان، وأن التحديد الجديد والمتأني يمكن أن تزودنا بشكل أفضل بقدرة اعتراض آليات نزع الملكية هذه، وعكس عملها، وإنتاج الاحتكاك المطلوب بشكل عاجل، وتحدي التقسيم المرضي للتعلم، وفي نهاية المطاف تركيب أشكال جديدة من رأسالية المعلومات التي تلبي احتياجاتنا الحقيقية لحياة فعالة. ولا ينبغي للمشاركة الاجتماعية والفعالية الفردية أن تتطلب منا التضحية بحقنا في الزمن المستقبلي، الذي يشمل رغبتنا في الإدارة، واستقلاليتنا، وحقوقنا في اتخاذ القرار، وخصوصيتنا، وحتى طبيعتنا البشرية.

لكن من الخطأ أن نفهم أنه من غير الممكن أن نفهم رأسالية المراقبة إلا من خلال منظور عملها الاقتصادي، أو أن التحديات التي نواجهها تقتصر على فهم آلياتها الأساسية واحتوائها وتغييرها. لقد تسرّبت عواقب هذا المنطق الجديد للتراكم، ولا تزال تتسرّب، متجاوزة الممارسات التجارية إلى نسيج علاقاتنا الاجتماعية، مغيرة علاقاتنا بأنفسنا، وعلاقة أحدنا بالآخر. تُهيئ هذه التحولات التربة التي ازدهرت فيها رأسالية المراقبة: كائنات غازية تُنتج مواردها الغذائية الخاصة. وعبر تحويلنا، تُنتج غذاءً لمسيرتها إلى الأمام.

ربما يكون من الأسهل لنا رؤية هذه الديناميكيات إذا نظرنا إلى الماضي. إن الفرق

بين الرأسمالية الصناعية والحضارة الصناعية هو الفرق بين العملية الاقتصادية والمجتمعات التي أنتجتها. لقد أنتج شكل الرأسمالية الصناعية الذي هيمن في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نوعًا محددًا من البيئة الأخلاقية التي نشعر بها بشكل حدسي حتى عندما لا نسميها.

تميزت الرأسمالية الصناعية بتقسيم العمل وفق تخصصات، مع خصائصه التاريخية المحددة: تحويل العمل الحرفي إلى الإنتاج الضخم على أساس توحيد الإنتاج وفق مقاييس محددة، والترشيد، وقابلية تبادل الأجزاء؛ خط التجميع المتحرك؛ الإنتاج الضخم؛ أعداد كبيرة من العاملين بأجور تتحدد وفق بيئات المصانع؛ تسلسل هرمي مهني؛ السلطة الإدارية؛ التخصص الوظيفي؛ والتمييز بين العمل المكتبي والعمل اليدوي.

هذه القائمة توضيحية، وليست شاملة، لكنها كافية لتذكيرنا بأن الحضارة الصناعية استُمدت من هذه التعابير عن الضرورات الاقتصادية التي حكمت التوسع الصناعي. وقد شكّل تقسيم العمل ثقافة وسيكولوجيا وتجربة اجتماعية. وأدّى التحوّل من الحرف اليدوية إلى الأجر بالساعة إلى نشأة مجموعات جديدة من الموظفين والمستهلكين، رجال ونساء يعتمدون كليًا على وسائل إنتاج تملكها شركات خاصّة وتديرها.

كانت تلك بوتقة المجتمع الجماهيري، وسلطته الهرمية، وأشكاله البيروقراطية المركزية للسلطتين العامة والخاصة، وهذا كله كان مسكونًا بشبح المطابقة والطاعة وإضفاء طابع معياري على البشر. وتحددت حياة البشر من خلال المؤسسات التي تعكس التنظيم الصناعي: المدارس، المستشفيات، وحتى جوانب الحياة الأسرية والمنزلية، حيث فُهِمَت الأعمار والمراحل بوصفها وظائف للنظام الصناعي، من التدريب إلى التقاعد.

في الوقت الذي برزت فيه رأسمالية المراقبة باعتبارها شكلًا مهمينًا لرأسمالية المعلومات، كان لا بدّ أن نطرح السؤال التالي: ما نوع الحضارة التي تُنبئ بها؟ تُعدّ

الفصول التالية في الجزء الثالث مساهمةً أوليةً في هذا النقاش الملّح. وقد أشرتُ سابقًا أنه لا يمكن الالتزام بـ "نتائج مضمونة" دون القدرة على تحقيقها. فما طبيعة هذه القوة الجديدة؟ كيف ستغيّر مجتمعاتنا؟ ما الحل الذي تقدّمه لحدّثة ثالثة؟ ما هي الصراعات التي ستؤرق هذه الأيام الجديدة، وما الذي تُنبئ به لمستقبل رقمي يُمكننا أن نعتبره موطننا؟ هذه هي الأسئلة التي تُرشدنا إلى الجزء الثالث.

الجزء الثالث

القوة الآلية للحدثة الثالثة

الفصل الثاني عشر

نوعان من القوة

هكذا انتهى عصر، ومات آخر مُخلصيه على فراشه،
عاطلاً عن العمل وتعيساً؛ كان آمناً:
لن يسقط ظلّ عجل عملاق ضخم فجأة عند الغسق
على المروج في الخارج.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، X

1- عودة إلى غير المسبوق

في ظل رأسمالية المراقبة، تُستخدم "وسائل الإنتاج" كوسائل "لتعديل السلوك".
تحلّ العمليات الآلية محلّ العلاقات الإنسانية لكي يحلّ اليقين محلّ الثقة. ويعتمد هذا
التجمع الجديد على جهاز رقمي ضخم، وتركيز تاريخي عالمي على المعرفة والمهارات
الحاسوبية المتقدمة، وثروة هائلة. يدمج منحني تعديل السلوك من حيث النطاق
العديد من العمليات التي فحصرناها: الاستخراج والتسليم المنتشر في كل مكان،
والتشغيل (الضبط، والتوجيه، والتكيف)، وسلاسل توريد الفائض السلوكي،
وعمليات التصنيع القائمة على الذكاء الآلي، وتصنيع منتجات التنبؤ، وأسواق
المستقبل السلوكية الديناميكية، و"الاستهداف"، مما يؤدي إلى جولات جديدة من
الضبط، والتوجيه، والتكيف، وفرض عدم التعاقد، وبالتالي تجديد الدورة.

إن هذا التجمع هو مشروع سوقي: غرضه هو صياغة توقعات تزداد قيمتها كلما

اقتربت من اليقين. وتتغذى أفضل التوقعات على مجموع البيانات، وبناءً على قوة هذه الحركة نحو الشمولية، تمكن رأساليو المراقبة من اختطاف تقسيم التعلّم في المجتمع. إنهم يستمدّون المعرفة من قمة النظام الاجتماعي الحاسمة، حيث يغذّون النص الظلي ويحمونه: النص الأصلي لليقين. هذا هو فخّ شبكة السوق الذي علّقنا فيه.

تفحصنا في الجزأين الأول والثاني الظروف والآليات والعمليات التي تبني المعرفة الخاصة وتوقعاتها المربحة التي تتطوّر نحو اليقين من أجل ضمان النتائج التي يسعى إليها اللاعبون في السوق. وكما أشرتُ في الفصل السابع، لا يمكن ضمان النتائج دون وجود القدرة على تحقيقها. هذا هو القلب الشرير لرأسمالية المراقبة: نوع جديد لتجارة يعيد تصوّرنا من خلال عدسات قوته الهائلة، بواسطة وسائل تعديل السلوك. فما هي هذه القوة، وكيف تعمل على إعادة تشكيل الطبيعة البشرية لمصلحة يقينيّاتها المربحة؟

أنا أسمى هذا النوع من القوة "instrumentarianism"، وهو اسم يعني "التلاعب بالسلوك وتحويله إلى سلعة"، وإضفاء طابع آلي عليه بهدف تعديله والتنبؤ به وتحقيق الربح والسيطرة. ويشير التلاعب بالسلوك في هذا السياق إلى الدمية: وهي بنية حوسبة حسية مادية متصلة بالإنترنت، ومنتشرة في كل مكان، وهي تعمل على تسليم التجربة البشرية وتفسّرها وتحركها. "إضفاء طابع آلي على السلوك" إلى العلاقات الاجتماعية التي توجّه اللاعبين بالدمى نحو التجربة الإنسانية، حيث يستخدم رأسال المراقبة الآلات لتحويلنا إلى وسائل لتحقيق غايات سوقية أخرى. أجبرتنا رأسمالية المراقبة على التعامل مع شكل رأسمالي غير مسبوق. والآن تجربنا القوة الآلية التي تدعم مشروع رأسمالية المراقبة وتوسّعه، على مواجهة ثانية مع ما هو غير مسبوق.

عندما يتحدث العلماء وقادة المجتمع المدني والصحافيون والشخصيات العامة، بل ومعظمنا، بشجاعة ضد هذه السلطة الجديدة، فإننا ننظر حتمًا إلى "الأخ الأكبر" في رواية جورج أورويل، وننظر إلى شبح الاستبداد عمومًا، باعتبارهما العدسة التي يمكن من خلالها تفسير التهديدات التي تواجهنا اليوم. وكثيرًا ما تصوّر شركة غوغل

وفيسبوك، والمجال الواسع للرقابة التجارية، على أنها "استبداد رقمي"، "digital totalitarianism".⁽⁸⁸⁵⁾ أنا مُعجبة بأولئك الذين وقفوا ضدّ توغلات المراقبة التجارية، لكنني أقترح أيضًا أن معادلة القوة الرقمية الآلية مع الاستبداد تعوق فهمنا وقدرتنا على مقاومة قوتها، وتحييدها والقضاء عليها في نهاية المطاف. ليس هناك سابقة تاريخية لهذا "التلاعب بالسلوك وتحويله إلى سلعة"، لكن هناك سابقة واضحة لتلك المواجهة مع سلطة غير مسبوقة.

في السنوات التي سبقت تحديد الشمولية وتحليلها رسميًا، خصص منتقدوها لغة الإمبريالية باعتبارها الإطار الوحيد المتاح للتعبير عن التهديدات القاتلة التي تشكلها القوة الجديدة ومقاومتها. وتقذفنا رأسمالية المراقبة الآن في أعماق بحر مظلم من مخاطر جديدة لا يمكن تمييزها. وكما فعل العلماء والمواطنون من قبلنا، فإننا الآن نلجأ إلى المصطلحات العامة المألوفة للقوة في القرن العشرين مثل الحطب الطافي المنقذ للحياة.

لقد عدنا إلى متلازمة العربة التي لا تجرها الخيول، حيث نربط إحساسنا بالحديد بالخطر بالحقائق القديمة المألوفة، دون أن ندرك أن الاستنتاجات التي تقودنا إليها غير صحيحة بالضرورة. وعلينا بدلًا من ذلك أن نستوعب المنطق الداخلي المحدد لعملية

(885) بيتر إس. مينيل، "2014: شمولية العلامة التجارية" (بحث في القانون العام لجامعة كاليفورنيا في بيركلي، جامعة كاليفورنيا، 4 سبتمبر 2013): "نتجّ جانبًا أيها الأخ الأكبر". مجلة الإيكونوميست. 2 ديسمبر 2004؛ فويتشيك بوروفيتش، "الخصوصية في عصر الأدوات القابلة للارتباط بالإنترنت". نيكست ويب، 18 أكتوبر 2014؛ توم سوريل وهيندر دراير، "الرعاية عن بُعد والمراقبة ودولة الرفاهية". المجلة الأمريكية للأخلاقيات الحيوية 12، العدد 9 (2012): 36-44؛ كريستينا ديس ماريه، "ستجعلك تقنية تتبع الهواتف الذكية هذه تشعر بالخوف"، مجلة بي سي وورد، 22 مايو 2012؛ ريس بلاكلي، "اعتقدنا أن غوغل هو المستقبل، لكنه أصبح الأخ الأكبر"، صحيفة التايمز، 19 سبتمبر 2014؛ مؤتمرات CPDP، الشمولية التكنولوجية، السياسة والديمقراطية، 2016؛ جوليان أسانج، "تفاهة عبارة 'لا تكن شريرًا'،" نيويورك تايمز، 1 يونيو 2013؛ جوليان أسانج، "جوليان أسانج يتحدث عن العيش في مجتمع الرقابة"، نيويورك تايمز، 4 ديسمبر 2014؛ مايكل هيرش، "نحن جميعًا الأخ الأكبر الآن"، بوليتيكو، 23 يوليو 2015؛ "تيم كوك، الرئيس التنفيذي لشركة أبل: خدمة Apple Pay هي رقم واحد"، سي بي إس نيوز، 28 أكتوبر 2014؛ ماتياس دوفنر، "رسالة مفتوحة إلى إريك شميدت: لماذا نخشى غوغل"، FAZ.net، 17 أبريل 2014؛ سيجمار غابرييل، "سيغمار غابرييل: العواقب السياسية لمناظرة غوغل"، فرانكفورتر ألجماينه تسايتونج، 20 مايو 2014؛ كوري دكتورو، "تكنولوجيا الرقابة غير المقيدة تقودنا نحو الاستبداد"، إنترناشونال بيزنس تايمز، 5 مايو/أيار 2017؛ مارتن شولتز، "نص الخطاب الرئيسي في مؤتمر Cdpd2016 حول التكنولوجيا والاستبداد والسياسة والديمقراطية"، سكريبد، 2016.

استحضار القوة الواضحة في القرن الحادي والعشرين، والتي لا يقدم لها الماضي أية بوصلة مناسبة. كانت الشمولية تهدف إلى إعادة بناء النوع البشري من خلال الآليات المزدوجة للإبادة الجماعية و"هندسة الروح". لكن السلطة الآلية "instrumentarian" ستأخذنا، كما سنرى، في اتجاه مختلف تمامًا. لا يهتم رأسماليو المراقبة بقتل أرواحنا أو إصلاحها. وعلى الرغم من أن طموحاتهم، من نواحي عدة، لا تقلّ عن طموحات القادة الشموليين، إلا أنها مختلفة تمامًا أيضًا. يجب أن تبدأ مهمة تحديد شكل غريب من أشكال القوة غير المسبوقة في التجربة الإنسانية من جديد من أجل المقاومة الفعالة والقوة الإبداعية للإصرار على مستقبل من صنعنا.

يُمهّد ما تبقى من هذا الفصل الطريق إلى ذلك. تتمثل المهمة الأولى في تطوير فهمنا لما لا تُمثله "القوة الآلية"، لذلك سنتناول بإيجاز في القسم التالي العناصر الرئيسة للشمولية في القرن العشرين. الأهم من ذلك هو أن السلطة الشمولية كانت غير مسبوقة أيضاً مثل القوة الآلية. لقد تحدّت الفهم البشري حرفياً. ثمة كثير مما يمكننا أن نتعلّمه من نضالات العلماء والصحفيين والمواطنين وأخطائهم عندما وجدوا أنفسهم مغمورين بقوة لا يمكنهم فهمها أو مقاومتها. وبمجرّد أن نعالج هذه القضايا، سنصبح مستعدين للتعمّق في استكشاف أصول "القوة الآلية" في مجال المساعي الفكرية الذي أصبح يُعرف باسم "السلوكية الأساسية"، أو "دور العوامل البيئية في تشكيل السلوك"، التي دافع عنها "بي. إف. سكينر" وحلمه عن "تكنولوجيا السلوك". قمنا في الفصل الثالث عشر بدمج رؤانا للنظر في أهداف القوة الآلية واستراتيجياتها الفريدة من نوعها.

2- الشمولية باعتبارها نوعاً جديداً من السلطة

ظهرت كلمة "الشمولية" للمرة الأولى في أعمال الفيلسوف الإيطالي جيوفاني جيتيلي في أوائل القرن العشرين، وانتشرت لاحقاً على نطاق أوسع مع كتاب موسوليني بعنوان "عقيدة الفاشية" (The Doctrine of Fascism)، الذي شارك في

تأليفه مع جينتيلى الذي كان حينها فيلسوف الفاشية الأول في إيطاليا.⁽⁸⁸⁶⁾ لقد دخلت إيطاليا القرن العشرين بوصفها دولة من الدرجة الثانية، وتم تجاهلها على المسرح العالمي، مما عزّز شعورها بالفشل والإذلال، وعدم قدرتها على دعم سكانها مع هجرة الملايين بحثًا عن حياة أفضل. في العقد الأول من القرن العشرين، بدأ جيل جديد من المثقفين والمستقبلين الطليعيين ينسجون حلم "إيطاليا الجديدة". وكّرّس جينتيلى مواهبه الفلسفية لإحياء الحماسة القومية.

يكن جوهر فلسفة جينتيلى السياسية في مفهوم "الجماعية".⁽⁸⁸⁷⁾ كان يُفترض أن تُفهم الدولة باعتبارها وحدة عضوية شاملة تتجاوز حياة الأفراد. ويجب التنازل عن كل انفصال واختلاف في الدولة لتحقيق هذه الحالة الجماعية العليا. في عام 1932، كلف موسوليني جينتيلى بتأليف المقدمة الفلسفية لكتابه، بينما قام موسوليني بوضع المبادئ الاجتماعية والسياسية التي من شأنها أن تحدد النظرة العالمية الفاشية.⁽⁸⁸⁸⁾ تبدأ العقيدة بإعلان الموقف الفاشي باعتباره، قبل كل شيء، "موقفًا روحيًا" يخترق العقل الأكثر حميمية لكل مشارك بشري:

لتعرف البشر، عليك أن تعرف الإنسان... الفاشية هي شمولية، والدولة الفاشية - تركيبة ووحدة شاملة لجميع القيم - تفسّر حياة شعب بأكمله وتطوّرها وتعزّزها... [إنها] معيار وقاعدة لسلوك مقبول داخليًا، ولانضباط الإنسان بشكل كامل؛ فهي لا تقلّ عن الفكر في تحلّلها لإرادة المرء... وتغوص عميقًا في شخصيته؛ وتسكن قلب المفكر والفنان ورجل العلم والعمل: روح الروح... وهي لا تهدف إلى إعادة هيكلة أشكال الحياة فقط بل محتواها أيضًا - الإنسان وشخصيته وإيمانه... وتدخل الروح وتحكم بسلطة لا جدال فيها.⁽⁸⁸⁹⁾

(886) عندما تولّى موسوليني السلطة عام 1922، عين جينتيلى أول وزير للتعليم العام في حكومته، ووصفه بأنه "معلّمه". انظر جيمس غريغور، جيوفاني جينتيلى: فيلسوف الفاشية (نيو برونزويك، نيوجرسي: روتليدج، 2004)، 60.

(887) غريغوري، جيوفاني جينتيلى، 30.

(888) غريغوري، 62-63.

(889) بينيتو موسوليني، عقيدة الفاشية (هاواي: مكتبة كنيسة هاواي، 2015)، 4.

في ذلك العام، خلد ستالين إعادة هيكلة الروح باعتبارها علامة مميزة للزرعة الشمولية في أمسية متألفة بطابع احتفالي فاخر في موسكو. كانت أمسية لتجمع أدبي ميمون استضافه الروائي مكسيم غوركي الملتزم في القصر الفسيح الذي قدّمه ستالين هدية للمؤلف الموقر لدى عودته إلى روسيا من منفاه الاختياري في إيطاليا. وساد الصمت في القاعة ليقول ستالين كلمته في تلك الأمسية. "لا قيمة لدبابتنا إذا كانت الأرواح التي تقودها من طين. لهذا أقول: إن إنتاج الروح أهم من إنتاج الدبابات... فالحياة نفسها تُعيد تشكيل الإنسان، وعلى الحاضرين منكم المساهمة في إعادة هيكلة روحه. هذا هو المهم، إنتاج الروح البشرية. ولهذا أحثكم أيها الأدباء تحية تليق بمقامكم، إلى مهندس الروح.⁽⁸⁹⁰⁾ في تلك الأمسية، شرب الأدباء نخب ستالين تكريماً له، ربما أقنعتهم ذكرى زملاء أقل قدرة على التكيف تعرّضوا للنفي أو الإعدام فعلاً، بما في ذلك تعذيب الفنانين والأدباء وقتلهم عام 1929 في كنسية في جزر "سولوفيتسكي" تُسمى "Beheading"، وتعني حرفياً كنيسة قطع الرؤوس.⁽⁸⁹¹⁾

بدأ مصطلح الشمولية ينتشر على نطاق واسع في ألمانيا عام 1933. وتبنّاه وزير الدعاية جوزيف غوبلز، وأعلن المثقفون الألمان "التحوّل إلى الشمولية". وغيّرت النازية العقيدة بطريقة مهمة، مؤكدة على أن "الحركة"، وليس "الدولة"، هي المركز الروحي للاستبداد الألماني، وهي العلاقة التي لخصتها السنوات الأولى لهتلر، بصفته مستشاراً، في الشعار الشعبي للاشتراكية الوطنية "الحركة تعطي الأوامر للدولة".⁽⁸⁹²⁾

(890) فرانك ويسترمان، مهندسو الروح: الدعاية العظيمة لروسيا ستالين، ترجمة سام غاريت (نيويورك: أوفرلوك، 2012)، 32-34 (الخط المائل يعود لي)؛ روبرت كونكويست، ستالين: مُحطّم الأمم (نيويورك: بنغوين، 1992).

(891) ويسترمان، مهندسو الروح، 22-29.

(892) فالديمار غوريان، "الشمولية بوصفها ديناً سياسياً"، في كتاب "الشمولية"، تحرير كارل ج. فريدريك (نيويورك: جروسيت ودنلاب، 1964)، ص 120. ولعلّه من المفارقات أن العديد من الباحثين خلصوا إلى أن إيطاليا لم تصبح في الواقع دولة شمولية حقيقية، مشيرين إلى استمرارية المؤسسات - مثل الكنيسة الكاثوليكية - وغياب القتل الجماعي. ويجادل البعض بأن النظرية والتطبيق قد تعمقا أكثر في ألمانيا. بل وأكثر شمولاً - وعلى مدى فترة أطول - في الاتحاد السوفيتي، على الرغم من رفض النخب السوفيتية لهذا المصطلح إجحافاً عن ربطها بالفاشية.

ارتبك تحليل الشمولية من البداية لأنها كانت نوعاً جديداً من أنواع السلطة، حيث اجتاحت نسختها الروسية والألمانية تلك المجتمعات، متحدية أسس الحضارة الغربية. ومع أن هذه الأنظمة الشمولية بدأت تتجذر قبل سنوات من الحرب العالمية الثانية – أولاً في روسيا عام 1929 مع صعود ستالين إلى السلطة، ثم في ألمانيا عام 1933 مع تنصيب هتلر مستشاراً – فقد ظلت بعيدة عن الدراسة المنهجية حتى نهاية الحرب. وقد أعمقَ التحليل جزئياً بسبب الغموض الشديد والحركة الدائمة للمشروع بأكمله: الخطط السرية التي تنفذها الشرطة السرية، والتواطؤ الصامت والفظائع الخفية، والتحول المستمر لمن كان أعلى أو أسفل، والتحريف المتعمد للحقائق إلى حقائق مضادة مصحوبة بطوفان دائم من الدعاية، والمعلومات المضللة، والتعبير الملطف، والكذب. إن الزعيم المتسلط، أو "الإيغوكرات" (egocrat)، وفقاً للفيلسوف الفرنسي كلود ليفور، يزيح سيادة القانون و"الحس السليم" لينصب نفسه قاضياً خيالياً يحدّد في كل لحظة ما هو عادل أو غير عادل، وما هو حقيقي أو زائف. (893)

لم يكن الجمهور الغربي، وخاصةً في الولايات المتحدة، قادراً على استيعاب ضخامة ما كان يجري. لقد حيرَ ذلك الأمر العقول حريفاً. وخلدَ أحد أبرز الأيقونات الثقافية في تلك الحقبة هذا الشلل الفكري في مجلة "لوك". حيث نُشر، في عددها الصادر في 15 أغسطس/ آب 1939، مقال بعنوان "ماذا يحدث في روسيا؟" بقلم والتر دورانتي، رئيس مكتب صحيفة نيويورك تايمز السابق في موسكو، والحائز على جائزة بوليتزر. (894) ظهر المقال بعد أشهر قليلة من انتهاء الإرهاب الأعظم، عندما أمر ستالين بين عامي 1937 و1938 بقتل قطاعات كاملة من السكان السوفييت، من الشعراء إلى الدبلوماسيين والجنرالات إلى الموالين السياسيين. ووفقاً للمؤرخ السوفييتي روبرت كونكويست، شهدت تلك الفترة التي استمرت عامين اعتقال سبعة ملايين شخص، وإعدام مليون شخص، ووفاة مليوني شخص في معسكرات

(893) كلود ليفور، "مفهوم الشمولية"، ديمقراطية 9 (2007): 183-184.

(894) لمعلومات عن دورانتي كمدافع عن السوفييت، انظر ويسترومان، مهندسو الروح، ص 188؛ وروبرت كونكويست، الرعب الأعظم: إعادة تقييم (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2007)، ص 468.

العمل، وسجن مليون شخص، وبقاء سبعة ملايين شخص آخرين في المعسكرات بحلول نهاية عام 1938. (895)

على الرغم من تلك المباشرة في الشرّ الكارثي، وصف مقال دورانتي دستور الاتحاد السوفياتي بأنه أحد "أكثر الدساتير ديمقراطية في العالم.... وهو الأساس الذي يُمكن أن تُبنى عليه الديمقراطية المستقبلية". وبالإضافة إلى أوصاف الجيش الأحمر الجديرة بالثناء، والتعليم والرعاية الطبية المجانية، والإسكان الجماعي، والمساواة بين الجنسين، ثمة تعليق متفائل يصف فيه "التطهير العظيم" باعتباره "أحد عمليات التطهير الدورية للحزب الشيوعي". يشير دورانتي إلى أن هذا "التطهير" قد "انتهى الآن"، وأن الناس "يُصلحون الضرر"، كما لو أن البلاد تُنظف نفسها بعد عاصفة شتوية عاتية. في الواقع، لم ينجح النموذج الستاليني القائم على العنف والنفي والإعدام سوى في تحويل التركيز نحو بحر البلطيق وشرق بولندا. ومن بين الفظائع الكثيرة المرتكبة بين عامي 1939 و1941، أُجبرَ مئات الآلاف من البولنديين على السير إلى معسكرات العمل في الشمال، (896) وقُتل عشرات الآلاف من أعضاء الحزب الشيوعي البولندي. (897) وبعد أسبوع واحد فقط من نشر مقالة ديورنتي، وقع ستالين معاهدة عدم اعتداء مع هتلر، وهاجم بولندا في سبتمبر/ أيلول، وفي نوفمبر/ تشرين الثاني غزا الجيش الأحمر فنلندا. (898) وفي عام 1940، أمر ستالين بقتل خمسة عشر ألف قومي بولندي كانوا من أسرى هجوم عام 1939. (899)

كانت أبرز ميزات مقال دورانتي هي وصفه لستالين نفسه. هناك، بين عرضٍ احتفاليٍّ لفيلم صدر حديثاً بعنوان "ساحر أوز (The Wizard of Oz) ومنشورٍ مطولٍ لصورٍ مُحَرَّجَةٍ لمشاهير، مثل دمية تشارلي مكارثي، عازف البطن الشهير، وهو يحمل سيجارةً في فمه المتيسّس، عُرضت صورةٌ لجوزيف ستالين الوسيم مبتسماً، مع تعليقٍ

(895) كونكويست، الرعب الأعظم، 485.

(896) كونكويست، 447.

(897) كونكويست، 405.

(898) كونكويست، ستالين، 222، 228.

(899) كونكويست، 229.

يقول: "ستالين، رئيس الدائرة المقربة للحزب الشيوعي... لا يُطبّق القانون بأسلوب لينين. يُفضّل ستالين سماع آراء مُساعديه قبل أن يُتخذ قراره بنفسه".⁽⁹⁰⁰⁾ وبعد تمجيد ستالين في مجلة "لوك" عام 1939 باعتباره نموذجاً للإدارة التشاركية، ظهرت صورته على غلاف مجلّة التايم بصفته "رجل العام". كما ظهر في الفترة ما بين عامي 1930، ووفاته في عام 1953، على غلاف مجلّة التايم عشر مرّات فقط. وهذا كله يوفّر شعوراً معيناً بتطور الشمولية وتأسيسها قبل وقت طويل من تعريفها وتحليلها باعتبارها شكلاً جديداً متماسكاً من أشكال السلطة، وقد شكّل أكبر تهديد للحضارة في التاريخ، وفقاً لرؤية العديد من العلماء.⁽⁹⁰¹⁾

مع قليل من الاستثناءات، لم يبدأ برنامج التحديد بشكل جدي إلا بعد هزيمة النازية. يقول كونكويست، "توفّرت معلومات كثيرة تتناقض مع الصورة الرسمية". ويتساءل عن سبب انخداع "الصحفيين وعلماء الاجتماع وغيرهم من الزوار" بأكاذيب النظام السوفياتي. كان أحد الأسباب هو أن الحكومة السوفيتية بذلت الكثير من الجهد لتقديم صورة مزيفة، بما في ذلك "سجون نموذجية" لم تكشف عن أي أثر لآليات التعذيب والقتل الهائلة في الدولة. والسبب الآخر هو سذاجة المراقبين أنفسهم. حيث أعمى ولاؤهم الأيديولوجي لفكرة الدولة الاشتراكية بصيرتهم في بعض الحالات، كما في حالة دورانتى".⁽⁹⁰²⁾

السبب الأكثر إقناعاً هو أنه في معظم هذه الحالات، واجه الصحفيون والعلماء والحكومات الغربية صعوبة في تقدير الثقل الكامل للإنجازات الوحشية التي حققتها

(900) والتر دورانتى، "ماذا يحدث في روسيا؟"، 15 أغسطس 1939، ص 21.

(901) فاز دورانتى بجائزة بوليتزر عام 1932 عن مقالاته التي كتبها في صحيفة نيويورك تايمز من موسكو عام 1931. لاحقاً، طعنّت جماعات مناهضة للستالينية في تقارير دورانتى، معتبرة إياه أداةً للدعاية الستالينية. حققت لجنة بوليتزر في الادعاءات لمدة ستة أشهر، وقررت في النهاية عدم سحب الجائزة. بعد سنوات، خلصت صحيفة نيويورك تايمز إلى أن أعمال دورانتى كانت من أسوأ التقارير في تاريخها. لم يمنع أيّ من هذا مجلة "لوك" وغيرها من الدوريات من الاستمرار في الاعتماد على روايات دورانتى عن الحياة في الاتحاد السوفيتي، مما يُمثل بلا شك مساهمة كبيرة في بقاء وتيرة الاعتراف العام بالسّمات الفريدة للحكم الشمولي.

(902) كونكويست، الرعب الأعظم، 467-468.

الأنظمة الشمولية، لأن الحقائق الفعلية كانت "غير محتملة" إلى حد أنه كان من الصعب حتى على المتخصصين إدراك حقيقتها. يقول كونكويست: "يفيض عصر ستالين بها يبدو وكأنه لا يُحتمل بالنسبة إلى عقول غير مؤهلة للتعامل مع الظواهر".⁽⁹⁰³⁾ ولهذا الفشل في الفهم أهمية كبيرة بالنسبة إلينا بينما نتعلّم كيفية التعامل مع رأسمالية المراقبة وقوتها الآلية الجديدة.

تنعكس المواجهة مع استحالة حدوث الشمولية في الروايات المؤثرة التي يرويها أول العلماء الذين أصرّوا على رفع الحجاب عن الحقائق المروّعة في تلك الحقبة. يكاد يستشهد كل مثقف لجأ إلى هذا المشروع، في الفترة التي أعقبت الحرب مباشرة، بشعور الدهشة إزاء المفاجأة التي "انفجرت بها الشمولية على البشرية... بشكل غير متوقع وغير معلن"، كما قال عالم السياسة بجامعة هارفارد كارل فريدريك.⁽⁹⁰⁴⁾ كانت مظاهرها جديدة وغير متوقعة، صادمة وسريعة ولا مثيل لها، لدرجة أن ذلك كله أفلت من اللغة، متحدّياً التقاليد والمعايير والقيم وأشكال العمل المشروعة كلها. لقد أدّى التراكم المنهجي للعنف والتواطؤ الذي اجتاحت شعوباً بأكملها بسرعة هائلة إلى إثارة نوع من الحيرة التي انتهت بالشلل، حتى بالنسبة إلى العديد من أعظم العقول في القرن العشرين.

كان فريدريك من أوائل الباحثين في الأنظمة الشمولية، الذين تناولوا هذه التجربة المتمثلة في صعوبة تصديق حدوثها، إذ قال عام 1954 إنه "قبل عام 1914، لا أحد تقريباً توقع مسار التطور الذي تجاوز الحضارة الغربية منذ ذلك الحين... لم يتمكّن أيّ من العلماء البارزين في التاريخ والقانون والعلوم الاجتماعية من معرفة ما كان ينتظرنا... والذي بلغ ذروته في الشمولية. ويقابل هذا الفشل في التوقع صعوبة في الفهم".⁽⁹⁰⁵⁾ ولم يتوقع هذا التحوّل الدموي حتى أكثر مفسّري المجتمع الصناعي

(903) كونكويست، 486.

(904) كارل ج. فريدريك، "مشكلة الشمولية - مقدمة"، في كتاب "الشمولية"، تحرير كارل ج. فريدري (نيويورك: غروسيت ودنلاب، 1964)، 1.

(905) فريدريش، "مشكلة الشمولية"، 1-2. وُلد فريدريك وتلقّى تعليمه في ألمانيا، وعمل مُستشاراً للحاكم العسكري الأمريكي لألمانيا منذ عام 1946 حتى عام 1949.

بصيرة، مثل دوركهيلم وفيبر، في مطلع القرن العشرين. وقد وصفت هانا آرندت هزيمة ألمانيا النازية بأنها "الفرصة الأولى لمحاولة معرفة ما حدث وفهمه.... لا يزال هناك حزن وأسى... وميل إلى الندم، لكن لم يعد هناك غضب صامت، ولا رعب ناتج عن العجز". (906)

تطوّرت في نهاية المطاف هيئة علماء شجاعة ومميزة لمواجهة تحدّي الفهم. وأفرزت نماذج ومدارس فكرية مختلفة، كل منها تتميز بتأكيدات ورؤى مميزة، لكنها تشترك في هدف مشترك يتمثل في تحديد الشرّ الأعظم في النهاية. "لقد اكتشفت الشمولية وسيلة للسيطرة على البشر وإرهابهم من الداخل"، تقول آرندت، الفيلسوفة المولودة في ألمانيا، والتي قضت السنوات الست التي تلت الحرب العالمية الثانية في بحثها الاستثنائي عن السلطة الشمولية، والذي نُشرَ عام 1951 تحت عنوان: "أصول الشمولية". (907)

كان بحث آرندت تفصيليًا للغاية، ومحاولة رائدة، للتنظير لما كان قد حدث. قالت إن "الفهم" هو الردّ الضروري على الطبيعة الراديكالية الحقيقية للشرّ التي كشفتها الشمولية. وقالت آرندت: "هذا يعني.... دراسة العبء الذي فرضه علينا القرن الذي نعيش فيه، وتحملّه بوعي – لا ننكر وجوده، ولا نستسلم لثقله بخنوع. كانت الشمولية عازمة على 'تدمير الإنسانية' و'جوهر الإنسان'، وشدّدت: "لا طائل من أن ندير ظهرنا لقوى القرن المدمّرة". (908)

يقوم جوهر الشمولية الأساسي على إلغاء أية روابط، ومصادر المعنى الأخرى، غير الصادرة عن "الحركة": "لا يمكن توقّع الولاء المطلق – الأساس النفسي للهيمنة – إلا من الإنسان المعزول تمامًا، الذي لا يملك أية رابطة اجتماعية أخرى مع العائلة أو الأصدقاء أو الرفاق أو حتى المعارف فقط، ولا يستمدّ إحساسه بمكانته في العالم إلا

(906) هانا آرندت، أصول الشمولية (نيويورك: شوكن، 2004)، 387.

(907) أرنديت، أصول الشمولية، 431.

(908) أرنديت، xxvii.

من خلال انتماؤه إلى الحركة، إلى عضويته في الحزب". (909)

أضاف علماء منتصف القرن العشرين مثل فريدريك، وأدورنو، وغوريان، وبرزينسكي، وأرون إلى هذه المواضيع، معترفين بإصرار الشمولية على الهيمنة على الروح البشرية.⁽⁹¹⁰⁾ تتطلب السيطرة على الشعب حتى أعماق روحه جهدًا كبيرًا لا يمكن تصوّره، وهذا أحد الأسباب التي جعلت الاستبداد أمرًا لا يمكن تصوّره. فهو يتطلب أتباعًا، وأتباع الأتباع، وأتباع أتباع الأتباع، وأن يكونوا جميعًا مستعدين لرفع أكمالهم ووضع أيديهم في دماء وبراز الأحياء الذين تنبعث من أجسادهم رائحة كريهة، ويصرخون من الرعب والحزن والألم.⁽⁹¹¹⁾ تقيس الشمولية النجاح على المستوى الخلوي، وتحترق الأعماق، حيث تعمل على تقويض كل رغبة غير معلنة، والسيطرة عليها، في السعي إلى تحقيق رؤية مدمرة يُطلق عليها المؤرخ ريتشارد شورتن "تجربة إعادة تشكيل الإنسانية".⁽⁹¹²⁾

(909) أرنديت، 429.

(910) كارل جيه. فريدريك، محرر، الشمولية (نيويورك: غروسميت ودنلاب، 1964)؛ كارل جيه. فريدريك وزبغنيو بريجنسكي، الدكتاتورية الشمولية والاستبداد (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 1956)؛ ثيودور أدورنو، "التعليم بعد أوشفيتز"، في النماذج النقدية: التدخلات والشعارات (نيويورك: جامعة كولومبيا، 1966)؛ ثيودور دبليو. أدورنو، "مخطط الثقافة الجماهيرية"، في صناعة الثقافة: مقالات مختارة عن الثقافة الجماهيرية (نيويورك: روتليدج، 1991)؛ ثيودور دبليو. أدورنو، "حول السؤال: ما هي الألمانية؟"، النقد الألماني الجديد رقم 36 (خريف، 1985)؛ 121-131: غوريان، "الشمولية كدين سياسي"، ريموند آرون، الديمقراطية والاستبداد، سلسلة طبيعة المجتمع البشري (لندن: وايدنفيلد ونيكلسون، 1968).

(911) انظر رواية رافؤل هيلبرج الضخمة عن تدمير يهود أوروبا، والتي تنقل تعقيد التعبئة الجماعية للنازيين، بما في ذلك أنظمة النقل والإنتاج والعمليات العسكرية والتسلسلات الهرمية الوزارية والسرية المنظمة وتجنيد الأصدقاء والجيران لإرهاب وقتل أصدقائهم وجيرانهم: تدمير يهود أوروبا (نيويورك: هولز وماير، 1985). انظر أيضًا دانيال جونا جولدهاجن، جلااد هتلر المستعدون: الألمان العاديون والمحركة (نيويورك: فينتيج، 1997)؛ يان ت. جروس، الجيران: تدمير المجتمع اليهودي في جيدوايني، بولندا (نيويورك: بنغوين، 2002)؛ كريستوفر ر. براوننج، رجال عاديون: كتيبة شرطة الاحتياط 101 والحل النهائي في بولندا (نيويورك: هاربر بيرينال، 1998)؛ نورمان م. نيمارك، إبادة ستالين الجماعية (حقوق الإنسان والجرائم ضد الإنسانية) (برينستون، نيو جيرسي: مطبعة جامعة برينستون، 2012). في روسيا، يكشف وصف سولجينتسين لنظام معسكرات الاعتقال عن وجود كوادرات من مسؤولي الحزب والمواطنين العاديين مطلوب منهم "تغذية" التدفق المستمر للإرهاب. انظر: ألكسندر سولجينتسين، أرخبيل غولاغ (نيويورك: هاربر ورو، 1973).

(912) ريتشارد شورتن، الحداثة والشمولية. إعادة النظر في المصادر الفكرية للنازية والاستالينية، من عام

نُفِّذَت عمليات تدمير للمجتمع، وإعادة بناء له، وعمليات تطهير للنوع البشري، باسم "الطبقية" في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين، وباسم "العرق" في ألمانيا في عهد هتلر. وابتكر كل نظام "مجموعات خارجية" حُكِمَ عليها بالموت - الشعب اليهودي، والعجبر، الأشخاص من ذوي السلوكيات المخالفة للفترة، والثوار في ألمانيا وأوروبا الشرقية، وشرائع كاملة من السكان في روسيا الستالينية - و"مجموعات داخلية" مطلوباً منها أن تخضع للنظام جسدياً وروحياً.⁽⁹¹³⁾ وهكذا استطاعت الأنظمة الشمولية تحقيق هدفها الخيالي المتمثل في "الشعب كواحد"، كما وصفه كلود ليفورث: "يتوافق الإجماع الاجتماعي مع الإجماع الداخلي، الذي يُحافظُ عليه من خلال الكراهية النشطة تجاه "أعداء الشعب".⁽⁹¹⁴⁾

لا يمكن للسلطة الشمولية أن تنجح بالتحكم عن بُعد. فمجرد الخضوع لا يكفي. يجب المطالبة بالحياة الداخلية لكل فرد، وتحويلها من خلال التهديد الدائم بالعقاب دون جريمة. يبرّر القتل الجماعي اقتصاديات الحجم - المعسكرات والمذابح ومعسكرات العمل القسري - لكن بالنسبة إلى بقية الأمور فإنه سيكون إرهاباً يدوياً يهدف إلى إعادة تشكيل كل جانب من جوانب الفرد من الداخل إلى الخارج: القلب والعقل والجنس والشخصية والروح. يتطلب هذا العمل الحرفي تنسيقاً تفصيلياً للعزلة والقلق والخوف والإقناع والخيال والشوق والإلهام والتعذيب والخوف والمراقبة. تصف آرندت عملية "التذرية" (atomization) والاندماج المتواصلة التي يُدمر فيها الإرهاب الروابط الإنسانية المألوفة، من قانون وأعراف وثقة ومودة، "التي تُوفر مساحةً حيويةً لحرية الفرد". إن "عصاة الإرهاب الحديدية" "تضغط بلا رحمة على البشر... أحدهم ضد الآخر، بحيث يختفي فضاء العمل الآخر نفسه". الإرهاب "يُصنّع وحدة البشر جميعاً".⁽⁹¹⁵⁾

1945 حتى الوقت الحاضر (نيويورك: بالغريف ماكميلان، 2012). ص 50.

(913) شورتن، الحداثة، الفصل الأول.

(914) كلود ليفورث، الأشكال السياسية للمجتمع الحديث: البيروقراطية، الديمقراطية، الشمولية، تحرير جون ب. تومسون (كامبريدج، ماساتشوستس: معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 1986)، 297-298.

(915) حنة آرندت، مقالات في الفهم (نيويورك: شوكن، 1994)، 343.

تتحرك السلطة الآلية بشكل مختلف، وتتجه نحو أفق معاكس. تعمل الشمولية من خلال العنف، بينما تعمل السلطة الآلية من خلال تعديل السلوك، وينبغي علينا هنا أن نغير محور تركيزنا. لا تهتم السلطة الآلية بأرواحنا ولا بأي مبدأ يُطبق. ولا يوجد تدريب أو انتقال للخلاص الروحي، ولا أيديولوجية نحكم بها على أفعالنا بها. ولا تطالب بامتلاك كل شخص من أعماقه إلى جسده. ولا مصلحة لها في إبادة أجسادنا وعقولنا أو تشويهها باسم التفاني الخالص. إنها ترحب بالبيانات المتعلقة بسلوك دمانا وبرازنا، ولكنها لا ترغب في تلوين نفسها بإفرازاتنا. ولا تشتهي حزننا أو ألمنا أو رعبنا، على الرغم من أنها ترحب بشدة بالفائض السلوكي الذي يتسرب من معاناتنا. وهي لا تبالي بمعانينا ودوافعنا. لا يهتم الذكاء الاصطناعي، المدرب على العمل القابل للقياس، إلا بأن يكون كل ما نقوم به متاحاً لعملياته المتطورة باستمرار من تسليم وحساب، وتعديل، وتحقيق الربح، والتحكم.

مع أن مذهب الآلية ليس قاتلاً، فهو مُذهِل وجديد وغير مفهوم بالنسبة إلى التاريخ الإنساني، تمامًا كما كانت الشمولية جديدة على شهودها وضحاياها. تساعدنا مواجهتنا لقوة غير مسبوقة على تفسير صعوبة تحديد هذا النوع الجديد من الإجماع ومعرفته، فهو يتشكل بسرعة تامة، وتخفيه التكنولوجيا والتعقيد التقني، ويطغى عليه خطاب محجب. كانت الشمولية مشروعاً سياسياً اندمج مع الاقتصاد للسيطرة على المجتمع. أما مذهب الآلية فهو مشروع سوقي اندمج مع العالم الرقمي لتحقيق نمط فريد من نوعه من الهيمنة الاجتماعية. لذلك لن يدهشنا أن تكون "وجهة نظر الملاحظة" الخاصة بمذهب الآلية قد تشكلت في المجال الفكري المثير للجدل المعروف باسم "السلوكية الراديكالية"⁽⁹¹⁶⁾ وسابقتها في الفيزياء النظرية في مطلع القرن العشرين. في ما تبقى من هذا الفصل، يتجه بحثنا عن القوة في زمن رأسمالية المراقبة إلى هذه النقطة الأصلية بعيداً عن القتل والفوضى التي تفرضها الشمولية. ويأخذنا هذا

(916) فلسفة علمية تؤكد على دور العوامل البيئية في تشكيل السلوك، بما في ذلك الأحداث العامة والخاصة مثل الأفكار والمشاعر (المترجم).

البحث إلى المختبرات والفصول الدراسية وعوالم الفكر التي نسجها أشخاص اعتبروا الحرية مرافقة للجهل، والبشر كائنات بعيدة سجيئة أنماط سلوك خارجة عن نطاق فهمها أو سيطرتها، مثل النمل أو النحل أو قطعان الأيائل التي درسها ستوررات ماكاي.

4- كتاب بعنوان: الآخر

في عام 1971، ظهر على غلاف مجلّة التايم، وصف لـ "بورهوس فريدريك سكينر" يقول إنه "مؤسسة في هارفارد..... والأكثر تأثيرًا بين علماء النفس الأمريكيين الأحياء، والشخصية المعاصرة المثيرة للجدل في علم السلوك البشري، والذي يُبجل مثل المسيح، ويُعزّض باعتباره يشكّل تهديدًا".⁽⁹¹⁷⁾ كان قد أمضى معظم حياته المهنية في قسم علم النفس بجامعة هارفارد، وتركز بعض أهم ذكرياتي الواضحة عن الدراسات العليا على الأوقات التي أمضيتها في نقاشات وثيقة معه. وأعترف أنه لم يكن لتلك النقاشات دور كبير في تغيير وجهات نظرنا، لكنها تركت لديّ شعورًا لا يمحي بالافتتان بأسلوبه في تفسير الحياة البشرية الذي كان - ولا يزال - مختلفًا جوهريًا عن طريقتي.

اشتهر سكينر، بصفته عالم نفس أكاديميًا، بما ابتكره من أدوات وتقنيات لدراسة سلوك الحيوان - أولًا في الطابق السفلي المظلم القديم من قاعة ميموريال، ثم في الطابق السابع من قاعة ويليام جيمس المبنية حديثًا - فضلًا عما طوّره مع طلابه من أفكار في تشكيل هذا السلوك: الحمام والرافعات، والحمام والحبيبات، والحمام على صفائح ساخنة، والفئران في المتاهات. وفتحت أبحاثه آفاقًا جديدة عندما صمّم "جداول تعزيز" متغيرة لإنتاج أنماط تفصيلية لنشاطات كانت مختلفة عن مخزون السلوك الأصلي للحيوان، وهو العامل الذي أطلق عليه اسم "التكيف الإجرائي

(917) السلوك: يوتوبيا سكينر: الحل السحري أم الطريق إلى الجحيم؟ مجلة تايم، 20 سبتمبر/ أيلول 1971.

انطلاقًا من جهوده خلال الحرب العالمية الثانية للاستفادة من سرب حمام مدرّب لتوجيه الصواريخ نحو أهدافها (وهي محاولة لم تنجح في نهاية المطاف)، انطلق سكينر في مسار جديد تحدده وعود الهندسة السلوكية. وأشار في ندوة له عام 1947: "لا يتعلّق الأمر بإحضار العالم إلى المختبر، بل بتوسيع ممارسات العلوم التجريبية إلى العالم بأسره. يمكننا أن نفعل هذا بمجرد أن نرغب في ذلك".⁽⁹¹⁹⁾ لقد سلّط مشروع الصاروخ الضوء على معنى عمله التجريبي "بطريقة جديدة"، كما ذكر في سيرته الذاتية بعد سنوات. "لم يعد مجرد تحليل تجريبي، بل أدّى إلى ظهور تقنية جديدة".⁽⁹²⁰⁾

كان حريصًا على تطبيق رؤاه المخبرية على مشاكل العالم، رغم قلّة الأسس التي تُبرر قفزاته الاستدلالية. وبصفته مفكرًا شعبيًا، أمضى ما يقرب من سبعة عقود وهو يحاول إقناع العامة بأن "سلوكيته الراديكالية" تُقدم مبادئ التنظيم الاجتماعي اللازمة لحماية الحضارة من الكوارث. واستقرّ أبحاثه بحراً وحزم، من سلوك الحيوانات المحاصرة، نظريات عظيمة حول السلوك الاجتماعي والتطوّر البشري، أظهرها في كتب مثل روايته "الطوباوية بعنوان: "والدن الثاني" (Walden Two) عام 1948، وكتابه عن الفلسفة الاجتماعية بعنوان: "ما وراء الحرية والكرامة" (Beyond Freedom & Dignity) عام 1971. ونشر عام 1974 كتابه بعنوان: "عن السلوكية" (About Behaviorism)، وهو عن تفسير آخر للمشروع السلوكي الراديكالي لكنه كان موجّهًا هذه المرّة إلى عامة القراء. كان يهدف إلى مواجهة معارضة آرائه التي ازدادت ضراوة منذ الحجج غير العادية - والمثيرة للاشمئزاز بالنسبة إلى كثيرين - التي طرحها في كتابه "ما وراء الحرية والكرامة". إذ اعتبر هذه المعارضة نتيجة "سوء فهم مُفرط"، ولم يتوان في بذل جهوده لتغيير الرأي العام. كان يؤمن بأنه ما إن يفهم الناس معناه

(918) تعزيز سلوكيات معيّنة أو إضعافها من خلال ما تُنتجه من عواقب (المترجم).

(919) ب. ف. سكينر، "الاتجاهات الحالية في علم النفس التجريبي"، في السجل التراكمي، 319. www.bf Skinner.org (الخط المائل يعود لي).

(920) انظر لودي تي. بنيامين جونيور وإليزابيث نيلسن-جامون، "بي. إف. سكينر والتكنولوجيا النفسية: حالة مكيف الوريث"، مراجعة علم النفس العام 3، رقم 3 (1999): 155-167.

فهما صحيحًا، حتى يتفقا حتمًا مع رسالته.

في الصفحات الأولى من كتابه "عن السلوكية"، يتجاهل سكينر الغضب الذي أثاره كتاب "ما وراء الحرية والكرامة"، ويتعمق بدلًا من ذلك في جذور السلوكية ومنظريها وممارسيها الأوائل. ويرى بأن سبب النفور من السلوكية يرجع إلى من يُعتبر مؤسسها، إلى "جون بي. واتسون".⁽⁹²¹⁾ حيث كان واتسون هو من أعلن في عام 1913 وجهة النظر السلوكية الشهيرة: "إن علم النفس من منظور السلوكيين هو فرع تجريبي موضوعي بحث من العلوم الطبيعية. والهدف النظري منه هو التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه. لا يُشكّل التأمل الذاتي جزءًا أساسيًا من أساليبه... ولا يُدرك السلوكي وجود خطّ فاصل بين الإنسان والحيوان".⁽⁹²²⁾ ثم تبين أن واتسون لم يكن عالمًا أكثر مما كان شخصًا استعراضيًا، وينتقد سكينر بشكل حادّ ادعاءاته المتطرفة و"نقص الحقائق" التي تلقي بظلال الشكّ الدائم على السلوكية الراديكالية.

بعد أن أكّد سكينر أن واتسون هو السبب الرئيس للمشكلة، أرجع الفضل بعد ذلك إلى عمل ماكس ماير، وهو عالم نفس تجريبي غامض تلقى تدريبه في ألمانيا في أوائل القرن العشرين، وقضى معظم حياته المهنية في جامعة ميسوري، باعتباره المفتاح إلى الحل. تابع ماير تحضيره لشهادة الدكتوراه في جامعة برلين، حيث كان من المقرّر أن يصبح مستشار أطروحته ماكس بلانك، وهو أحد أشهر علماء الفيزياء على مرّ العصور. أصرّ بلانك على وحدة العالم المادي، وإمكانية اكتشاف القوانين الطبيعية التي لن تكشف أسرارها إلا من خلال التحليل الرياضي، بما في ذلك قوانين السلوك البشري.⁽⁹²³⁾ يقول بلانك: "العالم الخارجي شيء مستقلّ عن الإنسان، شيء مُطلق. ويبدو أن البحث عن القوانين التي تنطبق على هذا المطلق... هو أسمى مسعى علمي في الحياة".⁽⁹²⁴⁾ ونقل ماير تعاليم بلانك إلى بحثه عن المبادئ التي من شأنها أن ترفع

(921) ب. ف. سكينر، عن السلوكية (نيويورك: فينتيج، 1976)، 1-9.

(922) جون ب. واتسون، "علم النفس كما يراه السلوكيون"، المراجعة النفسية 20 (1913): 158-177.

(923) ليففورت، الأشكال السياسية للمجتمع الحديث؛ "ماكس بلانك"، القاموس الكامل للسيرة العلمية (ديترويت، ميشيغان: سكرينر، 2008).

(924) ماكس كارل إرنست لودفيغ بلانك، موقع Nobel-winners.com، 16 ديسمبر 2017. وكما أشار

في النهاية دراسة السلوك البشري إلى مكانة علمية حقيقية.

وفقاً لسكينر، نجح ماير في تحقيق الاختراق الذي سمح في النهاية لعلم النفس بتولي موقعه الصحيح إلى جانب تخصصات الفيزياء والكيمياء والأحياء.⁽⁹²⁵⁾ لماذا أشاد سكينر بهذا العمل الذي أُهمل إلى حد كبير، حتى في عصره؟ يخصّ سكينر بالثناء كتاباً جامعياً صدر عام 1921 بعنوان ذي وقع مُريب "سيكولوجيا الآخر" (Psychology of the Other-One). لم يحظَ الكتاب إلا باهتمام ضئيل عند نشره — فقد كتبه ماير في المقام الأول لطلابه — وقد سقط في غياهب النسيان منذ ذلك الحين.⁽⁹²⁶⁾ ومع ذلك، أشاد سكينر بالكتاب لأنه أرسى الأسس المعرفية والمنهجية للسلوكية الحديثة: "تأمل فقط تلك الحقائق التي يمكن ملاحظتها بشكل موضوعي في سلوك شخص واحد في علاقته بتاريخه البيئي السابق".⁽⁹²⁷⁾ ويرى سكينر أن كتاب ماير كان نقطة تحوّل، إذ جمع بشجاعة بين علم النفس والفيزياء في سعيه نحو المطلق. وأكد جوهر وجهة نظر السلوكيين، حيث "يفقد العالم الكامن في جسد الآخر مكانته المفضّلة".⁽⁹²⁸⁾

مؤلف سيرة ماكس بلانك الذاتية، "تذكر بلانك أن قراره الأصلي بتكريس نفسه للعلم كان نتيجة مباشرة لاكتشافه... أن قوانين التفكير البشري تتوافق مع القوانين التي تحكم تسلسل الانطباعات التي نتلقاها من العالم من حولنا؛ وبالتالي، فإن التفكير المجرد يمكن أن يُمكن الإنسان من فهم آلية العالم...". بعبارة أخرى، قرر بلانك عمداً أن يصبح فيزيائياً نظرياً في وقت لم تكن فيه الفيزياء النظرية معترفاً بها كتخصص قائم بذاته. لكنه ذهب إلى أبعد من ذلك: فقد خلص إلى أن وجود القوانين الفيزيائية يفترض أن "العالم الخارجي شيء مستقل عن الإنسان، شيء مطلق، وأن البحث عن القوانين التي تنطبق على هذا المطلق بدا... أسعى مسعى علمي في الحياة".

(925) يدرس إروين إسبر العوامل التي عزلت ماير في علم النفس الأمريكي، وبالتالي حرمت الكثير من أعماله من التقدير الذي كان يستحقه. انظر، على وجه الخصوص، إروين أ. إسبر، "ماكس ماير في أمريكا"، مجلة تاريخ العلوم السلوكية، المجلد 3، العدد 2 (1967): 107-131.

(926) إسبير، "ماكس ماير".

(927) سكينر، عن السلوكية، 14.

(928) وأكد سكينر على أهمية ماير الحاسمة بالنسبة لوجهة النظر السلوكية الراديكالية. انظر، على سبيل المثال، مناظراته عام 1967 مع الفيلسوف براند بلانشارد، حيث ذكر ما يلي: "نشأ مشكلة خاصة من حقيقة حتمية مفادها أن جزءاً صغيراً من الكون محصور داخل جلد كل منا. إنه لا يختلف في نوعه عن بقية الكون، ولكن لأن اتصالنا به حميم وحصري في بعض النواحي، فإنه يحظى باهتمام خاص. يُقال إنه معروف بطريقة خاصة، ويحتوي على المعطى المباشر، وهو أول ما يعرفه الإنسان، ووفقاً للبعض، الشيء الوحيد الذي يمكنه معرفته حقاً. يبدأ الفلاسفة، متبعين ديكرت، به في تحليلهم للعقل. ويبدو أن

إن العبارة التي جسدت المنظور العلمي الجديد كانت "الآخر". لن يخضع السلوك البشري للبحث العلمي إلا إذا تعلّم علماء النفس النظر إلى البشر بصفتهم "آخرين". كانت هذه "النظرة القائمة على الملاحظة" شرطاً أساسياً لـ "علم موضوعي للسلوك البشري" يكفّ عن الخلط بين التجربة الداخلية والفعل الخارجي.⁽⁹²⁹⁾ كان جوهر هذه النظرة الجديدة هو مفهومه عن الإنسان ككائن حي. تُعاد صياغة الإنسان باعتباره "هو"، "آخر"، "هم" بين الكائنات الحية: "كائن حي بين الكائنات الحية"، لا يختلف عن الخس أو الغزال أو الدودة إلا في درجة تعقيدته.⁽⁹³⁰⁾ وينبغي أن يقتصر اهتمام السيكلوجيا العلمية على السلوكيات الاجتماعية، وبالتالي السلوكيات المرئية، لهذا "الكائن الحي بصفته كائناً حياً". "ستكون دراسة حياة الآخر، دراسة حياته بقدر ما لها من أهمية اجتماعية وليس بقدر أهميتها بالنسبة إليه... نحن ندرس الآخر بدلاً من أن ندرس أنفسنا".⁽⁹³¹⁾

كل شخص تقريباً يبدأ به في تفسير سلوكه. ومع ذلك، هناك نقطة انطلاق أخرى محتملة - سلوك ما اعتاد ماكس ماير تسميته الآخر. مع ازدياد فعالية التحليل العلمي، لم نعد نفسّر هذا السلوك من حيث الأحداث الداخلية. يفقد العالم الكامن داخل جلد الآخر مكانته المفضلة. انظر براند بلانشارد، "مشكلة الوعي: مناظرة مع ب. ف. سكينر"، الفلسفة والبحث الظاهراتي، 27، رقم 3 (1967): 317-37. (929) ماكس ماير، "الوضع الحالي لمشكلة العلاقة بين العقل والجسد"، مجلة الفلسفة وعلم النفس والأساليب العلمية 9، العدد 14 (1912): 371. (930) إسبر، "ماكس ماير"، 114. من منظور ماير، كان هذا الاختزال إلى "كائن حي" إنسانياً بطبيعته، إذ يُشدد على القواسم المشتركة بين الأشخاص، وحتى بين الأنواع. جميعنا ننام ونستيقظ، نأكل ونشرب، نرقص، نضحك، نبكي، نتكاثر، ونموت. (931) انظر ماكس بلانك، "مشكلات وهمية في العلم"، في السيرة الذاتية العلمية وأبحاث أخرى (نيويورك: المكتبة الفلسفية، 1949)، 52-79، 75. في عام 1946، لُجّصت آراء بلانك الراسخة حول وحدة العلم والمنطق العلمي في بحث حول "مشكلات وهمية" في العلم، بما في ذلك "مشكلة العقل والجسد" و"مشكلة الإرادة الحرة". اعتبر بلانك الجدل حول العقل والجسد، مثل جميع المشاكل الوهمية في الفلسفة والعلم، إخفاً في تحديد "وجهة نظر الملاحظة" والالتزام بها باستمرار. وجادل بأنه غالباً ما تختلط وجهة النظر "الداخلية" أو "النفسية" بوجهة النظر "الخارجية" أو "الفيزيولوجية": "ما تشعر به، تفكر فيه، تريده، أنت وحدك من يمكنه معرفته كمعلومات مباشرة. لا يمكن للآخرين استنتاجه إلا بشكل غير مباشر، من كلماتك، سلوكك، أفعالك، وسلوكياتك. عندما تكون هذه المظاهر الجسدية غائبة تماماً، فليس لها أي أساس يُمكنها من معرفة حالتك العقلية للحظة". وبالتالي، كانت وجهة النظر الخارجية هي الوحيدة المقبولة "كأساس لملاحظاتنا العلمية للعمليات الإرادية". إن إرساء "وجهة النظر الخارجية هذه" كأساس للدراسة العلمية للسلوك البشري أمر بالغ الأهمية لقصتنا، ويشير بحث بلانك إلى التأثير الذي مارسه تفكيره على ماير (وحتى احتمال أن يكون بلانك قد قرأ عمل ماير عام 1921). على أي حال، فإن الصدى بين حجة بلانك وحجة ماير واضح.

فرضت العواقب المنطقية لوجهة النظر الجديدة إعادة تفسير التجارب الإنسانية ذات المستوى الأعلى التي نسميها "الحرية" و"الإرادة". وقد ردد ماير رأي بلانك عندما افترض أن "حرية الفعل في عالم الحيوان لها المعنى ذاته للحوادث التي تقع في عالم الفيزياء".⁽⁹³²⁾ هذه الحوادث هي مجرد ظواهر ليس لدينا عنها ما يكفي من المعلومات والفهم. وهذا الحال مع الحرية. لا تزال الفكرة الليبرالية عن الحرية مرتبطة بنمو المعرفة العلمية، ولا سيما في مجال علم النفس. فالمعرفة والحرية متضادان بالضرورة. ووفقاً لماير: "إن سلوك الآخر حرّ تماماً ولا يحتاج إلى تبرير، بالمعنى نفسه الذي يكون فيه المرض أو نتائج الحرب أو الطقس أو المحصول الزراعي غير محتاج إلى تبرير؛ أي بمعنى الجهل البشري التام بالمبررات الخاصة بنتيجة خاصة".⁽⁹³³⁾ وقد شكّلت هذه النظرة إلى العالم، بعد عقود، جوهر الفلسفة الاجتماعية المثيرة للجدل التي تبناها سكينر في كتابه "ما وراء الحرية والكرامة"، حيث جادل بأن المعرفة لا تجعلنا أحراراً لكنها تحررنا من وهم الحرية. ويقول إن الحرية والجهل مترادفان. إن اكتساب المعرفة أمر بطولي لأنه ينقذنا من الجهل، لكنه مأساوي أيضاً لأنه يكشف بالضرورة عن استحالة الحرية.

وفقاً لماير وسكينر، إن ارتباطنا بمفاهيم مثل الحرية والإرادة والاستقلال والهدف والوكالة هو عبارة عن آليات دفاعية تخمينية من الحقائق غير المريحة للجهل البشري. وأنا أفكر الآن في شخصية "سكروج" في رواية تشارلز ديكنز عندما يواجه للمرة الأولى شبح شريكه المتوفى جاكوب مارلي الحزين يجرّ نفسه على ظهر حصان، ويُبرّك ظهوره قائلاً: "قد يكون ذلك قطعة لحم غير مهضومة، أو بقعة من الخردل، أو فتات جبن، أو جزءاً من حبة بطاطس غير مطهّوة جيداً". هكذا هو الأمر مع الحرية: قطعة خوف غير مهضومة، أو فتات من الإنكار، والتي بمجرد استيعابها ستبدّد الشبح وتسلمنا إلى الواقع. إن البيئة تحدد السلوك، وجهلنا بكيفية حدوث ذلك على وجه التحديد هو الفراغ الذي نملؤه بخيال الحرية.

(932) ماكس فريدرش ماير، علم نفس الآخر (شركة ميسوري للكتاب، 1921)، 146.

(933) ماير، علم النفس، 147.

بذل ماير جهدًا كبيرًا للتشديد على أن أهمية العمق البشري - "الروح"، "الذات"، "العقل"، "الوعي" - تقتصر على الحياة الذاتية للفرد. ولا يمكن أن يكون لهذا العمق أية قيمة علمية بسبب العجز عن مراقبتها وقياسها: "نحن لا ننكر الروح، لكننا لا نكرّس وقتنا لها. ونجد ما يكفي من الوقت، بل وأكثر مما يكفي، لدراسة الجسد". إن الروح "شأن خاص بك"، وهي تجربة حميمة ولغز لا يمكن اختزاله. ومعرفة رسميًا من البحث العلمي: "وبالتالي، يمكن فهم المجتمعات البشرية على أنها تنشأ من القوانين الطبيعية، وهذا ليس بمعنى مجموعات الأرواح، بل بمعنى مجموعات الكائنات الحية". (934)

جادل ماير بأن مستقبل العلوم الاجتماعية والحضارة ذاتها يعتمد على هذا التحول من الروح إلى الآخر، من الداخل إلى الخارج، من التجربة المعيشة إلى السلوك الملحوظ. كان يُفترض بإضفاء طابع "الآخر" على البشرية أن يكون الطريق نحو نوع جديد من التحرر السياسي. عبر التاريخ، تعرّض الإنسان لأنماط متعددة من القمع والعنف والاستغلال، تحت ذرائع مختلفة، هدفت إلى إخضاع الروح البشرية لخدمة السلطة والنفوذ. ومن منظور ماير في ولاية ميسوري عام 1921 خلال السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، بدا وكأن حلّه للحدّاث الفعّالة والعقلانية لا بدّ أن يكون مسألة حياة أو موت:

من يركّز اهتمامه على الروح يعتقد، عندما يجبر الآخرين على الصلاة بطريقته، وإعلان عقيدته، والركوع أمام مذبحه، أنه ينقذ أرواحهم، ويفشل في الاعتراف بأنه أجبر أجسادهم فقط... وللإرهاب السياسي أيضًا مصدره الرئيس الذي لا ينضب في الميل البشري إلى التفكير بالكائنات الأخرى، ليس كأجساد مفتوحة للتحقيق العلمي، بل بصفاتها أرواحًا وكائنات غامضة يحكمها السحر، أو يحكمها العذاب والموت إذا فشل السحر كما يحدث بطبيعة الحال... تذكر أهوال التعذيب... في محاكم مثل محاكم التفتيش الإسبانية أو محاكم السحر في القرن السابع عشر... حدثت هذه الفظائع

بسبب حقيقة أن القاضي كان يعمل كقارئ للأفكار، وكان يُنظرُ إلى المتهم في المقام الأول بصفته روحًا.⁽⁹³⁵⁾

وفقًا لتفكير ماير، يفسّر التحوّل في المنظور من "الكائن البشري باعتباره روحًا إلى الكائن البشري باعتباره كائنًا حيًا، السبب في توجّه التاريخ نحو الديمقراطية". ومع تفوّق العلم على الحضارة، طالب ماير باعتراف عالمي جديد بالمساواة والزمالة الديمقراطية المتجذرة في الحقيقة الأساسية المتمثلة في تشابهنا الهائل ككائنات حية. ستصبح الانقسامات التي تُخيم على المجتمع والسياسة والاقتصاد، القائمة على الطبقة والثروة والسخاء والعرق وما إلى ذلك، سخيفة: "في الحياة البشرية الحقيقية، تغطي الاختلافات بين الأفراد تمامًا على أوجه التشابه. وبالنسبة إلى من يقبل الرأي العلمي القائل بأن المجتمع البشري مجموعة من الكائنات الحية، يُعدّ مبدأ التقسيم إلى طبقات اقتراحًا سخيفًا".⁽⁹³⁶⁾

اعتقد ماير أن كل علم اجتماعي يطمح إلى مكانة علمية حقيقية سوف يتبنى وجهة النظر هذه عن "الآخر" – علم النفس طبعًا، كما تتناول بعض الدراسات في علم الاجتماع والدين تمثيلات الشخصيات الروحية بوصفها رموزًا حية تتفاعل مع الجماعة البشرية في سياقات تاريخية ومعنوية...".⁽⁹³⁷⁾

من شأن عملية "إضفاء طابع الآخر" على كائنات أخرى أن تمهّد الطريق لمستقبل عقلائي، مع كل ما تحمل من إشباع قاتم يجعل البشرية تستسلم لخطر التنازل عن الحرية ثمناً للمعرفة.

5- ضدّ الحرية

كان التزام سكينر بفكرة "الآخر" ثابتًا لا يتزعزع، ويمكننا من خلال شرحه لهذه الفكرة أن نبدأ في فهم جوهر القوة الآلية. يُطلق سكينر، من الصفحة الافتتاحية لكتابه

(935) ماير، 411-412، 420.

(936) ماير، 420.

(937) ماير، 404.

الأول بعنوان: "سلوك الكائنات الحية" (The Behavior of Organisms)، المنشور عام 1938، تحذير ماير (وبلانك): الحرية ليست سوى جهل ينتظر من يتغلب عليه. تُنسب "أنظمة السلوك البدائية" سبباً إلى "كيانات تتجاوز الإنسان". ولا تقل عن ذلك "أنظمة السلوك المتقدمة" التي تعزو السيطرة إلى خيالات غامضة مثل "الذات" أو "الإرادة الحرة". ووفقاً لتعبيره، "قد يُطلق على الكائن الحي الداخلي، في حالة الاستسلام صفة الحرّ، كما في حالة 'الإرادة الحرة'، عندما يُعتقد أنه من غير الممكن إجراء تحقيقات إضافية". (938)

أطلق سكينر على عمله اسم "السلوكية الراديكالية"، مُصرّاً على أن الهدف الوحيد ذا المعنى في دراسة السلوك هو ملاحظة الفعل دون أي إسناد ذاتي. وهذا ما جعله راديكالياً. ووفقاً لتصريحه في الصفحات الافتتاحية لكتابه الأول، "السلوك هو ما يفعله الكائن الحي - أو بشكل أكثر دقة ما يلاحظ كائن حي آخر أنه يفعله". كان السلوك "الإجرائي" هو مصطلحه لهذا "الفعل" النشط الملحوظ. كان من المفترض أن تُظهر مفردات وصف السلوك الإجرائي من جوهرها الداخلي: فلا يُقال إن الكائن الحي "يرى" بل "يُنظر إليه". إن أوصافاً موضوعية كهذه فقط هي القادرة على تقديم حقائق سلوكية قابلة للقياس، وتؤدي بدورها إلى نماذج، وتؤدي في نهاية المطاف إلى توثيق العلاقات السببية بين البيئة والسلوك. (939)

نشر سكينر كتابه بعنوان: "العلم والسلوك البشري" (Science and Human Behavior) عام 1951، حيث افترض أن الملاحظات كلها، حتى لسلوك الشخص نفسه، يجب أن تحدث من وجهة نظر الآخر. يجعل هذا التخصص من الممكن لنا أن نأخذ الأشياء كلها تقريباً مواضيعاً للتحليل السلوكي، بما في ذلك السلوكيات المُستنتجة مثل "اتخاذ الخيارات" أو "حلّ المشكلات"، وهو المنظور ذاته الذي سيستغله التخصص الجديد في الاقتصاد السلوكي لاحقاً، وعلى نطاق واسع:

عندما يضبط الإنسان نفسه، أو يختار مساراً للتصرف، أو يفكر في حلّ لمشكلة، أو

(938) ب. ف. سكينر، سلوك الكائنات الحية: تحليل تجريبي (أكتون، ماساتشوستس: كوبلي، 1991)، 3.

(939) سكينر، سلوك الكائنات الحية، 4-6.

يسعى لزيادة معرفته بذاته، فهو يسلك سلوكًا معينًا. إنه يضبط نفسه تمامًا كما يضبط سلوك أي شخص آخر - من خلال التلاعب بالمتغيرات التي يُعد السلوك جزءًا منها. إن سلوكه في هذه الحالة موضوع تحليل دقيق، وينبغي تفسيره في النهاية بمتغيرات خارجة عن نطاق الفرد نفسه. (940)

أعلن سكينر، في كل كتاب ومقالة تقريبًا، الحقيقة التي علّمها بلانك لماير ونقلها لطلابه، وهي الحقيقة الوحيدة التي لا تُدرك إلا من خلال منظور الآخر: الحرية جهل. وما التجربة الملموسة للإرادة الحرة سوى إنكار غير مفهوم ناتج عن نقص المعلومات حول المحدّدات الفعلية للسلوك. وقد نظر إلى الحرية، كما فعل ماير وبلانك قبله، باعتبارها "حادثًا"، وجادل بأن فكرة "الحادث" ذاتها وهمية، فهي مجرد لقطة في الزمن تكشف عن فجوة تنتظر أن تُملأ وتحوّل أخيرًا من خلال المعرفة المتقدّمة إلى تعبير عن نمط قانوني يمكن التنبؤ به. وتحت نظرة السلوكيين، تنتظر هذه الثغرات في الجهل، التي نُخطئ ونعتبرها إرادة حرة، تفسيرًا معينًا، إذ يشبه الأمر أن يُرسل شخص جسده للحفظ في التبريد على أمل حدوث صحوة وعلاج في المستقبل.

في أكثر أعمال سكينر جرأة، وهو المقال الفلسفي الموسع المنشور عام 1971 تحت عنوان "ما وراء الحرية والكرامة"، يكرّر: "لا توجد فضيلة في الطبيعة العَرَضِيَّة للحادث". (941) فقد ارتكز هذا العمل بأكمله على ما ظلّ سكينر يعتبره العائق الرئيس أمام التقدّم الاجتماعي: الارتباك المفاهيمي الذي يخفي جهلنا الأعظم في رداء مقدّس من الحرية والكرامة. وجادل سكينر بأن ولاءنا لهذه المفاهيم النبيلة هو ببساطة الطريقة التي نحتمي بها أنفسنا من الحقائق الصعبة المتمثلة في "العلاقات المسيطرة غير المتوقّعة بين السلوك والبيئة". (942) إنها بمثابة "طريق هروب" نفسي يغلق ببطء "مع اكتشاف أدلة جديدة على إمكانية التنبؤ بالسلوك البشري. ويُلغى الإعفاء الشخصي من الحتمية الكاملة مع تقدّم التحليل العلمي... وتبدو الإنجازات التي ينبغي أن يُنسب الفضل

(940) ب. ف. سكينر، العلم والسلوك البشري، (طبعة كيندل: فري برس، 2012)، 228-229.

(941) ب. ف. سكينر، ما وراء الحرية والكرامة (إنديانابوليس: هاكيت، 2002)، ص 163.

(942) سكينر، ما وراء الحرية والكرامة، 19-20.

إليها إلى الشخص نفسه وكأنها تقترب من الصفر... وبالتالي فإن السلوك الذي نُعجب به هو السلوك الذي لا نستطيع تفسيره بعد". (943)

أوضح لي ريتشارد هيرنشتاين، أحد أبرز طلاب سكينر، والذي أصبح لاحقًا زميله في قسم علم النفس بجامعة هارفارد، وأحد رواد السلوكية الراديكالية، أن أي فعل يُنظر إليه باعتباره تعبيرًا عن الإرادة الحرة هو ببساطة فعل لا يمكن حتى الآن تحديد "دوامة المحفزات" التي أنتجته بشكل كافٍ. لكننا نفتقر إلى وسائل الملاحظة والحساب. كنت طالبة في الثالثة والعشرين من عمري، وكان الفصل الدراسي جديدًا ومفاجئًا بالنسبة إلي. ولم أنس هذه المحادثة أبدًا، ربما لأنها كانت أقرب ما تكون إلى تلخيص مفهوم علماء السلوك عن القوى الفوق-طبيعية.

من هذا المنظور، تتقلص "الحرية" أو "الحوادث" مع تطور قدراتنا في القياس والحساب وتوفير المزيد من المعلومات حول دوامة المحفزات. يشبه الجهل بالسلوك البشري جبل الجليد الذائب على كوكب دافئ، والذي من المقرر أن يستسلم للحرارة المتزايدة بينما نبتكر الوسائل والأساليب الذكية بما يكفي لفك شيفرة دوامة المحفزات التي تشكّل كل حقيقة من حقائق السلوك البشري ثم السيطرة عليها. وأشار سكينر إلى التنبؤ بالطقس باعتباره المثال الأيقوني لهذا التحول من الجهل إلى القانون، تمامًا كما فعل ماير قبل عقود من الزمن:

يجب التعامل مع المشكلات التي يفرضها تعقيد موضوع معين فور ظهورها. يبدو أن الحالات الميؤس منها غالبًا ما تصبح قابلة للحل مع مرور الوقت. لم يكن بالإمكان تقديم أي نوع من الحسابات القانونية للطقس إلا مؤخرًا... لا ينبع تقرير المصير من التعقيد... لا تثبت صعوبة حساب التحليق حول مدار معين حالة تقلب المزاج، مع أنها قد تجعل إثبات أي شيء آخر مستحيلًا. (944)

(943) سكينر، 21، 44، 58.

(944) سكينر، العلم والسلوك البشري، 20.

6- تكنولوجيا السلوك البشري

شدّد سكينر، على مدى ستة عقود من الكتابة الأكاديمية والشعبية، على أن "المزيد من البحث" ممكن دائماً. ودعا، في الصفحات الأولى من كتابه "ما وراء الحرية والكرامة"، إلى حل تكنولوجيا للجهل: "نحن بحاجة إلى تغييرات جذرية في السلوك البشري، ولا يمكننا تحقيقها بمساعدة الفيزياء أو البيولوجيا مهما بذلنا من جهد.... ما نحتاجه هو تقنية سلوكية... تضاهي قوتها ودقتها التقنية الفيزيائية والبيولوجية....." (945)

تخيّل سكينر تقنيات تُرسّخ وجهة نظر الآخر على نطاقٍ واسع، حيث تُراقب السلوك وتحسبه وتُحلّله وتُعزّزه تلقائياً لتحقيق "تغييرات هائلة" يعتقد أنها ضرورية. وبهذه الطريقة سيُسلّط الضوء أخيراً على قوانين الأداء البشري، بحيث يُمكن التنبؤ بالسلوك وتشكيله بفعالية، تماماً كما مكّنت تقنيات أخرى الفيزياء والبيولوجيا من تغيير العالم: "الفرق هو أن الأدوات والأساليب التي استخدموها كانت بتركيب مناسب. إن حقيقة عدم توفّر أدوات وأساليب بالمستوى نفسه من القوة في مجال السلوك البشري لا تُعتبر تفسيراً؛ بل هي جزء من اللغز فقط." (946) واستنتج أن أدب "الحرية والكرامة" يقف عائقاً أمام تحقيق المزيد من الإنجازات البشرية. (947) وجادل بأن القطعة المفقودة من اللغز، التي تعيق التطوير العاجل لـ "الأدوات والأساليب" الأساسية لتكنولوجيا السلوك، كانت عمق ولاء الناس لهذه المفاهيم القديمة، وعزمهم على الحفاظ على "منح الفضل" لأفعالهم. إن الإيمان بـ "الإنسان المستقل" هو مصدر رجعي لمقاومة مستقبل عقلائي، و"تفسير بديل للسلوك" يعوق تقدّم المجتمع.

اعتقد البروفسور أن البشرية بحاجة ماسّة إلى خطة، وتخيّل أدوات جديدة قوية يمكنها هندسة السلوك في المجالات كلها. وفي مطلع عام 1953، توقّع بيئات

(945) سكينر، ما وراء الحرية والكرامة، 4-5.

(946) سكينر، 5-6 (الخط المائل يعود لي).

(947) سكينر، 59.

الكازينوهات المصممة اليوم رقميًا، والتي جعلتها براعتها في تشكيل سلوك المقامرين بدقة، أرض اختبار لأجهزة أمن الدولة ورأساليي المراقبة على حدّ سواء: (948) "لكن يجب أن يكون بالإمكان، بوجود الأدوات المناسبة، تحسين الممارسات الراسخة في هذه المجالات كلها". وبالتالي، يمكن "تحسين" أجهزة المقامرة - من وجهة نظر المالك - من خلال تقديم أجهزة من شأنها أن توثق ثمارها على أساس فترات زمنية متغيرة، لكن فقط عندما يكون معدل اللعب مرتفعًا بشكل استثنائي". (949)

لن تقتصر تقنيات الهندسة السلوكية على "الأجهزة" فحسب، بل ستشمل أيضًا الأنظمة والإجراءات التنظيمية المصممة لتشكيل السلوك نحو أهداف محددة. وفي عام 1953، توقع سكينر ابتكارات مثل أنظمة الحوافز التي وضعها مايكل جينسن، والمصممة لتعظيم قيمة المساهمين و"هياكل الاختيار" في الاقتصاد السلوكي المصممة "لدفع" السلوك على طول المسار المفضل: "يمكن أيضًا تحسين جداول الأجور في الصناعة، وفنون المبيعات، والمهن، واستخدام المكافآت، وحوافز على الأجور وما إلى ذلك، لتحقيق أقصى قدر من الإنتاجية". (950)

أدرك سكينر أن هندسة السلوك تتضمن خطر انتهاك الحساسيات الفردية والمعايير الاجتماعية، ولا سيما المخاوف المتعلقة بالخصوصية. ولتهدئة هذه المخاوف، نصح بأن تكون المراقبة قليلة الإزعاج، ومن الأفضل أن تبقى خارج وعي الكائن الحي: "يمكن أيضًا مراقبة السلوك بالحد الأدنى من التفاعل بين الموضوع والعالم، وهي الحالة التي

(948) "المقامرة سمة من سمات الرأسمالية - وليست عيبًا"، بروسبكت، أبريل 2017؛ ناتاشا داو شول، الإدمان بالتصميم: المقامرة الآلية في لاس فيغاس (برنستون، نيوجيرسي: جامعة برنستون، 2014)؛ هوارد جيه شافر، "المقامرة والإدمان على الإنترنت"، كلية الطب بجامعة هارفارد: قسم الإدمان، تحالف كامبريدج الصحي، 16 يناير 2004؛ مايكل كابلان، "كيف يدفع أمن لاس فيغاس تكنولوجيا المراقبة في كل مكان"، بوبيولار ميكانيكس، 1 يناير 2010؛ آدم تانر، ما يبقى في لاس فيغاس: عالم البيانات الشخصية - شربان الحياة للشركات الكبرى - ونهاية الخصوصية كما نعرفها (نيويورك: الشؤون العامة، 2014)؛ كريس نودر، الشر بالتصميم: تصميم التفاعل ليقودنا إلى الإغراء (إنديانابوليس: وايلي، 2013)؛ جوليان مورغانز، "إدمانك على وسائل التواصل الاجتماعي ليس مصادفة"، فايس، 18 مايو/أيار 2017؛ "أسباب لعب ماكينات القمار بدلًا من ألعاب الطاولة في الولايات المتحدة"، ستاتيسا، 2017. (949) سكينر، العلم والسلوك البشري، 105-106، 282 (الخط المائل يعود لي). للاطلاع على تقنيات السلوك في الكازينوهات، انظر تانر، ما يبقى في لاس فيغاس. (950) سكينر، العلم والسلوك البشري، 105-106.

يحاول المرء أن يبدأ بها بشكل طبيعي". (951) لكن ستكون هناك تحديات. سيتعين على تقنيات السلوك الجديدة أن تواصل توسيع نطاق الفجوة بين القطاعين العام والخاص للوصول إلى جميع البيانات ذات الصلة بالتنبؤ بالسلوك والتحكم فيه. وتوقع بذلك حدود التسليم التي تحدث اليوم مع وصول أنظمة جديدة تكشف أعماق الشخصيات والعواطف: "لكننا لا نزال نواجه أحداثاً تقع على المستوى الخاص، وهي مهمة للكائن الحي دون تضخيم آلي. سيظل رد فعل الكائن الحي تجاه هذه الأحداث سؤالاً مهماً، حتى وإن أصبحت هذه الأحداث متاحة للجميع في يوم من الأيام". (952)

يعتقد سكينر أن صراعات كهذه يمكن حلها بالتراجع التدريجي لقواعد الخصوصية أمام تقدم المعرفة: "إن الخط الفاصل بين العام والخاص ليس ثابتاً". وكان واثقاً، كما هو حال رأسمالي المراقبة اليوم، من أن قطرات الابتكارات التكنولوجية البطيئة ستدفع الخصوصية إلى هامش التجربة الإنسانية في نهاية المطاف، حيث تنضم إلى "الحرية" وغيرها من الأوهام المزعجة. سيُستبدل بهذا كله وجهة نظر الآخر المتجسدة في أدوات وأساليب جديدة: "تتغير الحدود مع كل اكتشاف لتقنية تجعل من الأحداث الخاصة أحداثاً عامة... وبالتالي، قد تُحل مشكلة الخصوصية في نهاية المطاف من خلال التقدم التقني". (953)

مع أن العديد من المدافعين عن الخصوصية، والعديد من منتقدي رأسمالية المراقبة، يسارعون إلى الاستيلاء على لغة أورويل في البحث عن المعنى، والمجاز الذي يجسد الشعور بالتهديد الجديد، فيمكن أن نفهم القوة الآلية لرأس مال المراقبة باعتبارها النقيض الدقيق لفكرة الأخ الأكبر عند أورويل.

7- طوباويتان اثنتان

في أعقاب الحرب العالمية الثانية الدامية، سعى كل من سكينر والكاتب الروائي

جورج أورويل إلى تقديم روايات "طوباوية" علاجية موجهة لفوضى الحداثة التي أنهكها نطاق عنف لا يمكن استيعابه. وبإلقاء نظرة من مسافة بعيدة على رواية سكينر بعنوان: "والدن 2" الصادرة عام 1948، ورواية جورج أورويل بعنوان: "1984" الصادرة في العام التالي، نجد أنها تشتركان في أمور كثيرة. إذ صاغ كلُّ منهما رؤية متكاملة لمنطق مختلف من السلطة، وتحليل مجتمعا يتسم بالازدهار الكامل لتلك السلطة، وكان كل منهما طوباويًا من منظور شكل السلطة التي وصفها.⁽⁹⁵⁴⁾ لكن لم يكن الاستقبال لرواية "والدن 2" مختلفًا: فقد رُفِضَت الرواية باعتبارها كابوسًا ديستوبيًا، وتجاهلها عامة الناس لأكثر من عقد من الزمن.⁽⁹⁵⁵⁾ وسرعان ما اهتم الناس برواية أورويل، باعتبارها تحفة فنية ديستوبية، واستخلاصًا لأسوأ كوابيس القرن العشرين.

غالبًا ما تم الخلط بين هاتين الطوباويتين من ناحية المحتوى والأهداف: فقد وصف غلاف مجلة التايم عام 1971 رواية سكينر بأنها تثير "شبح مجتمع 'أورويلي' بدأ يتحقق فعليًا". لقد وصف المؤرخ والناقد الأدبي الكبير لويس مومفورد رواية "والدن 2" بأنها "طوباوية شمولية" وتصوير "للجحيم"، ولكن هذه الأوصاف تشكّل في واقع الأمر ارتباطًا مستمرًا وخطيرًا كما سنرى. وعلى الرغم من وصف الروائيتين بأنهما تصوير للحالة الشمولية، إلا أن أشكال السلطة التي يصفها كل منهما تختلف بشكل كامل. بل هما متناقضتان تمامًا.

بُني وصف ماير للحداثة على التشبيء العلمي للتجربة الإنسانية واختزالها إلى سلوك قابل للمراقبة والقياس. إذا اتخذنا هذا معيارًا لنا هنا، فإن يوتوبيا أورويل هي الحالة "السابقة"؛ فهي تسبق ماير بوصفها كابوسًا للرغبة المُلحّة في السيطرة على

(954) قد يستغرب بعض الناس وصف جورج أورويل لرواية "1984" لصديقه أنتوني بأول بأنها "طوباوية على شكل رواية" انظر روبرت ماكروم، "1984: التحفة الفنية التي قتلت جورج أورويل"، صحيفة الغارديان 9 مايو 2009. وقد وصف ب. ف. سكينر رواية "والدن 2" بأنها "رواية مجتمع طوباوي". ب. ف. سكينر، "والدن 2" (إنديانابوليس: هاكيت، 2005).
(955) انظر مقدمة سكينر لطبعة عام 1976 من رواية "والدن 2": ب. ف. سكينر، والدن 2 (نيويورك: ماكميلان، 1976).

الروح. وتأتي طوباوية سكينر "بعد" إعادة تصوّر ماير للحدّاثَة، كما استقاها من الفزيائي العظيم بلانك. وبيّنت رواية "والدن 2" على وجهه نظر ماير العلمية في المراقبة، أي على "الآخر"، وتمثّل ذروة أمل ماير في انسجام عالمي مُستحثّ علميًا بين الكائنات الحيّة، تُصادَرُ فيها الحرية لصالح العلم. لقد كشف أوروبيل عن المرض، بينما أكّد سكينر على الترياق.

كانت السلطة الشمولية التي وُضعت في رواية "1984" أمرًا غير مسبوق، أمرًا مُختلفًا في القرن العشرين نتيجةً لتصادم الصناعة واليأس، وهو شكّل جديدًا تمامًا على التاريخ الإنساني. لم يقتصر أوروبيل على نسج خيالٍ واستقراءٍ للمشروع الشمولي وحسب. بل أصدر تنبيهاً من خلال رسم مسار مرعب للنتائج يمتد من الماضي الألماني القريب إلى الحاضر السوفياتي المستمرّ إلى مستقبل متخيّل لكنه ممكن للغاية. وتجلّت عبقريته في صوغ قصّة تجسّد جوهر الشمولية والاستبداد: الإصرار الشرس لكل إنسان على حدة، ليس بصفته آخر بعيدًا لا يُعرَف إلا من خلال سلوكه، بل من الداخل إلى الخارج.

لا يقتصر وعي المرء بالأخ الأكبر على الجيوش الكبرى وحكم الدولة، أو على تدفّقات الأجساد والحشود التي يمكن مراقبتها. فالأخ الأكبر هو وعيٌ شامل يُصيب كل روح ويستحوذ عليها، مُبدّدًا حالات التعلّق الأخرى كلها التي تكوّنت يومًا ما في الحبّ الرومانسي والرفقة الطيبة. ولا يقتصر جوهر عمله ببساطة على معرفته بكل فكرة وشعور، بل في الإصرار القاسي الذي تهدف به إلى القضاء على التجارب الداخلية غير المقبولة واستبدالها. "نحن لا نرضى بالطاعة السلبية، ولا حتى بالخضوع المذل"، ويقول الرجل الماكر أبرين لوينستون المتمرّد:

سنسحقكم حتى لا يكون هناك سبيل للعودة... عندما تستسلمون لنا أخيرًا، يجب أن يكون ذلك بمحض إرادتكم. نحن لا نقتل المهرطق لمجرّد مقاومته لنا: ما دام يقاومنا فلن نقتله إطلاقًا. سنقتله ونأسر عقله الباطن ونعيد تشكيله.... نضمّه إلينا،

ليس ظاهريًا، بل صادقًا قلبًا وقالبًا. سنجعله واحدًا منا قبل أن نقتله. (956)

أخيرًا، وكما يعرف كل من قرأ الرواية، "أعيدت هندسة" روح ونستون العنيدة بنجاح. وتُكمل مقاطع أورويل الأخيرة المُرعبة حياة تلك البذرة الجافة التي زُرعت في مطلع القرن في تربة إيطاليا الفقيرة، وغذتها الحرب والحرمان والإذلال، لتزدهر في كابوس ألمانيا النازية ونهاية روسيا ستالين، لتؤتي ثمارها أخيرًا في خيال أورويل: شهادة خالدة على ما أسماه موسوليني "الإرادة الشمولية الشرسة" والأرواح التي تتغذى عليها. ينعم وينستون بنشوة هادئة، "روحه بيضاء كالثلج... لقد انتصر على نفسه. أحب الأخ الأكبر". (957)

على النقيض من ذلك، لم يُقصد من كتاب "والدن 2" أن يكون بمثابة تحذير، بل كان بمثابة ترياق ضدّ الشمولية، ووصفة عملية للتحديات التي تمثلها إعادة بناء المجتمعات الغربية بعد الحرب. لقد فهم سكينر طوباويته الخاصة باعتبارها علاجًا منهجيًا لكابوس النفوس المحطّمة، وهو علاج أصرّ على أن يكون متفوقًا على أي من العلاجات السياسية أو الاقتصادية أو الروحية التقليدية المقدّمة. لقد سخر من فكرة أن "الديمقراطية" تحمل الحل لأنها نظام سياسي يعمل فقط على ترسيخ وهم الحرية بينما يعيق سيادة العلم. وكان يرى أن وعد "السوق الحرّة" كعلاج لمجتمع ما بعد الحرب العالمية الثانية كان مجرد حلم فارغ، لأنه يكافئ المنافسة المدمّرة بين الناس والطبقات. كما رفض سكينر الإنسانية الجديدة في الوجودية، واعتبرها أرضًا خصبة للسلبية، ورأى بعض المفكرين أن توظيف الدين في غير مقاصده قد يساهم في تكريس أنماط من الجهل، ويُستخدم أحيانًا كأداة لإبطاء حركة التقدم العلمي.

كان علاج سكينر مختلفًا وفريدًا من نوعه: طوباوية تقنية تعد بمستقبل من المساواة الاجتماعية والتناغم غير العاطفي القائم على وجهة نظر عن "الآخر"، ذلك "الكائن الحيّ بين الكائنات الحية"، باعتباره موضوع "الهندسة السلوكية". إنه مستقبل أحلام ماير، حيث يصف فرازر، مؤسس مجموعة "والدن 2" الخيالية وزعيمها، ورمز سكينر

(956) جورج أورويل، رواية 1984 (: هوتون ميفلين هاردكورت 2017)، 548، 551.

(957) أورويل، رواية 1984، 637-638.

الصريح، هذا المجتمع بأنه "كائن حي خارق" يمكن تشكيله والتحكم فيه "بسلاسة وكفاءة مثل فرق كرة القدم العظيمة". (958)

كان الهدف من طوباوية سكينر توضيح إمكانية قيام نظام اجتماعي ناجح يتجاوز استخدام القوة، ويرفض الحاجة إلى السيطرة على النفوس البشرية. ويرفض مجتمع "والدن 2" أيضًا ممارسات السياسة الديمقراطية والحكومة التمثيلية. إنه نظام اجتماعي يستمدّ قوانينه من علم السلوك البشري، وتحديدًا السلوك الراديكالي الذي ابتكره سكينر، وقام على المثل الأعلى للفيزيائي المتمثل في "الآخر". كانت طوباويته بمثابة أداة لتحقيق طموحات أخرى أيضًا، تهدف إلى توضيح الحلول السلوكية الضرورية لتحسين كل مجال من مجالات الحياة الحديثة: التهديد النووي، والتلوث، والسيطرة على السكان، والنمو الحضري، والمساواة الاقتصادية، والجريمة، والتعليم، والرعاية الصحية، وتنمية الفرد، والترفيه الفعال. كان هدفها تعزيز "الحياة الطيبة"، التي من أجلها يجب التنازل عن كل مُثل المجتمع الليبرالي — الحرية، والاستقلال، والخصوصية، وحق الشعب في الحكم الذاتي.

لقد قدّم الشكل الخيالي لرواية "والدن 2" الغطاء الذي احتاجه سكينر للاستقراء بدءًا بمبادئ ماير المنهجية عن الآخر، أبحاثه الخاصة حول سلوك الحيوانات، إلى مجتمع طوباوي يحلّ فيه السلوك كموقع للسيطرة محلّ الروح البشرية. للسيطرة. ويأسف فريزر على أن الناس "ظلّوا في أماكنهم"، ليس فقط من خلال قوى خارجية، "ولكن بشكل أكثر دهاءً من خلال نظام من المعتقدات المزروعة في أعماقهم. ويبدو أحيانًا أن مهمّة فكّ قيود أرواحهم مهمة تبدو شبه مستحيلة، لكن ذلك ممكن، لا يُمكن فرض أي شيء على المدى البعيد. نحن لا نستخدم القوة! كل ما نحتاجه هو هندسة سلوكية كافية". (959)

تعكس هاتان الطوباويتان نوعين مختلفين من السلطة، وتهدف كل رواية منهما إلى إنقاذ المستقبل من كابوس القرن العشرين. استطاع أورويل أن يستلهم من الماضي

(958) سكينر، والدن 2، 275-76.

(959) سكينر، 137-149.

القريب، لكن سكينر تحيّل مستقبلًا لن يعمر طويلًا لينعم به. إذا استمرّ ازدهار رأسمالية المراقبة وقوتها الآلية، فسنشهد تحقيق رؤية "والدن 2"، حيث تنتقل الحرية إلى معرفة الآخرين - لكنها الآن في خدمة ثروات الآخرين وقوّتهم.

تتجسّد رؤية سكينر في السعي الدؤوب لتحقيق الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة والجهاز الرقمي الشامل الذي تبتكره رأسمالية المراقبة وتسخره لتحقيق أهدافها الجديدة. تطوّر القوة الآلية للجهاز الرقمي الجديد - المستمر، المستقلّ، الموجود في كل مكان، الحسيّ، الحسابي، المشغل، المتصل بالشبكة، المدعوم بالإنترنت - لصالح مشروع رأسمالية المراقبة، مما يحقّق في النهاية دعوة سكينر إلى "أدوات وأساليب" تكنولوجيا سلوكية قابلة للمقارنة في القوّة والدقّة مع التكنولوجيا الفيزيائية والبيولوجية". والنتيجة هي وسيلة شاملة لتعديل السلوك، حيث تُصمّم اقتصاديات العمل الخاصة بها لتعظيم إيرادات المراقبة.

بقيت السلطة الآلية منحصرة في عالم ضبابي من الأحلام والأوهام حتى ظهور رأسمالية المراقبة. ويتبع هذا النوع من السلطة منطق بلانك وماير وسكينر في التنازل عن الحرية مقابل المعرفة، لكن هؤلاء العلماء جميعًا فشلوا في توقّع الشروط الفعلية لهذا الاستسلام. المعرفة التي تحلّ محلّ حريتنا الآن هي ملكٌ لها. المعرفة ملكٌ لها، لكنّ الحرية المفقودة ملكٌ لنا وحدنا.

مع هذه القصة الأصلية بين أيدينا، يتحول الفصل الثالث عشر إلى فحص دقيق للقوّة الآلية لأنها تخطّط عدم تناسق جديد حاد في المجتمع البشري: المعرفة التي نضحي بحريّتنا من أجلها مبنية لتعزيز المصالح التجارية لرأسمالية المراقبة، وليس لمصالحنا الخاصة. ويشكّل هذا انحرافًا صارخًا عن الأصول التقنية للجهاز في مبادئ ماكاوي في القياس عن بعد، وهي المبادئ التي تاجرت بحريّة الحيوانات مقابل المعرفة العلمية التي تهدف إلى إفادة الحيوانات نفسها. وبدلًا من ذلك، أصبح نظام السوق السلوكي لرأسمالية المراقبة يمتلك أخيرًا الأدوات والأساليب التي يمكنها فرض تكنولوجيا سكينر السلوكية عبر مختلف مجالات الحياة اليومية وصولًا إلى أعماقنا التي أصبحت

الآن بمثابة مختبر عالمي لرأس المال.

الفصل الثالث عشر

الآخر الكبير وصعود القوة الآلية

كان خادهمهم (يقول البعض إنه كان أعمى)،
يتنقل بين وجوههم وأغراضهم:
تجمعت مشاعرهم فيه وكأنها الريح
وغنّوا. وصاحوا: "يا له من صوت سماوي".

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، VII

1- الآلية باعتبارها نوعًا جديدًا من القوة

تشبه رأسمالية المراقبة لاعبًا بالدمى يفرض إرادته من خلال جهاز رقمي منتشر في الأماكن كلها. وأنا أطلق الآن على هذا الجهاز اسم "الآخر الكبير": وهو عبارة عن دمية حسيّة حاسوبية متصلة بالإنترنت، وتعمل على معالجة السلوك البشري ومراقبته وحوسبته وتعديله. يجمع الآخر الكبير بين وظيفتي المعرفة والفعل لتحقيق وسيلة شاملة وغير مسبقة لتعديل السلوك. ويوجّه المنطق الاقتصادي لرأسمالية المراقبة من خلال قدرات الآخر الكبير الهائلة على إنتاج القوة الآلية، واستبدال هندسة السلوك بهندسة النفوس.

تعمل القوة الآلية على تنمية "طريقة غير عادية للمعرفة" تجمع بين "اللامبالاة الرسمية" للنظرة العالمية الليبرالية الجديدة، ومنظور السلوكية الراديكالية للمراقبة (انظر الشكل 4 هنا). وبفضل قدرات الآخر الكبير، تعمل القوة الآلية على اختزال

التجربة الإنسانية في سلوك قابل للقياس والملاحظة، بينما تظل غير مبالية إطلاقاً بمعنى تلك التجربة. أُسمي طريقة المعرفة الجديدة هذه "اللامبالاة الراديكالية". وهي شكل من أشكال المراقبة دون شاهد يُظهر الوجه الآخر لدين سياسي عنيف حميم، يحمل بصمة دمار مختلفة تماماً: ازدياداً مُبهِماً ومُجَرَّدًا لأنظمة ومصالح مُعقَّدة لا يمكن اختراقها، ولا يمكن فهم المصالح التي أوجدتها، والتي تدفع الأفراد ضمن تيار سريع الحركة لتحقيق غايات الآخرين. وما يجري تمريره من أجل علاقات اجتماعية وتبادل اقتصادي يحدث الآن عبر وسيط هذا الحجاب الآلي للتجريد.

تتخذ اللامبالاة الراديكالية للقوة الآلية طابعاً تشغيلياً في أساليب التقييم غير الإنسانية التي يتبناها الآخر الكبير، والتي تُنتج تكافؤاً دون مساواة. تقلل هذه الأساليب من شأن الأفراد إلى أدنى قاسم مشترك للتشابه - كائن حي بين الكائنات الحية - على الرغم من الطرق الحيوية كلها التي لا نكون فيها متماثلين. ومن منظور هذا الآخر الكبير، نحن مجرّد كائنات أخرى بحتة: كائنات حيّة تسلك سلوكاً معيناً. ويرمز الآخر الكبير إلى وجهة نظر الآخر كحضور عالمي. لا يوجد هنا أي أخ من أي نوع، سواء أكان كبيراً أم صغيراً، شريفاً أم صالحاً؛ ولا توجد روابط عائلية مهما كانت قائمة. ولا توجد علاقة بين الآخر الكبير وأشياءه الأخرى، تماماً كما لم تكن هناك علاقة بين "العلماء والمواضيع" عند سكينر. ولا توجد سيطرة على الروح تتخذ موقع الألفة والتعلق بالرب - من الأفضل بكثير السباح للعديد من العلاقات بالازدهار. ولا يهتم الآخر الكبير بما نفكر فيه أو نشعر به أو نفعله طالما أن هناك ملايين ومليارات وترليونات من العيون والأذان الحسية والحركية والحسابية قادرة على المراقبة والتسليم والتحول إلى بيانات، وإضفاء طابع آلي على خزانات الفائض السلوكي الضخمة التي أنشأها الضجيج الكوني للاتصال والتواصل.

أصبح إضفاء الطابع المادي، في هذا النظام الجديد، هو الوسط الأخلاقي الذي تتكشف فيه حياتنا. وعلى الرغم من أن بإمكان الآخر الكبير أن يحاكي العلاقة الحميمة من خلال التفاني الدؤوب "للسوت الواحد" - خدمة "أمازون أليكسا" (Amazon-Alexa) المُبهجة، وتذكيرات "مساعد غوغل" والمعلومات التي لا نهاية

لها— فلا تُخطئ وتعتبر هذه الأصوات المهدّنة أي شيء آخر غير استغلال لاحتياجاتك. أنا أفكر الآن بالفيلة، تلك الثدييات الأروع بين الثدييات كلها: الآخر الكبير يسرق سلوكنا من أجل الفائض، ويترك خلفه كل ما في أجسادنا وأدمغتنا وقلوبنا النابضة من معنى، وهذا يشبه مذبحة وحشية للفيلة من أجل الحصول على العاج. انس ذلك القول الشائع "إذا كان المنتج مجانيًا، فأنت المنتج". أنت لست مُنتجًا، بل أنت الجثة المهملة. ينبع "المنتج" من الفائض السلوكي المنتزع من حياتك.

كما يشدد كل من سكينر، وستيورات ماكاي، ومارك وايزر، وجو براديسو، استطاع الآخر الكبير أخيرًا أن يُثبت تكنولوجيا السلوك العالمية التي تحقق أهدافها بهدوء وإصرار، باستخدام أساليب تتجاوز وعينا عمدًا، وتتوارى في خلفية الأشياء كلها. وتذكر أن إيرك شميدت، مؤسس ألفابت/ غوغل، أثار ضجة عام 2015 عندما أجاب ردًا على سؤال حول مستقبل الإنترنت: "سيختفي الإنترنت". ما كان يقصده فعلاً هو أن "الإنترنت سيختفي في الآخر الكبير".

بفضل قدرات "الآخر الكبير"، تسعى القوة الآلية إلى تحقيق حالة من اليقين دون رعب في شكل "نتائج مضمونة". ونحن نميل إلى الاستخفاف بآثاره، وخفض مستوى حذرنا، لأنه لا يُخضع أجسادنا لأنظمة ألم وقتل مرعبين. وبدلاً من الموت أو التعذيب أو إعادة التأهيل أو التوبة، تجمعنا الآلية غرباء عن سلوكنا. إنه يفصل داخلنا عن ظاهرنّا، وذاتيتنا وباطننا عن أفعالنا المرئية. ويضفي مصداقية على فرضية علماء الاقتصاد السلوكي حول هشاشة العقل البشري، إذ يجعل ذلك الأمر واقعًا، حيث يتخذ السلوك، الذي أضفي عليه طابع الآخر، حياةً مستقلة تُسلم مستقبلنا لأهداف رأسمالية المراقبة ومصالحها.

في طوباوية الآلية، يحاكي الآخر الكبير دوامة المحفزات، محوّلًا "الانتقاء الطبيعي" إلى "انتقاء غير طبيعي" من التنوع والتعزيز الذي يبتكره اللاعبون في السوق، والمنافسة على عائدات المراقبة. ربما نخلط بين "الآخر الكبير" ونظرة علماء السلوك إلى ما هو "فوق-طبيعي"، وذلك فقط لأنه يخفي مؤامرات رأس المال الرقابي الذي يعمل

كساحر خلف الستار الرقمي. إن الصوت المغربي المصنوع يدويًا على الجانب الآخر من هذا الحجاب - غوغل، هل هذا أنت؟ - يدفعنا بلطف على مسارٍ يُخْرِجُ منا أقصى قدر من الفائض السلوكي، وأقرب ما يمكن إلى اليقين. لا تستسلم للنوم في هذا الضباب المهدئ على طرف الشبكة. يؤمن هذا الصوت العارف بأهداف وقواعد المكان ذاته الذي كنا نأمل بالفرار منه، بطقوسه التجارية القائمة على المنافسة والازدراء والإذلال. إن اتخاذ خطوة خاطئة واحدة، أو انحراف واحد، عن مسار القدرة على التنبؤ السلس الخالي من الاحتكاك، يجعل الصوت ذاته يتحوّل إلى شيء مخرّش في اللحظة التي يعطي فيها تعليمات "لنظام مراقبة المركبات بعدم السماح بتشغيل السيارة".

في ظلّ نظام السلطة الآلية، يغمر نوع جديد من الأتمتة الوعي الذهني، والسيطرة الذاتية على الحق في الزمن المستقبلي، تدريجيًا: تجربة حية من التعزيز بالتحفيز والاستجابة، مجمّعة على شكل ذهاب وإياب للكائنات الحية فقط. لا علاقة لامثالنا بنجاح الأدوات. ولا حاجة للخضوع الجماعي للأعراف الاجتماعية، ولا لخسارة الذات لصالح الجماعة بسبب الإرهاب والإكراه، ولا إلى عروض القبول والانتفاء كمكافأة على الخضوع للمجموعة. يُستبدل بهذا كله نظام رقمي يزدهر داخل الأشياء والأجساد، ويحوّل الإرادة إلى تعزيز، والفعل إلى استجابة مشروطة.

هكذا تُنتج القوة الآلية معرفة متراكمة لا نهاية لها لرؤساليي المراقبة، وتُنتج حريتنا المتناقصة بلا نهاية مع تجدد هيمنة رؤسالية المراقبة على تقسيم التعلّم في المجتمع بشكل مستمر. لم يعد الوعي الزائف يُنتج من الحقائق الخفية للطبقة وعلاقتها بالإنتاج، بل من الحقائق الخفية لسيطرة السلطة الآلية على تقسيم التعلّم في المجتمع، عندما تغتصب حق الإجابة عن الأسئلة الجوهرية: من يعرف؟ من يقرّر؟ من يقرّر من يقرّر؟ كانت السلطة تُعرف سابقًا بملكية وسائل الإنتاج، لكنها الآن تُعرف بملكية وسائل تعديل السلوك، أي "الآخر الكبير". لقد تماهت السلطة في وقت معيّن مع ملكية وسائل الإنتاج، لكنها تنهاى الآن مع ملكية وسائل تعديل السلوك الممثّلة الآن بـ "الآخر الكبير".

2- مشروع سوق اليقين المطلق

يحقّق "الآخر الكبير"، وما يتيح من قوة آلية، رؤية سكينر عن البشرية. ففي مطلع عام 1948، كان سكينر يتوق في كتابه "والدن 2" إلى قدرات جديدة في القياس والحساب يمكنها أن تحلّ ألغاز دوامة المحفّزات، وتسلبّ الضوء على تلك الأفعال التي تتسم بالجهل، ونقيّمها نحن بغباء باعتبارها إرادة حرّة. يقول فرازر، بطل رواية "والدن 2": "لم أقل إن بالإمكان التنبؤ بالسلوك دومًا، مثلما يمكن التنبؤ بالطقس. غالبًا ما تكون هناك عوامل كثيرة جدًّا يصعب أخذها في الاعتبار. لا يمكننا قياسها جميعًا بدقّة، ولن نتمكن من إجراء العمليات الحسابية اللازمة للتنبؤ لو توفّرت لدينا القياسات". (960)

كان من الصعب على سكينر أن يتنبأ بإمكانية وجود القوة الآلية وتفعيلها في "الآخر الكبير" قبل ابتكار الأدوات اللازمة لتحقيق هذه الرؤية. وكان مختبره دائمًا بمثابة عالم خيالي من الابتكارات الهندسية لتجاربه السلوكية: متاهات وصناديق لتكييف الحيوانات، وأدوات القياس، وأجهزة التسجيل. وكانت التكنولوجيا السلوكية العاملة ببطاقتها كلها هي الجائزة التي أفلتت من سكينر طوال حياته، ومصدر الإحباط الذي كان واضحًا في كل مقال ومحاضرة حتى النهاية. وعلى الرغم من ثقته بأن العلم يتغلّب في نهاية المطاف على التحديات العلمية التي تفرضها تكنولوجيا السلوك، إلا أن سكينر كان منزعجًا من العوائق الثقافية التي تعترض سبيل علم إنساني للتنبؤ بالسلوك والتحكّم فيه، والذي يركّز على وجهة نظر الآخر. وكان مستاءً من الاحتكاك الناتج عن تمسّك البشر العنيد بقيم الحرية الموروثة ومثلها من فلاسفة القرن الثامن عشر، كما احتقر المشروع الوجودي لفلسفات ما بعد الحرب العالمية الثانية، التي غرست الأصالة والإرادة الحرّة والعمل المستقلّ في قلب توق الحداث الثانية.

في مقاله المنشور عام 1990، قبل ثلاثة أعوام من وفاته، حزن سكينر على احتمالات التنبؤ السلوكي باعتباره الأساس لمجتمع جديد مبني على اليقين العلمي: "القول إن

الشخص عبارة عن مكان يحدث فيه شيء معين يبدو قولاً مهدداً عندما يثير أسئلة حول ما يُرجَّح أن نفعله بدلاً من أسئلة حول ما فعلناه".⁽⁹⁶¹⁾ لقد بدا في تلك السنوات الأخيرة مستسلماً لصلابة الاحتكاك البشري، وولائه العنيد لما يشبه الإرادة الحرة، وكان صوته أقل فظاظاً وعدوانية منه عندما أَلَف كتاب "ما وراء الحرية والكرامة" قبل عقدين من الزمن. إذ تحوّل الغضب والازدراء إلى إرهاب وأُس مع تأملاته الأخيرة:

ربما قيل إن هذه النظرة للسلوك البشري مُحبطة، وأنا سنكون أكثر ميلاً لفعل شيء حيال المستقبل إذا تابعنا اعتقادنا بأن مصيرنا بأيدينا. لقد استمرّ هذا الاعتقاد لقرون عديدة، وأدى إلى إنجازات باهرة، لكن هذه الإنجازات لم تكن سوى نتائج مباشرة لما حدث. ونحن نعلم الآن أن نتائج أعقبت ذلك، وأنها تُهدد مستقبلنا. قد لا يكون ما فعلناه بمصيرنا وصيّة نرغب في تركها للعالم.⁽⁹⁶²⁾

في عصرنا الذي تسوده استثنائية المراقبة، ومع استسلام الدهشة للعجز والاستسلام، يبدو أن المقاومة التي رثاها سكينر تتضاءل. وأصبح الاعتقاد بأننا قادرون على اختيار مصيرنا تحت الحصار، وفي انقلاب دراماتيكي، أصبح حلم تكنولوجيا التنبؤ بالسلوك والتحكّم فيه — ما عانى سكينر بسببه هذا الازدراء العام كله — حقيقة مزدهرة الآن. تجذب هذه الجائزة الآن رأس مال هائلاً، وعبقورية بشرية، وتطوّرات علمية، وحماية حكومية، ونظماً مؤسسية، وجاذبية لطالما ارتبطت بالسلطة.

يتبع صعود النزعة الآلية مسار "الأحداث المضيفة التي تكشف عن بداية في الماضي كانت مخفية حتى ذلك الحين"، وفقاً لوصف آرندت.⁽⁹⁶³⁾ ومن طبيعة القوة الآلية أن تعمل عن بعد، وتتحرّك في الخفاء. فهي لا تنمو من خلال الإرهاب أو القتل أو تعليق المؤسسات الديمقراطية أو المذابح أو الطرد. بل تنمو من خلال الإعلان والتفويض الذاتي، والتضليل البلاغي، والتعبير الملطّف، والتحركات الهادئة الجريئة خلف

(961) ب. ف. سكينر، "معرفة المستقبل"، محلل سلوكي، المجلد 13، العدد 2 (1990): 104.

(962) سكينر، "معرفة المستقبل"، 106.

(963) هانا آرندت، مقالات في الفهم (نيويورك: شوكن، 1994)، 319.

الكواليس المصممة خصيصًا للتهرب من الوعي، حيث تستبدل معرفة الآخرين بالحرية الفردية، وتستبدل اليقين بالمجتمع. وهي لا تواجه الديمقراطية بل تعمل على تأكلها من الداخل، فتأكل القدرات الإنسانية وفهم الذات اللازمين لاستدامة الحياة الديمقراطية.

إن روايات المناورات التجريبية التي أجرتها شركة فيسبوك، والنموذج الأولي الذي قدمته لعبة "بوكيمون غو" لمجتمع يهيمن عليه سوق المستقبل السلوكي، وأمثلة لا نهاية لها من ابتكارات رقمية سحقتها عقيدة المراقبة، ربما تكون أقرب ما يمكن أن نصل إليه من إعلان عام عن تغيير ينير التاريخ يتحرك فينا وبيننا، ويغير الحياة كما عرفناها بشكل لا رجعة فيه. ولا وجود للعنف هنا، بل مجرد إزاحة مستمرة للرغبة بالإرادة التي تجسدت في تقرير المصير، مُعبّرًا عنها بصيغة المتكلم، ويغذيها ملاذ آمن يعتمد على إمكانية الحياة الخاصة، والوعد بحرية عامة.

إن السلطة الآلية، مثل مسرحية غوته بعنوان "فاوست"، هي سلطة "لا أدرية" من الناحية الأخلاقية. والضرورة الأخلاقية الوحيدة هنا هي ضرورة مستخلصة من وجهة النظر الطوباوية. وإذا كان ثمة من خطيئة، فهي خطيئة الاستقلال: الجراءة على رفض التدفقات التي تدفعنا جميعًا نحو القدرة على التنبؤ. الاحتكاك هو الشرّ الوحيد. إن العائق في القانون أو الفعل أو الخطاب هو ببساطة ردّ فعل. والقاعدة هي الخضوع لقوانين حتمية تكنولوجية صارمة لا تقبل أي عائق. فمن المنطقي أن نستسلم ونفرح بالراحة والانسجام الجديدين، وأن نغلف أنفسنا بالنص الأول، ونحتضن الجهل العنيف بظله.

كانت الشمولية تحويلًا للدولة إلى مشروع امتلاك كامل. تشير "الآلية" و"الآخر الكبير" إلى تحول السوق إلى مشروع يقين كامل، وهو مشروع لا يمكن تصوّره خارج البيئة الرقمية، ولا يمكن تصوّره أيضًا خارج منطق التراكم المتمثل في رأسمالية المراقبة. وهذه القوة الجديدة هي نتيجة تقارب غير مسبوق: قدرات المراقبة والتفعيل لدى الآخر الكبير، إلى جانب اكتشاف الفائض السلوكي وتحقيق الربح منه. ولا يمكننا أن

نتخيل، إلا في سياق هذا التقارب، مبادئ اقتصادية تستغل الخبرة الإنسانية وتتحكم فيها من أجل تشكيل السلوك بشكل منهجي، ويمكن التنبؤ به، نحو تحقيق غايات مربحة للآخرين.

تعمل السلطة الآلية انطلاقاً من منظور الآخر لاختزال البشر إلى مجرد سلوك حيواني مُجرّد من المعنى التأملي. وهي لا ترى سوى كائنات حية مُنحرفة لخدمة قوانين رأس المال الجديدة المفروضة الآن على السلوكيات كلها. وقد توقّعت آرندت إمكانية السلوكية التدميرية منذ عقود من الزمن، عندما أعربت عن أسفها لتراجع مفهومنا عن "الفكر" إلى شيء يُنجزه "الدماغ"، وبالتالي يمكن نقله إلى "أدوات إلكترونية":

تتطلب المرحلة الأخيرة من مجتمع العمال، مجتمع أصحاب الوظائف، من أعضائها أداءً آلياً محضاً، وكأن الحياة الفردية قد غُمِرت بالفعل في عملية الحياة الشاملة للنوع، وأن القرار النشط الوحيد المطلوب من الفرد هو التخلي، إذا جاز التعبير، عن فرديته، وعن الألم والمتاعب التي لا يزال يشعر بها بشكل فردي في الحياة، والاستسلام لسلوك وظيفي "هادئ" ومُبهر.

لا تكمن مشكلة النظريات السلوكية الحديثة في أنها خاطئة، بل في إمكانية أن تصبح صحيحة، وبأنها في الواقع أفضل تصوّر ممكن لبعض الاتجاهات الواضحة في المجتمع الحديث. من المعقول تماماً أن العصر الحديث - الذي بدأ بمثل هذا النشاط البشري الهائل وغير المسبوق - قد ينتهي بأشد حالات السلبية فتكاً وعمقاً التي عرفها التاريخ. (964)

هل سيكون هذا موطننا: أئمة الذات كشرط ضروري لأئمة المجتمع، هذا كله من أجل نتائج مضمونة لآخرين؟

إن أحد الأماكن التي يمكننا أن نبدأ منها حساباتنا مع هذا السؤال هو "الملاحظات الختامية" التي قدّمها آرندت في الطبعة الأولى من كتابها "أصول الشمولية"، وهي الكلمات التي ظلّت تطاردني منذ أن قرأتها للمرة الأولى قبل سنوات. كُتِبَت تلك الملاحظات في وقتٍ هُزمت فيه الشمولية في أوروبا، لكنها ظلّت صامدةً في الاتحاد السوفيتي بقيادة ستالين. ولم تتوحد في تلك الفترة معظم دول العالم على ضرورة الفهم والتذكّر كدليل على ما حدث وحسب، بل أيضًا كوقايةٍ من الإرهاب المستقبلي.

لا تلخّص تأملات آرندت "عشية" الأنظمة الشمولية و"سخافتها" فحسب، بل تلخص أيضًا شعورها "بالصلة المزعجة للأنظمة الشمولية". وحذّرت من أنه لا يمكن إلغاء الشمولية باعتبارها تحويلًا عَرَضِيًّا نحو المأساة، بل يجب النظر إليها على أنها "مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بأزمة هذا القرن". واختتمت قائلة: "الحقيقة هي أن مشاكل عصرنا الحقيقية لا يمكن فهمها، ناهيك عن حلّها، دون الاعتراف بأن الشمولية لم تصبح لعنة هذا القرن إلا لأنها اهتمّت بمشاكله بشكل مرعب". (965)

تخيّل الآن، بعد عقود من الزمن، مفكرًا آخر يتأمل في "الصلة المزعجة" للسلطة الآلية، ويلاحظ أن "مشاكل عصرنا الحقيقية لا يمكن فهمها، ناهيك عن حلّها، دون الاعتراف بأن السلطة الآلية لم تصبح لعنة هذا القرن إلا لأنها اهتمّت بمشاكله بشكل مرعب".

ما هي المشاكل؟ لقد جادلْتُ بأن رأسمالية المراقبة وسلطتها الآلية تتغذى على "ظروف الوجود المتقلّبة التي لحّصتها بـ"التصادم". تُقدّم رأسمالية المراقبة حلولًا للأفراد على شكل تواصل اجتماعي، وإمكانية الوصول إلى المعلومات، وراحة توفّر الوقت، وغالبًا ما تقدّم وهم الدعم. هذه هي موارد النص الأول. والأهم من ذلك، أنه يقدم حلولًا للمؤسسات على شكل علم كليّ، وتحكّم، ويقين. الفكرة هنا ليست معالجة عدم الاستقرار – تآكل الثقة الاجتماعية، وروابط المعاملة بالمثل المكسورة،

والتطّرف الخطير في عدم المساواة، وأنظمة الإقصاء - بل استغلال نقاط الضعف الناتجة عن هذه الظروف.

يهمنا أن نشير إلى أنه على الرغم من مزايا الاتصال الدائم الاجتماعية المروج لها كثيرًا، فقد تراجعت الثقة في الولايات المتحدة بشكل حاد خلال الفترة ذاتها التي ازدهرت فيها رأسالية المراقبة. ووفقًا لعمليات القياس المستمرة حول "مواقف الثقة الشخصية" التي يجريها مركز المسح الاجتماعي العام الأمريكي، ظلّت نسبة الأمريكيين الذين "يعتقدون أن معظم الناس جديرون بالثقة" مستقرة نسبيًا بين عامي 1972 و1985. وعلى الرغم من بعض التقلّبات، سجّل 46٪ من الأمريكيين مستويات عالية من الثقة الشخصية عام 1972، ونحو 50٪ عام 1985. ومع بدء تأثير الضوابط النيوليبرالية، انخفضت هذه النسبة تدريجيًا إلى 34٪ عام 1995، بالتزامن مع إطلاق الإنترنت العام. وشهدت أواخر التسعينات وحتى عام 2014 فترة أخرى من الانخفاض المتزايد، حيث وصلت إلى 30٪ فقط.⁽⁹⁶⁶⁾

تميل المجتمعات التي تظهر مستويات منخفضة من الثقة بين الأشخاص إلى إظهار مستويات منخفضة من الثقة تجاه السلطة الشرعية أيضًا؛ والواقع أن مستويات الثقة تجاه الحكومة انخفضت أيضًا بشكل كبير في الولايات المتحدة، ولا سيما خلال عقد ونصف من النمو في الاتصال، وانتشار رأسالية المراقبة. وقال أكثر من 75٪ من الأميركيين في عام 1958 إنهم يثقون بالحكومة في معظم الأوقات، ثم انخفضت النسبة إلى 18٪ في عام 2017.⁽⁹⁶⁷⁾ ترتبط الثقة الاجتماعية ارتباطًا وثيقًا باتخاذ القرارات الجماعية السلمية والمشاركة المدنية. وتتلاشى في غيابها سلطة القيم المشتركة والالتزامات المتبادلة. ويكون الفراغ المتبقي مؤثرًا واضحًا على هشاشة المجتمع. فالارتباك وعدم اليقين وانعدام الثقة هي أشياء تمكّن السلطة من ملء الفراغ الاجتماعي، وترحب بها بالتأكيد.

(966) "الثقة"، عالمنا في البيانات، 3 أغسطس/ آب عام 2017.

(967) "الثقة العامة في الحكومة: 1958-2017"، مركز بيو للأبحاث للشعب والصحافة، 3 مايو/ أيار 2017.

تملأ القوة الآلية الفراغ في عصر رأسمالية المراقبة، وتستبدل الآلات بالعلاقات الاجتماعية، وهو ما يعادل *استبدال اليقين بالمجتمع*. وفي هذه الحياة الجماعية المتخيّلة، تُصادر الحرية لصالح معرفة الآخرين، وهو إنجاز لا يمكن تحقيقه إلا بموارد النص الظلي.

قادت المؤسسات الرأسمالية الخاصة هذا الإصلاح الطموح للحياة الجماعية والخبرة الفردية، لكنها وجدت الدعم الضروري من المؤسسات العامة، ولا سيّما مع إعلان "الحرب على الإرهاب" الذي شرّع كل نزعة إلى ترسيخ اليقين الذي تنتجه الآلات بصفته الحل النهائي لعدم اليقين المجتمعي. وضمنت هذه التقاربات المتبادلة أن القوة الآلية لن تكون مجرد طفل غير شرعي، بل شريكًا مكافئًا، أو حتى القائد والسيد الذي تعتمد عليه الدولة في سعيها إلى "الوعي الشامل".

يتضح النظر إلى القوة الآلية بوصفها الحل الأكيد للظروف المجتمعية غير المؤكدة في الطرق التي تستدعي الدولة بها هذه القوة إلى العمل. وتشكّل النماذج المؤسسية المتنوعة المعقّدة التي تنتجها هذه التفاعلات حدودًا أساسية للدراسة والنقاش الديمقراطي. ويقوم هدينا هنا ببساطة على الإشارة إلى بعض الأمثلة التي توضح مطالب الدولة المستمرة بتكثيف إنتاج رأسمالية المراقبة للقوة الآلية - المعبر عنها في نمو "الآخر الكبير" وتطوّره - بصفته الحل المفضّل للانحياز الاجتماعي وانعدام الثقة وعدم اليقين. ومع أننا أصبحنا فاقدي الحساسية لسلسلة هذه الأمثلة التي لا تنتهي، فمن المهم أن ندرك أنه في ظلّ هذه التشابكات، تُظهر مؤسسات الدولة والسوق التزامًا مشتركًا بدفع دؤوب نحو تحقيق نتائج مضمونة. ويمكن لأوجه التشابه المتبادلة بينهما أن تساعدنا في تحديد المشكلة التي تهدد بجعل قوة الأدوات لعنة عصرنا.

ليس غريبًا أن تُستدعى القوة الآلية باستمرار للعمل بصفته حلاً، وإن لم تكن حلاً، فمن أجل التعامل مع تهديد إرهابي. تنفي الأعمال الإرهابية سلطة المعايير الحضارية، وتكشف عن استحالة قيام مجتمع من دون ثقة متبادلة. وتنتج الحكومات الآن إلى القوة الآلية باعتبارها الحل لهذا المصدر الجديد لعدم اليقين المجتمعي، وتطالب بآلات

اليقين التي تقدّم وعودًا بوسائل مباشرة وموثوقة للكشف والتنبؤ، وحتى التشغيل التلقائي للتدابير المضادة.

كان يُنظر إلى "التقدّم في تكنولوجيا المعلومات"، خلال الأعوام الستة عشر من إدارتي بوش وأوباما، على أنه "الاستجابة الأكثر فعالية" للتهديد. ويشير بيتر سواير إلى أن المسؤولين الحكوميين "يعلمون أن القطاع الخاص يطوّر العديد من التقنيات الجديدة لجمع البيانات ومعالجتها، واتخاذ القرارات بناءً على تلك البيانات". والنتيجة هي "تحول كبير مستمرّ نحو استراتيجيات تعتمد على المعلومات المكثفة"، وتستفيد من هذه القدرات السوقية. (968)

انقطع هذا الوضع الراهن في عام 2013، عندما كشف إدوارد سنودن عن التواطؤ الخفي بين وكالات الأمن الحكومية وشركات التكنولوجيا. ومع ردّ الفعل العنيف الذي أعقب ذلك، واجه راسماليو المراقبة تحديات جديدة في العلاقات العامة في ما وصفوه على أنه تحالف غير مستقر أو حتى غير مرغوب بين القوة الخاصة واحتياجات أمن الدولة. ومع ذلك، دفعت التهديدات الإرهابية الجديدة المسؤولين الحكوميين نحو تكثيف "الآخر الكبير" وما يمثّله من قوة آلية، ونشره. لكن قدرتهم على الوصول إلى هذه السلطة الهائلة مخفوفة بالتوتر فليست لهم ليتولوا قيادتها. وعليهم أن يعملوا، ولو بشكل جزئي، من خلال راسماليي المراقبة.

على سبيل المثال، في أعقاب الهجمات الإرهابية التي وقعت في باريس في نوفمبر 2015، حثّ الرئيس أوباما، والمشرّعون الأميركيون، والمسؤولون الحكوميون في جميع أنحاء العالم، شركات التكنولوجيا، وخاصة غوغل وفيسبوك وتويتر، على تحديد المحتوى الإرهابي وإزالته. وتشير التقارير إلى أن الشركات كانت متردّدة في أن تكون "أدوات للحكومة"، أو على الأقل، لا ينبغي أن يُنظر إليها بهذا الشكل. (969) وأشار

(968) بيتر ب. سواير، "الخصوصية وتبادل المعلومات في الحرب على الإرهاب"، مجلة فيلانوفيا للقانون 51، رقم 4 (2006): 951. انظر أيضًا كريستين إي. إيشينشير، "الأمن السبيرياني العام والخاص"، مجلة تكساس للقانون 95، رقم 3 (2017).

(969) جوزيف مين، "فيسبوك وتويتر وغوغل تكثف جهودها بهدوء لمكافحة الدعاية الإرهابية"، صحيفة سيدني مورنينغ هيرالد، 7 ديسمبر / كانون الأول 2015.

الصحفيون إلى أن المسؤولين الحكوميين وضعوا "حلولاً بديلة" تهدف إلى تحقيق الوصول إلى السلطة الآلية دون فرض أعباء جديدة على المكانة العامة للشركات. على سبيل المثال، قد تزعم إحدى الوكالات الحكومية أن المحتوى المسيء عبر الإنترنت ينتهك شروط خدمة شركة الإنترنت، وتبدأ في إزالة المواد المخالفة بسرعة "دون المسار الورقي الذي يصاحب أمر المحكمة". وعلى نحو مماثل، وسّعت شركة غوغل برنامجها "المخبر الموثوق"، الذي يمكن للمسؤولين وغيرهم أن يحددوا من خلاله المحتوى المثير للمشاكل لاتخاذ إجراءات فورية.⁽⁹⁷⁰⁾

استجابت الشركات بمبادراتها الخاصة. اقترح إريك شميدت أدوات جديدة، منها "تدقيق إملائي للكراهية"، لاستهداف الحسابات الإرهابية وحذفها، وإزالة المحتوى قبل انتشاره، وتسريع نشر الرسائل المضادة.⁽⁹⁷¹⁾ وقد أيد كبار المسؤولين في إدارة أوباما هذا الاحتمال أثناء زيارتهم لوادي السيليكون في يناير/ كانون الثاني 2016 لحضور "لقاء قمة عن الإرهاب" مع قادة التكنولوجيا. وتضمّن جدول الأعمال مناقشات حول كيفية تعطيل الأنشطة الإرهابية على الإنترنت، وتضخيم المحتوى البديل، وتعطيل مسارات التطرّف، وتمكين الأجهزة الأمنية من منع الهجمات.⁽⁹⁷²⁾ وشجّع بيان موجز صادر عن البيت الأبيض الشركات على تطوير "خوارزمية التطرّف" التي من شأنها استيعاب وسائل التواصل الاجتماعي، وغيرها من مصادر الفائض، لإنتاج شيء مماثل لدرجة الائتمان، ولكنها تهدف إلى تقييم "تطرّف" المحتوى عبر الإنترنت.⁽⁹⁷³⁾

(970) ميين، "فيسبوك، تويتر، غوغل". انظر أيضاً جيم كيرستيتير. "تقرير يومي: شركات التكنولوجيا تتعرض لضغوط بسبب المحتوى الإرهابي"، مدونة بيتس، 8 ديسمبر كانون الأول 2015: مارك هوزنبيل وياتريشيا زينجيرل، "مشروع قانون الأنشطة الإرهابية على وسائل التواصل الاجتماعي يعود إلى مجلس الشيوخ"، رويترز، 7 ديسمبر/ كانون الأول 2015.

(971) ديف لي، "يقول شميدت من غوغل إن هناك حاجة إلى التدقيق الإملائي للكشف عن الكراهية"، بي بي سي نيوز، 7 ديسمبر/ كانون الأول 2015.

(972) داني يادرون، "أجندة قمة البيت الأبيض مع وادي السيليكون"، الغارديان، 7 يناير/ كانون الثاني 2016؛ داني يادرون، "كشف: البيت الأبيض يسعى إلى تجنيد وادي السيليكون لـ"تعطيل التطرّف"، الغارديان، 8 يناير/ كانون الثاني 2016.

(973) كشمير هيل، "تريد الحكومة من وادي السيليكون أن يطوّر خوارزميات لرصد الإرهابيين. ولكن هل

لا يقتصر اللجوء إلى سلطة الأدوات كحلٍّ لمشكلة عدم اليقين على حكومة الولايات المتحدة. فالإرهاب يُثير ردود أفعال ماثلة في ألمانيا وفرنسا والمملكة المتحدة، وحول العالم. فبعد هجوم سوق عيد الميلاد في برلين عام 2016، أعلن المسؤولون الألمان عن خططٍ تُلزم المشتبه بهم بالتطوّر بارتداء أجهزة تتبع إلكترونية لملاحقتهم بشكل دائم.⁽⁹⁷⁴⁾ في عام 2017، أنشأت شركات رأسمالية المراقبة، بما في ذلك فيسبوك، ومايكروسوفت، وغوغل، وتويتر، منتدى الإنترنت العالمي لمكافحة الإرهاب. وكان الهدف هو تعزيز شبكة القوة الآلية من خلال "التعاون في إيجاد حلول هندسية لمشكلة تبادل تقنيات تصنيف المحتوى"، و"مبادرات الخطاب المضاد"، وقاعدة بيانات مشتركة من "بصمات رقمية فريدة" لصور الإرهابيين العنيفين لتسريع التعرّف على الحسابات الإرهابية.⁽⁹⁷⁵⁾ وتضمّن التقرير المشترك لعام 2017 لخمس دول – أستراليا وكندا ونيوزيلندا والمملكة المتحدة والولايات المتحدة – أربعة التزامات رئيسية، أولها التعاون مع شركات الإنترنت لمعالجة أنشطة الإرهاب عبر الإنترنت، ودعم المنتدى الصناعي الذي تقوده غوغل وفيسبوك.⁽⁹⁷⁶⁾ وأعلن المجلس الأوروبي، في ذلك العام، عن توقعاته بأن "الصناعة" ستفي بمسؤولياتها "في تطوير تكنولوجيا وأدوات جديدة لتحسين الكشف التلقائي عن المحتوى الذي يخرّض على الأعمال الإرهابية وإزالته".⁽⁹⁷⁷⁾ وفي اجتماع مجموعة العشرين في هامبورغ عام 2017، تعهّد المشاركون بالعمل مع شركات الإنترنت، وأصرّوا على الحاجة إلى أدوات أفضل لتصفية المحتوى وكشفه وإزالته، و"تشجيع" الصناعة على الاستثمار في التكنولوجيا ورأس المال البشري القادرين على اكتشاف الأنشطة الإرهابية عبر

هذا ممكن؟" فيوجن، 14 يناير، 2016.

(974) ستيفان واجستيل، "ألمانيا تشدد إجراءاتها الأمنية في أعقاب الهجوم الإرهابي في برلين"، فاينانسال تايمز، 11 يناير/ كانون الثاني 2017.

(975) جون مانيس، "فيسبوك، مايكروسوفت، يوتيوب، وتويتر يشكلون منتدى إنترنت عالميًا لمكافحة الإرهاب"، تك كرانش، 26 يونيو 2017؛ "الشراكة للمساعدة في الحد من انتشار المحتوى الإرهابي على الإنترنت"، غوغل، 5 ديسمبر 2016.

(976) "المؤتمر الوزاري للدول الخمس 2017: بيان مشترك"، 28 يونيو/ حزيران 2017.

(977) "استنتاجات المجلس الأوروبي بشأن الأمن والدفاع، 22 يونيو/ حزيران 2017".

ثمة تشكيلات أخرى ناشئة للسلطة الآلية وسلطة الدولة. على سبيل المثال، قال مدير الاستخبارات الوطنية الأميركية السابق جيمس كلابر للكونغرس في عام 2016 إن أجهزة الاستخبارات قد تستخدم "الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" من أجل "التحديد والمراقبة والرصد وتتبع الموقع ومحاولات التجنيد، أو للوصول إلى الشبكات أو بيانات اعتماد المستخدم".⁽⁹⁷⁹⁾ في الواقع، خلص تقرير بحثي صادر عن مركز بيركمان كلاين للإنترنت والمجتمع التابع لجامعة هارفارد إلى أن موجهة الأجهزة والمنتجات "الذكية"، وأجهزة الاستشعار المتصلة بالشبكة، والأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت التي تصاحب رأسمالية المراقبة من شأنها أن تفتح "العديد من السبل أمام الجهات الحكومية للمطالبة بالوصول إلى الاتصالات المسجلة في الوقت الحقيقي".⁽⁹⁸⁰⁾

إن حقيقة أن الإشارات "الذكية" و"المتصلة" تفتح قنوات جديدة للمراقبة التجارية والحكومية ليست مجرد تخمين، ولا تقتصر على وكالات الاستخبارات الفيدرالية. ففي جريمة قتل وقعت عام 2015، استخدمت الشرطة بيانات من عداد مرافق عامة "ذكي"، وجوّال من نوع (iPhone 6s Plus)، وملفات صوتية التقطها جهاز "أمازون إيكو" لتحديد هوية المشتبه به.⁽⁹⁸¹⁾ في عام 2014، استخدمت بيانات من سوار من نوع "Fitbit" في قضية تعرّض فيها شخص لإصابة شديدة. وفي عام 2017، استخدمت الشرطة بيانات من جهاز تنظيم ضربات القلب لتوجيه اتهامات

(978) "بيان قادة مجموعة العشرين بشأن مكافحة الإرهاب - بيان صحفي لنمفوضية الأوروبية"، 7 يوليو/تموز 2017؛ جيبي بارليت، "الإرهاب يُضيف خلفية إلى المعركة من أجل السيطرة على الإنترنت"، فاينانشال تايمز، 6 يونيو/حزيران 2017.

(979) سينسر أكيومان وسام ثيلمان، "رئيس الاستخبارات الأميركية: قد نستخدم الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت للتجسس عليك"، الغارديان، 9 فبراير/شباط 2016.

(980) مات أولسن، وبيروس شنابير، وجوناثان زيتراين، "لا داعي للذعر: إحراز تقدم في المناقشة حول 'الظلام'"، مركز بيركمان كلاين للإنترنت والمجتمع في هارفارد، 1 فبراير/شباط 2016، ص 13.

(981) هالي سويتلاند إدواردز، "إليكسا تتخذ الموقف"، تايم، 15 مايو/أيار 2017؛ توم دوتان وريد ألبيرغوتي، "أمازون إيكو وجريمة قتل حوض الاستحمام الساخن"، إنفورميشن، 27 ديسمبر/كانون الأول 2016.

انضمت جهات إنفاذ القانون المحلية، في الولايات المتحدة، إلى ركب المؤسسات الساعية إلى الوصول إلى القوة الآلية. وتبيع شركات المراقبة، باعتبار المراقبة نوعاً من الخدمات، منتجاتها بشغف لأقسام الشرطة المحلية، العازمة بدورها على إيجاد طريق مختصر لليقين. وتتخصص شركة "جيوفيديا" (Geofeedia) الناشئة في تتبع الموقع التفصيلي للناشطين والمحتجين، مثل أعضاء منظمة السلام الأخضر أو منظمي النقابات، وحساب "درجات التهديد" الفردية باستخدام البيانات المستمدة من وسائل التواصل الاجتماعي. كانت وكالات إنفاذ القانون من بين أبرز عملاء شركة "جيوفيديا".⁽⁹⁸³⁾ عندما أعلنت إدارة شرطة بوسطن عن اهتمامها بالانضمام إلى هذه القائمة عام 2016، عبّر مفوض شرطة المدينة، لصحيفة بوسطن غلوب، عن إيمانه باليقين الآلي باعتباره الترياق للانهيار الاجتماعي: "الهجوم... على حرم جامعة ولاية أوهايو هو أحدث مثال على سبب حاجة سلطات إنفاذ القانون المحلية إلى كل أداة يمكنها حشدها لوقف الإرهاب وغيره من أعمال العنف قبل أن تبدأ".⁽⁹⁸⁴⁾ وردّ أحد محامي اتحاد الحريات المدنية الأمريكية بأن الحكومة تستخدم شركات التكنولوجيا "لبناء ملفات ضخمة عن الناس" استناداً على ما لا يزيد عن خطابها المحمي دستورياً.⁽⁹⁸⁵⁾ وتبين أن شركة أخرى أكثر شهرة في مجال خدمة المراقبة، وهي شركة "بالانتير" (Palantir)، التي وصفتها مجلة بلومبرغ بيزنس ويك ذات مرة بأنها

(982) بارمي أولسون، "بيانات فيتبيت تُستخدم الآن في قاعة المحكمة"، فوربس، 16 نوفمبر 2014؛ كيت كروفورد، "عندما تصبح فيتبيت شاهداً خبيراً"، أتلانتيك، 19 نوفمبر 2014؛ السيدة سميث، "الشرطة تستخدم بيانات جهاز تنظيم ضربات القلب لاتهام رجل بافتعال حريق والاحتيايل على التأمين"، مكتب الإحصاءات المركزية، 30 يناير 2017.

(983) جونا إنجل برومويتش، ومايك إسحاق، ودانيال فيكتور، "تستخدم الشرطة أدوات المراقبة لمسح وسائل التواصل الاجتماعي، وفقاً لاتحاد الحريات المدنية الأمريكي"، نيويورك تايمز، 11 أكتوبر/تشرين الأول 2016.

(984) جينيفر ليفيتز وزوشا إلينسون، "خطة بوسطن لتتبع الإنترنت تثير الجدل"، وول ستريت جورنال، 5 ديسمبر/كانون الأول 2016.

(985) لي فانغ، "وكالة المخابرات المركزية تستثمر في شركات تقوم باستخراج بيانات تغريداتك وصورك على إنستغرام"، إنترسبت، 14 أبريل/نيسان 2016.

"السلاح السري للحرب على الإرهاب"، كانت تتعاون سرًا مع إدارة شرطة نيو أورليانز لاختبار تكنولوجيا "الشرطة التنبؤية". ولم يقتصر برنامج "بالانتير" على تحديد هوية أعضاء العصابات فحسب، بل قام أيضًا "بتتبع علاقات الأشخاص بأعضاء العصابات الآخرين، وتحديد السجلات الإجرامية، وتحليل وسائل التواصل الاجتماعي، والتنبؤ باحتمالية ارتكاب الأفراد للعنف أو أن يصبحوا ضحايا". (986)

4- متلازمة الصين

من الممكن الآن أن نتخيل نتيجة منطقية واحدة للتوجه نحو استبدال اليقين بالمجتمع مع قيام الحكومة الصينية بتطوير نظام "اثتان اجتماعي" شامل وصفه أحد الباحثين الصينيين بأنه "جوهر" أجندة الإنترنت في الصين. الهدف هو "الاستفادة من الانتشار الهائل للبيانات الشخصية... من أجل تحسين سلوك المواطنين... سيتم تقييم الأفراد والشركات على جوانب مختلفة من سلوكهم - أين يذهب كل شخص، وماذا يشتري، ومن يعرف - وستدمج هذه النتائج ضمن قاعدة بيانات شاملة لا ترتبط فقط بمعلومات الحكومة، ولكن أيضًا بالبيانات التي تجمعها الشركات الخاصة". (987)

يتتبع النظام السلوك "الجيد" و"السيئ" عبر مجموعة متنوعة من الأنشطة المالية والاجتماعية، ويحدد تلقائيًا العقوبات والمكافآت لتشكيل السلوك بشكل حاسم نحو "بناء الإخلاص" في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية: "الهدف هو أن يتم تتبع كل مواطن صيني من خلال ملف يجمع البيانات من مصادر عامة وخاصة... يمكن البحث فيه عن طريق بصمات الأصابع وغيرها من الخصائص البيومترية". (988)

على الرغم من أن وصف رؤية الصين الدائم للائتمان الاجتماعي "بالشمولية

(986) أشلي فانس وبراد ستون، "بالانتير، السلاح السري في الحرب على الإرهاب"، بلومبرغ دوت كوم، 22 سبتمبر/أيلول 2011؛ علي وينستون، "بالانتير تستخدم نيو أورليانز سرًا لاختبار تكنولوجيا الشرطة التنبؤية"، فيرج، 27 فبراير/شباط 2018.

(987) روجر كريمرز، "خطة الصين المخيفة لاستخدام تصنيفات الائتمان الاجتماعي لمراقبة مواطنيها"، CNN.com، 27 أكتوبر/تشرين الأول 2015.

(988) مارا هميسسدان، "نظرة على التجربة الصينية الجديدة والتوسع في التصنيف الاجتماعي"، وايرد، 14 ديسمبر 2017.

الرقمية"، وغالبًا ما تُقارن بعالم جورج أورويل في رواية "1984"، فمن الأفضل فهمها باعتبارها تجسيدًا للقوة الآلية التي تغذيها مصادر البيانات العامة والخاصة وتسيطر عليها دولة استبدادية. وتقدّم حسابات برامجها التجريبية أمثلة قوية على اقتصاديات العمل التي تقوم عليها رأسمالية المراقبة، والبناء المعقد الواسع النطاق لوسائل تعديل السلوك. والهدف هو أتمتة المجتمع من خلال ضبط الناس وتوجيههم وتكييفهم لإنتاج سلوكيات محددة مُسبقًا تحكم عليها الدولة بأنها مرغوبة، وبالتالي قادرة على "استباق عدم الاستقرار"، على حد تعبير أحد خبراء الدراسات الاستراتيجية.⁽⁹⁸⁹⁾ وبعبارة أخرى، الهدف هو تحقيق نتائج اجتماعية مضمونة، لا نتائج سوقية، باستخدام وسائل تعديل السلوك القائمة على الأدوات. والنتيجة نظام ناشئ يسمح لنا برؤية مستقبل يُجده اندماج شامل بين سلطة الأدوات وسلطة الدولة.

اعتُمدت رؤية الصين باعتبارها حلًا لنسختها الخاصة من لعنة التفكك الاجتماعية الفريدة من نوعها. وتشرح الصحفية إيمي هوكينز، في مقال لها في مجلة السياسة الخارجية، أن جائحة انعدام الثقة الاجتماعية في الصين هي المشكلة التي اعتُمد نظام الائتمان الاجتماعي كعلاج لها: "أن تكون صينيًا اليوم يعني أن تعيش في مجتمع تنعدم فيه الثقة، وحيث كل فرصة هي عملية احتيال ممكنة، وكل تصرف ينم عن الكرم يشكّل خطر وقوع استغلال".⁽⁹⁹⁰⁾ ووجدت دراسة تجريبية شيقة حول الثقة الاجتماعية في الصين المعاصرة مستويات عالية من الثقة بين أفراد "منتمين إلى مجموعة معيّنة، لكنها كشفت عن ارتباط هذه الثقة بنتائج صحّية سلبية. والخلاصة هي أن العديد من الصينيين لا يثقون إلا بمن يعرفونهم جيدًا. أما العلاقات الأخرى، فيُنظر إليها بريية وقلق، مع نتائج واضحة على الثقة الاجتماعية وعلى الرفاه.⁽⁹⁹¹⁾ إن نفسي هذا الانعدام في الثقة، والذي يعزى عادة إلى صدمات التحديث السريع والتحوّل إلى

(989) هفيسستندال، "داخل تجربة الصين الجديدة الواسعة".

(990) إيمي هوكينز، "المواطنون الصينيون يريدون من الحكومة تصنيفهم"، فورين بوليسي، 24 مايو/ أيار 2017.

(991) زكسين فينغ وآخرون، "الثقة الاجتماعية والثقة الشخصية والصحة الذاتية في الصين: دراسة متعددة المستويات"، المجلة الدولية للمساواة في الصحة 15 (8 نوفمبر 2016).

اقتصاد شبه رأسمالي، هو أيضًا إرث الشمولية الصينية. إذ قام الحزب الشيوعي الصيني بتفكيك المجالات التقليدية للانتماء والهوية والمعنى الاجتماعي – الأسرة، والدين، والمجتمع المدني، والخطاب الفكري، والحرية السياسية – وهو ما يذكرنا بوصف آرنولد لـ "الذرة" التي تدمر روابط الثقة.⁽⁹⁹²⁾ يقول هوكينز، "لكن بدلًا من تعزيز عودة الأخلاق التقليدية لتقليص فجوة عدم الثقة، فضّلت الحكومة الصينية استثمار طاقتها في الحلول التكنولوجية... ورَحّب بها الجمهور الذي سئم من عدم معرفة من يثق به... ويرجع ذلك جزئيًا إلى عدم وجود بديل".⁽⁹⁹³⁾ تعتزم الحكومة الصينية الاستيلاء على القوة الآلية لاستبدال مجتمع مكسور بنتائج معينة.

في عام 2015، أعلن البنك المركزي الصيني عن مشروع تجريبي تتولّى فيه شركات التجارة الإلكترونية الكبرى دور الريادة في دمج البيانات وتطوير البرمجيات الخاصة بتسجيل الائتمان الشخصي. وكانت من بين أكبر الشركات الرائدة، شركة "أنت فاينانشيال" التابع لمجموعة "علي بابا"، ومُشغل "تقييم الائتمان الشخصي" الخاص بها، "سيزامي كريدت" (Sesame Credit). يقدّم نظام "سيزامي كريدت" تصنيفًا شاملًا للشخصية باستخدام التعلّم الخوارزمي الذي يتجاوز إلى حد كبير تسديد الفواتير والقروض في الوقت المناسب. تقوم الخوارزميات بتقييم المشتريات وتصنيفها (ألعاب الفيديو مقابل كتب الأطفال)، والدرجات التعليمية، وكمية و"جودة" الأصدقاء. وتحذّر إحدى الصحفيات في تجربتها مع "سيزامي كريدت" من أن الخوارزمية تنحرف إلى "الفودو – أي الشعوذة والسحر" (Voodoo)، بالنظر إلى درجات الائتمان الخاصة بجهات اتصالها الاجتماعية، والسيارة التي تقودها، ووظيفتها، ومدرستها، ومجموعة المتغيرات السلوكية غير المحددة التي من المفترض أنها "ترتبط بالائتمان الجيد". ويظلّ النصّ الظليّ خرج متناول اليد، ويترك

(992) آرثر كلاينمان وآخرون، الصين العميقة: الحياة الأخلاقية للفرد (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 2011)؛ ميت هالسكوف هانسن، الصين: صعود الفرد في المجتمع الصيني الحديث، تحرير رون سفارفيرو (كوبنهاغن: المعهد الشمالي للدراسات الآسيوية، 2010)؛ يونسيانغ يان، فردية المجتمع الصيني (أكسفورد: بلومزبري أكاديميك، 2009).

(993) هوكينز، "يريد المواطنون الصينيون من الحكومة أن تصفّقهم".

المستخدمون لتخمين كيفية تحسين درجاتهم، بما في ذلك التخلّص من الأصدقاء الذين لديهم درجات منخفضة، والاعتماد على الأفراد الذين يحصلون على درجات عالية يعتقد البعض أنهم قادرون على تعزيز تصنيف الشخص.⁽⁹⁹⁴⁾

يتفاخر الرئيس التنفيذي للشركة بأن نظام التقييم "سيضمن ألا يكون للأشخاص السيئين في المجتمع مكان يذهبون إليه، بينما يمكن للأشخاص الطيبين التحرك بحرية ودون عوائق". ويحصل أصحاب الدرجات العالية على مكافآت وهدايا من عملاء "سيزامي كريدت" في أسواق العقود الآجلة السلوكية. إذ يمكنهم استئجار سيارة من دون دفعة مقدّمة، والحصول على شروط جيدة للقروض وإيجار الشقق، والحصول على مسار سريع لتصاريح التأشيرة، والاستمتاع بالظهور على تطبيقات المواعدة، ومجموعة من الامتيازات الأخرى. لكن يحذّر أحد التقارير من أن الامتيازات المرتبطة بدرجة الائتمان الشخصي المرتفعة يمكن أن تتراجع فجأة لأسباب لا علاقة لها بسلوك الاستهلاك، مثل الغش في امتحان الجامعة.

في عام 2017، تراجع البنك المركزي عن دعمه لبرامج الائتمان الشخصي للقطاع الخاص، ربما بسبب نجاحها الكبير، وتركيزها المعرفي والسياسي الكبير. وقد استقطبت شركة "سيزامي كريدت" أكثر من 400 مليون مستخدم في عامين فقط، واستحوذت على كل جانب تقريباً من جوانب حياتهم.⁽⁹⁹⁵⁾ ويتوقع الصحفي الذي ألّف كتاباً عن شركة "أنت فاينانشيال" أن الحكومة تستعدّ لفرض سيطرتها على النظام بأكمله: "لا تريد الحكومة أن تقع هذه البنية التحتية بالغة الأهمية لائتمان الشعب بين يدي شركة كبيرة واحدة". يبدو أن الحكومة الصينية تُدرك أن السلطة تعود لأصحاب وسائل تعديل السلوك. فهم من يضعون المعايير السلوكية التي تُحدد النتائج المضمونة. وهكذا، يتقدّم الاندماج.

يبدأ الإحساس بنوعية العالم الاجتماعي، الذي قد ينتج عن اندماج القوة الآلية

(994) هفيسستندال، "داخل تجربة الصين الجديدة الواسعة".

(995) ماشا بورك، "نظام الائتمان الاجتماعي في الصين: سجن بانوبيتيكون مدفوع بالذكاء الاصطناعي أم أساس مجزأ لثقافة الإخلاص؟"، نيك نود، 23 أغسطس/آب 2017.

وسلطة الدولة، بقائمة "المتخلفين عن تنفيذ الأحكام"، التي وصفتها مجلة "إيكونوميست" بأنها قلب نظام الائتمان الاجتماعي، وربما أفضل مؤشر على طموحاته الكبيرة. وتتضمن القائمة المدانين وأي شخص سبق له أن تحدّى أمر المحكمة:

يمكن منع الأشخاص المدرجين في القائمة من شراء تذاكر الطائرات أو القطارات السريعة أو تذاكر القطارات من الدرجة الأولى أو درجة رجال الأعمال؛ أو بناء المنازل أو بيعها أو شرائها؛ أو تسجيل أبنائهم في مدارس عالية التكلفة. وتُفرض قيود على انضمام المخالفين أو ترقيتهم في الحزب والجيش، وعلى حصولهم على الأوسمة والألقاب. وإذا كانت الشركة المخالفة، فلا يجوز لها إصدار أسهم أو سندات، أو قبول استثمارات أجنبية، أو العمل في مشاريع حكومية. (996)

وفقاً لتقرير نشرته صحيفة "تشاينا ديلي"، فقد مُنِعَ المدنيون المدرجون في القائمة تلقائياً من السفر 6.15 مليون مرة منذ إطلاق القائمة السوداء في عام 2013. ومُنِعَ المتخلفون عن تنفيذ قرارات المحاكم من شراء تذاكر القطارات فائقة السرعة 2.22 مليون مرة، وفقد نحو 71 ألف متخلف عن سداد الديون مناصب قيادية في شركات مختلفة. وقال البنك الصناعي والتجاري الصيني إنه رفض قروضاً بقيمة تزيد على 6.97 مليار يوان صيني، ما يعادل (1.01) مليار دولار، للمدنيين المدرجين في القائمة. (997) لا يُرسل أي شخص إلى معسكر إعادة التأهيل، لكن ربما لا يُسمح له بشراء سلع فاخرة. ووفقاً لمدير معهد الأكاديمية الصينية للتجارة الدولية والتعاون الاقتصادي، "نظراً لهذا الإزعاج، بدأ 10٪ من الأشخاص المدرجين في القائمة في سداد الأموال المستحقة عليهم بشكل تلقائي. وهذا يدلّ على أن النظام بدأ يعمل". (998) لقد كانت اقتصاديات العمل تعمل وفقاً لخطة.

بالنسبة إلى 400 مليون مُستخدم لتطبيق "سيزامي كريدت"، يُعتبر اندماج القوة

(996) "تبتكر الصين الدولة الشمولية الرقمية"، مجلة الإيكونوميست، 17 ديسمبر/ كانون الأول 2016.
(997) شي شياوفينغ وكاو ين، "تمنع قائمة المحكمة السوداء الملايين من السفر بالطائرات وركوب القطارات عالية السرعة"، Chinadaily.com، 14 فبراير/ شباط 2017.
(998) "تتجه الصين نحو أنظمة ائتمانية متطورة بالكامل"، غلوبال تايمز، 6 يونيو/ حزيران 2017.

الآلية وسلطة الدولة أمرًا مؤلمًا للغاية. يكشف من يجد نفسه على القائمة السوداء أن نظام الائتمان مصمّم لدفع درجاته إلى خضمّ دوامة هابطة لا هوادة فيها: "أولاً تنخفض درجاتك. ثم يعمل أصدقاؤك بوجودك على القائمة السوداء، فيُسقطونك من قائمة جهات الاتصال سرًا خوفًا من تأثر درجاتهم. تلاحظ الخوارزمية ذلك، فتنخفض درجاتك أكثر فأكثر". (999)

ربما تكون رؤية الحكومة الصينية طموحة بشكل مُبالغ فيه: الحلم الكبير المتمثل في الوعي الكامل واليقين التام الذي تتوسطه خوارزميات تعمل على تصفية فيضان دائم من تدفق البيانات من الإمدادات الخاصة والعامة، بما في ذلك كل ما يُجمع من خبرة عبر الإنترنت وخارجه من المجالات كلها، والقادرة على الارتداد إلى حياة الأفراد البالغ عددهم 1.5 مليار شخص، وأتمتة السلوك الاجتماعي مع الحوافز والعواقب التي تأتي من الخوارزميات وتشكيل العمل، وصولًا إلى آخر تذكرة حافلة. لا يزال المشروع مجزأ حتى الآن عبر العديد من المشاريع التجريبية، ليس فقط في شركات التكنولوجيا بل في المدن والمناطق أيضًا، وبالتالي لا يوجد اختبار حقيقي للحجم الذي تتخيله الحكومة. ثمة الكثير من الخبراء الذين يعتقدون أن إنشاء نظام واحد بهذا الحجم والتعقيد سيكون صعبًا، إن لم يكن مستحيلًا.

ثمة أسباب وجيهة أخرى لتجاهل أهمية نظام الائتمان الاجتماعي في قصتنا. والحقيقة البديهية هي أن الصين ليست ديمقراطية، وتختلف ثقافتها اختلافًا جذريًا عن الثقافة الغربية. يلاحظ الباحث في جامعة سيراكيوز، يانغ وانغ، أن أهمية الخصوصية في الثقافة الصينية أقل منها في الثقافة الغربية، وأن معظم الصينيين قد تأقلموا مع المعرفة الموثوقة الناتجة عن رقابة الحكومة الإلكترونية ومتابعتها. ولم تظهر كلمة "يينسي"، الأكثر شيوعًا للخصوصية، في القواميس الصينية الشائعة حتى منتصف التسعينات. (1000) لقد وافق المواطنون الصينيون على التعامل ببطاقات الهوية الوطنية

(999) هفيسندال، "داخل تجربة الصين الجديدة الواسعة".

(1000) ياشينغ ياو، وديفيد لوري، ويانغ وانغ، "النماذج الشعبية للإعلان السلوكي عبر الإنترنت"، في وقائع مؤتمر رابطة مكائن الحوسبة لعام 2017 حول العمل التعاوني المدعوم بالحاسوب والحوسبة الاجتماعية، CSCW '17 (نيويورك: رابطة مكائن الحوسبة، 2017)، 1957-1969.

المزوَّدة بشرائح بيومترية، و"تصاريح الإنجاب - وثيقة قانونية تسمح بحدوث عملية إنجاب طفل"، ومن ثم تصنيفات الائتمان الاجتماعي، لأن مجتمعهم غارق في عمليات المراقبة والتنميط لعقود. على سبيل المثال، "الدانغان" هو ملف شخصي شامل جُمِعَ عن مئات الملايين من سكان المدن منذ الطفولة، وحُفِظ طوال حياتهم. ويقوم المعلّمون ومسؤولو الحزب الشيوعي وأصحاب العمل بتحديث هذا "النظام الذي يعود إلى عهد 'ماو' لتسجيل أدقّ تفاصيل الحياة".

هذا الملف ليس سوى سمة واحدة من سمات الأنظمة الإدارية الراسخة، المتغلغلة في الحياة اليومية، والتي تُكرم البعض وتُعاقب آخرين. وقد توسّعت برامج المراقبة الاجتماعية مع نمو الإنترنت. على سبيل المثال، يُعد "الدرع الذهبي" نظام مراقبة إلكتروني شامل. حيث يمكن لمراقبي الإنترنت الصينيين تعليق حسابات الإنترنت أو مواقع التواصل الاجتماعي إذا أرسل مستخدموها رسائل تحتوي على مصطلحات حساسة مثل "استقلال التبت" أو "حادثة ميدان تيانانمن". (1001)

بقدر ما قد تكون سياساتنا وثقافتنا متميزة، أو كانت متميزة يوماً، فإن الأدلة الناشئة عن مبادرات الائتمان الاجتماعي الصينية تبثّ منطق رأسمالية المراقبة والقوة الآلية التي تنتجها. تضاعف شركة "سيزامي كريدت" كل جانب من جوانب عمليات رأس المال الرقابي، مع وجود مئات الملايين من البشر المحاصرين في تروس آلة تعديل السلوك الآلية، وأسواقها المستقبلية السلوكية المزدهرة، التي توزع الامتيازات والأوسمة مثل غبار بوكيمون السحري في مقابل نتائج مضمونة.

يُسَلَّمُ المستخدمون الصينيون مع كل لمسة رقمية ويصنّفون ويُدرجون في قوائم انتظار للتنبؤ، وكذلك نحن. إننا نُصنّف في تطبيق "أوبر" للسيارات، وفي موقع "إي باي" (eBay)، وفيسبوك، والعديد من مواقع الإنترنت الأخرى، وهذه ليست سوى بعض التصنيفات التي نراها. ويُمنَح المستخدمون الصينيون درجة "شخصية"، بينما تحثّ الحكومة الأمريكية شركات التكنولوجيا على تدريب خوارزمياتها على درجة

"التطرف". ويستند عمل النص الظلي في الواقع على تقييم سلوكنا وتصنيفه وتوقعه بملايين الطرق التي لا نستطيع معرفتها أو مكافحتها - هذه هي ملفّاتنا الرقمية. وبالنسبة إلى تقييم درجات الائتمان، طرحت البنوك وشركات الخدمات المالية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة نماذج أعمال تعتمد على استخراج بيانات وسائل التواصل الاجتماعي وتحليلها للحصول على درجات الائتمان. وقد ألمحت شركة فيسبوك نفسها إلى اهتمامها، حتى أنها تقدمت بطلب للحصول على براءة اختراع.⁽¹⁰⁰²⁾ ولم تتراجع هذه الجهود إلا بعد أن هدّدت لجنة التجارة الفيدرالية بالتدخل.⁽¹⁰⁰³⁾

يلاحظ روجر كريمرز، الباحث في الشؤون الصينية بجامعة أكسفورد، ومترجم بعض الوثائق الأولى حول نظام الائتمان الاجتماعي، أن "الاتجاه نحو الهندسة الاجتماعية، و"دفع" الأفراد نحو سلوك "أفضل"، هو أيضًا جزء من نهج وادي السيليكون الذي يرى أن بالإمكان حلّ المشاكل الإنسانية مرّة واحدة وإلى الأبد من خلال القوة المعيقة للتكنولوجيا.... وبهذا المعنى، ربما يكون العنصر الأكثر إثارة للصدمة في القصة ليس أجندة الحكومة الصينية، بل مدى تشابهها مع المسار الذي تسلكه التكنولوجيا في أماكن أخرى".⁽¹⁰⁰⁴⁾

(1002) كريستوفر لونت، براءة اختراع أمريكية رقم 9100400 - التفويض والمصادقة بناءً على شبكة التواصل الاجتماعي الخاصة بالشخص، صدرت في 4 أغسطس 2015. تنص الفقرة الأساسية في براءة الاختراع على ما يلي: "في التجسيد الرابع للاختراع، يكون مُقدّم الخدمة مُقرضًا. عندما يتقدم فرد بطلب قرض، يفحص المقرض التصنيفات الائتمانية لأعضاء شبكته الاجتماعية المتصلين به عبر عقد مُصرّح لها. إذا كان متوسط التصنيف الائتماني لهؤلاء الأعضاء لا يقل عن الحد الأدنى من درجة الائتمان، يُواصل المقرض معالجة طلب القرض. وإلا فيُرفض.

(1003) كريستر هولومان، "تحديثات فيسبوك تُحدد الآن درجة ائتمانك"، الغارديان، 28 أغسطس/ آب 2014؛ تيليس ديموس وديبا سيثارامان، "فيسبوك ليس جيدًا في تقييم ائتمانك بعد كل شيء"، وول ستريت جورنال، 24 فبراير/ شباط 2016؛ يانهاو وي وآخرون، "تقييم الائتمان باستخدام بيانات الشبكات الاجتماعية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 1 يوليو/ تموز 2014)؛ دانيال بيوركغرين وداريل غريسن، "السلوك المكتشف في استخدام الهاتف المحمول يُنبئ بسداد القروض" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 13 يوليو/ تموز 2015).
(1004) كريمرز، "خطة الصين المروعة".

في عام 2017، ازدحم معرض تجاريّ لتقنيات المراقبة، أُقيم في "شتجن"، شركاتٍ أمريكيةٍ عرضت أحدث منتجاتها، وخاصةً الكاميرات المزودة بالذكاء الاصطناعي وتقنيات التعرف على الوجه. وكان من بين الحضور المدير الإداري لشركة "سي سي تي في دايركت" (CCTV direct)، وهي شركة بريطانية تعمل في توزيع معدات المراقبة. وقد أعرب عن أسفه "لمدى تحلّف الدول الغربية"، مقارنة بمهارات البنية التحتية للمراقبة في الصين ومدى إثارته، لكنه عزى نفسه أيضًا بهذه الفكرة: "ما يبدأ هنا، ينتهي في المنازل والمطارات والشركات في أمريكا". (1005)

يتمحور الفارق بين رأسمالية المراقبة في الغرب ونظام الائتمان الاجتماعي الناشئ في الصين حول أنماط التشابك والتفاعل بين السلطة الآلية وسلطة الدولة. ثمة اختلافات بنيوية. حيث اتخذت الأنماط أشكالًا متعددة في الغرب كما رأينا. وبدأت الدولة كحاضنة وملجأ، ثم طالبة متحمّسة وابنة عم حسود. أما الآن، فقد بلغت رأسمالية المراقبة وأدواتها مرحلة النضج، مما أنتج شراكة متقطّعة لكنها ضرورية. تكمن القدرات الآلية الرئيسة في شركات رأسمالية المراقبة الكبرى، ويجب على الدولة أن تتحرّك مع هذه الشركات، ومن خلالها، للوصول إلى قدر كبير من القوة التي تسعى إليها.

في السياق الصيني، تُدير الدولة العرض وتمتلكه، لكن ليس بصفته مشروعًا سوقيًا بل مشروعًا سياسيًا، وهو حلّ آلي يعمل على تشكيل مجتمع جديد من السلوك الآلي من أجل ضمان النتائج السياسية والاجتماعية: اليقين دون إرهاب. ستقل جميع قنوات سلاسل التوريد بيانات سلوكية زائدة إلى هذه الآلية الحديثة والمعقدة لتوجيه السلوك. وتصبح الدولة في موقع المسؤولية الرئيسة، حيث تتحكم في البيانات الأساسية، وتضع جداول التحفيز والسلوكيات الروتينية التي تسعى لتشكيلها. وسوف تُصادر الحرية لصالح المعرفة، لكن المعرفة التي تمارسها الدولة ستكون من أجل استمرارها وليس من أجل الإيرادات.

(1005) انظر دان سترامبف وونكسين فان، "من يريد تزويد دولة المراقبة الصينية؟ الغرب"، وول ستريت جورنال، 1 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017.

تذكر ملاحظة كارل فريدريك حول التحدي المتمثل في إدراك حقائق الشمولية المجردة: "لم يتوقع أحد تقريباً قبل عام 1914 مسار التطور الذي تجاوز الحضارة الغربية منذ ذلك الحين... وقابل هذا الفشل في التنبؤ صعوبة في الفهم".⁽¹⁰⁰⁶⁾ وتذكر أيضاً صورة "جو" ستالين المبتسم القوي المحشورة بين نجوم هوليوود على الصفحات الالامعة لمجلة لوك عام 1939. هل سنعاني الافتقار ذاته إلى البصيرة مثل أولئك الذين لم يتمكنوا من فهم صعود الشمولية، والذين شُلت حركتهم بسبب القوة الهائلة "للاخر الكبير" وأصدقاء عواقبه اللانهائية، الذين تشتت انتباههم بسبب احتياجاتنا، وارتبكوا بسبب سرعته وسريته ونجاحه؟

الدهشة إنذارٌ ضروري. نحن بحاجة إليها، لكن لا ينبغي أن نتركنا في حالة من عدم التصديق. إن إيقاعِ القدرِ الواضحِ للآخر الكبير، وسرعاته المذهلة، وغموض أهدافه وغاياته، مقصودٌ منها نزع السلاح والتشتيت والخيرة. تعمل الأيديولوجية الحتمية على مساواة رأسمالية المراقبة وقوتها الآلية بالطبيعة: ليست بناءً بشرياً بل شيء أشبه بالنهر الجليدي، وهي شيء لا يمكننا إلا أن ننضم إليه أو نتحمّله. هذا سبب إضافي للتساؤل: هل يُمكن أن تتكشف تفاهات إعلانات اليوم ("أعطِ نظام مراقبة المركبات تعليماتٍ بعدم تشغيل السيارة") مع مرور الزمن باعتبارها بذوراً لأكبر كابوسٍ في هذا القرن؟ ماذا عن واضعي مشروع "الأداة"؟ كيف سنقيم الوجوه الباسمة والقوية لعمالقة التكنولوجيا عندما تُعيد النظر في تلك الصور في بيكسلات لامعة لنسخة من برنامج "لوك" في القرن الحادي والعشرين؟ إن الطريق من "شتجن" إلى مطار أمريكي أو أوروبي يؤدي أيضاً إلى "مكنسة رومبا" الكهربائية التي ترسم خريطة لغرفة معيشتك، ووجبة أفكارك مع "أليكسا". إنه الطريق إلى اليقين الآلي الذي فرضته القوة الآلية، وأنتجت رأسمالية المراقبة. وهذه الرحلة ليست طويلة كما تعتقد.

(1006) كارل ج. فريدريك، "مشكلة الشمولية - مقدمة"، في كتاب "الشمولية"، تحرير كارل ج. فريدريك (نيويورك: غروسميت ودنلاب، 1964)، 1-2.

في الاتجاه الأول، تكمن إمكانية إصدار إعلان مركّب لحدثة ثالثة تركز على تعزيز المؤسسات الديمقراطية، والبناء الإبداعي لحركة مزدوجة في عصرنا. وعلى هذا الطريق، نُسخّر التكنولوجيا الرقمية لأشكال رأسمالية المعلومات التي تُعيد توحيد العرض والطلب بطرقٍ تُنتج حياةً فعّالةً تتوافق مع نظامٍ اجتماعيٍّ ديمقراطيٍّ مزدهر. تبدأ الخطوة الأولى على هذا الطريق بتحديد هويتنا، وتحديد معالمنا، وإيقاظ دهشتنا، ومشاركة شعورٍ بالإهانة المُبرّرة.

إذا سلكنا الطريق الآخر، الذي يربطنا بـ "شينجن"، فس نجد طريقنا إلى رؤية رأسمالية المراقبة المناهضة للديمقراطية لحدثة ثالثة تصوغها السلطة الآلية. إنها مستقبلٌ من اليقين يتحقق دون عنف. والثمن الذي ندفعه ليس أجسادنا، بل حريتنا. هذا المستقبل لم يتحقق بعد، ولكن كما حلم "سكروج" بمستقبل عيد الميلاد، جميع المواد مُعدّة وجاهزة للتجميع. يتناول الفصل الرابع عشر هذه المحطة التالية على درب بدأ برأسمالية غير مسبقة، ثم تحوّل نحو قوة غير مسبقة، ويؤدي الآن إلى مجتمع غير مسبوق، نظّرت له وشرعته منظومة فكرية ناشئة من المفكرين والباحثين والممارسين. ما هو هذا المكان الجديد الذي يريدوننا أن نسميه وطنًا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوعان من السلطة		
عناصر المقارنة	الشمولية	القوة الآلية
المجاز الأساسي	الأخ الأكبر	الآخر الكبير
الرؤية الشمولية	ملكية مطلقة	يقين مطلق
الهدف المتسامي	مثالية المجتمع/ الأنواع محددة بالطبقة أو العرق	أتمتة السوق/ المجتمع من أجل نتائج مضمونة
مركز القوة	السيطرة على وسائل العنف	السيطرة على أقسام التعلّم في المجتمع
أدوات القوة	إدارة هرمية للإرهاب	ملكية وسائل تعديل السلوك
آليات أساسية	إرهاب تعسفي؛ قتل	نزع ملكية الفائض السلوكي من أجل الحوسبة والتحكم والتنبؤ
نظرية وممارسة	نظرية تشرّع الممارسة	ممارسة تلغي النظرية
النمط الأيديولوجي	نظام سياسي	لا مبالاة راديكالية
استراتيجيات اجتماعية	عزلة وفرز؛ مؤمنون بالكامل أو أعداء بالكامل	إضفاء طابع الآخر على الكائنات المتنبأ بها
العمليات الاجتماعية الأساسية	ضمن المجموعة، وخارج المجموعة من أجل التوافق والطاعة	العقل الاجتماعي؛ مقارنة اجتماعية للتقارب والقدرة على التنبؤ
وحدة الإنتاج الاجتماعي	الجمهور (سياسيًا)	السكان (إحصائيًا)
متجهات التأثير الاجتماعي	"إعادة التعليم" ممارسة سيطرة من الداخل إلى الخارج	تعديل سلوكي ممارسة سيطرة من الخارج إلى الداخل
نمذجة اجتماعية	عزل راديكالي	اتصال راديكالي
المتطلبات من الفرد	ولاء مطلق من خلال الخضوع للدولة/ النوع	شفافية مطلقة من خلال الخضوع للنتائج المضمونة
المصدر الأساسي للتعلق الفردى بالسلطة	هوية محبطة	تأثير مُحبط
النموذج الأساسي للتعلق الفردى بالسلطة	التطابق، التماثل، الهوية	الاعتماد

الشكل 4: نوعان من السلطة

الفصل الرابع عشر

طوباوية اليقين

وهكذا، منذ سنوات، انهمرت عليهم العطايا:
كل منهم ينتزع ما يحتاجه للبقاء؛
اتخذت النحلة السياسات التي تناسب الخلية،
تشكلت الزعانف كزعانف، وتشكل الخوخ كخوخ
وكانت ناجحة في مسعاها الأول.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، I

1- المجتمع باعتباره "الآخر"

على الرغم من أن مارك وايزر، صاحب رؤية الحوسبة الموجودة في كل مكان، لم يطلق عليها اسمًا، فقد تنبأ بحجم القوة الآلية باعتبارها مشروعًا مجتمعيًا شاملاً. وقد فعل ذلك بطريقة توحى بفكرتين اثنتين، عدم وجود سابقة على الإطلاق، وخطر الخلط بينها وبين ما حدث من قبل: "مئات الحواسيب في كل غرفة، جميعها مزودة بحساسات تكتشف وجود الأشخاص القريبين منها، ومرتبطة بشبكات عالية السرعة، لديها القدرة على جعل المسؤولية تبدو أشبه بفوضى محضة".⁽¹⁰⁰⁷⁾ ليست كل هذه الأجهزة الحاسوبية، في واقع الأمر، هي الوسيلة لتحقيق المسؤولية الرقمية المفترطة. بل هي، من منظوري الشخصي لشعور وايزر بالأمر، تشكل الأساس لقوة

(1007) مارك وايزر، "الحاسوب للقرن الحادي والعشرين"، مجلة ساينتفك أمريكان، يوليو 1999، ص

غير مسبقة قادرة على إعادة تشكيل المجتمع بطريقة غير مسبقة. إذا كانت القوة الآلية قادرة على جعل الشمولية تبدو أشبه بفوضى، فما الذي نخشاه لنا؟

قبل سبعة عقود، قوبلت طوباوية سكينر السلوكية الآلية البدائية، في روايته "والدن 2"، بالاشمئزاز. وهي اليوم مادة مُلهمة لخطاب رأسمالية المراقبة، حيث يروج القادة للأدوات والرؤى التي ستجلب أفكار الأستاذ القديم إلى الحياة... إلى حياتنا. لقد بدأت عملية التطبيع والتعود. لقد رأينا بالفعل أن سعي رأسمالية المراقبة إلى تحقيق اليقين - تفويض ضرورة التنبؤ - يتطلب تقريباً مستمراً للمعلومات الكلية باعتبارها الشرط المثالي للذكاء الآلي. وقد وسّع رأسماليو المراقبة نطاق عملهم، على درب الشمولية من العالم الافتراضي إلى العالم الواقعي. حيث تُسَلَّم الأعمال الواقعية الناس كلهم والأشياء والعمليات كلها باعتبارها كائنات حاسوبية في نسق لا نهاية له من أشياء متكافئة لكن من دون مساواة بين اثنين. والآن، مع تكثيف صناعة الواقع، يؤدي السعي إلى الكمال بالضرورة إلى ضمّ "المجتمع" و"العلاقات الاجتماعية" والعمليات المجتمعية الأساسية باعتبارها منطقة جديدة للتسليم والحساب والتعديل والتنبؤ.

يُعتبر انتشار "الآخر الكبير" أمراً لا مفرّ منه، لكنه ليس الهدف النهائي. فالهدف في هذه المرحلة الجديدة هو تحقيق رؤية شاملة، وتنسيق، وتلاقٍ، وضبط، وتناغم للعمليات الاجتماعية سعياً لتحقيق الحجم والنطاق والفعل. ورغم أن الآلاتية والشمولية نوعان مختلفان، إلا أن كليهما يتوق إلى الانتشار الكلي، وإن بأساليب مختلفة اختلافاً جذرياً. تسعى الشمولية إلى تحقيق الانتشار الكلي كحالة سياسية، وتعتمد على العنف لتمهيد طريقها. وتسعى الآلاتية لتحقيق الانتشار الكلي كشرط لهيمنة السوق، وتعتمد على سيطرتها على تقسيم التعلّم في المجتمع، بتمكين وفرض من "الآخر الكبير"، لتمهيد طريقها. والنتيجة هي تطبيق سلطة الآلاتية على تحسين المجتمع من أجل تحقيق أهداف السوق: طوباوية اليقين.

على الرغم من توافقهما في نواحي كثيرة مع الرؤية الاجتماعية للنخبة السياسية الصينية القائمة على الآلاتية، إلا أن لدى رأسماليي المراقبة أهدافاً مختلفة. فهم يرون

المجتمع الآلائي فرصة سوقية. وأيا كانت المعايير أو القيم التي يفرضونها، فهي مصممة لتعزيز تحقيق أهداف السوق. وكما هو الحال مع التجربة الإنسانية، يخضع المجتمع لديناميكيات السوق ويولد من جديد كمقياس سلوكي حسابي موضوعي مُتاح لاقتصاديات الحجم والنطاق والعمل في رأسمالية المراقبة في السعي للحصول على إمدادات الفائض السلوكي المربحة. ولتحقيق هذه الأهداف، استحضر رأسماليو المراقبة رؤية مرعبة. إنهم يهدفون إلى صياغة مجتمع جديد يحاكي التعلّم الآلي بالطريقة ذاتها التي يُشكّل فيها المجتمع الصناعي على التخصصات وطرق الإنتاج في المصانع. ومن وجهة نظرهم الخاصة، تحلّ القوة الآلية محلّ الثقة الاجتماعية، ويحلّ الآخر الكبير محلّ العلاقات الاجتماعية، ويصبح المجتمع، بالطريقة التي نعرفه فيها، في طريقه إلى التقادم.

2- الكلية تشمل المجتمع

يحرص رأسماليو المراقبة على طمأنة حلفائهم بشأن قوتهم الهائلة، كما يفعل الجنرالات عندما يقدّمون إحصاءً بتعداد جيوشهم. وعادة ما يُعبّر عن ذلك من خلال جرد القوات الآلية التي حُشدت على الحدود، والمستعدة لتقديم كل شيء سعيًا إلى تحقيق الكلية. ويتضح أن هذا المسعى لا يخلف عواقب على المجتمع فحسب؛ بل يشمل المجتمع بأكمله.

في ربيع عام 2017، اعتلى ساتيا ناديلا، الرئيس التنفيذي لشركة مايكروسوفت، خشبه المسرح لافتتاح مؤتمر الشركة السنوي للمطوّرين. وبرزت ملامح جسده النحيل من قميصه الضيّق الأسود، فوق سروال جينز أسود. وحذاء عصري بكعب عالٍ. وسرعان ما أبهر الحضور باستعراض أساء جنوده. حيث تحدّث عن 500 مليون جهاز يعمل بنظام تشغيل ويندوز 10؛ و100 مليون مستخدم شهري لبرامج أوفيس؛ و140 مليون مستخدم شهري لـ "المساعد الرقمي" للشركة، كورتانا؛ وأكثر من 12 مليون منظمة اشتركت في خدماتها السحابية، بما في ذلك 90٪ من شركات فورتشن 500.

لم يخفق ناديلدا في تذكير جمهوره بالسرعة الساحقة التي تدفع مشروع الآلاتية بشكل مذهل، ولا سيما في السنوات التي تلت سيطرة رأسمالية المراقبة على الخدمات الرقمية: ازدادت حركة المرور على الإنترنت بمقدار 17.5 مليون مرة عن 100 غيغابايت في اليوم في عام 1992؛ وتم توليد 90٪ من البيانات الموجودة عام 2017 في العامين السابقين؛ وستولّد سيارة واحدة ذاتية القيادة 100 غيغابايت في الثانية؛ وسيكون هناك ما يقدر بنحو 25 مليار جهاز ذكي بحلول عام 2020. من المذهل رؤية التقدّم في مجتمعنا واقتصادنا على نطاق واسع، ومدى انتشار التكنولوجيا الرقمية... يتعلّق الأمر بما يمكنك فعله بهذه التكنولوجيا لإحداث تأثير واسع النطاق. وقابل المطوّرون المجتمعون نصيحته الأخيرة - "غيّروا العالم!" - بوابل من التصفيق. (1008)

سار الرئيس التنفيذي سوندار بيتشاي، في احتفائه بطموحات غوغل مع مطوّري الشركة عام 2017، بالتوازي مع ناديلدا، مستعرضًا قواته بينما تنتشر كتائب غوغل لاحتضان كل ركن من أركان الحياة الاجتماعية، موضعًا بحماس اتساع قوة الشركة الآلية وعمقها بطريقة كانت ستجعل البروفسور سكينر يتورّد. حيث يشير إلى أن سبعة من أبرز "منتجات الشركة ومنصّاتها" تستقطب مليار مستخدم نشط شهريًا، بما في ذلك "جيميل وأندرويد وكروم والخرائط والبحث ويوتيوب ومتجر غوغل بلاي"؛ ومليارا جهاز أندرويد نشط؛ و800 مليون مستخدم نشط شهريًا لموقع "غوغل درايف" مع تحميل ثلاثة مليارات عنصر كل أسبوع؛ و500 مليون مستخدم للصور يقومون بتحميل 1.2 مليار صورة يوميًا؛ و100 مليون جهاز يستخدم "مساعد غوغل". وأعيد تصميم كل جهاز ليكون بمثابة ناقل للمساعد، وهو "متاح طوال اليوم، في المنزل وأثناء التنقّل" لكل نوع من المهام أو الوظائف الاجتماعية. وكان بيتشاي يرغب بأكثر من ذلك إذ قال لفريقه: "يجب أن نتعمّق أكثر". يجب أن يكون مساعد غوغل متاحًا أينما "رغب الناس بطلب المساعدة". وشاركه المسؤولون التنفيذيون في غوغل حماسه. ويقول إيريك شميدت: "توشك التكنولوجيا الآن أن

تأخذنا إلى عصر سحري نُحلّ فيه مشاكل لم نكن نستطيع حلها بمفردنا".⁽¹⁰⁰⁹⁾ ويقول إن التعلّم الآلي سيحدث فرقاً كبيراً، من علاج العمى إلى إنقاذ الحيوانات من الانقراض. والأهم من ذلك كله، كان مؤسس الشركة، لاري بيغ، هو من وضع نصب عينيه منذ فترة طويلة تغيير المجتمع.

في عام 2016، صرّح بيغ لصحيفة فاينانشال تايمز قائلاً: "هدفنا الأساسي هو الهدف المجتمعي".⁽¹⁰¹⁰⁾ وقال لمحاوّر آخر في ذلك العام، "نحن بحاجة إلى تغيير ثوري، لا تغيير تدريجي. ربما نستطيع حلّ الكثير من المشاكل التي نواجهها بصفتنا بشراً".⁽¹⁰¹¹⁾ ويتضح أن جزءاً كبيراً من رؤية بيغ المستقبلية هي مجرد أفكار طوباوية تقليدية، ومواضيع تكررت لآلاف السنين. يتوقع بيغ ذكاءً آلياً يعيد البشرية إلى جنة عدن، وينقلنا من العناء والكفاح إلى عالم جديد من الراحة والاكتمال. فهو يتنبأ مثلاً بمجتمع مستقبلي يتمتّع "بوفرة" كل شيء، حيث تصبح العمالة مجرد ذكرى بعيدة "مجنونة".⁽¹⁰¹²⁾

ما يثير الدهشة هو أن بيغ صوّر طموحات غوغل الشمولية باعتبارها نتيجة منطقية لالتزامها بتحسين المجتمع. إذ يتعيّن علينا، من وجهة نظره، أن نرحّب بفرصة الاعتماد على "الآخر الكبير"، وإخضاع المعرفة كلها وحقوق اتخاذ القرار طوعاً لخطة غوغل. ولتنفيذ هذه الخطة، يتعيّن علينا أن نجتمع المجتمع كله – كل شخص وكل شيء وكل عملية – في سلاسل التوريد التي تغذّي الآلات، والتي تدير بدورها الخوارزميات التي تحرّك "الآخر الكبير" لإدارة ضعفنا وتخفيفه:

ما ترغبون منا بفعله هو تصنيع منتجات رائعة فعلاً، ولتحقيق ذلك فعلياً... علينا

(1009) إيريك شميدت، "إيريك شميدت من شركة ألفابت: يجب أن نحتضن التعلّم الآلي - لا أن نخاف منه"، نيوزويك، 10 يناير/كانون الثاني 2017.

(1010) ريتشارد ووترز، "مقابلة فاينانشال تايمز مع لاري بيغ، المؤسس المشارك والرئيس التنفيذي لشركة غوغل"، فاينانشال تايمز، 31 أكتوبر/تشرين الأول 2014.

(1011) ماركوس وولسن، "لاري بيغ يعرض خطته لمستقبل"، وايرد، مارس 2014.

(1012) واترز، "مقابلة فاينانشال تايمز مع أحد مؤسسي غوغل"، فينود خوسلا، "حوار جانبي مع مؤسسي غوغل، لاري بيغ وسيرجي برين"، خوسلا فينتشرز، 3 يوليو/تموز 2014.

أن نفهم التطبيقات، وأن نفهم المنتجات التي يمكنكم شراؤها، وأن نفهم تذاكر الطيران، وأن نفهم أي شيء قد تبحثون عنه. والناس هم أهم شيء قد نبحث عنه... سنعتبر الناس كائنات من الدرجة الأولى في البحث... وإذا كنا سنقوم بعمل جيد في تلبية احتياجاتك من المعلومات، فنحن بحاجة فعلاً إلى فهم الأشياء، ونحتاج إلى فهمها بعمق إلى حد ما. (1013)

تُباع المعرفة الكاملة كمتطلبات للخدمات "الاستباقية" التي تؤدي إلى أفضل الحلول في "مساعد غوغل" كلي المعرفة، والمدعوم بالذكاء الاصطناعي:

إنه بالفعل محاولة لفهم كل شيء في العالم وجعله منطقياً... تتعلق الكثير من الاستفسارات في الواقع بالأمكان، لذا نحتاج إلى فهمها... وتعلق الكثير من الاستفسارات بمحتوى لا نستطيع العثور عليه. لقد بحثنا في الكتب، وما إلى ذلك... لذا، قمنا بتوسيع هذا المجال تدريجياً... فربما لا ترغب في طرح سؤال. ربما كنت ترغب في الحصول على إجابة قبل طرحه. سيكون هذا أفضل. (1014)

نشأت شركة غوغل بهدف تنظيم معلومات العالم بأفضل شكل ممكن، لكن بيع يريد من الشركة أن تعمل على تحسين تنظيم المجتمع نفسه: ووفقاً لتصريحه عام 2013، "في نظرتي العالمية طويلة الأمد، يفهم برنامجنا بعمق ما أنت على دراية به، وما لا تعرفه، وكيفية تنظيم العالم حتى يتمكن من حل المشكلات، المهمة".

يشارك مارك زوكربيرغ، الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، في هذه الطموحات الشمولية، وهو صريح للغاية بشأن "المجتمع"، وليس بشأن الأفراد داخله فقط، باعتباره مُحتضناً من فيسبوك. وتشمل "أهداف شركته الثلاثة الكبرى" "ربط الجميع؛ وفهم العالم؛ وبناء اقتصاد المعرفة، بحيث يتوفر لكل مستخدم "المزيد من الأدوات" لمشاركة "محتويات مختلفة". (1015) إن تقدير زوكربيرغ العميق لعدم استقرار الحداثة

(1013) ميغيل هيلفت، "حصراً في مجلة فورتشن: لاري بيغ على غوغل"، فورتشن، 11 ديسمبر 2012.

(1014) خوسلا، "الدرشة العامة".

(1015) "مارك زوكربيرغ، الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، يتحدث عن نتائج الربع الرابع من عام 2014

- نص مكالمة الأرباح"، سيكينج ألفا، 29 يناير 2015.

الثانية - والشوق إلى الدعم والاتصال الذي يُعدّ من أكثر سمات هذه الحداثة وضوحًا - هو ما يدفع ثقته، تمامًا مثلما كان حال الخبير الاقتصادي في غوغل هال فاريان. ستعرف الشركة كل كتاب قرأه الشخص، وكل فيلم حضره، وكل أغنية سمعها. وستُمكن النماذج التنبؤية الشركة من "إخبارك بالمقهى الذي ستذهب إليه" عند وصولك إلى مدينة غريبة. فالرؤية واضحة وتفصيلية للغاية: عندما تصل على المقهى، سيكون مشروبك المفضّل في انتظارك، ويمكنك أن تنظر حولك في الصالة وتعرّف على أشخاص مثلك تمامًا. وقد وصف زوكربيرغ تدفّق الفائض السلوكي بأنه "ينمو بمعدّل غير متسارع..... مما يسمح لنا بالتنبؤ بالمستقبل.... وبعد عامين من الآن، سيتشارك الناس ضعف ما يتشاركونه الآن... وبعد أربع سنوات، سوف يتشاركون ثمانية أضعاف ما يتشاركونه الآن...". وفي إشارة إلى المنافسة الملحّة على الشمولية، توقع زوكربيرغ أن الرسم البياني الاجتماعي لـ "فيسبوك" سيكون بمثابة خريطة أفضل لكيفية تصفّح الويب مقارنة ببنية الروابط التقليدية". (1016)

لتحقيق هذه الغاية، قال الرئيس التنفيذي للشركة للمستثمرين إن فيسبوك سيوفّر إمكانية الوصول إلى الإنترنت بأسعار معقولة "لكل شخص في العالم" بحيث يكون لدى كل مستخدم "أدوات أكثر" لمشاركة "محتويات مختلفة أخرى". (1017) وأكّد أنه من غير المرجّح لأي شيء أن يعيق تقدّم الشركة على الصعيد المجتمعي، لأن "لدى البشر رغبة عميقة بالتعبير عن أنفسهم". (1018)

في عام 2017، مضى زوكربيرغ إلى أبعد من ذلك في التعبير عن طموحاته المجتمعية، مستهدفًا هذه المرّة جوهر مخاوف الحداثة الثانية بشكل مباشر: "يشعر الناس بالقلق. فالكثير مما كان مستقرًا في الماضي لم يعد موجودًا". وهو يعتقد أنه قادر، مع شركته، على توفير مستقبل "يناسب الجميع" ويلبي "الاحتياجات الشخصية

(1016) انظر أشلي فانس، "فيسبوك: صناعة مليار مستخدم"، بلومبرغ، 4 أكتوبر/ تشرين الأول 2012.

(1017) "مارك زوكربيرغ، الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، يتحدث عن نتائج الربع الرابع من عام 2014".

(1018) "مارك زوكربيرغ، مؤسس فيسبوك، يتحدث عن نتائج الربع الأول من عام 2016 - نص مكالمة الأرباح"، سيكينيغ ألفا، 28 أبريل 2016.

والعاطفية والروحية" من أجل "الهدف والأمل" و"التحقق الأخلاقي" و"الراحة بأننا لسنا وحدنا". وجادل قائلاً: "لا يتطلب التقدم الآن تضافر جهود البشرية كمدن أو أمم وحسب، بل كمجتمع عالمي أيضًا..... وأهم ما يمكننا فعله في فيسبوك هو تطوير البنية التحتية الاجتماعية... لبناء مجتمع عالمي...". وبإشارة إلى أبرهام لينكولن، حدّد مهمّة شركته في التسلسل الزمني التطوّري للحضارة، الذي نظمت البشرية خلاله نفسها أولاً في قبائل، ثم في مدن، ثم أمم. وستكون المرحلة التالية من التطور الاجتماعي عبارة عن "مجتمع عالمي"، وكان على فيسبوك أن يقود الطريق، ويبنى الوسائل ويشرف على الغايات. (1019)

ربط زوكربيرغ، في حديثه في مؤتمر مطوّري فيسبوك لعام 2017، تأكيده على الدور التاريخي للشركة في إنشاء "مجتمع عالمي" بالأسطورة القياسية للطوباوية الحديثة، مؤكّداً لأتباعه أن "التكنولوجيا ستتيح لنا في المستقبل تحرير أنفسنا لقضاء المزيد من الوقت في الأشياء التي نهتم بها جميعاً، مثل الإصغاء والتفاعل بين أحدنا والآخر، والتعبير عن أنفسنا بطرق جديدة.... وسيمارس كثيرون منا ما يُعتبر اليوم فناً، وهذا سيشكّل الأساس للعديد من مجتمعاتنا. (1020)

في حين يروّج ناديل، وغيره من رأسماليي المراقبة لأحلامهم الطوباوية، يفشل رأسماليو المراقبة في الإشارة إلى أن العصر السحري الذي يتخلّونه له ثمن: يجب على "الآخر الكبير" أن يتوسّع نحو الكلية مع إزالة جميع الحدود، وإغراق كل مصدر للاحتكاك في خدمة ضروراته الاقتصادية. وتتوق القوى كلها إلى الكمال، والسلطة وحدها هي من يقف في طريق ذلك: المؤسسات الديمقراطية؛ والقوانين؛ واللوائح؛ والحقوق والالتزامات؛ وقواعد وعقود الحوكمة الخاصة؛ والقيود السوقية العادية التي يمارسها المستهلكون والمنافسون والموظفون؛ والمجتمع المدني؛ والسلطة السياسية للشعب؛ والسلطة الأخلاقية للبشر الأفراد الذين لديهم اتجاهاتهم.

(1019) مارك زوكربيرغ، "بناء مجتمع عالمي"، فيسبوك، 16 فبراير 2017.

(1020) مارك زوكربيرغ، "الكلمة الرئيسية للرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، مارك زوكربيرغ، في مؤتمر F8 2017 (النص الكامل)،" 19 أبريل 2017.

تتضح هذه النقطة في حكاية غوته عن تلميذ ساحر، عندما قام، أثناء غياب سلطة الساحر على توجيه العمل وكبح جماحه، بتحويل الكنسة إلى قوة شيطانية لا هوادة فيها:

آه، الكلمة التي يُعيد بها السيد الكنسة مكنسةً مجددًا!

آه، إنه يركض ويحضر بسرعة!

عودي إلى "مكنسة بعضا" كما كنت من قبل!

لا تزال التيارات تتغذى منه،

آه، مئة تيار تصبّ على رأسي! (1021)

3- طوباويات مطبقة

ازدهرت السلطة الآلية، مثل مكنسة المدرّب، في غياب الساحر، وبوجود قوة ضعيفة لكبح جماح عملها، وقد نمت شهية رأسمالي المراقبة للحالة الكلية مع هذا النجاح. وكان الخطاب الطوباوي للعصر السحري حاسمًا في هذا التقدّم. عادةً ما تُرفض فكرة أن "الآخر الكبير" سيحلّ مشاكل البشرية كلها مع تمكين كل فرد باعتبارها مجرد فكرة "طوباوية تقنية"، لكن من الخطأ تجاهل هذا الخطاب دون دراسة غايته. فهو ليس مجرد هراء. بل كاسحة ألغام تسبق جنود المشاة، ودبلوماسي ماهر يُرسّل لنزع سلاح العدو وتمهيد الطريق لاستسلام هادئ. يعلب الوعد بعصر سحري دورًا استراتيجيًا حاسمًا، فهو يصرف انتباهنا في الوقت نفسه عن طموحات رأسمالية المراقبة الشمولية التي تشمل بالضرورة "الناس" باعتبارهم "أشياء من الدرجة الأولى".

يتناسب "الهدف المجتمعي" الذي عبّر عنه كبار رأسمالي المراقبة بشكل مريح مع فكرة التقدم التكنولوجي اللامحدود الذي هيمن على الفكر الطوباوي من أواخر القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، وبلغ ذروته مع ماركس. ويتوافق

(1021) يوهان فولفغانغ فون غوته، "تلميذ الساحر"، قصص ألمانية في جامعة فيرجينيا كومونولث،

رأساليو المراقبة مثل نادالا، وبيج، وزوكربيرغ، مع خمسة عناصر من أصل ستة حدّد بها علماء الفكر الطوباوي العظام، مثل فرانك وفريتزي مانويل، الصورة الكلاسيكية لأكثر الطوباويين المعاصرين طموحًا: (1) الميل إلى رؤية نفقّة شديدة التركيز تبسّط التحدي الطوباوي، (2) فهم مبكّر وصارم لـ "حالة جيدة من الوجود" مع غيرهم من المعاصرين، (3) سعي مكثّف لفكرة هادفة والدفاع عنها، (4) إيمان راسخ بحتمية تحقيق المرء لأهدافه، و(5) السعي إلى الإصلاح الشامل على مستوى النوع، وعلى مستوى النظام العالمي بأكمله.⁽¹⁰²²⁾

يلاحظ "الثنائي مانويل" سمة سادسة للرؤية الحديثة الموجهة نحو المستقبل، وتكون حيث يمثل الرجال والشركات التي تمت مناقشتها هنا استثناءات قوية للقاعدة: "غالبًا ما يتنبأ الطوباوي بالتطوّر اللاحق وعواقب التطوّر التكنولوجي الموجودة بالفعل في حالة جنينية؛ قد تكون لديه هوائيات حساسة للمستقبل. لكن من النادر أن تتجاوز أدواته الإمكانات الميكانيكية لعصره. مهما حاول ابتكار شيء جديد بالمطلق، فلن يستطيع خلق عالم من العدم".⁽¹⁰²³⁾ لكن يستطيع رأساليو المراقبة في عصرنا أن يصنعوا عالمًا كهذا، وهم يفعلون ذلك فعلاً - وهو انحراف تاريخي حقيقي عن القاعدة.

ستكون المعرفة والقوة والثروة التي يمتلكها رأساليو المراقبة، على المستوى الفردي والجماعي، موضع حسد أي حاكم قديم، تمامًا كما هو الحال الآن مع رغبة الدولة الحديثة. ومع موازنات عام 2017 التي أظهرت 126 مليار دولار نقدًا وأسهم وسندات لشركة مايكروسوفت، و92 مليار دولار لشركة غوغل، ونحو 30 مليار دولار لشركة فيسبوك، ومع تأييد الأسواق المالية لأنظمتها الآلية الدائمة الاتساع مع أكثر من 1.6 تريليون دولار من القيمة السوقية في منتصف عام 2017، يُعتبر هؤلاء هم الطوباويين النادرين الذين يمكنهم الإشراف على تحويل خيالاتهم إلى حقائق دون

(1022) فرانك إي. مانويل وفريتزي بي. مانويل، الفكر الطوباوي في العالم الغربي (كامبريدج، ماساتشوستس: بيلكناپ، 1979)، 20.

(1023) "الثنائي مانويل"، الفكر الطوباوي، 23 (الخط المائل يعود لي).

يُعتبر قادة رأسمالية المراقبة طوباويين من نوع خاص في هذا الصدد. لقد استحوذ ماركس على العالم بنظريته المعقّدة، لكن بقوة أفكاره فقط، فهو لم يستطع تطبيق رؤيته. بعد نشر نظريات ماركس بفترة طويلة، طبّقها رجالٌ مثل لينين وستالين وماو على أرض الواقع. بل يصف آل مانويل لينين بأنه متخصص في "الطوباوية التطبيقية".⁽¹⁰²⁵⁾ وفي المقابل، يُسيطر رأسماليو المراقبة على العالم عملياً. نظرياتهم واهية - ينطبق هذا بالحد الأدنى على الفكر الذي يُشاركونه مع العامة. أما سلطتهم، فهي على النقيض من ذلك، هائلة وغير مُقيّدة إلى حد كبير.

عندما يتعلّق الأمر بالنظرية والتطبيق، فإن الترتيب المعتاد هو أن تكون النظرية متاحة للفحص والتحقيق والنقاش قبل الشروع في العمل. وهذا يتيح للمراقبين فرصة تقييم مدى جدارة النظرية بالتطبيق، والنظر في العواقب غير المتوقّعة للتطبيق، وتقييم مدى توافق التطبيق مع النظرية التي نشأ منها. وتخلق هذه الفجوة الحتمية بين النظرية والتطبيق مساحة للاستقصاء النقدي. ويمكننا مثلاً أن نتساءل حول مدى توافق قانون أو ممارسة حكومية مع دستور دولة معيّنة، وميثاق الحقوق، ومبادئ الحكم، لأننا نستطيع فحص هذه الوثائق وتفسيرها ومناقشتها. وإذا كانت الفجوة كبيرة جداً، يتصرّف المواطنون لسدّها من خلال الطعن في القانون أو الممارسة.

يقلب رأسماليو المراقبة التسلسل الطبيعي للنظرية والممارسة. وتتقدّم ممارساتهم بسرعة هائلة في غياب نظرية واضحة قابلة للنقاش. فهم متخصصون في عرض النوع الفريد من نوعه للصدمة والرغبة التي تميّز القوّة الآلية، والتي تترك المشاهدين في حالة من الذهول والعجز وعدم اليقين. إن غياب التعبير الواضح عن نظريتهم يتركنا نتأمل آثارها العملية: نظام مراقبة المركبات الذي يوقف محرك سيارتك؛ الوجهة التي تظهر مع الطريق؛ مقترح الشراء الذي يومض على هاتفك في اللحظة التي تصل فيها رغبتك

(1024) تود بيشوب ونات ليفي، "ب. 256 مليار دولار، تمتلك شركة أبل سيولة نقدية أكبر من أمازون ومايكروسوفت وغوغل مجتمعة"، جيڪ واير، 2 مايو 2017.

(1025) "الثنائي مانويل"، الفكر الطوباوي في العالم الغربي، 9.

إلى ذروتها؛ تتبّع "الآخر الكبير" المستمر لموقعك وسلوكك ومزاجك؛ وتوجيهه لسكان المدن نحو عملاء رأسمالية المراقبة.

مهما بدت نظريات رأسمالي المراقبة هزيلةً وسريّةً، فإن قوتها الآلية قادرة على تحقيق أحلامهم، أو تُحدِث على الأقل عاصفة من النتائج أثناء محاولاتهم. والسبيل الوحيد لفهم النظرية التي يطرحونها في طوباوياتهم التطبيقية هو عكس هندسة عملياتهم، وفحص معناها، كما فعلنا في هذه الفصول.

تتطوّر الطوباويات التطبيقية في فيسبوك وغوغل ومايكروسوفت مع انتقال حدود استخراج الفوائض السلوكية إلى مجالات الحياة التي كانت تُفهم تقليدياً على أنها مجتمعية، وتتطوّر في ظلّ مزيج من المؤسسات المدنية والقيادة العامة. وقد أعلن بيان مهمة زوكربيرغ في فيسبوك لعام 2017، المُقدّم تحت عنوان "بناء مجتمع عالمي"، عن مرحلة جديدة من المثالية التطبيقية: "من المهم بشكل عام أن تتناسب حوكمة مجتمعاتنا مع تعقيدات مجتمعاتنا ومتطلّباته. نحن ملتزمون بتقديم الأفضل دائماً، حتى لو تطلّب ذلك بناء نظام تصويت عالمي يمنحكم مزيداً من حرية التعبير والسيطرة. ونأمل بأن يقدّم هذا النموذج أمثلة حول كيفية القيام بعملية صنع القرار الجماعي في جوانب أخرى من المجتمع العالمي".⁽¹⁰²⁶⁾ وفي وقت لاحق من ذلك العام، أخبر زوكربيرغ حشداً من المطوّرين أن "لدينا خارطة طريق كاملة للمنتجات المساعدة في بناء المجموعات والتجمّعات، والمساعدة في بناء مجتمع أكثر وعياً، والمساعدة في الحفاظ على أمان مجتمعاتنا، ولدينا الكثير مما نقوم به هنا".⁽¹⁰²⁷⁾

في ربيع عام 2017، وعلى المسرح ذاته، شجّع نادالا، رئيس شركة مايكروسوفت، مطوّريه قائلاً: "سواء أكان الأمر يتعلّق بالطبّ الدقيق أو الزراعة الدقيقة، وسواء أكان يتعلّق بالوسائط الرقمية أو الإنترنت الصناعي، فإن الفرصة المتاحة لنا بصفتنا مطوّرين لإحداث تأثير واسع وعميق على جميع أجزاء المجتمع، وجميع أجزاء

(1026) زوكربيرغ، "بناء المجتمع العالمي".

(1027) "الكلمة الرئيسية التي ألقتها مارك زوكربيرغ، الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك، في مؤتمر F8 لعام 2017".

الاقتصاد، لم تكن بتلك العظمة في يوم من الأيام".⁽¹⁰²⁸⁾ تُجسّد الرؤية التي كشف عنها ناديلّا في ذلك اليوم نموذجاً رأسمالية المراقبة الأوسع لمستقبلنا. إلى أين يظنون أنهم يأخذوننا؟

4- الالتقاء كعلاقات آلية

لكي نفكّك شيفرة المقياس الحقيقي للمجتمع الآلي، دعونا نضع جانباً تلك البهجة المبهرة التي سادت "العصر السحري" ونركّز بدلاً من ذلك على ممارسات الطبوباية التطبيقية وما تتضمنه من رؤية اجتماعية. لقد قدّم ناديلّا فرصة ثمينة عندما كشف النقاب عن سلسلة تطبيقات عملية تتضمن رؤية جديدة وشاملة للعلاقات الآلية باعتبارها نموذجاً للعلاقات الاجتماعية في عصر جديد.

يبدأ الكشف بإفصاح ناديلّا عن تعاون مايكروسوفت مع شركة سويدية عمرها 150 عاماً لتصنيع معدّات القطع المعدنية عالية الدقّة والتي أعادت ابتكار نفسها للقرن الحادي والعشرين. ويُعدّ هذا المشروع مثلاً متطوراً على ما وصفه ناديلّا بأنّه "التغيير الجوهرى في نموذج التطبيقات التي نبنيها، وهو تغيير في النظرة العالمية لدينا... من... عالم يركّز على الأجهزة المحمولة والسحابة أولاً، إلى عالم جديد يتكون من سحابة ذكية وأجهزة طرفية ذكية". ويقول إن الذكاء الاصطناعي "يتعلّم من المعلومات، ويتفاعل مع العالم المادي"، مستشهداً بالقدرات المطلوبة لتحقيق اقتصاديات العمل.⁽¹⁰²⁹⁾

يصف ناديلّا أولاً الآلات المرتبطة عن بعد في إعدادات المصنع الجديدة أثناء البثّ المستمرّ للبيانات إلى "مركز الأدوات القابلة للاتصال بالإنترنت" في "السحابة"، حيث تبحث تحليلات مايكروسوفت عن الشذوذ الذي قد يعرض الآلات للخطر. ويلاحق كل شذوذ من خلال تدفق البيانات إلى سببه، ويتعلّم الذكاء الآلي في المحور

(1028) ناديلّا، "بناء 2017".

(1029) ساتيا ناديلّا، وتشن تشيوفان، وكين ليو، "شراكة المستقبل"، مجلة سلايت، 28 يونيو/ حزيران

كيفية تحديد الأنماط السببية بحيث يمكنه إيقاف تشغيل أية قطعة من المعدات المهددة بشكل استباقي في حوالي ثانيتين، قبل وقوع حدث ضار مُحتمل.

ثم يصف ناديلاً "القدرة الجديدة الرائدة" التي يُدمجُ فيها مستشعر حاسوبي في الآلة مباشرة، مما يقلّل بشكل كبير الوقت اللازم للإغلاق الوقائي: "يعمل هذا المنطق الآن محلياً، لذلك لا توجد حلقة سحابية". تعرف "الأجهزة الطرفية" فوراً متى تواجه الآلة حدثاً ينبئ بحدوث شذوذ مستقبلي، فتُوقف الجهاز في غضون 100 ميلي ثانية من هذه العملية الحسابية، وهو "تحسنٌ بمقدار 20 ضعفاً". ويُحتفى بهذا باعتباره "قوة السحابة التي تعمل بتناغم مع أجهزة طرفية ذكية" لتوقع التغيرات الطارئة واستباقها "قبل حدوثها". (1030)

تتطور قوة التعلم الآلي بشكل كبير مع تعلّم الأجهزة أحدها من الآخر، مستفيدة من ذكاء الجهاز المركزي الأساسي. ولا يعني ذلك في هذا السيناريو أن الكل أكبر من مجموع أجزائه؛ بل يبدو الأمر أشبه بعدم وجود أجزاء. الكل موجود في كل مكان، متجلياً تماماً في كل جهاز مُدمج في كل آلة. يُترجم ناديلاً هذه الحقائق إلى تطبيقات عملية، ملاحظاً أنه بمجرد وجود الكثير من الأجهزة، يُنشأ "مركز بيانات مُحصص" "في مصنع، أو في المنزل، أو في أي مكان آخر... يُمكنك تحويل أي مكان إلى مكان آمن مُدار بالذكاء الاصطناعي".

بات واضحاً أخيراً، من خلال هذا البيان، أن "الأمن" يعني "خالي من الشذوذ تلقائياً". في مصنع ناديلاً، تحل المعرفة الآلية محل الجهل فوراً، مُخضعة سلوك الآلة بأكمله لمعايير مُحددة مسبقاً. ويشيد ناديلاً بتزامنية نتائج مُعينة وشموليتهما، فكل آلة هي نفسها تسير على النهج ذاته، وذلك بدلاً من القلق بشأن تضاعف المخاطر وانتشار عدوى الفشل في حال فشل التعلم الآلي.

كما كان منطق الإنتاج الضخم وإدارته من أعلى إلى أسفل بمثابة النموذج لمبادئ المجتمع الصناعي وبيئته الحضرية الأوسع قبل قرن من الزمان، يتكشف مصنع ناديلاً

في العصر الجديد باعتباره أرض اختبار لرؤيته الاجتماعية - رؤية رأسمالية المراقبة - لمجتمع آلي يترسخ من خلال شكل جديد للعمل الجماعي. يُقدّم التعلّم الآلي هنا باعتباره عقلًا اجتماعيًا - عقل خلية - يتعلّم فيه كل عنصر ويعمل بالتنسيق مع العناصر الأخرى، وهو نموذج عمل جماعي تتحرّك فيه جميع الآلات في نظام شبكي بسلسلة نحو الالتقاء في نقطة واحدة، وتتقاسم كلها الفهم ذاته وتعمل في انسجام مع أقصى قدر من الكفاءة لتحقيق النتائج ذاتها. ويعني هذا الالتقاء في نقطة واحدة أن "حرية" كل آلة مفردة تُسلّم إلى المعرفة التي تشاركها. وكما تنبأ منظر السوك، بلانك وماير وسكينر، تُعادل هذه التضحية حرّياً شاملة على الحوادث والأخطاء والعشوائية بشكل عام.

يأخذ ناديلاً نموذج علاقات الآلة الجديدة هذا ويطبّقه على مثال معقّد لنظام بشري وآلي، وإن كان لا يزال في "المجال الاقتصادي". ويتعلّق الأمر هذه المرة بموقع بناء، حيث تُضبط سلوكيات البشر والآلات وفقاً لمعايير محددة مُسبقاً محدّدها الرؤساء، ويُشار إليها باسم "السياسات". وتُطبّق العقود غير المُبرمة قواعد معيّنة وتتخذ موقع وظائف اجتماعية كالإشراف والتفاوض والتواصل وحل المشكلات. يشغل كل شخص وكل قطعة من المعدات مكاناً بين مجموعة من العناصر، وكل منها "قابل للملاحظة" من قِبل "النظام" من خلال أجهزة الذكاء الاصطناعي الموزعة في جميع أنحاء الموقع.

على سبيل المثال، يُعرّض التدريب الخاص بكل فرد، واعتماداته، وسجل عمله، وغير ذلك من المعلومات الأساسية بشكل فوري على النظام. ربما تنصّ "سياسة" معينة على أن "استعمال المطارق الهيدروليكية حصري بموظفين معتمدين فقط". وإذا اقترب موظف غير معتمد لاستخدام المطرقة الهيدروليكية من هذه الأداة، يُثار احتمال وقوع انتهاك وشيك، وتطلق المطرقة الهيدروليكية تنبيهاً، مما يؤدي إلى تعطيل نفسها على الفور.

جدير بالذكر أن توحيد الإجراءات على الموقع لا يقتصر على حشدها بما يتماشى مع

السياسات. بل يشمل أيضًا التقاء الجهود البشرية المترابطة، حيث تُفَعَّل عمليات التأثير الاجتماعي في إطار العمل الاستباقي لتجنب الشذوذ. في حالة المطرقة الهوائية الخطيرة، يتم حشد البشر في الموقع للتجمّع باتجاه موقع المشكلة الشاذة التي توقّعها الذكاء الاصطناعي، من أجل إيجاد "حلّ سريع لها". وقد قيل لمطوّري مايكروسوفت إن "الأجهزة الطرفية الذكية هي الواجهة بين الحاسوب والعالم الحقيقي... يمكنك البحث في العالم الحقيقي عن الأشخاص والأشياء والأنشطة، وتطبيق السياسات عليها...." (1031).

بمجرّد تقديم الأشخاص وعلاقاتهم باعتبارهم "أشياء أخرى متكافئة في السحابة"، يمكن تعبئة 25 مليار جهاز حاسوبي لتشكيل السلوك حول معايير "السياسة" الآمنة والمتناغمة. ويقول ناديل إن "التحوّل الأعماق" هو أن الناس، والعلاقات فيما بينهم، أصبحت الآن من أهم أولويات السحابة. ولا يقتصر الأمر على الناس فحسب، بل يشمل علاقاتهم الشخصية، وعلاقاتهم بعناصر العمل كلها، وجدادهم وخطط مشاريعهم ومستنداتهم، وهذا كله يتجلّى الآن في تطبيق "مايكروسوفت غراف" (Microsoft Graph). وأكد ناديل أن هذا الدفع من المعلومات الإجمالية يشكّل مفتاحًا لتحسن "مستقبل الإنتاجية". (1032)

تشبه المصانع وأماكن العمل، في مجتمع مايكروسوفت الآلاتي، مختبرات سكينر، حيث تحلّ الآلات محلّ الفئران والحمام. هذه هي البيئات التي تُعدّ فيها بنية قوة الأدوات وسرعتها للانتقال إلى المجتمع في نسخة من العصر الرقمي لـ "والدن 2"، حيث تصبح علاقات الآلة نموذجًا للعلاقات الاجتماعية. ويجسّد موقع بناء ناديل نقطة التقاء عظيمة تتحد فيها الآلات والبشر كأشياء في السحابة، وكلها مبرمجة ومنظمة وفقًا "للسياسات". وتكمن روعة "السياسات" على وجه التحديد في أنها تظهر على الساحة باعتبارها نتائج مضمونة يفرضها "النظام" ويراقبها ويعمل على صيانتها تلقائيًا. إنها عناصر مُضمّنة في عمليات "الآخر الكبير"، وهي عبارة عن عدد

(1031) ناديل (الخط المائل يعود لي).

(1032) ناديل، (الخط المائل يعود لي).

لأنهائي من العقود غير المبرمة المنفصلة عن أي من العمليات الاجتماعية المرتبطة بالحوكمة الخاصة أو العامة: الصراع والتفاوض والوعد والتسوية والاتفاق والقيم المشتركة، والمنافسة الديمقراطية، والشرعية والسلطة.

النتيجة هي أن "السياسات" أصبحت مكافئة وظيفيًا للخطط، حيث يوجه "الآخر الكبير" العمل البشري والآلي. هذا يضمن أن تُقفل الأبواب أو تُفتح، وأن تتوقف محركات السيارات أو تعود إلى العمل، وأن تصرخ مطرقة الحفر "لا" في توضحية انتحارية، وأن يلتزم العامل بالأعراف، وأن تتسابق الجماعة لهزيمة الشذوذ. سنكون جميعًا بأمان بينما يتناغم كل كائن حي مع الآخرين، ولن نكون مجتمعًا بقدر ما نكون مجموعة سكانية تتقدم وتنحسر في انسجام تام يخلو من أي احتكاك، ويتشكل من خلال وسائل تعديل السلوك التي نُقلت من وعينا، وبالتالي لا يمكننا أن نقاومها أو نحزن عليها.

كما انتقل تقسيم العمل من المجال الاقتصادي إلى المجتمع في القرن العشرين، يصبح موقع بقاء ناديا بمثابة وعاء مختبر اقتصادي يتحول فيه تقسيم جديد للتعليم إلى واقع، جاهز للانتقال إلى المجتمع. واكتُشِفَت في القرن العشرين عوامل النجاح الأساسية للرأسمالية الصناعية - الكفاءة والإنتاجية والتوحيد القياسي، وقابلية التبادل، والتقسيم الدقيق للعمل، والانضباط، والانتباه، والجدولة، والتوافق، والهرمية، وفصل المعرفة عن الفعل، وما إلى ذلك - في موقع العمل، ثم نُقلت إلى المجتمع وترسّخت في المدارس والمستشفيات والحياة الأسرية والشخصية. وكما أكدت أجيال من العلماء، أصبح المجتمع مشابهًا للمصنع حيث يمكننا تدريب أصغر شخص وتنشئته ليتوافق مع متطلبات الإنتاج الضخم الجديدة.

لقد دخلنا هذه الحلقة من جديد، لكن الهدف الآن هو إعادة صياغة مجتمع القرن الحادي والعشرين باعتباره "شيئًا من الطراز الأول"، منظمًا على صورة خلية الآلة من أجل ضمان ثقة الآخرين. تُعاد الآن صياغة الترابط، الذي سعينا إليه سابقًا لتحقيق قوتنا وفعاليتنا الشخصية، باعتباره وسيلة لنوع جديد من القوة، والتقاء جهد اجتماعي

5. الالتقاء كمجتمع

يعمل علماء مايكروسوفت منذ سنوات على كيفية تطبيق منطق التحكم الاستباقي الآلي ذاته على الأجهزة الطرفية للشبكة، ونقله إلى العلاقات الاجتماعية. وكما لاحظ ناديلام عام 2017، إذا استطعنا "فعل ذلك في مكان ملموس"، فيمكن تطبيقه "في كل مكان" و"أي مكان". نصح جمهوره من الطوباويين التطبيقيين قائلًا: "يمكنكم البدء بالتفكير في الناس، والعلاقات فيما بينهم، وعلاقتهم بالأشياء الموجودة في المكان...". (1033)

يتجلى النطاق الخيالي لهذا التفكير الجديد في طلب براءة اختراع تقدّمت به شركة مايكروسوفت في عام 2013، وتم تحديثه وإعادة نشره في عام 2016 تحت عنوان "مراقبة سلوك المستخدم على جهاز محوسب". (1034) وباستخدام نظرية رقيقة بشكل واضح تكملها ممارسة سميكة، صمّم الجهاز الحاصل على براءة اختراع لمراقبة سلوك المستخدم من أجل الكشف بشكل استباقي عن "أي انحراف عن السلوك الطبيعي أو المقبول والذي من المرجح أن يؤثر على الحالة العقلية للمستخدم. إذ يمكن مقارنة نموذج التنبؤ المطابق لسمات حالة ذهنية معينة أو أكثر بالسمات المستندة إلى سلوك المستخدم الحالي".

اقترح العلماء تطبيقًا يمكن وضعه في نظام التشغيل أو الخادم أو المتصفح أو الهاتف أو الجهاز القابل للارتداء بهدف المراقبة المستمرة لسلوك شخص معين: تفاعله مع أشخاص آخرين أو مع أجهزة حاسوب، ومع منشورات وسائل التواصل الاجتماعي، واستعلامات البحث، والأنشطة عبر الإنترنت. قد يقوم التطبيق بتنشيط أجهزة استشعار لتسجيل الصوت والكلام ومقاطع الفيديو والصور والحركة، مثل

(1033) ناديلام.

(1034) إيلاد يوم-توف وآخرون، مراقبة سلوك المستخدم على جهاز محوسب، B2 9427185 US، المقدم في 20 يونيو 2013، والصادر في 30 أغسطس 2016.

اكتشاف "متى يدخل المستخدم حالة صراخٍ مفرط من خلال فحص مكالمات المستخدم الهاتفية ومقارنة الميزات ذات الصلة بنموذج التنبؤ".

تُخزّن هذه البيانات السلوكية كلها لتحليلها لاحقًا بهدف تحسين نموذج التنبؤ. إذا كان المستخدم ذا صوت منخفض عادة، فقد يشير صراخه المفاجئ إلى "حدث نفسي اجتماعي". ويمكن تقييم السلوك فيما يتعلق بـ "توزيع السمات الذي يمثل السلوك الطبيعي و/أو المقبول لشخص عادي من السكان... يشير الانحراف المهم إحصائيًا عن خط الأساس هذا إلى عدد من الأحداث النفسية المحتملة". الفكرة الأولية هي أنه في حال حدوث أي خلل، يُنبّه الجهاز "الأشخاص الموثوق بهم" كأفراد العائلة والأطباء ومقدمي الرعاية. لكن نطاق هذه الفكرة يتسع مع تطور مواصفات براءة الاختراع. ويُشير العلماء إلى فائدة التنبيهات لمقدمي الرعاية الصحية وشركات التأمين وموظفي إنفاذ القانون. هذه فرصة جديدة للمراقبة باعتبارها خدمة، مُصممة لاستباق أي سلوك يختاره العملاء.

تُعيدنا براءة اختراع مايكروسوفت إلى بلانك وماير وسكينر ووجهة النظر عن "الآخر". ففي تمثيلهم الفيزيائي للسلوك البشري، تُعتبر الشذوذات "حوادث" تُسمى حرية، لكنها في الواقع تُشير إلى الجهل؛ وببساطة شديدة، لا يمكن وصفها بالحقائق حتى الآن. اعتقد كل من بلانك/ماير/سكينر أن التنازل عن هذه الحرية هو الثمن الضروري الذي يجب أن يُدفع مقابل "السلامة" و"الانسجام" في مجتمع خالٍ من الشذوذ حيث يتم تحسين العمليات كلها من أجل الصالح العام. تصوّر سكينر أنه باستخدام تكنولوجيا سلوك صحيحة، يمكن للمعرفة أن تقضي مسبقًا على الشذوذ، مما يدفع السلوك نحو معايير محددة مسبقًا تتوافق مع المعايير والأهداف الاجتماعية. يقول سكينر: "إذا تمكنا من إظهار أن الأعضاء الممثلين في رواية "والدن 2" يفضلون العيش في "والدن 2"، فسيكون ذلك أفضل دليل ممكن على أننا وصلنا إلى بنية اجتماعية آمنة ومنتجة". (1035)

في هذا النموذج من العلاقات الاجتماعية، يعمل تعديل السلوك خارج حدود الوعي البشري على تحفيز السلوك المتوافق مع "السياسات الصحيحة، ومكافأته ومعاقبته وحثه وتعزيزه. وهكذا، يتعلّم فيسبوك أنه قادر على التأثير بشكل متوقع على أنماط التصويت، والحالات العاطفية، أو أي شيء آخر يختاره. ويتعلّم موقعاً "نيانتيك لابز" (Niantic Labs) وغوغل أنها قادران على إثراء صافي أرباح "ماكدونالدز" أو أي عميل آخر بشكل متوقع. في كلتا الحالتين، تحدد أهداف الشركة "السياسات" التي ينسجم معها السلوك المترابط بانسجام.

إن خلية الآلة - لقاء العقول الذي أنشأه التعلّم الآلي - هي الوسيلة المادية للقضاء النهائي على العناصر الفوضوية التي تتداخل مع النتائج المضمونة. ويؤكد إيريك شميدت وسيباستيان ثرون، خبير الذكاء الاصطناعي الذي أدار سابقاً مختبر "غوغل إكس"، وساهم في إدارة تطوير خدمة "ستريت فيو" و"سيارة غوغل ذاتية القيادة"، على هذه النقطة في دعمهما لمركبات "ألفابت" ذاتية القيادة. وقالوا: "دعنا نتوقف عن الشعور بالهلع من الذكاء الاصطناعي".

يؤكد شميدت وثررون على "الرؤية الحاسمة التي تميّز الذكاء الاصطناعي عن الطريقة التي يتعلّم بها البشر".⁽¹⁰³⁶⁾ بدلاً من التأكيدات النمطية بأن بالإمكان تصميم الآلات لتكون أكثر شبهاً بالبشر، وبالتالي أقل تهديداً، يجادل شميدت وثررون بنقيض هذه الفكرة تماماً: من الضروري أن يصبح البشر أكثر شبهاً بالآلات. لقد أصبح الذكاء الآلي بمثابة ذروة العمل الجماعي حيث تتحرك الآلات كلها في نظام شبكي بسلاسة نحو اجتماعيها كلها معاً، حيث تتقاسم جميعها الفهم ذاته، وبالتالي تعمل في انسجام مع أقصى قدر من الكفاءة لتحقيق النتائج ذاتها. لا يقيّم العاملون على المطارق الهيدروليكية وضعهم بشكل مُستقلّ؛ بل يتعلّم كلٌّ منهم ما يتعلّمه الآخرون. يستجيبون جميعاً بالطريقة ذاتها للأيدي غير المؤهلة، حيث تعمل عقولهم كوحدة واحدة في خدمة "السياسة". تصمد الآلات أو تسقط معاً، وتُصيب أو تُخطئ معاً.

(1036) إيريك شميدت وسيباستيان ثرون، "دعنا نتوقف عن الشعور بالهلع من الذكاء الاصطناعي"، مجلة فورتشن، 28 يونيو 2016.

ويقول شميدت وثرון بطريقة تنم عن الرثاء:

أثناء قيادة السيارة، غالبًا ما يتعلّم البشر من أخطائهم، ونادرًا ما يتعلّمون من أخطاء الآخرين. ويرتكب البشر الأخطاء ذاتها مرارًا وتكرارًا. لذلك يموت الآلاف حول العالم سنويًا في حوادث مروية. أما الذكاء الاصطناعي فيتطوّر بشكل مختلف. عندما ترتكب إحدى السيارات ذاتية القيادة خطأ معينًا، تتعلّم جميع السيارات ذاتية القيادة من تلك السيارة. في الواقع، تولّد السيارات ذاتية القيادة الجديدة ولديها مجموعة كاملة من مهارات أسلافها ونظيراتها. لذلك تستطيع هذه السيارات مجتمعة أن تتعلّم أسرع من البشر. وبفضل هذه الرؤية، اندمجت السيارات ذاتية القيادة بأمان على طرقنا إلى جانب السائقين البشر، حيث استمرّت إحداها في التعلّم من أخطاء الأخرى ...

ستمكننا الأدوات المتطورة المدعومة بالذكاء الاصطناعي من التعلّم بشكل أفضل من تجارب الآخرين... الدرس الذي يجب أن نستفيد منه من السيارات ذاتية القيادة هو أننا نستطيع التعلّم وإنجاز المزيد بشكل جماعي. (1037)

هذا بيان موجز، لكنه استثنائي، لنموذج الآلة في العلاقات الاجتماعية لمجتمع الآلات. ويقوم جوهر هذه الحقائق على أن الآلات، أولاً، ليست أفرادًا، وثانيًا، ينبغي أن نكون أشبه بالآلات. تحاكي الآلات إحداها الأخرى، وعلينا نحن أيضًا أن نقوم بالأمر ذاته. تتحرك الآلات وتلتقي، لكنها لا تلتقي في عدّة أنهار بل في نهر واحد، وعلينا أيضًا أن نكون كذلك. وتُبنى الآلات كلها على المنطق ذاته، وتتدفق نحو الهدف ذاته، وهكذا يجب أن نكون منظّمين.

يدمج مستقبل الآلات هذه الرؤية التكافلية التي يعمل فيها عالم الآلة والعالم الاجتماعي بتناغم داخل "الأنواع" وعبرها، حيث يُحاكي البشر عمليات التعلم المتفوقة للآلات الذكية. ولا يُقصد بهذه المحاكاة العودة إلى تايلورية الإنتاج الضخم أو عامل تشابلق التعيس الذي ابتلعه النظام الميكانيكي. بل تأخذ وصفة التكافل هذه مسارًا مختلفًا، يعكس فيه التفاعل البشري علاقات الآلات الذكية، ويتعلّم الأفراد

التفكير والتصرّف من خلال محاكاة أحدهم الآخر، تمامًا مثل السيارات ذاتية القيادة، ومطارق الضغط التي تُبجّل السياسة.

بهذه الطريقة، تصبح خلية الآلة نموذجًا يُحتذى به لخلية بشرية جديدة، نسير فيها بسلامٍ وانسجامٍ بالاتجاه ذاته، استنادًا إلى الفهم "الصحيح" ذاته، من أجل بناء عالمٍ خالٍ من الأخطاء والحوادث والفوضى العشوائية. تكون النتائج "الصحيحة" في عالمٍ كهذا معروفةً مسبقًا ومضمونةً في العمل. إن الآلات والشفافية ذاتها، الموجودة في كل مكان، والتي تحدد نظام الآلة، يجب أن تحدد أيضًا النظام الاجتماعي الذي هو في نهاية المطاف طريقة أخرى لوصف الحقيقة الأساسية للمجتمع الآلي.

تُسلب في هذه الخلية البشرية الحرية الفردية للمعرفة والعمل الجماعيين. إذ تُستهدف العناصر غير المنسجمة استباقياً بجراحات عالية من التناغم والتوجيه والتكيف، بما في ذلك القوة الجذابة للإقناع والتأثير الاجتماعيين. نسير في يقين، كآلات الذكية. ونتعلّم التضحية بحريتنا في سبيل المعرفة الجماعية التي يفرضها الآخرون، وفي سبيل نتائجهم المضمونة. هذه هي سمة الحداثة الثالثة التي يقدمها رأسمال المراقبة كإجابة على سعيينا نحو حياة مشتركة فعّالة.

الفصل الخامس عشر

المجموعة الآلية

هكذا انتهى عصر، ورحل آخر مُخلّصيه في فراشه،
عاطلاً عن العمل وتعييس؛ كان آمناً:
لن يسقط ظلّ عجل عملاق ضخم فجأة
عند الغسق على مروجهم في الخارج.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، X

1- كهنة السلطة الآلية

لا يُفصح المديرون التنفيذيون الطوباويون التطبيقيون، مثل بيج وناديل
وزوكيرج، كثيراً عن نظرياتهم. في أحسن الأحوال، المعلومات المتوفرة لدينا سطحية
ومتقطعة. لكن نخبة من علماء البيانات و"علماء الاجتماع المختصين بالحاسوب"
قفزوا إلى هذا الفراغ بتقارير تجريبية ونظرية مُفصّلة عن الزخم المتزايد للقوة الآلية،
مُقدمين بذلك رؤية قيمة حول المبادئ الاجتماعية للمجتمع الآلي.

من الأمثلة البارزة على ذلك عمل أليكس بنتلاند، مدير مختبر الديناميكيات البشرية
ضمن مختبر الوسائط بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. يُعد بنتلاند أحد
الطوباويين التطبيقيين النادرين، فقد سعى، بالتعاون مع طلابه وزملائه، إلى بلورة
نظرية المجتمع الآلي، وبحثها، ونشرها، بالتوازي مع ابتكاراته التقنية وتطبيقاته
العملية الكثيرة. إن الدراسات التي أنتجتها هذه المجموعة هي إشارة معاصرة إلى رؤية

عالية أصبحت أمرًا مسلمًا به بين علماء البيانات الذين توجد نظرياتهم وابتكاراتهم الحاسوبية في تفاعل ديناميكي مع تقدم رأسمالية المراقبة، كما هو الحال في حوسبة بيكاردا العاطفية، وعلم باراديسو الرقمي. لكن قلة من الناس تفكر في التداعيات الاجتماعية لعملهم مع رؤية بنتلاند وقناعته، مما يوفر لنا فرصة لا تقدر بثمن لاستكشاف افتراضات الحوكمة، والمبادئ المجتمعية، والعمليات الاجتماعية التي تحدد المجتمع الآلي بشكل نقدي. ويقوم هدي هنا على استنتاج النظرية الموجودة خلف هذه الممارسة، حيث يدمج رأسماليو المراقبة "المجتمع" باعتباره "كائنًا من الدرجة الأولى" للتسليم والحوسبة والتعديل وتحقيق الدخل والسيطرة.

يُعدّ بنتلاند مؤلفًا غزير الإنتاج، أو مؤلفًا مشاركًا في مئات المقالات والدراسات البحثية في مجال علوم البيانات وهو ممثل مؤسسي بارز يقدم المشورة لمجموعة من المنظمات، بما في ذلك المنتدى الاقتصادي العالمي، ومؤسسة "داتا بوب ألاباز"، وشركات غوغل ونيسان وتليفونيكيا، ومكتب الأمين العام للأمم المتحدة. ويُمَوِّل مختبر بنتلاند الخاص للأبحاث من قِبَل نخبة من الشركات العالمية وشركات الاستشارات والحكومات: غوغل، سيسكو، "أي بي إم"، ديلويت، فيرزون، مفوضية الاتحاد الأوروبي، الحكومة الأمريكية، الحكومة الصينية، "وكذلك العديد من الكيانات التي تهتم كلها بمعرفة سبب عدم معرفتنا بما يحدث في العالم...." (1038)

مع أن بيتلاند ليس الوحيد في هذا المجال، إلا أنه يُعدّ بمثابة رئيس كهنة ضمن مجموعة حصرية من الكهنة. وعلى النقيض من هال فاريمان، لا يتحدث بنتلاند عن غوغل بصيغة المتكلم، لكن أعماله تُعرض ضمن رأسمالية المراقبة، حيث تُوفّر الدعم المادي والفكري الذي يُساعد على إضفاء الشرعية على الممارسات الآلية. وفي عرض تقديمي في غوغل، حيث يشغل بنتلاند منصب عضو في المجلس الاستشاري لمجموعة التكنولوجيا المتقدمة والمشاريع، قدّم طالب الدكتوراه السابق لدى بنتلاند

(1038) أليكس بنتلاند، "صفحة أليكس بنتلاند الرئيسية - إشارات صادقة، واستخراج الحقائق، ومنظمات عاقلة"، 2 فبراير 2016؛ "أليكس بنتلاند - السيرة الذاتية"، المنتدى الاقتصادي العالمي، 28 فبراير 2018؛ إيدج فيديو، "الاستراتيجية الإنسانية: حوار مع أليكس "ساندي" بنتلاند"، 30 أكتوبر 2017.

والمدير التنفيذي الأعلى في غوغل، براد هورويتز معلّمه باعتباره "معلّمًا ملهمًا" يتمتّع بمؤهلات في العديد من التخصصات، ويقود طلابه السابقون العلوم الحاسوب من الناحية النظرية والتطبيقية. (1039)

غالبًا ما يُشار إلى بتتلاند بأنه "عَرّاب الأجهزة القابلة للارتداء"، ولا سيما نظارة غوغل. فقد تنبأ في عام 1988 بأن بإمكان هذه الأجهزة "أن تُوسّع حواس المرء، وتُحسّن الذاكرة، وتُحسّن حياته الاجتماعية، بل وتساعد على الحفاظ على هدوئه وتماسكه". (1040) وقد قام ثاد ستارنر، أحد طلاب الدكتوراه لدى بتتلاند، بتطوير جهاز بدائي "قابل للارتداء" أثناء وجوده في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وعيّنه سيرجي برين عام 2010 لمواصلة هذا العمل في غوغل: وهو المشروع الذي أنتج نظارة غوغل. وساهم أكثر من خمسين طالب دكتوراه من طلاب بتتلاند في نشر الرؤية الآلية في أرقى الجامعات، ومجموعات البحث في قطاع الصناعة، وفي ثلاثين شركة يشارك فيها بتتلاند بصفته مؤسسًا مشاركًا أو راعيًا أو مستشارًا. يطبق كلٌّ منهم جانبًا من نظرية بتتلاند وتحليلاته وابتكاراته على أشخاص حقيقيين في مؤسسات ومدن. (1041)

تساعد المؤهلات الأكاديمية التي يتمتّع بها بتتلاند، وذكاءه الواسع، في إضفاء الشرعية على رؤية اجتماعية كانت تثير نفور المثقفين والمسؤولين الحكوميين وعامة الناس وقلقهم قبل عقود قليلة فقط. والأهم من ذلك أن بتتلاند "يكمل" سكينر، ويحقّق رؤيته الاجتماعية من خلال البيانات الضخمة، والأجهزة الرقمية المنتشرة في كل مكان، والرياضيات المتقدمة، والنظرية الشاملة، والعديد من المؤلفين المشاركين المحترمين، والشرعية المؤسسية، والتمويل السخي، وأصدقاء من الشركات من مناصب عليا دون إثارة ردود أفعال عالمية عنيفة، واشمئزاز أخلاقي، ونقد جارح كان

(1039) محاضرات في غوغل، ساندي بتتلاند: "الفيزياء الاجتماعية: كيف تنتشر الأفكار الجيدة"، موقع يوتيوب، 7 مارس/آذار 2014.

(1040) ماريا كونيكوفا، "تعرف على الأب الروحي للأجهزة القابلة للارتداء"، فيرج، 6 مايو 2014.

(1041) "أليكس بتتلاند"، ويكيبيديا، 22 يوليو 2017؛ كونيكوفا، "لقاء العَرّاب": ديف فينيليب، "ثلاث رؤى في البيانات الضخمة من جدّ نظارة غوغل"، فوربس، 17 أكتوبر 2012.

يوجّه سابقاً إلى سلوكيّ جامعة هارفارد الصريح. تشير هذه الحقيقة وحدها إلى عمق الخدر النفسي الذي استسلمنا له، وفقداننا لاتجاهاتنا الجماعية.

يُعتبر بنتلاند، مثل سكينر، مصمّمًا للطوباويات، ومفكّرًا نبيلًا يُسارع إلى التعميم من الحيوانات إلى كامل مسار البشرية. وهو أيضًا مهندسٌ بارعٌ في العمارة العملية والتحديات الحسابية المرتبطة بالآلية. ويُطلَق على نظريته في المجتمع اسم "الفيزياء الاجتماعية"، وهو مفهومٌ يُؤكد أنه "ب. ف. سكينر" هذا القرن، بطرق بلانك وماير وماكاي.⁽¹⁰⁴²⁾ وعلى الرغم من أن بنتلاند لم يذكر السلوكي القديم إطلاقًا، إلا أن كتابه "الفيزياء الاجتماعية" يستحضر رؤية سكينر الاجتماعية في القرن الحادي والعشرين، والتي تحققت الآن بفضل الأدوات التي أفلتت من سكينر في حياته. ويثبت بنتلاند صحة الدافع الآلي من خلال البحث والنظرية التي تركز بجرأة على منطق سكينر الأخلاقي ونظريته في المعرفة كما تم فهمها من وجهة نظر "الآخر".

بدأ البروفيسور بنتلاند رحلته الفكرية على غرار سكينر، في دراسة سلوك الحيوان. وبينما ركّز سكينر تفكيره على السلوكيات التفصيلية لمخلوقات بريته، اهتم بنتلاند بالسلوكيات الفظيعة لجماعات الحيوانات. وباعتباره باحثًا بدوام جزئي في معهد أبحاث البيئة التابع لوكالة ناسا أثناء دراسته الجامعية، فقد طوّر طريقة لتقييم أعداد القنادس الكندية من الفضاء عن طريق حساب عدد برك القنادس: "أنت تراقب نمط

(1042) يعود أصل مصطلح الفيزياء الاجتماعية إلى فلسفة أوغست كونت الوضعية، الذي سبق بلانك في رؤيته لمنهج علمي لدراسة المجتمع يُضاهي دقّة العلوم الطبيعية. في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، كتب كونت ما يلي: "بعد أن أسس العقل البشري الفيزياء السماوية، والفيزياء الأرضية... والفيزياء العضوية... لم يبقَ إلا استكمال منظومة العلوم الرصدية بتأسيس الفيزياء الاجتماعية". انظر: أوغست كونت، مقدمة في الفلسفة الوضعية، تحرير فريدريك فيري (إنديانابوليس: هاكيت، 1988)، 13.

بعد ما يقرب من مائتي عام، جعلته نظرية بنتلاند وأبحاثه في الفيزياء الاجتماعية محورًا لمقالات في صحيفة نيويورك تايمز وهارفارد بيزنس ريفيو ونيويورك ركر، بالإضافة إلى كونه متحدثًا بارزًا في الدوائر العلمية، من الأمم المتحدة والمنتهى الاقتصادي العالمي إلى الشركات والمؤتمرات الدولية. وقدمته شركتنا مايكروسوفت وغوغل بصفته "العبقري الرئيس" لثورة البيانات الضخمة"، حيث جعلت "تجاربه الرائدة" و"اكتشافاته الرائعة" من عمله "حجر الأساس لمجال علمي جديد تمامًا". مع نشر كتابه "الفيزياء الاجتماعية"، قدّمه محلّل وسائل التواصل الاجتماعي الشهير كلاي شيري، في مؤتمر تصميم الحياة الرقمية الشهير في عام 2014، بالقول إن مختبر الديناميكيات البشرية التابع لبنتلاند "قد ساهم في تفسير السلوك البشري في المجموعات في السنوات العشر الماضية أكثر مما ساهمت به أية مؤسسة أخرى في العالم".

يبدو أن هذه التجربة قد جعلت بنتلاند متعلّقًا بعيدة ومنفصلة أشار إليها لاحقًا باسم "عين السماء". ربما تكون قد اختبرت إحساس رؤية السماء من مقعد قرب نافذة في طائرة وهي تعلو بك فوق المدينة، محوّة الأفراح والأحزان في الأسفل إلى صخب نمل صامت. سرعان ما يتلاشى هناك أي شعور بـ "نحن" في منظور "الآخر"، وهذه الزاوية من الملاحظة هي التي أسست علم بنتلاند عندما تعلّم تطبيق مبادئ ماكاي للمراقبة عن بعد، والتحفيز عن بعد، على البشر: "إذا فكّرت في أشخاص يتحدثون في الجانب الآخر من الغرفة، يمكنك معرفة الكثير... يشبه الأمر مراقبة القنادس من الفضاء الخارجي، كما تراقب جين غودال الغوريلا. أنت تراقب من بعيد". (1044)

(بطبيعة الحال، يتضمن هذا الوصف إساءة فهم لغودال التي تمثّلت عبقريتها الأساسية في قدرتها على فهم الغوريلا التي لم تدرسها باعتبارها "أخرى"، بل باعتبارها "واحدة منا").

أصبحت رؤية السماء أساسية لمفهوم المجتمع الآلي، لكن الصورة الشاملة ظهرت تدريجيًا على مدى سنوات من التجارب المجزأة. سنتّبع في القسم التالي تلك الرحلة التي تعلّم فيها بنتلاند وطلّابه كيفية تمثيل السلوك الاجتماعي وقياسه وحسابه. وبناءً عليه، تنتقل إلى كتاب بنتلاند بعنوان "الفيزياء الاجتماعية" (Social Physics)، الذي يهدف إلى إعادة صياغة المجتمع بوصفه عقلًا جماعيًا آليًا - مثل آلات ناديبلا - لكنه يتخذ طابعًا نظريًا واسع النطاق، ويستحضر بعمق صياغات سكينر وقيمه ونظريته للعالم، ورؤيته للمستقبل البشري.

2- عندما يلتهم "الآخر الكبير" المجتمع: تسليم العلاقات الاجتماعية

أعرب سكينر عن أسفه الشديد لعدم وجود "أدوات وأساليب" لدراسة السلوك البشري مماثلة لتلك المتاحة لدى الفيزيائيين. وفيما يبدو ردًا على ذلك، أمضى بنتلاند

(1043) كونيكوفا، "التعرّف على العزّاب".

(1044) كونيكوفا.

وطلابه العقدين الماضيين عازمين على ابتكار الأدوات والأساليب التي يمكنها تحويل السلوك البشري بأكمله، ولا سيما السلوك الاجتماعي، إلى رياضيات تنبؤية للغاية. وكان أحد المنعطفات المبكرة في هذا المجال في عام 2002، هو التعاون مع طالبة الدكتوراه آنذاك تانزيم تشودري، حيث كتب المؤلفان المشاركان: "بقدر ما نعلم، لا توجد حاليًا طرق متاحة لنمذجة التفاعلات وجهًا لوجه بشكل تلقائي. ربما يعود ذلك إلى صعوبة الحصول على قياسات موثوقة من التفاعلات الواقعية داخل المجتمع... نعتقد أن استشعار التفاعلات المادية بين الناس ونمذجتها مورد غير مستغل.⁽¹⁰⁴⁵⁾ وبعبارة أخرى، ظل "الاجتماعي" مجالًا بعيد المنال حتى مع انتشار البيانات وأجهزة الحاسوب على نحو أكثر شيوعًا.

تمثلت استجابة الباحثين في تقديم "مقياس الاجتماع"، وهو جهاز استشعار قابل للارتداء يجمع بين الميكروفون ومقياس التسارع واتصال بلوتوث وبرامج تحليلية وتقنيات التعلم الآلي المصممة لاستنتاج "البنية والعلاقات الديناميكية" في المجموعات البشرية.⁽¹⁰⁴⁶⁾ (ستتولى تشودري في نهاية المطاف إدارة مجموعة الحوسبة الواعية للناس في جامعة كورنيل). ومنذ تلك النقطة فصاعدًا، عمل بنتلاند وفريقه على فك شفرة أدوات وآليات العمليات الاجتماعية باسم رؤية اجتماعية شمولية تقوم على وسيلة شاملة لتعديل السلوك.

ثمة دراسة مشتركة أخرى، أجريت عام 2005 مع طالب الدكتوراه ناثان إيغل، مشكلة عدم كفاية البيانات حول المجتمع البشري، مشيرة إلى "التحيز وندرة البيانات والافتقار إلى الاستمرارية" في فهم العلوم الاجتماعية للسلوك البشري، وما ينتج عن ذلك من "غياب البيانات الكثيفة المستمرة الذي يعيق أيضًا مجتمعات التعلم الآلي والنمذجة القائمة على الوكلاء من بناء نماذج تنبؤية أكثر شمولًا للديناميكيات

(1045) تانزيم تشودري وأليكس بنتلاند، "مقياس التفاعل الاجتماعي: جهاز يمكن ارتداؤه لفهم الشبكات البشرية" (بحث العمل التعاوني المدعوم بالحاسوب - ورشة عمل حول الاتصالات والتعاون المخصص في بيانات الحوسبة الشاملة)، 2 نوفمبر/ تشرين الثاني 2002.
(1046) تشودري وبنتلاند.

البشرية".⁽¹⁰⁴⁷⁾ أصر بتلاند على أنه من غير الممكن، حتى لمجال "استخراج البيانات" الجديد نسبياً التقاط "الفعل الحقيقي" للمحادثات والتفاعلات المباشرة اللازمة لفهم دقيق وشامل للسلوك الاجتماعي.⁽¹⁰⁴⁸⁾ لكنه أدرك أيضاً أن قطاعاً سريع النمو من النشاط البشري — من المعاملات إلى الاتصالات — أصبح يخضع بشكل متزايد للوساطة الحاسوبية، ويعزى ذلك بشكل كبير إلى انتشار الهاتف المحمول.

رأى الفريق أنه من الممكن استغلال البنية التحتية المتزايدة الانتشار للهواتف المحمولة، ودمج تلك البيانات مع تدفقات جديدة من المعلومات من أجهزة مراقبة السلوك القابلة للارتداء. وكانت النتيجة حلًا جذريًا جديدًا أطلق عليه بتلاند وإيغل اسم "التنقيب عن الواقع". وأظهر المرشد والطالب كيف يمكن استخدام بيانات الهواتف المحمولة "لكشف القواعد والبنية المنتظمة في سلوك الأفراد والمنظمات على حد سواء"، وبالتالي تعزيز التقدم في التقاط الفائض السلوكي وتحليله، والإشارة إلى الطريق نحو التحول الأكبر في طبيعة نزع الملكية السلوكي من الافتراضي إلى الفعلي إلى التجربة الاجتماعية.⁽¹⁰⁴⁹⁾ وباعتبار إعلان الباحثين، بأن "الواقع" أصبح الآن لعبة عادلة ممكنة للتقاط الفائض السلوكي والبحث عنه واستخراجه وتسليمه وتحويله إلى بيانات وتحليله والتنبؤ به والتدخل فيه، كان معلماً تكنولوجياً وثقافياً، فقد ساعد في تمهيد الطريق نحو ممارسات جديدة ستصبح في نهاية المطاف "عمل الواقع".

بدأ بتلاند وإيغل، مع مئة طالب وعضو هيئة تدريس من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في مختبر الوسائط، بجمع مئة هاتف نوكيا محملة مسبقاً ببرامج خاصة في مشروع أصبح أساس أطروحة الدكتوراه الخاصة بإيغل. وكشف الباحثان عن قوة البيانات السلوكية التي تُجمع باستمرار، ويتم التحقق من صحتها من خلال معلومات

(1047) نانان إيغل وأليكس بتلاند، "استخراج الواقع: استعمار الأنظمة الاجتماعية المعقدة"، الحوسبة الشخصية والمنشرة 10، رقم 4 (2006): 255.
(1048) أليكس بتلاند، "استخراج الواقع" من المنظمة، راجعة تكنولوجيا معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 31 مارس 2004.
(1049) إيغل وبتلاند، "استخراج الواقع".

المسح التي جُمِعت مباشرة من كل مشارك. ونتج عن تحليلاتهم صوراً تفصيلية عن الحياة الفردية والجماعية: أو ما أطلق عليه المؤلفون "النظام الاجتماعي". وتمكّن الباحثون من تحديد أنماط زمنية ومكانية منتظمة للموقع والنشاط وأنماط استخدام الاتصالات، ومكتبتهم كل تلك البيانات مجتمعة من التنبؤ بدقة تصل نسبتها إلى 90٪ فيما يتعلق في الموقع الذي يُحتمل أن يكون فيه شخص معين، وما الذي يُرجح أن يفعله هذا الشخص في غضون ساعة، فضلاً عن التنبؤات الدقيقة للغاية حول زملائه في العمل وأصدقائه العابرين وعلاقاته الوثيقة. حدّد الفريق أنماط التواصل والتفاعل داخل مجموعات العمل، بالإضافة إلى "الإيقاعات التنظيمية وديناميكيات الشبكات" العامة لمختبر الوسائط. (أصبح إيغل الرئيس التنفيذي لشركة "جانا" (Jana)، وهي شركة إعلانات متنقلة تقدم إنترنت مجاني للأسواق الناشئة مقابل فائض سلوكي).

مع استمرار تطوّر نظرية استخراج الواقع وممارسته في مختبر بتتلاند، ومشاريع العمل والنظريات، اختارت مجلة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا موضوع "استخراج الواقع" باعتباره أحد "عشر تقنيات رائدة" في عام 2008. وقال بتتلاند: "لقد أنشأت أنا وطلابي منصتين لقياس السلوك لتسريع تطوير هذا العلم الجديد. تُنتج هاتان المنصتان اليوم كميات هائلة من البيانات الكمية لمئات المجموعات البحثية حول العالم". (1050)

كما نعلم، هذا الولاء للسرعة ليس وصفاً عابراً، بل هو عنصر أساسي في فنّ الطبواويات التطبيقية وعلمه. يفهم بتتلاند التعديلات السريعة "للاّخر الكبير" والقوة الآلية باعتبارها "علماً فائق الترابط بسرعة الضوء"، حيث يمكن لحشود افتراضية من ملايين الأشخاص من أي مكان في العالم "أن تتشكّل في دقائق". يرى بتتلاند مجتمع معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) مجتمعاً طليعيّاً: رواداً لامعين في مجال سرعة الضوء، متناغمين بالفعل مع سرعاتها الفائقة، وبالتالي يُمثلون نموذجاً يُحتذى به في

(1050) كيت غرين، "TR10: استخراج الواقع"، مراجعة تكنولوجيا معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 19 فبراير/ شباط 2008: أليكس بتتلاند، الفيزياء الاجتماعية: كيف تنتشر الأفكار الجديدة - الدروس المستفادة من علم جديد (برونزويك، نيوجيرسي: سكراب، 2014)، 217-218.

المجتمع. وقال في معرض حديثه عن طلابه وزملائه: "لقد أدركتُ أيضًا كيف يجب أن تتغير الثقافات الإبداعية لتزدهر في عالم معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا فائق الترابط والسرعة، وهي بيئةٌ يدخلها العالم الآن".⁽¹⁰⁵¹⁾ ويرى بنتلاند أن تكيف مجموعته مع معايير معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا في النشر السريع ينذر ببساطة بما ينتظرنا.

في إشادة حماسية، من مجلة معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا عام 2008، بموضوع "استخراج الواقع"، أشارت المجلة إلى حقائق فائض السلوك، التي كانت لا تزال جديدة ومقلقة آنذاك: "يشعر بعض الناس بالقلق من ضياع فئات الخبز الرقمي. لكن ساندي بنتلاند يستمتع بذلك". فهو يريد أن يرى الهواتف تجمع "مزيدًا من المعلومات" عن مستخدميها: "إنها وجهة نظر مثيرة للاهتمام من منظور فوق-بشري".⁽¹⁰⁵²⁾ ويشيد بنتلاند في مقالاته بانتظام بـ "القوة التنبؤية للفئات الرقمية"، مُنغمسًا في التعابير المملّقة والتبريرات المُضلّلة التي تُعتبر مُعتادة لدى ممارسي رأسمالية المراقبة، والتي تساهم في إضفاء طابع طبيعي على نزاع ملكية التجربة الإنسانية. إذ يقول مثلًا:

بينما نمارس حياتنا اليومية، نترك وراءنا فئات خبز افتراضي - سجلات رقمية للأشخاص الذين نتصل بهم، والأماكن التي نزورها، والأطعمة التي نأكلها، والمنتجات التي نشترها. يروي هذا الفئات قصة حياتنا بدقة أكبر من أي شيء نختار الكشف عنه عن أنفسنا... يُسجّل فئات الخبز الرقمي سلوكنا كما حدث فعلاً.⁽¹⁰⁵³⁾

كان بنتلاند من أوائل من أدركوا الأهمية التجارية للفائض السلوكي. ورغم أنه لم يناقشه صراحةً، إلا أنه يبدو متبنياً للواقعية السياسية لرأسمالية المراقبة كشرط ضروري للمجتمع الآلي. وتُعدُّ شركات بنتلاند امتدادات لطوباوياته التطبيقية: فهي توفر

(1051) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 2-3.

(1052) غرين، "تي. آر. 10".

(1053) أليكس بنتلاند، "المجتمع القائم على البيانات"، مجلة ساينتفك أمريكان 309 (أكتوبر 2013):

أرضية لتقنيات الإدارة الآلية وتعويد السكان على التسليم الشامل والمراقبة والتعديل سعيًا وراء عائدات المراقبة. وقد أدرك منذ البداية أن استخراج الواقع هو المدخل إلى عالم فرص تجارية جديد. ففي عام 2004، أكد أن الهواتف المحمولة والأجهزة الأخرى القابلة للارتداء ذات "القوة الحاسوبية الهائلة" سوف توفر "الأساس" لاستخراج الواقع باعتباره "مجموعة جديدة ومثيرة من تطبيقات الأعمال". لطالما كانت الفكرة هي أن الشركات قادرة على استخدام فهمها المتميز للواقع لتوجيه سلوكياتها نحو تعظيم أهدافها التجارية. ويصف عملاً تجريبياً جديداً مكّنت فيه تقنية التعرف على الكلام من إنشاء "ملفات تعريف للأفراد بناءً على الكلمات التي يستخدمونها"، مما مكّن المدير من "تشكيل فريق من الموظفين يتمتعون بسلوك ومهارات اجتماعية متناغمة". (1054)

أوضح بنتلاند وإيغل، في مقالتهما المنشورة عام 2006، أن بياناتهما ستكون "ذات قيمة كبيرة في مكان العمل"، وقد تقدم الاثنان بشكل مشترك ببراءة اختراع لـ "شبكة راديو قصيرة المدى مشتركة مع شبكة هاتف خلوي للاتصالات بين الأشخاص" والتي من شأنها أن تضيف إلى مخزونها أدوات مُتاحة لاستخراج الواقع. (1055) صرح إيغل لمجلة وايرد في ذلك العام أن من شأن دراسة استخراج الواقع، الذي يُمثّل "مجموعة بيانات غير مسبقة حول السلوك البشري المستمر"، إحداث ثورة في دراسات المجموعات وتقديم تطبيقات تجارية جديدة. وقيل إنه يُجري "مبادرات" مع شركة كبيرة ترغب بالفعل في تطبيق أدواته وأساليبه. (1056) وجادل بنتلاند أن المعلومات التي جُمِعت بواسطة أجهزة قياس التفاعل الاجتماعي التي ابتكرها — "أجهزة استشعار غير مزعجة يمكن ارتداؤها" تقيس التواصل، ونبرة الصوت، ولغة الجسد — "قد تساعد المدراء على فهم من يعمل مع من، واستنتاج

(1054) بنتلاند، "استخراج الواقع" من المنظّمة".

(1055) ناان إيغل وأليكس بنتلاند، شبكة راديو قصيرة المدى مدمجة وشبكة هاتف خلوي للاتصالات الشخصية، رقم تعريف معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا: T10705، رقم الإيداع الأمريكي: US7877082B2، قُدِّم في 6 مايو/ أيار 2004، وصدر في 19 سبتمبر/ أيلول 2014.

(1056) انظر رايان سينغل، "عندما تصبح الهواتف المحمولة قاعدة بيانات"، وايرد، 25 يوليو/ تموز 2005.

العلاقات بين الزملاء" و"ستكون وسيلة فعالة للعثور على أشخاص قد يعملون بشكل جيد إذا كانوا ضمن فريق واحد". (1057)

قدّم بتلاند، في إطار تعاونٍ أجراه عام 2009 مع عددٍ من طلاب الدراسات العليا، نتائج حول تصميم ونشر "منصة حوسبة قابلة للارتداء" تعتمد على شارة القياس الاجتماعي وتحليلاتها الآلية. وأوضح الباحثون أن الهدف هو تطوير آلاتٍ قادرة على "مراقبة التواصل الاجتماعي وتوفير تدخل فوري". ولتحقيق هذه الغاية، تم تزويد اثنين وعشرين موظفًا في المكتب بشارة لمدة شهر من أجل "قياس أنماط السلوك الفردية والجماعية تلقائيًا، والتنبؤ بالسلوك البشري من خلال الإشارات الاجتماعية اللاواعية، وتحديد التقارب الاجتماعي بين الأفراد العاملين في الفريق ذاته، وتعزيز التفاعلات الاجتماعية من خلال تقديم الملاحظات لمستخدمي نظامنا". وقد قدّمت الأبحاث نتائج موثوقة، وكشفت عن أنماط التواصل والسلوك التي خلص المؤلفون إلى أنها "لن تكون متاحة من دون استخدام جهاز مثل شارة القياس الاجتماعي". "إن نتائجنا تدعم بقوة استخدام أدوات جمع البيانات الاستشعارية الآلية لفهم الأنظمة الاجتماعية". وحذّروا من أن المنظّمات لن تصبح "واعية فعلاً" إلا عندما تستخدم "مئات أو آلاف أجهزة الاستشعار البيئية اللاسلكية القابلة للارتداء، والقادرة على مراقبة السلوك البشري، واستخراج معلومات ذات مغزى، وتزويد المدراء بمقاييس أداء المجموعة والموظفين بتقييم الأداء الذاتي والتوصيات". (1058)

استمرّ تطوير ابتكار عام 2002، وانتقل في النهاية من المختبر إلى السوق. وفي عام 2010، أسّس بتلاند، وزملاؤه الذين شاركوه العمل عام 2009، شركة "حلول القياسات الاجتماعية" (Sociometric Solutions)، لطرح "أدوات سكينر وأسالييه" التي طالما انتظرها في السوق. كانت هذه الشركة إحدى شركات كثيرة أنشأها بتلاند لتطبيق صرامة فيزيائه الاجتماعية على فئات محدودة من موظفي

(1057) بتلاند، "استخراج الواقع من المنظّمة".

(1058) دي. أو. أولفين وآخرون، "المنظمات الحساسة: التكنولوجيا والمنهجية لقياس السلوك التنظيمي تلقائيًا"، معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات في الأنظمة والإنسان والسيبرانية، الجزء الثاني (السيبرانية) 39، العدد 1 (2009): 43-55.

المكاتب.⁽¹⁰⁵⁹⁾ ويُطلق بن وابر، الرئيس التنفيذي لشركة "حلول القياسات الاجتماعية"، وأحد طلاب الدكتوراه لدى بنتلاند، على عملياته اسم "تحليلات الأفراد"، ويتوقع في كتابه الذي يحمل الاسم نفسه مستقبلاً من "التواصل والتعاون والبيانات" مع شارة أو ما شابهها "مُستخدمة عبر ملايين الأفراد في شركات مختلفة في دول حول العالم، ليس لدقائق، بل لسنوات أو عقود... تخيلوا ما يُمكننا تعلمه لمساعدة الناس على التعاون بشكل أكثر فعالية...".⁽¹⁰⁶⁰⁾

تابع بنتلاند وفريقه تطوير مقياس السلوك الاجتماعي وتطبيقاته، وفي مطلع عام 2013، قامت عشرات الشركات ومجموعات البحث باستخدام هذا الجهاز، بما في ذلك أعضاء قائمة أفضل ألف شركة في الولايات المتحدة. وأجريت دراسة في عام 2014، بالتعاون مع وابر وزملائه من جامعة هارفارد، وجامعة نورث إيسترن، لقياس الاختلافات بين الجنسين في أنماط التفاعل. وأدّى نجاح التحليل إلى صدور التصريح التالي: "أصبح بالإمكان الآن استخدام السلوك البشري بشكل نشط لجمع بيانات مفصلة حول أبعاد مختلفة للتفاعل الاجتماعي". وأشار المؤلفون إلى هدفهم المتمثل في استخدام قاعدة ماكاي الأساسية للمراقبة غير المزعجة لمراقبة فعالة للقطعان والأسراب والمجموعات، مع الاعتراف بأن الجمع المستمر للبيانات السلوكية البشرية على نطاق واسع لا يمكن أن ينجح إلا عندما يحدث خارج حدود الوعي البشري، وبالتالي القضاء على المقاومة المحتملة، تمامًا كما رأينا في فيسبوك. وكما أشار الباحثون بحماس، "يمكن استخدام المستشعرات الإلكترونية لإتمام دور المراقبين البشريين أو استبدالهم كلياً، ورغم أنها قد تُوحي بشعور طفيف بالمراقبة، إلا أن هذا الشعور يتراجع على الأرجح مع صغر حجم المستشعرات، وبالتالي انخفاض

(1059) تايلور سوبر، "شركة Tenacity، وهي شركة فرعية تابعة لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، تجمع 1.5 مليون دولار لتحسين إنتاجية مكان العمل باستخدام "الفيزياء الاجتماعية"، جيك واير، 10 فبراير 2016؛ رون ميلر، "إندور تنبثق من أبحاث معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا بتقنية تحليلات تنبؤية فريدة"، تك كرانش، 8 مارس 2017؛ روب ماثيسون، "انتبه لنبرة صوتك"، أخبار معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، 20 يناير 2016.

(1060) بين وابر، تحليلات الأشخاص: كيف ستساهم تكنولوجيا الاستشعار الاجتماعي في تحويل الأعمال، وماذا نخبرنا عن مستقبل العمل (أبر سادل ريفر، نيوجيرسي: فورت وورث، 2013).

تأثيرها". وخلصوا إلى أن "الطرق الأقل تدخلًا لقياس السلوك البشري" ستتيح جمع بيانات شاملة في "بيئات طبيعية".

بحلول عام 2015، استخدمت الشركة أسلوبًا مُلَطَّفًا في مساعيها لإعادة صياغة علامتها التجارية، فغيّرت اسمها إلى "هيومانايز" (Humanize). ووُصِفَت تقنيتهما بأنها منصّة تستخدم "شارة ذكية للموظفين لجمع بيانات سلوكهم، وربطها بمقاييس مُحددة بهدف تحسين أداء الأعمال".⁽¹⁰⁶¹⁾ وصوّر ويبر العمل باعتباره "كرة مالٍ للأعمال"، مما يتيح لأية منظّمة إدارة عمالها مثل فريق رياضي على أساس التدابير التي تكشف عن كيفية حركة الأشخاص على مدار اليوم، والأشخاص الذين يتفاعلون معهم، ونبرة أصواتهم، وما إذا كانوا "يميلون" للإصغاء، ومواقعهم في الشبكة الاجتماعية عبر مجموعة متنوعة من مواقف المكتب، وأكثر من ذلك بكثير، كل ذلك لإنتاج أربعين مقياسًا منفصلاً تُدمَج بعد ذلك مع "لوحة معلومات مقاييس الأعمال". ولا تحدد الشركة المنظّمات التي تتعامل معها، على الرغم من أن أحد المواقع يصف عملها مع 10 آلاف موظف في مراكز خدمة العملاء في "بنك أوف أميركا"، وشراكة مع شركة "ديلويت" للاستشارات.⁽¹⁰⁶²⁾ ويقول بنتلاند في مقال له في مجلّة "ساينتفك أميركان" حول قوة البيانات الاجتماعية: "أقنعتُ مدير مركز اتصال في "بنك أوف أميركا" بجدولة استراحات قهوة متزامنة. كان الهدف تعزيز التفاعل بين الموظفين. وقد أدّى هذا التغيير البسيط إلى زيادة الإنتاجية بمقدار 15 مليون دولار سنويًا".⁽¹⁰⁶³⁾

من بين المشاريع التجارية التسعة عشر المدرجة حاليًا في سيرة بنتلاند الذاتية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، يُصنّف الكثير منها كشركات تعمل في مجال المراقبة باعتبارها خدمة. فقد شارك مثلًا في تأسيس شركة "إندور"، التي تسوّق نفسها

(1061) رون ميلر، "شركة جديدة تجمع بين الأجهزة القابلة للارتداء والبيانات لتحسين عملية اتخاذ القرار"، تك كرانش، 24 فبراير 2015.
(1062) ميلر، "شركة جديدة": ألكسندرا بوسانك، "كيف تُحدثُ تحليلات الأشخاص" تحولًا في الموارد البشرية"، مجلة الأعمال الكندية، 26 أكتوبر/ تشرين الأول 2015.
(1063) بنتلاند، "المجتمع القائم على البيانات".

لزيائتها في مجال الأعمال باعتبارها الحلّ لضرورة التنبؤ. ويشرح موقع الشركة الإلكتروني أصولها في "العلم الثوري الجديد للفيزياء الاجتماعية، بالإضافة إلى "التكنولوجيا الخاصة" لإنتاج "محرك قوي قادر على تفسير أي نوع من السلوك البشري وتوقعه..." ويشير الموقع إلى أن كل نشاط بشري (سجلات المكالمات الهاتفية، وعمليات الشراء ببطاقات الائتمان، وركوب سيارات الأجرة، ونشاط الويب) يتضمن مجموعة من الأنماط الحسابية الخفية. وبناءً على تحليل الشركة، يمكن اكتشاف "أنماط السلوك الناشئة" قبل أن تُلاحظ "بأية تقنية أخرى... لقد عملنا مع بعض أفضل العلامات التجارية الاستهلاكية في العالم لحلّ أكثر مشاكل البيانات صعوبة". (1064)

في عام 2014، استحوذت شركة "واي بي" (YP) على شركة أخرى تابعة لبيتلاند اسمها شركة "سينس نيتورك" (Sense Networks)، وهما حرفان كانا يرمزان سابقاً إلى "الصفحات الصفراء"، ويصفان الآن "أكبر شركة بحث محلي وإعلام وإعلان في أمريكا الشمالية تعمل على ربط المستهلكين بالشركات المحلية". ويقدم تصريح شركة "واي بي" لعام 2014 بشأن استحواذها على شركة "سينس نيتورك" صورة مألوفة للاستيلاء على مناطق الفائض السلوكي، حيث يصف الشركة بأنها "منصة معالجة بيانات الموقع المتطورة لتقديم الجماهير المتنقلة على نطاق واسع. ويمكن لإعادة استهداف شركة "سينس" لمتاجر التجزئة تحديد المتسوقين والعملاء المحتملين لأفضل تجار التجزئة، والوصول إليهم من خلال إعلانات الجوال ذات الصلة عندما يكونون بالقرب من متجر التجزئة... في المنزل أو العمل". (1065)

يرى بتلاند أن تجاربه وتدخلاته المدفوعة الأجر في أماكن العمل تُجسّد التحديات الكبرى للعلاقات الاجتماعية في مجتمع يعتمد على الآلات. ومرة أخرى، نرى المسار المقصود من المجال الاقتصادي إلى المجال الاجتماعي. ويعمل موظفو المكاتب الآليون لتحويل العلاقات الآلية إلى المجتمع الأوسع. وظهر بتلاند في عام 2016 في مؤتمر

(1064) "الصفحة الرئيسية لأليكس بتلاند؛ Endor.com، 23 ديسمبر 2017؛ "إندور - الوظائف؛ "إندور - الفيزياء الاجتماعية".

(1065) استحوذت شركة "يلو بيجز" (Yellow Pages)، التي تعني الصفحات الصفراء، على شبكات شركة "سينس"، يلو بيجز، 6 يناير/ كانون الثاني 2014.

نظّمته جامعة سينغولاريتي، وهو مركز في وادي السيليكون للأيدوبولوجية الآلية التي يمولها جزئياً لاري بيچ. ويوضح أحد المحاورين المكلفين بالكتابة عن بتلاند: "على الرغم من أن الأشخاص هم أحد الأصول الأكثر قيمة في أية منظّمة، فلا تزال شركات كثيرة تتعامل مع الإدارة بعقلية القرن العشرين... ويرى بتلاند أن العامل الذي كان دائماً يفسد الأمور هو الأشخاص".⁽¹⁰⁶⁶⁾ وعلى غرار ناديل، وصف بتلاند أهدافه بأنها تطوير الأنظمة الاجتماعية التي تعمل على الخطوط ذاتها التي تعمل بها الأنظمة الآلية، باستخدام تدفّقات البيانات السلوكية للحكم على "صحّة" أنماط العمل والتدخل عندما يكون من الضروري تغيير العمل "الخاطئ" إلى عمل "صحيح". ويحدّر قائلاً: "إذا لم يتفاعل الناس بشكل صحيح، ولم تُنشر المعلومات بشكل صحيح، فسوف يتخذون قرارات خاطئة... ما نحاول فعله هو خلق تكامل بشري آلي، حيث يفهم البشر المزيد عن شبكة التفاعلات بفضل أجهزة الحاسوب، وتكون أجهزة الحاسوب قادرة على فهم المزيد عن كيفية عمل البشر". ووفقاً للمحاور: "وجد بتلاند أن هذه البيانات [من الشارات الاجتماعية] تساهم بشكل كبير في مساعدة المنظّمات على إصلاح 'سلوكياتها الخاطئة'".⁽¹⁰⁶⁷⁾

تناسبت رؤية بتلاند لمجتمع الآلات طرداً مع نمو أدواته، إذ ازدادت أفكاره طموحاً مع اندماج الأدوات والأساليب الجديدة من مختبره مع موجة الوساطة الحاسوبية المعاصرة، وكل ذلك يمهد الطريق لانتشار ما يسميه "الآخر الكبير" على المستوى العالمي. وقد عبّر عن طموحاته فيما يتصل بقدرات هذا الوسط الجديد وأهدافه في سلسلة الأبحاث المنشورة بين عامي 2011 و2014، لكن هناك مقال واحد بارز ألفه وحده عام 2011 بعنوان: "الجهاز العصبي للمجتمع: بناء أنظمة فاعلة للحكومة والطاقة والصحة العامة".⁽¹⁰⁶⁸⁾

(1066) أليسون إي. بيرمان، "ساندي بتلاند من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا: يمكن للبيانات الضخمة أن تكون قوة إنسانية عميقة في الصناعة"، سينغولاريتي هاب، 16 مايو 2016.
(1067) بيرمان، "ساندي بتلاند من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا".
(1068) أليكس بتلاند، "الجهاز العصبي للمجتمع: بناء أنظمة فاعلة للحكومة والطاقة والصحة العامة"، مقالات الوصول المفتوح لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، أكتوبر/ تشرين الأول 2011.

يبدأ بنتلاند تقريره بالإعلان عن حسن النية المؤسسي لهذا العمل: "بالاستناد إلى تعاون فريد من نوعه استمرّ لسنوات عديدة مع رؤساء شركات كبرى في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات اللاسلكية والأجهزة والصحة والمالية، فضلاً عن رؤساء المنظمات الأمريكية والأوروبية وغيرها، ومجموعة متنوعة من المنظمات غير الحكومية [تشير الحاشية هنا إلى المنتدى الاقتصادي العالمي]، أصف إمكانات الاستشعار والحوسبة الشاملة والمتنقلة على مدى العقد المقبل ...". ثم يقفز تفكيره عبر مجموعة من الاستنتاجات لربط سبب أساسي لمجتمع شمولي مبني ومُستدام وموجّه بالقوة الآلية. إن الفرضية البدائية معقولة بما فيه الكفاية: فقد أحدثت تكنولوجيا العصر الصناعي ثورة في العالم ذات يوم من خلال أنظمة موثوقة للمياه والغذاء والنفايات والطاقة والنقل والشرطة والرعاية الصحية والتعليم وما إلى ذلك، ولكن هذه الأنظمة أصبحت الآن "قديمة" و"مركزية" و"عتيقة" و"غير مستدامة" بشكل يُثير الشعور باليأس.

نحن بحاجة إلى أنظمة رقمية جديدة تتسم بالتكامل والشمولية والاستجابة والديناميكية والتنظيم الذاتي: "نحن بحاجة إلى إعادة نظر جذرية في أنظمة المجتمعات. يجب أن نبني نظاماً عصبيّاً للإنسانية يحافظ على استقرار أنظمة مجتمعاتنا في جميع أنحاء العالم". ويقول بنتلاند، في إشارته إلى التقدم الذي أحرزته أجهزة الحاسوب المنتشرة في كل مكان على التحكّم في العمليات الآلية المعقّدة وتدقّق المعلومات، إن تكنولوجيا "الاستشعار" اللازمة لهذا النظام العصبي "موجودة فعلاً. حتى في عام 2011، أدرك بنتلاند أن الخطوط العريضة الأساسية "للاّخر الكبير" كانت جاهزة للعمل، ووصفها بأنها "كائن حي يمتد عبر العالم" حيث "تتحد أنظمة المرور اللاسلكية وأجهزة استشعار الأمن، وخاصة شبكات الهاتف المحمول، لتصبح أنظمة تفاعلية ذكية مع أجهزة استشعار تعمل كعيون وآذان لها... سيستمرّ التطوّر بسرعة متزايدة... وستحتوي الأجهزة على المزيد من أجهزة الاستشعار...". (1069)

لكن بنتلاند لمح مشكلة. على الرغم من أن التقنيات كلية الانتشار تسير على الطريق الصحيح لحل التحديات التقنية للنظام العصبي العالمي، فلن يكتمل "الآخر الكبير" حتى يفهم أيضًا السلوك البشري على نطاق عالمي: "ما ينقص... هو النماذج الديناميكية للطلب وردود الأفعال"، إلى جانب بنية تضمن "السلامة والاستقرار والكفاءة... يجب أن تصف النماذج الطلب البشري وردود الأفعال، لأن البشر هم في قلب هذه الأنظمة كلها... الملاحظات الضرورية هي ملاحظات للسلوك الفردي...". (1070)

كان بنتلاند قد رصد فراغًا خطيرًا، يُنذر "بالتحوّل الجذري" الذي أشاد به ناديلًا لمطوري مايكروسوفت عام 2017 عندما قال: "أصبح الناس، والعلاقات فيما بينهم، الآن أمرًا بالغ الأهمية في السحابة!". يجب أن يصبح "الناس" جزءًا من نطاق سلطة "الآخر الكبير"، خشية أن يقعوا فريسة لسلوكيات "خاطئة". إن سلامة المجتمع واستقراره وكفاءته على المحك. ولحسن الحظ، نخبرنا بنتلاند أن الأدوات والأساليب المستخدمة لالتقاط الفائض السلوكي لاستخراج الواقع مناسبة بشكل فريد من نوعه للإجابة على هذه الدعوة:

أصبحت غالبية البشرية متصلة بالإنترنت لأول مرة في التاريخ... ونتيجة لذلك، يمكن "استخراج الواقع" من البنية التحتية اللاسلكية المحمولة لدينا من أجل... مراقبة بيئاتنا، والتخطيط لتنمية مجتمعاتنا... إن استخراج الواقع من "فتات الخبز الرقمي" الذي نتركه وراءنا أثناء ممارستنا لحياتنا اليومية يوفر إمكانية إنشاء نماذج رائعة لحظة بلحظة لديناميكيات المجموعة وردود الأفعال على مدى فترات زمنية طويلة... باختصار، لدينا الآن القدرة على جمع البيانات وتحليلها حول الأشخاص باتساع وعمق لم يكن من الممكن تصورها سابقًا. (1071)

ينتقد بنتلاند، بأسلوب يذكّرنا برفض لاري بيج "للقوانين القديمة"، مجموعة من المفاهيم والأطر الموروثة من عصر التنوير والاقتصاد السياسي. حيث يصرّ على أن

(1070) بنتلاند، 6.

(1071) بنتلاند، 4-2.

الفئات الاجتماعية "القديمة"، المرتبطة بالمكانة والطبقة والتعليم والعرق والجنس والجيل، قد أصبحت عتيقة وغير ذات صلة مثل أنظمة الطاقة والغذاء والمياه التي يريد استبدالها. تصف هذه الفئات المجتمعات من خلال عدسة التاريخ والسلطة والسياسة، لكن بنتلاند يفضل "السكان" على المجتمعات، و"الإحصاءات" على المعنى، و"الحوسبة" على القانون. ويرى أن "تصنيف السكان" لا يجب أن يُبنى على العرق أو الدخل أو المهنة أو الجنس، بل حسب "أنماط السلوك" التي تنتج "مجموعات فرعية سلوكية" و"ديموغرافية سلوكية" جديدة يمكنها التنبؤ بالمرض والمخاطر المالية وتفضيلات المستهلكين والآراء السياسية بدقة تتراوح بين 5 و 10 أضعاف المقاييس المعيارية. (1072)

يُطرحُ في النهاية سؤال مُلحّ: "كيف نُشرك البشر في أنظمة الخطّة هذه؟" لا تكمن إجابته على هذا السؤال في الإقناع أو التثقيف، بل في تعديل السلوك. يقول إننا بحاجة إلى "نظريات تنبؤية جديدة لاتخاذ القرارات البشرية" بالإضافة إلى "تصميم آليات الحوافز"، وهي فكرة تُضاهي فكرة "جداول التعزيز" التي طرحها سكينر. ومن ناحية كيفية دفع البشر إلى اتباع الخطّة، يقدّم بنتلاند مبدأ "التأثير الاجتماعي" لشرح آليات التصميم التي يمكن من خلالها توجيه ملايين البشر نحو النتائج المضمونة للسلامة والاستقرار والكفاءة. ويشير إلى دراساته الخاصة التي تدّعي أن بالإمكان تفسير "مشاكل الصناعة والحكومة" إلى حد كبير من خلال نمط نقل المعلومات، ولا سيما كيفية تأثير البشر فيما بينهم، وتقليد أحدهم للآخر.

يُعدُّ مفهوم التأثير الاجتماعي هذا جزءاً هاماً من لغز بنتلاند، إذ يُبنى بالكثير مما سيأتي. فهو يُدرك أن "الآخر الكبير" ليس مجرد بنية تُراقب الأشياء وتُسيطر عليها. بل إن أدوات "الآخر الكبير" وتدفقات بياناته تُتيح للناس أيضاً رؤية متبادلة، بدءاً من تحديثات وجبة الإفطار ووصولاً إلى تدفق السكان في المدن. وقال بحماس في عام 2011: "إن البنى التحتية الثورية الجديدة... تزودنا برؤية سهاوية لأنفسنا". (1073)

(1072) بنتلاند، 3.

(1073) بنتلاند، 10.

والهدف هو إنشاء مجتمع تتوسطه أجهزة الحاسوب، حيث تصبح رؤيتنا المتبادنة هي الوطن الذي يتناغم فيه أحدنا مع الآخر، مما يتيح أنماطاً اجتماعية تعتمد على التقليد، ويمكن التلاعب بها من أجل الاحتشاد في نقطة التقاء، تماماً كما يشير منطق خلية الآلة.

بما يخصّ الحوافز، يحدد بتتلاند مبدأ "الكفاءة الاجتماعية"، مما يعني أن المشاركة يجب أن توفر قيمة للفرد، وللنظام ككل أيضاً.⁽¹⁰⁷⁴⁾ ومن ناحية الكمال، يُعتقد أن كل شخص منا سوف يستسلم لحياة مدروسة تماماً وفقاً للنظام الآلي. يبدو بتتلاند هنا مشابهاً لإيريك شميدت ولاري بيج مع وعودهما الرائعة بسحر غوغل الاستباقي الذي يعرف كل شيء، ويعتقد أن ما قد نخسره يُعوّض بالمكافآت الاجتماعية للشركات والحكومات، والمكافآت الفردية السحرية، كما أنه يستشهد بجرأة بضعفوط الحداثة الثانية:

إن الأمل، بالنسبة إلى المجتمع، هو أن نتمكن من استخدام هذا الفهم الجديد العميق للسلوك الفردي لزيادة كفاءة الصناعات والحكومات واستجابتها. بالنسبة إلى الأفراد، فإن عامل الجذب هو إمكانية وجود عالم يُرتب فيه كل شيء من أجل راحتك - يُنظّم فحوصك الصحي بطريقة سحرية عندما تبدأ في المرض، وتأتي الحافلة بمجرد وصولك إلى محطة الحافلات، ولا يوجد أبداً خط انتظار من الناس في مبنى البلدية. ومع تقدّم هذه القدرات الجديدة من خلال استخدام نماذج إحصائية وقدرات استشعارية أكثر تطوراً، فقد نشهد إنشاء علم كمي تنبئي للمنظمات البشرية والمجتمع البشري.⁽¹⁰⁷⁵⁾

مكتبة

t.me/soramnqraa

3 - مبادئ المجتمع الآلي

بلغت نظرية بتتلاند حول المجتمع الآلي أوجها في كتابه الصادر عام 2014 بعنوان "الفيزياء الاجتماعية"، حيث دمج أدواته وأساليبه في رؤية واسعة لمستقبلنا في مجتمع آلي مدفوع بالبيانات، وتحكمه الحوسبة. يحوّل بتتلاند طوباوية سكينر القديمة الغربية

(1074) بتتلاند، 8 (الخط المائل يعود لـ).

(1075) بتتلاند.

إلى شيء يبدو متطورًا وسحريًا ومقبولًا، ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى تردّد صدهاء مع موجات الطوباويات التطبيقية التي تحتاج حياتنا يوميًا. وبإكماله لسكينز، يقدّم أكثر من مجرد صورة مُحدثة لطوباوية سلوكية. فهو يُحدد مبادئ مجتمع آلي متكامل، قائم على التجهيز الشامل وقياس السلوك البشري لأغراض التعديل والتحكم، وتحقيق الربح - في ضوء الهيمنة التجارية لرأسمالية المراقبة على مجال شبكات الإنترنت.

يشدّد بنتلاند على أن "الظواهر الاجتماعية هي في الواقع مجرد مجموعات من مليارات المعاملات الصغيرة بين الأفراد...". وهذه نقطة أساسية، إذ تبين أنه لكي تحلّ الفيزياء الاجتماعية محل طرق التفكير القديمة، تكون المعرفة الكاملة بهذه المليارات من الأشياء الصغيرة مطلوبة: "تمنحنا البيانات الضخمة فرصة لرؤية المجتمع بكل تعقيداته، من خلال ملايين شبكات التبادلات بين الأشخاص. ولو كان لدينا 'عيون سماوية'، ورؤية شاملة، لكان بإمكاننا أن نصل إلى فهم حقيقي لكيفية عمل المجتمع، واتخاذ خطوات لإصلاح مشاكلنا". (1076)

يبدو بنتلاند متفائلًا في هذه النقطة: المعرفة الكاملة في متناول اليد. وكما يقول: "من المرجّح أن تتوقّر لدينا، في غضون سنوات قليلة، بياناتٌ غزيرةٌ للغاية حول سلوك البشرية جمعاء تقريبًا، بشكل مستمر. ومعظم هذه البيانات موجودٌ سلفًا". (1077) إن الحق في المستقبل - ومعه الثقة الاجتماعية والسلطة والسياسة - يُتنازَلُ عنه 'للاّخر الكبير' والأنظمة الحسائية المتعالية التي تحكم المجتمع تحت العين الساهرة لمجموعة يطلق عليها بنتلاند "نحن". هو لم يحدد هذه "النحن" إطلاقًا، مما يفرض علاقة "نحن" و"هم"، مُدخلًا بذلك حصريّة النصّ الظلّي ومرآته أحادية الاتجاه. إنه إغفالٌ يُلازم نصه. هل يُشير إلى كهنوت علماء البيانات مثل بنتلاند؟ كهنوت بالتعاون مع أصحاب وسائل تعديل السلوك؟

تهدف النظرية إلى ضبط السلوك الاجتماعي بقوانين مماثلة لقوانين الفيزياء، ويقدم بنتلاند قانونين من هذا القبيل، كما يقول، يحددان نجاح كل "كائن اجتماعي". القانون

(1076) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 10-11.

(1077) بنتلاند، 12 (الخط المائل يعود لي).

الأول هو نوعية "تدفّق الأفكار"، التي تتميز "بالاستكشاف" للعثور على أفكار جديدة، و"المشاركة" لتنسيق السلوك حول أفضل الأفكار. والقانون الثاني هو "التعلّم الاجتماعي"، حيث يقلّد الناس أحدهم الآخر حتى تصبح الأفكار الجديدة عاداتٍ سائدة على مستوى المجتمع. (يُعرّف التعلّم الاجتماعي على أنه علاقة رياضية مستمدة من "كيفية تأثير حالة كيان معين على حالات كيانات أخرى والعكس صحيح"). يلاحظ بنتلاند أن التعلّم الاجتماعي "متجذّر في الفيزياء الإحصائية والتعلّم الآلي".⁽¹⁰⁷⁸⁾ وتهدف الخليّة الاجتماعية إلى إعادة إنتاج خلية الآلة، ولتحقيق هذه الغاية، يدعو بنتلاند إلى أساليب يمكن من خلالها "تسريع التعلّم الاجتماعي وتشكيله من خلال الضغط الاجتماعي".⁽¹⁰⁷⁹⁾

تعتمد الأهداف العلمية للفيزياء الاجتماعية التي وضعها بنتلاند على مجموعة متكاملة من المعايير الاجتماعية الجديدة والتكيّفات الفردية التي ألخّصها هنا في خمسة مبادئ شاملة تصف العلاقات الاجتماعية للمجتمع الآلي. تعكس هذه المبادئ نظرية سكينر الاجتماعية حول مجتمع يُتَحَكَّمُ فيه سلوكيًا، حيث تحلّ المعرفة محل الحرية. وعند استكشاف كل مبدأ من هذه المبادئ الخمسة، أقرّ أن أقال بنتلاند بصيغ سكينر حول هذه المواضيع، وسنرى أن تفكير سكينر، الذي كان مُستهجنًا سابقًا، يضع الآن حدود سلطة الأدوات.

1 ... سلوك من أجل الصالح العام

أكّد سكينر على ضرورة التحوّل العاجل نحو منظور اجتماعي وقيم اجتماعية. حيث قال في كتابه "ما وراء الحرية والكرامة": "إن التصميم المتعمّد للثقافة، وما تتضمنه من سيطرة على السلوك البشري، أمران أساسيان إذا كان للبشرية أن تستمرّ في التطوّر".⁽¹⁰⁸⁰⁾ وكانت ضرورة تحويل السلوك البشري نحو الصالح العام واضحة

(1078) بنتلاند، 245.

(1079) بنتلاند، 7 (الخط المائل يعود لي).

(1080) ب. ف. سكينر، ما وراء الحرية والكرامة (إنديانابوليس: هاكيت، 2002)، ص 175.

فعلاً في رواية "والدن 2"، حيث يؤكّد فرازر، بطل الرواية، "حقيقة أننا لا نستطيع التحكم في السلوك البشري فحسب، بل ينبغي علينا ذلك".⁽¹⁰⁸¹⁾ وقد فهم هذا التحدي في نهاية المطاف باعتباره مشكلة هندسية. ويتساءل فرازر: "ما هي التقنيات والممارسات الهندسية التي ستشكل سلوك أعضاء المجموعة بما يضمن عملهم بسلاسة لصالح الجميع؟"⁽¹⁰⁸²⁾ ودافع سكينر، على لسان فرازر، عن أن فضيلة "المجتمع المنظم" تكمن في "إبقاء الذكاء على المسار الصحيح، لصالح المجتمع وليس لصالح الفرد الذكي... ويتحقق ذلك من خلال ضمان ألا ينسى الفرد حصّته الشخصية في رفاهية المجتمع".⁽¹⁰⁸³⁾

يرى بنتلاند أن المجتمع الآلي هو نقطة تحوّل تاريخية يمكن مقارنتها بابتكار الطباعة أو الإنترنت. وهذا يعني أنه للمرة الأولى في تاريخ البشرية، "سنحصل على البيانات اللازمة لمعرفة أنفسنا حقاً، وفهم كيفية تطوّر المجتمع".⁽¹⁰⁸⁴⁾ ويقول بنتلاند إن "التدفق المستمر لبيانات حول النوع البشري" يعني أنه سيتم التنبؤ بكل شيء بدقة من حركة المرور إلى استهلاك الطاقة، إلى استخدام الحّمّات، إلى جرائم الشوارع، مما يتيح "عالمًا بلا حروب ولا انهيارات مالية، حيث يتم اكتشاف الأمراض المعدية وإيقافها بسرعة، وحيث لا تُهدر المياه والطاقة والموارد الأخرى، وحيث تكون الحكومات جزءاً من الحل وليس جزءاً من المشكلة".⁽¹⁰⁸⁵⁾ ويعمل هذا "الذكاء الجماعي" الجديد على خدمة الصالح العام بينما نتعلم التصرف "بطريقة منسقة" على أساس "المبادئ الاجتماعية العالمية". ويقول بنتلاند: "من الممكن تحقيق قفزات كبيرة في الرعاية الصحيّة والنقل والطاقة والسلامة"، لكنه يأسف للعقبات التي تحول دون تحقيق هذه الإنجازات: "العوائق الرئيسة هي المخاوف من انتهاك الخصوصية، وحقيقة أننا لا نملك حتى الآن أي إجماع حول التوازنات بين القيم الشخصية والاجتماعية". وهو

(1081) ب. ف. سكينر، والدن 2 (إنديانابوليس: هاكيت، 2005)، 241.

(1082) سكينر، والدن 2، 162.

(1083) سكينر، 239.

(1084) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 19.

(1085) بنتلاند، 143، 18.

يؤكد، على غرار سكينر، بأن هذا التعلق بعصر مضى من المعرفة غير الكاملة تهدد بتقويض احتمالات بناء مجتمع مستقبلي مصمّم بطريقة مثالية: "لا يمكننا أن نتجاهل السلع العامة التي يمكن أن يوفرها نظام عصبي كهذا...." (1086) لكنه يتجنب سؤال "المصلحة الأعظم لمن؟" كيف يُحدّد المصلحة الأعظم عندما تمتلك رأسمالية المراقبة الآلات ووسائل تعديل السلوك؟ إن "المصلحة العظمى" موجهة بالفعل نحو مالكي وسائل تعديل السلوك، والعملاء الذين يسعون إلى تحقيق نتائج مضمونة. المصلحة الأعظم هي مصلحة شخص ما، وربما لا تكون لنا.

2... خطط لتحل محل السياسات

كان سكينر يتوق إلى القدرات الحاسوبية التي تعمل على تحسين التنبؤ بالسلوك والتحكم فيه، مما يسمح للمعرفة المثالية أن تتخذ موقع السياسة باعتبارها وسيلة لاتخاذ القرار الجماعي. وعلى الرغم مما فرض عليه من حدود سبقت عصر الرقمية، لم يجد سكينر صعوبة في تصوّر المتطلبات الضرورية لإنقاذ الأنواع باعتبارها "علمًا مجتمعيًا" جديدًا. وكما يوضح فرازر في رواية "والدن 2"، "نحن لا نعرف أي شيء تقريبًا عن القدرات الخاصة للمجموعة... ولا يستطيع الفرد، مهما كان استثنائيًا... أن يفكر بأفكار كبيرة بما يكفي".

لا تترك العمليات السلسة مجالًا لنتائج غير معقولة أو غير مقصودة، وغالبًا ما رأى سكينر الصراعات الإبداعية والفوضوية في السياسة، ولا سيما السياسات الديمقراطية، باعتبارها مصدر احتكاك يهدّد الكفاءة العقلانية للمجتمع بصفته "كائنًا حيًا فائقًا" عالي الأداء. وهو يأسف على رغبتنا بإحداث تغيير من خلال "العمل السياسي"، ويؤيد ما يراه فقدانًا هائلًا للثقة بالديمقراطية. ويقول فرازر، في رواية "والدن 2"، "لا يُعجبني استبداد الجهل. لا يُعجبني استبداد الإهمال، ولا استبداد اللامسؤولية، ولا حتى استبداد الصدفة. ولا يُعجبني استبداد الديمقراطية!" (1087)

(1086) بنتلاند، 153.

(1087) سكينر، 252.

الرأسمالية والاشتراكية ملطّختان بالقدر نفسه، بتركيزهما المشترك على النمو الاقتصادي، مما يؤلّد الاستهلاك المفرط والتلوث. يُعجب سكينر بالنظام الصيني، لكنه يرفضه بسبب الثورة الدموية التي ستتدلع مع أية محاولة لتحويل الغربيين. يقول سكينر في مقدمة كتابه "والدن 2": "ثمة احتمال آخر لحسن الحظ". ويقوم هذا الاحتمال الآخر على تصوّر سكينر للمجتمع السلوكي الذي يوفر سبيلاً "لتجنب العمل السياسي". ففي رواية "والدن 2"، تحلّ "الخطة" محلّ السياسة، ويشرف عليها مجموعة "غير تنافسية" من "المخططين" الذين يتجنبون السلطة لصالح الإدارة غير المتحيّزة لجداول التعزيز التي تهدف إلى تحقيق الصالح العام.⁽¹⁰⁸⁸⁾ يمارس المخططون سيطرة فريدة من نوعها على المجتمع، وهذا "فقط لأن هذه السيطرة ضرورية للأداء السليم للمجتمع".⁽¹⁰⁸⁹⁾

يجادل بنتلاند، مثل سكينر، بأنه يجب أن تحلّ الحقيقة الحاسوبية محلّ السياسة كأساس للحكومة الآلية. ونحن نتذكّر حماس ناديلّا تجاه الأشخاص والعلاقات باعتبارهم "أشياء في السحابة" عندما نفكّر في ولاء بنتلاند لفكرة أن آلات اليقين ستحلّ محلّ أشكال الحكم السابقة. إذ يقول بنتلاند: "إن وجود علم رياضي تنبئي للمجتمع يشمل الاختلافات الفردية والعلاقات بين الأفراد، من شأنه أن يغيّر جذرياً الطريقة التي يفكّر بها المسؤولون الحكوميون ومديرو الصناعة والمواطنون وبها يتصرّفون...".⁽¹⁰⁹⁰⁾

يخشى بنتلاند أن تكون مفاهيمنا السياسية والاقتصادية مثل "السوق" و"الطبقة" تنتمي إلى عالم قديم بطيء يعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. لا يترك "العالم الجديد المتصل بالإنترنت بسرعة الضوء" أي وقت لنوع من المداولات العقلانية والمفاوضات والتسويات المباشرة التي ميزت الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه مثل هذه المفاهيم السياسية: "لم يعد بإمكاننا أن نفكر في أنفسنا بصفقتنا مجرد أفراد يتخذون

(1088) سكينر، 255-256.

(1089) سكينر، 218-219.

(1090) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 191.

قرارات مدروسة بعناية؛ بل يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار التأثيرات الاجتماعية الديناميكية التي تؤثر على قراراتنا الفردية، وتؤدي إلى ظهور الفقاعات الاقتصادية والثورات السياسية والاقتصاد القائم على الإنترنت". (1091)

لا تترك لنا سرعة المجتمع الآلي أي وقت لتحديد اتجاهاتنا، ويُعاد استخدام هذه السرعة هنا كضرورة أخلاقية تطالبنا بالتخلي عن الوكالة الفردية لمصلحة الأنظمة الآلية القادرة على مواكبة الوتيرة بهدف إدراك الإجابات الصحيحة وفرضها بسرعة من أجل الصالح العام. لا مجال للسياسة في هذا المجتمع الآلي، لأن السياسة تعني ترسيخ هويتنا وتأكيدنا. فالمواقف الأخلاقية والسياسية الفردية مصدر احتكاك يهدر وقتًا ثمينًا، ويُشتت السلوك عن التقاء المصالح.

يختزل بنتلاند المجتمع في قوانينه الفيزيائية بدلًا من السياسة والأسواق والطبقات وما إلى ذلك: إعادة تجسيد لفكرة سكينر عن "علم المجتمع أو العلم التشاركي". في الواقع، يعتبر بنتلاند عمله الأساس العملي "لنظرية حسابية جديدة تتعلق بالسلوك"، قادرة على إنتاج "نظرية سببية للبنية الاجتماعية، تُقدّم تفسيرًا رياضيًا لكيفية استجابة المجتمع على النحو الذي يستجيب به، وكيف يمكن (أو لا يمكن) لهذه التفاعلات أن تُسهم في حل المشكلات الإنسانية.". ولا تكشف هذه التحليلات الرياضية الجديدة عن "آليات التفاعلات الاجتماعية" العميقة فحسب (قدرات سكينر الخاصة للمجموعة) بل تجتمع أيضًا مع "كميات هائلة من بيانات السلوك المكتسبة حديثًا" من أجل الكشف عن أنماط السببية التي تجعل من الممكن "هندسة أنظمة اجتماعية أفضل"، ويعتمد هذا كله على "أدوات غير مسبقة". (1092)

هكذا، تحلّ الحوسبة محلّ حياة المجتمع السياسية باعتبارها أساسًا للحكم. ويشير بنتلاند إلى أن اتساع نطاق الآلات وعمقها يساعدان من حساب تدفق الأفكار، وبنية الشبكات الاجتماعية، ودرجة التأثير الاجتماعي بين الناس، وحتى "قابلية الأفراد للتأثر بالأفكار الجديدة". والأهم من ذلك أن الآلات تمكّن أولئك الذين وصلوا إلى

(1091) بنتلاند، 2-3.

(1092) بنتلاند 7-6.

قدر كبير من المعرفة من تعديل سلوك الآخرين. توفر البيانات "توقعًا موثوقًا حول تأثير أي تغيير لهذه المتغيرات على أداء جميع الأشخاص في الشبكة"، وبالتالي تحقيق أفضل أداء لكائن سكينر الفائق. وهذه الرياضيات الخاصة بتدقيق الأفكار هي أساس نسخة بتلاند من "الخطّة" التي تُملي أهدافًا وغايات تغيير السلوك. يجب توجيه السلوك البشري وضبطه ضمن معايير الخطّة، تمامًا كما كان السلوك في موقع بناء نادبلا يُصاغ تلقائيًا وباستمرار وفقًا لمعايير السياسة. يُطلق بتلاند على هذا "ضبط الشبكة".

يقوم أولئك الذين "يضبطون الشبكة" بدور "نحن" عند بتلاند. إذ يقول مثلاً: "إن بالإمكان فهم المدن باعتبارها "محركات أفكار"، وأن "بإمكاننا استخدام معادلات الفيزياء الاجتماعية للبدء في ضبطها لتحسين أدائها". ومثل مخططي سكينر، يُشرف مصمّمو البرامج لدى بتلاند على الشدوذ المزعج الي يمثل تسربًا من عالم قديم من الجهل يتم اعتباره خطأ حرّ. ويعدّل من يضبط الأجهزة عمليات "الآخر الكبير" لإعادة هذا السلوك المضلل إلى مسار التناغم والأداء الأمثل، بما يحقق المصلحة الأعظم لمن يملك الآلات التي تُجري الحسابات، ويدفع للمعدّلين لفك رموزها وفرض معاييرها. ويقدم بتلاند مثالاً من أحد "مختبراته النشطة":

يسمح لنا هذا المفهوم المشتق رياضيًا لتدقيق الأفكار "بضبط" الشبكات الاجتماعية من أجل اتخاذ قرارات أفضل وتحقيق نتائج أفضل.... وقد وجدنا، في عالم التمويل الرقمي، أن بإمكاننا تشكيل تدفّقات الأفكار بين الأشخاص من خلال تقديم حوافز أو دفعات صغيرة للأفراد، مما يؤدي إلى تفاعل المتداولين المعزولين بشكل أكبر مع الآخرين، وأولئك الذين كانوا مترابطين للغاية بحيث لا يمكنهم التفاعل بشكل أقل.... (1093)

3... ضغط اجتماعي للانسجام

تُنظّم التعزيزات بدقّة في مجتمع "والدن 2" للقضاء على المشاعر التي تهدّد التعاون.

ولا يُسمح إلا "بالمشاعر الإنتاجية والإيجابية - الفرح والحب". وتُعتبر مشاعر الحزن والكراهية "وإثارة الغضب والخوف والغضب الشديد" تهديدات "خطيرة ومدمرة لاحتياجات الحياة العصرية". أي شكل من أشكال التمييز بين الأشخاص يُقوّض انسجام الكل وقدرته على الخضوع للهدف الجماعي. ويعترف فرازرمانه ليس بإمكان أي شخص إجبار الناس على فعل الشيء الصحيح. فالحل أكثر دقة وتطوراً، ويستند إلى جداول تعزيز محسوبة علمياً: "يكون عليك، بدلاً من ذلك، إعداد عمليات سلوكية معينة من شأنها أن تقود الفرد إلى تصميم سلوكه "الجيد" الخاص به... ونحن نسمي هذا النوع من التصرف 'ضبط النفس'. لكن لا تنخدع، فالسيطرة دائماً في التحليل النهائي تقع في أيدي المجتمع". (1094)

تقبل هذه الفكرة المقارنة مع فكرة بنتلاند: "إن حوافز الشبكات الاجتماعية هي النهج الفيزيائي الاجتماعي لدفع الجميع إلى التعاون"، هذا هو مفهومه عن التعزيز. ويوضح أنه من خلال هذه الحوافز، "نركّز على تغيير الروابط بين الناس بدلاً من التركيز على حثهم على تغيير سلوكهم فردياً..... ويمكننا الاستفادة من هذه التفاعلات لتوليد ضغط اجتماعي من أجل التغيير". (1095) ويعتقد بنتلاند أن وسائل التواصل الاجتماعي تلعب دوراً حاسماً في ترسيخ هذه القدرة على الضبط، لأن هذه هي البيئة التي يمكن فيها التحكم في الضغوط الاجتماعية، وتوجيهها والتلاعب بها وقياسها، على أفضل وجه. ويرى أن فيسبوك يُجسّد هذه الديناميكيات فعلاً. إذ تكشف تجاربه في مجال العدوى عن إتقانٍ فعّالٍ للقدرة على التعلّق والتلاعب بالعواطف لدى البشر باستخدام تقنيات ضبط مثل التهئية والإجاء. يجد بنتلاند أن تجارب "العدوى" التي أجرتها فيسبوك مضيئة للذهن للغاية، إذ يرى فيها رؤى عملية متنوّعة في تعقيداتنا. على سبيل المثال، في تجربة التصويت التي أجرتها الشركة على 61 مليون شخص، يلمح بنتلاند تأكيداً على أن بالإمكان استغلال الضغط الاجتماعي بشكل فعال في الشبكات الاجتماعية، ولا سيّما بين الأشخاص الذين لديهم "روابط

(1094) سكينر، والدن 2، 92-93 (الخط المائل يعود لي).

(1095) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 69.

قوية": "إن معرفتنا بأن أصدقائنا قد مارسوا حقهم بالانتخاب فعلاً قد ولدت ما يكفي من الضغط الاجتماعي لإقناع الناس بالتصويت".⁽¹⁰⁹⁶⁾ بفضل هذه المعرفة وغيرها من المعارف المشابهة، ستكون "نحن" الخاصة بـ "بنتلاند"، قادرة على تفعيل "الحوافز الصحيحة".

حقيقة أن "نحن" الخاصة بـ "بنتلاند" قادرة على "توليد ضغط اجتماعي من أجل التغيير" تعكس فهمه للكائن الحي الفائق. وتُقنعه الرؤية السماوية بأن تقييم الفعل البشري يشبه في الواقع إحصاء القنادس: "يمكننا أن نلاحظ البشر بالطريقة ذاتها التي نلاحظ بها القردة أو النحل ونستنتج قواعد سلوكها وردود أفعالها".⁽¹⁰⁹⁷⁾ تمارس الجماعة، في هذه التجمعات السكانية كلها، ضغوطاً على كل كائن حي لكي ينسجم مع التيار، ويبقى مع القطيع، ويعود إلى الخلية، ويطير مع السرب. تتدفق الأفكار في محاكاة لخلية الآلة، حيث تختلط الأجهزة الطرفية بالمحور المركزي، وتخضع الهوية للترامن، وتذوب الأجزاء في الكل. ويقول:

أعتقد أنه يمكننا النظر إلى كل تيار فكري كأنه سرب من الطيور، أو شكل من أشكال الذكاء الجمعي الذي يتدفق عبر الزمن، حيث يتعلم فيه البشر جميعاً من تجارب أحدهم مع الآخر من أجل اكتشاف أنماط التفضيلات وعادات العمل التي تناسب البيئة المادية والاجتماعية المحيطة بشكل أفضل. وهذا يتعارض مع الطريقة التي يفهم فيها معظم الغربيين المعاصرين أنفسهم، وهي أنهم أفراد عقلانيون، وأشخاص يعرفون ما يريدون، ويقررون بأنفسهم ما يجب اتخاذه من إجراءات لتحقيق أهدافهم.⁽¹⁰⁹⁸⁾

إن هذا التحول من مجتمع إلى سرب، ومن أفراد إلى كائنات حية، هو حجر الزاوية الذي يركز عليه بناء المجتمع الآلي. يتجاهل بنتلاند دور التعاطف في المحاكاة لأنه يرى أن التعاطف تجربة ذاتية محسوسة لا يمكن قياسها عبر المؤشرات القابلة للرصد،

(1096) بنتلاند، 152.

(1097) بنتلاند، 190.

(1098) بنتلاند، 46.

والتي تُعتبر ضرورية للحكومة الحاسوبية. ويتبنّى بدلاً من ذلك مصطلح "تقليد الصورة ذاتها" ليشير إلى أنها مُحَاكاة، وليس تعاطفًا، ولا سياسة بالتأكيد، وهو ما يُعرّف الوجود البشري. والمصطلح ذاته مستمدّ من دراسات حول تعليم الأطفال، لكنه، بالنسبة إلى بنتلاند، تفسير مناسب للسلوكيات البشرية كلها في كل وقت: تأكيد، مشابه لتأكيد سكينر، على أن السيطرة تقع دومًا على عاتق المجتمع. وقال: "إن العامل الأكبر الذي يحرك تبني السلوكيات الجديدة هو سلوك الأقران". (1099)

يقول بنتلاند: لأننا خلقنا ليحاكي أحدها الآخر، فإن الجنس البشري مهياً للضغط الاجتماعي باعتباره وسيلة فعّالة لتعديل السلوك. يمثل هذا النموذج من التعلّم البشري عودة إلى النحل والقردة، لكنه يمهد الطريق أيضًا لخلية الآلة. لا تتعلّم الآلات بالتعاطف؛ بل يحدث التعلّم تلقائيًا في تطوّر متدرّج للذكاء الجماعي.

4.... طوباويات مطبقة

يؤمن كلّ من سكينر وبنتلاند بسلطة الطوباويين في فرض خطتهم. مجتمع الآلة هو مجتمع خضع للتخطيط، ونشأ عن تحكّم كامل في وسائل تعديل السلوك. لا تُخطّطو سكينر ولا مُعدّلُو بنتلاند يتهرّبون من مسؤوليتهم في استخدام القوة التي تُشكّل الكائن الحيّ العملاق.

لم يفقد سكينر إيمانه بالرؤية الاجتماعية في رواية "والدن 2". حيث فهم اليوتوبيا باعتبارها "بيئة اجتماعية كاملة" تعمل جميع أجزائها بتناغم لتحقيق أهداف جماعية:

لا يتعارض المنزل مع المدرسة أو الشارع، ولا يتعارض الدين مع الحكومة... وإذا فشلت الاقتصاديات التي خضعت للتخطيط، والديكتاتوريات الخيرية، والمجتمعات المثالية، وغيرها من المشاريع الطوباوية، فعلينا أن نتذكّر أن الثقافات التي لم تخضع للتخطيط، والتي لم تُملّئها ديكتاتوريات، وغير المكتملة قد فشلت أيضًا. الفشل ليس خطأ دائمًا؛ فقد يكون ببساطة أفضل ما يمكن فعله في ظل الظروف. الخطأ الحقيقي هو

(1099) أليكس بنتلاند، "موت الفردية: ما الذي يحكم أفعالك حقًا؟" مجلة نيو ساينتست، المجلد 222، العدد 2963 (2014): 30-31.

بالطريقة ذاتها، يتصور بنتلاند فيزياءه الاجتماعية باعتبارها شاملة وضرورية في آن معاً. لا شيء سيخدم الحضارة في مستقبل شديد الترابط سوى تمثيلها الشامل، والتحكم الكامل في السلوك البشري، ولا يوجد أي تردد في فرض حوكمة حاسوبية على مجمل المساعي البشرية كلها من أجل مصير جماعي. لا تتطلب السياسة والاقتصاد المتعلقان بهذا المصير، أي السلطة والقوة التي أسستها ودعمتها، أي تحديد، لأن الآلات والرياضيات المرتبة بها تتجاوز هذه الإحداثيات الأساسية للمجتمع البشري. وتكشف العمليات الحاسوبية عن الحقيقة المخفية في البيانات، وبالتالي تُحدد ما هو "صحيح". تمارس طبقة اجتماعية جديدة، من العاملين في مجال الضبط، يقظة دائمة لعلاج الطبيعة البشرية من نقاط ضعفها من خلال ضبط السكان وتجميعهم وتكييفهم لإنتاج السلوكيات الأكثر كفاءة. إن كل ما يلزم "لإرساء معايير سلوكية جديدة، بدل الاعتماد على العقوبات التنظيمية والمنافسة السوقية... هو "أدوات حوافز الشبكات الاجتماعية"... ونظرًا لنقائص الطبيعة البشرية المعروفة، تكون الكفاءة الاجتماعية هدفًا مرغوبًا... ينبغي أن ينصب تركيزنا على توفير التدفق الفكري اللازم للأفراد لاتخاذ قرارات صحيحة وتطوير معايير سلوكية مفيدة...". (1101) وأخيرًا، يرفض بنتلاند، مثل سكينر، فكرة أن "المجتمع الذي يتخيله، والقائم على البيانات" هو مجرد خيال طوباوي، ويصرّ على أنه ليس عمليًا وقابلًا للتنفيذ فحسب، بل هو أيضًا ضرورة أخلاقية تتفوق فيها فوائد المجتمع على جميع الاعتبارات الأخرى.

5. موت الفردانية

تشكل الفردانية تهديدًا للمجتمع الآلي، فهي احتكاك مزعج يستنزف طاقة "التعاون" و"الانسجام" و"الاندماج". وفي مقال بعنوان "موت الفردانية"، يشدد بنتلاند على أن مجتمعنا محكوم بذكاء اصطناعي يأتي من التدفق المحيط للأفكار

(1100) سكينر، ما وراء الحرية، 155-156.

(1101) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 191، 203-204.

والأمثلة... بدلاً من العقلانية الفردية.... لقد آن الأوان لكي نتخلى عن الأخيولة التي تقول إن الأفراد هم وحدة العقلانية، وأن نعترف بأن عقلانيتنا تتحدد إلى حد كبير من النسيج الاجتماعي المحيط بنا....". (1102)

هنا أيضاً، أطلق سكينر، عالم السلوك في جامعة هارفارد، بالفعل أول تكرار لهذه الرسالة وأكثرها بلاغة، مُعلِّياً شأن الآخر ومُنكراً الذات المستقلة. كما أظهر بوضوح في كتابه "ما وراء الحرية والكرامة"، ازدراءه لهذا المثل الأعلى المتسامي في العصر السارترى: إرادة الذات في التعبير عن نفسها بصوت ضمير المتكلم وفعله. وزعم أن الاختلافات بين البشر والأنواع الأخرى مبالغ فيها إلى حد كبير، وكان سيجد مبررات لبتلاند في رفضه للفرد لصالح النظرة البعيدة التي تنتقل عبر الحاسوب. وسواء أكانوا بشرًا أم قنادسًا، لن يكون الاختلاف مهمًا بعد أن نتخلى عن وهم الاستقلال الفردي المدمر. يُمهّد استسلام الفرد لتلاعب المخططين الطريق لمستقبل آمن ومزدهر، مبني على التنازل عن الحرية من أجل المعرفة. وقد كان سكينر حازمًا في هذه النقطة:

ما يُلغى هو الإنسان المستقل - الإنسان الباطني، الهومونكولوس (الإنسان المُصغَّر)، الشيطان الاستحواذي، الإنسان الذي تدافع عنه أدبيات الحرية والكرامة. لقد طال انتظار إغائه... لقد بُني من جهلنا، وسيتلاشى جوهره مع ازدياد فهمنا..... ولا بدّ أن يتلاشى إذا أردنا منع فناء النوع البشري. ونقول بكل سرور للإنسان بصفته إنسانًا: الحمد لله على خلاصنا منه. لن نتمكن من التحوّل.... مما هو مُستنتجٌ إلى ما هو ملحوظ، ومما يُشعرنا بالعجز إلى ما هو طبيعي، ومما لا يمكن الوصول إليه إلى ما يمكن التلاعب به، إلا من خلال نزع ملكية هذا الإنسان. (1103)

يبدّد موت الفردانية الذي طال انتظاره الخيالات المُشَيَّعة التي تقدّس مفاهيم الحرية والكرامة. يتفق عالم السلوك في القرن العشرين من جامعة هارفارد، وعالم البيانات في القرن الحادي والعشرين من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، على أن مفهوم الإرادة الحرة ليس سوى مخلفات مؤلة أخرى من العصر المظلم الذي لم يُثبت فيه العلم أننا

(1102) ببتلاند، "موت الفردانية".

(1103) سكينر، ما وراء الحرية، 200، 205.

نعيش "تحت سيطرة بيئة اجتماعية شديدا ملايين البشر الآخرين....."، وفقاً لوجهة نظر سكينر. ويقدم لنا السلوكي الصريح حقيقته النهائية: "لا يؤثر الإنسان في العالم، بل العالم هو من يؤثر فيه". (1104)

في محاضرة في شركة غوغل حظيت بتصفيق حماسي، أطرى بتلاند الحضور بالإشارة إلى أن خبراء التكنولوجيا الرقمية سيقبلون بسهولة زوال الفرد كقدر لا مفر منه. سأل الحضور في ماونت فيو: "ماذا عن الإرادة الحرة؟" ربما لم يخطر في ذهنك أي شيء عن ذلك، لكن هذا هو السؤال التقليدي الذي يجب أن يُطرح". ثم واصل الشرح قائلاً إن معظم السلوك البشري - من الآراء السياسية إلى خيارات الإنفاق إلى الموسيقى التي يستمع إليها الناس - يتم التنبؤ به من خلال "ما هو رائع القيام به ... التعرض لما يفعله الآخرون". وأشار إلى أن كثيرين يرفضون هذه الفكرة، لأنها "ليست من الخطاب السائد في مجتمعنا". ثم أكد لموظفي غوغل، "أنتم آخر الأشخاص الذين يجب أن يُقال لهم هذا، لأنكم الأفضل والأذكى في العالم". يبدو أنه كان يقول إن موت الفرد خبر قديم بالنسبة إلى أشخاص كهؤلاء:

لقد سمعتم إذاً عن الأفراد العقلانيين. ينتقد الجميع الجانب العقلاني. لن أفعل ذلك. سأنتقد الجانب الفردي، هل هذا جيد؟ لأنني لا أعتقد أننا أفراد. إن ما نرغب فيه، والطرق التي نتعلمها لتحقيقه، وما هو قيم، هي أمورٌ مُتفق عليها... حوافز فردية... هذا جزءٌ من العقلية التي تعود إلى القرن الثامن عشر... فالفعل ليس في أذهاننا، بل في شبكاتنا الاجتماعية، أليس كذلك؟ نحن كائنات اجتماعية بطبيعتنا. (1105)

رؤية بتلاند هي رؤية سكينر، التي تقف الآن على أكتاف "الآخر الكبير" ببياناته الضخمة وحساباته الضخمة. هذه هي موارد الآلات الذكية اللازمة لاستنتاج الإجابات "الصحيحة". ويتجلى هذا التناغم بين بتلاند ونظرية سكينر الاجتماعية لدرجة أن قسماً لاحقاً من كتاب بتلاند، دون إشارة إلى اسم السلوكي، يحمل عنوان

(1104) سكينر، 211.

(1105) محاضرات في شركة غوغل، ساندي بتلاند: "الفيزياء الاجتماعية: كيف تنتشر الأفكار الجيدة".

"الفيزياء الاجتماعية في مواجهة الإرادة الحرة والكرامة".

إذا كان علينا أن ننهي الفرد وندفنه بصفته حقيقة وجودية وفكرة فلسفية ومثالاً سياسياً، فينبغي أن يستحقّ هذا الموت ثقل طقوس الجنازة اليونانية القديمة. إن وجود الفرد، في نهاية المطاف، هو إنجاز ناتج عن آلاف السنين من المعاناة والتضحيات الإنسانية. لكن بنتلاند يعتبر الأمر مجرد تصحيح آخر لأخطاء الشيفرة البرمجية للبشرية، وهو ترقية ضرورية للغاية للبرمجيات القديمة التي تشكّل القصّة الإنسانية الطويلة.

على النقيض من سكينر، يحرص بنتلاند على تجنب النقد اللاذع مثل نقد ناعوم تشومسكي. (ربما تذكرون، في الفصل العاشر من هذا الكتاب، ندّد تشومسكي بكتاب سكينر ووصفه بأنه "فارغ" وخالي من المحتوى العلمي"، ووصف الكتاب بأنه مُثقل بالمفاهيم الخاطئة التي "تضمّن فشلاً علمياً"⁽¹¹⁰⁶⁾). ويتجنّب بنتلاند مخاطر نواح سكينر عبر اتخاذ نبرة أكثر ليونة: "يتفاعل بعض الناس بشكل سلبي مع عبارة الفيزياء الاجتماعية، لأنهم يشعرون أنها تعني ضمناً أن الناس عبارة عن آلات من دون إرادة حرة، ومن دون القدرة على التحرك بشكل مستقلّ عن دورنا في المجتمع".⁽¹¹⁰⁷⁾ وبشكل مشابه لـ "ماير"، يعترف بنتلاند بأن لدى البشر "القدرة على التفكير المستقل"، لكنه يصر على أن الفيزياء الاجتماعية "لا تحتاج إلى محاولة لتفسيره". ووفقاً لوجهة نظره، لا تكمن المشكلة في إغفال "الفكر المستقل" من الصورة، بل في أن العمليات الفكرية "الداخلية غير القابلة للملاحظة" ليست سوى احتكاك "قد يظهر بين الحين والآخر ليهزم أفضل نماذج الفيزياء الاجتماعية لدينا". ولحسن الحظ، ليست النماذج في خطر حقيقي لأن "البيانات تجربنا أن الانحرافات عن أنماطنا الاجتماعية المعتادة تحدث بنسبة قليلة من الوقت فقط".⁽¹¹⁰⁸⁾ ليس الفرد المستقلّ سوى نقطة إحصائية، أو زلّة قلم يمكن تجاوزها بسهولة في المسيرة نحو العمل المترابط والصالح

(1106) نعوم تشومسكي، "قضية ضد ب. ف. سكينر"، مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس، 30 ديسمبر 1971.

(1107) بنتلاند، الفيزياء الاجتماعية، 189.

(1108) بنتلاند، 190.

لا يتجاهل البروفسور بنتلاند، في هذا السياق، قضايا مثل الخصوصية والثقة الاجتماعية. ويدافع بنشاط عن إيجاد حلول لهذه المشاكل، لكن الحلول التي يسعى إلى تحقيقها مصممة بالفعل لتكثيف مجتمع الآلات "المدفوع بالبيانات". ويزكرنا نهجه بالاعتقاد الأولي لطالبة الدكتوراه السابقة روزاليندا بيكارد بأن التحديات المجتمعية ليست مستعصية على الحل، وأن الحلول التقنية الجديدة سوف تقضي على أية إشكالات، وأن "من الممكن تطوير الضمانات". وبعد عقدين من الزمن، أصبحت وجهة نظر بيكارد أشدّ قتامة، لكن بنتلاند لم يعبر عن أي قدر يُذكر من الشك. على سبيل المثال، يعمل بنتلاند مع مؤسسات مؤثرة مثل المنتدى الاقتصادي العالمي لصياغة "صفقة جديدة بشأن البيانات" تُفضّل "الملكية" الفردية للمعلومات الشخصية، لكنها لا تشكك في التسليم الشامل لهذه المعلومات الشخصية في المقام الأول.⁽¹¹⁰⁹⁾ ويعتقد أن ملكية البيانات ستخلق حوافز مالية للمشاركة في مجتمع الأدوات الموجه نحو السوق. وكما هو الحال مع سكينر، يفترض بنتلاند أن الثقل الهائل للحوافز والاتصال الشامل والمراقبة والضغط سيؤدي في نهاية المطاف إلى تآكل الحساسيات القديمة مثل الاهتمام بالخصوصية. "تمنح الصفقة الجديدة العملاء حصّة في اقتصاد البيانات الجديد؛ وهذا من شأنه أن يحقق في البداية استقرارًا أكبر، ويحقق في نهاية المطاف ربحية أكبر مع شعور الناس براحة أكبر في مشاركة البيانات".⁽¹¹¹⁰⁾

وفقاً لوجهة نظر بنتلاند عن ملكية البيانات، يتم التحكم في آلات اليقين مثل "بلوكتشين" (blockchain)، التي تعتمد تشفيراً معقّداً وخوارزميات لإنشاء قاعدة بيانات لا مركزية مقاومة للتلاعب، لتجاوز الثقة الاجتماعية. وهو يدعو إلى أنظمة "تعيش في كل مكان وأي مكان، وتحمي بيانات ملايين الأشخاص وتعالجها، وتُطبق

(1109) أليكس بنتلاند، "استخراج الواقع من الاتصالات المتنقلة: نحو صفقة جديدة بشأن البيانات"، في تقرير تكنولوجيا المعلومات العالمي، المنتدى الاقتصادي العالمي والمعهد الأوروبي لإدارة الأعمال (المنتدى الاقتصادي العالمي، 2009)، ص 75-80.

(1110) هارفارد بنزنس رفيو ستاف، "تأتي مع البيانات الضخمة مسؤولية كبيرة"، هارفرد بنزنس فيو، 1 نوفمبر 2014.

على ملايين أجهزة الحاسوب المتصلة بالإنترنت".⁽¹¹¹⁾ وتشير إحدى الدراسات المهمة حول البيتكوين (Bitcoin)، وهي العملة المشفرة التي تعتمد على تقنية "بلوكتشين"، إلى أن مثل هذه الحلول الآلية تعبر عن التآكل العام للنسيج الاجتماعي وتساهم فيه بطرق تتسق مع النزعة الآلية وتمهد الطريق لنجاحها. ويستنتج علماء معلومات مثل "بريفيرا دي فيليبي" و"بنيامين لوفلوك" إلى أنه على النقيض من الاعتقاد السائد، فإن "البيتكوين" ليست مجهولة ولا صديقة للخصوصية.... يمكن لأي شخص لديه نسخة من "سلسلة الكتل" رؤية تاريخ معاملات البيتكوين كلها.... ويمكن متابعة كل معاملة تمت على شبكة البيتكوين إلى أصلها". تعتمد أنظمة كهذه على "المعلومات المثالية"، لكن أنواع عمليات التنسيق التي تبني مجتمعات ديمقراطية مفتوحة، مثل "الثقة الاجتماعية أو الولاء، تُمحي لصالح نهج يدفعه السوق بشكل عميق".⁽¹¹²⁾ وعلى غرار فارينان، لا يعترف بتلاند بالتداعيات الاجتماعية والسياسية لمثل هذه الأنظمة التي لا صلة لها بمستقبل آلي تحلّ فيه آلات اليقين وكهنتها وأصحابها محلّ الديمقراطية والثقة الاجتماعية.

لقد نمت رأسمالية المراقبة لتصل حدّ الهيمنة، في السنوات التي جادل فيها بتلاند لصالح "صفقة جديدة"، حتى مع استفادتها من ابتكاراته النظرية والتجارية. ورأينا، خلال تلك السنوات نفسها، أن "الحوسبة المؤثرة" التي ابتكرها بيكارد قد سقطت في نموذج المراقبة. لكن البروفيسور بتلاند متفائل بأن بالإمكان تهميش رأسمالية المراقبة بسهولة بواسطة قوى السوق، على الرغم من تركيزها على المعرفة والحقوق والسلطة؛ وسيطرتها الأحادية الجانب على النص الظلي؛ وموقعها المهيمن في تقسيم التعلّم في المجتمع. "يتطلّب الأمر ببساطة أن يستغلّ رواد الأعمال المُبدعون إرادة المستهلكين لبناء عرض قيمة أفضل من النموذج الحالي القائم على جمع البيانات كلها. فليس علينا سوى المضيّ قدماً."⁽¹¹³⁾ لا تدخل السلطة والسياسة والقانون في المعادلة، وربما يرجع

(111) "بمن نثق لإدارة بياناتنا؟" المنتدى الاقتصادي العالمي، 9 أغسطس آب 2018.

(112) بريفايرا دي فيليبي وبنيامين لوفلوك، "السياسة غير المرئية للبيتكوين: أزمة حوكمة البنية التحتية اللامركزية"، مراجعة سياسة الإنترنت 5، العدد 3 (30 سبتمبر / أيلول 2016).

(113) ستاف، "مع البيانات الضخمة تأتي مسؤولية كبيرة".

ذلك إلى أنها أصبحت عتيقة فعلاً في الرؤية الاجتماعية التي تُبنى هنا.

4. الحداثة الثالثة للخليّة

لن يدهشنا أن تُشكّل الرأسمالية علاقات اجتماعية. فقبل قرن من الزمان، كانت وسائل الإنتاج الضخم الجديدة هي من صاغت المجتمع الجماهيري على صورتها. وتقدّم رأسمالية المراقبة اليوم نموذجاً جديداً لمستقبلنا: خلية الآلة التي تتنازل فيها عن حريتنا مقابل المعرفة الكاملة التي تُدار لصالح الآخرين. إنها ثورة اجتماعية غير معلنة يصعب تمييزها في ضباب الخطاب الطوباوي، والطوباويات التطبيقية عالية السرعة التي ابتكرها كبار رأسماليي المراقبة والعديد من مجتمعات الممارسة - من المطوّرين إلى علماء البيانات - والتي تدعم هيمنة مشروع المراقبة التجاري.

يعمل رأسماليو المراقبة بجدّ لإخفاء غايتهم بينما يتقنون استخدامات القوة الآلية لتشكيل سلوكنا مع التهرب من وعينا. لذلك تخفي شركة غوغل العمليات التي تحوّلنا إلى أهداف بحثها، بينما تُشَتّت شركة فيسبوك انتباهنا عن حقيقة مفادها أن اتصالاتنا العزيزة ضرورية لتحقيق الربح والقوة التي تتدفّق من انتشار شبكتها ومعرفتها الشاملة.

تلعب أعمال بنتلاندر التجريبية وتحليلاته النظرية وظيفه سياسية واجتماعية مهمة في اختراق هذا الضباب. فهي ترسم المسارات التكتيكية والمفاهيمية للمجتمع الآلي الذي يضع وسائل تعديل السلوك في قلب هذا النظام الاجتماعي القائم على السيطرة العلمية والتكنولوجية على السلوك الجماعي، وتُديره طبقة متخصصة. وتبدو الحكومة في الصين عازمة على "امتلاك" هذا المركّب الضخم، لكنه مملوك في الغرب لرأسمال المراقبة، وهي من يقوم بتشغيله.

يحدّد المجتمع الآلي الطابع المؤسسي النهائي لتقسيم مرضيٍّ للتعلّم. من يعرف؟ من يُقرّر؟ من يُقرّر من يُقرّر؟ هنا أيضاً، تُعدّ المقارنة مع الصين مفيدة. ثمة تقسيم غير طبيعي في التعلّم بين الصين والغرب. تنافس الدولة رأسماليي المراقبة على السيطرة في

الصين. أما في الولايات المتحدة وأوروبا، فتعمل الدولة مع رأسمالي المراقبة ومن خلاهم لتحقيق أهدافها. وكانت الشركات الخاصة هي من تسلّق واجهة الصخرة للسيطرة على المرتفعات. تتربّع الشركات الخاصة ومالكوها على قمة هرم المعرفة، بعد أن جمعوا ثروة ومعلومات وخبرات حصرية وغير مسبقة عبر انتزاعهم لها من سلوكنا. إنهم يحققون أحلامهم. وحتى سكينر لم يكن ليطمح في وضع كهذا.

تمثّل المبادئ الاجتماعية للحدّات الثلاثة الخاصة بالآلية قطيعة صارخة مع تراث النظام الليبرالي ومثله. يشبه المجتمع الآلي عالم "مرآة بيت المرح المقلوبة"، حيث أصبح كل ما نعرّ به مقلوبًا رأسًا على عقب، ومن الداخل إلى الخارج. يزيد بنتلاند حدّة إصراره على عدم ليبرالية الاقتصاد السلوكي. ولا تصبح أيديولوجية الضعف البشري بين يديه سببًا للازدراء فحسب، بل مبررٌ لزوال الفردانية أيضًا. وتُعاد صياغة تقرير المصير والحكم الأخلاقي المستقل، اللذان يُعتبران عمومًا حصن الحضارة، بصفتهما تهديدًا للرفاه الاجتماعي. ويُرفع الضغط الاجتماعي المعروف لدى علماء النفس بخطورته على الطاعة والتوافق، إلى أعلى مراتب الخير باعتباره وسيلة لإخماد التأثيرات غير المتوقّعة للفكر المستقلّ والحكم الأخلاقي.

تتغذى هذه البنيات المعمارية الجديدة على شعورنا المشترك بالاستغلال، وخنق الشعور الداخلي الفردي الذي يشكّل مصدر الاستقلال الشخصي والحكم الأخلاقي، والصوت الشخصي، وإرادة الإرادة، والشعور بالحق في زمن مستقبلي لا يمكن نزع ملكيته. ينبغي أن يكون تناغم أحدنا مع الآخر حقيقة تعزّز الحياة، لكن هذه الحدّات الثلاثة تُضخّم تناغمنا المتبادل إلى مستويات مؤلمة. ولا يتناغم أحدنا مع الآخر في البيئة الآتية الشاملة بقدر ما يغرق في العجز عن الفرار منه.

تتخيّل النظرية الآلية المجتمع كأنه خلية ينبغي مراقبتها وضبطها لضمان نتائج مضمونة، غير أن هذه الرؤية لا تقول شيئًا عن التجربة الحية التي يعيشها الأفراد داخل تلك الخلية.

ما عواقب حياة يعيشها الإنسان ضمن نظام يُعامله كـ "آخر" من قبل رأسمالي

المراقبة، والمصممين، والمتحكمين بالأدوات وأساليب الضبط؟

وكيف، ومتى، نصبح كائنات حية في نظر أنفسنا؟ وكيف نرى بعضنا البعض بوصفنا بشرًا، لا بيانات؟ وما النتائج المترتبة على هذا التحول؟

هذه الأسئلة لا تُركن كلها إلى التخمين. يمكننا أن نبدأ بسؤال أطفالنا. لقد أرسلنا، من دون وعي، الأقل خبرةً والأكثر هشاشةً بيننا ليستكشفوا الخلية ويستوطنوا برايرها، وما هي رسائلهم بدأت تتسرّب إلينا من خلف الحدود..

الفصل السادس عشر

عن العيش في الخلية

مكتبة

t.me/soramnqraa

لقد نما كل شيء بسرعة كبيرة،
حتى أصبحت حياته متضخمة،
وحتى نسي ما خلق من أجله كل شيء:
أصبح يعيش ضمن حشد، لكنه كان وحيداً.....

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، VIII

1. - طيور الكناري في منجم الفحم

تقول فتاة صينية: "شعرتُ بوحدةٍ هائلة... لم أستطع النوم جيداً دون مشاركة الآخرين أو التواصل معهم". وتذمّر صبيّ أرجنتيني قائلاً: "يغمرنني شعور بالخواء". وتتمم مراهق أوغندي قائلاً: "شعرتُ أنني أعاني خطباً معيناً"، وقال جامعي أمريكي: "دخلتُ حالة ذعرٍ مطلق". ليست هذه سوى بضع شكاوى انتزعت من ألف طالب شاركوا في دراسة دولية حول استخدام وسائل التواصل الاجتماعي شملت عشر دولة وخمس قارات. حيث طُلب إليهم الامتناع عن استخدام الوسائط الرقمية كلها مدة أربع وعشرين ساعة فقط، وقد أطلقت هذه التجربة مخاوف هائلة على مستوى العالم، وهو ما وجده المسؤولون عن الدراسة مثيراً للقلق.⁽¹¹¹⁴⁾ وبصرخة من القلب في ختام التجربة، قال طالب جامعي سلوفاكي: "ربما لا يكون صحيحاً أن أعيش دون معرفة ما

(1114) دراسة بعنوان: "العالم من دون اتصال".

يقوله الناس أو يشعرون به، وأين هم الآن، وماذا يحدث".

إن تفسيرات الطلاب عبارة عن رسائل من مكان بعيد تعبر عنا جميعًا، إذ تروي البيئة العقلية والشعورية للحياة في مجتمع آلي مع هندسته للسيطرة السلوكية، والضغط الاجتماعي، والقوة غير المتكافئة. والأهم من ذلك هو أن أطفالنا هم بواذر للضريبة العاطفية المترتبة على وجهة نظر الآخر، حيث يجد الشباب أنفسهم منغمسين في حياة الخلقة التي يكون فيها الآخر عبارة عن "شيء" بالنسبة إلي، وأكون أن "شيئًا" من منظور الآخرين. تُقدّم هذه الرسائل لمحةً عن المستقبل الآلي، كالمشاهد التي كشفتها رواية ديكنز بعنوان: "شبح عيد ميلاد مُنتظر" (Ghost of Christmas Yet to come). لقد ارتعش سكروج بشدة عندما لمح مصيره المرير، فكرّس ما تبقى من حياته لتغيير مساره. لكن ماذا علينا أن نفعل؟ مكتبة سرّ من قرأ

يطغى هذا السؤال على هذا الفصل. يُشيد بتلاند بفيسبوك باعتباره البيئة المثالية للضغط الاجتماعي الفعال والتناغم. ونستكشف في الأقسام التالية الآليات التي يُعجب بها بتلاند. لماذا يصعب على الشباب الانفصال عن الواقع؟ ما عواقب هذا التعلّق عليهم وعلى الجميع؟ لقد تعلّم فيسبوك أن يُؤثر بشدة على الاحتياجات النفسية للشباب، مُنشئًا تحديات جديدة لعمليات التطوّر التي تبني الهوية الفردية والاستقلالية الشخصية. وتتجلى آثار هذه التحديات بالفعل في سلسلة دراسات تُوثّق الأثر العاطفي لوسائل التواصل الاجتماعي على الشباب. وكما سنرى، فإن الخلقة، وبنيتها الأوسع المتمثلة في "الآخر الكبير"، تجعلنا متصلين بالإنترنت في عالم لا يُطاق، ولا مخرج منه.

تمهّد دراسة "قطع الاتصال" الدولية الطريق، إذ تكشف عن حالات معاناة نفسية تُلخّص في ست فئات: الإدمان، الفشل في قطع الاتصال، الملل، الارتباك، الضيق، والعزلة. فقد أدّى فصل الطلاب المفاجئ عن الشبكة إلى ظهور حالات من الرغبات الملحة، والاكتئاب، والقلق، وهي سمات مميزة للإدمان المُشخّص سريريًا. وكانت النتيجة اعتراف الأغلبية في البلدان كلها بأنها لا تستطيع متابعة يومها دون اتصال

بالإنترنت. وقد تفاقم قلقهم بسبب الاتفاق الفاوستي ذاته الذي نعرفه جميعًا جيدًا، عندما اكتشفوا أن المتطلبات اللوجستية والتواصلية والمعلوماتية اليومية كلها تقريبًا تعتمد على أجهزتهم المتصلة: "أصبح الاجتماع مع الأصدقاء صعبًا أو مستحيلًا، وأصبح العثور على الطريق إلى وجهة من دون خريطة عبر الإنترنت، أو الوصول إلى الإنترنت مشكلة، وأصبح مجرد تنظيم أمسية في المنزل تحدّيًا". والأسوأ من ذلك أن الطلاب لاحظوا أنه من المستحيل أن يتخللوا حتى المشاركة الاجتماعية العرضية دون وسائل التواصل الاجتماعي، ولا سيما فيسبوك: "لا يستطيع أي شاب يريد حياة اجتماعية أن يحتمل عدم النشاط على الموقع، ويعني النشاط على الموقع أن يعيش المرء حياته على الموقع".

يشير محللو الأعمال والتكنولوجيا إلى "تأثيرات الشبكة" كمصدر بنوي هيمنة فيسبوك على وسائل التواصل الاجتماعي، لكن التأثيرات مستمدة في الأساس من خصائص الطلب لدى المراهقين والبالغين الناشئين، مما يعكس توجه أقرانهم في سنهم ومرحلتهم. وقد نشأت الميزة الأولية التي اكتسبها فيسبوك في هذا العمل إلى حد كبير من حقيقة بسيطة مفادها أن مؤسسيه ومصمميهِ الأصليين كانوا أنفسهم من المراهقين والبالغين الناشئين. لقد صمموا ممارسات لعالم متخيل من المستخدمين المراهقين وطلاب الجامعات، وأضفوا لاحقًا طابعًا مؤسسيًا على هذه الممارسات بالنسبة إلينا، مما أدى إلى تقليص العالم الاجتماعي إلى عدد "أصدقاء" ليسوا أصدقاء، و"إعجابات" توفر شريطًا مستمرًا لقيمة المرء في السوق الاجتماعية، مما أدى إلى تأجيج مخاوف ما قبل البلوغ، وتوقع الانضباطات الاجتماعية المذهلة للخليفة. (1115)

استنتج الباحثون أن دراستهم العالمية للطلاب "أزاحت الستار" عن الشعور بالوحدة، والارتباك الحاد، الذي يسيطر على الشباب عندما يواجهون الانفصال عن وسائل التواصل الاجتماعي. لم يكن الأمر متعلقًا بجهلهم بأنفسهم وحسب، بل بأنهم وجدوا صعوبة في التعبير عما يشعرون به، أو حتى عن هويتهم، إذا لم يتمكنوا

(1115) للاطلاع على سرد مُعمّق، انظر: كاثرين لوس، "الملوك الصبية: رحلة إلى قلب الشبكة الاجتماعية" (نيويورك: فري برس، 2012).

من التواصل على الشبكة". لقد شعروا وكأنهم "فقدوا جزءاً من أنفسهم".⁽¹¹¹⁶⁾

تشير مشاعر الارتباك والعزلة هذه إلى اعتماد نفسي على "الآخرين"، وتعمّق الدراسات الإضافية فهمنا لكيفية اعتماد "الجيل Z"، أي الفئة السكانية المولودة عام ١٩٩٦ وما بعده - وهي أول فئة من أبناء العصر الرقمي، الذين لا يعرفون الحياة قبل ظهور رأسمالية المراقبة - على مجموعة من وسائل التواصل الاجتماعي كمصدر دعم نفسي لهم، حيث يتنقلون بين أربع أو خمس منصّات تقريباً في وقت واحد. لننظر أولاً إلى الفئات العمرية الأكبر سنّاً. خلصت دراسة استقصائية أجريت عام 2012 إلى أن البالغين الناشئين يكرسون وقتاً أطول لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي مقارنة بأي نشاط يومي آخر، حيث يقضون ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة كل يوم مع شكل معيّن من أشكال تلك الوسائل.⁽¹¹¹⁷⁾ وفي عام 2018، أفاد مركز بيو للأبحاث أن ما يقرب من 40٪ من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين 18-29 عاماً أفادوا بأنهم متصلون بالإنترنت "بشكل شبه دائم"، وينطبق الأمر نفسه على 36٪ ممن تتراوح أعمارهم ما بين 30-49 عاماً. ويعزّز جيل Z هذا التوجّه: إذ يستخدم 95٪ منه الهواتف الذكية، ويقول 45٪ من المراهقين أنهم متصلون بالإنترنت "بشكل شبه دائم".⁽¹¹¹⁸⁾ إذا كانت هذه هي الطريقة التي تقضي بها أيامك ولياليك، فستكون نتائج دراسة أُجريت عام 2016 منطقية للغاية، حيث قال 42٪ من المراهقين المشاركين إن وسائل التواصل الاجتماعي تؤثر في نظرة الناس إليهم، بعد أن اعتمدوا ما يسميه الباحثون نهجاً ينظر من الخارج إلى الداخل في كيفية تعبيرهم عن أنفسهم. ويتغلغل اعتمادهم عليها بعمق في شعورهم بالرفاهية، مما يؤثر على شعورهم تجاه أنفسهم بنسبة

(1116) "الارتباك"، مجلّة العالم غير متصل بالإنترنت، 26 فبراير 2011.

(1117) "يقضي طلاب الجامعات 12 ساعة يوميّاً مع وسائل التواصل الاجتماعي والأجهزة الإلكترونية"، مجلة ماركتنغ تشارتس، 30 نوفمبر 2009.

(1118) أندرو بيرين وجينغ جيانغ، "يقول ما يقارب ربع البالغين في الولايات المتحدة إنهم متصلون بالإنترنت بشكل شبه دائم"، مركز بيو للأبحاث، 14 مارس/ آذار 2018؛ مونيكا أندرسون وجينغ جيانغ جيانغ، "المراهقون، وسائل التواصل الاجتماعي، والتكنولوجيا 2018"، مركز بيو للأبحاث، 31 مايو/ أيار 2018.

في دراسة لاحقة حول العواقب النفسية لاختبار الذات من خلال "النظر من الخارج إلى الداخل"، تشير دراسة استقصائية أجريت عام 2017 على شبّات بريطانيات تتراوح أعمارهن بين 11 و21 عامًا إلى أن المبادئ الاجتماعية للمجتمع الآلي، التي صاغها بنتلاند بحماس شديد، وأيدها قادة رأسمالية المراقبة، تبدو وكأنها تعمل بشكل فعال.⁽¹¹²⁰⁾ وقالت 35٪ من النساء إن أكبر مخاوفهن على الإنترنت هو مقارنة أنفسهن وحياتهن مع الآخرين، حيث يُقدّن رغماً عنهن إلى "مقارنات مستمرة مع إصدارات غالبًا ما تكون مثالية من حياة الأخريات وأجسادهن".⁽¹¹²¹⁾

لاحظ أحد مدراء المشروع أنه حتى أصغر فتاة في هذه المجموعة تشعر بالضغط لإنشاء "علامة شخصية مميزة"، وهي أقصى درجات إضفاء الصفة الموضوعية على الذات، حيث تبحث عن الطمأنينة "على شكل إعجابات ومشاركات". وعندما حاولت صحيفة الغارديان أن تستكشف آراء الفتيات حول نتائج هذا الاستطلاع، كشفت الإجابات بوضوح عن معاناة كائن حيّ بين الكائنات الحية. إذ تقول إحداهن: "أشعر أنني بحاجة إلى أن أكون مثالية، وأن أقارن نفسي بالأخريات طوال الوقت". وتقول أخرى: "عندما ترى حياة الأخريات وترى ما يفعلنه... ترى حياتهن "المثالية"، مما يجعلك تشعر أن حياتك ليست كذلك".⁽¹¹²²⁾

في ضوء هذه النتائج، علّقت إحدى الطبيبات في المملكة المتحدة على الشباب في عيادتها قائلة: "يكبر الناس وهم يرغبون في أن يكونوا مؤثرين، وقد أصبح هذا دورًا

(1119) جيسون دورسي، "الجيل Z - الاضطراب التكنولوجي: دراسة وطنية لعام 2016 حول التكنولوجيا والجيل الذي يلي جيل الألفية"، مركز الحركة الجيلية، 2016.

(1120) سارة مارش، "تعاني الفتيات من ضغط "الكمال" على الإنترنت، وفقًا لاستطلاع رأي"، الغارديان، 22 أغسطس/ آب 2017.

(1121) لمناقشة نظرية أولية وعميقة حول الإنترنت باعتباره مجالًا للتنشئة الشخصية، انظر جولي إي. كوهين، "حياة مدروسة: الخصوصية المعلوماتية والشخصية كموضوع" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 15 أغسطس/ آب 2000).

(1122) سارة مارش وقرء الغارديان، "الفتيات ووسائل التواصل الاجتماعي: يُتوقع منك أن ترتقي إلى مستوى مستحيل"، الغارديان، 22 أغسطس/ آب 2017.

وظيفيًا في هذه الأيام... لست متأكدة ما إذا كان الآباء يدركون تمامًا الضغوط التي يواجهها الجيل...".⁽¹¹²³⁾ يعتقد 12٪ من المشاركين في استطلاع عام 2017 أن آباءهم يدركون هذه الضغوط. وتؤكد التقارير أن الضغط الاجتماعي يتخذ طابعًا مؤسسيًا بشكل جيد باعتباره وسيلة للتأثير الاجتماعي عبر الإنترنت، لكن على النقيض من اعتقاد بنتلاند بأن الانقسامات "الطبقية" سوف تختفي، تُنتج الحياة في الخلية انقسامات وأشكالًا جديدة من الطبقة: ليس فقط من خلال القيام بالضبط أو التعرض له، بل في ممارسة الضغط أو التعرض له.

لا توجد رؤية تُلخص حياة الشباب في الخلية أفضل من رؤية ميتشيل كلاين، مديرة التسويق في شركة فيسبوك في أمريكا الشمالية، إذ أفادت بحماس أمام حشد جماهيري عام 2016، أنه بينما يتفقد الشخص البالغ هاتفه المحمول 30 مرة يوميًا، يتفقد "جيل الألفية" -الجيل المولود بين عامي 1981 - 1996" هاتفه أكثر من 157 مرة يوميًا. وبتنا نعلم الآن أن جيل Z يتجاوز هذه القيمة بكثير. وصفت كلاين إنجاز فيسبوك الهندسي بأنه "تجربة تواصل حسية تمكّنا من التواصل مع الآخرين دون الحاجة إلى /شاشة أنظارنا"، مشيرةً بارتياح إلى أن هذه الميزة تُعدّ ميزةً للمسوّقين. وشددت على خصائص التصميم التي تُنتج هذا التأثير الآسر: التصميم سردي، آسر، فوري، مُعبّر، غامر، مُتكيف، وديناميكي.⁽¹¹²⁴⁾

إذا كان عمرك قد تجاوز الثلاثين عامًا الآن، فأنت تعلم أن كلاين لا تصف مراهقتك، ولا مراهقة والديك، ولا تصف بالتأكيد مراهقة أجدادك. المراهقة والبلوغ المبكر في الخلية هما تجربة إنسانية أولى، صُممت بدقة من خلال علم الهندسة السلوكية؛ وهي تجربة مؤسسة في هياكل واسعة ومعقدة لوسائل تعديل السلوك الحاسوبية؛ ويشرف عليها "الآخر الكبير"؛ وموجهة نحو وفورات الحجم والنطاق والعمل في التقاط الفائض السلوكي؛ وممولة من رأسمال المراقبة الناتج عن تركيز غير مسبوق من

(1123) انظر مارش، الفتيات ووسائل التواصل الاجتماعي.

(1124) "يتحقق جيل الألفية من هواتفهم أكثر من 157 مرة يوميًا"، نيويورك، 31 مايو 2016 (الخط المائل يعود لي).

2- اليد والقفاز

تدفع جاذبية التواصل الاجتماعي الشباب نحو سلوكيات تلقائية وطوعية. وبالنسبة إلى كثيرين، ينحدر هذا السلوك إلى مستوى الإكراه الحقيقي. ما الذي يُذهِلُ صغارنا، ويربطهم بهذا العالم الافتراضي على الرغم مما يواجهونه من ضغوط وقلق؟

تكمُن الإجابة في مزيج من العلوم السلوكية، والتصميم عالي الخطورة، تستخدم معدّات عالية الدقّة لتلبية الاحتياجات الملموسة لهذا العصر وهذه المرحلة: يدٌ وقفّاز مناسبان تمامًا. فقد صُمِّمَت وسائل التواصل الاجتماعي لإشراك الناس من جميع الأعمار، وتشكّلت أساسًا بأسلوب يتوافق أساسًا مع البنية النفسية للمراهقة والبلوغ المبكّر، عندما يكون الشخص موجّهًا بشكل طبيعي نحو "الآخرين"، ولا سيما نحو مكافآت القبول الاجتماعي، والانتماء والاندماج والاعتراف به في المجموعة. ويرى كثير من الناس أن هذا الترابط الوثيق، إلى جانب تبعيات عملية المشاركة الاجتماعية، يحوّل وسائل التواصل الاجتماعي إلى بيئة سامة. ولا يقتصر الأمر على أن هذه البيئة تفرض ضريبة نفسية ثقيلة، بل إنها تهدّد أيضًا مسار التطوّر البشري لجيل شباب اليوم والأجيال التي تليه، وكلّها "روح عيد ميلاد مُنتظر - إشارة إلى عنوان رواية ديكنز".

إن العلاقة الوثيقة بين الإدمان على التكنولوجيا لم تُبتكّر في فيسبوك، بل صُمِّمَت واختبِرَت وطوّرت بنجاح باهر في صناعة الألعاب، هو مجال آخر يُعرَفُ فيه بالإدمان رسميًا باعتباره مصدر ربح لا حدود له. وقد سبق أن توقّع سكينر مدى أهمية أساليبه لبيئة الكازينو، التي حوّلها المهندسون والمدراء التنفيذيون إلى مثال حي يمكن للمرء أن يضيفه إلى القوة المذهلة التي تتمتع بها الهندسة السلوكية، وقدرتها على استغلال الميلول الفردية، وتحويلها إلى حلقات مغلقة من الهوس والإكراه.

ما من أحد رسم مخططًا لمنطقة الكازينو أفضل وأكثر عمقًا من الأنثروبولوجية الاجتماعية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، ناتاشا دو شول، في دراستها الرائعة

للمقامرة الآلية في لاس فيغاس عنوان: الإدمان من خلال التصميم. وأكثر ما يثير الاهتمام بالنسبة إلينا هو تفسيرها لمبادئ التصميم التكافلية لجيل جديد من آلات القمار المصممة للتلاعب بالتوجه النفسي للاعبين، بحيث لا يضطرون في البداية إلى إشاحة نظرهم، ويصبحون في النهاية عاجزين عن ذلك. وتعلّمت شول أن اللاعبين المدمنين لا يسعون إلى الترفيه، ولا إلى جني المال الوهمي، بل يسعون إلى ما يُطلَق عليه هوارد شافر، الباحث في مجال الإدمان في كلية الطبّ في جامعة هارفارد، "قدرة المخدرات أو المقامرة على تغيير التجربة الذاتية"، سعيًا وراء حالة تجريبية تسميها شول "منطقة الآلة"، وهي حالة من نسيان الذات ينجرّف المرء فيها في زخم لا يُقاوم، ويشعر معه "وكأن الآلة تستغله".⁽¹¹²⁵⁾ وتحقق منطقة الآلة شعورًا بالانغماس الكامل الذي يذكرنا بوصف كلاين لمبادئ تصميم فيسبوك - الجذابة، والغامرة، والفورية - وترتبط بفقدان الوعي الذاتي، والسلوك التلقائي، والانغماس الإيقاعي الكامل الذي تحمله موجة من الإكراه. وقد صُمِّمَ كل جانب من جوانب آلات الكازينو لتعزيز هذا التحوّل الذاتي، وترداد صداه وتكثيف الجوع إليه، لكن ذلك كله عبر طرق لا يتنبه إليها اللاعب.

تصفُ شول منحنى التعلّم الذي امتدّ لعقود من الزمن، حيث أصبح مصمّمو الألعاب يدركون أن الجيل الجديد من ماكينات القمار المُعتمِدة على الحاسوب يمكن أن تؤدّي إلى تحفيز وتضخيم الرغبة في ملاحقة "منطقة اللعب"، فضلًا عن تمديد الوقت الذي يقضيه كل لاعب في تلك المنطقة. وتؤدّي هذه الابتكارات إلى زيادة الإيرادات بفضل حجم اللعب المتسع الذي يُحوّل فيه كل جهاز إلى "جهاز مكافأة يتخذ طابعًا شخصيًا".⁽¹¹²⁶⁾ والفكرة، وفقًا لما فهمته الكازينوهات، هي تجنّب أي شيء يشتت انتباه اللاعب أو يعيق اندماجه مع الجهاز؛ حيث تتكيّف وحدات التحكم مع الوضع الطبيعي للاعب، مما يزيل المسافة بين جسده وشاشات اللمس الخالية من الاحتكاك: "كل ميزة في ماكينة القمار - هيكلها الرياضي، وروسوماتها المرئية،

(1125) ناتاشا دو شول، الإدمان بالتصميم: المقامرة الآلية في لاس فيغاس (برينستون، نيوجيرسي: جامعة برينستون، 2014)، 166-167.

(1126) شول، الإدمان بالتصميم، 160.

وديناميكيات الصوت، وبيئة الجلوس والشاشة - تساعد على زيادة "فترة لعب المقامر على الجهاز" وتشجيعه على "اللعب أطول فترة ممكنة".⁽¹¹²⁷⁾ ويكون الهدف نوعاً من الجنس الآلي الجنوني، وهي بنية مغلقة حميمة من الهوس وفقدان الذات والإشباع التلقائي. ويقول أحد مدراء الكازينوهات بكلمات مألوفة للغاية: "يكنم الأساس في إيجاد طريقة للاستفادة من التكنولوجيا للتأثير على تفضيلات العملاء [مع جعلها غير مرئية] - أو ساحرة تلقائياً - قدر الإمكان.⁽¹¹²⁸⁾

انتشرت المخاطر النفسية المرتبطة بارتداء قفازات اليد إلى ما هو أبعد من حُفر الكازينو حيث يبحث اللاعبون عن منطقة الماكينات: فهي تحدد جوهر نجاح فيسبوك. إذ تقدّم الشركة لهذا التكافل الطفيلي بين رأس المال والمعلومات والعلم ما يفوق ما تستطيع صناعة الألعاب حشده. وقد أدت إنجازاتها، التي سعت إلى تحقيقها باسم عائدات المراقبة، إلى إنتاج نموذج أولي للمجتمع الآلي ومبادئه الاجتماعية، لا سيما لأصغرنا سنّاً. ثمة الكثير مما يمكننا استيعابه حول التجربة الحية للخلية في التحديات التي يواجهها شباب شاء القدر أن يصلوا إلى سن الرشد في هذا الوسط الاجتماعي الجديد الذي تكرّس فيه قوى رأس المال جهودها لإنتاج نوع من الفرض والإجبار. ويتفاخر مدير تسويق فيسبوك علناً بأن أدواته الدقيقة تشكّل وسيلة "لا تجعل المستخدمين يشيخون بنظرهم"، لكن الشركة كانت حذرة للغاية بشأن التصميم التي تجعل المستخدمين، ولا سيما الشباب، عاجزين عن الإشاحة بنظرهم".

هناك ثغرات معينة في الجدار. في عام 2017 مثلاً، اعترف شون باكر، المؤسس المشارك في شركة نابستر، والرئيس السابق لشركة فيسبوك، صراحة بأن تصميم موقع فيسبوك كان يهدف استهلاك أقصى قدر ممكن من وقت المستخدمين ووعيهم. وكانت الفكرة هي إرسال "جرعة صغيرة من الدوبامين من حين لآخر" - أو ما يُعرف بـ "التعزيز المتغير" - على شكل "إعجابات" وتعليقات. والهدف هو إبقاء المستخدمين

(1127) ناتاشا داو شول، "احذروا: منطقة الآلات القادمة"، واشنطن بوست، 6 يوليو/ تموز 2008 (الخط المائل يعود لي).

(1128) انظر شول، الإدمان بالتصميم، 174.

ملتصقين بالشبكة، يطاردون تلك الإعجابات ويتركون وراءهم سيلًا من المواد الخام. (1129)

حدّد شافر، الباحث في مجال الإدمان، خمسة عناصر تميز هذه الحالة من الفرض والإجبار: تكرار الاستخدام، ومدة القيام بالعمل، المقدرة، وطريقة الإدارة، وسمات اللاعب. نحن نعلم ما يكفي عن كثرة استخدام الشباب لوسائل التواصل الاجتماعي، والوقت الذي يقضونه في ذلك. لكن ما نحتاج إلى فهمه هو: (1) السمات النفسية التي تجذبهم إلى وسائل التواصل الاجتماعي في المقام الأول (اليد)، (2) ممارسات التصميم التي تزيد من المقدرة لتحويل الميول إلى حاجة لا تُشبع (القفاز)، و(3) العواقب النفسية والعاطفية لقدرة فيسبوك المتزايدة على إغراء الشباب بالسعي وراء منطقة خاصة بهم.

خذ بعين الاعتبار اللحظات الأخيرة في مقال نشرته صحيفة واشنطن بوست عام 2017، عن فتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، وهو جزء من سلسلة تروي "كيف يكون المرء عندما يكبر في عصر الإعجابات والضحكات والتوق". كان عيد ميلادها في ذلك اليوم، وكان السؤال الوحيد الذي سيحدّد مستوى سعادتها هو: هل يجبّها أصدقاؤها بما يكفي لنشر صورها على صفحاتهم تقديرًا لها في هذه المناسبة؟ "تصفّح، تنتظر. حتى يظهر مربع الإشعارات الصغير". (1130) وبغض النظر عن عمرك، من منا لا يشعر بموجة اعتراف مؤلمة؟ لطالما كانت المراهقة فترة يكون فيها الشعور بقبول "الآخرين" وتقديرهم والاندماج معهم بأهمية الحياة والموت، ولم تكن وسائل التواصل الاجتماعي مُلزمةً بجعلها كذلك. هل تختلف المراهقة اليوم حقًا عما كانت عليه في أي عصرٍ مضى؟ الإجابة هي نعم... ولا.

اكتُشِفَت مرحلة المراهقة رسميًا في الولايات المتحدة عام 1904 من قبل جي

(1129) أليكس هيرن، "لا تُفرط في تعاطي ما تقوم بتوريده" - لماذا لا يستخدم مدراء وسائل التواصل الاجتماعي وسائل التواصل الاجتماعي، الغارديان، 23 يناير/كانون الثاني 2018.
(1130) جيسيكا كونتيريرا، "هكذا يكون الأمر عندما تكبر في عصر الإعجابات والضحكات والتوق"، واشنطن بوست، 25 مايو/أيار 2016.

ستانلي هول، وحتى في ذلك الوقت، حدد هول، أول طبيب نفسي في البلاد، تحديات الشباب في سياق سريع التغير "لحياتنا الحضرية فيما يشبه بيتًا زجاجيًا دافئًا يميل إلى جعل كل شيء ينضج قبل أوانه".⁽¹¹³¹⁾ فعندما كان يكتب عن المراهقين في عام 1904، لاحظ أن المراهقة هي فترة من التوجّه المتطرّف نحو المجموعة المماثلة: "يبدو أن البعض لا يملكون أي مورد للسعادة في أنفسهم لفترة من الوقت، بل يعتمدون بشكل هائل على زملائهم في سعادتهم".⁽¹¹³²⁾ وأشار أيضًا إلى إمكانية ظهور القسوة داخل المجموعة المماثلة، وهي الظاهرة التي يطلق عليها علماء النفس المعاصرون اسم "العدوان العلائقي". وبعد عقود من الزمن، وصف عالم النفس التنموي إريك إريكسون التحدي الرئيس للمراهقة باعتباره "تكوين الهوية"، وكان قد بذل الكثير من الجهود لتفسير مرحلة المراهقة في القرن العشرين. أكّد إريكسون على كفاح المراهقين لبناء هوية متماسكة من خلال "الترايط" المتبادل بين زمريهم. وتحدث عن وجود "الأزمة المعيارية" التي تنشأ عندما تتطلّب أسئلة جوهرية عن "الصواب" و"الخطأ" موارد داخلية مرتبطة بـ"التأمل" و"التجربة الشخصية". يؤدّي الحل السليم لهذا الصراع بين الذات والآخر إلى شعور دائم بالهوية.⁽¹¹³³⁾

يتفق معظم علماء النفس اليوم على أن طول أعمارنا، إلى جانب تحديات مجتمع يعتمد على المعلومات، قد أطال الفترة بين الطفولة والبلوغ. وقد استقرّ الكثيرون على مفهوم "البلوغ الناشئ" للإشارة إلى السنوات بين الثامنة عشرة وأواخر العشرينيات كمرحلة حياتية جديدة: فالبلوغ الناشئ بالنسبة إلى القرن الحادي والعشرين هو بمنزلة المراهقة بالنسبة إلى القرن العشرين.⁽¹¹³⁴⁾ وعلى الرغم من تبني الباحثين المعاصرين لمجموعة

(1131) غرانفيل ستانلي هول، المراهقة: سيكولوجيتها وعلاقتها بعلم وظائف الأعضاء وعلم الإنسان وعلم الاجتماع والجنس والجريمة والدين والتعليم (ممفيس، تينيسي: الكتب العامة، 2013)، 1:3.

(1132) هول، المراهقة، 1:84.

(1133) إريك هـ إريكسون، الهوية ودورة الحياة (نيويورك: نورتون، 1994)، الصفحات 126-127. انظر أيضًا إريك هـ إريكسون، الهوية: الشباب والأزمة (نيويورك: ديليو. ديليو. نورتون، 1994)، وخاصة الصفحات 128-135.

(1134) لمقدمة حول هذا المفهوم، انظر كتاب جيفري جينسن أرنز، مرحلة البلوغ الناشئ: الطريق المتعرج من أواخر سنوات المراهقة وحتى العشرينيات (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2006).

متنوعة من الأساليب والنهاج، يتفق معظمهم على أن التحدي الأساسي الذي يواجه مرحلة البلوغ الناشئ هو التمييز بين "الذات" و"الآخرين". (1135)

ثمة إجماع واسع على أن طول أعمارنا يتطلب منا غالبًا إعادة النظر في الأسئلة الجوهرية المتعلقة بالهوية أكثر من مرة خلال حياتنا، لكن الباحثين يتفقون على أن النجاح النفسي خلال مرحلة البلوغ المبكر يعتمد على حلّ بعض مشكلات الهوية كأساس للانتقال نحو مرحلة البلوغ الكامل. وكما أشار أحد الباحثين: "إن التحدي الرئيس لمرحلة البلوغ المبكر هو أن تصبح مؤلف حياتك الخاصة". (1136) من منا لا يدرك هذا النداء؟ هذا التحدي الوجودي مستمرّ، وهو مصدر تواصل يربط الأجيال. لكن ما تغير هو الظروف التي يجب على الشباب اليوم مواجهتها.

3- دليل على الحياة

إن مرحلة البلوغ الناشئ هي "نقطة الصفر" في النضال من أجل "الاستقلال العلائقي" الذي يؤهل الشباب للانتقال إلى مرحلة البلوغ، كما يصفها عالم النفس في جامعة نورتردام دانييل لابسلي وريان وودبيري. (1137) ويقصدان "بالاستقلال العلائقي" التأكيد على فكرة أن الاستقلال ليس توصيفًا مبسّطًا "للفردانية"، غير مثقل بالتعلّق أو التعاطف، بل هو شيء يُصيب التوازن الحيوي بين تنمية الموارد الداخلية والقدرة على الألفة والعلاقة. تتطلب مرحلة البلوغ الناشئ "مساومة صعبة" لتأسيس ذات منفصلة عن الآخرين ولكنها لا تزال متصلة بهم، وتمنح نوعية هذه المساومة الداخلية "مرحلة البلوغ الناشئ شعورًا بالتوقع والإلاح"، مما يساعد على الانتقال

(1135) انظر، على سبيل المثال، لورانس شتاينبرغ وريتشارد م. ليرنر، "الدراسة العلمية للمراهقة: تاريخ موجز"، مجلة المراهقة المبكرة 24، العدد 1 (2004): 45-54؛ دانيال لابسلي وريان د. وودبيري، "التطور المعرفي الاجتماعي في مرحلة البلوغ الناشئ"، في دليل أكسفورد لمرحلة البلوغ الناشئ (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2015)؛ ويم ميوس، "التطور النفسي والاجتماعي للمراهقين: مراجعة للنماذج والأبحاث الطولية"، علم النفس التنموي 52، العدد 12 (2016): 1969-1993؛ جيفري جينسن أرنييت وآخرون، مناقشة مرحلة البلوغ الناشئ: مرحلة أم عملية؟ (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2011). (1136) دان ب. مالك أدامز، "تأليف الحياة في مرحلة البلوغ الناشئ"، في كتاب أكسفورد المرجعي لمرحلة البلوغ الناشئ (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2015)، ص 438. (1137) لابسلي وودبيري، "التطور المعرفي الاجتماعي"، 152.

حتى مع هذه الرؤى، يظلّ من الصعب أن نستوعب بشكل كامل تلك التجارب الملموسة للشباب الذين وصفهم هول بدقة قبل أكثر من قرن بأنهم "لا يملكون أية موارد في أنفسهم على ما يبدو". لعلّ أصعب ما يميّز هذه المرحلة هو غياب "الشعور الداخلي بالذات" في الفترة التي تسبق المفاوضات الصعبة. إنها مرحلة أكون فيها "أنا" كما يعتقد الآخرون عني، وتكون مشاعري مرتبطة بكيفية تعامل "الآخرين" معي. وبدلاً من شعور راسخ بالهوية، لا نجد سوى حرباء تعيد إظهار نفسها وفقاً للمرأة الاجتماعية التي تصوّرّها. ولا يكون "الآخرون" أفراداً في هذه الحالة، بل هم الجمهور الذي أقدم عرضي أمامه. فمن أكون "أنا"، هو أمر يعتمد على هذا الجمهور. فهذه الحالة من الوجود في المرأة هي "اندماج" خالص، وهي تجسّد معنى فتاة تبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا تنتظر بفارغ الصبر ظهور صندوق الإشعارات الصغير كعلامة على وجودها وقيمتها. ولا يكون هناك وجود للشباب، الذي لم يتمكّن بعد من إنشاء مساحة داخلية لنفسه، إلا في وجهة نظر الآخر عنه. بغياب "الآخرين" تنطفئ الأنوار. الغضب غير وارد: لا يجرؤ المرء على التصرف بطريقة منقّرة للآخرين الذين يشكّلون مرآته الخاصة، وبالتالي الدليل على حياته.

(1138) لابسلي ووودبري، 155. غالباً ما تتحوّل النقاشات الأكاديمية حول التوازن بين الفردية والتعلّق إلى أسئلة عن الثقافة. ما مدى عالمية هذه الرؤى التنموية؟ يوجد في مراجعة لابسلي لهذه المسألة مقطعٌ أراه متوازناً ومعقولاً:

إن كيفية تطوّر الفردية في مختلف الجماعات العرقية، وفي مختلف البيئات الثقافية، وداخل الحدود الوطنية أو في العيّات العابرة للحدود الوطنية، كلها مسائل تخضع للبحث التجريبي. ويمثل التوتر بين الفاعلية (القدرة أو التصرف) والتواصل ثنائية أساسية في الوجود الإنساني (باكان، 1966) من وجهة نظرنا. وقد تُظهر كيفية قياسه تبايناً بين الثقافات. قد تمنح بعض المجتمعات الأولوية للتواصل، لكن ذلك لا يُهمّل القدرة على التصرف. وقد تمنح مجتمعات أخرى الأولوية للفاعلية، لكن التوق إلى التعلّق والتواصل والترابط لا ينعمد إطلاقاً. علاوة على ذلك، تختلف كيفية ظهور القدرة على الفاعلية والتواصل خلال حياة الفرد نفسه، اعتماداً على الحالة الاجتماعية، أو أولويات التطوّر، أو ظروف الحياة. ومهما كانت الطريقة التي يتم بها التوصل إلى حل وسط بين الفاعلية والتواصل، فإن مرحلة البلوغ الناشئ هي فترة النمو التي يتعين خلالها أن تنشأ المساومة الصعبة، مع ما يترتب على ذلك من آثار مهمة فيما يتعلّق بالتكيف اللاحق في مرحلة البلوغ.

المرجع في هذا المقتطف هو كتاب ديفيد باكان بعنوان: "ازدواجية الوجود الإنساني: العزلة والتواصل لدى الإنسان الغربي (بوسطن: بيكون، 1966).

يمكن بهذا المعنى إعطاء وصف دقيق وصادق للشباب، الذي يشعر بأنه مضطّر لاستخدام وسائل التواصل الاجتماعي، بأنه متمسك بالحياة العزيزة، وأنه لا يزال على قيد الحياة في نظر الآخرين، لأنها الحياة الوحيدة التي يملكها، حتى لو كانت مؤلمة. ووفقاً لوصف عالم النفس التطوّري روبرت كيغان لتجربة المراهقة قبل وقت طويل من ظهور الفيسبوك، "لا يوجد ذات مستقلة عن سياق 'إعجاب الآخرين'" (1139). وهذا ليس عيباً أخلاقياً أو عاطفياً، بل هو حقيقة من حقائق الحياة في هذه اللحظة التطوّرية، ويؤدي إلى عواقب معينة يمكن التنبؤ بها. فعلى سبيل المثال، يميل الإنسان إلى العمل من خلال المقارنة الاجتماعية. يمكن أن يكون الإنسان فريسة سهلة للتلاعب بوجود دفاعات ضعيفة أمام الضغوط الاجتماعية وغيرها من أشكال التأثير الاجتماعي. ويمكن بسهولة لنظام معتقدات ثابت لمجموعة راسخة أن يملأ الفراغ الداخلي، ويستبدل بعملية بناء الذات هوية مستمدة من مصادر خارجية. (1140)

إن الخروج من حالة "الاندماج" يعني انتقال المرء من كونه شخصاً مكوّناً من علاقاته إلى كونه شخصاً لديه علاقاته. وهذا يتطلب إعادة تشكيل عميقة لكيفية فهمنا لتجربتنا. وهذا يعني، بلغة كيغان، الابتعاد عن "ثقافة التبادلية" إلى "ثقافة معقدة تقوم على تشكيل الهوية، والاستقلال الذاتي، وتشكيل المعتقدات الداخلية". يعتمد هذا التحوّل على مواجهة أشخاص وتجارب حياتية تتطلب ما هو أبعد من مجرد انعكاس للصورة في المرآة. يتطلب أفراداً ومواقف تُصرّ على صوتنا المتكلم، مما يدفعنا إلى صياغة استجابتنا الفريدة للعالم.

هذا أداء داخلي يُفقد من التسليم أو التحويل، حيث نبدأ بتكوين شعور داخلي بالحقيقة الصحيحة والسلطة الأخلاقية. وهذه هي النقطة المرجعية التي نستطيع من خلالها أن نقول: "أنا أفكر"، "أنا أشعر"، "أنا أو من". ويتعلّم هذا "الأنا" تدريجياً أن يشعر بامتلاكه لتجاربه. ويستطيع أن يتأمّل ذاته، ويتعرّف عليها، وينظّمها بخيارات

(1139) روبرت كيغان، الذات المتطورة: المشكلة والعملية في التطور البشري (كامبريدج، ماساتشوستس: جامعة هارفارد، 1982)، 96. انظر المناقشة على الصفحات 95-100.
(1140) إريكسون، الهوية: الشباب والأزمة، 130.

مقصودة وأفعال هادفة. وتُظهر الأبحاث أن هذه القفزات الكبيرة في بناء الذات تتحفّز من خلال تجارب مثل التأمل المنظّم والصراع والتنافر والأزمات والفشل. ويرفض من ساهم في إطلاق هذا الاتصال الداخلي الجديد أن يكون بمنزلة مرآة لنا. فهو يرفض الاندماج ويفضّل المعاملة الحقيقية بالمثل. ويشير كيغان إلى أنه "من يدخل في حياة شخص معيّن قد يكون العامل الأعظم الذي يؤثر على ما ستصبح عليه تلك الحياة". (1141)

ما هي عواقب الفشل في تحقيق توازن سليم بين الداخل والخارج، وبين الذات والعلاقات؟ تُحدد الدراسات السريرية أنماطاً مرتبطة بهذا الركود التطوّري. ولن يُدهشنا أن تشمل هذه الأنماط عدم القدرة على تحمّل الوحدة، والشعور بالاندماج مع الآخرين، وشعوراً غير مستقرّ بالذات، بل حتى الحاجة المُفرطة للسيطرة على الآخرين باعتبارها وسيلة لإبقاء المرأة قريبة. إن فقدان المرأة هو المكافئ الحقيقي للفناء. (1142)

تُعدّ الموارد الداخلية أمراً بالغ الأهمية للقدرة على بناء الألفة والعلاقات، وهي تحديات أصبحت أكثر استهلاكاً للوقت مع كل مرحلة جديدة من مراحل العصر الحديث. وبينما يظل الشباب ملزمين كعادتهم بمهمة بناء الذات الوجودية الدائمة، تُشير قصتنا إلى ثلاث طرق حاسمة تتقاطع فيها هذه المهمة الآن مع التاريخ وظروف الوجود الفريدة في عصرنا.

أولاً، أدّى تراجع المجتمع التقليدي وتطوّر التعقيد الاجتماعي إلى تسريع عمليات التفرّد. علينا أن نعتد على قدراتنا الذاتية ومواردنا الداخلية أكثر من أي وقت مضى في تاريخ البشرية، وعندما تُحبط هذه الموارد، يصبح الشعور بالعزلة والتشرّد مريراً.

ثانياً، أصبح التواصل الرقمي وسيلةً ضروريةً للمشاركة الاجتماعية، ويعود ذلك جزئياً إلى فشلٍ مؤسسيٍّ واسع النطاق في التكيّف مع احتياجات مجتمعٍ جديدٍ من الأفراد. ويعمل وجود الحاسوب في البنية التحتية الاجتماعية على تغيير طبيعة التواصل

(1141) كيغان، الذات المتطورة، 19.

(1142) لايسلي و وودبيري، "التطور المعرفي الاجتماعي"، 152.

البشري، ويسلّط الضوء على السلوك الفردي والجماعي مع انعكاسه في موجات التغريدات والإعجابات والنقرات وأنماط التنقل واستعلامات البحث والمنشورات وآلاف الأنشطة اليومية الأخرى.

ثالثاً، تُهيمن رأسمالية المراقبة على التواصل الرقمي وتستغلّه. وتقول الباحثة دانا بويد في دراستها للحياة الاجتماعية للمراهقين المتصلين بشبكات التواصل الاجتماعي: "ما أصبح مختلفاً نتيجة لوسائل التواصل الاجتماعي هو أن رغبة المراهقين المستمرة في التواصل الاجتماعي والاستقلالية يتم التعبير عنه الآن لدى الجماهير المتصلة بالإنترنت".⁽¹¹⁴³⁾ صحيح أنه من أجل التواصل، تُصبح معاناة الهوية ظاهرةً لمجموعةٍ أوسع. لكن مفهوم "الجماهير المتصلة بالإنترنت" يُثير التناقض. في الواقع، لا يزداد وضوحنا ويُفرضُ بسبب عمومية المساحات الشبكية فقط، بل بسبب خصخصتها أيضاً. تتكشف حياة الشباب الآن في فضاءات رأس المال الخاص التي يملكها ويديرها رأسماليو المراقبة بواسطة "توجههم الاقتصادي"، كما تُفعلُ في ممارسات مصممة لتضخيم عائدات المراقبة. وهذه المساحات الخاصة هي الوسائل التي يُستدعى من خلالها كل شكل من أشكال التأثير الاجتماعي - الضغط الاجتماعي، والمقارنة الاجتماعية، والنمذجة، والتحفيز الباطني - لضبط السلوك، وحشده، والتلاعب به باسم عائدات المراقبة. هذا هو الموقع الذي يُتوقع فيه أن يبرز النضج.

بينما يمكن للمسؤولين ومطوّري ماكينات القمار أن يثرثروا ويتباهوا، ويشاركوا إنجازاتهم في مجال "الإدمان عن طريق التصميم"، يبقى مشروع رأسمالية المراقبة معتمداً على السرية. وهكذا انبثق إلى الحياة خطاب كامل، مدرّب على فكّ شيفرة التصميم الخفي الذي يمنع المستخدمين في البداية من إشاحة نظرهم، ثم يجعلهم عاجزين عن القيام بذلك. هناك مجموعات دردشة ومواضيع استفسار لا نهاية لها، حيث يحاول الناس معرفة ما تفعله شركة فيسبوك فعلاً. وتناقش ممارسات التصميم ذات الصلة في التقارير الصحفية، وكذلك في كتب ذات عناوين مثل "الشّر

(1143) دانا بويد، الأمر معقد: الحياة الاجتماعية للمراهقين المتصلين بالشبكات (نيوهافين، كونيتيكت: جامعة يال، 2014)، 8.

بالتصميم " (Evil by Design)، و"الإدمان" (Hooked)، و"لا يمكن المقاومة" (Irresistible)، وكلها تساعد في إضفاء طابع طبيعي على الأساليب التي نناقشها ذاتها. فعلى سبيل المثال، يشرح كريس نودر، مؤلف كتاب "الشرّ بالتصميم"، ومستشار تجربة المستخدم، أن التصميم الشرير يهدف إلى استغلال نقاط الضعف البشرية من خلال إنشاء واجهات "تجعل المستخدم منخرطاً عاطفياً في القيام بشيء يفيد التصميم أكثر مما يفيد نفسه". وهو يدرب قراءه على التخدير النفسي، ويحثهم على قبول حقيقة أن هذه الممارسات أصبحت هي المعيار، ويقترح على المستهلك والمصمم إيجاد طرق "لتحويلها إلى صالحه". (1144)

إذا أردنا أن نحكم على مرحلة الانتقال من المراهقة إلى النضج في عصرنا، يتعين علينا أن نفهم شيئاً معيناً عن الممارسات المحددة التي تحول المشاركة الاجتماعية إلى قفاز لا يحتضن اليد فحسب، بل يجذبها ويشلها من أجل تحقيق الضرورات الاقتصادية. يعتمد موقع فيسبوك على ممارسات محددة تعمل على تغذية ميول الناس، ولا سيما الشباب، لمعرفة أنفسهم بالنظر "من الخارج إلى الداخل". والأهم هو أنه كلما ازدادت الحاجة إلى "الآخرين"، قلّت قدرة الإنسان على البدء بعملية بناء الذات. إن الفشل في تحقيق التوازن الإيجابي بين الحياة الداخلية والخارجية أمر مدمر إلى درجة أن لابسلي ووديري يقولان إنه موجود "في قلب" معظم اضطرابات الشخصية لدى البالغين. (1145)

على سبيل المثال، تسلط نودر الضوء على إتقان فيسبوك المبكر لمفهوم "الدليل الاجتماعي": "يتحدّد الكثير من سلوكنا من خلال انطباعاتنا عن ماهية الشيء الصحيح الذي ينبغي أن نفعله... بناءً على ملاحظتنا لما يفعله الآخرون... يُعرف هذا التأثير باسم الدليل الاجتماعي". (1146) تستغل الشركة هذا الجانب من طبيعة المراهقين باستخدام رسائل من "الأصدقاء" لجعل المنتج أو الخدمة أو النشاط يبدو "أكثر

(1144) كريس نودر، الشر بالتصميم: تصميم التفاعل لتوجيهنا إلى الإغراء (إنديانا بوليس: وايبي، 2013)،

xv.

(1145) لابسلي ووديري، "التطور المعرفي الاجتماعي"، 152.

(1146) نودر، الشر بالتصميم، 5.

شخصية وعاطفية". استخدم هذا التكتيك الشائع، الذي يُعجب بتتلاند به بشدة، في تجربة التصويت على فيسبوك. فهو يُغذي رغبة الشباب في كسب التأييد وتجنّب الرفض، من خلال اتباع ما يفعله الآخرون.

يُعتبر زر "الإعجاب" أهم ابتكارات فيسبوك في مجال الهندسة السلوكية، حيث أصبح منتشرًا على نطاق واسع بعد اعتماده عام 2009. ووفق منشورات مدونة معاصرة كتبها أندرو بوسورث، المدير التنفيذي المخضرم في فيسبوك، بقي زر "الإعجاب" محل نقاش داخلي لأكثر من عام ونصف قبل قرار زوكربيرغ النهائي بدخه في الموقع. وكان قدر رفض الفكرة أكثر من مرة، خوفًا من أنها قد تقلّل من الميزات الأخرى التي تهدف إلى رفع الربح، مثل تطبيق "بي.كون" (Beacon) المثير للجدل. ويجدر بالذكر أن المؤسّس لم يتبنّ هذا الزرّ إلا بعد أن كشفت عنه بيانات جديدة باعتباره مصدرًا قويًا للفائض السلوكي الذي ساعد في تعزيز جاذبية تطبيق "نيوز فيد" فيسبوك، وقد تم قياسه من خلال حجم التعليقات. (1147)

يبدو أن إدارة فيسبوك لم تدرك إلا بشكل تدريجي أن هذا الزرّ قد يحول المنصة من سجلّ إلى هجمة من المرايا، ومن قراءة سلبية إلى بحر نشط لتأمّلات متبادلة من شأنها أن تربط المستخدمين بمحتوى تطبيق "نيوز فيد" الخاص بهم. وبالنسبة إلى العرض، كان زرّ "الإعجاب" عبارة عن مرآة أحادية الاتجاه بحجم كوكب، قادرة على زيادة إمدادات المواد الخام بنسبة كبيرة جدًا. كلما ازداد عدد "الإعجابات" التي يديها المستخدم، ازدادت قدرته على إعلام فيسبوك بشكل يده وتكوينها الدقيق، مما يسمح للشركة بتشديد القفّاز باستمرار، وزيادة القيمة التنبئية لإشاراته.

توفّر البروتوكولات في موقع إنستغرام، التابع لشركة فيسبوك، مثالًا جيدًا آخر عن هذه العمليات. هنا يرى المرء هذه الروابط الوثيقة، حيث يجذب الإيجار المزيد من الفائض لتغذية المزيد من الإيجار. يجذب إنستغرام مستخدميه بصور تجذب اهتماماتهم، فكيف يختار هذه الصور من بين ملايين الصور المتاحة؟ ستكون الإجابة

(1147) ما هو تاريخ زرّ مذهل (Awesome Botton)، (الذي أصبح في النهاية زرّ الإعجاب) على فيسبوك؟ كورا، 19 سبتمبر 2017.

الواضحة، وإن كانت خاطئة، هي أن موقع إنستغرام يحلّل محتوى الصور التي تُعجبك، ثم يُظهر لك المزيد منها. وبدلاً من ذلك، تُستمدّ تحليلات إنستغرام من فائض السلوك: النصّ المظلل. وكما وصفه أحد المدراء: "أنت تبني توقعاتك وفقاً لإجراء معين، ثم تُجري تعديلات وفقاً لهذا الإجراء". والإجراءات هي إشارات مثل "المتابعة" و"الإعجاب" و"المشاركة"، الآن وفي الماضي. ومن هنا تتسع الدائرة. من شاركت منشوره، من تابعت، ولمن وضعت إشارة إعجاب؟ "يُنقّب إنستغرام في الشبكة الاجتماعية متعدّدة الطبقات بين المستخدمين"، لكن هذا التنقيب يعتمد على سلوكيات تتغيّر بمرور الوقت، ويمكن ملاحظتها وقياسها: الفائض الديناميكي للنصّ الظليّ المستمدّ من ذاكرة موقع إنستغرام الخاصة، وكذلك من فيسبوك، وليس المحتوى المعروض في النصّ العام.⁽¹¹⁴⁸⁾ يكون للصورة التي تراها في نهاية المطاف صلة غريبة بحياتك. والمزيد ينتج المزيد.

من ناحية الطلب، سرعان ما أصبحت "إعجابات" فيسبوك مرغوبة ومُشتهاة، وتحولت إلى نظام مكافآت عالمي، أو ما وصفه أحد مصممي التطبيقات الشباب بـ"كوكاين جيلنا". أصبحت تلك "الإعجابات" جرعات الدوبامين المتغيرة التوقيت، مما دفع المستخدمين إلى مضاعفة رهاناتهم "في كل مرة يشاركون فيها صورة أو رابطاً إلكترونياً أو تحديثاً للحالة". ولا يصبح المنشور الذي لا يحصل على أية إعجابات مؤلماً على المستوى الشخصي فحسب، بل يصبح أيضاً بمثابة نوع من الإذانة العامة.⁽¹¹⁴⁹⁾ كان أغلب المستخدمين يتوقون في الواقع إلى المكافأة أكثر من خوفهم من الإذلال، وأصبح زر "الإعجاب" بمثابة توقيع فيسبوك، وانتشر عبر الكون الرقمي، ودمج المستخدمين بنشاط في نوع جديد من الاعتماد المتبادل الذي تم التعبير عنه في مهرجان للعطاء والتلقي.

لم يكن زرّ "الإعجاب" سوى بداية لما كان يُفترض أن يكون بناءً تاريخياً لعالم

(1148) انظر جون بول تيتلو، "كيف يتعلم إنستغرام من إعجاباتك لإبقائك متورطاً"، فاست كومباني، 7 يوليو/تموز 2017.

(1149) آدم ألتر، لا يمكن المقاومة: صعود التكنولوجيا المسببة للإدمان، والعمل على إبقائنا مدمنين (نيويورك: بنغوين، 2017)، ص 128.

اجتماعي جديد يتحدّد بالنسبة إلى الكثير من المستخدمين من خلال الاندماج مع المرأة الاجتماعية، وخاصة بين الشباب. وكما يسعى المقامرون إلى منطقة الاندماج مع الآلة، يسعى الشاب المنغمس في ثقافة التبادلية إلى منطقة الاندماج مع المرأة الاجتماعية. بالنسبة إلى أي شخص يُعاني فعلاً من أجل تحقيق التوازن بين الذات والآخر، يرجّح زر "الإعجاب" وأخواته كفة الميزان باستمرار نحو التراجع.

يُعتبر التاريخ القصير لتطبيق "نيوز فيد" من فيسبوك دليلاً آخر على فاعلية حلقات التغذية الراجعة المتزايدة الضيق، والهادفة إلى تشكيل هذا الاندماج واستدامته. عندما أُطلق تطبيق "نيوز فيد" (News Feed) للمرة الأولى عام 2006، تحوّل موقع فيسبوك من موقع يتعيّن على المستخدمين زيارة صفحات الأصدقاء لرؤية تحديثاتهم، إلى موقع تُشارك فيه هذه الرسائل تلقائياً في تدفق على الصفحة الرئيسة لكل شخص. انضمّ مئات آلاف المستخدمين إلى جماعات المعارضة، رافضين انتهاك الشركة الأحادي للخصوصية. واستذكر موقع أخبار التكنولوجيا "تك كرانش" في الذكرى السنوية العاشرة لتطبيق "نيوز فيد" عام 2016: "لم يكن أحد مستعداً لأن يصبح نشاطه على الإنترنت مادة للاستهلاك الجماهيري فجأة"، حيث قدّم للقراء "الدليل الشامل للتطبيق"، مع تعليمات حول "كيفية جذب المزيد من الأشخاص لمشاهدة محتواك"، وكيفية الظهور "بشكل بارز"، وكيفية التفاعل مع "جمهورك".⁽¹¹⁵⁰⁾ قبل عشر سنوات، أشار أحد مراسلي موقع "تك كرانش" إلى أن "المستخدمين ضعيفي المشاركة سرعان ما سيجدون أنهم خارج دائرة الاهتمام، وأظن أنهم سيعودون إليها سريعاً".⁽¹¹⁵¹⁾

نجح اللعب على وتر الهجران والخوف من عدم الظهور في عام 2006، عندما كان لدى فيسبوك 9.5 مليون مستخدم فقط (وكان يُطلَب عنوان بريد إلكتروني جامعي للتسجيل)، وأدّى ذلك إلى الموافقة على كل تعديل لاحق ظهر على تطبيق "نيوز فيد"

(1150) جوش كونستاتين، "كيف يعمل تطبيق 'نيوز فيد' من فيسبوك"، تك كرانش، 6 سبتمبر/ أيلول 2016.

(1151) مايكل أرينغتون، "ثورة مستخدمي فيسبوك، ردود فيسبوك"، تك كرانش،

حيث جمع فيسبوك بعد ذلك أكثر من ملياري مستخدم. ووفقًا لمجلة التايم عام 2015، أصبح تطبيق "نيوز فيد" "بؤرة أساسية" لنجاح إيرادات الشركة و"اللوحة الإعلانية الأعلى قيمة على وجه الأرض" بعد ثلاث سنوات فقط من طرح أسهم فيسبوك للمرة الأولى في الأسواق.⁽¹¹⁵²⁾

يُعدّ "نيوز فيد" أيضًا محور المرأة الاجتماعية. ففي السنوات التي تراوحت بين الاشمئزاز والتبجيل، أصبح تطبيق "نيوز فيد" أكثر موضوعات علوم البيانات خضوعًا للتدقيق على فيسبوك، وموضوعًا للابتكار التنظيمي المكثف، وهذا كله على مستوى من التطور، وكثافة لرأس المال، الذي قد يربطه المراء بشكل طبيعي بالدافع لحلّ مشكلة الجوع في العالم، أو علاج السرطان، أو تجنب دمار المناخ.

بالإضافة إلى آلية استهداف الإعلانات البرمجية المعقدة فعلاً، اعتمدت وظيفة "نيوز فيد"، في مطلع عام 2016، على إحدى أكثر خوارزميات التنبؤ سرّية في العالم، وكانت مستمّدة من منظور فائق لأكثر من 100 ألف عنصر من الفائض السلوكي، والتي تُحسَبُ باستمرار، وفقًا لما قاله ويل أريسموس في مجلة "سلايت"، لتحديد درجة "الأهمية الشخصية" لآلاف المنشورات المحتملة أثناء "مسح وجمع كل ما نُشر سابقًا من قبَلِ أصدقائك، وكل من تتابعهم، وكل مجموعة تنتمي إليها، وكل صفحة فيسبوك أعجبتك. إن المنشور الذي تراه في أعلى تطبيق 'نيوز فيد' خاصتك، قد اختير من بين آلاف المنشورات الأخرى باعتباره المنشور الأعلى احتمالًا لجعلك تضحك أو تبكي أو تبسم أو تنفر عليه أو تُعجب به أو تشاركه أو تعلّق عليه".⁽¹¹⁵³⁾ يشتدّ القفّاز حول اليد مع حلقات التغذية الراجعة المغلقة التي تُمكنها النظرة الفائقة، وتفضّل المنشورات من الأشخاص الذين تفاعلت معهم بالفعل، والمنشورات التي استقطبت مستويات عالية من المشاركة من الآخرين، والمنشورات التي تشبه تلك التي تفاعلت معها

(1152) فيكتور لوكرسون، "هكذا يعمل تطبيق 'نيوز فيد' في موقع فيسبوك الخاصة بك فعليًا"، مجلة تايم، 9 يوليو/تموز 2015.

(1153) انظر مقال كونستين، "كيف تطبيق 'نيوز فيد' من فيسبوك". الاقتباس من مقال ويل أوريوموس، "من يتحكم في 'نيوز فيد' فيسبوك؟"، مجلة سلايت، 3 يناير/كانون الثاني 2016.

في عام 2015، طُرِحَت "أداة التنظيم" (See First) لتوجيه البيانات المباشرة حول شكل المرأة الاجتماعية للمستخدم من خلال طلب أولوياته الشخصية لتطبيق "نيوز فيد". يصف كبير مسؤولي المنتجات في فيسبوك اهتمام الشركة بتزويدك بما هو "الأكثر أهمية" الذي يجب عليك معرفته اليوم من "كل ما حدث على الأرض... تم نشره في أي مكان بواسطة أي من أصدقائك، أو أي فرد من عائلتك، أو أي مصدر إخباري".⁽¹¹⁵⁵⁾ ويضيف كل منشور مُدرَج في "نيوز فيد" الآن مجموعة من خيارات التعليقات الصحيحة: *أريد المزيد من هذا، ولا أريد أيًا من ذلك*. تُعدّ خطوط توريد الفائض المباشر هذه مصادر ابتكار مهمة تهدف إلى توسيع نطاق منطقة الاندماج، مما يزيد من ثبات القفّاز الذي يزداد ضيقًا. في عام 2016، أكّد مدير المنتجات في فيسبوك أن هذا التوريد المباشر للفائض "أدى إلى زيادة في التفاعل الإجمالي والوقت المستغرق على الموقع".⁽¹¹⁵⁶⁾

تهدف خبرة فيسبوك العلمية والتصميمية إلى إنشاء حلقة مغلقة تتغذى على ميول المستخدم الفرد نحو الاندماج مع المجموعة، والميل إلى الإفراط في مشاركة المعلومات الشخصية، وتعزز هذه الميول وتضخمها. على الرغم من أن هذه الثغرات أعمق ما تكون لدى الشباب، إلا أن الميل إلى الإفراط في المشاركة لا يقتصر عليهم. فقد ثبتت صعوبة الانضباط الذاتي في مشاركة الأفكار والمشاعر الخاصة وغيرها من المعلومات الشخصية بوضوح في البحوث الاجتماعية، ولُحِصَت في مراجعة مهمة عام 2015 أجراها أساتذة جامعة كارنيجي ميلون، أليساندرو أكوستي، ولورا برانديمارتي، وجورج لوينشتاين. واستنتج الباحثون أنه بسبب مجموعة من العوامل النفسية والسياقية، فإن "الناس غالبًا ما يجهلون المعلومات التي يتشاركونها، ويجهلون كيفية استخدامها، وحتى في المواقف النادرة عندما يكون لديهم معرفة كاملة بعواقب

(1154) كونستين، "كيف يعمل تطبيق "نيوز فيد" من فيسبوك".

(1155) انظر لوكرسون، "إليك كيف يعمل تطبيق "نيوز فيد" الخاص بك على موقع فيسبوك".

(1156) انظر أورييموس، "من يتحكم في تطبيق "نيوز فيد" من فيسبوك".

المشاركة، يكونون غير متأكدين من تفضيلاتهم الخاصة...". وحذر الباحثون من أن الناس "يتأثرون بسهولة بما يكشفون عنه من معلومات وبكمتيتها. كما يمكن استخدام ما يشاركونه للتأثير على مشاعرهم وأفكارهم وسلوكياتهم...". والنتيجة هي تغيير في "توازن القوى بين من يملكون البيانات ومن هم موضوعها". (1157)

تقف رؤية بنتلاند الفائقة إلى جانب فيسبوك، وهي مصدر استثنائي يُستعان به لإعادة تشكيل هذا الاندماج الطبيعي المنشود في فضاء حتمي. ويتحد العلم ورأس المال في هذا المشروع طويل الأمد. بالأمس كان زرّ "الإعجاب"، واليوم أصبح الواقع المعزّز، وستُضاف غداً ابتكارات جديدة إلى هذه المجموعة. إن نمو الشركة في تفاعل المستخدمين وتحقيق الفائض السلوكي وزيادة إيراداتها هو دليل على أن هذه الابتكارات تحقّق أهدافها. 535

يتوق الشباب إلى الخلية، ويمنحهم إياها فيسبوك، إلا أن ملكيتها هذه المرة تعود إلى رأسمالية المراقبة، حيث تديرها وتهندسها علمياً في دوامة متواصلة من الاندماج المتصاعد، مُحققةً بذلك معايير شافر الخمسة تحديداً لتحقيق حالة إدمان قهرية. ويتم تصميم القدرة الفاعلة (potency) وفقاً لوصفة تُملئها الصفات الخفية لأولئك الذين يتوقون إلى التقدير من المجموعة، لملء الفراغ الذي ستقف فيه الذات في نهاية المطاف.

قد لا تكون هذه الرغبات الدافع الوحيد لمستخدمي فيسبوك البالغ عددهم حالياً ملياري شخص، ولكنها تصف بدقة السمات التي صُممت حوافز فيسبوك على أساسها لتشكّل التأثير الأقوى. إن تسلّق جبل التوازن بين الذات والآخر مغامرة لا بدّ لنا جميعاً من خوضها: رحلة مليئة بالمخاطرة والصراع وعدم اليقين والاكتشاف المثير. ولكن ماذا يحدث عندما تُحوّل قوى رأسمالية المراقبة الجبل إلى سلسلة جبال؟ انظروا إلينا! نعم، أنتم على قيد الحياة! لا تُشيحوا أنظاركم! لماذا قد تشيحوا بأنظاركم؟ كيف يُمكنكم ذلك؟ اليوم، قد نُعجب بكم!

(1157) أليساندرو أكويستي، ولورا برانديمارتي، وجورج لوينشتاين، "الخصوصية والسلوك البشري في عصر المعلومات"، ساينس 347، العدد 6221 (2015): 509-514.

تشهد مجموعة أدلة على التكلفة النفسية للحياة في الخلية، حيث تصطدم خبرة الهندسة السلوكية لرأسالية المراقبة بالدافع البشري الذي أمضى قرونًا على طريق بناء الذات. يقدم الباحثون بالفعل إجابات على سؤالين رئيسين: ما هي العمليات النفسية التي تُسيطر على الخلية؟ ما هي العواقب الفردية والمجتمعية لهذه العمليات؟ وفقًا لأهم 302 دراسة بحثية كمية حول العلاقة بين استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والصحة النفسية (معظمها أُجري منذ عام 2013)، فإن العملية النفسية التي تُحدد تجربة فيسبوك هي ما يُطلق عليه علماء النفس "المقارنة الاجتماعية".⁽¹¹⁵⁸⁾ وهي تُعتبر عادة عملية طبيعية، وتلقائية تقريبًا، تعمل خارج الوعي، "تُفرض فعليًا على الفرد من قبل بيئته الاجتماعية" حيث نطبق معايير تقييم مكتسبة ضمنيًا من مجتمعاتنا وجماعتنا وعائلتنا وأصدقائنا.⁽¹¹⁵⁹⁾ وكما تقول إحدى مراجعات الأبحاث، "يُجرى في لحظة التعرض تقريبًا تقييمٌ شامل أولي لمدى التشابه بين الهدف والذات".⁽¹¹⁶⁰⁾ بينما نخوض غمار الحياة ونتعرض للآخرين، نقارن أنفسنا بطبيعة الحال على أسس التشابه والتباين - أنا مثلك. أنا مختلف عنك - إدراكات خفية تُترجم إلى أحكام - أنا أفضل منك. أنت أفضل مني.

أدرك الباحثون كيفية تلاقي هذه العمليات البشرية التلقائية مع الظروف المتغيرة لكل حقبة تاريخية. وعلى مدى تاريخ البشرية كله، عاش الناس في تجمّعات صغيرة، محاطين عادةً بأشخاص يشبهونهم إلى حد كبير. من غير المرجح أن تتضمن المقارنات الاجتماعية ضئيلة التنوع مخاطر نفسية كبيرة. تشير الأبحاث إلى أن انتشار التلفاز في

(1158) جيرري سولز ولاد ويلر، "نظرية المقارنة الاجتماعية"، في نظريات علم النفس الاجتماعي، تحرير بول أي. إم. فان لانغ، آري ديليو. كروغلانسكي، وإي. توري هيفيتز، المجلد 2 (ثاوزند أوكس، كاليفورنيا: سيغ، 2012)، الصفحات 460-482.

(1159) ديفيد آر. ميتي وجون رسكيند، "حجم الهزيمة وتفضيل المنافسين ذوي القدرات المتفوقة والمتشابهة"، مجلة علم النفس الاجتماعي التجريبي، المجلد 10، العدد 4 (1974): 333-351؛ انظر أيضًا تي. موسويلر وك. روتر، "ما فائدة الأصدقاء! استخدام المعايير الروتينية في المقارنة الاجتماعية"، مجلة علم النفس الاجتماعي والشخصية، المجلد 85، العدد 3 (2003): 467-481. (1160) سولز وويلر، "نظرية المقارنة الاجتماعية".

النصف الثاني من القرن العشرين زاد بشكل كبير من حدة المقارنات الاجتماعية وسليبتها، إذ أظهر أدلة واضحة على وجود حياة متنوعة وثريّة تختلف اختلافاً جذرياً عن حياة الفرد. وتوصّلت إحدى الدراسات إلى زيادة في جرائم السرقة مع انتشار التلفاز في المجتمع، بسبب إيقاظ الوعي والرغبة في السلع الاستهلاكية. وكانت إحدى القضايا ذات الصلة أن زيادة التعرّض للبرامج التلفزيونية التي تصوّر الثراء أدّت إلى "المبالغة في تقدير ثروة الآخرين، وزيادة عدم الرضا عن حياة الفرد".⁽¹¹⁶¹⁾

تُشكّل وسائل التواصل الاجتماعي حقبةً جديدةً في كثافة عمليات المقارنة الاجتماعية وانتشارها، لا سيما بين صغارنا، الذين يتواصلون باستمرار تقريباً عبر الإنترنت في مرحلة من حياتهم، حيث تكون هويتهم وصوتهم وقدرتهم الأخلاقية في طور التشكّل. في الواقع، يُعتبر التسونامي النفسي الناتج عن تجربة وسائل التواصل الاجتماعي غير مسبوق. إذا كان التلفزيون قد زاد من عدم الرضا عن الحياة، فماذا يحدث في فضاءات وسائل التواصل الاجتماعي اللامتناهية؟

يحرمننا التلفاز ووسائل التواصل الاجتماعي من لقاءات الحياة الحقيقية التي نشعر فيها بجوهر الآخر، ونشارك معه شيئاً من خصوصيتنا، وننشئ بالتالي بعض خيوط الانتماء الجماعي. لكن وسائل التواصل الاجتماعي، على النقيض من التلفاز، تتضمن عرضاً ذاتياً نشيطاً يميّز بـ "تضخّم الملف الشخصي"، حيث تُصاغ المعلومات الشخصية والصور والتحديثات لتبدو أكثر روعة تحسباً للمخاطر المرتبطة بالشعبية والقيمة الذاتية والسعادة.⁽¹¹⁶²⁾ يؤدي تضخّم الملف الشخصي إلى إثارة المزيد من

(1161) كي. هينيغان و إل. هيث، "تأثير إدخال التلفزيون على الجريمة في الولايات المتحدة: النتائج التجريبية والتداعيات النظرية"، مجلة الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، المجلد 42، العدد 3 (1982): 461-477؛ هيسونغ بانغ و ماري بيث أوليفر، "استكشاف آثار مشاهدة التلفزيون على جودة الحياة المدركة: منظور مُشترك للقيمة المادية والمقارنة الاجتماعية التصاعديّة"، مجلة الاتصالات الجماهيرية والمجتمع، المجلد 13، العدد 2 (2010): 118-138.

(1162) أماندا إل. فورست وجوان إف. وود، "عندما لا تنجح شبكات التواصل الاجتماعي"، مجلة العلوم النفسية 23، العدد 3 (2012): 295-302؛ لين تشيو وآخرون، "إظهار أفضل ما لديهم: الإفصاح العاطفي على فيسبوك"، مجلة علم النفس السيبراني والسلوك وشبكات التواصل الاجتماعي 15، العدد 10 (2012): 569-572.

التقييم الذاتي السلبي بين الأفراد عندما يقارن الناس أنفسهم بالآخرين، مما يؤدي بدوره إلى مزيد من تضخم الملف الشخصي، ولا سيما بين الشبكات الأكبر التي تتضمن "أصدقاء أكثر بعداً". ووفقاً لإحدى الدراسات، إن "توسيع شبكة الشخص الاجتماعية عبر إضافة عدد من الأصدقاء البعيدين عبر فيسبوك قد يكون ضاراً من خلال تحفيز المشاعر السلبية للمستخدمين". (1163)

من عواقب الكثافة الجديدة لمحفزات المقارنة الاجتماعية، وحلقات ردود الأفعال السلبية المرتبطة بها، حالة نفسية تُعرف باسم (FOMO)، أي "الخوف من أن تكون غائباً عن مجرى الأحداث". وهو شكل من أشكال القلق الاجتماعي، يُعرف بأنه "الشعور المزعج الذي يُسيطر عليك أحياناً بأن أقرانك يفعلون أكثر منك، أو يعرفون عنك، أو يمتلكون ما هو أفضل منك". (1164) إنها حالة تصيب الشباب، وترتبط بالمزاج السيئ وانخفاض مستوى الرضا عن الحياة. وقد ربطت الأبحاث بين الخوف من الغياب عن مجرى الأحداث والاستخدام القهري لفيسبوك: إذ يتابع المصابون به صفحاتهم على فيسبوك باستمرار - أثناء تناول الطعام، وأثناء القيادة، وفور الاستيقاظ أو قبل النوم، وهكذا. يهدف هذا الشعور القهري إلى إنتاج شعور بالراحة على شكل طمأنينة اجتماعية، لكن يتوقع أن يؤدي إلى مزيد من القلق والمزيد من البحث. (1165)

(1163) جيانغ مينغ ليو وآخرون، "هل يُشعرنا أصدقاؤنا على فيسبوك بالسوء؟ دراسة في المقارنة الاجتماعية والعاطفة"، مجلة أبحاث التواصل البشري، المجلد 42، العدد 4 (2016): 619-640. (1164) أندريو كي. برزبيلسكي وآخرون، "الارتباطات التحفيزية والعاطفية والسلوكية للخوف من الغياب عن مجرى الأحداث"، أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 29، العدد 4 (2013): 1848-1841. (1165) تشين-شيو ليو وآخرون، "إشباع الاحتياجات، واستخدام المراهقين المرضي للإنترنت: مقارنة بين الرضا المتصور عبر الإنترنت وخارجه"، أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 55 (فبراير 2016): 695-700؛ دوريت ألت، "الدافع الأكاديمي لطلاب الجامعات، والمشاركة الإعلامية، والخوف من الغياب عن مجرى الأحداث"، أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 49 (أغسطس 2015): 111-119؛ روزلين جيه لي-وون، وليو هيرزوغ، وسونغ غوان بارك، "مدمنو فيسبوك: دور القلق الاجتماعي والحاجة إلى الضمان الاجتماعي في الاستخدام الإشكالي لفيسبوك"، علم النفس السيبراني والسلوك والشبكات الاجتماعية 18، رقم 10 (2015): 567-74؛ جون دي. إيلهاى وآخرون، "الخوف من فقدان شيء ما، والحاجة إلى اللمس، والقلق والاكتئاب مرتبطة بالاستخدام الإشكالي للهواتف الذكية"، أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 63 (أكتوبر 2016): 509-16.

قد تدفع المقارنة الاجتماعية الناس إلى فعل أشياء لا يفعلونها في ظروف أخرى. وتستغل تجارب فيسبوك والواقع المعزّز في لعبة "بوكيمون غو" الرؤية المتبادلة وإطلاقها الحتمي لعمليات المقارنة الاجتماعية من أجل الضبط والتوجيه الناجح. ويوضح كلا المثالين كيف تُعاد صياغة العمليات النفسية، التي كانت طبيعية في السابق، لتعزيز فعالية "الضغط الاجتماعي" الذي يروّج له بنتلاند، مما يُتيح تعديل السلوك على نطاق واسع. ويُفعل الضغط الاجتماعي بـ "أريد أن أكون مثلك" حيث تُهدد مخاطر الاختلاف والإقصاء بحدوث مقارنات اجتماعية سلبية.

ما الذي نعرفه عن العواقب الصحيّة الذهنية للمقارنة الاجتماعية التي تُصيب مستخدمي فيسبوك، ولا سيّما الشباب؟ وقد أُجريت معظم الأبحاث، التي تهدف إلى فهم أعمق للعلاقة بين السبب والنتيجة في تجربة المستخدم، مع مشاركين في سن الجامعة، وتروي لنا بعض المراجعات الموجزة لبعض الدراسات الرئيسة قصصاً قائمة، حيث يركّز المراهقون والبالغون الناشئون عراً هذه المناطق الاجتماعية التي يتم التوسط فيها رقمياً بحثاً عن دليل على الحياة. وتوصّلت دراسة أُجريت عام 2011 إلى أن مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي الذين عُرضَ عليهم صور "مستخدمين جميلين" طوّروا صورة ذاتية أكثر سلبية من أولئك الذين عُرضت عليهم صور شخصية أقلّ جاذبية. واعتبر الناس الذين شاهدوا ملفّات تعريف أشخاص ذوي مكانة عالية في حياتهم المهنية أن مساعيهم غير كافية، مقارنة بالآخرين الذين شاهدوا ملفّات تعريف لأشخاص أقلّ نجاحاً.⁽¹¹⁶⁶⁾ بحلول عام 2013، وجد الباحثون أن استخدام الفيسبوك يمكن أن يتنبأ بتحوّلات سلبية في كيفية شعور الشباب لحظة بلحظة، وكذلك في مدى رضاهم عن الحياة بشكل عام. ووجد باحثون ألمان، في ذلك العام، أن "كمية المعلومات الاجتماعية الهائلة" المعروضة على فيسبوك تُشكّل "أساساً للمقارنة الاجتماعية والحسد على نطاق غير مسبوق". وأثبت عملهم أن "المتابعة

(1166) نينا هافركامب ونيكول سي. كرامر، "المقارنة الاجتماعية 2.0: دراسة آثار الملفّات الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي"، علم النفس السيبراني والسلوك والشبكات الاجتماعية 14، العدد 5 (2011): 309-314. انظر أيضاً: هيلموت أبيل، وألكسندر إل. جيرلاش، ويان كروسيسوس، "التفاعل بين استخدام فيسبوك والمقارنة الاجتماعية والحسد والاكتئاب"، الرأي الحالي في علم النفس 9 (يونيو 2016): 44-49.

السلبية" على فيسبوك تُفاقم مشاعر الحسد وتُقلّل من الرضا عن الحياة. وقد تبين أن أكثر من 20٪ من جميع تجارب الحسد الأخيرة التي أُبلغ عنها الطلاب في الدراسة البحثية كانت ناجمة عن التعرّض لفيسبوك. (1167)

أظهر تحقيقٌ أُجريَ عام 2014 على ثلاث مراحل أن قضاء وقت طويل في تصفّح الملفات الشخصية على فيسبوك سرعان ما يُسبّب مزاجًا سلبيًا. وبعد التفكير، شعر هؤلاء المستخدمون بسوء أكبر، مُعتبرين أنهم أهدروا وقتهم. وعادة ما اختاروا قضاء وقت أطول في تصفّح الإنترنت، بدلًا من الرحيل، أملًا في الشعور بتحسّن، ساعين وراء حلمٍ بتحولٍ مفاجيءٍ وساحرٍ في حظوظهم بمرر معاناتهم الماضية. لا تؤدّي هذه الدورة إلى مزيدٍ من المقارنات الاجتماعية والحسد فحسب، بل قد تُنبئ أيضًا بأعراض الاكتئاب. (1168)

يرتبط إضفاء الصفة الموضوعية على الذات، المتعلّق بالمقارنة الاجتماعية، بمخاطر نفسية أخرى أيضًا. أولاً، تُقدّم أنفسنا للفحص كأشياء مكوّنة من بيانات، ثم نختر أنفسنا باعتبارنا "الشيء" الذي يراه الآخرون. وأظهرت دراسة أُجريت عام 2014 التأثير الضار لهذه العلاقات على وعي الجسد. واستنتج تحليل لشباب وشابات استخدموا فيسبوك على مدى ست سنوات على الأقل أن زيادة استخدام فيسبوك، بغضّ النظر عن الجنس، تؤدّي إلى زيادة مراقبة الجسد. يعتمد الشعور بقيمة الذات على المظهر الجسدي، والنظر إليه كأداة جنسية. ويؤدّي الشعور بالخجل من الجسد إلى جولات مستمرة من تزييف صور الذات أمام جمهور "من المتابعين"، غير معروف إلى

(1167) هانا كراسنوف وآخرون، "الحسد على فيسبوك: تهديد خفي لرضا المستخدمين عن حياتهم؟" وقائع مجلّة المعلومات الاقتصادية 2013، المجلد 92 (1 يناير/كانون الثاني 2013)؛ كريستينا ساجيوغلو وتوبياس غريتماير، "العواقب العاطفية لفيسبوك: لماذا يُسبب فيسبوك انخفاضًا في الحالة المزاجية ولماذا لا يزال الناس يستخدمونه"، مجلّة الحاسوب في السلوك البشري، المجلد 35 (يونيو/حزيران 2014): 359-363.

(1168) إدسون سي. تاندوك جونيور، وباتريك فيروتشي، ومارغريت دافي، "استخدام فيسبوك والحسد والاكتئاب بين طلاب الجامعات: هل يسبب استخدام فيسبوك الاكتئاب؟" أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 43 (فبراير 2015): 139-146.

تفضّل الحياة في الخلية أولئك الذين يتجهون بشكل طبيعي نحو الإشارات الخارجية بدلاً من أفكارهم ومشاعرهم وقيمهم وإحساسهم بالهوية الشخصية. (1170) عند النظر إلى الأمر من منظور التوازن بين الذات والآخر، لا تقلّ المقارنات الاجتماعية الإيجابية ضرراً عن المقارنات السلبية. فكلاهما بديلٌ عن "الصفقة الصعبة" المتمثلة في بناء ذات قادرة على التبادل بدلاً من الاندماج. وسواء أكان المؤشّر يتحرك صعوداً أم هبوطاً، فإن المقارنة الاجتماعية هي العجلة التي تُحرك الحلقة المغلقة بين الميل نحو المرأة الاجتماعية وتعزيزها. يدفع كلٌّ من إرضاء "الأنا" وإيذاء الأنا إلى السعي وراء المزيد من الإشارات الخارجية.

مع مرور الوقت، يزداد تعقيد الدراسات مع محاولاتها تحديد الآليات الأساسية التي ترتبط من خلالها المقارنة الاجتماعية في وسائل التواصل الاجتماعي، بأعراض الاكتئاب ومشاعر العزلة الاجتماعية. (1171) وقد نظرت إحدى الدراسات البارزة التي استمرّت لمدة ثلاث سنوات، ونُشرت في عام 2017، في كل من بيانات فيسبوك المباشرة لأكثر من خمسة آلاف مشارك، فضلاً عن البيانات التي أبلغوا عنها ذاتياً على "شبكات التواصل الاجتماعي في العالم الحقيقي". أتاح هذا النهج إجراء مقارنات مباشرة مستمرة بين العلاقات الواقعية وارتباطات فيسبوك عبر أربعة مجالات للرفاهية المُبلّغ عنها ذاتياً: الصحة البدنية، والصحة النفسية، والرضا عن الحياة،

(1169) أدريانا إم. ماناغو وآخرون، "المشاركة في فيسبوك، والوعي الجسدي الموضوعي، والخجل من الجسد، والتأكيد الجنسي لدى طلاب وطالبات الجامعة"، سيرينغر 72، العددان 2-1 (2014): 14-1. (1170) يان إيريك لونكفيسست وفيبي غروس ديترز، "أصدقاء فيسبوك، والرفاهية الذاتية، والدعم الاجتماعي، والشخصية"، مجلة "الحاسوب في السلوك البشري"، المجلد 55 (فبراير 2016): 113-120؛ دانيال سي. فيلر وأدم إم. كلاينباوم، "الشعبية، والتشابه، وتحيز الانبساط الشبكي"، مجلة العلوم النفسية، المجلد 26، العدد 5 (2015): 593-603.

(1171) برايان بريماك وآخرون، "استخدام وسائل التواصل الاجتماعي والعزلة الاجتماعية المتصورة بين الشباب في الولايات المتحدة"، المجلة الأمريكية للطب الوقائي، المجلد 53، العدد 1 (2017): الصفحات 8-1؛ تايلور أرجو وثيرا لوري، "تأثيرات وسائل التواصل الاجتماعي على صحة المراهقين ورفاهيتهم"، مجلة صحة المراهقين، المجلد 60، العدد 2 (2017): الصفحات 75-76؛ إليزابيث سيبروك، ومارغريت كيرن، ونيكي ريكارد، "مواقع التواصل الاجتماعي والاكتئاب والقلق: مراجعة منهجية"، مجلة الصحة النفسية الأمريكية للطب الوقائي، المجلد 3، العدد 4 (2016).

ومؤشر وزن الجسد نسبة إلى طوله. ولخص الباحثون أن "الإعجاب بمحتوى الآخرين والنقر على روابط منشورات الأصدقاء كانا مرتبطين باستمرار بتراجع الرفاهية، بينما ارتبط عدد تحديثات الحالة بتقارير عن تراجع الصحة النفسية". كانت هذه العلاقة قوية لدرجة أن "زيادة قدرها انحراف معياري واحد في "الإعجابات التي تم النقر عليها"... أو "الروابط التي تم النقر عليها"... أو "تحديثات الحالة" كانت مرتبطة بانخفاض بنسبة 5٪ إلى 8٪ من الانحراف المعياري في الصحة العقلية المبلغ عنها ذاتيًا"، حتى مع التحكم في الحالة الأولية للرفاهية لدى الشخص. لكن ما هو الاستنتاج النهائي الذي توصل إليه الباحثون؟ "إن استخدام فيسبوك لا يعزز الصحة النفسية... وقد يكون من الأفضل لمستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي الحد من استخدامها والتركيز على علاقاتهم الواقعية." (1172)

5- العودة إلى القطيع

هذه ليست بروفة، بل هي عرض مسرحي. فيسبوك نموذج أولي لمجتمع قائم على الآلات، وليس نبوءة. إنه الحدود الأولى لمجتمع جديد رواؤه هم أصغرنا سنًا. وتجربة الحدود هذه هي نشر عام لنظرة الآخر، وهي إضفاء طابع موضوعي مُفَرط على شخصية تشكّلت بالتضخيم المُستمرّ لحياة تُعاش من خلال "الشعور بالاستبعاد من المجموعة". النتيجة هي نمط من القلق الشديد والارتباك في الفعل البسيط المتمثل في الانفصال الرقمي، في حين أن الاتصال نفسه يطارده قلق جديد يجعل الكثيرين يشعرون بالعزلة والضعف والاكئاب. قد يرغب المرء بالقول إن نضال الشباب قد يكون مؤلمًا في أي عصر، وإن قَدَرَ شباب اليوم أن يواجهوا عملية بناء الذات في هذا الوسط من التواصل والتنوير الرقمي، بما يوفّره من فرص رائعة للتعبير عن أنفسهم صوتيًا، وضمن المجموعة، والحصول على المعلومات وإمكانية الاستكشاف. ويمكن القول إنهم سيتجاوزونها، كما تجاوزت أجيال أخرى مَحَنَ المراهقة في زمانها ومكانها.

(1172) هولي شاكي ونيكولاس كريستاكيس، "ارتباط استخدام فيسبوك بتدهور الصحة العامة: دراسة طولية"، المجلة الأمريكية لعلم الأوبئة، 16 يناير 2017.

لكن الأمر لا يتعلق هذه المرة بمجرد تحضير وجبة الغذاء لأولادنا وأمنياتنا لهم بالتوفيق وهم يدخلون متاهة مجموعات المراهقين في يوم دراسي، أو إرسالهم إلى الجامعة مع علمنا بأنهم قد يتعثرون أو يسقطون، لكنهم سيجدون شغفهم وأشخاصهم كما يجدون أنفسهم في نهاية المطاف. لقد أرسلناهم هذه المرة إلى القلب العميق لأساليب قدرة جمعت ثروتها وقوتها من خلال سلب السلوك، ثم استغلاله في تعديل السلوك، بهدف تقديم خدمة إيجاد نتائج مضمونة للآخرين.

إنهم يتوقون إلى الخلّة، تمامًا كما فعل مراهقو "هال" عام 1904، لكن الخلّة التي يواجهونها ليست نتاجًا خالصًا لطبيعتهم، وثقافة التبادلية لديهم. بل هي منطقة نفوذ غير متكافئة، بناها رأسمال المراقبة وهو يعمل بسرّية تامة بعيدًا عن المواجهة أو المساءلة. إنه ابتكارٌ اصطناعي صُمّم لخدمة الصالح العام لرأس مال المراقبة. عندما ينضمّ الشباب إلى هذه الخلّة، يرافقون كهنة المراقبة: علماء البيانات، والمبرمجين، وخبراء التعلم الآلي، ومصممي التكنولوجيا الأكثر تطورًا في العالم، والذين تُملي عليهم الضرورات الاقتصادية لرأس مال المراقبة و"قوانين حركته" مهمتهم الوحيدة المتمثلة في تشديد الخناق.

تُعتبر التجمّعات والمحادثات البريئة جزءًا لا يتجزأ من مشروع هندسة سلوكية ذي نطاق وطموح عالميين، وتم إضفاء طابع مؤسسي عليه في هياكل "الآخر الكبير" كليّ الانتشار للرقابة والتحليل والتحكّم. يخطو المراهقون، في مواجهتهم للتوازن بين الذات والآخر، إلى ملعب منحرف سلفًا بفعل رأسمال المراقبة، لتعليقهم في المرآة الاجتماعية، وإبقائهم ثابتين على انعكاساتها. يعتمد كل شيء على تغذية الخوارزميات التي يمكنها أن تُطبّق عليه بدقّة وفاعلية ولا تتركه. إن كل هذا الإنفاق في المال والذكاء مخصص لهدف وحيد متمثّل في إبقاء المستخدمين، ولا سيّما الشباب منهم، ملتصقين بمرآة التواصل الاجتماعي وكأنهم حشرات على الزجاج الأمامي للسيارات.

تكشف الدراسات والأبحاث والروايات الشخصية التي راجعناها عن ذلك الجانب القسري من "اللقاء" الآلي الموقر، حيث يتحقّق التناغم على حساب سلامة

المشاركين نفسيًا. هذا هو عالم بنتلاند عن "التعلم الاجتماعي"، وليست نظريته في "الضبط" أكثر من مجرد تلاعب منهجي بمكافآت الإدماج والإقصاء وعقوباته. وتنجح هذه النظرية بفضل الميل البشري الفطري لتجنب الألم النفسي. ومثلما يمكن للمستهلك العادي أن يُصبح مقامرًا بطريقة قهرية على أيدي تقنيات السلوك في صناعة الألعاب، ينجذب الشباب العاديون إلى دوامة غير مسبوق من المعلومات الاجتماعية التي تؤدي تلقائيًا إلى مقارنة اجتماعية على نطاق غير مسبوق بالقدر نفسه. ويبدو أن هذه البيئة العقلية والعاطفية تُنتج فيروس قلق وانعدام شعور بالأمان يدفع الشباب إلى حلقة مغلقة من الإكراه المتصاعد بينما يسعون إلى الراحة من خلال إشارات تقدير طال انتظارها.

تُفاقم هذه الدورة وتعزز، بشكل استثنائي، الميل الطبيعي نحو الجماعة. ومع أننا نشترك جميعًا في هذا الميل بدرجات متفاوتة، إلا أنه يتجلى بوضوح في مراحل الحياة التي نسميها المراهقة وبداية البلوغ. ويُطلق علماء السلوك على هذا الميل اسم "العودة إلى القطيع"، وهو تكيّف لدى بعض الأنواع، مثل الحمام المهاجر أو سمك الرنكة، التي تتخذ من القطيع موطنًا لها بدل منطقة محددة. إلا أن هذه الغريزة أثبتت أنها قاتلة في مواجهة الحيوانات المفترسة البشرية.

على سبيل المثال، يصف عالم الأحياء بيرند هاينريك مصير الحمام المهاجر، الذي "كان حسّه الاجتماعي قويًا لدرجة أنه جذب المفترس الجديد، البشر المجهزين بالتكنولوجيا، من بعيد. وهذا لم يجعله هدفًا سهلاً فحسب، بل سهّل عمليات خداعه أيضًا". إذ تتبع الصيادون التجاريون أنماط طيرانه وتعشيشه، ثم استخدموا شبكات ضخمة لاصطياد الآلاف منه دفعة واحدة، وشحنوا الملايين بالسكك الحديدية سنويًا إلى الأسواق من سانت لويس إلى بوسطن. واستخدم الصيادون تقنيةً محددة، صُممت لاستغلال روابط التعاطف الاستثنائية بين الطيور، وخُلّدت في مُصطلح "الحمام الطعم". حيث تُصطاد عدة حمامات أولًا، وتُثبت على عمود وعيناها مغمضتان. وعندما تفرّف هذه الحمامات بحالة من الذعر، يهبط السرب نحوها ليعتني بها". وهذا يسهّل على الصيادين "الإمساك" بآلاف الحمامات دفعة واحدة وقتلها. وقد

نفقت آخر حمامة مهاجرة في حديقة حيوان سينسيناتي عام 1914: "لم يكن للحمامة حدودٌ منزلية تنتشر فيها، واستمرّت بالتوجّه إلى نفسها فقط، لذلك كانت تستطيع أن تكون موجودة في كل مكان، حتى النهاية... بالنسبة إلى الحمام، كان "الموطن" الوحيد الذي تعرفه هو وسط الزحام، والآن أصبحت ضحية له... إن عدم وجود حدود إقليمية للمفترسات البشرية قد رجّح كفة الميزان ليجعل تكيفها هو مصيرها المحتوم". (1173)

إن موقع فيسبوك، ووسائل التواصل الاجتماعي عمومًا، هي بيئات مصمّمة لتحفيز هذا التوجّه نحو القطيع البشري، ولا سيّما الشباب. نحن نُغري بالمرآة الاجتماعية، واهتمامنا مُفتنٌ بسحرها المُظلم المتمثّل في المقارنة الاجتماعية، والضغط الاجتماعي، والتأثير الاجتماعي. "متصلون طوال اليوم تقريبًا"، "متصلون على مدار الوقت". بينما نحدّق في الحشد، يدور الصيادون التجاريون المجهّزون تقنيًا بهدوء ويرمون شباكهم. لن يؤدّي هذا التكتيف المصطنع للتبعية للقطيع إلا إلى تعقيد الصفقة النفسية الصعبة المتمثلة في التوازن بين الذات والآخر أو تأخيرها أو إعاقتها. وعندما نضعف هذا التأثير بمئات الملايين، ونوزّعه على مستوى العالم، فما الذي قد يُنذر به لآفاق التنمية البشرية والمجتمعية؟

يمثّل فيسبوك بوتقة هذا العالم الجديد القاتم. ويهدف إلى إتقان التحفيز المستمر للمقارنات الاجتماعية، حيث يُستغلّ التعاطف الفطري، ويطفئ عليه طابع آلي لتعديل السلوك بما يخدم مصلحة الآخرين. وتمثّل هذه الخلّة الاصطناعية ميثاقًا شيطانيًا للشباب. ومن ناحية الفاعلية اليومية البحتة - التواصل، والخدمات اللوجستية، والمعاملات، والاتصالات - أبعد عينيك، وسوف تضع. وإذا كنت تتوق ببساطة إلى عصير الاندماج الذي يُعد دليلًا على الحياة في سنّ معيّن ومرحلة معيّنة، أبعد عينيك، وسوف تنقرض.

إنها ظاهرة جديدة أن نعيش باستمرار ضمن وسط اجتماعي مكوّن من نظرات

الآخرين، وأن نكون تحت رقابة مئات وآلاف العيون، مدعومة بأجهزة الآخر الكبير، وأجهزة استشعار وحزم وموجات تسجل وتحلل وتشغل. تقدّم وتيرة النظرة المستمرة وكثافتها وحجمها تدفقًا مسمّرًا لمقاييس التقييم التي ترفع القيمة الاجتماعية للشخص أو تخفضها مع كل نقرة. وتُعتبر هذه التصنيفات في الصين أمرًا عامًا، وشارات لامة، وحرورًا قرمزية تفتح كل باب وتغلقه. أما في الغرب، فلدينا "إعجابات" و"أصدقاء" و"متابعون" ومئات التصنيفات السريّة الأخرى التي تصوغ حياتنا بشكل خفي.

يشمل امتداد التعرّض وعمقه كل نقطة بيانات، لكنه يتجاهل بالضرورة "فترة التأخير الكامنة" داخل كل شخص، وذلك تحديدًا بسبب عدم القدرة على ملاحظته وقياسه. تلك هي "فترة التأخير الكامنة" الممكنة التي تنتظر شرارة واحدة ناتجة عن اهتمام من إنسان متجسّد آخر. في هذا التصادم بين الأكسجين والجمرة، تُدرك "فترة التأخير الكامنة" وتُفهم وتُسحب إلى الوجود. هذه هي الحياة الحقيقية: ممتلئة، ناعمة، غامضة، مليئة بالصمت والمخاطرة، وتكون حميمةً وحقيقية عندما يبتسم الحظ.

دخل فيسبوك العالم متجاوزًا حدود المؤسسات القديمة، ومنحنا حرية التواصل والتعبير عن أنفسنا كما يحلو لنا. وكان من المستحيل التنبؤ بتجربة فيسبوك لو اختارت الشركة مسارًا لا يعتمد على عائدات المراقبة. ونحن نواجه تناميًا مفاجئًا لقوة آلية تحرك مجتمعا باتجاه غير متوقّع. وتمثّل طوباويات فيسبوك التطبيقية نموذجًا أوليًا لمستقبل آلاي يعرض مآثر هندسة سلوكية تُهيم البشر لقسوة التناغمات القسرية التي تمارسها الآلات. وقد صُمِّمت عملياته لاستخراج الميل البشري نحو التعاطف والانتماء والقبول. يضبط النظام درجة سلوكنا مع المكافآت والعقوبات الناجمة عن الضغوط الاجتماعية، فيدفع القلب البشري نحو التقاء الوسائل لتحقيق غايات تجارية أخرى.

نرى من موقع المراقبة هذا أن النطاق الكامل لعملية فيسبوك يشكّل تجربة واسعة النطاق في تعديل السلوك، وهي ليست مصمّمة لاختبار القدرات المحددة لآليات الضبط الخاصة بها فقط، كما هو الحال في "تجارها الرسمية واسعة النطاق"، بل للقيام بذلك على أوسع نطاق اجتماعي ونفسي ممكن. الأهم من ذلك أن طوباويات الضغط

الاجتماعي المطبقة، وعجلة المقارنة الاجتماعية التي تحركه، والحلقات المغلقة التي تربط كل مستخدم بنظام المجموعة، تؤكد بوضوح صحة تفسير بنتلاند النظري لهذه المسألة. لا تتجلى المبادئ الاجتماعية الآلية هنا باعتبارها فرضيات، بل باعتبارها الحقائق التي تُشكّل حاليًا تلك المساحات التي يُفترض أن "يكبر" أطفالنا فيها.

ما نشهده هنا هو التزام مُفرض بإضفاء طابع طبيعي واجتماعي على سلطة الآلات لصالح إirادات المراقبة. وكما قال بنتلاند، تُفرض هذه الحلقات المغلقة خارج نطاق السياسة والإرادة الفردية. إنهم يتحركون خلسة، ويصممون تأثيراتهم على مستوى الاستجابات النفسية التلقائية، ويحركون توازن الذات والآخر نحو التناغمات الزائفة لعقل الخلية. يعاني في هذه العملية الجوهر الباطني ويختنق، وهو المصدر الضروري للفعل المستقل والحكم الأخلاقي. تلك هي الخطوات التمهيدية نحو موت الفردية التي يدعو إليها بنتلاند.

في الواقع، يلتهم هذا الموت قرونًا من الحالات الفردية: (1) مُثل الفرد السياسية من القرن التاسع عشر، باعتباره مستودعًا للحقوق والالتزامات والكرامة غير القابلة للمصادرة؛ (2) الإنسان الفردي في أوائل القرن العشرين الذي دعاه التاريخ إلى الوجود، وشرع في طريق الشاعر أنطونيو ماشادو لأن عليه ذاك، مقدّرًا له أن يخلق "حياة خاصة به" في عالم من التعقيد الاجتماعي المتزايد والتقاليد المترجمة؛ و(3) الفرد المستقل نفسيًا في أواخر القرن العشرين الذي ترتفع موارده الداخلية وقدرته على الحكم الأخلاقي إلى مستوى تحديات قدرة المرء على فهم نفسه داخليًا، التي يُطالب بها التاريخ، وتعمل بمثابة حصن ضد مفترسات السلطة. إن ما يسعى إليه الشباب من قدرة على معرفة الذات داخليًا، هو ما يحرك هذه التواريخ إلى الأمام، ويجدد مطالبات كل عصر ويحميها ويعززها بقدسية وسيادة للفرد.

ما رأيناه في فيسبوك هو مثال حيّ على الحداثة الثالثة التي يقدمها النظام الآلي، والتي تُعرف من خلال حالة جماعية جديدة يملكها رأس المال المراقبة ويديرها. تقود الرؤية السهاوية العمليات الحاسوبية، وتؤمن هذه العمليات عملية الضبط. ويحلّ الضبط

محلّ الحوكمة الخاصة والسيادة العامة التي تُصبح الفردانية من دونها مجرد وظيفة بسيطة واضحة. وكما أن عدم إبرام العقد يتجاوز انعدام الثقة الاجتماعية بدلاً من معالجتها، فإن العمليات المجتمعية، ما بعد السياسية، التي تربط الخلّة، تعتمد على المقارنة الاجتماعية والضغط الجماعي من أجل ثباتها وبقائها التنبئي، مما يُلغي الحاجة إلى الثقة. إن الحقّ في المستقبل، والتعبير عنه في الرغبة بالإرادة، وتقديس هذا الحقّ في الوعود، يُستدرج إلى حصن رأسمال المراقبة. وبفضل هذا النوع من السلب، يُحكّم القائمون بالتعديل قبضتهم، ويزدهر النظام.

اعتمدت الرأسمالية الصناعية على استغلال الطبيعة والسيطرة عليها، مخلّفة عواقب كارثية لم ندركها إلا الآن. وقد أشرتُ إلى اعتماد رأسمالية المراقبة على استغلال الطبيعة البشرية والسيطرة عليها. يقوم السوق باختزالنا إلى مستوى سلوكنا، ويحوّله إلى سلعة خيالية مُعدّة لاستهلاك الآخرين. وفي المبادئ الاجتماعية للمجتمع الآلي، المُجسّدة فعلاً في تجارب شبابنا، يمكننا أن نرى بوضوح كيف تهدف هذه الرأسمالية الجديدة إلى إعادة تشكيل طبيعتنا من أجل نجاحها. سوف نخضع للمراقبة والتحفيز عن بعد مثل قطعان ماكاي وأسرابه، وقنادس بتتلاند ونحلّه، ومثل آلات نادالا. وسنعيش في خلّة: حياة مليئة بالتحديات بطبيعتها، وغالباً ما تكون مؤلمة، كما يشهد أي مُراهق، لكن حياة الخلّة التي تنتظرنا ليست حياة طبيعية. لقد "صنعها بشر". صنعها رأسمال المراقبة.

إن الشباب الذين تأملناهم في هذا الفصل هم أرواح عيد ميلاد مُنتظر. وهم يعيشون على حدود شكل جديد من أشكال سلطة تُعلنُ نهاية المستقبل البشري، مع ولائه القديم للأفراد والديمقراطية والإنسانية اللازمة للحكم الأخلاقي. وإذا استيقظنا من التشتت والاستسلام والخدر النفسي بتصميم سكروج، فسوف نرى مستقبلاً لا يزال بإمكاننا تجنبه.

عندما صمم صموئيل بنثام، شقيق الفيلسوف جيريمي بنثام، "سجن البانوبتيكون"⁽¹¹⁷⁴⁾ للمرة الأولى باعتباره وسيلة لمراقبة الأقتان الجامحين في ملكية الأمير بوتيمكين في أواخر القرن الثامن عشر، استلهم تصميمه من هندسة الكنائس الأرثوذكسية الروسية التي كانت منتشرة في الريف. عادةً ما كانت تُبنى هذه الهياكل حول قبة مركزية تتدلى منها صورة "المسيح بانتوكراتور"⁽¹¹⁷⁵⁾، يُحدّق في الجماعة، وبالتالي في البشرية جمعاء. لم يكن هناك أي مجال للانقطاع عن هذا الأفق. هذا هو معنى اليد والقفاز. تهدف تلك الحلقة المحكمة الإغلاق إلى خلق شعور "بعدم وجود مخرج". في السابق، لم يكن هناك مفرّ من معرفة الله المطلقة وقدرته. أما اليوم، فلا مفرّ من الآخرين، ومن الآخر الكبير، ومن رأسماليي المراقبة الذين يتخذون القرارات. يتسلّل هذا الوضع، القائم على عدم وجود مخرج، إلى نعال أقدامنا. لا نضطرّ في البداية حتى إلى إشاحة نظرنا، وبعدها نفقد القدرة على ذلك.

في الأسطر الختامية لدراما جان بول سارتر الوجودية "لا مخرج"، يصل جارسين إلى إدراكه الشهير، "الجحيم هو الآخرون". لم يكن المقصود من هذا أن يكون بياناً عن كراهية البشر، بل كان بمثابة اعتراف بأنه لا يمكن تحقيق التوازن بين الذات والآخر بشكل كافٍ طالما أن "الآخرين" يراقبون باستمرار. وتناول "إيرفينغ غوفمان"، وهو عالم نفس اجتماعي آخر من منتصف القرن العشرين، هذه المواضيع في كتابه الخالد بعنوان: "تمثيل الذات في الحياة اليومية" (The Presentation of Self in Everyday Life)، حيث طوّر فكرة "الكواليس" باعتبارها المنطقة التي تنسحب إليها الذات من المتطلّبات الأدائية للحياة الاجتماعية.

أصبحت لغة الكواليس، ولغة خشبة المسرح، المستوحاة من مراقبة المسرح، مجازاً

(1174) بانوبتيكون (بالإنكليزية: Panopticon)، وتعني مراقبة الكل. (Opticon) تعني مراقبة، و(Pan) تعني الكل، وكان المقصود من التصميم هو المساح لمراقب واحد بمراقبة جميع السجناء دون أن يكونوا قادرين على معرفة ما إذا كانوا مراقبين أم لا (المترجم).

(1175) صورة السيد المسيح في الفن الأورثوذكسي والبيزنطي القديم (المترجم).

للحاجة العالمية إلى مكان ننسحبُ إليه بحيث يمكننا أن "نكون أنفسنا". الكواليس هي الموقع الذي يحدث فيه "تناقض متعمد مع الانطباع الناتج عن الأداء وأوهامه وانطباعاته". و"تُحجَرُ" فيه الأدوات "الخاصة" مثل الهاتف. يكون الحوار "هادئاً" و"صادقاً". إنه المكان الذي تظهر فيه "الأسرار الحيوية". لاحظ غوفمان أنه في العمل كما في الحياة، فإن "السيطرة على الكواليس" تسمح للأفراد "بحماية أنفسهم من المطالب الحتمية التي تحيط بهم". تكون لغة الكواليس لغة المعاملة بالمثل، ولغة الألفة والحميمية والفكاهة. إنها تضمن العزلة التي يمكن فيها للمرء أن يستسلم للوجه "المضطرب" أثناء النوم، والتغوّط، و"الصفير، والمضغ، والقضم، والتجشؤ، وانتفاخ البطن". وربما يكون الأهم من ذلك كله أن الكواليس فرصة "للتراجع"، حيث لا يتعيّن علينا أن نكون "لطفاء": "إن المؤثر المؤكّد على التماسك في الكواليس هو الشعور بأنه من الآمن الانزلاق إلى مزاج اجتماعي من الانزعاج الصامت الكئيب". وفي غياب فرصة كهذه يمكن فيها للذات "الحقيقية" أن تُحتَضَنَ وتنمو، تبدأ فكرة سارتر في اكتساب المعنى. (1176)

يناقش طلاب جامعيون في فصل دراسي استراتيجيتهم الخاصة لعرض أنفسهم على فيسبوك. ويطلق الباحثون على هذه الاستراتيجيات اسم "التأثيرات المخيفة": وهي عملية "تعديل" مستمرة لصور الفرد وتعليقاته وحسابه الشخصي، من خلال حذف عمليات الحذف والإضافة والتعديل وحذف، وهذا كله بهدف تعظيم "الإعجابات" كدليل على قيمته في هذا السوق الوجودي. (1177) وطرح سؤالاً عما إذا كان تقديم الذات هذا في القرن الحادي والعشرين مختلفاً تماماً عما وصفه غوفمان: هل استبدلنا بالعالم الواقعي عالماً افتراضياً في بناء شخصيتنا وأدائها؟ ساد الهدوء بينما كان الطلاب

(1176) إيرفينغ غوفمان، عرض الذات في الحياة اليومية (نيويورك: أنكور، 1959)، 112-132. (1177) ثمة أعمال أدبية واسعة حول هذا الموضوع، ولكن هناك مقالتان تثيران تحديداً إلى "التأثيرات المخيفة" في وسائل التواصل الاجتماعي: مقال سافيك داس وأدم كرامر بعنوان "الرقابة الذاتية على فيسبوك"، في وقائع المؤتمر الدولي السابع للجمعية الأمريكية للذكاء الاصطناعي حول المدونات ووسائل التواصل الاجتماعي، 2013؛ ومقال أليس إي. مارويك ودانا بويد بعنوان "أغرد بصدق، أغرد بشغف: مستخدمو تويتر، وانهايار السياق، والجمهور المُتخيل"، مجلة الإعلام الجديد والمجتمع، العدد 13، العدد 1 (2011): 114-133.

يتأملون، ثم قالت إحدى الشابات:

الفرق هو إن غوفمان افترض وجود كواليس يمكنك فيها أن تكون على حقيقتك. لكن الكواليس تتقلص بالنسبة إلينا. لم يبقَ لي تقريباً مكان واحد أستطيع أن أكون فيه على حقيقتي. حتى عندما أسير بمفردي، وأعتقد أنني في الكواليس، يحدث شيء معين - يظهر إعلان على هاتفي أو يلتقط أحدهم صورة لي، وأكتشف أنني على خشبة المسرح، ويتغير كل شيء. (1178)

هذا "الكل شيء" الذي يتغير هو الإدراك المفاجئ، إدراكٌ وتذكيرٌ في آن معاً بأن الآخر الكبير لا يعرف حدوداً. تُعرض التجربة بسلسلة عبر حدود العالمين الافتراضي والواقعي التي كانت موثوقة في السابق. وهذا يعود بالنفع المباشر على رأس المال المراقبة - "مرحباً بكم في ماكدونالدز!" "اشترِ هذه السترة!" - وسرعان ما يمكن إيصال أية تجربة دنيوية إلى الخلية: منشور هنا، أو صورة هناك. تعني إمكانية الاتصال في كل مكان أن الجمهور ليس بعيداً إطلاقاً، وهذه الحقيقة تجلب ضغوط الخلية كلها إلى العالم والجسد.

بدأت الأبحاث الحديثة تتجه نحو هذه الحقيقة القائمة التي وصفها فريق من الباحثين البريطانيين بأنها "التأثير المخيف الممتد". (1179) الفكرة هنا هي أن الناس - والشباب خاصة وليس حصراً - أصبحوا الآن يراقبون سلوكهم وينظّمونه في العالم الحقيقي في ضوء شبكاتهم الخاصة على الإنترنت، فضلاً عن الآفاق الأوسع للجماهير الإنترنت. ويستنتج الباحثون أن المشاركة في وسائل التواصل الاجتماعي "متشابهة بشكل عميق مع المعرفة بأن المعلومات المتعلقة بأنشطتنا غير المرتبطة بالإنترنت، قد تنتقل عبر الإنترنت، وإن فكرة إزعاج 'الجمهور المتخيل' تغير سلوكنا في الحياة الواقعية".

(1178) شوشانا زوبوف، مذكرة ملف، 9 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017، جامعة كوبنز، كينغستون، أونتاريو.

(1179) بن ماردر، وأدم جوينسون، وأفي شانكار، وديفيد هوتون، "التأثير الممتد 'المخيف' لفيس بوك: الواقع المخيف للشبكات الاجتماعية المنتشرة في كل مكان"، أجهزة الحاسوب في السلوك البشري 60 (1 يوليو 2016): 582-592.

عندما ألحظ في نفسي رغبة في تشجيع الطلاب المضطربين بسبب الخوف من فقدان التواصل، أفكر في معنى "اللا مخرج" كما ورد في مذكرات شخصية لعالم النفس الاجتماعي ستانلي ميلغرام حول تجربة أظهرت "قوة الظروف المباشرة على المشاعر والسلوك". (1180)

كان فصل ميلغرام يدرس قوة تحكم الأعراف الاجتماعية في السلوك. وخطرت له فكرة دراسة هذه الظاهرة من خلال جعل طلابه يقتربون من شخص في مترو الأنفاق، وينظرون إليه مباشرة في عينيه دون أي مبرر، ويطلبون منه مقعده في المترو. في ظهيرة أحد الأيام، ركب ميلغرام بنفسه مترو الأنفاق مستعدًا لتقديم مساهمته. ورغم سنواته في مراقبة أنماط السلوك البشري المقلقة وتنظيرها، اتضح أنه لم يكن مستعدًا لمواجهة اجتماعية حرجية. مع افتراضه أن الأمر سيكون "سهلاً"، اقترب من أحد الركاب وقد أوشك أن ينطق "العبارة السحرية" عندما "بداله أن الكلمات عالقة في قصبته الهوائية، ولن تخرج ببساطة. فوقف هناك متجمدًا، ثم تراجع... كان غارقًا في حالة من التشتيت الشديد". وأخيرًا، اتخذ قراره بعد المحاولة مرّة أخرى. يقول في سرده لما حدث:

"معذرة سيدي، هل سمحت لي بمقعديك؟" غمرني شعورٌ بالذعر الشديد. لكن الرجل سرعان ما نهض وأعطاني المقعد... جلستُ مكانه، وغمرني رغبةٌ مُلحةٌ في التصرف بما يُبرر طلبِي. سقط رأسي بين ركبتيّ، وشعرتُ بشحوبٍ في وجهي. لم أكن أتظاهر بالمسؤولية، بل شعرتُ وكأنني سأهلك.

بعد لحظات، وصل القطار إلى المحطة التالية، وترجّل ميلغرام. ودُهِش لاكتشافه أن "التوتر كله" قد اختفى مع نزوله من القطار. لقد غادر ميلغرام المترو، حيث كان يتناغم مع "الآخرين"، مما مكّنه من العودة إلى "ذاته".

حدد ميلغرام ثلاثة محاور رئيسية في تجربة مترو الأنفاق، أثناء استعراضه وطلابه لتجاربهم. أولها شعور جديد بالثقل تجاه "القلق الكابح الهائل الذي يمنعنا عادةً من

(1180) ستانلي ميلغرام وتوماس بلاس، الفرد في العالم الاجتماعي: مقالات وتجارب، الطبعة الثالثة (لندن: بينتر ومارتن، 2010)، الصفحات 21-23.

انتهاك الأعراف الاجتماعية". ثانيًا، إن ردود أفعال "المتنّهِك" ليست تعبيرًا عن شخصية الفرد، بل هي "لعب قسري بمنطق العلاقات الاجتماعية". ويشكّل "القلق" الشديد الذي عانى منه ميلغرام وآخرون في مواجهة معيار اجتماعي "يشكل حاجزًا قويًا يجب التغلب عليه، سواء أكان تصرّف المرء ذا أهمية - مثل عصيان السلطة - أو تافهًا، مثل طلب مقعد في مترو الأنفاق... غالبًا ما يوقعنا الإحراج، والخوف من انتهاك معايير تبدو تافهة، في مآزق لا تُطاق... هذه ليست قوى تنظيمية ثانوية في الحياة الاجتماعية، بل هي قوى أساسية".

أخيرًا، أدرك ميلغرام أن أية مواجهة للأعراف الاجتماعية تعتمد بشكل حاسم على القدرة على الفرار. لم يكن مراقبًا من ركب مترو الأنفاق ذلك اليوم. كان ميلغرام بالغًا واسع الاطلاع وخبيرًا في السلوك البشري، وخاصةً الآليات التي ينطوي عليها طاعة السلطة، والتأثير الاجتماعي، والتوافق. كان مترو الأنفاق مجرد شريحة عادية من الحياة، وليس نظامًا مكلفًا للرقابة وتعديل السلوك، ولا "جهاز مكافأة شخصيًا". ومع ذلك، لم يستطع ميلغرام التغلب على هذا الموقف. الشيء الوحيد الذي جعله مُحتملاً هو إمكانية الخروج.

على النقيض من ميلغرام، نحن نواجه وضعًا لا يُطاق. لقد خُلِقنا، كالمقامرين في أرحام آلاتهم، لنندمج مع النظام ونلعب حتى الفناء: ليس فناء أموالنا، بل فناء ذواتنا. الفناء سمة تصميمية تُصاغ رسميًا في ظل انعدام أي مخرج. إن هدف أولئك الذين يعملون على الضبط هو احتواؤنا داخل "قوة الظروف المباشرة"، حيث نُجبرُ من خلال "منطق العلاقات الاجتماعية" في الخلية على الخضوع للضغوط الاجتماعية التي تُمارس في أنماط محسوبة تستغلّ تعاطفنا الطبيعي. تقطع حلقات التغذية الراجعة سبيل الخروج، مما يخلق مستويات مستحيلة من القلق تدفع الحلقات نحو التقاء أعمق. ما يجب قتله هنا هو الدافع الداخلي نحو الاستقلال والعمل الشاق والمثير للذات المستقلة كمصدر للحكم الأخلاقي والسلطة القادرة على طلب مقعد في مترو الأنفاق أو الوقوف ضد السلطة المارقة.

من السهل في الخلية نسيان أن كل مخرج هو مدخل. وأن الخروج منها يعني دخول ما وراءها، حيث يجد المرء ملاذًا من ضغط الآخرين الاجتماعي المصطنع. مخرج يتخلّى عن منظور الآخر، ويدخل إلى فضاء يستقرّ فيه النظر أخيرًا. الخروج يعني دخول المكان الذي تولد فيه الذات وتتغذى. ويُطلق التاريخ على هذا النوع من الأماكن اسم: الملاذ.

الفصل السابع عشر

الحق في الملاذ

الملعب والمنظور متضادان: الملعب صغير ومظلم؛
والمنظور واسع ومشرق... نحن بحاجة إليهما معاً.

غرانت هيلدبراند

"العثور على منزل جيد"

أصول المتعة المعمارية

1. الآخر الكبير يتفوق على المجتمع

في تلك الليلة الصيفية، عندما دمرت الصاعقة منزلنا، شاهدنا تحت المطر الغزير أعمدة المنزل وشرفاته المترامية الأطراف وهي تشتعل. وفي غضون ساعات، غطى حقل من الرماد الأسود المشتعل الأرض التي كان المنزل يقع عليها. واتخذت ذكرياتي عن المنزل، في الأشهر والسنوات التي تلت، شكلاً غير متوقعاً، فلم تعد تقتصر على الغرف والأشياء، بل أصبحت تركز على الظل والضوء والرائحة. واستحضرتُ بوضوح تام رائحة والدتي عندما فتحت الدرج المليء بالأوشحة التي كانت عزيزة عليها ذات يوم. أغمضتُ عيني فرأيت شمس ما بعد الظهرية تحترق الهواء المخملي، بجوار مدفأة غرفة النوم ذات الوشاح المائل القديم، حيث كانت كنوزنا معروضة: صورة لي ولوالدي يميل فيها رأس أحدنا نحو الآخر، وتمزج فيها كتل شعرنا المجعد؛ وصناديق عاجية مصغرة، على شكل أسنان عثرنا عليها في سوق للسلع المستعملة في باريس قبل سنوات من فكرة الأمومة، وأصبحت فيما بعد مأوى لأسنان أطفالنا اللبينة المتجمعة مثل مخابئ سرية من بذور اللؤلؤ. كان من المستحيل تفسير طبيعة هذا الحزن

والشوق: كيف تطوّرت ذواتنا وحياة عائلتنا بأسلوب مميز مع تلك الأماكن التي كنا نعتبرها موطنًا. كيف حوّلت تعلقاتنا منزلاً إلى مكان مقدّس يملؤه الحب والمعنى والذكرى.

لم تبدأ حياتي بالتحسّن إلا بعد أن اكتشفت عمل غاستون باشلار، وهو رجل استثنائي كان عامل بريد وفيزيائيًا وفيلسوفًا، وأخيرًا أستاذ الفلسفة في جامعة السوربون:

البيت القديم، لمن يجيد الإنصات، هو نوع من هندسة الأصدااء. أصوات الماضي لا تُسمع في الغرفة الكبيرة كما في غرفة النوم الصغيرة... علينا أن نستعيد جمال الضوء بين أصعب الذكريات التي تتجاوز أي هندسة يمكن رسمها؛ ثم تأتي الروائح الزكية التي تسكن الغرف الفارغة... (1181)

من بين أعمال باشلار على وجه الخصوص، كتاب "شعرية المكان" (The Poetics of Space)، الذي يقدّم لنا دروسًا مفيدة في التعامل مع احتمالات الحياة في ظل "الآخر الكبير" الذي لا مخرج منه، وسماسة السلطة الذين يعملون خلف الستار. يشرح باشلار في هذا الكتاب مفهومه عن "التحليل الطبوغرافي"، وهو دراسة كيفية تشكيل أعمق علاقاتنا مع الذات الداخلية والعالم الخارجي في تجربتنا عن المكان، ولا سيما المكان الذي نسمّيه "البيت":

البيت مأوى لأحلام اليقظة، يحمي الحالم، ويسمح له أن يحلم بسلام... البيت من أعظم قوى التكامل لأفكار البشر وذاكراتهم وأحلامهم... إنه جسدٌ وروح. إنه عالم الإنسان الأول. قبل أن يُلقى في العالم... يوضع الإنسان في مهد البيت... تبدأ الحياة بدايةً طيبة، تبدأ محاطةً ومحميةً، دافئةً في حضن البيت... (1182)

البيت مدرسة للألفة، حيث نتعلّم للمرّة الأولى كيف نكون بشراً. زواياه وممرّاته الضيقة تخفي حلاوة الوحدة، وتؤطر غرفه تجربتنا في العلاقات. ويركّز ملاذه

(1181) جاستون باشلار، شعرية الفضاء (بوسطن: بيكون، 1994)، 6.

(1182) باشلار، شعرية الفضاء، 7.

واستقراره وأمانه إحساسنا الداخلي الفريد بذاتنا، وهي هوية تُشبع أحلام نهارنا وليالينا إلى الأبد. مخابته - الحزائن، الصناديق، الأدراج، الأقفال، والمفاتيح - تُشبع حاجتنا إلى الغموض والاستقلالية. وتثير أبوابه - المقفلة، والمطبقة، والمواربة، والمفتوحة على مصراعها - شعورنا بالدهشة والأمان والإمكانية والمغامرة. ولا يستكشف باشلار صور بيوت البشر فحسب، بل يستكشف أيضًا الأعشاش والأصداف، "البداية" المطلقة للحاجة إلى ملجأ آمن: "تُعيدنا الرفاهية إلى بدائية الملجأ. ومن الناحية الجسدية، فإن المخلوق الذي يتمتع بإحساس بالملجأ ينغلق على نفسه، ويلجأ إلى الاحتباء، ويختبئ، ويستلقي بشكل مريح، متخفيًا... يحب الإنسان أن 'ينسحب إلى ركنه'... وهذا يمنحه متعة جسدية". (1183)

يكتشف باشلار أن المأوى المتمثل في البيت هو طريقتنا الأصلية للعيش في المكان، فهو لا يشكل النقيض الوجودي بين "البيت" و"البعيد" فقط، بل يشكل كثيرًا من طرقنا الأساسية لفهم التجربة: البيت والكون، الملجأ والعالم، الداخل والخارج، الملموس والمجرد، الوجود والعدم، هذا وذاك، هنا وفي مكان آخر، الضيق والانساع، الخاص والعام، الحميم والبعيد، الذات والآخر.

سعت عائلتنا غريزيًا وراء هذه الأفكار عند تخيلت بيتًا جديدًا. وعندما تمكنا أخيرًا من تنفيذ هذا المشروع، بحثنا عن مواد طبيعية متينة: أحجار قديمة وعوارض خشبية ذات ندوب واضحة صمدت أمام عواصف الزمن. انجذبنا إلى الأثاث القديم الذي عاش حياة طويلة في بيوت الآخرين. وهكذا أصبحت جدران البيت الجديد ضخمة، بعمق قدم تقريبًا، ومُغطاة بالعزل. وكانت النتيجة ما كنا نأمله تمامًا: الهدوء والسكينة. نحن نعلم أنه ما من شيء يضمن الأمان واليقين في هذا العالم، لكننا نشعر بالراحة بسبب هدوء هذا البيت وصمته المتعدد الطبقات.

تتكشف الأيام الآن بين أحضان هذه الجدران السخية، حيث تنتشر أرواحنا وتتجذر من جديد. هكذا يصبح المنزل موطنًا، والموطن ملاذًا. ويصلني أعلى شعور

بذلك عندما أنسلّ إلى فراشي ليلاً. أنتظر سماع أنفاس زوجي، المتزامنة مع تنهدات
كلبتنا الحبيبة الخافتة على الأرض بجانبنا وهي تركض في أحلامها المبهجة. أستشعر ما
وراء ذلك، إلى الغلاف الكثيف لجدران غرفة نومنا، وأصغي إلى تهويدها المنعزلة.

وفقاً لمهندسي "الآخر الكبير"، يجب هدم هذه الجدران. لا ملجأ. وينبغي أن تُرمى
الرغبة الفطرية في الأعشاش والأصداف جانباً باعتبارها رفات زمن بشري متعقّن.
ومع "الآخر الكبير" يستقرّ الكون في جدراننا، ولا تعود حارسه للملاذنا الآمن. بل
تصبح ببساطة إحداثيات لأجهزة تنظيم الحرارة "الذكية"، وكُميرات المراقبة،
ومكبرات الصوت، ومفاتيح الإضاءة، التي تستخرج تجربتنا وتعيد صياغتها لتحفيز
سلوكنا.

لم تعد لجدراننا الكثيفة والعميقة أية أهمية الآن، لأن الحدود التي تؤطر تجربة الوطن
ذاتها ستمحى. لا يمكن أن تكون هناك زوايا نختبيّ فيها وتندوّق ملذّات العزلة. ولا
يمكن أن تكون هناك مخابئ سرّية، لأنه لا يمكن أن تكون هناك أسرار. يبتلعُ "الآخر
الكبير" الملجأ كله، إلى جانب فئات الفهم التي تنشأ في معارضاته الأساسية: المنزل
والكون، العمق والاتساع. وتُستأصل بلا مبالاة تلك الأقطاب الخالدة التي نكتشف
فيها إحساسنا بذاتنا ونطوّره، بينما يستقرّ الاتساع في ثلاثي، ويثرثر العالم في فرشة
أسناني، ويُراقبُ من موقع آخر مجرى دمي، ويهزّ نسيم الحقيقة أجراس الصفصاف
المعلّقة لتبثّ عبر الكوكب. أين الأقفال؟ لقد اختفت. كيف هي الأبواب؟ إنها
مفتوحة.

إن أول قلعة تنهار، في مسيرة المصالح المؤسسية التي تسعى إلى تنفيذ مبدأ الآخر
الكبير، هي القلعة الأقدم: مبدأ الملاذ الآمن. لطالما كان امتياز الملاذ تزيّناً للسلطة منذ
بداية التاريخ البشري. حتى في المجتمعات القديمة التي ساد فيها الطغيان، كان حق
اللجوء بمثابة وسيلة آمنة. كان هناك مخرج من السلطة الشمولية، وكان هذا المخرج
مدخلاً إلى ملاذ على شكل مدينة أو مجتمع أو معبد.⁽¹¹⁸⁴⁾ وكانت المزارات، في عهد

(1184) فيليب مارفلت، "فهم 'الملاذ': الإيمان وتقاليد اللجوء"، مجلة دراسات اللاجئين 24، العدد 3
(2011): 440-55.

الإغريق، أماكن مقدّسة شُيّدت في جميع أنحاء العالم اليوناني القديم، وكُرّست لأغراض اللجوء والتضحية الدينية. وتعني الكلمة اليونانية (asylon) "غير قابل للنهب"، وهي تُؤسّس مفهوم الملاذ أو المزار كمكان مقدس لا يُنتهك.⁽¹¹⁸⁵⁾ ظلّ حق اللجوء مُرتبطاً بالأماكن المقدسة والكنائس والأديرة حتى القرن الثامن عشر في أجزاء عديدة من أوروبا. لم يكن زوال امتياز اللجوء رفضاً، بل انعكاس للتطور الاجتماعي وترسيخ سيادة القانون. وقد لخص أحد المؤرخين هذا التحوّل بقوله: "العدالة بصفتها ملاذاً آمناً".⁽¹¹⁸⁶⁾

في العصر الحديث، عادت القداسة والحرمة والاحترام التي كانت مرتبطة في السابق بقانون اللجوء إلى الظهور في الحماية الدستورية وإعلانات الحقوق غير القابلة للمصادرة. لقد احتفظ القانون العام الإنجليزي بفكرة القلعة باعتبارها حصناً منيعاً، وتُرجم ذلك إلى المفهوم الأوسع "للوطن"، وهو ملاذ خالٍ من التدخل التعسفي: غير قابل للنهب. وعاد الخيط الطويل لامتياز اللجوء إلى الظهور في الفقه الأمريكي. وقالت الباحثة القانونية ليندا كاكلاين عام 1995 إن مساواة البيت بالملاذ لم تعد تعتمد على قدسية حقوق الملكية بقدر ما تعتمد على الالتزام "بخصوصيات الحياة". ووفقاً لملاحظتها، "ثمة موضوع قوي يتعلق بعالم مناسب من عدم القدرة على الوصول أو السرية فيما يخص العالم بأسره، فضلاً عن الاعتراف بالبعد الاجتماعي المهم لمثل هذه المساحة الداخلية المحمية...".⁽¹¹⁸⁷⁾

تظهر المواضيع ذاتها من منظور علم النفس. يحرص أولئك الذين يريدون تدمير الملاذ الآمن على اتخاذ موقف هجومي، مما يضعنا، على حين غرة، أما سؤال يثير شعوراً بالذنب مفاده "ما الذي يخفيه هذا الموقف؟" لكن كما رأينا، لا يمكن التعامل مع

(1185) جون جريفث بيدلي، الملاذات والمزارات المقدّسة في العالم اليوناني القديم (نيويورك: جامعة كامبريدج، 2005)، ص 97.

(1186) إتش. بيانكي، العدالة بصفتها ملاذاً (يوجين، أوريغون: ويبف وستوك، 2010). انظر أيضاً: نورمان ماكلاين ترينهولم وفرانك ثيلي، حق اللجوء في إنكلترا: دراسة في التاريخ المؤسسي، المجلد 1 (كولومبيا: جامعة ميسوري، 1903).

(1187) ليندا ماكلاين، "حرمة الحياة والخصوصية: القلعة والملاذ والجسد"، مجلة ييل للقانون والعلوم الإنسانية، المجلد 7، العدد 1 (1995): 203.

تحديات النمو المتطورة، المتمثلة في التوازن بين الذات والآخر بشكل كافٍ، دون قدسية الزمان والمكان "المنفصلين" من أجل نضج الوعي الداخلي وإمكانية التأمل والتفكير: التأمل في الذات، ومن خلال الذات. الحقيقة النفسية الحقيقية هي: إذا لم يكن لديك ما تخفيه، فأنت لا شيء.

تُثبت إحدى الدراسات التجريبية هذه النقطة. يُعرّف دارل بيدرسن الخصوصية، في كتابه بعنوان "الوظائف النفسية للخصوصية" (Psychological Functions of Privacy)، بأنها "عملية ضبط حدود" تستدعي حقوق اتخاذ القرار المرتبطة بـ "تقييد التفاعل والسعي إليه".⁽¹¹⁸⁸⁾ وقد حدّدت أبحاث بيدرسن ست فئات من سلوكيات الخصوصية: الوحدة، والعزلة، وعدم الكشف عن الهوية، والتحفظ، والتقارب مع الأصدقاء، والتقارب مع العائلة. وتُظهر دراسته أن هذه السلوكيات المتنوعة تحقق مجموعة غنية من "وظائف الخصوصية" النفسية المعقّدة التي تعتبر بالغة الأهمية للصحة النفسية والنجاح التنموي: التأمل، والاستقلالية، والتجديد، والثقة، والحرية، والإبداع، والتعافي، والتطهير، والإخفاء. هذه هي التجارب التي لا يمكننا من دونها أن نزهدهر أو نساهم بشكل مفيد في عائلاتنا ومجتمعاتنا.

مع تزايد كثافة العصر الرقمي وانتشار رأسمالية المراقبة، لم يعد الحل القديم المتمثل في "العدالة بصفقتها ملاذاً آمناً قائماً. يتفوّق "الآخر الكبير" على المجتمع والقانون في تدمير مُصرّح به ذاتياً للحق في الملاذ الآمن، إذ يطغى على اعتبارات العدالة ببراعته التكتيكية في الصدمة والرعب. إن حقائق هيمنة رأسمالية المراقبة على تقسيم التعلّم، وزخم دورة النهب، ومأسسة وسائل تعديل السلوك، وتقارب هذه الوسائل مع متطلبات المشاركة الاجتماعية، وتصنيع منتجات التنبؤ للتجارة في أسواق العقود الآجلة السلوكية، كلّها أدلة فعلية على حالة جيدة لم يُروّضها القانون. يستكشف الجزء

(1188) دارل بيدرسن، "الوظائف النفسية للخصوصية"، مجلة علم النفس البيئي 17، العدد 2 (1997): 147-156. للاطلاع على مناقشات قيمة ذات صلة في الدراسات القانونية، انظر دانيال سولوف، "ليس لديّ ما أخفيه" ومفاهيم أخرى مغلوطة حول الخصوصية، مجلة سان دييغو للقانون 44 (12 يوليو/تموز 2007): 745؛ جولي كوهين، "ما الغرض من الخصوصية؟" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 5 نوفمبر/ تشرين الثاني 2012).

المتبقي من هذا الفصل تداعيات هذا الفعل. ما الذي يتطلبه الترويض؟ ما نوع الحياة التي ستبقى لنا إذا فشل الترويض؟

مكتبة

t.me/soramnqraa

2- العدالة في حدود السلطة الجديدة

للحفاظ على الملاذ، لا بدّ من إعلانات مُركّبة: مسارات بديلة تُفضي إلى مستقبل إنساني. وما يستدعي اهتمامنا هو الجدار وليس الأنفاق. لم تواكب قوانين الخصوصية زحفَ الهيمنة الآلية حتى الآن. ووفقاً للباحثة القانونية أنيتا ألين، تنقسم تحليلات "انتهاك الخصوصية" إلى "مجموعة فئات يسهل توضيحها". تُقارن ألين بين "الخصوصية المادية" (التي تُسمى أحياناً "الخصوصية المكانية") و"الخصوصية المعلوماتية". وتُشير إلى أن الخصوصية المادية تُنتهك "عندما تُحبط جهود الشخص في عزل نفسه أو إخفاء هويته". وتُنتهك خصوصية المعلومات "عندما يُكشفُ عن بيانات أو حقائق أو محادثات يرغب الشخص في إخفائها". (1189)

تتهاولى هذه التصنيفات وتتحطّم في عصر "الآخر الكبير". وتغصّ الأماكن المادية، بما فيها بيوتنا، بالانتهاكات المعلوماتية، إذ تُصوّر حياتنا باعتبارها سلوكاً، وتُصادر باعتبارها فائضاً. ونحن نُلحِقُ هذا بأنفسنا عادة لأننا لا ندرك العمليات الخفية وتداعياتها الكاملة. كما تُفرض علينا انتهاكات أخرى بكل بساطة، كما في حالة الدمية الناطقة، والتلفاز الذي يستمع، ومئات التطبيقات المبرمجة على أخذ المعلومات سرّاً. لقد استعرضنا العديد من الأشياء والعمليات التي صمّمها رأسمال المراقبة لتكون ذكية، وحسّية، ومُفعّلة، ومتصلة بالإنترنت فعلاً. ومع قراءتك لهذه الصفحات، سيكون هناك المزيد والمزيد من تلك الأدوات. إنها أشبه بالصبي المتدرّب لدى ساحر لديه لعنة الملء وإعادة الملء الدائمين مدفوعاً بمطالبة غير محدودة تؤكد حقها في كل شيء. عندما يقوم العلماء والحقوقيون الأميركيون بتقييم الطرق التي تتحدّى بها القدرات الرقمية القانون الحالي، ينصبّ التركيز على مبدأ التعديل الرابع لأنه يحدد

(1189) أنيتا ألين، الخصوصية غير الشعبية: ما الذي يجب إخفاؤه؟ دراسات في الفلسفة النسوية (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2011)، 4.

العلاقة بين الأفراد والدولة. ومن المؤكد أنه من الأهمية بمكان أن تواكب الحماية التي يوفرها التعديل الرابع متطلبات القرن الحادي والعشرين من خلال حمايتنا من البحث عن معلوماتنا، والاستيلاء عليها، بطرق تعكس الحقائق المعاصرة لإنتاج البيانات.⁽¹¹⁹⁰⁾ المشكلة هي أنه حتى حماية الدولة الموسعة لا تحمينا من الهجوم على ملاذنا الآمن الذي تمارسه القوة الآلية، وتحركه الضرورات الاقتصادية لرأسالية المراقبة.⁽¹¹⁹¹⁾ لا يفيدنا التعديل الرابع هنا مع تفسيره الحالي. لا يوجد ساحرٌ في الأفق مستعدٌ لقيادة رأسالي المراقبة، وعلى حدّ تعبير غوته: "يا مكنسة الزاوية! اسمعي مصيرك المحتوم".

بدأت الدراسات القانونية للتو في استيعاب هذه الحقائق. وكما استتجت مقالة حول "إنترنت الأشياء"، نشرها عام 2016 أندرو غوثري فيرغسون، المتخصص في التعديل الرابع، "إذا كانت مليارات أجهزة الاستشعار المليئة بالبيانات الشخصية تقع خارج نطاق حماية التعديل الرابع، فستنشأ شبكة رقابة واسعة النطاق دون قيود دستورية".⁽¹¹⁹²⁾ وهذا ما يحدث فعلاً، كما رأينا سابقاً. يقدم علماء هولنديون قضية مماثلة لعدم كفاية القانون الهولندي لأنه يتخلف عن "الأخر الكبير"، ولم يعد قادراً على تأكيد قدسية المنزل بشكل فعال، والحفاظ عليه من التداخلات الغازية من جانب الصناعة أو الدولة: "لم تعد الجدران تحمي الفرد بشكل فعال من الخارج في متابعة حياته الشخصية دون تدخل.....".⁽¹¹⁹³⁾

(1190) أورين كير، "عمليات التفتيش والمصادرة في العالم الرقمي"، مجلة هارفارد للقانون، العدد 119، العدد 2 (2005): 531-585؛ إليزابيث ويدرا، وريان جورود، وريان فرازيل، "تيموثي آيفوري كاريتر ضد الولايات المتحدة الأمريكية - بشأن أمر استدعاء إلى محكمة الاستئناف الأمريكية للدائرة السادسة - موجز من علماء تاريخ التعديل الرابع ومعناه الأصلي كأصدقاء للمحكمة لدعم مقدم الالتماس"، المحكمة العليا للولايات المتحدة، 14 أغسطس/ آب 2017؛ ديفيد غراي، "التعديل الرابع في عصر الرقابة" (نيويورك: مطبعة كامبريدج، 2017)؛ ديفيد غراي، "الأمر القطعي للتعديل الرابع"، مجلة ميشيغان للقانون، 2017. (1191) انظر جينيفر داسكال، "عدم إقليمية البيانات"، مجلة ييل للقانون 125، رقم 2 (2015): 326-98.

(1192) أندرو جوثري فيرغسون، "إنترنت الأشياء والتعديل الرابع للأثار"، مجلة كاليفورنيا للقانون، 3 أغسطس/ آب 2015.

(1193) ليزا فان دونغن وتيرك تيمان، "تعرف آلة تحضير القهوة الذكية في منزل ما فعلته في الصيف الماضي: تحليل قانوني لقيود الخصوصية التقليدية للمنزل بموجب القانون الهولندي في عصر

تُعقد اليوم آمال كثيرة على لوائح الاتحاد الأوروبي الجديدة المعروفة باسم اللائحة العامة لحماية البيانات (GDPR)، والتي دخلت حيز التنفيذ في مايو/ أيار 2018. ويختلف نهج الاتحاد الأوروبي اختلافاً جوهرياً عن نهج الولايات المتحدة، إذ يتعين على الشركات تبرير أنشطتها المتعلقة بالبيانات ضمن الإطار التنظيمي لللائحة العامة لحماية البيانات. وتقدّم هذه اللوائح الكثير من الميزات الموضوعية والإجرائية الجديدة بما في ذلك اشتراط إخطار الأفراد عند اختراق بياناتهم الشخصية، وفرض حدّ أقصى مرتفع لتعريف "الموافقة" الذي يضع قيوداً على اعتماد الشركة على هذا الأسلوب للموافقة على استخدام البيانات الشخصية، وحظر نشر المعلومات الشخصية افتراضياً، واشتراط استخدام الخصوصية عن طريق التصميم عند بناء الأنظمة، والحقّ في محو البيانات، وتوسيع نطاق الحماية ضد عمليات صنع القرار التي تُجريها أنظمة آلية تُسبب آثاراً "لاحقة" على حياة الفرد.⁽¹¹⁹⁴⁾ ويفرض الإطار التنظيمي الجديد أيضاً غرامات كبيرة على الانتهاكات تصل أحياناً إلى 4٪ من الإيرادات العالمية للشركة، كما يسمح برفع دعاوى قضائية جماعية يتحدّ فيها المستخدمون لتأكيد حقوقهم في الخصوصية وحماية البيانات.⁽¹¹⁹⁵⁾

إنها إنجازات حيوية وضرورية، والسؤال الأهم في قصتنا هو ما إذا كان بإمكان هذا النظام الجديد أن يكون بمثابة نقطة انطلاق لتحديّ شرعية رأسمالية المراقبة، وهزيمة قوّتها الآلية في نهاية المطاف. سيتعلّم العالم مع مرور الوقت ما إذا كان بإمكان اللائحة العامة لحماية البيانات (GDPR) أن تتفوّق على "الآخر الكبير"، مؤكدةً بذلك مبدأً جديداً لتقسيم التعلّم يتماشى مع قيم المجتمع الديمقراطي وتطلّعاته. ويعتمد هذا الانتصار على رفض المجتمع للأسواق القائمة على سلب الخبرة الإنسانية باعتبارها وسيلة للتنبؤ بالسلوك البشري، والتحكّم فيه، لتحقيق مكاسب الآخرين.

التكنولوجيا الذكية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 1 سبتمبر 2017).

(1194) للحصول على شرح واضح لـ "الموافقة" بموجب اللائحة العامة لحماية البيانات، راجع سالي أنيرو، "فهم الموافقة بموجب اللائحة العامة لحماية البيانات"، مركز البيانات العالمي، نوفمبر 2016.

(1195) ماكان فيتزجيرالد ورويري ماديغان، "اللائحة العامة لحماية البيانات وإنترنت الأشياء: خمسة أشياء تحتاج إلى معرفتها"، ليكسولوجي، 26 مايو/ أيار 2016.

يناقش العلماء والمختصون آثار هذه القواعد الحاسمة الجديدة، ويجادل بعضهم بحتمية التغيير الحاسم، بينما يجادل آخرون في احتمال الاستمرارية بدلاً من حدوث تحولات أساسية من هذه الممارسة.⁽¹¹⁹⁶⁾ لكن، ثمة بعض الأمور التي نعرفها. فالأفراد الذين يصارعون التعقيدات الهائلة لحماية بياناتهم لن يكونوا نذًا للتفاوت الهائل في المعرفة والسلطة ورأسالية المراقبة. وإذا كنا قد تعلّمنا شيئاً من العقدين الماضيين، فهو أن الفرد وحده لا يستطيع أن يتحمّل عبء هذه المعركة على الحدود الجديدة للسلطة.

يتجلى هذا الموضوع في رحلة عالم الرياضيات البلجيكي والناشط في حماية البيانات بول أوليفيه ديهاي، الذي قدّم في ديسمبر/ كانون الأول عام 2016 طلباً للحصول على بياناته التي جُمعت من تطبيق "كستمر أودينسز" في فيسبوك، ومن أدوات تطبيق "بيكسل"، التي من شأنها أن تكشف الصفحات التي تتبّع موقع فيسبوك إليها. ربما كان ديهاي يعرف عن عمليات البيانات المارقة التي تقوم بها شركة "كامبريدج أناليتيكا" أكثر من أي شخص آخر في العالم، باستثناء موظفيها وعقولها المدبرة. وكان هدفه يقوم على اتباع نهج تحقيقي من القاعدة إلى القمة لكشف أسرار الوسائل غير المشروعة لتعديل السلوك السياسي.

كانت الخطوة الأولى هي تحديد ما يعرفه فيسبوك عنه، ولا سيّما نوع البيانات التي قد تصبح ذات صلة في سياق انتخابي، وبالتالي تجعله وآخرين، عرضة لأنواع المناورات الخفية التي استخدمتها شركة "كامبريدج أناليتيكا". وأراد أن يفهم كيف

(1196) دافني كيلر، "الأدوات المناسبة: قوانين مسؤولية الوسيط في أوروبا واللائحة العامة لحماية البيانات لعام 2016" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 22 مارس 2017)؛ ساندر واتشر، "التحديات المعيارية لتحديد الهوية في إنترنت الأشياء: الخصوصية، والتنميط، والتمييز، واللائحة العامة لحماية البيانات" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 6 ديسمبر 2017)؛ تال زارسكي، "غير متوافق: اللائحة العامة لحماية البيانات في عصر البيانات الضخمة" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 8 أغسطس 2017)؛ أنا روسي، "هل تحظى التكنولوجيا بالاحترام أم بالتعدي؟ اللائحة العامة لحماية البيانات والتنميط التجاري على الإنترنت" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 13 يوليو 2016)؛ فيكتور ماير-شونبرغر ويان بادوفا، "تغيير النظام؟ تمكين البيانات الضخمة من خلال لائحة حماية البيانات الأوروبية الجديدة"، مجلة كولومبيا للعلوم والتكنولوجيا القانونية، 315 (2016): 315-335.

يمكن للمواطن أن يتحقق من البيانات التي تمكّنه من القيام بما يعتبره كثير من الناس تهديدًا "خطيرًا للغاية، انطلاقًا من الغضب العالمي إزاء الكشف عن التلاعب السياسي السري عبر الإنترنت. ثم وثق بعناية تقلّبات رحلته، أملًا أن تكون تجربته مفيدة للصحفيين والمواطنين والمجتمعات التي تسعى إلى فهم نطاق ممارسات فيسبوك وثغراتها السياسية. فيقول:

من الصعب للغاية طبعًا أن تتحدّث إلى شركة مثل فيسبوك بصفتك فردًا، لذلك اضطرت بحلول أبريل 2017 إلى تصعيد الأمر إلى مفوض حماية البيانات الإيرلندي. وفي شهر أكتوبر 2017، وبعد نقاشات مطوّلة، وافق المفوض أخيرًا على اتخاذ الخطوة الأولى بشأن شكواي، وطلب تعليقًا من فيسبوك. وبحلول ديسمبر 2017، تلقّوا ردًا على ما يبدو، ولكن حتى مارس 2018 ما زالوا "يقيّمون" الأمر، على الرغم من التذكيرات المتكرّرة. من الصعب جدًّا عدم ملاحظة وجود مشكلة هنا فيما يتعلق بالتنفيذ. (1197)

في مارس / آذار 2018، وبعد خمسة عشر شهرًا من طلبه الأول، تلقى ديهاي أخيرًا رسالة بريد إلكتروني من فريق عمليات الخصوصية في فيسبوك. وقيل له إن المعلومات التي سعى للحصول عليها "غير متاحة من خلال أدوات الخدمة الذاتية لدينا" ولكنها مخزنة في "Hive"، وهي "منطقة تخزين السجلات" في فيسبوك، حيث يتم الاحتفاظ بها من أجل "تحليل البيانات" ويتم الحفاظ عليها منفصلة عن "قواعد البيانات التي تدعم موقع فيسبوك". وأصرّت الشركة على أن الوصول إلى البيانات يتطلب منها التغلب على "تحديات تقنية هائلة". وكتبت الشركة: "كما أن هذه البيانات لا تُستخدم مباشرة لخدمة موقع فيسبوك الذي يتصفحه المستخدمون". (1198)

بلغتنا نحن، المعلومات التي أرادها ديهاي تطلّبت الوصول إلى "النص الخفي"،

(1197) بول أوليفيه ديهاي، رسالة بالبريد الإلكتروني إلى لجنة وزارة الثقافة والإعلام والرياضة، 6 مارس 2018.

(1198) بول أوليفيه ديهاي، رسالة بالبريد الإلكتروني إلى لجنة وزارة الثقافة والإعلام والرياضة، 7 مارس 2018 (الخط المائل يعود لي).

وكان قد طلب تحديدًا، من بين أمور أخرى، تفاصيل حول تحليلات الاستهداف التي حدّدت الإعلانات التي عُرضت عليه على فيسبوك. ويُشيرُ جواب الشركة إلى أن بيانات "Hive" جزء من هذا "النصّ الثانوي" الحصري، حيث يُجمع فائض السلوك لتصنيعه في منتجات تنبئية.⁽¹¹⁹⁹⁾ فهذه العملية منفصلة تمامًا عن "النصّ الأول" الذي يختبره المستخدمون.

يُوضح فيسبوك أن النصّ الظليّ غير متاح للمستخدمين، على الرغم من الترويج لأدوات التنزيل ذاتية الخدمة التي تُتيح للمستخدمين الوصول إلى بياناتهم الشخصية التي تحتفظ بها الشركة. في الواقع، تجعل الديناميكيات التنافسية لرأسمالية المراقبة النصّ الظليّ مصدرًا أساسيًا للامتيازات الملكية. وستُعتبرُ أية محاولة لاختراق محتواه تهديدًا وجوديًا؛ ولن يُقدّم أي مستثمر من مستثمري رأسمالية المراقبة بيانات من النصّ الظليّ طواعية. والقانون وحده هو القادر على فرض هذا التحديّ على التقسيم المرصّي للتعلّم.

في أعقاب فضيحة كامبريدج أناليتيكا في مارس/ آذار 2018، أعلنت شركة فيسبوك أنها ستوسّع نطاق البيانات الشخصية التي تسمح للمستخدمين بتحميلها، لكن هذه البيانات تظلّ محصورة بالكامل داخل النصّ الأول، وتتكوّن إلى حدّ كبير من المعلومات التي قدمها المستخدمون أنفسهم، بما في ذلك المعلومات التي حذفوها: الأصدقاء، والصور، والفيديو، والإعلانات التي نقروا عليها وشاهدوها، والمنشورات، والموقع، وما إلى ذلك. لا تشمل هذه البيانات الفائض السلوكي، ونواتج التنبؤ، ومصير تلك التنبؤات عند استخدامها في تعديل السلوك، سواء تمّ شراؤها أو بيعها. ولن تتمكّن، عند تنزيل "معلوماتك الشخصية"، من الوصول إلى الكواليس بل ستصل إلى المسرح فقط: ستصل إلى الستار، لا إلى الساحر.⁽¹²⁰⁰⁾

(1199) لمزيد من المعلومات حول بيانات Hive وبنيتها، راجع تدقيق فيسبوك الذي أجراه مفوض حماية البيانات الأيرلندي في عامي 2011 و2012، في أعقاب جهود ناشط الخصوصية ماكس شريمز، الذي تحدّى مراكمة فيسبوك للبيانات الشخصية عن مواطني الاتحاد الأوروبي: "تدقيق فيسبوك"، لجنة حماية البيانات - أيرلندا، 3 يوليو/ تموز 2018.

(1200) كيف يمكنني تحميل نسخة من بياناتي على فيسبوك؟ فيسبوك؛ "ما الذي تبحث عنه في بياناتك

يُظهر ردّ فيسبوك على ديهاي نتيجة أخرى من نتائج التفاوتات المعرفية الشديدة. حيث أصرت الشركة على أن الوصول إلى البيانات المطلوبة يتطلب منها التغلّب على "تحديات تقنية هائلة". ومع تقارب تدفّقات الفوائض السلوكية في عمليات التصنيع القائمة على التعلّم الآلي، يتجاوز الحجم الهائل لمدخلات البيانات وطرق تحليلها الفهم البشري. لناخذ حالة بسيطة مثل اختيار تطبيق أنستغرام للصور التي تُعرّض عليك. تعتمد برمجتها على تدفّقات متنوعة من الفائض السلوكي من المستخدم المعني، ثم المزيد من التدفّقات من الأصدقاء في شبكة هذا المستخدم، ثم المزيد من أنشطة الأشخاص الذين يتابعون الحسابات ذاتها مثل المستخدم المعني، ثم البيانات والروابط الاجتماعية من نشاط المستخدم على فيسبوك. وعندما يُطبّق أخيراً منطق تصنيف للتنبؤ بالصور التي سيرغب المستخدم في رؤيتها لاحقاً، يتضمن هذا التحليل أيضاً بيانات حول السلوك السابق للمستخدم المعني. يستخدم أنستغرام آلاتٍ تقوم بهذا "التعلّم" لأن البشر لا يستطيعون ذلك.⁽¹²⁰¹⁾ وفي حالة التحليلات الأكثر "أهمية"، يرجّح أن تكون العمليات معقّدة بالقدر نفسه، وربما أكثر.

هذا يذكرنا بمناقشتنا لمحرّك التنبؤ (FB Lerner Flow) الخاص بشركة فيسبوك، حيث تتم تغذية الآلات بعشرات آلاف نقاط البيانات المستمّدة من الفائض السلوكي، مما يقلّل فكرة الحق في الاعتراض على "اتخاذ القرار التلقائي". إذا كان من المقرر أن تكون الخوارزميات لا تقبل المنافسة بأي شكل ذي معنى، فسوف يتطلب الأمر سلطة وقوة مضادة جديدة، بما في ذلك موارد الآلات والخبرات للوصول إلى التخصصات الأساسية للذكاء الآلي وبناء مناهج جديدة متاحة للتفتيش والمناقشة والقتال. وقد

على فيسبوك - وكيف تجده"، وايرد، 26 أبريل عام 2018.

(1201) جون بول تيتلو، "كيف يتعلّم أنستغرام من إعجاباتك لإبائك مدمناً"، فاست كومباني، 7 يوليو 2017؛ ليليان إدواردز ومايكل فيل، "عبد للخوارزمية؟ لماذا قد لا يكون 'الحق في التفسير' هو الحل الذي تبحث عنه؟" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 23 مايو 2017)؛ مايكل فيل، وروبين بينز، وجيف أوسلوس، "عندما تتعارض حماية البيانات بالتصميم مع حقوق أصحاب البيانات"، قانون خصوصية البيانات الدولي، 26 أبريل 2018؛ ديميترا كامارينو، وكريستوفر ميلارد، وجاينندر سينغ، "التعلّم الآلي باستخدام البيانات الشخصية" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 7 نوفمبر 2016).

اقترح أحد الخبراء بالفعل إنشاء وكالة حكومية - "إدارة غذاء ودواء للخوارزميات" - للإشراف على تطوير الخوارزميات المعقدة وتوزيعها وبيعها واستخدامها، بحجة أن القوانين الحالية "أثبتت أنها غير قادرة على مواجهة الألغاز التنظيمية الصعبة التي تشكلها الخوارزميات". (1202)

تجربة ديهاي ليست سوى مثال واحد على الطبيعة المستدامة للتقسيم المرضي للتعلّم، والعبء الهائل الواقع على الأفراد الذين يتحرّكون لتحدي ظلمه. كان ديهاي شخصاً ناشطاً، ولم يكن هدفه الوصول إلى البيانات فحسب، بل توثيق صعوبة هذه المهمة وعبيتها. ونظراً لهذه الحقائق، يُشير على أن لوائح حماية البيانات تُضاهي قوانين حرية المعلومات. إن الإجراءات الخاصة بطلب هذه المعلومات وتلقيها بموجب هذه القوانين هي إجراءات معقدة وغير كاملة، وعادة ما يقوم بها متخصصون قانونيون، لكنها مع ذلك ضرورية للحرية الديمقراطية. ومع أن الصراع الفعّال يتطلب أشخاصاً مُصمّمين، إلا أن الفرد وحده لا يستطيع تحمّل عبء العدالة، تماماً كما لم يكن بإمكان عامل فرديّ في السنوات الأولى من القرن العشرين تحمّل عبء النضال من أجل تحسين أجور العمل وظروفه. لقد تطلّبت تحديات القرن العشرين تلك عملاً جماعياً، وكذلك تتطلّب تحدياتنا. (1203)

تذكرنا الأنثروبولوجية لورا نادر، في مناقشتها لموضوع "حياة القانون"، بأن القانون يعكس "احتمالات التمكين الديمقراطي"، لكن هذه الإمكانيات لا تتحقّق في الحياة الواقعية إلا عندما يُعارض المواطنون الظلم بنشاط، مستخدمين القانون كوسيلة لتحقيق هدف أسمى. وتقول: "المدّعي هو حياة القانون"، هي حقيقة رأيناها تتجلى في نضال المواطنين الإسبان الذين طالبوا بحقّهم في النسيان. "بمواجهة ظلمهم بالقانون، لا يزال بإمكان المدّعين والمحامين عنهم تحديد مكانة القانون في صنع

(1202) أندرو توت، "إدارة غذاء ودواء للخوارزميات"، مراجعة القانون الإداري 69، العدد 83 (2017).
(1203) لمناقشة ممتازة لديناميكيات القوة هذه من منظور تاريخي، انظر روبن مانسيل، "أجزاء من القوة: الصراع من أجل السيطرة على شبكات المعلومات والاتصالات"، الاقتصاد السياسي للاتصالات 5، العدد 1 (2017)، 2-29، وخاصة 16.

التاريخ".⁽¹²⁰⁴⁾ لا يقف هؤلاء المدّعون بمفردهم؛ بل يقفون إلى جانب المواطنين المتراطين باعتبارهم الوسيلة الضرورية لمواجهة الظلم الاجتماعي.

هذا يعيدنا إلى اللائحة العامة لحماية البيانات (GDPR) ومسألة تأثيرها. الإجابة الوحيدة الممكنة هي أن كل شيء سيعتمد على كيفية تفسير المجتمعات الأوروبية للنظام التنظيمي الجديد في التشريعات والمحاكم. ولن تكون صياغة اللوائح هي التي تُشكّل هذه التفسيرات، بل الحركات الشعبية على الأرض. فقبل قرن من الزمان، نظّم العمال أنفسهم من أجل عمل جماعي، وقلّبو موازين القوى في نهاية المطاف، وسيتمّ على "المستخدمين" اليوم أن يحشدوا أنفسهم بطرق جديدة تعكس "ظروف معيشتنا" الفريدة في القرن الحادي والعشرين. نحن بحاجة إلى إعلانات مُركّبة تتخذ طابعاً راسخاً في مراكز جديدة للسلطة والخبرة والتنافس الديمقراطي، وتتحدى تفاوت المعرفة والسلطة السائد اليوم. ستكون هذه النوعية من العمل الجماعي ضرورية إذا أردنا في النهاية أن نستبدل بالفوضى قوانين تُؤكّد على الحقّ في الملاذ الآمن، والحق في زمن المستقبل، باعتبارهما أساسيين لحياة إنسانية فعّالة.

من الممكن بالفعل أن نشهد صحوة جديدة نحو تعزيز العمل الجماعي، على الأقل في مجال الخصوصية. ومن الأمثلة على ذلك منظمة "لا شأن لك بهذا كله" (NOYB)، وهي منظمة غير ربحية يقودها ناشط الخصوصية ماكس شريمز. بعد سنوات طويلة من الجدل القانوني، حقق شريمز إنجازاً تاريخياً عام 2015 عندما أدّى تحدّيه لممارسات فيسبوك في جمع البيانات والاحتفاظ بها - والتي ادعى أنها تنتهك قانون الخصوصية في الاتحاد الأوروبي - إلى إبطال محكمة العدل الأوروبية لاتفاقية "الملاذ الآمن" (Safe Harbor) التي تحكم نقل البيانات بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. وفي عام 2018، أطلق شريمز منظمة "لا شأن لك بهذا كله" (NOYB)، كوسيلة "تعزيز الخصوصية المهنية". وتتمثل الفكرة في دفع الجهات التنظيمية إلى سد الفجوة بين اللوائح المكتوبة وممارسات الخصوصية للشركات، والاستفادة من تهديد

(1204) لورا نادر، "حياة القانون - قصة مؤثرة"، مجلة قانون جامعة فالبارايسو 36، العدد 3 (2002):

الغرامات الكبيرة لتغيير الإجراءات الفعلية للشركة. تريد منظمة (NOYB) أن تصبح "منصة تعزيز أوروبية مستقرة" تعمل على توحيد مجموعات المستخدمين ومساعدتهم خلال عملية التقاضي أثناء بناء التحالفات، وتعزيز "التقاضي المستهدف والاستراتيجي لتضخيم التأثير 'في الحق في الخصوصية'".⁽¹²⁰⁵⁾ أيًا كانت الطريقة التي يتقدم بها هذا المشروع، فإن النقطة الأساسية بالنسبة إلينا هي الطريقة التي يشير بها إلى فراغ اجتماعي يجب ملؤه بأشكال جديدة مُبدعة من العمل الجماعي، إذا كانت حياة القانون ستتحرك ضدّ رأسمالية المراقبة.

الزمن وحده كفيلٌ بإثبات ما إذا كان القانون العام لحماية البيانات (GDPR) سيُحفّز مرحلةً جديدةً من الصراع تُسيطر على سوقٍ غير شرعيةٍ في مستقبل السلوك، وعمليات البيانات التي تُغذيها، وما تسعى إليه من مجتمع يُستخدم كأداة. قد نشعر بخيبة أملٍ إزاء تعنت الوضع الراهن، في غياب تصريحاتٍ مُصطنعةٍ جديدة. إذا كان الماضي مجرد مقدمة، فلن تكون قوانين الخصوصية وحماية البيانات ومكافحة الاحتكار كافية لإيقاف رأسمالية المراقبة. تشير الأسباب التي تفحصناها في الإجابة على سؤال "كيف أفلتوا من العقاب؟" إلى أن الهياكل الهائلة المعقّدة لرأسمالية المراقبة وضروراتها سوف تتطلب تحديًا أكثر مباشرة.

هذا على الأقل أحد الاستنتاجات من العقد الماضي: على الرغم من قوانين الخصوصية وحماية البيانات الصارمة في الاتحاد الأوروبي مقارنة بالولايات المتحدة، بالإضافة إلى الالتزام الصارم بمكافحة الاحتكار، استمرّ ازدهار فيسبوك وغوغل في أوروبا. وعلى سبيل المثال، بين عامي 2010 و2017، بلغ معدّل النمو السنوي المركّب لمستخدمي فيسبوك النشطين يوميًا 15٪ في أوروبا، مقارنة بـ 9٪ في الولايات المتحدة وكندا.⁽¹²⁰⁶⁾ حيث نمت، خلال تلك الفترة، إيرادات الشركة بمعدّل نمو

(1205) للمزيد عن منظمة (NOYB)، يرجى مراجعة موقعها الإلكتروني (Noyb.EU) "خصوصيتي ليست من شأنك". انظر أيضًا هانا كوشلر، "ماكس شريمز: الرجل الذي تحدّى فيسبوك وفاز بالتحدي"، فاينانشال تايمز، 5 أبريل/ نيسان 2018.

(1206) 2010-2012: كيت سيبورغ، "أرباح فيسبوك للربع الرابع من عام 2012"، 31 يناير 2013: 2013-2014: "نتائج فيسبوك للربع الرابع من عام 2014"، 4 أغسطس 2018: 2015-2017: ديبورا كروفورد

سنوي مركّب بلغ 50 بالمئة في كلتا المنطقتين.⁽¹²⁰⁷⁾ بين عام 2009 والربع الأول من عام 2018 انخفضت حصة غوغل في سوق البحث في أوروبا ما يقارب 2٪ بينما ازدادت في الولايات المتحدة ما يقارب 9٪ (ظلت حصة غوغل في السوق الأوروبية مرتفعة، حيث بلغت 91.5٪ في عام 2018، مقارنة بـ 88٪ في الولايات المتحدة). أما بالنسبة إلى هواتف أندرويد المحمولة، فقد زادت حصة غوغل في السوق بنسبة 69٪ في أوروبا مقارنةً بـ 44٪ في الولايات المتحدة. وزاد متصفح غوغل كروم حصته في السوق بنسبة 55٪ في أوروبا و51٪ في الولايات المتحدة.

إن معدلات النمو هذه ليس مجرد مصادفة وفقاً لما تشير إليه قائمتنا "كيف أفلتوا من العقاب". واعترافاً بهذه الحقيقة، قال المشرف على حماية البيانات في أوروبا جيوفاي بوتاريلي لصحيفة نيويورك تايمز إن تأثير اللائحة العامة لحماية البيانات ستحدده الجهات التنظيمية التي "ستواجه فرقاً ممولة بشكل جيد من جماعات الضغط والمحامين".⁽¹²⁰⁸⁾ في الواقع، كان المحامون المتخصصون في الشركات قد بدؤوا بالفعل في صقل استراتيجياتهم للحفاظ على سير العمل كالمعتاد وإعداد المسرح للمنافسات المقبلة. وعلى سبيل المثال، يقوم بحث نشرته إحدى شركات المحاماة الدولية البارزة بحشد الشركات من أجل حواجز معالجة البيانات، بحجة أن المفهوم القانوني "للمصلحة المشروعة" يوفر فرصة واحدة لتجاوز العقوبات التنظيمية الجديدة:

ربما تكون المصلحة المشروعة هي الأساس المسؤول للمعالجة في سياقات عديدة، إذ تتطلب تقييماً وموازنة لمخاطر المعالجة وفوائدها على المؤسسات والأفراد والمجتمع. وقد تشمل المصالح المشروعة للجهة المتحكمّة أو أي طرف ثالث حقوقاً وحرّيات أخرى. ويشمل اختبار الموازنة أحياناً حرية التعبير، والحق في ممارسة النشاط

وأخرون، "فيسبوك، المحدودة (FB) - نتائج الربع الرابع والعام المالي 2016"، 1 فبراير 2017.
(1207) الولايات المتحدة وكندا: "فيسبوك: الإيرادات الفصلية في الولايات المتحدة وكندا من الربع الأول 2010 إلى الربع الثاني 2018"، ستاتيسا، 2018؛ أوروبا: "فيسبوك: الإيرادات الفصلية في أوروبا من الربع الأول 2010 إلى الربع الثاني 2018"، ستاتيسا، 2018.
(1208) انظر دايسوكي واكabayashi وأدم ساتاربانو، "كيف يمكن للوائح الخصوصية الوشيكة أن تبرز قوة فيسبوك وغوغل"، نيويورك تايمز، 24 أبريل/ نيسان 2018.

الاقتصادي، والحق في ضمان حماية حقوق الملكية الفكرية، وغيرها. ويجب أيضًا مراعاة هذه الحقوق عند مقارنتها بحق الأفراد في الخصوصية. (1209)

بدأت الضرورات الاقتصادية لرأسمالية المراقبة تتضح في أواخر أبريل/ نيسان 2018، تحسبًا لدخول اللائحة العامة لحماية البيانات حيز التنفيذ في مايو/ أيار من ذلك العام. وفي وقت سابق من أبريل/ نيسان، أعلن الرئيس التنفيذي لشركة فيسبوك أن الشركة ستطبق اللائحة العامة لحماية البيانات "روحياً" في جميع أنحاء العالم. لكن عملياً، كانت الشركة تُجري تغييرات لضمان عدم تقييد اللائحة العامة لحماية البيانات لغالبية عملياتها. وحتى ذلك الحين، كان 1.5 مليار من مستخدميها، بمن فيهم مستخدمون في أفريقيا وآسيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، خاضعين لشروط الخدمة الصادرة عن المقر الرئيسي الدولي للشركة في أيرلندا، مما يعني أن هذه الشروط تدرج ضمن إطار الاتحاد الأوروبي. وفي أواخر شهر أبريل/ نيسان، أصدرت شركة فيسبوك بحدود شروط خدمة جديدة، مما وضع هؤلاء المستخدمين البالغ عددهم 1.5 مليار مستخدم تحت قوانين الخصوصية الأمريكية، مما يعني القضاء على إمكانية رفع دعاوى في المحاكم الأيرلندية. (1210)

3- لكل وحيد قرن صياد (1211)

أي حياة تبقى لنا إذا فشل الترويض؟ من دون حماية من رأسمالية المراقبة وسلطتها الآلية - أهدافها السلوكية وأهدافها المجتمعية - سنبقى عالقين في حالة "عدم وجود مخرج"، حيث الجدران الوحيدة الموجودة مصنوعة من الزجاج. يجب إخضاع التوق البشري الفطري للملجأ، وإلغاء مؤسسة الملاذ القديمة.

(1209) "توصيات لتطبيق الشفافية والموافقة والمصلحة المشروعة بموجب اللائحة العامة لحماية البيانات"، مركز قيادة سياسة المعلومات، هانتون وويليامز، مشروع تنفيذ اللائحة العامة لحماية البيانات، 19 مايو/ أيار 2017.

(1210) "حصري: فيسبوك يضع 1.5 مليار مستخدم خارج نطاق قانون الخصوصية الجديد للاتحاد الأوروبي"، رويترز، 19 أبريل/ نيسان 2018.

(1211) يرمز وحيد القرن هنا إلى الشركة الناشئة القوية (المترجم).

إن حالة "انعدام المخرج" هي الشرط الأساسي لازدهار "الآخر الكبير"، وهذا الازدهار بدوره يُعدّ شرطاً لا غنى عنه لما يأتي بعده: من مدّ وجزرٍ للفائض السلوكي وتحويله إلى أرباح، وبقينٍ مطلق في تزويد كل فاعل في السوق بنتائج مضمونة، إلى تجاوز الحاجة إلى الثقة والاكتفاء باللامبالاة في غياب العقود.

هي جنة التواصل السهل التي تستغلّ احتياجات أفراد الحداثة الثانية — وخاصة المراهقين — وتحيل حياتهم إلى أدوات تُسخّر لخدمة غايات الآخرين.

إنه سلبٌ للذات، وغيابٌ للحكم الأخلاقي المستقل، واستبداله بآليات السيطرة الناعمة، والتفعيل، والتعديل المستمر الذي يستنزف الإرادة بهدوء.

إنه انتزاع لصوت الإنسان بصفته "المتكلم" واستبداله بخطط الآخرين، وتدميرٌ للعلاقات الاجتماعية، ولمبادئ السياسة المثالية القديمة، تلك التي لم تتحقّق بعد، والتي تعني بالمواطنين بوصفهم من يقرّر مصيرهم، والمستندين إلى السلطة الشرعية للحكم الديمقراطي..

لقد ألهمت كل "شركة ناشئة قوية من تلك الشركات" أفضل ما حققته البشرية، مهما كان ذلك التحقيق غير مثالي. لكن لكل "وحيد قرن" صياد، والمثل التي غدّت النظام الليبرالي ليست استثناء. ومن أجل مصلحة هذا الصياد، لا يمكن أن يكون هناك أبواب، ولا أقفال، ولا احتكاك، ولا تعارض بين الحميمة والبعد، وبين البيت والكون. ولا حاجة "للتحليل الطبوغرافي" (TOPOANALYSIS) الآن، إذ اندمجت الفضاءات كلها في فضاء واحد هو "الآخر الكبير". لا تبحث عن قمة الصّدفّة الناعمة المتلاثلة. ولا جدوى من الالتفاف على قمّتها القائمة. فالصّدفّة مجرد عقدة متصلة أخرى، وأحلام يقظتك تجد بالفعل جمهوراً في الشبكة الزجاجية الصاخبة النابضة بالحياة.

في غياب تصريحات مركّبة تضمن الطريق إلى مستقبل إنساني، يدفعنا عدم قدرتنا على تحمّل الحياة الزجاجية نحو سباق تسلّح مجتمعي بتصريحات مضادّة نبحت فيها عن طرق معقّدة ونبتّها لكى نختمى في حياتنا بحثاً عن راحة من الآلات الخارجة

عن القانون وأسيادها. ونفعل ذلك لإشباع حاجتنا المستمرة إلى الملاذ الآمن، وكعملية مقاومة نرفض من خلالها الانضباط الآلي في الخلية، و"تأثيراتها المخيفة المتسعة"، وجشع "الآخر الكبير" الذي لا يهدأ. وفي سياق المراقبة الحكومية، أُطلقَ على ممارسات "الإخفاء" اسم "احتجاجات الخصوصية"، وهي معروفة جيدًا بإثارة شكوك وكالات إنفاذ القانون.⁽¹²¹²⁾ والآن يلجأ "الآخر الكبير"، وأسياد سوقه، إلى الاختباء أيضًا، حيث يمتد نفوذهم إلى مسافات بعيدة وعميقة وهم يغرسون أنفسهم في جدراننا وأجسادنا وشوارعنا، ويطالبون بوجوهنا ومشاعرنا وبخوفنا من الإقصاء.

لقد افترضتُ أن الكثير من أفضل أفراد الجيل الجديد وألمعهم يكرسون عبقريتهم لتكثيف تدفق النقرات. والأشدّ إيلامًا هو شعور جيل جديد من النشطين والفنانين والمبتكرين بأنهم مدعوون إلى خلق فنّ الاختباء وعلمه.⁽¹²¹³⁾ تدفع ظروف الحياة الزجاجة القاسية هؤلاء الفنانين الشباب إلى تكريس عبقريتهم لآفاق الاختفاء البشري، حتى حين تطالبنا إبداعاتهم بأن نسعى بقوة لإيجاد اتجاهاتنا. وتتخذ استفزازاتهم بالفعل أشكالًا عديدة: أغلفة هواتف تحجب الإشارات، وأطرافًا اصطناعية لبصمات الأصابع تمنع استخدام أطراف أصابعك "كمفتاح لحياتك"، وواقيات خصوصية (LED) لعرقلة كاميرات التعرف على الوجه، ومعطفًا مبطّنًا يحجب الموجات الراديوية وأجهزة التتبع، وموزّع رائحة يطلق رائحة معدنية عندما يُكشَف موقع ويب أو شبكة غير محمية على أي من أجهزتك، و"تطبيق صدفة سعيدة" لتعطيل أية مراقبة "تعتمد على الأشخاص الذين يحافظون على روتين يمكن التنبؤ به"، وخط ملابس يسمى "Glamouflage" يتميز بمقصان مغطاة بتمثيلات وجوه المشاهير لإرباك برامج التعرف على الوجه، وخوذة مراقبة مضادة للتصوير العصبي لمنع الغزو الرقمي لموجات الدماغ، ومعطفًا مضادًا للمراقبة يخلق درعًا لمنع

(1212) إليزابيث إي. جو، "احتجاجات الخصوصية: التهرب من المراقبة والشك في التعديل الرابع"، مجلة أريزونا للقانون، المجلد 55، العدد 4 (2013): 997-1029؛ جيفري إل. فاغل، "التشفير السري: السلطة والثقة والتكلفة الدستورية للمراقبة الجماعية"، مجلة إنديانا للقانون، المجلد 90، العدد 1 (2015).
(1213) "كيف تكون غير مرئي: 15 أداة وجهًا قابلاً للارتداء لمكافحة الرقابة"، ويب أوربانيست، 28 نوفمبر 2016. للاطلاع على مقال آخر ذي صلة، انظر "دور القراصنة في مكافحة المراقبة وتعزيز الديمقراطية"، 29 أبريل 2018.

الإشارات الغازية. ويصمّم ليو سيلفاجيو من شيكاغو أقنعة اصطناعية بتقنية الطباعة ثلاثية الأبعاد لتشويش عملية التعرّف على الوجه. ويصف جهوده بأنها "تدخل فنيّ منظم". (1214)

لعل أكثرها إيلاّمًا هو مجموعة "Backslash Tool Kit": "سلسلة أجهزة وظيفية مصممة للاحتجاجات وأعمال الشغب في المستقبل"، بما في ذلك وشاح ذكي لتضمين رسائل مخفية ومفاتيح عامة، وأجهزة يمكن ارتداؤها متصلة بشبكة مستقلة، وأجهزة صندوق أسود شخصية لتسجيل إساءة استخدام سلطات تنفيذ القانون، وأجهزة توجيه سريعة النشر للاتصالات خارج الشبكة.

نشأت هذه المجموعة كجزء من مشروع أطروحة ماجستير في جامعة نيويورك، وهي تعكس تمامًا حالة المنافسة التي يواجهها هذا الجيل على الحداثة الثالثة. ويقول المصمّم إن "الاتصال حقّ أساسي من حقوق الإنسان" بالنسبة إلى المتظاهرين الشباب، ممن يتقنون التكنولوجيا الرقمية. لكنه، على الرغم من ذلك، يُعرب عن أسفه قائلاً: "يبدو مستقبل التكنولوجيا في الاحتجاجات قائمًا" بسبب المراقبة المفرطة. وتهدف مجموعة أدواته إلى خلق "مساحة لاستكشاف العلاقة المتوترة بين الاحتجاجات والتكنولوجيا والبحث فيها، ومساحة لتنمية الحوار حول حرية التعبير وأعمال الشغب والتكنولوجيا التي تزعزع الاستقرار". في تطوّر ذي صلة، طوّر طلابٌ في جامعة واشنطن نموذجًا أوليًا لـ "عمليات الإرسال على الجسم باستخدام أجهزة تجارية". تكمن الفكرة هنا في أن الأجهزة المتاحة بسهولة "يمكن استخدامها لنقل المعلومات إلى أجهزة استقبال لاسلكية متصلة بالجسم فقط"، مما يُرسي أسسًا لاتصالات آمنة ومستقلة عن عمليات الإرسال التقليدية عبر شبكة "واي فاي"، التي يُمكن اكتشافها بسهولة. (1215)

إذا قمت بجولة عادية في متجر "المتحف الجديد للفن المعاصر" في مانهاتن،

(1214) انظر زاك سو كول، "الاختباء من الرقابة بارتداء قناع وجه هذا الفنان"، كريبر، 7 مايو 2014.

(1215) مرداد هيسار وآخرون، "تمكين عمليات النقل على الجسم باستخدام الأجهزة الأساسية"، 12-16 سبتمبر 2016، هايدلبرغ، ألمانيا.

فستحظى بعرض لأكثر المنتجات مبيعاً: مرايا تغطي سطح منضدة، فوقها رسالة بلون برتقالي زاهٍ تقول: "صورة السيلفي اليوم هي الملف الشخصي الحيوي للغد". إن "مرآة السيلفي التي تفكر بالخصوصية" هي عبارة عن مشروع للفنان الشاب آدم هارفي المقيم في برلين، والذي يهدف عمله إلى معالجة مشكلة المراقبة، وإحباط سلطة من يارسونها. يبدأ فن هارفي بـ "الهندسة العكسية لخوارزميات الرؤية الحاسوبية" من أجل اكتشاف نقاط ضعفها واستغلالها عبر عمليات الترميز وأشكال أخرى من الإخفاء. وربما يكون معروفاً أكثر بعمله الذي يحمل اسم "Stealth Wear"، وهي سلسلة أزياء تهدف إلى التغلب على مراقبة الطائرات من دون طيار وإرباكها والتهرب منها، والتغلب على برامج التعرف على الوجه. تعكس الأقمشة المطلية بالفضة الإشعاع الحراري، "مما يُمكن مرتديها من تجنب المراقبة الحرارية من الأعلى". تستلهم أزياء هارفي فكرتها من أنماط الزي المحافظ، والتي تُبرز البعد الروحي في العلاقة بين المظهر الخارجي والهوية الداخلية". والآن، يُحوّل هارفي هذا المعنى ليُبدع ملابس تُبعدُ التجربة الإنسانية عن القوى المراقبة. وقد ركّز مشروع آخر له على جماليات في الماكياج وتصفيف الشعر - ريش أزرق معلق بخصلة شعر سوداء كثيفة، وضافات تتدلّى إلى أسفل الأنف، وعظام خدّ مغطاة بطلاء أسود وأبيض، وشعر يلتفّ حول الوجه والرقبة مثل مخالب أخطبوط - وكلها مصمّمة لإحباط برامج التعرف على الوجه وغيرها من أشكال الرؤية الرقمية.

هارفي فنان من بين عدد متزايد من الفنانين الشباب الذين يوجّهون أعمالهم نحو موضوع المراقبة والمقاومة. وهناك "أدوات إزالة الإعجابات والمشاهدات والمتابعات من منصّات التواصل الاجتماعي" التي طوّرها بنيامين غروسر، على مواقع فيسبوك وتويتر، وهي تعرض صفحات كل موقع "بعد حذف أعداد الإعجابات والأصدقاء والمتابعين والتغريدات كلها". يسأل غروسر: كيف تُغيّر واجهة تُبرز عدد أصدقائنا، ومفاهيمنا عن الصداقة؟ "احذف الأرقام واكتشف". إن مشروع "غوراندو" (Go Rando) الذي ابتكره غروسر هو عبارة عن امتداد لمُتصفّح الويب يعمل على "إخفاء مشاعرك على فيسبوك" من خلال اختيار رمز تعبير عشوائي في كلّ مرة تنقر فيها

على زرّ "الإعجاب"، وبالتالي تقويض التحليلات الزائدة للشركة أثناء حسابها للملامح الشخصية والعاطفية.⁽¹²¹⁶⁾ ويجمع فن الأداء الغني الذي قدّمه تريفور بالين بيغن الموسيقى والتصوير الفوتوغرافي والصور الملتقطة عبر الأقمار الصناعية والذكاء الاصطناعي للكشف عن المعرفة والفعل المتواجدين في كل مكان لدى "الآخر الكبير". يقول باغلين: "إنها محاولة للنظر داخل البرنامج الذي يدير الذكاء الاصطناعي... لفهم هياكل أنظمة الرؤية الحاسوبية المختلفة، ومحاولة معرفة ما تراه." كما أسّس تحميل الفنان الصيني آي ويوي لتطبيق "هانسيل وغريتيل" (Hansel & Gretel) لعام 2017 تجربة قوية يواجه فيها المشاركون بشكل غريزي تداعيات المراقبة التي يفرضها عليهم التقاط الصور البريئة، ونشرها على أنستغرام، والتغريد، والرسائل النصية، والنشر.⁽¹²¹⁷⁾

يشبه فنانونا، وشبابنا أيضًا، طيور الكناري في منجم فحم. إن الحاجة إلى إخفاء أنفسنا هي موضوع طليعة فنية لامعة، وهي رسالة أخرى موضوعة في زجاجة، تُلقى من جبهات الحزن والاشمئزاز. إن الحياة الزجاجة أمر لا يطاق، لكن الأمر نفسه ينطبق على وضع الأقنعة على وجوهنا، وتغطية أجسادنا بأقمشة مقاومة للتقنيات الرقمية، لإحباط الآلات الخارجة عن القانون، والمنتشرة في كل مكان. كما هو الحال مع أي إعلان مضاد، يصبح إخفاء المخاطر تكييفًا مع أنه ينبغي أن يكون حافزًا للغضب. هذه الظروف غير مقبولة. الأنفاق تحت هذا الجدار لا تكفي. يجب هدم هذا الجدار.

الخطر الأعظم هو أن نشعر بالراحة في الحياة الزجاجة، أو في احتمال الاختباء منها. إذ يسلبنا كلا الخيارين جوهر الحياة الداخلي، المولود في الملاذ الآمن الذي يميزنا أخيرًا عن الآلات. هذا هو البئر الذي نستمدّ منه القدرة على الوعد والحب، والتي تدبّل من دون روابط الألفة، والروابط العامة للمجتمع. وإذا لم نغيّر هذا المسار الآن، فستترك

(1216) انظر بنيامين غرومر، "المشاريع"، بنيامين غرومر، 3 أغسطس/ آب 2018.

(1217) كيد ميتز، "الأداء المقلق الذي أظهر العالم من خلال عيون الذكاء الاصطناعي"، وايرد، 30 أبريل/ نيسان 2017؛ نو هونغ ها، "عرض آي ويوي الجديد يكشف العواقب المخيفة لهوسنا بالتظاهر أمام الكاميرا"، كوارتز، 29 أبريل/ نيسان 2018.

للأجيال القادمة تركة هائلة. لم تستولِ الرأسمالية الصناعية على الطبيعة إلا لتُحمّل الأجيال القادمة عبء كوكبٍ محترق. فهل سنزید من هذا العبء بغزو رأسمالية المراقبة واستيلائها على الطبيعة البشرية؟ هل سنقف مكتوفي الأيدي وهي تفرض بمهارة حياة الخلّة، مطالبة بالتخلّي عن ملاذنا وحقّنا في المستقبل في سبيل ثروتها وسلطانها؟

يُطلِقُ باراديسو على هذه الحالة اسم الثورة، بينما يصفها بنتلاند بأنها موت الفردانية. ويؤيد ناديلًا وشميدت فكرة الخلّة الآلية باعتبارها نموذجًا يُحتذى به، بما فيها من تلاقٍ قسري وتناغم استباقي. أما بيج وزوكريغ، فيدركان أن تحوّل المجتمع وسيلة لتحقيق غاياتها التجارية. لا شكّ أن هناك معارضين بيننا، لكن لم يُفصّل إعلان حياة بلا جدران حتى الآن إلى انسحاب جماعي من الاتفاق. ويعود ذلك جزئيًا إلى تبعيتنا، وجزئيًا إلى أننا لم نُدرِك بعد اتساع ما يخبئه المهندسون وعمقه، ناهيك عن العواقب التي قد تترتب على هذه "الثورة".

تصبح حساسياتنا مخدّرة تجاه وحشية "الآخر الكبير" مع تطوير ميزاته واختبارها وتوضيحها وتطبيعها. ونصبح صمًا أمام تهويدة الجدران. ويتحوّل الاختباء من الآلات وأسيادها من هواجس في الطليعة إلى موضوع عادي في الخطاب الجماعي، وإلى أحاديثنا حول مائدة العشاء في نهاية المطاف. تحدث كل خطوة على هذا المسار كما لو كانت في ضباب الحرب: شظايا متناثرة، وأحداثًا تظهر فجأة، وفي غموضٍ غالبًا. لا مجال لإدراك النمط، ناهيك عن أصوله ومعناه. ومع ذلك، فإن كل حذفٍ لإمكانية الملاذ يترك فراغًا تملؤه الظروف الجديدة للسلطة الآلية بسلاسةٍ وهدوءٍ.

خاتمة

الفصل الثامن عشر

انقلاب من الأعلى

كان يرتجف من الكراهية تجاه أشياء لم يرها قط،
وكان يتوق إلى حبّ مجردٍ من هدفه،
وكان مضطهدًا كما لم يكن من قبل.

ويستان هيو أودن

سوناتات من الصين، III

يختلف تاريخ رأسمالية المراقبة عن تاريخ رأسمالية السوق بثلاث طرق مذهلة. أولاً،
يصرّ على امتياز الحرية والمعرفة المطلقة. ثانياً، يتخلى عن التبادلية العضوية الراسخة مع
الناس. ثالثاً، يُظهر شبح الحياة في الخلية رؤية جماعية مدعومة بلامبالاة جذرية،
وتعبيرها المادي في "الآخر الكبير". سنستكشف في هذا الفصل كلاً من هذه
الانحرافات عن الأعراف التاريخية، ثم نواجه السؤال الذي تُثيره: هل رأسمالية المراقبة
مجرد "رأسمالية"؟

1 - حرية ومعرفة

لا يختلف أصحاب رأسمال المراقبة عن غيرهم من الرأسماليين في المطالبة بالتححرر
من أي نوع من القيود. فهم يصرّون على "حرية" إطلاق كل ممارسة جديدة، بينما
يؤكدون بشراسة على ضرورة "تحرّره" من القانون والتنظيم. يعكس هذا النمط
الكلاسيكي فرضيتين أساسيتين حول الرأسمالية طرّحهما منظّروها أنفسهم: الأول هو

أن الأسواق بطبيعتها غير قابلة للمعرفة. والثاني هو أن الجهل الناتج عن الافتقار إلى المعرفة يتطلب قدرًا أكبر من حرية العمل بالنسبة إلى الجهات الفاعلة في السوق.

الفكرة التي تقول إن الجهل والحرية من سمات الرأسمالية الأساسية هي فكرة متجذرة بعمق في ظروف الحياة قبل ظهور أنظمة الاتصالات والنقل الحديثة، ناهيك عن الشبكات الرقمية أو الإنترنت أو الهندسة الحاسوبية الحسية التي تحرّك "الآخر الكبير". حتى اللحظات الأخيرة من القصة الإنسانية، كانت الحياة محلية بالضرورة، وكان "الكل" غير مرئي بالضرورة بالنسبة إلى "الجزء".

استلهم آدم سميث مجازة الشهير "اليد الخفية" من هذه الحقائق الثابتة في الحياة البشرية. حيث رأى أن كل فرد يوظف رأسماله محليًا سعيًا وراء وسائل الراحة والضروريات العاجلة. وكلّ منهم يُعنى بـ "أمنه الخاص... ومكاسبه الخاصة.... بقيادة يد خفية تُسهّم في تحقيق غاية لم تكن في نيّته". وهذه الغاية هي الاستخدام الأمثل لرأس المال في السوق الأوسع: ثروة الأمم. تتراكم الأفعال الفردية التي تُنتج أسواقًا فعّالة لتشكل نمطًا بالغ التعقيد، وهو لغز لا يمكن لأي شخص أو كيان أن يأمل في معرفته أو فهمه، ناهيك عن توجيهه: "إن رجل الدولة الذي يحاول توجيه الأفراد إلى الطريقة التي ينبغي لهم بها استخدام رؤوس أموالهم، سوف يفترض.... سلطة يمكن الوثوق بها بأمان، ليس فقط لشخص واحد، بل لأي مجمع أو مجلس من أي نوع...." (1218)

استمدّ الاقتصادي النيوليبرالي فريدريك هايك، الذي ناقشنا عمله بإيجاز في الفصل الثاني باعتباره الأساس للسياسات الاقتصادية التي تفضل السوق في نصف القرن الماضي، المبادئ الأساسية لحججه من افتراضات سميث حول الكل والجزء. يقول هايك: "كان آدم سميث أول من أدرك أننا عثرنا على أساليب لتنظيم التعاون الاقتصادي البشري تتجاوز حدود معرفتنا وإدراكنا. وربما كان من الأفضل وصف 'يده الخفية' بأنها نمط غير مرئي أو غير قابل للرصد". (1219)

(1218) آدم سميث، ثروة الأمم، تحرير إدوين كانان (نيويورك: المكتبة الحديثة، 1994)، 485.

(1219) فريدريك أوغست فون هايك، الأعمال الكاملة لفريدريك أوغست هايك، تحرير ويليام وارن باركلي

كما هو الحال مع بلانك وماير وسكينر، يربط كل من هايك وسميث بين الحرية والجهل ربطاً لا لبس فيه. من وجهة نظر هايك، يكمن سرّ السوق في قدرة عدد كبير من الناس على التصرف بفعالية مع بقائهم جاهلين بالنظام العام. ولا يقتصر الأمر على قدرة الأفراد على الاختيار بحرية، بل يجب عليهم اختيار مساعيهم بحرية، إذ لا يوجد بديل، ولا مصدر للمعرفة الشاملة أو التحكم الواعي يرشدهم. يقول هايك إن "التصميم البشري" مستحيل، لأن تدفق المعلومات ذات الصلة "يتجاوز نطاق سيطرة أي عقل". تتيح ديناميكية السوق للناس العمل في جهل دون "إلزام أي شخص بما يجب عليهم فعله". (1220)

فضّل هايك السوق على الديمقراطية، مجادلاً بأن نظام السوق لا يُمكن من تقسيم العمل فحسب، بل يُمكن أيضاً من "استخدام الموارد بأسلوب منسّق استناداً إلى المعرفة المُقسّمة بالتساوي". وجادل بأن هذا النظام هو الوحيد المتوافق مع الحرية. ورأى أنه ربما يكون من الممكن ابتكار نوع آخر من الحضارة "مثل 'دولة' النمل الأبيض"، لكنه لن يكون متوافقاً مع حرية الإنسان. (1221)

ثمّة خطأ ما. صحيح أن العديد من الرأسماليين، بمن فيهم رأسماليو المراقبة، يلجؤون بقوة إلى هذه الأساليب القديم لتبرير حريتهم عندما يرفضون التدخل التنظيمي أو التشريعي أو القضائي أو المجتمعي، أو أي شكل آخر من أشكال التدخل العام في أساليب عملهم. لكن "الآخر الكبير" والتطبيق المستمر لسلطة الآلة يتحدّيان مبدأ المفاضلة التقليدي للحرية بالجهل.

عندما يتعلق الأمر بعمليات رأسمالية المراقبة، فلن تعود "السوق" غير مرئية، وبالتأكيد ليس بالطريقة التي تخيلها سميث أو هايك. ينشأ عن الصراع التنافسي بين مُستثمري رأسمالية المراقبة دافع نحو الشمولية. إذ تميل المعلومات الكلية نحو اليقين

(شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، 1988)، 14:1.

(1220) (غو برس، 1988)، 14:3. فريدريك هايك، "استخدام المعرفة في المجتمع"، في الفردية والنظام

الاقتصادي (شيكاغو: جامعة شيكاغو، 1980). انظر المناقشة في الصفحات 85-89.

(1221) هايك، "استخدام المعرفة"، ص 89 (الخط المائل يعود لي).

والوعد بنتائج مضمونة. وتعني هذه العمليات تسليم العرض والطلب في أسواق العقود الآجلة السلوكية بتفاصيل لا نهائية.

هكذا تستبدل رأسمالية المراقبة اليقين بالغموض، إذ تستبدل التقليد والتعديل السلوكي والتنبؤ "بالنمط القديم غير القابل للرصد". ما يشكل تحولاً جذرياً في الفكرة الكلاسيكية التي تقول إن "السوق" غير قابل للمعرفة بطبيعته.

تذكر تباهي مارك زوكربيرغ بأن فيسبوك سيعرف كل كتاب وفيلم وأغنية اطلع على أي منها مستخدم ما في وقت معين، وستخبرك نماذجه السلوكية بالمقهى الذي يرغب بارتياحه عندما يصل إلى مدينة غريبة، حيث سيكون النادل في انتظاره، ويقدم له مشروبه المفضل.⁽¹²²²⁾ وكما قال رئيس فريق علوم البيانات في فيسبوك ذات مرة: "هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها العالم هذا الحجم من البيانات المتعلقة بالتواصل البشري وبهذه الجودة... وللمرة الأولى، أصبح لدينا مجهر... يسمح لنا بفحص السلوك الاجتماعي على مستوى دقيق للغاية لم نتمكن من رؤيته من قبل...".⁽¹²²³⁾ وعبر أحد كبار مهندسي فيسبوك عن الأمر باختصار: "نحن نحاول رسم خريطة بيانية لكل شيء في العالم، وكيفية ارتباط أحد هذه الأشياء فيما بينها".⁽¹²²⁴⁾

تتكرر الأهداف نفسها في شركات رأسمالية المراقبة الرائدة الأخرى. وكما لاحظ إريك شميدت من غوغل عام 2010: "بمجرد أن تزودنا بمعلومات أكثر عنك وعن أصدقائك، يُمكننا تحسين جودة عمليات البحث لدينا. لا نحتاج منك أن تكتب أي شيء على الإطلاق. نحن نعرف مكانك. نعرف أين كنت. ويمكننا تقريباً معرفة ما تفكر فيه".⁽¹²²⁵⁾ يعتقد ساتيا ناديل من مايكروسوفت أن جميع المساحات المادية والمؤسسية، والأشخاص، والعلاقات الاجتماعية قابلة للفهرسة والبحث: كل ذلك

(1222) أشلي فانس، "فيسبوك: صناعة مليار مستخدم".

(1223) 6 نوم سيمونايت، "ما يعرفه فيسبوك"، مجلة إم أي تي تكنولوجي ريفيو، 13 يونيو/ حزيران 2012.

(1224) 7 انظر فانس، "فيسبوك: صناعة مليار مستخدم".

(1225) ديريك تومسون، "الرئيس التنفيذي لشركة غوغل: جماعات الضغط هي من يكتب القوانين"، أتلانتيك، 1 أكتوبر/ تشرين الأول 2010.

يخضع للتفكير الآلي، والتعرّف على الأنماط، والتنبؤ، وحقّ الأولوية، والمقاطعة، والتعديل. (1226)

ليست رأسمالية المراقبة هي الرأسمالية القديمة، وقادتها ليسوا مثل رأسماليي سميث أو حتى هايك. لم تعد الحرية والجهل توءمين في هذا النظام، ولم يعودا وجهين لعملة واحدة تُسمّى الغموض. يمكن تعريف رأسمالية المراقبة بأنها تقارب غير مسبوق بين الحرية والمعرفة. وتتوافق درجة هذا التقارب تمامًا مع نطاق سلطة الأداة. ويختطف هذا التراكم غير المقيد للسلطة تقسيم التعلّم في المجتمع فعلاً، ويؤسس ديناميكيات الدمج والإقصاء اللتين تعتمد عليهما عائدات المراقبة. ويدّعي مستثمرو المراقبة حريّة طلب المعرفة، ثم يستغلّون هذه الميزة المعرفية لحماية حريتهم وتوسيع نطاقها.

على الرغم من أنه لا يوجد شيء غير عادي في احتمال سعي الشركات الرأسمالية إلى الحصول على أنواع المزايا المعرفية كلها في سوق تنافسية، تُعتبر قدرات رأسمالية المراقبة التي تترجم الجهل إلى معرفة قدراتٍ غير مسبوقة لأنها تعتمد على المورد الوحيد الذي يميز رأسماليي المراقبة عن الطوباويين التقليديين: رأس المال المالي والفكري الذي يسمح بالتحوّل الفعلي للعالم، المتجسّد في الهندسة المعمارية المتوسعة باستمرار "للاخر الكبير". والأكثر إثارة للدهشة هو أن رأس مال المراقبة ينبع من سلب الخبرة الإنسانية، ويعمل في برامج التسليم المنتشرة أحادية الجانب: تُستنزف حياتنا وتُباع لتمويل حريتهم وإخضاعنا، ومعرفتهم وجهلنا بما يعرفونه.

يكشف هذا الوضع الجديد التبرير النيوليبرالي لتدمير الحركة المزدوجة وانتصار الرأسمالية الخام: أسواقها الحرّة، والجهات الفاعلة في السوق الحرّة، والمؤسسات ذاتية التنظيم. هذا يشير إلى أن رأسماليي المراقبة أتقنوا الخطاب والعبقرية السياسية للدفاع الأيديولوجي النيوليبرالي بينما كانوا يسعون إلى منطقتي تراكم جديد يكذب المبادئ الجوهرية للنظرة العالمية نحو الرأسمالية. ولا يقتصر الأمر على إعادة خلط الأوراق فحسب؛ بل إن قواعد اللعبة قد تحوّلت إلى شيء غير مسبوق ولا يمكن تصوّره خارج

البيئة الرقمية والموارد الهائلة من الثروة والبراعة العلمية التي يضعها الطوباويون التطبيقيون نصب أعينهم.

لقد تفحصنا بعناية الآليات التأسيسية الجديدة لرأسمالية المراقبة، وضرورتها الاقتصادية، وتجميعها للقوة، وأهدافها المجتمعية. وكان أحد الاستنتاجات من هذا التحقيق أن سيطرة رأسمالية المراقبة على تقسيم التعلّم في المجتمع هي السمة المميزة التي تنفصل عن المبررات القديمة لليد الخفية وحقوقها. ويسرّع الجمع بين المعرفة والحرية من تفاوت القوة بين رأسمالي المراقبة والمجتمعات التي يعملون فيها. ولن تُكسر هذه الحلقة المفرغة إلا عندما نقرّ، بصفقتنا مواطنين ومجتمعات وحضارة أيضًا، بأن رأسمالي المراقبة يعرفون أكثر بكثير مما يؤهل للحرية.

مكتبة

t.me/soramnqraa

2- ما بعد العلاقات المتبادلة (معاملة بالمثل)

في قطيعة أساسية أخرى مع ماضي الرأسمالية، يتخلّى رأسماليو المراقبة عن علاقات المعاملة بالمثل العضوية مع الناس، والتي كانت منذ فترة طويلة مؤشرًا على قدرة الرأسمالية على التحمّل والتكيف. تعود هذه المعاملة بالمثل، التي تجسّدت في القرن العشرين في "يوم فورد ذي الدولارات الخمس"، إلى رؤى آدم سميث الأصلية حول العلاقات الاجتماعية الإنتاجية في ظلّ الرأسمالية، حيث تعتمد الشركات على الناس كموظفين وعملاء. وزعم سميث أن زيادات الأسعار يجب أن تتوازن مع زيادات الأجور "حتى يظلّ العامل قادرًا على شراء تلك الكمية من المواد الضرورية التي تتطلبها حالة الطلب على العمالة".⁽¹²²⁷⁾ لقد ساهمت العولة، وحركة قيم المساهمين، بشكل كبير في تدمير هذا العقد الاجتماعي العريق بين الرأسمالية ومجتمعاتها، مُستبدلة اللامبالاة الشكلية بالمعاملة بالمثل. وتمضي رأسمالية المراقبة إلى أبعد من ذلك، حيث لا تتخلّص من سميث فحسب، بل تلغي رسميًا أية معاملة بالمثل باقية مع مجتمعاتها.

أولاً، لم يعد اعتماد رأسمالي المراقبة على البشر كمستهلكين. بل يوجههم محور

(1227) سميث، ثروة الأمم، 939-940.

العرض والطلب نحو الشركات التي تسعى إلى توقع سلوك السكان والمجموعات والأفراد. ورأينا أن النتيجة كانت أن "المستخدمين" هم مصدر المادة الخام لعملية إنتاج عصر رقمي يستهدف عملاء تجاريين جددًا. وحيثما يستمر وجود المستهلكين الأفراد في عمليات رأسمالية المراقبة - شراء مكانس رومبا الكهربائية، والدمى التي تتجسس علينا، وزجاجات الشراب الذكية، أو بوليصات التأمين القائمة على السلوك، على سبيل المثال لا الحصر - لا تعود العلاقات الاجتماعية قائمة على التبادل. في هذه الحالات وغيرها الكثير، تُعتبر المنتجات والخدمات مجرد حاضنات لعمليات رأسمالية المراقبة الطفيلية.

ثانيًا، وفقًا للمعايير التاريخية، تُوظف شركات رأسمالية المراقبة الكبيرة عددًا قليلًا نسبيًا من الموظفين مقارنةً بمواردها الحاسوبية غير المسبوقة. ويُطلق على هذا النمط، الذي تُستغل فيه بنيةٌ تحتيةٌ ضخمة ذات رأسمال ضخم قوةً عاملةً صغيرة ومتعلمة تعليمًا عاليًا، اسم "النطاق الفائق". يتضح الانقطاع التاريخي لعمليات النطاق الفائق من خلال مقارنة مستويات التوظيف ورأس المال السوقي لشركة جنرال موتورز على مدى سبعة عقود ببيانات ما بعد الطرح العام الأولي الأخيرة لأسهم شركتي غوغل وفيسبوك. (اقتصرت المقارنة هنا على غوغل وفيسبوك لأن الشركتين كانتا تعتمدان على رأسمالية المراقبة بشكل كامل حتى قبل طرحهما للاكتتاب العام).

صعدت شركتا غوغل وفيسبوك بثبات، منذ طرح أسهمهما للاكتتاب حتى عام 2016، إلى ذروة القيمة السوقية، حيث وصلت غوغل إلى 532 مليار دولار بنهاية عام 2016، وفيسبوك إلى 332 مليار دولار، دون أن توظف غوغل أكثر من 75 ألف شخص، أو فيسبوك أكثر من 18 ألف شخص. بينما استغرقت جنرال موتورز أربعة عقود للوصول إلى أعلى قيمة سوقية لها، وهي 225.15 مليار دولار، في عام 1965، عندما استخدمت 735 ألف موظف.⁽¹²²⁸⁾ والأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن جنرال

(1228) قمت بجمع هذه البيانات أثناء تجميع القيم السوقية والتوظيف لشركة جنرال موتورز من عام 1926 إلى عام 2008، وغوغل من عام 2004 إلى عام 2016، وفيسبوك من عام 2012 إلى عام 2016. جميع القيم السوقية مُعدّلة وفقًا للتضخم إلى دولارات عام 2016، وفقًا لمؤشر أسعار المستهلك من بيانات الاحتياطي الفيدرالي الاقتصادية، قسم البحوث الاقتصادية، بنك الاحتياطي الفيدرالي في سانت لويس.

موتورز وظفت عددًا أكبر من الأشخاص خلال ذروة الكساد الكبير مقارنةً بعدد موظفي غوغل أو فيسبوك في ذروة قيمتهما السوقية.

يمثل نمط جنرال موتورز القصّة الأيقونية للولايات المتحدة في القرن العشرين، قبل أن تعمل العولمة والليبرالية الجديدة وحركة قيمة المساهمين و"البلوتوقراطية - حكم الأثرياء" على تفكيك الشركات العامة ومؤسسات الحركة المزدوجة. وقد عملت هذه المؤسسات على ترشيد سياسات التوظيف التي تنتهجها شركة جنرال موتورز من خلال ممارسات العمل العادلة، وتشكيل النقابات العمالية، والمفاوضات الجماعية، مما إلى المعاملة بالمثل المستقرة خلال العقود التي سبقت العولمة في القرن العشرين. ففي خمسينات القرن العشرين على سبيل المثال، قال 80٪ من البالغين إن "الأعمال التجارية الكبيرة" أمر جيد للبلاد، واعتقد 66٪ أن الأعمال التجارية لا تتطلب سوى القليل من التغيير، أو لا تتطلب أي تغيير، واتفق 60٪ على أن "أرباح الشركات الكبيرة تساعد في جعل الأمور أفضل لكل من يشتري منتجاتها أو خدماتها". (1229)

تشمل المصادر المستخدمة في تجميع هذه البيانات: ستاندرد آند بورز كابيتال آي كيو (القيمة السوقية لجوجل وعدد موظفيها)، ووارتون لخدمات بيانات الأبحاث - (القيمة السوقية لجنرال موتورز)، وستاندرد آند بورز كومبوستات (عدد موظفي جنرال موتورز)، وتوماس إيكون (القيمة السوقية لفيسبوك)، والتقارير السنوية للشركات (عدد موظفي جنرال موتورز)، وإيداعات هيئة الأوراق المالية والبورصات (عدد موظفي فيسبوك).

(1229) مؤسسة أبحاث الرأي، "هل الشركات الكبرى ضرورية لنمو الأمة وتوسعها؟" مؤشر الرأي العام (أغسطس 1954)؛ مؤسسة أبحاث الرأي، "أي من هذه الأسئلة أقرب إلى انطباعك عن بيئة الأعمال في هذا البلد؟" مؤشر الرأي العام (يناير 1955)؛ مؤسسة أبحاث الرأي، "بعض الأسئلة حول الشركات الكبرى. هل توافق أم لا توافق على كل منها؟... الشركات الكبرى ضرورية لنمو الأمة وتوسعها"، مؤشر الرأي العام (يونيو 1959). أظهر تقرير صدر عام 1951 أن الرأي العام الأمريكي أشاد بالشركات الكبرى لما توفره من فرص عمل، وفعاليتها كمنتج ضخمة، وتطوير المنتجات وتحسينها، ودفع ضرائب باهظة، ودعم التعليم. انظر "استطلاع رأي يظهر تأييد الجمهور للقطاع الصناعي"، صحيفة نيويورك تايمز، 15 يوليو/تموز 1951. أفاد استطلاع رأي أجرته مؤسسة هاريس عام 1966 أن 44% من الأمريكيين ينسبون الفضل في ازدهار البلاد إلى الحكومة الفيدرالية، بينما ينسب 34% الفضل إلى الشركات الكبرى. في عام 1968، عندما كان أجر الرئيس التنفيذي يُعادل حوالي 24 ضعف أجر العامل العادي، قال 64% من الأمريكيين إن قيادة قطاع الأعمال كانت الأفضل على الإطلاق. انظر لويس هاريس وشركاؤه، "أي اثنين أو ثلاثة يُمثّلان أفضل وصف لمعظم قادة الشركات التجارية في البلاد؟" (أبريل/نيسان 1966)؛ لويس هاريس وشركاؤه، "بالمقارنة مع ما أنتجناه في الماضي في هذا البلد، هل تشعر أن قيادتنا الحالية في مجال الأعمال أفضل، أم

على الرغم من أن بعض النقاد ألقوا اللوم على هذه المعاملة بالمثل في فشل جنرال موتورز في التكيف مع المنافسة العالمية في أواخر ثمانينيات القرن العشرين، مما أدى في نهاية المطاف إلى إفلاسها في عام 2009، فقد أظهرت التحليلات أن الرضا الإداري المزمّن والاستراتيجيات المالية الفاشلة تتحمل النصيب الأعظم من المسؤولية عن تراجع الأسطوري للشركة، وهو الاستنتاج الذي تعزّزه نجاحات صناعة السيارات الألمانية في القرن الحادي والعشرين، حيث تتقاسم مؤسسات العمل القوية رسميًا سلطة اتخاذ القرار. (1230)

لقد أصبحت الشركات الضخمة رمزًا للرأسمالية الرقمية الحديثة، وباعتبارها اختراعات رأسمالية فإنها تفرض تحديات اجتماعية واقتصادية كبيرة، بما في ذلك تأثيرها على العمالة والأجور، وتركيز الصناعة، والاحتكار. (1231) في عام 2017، قامت 24 شركة ضخمة بتشغيل 320 مركز بيانات مع عدد هائل من الخوادم (كانت غوغل وفيسبوك من بين أكبر هذه الشركات). (1232)

أسوأ، أم تُقارب ما أنتجناه في الماضي؟" (يونيو/ حزيران 1968). لمزيد من المعلومات حول الخلفية، انظر أيضًا لويس جالامبوس، الصورة العامة للشركات الكبرى في أمريكا، 1880-1940: دراسة كمية في التغيير الاجتماعي (بالنيمور، ماريلاند: جامعة جونز هوبكنز، 1975).

(1230) انظر ألفريد تشاندلر، "المنطق الدائم للنجاح الصناعي"، هارفارد بيزنس ريفيو، 1 مارس 1990؛ سوزان هيلبر وريبيكا هندرسون، "ممارسات الإدارة، والعقود العلنية، وانحدار جنرال موتورز"، مجلة المنظورات الاقتصادية 28، العدد 1 (2014): 49-72.

(1231) ديفيد أوتور وآخرون، "تراجع حصة العمالة وصعود الشركات الخارقة" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 22 مايو/ أيار 2017). انظر أيضًا: مايكل تشوي وجيمس مانينا، "المنافسة في العصر الرقمي: الشركات فائقة الحجم"، مجلة ماكليزي الفصلية، مارس/ آذار 2015.

(1232) يُتوقع أن يكون مائة مركز بيانات إضافي متصلًا بالإنترنت بحلول أواخر عام 2018. استثمرت مايكروسوفت 20 مليار دولار في عام 2017، وفي عام 2018، أعلنت فيسبوك عن خطط لاستثمار 20 مليار دولار في مركز بيانات جديد فائق السرعة في أتلانتا. ووفقًا لأحد تقارير الصناعة، تقوم شركات فائقة السرعة أيضًا ببناء شبكات العالم، وخاصة الكابلات البحرية، مما يعني أن "جزءًا كبيرًا من حركة الإنترنت العالمية يمر الآن عبر شبكات خاصة مملوكة أو تديرها شركات فائقة السرعة". في عام 2016، تعاونت فيسبوك وغوغل لبناء كابل بحري جديد بين الولايات المتحدة وهونغ كونغ، وُصف بأنه أعلى مسار عبر المحيط الهادئ سعة حتى الآن. انظر جواو مارغيس ليما، "شركات فائقة السرعة تسيطر على العالم على نطاق غير مسبوق"، اقتصاد البيانات، 11 أبريل 2017؛ جواو مارغيس ليما، "فيسبوك وغوغل تتعاونان في كابل عبر المحيط الهادئ بطول 12800 كيلومتر يربط بين الولايات المتحدة والصين"، اقتصاد البيانات، 13 أكتوبر/ تشرين الأول 2016؛ جواو مارغيس ليما، "قد يستثمر فيسبوك ما يصل إلى 20 مليار دولار في

لكن لا تُصنّف الشركات الضخمة كلها ضمن فئة رأسمالية المراقبة، ويقتصر تركيزنا هنا على التقارب بين هذين المجالين. إن رأسمالية المراقبة، التي تعمل على نطاق واسع، أو تُسند عملياتها إلى جهات خارجية، تقلّل بشكل كبير من اعتمادها على مجتمعاتها كمصدر للعمالة، وقد رأينا أن القلّة التي تتنافس عليها تنتمي إلى أرقى طبقات علم البيانات.

إن غياب العلاقات التبادلية مع الناس سواء كمصدر للمستهلكين أو للموظفين هو مسألة ذات أهمية استثنائية في ضوء العلاقة التاريخية بين الديمقراطية والرأسمالية السوقية. في الواقع، تعود أصول الديمقراطية في كلّ من أمريكا وبريطانيا إلى هذه العلاقات التبادلية ذاتها. ففي أمريكا، أيقظ انتهاك العلاقات التبادلية الاستهلاكية مسيرة لا تُقهر نحو الحرية، حيث تحوّلت القوة الاقتصادية إلى قوة سياسية. وفي بريطانيا، بعد نصف قرن من ذلك، تحوّل الاحترام، الناتج عن الفرض والأناية والعملية، للترابط الضروري بين رأس المال والعمل، إلى أنماط سلطة سياسية جديدة تجلّت في التوسّع التدريجي لحق الانتخاب والتحوّل السلمي نحو مؤسسات ديمقراطية شاملة. ويمكن لنظرة سريعة على هذه الأحداث التاريخية، التي غيّرت وجه العالم، أن تساعدنا في فهم مدى انحراف رأسمالية المراقبة عن ماضي الرأسمالية.

تُعدّ الثورة الأمريكية مثالاً بارزاً على كيفية مساهمة العلاقات التبادلية الاستهلاكية في صعود الديمقراطية. ويجادل المؤرّخ الأمريكي تيموثي برين في دراسته الرائدة بعنوان: "سوق الثورة" (Marketplace of Revolution) أن انتهاك هذه العلاقات التبادلية هو الذي أطلق شرارة الثورة، ووحد الغرباء الإقليميين في قوة وطنية جديدة أساسية. وأن المستعمرين الأميركيين أصبحوا يعتمدون على "إمبراطورية السلع" المستوردة من إنكلترا، وهو ما غرس في نفوسهم شعوراً بالعقد الاجتماعي المتبادل: "عزّزت التجربة الملموسة للمشاركة في سوق استهلاكية أنجلو-أمريكية شعور الناس العاديين 'بشراكة حقيقية' مع إنكلترا".⁽¹²³³⁾ وقد أخطأ البرلمان البريطاني، في

مجمع مركز بيانات ضخمة واحد"، اقتصاد البيانات، 23 يناير/كانون الثاني 2018.
(1233) تيموثي إتش. برين، سوق الثورة: كيف شكّلت سياسات المستهلك الاستقلال الأمريكي (نيويورك:

نهاية المطاف، في تقدير حقوق هذه الشراكة والتزاماتها، ففرض سلسلة من الضرائب حوّلت سلعةً مستوردة كالكماش والشاي إلى "رموز للقمع الإمبراطوري". يصف برين أصالة حركة سياسية وُلدت من رحم تجربة الاستهلاك المشتركة، والغضب من انتهاك الترابط الجوهرى بين المنتجين والمستهلكين، والتصميم على جعل "السلع تتحدث عن السلطة".

تحوّلت توقّعات المستهلكين إلى ثورة ديمقراطية على ثلاث موجات، بدءاً من عام 1765، عندما أثار "قانون الطوابع"⁽¹²³⁴⁾ احتجاجات شعبية وأعمال شغب ومقاومة منظّمة عبّرت عنها أخيراً "حركة عدم الاستيراد" (والتي نسميها اليوم مقاطعة المستهلكين). ووفقاً للمؤرّخ برين، كانت تفاصيل قانون الطوابع أقل أهمية من إدراك المستعمرين أن إنكلترا لم تنظر إليهم باعتبارهم متساوين سياسياً أو اقتصادياً، ومرتبطين بمبادئ تبادلية مفيدة للطرفين: "كشف البرلمان البريطاني، من خلال المساس بقدرة الأميركيين على شراء السلع التي يرغبون فيها، عن نيّته في معاملة المستعمرين بصفقتهم مواطنين من الدرجة الثانية"، وفرض ثمن باهظ "على السعي وراء السعادة المادية".⁽¹²³⁵⁾ ولم يكن قانون الطوابع بمثابة انتهاك لحقوق المستعمرين بصفقتهم رعايا للإمبراطورية فقط، بل بصفقتهم مستهلكين في الإمبراطورية: لقد كان أول ترجمة للقوة الاقتصادية للمستهلكين إلى قوة سياسية، "شكلاً جديداً جذرياً للسياسة" حيث شهد أكثر أفراد المجتمع الاستعماري العاديين "زيادة مبهرة في التمكين". ثم سحب البرلمان قانون الطوابع قبل أن تتمكن حركة منع الاستيراد من الانتشار بشكل فعّال عبر المستعمرات، وبدأ أن مبدأ "لا ضرائب من دون تمثيل" قد ساد.

جامعة أكسفورد، 2005)، 22.

(1234) قانون الطوابع (The Stamp Act): قانون بريطاني فرض ضريبة مباشرة على المستعمرات الأمريكية وألزمها بدفع ضريبة على جميع المواد المطبوعة، مثل الوثائق القانونية والصحف وأوراق اللعب. وكان على المستعمرين شراء واستخدام أوراق مختومة من الحكومة البريطانية، لإثبات دفع الضريبة. أثار هذا القانون جدلاً واسعاً، وأثار احتجاجات ومقاومة واسعة النطاق في المستعمرات، مما ساهم في نهاية المطاف في اندلاع الثورة الأمريكية (المترجم).

(1235) برين، سوق الثورة، 222.

عندما صدرت قوانين تاونسند بعد عامين فقط، التي فرضت هذه المرة ضرائب على مجموعة من السلع المستوردة، حشدت موجة جديدة من الغضب الناس في كل مستعمرة. حوّلت اتفاقيات منع الاستيراد المفصلة التضحية بالمستهلكين إلى جبهة مقاومة سياسية. وتجاوزت التجربة المشتركة لانتهاك التوقعات الاختلافات الإقليمية والدينية والثقافية، مما وفر أساساً جديداً للتضامن الاجتماعي. وفي عام 1770، ألغيت قوانين تاونسند أيضاً، وبدا مرة أخرى أنهم تجنبوا ثورة شاملة.

في عام 1773، دفع قانون الشاي المستعمرات إلى مرحلة مقاومة جديدة حوّلت التركيز السياسي من مبدأ منع الاستيراد الذي كان يعتمد على تمسك التجار بالسياسة، إلى مبدأ عدم الاستهلاك الذي تطلّب مشاركة جميع الأفراد في تضامن فريد من نوعه، نابع من مكاتتهم المشتركة كـ "عملاء". وأعلن صموئيل آدمز، في هذا السياق، أن قضية الحرية "تعتمد على قدرة الشعب الأمريكي على التحرر من زينة بريطانيا".

أصبحت البضائع البريطانية رمزاً للتبعية والقمع لدرجة أنه عندما احتشد مجتمع هارفارد الفقير الصغير في ماساتشوستس لمناقشة السفن التجارية التي تصل إلى ميناء بوسطن محملة بصناديق الشاي، اعتبروا الأمر "مسألة ذات طبيعة مثيرة للاهتمام عندما ننظر إليها في جميع عواقبها، ليس فقط على هذه المدينة والمقاطعة، بل على أمريكا بشكل عام، والأجيال والعصور القادمة، باعتبارها كانت دائماً تحت مداولات هذه المدينة".

بعد عام واحد، في عام 1774 تحديداً، انعقد المؤتمر القاري الأول في فيلادلفيا، وطرح "خطة شاملة" لإلغاء التجارة مع إنكلترا. يقول برين: "لقد أنتجت هذه الخطة استراتيجية مبتكرة براءة لمقاومة المستهلكين للقمع السياسي، وهي استراتيجية شجعت الأمريكيين على اعتبار أنفسهم أمريكيين حتى قبل أن يفكروا في الاستقلال". (1236).

وفقاً لدارون أسيموغلو وجيمس روبنسون، كان صعود الديمقراطية، في بريطانيا

في مطلع القرن التاسع عشر، مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا باعتماد الرأسمالية الصناعية على "الجماهير" ومساهمتهما في الازدهار الذي يقتضيه التنظيم الجديد للإنتاج.⁽¹²³⁷⁾ وأدى ازدياد حجم الإنتاج، وقوة العمل المأجورة، إلى ترسيخ القوة الاقتصادية للعمال البريطانيين، وأدى إلى تقدير متزايد لشرعيتهم السياسية وسلطتهم. مما أنتج شعورًا جديدًا بالترابط بين عامة الناس والنخب.

يستنتج أسيموغلو وروبنسون أن "التغذية الراجعة الإيجابية الديناميكية" بين "المؤسسات الاقتصادية الشاملة" (أي الشركات الصناعية التي تُحدِّدها علاقات التبادل في التوظيف) والمؤسسات السياسية كانت أساسية بالنسبة إلى الإصلاحات الديمقراطية الجوهرية غير العنيفة في بريطانيا. وهما يجادلان بأن المؤسسات الاقتصادية الشاملة "تُهيئ بيئة عمل متكافئة"، لا سيما في صراع السلطة، مما يُصعِّب على النخب "سحق الجماهير" بدل الاستجابة لمطالبها. لقد أنتجت العلاقات التبادلية في التوظيف علاقات تبادلية في السياسة وحافظت عليها: "إن قمع المطالب الشعبية، والانقلاب على المؤسسات السياسية الشاملة، من شأنه أن يدمر المكاسب [الاقتصادية]، وقد تجدد النخب شديدة المعارضة للديمقراطية والشمولية نفسها بين أولئك الذين يخسرون ثرواتهم جرّاء هذا الدمار".⁽¹²³⁸⁾ وعلى النقيض من التنازلات البراغماتية التي قدّمها الرأسماليون الصناعيون الأوائل في بريطانيا، يؤدي الاستقلال الهيكلي الشديد لرأسمالي المراقبة عن الناس إلى الإقصاء بدلًا من الاندماج، ويضع الأساس للنهج الفريد الذي أطلقنا عليه اسم "اللامبالاة الراديكالية".

(1237) دارون أسيموغلو وجيمس روبنسون، لماذا تفشل الأمم: أصول القوة والازدهار والفقير (نيويورك: كراون بيزنس، 2012).

(1238) أسيموغلو وروبنسون، لماذا تفشل الأمم، 313-314. يلاحظ المؤرخ جاك غولدستون أن حجم الإصلاحات البرلمانية البريطانية خفف الضغط من أجل تغيير أكثر عنفًا، مما أدى إلى ديمقراطية أكثر ديمومة وازدهارًا. ومثل أسيموغلو وروبنسون، يخلص إلى أن "الانحلال الوطني" يرتبط عادةً بنمط اجتماعي لا تربط فيه النخب مصالحها بمصالح الجمهور، مما يُشير إلى خطر هذا النوع من الاستقلال الهيكلي الذي يتمتع به رأسماليو الرقابة. انظر جاك غولدستون، الثورة والتمرد في العالم الحديث المبكر (بيركلي: جامعة كاليفورنيا، 1993)، 481، 487؛ انظر أيضًا بارينغتون مور، الأصول الاجتماعية للديكتاتورية والديمقراطية: السيد والفلاح في صنع العالم الحديث (بوسطن: بيكون، 1993)، 3-39.

3- الجماعة الجديدة وسادتها من أتباع اللامبالاة الراديكالية

يتحدّد اجتماع الحرية والمعرفة مع الافتقار إلى المعاملة التبادلية مع الناس لتشكيل سمة عادية ثالثة لرأسمالية المراقبة: التوجّه الجماعي الذي ينحرف عن القيم الراسخة للرأسمالية السوقية والديمقراطية السوقية، كما ينحرف بشكل حادّ أيضًا عن أصول رأسمالية المراقبة في النظرة العالمية النيوليبرالية. وتوجّهنا رأسمالية المراقبة نحو تجمّع الخلية من أجل نجاحها التجاري. هذا النظام الاجتماعي الآلي المخصص هو شكل جديد من أشكال الجماعة الذي يركّز فيه السوق، وليس الدولة، المعرفة والحرية ضمن مجاله.

يُمثل هذا التوجّه الجماعي تطورًا غير متوقع في ضوء أصول رأسمالية المراقبة في عقيدة نيوليبرالية وُضعت قبل ستين عامًا كردّ فعل على كوابيس الشمولية الجماعية في منتصف القرن العشرين. ومع زوال التهديدات الفاشية والاشتراكية لاحقًا، نجحت الأيديولوجية النيوليبرالية بذكاء في إعادة تعريف الدولة الديمقراطية الحديثة باعتبارها مصدرًا جديدًا للجماعية يجب مقاومته بالوسائل كلها. في الواقع، تم محاكمة محاولة استئصال الحركة المزدوجة باسم هزيمة المخاطر الجماعية المزعومة المتمثلة في "الديمقراطية المفرطة".⁽¹²³⁹⁾ وتحاكي الخلية الآن "دولة النمل الأبيض"، التي سخر منها هايك مُحتقر الديمقراطية، باعتبارها غير متوافقة مع الحرية الإنسانية.

إن التقاء الحرية والمعرفة يجعل رأسمالي المراقبة ينصبّون أنفسهم سادة على المجتمع. ويسيطر كهنة متميّزون من "المعتدلين" على الخلية المتصلة بالإنترنت، من خلال موقعهم الرفيع في تقسيم التعلّم، مُستغلّين إياها كمصدر مُستمرّ للمواد الخام. وكما كان المدراء في أوائل القرن العشرين يتعلّمون "وجهة النظر الإدارية" باعتبارها أسلوب المعرفة المطلوب للتعامل مع التعقيدات الهرمية للشركات الجديدة واسعة النطاق، يمارس كبار الكهنة اليوم الفنون التطبيقية المتمثلة في اللامبالاة الراديكالية، وهو أسلوب معرفة غير اجتماعي في الأساس. مع تطبيق اللامبالاة الراديكالية، يتم

(1239) ميشيل كروزير، وصامويل هنتغتون، وجوجي واتانوكي، "أزمة الديمقراطية: تقرير حول قابلية حكم الديمقراطيات للجنة الثلاثية"، 1975.

الحكم على المحتوى من خلال حجمه ونطاقه وعمق فائضه، كما يتم قياسه من خلال التكافؤ "المجهول" للنقرات والإعجابات وأوقات الانتظار، على الرغم من الحقيقة الواضحة أن معانيه المختلفة تمامًا تنشأ في مواقف إنسانية متميزة.

إن اللامبالاة الراديكالية هي استجابة للضرورات الاقتصادية، ونادرًا ما نلاحظ رؤية واضحة لتطبيقها الصارم باعتبارها نظامًا إداريًا. ومن هذه الحالات مذكّرة على موقع فيسبوك عام 2016، استحوذت عليها الشركة الإعلامية "بازفريد" (BuzzFreed) عام 2018. كتب هذه المذكرة أندرو بوسورث، أحد أبرز المدراء التنفيذيين المخضرمين المؤثرين في الشركة، وقد أتاحت لنا فرصة للتعرف على اللامبالاة الراديكالية بصفتها منهجًا عمليًا. وبدأ بوسورث حديثه قائلاً: "تحدث كثيرًا عن إيجابيات عملنا وسلبياته. أما أنا فأريد التحدث عن السلبيات". ثم واصل كلامه حول كيفية انتصار التكافؤ على المساواة في النظرة العالمية لـ "كائن حي بين الكائنات الحية" وهو أمر ضروري للسير نحو الكمال، وبالتالي نمو عائدات المراقبة:

نشئ اتصالًا بين الناس. قد يكون ذلك جيدًا إذا جعلوه إيجابيًا. ربما يجد أحدهم الحب، أو ربما ينقذ حياة شخص على شفا الانتحار. لذلك نصل بين مزيد من الناس. قد يكون ذلك سيئًا إذا جعلوه سلبيًا. ربما يكلف تعرّض أحدهم للتنمر حياة شخص آخر. ربما يموت شخص في هجوم إرهابي مُنسق عبر أدواتنا. لكننا نصل بين الناس على الرغم من ذلك. الحقيقة المرة هي أن... أي شيء يُمكننا من التواصل مع المزيد من الناس بوتيرة أسرع هو أمر جيد بحكم الواقع. ربما يكون هذا هو المجال الوحيد الذي تُظهر فيه المقاييس الحقيقة من وجهة نظرنا... لذلك فإن كل ما نقوم به من جهود في مجال النمو مُبرر. وممارسات استيراد جهات الاتصال المشكوك فيها كلها، والعبارات المضللة التي تُساعد الأصدقاء على البحث عن الأشخاص كلها، وكل ما نقوم به من جهود لتعزيز التواصل... لا تفوز أفضل المنتجات، بل تفوز تلك المنتجات التي يستخدمها الجميع... لا شك أن أساليب النمو هي ما أوصلنا إلى هنا. (1240)

(1240) ريان ماك، تشارلي وارزيل، وأليكس كانترويتز، "النمو بأي ثمن: دافع أحد كبار المسؤولين التنفيذيين في فيسبوك عن جمع البيانات في مذكرة عام 2016 - وحذر من أن فيسبوك قد يتسبب في

كما يوضح بوسورث، من منظور اللامبالاة الراديكالية (المطلقة)، يجب النظر إلى الإيجابيات والسلبيات على أنها متساوية، على الرغم اختلاف معانيها الأخلاقية وعواقبها الإنسانية. ويكون الهدف العقلاني الوحيد، من هذا المنظور، هو السعي وراء منتجات تُشرك "الجميع"، وليس "أفضل المنتجات".

من النتائج المهمة للتطبيق المنهجي للامبالاة الراديكالية أن "النص الأول" الموجه للجمهور يكون عرضة للفساد بمحتوى يُنظر إليه عادةً على أنه مُقزز: أكاذيب، تضليل مُنھج، احتيال، عنف، خطاب كراهية، وما إلى ذلك. ما دام المحتوى يُساهم في "تكتيكات النمو"، فإن فيسبوك "يفوز". وقد يشكّل هذا التعرّض مشكلة متفجرة من جانب الطلب، من جانب المستخدم، لكنه لا يخترق تحصينات اللامبالاة الراديكالية إلا عندما يهدد بمقاطعة تدفق الفائض إلى النصّ الثاني "الظلي": النصّ الذي هو لهم وليس لنا. والقاعدة هي أن فساد المعلومات لا يُصنّف باعتباره مشكلة ما لم يشكل تهديدًا وجوديًا لعمليات التوريد — ضرورة الاتصال التي وضعها بوسورث — إما لأنه قد يؤدي إلى انقطاع مشاركة المستخدم أو لأنه قد يجتذب تدقيقًا تنظيميًا. وهذا يعني أن أي جهود تُبذل نحو "تعديل المحتوى" يُفضّل فهمها باعتبارها تدابير دفاعية، وليس كأفعال من المسؤولية العامة.

إن التحدي الأعظم الذي يواجهه اللامبالاة الراديكالية جاء من طموحات فيسبوك وغوغل المبالغ فيها لتحلّ محلّ الصحافة المهنية على الإنترنت. إذ تداخلت كلتا الشركتين بين الناشرين ومتابعيهما، فأخضعتا "المحتوى" الصحفي لفئات التكافؤ ذاتها التي تُهمّن على بيانات رأسمالية المراقبة الأخرى. وبالمعنى الرسمي، تُعدّ الصحافة المهنية نقيصًا كاملاً للامبالاة الجذرية. فمهمة الصحفي هي إنتاج أخبار وتحليلات تُميّز الحقائق عن الزيف. ويحدّد هذا الرفض للتكافؤ سبب وجود الصحافة، بالإضافة إلى تبادها الطبيعي مع قرائها. لكن هذه العلاقة التبادلية تُمحي في ظلّ رأسمالية المراقبة. ومن الأمثلة الهامة على ذلك قرار فيسبوك بتوحيد عرض محتوى "نيوز فيد" الخاص

به بحيث "تبدو القصص الإخبارية كلها متشابهة تقريباً... سواء أكانت تحقيقات في صحيفة واشنطن بوست، أو شائعات في صحيفة نيويورك بوست، أو أكاذيب صريحة في صحيفة دنفر غارديان، وهي صحيفة مزيفة تماماً".⁽¹²⁴¹⁾ هذا التعبير عن التكافؤ دون مساواة جعل نصّ فيسبوك الأول عرضة بشكل استثنائي للفساد مما يمكن أن يُسمّى "أخباراً مزيفة".

هذا هو السياق الذي أصبحت فيه فيسبوك وغوغل محور اهتمام دولي بعد اكتشاف حملات التضليل السياسي المنظّمة، وقصص "الأخبار الزائفة" التي تهدف إلى الربح من خلال الانتخابات الرئاسية الأمريكية عام 2016، وتصويت المملكة المتحدة على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي في وقت سابق من ذلك العام. وقد قام الخبيران الاقتصاديان هانت ألكوت وماثيو جينتزكو، اللذان درسا هذه الظواهر بالتفصيل، بتعريف "الأخبار الزائفة" على أنها "إشارات مشوهة غير مرتبطة بالحقيقة" تفرض "تكاليف خاصة واجتماعية من خلال جعل استنتاج الحالة الحقيقية للعالم أمراً من الصعب تحقيقه....". وقد وجدوا أنه في الفترة التي سبقت الانتخابات الأمريكية عام 2016، كانت هناك 760 مليون حالة لمستخدم يقرأ هذه الأكاذيب المنظمة عمداً عبر الإنترنت، أو حوالي ثلاث قصص من هذا القبيل لكل أمريكي بالغ.⁽¹²⁴²⁾

كما قد تتنبأ اللامبالاة الراديكالية، فإن "الأخبار الزائفة"، وغيرها من أشكال فساد المعلومات، كانت سمة دائمة لبيئتي غوغل وفيسبوك على الإنترنت. وهناك أمثلة لا تحصى على التضليل الذي استمرّ، بل وازدهر، لأنه حقق ضرورات اقتصادية، وسأشير إلى بعضها فقط. في عام 2007، أعرب محلل مالي بارز عن قلقه من أن انهيار سوق الرهن العقاري عالي المخاطر سيضر بأعمال غوغل الإعلانية المربحة. قد يبدو هذا غريباً إلى أن نكتشف أنه في السنوات التي سبقت الركود الكبير، رحبت غوغل بحماس بمقرضي الرهن العقاري عالي المخاطر في أسواقها للعقود الآجلة السلوكية، مع سعيها

(1241) نيكولاس تومسون وفريد فوغلشتاين، "في العامين اللذين هزّا فيسبوك والعالم"، وايرد، 12 فبراير/ شباط 2018.

(1242) هانت ألكوت وماثيو جينتزكو، "وسائل التواصل الاجتماعي والأخبار الزائفة في انتخابات 2016"، مجلة الأفاق الاقتصادية 31، العدد 2 (2017): 36-211.

إلى تحقيق حصّة الأسد من الإيرادات الشهرية البالغة 200 مليون دولار، التي كان مقرضو الرهن العقاري ينفقونها على الإعلانات عبر الإنترنت.⁽¹²⁴³⁾ واستنتج تقرير صادر عن منظّمة مراقبة المستهلك عام 2011، حول ممارسات غوغل الإعلانية قبل الركود الكبير وأثناءه، أن "غوغل كانت من أبرز المستفيدين من أزمة قروض المنازل وحجز الرهن العقاري على الصعيد الوطني... بقبولها إعلانات مضلّة من جهات احتيالية تُعدّ المستهلكين غير المدركين بإمكانية حل مشاكلهم الائتمانية والعقارية". وعلى الرغم من هذه الحقائق الظاهرة بوضوح للعامة، استمرّت غوغل في خدمة عملائها من الشركات الاحتياطية حتى عام 2011، عندما ألزمت وزارة الخزانة الأمريكية الشركة بتعليق علاقاتها الإعلانية مع "أكثر من 500 معلن على الإنترنت مرتبطين بـ 85 مخطط احتيال مزعوم على الرهن العقاري عبر الإنترنت والإعلانات المضلّة ذات الصلة".⁽¹²⁴⁴⁾

قبل بضعة أشهر فقط، فرضت وزارة العدل الأمريكية غرامة قدرها 500 مليون دولار على شركة غوغل، وهي "واحدة من أكبر عقوبات المصادرة المالية في التاريخ"، وذلك لقبولها إعلانات من صيدليات كندية على الإنترنت تشجّع مستخدمي غوغل في الولايات المتحدة على استيراد الأدوية الخاضعة للرقابة بشكل غير قانوني، على الرغم من التحذيرات المتكررة. ووفقاً لما قاله نائب المدعي العام الأمريكي للصحافة، "ستواصل وزارة العدل محاسبة الشركات التي تنتهك القانون الفيدرالي في سعيها لتحقيق الأرباح وتعريض صحّة المستهلكين الأمريكيين وسلامتهم للخطر".⁽¹²⁴⁵⁾

كان فساد المعلومات سمةً مستمرةً في بيئة فيسبوك. وكانت الاضطرابات المرتبطة بحملات التضليل السياسي الأمريكية والبريطانية على فيسبوك عام 2016 مشكلةً

(1243) "تقرير نيلسن/نت ريتنجز حول البيانات الرئيسية للولايات المتحدة لشهر يوليو/ تموز 2007"، نيلسن/نت ريتنجز، يوليو/ تموز 2007.

(1244) منظّمة مراقبة المستهلك، "الكاذبون والقروض: كيف يستخدم المعلنون المخادعون غوغل"، فبراير/ شباط 2011؛ جاي جرين، "السلطات الفيدرالية تغلق منافذ الاحتيال في مجال الرهن العقاري باستخدام التكنولوجيا الفائقة"، موقع "سي. بي. إس نيوز"، 16 نوفمبر/ تشرين الثاني 2011.

(1245) وزارة العدل الأمريكية، "غوغل تخسر 500 مليون دولار من عائدات الإعلانات عبر الإنترنت، ومبيعات الأدوية الموصوفة من قبل الصيدليات الكندية عبر الإنترنت"،

معروفةً شوّهت الانتخابات والخطاب الاجتماعي في إندونيسيا والفلبين وكولومبيا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا وتشاد وأوغندا وفنلندا والسويد وهولندا وإستونيا وأوكرانيا. وقد لفت الباحثون والمحللون السياسيون الانتباه إلى العواقب الوخيمة للتضليل الإلكتروني لسنوات.⁽¹²⁴⁶⁾ وفي عام 2017، أبدى أحد المحللين السياسيين في الفلبين قلقه من أن الوقت قد فات لإصلاح المشكلة: "لقد رأينا بالفعل علامات تحذير من هذا الأمر منذ سنوات... الأصوات التي كانت كامنة في الظل أصبحت الآن في مركز الخطاب العام".⁽¹²⁴⁷⁾

تنعكس المبادئ التوجيهية للمبالاة الراديكالية في عمليات قوة العمل السرية منخفضة الأجر في فيسبوك، والمُكَلَّفة بالحد من تحريف النص الأصلي. ولا يتجلى تأثير رأسمالية المراقبة الهائل على تقسيم التعلّم في المجتمع بشكل ملموس أكثر مما يتجلى في هذه الوظيفة المنبوذة المتمثلة في "إدارة المحتوى"، ولا يتجلى ترابط الضرورات الاقتصادية وتقسيم التعلّم بشكل أوضح مما يتجلى في التفاهات اليومية لتدفق العمل المُبرر هذا، حيث تُنسب أهوال العالم وكرهية الناس إلى الحياة أو الموت بوتيرة وكثافة لا تترك سوى لحظات للموافقة أو الرفض. وبفضل التقارير الحثيثة التي أجراها عدد قليل من الصحفيين الاستقصائيين والباحثين، لم نتمكن من إلقاء نظرة خاطفة على هذه الإجراءات شديدة السرية، والتي تنتشر الآن عبر مجموعة من مراكز الاتصال والشركات المتخصصة ومواقع "العمالة الصغيرة" حول العالم. وكما يشير أحد التقارير، "رفضت فيسبوك وبينترست، إلى جانب تويتر وريديت وغوغل، تقديم نسخ إرشادات سياسة الإشراف الداخلي السابقة أو الحالية".⁽¹²⁴⁸⁾

من بين التقارير القليلة التي استطاعت تقييم عمليات فيسبوك، يتّسم الموضوع

(1246) ميشيلا ديل فيكارو وآخرون، "انتشار المعلومات المضللة عبر الإنترنت"، وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم 113، العدد 3 (2016): 554-559؛ سولومون ميسينغ وشون جيه. ويستود، "كيف تُدخل وسائل التواصل الاجتماعي التحيزات في اختيار محتوى الأخبار ومعالجتها"، مركز بيو للأبحاث، 8 أبريل/ نيسان 2012.

(1247) انظر بول موزور ومارك سكوت، "أخبار كاذبة في الانتخابات الأمريكية؟ في أماكن أخرى، هذا ليس بالأمر الجديد"، نيويورك تايمز، 17 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016.

(1248) كاثرين بوني، "القواعد السرية للإنترنت"، فيرج، 13 أبريل/ نيسان 2016.

بطابع متسق. تعمل هذه القوة العاملة السريّة - التي يُقدّر عددها بما لا يقل عن 100 ألف "مُشرف محتوى"، بينما يُقدّر آخرون العدد بأنه أعلى بكثير - بمعزل عن المهام الأساسية للشركة، مُطبّقةً مزيجًا من الحكمة البشرية وأدوات التعلّم الآلي.⁽¹²⁴⁹⁾ يُشار إليهم أحيانًا باسم "البوابين"، وهم يراجعون قوائم المحتوى التي يُبلغ عنها المستخدمون باعتبارها مُشكلة. وعلى الرغم من أن بعض القواعد العامة تنطبق على جميع المواقع، مثل حذف المواد الإباحية وصور إساءة معاملة الأطفال، إلا أن هناك دليل قواعد مُفصّلًا يهدف إلى رفض أقل قدر ممكن من المحتوى في سياق تقييم محلي للحد الأدنى من تسامح المستخدم. الهدف الأسمى من هذا التمرين هو إيجاد نقطة التوازن بين القدرة على جذب المستخدمين وزائريهم إلى الموقع، وخطر نفورهم. وهذا حسابٌ للامبالاة الراديكالية، لا علاقة له بتقييم صدق المحتوى أو احترام المعاملة بالمثل مع المستخدمين.⁽¹²⁵⁰⁾ يُفسّر هذا التوتر عدم إعطاء الأولوية للتضليل الإعلامي. ينقل أحد التقارير الاستقصائية عن مصدر مطلع في فيسبوك قوله: "لديهم الأدوات اللازمة لإيقاف الأخبار الزائفة...".⁽¹²⁵¹⁾

تؤثر اللامبالاة الراديكالية التي تُنتج تكافؤًا دون مساواة على علم الإعلانات الموجهة أيضًا. وعلى سبيل المثال، اكتشفت الصحيفة جوليا أنغوين وزملاؤها في بروبابليكا أن فيسبوك "مكّن المعلنين من توجيه إعلاناتهم إلى تطبيق "نيوز فيد" لنحو 2300 شخص أبدوا اهتمامًا بمواضيع مثل 'كاره اليهود'، و'كيفية حرق اليهود'، و"تاريخ تدمير اليهود للعالم".⁽¹²⁵²⁾ ووفقًا للصحفيين، "اتبعت شركة فيسبوك منذ

(1249) مادلين فارنر وجوليا أنغوين، "فيسبوك يُمكن المعلنين من الوصول إلى 'كارهي اليهود'، بروبابليكا، 14 سبتمبر/ أيلول 2017.

(1250) انظر المناقشة المفيدة في مقال بوني، "القواعد السريّة للإنترنت"؛ نيك هوبكنز، "كشف: دليل القواعد الداخلية لفيسبوك بشأن الجنس والإرهاب والعنف"، صحيفة الغارديان، 21 مايو/ أيار 2017؛ نيك هوبكنز، "مشرفو فيسبوك: دليل سريع لعملهم وتحدياته"، صحيفة الغارديان، 21 مايو/ أيار 2017؛ وكيت كلونيك، "الحكّام الجدد: الأشخاص والقواعد والعمليات التي تحكم الخطاب على الإنترنت"، مجلة هارفارد للقانون، العدد 131 (20 مارس/ آذار 2017).

(1251) مايكل نونيز، "حرب فيسبوك ضد الأخبار الزائفة تقوضت خوفًا من ردّ فعل المحافظين"، جيزمودو، 14 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016.

(1252) فارنر وأنغوين، "فيسبوك مكّن المعلنين من الوصول إلى 'كارهي اليهود'.

فترة طويلة نهج عدم التدخل في أعمالها الإعلانية... حيث تقوم بإنشاء فئات الإعلانات الخاصة بها تلقائيًا بناءً على ما يشاركه المستخدمون صراحةً مع فيسبوك، وما ينقلونه ضمناً من خلال نشاطهم عبر الإنترنت". وعلى نحو مماثل، اكتشف المراسلون في موقع "بازفريد" أن غوغل تمكّن المعلنين من استهداف الإعلانات للأشخاص الذين يكتبون مصطلحات عنصرية في شريط البحث، بل وتقتراح حتى أماكن الإعلانات بجوار عمليات البحث عن "اليهودي الشرير" و"السيطرة اليهودية على البنوك". (1253)

في بيئة ما بعد الانتخابات من عام 2017 في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، حيث سيطرت "الأخبار الزائفة" على الأعضاء، اكتشف الصحفيون مئات الأمثلة التي وضعت فيها منتجات التنبؤ إعلانات من علامات تجارية مشروعة، مثل فيريزون، وأيه تي آند تي، وول مارت، إلى جانب مواد شنيعة، بما في ذلك مواقع التضليل، وخطاب الكراهية، والمحتوى السياسي المتطرف، والمنشورات ومقاطع الفيديو الإرهابية والعنصرية والمعادية للسامية. (1254)

كان المثير للاهتمام هو الغضب وعدم التصديق المفترضين بين عملاء رأسمالية المراقبة: وكالات الإعلان وعمالها الذين اختاروا منذ فترة طويلة بيع أرواحهم للامبالاة الراديكالية، مما أدى إلى تحويل غوغل وفيسبوك إلى احتكار ثنائي لسوق الإعلانات عبر الإنترنت، ودفع التوسع الهائل لرأسمالية المراقبة (1255). لقد مرّ ما

(1253) أليكس كانترويتز، "غوغل سمحت للمعلنين باستهداف 'الطفيلي اليهودي'، 'السود يدرون كل شيء'، بازفريد، 15 سبتمبر/أيلول 2017.

(1254) جاك نيكاس، "العلامات التجارية الكبرى تعزز مواقع الأخبار الزائفة"، وول ستريت جورنال، 9 ديسمبر/كانون الأول 2016؛ أوليفيا سولون، "أسبوع جوجل السيئ: يوتيوب يخسر ملايين الدولارات مع وصول الجدل حول الإعلانات إلى الولايات المتحدة"، الغارديان، 25 مارس/آذار 2017؛ أليكسي موستروس، "دعاة الكراهية على يوتيوب يشاركون الشاشات مع أسماء معروفة"، تايمز، 17 مارس/آذار 2017؛ أليكسي موستروس، "عملاق الإعلان يتخلى عن جوجل في عاصفة بسبب مقاطع الفيديو المتطرفة"، تايمز، 18 مارس/آذار 2017.

(1255) شانون بوند، "مجموعة تجارية تحذر من أزمة إعلانات غوغل"، فاينانشال تايمز، 24 مارس/آذار 2017؛ ماثيو غاراهان، "إيه تي آند تي تسحب بعض الإعلانات من غوغل بعد جدل بشأن يوتيوب"، فاينانشال تايمز، 22 مارس/آذار 2017؛ سابنا ماهيشواري ودايسوكي واكاباياشي، "إيه تي آند تي وجونسون أند جونسون تسحبان إعلاناتهما من يوتيوب"، نيويورك تايمز، 22 مارس/آذار 2017؛ روب

يقرب من عقدين من الزمن منذ أن ابتكرت غوغل الصيغة التي تنازلت عن موضع الإعلان لمقاييس التكافؤ لمعدلات النقر، ووضعت مناهج سابقة سعت إلى موازنة مواضع الإعلانات مع المحتوى الذي يعكس قيم العلامة التجارية للمعلن. وتخلّى العملاء عن هذه المعاملة بالمثل الراسخة لصالح "السحر التلقائي" لخوارزميات غوغل السريّة المدربة على فائض سلوكي خاص مُنتقى من مستخدمين غير مُدركين. في الواقع، كانت اللامبالاة الراديكالية لمقاييس النقر هي ما أدّى في المقام الأول إلى ظهور مظاهر التطرّف والإثارة على الإنترنت، حيث تُفضل منتجات التنبؤ المحتوى المُصمم لجذب التفاعل.

سلّطت فضائح الانتخابات الضوء على هذه الممارسات الراسخة التي اعتاد عليها العالم. في خضمّ هذا الجدل، تظاهرت العديد من العلامات التجارية الكبرى بتعليق إعلاناتها على غوغل وفيسبوك حتى تتخلّص الشركتان من المحتوى الفاسد، أو تضمنا أماكن إعلانات مقبولة. اتهم سياسيون في أوروبا والولايات المتحدة غوغل وفيسبوك بتحقيق أرباح من الكراهية، وإضعاف الديمقراطية بمعلومات فاسدة. وفي بداية الأمر، بدا أن الشركتين افترضتا أن الضجيج سرعان ما سيتلاشى. وقال مارك زوكربيرغ إنه من "الجنون" (1256) الاعتقاد بأن الأخبار الكاذبة أثّرت على الانتخابات. أما غوغل فقد ردّت على عملائها من المعلنين بعبارات مُبهمة، ولم تُجر سوى القليل من التغيير.

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يُحاسب فيها الجمهور والصحافة كبار رأس مالي المراقبة. (1257) فبالإضافة إلى دورات الغضب الشديدة التي أحدثتها تطبيقات

ديفيز، "غوغل تستعد للأسئلة مع سحب المزيد من الشركات الكبرى لإعلاناتها"، الغارديان، 19 مارس/ آذار 2017.

(1256) أوليفيا سولون، "أخبار فيسبوك الزائفة: مارك زوكربيرغ يرفض "الفكرة المجنونة" القائلة بأن فيسبوك أضر على الناخبين"، الغارديان، 11 نوفمبر/ تشرين الثاني 2016.

(1257) جاي تشازان، "برلين تدرس فرض غرامات على فيسبوك بقانون الأخبار الزائفة"، فاينانشال تايمز، 16 ديسمبر/ كانون الأول 2016؛ جاي تشازان، "ألمانيا تتخذ إجراءات صارمة ضد وسائل التواصل الاجتماعي بسبب الأخبار الزائفة"، فاينانشال تايمز، 14 مارس/ آذار 2017؛ جيم بيكارد، "أمير رود تحت مجموعات الإنترنت على اتخاذ إجراءات بشأن المحتوى المتطرّف"، فاينانشال تايمز، 26 مارس/ آذار

"ستريت فيو" و"باكون" و"جيميل" وغوغل غلاس" و"نيوز فيد" وغيرها من الاختراقات، أثارت كشوفات إدوارد سنودن عام 2013 عن تواطؤ شركات التكنولوجيا مع وكالات الاستخبارات الحكومية ثورة كراهية دولية موجّهة ضدّ رأسمالي المراقبة. لقد تعلّمت غوغل وفيسبوك كيفية التغلّب على هذه العواصف من خلال ما أسميته "دورة نزع الملكية"، وتشير المراقبة الدقيقة لهذه الأزمة الجديدة إلى وجود دورة جديدة كانت تعمل بكامل طاقتها. وقد بدأت مرحلة التكيّف مع هذه الدورة بقوة مع تنامي المراقبة التنظيمية. وشهدت المنطقة اعتذارات علنية وشعورًا بالندم ومحاولات تهدئة، ومثولاً أمام الكونغرس الأمريكي والبرلمان الأوروبي.⁽¹²⁵⁸⁾

أعرب مارك زوكربيرغ عن أسفه بشأن موقفه السابق، معبراً عن رغبته في تحسين الأمور، وذلك خلال مناسبة دينية لدى المجتمع اليهودي تُعرف بيوم الغفران (كيبور).⁽¹²⁵⁹⁾ وصرّحت شيريل ساندبيرغ لصحيفة "بروبابريكا" بأن "الشركة لم تكن تعترم إطلاقاً، أو تتوقع، استخدام هذه الوظيفة بهذه الطريقة....".⁽¹²⁶⁰⁾

واعترفت شركة فيسبوك بأنها قادرة على بذل المزيد من الجهود لمكافحة التطرّف على

2017؛ ألكسندرا توبينغ ومارك سويني وجيمي غريرسون، "غوغل تستفيد من الكراهية" كما يقول أعضاء البرلمان في جدل حول الإعلانات، "الغارديان"، 17 مارس/ آذار 2017؛ سابرنا صديقي، "من الأبطال إلى الأشرار": صناعة التكنولوجيا تواجه ردّ فعل عنيف من الحزبين في واشنطن، "الغارديان"، 26 سبتمبر/ أيلول 2017؛ نانسي سكولا وجوش ماير، "قد يتعيّن على غوغل وفيسبوك الكشف عن أعمق الأسرار"، بوليتيكو، 1 أكتوبر/ تشرين الأول 2017؛ بول لويس، "السيناتور يحذر من أن خوارزمية يوتيوب قد تكون عرضة للتلاعب من قبل "جهات سيئة"، "الغارديان"، 5 فبراير/ شباط 2018.

(1258) مادوميتا مورجيا وديفيد بوند، "غول تعتذر للمعلنين عن محتوى متطرّف على يوتيوب"، فاينانشال تايمز، 20 مارس/ آذار 2017؛ سام ايفين، "مارك زوكربيرغ: أندم على السخرية من المخاوف بشأن تأثير فيسبوك على الانتخابات"، "الغارديان"، 27 سبتمبر/ أيلول؛ روبرت بوث وأليكس هيرن، "فيسبوك يعترف بأن الصناعة قادرة على بذل المزيد من الجهود لمكافحة التطرّف على الإنترنت"، "الغارديان"، 20 سبتمبر/ أيلول 2017؛ سكوت شين ومايك إسحاق، "ستقوم فيسبوك بتسليم الإعلانات المرتبطة بروسيا إلى الكونغرس"، "نيويورك تايمز"، 21 سبتمبر/ أيلول 2017؛ ديفيد كوهين، "مارك زوكربيرغ يطلب المغفرة في منشور على فيسبوك بمناسبة يوم الغفران"، أدويك، 2 أكتوبر/ تشرين الأول 2017؛ كيفن روز، "لحظة فرانكشتاين على فيسبوك"، "نيويورك تايمز"، 21 سبتمبر/ أيلول 2017.

(1259) ديفيد كوهين، "مارك زوكربيرغ يطلب المغفرة في منشور على فيسبوك بمناسبة يوم الغفران".

(1260) روز، "لحظة فرانكشتاين على فيسبوك".

الإنترنت.⁽¹²⁶¹⁾ وقال رئيس شركة غوغل في أوروبا للعملاء: "نعتذر. عندما يحدث أي شيء من هذا النوع لا رغبة لنا بحدوثه، ونتحمل المسؤولية عنه".⁽¹²⁶²⁾

تماشياً مع أهداف مرحلة التكيف في الدورة، لاحظت مجلة بلومبرغ بيزنس ويك أن غوغل "تحاول محاربة الأخبار المزيفة دون إجراء تغييرات جذرية".⁽¹²⁶³⁾ وعلى الرغم من أن الشركتين أجرتا تعديلات تشغيلية متواضعة لمحاولة تقليص الحوافز الاقتصادية لنشر المعلومات المضللة، وأنشأتا أنظمة تحذير لتنبية المستخدمين إلى الفساد المحتمل، فقد استخدم زوكربيرغ أيضاً قوته الهائلة في التصويت لرفض اقتراح المساهمين الذي طالب الشركة بالإبلاغ عن إدارتها للمعلومات المضللة والعواقب المجتمعية لممارساتها، كما نجح المسؤولون التنفيذيون في غوغل في محاربة اقتراح مماثل من المساهمين في ذلك العام.⁽¹²⁶⁴⁾ إن الزمن كفيل بإظهار ما إذا كان مستخدمو الشركات وعملاؤها سيفرضون عليها عقوبات مالية، وإذا كان الأمر كذلك، فما مدى استدامة هذه العقوبة.

بحلول أوائل عام 2018 كان التحول الهادئ من التكيف إلى إعادة التوجيه في

(1261) بوث وهيرن، "تعترف شركة فيسبوك بأن الصناعة قادرة على بذل المزيد من الجهود لمكافحة التطرف عبر الإنترنت".

(1262) انظر مورجيا وبوند، "غوغل تعتذر للمعلنين".

(1263) مارك بيرغن، "غوغل تخسر أمام 'وحيد القرن الشرير'، بلومبرغ بيزنس ويك، 27 نوفمبر/ تشرين الثاني 2017.

(1264) فيما يتعلق بالتعديلات المتواضعة، انظر مايك إسحاق، "فيسبوك وشركات التكنولوجيا الأخرى تسعى إلى الحد من تدفق المحتوى الإرهابي"، نيويورك تايمز، 5 ديسمبر 2016؛ دايسوكي واكabayashi، "يطور 'غوغل' كازن تقنية للإشارة إلى التعليقات السامة عبر الإنترنت"، نيويورك تايمز، 23 فبراير 2017؛ سابانا ماهيشواري، "يوتيوب جدد نظامه الإعلاني. AT&T لم يعد بعد"، نيويورك تايمز، 12 فبراير 2018؛ مادوميتا مورجيا، "غوغل تكشف عن رد فعلها حول رد فعل إعلانات يوتيوب"، فاينانشال تايمز، 21 مارس 2017؛ هيدز تيمونز، "مسؤولو غوغل يطرحون خطة لمحاربة الأخبار الزائفة على فيسبوك وتويتر"، كوارتز؛ إليزابيث دووسكين وحزمة شعبان، "فيسبوك سيطلب الآن من المستخدمين تصنيف المؤسسات الإخبارية التي يثقون بها"، واشنطن بوست، 19 يناير 2018؛ حمزة شعبان، "مارك زوكربيرغ يتعهد بإزالة التهديدات العنيفة من فيسبوك"، واشنطن بوست، 16 أغسطس/ آب 2017. للمزيد من المعلومات حول التحركات الرامية إلى إحباط الإصلاحات الهادفة، انظر هانا البرازي، "زوكربيرغ يصوت ضد مساعي المساهمين لشفافية الأخبار الزائفة"، سي بي إس إف باي أريا، 2 يونيو/ حزيران 2017؛ إيثان بارون، "اقتراح جوجل الأم بشأن أجور الجنسين يفشل عند وصوله"، ميركوري نيوز، 7 يونيو/ حزيران 2017.

فيسبوك مُهيئًا لتحويل الأزمة إلى فرصة. وصرح زوكربيرغ للمستثمرين: "على الرغم من التحديات الجسيمة التي نواجهها... نحتاج أيضًا إلى مواصلة تطوير أدوات جديدة لمساعدة الناس على التواصل، وتعزيز مجتمعاتنا، وتحقيق التقارب بين الناس في العالم".⁽¹²⁶⁵⁾ وألحق منشور زوكربيرغ ببيان من رئيس تطبيق "نيوز فيد"، أعلن فيه أن التطبيق سيمنح الأفضلية من الآن فصاعدًا لمنشورات الأصدقاء والعائلة، ولا سيمًا المنشورات التي "تثير المحادثات والتفاعلات الهادفة بين الأشخاص... ستنبأ بالمنشورات التي قد ترغب في التفاعل مع أصدقائك بشأنها... هذه المنشورات التي تلهم المزيد من النقاشات... سواء كان ذلك منشورًا من صديق يطلب النصيحة... أو مقالًا إخباريًا أو مقطع فيديو... غالبًا ما تؤدي مقاطع الفيديو المباشرة إلى نقاش بين المشاهدين، وتزيد التفاعلات بمقدار ستة أضعاف مقارنة بمقاطع الفيديو العادية".⁽¹²⁶⁶⁾

تعني اللامبالاة الراديكالية أن المصادر غير مهمة طالما أنها في حالة تدفق. وبحجة التهرب من الفساد، ضاعفت الاستراتيجية الجديدة التركيز على الأنشطة الغنية بالفائض السلوكي، ولا سيمًا مقاطع الفيديو المباشرة التي طالما رغب بها زوكربيرغ. في تقرير لصحيفة نيويورك تايمز، سارع المعلنون إلى ملاحظة أن القواعد الجديدة ستغذي "طموحات فيسبوك الراسخة في مجال الفيديو"، وأن الشركة أوضحت إيمانها بأن مستقبلها يكمن في مقاطع الفيديو وإعلانات الفيديو. وعلّق أحد مسؤولي الإعلان قائلاً إن محتوى الفيديو "من بين أكثر المحتويات مشاركةً وتعليقًا على الإنترنت".⁽¹²⁶⁷⁾

تكمّن حقيقة أعمق وأكثر صلابة وراء كل تفسيرات آفة التضليل في بيئة رأسمالية المراقبة على الإنترنت: إن اللامبالاة الراديكالية عبارة عن دعوة دائمة لإفساد النص الأصلي. إنها تديم الانقسام المرضي للتعلم في المجتمع من خلال التنازل عن سلامة

(1265) "فيسبوك يعلن عن نتائج الربع الأول من عام 2018".

(1266) آدم موسيري، "نيوز فيد: التقارب ما بين الناس"، غرفة أخبار فيسبوك، 11 يناير 2018.

(1267) سابنا ماهيشواري، "مع تغيير فيسبوك لخصائصه، يرى المعلنون طموحات الفيديو"، نيويورك تايمز، 21 يناير/كانون الثاني 2018.

المعرفة العامة من أجل حجم النص الظلي ونطاقه. تترك اللامبالاة الراديكالية فراغاً ازدهرت فيه المعاملة بالمثل في السابق. وعلى الرغم من حرية رأسمالي المراقبة ومعرفتهم، فهم لن يملؤوا هذا الفراغ لأن ذلك ينتهك منطقهم الخاص في التراكم. من الواضح أن قوى التضييل المارقة تدرك هذه الحقيقة بشكل أوضح من مستخدمي فيسبوك أو غوغل وعملاتهم الحقيقيين، حيث تتعلم تلك القوى استغلال غض الطرف عن اللامبالاة الراديكالية وتصعيد انحراف التعلّم في مجتمع مفتوح.

4- ماهي رأسمالية المراقبة؟

إن مطالبات رأسمالية المراقبة الناجحة بالحرية والمعرفة، واستقلالها الهيكلي عن الناس، وطموحاتها الجماعية، واللامبالاة الراديكالية التي تقتضيها هذه العناصر الثلاثة وتُمكنها وتُديمها، تدفعنا الآن نحو مجتمع لا تُمثل فيه الرأسمالية وسيلةً للمؤسسات الاقتصادية أو السياسية الشاملة. بل يجب اعتبار رأسمالية المراقبة قوةً اجتماعيةً معاديةً شرسةً للديمقراطية. والمنطق الذي أستخدمه هنا ليس خاصاً بي وحدي، بل يُحاكي دفاع توماس باين المتصلّب عن آفاق الديمقراطية في كتابه بعنوان "حقوق الإنسان" (The Rights of Man)، وهو التحفة الجدلية التي عارض فيها الدفاع عن الملكية في كتاب إدموند بيرك بعنوان: "تأملات في الثورة الفرنسية" (Reflections on the Revolution in France). حيث دافع باين عن قدرات الفرد العادي وعارض الامتياز الأرستقراطي. ومن بين أسباب رفضه للحكم الأرستقراطي افتقاره للمساءلة تجاه احتياجات الناس، "لأن جماعة من البشر لا تُحاسب نفسها أمام أحد، لا ينبغي أن تنال ثقة أي شخص". (1268)

إن أفضل وصف لقوة رأسمالية المراقبة المناهضة للديمقراطية والمساواة هو أنها انقلابٌ مدفوعٌ بقوى السوق من أعلى. إنها ليست انقلاباً بالمعنى التقليدي، بل هي انقلابٌ على الشعب: إطاحةٌ بالشعب، متوارية بصورة حصان طروادة التكنولوجي،

(1268) توماس باين، حياة توماس باين وأعماله، تحرير ويليام م. فان دير وايد (نيو روشيل، نيويورك: جمعية توماس باين التاريخية، 1925)، 6: 97.

أي "الآخر الكبير". ونجحت هذه الفكرة الانقلابية، بفضل ضمّها للخبرة الإنسانية، في تحقيق تركيز حصري للمعرفة والقوة التي تدعم النفوذ المتميز على تقسيم التعلّم في المجتمع: خاصية المبدأ المركزي للنظام الاجتماعي في القرن الحادي والعشرين. ومثل قادة "الريكريمنتو" وتعاويذهم الصامته، تعمل رأسمالية المراقبة بصيغة إعلانية، وتفرض علاقات اجتماعية لسلطة مطلقة ما قبل حديثة. إنها شكل من أشكال الاستبداد يتغذى على الناس لكنه ليس منهم. في مفارقة سريالية، يُحتفى بهذا الانقلاب باعتباره "تخصيص مؤتمت"، مع أنه يُدّس كل ما هو شخصي لدينا ويتجاهله ويتجاوزته ويزيجه.

لم اختر كلمة "استبداد" بنوع من الاستخفاف. فكما هو الحال في الخلية الآلية، الاستبداد هو سحق السياسة. وهو قائم على طبعه الخاص من اللامبالاة الراديكالية، حيث يُنظرُ إلى كل شخص، باستثناء الطاغية، ككائن حي بين الكائنات الحية، في مساواة مع الآخرين. فقد لاحظت هانا آرندت أن الاستبداد انحراف عن مبدأ المساواة لأنه يعامل جميع الآخرين على قدم المساواة في الأهمية: "يحكم الطاغية وفقاً لإرادته ومصالحه... الحاكم هو واحد ضد الجميع، والجميع" الذين يضطهدهم متساوون كلهم، أي أنهم عاجزون على قدم المساواة". وتشير آرندت إلى أن النظرية السياسية الكلاسيكية اعتبرت "الطاغية" منبوذاً تماماً من البشرية... ذنباً في هيئة بشرية.....". (1269)

تُحكّم رأسمالية المراقبة من سلطة الآلة، من خلال تجسدها في الآخر الكبير، الذي يوجد خارج البشر، متخذاً على نحو متناقض، هيئة بشرية، مثل الطاغية القديم. لا يتطلب طغيان رأسمالية المراقبة سوط الطاغية، كما لا يتطلب معسكرات شمولية ومعسكرات عمل قسري. إن كل ما تحتاجه رأسمالية المراقبة موجود في رسائل "الآخر الكبير" المطمئنة والرموز التعبيرية، وعدم الضغط على الآخرين بالأساليب المرعبة بل في حوافزهم التي لا يمكنهم مقاومتها نحو الالتقاء، ونسيج قميصك المُشبع بأجهزة

(1269) هانا آرندت، بين الماضي والمستقبل: ثمانية تمارين في الفكر السياسي (نيويورك: بنغوين، 2006)،

الاستشعار، والصوت اللطيف الذي يجيب على استفساراتك، والتلفاز الذي يتنصت إلى ما تقوله، والمنزل الذي يعرفك، والسرير الذي يرحّب بهمساتك، والكتاب الذي يقرأك.... يعمل "الآخر الكبير" نيابة عن مجموعة غير مسبقة من العمليات التجارية التي يجب أن تعدّل السلوك البشري كشرط للنجاح التجاري. إنه يتخذ موقع العقد الشرعي وسيادة القانون والسياسة والثقة الاجتماعية، بنوع جديد من السيادة ونظامها الخاص القائم على التعزيزات.

إن رأسمالية المراقبة هيئة ليس لها حدود، تتجاهل الفروقات القديمة بين السوق والمجتمع، أو السوق والعالم، أو السوق والإنسان. إنها شكل يسعى إلى الربح عبر إخضاع الإنتاج لعمليات الاستخراج حيث يدّعي رأسماليو المراقبة سيطرتهم من جانب واحد على المناطق البشرية والمجتمعية والسياسية الممتدة إلى ما هو أبعد من التضاريس المؤسسية التقليدية للشركة الخاصة أو السوق. وبالرؤية من منظور كارل بولاني، نرى أن رأسمالية المراقبة تُلحق التجربة الإنسانية بديناميكية السوق، فتُبعث من جديد كسلوك: "السلعة الخيالية" الرابعة. لقد خضعت السلع الخيالية الثلاث الأولى التي طرحها بولاني - الأرض، والعمل، والمال - للقانون. وعلى الرغم من أن هذه القوانين كانت ناقصة، فإن مؤسسات قانون العمل، وقانون البيئة، وقانون المصارف تُشكل أطرًا تنظيمية تهدف إلى حماية المجتمع (والطبيعة، والحياة، والتبادل) من أسوأ تجاوزات القوة التدميرية للرأسمالية الأساسية. ولم يواجه استيلاء رأسمالية المراقبة على التجربة الإنسانية أي عوائق من هذا القبيل.

يُعتبر نجاح هذا "الانقلاب على الشعب" شهادة قاسية على إحباطات احتياجات الحداثة الثانية، التي أدّت إلى ازدهار رأسمالية المراقبة، ولا تزال تُعتبر أغنى مصادرها للاستغلال والاستخراج. وليس من الصعب، في هذا السياق، فهم سبب تقديم مارك زوكربيرغ، مؤسس فيسبوك، شبكته الاجتماعية باعتبارها حلًا للحداثة الثالثة. فهو يتصوّر نظامًا آليًا شاملاً - يُطلَق عليه اسم "الكنيسة" العالمية الجديدة - يربط شعوب العالم بـ "شيء أعظم منا". ويقول إن فيسبوك هو الذي سيعالج المشاكل الحضارية من حيث الحجم والنطاق، ويصوغ "البنية التحتية طويلة الأجل لجمع

البشرية معاً" والحفاظ على سلامة الناس من خلال "الذكاء الاصطناعي" الذي يفهم بسرعة "ما يحدث في مجتمعنا".⁽¹²⁷⁰⁾ ويتخيل زوكربيرغ، مثل بيتلاند، ذكاء آلياً قادراً على "تحديد المخاطر التي لا يمكن لأحد أن يلاحظها على الإطلاق، بما في ذلك الإرهابيون الذين يخططون لهجمات باستخدام قنوات خاصة، والأشخاص الذين يتنمرون على شخص يخاف جداً من الإبلاغ عن ذلك بنفسه، وغيرها من القضايا المحلية والعالمية".⁽¹²⁷¹⁾ وقال زوكربيرغ لشبكة "سي. إن إن"، ردّاً على سؤال حول مسؤولياته تجاه المساهمين: "لذلك من المفيد أن يكون لديك سيطرة على الشركة".⁽¹²⁷²⁾

سعت الحضارة الصناعية، لأكثر من ثلاثة قرون، إلى السيطرة على الطبيعة من أجل تحسين حياة الإنسان. كانت الآلات وسيلتنا لتوسيع حدود الجسد الحيواني وتجاوزها، لنتمكن من تحقيق الهدف المتمثل في السيطرة. ولم نبدأ في إدراك العواقب إلا في فترة لاحقة: الخطر يغمر الأرض بعد أن خرجت الأنظمة الفيزيائية الحساسة التي كانت تحدّد الأرض بالسماء عن السيطرة.

نحن الآن في بداية منحني جديد أسميته حضارة المعلومات، وهو يُكرّر الغطرسة الخطيرة ذاتها. ولم يعد الهدف الآن السيطرة على الطبيعة، بل السيطرة على الطبيعة البشرية. لقد تحوّل التركيز من آلات تتخطى حدود الأجساد إلى آلات تُعدّل سلوك الأفراد والجماعات والشعوب خدمةً لأهداف السوق. يتفوق هذا الترسخ العالمي للسلطة الآلية على الذات البشرية التي تُغذّي إرادة الإرادة وتُغذّي أصواتنا بصيغة المتكلم، ويقتلع الديمقراطية من جذورها.

من الطبيعي أن يكون صعود سلطة الآلات انقلاباً سلمياً. إذ تعمل الحداثة الآلية الثالثة كمروّض لنا بدلاً من العنف الموجه ضدّ أجسادنا. ويتمحور حلها للمطالب

(1270) مارك زوكربيرغ، "بناء المجتمع العالمي"، 16 فبراير 2017.

(1271) كاريسا بيل، "زوكربيرغ أزال سطرًا حول مراقبة الرسائل الخاصة من بيانه على فيسبوك"، ماشابل، 16 فبراير 2017.

(1272) هينز كيللي، "مارك زوكربيرغ يشرح سبب تغييره لمهمة فيسبوك"، سي إن إن موني، 22 يونيو 2017.

المتزايدة الصاخبة بحياة فعالة حول الإزالة التدريجية للفوضى وعدم اليقين والصراع والشذوذ والخلاف، لصالح القدرة على التنبؤ والانتظام التلقائي والشفافية والتوافق والإقناع والتهدئة. يُتَوَقَّع منا أن نتنازل عن سلطتنا، وأن نخفّف من قلقنا ونسكت ونسير مع التيار، وأن نستسلم لأصحاب الرؤى التكنولوجية الذين تُعَدُّ ثروتهم وقوتهم ضمانًا لتفوقهم. ويُفترض بنا أن نستسلم لمستقبل أقل سيطرة شخصية وأكثر عجزًا، حيث تُفرّقنا مصادر جديدة لعدم المساواة وتُخصّصنا، ويكون بعضنا فاعلين وأغلبنا مفعولاً بهم، وبعضنا مُحفّزًا وأغلبنا مستجيبًا.

تُهدد ضغوط هذه الرؤية الجديدة بوجود أنظمة حساسة أخرى، هي الأخرى، قيد الإنشاء منذ آلاف السنين، لكنها هذه المرة اجتماعية ونفسية. وأنا أفكّر هنا في الشمار التي جناها الإنسان عبر الكثير من الصراع والمعاناة، والتي نسميها الآفاق الديمقراطية، وإنجازات الفرد كمصدرٍ للحكم الأخلاقي المستقل. إن "الحتمية" التكنولوجية هي المانترا التي تدربنا عليها، لكنها مخدر وجودي يُوصف للدفع إلى الاستسلام: حلمٌ مُمَيّتٌ للروح.

لقد تنبّهنا إلى "الانقراض السادس" مع انقراض أنواع الفقاريات بوتيرة أسرع من أي وقت مضى منذ نهاية الديناصورات. هذه الكارثة هي النتيجة غير المقصودة للأساليب المتهوّرة والانتهازية، التي تُعتبر حتمية أيضًا، وفرضت بها الصناعة نفسها على العالم الطبيعي لأن أسواقها لم تُحاسبها. ويُندُرُ صعود سلطة الآلة، كرمز لرأسمالية المراقبة، بانقراض من نوع مختلف. لن يكون هذا "الانقراض السابع" انقراضًا للطبيعة، بل لما اعتُبر أئمن ما في الطبيعة البشرية: رغبة الإرادة، وحرمة الفرد، وروابط الألفة، والتواصل الاجتماعي الذي يربطنا بالوعود، والثقة التي تُولّدها. وسيكون زوال هذا المستقبل البشري غير مقصود، كغيره.

5- الديمقراطية ورأسمالية المراقبة

اكتسبت سلطة الآلات قوةً خارج نطاق البشرية، بل وخارج نطاق الديمقراطية أيضًا. يستحيل وجود قانون يحميها مما هو غير مسبوق، والمجتمعات الديمقراطية،

مثل عالم التايو البري، معرّضة لسلطة غير مسبوقة. هكذا يمكن النظر إلى رأسمالية المراقبة باعتبارها جزءاً من انجراف عالمي مُقلق نحو ما يراه العديد من علماء السياسة تراجعاً في المواقف العامة تجاه ضرورة الديمقراطية نفسها وحرمتها.

يشير العديد من الباحثين إلى "ركود ديمقراطي" عالمي أو "تفكّك" للديمقراطيات الغربية التي كانت تُعدّ، لفترة طويلة، منيعة ضد التهديدات المناهضة للديمقراطية.⁽¹²⁷³⁾ إن مدى هذا التهديد وطبيعته محل نقاش، لكن المراقبين يصفون الحزن المرير المرتبط بتغيرات اجتماعية سريعة، والخوف من مستقبل يتجلى في رثاء يقول: "لن يرى أطفالنا الحياة التي عشتها".⁽¹²⁷⁴⁾ لقد عبّر كثير من الناس حول العالم عن مشاعر الاغتراب والقلق هذه في استطلاع رأي شمل 38 دولة، ونشرته مؤسسة بيو للأبحاث أواخر عام 2017. وتشير النتائج إلى أن المثل الأعلى للديمقراطية لم يعد ضرورة مقدّسة، حتى لمواطني المجتمعات الديمقراطية الناضجة. وعلى الرغم من أن 78٪ من المشاركين يرون أن الديمقراطية التمثيلية "جيدة"، فإن 49٪ يرون أيضًا أن "حكم الخبراء" جيد، و26٪ يؤيدون "حكم قائد قوي"، و24٪ يفضلون "حكم الجيش".⁽¹²⁷⁵⁾

(1273) بيبا نوريس، "هل تراجع الديمقراطية الغربية؟ تشخيص المخاطر"، كلية كينيدي بجامعة هارفارد، مارس 2017؛ إريك فونتن، "هل يبتعد الناس حقًا عن الديمقراطية؟" (بحث صادر عن شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، روتشستر، نيويورك: شبكة أبحاث العلوم الاجتماعية، 8 ديسمبر 2016)؛ إيمي سي. ألكسندر وكريستيان ويلزل، "أسطورة فك الارتباط: صعود الليبرالية ورد الفعل الشعبي"، مجلة الديمقراطية، 28 أبريل 2017؛ رونالد إنغلهارت، "خطر فك الارتباط: إلى أي مدى يجب أن نقلق؟" مجلة الديمقراطية، العدد 3 (2016)؛ روبرتو ستيفان فوا وياشا مونك، "علامات فك الارتباط"، مجلة الديمقراطية، العدد 1 (2017)؛ رونالد إنغلهارت وكريستيان ويلزل، "انتصار الديمقراطية ليس مُقدّرًا. ردّ إنغلهارت وويلزل"، مجلة الشؤون الخارجية، العدد 4 (2009): 157-159؛ روبرتو ستيفان فوا، "نهاية نموذج التوحيد - ردّ على منتقدينا"، مجلة الديمقراطية، 28 أبريل/نيسان 2017.

(1274) بارت بونيكوفسكي، "ثلاثة دروس من الشعبية المعاصرة في أوروبا والولايات المتحدة"، مجلة براون للشؤون العالمية، العدد 23 (2016)؛ بارت بونيكوفسكي وبول ديماجيو، "أنواع القومية الشعبية الأمريكية"، المراجعة الاجتماعية الأمريكية، العدد 5 (2016): 949-980؛ نيدا سكوكبول وفانيسا ويليامسون، حزب الشاي وإعادة تشكيل المحافظة الجمهورية (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2016)، 74-75.

(1275) ريتشارد وايك وآخرون، "عالمياً، دعم واسع النطاق للديمقراطية التمثيلية والمباشرة"، مشروع المواقف العالمية لمركز بيو للأبحاث، 16 أكتوبر/تشرين الأول 2017.

يشكل تراجع الارتباط بالديمقراطية في الولايات المتحدة، والعديد من الدول الأوروبية، مصدر قلق بالغ.⁽¹²⁷⁶⁾ وفقًا لاستطلاع مركز بيو، فإن 40٪ فقط من المشاركين الأمريكيين يؤيدون الديمقراطية ويرفضون بدائلها في آن معًا. ويرى 46٪ أن البدائل الديمقراطية وغير الديمقراطية مقبولة، بينما يفضل 7٪ الخيار غير الديمقراطي فقط. وتأتي العينة الأمريكية بعد السويد وألمانيا وهولندا واليونان وكندا من حيث مدى التزامها بالديمقراطية، لكن ديمقراطيات غربية رئيسة أخرى، بما في ذلك إيطاليا والمملكة المتحدة وفرنسا وإسبانيا، إلى جانب بولندا والمجر، تقع عند متوسط 38 دولة ملتزمة حصراً بالديمقراطية، وهو 37٪.

استنتج كثيرون من هذه الاضطرابات أن ديمقراطية السوق لم تعد قابلة للاستمرار، مع أن الجمع بين الأسواق والديمقراطية قد خدم البشرية خير خدمة، إذ ساهم في انتشار الكثير من البشر من برائن الجهل والفقر والمعاناة التي دامت آلاف السنين. يرى بعض هؤلاء المفكرين أن الأسواق هي التي يجب أن تختفي، بينما يرى آخرون أن الديمقراطية هي التي باتت على حافة الزوال. في ظل اشمئزازهم من التدهور الاجتماعي والفساد المناخية التي أحدثتها ما يقرب من أربعة عقود من السياسات والممارسات النيوليبرالية، يزعم فريق مهم ومتنوع من الباحثين والناشطين أن عصر الرأسمالية قد انتهى. ويقترح بعضهم بدائل اقتصادية أكثر إنسانية،⁽¹²⁷⁷⁾ ويتوقع بعضهم انحدادًا مطوّلًا،⁽¹²⁷⁸⁾ ويفضل آخرون، بسبب نفورهم من التعقيد

(1276) كما يقول لاري دايموند، الباحث في شؤون الديمقراطية، ومؤلف أطروحة "الركود الديمقراطي": "من الصعب المبالغة في أهمية حيوية الديمقراطية الأمريكية وثقتها بنفسها في التوسع العالمي للديمقراطية... قد تخفض اللامبالاة والجمود في أوروبا والولايات المتحدة العوائق أمام الانتكاسات الديمقراطية الجديدة بشكل كبير، وترسيخ الاستبداد في العديد من الدول الأخرى". انظر لاري دايموند، "مواجهة الركود الديمقراطي"، مجلة الديمقراطية 26، العدد 1 (2015): 141-155.

(1277) نعومي كلاين، عقيدة الصدمة: صعود رأسمالية الكوارث (نيويورك: بيكادور، 2007)؛ إريك أولين رايت، تصور الطوباوية الحقيقية (لندن: فيرسو، 2010)؛ ويندي براون، العمل على الحافة: مقالات نقدية حول المعرفة والسياسة (برينستون، نيو جيرسي: جامعة برينستون، 2005)؛ جيرالد ف. ديفيس، الإدارة بواسطة الأسواق: كيف أعادت التمويلات تشكيل أميركا (نيويورك: جامعة أكسفورد، 2011). (1278) إيمانويل والرشتاين وآخرون، هل هناك مستقبل للرأسمالية؟ (أكسفورد: جامعة أكسفورد، 2013)؛ إريك أولين رايت، تصور الطوباوية الحقيقية (لندن: فيرسو، 2010)؛ نعومي كلاين، هذا يغير كل شيء: الرأسمالية في مواجهة المناخ (نيويورك: سايمون وشوستر، 2015)؛ ويندي براون، العمل على

الاجتماعي، مزيحًا من قوة النخبة والسياسات الاستبدادية في محاكاة وثيقة للنظام الاستبدادي في الصين. (1279)

تلفت هذه التطوّرات انتباهنا إلى حقيقة أعمق: كما لا تُؤكّل الرأسمالية نيئة، لا يمكن للناس العيش دون شعور بإمكانية العودة إلى الوطن. وقد اكتشفت هانّا آرندت هذا المجال قبل أكثر من ستين عامًا في كتابها بعنوان "أصول الشمولية"، حيث تتبّع المسار من فردانية مُحبّطة إلى أيديولوجية شاملة. كانت تجربة الفرد في عدم أهميته، وسهولة الاستغناء عنه، وعزلته السياسية، ووحدته هي التي أجّجت نيران الإرهاب الشمولي. ولاحظت آرندت أن هذه الأيديولوجيات تبدو "كسند أخير في عالم لا يُعتمد فيه على أحد، ولا يُعتمد فيه على أي شيء". (1280) بعد سنوات من ذلك، عزّا المنظر الاجتماعي ثيودور أدورنو، في مقال مميز نشره عام 1966 بعنوان "التعليم بعد أوشفيتز"، نجاح الفاشية الألمانية إلى أن السعي وراء حياة فعّالة أصبح عبئًا ثقيلاً على كثيرين: "يجب أن نسلّم بأن الفاشية والإرهاب الذي أحدثته مرتبطان بحقيقة أن السلطات القديمة الراسخة... تآكلت وأُطيح بها، بينما لم يكن الشعب مستعدًا نفسيًا لتقرير المصير. لقد أثبتوا أنهم لم يكونوا مُهيئين للحرية التي حصلوا عليها". (1281)

إذا سئمنا من نضالنا من أجل تقرير المصير، واستسلمنا بدلاً من ذلك لإغراءات "الآخر الكبير"، فسنستبدل عن غير قصد مستقبل العودة إلى الوطن باحتمالات قاحلة من الاستبداد الصامت المُعقّم. تُعدّ الحداثة الثالثة التي تحلّ مشاكلنا على حساب

الحافة: مقالات نقدية حول المعرفة والسياسة (برنستون، نيوجيرسي: جامعة برنستون، 2005): ديفيس، الإدارة بواسطة الأسواق؛ وولفجانج ستريك، "حول المستقبل الكئيب للرأسمالية"، المراجعة الاجتماعية والاقتصادية 14، العدد 1 (2016): 164-170؛ كريج كالهون، "مستقبل الرأسمالية"، المراجعة الاجتماعية والاقتصادية 14، العدد 1 (2016): 171-176؛ بولي تويني، "الرأسمالية غير المقيدة تأكل نفسها"، مجلة المراجعة الاجتماعية والاقتصادية 14، العدد 1 (2016): 176-179؛ أميتاي إيتزيوني، "الثورة الصناعية القادمة تتطلب نظامًا اقتصاديًا مختلفًا"، مجلة المراجعة الاجتماعية والاقتصادية 14، العدد 1 (2016): 179-183.

(1279) انظر، على سبيل المثال، نيكولاس بيرغروبين وناثان جارديلز، الحوكمة الذكية للقرن الحادي والعشرين: طريق وسط بين الغرب والشرق (كامبريدج: بوليتي، 2013).
(1280) هانّا آرندت، أصول الشمولية (نيويورك: شوكين، 2004)، 615.
(1281) ثيودور أدورنو، "التعليم بعد أوشفيتز"، في النماذج النقدية: التدخلات والكلمات المفتاحية (نيويورك: جامعة كولومبيا، 1966).

مستقبلنا الإنساني تشويهاً قاسياً للرأسمالية، وما تمتلكه من قدرات رقمية. كما تُمثّل إهانةً غير مقبولة للديمقراطية. وأكرّر هنا تحذير توماس بيكيتي: "إذا تُركّ اقتصاد السوق لنفسه... فإنه يحتوي على قوى تباعد قوية، قد تشكل تهديداً محتملاً للمجتمعات الديمقراطية، وقيم العدالة الاجتماعية التي تقوم عليها".⁽¹²⁸²⁾ هذه تحديدًا هي الدوامة التي سنجنحها من رأسمالية المراقبة، وهي شكل غير مسبوق من الرأسمالية الفجّة التي تُسهّم بلا شكّ في تقويض الالتزام بالأفاق الديمقراطية، إذ تنجح في إخضاع الشعوب لإرادتها الخافتة. فهي تُعطي الكثير، لكنها تتطلّب أكثر.

ظهرت رأسمالية المراقبة على الساحة بينما كانت الديمقراطية على حافة الانهيار، وقد غذّت حياتها المبكرة مزاعم الليبرالية الجديدة بالحرية، مما أبعدنا عن حياة الناس. وسرعان ما تعلّم رأسماليو المراقبة استغلال الزخم المتزايد الهادف إلى تفريغ الديمقراطية من معناها وقوتها. وعلى الرغم مما حملته قدراتها وخطاباتها من وعود ديمقراطية، فقد ساهمت في خلق عصر ذهبي جديد من التفاوت الشديد في الثروة، فضلًا عن أشكال جديدة من الحصرية الاقتصادية لم يكن بالإمكان تصوّرها سابقًا، ومصادر جديدة للتفاوت الاجتماعي التي تفصل بين من يضبط ومن يخضع للضبط. ومن بين الإهانات الكثيرة التي فرضها هذا "الانقلاب على الشعب" على الديمقراطية والمؤسسات الديمقراطية، أذكر المصادرة غير المصرح بها للخبرة الإنسانية؛ واختطاف تقسيم التعلّم في المجتمع؛ والاستقلال النبوي عن الناس؛ وفرض جماعة الخلية خلسة؛ وصعود السلطة الآلية واللامبالاة الراديكالية التي تدعم منطقتها الاستخراجي؛ وبناء وسائل تعديل السلوك المرتبطة "بالآخر الكبير" وامتلاكها وتشغيلها؛ وإلغاء الحق الأساسي في زمن المستقبل، والحق الأساسي في اللجوء؛ وتراجع الفرد الذي يقرر مصيره باعتباره محور الحياة الديمقراطية. نرى الآن أن رأسمالية المراقبة تتخذ منحىً توسعيًا نحو الهيمنة أكثر مما توقّعت شيفرتها النيوليبرالية، وتطالبُ بحقها في الحرية والمعرفة، مُركزةً أنظارتها على رؤية جماعة

(1282) توماس بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين (كامبريدج، ماساتشوستس: بيلكناب، 2014)، ص 571.

تطالب بشمولية المجتمع. ومع أنها لا تزال تردّد صدى هايك، وحتى سميث، إلا أن طموحاتها الجماعية المناهضة للديمقراطية تُظهرها كطفلٍ نهمٍ يلتهم آباءه المُسننين.

السخرية مغرية، وقد تعمي بصرنا عن حقيقة راسخة مفادها أن الديمقراطية لا تزال سبيلنا الوحيد للإصلاح. إنها الفكرة الوحيدة التي انبثقت من التاريخ الطويل للقمع البشري، والتي تُصر على حق الشعب الذي لا يُنتهك في حكم نفسه. ربما تكون الديمقراطية تحت الحصار، لكن لا يمكننا أن نسمح لجراحها الكثيرة بأن تثنيّا عن الوفاء بوعودها. ويرفض بيكيتي الاعتراف بالهزيمة انطلاقةً من إدراكه لهذه المعضلة تحديداً، ويجادل بأنه حتى الديناميكيات "غير الطبيعية" للتراكم كانت قد حُدّت - ويمكن أن تُحدّد مرة أخرى - من خلال المؤسسات الديمقراطية التي تنتج تدابير مضادة ودائمة وفعالة: "إذا أردنا استعادة السيطرة على رأس المال، يتعيّن علينا أن نراهن بكل شيء على الديمقراطية...". (1283)

الديمقراطية عرضة لما هو غير مسبوق، لكن قوة المؤسسات الديمقراطية هي التي تحدّد مدى هذا الضعف ومدى تدميره. يمكن للنقاش والتنافس اللذين تتيحهما المؤسسات التي لا تزال سليمة في مجتمع ديمقراطي أن يغيّر مسار الرأي العام ضد مصادر غير متوقّعة للقمع والظلم، ويتبع ذلك في النهاية التشريع والفقه.

6- كن عنصر المقاومة

يذكّرني هذا الوعد بالديمقراطية بدرس راسخ تعلّمته من ميلتون فريدمان في جامعة شيكاغو، عندما كنْتُ طالبة جامعية في التاسعة عشرة من عمري، محشورة في مؤخّرة قاعة دراسية، وأجاهد لسماح تعليماته لمرشحي الدكتوراه التشيليين الذين سيقودون بلادهم قريباً إلى كارثة، وهم يسرون تحت راية "فريدمان - هايك". كان الأستاذ متفائلاً ومعلماً دؤوباً، مؤمناً بأن العمل التشريعي والقضائي سيعكس حتماً

(1283) بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، ص 573. وللحصول على دفاع حكيم عن الديمقراطية، انظر أيضاً ويندي براون، التراجع عن المظاهرات: الثورة الخفية لليبرالية الجديدة (نيويورك: زون، 2015).

الرأي العام السائد قبل عشرين أو ثلاثين عامًا. وهي بصيرة بلورها مع هايك - وكانا يوصفان بأنهما "توأم الروح وخصمان" - وحوّلها إلى استراتيجيات وتكتيكات منهجية.⁽¹²⁸⁴⁾ وكما قال هايك لروبرت بورك في مقابلة عام 1978: "أنا أعمل على الرأي العام. لا أعتقد حتى أن تغيير القانون سيُجدي نفعًا قبل أن يتغير الرأي العام... فالأمر الأساسي هو تغيير الرأي العام....".⁽¹²⁸⁵⁾ لقد وجهته قناعة فريدمان نحو تحقيق أهداف بعيدة المدى، فانغمس في مشروع التبشير النيوليبرالي، غير الأكاديمي إطلاقًا، من خلال سلسلة متواصلة من المقالات والكتب والبرامج التلفزيونية الرائجة. ولطالما كان حساسًا لتأثير التجارب المحلية، من الكتب المدرسية إلى الحملات السياسية الشعبية.

يُفسّر الدور الحاسم للرأي العام لماذا لا تدوم إلى الأبد حتى أكثر "العصور" تدميرًا. وأكرّر هنا ما قاله أديسون قبل قرن من الزمان: الرأسمالية "خاطئة تمامًا، وغير قادرة على العمل". لقد هدّد عدم الاستقرار في عصر إديسون كل وعود الحضارة الصناعية. فقد أصرّ على ضرورة إفساح المجال لتركيبية جديدة تُعيد توحيد الرأسمالية وشعوبها. كان إديسون مُتنبئًا. لقد صمدت الرأسمالية على مر الزمن الطويل بفضل مرونتها، لا بفضل قدراتها الخاصة. إنها تبقى وتزدهر بتجديد جذورها الاجتماعية دوريًا، وإيجاد سبل جديدة لتوليد ثروات جديدة بتلبية احتياجات جديدة. وقد تميّز تطوّرها بتقارب المبادئ الأساسية - الملكية الخاصة، ودافع الربح، والنمو - لكن ذلك مع أشكال ومعايير وممارسات جديدة في كل عصر.⁽¹²⁸⁶⁾ هذا هو تحديدًا الدرس المستفاد من اكتشاف فورد، والمنطق وراء حلقات الإحياء المتعاقبة على مدى قرون عديدة. يقول بيكيتي: "لا يوجد شكل واحد للرأسمالية أو تنظيم الإنتاج. وسيظل هذا صحيحًا في المستقبل، أكثر من أي وقت مضى دون أي شك: لا تزال هناك أشكال جديدة للتنظيم

(1284) روجر ديليو غاريسون، "هايك وفريدمان"، في كتاب "إلجار كومبانيون تو هايكيان إيكونوميكس"، تحرير نورمان باري (نورثامبتون، ماساتشوستس: إدوارد إلغار، 2014).

(1285) فريدريش هايك، مقابلة أجراها روبرت بورك، 4 نوفمبر/ تشرين الثاني 1978، مركز أبحاث التاريخ الشفوي، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس.

(1286) زيفمونت باومان، الحدأة السائلة (كامبريدج، ماساتشوستس: بوليتي، 2000)؛ فرناند بروديل، هياكل الحياة اليومية (نيويورك: هاربر أندرو، 1981)، 1: 620.

والملكية تنتظر الابتكار".⁽¹²⁸⁷⁾ ويتناول الفيلسوف روبرتو أونغر من جامعة هارفارد هذه النقطة بالتفصيل، فيزعم أن أشكال السوق يمكن أن تتخذ أي عدد من الاتجاهات القانونية والمؤسسية المتميزة، "كل منها له عواقب دراماتيكية على كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية" و"أهمية هائلة لمستقبل البشرية".⁽¹²⁸⁸⁾

عندما أتحدث إلى أولادي أو جمهور من الشباب، أحاول لفت انتباههم إلى الطبيعة التاريخية المشروطة لذلك "الشيء الذي يسيطر علينا" من خلال لفت انتباههم إلى القيم والتوقعات العادية قبل أن تبدأ رأسمالية المراقبة حملتها في التخدير النفسي. أقول لهم: "ليس من المقبول أن تضطروا للاختباء في حياتكم الخاصة؛ هذا ليس طبيعياً. ليس من المقبول أن تقضوا أحاديثكم وقت الغداء في مقارنة البرامج التي ستموهكم وتحميكم من الغزو المستمر غير المرغوب فيه". إيقاف متابعة خمسة متبوعين. إيقاف متابعة لأربعة متبوعين. إيقاف متابعة لتسعة وخمسين متبوعاً، ملامح وجه مشوشة، أصوات مموهة.....

أقول لهم إن كلمة "بحث" تعني رحلة وجودية جريئة، لا مجرد لمسة إصبع على إجابات موجودة مسبقاً؛ وإن "الصديق" لغزٌ مجسّد لا يُصاغ إلا وجهًا لوجه وقلبًا لقلب؛ وإن "التعرّف" هو بريق العودة إلى الوطن الذي نشعر به في وجه حبيبنا، وليس "التعرّف على الوجه". وأخبرهم أن من غير المقبول أن تُستغل أفضل غرائزنا في التواصل والتعاطف والبحث عن المعرفة في صفقة جائزة تُبقي هذه القيم رهينة لمراقبة شاملة تخترق حياتنا الخاصة. فليس من المقبول أن تُفهرس كل حركة أو عاطفة أو قول أو رغبة وتُستغل، ثم تُستخدم سرّاً لتوجيهنا نحو المستقبل من أجل مصلحة آخرين. وأقول لهم: "هذه أمور جديدة كلياً، وغير مسبوقة. ولا ينبغي أن تعتبروها من المسلّمات لأنها غير مقبولة".

إذا أردنا للديمقراطية أن تزدهر في العقود القادمة، فمن واجبنا أن نعيد تفعيل

(1287) بيكيتي، رأس المال في القرن الحادي والعشرين، 614-615.

(1288) روبرتو أونغر، التجارة الحرة في تصوّر جديد: التقسيم العالمي للعمل ومنهج الاقتصاد (برينستون، نيوجيرسي: جامعة برينستون، 2007)، 8، 41 (الخط المائل يعود لي).

مشاعر الغضب والخسارة تجاه ما يُنتزع منا. ولا أقصد بذلك "معلوماتنا الشخصية" فحسب. ما هو على المحكّ هنا هو توقّع الإنسان أن يكون سيدًا على حياته الخاصة، ويعيش تجربته الخاصة. ما هو على المحكّ هنا تلك التجربة الداخلية التي نشكّل منها رغبة الإرادة، والفضاءات العامة التي نتصرّف بناءً عليها. ما هو على المحكّ هو المبدأ السائد للنظام الاجتماعي في حضارة المعلومات، وحقوقنا كأفراد ومجتمعات في الإجابة على أسئلة: من يعرف؟ من يقرّر؟ من يقرّر من يقرّر؟ يُعدُّ استيلاء رأسمالية المراقبة على الكثير من حقوقنا في هذه المجالات إساءةً فاضحةً للقدرات الرقمية، ووعدها الكبير السابق بتعميم المعرفة، وتلبية احتياجاتنا المحيطة لحياة فعّالة. فليكن هناك مستقبل رقمي، لكن ليكن مستقبلًا إنسانيًا أولًا.

أنا أرفض الحتمية، وآمل أن ترفضوها أنتم أيضًا نتيجةً لرحلتنا معًا. فنحن في بداية هذه القصة، لا في نهايتها. وإذا ناقشنا أقدم الأسئلة الآن، فلا يزال هناك وقتٌ لأخذ زمام المبادرة وإعادة توجيه العمل نحو مستقبلٍ إنسانيٍّ يُمكننا أن نعتبره وطنًا لنا. أعود مرة أخرى إلى توم باين، الذي دعا كل جيل إلى تأكيد إرادته عندما تقوم قوى غير شرعية باختطاف مستقبلنا ونجد أنفسنا مندفعين نحو مصير لم نختره: "لا تكون حقوق البشر في المجتمع قابلةً للتقسيم ولا للنقل ولا للإلغاء، لكنها قابلةٌ للتوريث فقط؛ وليس من حقّ أي جيل أن يعترض على هذا التوريث ويوقفه. وإذا كان الجيل الحالي، أو أي جيل آخر، مستعدًا لأن يكون عبدًا، فهذا لا يقلّل من حقّ الجيل التالي بأن يكون حرًا: لا يمكن للأخطاء أن يكون لها أصل قانوني". (1289)

إن مسؤولية تصحيح الخطأ، مهما كان نوعه، تتجدّد مع كل جيل. سنكون نحن، والجيل الذي سيأتي بعدنا، مدعاةً للشفقة إذا خسرنا مستقبلنا الإنساني لصالح شركات قوية ورأسمالية مارقة لا تلبّي احتياجاتنا ولا تخدم مصالحنا الحقيقية. والأسوأ من ذلك هو استسلامنا الصامت لرسالة الحتمية التي تُمثّلها اليد اليمنى للسلطة ذات القفزات المخملية. وتقول هانّا آرندت، في إشارة إلى عملها حول أصول الشمولية، إن "ردّ

الفعل البشري الطبيعي تجاه هذه الظروف هو الغضب والسخط، لأنها تتعارض مع كرامة الإنسان. إذا وصفتُ هذه الظروف دون أن أسمح لسخطي بالتدخل، فقد انتزعتُ هذه الظاهرة تحديدًا من سياقها في المجتمع البشري، وبالتالي سلبتها جزءًا من طبيعتها، وحرمتها من إحدى أهم صفاتها الجوهرية". (1290)

هذا هو الحال بالنسبة إلي، وربما بالنسبة إليك: إن الحقائق العارية المتعلقة برأسمالية المراقبة تثير سخطي بالضرورة لأنها تحطّ من الكرامة الإنسانية. وسيعتمد مستقبل هذا السرد على المواطنين الساخطين والصحفيين والعلماء الذين ينجذبون إلى هذا المشروع الحدودي؛ والمسؤولين المنتخبين الساخطين وصناع السياسات الذين يفهمون أن سلطتهم تنبع من القيم الأساسية للمجتمعات الديمقراطية؛ وخاصة الشباب الساخطين الذين يتصرّفون على علم بأن الفعالية من دون استقلالية ليست فعالة، وأن الامتثال الناجم عن الاعتماد ليس عقدًا اجتماعيًا، وأن الخلية التي لا مخرج لها لا يمكن أن تكون منزلًا أبدًا، وأن الخبرة من دون ملجأ ليست سوى ظل، وأن الحياة التي تتطلب الاختباء ليست حياة، وأن اللمس من دون شعور لا يكشف عن الحقيقة، وأن التحرر من عدم اليقين ليس حرية.

نعود هنا إلى جورج أورويل، لكن ربما ليس بالطريقة التي تتخيلونها. ففي مراجعة أورويل الساخطة عام 1946 لكتاب جيمس بيرنهام الأكثر مبيعًا بعنوان: "الثورة الإدارية" (The Managerial Revolution)، انتقد بيرنهام لمتسكه الجبان بالسلطة. كانت أطروحة كتاب بيرنهام الصادر عام 1940 تقول إن الرأسمالية والديمقراطية والاشتراكية لن تنجو من الحرب العالمية الثانية، بل سيحل محلها مجتمع مركزي جديد مُحطط على غرار الشمولية. وستُركز طبقة "إدارية" جديدة، مكوّنة من المدراء التنفيذيين والفنيين والبيروقراطيين والجنود، وستكون السلطات والامتيازات كلها بين أيديها: أرستقراطية من المواهب مبنية على مجتمع شبه عبودي. وأصرّ بيرنهام، على مدى الكتاب كله، على "حتمية" هذا المستقبل، وأشاد بالقدرات الإدارية الجلية

(1290) هانا أرنست، "رد" [على مراجعة إريك فوجيلين لكتاب أصول الشمولية]، مجلة مراجعة السياسة، 15 (1953): 79.

في القيادة السياسية الألمانية والروسية. ومع تأليفه في عام 1940، تنبأ بانتصار ألمانيا ونشوء مجتمع "محكوم" سيأتي بعد ذلك. ومع استمرار الحرب وتحقيق الجيش الأحمر انتصارات كبيرة، كتب بيرنهام سلسلة ملاحظات تكميلية لطبعات الكتاب اللاحقة، وأكد فيها بيقينٍ ماثل أن روسيا ستهيمن على العالم.

إن اشتمزاز أورويل واضح: "ستلاحظ أن بيرنهام يتنبأ عند كل منعطف باستمرار الشيء الذي يحدث. إن الميل إلى توقعات كهذه ليس مجرد عادة سيئة كالخطأ أو المبالغة التي يمكن تصحيحها بالتأمل. بل هو مرض نفسي خطير تكمن جذوره جزئياً في الجبن، وجزئياً في عبادة السلطة، وهو أمر لا يمكن فصله عن الجبن". فد كشفت تناقضات بيرنهام "المذهلة" عن افتتانه بالسلطة وفشله التام في إدراك المبدأ الإبداعي في التاريخ البشري. ويتابع أورويل: "كان يطيع الغريزة ذاتها في كل حالة: غريزة الانحناء أما منتصر اللحظة، وقبول التوجّه السائد باعتباره أمراً لا رجعة فيه". (1291)

سخر أورويل من بيرنهام لفشله الذريع في "الجهد الأخلاقي" الذي تجلّى في فقدانه التام لصوابه. وفي ظل هذه الظروف، "يمكن لأي شيء أن يصبح صواباً أو خطأ إذا شاءت الطبقة المهيمنة ذلك في ذلك الوقت". سمح فقدان بيرنهام لصوابه أن يعتبر "أن النازية أمر مثير للإعجاب، وشيء يمكنه بناء نظام اجتماعي قابل للتطبيق، ودائم". (1292)

يُعتبر جبنُ بيرنهام قصة تحذيرية. نعيش الآن في لحظة تبدو فيها رأسمالية المراقبة وسلطتها الآلية لا تُقهر. وتطالبنا شجاعة أورويل برفض التنازل عن المستقبل لسلطة غير شرعية. إنه يدعونا لكسر سحر الانغماس والعجز والاستسلام والخدر. ونحن نُلبّي نداءه عندما ننحني أمام الاحتكاك، رافضين التيارات السلسة للالتقاء القسري. وتضعنا شجاعة أورويل في مواجهة تيارات نزع الملكية المتواصلة التي تُهين كل تجربة

(1291) جورج أورويل، أمامك مباشرة 1945-1950: مجموعة مقالات ورسائل جورج أورويل، المجلد 4، تحرير سونيا أورويل وإيان أنجوس (نيويورك: هاركورت، بريس، وورلد، 1968)، ص 160-181 (الخط المائل يعود لي).

(1292) جورج أورويل، أمامك مباشرة.

إنسانية. الاحتكاك والشجاعة والثبات هي الموارد التي نحتاجها لبدء العمل المشترك المتمثل في التصريحات المركّبة التي تُطالب بالمستقبل الرقمي كمكان إنساني، وتُطالب بأن تعمل الرأسمالية الرقمية كقوة شاملة مُرتبطة بالناس الذين يجب أن تخدمهم، وتدافع عن تقسيم التعلّم في المجتمع كمصدر لتجديد ديمقراطي حقيقي.

تؤكد آرندت، مثل أورويل، على إمكانية بدايات جديدة لا تلتصق بخطوط السلطة الظاهرة. وتذكّرنا بأن كل بداية تُعتبر معجزة إذا ما نظرنا إليها من منظور الإطار الذي تُقاطعه. وتُجادل بأن القدرة على تحقيق معجزات كهذه هي عملية إنسانية تمامًا، لأنها مصدر كل حرية: "ما يبقى سلبًا عادةً في عصور التحجر والهلاك المُقدّر هو ملكة الحرية نفسها، تلك القدرة المطلقة على البدء، التي تُنعش وتُلهم جميع الأنشطة البشرية، وهي المصدر الخفي... للأشياء العظيمة والجميلة كلها".⁽¹²⁹³⁾

لقد نجحت عقود الظلم الاقتصادي وتركز الثروة الهائل، التي نسميها العصر الذهبي، في تعليم الناس الطريقة التي لا يريدون العيش فيها. مكّنتهم هذه المعرفة من إنهاء العصر الذهبي، مستخدمين أسلحة التشريعات التقدمية والصفقة الجديدة. وحتى الآن، عندما نتذكر "بارونات" أواخر القرن التاسع عشر، نطلق عليهم لقب "لصوص".

من المؤكد أن عصر رأسمالية المراقبة سيلاقي المصير نفسه، إذ يُعلّمنا كيف لا نريد أن نعيش. يُعلّمنا القيمة التي لا تُعوّض لأعظم إنجازاتنا الأخلاقية والسياسية، الذي يهدد بتدميرها. ويُذكّرنا بأن الثقة المشتركة هي الحماية الحقيقية الوحيدة من عدم اليقين. وهذا يُظهر أن السلطة التي لا تُروّض بالديمقراطية، لا تؤدي إلا إلى النفي واليأس. وتعود إلينا الآن دورة فريدمان من الرأي العام والقانون الدائم: علينا أن نستخدم معرفتنا، وأن نستعيد توازننا، وأن نحث الآخرين على فعل الشيء نفسه، وأن نؤسس لبداية جديدة. لقد كان ضحايا الرأسمالية الصناعية صامتين أثناء غزو الطبيعة. أما أولئك الذين يحاولون غزو الطبيعة البشرية فسيجدون ضحاياهم مفعمين

(1293) هانا آرندت، "ما هي الحرية؟" في بين الماضي والمستقبل: ثمانية تمارين في الفكر السياسي (نيويورك: بنغوين، 1993)، ص 169.

بالحيوية، ومستعدّين لتحديد الخطر وهزيمته. يهدف هذا الكتاب إلى المساهمة في هذا الجهد الجماعي.

ثمة أسباب كثيرة وراء سقوط جدار برلين، لكن الأهم من ذلك كله أن سكان برلين الشرقية قالوا: كفى!. نحن أيضًا نستطيع أن نكون مؤلّفي حقائق جديدة "عظيمة وجميلة" تُعيد للمستقبل الرقمي صفة المواطن للبشرية. ليكن إعلاننا هو "كفى!"

مكتبة

t.me/soramnqraa

شكر وتقدير

لم يعد الشخصان اللذان ساهما أكثر من غيرهما في هذا العمل في البداية يقفان بجانبني، لأغمرهما بالامتنان في النهاية. عندما أحرقت ضربة البرق منزلنا عام 2009، اختفت آلاف الكتب مع كل أثر لمسيرتي الأكاديمية، وعملي الجديد قيد الإنجاز، في غضون ساعات قليلة. ظننت أنني لن أكتب مرة أخرى، لكن زوجي الرائع والحبيب، جيم ماكسمين، أصر على أن الزمن سيجلب لي ولادة جديدة. وقد فعل. كان جيم على مدى أكثر من ثلاثين عامًا، أول وآخر وأهم قارئ ومُحاور لي. لقد استوعب بصبر المسودات الأولى لهذه الفصول، بينما كنا نتجادل بحماس في طريقنا عبر الأفكار الجديدة. لا يزال من غير المعقول بالنسبة إلي ألا أتمكن من مشاركته ثمار هذا العمل الطويل. لقد عززني حب جيم الكبير وحماسة اللامحدود على الطريق الطويل، في العمل والحياة. وستبقى روحه حية من خلال هذه الصفحات بطرق لا تُحصى.

كان فرانك شيرماخر، المفكر العام الألماني الشجاع، وناشر صحيفة فرانكفورتر ألجماينه تسايتونغ، مصدر دعم وإلهام استثنائي لي عندما بدأتُ بتجميع نظرياتي حول رأسمالية المراقبة والسلطة الآلية. لقد حثني على الكتابة في مجلة (FAZ) بينما كنت أواصل عملي الطويل، مُصرًا على نشر مقالات كنتُ سأحتفظ بها، لأشهر أو سنوات أخرى عديدة. لقد تعلمتُ الكثير من مناقشاتنا التي لا تنتهي، وبفضل فرانك أصبح عملي حول "الآخر الكبير" ورأسمالية المراقبة أطرًا عامة مفيدة قبل وقت طويل من الانتهاء من هذا الكتاب. على الرغم من أنه تركنا قبل أربع سنوات، ما زلتُ أستخدم هاتفني لأشاركه فكرة جديدة. فرانك! كما أنني ممتنة لزملائي الحاليين والسابقين في المجلة، وخاصة إيدو رينتس وجوردان ميخياس اللذين ساعداني في إخراج مقالتي هناك إلى النور.

أتوجّه بأعمق الامتنان لمحترفي التكنولوجيا وعلوم البيانات الذين تبرعوا بسخاء بوقتهم ومعرفتهم وتأملاتهم على مدار عدة سنوات من المقابلات، بينما كنت أجمع فهمي لرأسالية المراقبة وآلياتها وضرورتها. وكنت أودّ أن أشكر بكل سرور كل واحد من هؤلاء المعلمين الموهوبين الرائعين بالاسم، لولا وعودي بالسرية وعدم الكشف عن هويتهم. كما أدين بالشكر للعائلات التي قابلتها في المملكة المتحدة وإسبانيا خلال أسوأ سنوات الركود الكبير. لقد علموني الكثير عن "المواجهة"، وكيف أصبح الطريق ممهداً لازدهار رأسالية المراقبة. شكر خاص لعائلة "مونتييس"، المذكورة في الفصل الثاني، و"ديفيد"، المحامي المذكور في قصة "بوكيمون غو"، للسماح لي بشرح قصصهم، على الرغم من تغيير أسمائهم وتفاصيلهم لحماية سرية هويتهم.

قدّم العديد من الزملاء مساهماتٍ قيّمة لهذا العمل، حيث جسّد كلّ منهم الإثارة الكبيرَ للعلماء الحقيقيين عندما نجتمع لخدمة الأفكار. لن أنسى هذه الهدايا أبداً. كان مارك روتنبرغ، المدافع عن الخصوصية، زميلاً استثنائياً قرأ وعلّق على العديد من المسودات وساعدني على صقل فهمي للمواضيع الرئيسية المتعلقة بقانون الخصوصية. قرأ كريس جاي هوفناغل، الباحث القانوني في بيركلي، نسخةً كاملةً من المخطوطة بكلّ لطف في مرحلة حاسمة. وساهمت تعليقاته السخية مساهمةً مهمةً في هذا العمل. قرأ فرانك باسكوالي، الخبيرُ المثقف، أجزاءً من المخطوطة في مرحلة مبكرة، مقدّماً نصائحَ حكيمةً ورؤىً ثاقبةً وحاسماً. وقدّم ديفيد ليدسكي مواهبه التحريرية الهائلة إلى مسودةٍ سابقةٍ من المخطوطة. ساعدتني روحه الجماعية، وفهمه المفاهيمي، وإتقانه الذي لا مثيل له للحرفية في اكتشاف الهيكل النهائي لهذا العمل. أقدم بخالص الشكر أيضاً للعديد من الزملاء الآخرين الذين قرؤوا مسودات فصول الكتاب في مراحل مختلفة خلال السنوات الخمس الماضية، وشاركوا بتعليقاتهم الثاقبة: بول شوارتز، أرتيمي رالو، ميكيل فلايربوم، ديفيد ليون، مارثا بون، ماتياس دوبفنز، كارين ألين، وبيتر فان دن هوفيل. وقد تقبّل كلّ من كريس سوجيان وبروس شناير أسئلتي حول التشفير ومعالجة البيانات، بينما كنتُ أتعلم في فهم الآليات الأساسية لرأسالية المراقبة.

التفكير والكتابة مشروعان فرديان، وأنا ممتنٌ لزملائي الذين أتاحوا لي فرصًا لمشاركة الأفكار مع الباحثين والطلاب. دعاني جوناثان زيتراين للمشاركة بصفتي عضو هيئة تدريس مشارك في مركز بيركمان كلاين للإنترنت والمجتمع بكلية الحقوق بجامعة هارفارد في مرحلة مهمة من تطوّر تفكيري. واستضافني ديفيد ليون وديفيد موراكامي وود في جامعة كوينز قرب نهاية هذا المشروع، حيث أشعلت المناقشات مع أعضاء هيئة التدريس وطلاب الدراسات العليا والطلاب الجامعيين المراحل النهائية من الكتابة. وأتوجّه بشكر خاص لطالبي جامعة كوينز الجامعيين هيلين كوسك وكيانلي تشين على تعليقاتهما الثاقبة. كانت هناك العديد من الدعوات الرائعة الأخرى التي تنازلت عنها لالتزامي تجاه هذه الصفحات، وما زلت ممتّة للغاية لزملائي حول العالم الذين أعربوا عن اهتمامهم بهذا العمل. ومع أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، إلا أن حماسهم دفعني إلى الاستمرار.

أوجّه شكري لليزلي ويلكوكس من كلية لندن للاقتصاد وكريس ساور من جامعة أكسفورد على دعمهما الفكري المبكر. بصفتها محرّرين مشاركين لعدد خاص من مجلة تكنولوجيا المعلومات مُخصّص لموضوع "البيانات الضخمة"، فقد تبنّيا بحماس بحثي الأكاديمي الأول حول رأسمالية المراقبة، بعنوان "الآخر الكبير: رأسمالية المراقبة وآفاق حضارة المعلومات"، وساهما في نشرها بسرعة. وشكر خاص لكبار الباحثين في المؤتمر الدولي لنظم المعلومات على تقديرهم لـ "الآخر الكبير" من خلال جائزة ICIS لأفضل بحث لعام 2016، مما عزز التزامي بهذا العمل الأوسع.

تفاعل وكيل أعمالي الأدبي واين كباك مع هذا المشروع منذ البداية، ولم يكلّ في تشجيعه ودعمه. أقدّر صداقته ونصائحه الحكيمة. وكان محرري جون ماهاني من أشدّ المناصرين لهذا المشروع، مُضيفًا سنوات خبرته التحريرية إلى كل مسودة، وساعدني على المضي قدمًا. شكرًا لكريستينا فازالارو، وخايمي ليفر، وكولين تريسي، وستيفاني سمرهيز، وفريق "بابليك أفير" بأكمله على التزامهم ودعمهم الدائمين.

لم يكن بالإمكان تحقيق طموحاتي لهذا الكتاب لولا فريقَي العزيز. انضم إليّ مدير

الاستشهادات الخاص بي، ويليام ديكي، في عام 2014، عندما لم يكن لديه أية فكرة عما كان مقبلاً عليه. وبدلاً من الهروب مع تطوّر المشروع، شمرّ عن ساعديه وتعلّم إتقان عملية الاستشهادات بتصميم تطوّر إلى إتقان. أنا ممتنة جداً لروحه الصبورة وقلبه الطيب ومساهماته المدروسة وصداقته وهو يواصل مسؤولياته بهدوء واجتهاد. انضم مساعدتي الباحث جوردان كينان إلى هذا المشروع في أوائل عام 2015 وبدأ العمل بقوة بمساهمات بارزة حيث أتقن الفن المهني للغوص العميق في البحث. لقد اعتمدت عليه خلال منعطفات هذه الرحلة الفكرية، وشاهدته يرتقي إلى كل تحد جديد برشاقة وحماس بينما كان يدرّب ذكاءه الحيوي على مجالات بحثية جديدة. وكأن ذلك لم يكن كافياً، فإن ابتسامته الهادئة، وروح الدعابة الهادئة، وحساسيته الهادئة جعلت منه رفيقاً لا يقدر بثمن في هذه المغامرة.

دعم أبنائي عملي على هذا الكتاب بكل إخلاص لسنوات طويلة. استمعوا لأفكاري، وساندوني في محنتي، واحتفلوا بنجاحاتي بكل حبّ وصبر وتفانٍ. وعندما تطلّبت مفترقات الطريق قرارات عاجلة، اجتمعوا حولي للمساعدة. كانت ابنتي كلوي ماكسمين مستشارةً حكيمةً وثابتةً، تقرأ كل مسودة من كل فصل، وتقدم لي ذلك النوع من التعليقات الثاقبة الصريحة التي يحتاجها كل كاتب، لكن قلةً منهم يتلقونها. تعلمتُ أن الفصول لا تكتمل إلا بتوقيع كلوي عليها. تحمّل ابني، جاك ماكسمين، مشروع الكتاب هذا طوال مسيرته الجامعية، والآن في الدراسات العليا. كان داعماً شرساً، يُمطرني برسائل نصيّة ومكالمات هاتفية، يقول فيها كلما واجهتُ فترةً صعبةً أو موعداً نهائياً: "أنتِ قادرة على ذلك يا أمي. ويتدخل لتقديم مساعدةٍ أساسية في التحرير النهائي. لم تفشل نصائح كلوي وجاك الثاقبة وإلهامهما في مساعدتي على تجاوز هذه المحنة. شكراً لكما يا روحي، يا قلبي. ما كنتُ لأكون هنا لولاكما.

أتقدم بالشكر الجزيل لأصدقائي الذين شاركوني الأعياد والاحتفالات عندما كنت غارقة في الكتابة وكانت كل منضدة وكرسي وأرضية مغطاة بمواد البحث: ميندا جولد، جاك فيسيري، إسحاق فيسيري، جونا فيسيري، ليزا كاتز، إد، ثيو، وتوبي سيدل، ماري دي تشوات جرانت، غاريت جرانت، كاثي ليمان، كيري ألتيرو. قرأت

كاثي ليمان الكتاب بالكامل قبل أن أبدأ المراجعات النهائية. كان إدراكها وحاسها مفيدًا للغاية خلال العام الأخير من الكتابة. شجعتني فيرجينيا أليسيا هاسنبالغ كورابيانو من باريس ("من فضلك أنه هذا الكتاب بالفعل!"), واستضافت أطفالها، وترجمت إحدى محاضراتي المنشورة عن رأسمالية المراقبة إلى الفرنسية ببطولة. كانت سوزان تروس مصدرًا غير مشروط للحب والدعم. وكان صديقي و"ابني بالتبني" كانيون وودوارد مشجعًا مخلصًا، دائمًا ما يحفز روحي وقصصي. أخيرًا، لا تكتمل هذه الكلمات دون ذكر باتشي ماكسمين، رفيقي المحب والوفي.

يُقرّ كل كاتب بما سأكتبه، لأنه حقيقة: وفي النهاية، يواجه المرء الصفحة وحيدًا. فأني شيء في هذا الكتاب لا يرقى إلى مستوى الثقة الممنوحة لي هو مسؤوليتي وحدي.

إشادات بكتاب «عصر رأسمالية المراقبة»

إن التحدي الحاسم لمستقبل اقتصاد السوق هو تركيز البيانات والمعرفة وسلطة المراقبة. ليس خصوصيتنا فقط على المحك، بل هويتنا أيضًا، يشدّ انتباهنا هذا الكتاب السهل القراءة، والمثير للتفكير، إلى هذه المخاطر الوجودية. أنصح به بشدة.

—دارون أسيموغلو، المؤلف المشارك لكتاب "لماذا تفشل الأمم"

يسلّط استكشاف زوبوف الشامل، والمُعمّق للمستقبل الرقمي، الضوء على المعايير والأهداف النهائية الخفية للصناعات كثيفة المعلومات. ويعدّ هذا الكتاب بمثابة الربيع الصامت لصناعة المعلومات.

—كريس هوفناغل، جامعة كاليفورنيا، بيركلي

استكشاف شامل لإحدى أكثر قضايا عصرنا إلحاحًا، تُعيد زوبوف تفسير الرأسمالية المعاصرة من منظور الثورة الرقمية، مُنتجةً كتابًا طموحًا وواسع الاطلاع. تُعدّ زوبوف من أعمق مفكرينا بصيرة في مجال صعود العالم الرقمي. في عصرٍ تسود فيه مقاطع تويتر المبتذلة ومنشورات فيسبوك الترجسية، تُعدّ أبحاث زوبوف الجادة سببًا رائعًا للاحتفال.

—أندرو كين، مؤلف كتاب "كيفية إصلاح المستقبل"

غمرتني رغبة عارمة في قراءة هذا الكتاب، منذ الصفحة الأولى، كنوع من الدفاع

الرقمي عن النفس. حيث تبين زوبوف، بصراحة وشجاعة أخلاقية هائلتين، كيف تُستغلّ البيانات في عقولنا، وكيف تتغير بسرعة وجذرية في هذه العملية. لقد فات الأوان، وفُقد الكثير بالفعل، ولكن كما نتعلم في هذه الصفحات المهمة، لا يزال هناك أمل في التحرر.

—نعومي كلاين، مؤلفة كتاب "هذا يغير كل شيء" و"لا شعار"، ورئيسة قسم الإعلام والثقافة والدراسات النسوية بجامعة روتجرز.

زوبوف صوتٌ أصيلٌ لافتٌ للنظر، يجمع بين الجرأة والحكمة، والفصاحة والشغف، والعلم والمعرفة. اقرأ هذا الكتاب لفهم آليات الرأسمالية الرقمية اليوم، وتهديداتها لمجتمع القرن الحادي والعشرين، والإصلاحات التي يجب أن نجريها من أجل غدٍ أفضل.

—فرانك باسكوالي، كلية الحقوق بجامعة ماريلاند كاري

سأقدم ضمناً: بافتراض أننا سننجو لنروي القصة، فإن كتاب "عصر رأسمالية المراقبة" لديه احتمال كبير للانضمام إلى أمثال "ثروة الأمم" لأدم سميث و"الاقتصاد والمجتمع" لماكس فيبر كنصوص تُحدد معالم العلوم الاجتماعية والاقتصادية في العصر الحديث. إنه ليس كتاباً سريع القراءة؛ بل هو كتابٌ جديرٌ بالقراءة والتأمل والمناقشة مع الزملاء والأصدقاء. لا أستخدم أي جملٍ قصيرةٍ سريعةٍ من جانبي، باستثناء أنني أتوسل إليكم حرفياً تقريباً لقراءة هذا الكتاب أو ابتلاعه.

—توم بيترز، المؤلف المشارك لكتاب "البحث عن التميز"

كتاب "عصر رأسمالية المراقبة" رائع وأساسي. تكشف شوشانا زوبوف بوضوح مذهلٍ عن أخطر حدود الرأسمالية: النظام الاقتصادي الجديد لرأسمالية المراقبة، القائم

على تفاوتٍ متطرّف في المعرفة والسلطة. يُظهر تحليلها الشامل التحديات غير المسبوقة التي تُشكلها هذه الرأسمالية المارقة على استقلالية الإنسان والتضامن الاجتماعي والديمقراطية. وهو يمكّننا أخيرًا من فهم هذه التهديدات ومواجهتها بفعالية - إنه تحفّة فنيّة تتميز بجرأة مفاهيمية نادرة، وكتابة رائعة، وإلحاح بالغ.

—روبرت ب. رايش، مؤلف كتابي "الصالح العام" و"الرأسمالية المُنفذة: للكثرة، لا للقلة".

"شعرت بالذهول مع كل صفحة من الكتاب بسبب عمق أبحاث شوشانا، وسعة معرفتها ودقّة أفكارها، وأخيرًا قوة حججها. لست متأكدًا من قدرتنا على إنهاء عصر رأسمالية المراقبة دون مساعدتها، لذلك أعتقد أن هذا الكتاب هو الأهم في عصرنا".

—دكتور سيرلز، مؤلف كتاب "اقتصاد النية"، ورئيس تحرير مجلة لينكس

لقد وضعت شوشانا زوبوف الإطار الأخلاقي الأكثر استفزازًا وإقناعًا حتى الآن لفهم الحقائق الجديدة لبيئتنا الرقمية، وتهديداتها المناهضة للديمقراطية. ويتعيّن على جميع الكتابات الجادة على الإنترنت والمجتمع أن تأخذ بعين الاعتبار، من الآن فصاعدًا، عصر رأسمالية المراقبة.

—جوزيف تورو، أستاذ روبرت لويس شايون للاتصالات، كلية أنبرغ، جامعة بنسلفانيا

إذا استمرّ الناس في قراءة الكتب في المستقبل، فسيعتبرون هذا الكتاب دراسةً كلاسيكيةً لكيفية تغيير كل شيء. يُعد كتاب "عصر رأسمالية المراقبة" تحفّة فنيّة تكشف بشكل مذهل جوهر مجتمع القرن الحادي والعشرين، ويُقدم تحذيرًا خطيرًا بشأن التكنولوجيا التي انحرفت عن مسارها الصحيح، والتي نتجاهلها على مسؤوليتنا. لقد

نجحت شوشانا زوبوف بطريقة ما في الهروب من المأزق الذي نعيش فيه جميعًا الآن، وعرّفتنا على مفهوم الماء. إنه عملٌ فكريٌّ ثاقب، وهو أيضًا كتابٌ إنسانيٌّ عميقٌ حول ما أصبح، كما يظهر بلا هوادة، عصرًا لا إنسانيًا خطيرًا.

—كيفن ويرباخ، كلية وارتون، جامعة بنسلفانيا، ومؤلف كتاب "البلوك تشين والبنية الجديدة للثقة".

مكتبة

t.me/soramnqraa

تتعارض رأسمالية المراقبة مع الحلم الرقمي المبكر، وتُحيل فكرة المنزل الذكي إلى إرث عتيق. وتلجأ بدلاً من ذلك إلى تبديد الوهم بأن الشكل الشبكي يتضمن محتوى أخلاقياً بدائياً، وتؤكد أن كونك «متصلاً» بالشبكة هو بطريقة أو بأخرى تأييد للمجتمع، أو ميل طبيعي نحو ديمقراطية معرفية. أصبح الاتصال الرقمي الآن وسيلة لتحقيق غايات تجارية للآخرين. إن رأسمالية المراقبة طفيلية في جوهرها، وذاتية المرجعية. فهي تُحيي صورة كارل ماركس القديمة عن الرأسمالية باعتبارها مصاص دماء يتغذى على العمل، لكن مع تحوّل غير متوقّع. لا تتغذى رأسمالية المراقبة على العمل فقط بل على كل جانب من جوانب تجربة الإنسان.

لقد ابتكرت شركة غوغل رأسمالية المراقبة وأتقنتها مثلما ابتكرت شركة جنرال موتورز رأسمالية الإدارة وأتقنتها قبل قرن من الزمان. كانت غوغل رائدة رأسمالية المراقبة في الفكر والممارسة، والمورد المالي العميق للبحث والتطوير، والرائدة في التجريب والتنفيذ، لكنها لم تعد الفاعل الوحيد على هذا المسار. فسرعان ما انتشرت رأسمالية المراقبة إلى موقع فيسبوك، ولاحقاً إلى ميكروسوفت. وتشير الأدلة إلى انحراف شركة أمازون في هذا الاتجاه أيضاً، وهذا يشكل تحدياً مستمراً لشركة آبل، سواء كتهديد خارجي، أو كمصدر للنقاش والصراع الداخلي.

ISBN: 8-39-6470-603-978



9 786038 470398 >

Designed by Tawfiq Omrane

